

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

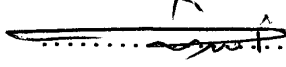
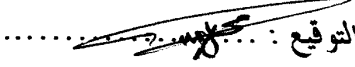
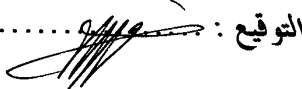
الاسم (رباعي): الأمين الصادق الأمين محمد كلية : الدعوة وأصول الدين ... قسم : الكتاب والسنة .
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه ... في تخصص : الكتاب والسنة
عنوان الأطروحة : ((الثبات على دين الله وأثره في حياة المسلم في ضوء الكتاب والسنة))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

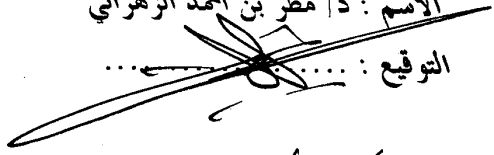
فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ : ٣ / ٣ / ١٤٢٣ هـ -
بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة
لدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشارف :	الناقش الداخلي :	الناقش الخارجي :
الاسم : د/ أمين محمد عطية باشا .	الاسم : د/ محمد عبد المولى جمعة	الاسم : د/ فهد عبد الرحمن الرومي
التوقيع : 	التوقيع : 	التوقيع : 

يعتمد

رئيس قسم : الكتاب والسنة
الاسم : د/ مطر بن أحمد الزهراني
التوقيع : 

١٤٢٣ / ٣ / ١٤ هـ

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم الكتاب والسنة



الثبات على دين الله وأثره في حياة المسلم في ضوء الكتاب والسنة

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الكتاب والسنة

تأليف الطالب

الأمين الصادق الأمين

إشراف الأستاذ الدكتور

محمد رياض بن سيد أحمد قناوي

المجلد الأول

١٤٢٢هـ - ١٤٢٣هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ

إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

{آل عمر (٥: ١٠٢)}

عَنْ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : " مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَرَاغَهُ " . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :
اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ .

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين .

هذا بحث يتعلّق بالتفسير الموضوعي . وهو يتحدث عن الثبات على دين الله الذي يحتاج له كلّ مسلم في كلّ حين ووقت ، ولكن يزداد احتياجه إليه في سبعة مواطن . ضمّت سبعة أبواب ، وتخصّت في الآتي :

الفتن منزلة عظيم ، لا ينجو منها إلّا من ثبت . إلّا أنّ الالتجاء إلى الله ، والاستعانة به في دفع شرّها ، وقوّة الإيمان ، وسلامة القلب ، والصبر ، ومبادرة الطاعات ، والهرب والتحرّز منها ، واجتنابها ، وعدم التعلّق بشيء منها ، واعتزال أهلها من أعظم عوامل الثبات عند حلولها .

الابتلاء يختصّ قلوب المؤمنين فيثبت عنده الصادق ويسقط الكاذب . ويكون ثبات المؤمن عند الابتلاء بالتكليف بامتثال أمر الله ورسوله ﷺ . وعند التعمّ بشكرها ، وإدامة تذكّرها ، والصبر على أداء حقّ الله فيها ، وعدم الركون إليها والاعتراض بها والوصول إليها بالسبل الخرمة . وعند المصائب بملاحظة حسن جزائها في الآخرة وما تكفّره من خطايا ، والإيمان بقدر الله السابق ، وملاحظة العواقب الحمودة ، ومجانبة العوارض القادحة .

الدعوة إلى الله وظيفة شاقّة ، ومسلك وعمر لا يقوى على السير فيه إلّا من وفق للثبات . ولا يثبت من الدعاة إلّا من أخذ بحظّ من العلم الشرعي ، والتزم بما يأمر به ، وأخلص ، واستشعر الثواب المترتب على قيامه بالدعوة ، والعقاب الحاصل من التفريط فيها ، وراعى المصالح والمفاسد ، وتحلّى بمكارم الأخلاق ، وتأنّى ولم يتعجل ، وبدأ بتصحيح المعتقد .

الجهاد فريضة شاقّة . شرعت لتحقيق غايات عظمى . لا يقوم بها إلّا من ثبت وصبر . إلّا أنّ استجابة الجهاد لأمر الشارع بالجهاد ، وتوكّله على الله والتجاء إليه ، وإكثاره من ذكره ، وطمأنينته بنصره ، واستشعاره بما ورد في الجهاد من فضل ، وحذره مما يترتب على تركه من وزر ، وإعداده للقوّة ، وتيقّنه بأنّ الجهاد لا يدي من الأجل ، وتركه لا يزيد في العمر يعينه كلّ ذلك على الثبات في الجهاد .

المنهج الحقّ هو الذي سار عليه رسول الله ﷺ وصحابته من بعده ، والتابعون لهم بإحسان ومن تبعهم ، وهو منهج أهل السنة والجماعة الذي يجب على المسلم أن يثبت عليه . وعوامل الثبات عليه : العلم الشرعي ، والالتزام بنصوص الوحي ، وعدم التفريق بين متواترها وآحادها قبولاً وردّاً ، في عقيدة أو غيرها ، وتجنّب ما يعارضها من اتباع الهوى ، وتحكيم العقل والرأي ، ومقارفة البدع ، والتقليد بغير دليل ، والتأويل بغير حجة ، واتباع المشابه ، والجدال المذموم ، والتحرّز المنحرف ، والتعصّب المقرض ، وعدم الأخذ بالوسطية والاعتدال ، وعدم الوحشة بقلة السالكين .

الموت موطن عظيم شاقّ على النفوس . يعين المؤمن على الثبات عليه : توحيد الله تعالى ، وحبّ لقائه ، وغلبة الرجاء وحسن الظنّ به ، ودعاؤه ، وملازمة الطاعات ، ومجانبة المعاصي ، والمبادرة بالتوبة ، وعدم الاعتراض بالدنيا وطول الأمل ، وزيلولة القبور وتذكّر حال أهلها ، والإكثار من ذكر الموت ، واليقين بأنّ الأجل محدودة ، والأعمار معدودة .

القبر شاقّ بالغ الشناعة ، يسأل فيه الإنسان عن ربّه ونبيّه ودينه ، وهي فتنة القبر التي تحتاج من العبد إلى ثبات . ويعينه على ذلك توحيد الله تعالى ، والصلاة والصيام والزكاة وفعل الخيرات ، والرباط والشهادة في سبيل الله ، والتعوّد من فتنة القبر ، والموت يوم الجمعة أو ليلتها ، ودعاء المؤمنين للميت بالثبات .

أعظم نماذج للثبات رسل الله وأنبياءه عليهم السلام ، ثم أصحاب رسول الله ﷺ . وفي هذه الأمة والأمم السابقة نماذج مضيئة ، وأمثلة رائعة وفقوا للثبات على الحقّ والبقاء على الدين ، يؤخذ من ثباتهم التأسّي والعبر .

عميد كلية الدعوة وأصول الدين

المشرف

الباحث

الاسم : الأمين الصادق الأمين محمد . الاسم : د/ أمين محمد عطية باشا . الاسم : د/ عبد الله عمر الدميحي

التوقيع :

التوقيع :

التوقيع :

كلمة شكر وتقدير

اعترافاً مني بالفضل لأهله ، وإسداء الجميل لأصحابه أتقدم بوافر الشكر إلى حكومة المملكة العربية السعودية على إتاحتها لي ولإخواني الوافدين تلقي العلم النافع من معين جامعاتها الثرى ، ونميرها الصافي الذي لا ينضب . ثم أعرج بشكري على جامعة أم القرى ، وأخص بالشكر والثناء كلية الدعوة وأصول الدين على ما تقدمه من خدمة جليلة ، وعلم نافع ، وتوجيه رشيد ، ورعاية كريمة لطلبة العلم . فجزى الله القائمين عليها خير الجزاء .

كما أتقدم بجزيل الشكر لرابطة العالم الإسلامي والقائمين عليها ، وأخص إدارة التعليم لما لها من جهد عظيم ، وعناية فائقة في تيسير السبل لتعليم أبناء المسلمين والاهتمام بهم .

ثم أشكر الأخوة في جمعية إحياء التراث الإسلامي بدولة الكويت لما لمسناه منهم من عناية خاصة ، وتشجيع صادق كان له الأثر البالغ في إتمام هذه الرسالة . فجزاهم الله خيراً ، ونفع بهم وبجهودهم الإسلام والمسلمين .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أرفع أكف الضراعة إلى المولى سبحانه داعياً إياه أن يرحم شيخنا الجليل ، والمربي القدير الشيخ سيد سابق التهامي الذي وضع معي اللبنة الأولى لهذه الرسالة ، وإن كان إشرافه لم يتعد الباب الأول منها إلا أنني استفدت من توجيهاته الحكيمة ، ونصائحه القيمة ، وآرائه السديدة الشيء الكثير ، فأسأله سبحانه أن يعظم له المثوبة ، ويجزل له المغفرة .

ثم أتوجه بالشكر الوافر ، والثناء العاطر إلى شيخي الجليل ، وأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد رياض بن سيد أحمد قناوي على ما أولاني من رعاية تامة ، وعناية بالغة ، وتوجيه كريم ، ونصح نافع ، وإرشاد سليم ، واستدراك مفيد كان له أبلغ الأثر في تقويم هذا البحث ، وتوجيهه . فجزاه الله خيراً ، ونفع الله به وبعلمه ، وألبسه لباس التقوى ، ورزقه دوام الصحة والعافية في الدنيا والآخرة .

وأخص بالشكر والتناء أستاذنا الفاضل ، وشيخنا الكريم الأستاذ الدكتور أمين ابن محمد باشا الذي وافق على أن يكون مقرراً للجنة المناقشة ، وكان له كبير الأثر ، وعظيم الجهد في متابعة هذه الرسالة عبر مجالس الكلية والإعداد لمناقشتها ، فأسأل الله له تمام العافية ، وحسن الخاتمة .

ثم أتوجه بالشكر لصاحبي الفضيلة الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرّومي ، والأستاذ الدكتور محمد عبد المولى محمد جمعة على ما بذلاه من جهد عظيم ، واقتطعاه من وقت نفيس في قراءة هذه الرسالة ، وتقويم ما فيها من عوج ، وإصلاح ما فيها من خلل كي يستقيم عوجها ، ويزول خللها ، فجزاهما الله عني خير الجزاء ، وأحسن إليهما ، ووفقهما إلى خيري الدنيا والآخرة . كما أشكر الإخوة الذين ساعدوني في هذا العمل بتوجيه ، أو إرشاد ، أو نصيحة ، أو غير ذلك . فجزاهم الله عني خيراً .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت في هذا الموضوع ، ووفيته حقه كاملاً ، وأن يجزييني به الجزاء الأوفر ، ويجعله عملاً صالحاً متقبلاً ، وينفع به ، إنه ولي ذلك وهو على كل شيء قدير .

المقدمة

الحمد لله الذي ثبتّ رسوله على الحقّ فلم يركن إلى الباطل شيئاً قليلاً .
والحمد لله الذي أنزل عليه الكتاب ليثبتّ به فؤاده ورتّله ترتيلاً .
والحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونسأله الثّبات على الهدى فلا نزيغ عنه قطميراً .

وأصلّي وأسلم على من ثبت على الصّراط فلم يفارقه فتياً ، وعلى صحبه الكرام الذين ظلّوا على الطّريق فلم يبدّلوا تبديلاً ، ولم يغيّروا تغييراً ، وعلى التّابعين لهم بإحسان ومن تبعهم فتمسّك بالحقّ فلم يتركه نقيراً . وبعد :

فإنّ الثّبات على دين الله ، والاستقامة على شرعه ، والصّبر على طاعته ، والالتزام بأمره ، والتمسّك بهديه ، والملازمة لتقواه ، والاعتصام بصراطه ، والسّير على نهجه مطلب أكيد ، ورغبة ملحّة ، وهدف سام ، وغاية حميدة ، ومقصد نبيل لكلّ مسلم يريد إرضاء الله ، ونيل جنّته ، والفوز برحمته .

كما أنّ الزّيغ عن دين الله ، والانصراف عن شرعه ، والانحراف عن صراطه ، وتكبّ طريقه ، والميل إلى مايقلب سخطه ، والسّقوط في ما يؤدّي إلى غضبه أمور مهلكة ، ومسالك موحشة ، ومفاوز مقفرة ، وسبل وعرة ، تجلب أليم عذابه سبحانه ، وعظيم عقابه عزّ وجلّ .

ولمّا كان الحديث عن الثّبات على دين الله يبلغ أهميّة قصوى ، ويتبوأ منزلة عظيمة ، ويهدف إلى غاية كبرى وقع اختياري عليه ليكون الأطروحة التي أقدمها لنيل شهادة الدكتوراه .

ولقد طالعت العديد من الكتب قبل البدء فيه ، ممّا استنفدت معه جهداً وفيراً ، واستنزفت فيه وقتاً طويلاً ، ظهر لي من خلال ذلك سعة الموضوع ، وترامي أطرافه ، وتعدّد مداخله ، وتكاثر مخارجه ، وتنوّع جوانبه حتّى كدت أن أحجم

عنه ، وأدع الكتابة فيه .

ثم عزمت مستعيناً بالله على خوض غماره ، وسلوك مفاوزه ، واقتحام
لججه لما انجلت لي أهميته ، وعظيم فائدته ، وجليل قدره ، وكبير نفعه .

وقد تمثل ذلك في أمور أحببت أن أسجلها لتكون شافعة لي في تناول هذا

الموضوع المهم :

أولاً : إنه موضوع بكر ، لم أر يراعاً خط فيه ، ولا صفحات سودت
عنه . وما وجد نزر يسير ، وجهد قليل ، مبعثر بين طيات الكتب والرسائل ، يحتاج
إلى من يلم شعثه ، ويجمع أطرافه ، ويبرز جوانبه ، ويوضح أهدافه .

ثانياً : ضعف الإيمان ، وقلة الالتزام ، وكثرة العصيان بين أبناء الإسلام
يدفع للحديث عن الثبات ليقوى الإيمان ، ويزداد الالتزام ، ويتلاشى العصيان .

ثالثاً : إن الثبات يربي النفوس ويزكيها ، ويطهر القلوب وينقيها ، ويدفع إلى
التزام الطاعات ، ويدعو إلى مجافات المعاصي والمنكرات . وذلك أعظم دافع ،
وأغلى مطلب .

رابعاً : كثرة الفتن وتعاضمها ، وتنوع الشبه وتفاقمها ، وتعدد المغريات ،
وتزايد الشهوات التي تعصف بالمسلم فتلقي به في الدركات ، وتدفعه إلى السقطات
والزلات ، يدفع كل ذلك للحديث عن الثبات ، إذ فيه تكمن النجاة ، والسلامة من
الآفات .

خامساً : غربة الدين ، وقلة الناصر والمعين ، وندرة الرفيق ، ومشقة السير ،
ووحشة الطريق دوافع حادثة للكلام عن الثبات .

سادساً : تقلب القلوب ، وتغير الأحوال ، وحدث الارتياب ، والنكوص على
الأعقاب ، دواع ملحة للحديث عن الثبات لأنها من أعظم الأسباب .

سابعاً : كثرة الشبه والشكوك التي يبعثها أعداء الله ، وبثهم مايكدر ، وإحداثهم
ما يشوش ، ونشرهم ما يبلبل . خاصة في هذا العصر الذي صار العالم فيه كقرية

واحدة ، تربط بينه وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة التي استخدم جلّها أعداء الله لتنفير المسلمين عن دينهم ، وزعزعة الإيمان في نفوسهم ، ممّا يدعو للحديث عن الثّبات لتتبدّد تلك الشّكوك ، وتتهاوى تلك الشّبهات .

ثامناً: إنّ الثّبات أمر لاغنى لأحد من المسلمين عنه ، فهو حاجة العالم والجاهل ، والكبير والصّغير ، والرّجل والمرأة ، والغني والفقير . بل الحاجة إليه أعظم من الحاجة للطّعام والشّراب ، إذ فيه تكمن سعادة الدّنيا ، والنّجاة في الآخرة .

تاسعاً: فيه مادة قيّمة للدّعاة النّاصحين ، يقيمون من خلاله العوج ، ويزيلون به العلل ، ويردّون إلى الشّاردين به الأمل ، ويدفعون أمة الإسلام من خلاله إلى حسن العمل ، لتصدق في العبادة ، فتسودها السّعادة ، وتصبح أمة مؤهلة للقيادة والريّادة .

وقد قسّمته إلى مقدّمة وسبعة أبواب وخاتمة :

أمّا المقدّمة :

فقد تناولت فيها أهميّة الموضوع ، والأسباب التي دفعتني لاختياره ، والمنهج الذي أسير عليه .

وأمّا الباب الأوّل :

فهو عن الثّبات عند الفتن . وقد جعلته في خمسة فصول :

الفصل الأوّل أعرف فيه بمعاني الفتنة في اللّغة والشرع . ثمّ أبيان إخبار الرّسول ﷺ بالفتن ، وتحذيره منها ، وظهور كثير ممّا حذر منه . وهو الفصل الثّاني . ثمّ أورد أنواعاً من تلك الفتن مدلّلاً بها على ماسبق ، والكيفية التي يتمّ بها علاجها . وهو الفصل الثّالث . ثمّ أعرج بالحديث عن العوامل التي تعين على الثّبات عند الفتن . وهو الفصل الرّابع . ثمّ أورد نماذج لبعض الثّابتين عند الفتن ، مبتدئاً بالرّسل عليهم السّلام . وهو الفصل الخامس .

وَأَمَّا الْبَابُ الثَّانِي :

فهو عن الثَّبات عند الابتلاء . وهو في خمسة فصول :

الفصل الأول أتناول فيه الحديث عن معاني الابتلاء في اللغة والشرع . ثمَّ أبين أن ابتلاء الإنسان سنة من سنن الله في الكون . وهو الفصل الثاني . ثمَّ أتعرض لأنواع الابتلاء والحكمة من كلِّ نوع منها . وهو الفصل الثالث . ثمَّ أردف الحديث عن العوامل المؤدية إلى الثَّبات عند الابتلاء . وهو الفصل الرابع . ثمَّ أذكر نماذج لمن ثبت عند الابتلاء . وهو الفصل الخامس .

وَأَمَّا الْبَابُ الثَّالث :

فهو عن الثَّبات في الدَّعوة إلى الله . وهو في أربعة فصول :

الفصل الأول أتكلَّم فيه عن معاني الدَّعوة في اللغة والشرع واصطلاح الدَّعاة . ثمَّ أعرج بالكلام عن أهميَّة الدَّعوة إلى الله ، والغاية منها ، وحكمها . وهو الفصل الثاني . ثمَّ أعقب ذلك بالكلام عن العوامل المعينة على الثَّبات في الدَّعوة إلى الله . وهو الفصل الثالث . ثمَّ أختم الباب بالكلام عن نماذج للثَّابِتِينَ على الدَّعوة ليتبيَّن أثر الثَّبات فيها . وهو الفصل الرابع .

وَأَمَّا الْبَابُ الرَّابِع :

فهو عن الثَّبات في الجهاد . وهو في خمسة فصول :

الفصل الأول يتمَّ الحديث فيه عن معاني الجهاد في اللغة والشرع . ثمَّ يعقبه الحديث عن المراحل الَّتِي مرَّ بها تشريع الجهاد ، والأنواع الَّتِي تمَّ حصره فيها . وهو الفصل الثاني . ثمَّ يتناول الحديث حقيقة الجهاد والحكمة من تشريعه على العباد . وذلك هو الفصل الثالث . ثمَّ يعقبه الحديث عن العوامل المثبتة للمسلم في الجهاد . وهو الفصل الرابع ، ثمَّ خاتمة الباب ينصبَّ فيها الحديث على نماذج مختارة ثبتت في الجهاد . وهو الفصل الخامس .

وَأَمَّا الْبَابُ الْخَامِسُ :

فَهُوَ عَنِ الثَّبَاتِ عَلَى الْمَنْهَجِ الْحَقِّ . وَهُوَ فِي أَرْبَعَةِ فُصُولٍ :

الفصل الأول اتعرّض فيه لمعاني المنهج في اللّغة والشرع . ثمّ أبين السمات التي يتّسم بها ذلك المنهج . وهو الفصل الثاني . ثمّ أعرج بالحديث على العوامل الدّاعية للثّبات على المنهج . وهو الفصل الثالث . ثمّ أورد نماذج يتيّن من خلالها أثر الثّبات على المنهج . وهو الفصل الرابع .

وَأَمَّا الْبَابُ السَّادِسُ :

فَهُوَ عَنِ الثَّبَاتِ عِنْدَ الْمَوْتِ . وَفِيهِ أَرْبَعَةُ فُصُولٍ :

الفصل الأول ينصبّ فيه الحديث على معاني الموت في اللّغة والشرع . ثمّ يكشف الحديث عن حقيقة الموت ، والحكمة من خلقه . وهو الفصل الثاني . ثمّ يتعرّض الحديث للكلام عن العوامل الجالبة للثّبات عند الموت . وهو الفصل الثالث . ثمّ يختم الباب بإيراد نماذج لبعض من وفّق للثّبات عند الموت . وهو الفصل الرابع .

وَأَمَّا الْبَابُ السَّابِعُ :

فَهُوَ عَنِ الثَّبَاتِ فِي الْقَبْرِ . وَفِيهِ ثَلَاثَةُ فُصُولٍ :

الفصل الأول أتكلّم فيه عن معاني القبر من حيث اللّغة والشرع ، والأحكام التي أناطها الشّارع به . ثمّ أتناول الكلام عن الإيمان بنعيم القبر وعذابه ، وحقيقة ذلك . وهو الفصل الثاني . ثمّ أعقب ذلك بالحديث عن العوامل المؤدّية إلى الثّبات في القبر . وهو الفصل الثالث والأخير .

وَأَمَّا الْخَاتِمَةُ :

فهي تشتمل على أهمّ النتائج التي توصّلت إليها من خلال البحث . وتوصية .

وقد ذيلت البحث بتسعة فهارس وهي :

- ١ - الآيات القرآنية .
- ٢ - الأحاديث النبوية .
- ٣ - آثار الصحابة .
- ٤ - الأعلام المترجم لهم .
- ٥ - البلدان والقبائل والأجناس .
- ٦ - الفـرق .
- ٧ - الأبيات الشعرية .
- ٨ - المراجع .
- ٩ - الموضوعات .

وأما المنهج الذي سرت عليه فهو كما يلي :

أولاً : الأصل :

✽ أفتتح كل باب ببيان المعنى اللغوي والشرعي المتعلق به ، والاصطلاحي إن توفر ووجد . ثم ألحق ذلك بذكر الفصول والمباحث والمطالب الأخرى المتعلقة به .

✽ أبدأ في الاستدلال بالآيات ، ثم الأحاديث ، ثم آثار الصحابة ، ثم آثار من بعدهم وهذا في الغالب . وقد يتخلل ذلك توطئة ، أو توجيه ، أو شرح ، أو إيضاح .

✽ سلكت في شرح النصوص وبيانها المنهج التحليلي الموضوعي .

✽ أوردت الآيات برسم المصحف ، وجعلتها بين قوسين مزهرين . وخرجتها في الأصل لكثرتها .

✽ وضعت الأحاديث والآثار وأقوال أهل العلم بين قوسين صغيرين مزدوجين لتمييز عن كلامي .

✽ شكّلت بعض الكلمات التي تحتاج إلي تشكيل .

✽ أوردت اسم القائل في أول السطر بخطّ مائل لإبرازه .

ثانياً : الحاشية :

✽ خرجت فيها الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية . وسكنت في تخريجها

الآتي :

{أ} إن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت به . إلا إذا لم يوجد لفظه فيهما أو في أحدهما فحينئذ أوردته من مصدره مع تخريجه منهما . وقد يروى أصل الحديث فأبين ذلك . مع تتبعي لمواطن الحديث فيهما وإيراد ذلك .

{ب} إن كان الحديث في غير الصحيحين خرجته من مصادر السنة الأخرى ، مقدماً في ذلك السنن الأربعة ، وسنن الدارمي ، والبيهقي ، والدارقطني ، وموطأ مالك ، ومسند أحمد ، وصحيح ابن حبان ، ومستدرک الحاكم ، ومعجم الطبراني الثلاثة ، ثم ما أمكنني الرجوع إليه من بقية مصادر الحديث .

{ج} استخدمت عبارات الأوائل في التّخريج ، ومقارنة الروايات . وهي كالاتي :

— ما كان مطابقاً للفظ الاستدلال قلت : بلفظه .

— إن اختلف اللفظ في كلمة أو كلمتين قلت : بلفظه ، ثم ذكرت أوجه الاختلاف .

— إن زاد الاختلاف قليلاً . قلت : بلفظ مقارب ، أو قريب منه .

— إن زاد الاختلاف فشمّل معظم الألفاظ . قلت : نحوه . أو بنحو منه .

— إن اختلفت الألفاظ مع اتحاد المعنى . قلت بمعناه .

— أقدم في المصدر الواحد ما كان بلفظه ، ثم ما كان بلفظ مقارب

أو قريب منه ، ثم ما كان نحوه أو بنحو منه ، ثم ما كان بمعناه .

— وإذا كان المستدل به جزءاً من حديث بيّنت ذلك .

{د} أذكر اسم المرجع دون اختصار ، ثم أورد اسم الكتاب ورقمه ، واسم الباب

ورقمه ، ورقم الحديث ، والجزء ، والصّفة . متى ما توفّر لي ذلك .

{هـ} ما كان في غير الصحيحين أو في أحدهما ذكرت أحكام بعض أهل العلم المحققين عليه ، فإن لم أجد — وذلك نادر — حكمت عليه بما ظهر لي من دراسة إسناده .

{و} رتبت مصادر التّخريج حسب التّرتيب المشهور عند أهل العلم . فأقدم صحيح البخاري ، ثمّ صحيح مسلم ، ثمّ سنن أبي داود ... الخ .

{ز} ذكرت اسم الرّاوي من الصّحابة إن لم يرد ذكره في الأصل .

* خرّجت الآثار الواردة من مصادرها ، فإن كانت في مصادر الحديث خرّجتها كتخريج الأحاديث ، وإن كانت في المصادر الأخرى اكتفيت بذكر اسم المصدر ، والجزء والصّحفة في الغالب . وإن وجدت حكماً لبعض أهل العلم على الأثر ذكرته .

* ترجمت للأعلام الذين وردوا في الأصل . وسلكت في تراجمهم الآتي :

{أ} لم أترجم للصّحابة إلّا ماندر كالتّعريف باسم صحابي شهر بكنيته أو لقبه ، وحينئذ أترجم له ترجمة يسيرة . ولم أترجم لأئمّة المذاهب الأربعة لشهرتهم ، ولا لأصحاب الكتب المؤلّفة لكثرتهم ، إلّا ما دعت إليه الحاجة .

{ب} رتبت مصادر التّرجمة حسب الأسبقية الزّمنية ، نظراً لوفاء المؤلّف .

{ج} أورد التّرجمة بإيجاز غير مخل ، ثمّ أشير إلى مواضعها في المصادر بعبارة (وانظر) مكثفاً بذكر أوّل صفحة بدأت بها التّرجمة .

* شرحت الغريب ، وشكّلت ما يحتاج منه إلى تشكيل بالحروف تارة ، وبالحركات أخرى .

* عزوت النّصوص إلى مراجعها . وسلكت في عزوها الآتي :

{أ} عزوت في كلّ فنّ إلى مصادره المختصّة به ، ولا أذكر مصدراً في غير فنّه

إلّا لفائدة لم توجد في المصدر المختص ، أو لم يكن وافياً بالمقصود .

{ب} رتبت المصادر المعزوة إليها حسب الأسبقية الزّمنية نظراً لوفاء المؤلّف .

ولا أقدم مصدراً متأخراً على مصدر متقدّم إلّا إذا كان هو المباشر في

الأخذ ، أو أن المأخوذ به أكمل وأتم .

{ج} إذا لم أتصرف في النص ، ونقلته من المصدر كما هو فإنني أورد اسم المصدر مباشرة . أما إن تصرفت في المنقول فإنني أستخدم الاصطلاحات الآتية :

— بتصرف : إذا تصرفت في النص المنقول بزيادة بعض العبارات ، أو حذفها ، أو إبدالها بغيرها ، مع بقاء معظم النص كما هو . وإذا كان التصرف يسيراً بينت ذلك .

— انظر : إذا أوردت النص بمعناه . شريطة أن يكون ما في المصدر شاملاً لجميع ما ذكرته بالمعنى .

— وانظر : إذا وجد في المصدر بعض ما ذكرت بالمعنى ، أو ذكر فيه أصل القضية المتحدث عنها .

{د} رمزت للصقحة بـ : ص .

✽ وثقت المراجع عند أول ورودها . وقد أستخدم أكثر من طبعة فأبين حينئذ . مع التنبيه على أمور :

مالم أبينه من : طبعة جامع البيان للطبري فهي الطبعة الحلبية . وفتح الباري فهي طبعة دار الفكر . وشرح العقيدة الطحاوية فهي طبعة مؤسسة الرسالة .

والله الكريم أسأل التوفيق والإعانة والثبات على الهدى ، وأصلي وأسلم على إمام المتقين ، وسيد المرسلين ، وعلى صحبه الميامين ، وأهل بيته الأكرمين ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

❦ رِبَابِ الدُّرَّةِ ❦

النبات عند الفتن

وفيه فصول :

❦ الفصل الأوّل ❦

محاني الفتنة في اللغة والشرع

❦ الفصل الثّاني ❦

إخبار الرّسول ﷺ بالفتن وتكديره منها
وظهورها

❦ الفصل الثّالث ❦

أنواع الفتن وحلّها

❦ الفصل الرّابع ❦

حوامل النبات عند الفتن

❦ الفصل الخامس ❦

نماذج للنبات عند الفتن

الفصل الأول

معاني الفتنة في اللغة والشرع

المبحث الأول

معاني الفتنة في اللغة

جماع معنى الفتنة في كلام العرب الابتلاء والامتحان . وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار ليتميز الرديء من الجيد^(١).

وتقول: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتتظر ما جودته ، ودينار مفتون^(٢).
ويسمى الصائغ الفتان لإذابته الذهب والفضة^(٣).

والفتنة: الإحراق:

من هذا قيل للحجارة السود التي كأنها أحرقت بالنار: الفتين^(٤).

(١) تهذيب اللغة : لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى . تحقيق : يعقوب عبد التّى . مطابع سجل العرب . الدّار المصرية للتأليف والترجمة : ٢٩٦/١٤ . لسان العرب . لأبي الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى المصرى . دار صادر للطباعة والنشر . دار بيروت للطباعة والنشر . ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م : ٣١٧/١٣ . تاج العروس من جواهر القاموس . لمحّب الدّين أبى الفيض السيّد محمد مرتضى الحسينى الواسطى الرّيبى . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . ١٤١٤ هـ — ١٩٩٤ م : ٤٢٥/١٨ .

(٢) الصّحاح . تاج اللغة وصحاح العربية . لإسماعيل بن حماد الجوهري . تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار . دار العلم للملايين . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م : ٢١٧٥/٦ . مختار الصّحاح . للشّيخ محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرّازى . عني بترتيبه محمود خاطر . طبعة : مؤسسة الرّسالة . بيروت . ص : ٤٩٠ . لسان العرب : ٣١٧/١٣ . تاج العروس : ٤٢٥/١٨ .

(٣) المرجع السّابق : ٤٢٧/١٨ . وانظر : الصّحاح : ٢١٧٥/٦ . لسان العرب : ٣١٧/١٣ . القاموس المحيطة . لمحمد الدّين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى . طبعة مؤسسة الرّسالة . بيروت . ص : ١٥٧٥ .

(٤) تهذيب اللغة : ٢٩٧/١٤ . معجم مقاييس اللغة . لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق : عبد السّلام محمد هارون . مطبعة مصطفى الحلبي . مصر . الطّبعة الثّانية : ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م : ٤٧٣/٤ .

وورق فتنين: أي محرق (١) .

ويقال للأمة السوداء: مفتونة ، لأنها كالحرّة (٢) في السّواد كأنها محترقة (٣) .

ويقال: فُتِنَ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ وافتتن: إذا ولهته وأحبّها (٤) .

وأهل الحجاز يقولون: فتنته المرأة . وأهل نجد يقولون: أفتنته .

قال أعشى همدان (٥):

لئن فتنتني لَهْيَ بِالْأَمْسِ أَفْتَنْتَ سعيداً فأَمْسَى قَدْ قَلَا كُلَّ مُسْلِمٍ . (٦)

الصّحاح : ٢١٧٦/٦ . مجمل اللّغة . لابن فارس . تحقيق زهير عبد الحسن سلطان . مؤسسة الرّسالة . بيروت .

الطّبعة الأولى: ١٤٠٤هـ — ١٩٨٤م : ٧١١/٣ . لسان العرب : ٣١٧/١٣ . تاج العروس : ٤٢٧/١٨ .

معجم متن اللّغة . للشيخ أحمد رضا . طبعة دار مكتبة الحياة . بيروت . ١٣٧٩هـ — ١٩٦٠م : ٣٥٧/٤ .

(١) الصّحاح : ٢١٧٦/٦ . لسان العرب : ٣١٧/١٣ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ .

(٢) الحرّة : هي الأرض ذات الحجارة السّود . انظر : القاموس المحيط : ص : ٤٧٨ .

(٣) تذيب اللّغة : ٣٠١/١٤ . لسان العرب : ٣٢٠/٣ . تاج العروس : ٤٢٨/١٨ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ .

(٤) الصّحاح : ٢١٧٦/٦ . لسان العرب : ٣١٧/١٣ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ .

(٥) أعشى همدان : هو أبو المصباح عبد الرّحمن بن عبد الله بن الحارث الهمداني الكوفي ، شاعر موفّه شهير ، كان

متعبداً فاضلاً ثم عبث بالشعر . خرج مع القراء في فتنة ابن الأشعث . قتله الحجاج سنة نيف وثمانين .

انظر: سير أعلام النبلاء . محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذّهبي أبي عبد الله . دار النّشر : مؤسسة الرّسالة .

بيروت . الطّبعة التاسعة : ١٤١٣هـ . تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمّد نعيم العرقسوسي : ١٨٥/٤ .

(٦) ديوان أعشى همدان وأخباره . تحقيق : حسن عيسى أبو ياسين . طبعة : دار العلوم . الرّياض . الطّبعة الأولى :

١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م . ص : ١٦٢ .

وكان الأصمعي (رحمه الله) ^(١) ينكر أفنتته ^(٢) .
وفتنت الرجل عن رأيه: إذا أزلته عما كان عليه . ^(٣)
ومن ذلك قولهم: فتنت فلانة فلاناً: أي أمالته عن القصد ، فالفتنة: المميلة . ^(٤)
والفتنة: الإعجاب بالشئ . من قولك: فتنة يفتنه فتناً وفتونا فهو فاتن ^(٥) .

(١) الأصمعي : هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع أبو سعيد الأصمعي . أحد الأعلام .
صاحب اللغة والنحو والغريب والأخبار والملح . توفي عام ٢١٥هـ .
وانظر : التاريخ الكبير . محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري . طبعة دار الفكر . مراجعة : السيد هاشم
التدوي . ١٩٨٦م : ٤٢٨/٥ . الجرح والتعديل . لعبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس . طبعة دار إحياء
التراث العربي . بيروت . ١٩٥٢م - ١٢٧١هـ : ٣٦٣/٥ . ثقات ابن حبان . محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم
التميمي البستي . طبعة دار الفكر . مراجعة : السيد شرف الدين أحمد . ١٩٧٥م - ١٣٩٥هـ : ٣٨٩/٨ . تلويح
بغداد . لأحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت : ٤١٠/١٠ . تهذيب
الكمال . ليوسف بن الزكي عبد الرحمن أبي الخجاج جمال الدين المزني . طبعة مؤسسة الرسالة . مراجعة د.
بشار عواد معروف . بيروت . ١٩٨٠م - ١٤٠٠هـ : ٣٨٢/١٨ . الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب
الستة . محمد بن أحمد أبي عبد الله شمس الدين الذهبي الدمشقي . طبعة دار القبلية للثقافة الإسلامية . مؤسسة
علوم القرآن . مراجعة : محمد عوامة . جدة . ١٩٩٢م - ١٤١٣هـ : ٦٦٨/١ . تهذيب التهذيب . لأحمد بن علي
ابن حجر أبي الفضل شهاب الدين العسقلاني الشافعي . طبعة دار الفكر . بيروت . ١٩٨٤م - ١٤٠٤هـ :
٣٦٨/٦ .

(٢) تهذيب اللغة : ٢٩٨/١٤ . تاج العروس : ٤٢٥/١٨ .
(٣) تهذيب اللغة : ٢٩٨/١٤ ، ٢٩٩ . لسان العرب : ٣١٩/١٣ .
(٤) تهذيب اللغة : ٢٩٧/١٤ . لسان العرب : ٣١٩/١٣ . تاج العروس : ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللغة : ٣٥٧/٤ .
وانظر : التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية . للحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني . تحقيق :
محمد أبي الفضل إبراهيم . مطبعة دار الكتب . ١٩٧٩م : ٢٨٥/٦ .
(٥) لسان العرب : ٣١٨/١٣ . تاج العروس : ٤٢٥/١٨ .

قال الشاعر: (١)

رَخِيم الكلام قَطِيع القيا م أمسى فؤادي بها فانتأ
والفاتن: الْمُفْتَنِّين (٢) والمفتون (٣).

ويقال أيضاً: أُفْتِنَ الرَّجُلُ وَفُتِنَ فهو مفتون: إذا أصابته فتنة فذهب ماله أو عقله (٤).
كما يقال: فَتِنَ الرَّجُلُ يَفْتَنُ فتوناً إذا وقع في الفتنة ، أو تحول من حال حسنة إلى
حال سيئة (٥). فالفعل لازم ومتعدي .

والفتنة: الكفر ، والإثم ، والقتل ، والإضلال ، والضلال ، والجنون ،
والعذاب ، واختلاف الناس في الآراء ، والفضيحة ، والمال ، والأولاد ،
والظلم والغلو في التأويل (٦) .

وفتنه فهو مُفْتَنٌ: أي أوقعه في الفتنة أو أوصل الفتنة إليه (٧) .
والفتان من أبنية المبالغة في الفتنة (٨) .

(١) في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني . تحقيق : سمير جابر . طبعة دار الفكر . بيروت : ١٣ / ٣٣٥-٣٣٦ :

فتور القيام رخييم *** الكلام كان فؤادي به راهناً . ونسبه لعمر بن سعيد بن زيد .

كلام رَخِيم أي رقيق . وَرَخِمَتِ الحارية رَخَامَةً ، فهي رَخِيمة الصَّوْت وَرَخِيمٌ إذا كانت سهلة
المنطق . لسان العرب : ٢٣٤/١٢ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ١٤٣٦ .

وامرأة قَطِيعُ الكلام إذا لم تكن سَلِيطةً . لسان العرب : ٢٧٩/٨ . انظر : القاموس المحيط : ص : ٩٧٢ .

(٢) الصَّحاح : ٢١٧٦/٦ . لسان العرب : ٣١٨/١٣ . تاج العروس : ٤٢٦/١٨ .

(٣) معجم مقاييس اللغة : ٤٧٣/٤ . مجمل اللغة : ٧١١/٣ .

(٤) الصَّحاح : ٢١٧٦/٦ . مختار الصحاح : ص : ٤٩٠ . لسان العرب : ٣١٨/١٣ . تاج العروس : ٤٢٧/١٨ .

معجم متن اللغة : ٣٥٧/٤ .

(٥) تهذيب اللغة : ٣٠٠/١٤ .

(٦) المرجع السابق : ٢٩٧/١٤-٢٩٩ . لسان العرب : ٣١٧/١٣ - ٣٢٠ . القاموس المحيط : ص : ١٥٧٥ . تاج

العروس : ٤٢٤/١٨-٤٢٧ . مختار القاموس . للطاهر أحمد الزواوي الطرابلسي . مطبعة عيسى الخلي . الطبعة

الأولى : ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م : ص : ٤٦٨ . معجم متن اللغة : ٣٥٧/٤ .

التأويل : هو التفسير وما يؤول إليه الشيء . انظر : مختار الصحاح : ص : ٣٣ . وانظر : لسان العرب : ٣٣/١١ .

(٧) معجم متن اللغة : ٣٥٧/٤ .

(٨) لسان العرب : ٣١٩/١٣ . تاج العروس : ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللغة : ٣٥٧/٤ .

فالفتان: الشيطان الذي يفتن الناس بخدعه وغروره وتزيينه المعاصي . والفتان:
أيضاً اللص الذي يعرض للرفقة في طريقهم .
وجمعه: فتان (١).

والفتانان: الدرهم والدينار، لأنهما يفتنان الناس (٢).
وفتاناً القبر: منكر ونكير (٣).
والفتن: الناحية (٤). والفتان: الحالان والضربان واللونان .

ومن ذلك قول عمرو بن أحمَر الباهلي: (٥)
إمّا على نفسي وإمّا لها والعيش فتان حلو ومر. (٦)
ولذا قيل للغدوة والعشي: فتان لأنهما حالان أو ضربان. (٧)
مما سبق يتبين لنا أن الفتنة في اللغة متعدّدة المعاني ، متكاثرة الإطلاقات ،
وإن كانت لا تخرج تلك المعاني في أصلها عن التّمحيص والاختبار .

(١) تهذيب اللغة : ٣٠٠/١٤ . لسان العرب : ٣١٩/١٣ . تاج العروس : ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللغة : ٣٥٧/٤ .
وانظر: معجم مقاييس اللغة : ٤٧٢/٤ . مجمل اللغة : ٧١١/٣ . أساس البلاغة . جاز الله أبي القاسم محمود بن
عمر الرّحشري . طبعة دار المعرفة . بيروت . تحقيق عبد الرّحيم محمود . ص : ٣٣٤ . والقاموس المحيـط : ص :
١٥٧٥ . التكملة والذيل : ٢٨٥/٦ .

(٢) تاج العروس : ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللغة : ٣٥٧/٤ . وانظر : أساس البلاغة : ص : ٣٣٤ .

(٣) تاج العروس : ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللغة : ٣٥٧/٤ .

(٤) تاج العروس : ٤٢٨/١٨ . معجم متن اللغة : ٣٥٧/٤ .

(٥) عمرو بن أحمَر بن العمرد بن عامر الباهلي شاعر فصيح محسن .
الإكمال لعلي بن هبة الله بن أبي نصر بن مأكولا . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . ١٤١١هـ . الطّبعة
الأولى : ٨١/٥ .

(٦) تهذيب اللغة : ٣٠٠/١٤ . تاج العروس : ٤٢٤/١٨ . وانظر : التكملة والذيل : ٢٨٥/٦ . معجم متن اللغة :
٣٥٧/٤ .

(٧) تاج العروس : ٤٢٧/١٨ .

المبحث الثاني

معاني الفتنة في الشرع

لفظ الفتنة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ جاء متعدّد الإطلاقات ، متكاثر المعاني ، حتّى شمل المعاني اللغوية السابقة الذكر .

فتارة يضيفها الله سبحانه لنفسه أو يضيفها له رسوله ﷺ كقوله سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٥٣] .

وقول موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ

تَشَاءُ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] (١) .

وتارة يضيفها إلى عباده كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ [البزج: ١٠] .

وهي في حالة إضافتها إلى الله تدلّ على معنى سوى الذي دلّت عليه في حالة إضافتها إلى العباد .

قال الراغب الأصفهاني (رحمه الله) :

"والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد كالبلية ،

والمصيبة ، والقتل ، والعذاب ، وغير ذلك من الأفعال الكريهة . ومتى

كان من الله يكون على وجه الحكمة ، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله

يكون بضدّ ذلك . ولهذا يذمّ الله الإنسان بأنواع الفتنة في كلّ مكان" (٢) .

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد . لشمس الدّين أبي عبد الله محمّد بن قيم الجوزيّة . تحقيق وتخريج وتعليق :

شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط . الطّبعة السابعة والعشرون . ١٤١٤هـ — ١٩٩٤م . مؤسّسة

الرّسالة . بيروت . مكتبة المنار الإسلاميّة : ١٦٩/٣ .

(٢) المفردات في غريب القرآن . لأبي القاسم الحسين بن محمّد الراغب الأصفهاني . تحقيق : محمّد سيّد كيلاني . طبعة

دار المعرفة — بيروت . ص : ٣٧٢ .

فالفتنه في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ تأتي بمعاني عدة ، وهي :

١ - الابتلاء والاختبار :

من ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا

تَكْفُرُ ﴾ [البقرة: ١٠٢]

قال ابن جرير (رحمه الله) :

"وتأويل ذلك : وما يعلم الملكان ^(١) أحداً من الناس الذي أنزل عليهما من التفريق

بين المرء وزوجه حتى يقول له : إنما نحن بلاء وفتنة لبني آدم فلا تكفر بربك".

ثم روى بسنده عن قتادة (رحمه الله) ^(٢) أنه قال :

(١) للقصص والإخبارين أحاديث عجيبة في شأن الملكين هاروت وماروت . فقد زعموا أنهما ملكان من الملائكة

أنكرا ما يصنع بنو آدم من المعاصي ، فابتلاهما الله بالشهوات ، وأهبطهما إلى الأرض ، فعصيا الله ، وشربا الخمر

وفعلا الفاحشة . فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا . فجعلهما بيابل منكوسين في

بئر إلى يوم القيامة . وهما يعلمان الناس السحر ، ويدعون إليه .

وهذا كله من أخبار اليهود — عليهم لعائن الله إلى يوم القيامة — وقد اغتر بذلك جماعة من المفسرين فلوردوا

ذلك في كتبهم .

والذي عليه المحققون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى ، وكانا يعلمان الناس

السحر . وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أنهما ملكان من السماء ، وأن ما يعلمانه للناس هو بوحى من الله تعالى .

وبلغ مكر هذين الرجلين أنهما كانا يقولان لمن أراد أن يتعلم منهما : "إنما نحن فتنة وبلاء نبلك ونختبرك أتشكر

أم تكفر ، ونصحك بعدم الكفر " . ليوهماه أنهما يريدان الخير ، وأن فعلهما ذلك من الله ، حتى يحافظا على

حسن اعتقاد الناس فيهما .

انظر : تفسير القاسمي المسمى بحسن التأويل . لمحمد جمال الدين القاسمي . تصحيح وتعليق : محمد فؤاد عبد

الباقي . دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه . الطبعة الأولى : ١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م :

٢ / ٢٠٩ — ٢١٣ .

(٢) هو قتادة بن دعامة بن قنادة أبو الخطاب السدوسي البصري الأعمى المفسر ، أحد الأئمة الأعلام . حافظ عصره ،

ثقة ثبت في الحديث مع تدليس فيه . مات سنة ١١٨هـ وقيل : ١١٧هـ .

وانظر : الطبقات الكبرى . لمحمد بن سعد بن منيع . طبعة دار صادر . بيروت . ٢٢٩/٧ . التاريخ الكبير :

١٨٥/٧ . معرفة النقات . لأحمد بن عبد الله بن صالح العجلي . طبعة مكتبة الدار . المدينة المنورة . مراجعة : عبد

العليم عبد العظيم البستوي . ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م : ٢ / ٢١٥ . الجرح والتعديل : ١٣٣/٧ .

"إنما نحن فتنة" "أي بلاء" (١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [العنكبوت ٢ - ٣] .

فقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ : أي لا يختبرون بما يعلم به صدق إيمانهم من كذبه .

وقيل : لا يبتلون في أنفسهم وأموالهم . فيعلم بالصبر على البلاء الصادق الإيمان من غيره .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ : أي اختبرنا وابتلينا (٢) .

ثقات ابن حبان : ٣٢١/ ٥ . تهذيب الكمال : ٤٩٨/٢٣ . تذكرة الحفاظ . لخمّد بن أحمد الذهبي . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . مراجعة : عبد الرحمن بن يحيى العلمي . ١٣٧٤هـ : ١٢٢/١ . الكاشف : ١٣٤/٢ . تهذيب التهذيب : ٣١٥/٨ . تقريب التهذيب . لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني . طبعة دار الرشيد . سوريا . مراجعة : محمد عوامة . ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م : ٤٥٣/١ . لسان الميزان . لابن حجر العسقلاني . طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات . بيروت . مراجعة : دائرة المعارف النظامية . الهند . ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م : ٣٤١/٧ .

(١) تفسير الطبري . جامع البيان عن تأويل القرآن . لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . تحقيق : محمود محمد شاكر . تخرّيج : أحمد محمد شاكر . طبعة دار المعارف بمصر : ٤٤٢/٢ — ٤٤٤ . وانظر : تفسير القرآن العظيم . لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م : ٢١٤/١ . محاسن التأويل : ٢١٠/٢ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه . لأبي إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجاج . شرح وتحقيق : عبد الجليل عبده شلي . عالم الكتب . الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م : ١٥٩/٤ — ١٦٠ . وانظر : تأويل مشكل القرآن . لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . شرحه ونشره السيّد أحمد صقر . دار التراث . القاهرة . الطبعة الثانية : ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م : ص ٤٧٢ . المفردات في غريب القرآن : ص ٣٧٢ . قاموس القرآن . أو إصلاح الوجوه والتظليل في القرآن الكريم . للحسين بن محمد الدامغاني . تحقيق : عبد العزيز سيّد الأهل . ١٩٨٣م — دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الرابعة . ص ٣٤٨ . كشف السرائر في معني الوجوه والأشباه والتظائر . لابن العماد . تحقيق : د. فؤاد عبد المنعم أحمد — نشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية . طبع بمطابع جريدة السفير . الإسكندرية . ص : ١٢٤ .

قال الراغب (رحمه الله) :

"وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء ، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً . وقد قال فيهما: ﴿ وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَسْوَءِ وَالْخَيْرِ فَتَنَّا ﴾ [الأنبياء: ٣٥] " (١) .

وفي حديث عائشة (رضي الله عنها) : " فأما فتنة القبر فبي تفتنون وعني تسألون" الحديث (٢) . أي بي تمتحنون وتختبرون (٣) .

وفي حديث عليّ ؑ : " إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التَّوَّاب " (٤) . أي الممتحن بالذنوب (٥) .

(١) المفردات : ص : ٣٧٢ .

(٢) مسند أحمد . للإمام أحمد بن محمد بن حنبل . طبعة مؤسسة قرطبة . مصر . مصورة عن الطبعة الميمنية : بلفظه في : ١٣٩/٦ - ١٤٠ . وهو جزء من حديث طويل . ورجال إسناده ثقات .

(٣) انظر : الفائق في غريب الحديث . لمحمود بن عمر الزمخشري . طبعة دار المعرفة . لبنان . تحقيق عليّ محمد البحاري ومحمد أبي الفضل إبراهيم الطبعة الثانية : ٨٧/٣ . النهاية في غريب الحديث . للمبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم أبو السعادات الجزري تحقيق : طاهر أحمد الزواوي ومحمود محمد الطناحي . طبعة دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م . بيروت : ٤١٠/٣ .

(٤) مسند أحمد: بلفظه في : ٨٠/١ . و بلفظ مقارب في : ١٠٣/١ . إسناده ضعيف جداً شبه موضوع . الموسوعة الحديثية . مسند الإمام أحمد . تحقيق : جماعة من أهل العلم . إشراف : الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي . طبعة : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالملكة العربية السعودية . الطبعة الثانية : ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م : ٤٢/٢ . هامش : (١) .

مسند أبي يعلى : بلفظه في : ٣٧٦/١ . وهو في : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة . لمحمد ناصر الدين الألباني . طبعة مكتبة المعارف . الرياض . الطبعة الأولى : ١٤١٢هـ - ٩٦/١ . ضعيف الجامع الصغير وزيادته . لمحمد ناصر الدين الألباني . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الثانية : ١٤٠٨هـ - ١٧٠٥/١ . ولم أورد هذا الحديث إلا لاستدلال أهل اللغة به .

(٥) فيض القدير لعبد الرؤوف المناوي . طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر . الطبعة الأولى . ١٣٥٦هـ - ٢٨٩/٢ . انظر : النهاية في غريب الحديث : ٤١٠/٣ .

٢ - الكفر والشرك :

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]. وقوله:

﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وقد فسرت الفتنة هنا بالشرك والكفر. (١)
ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾
[البقرة: ١٩٣].

(١) انظر: مجاز القرآن صبعة . لأبي عبيد معمر بن المثنى التيمي . تعليق : د. محمد فواد سزكين . نشر مكتبة الخابجي بمصر : ٦٨/١ . غريب القرآن وتفسيره . لأبي عبد الرحمن عبد الله بن يحيى بن المبارك اليزيدي . تحقيق : محمد سليم الحاج . عالم الكتب . الطبعة الأولى : ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م . ص : ٨٨ . تأويل مشكل القرآن : ص : ٤٧٣ . جامع البيان : ٥٦٥/٣ — ٥٦٦ ، ٥٧٠ — ٥٧١ . شاكر . وقد نقل أقوال من قال ذلك من الصحابة والتابعين . معاني القرآن للزجاج : ٢٦٤/١ ، ٢٩٠ . معاني القرآن الكريم . لأبي جعفر التحاس . تحقيق : محمد علي الصابوني . طبعة جامعة أم القرى . الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م . ١٠٦/١ ، ١٧٠ . قاموس القرآن للدأغاني : ص : ٣٤٨ . زاد المسير في علم التفسير . لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي . تحقيق محمد عبد الرحمن عبد الله . تخريج أبي هاجر السعيد بن بسويون زغلول . طبعة دار الفكر بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م : ١٨٠/١ — ١٨١ ، ٢١٥ . الجامع لأحكام القرآن . لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي . طبعة دار الكتب المصرية . الطبعة الثانية : ٣٥١/٢ ، ٤٦/٣ . تفسير القرآن العظيم : ٣٤٠/١ .

والآيتين نزلتا في شأن عمرو بن الحضرمي حين قتله واقد بن عبد الله التميمي ﷺ في آخر يوم من رجب الشهر الحرام . وأنكر ذلك المشركون . حسب ما جاء في سرية عبد الله بن جحش ﷺ .
انظر: الجامع لأحكام القرآن : ٣٥١/٢ . السيرة النبوية . لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري . تحقيق د. أحمد حجازي السقا . دار التراث العربي للطباعة والنشر : ٣٩٧/١ — ٤٠٠ .

قال ابن القيم (رحمه الله) في قوله سبحانه : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] .

" يقول سبحانه : هذا الذي أنكرتموه عليهم ، وإن كان كبيراً ، فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله ، والصد عن سبيله ، وعن بيته ، وإخراج المسلمين الذين هم أهله منه ، والشرك الذي أنتم عليه ، والفتنة التي حصلت منكم به أكبر عند الله من قتالهم في الشهر الحرام . وأكثر السلف فسروا الفتنة هاهنا بالشرك " .
زاد المعاد : ١٦٨/٣ — ١٦٩ .



﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

أي قاتلوا المشركين حتى لا يكون شرك بالله ، ولا يعبد دونه أحد ، وتزول عبادة الأوثان والآلهة والأنداد ، ويظهر دين الله على سائر الأديان^(١).

قال الإمام الرّازي (رحمه الله) :

" أمّا قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ فهذا يدلّ على حمل الفتنة على الشّرك ، لأنّه ليس بين الشّرك وبين أن يكون الدّين كلّ الله واسطة ، والمراد منه أن يكون تعالى هو المعبود المطاع دون سائر ما يعبد ويطاع غيره ، فصار التّقدير كأنّه تعالى قال: وقاتلوهم حتى يزول الكفر ويثبت الإسلام ، وحتى يزول ما يؤدّي إلى العقاب ويحصل ما يؤدّي إلى الثّواب " (٢).

عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال : رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق فقال: "ها إنّ الفتنة هاهنا إنّ الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشّيطان " (٣).

(١) جامع البيان : ٥٧٠/٣ . شاکر . بتصرف يسير .

(٢) التفسير الكبير المسمّى بمفاتيح الغيب . محمّد بن عمر بن الحسين الفخر الرّازي . الناشر دار الكتب العلميّة — طهران . الطّبعة الثّانية : ١٣٣/٥ .

ولبيان أنّ المراد بالفتنة هنا الشّرك والكفر . انظر : تأويل مشكل القرآن : ص: ٤٧٣ . جامع البيان : ٥٧٠/٣ ، ٥٣٧/١٣ ، ٥٣٩ . شاکر . وقد ذكر من قال بذلك من الصّحابة والتابعين . معاني القرآن للتّحّاس : ١٠٨/١ ، ١٥٥/٣ . الكشف عن حقائق غوامض التّزويل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل . لمحمود ابن عمر الرّمحشري . المكتبة التجاريّة الكبرى لمصطفى محمّد بمصر . الطّبعة الأولى سنة ١٣٥٤هـ — : ١٢٦/٢ . زاد المسير : ١٨٢/١ ، ٢٤٣/٣ . التفسير الكبير : ١٣٢/٦ ، ١٦٣/١٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٤/٢ ، ٤٠٤/٧ . تفسير القرآن العظيم : ٣٤١/١ ، ٤٨٥/٢ . وذكر من قال ذلك من الصّحابة والتابعين وغيرهم . قاموس القرآن للدّامغاني : ص : ٣٤٨ . كشف السّرائر لابن العماد : ص : ١٢٢ . محاسن التّأويل : ٢٩٩٦/٨ . تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان . لعبد الرّحمن بن ناصر السّعدي . طبعة مؤسسة الرّسالة . بيروت . الطّبعة السّابعة . ١٤١٨هـ — ١٩٩٧م . ص : ٧٢ ، ٢٨٢ . زاد المعاد : ١٦٩/٣ . إغاثة اللّهُفان من مصايد الشّيطان . لأبي عبد الله محمّد بن أبي بكر بن قيم الجوزيّة . تحقيق محمّد حامد الفقي . نشر : دار المعرفة . الطّبعة الثّانية : ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م : ١٥٨/٢ .

(٣) صحيح البخاري المسمّى الجامع المسند الصّحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه . لمحمّد بن إسماعيل البخاري . طبعة شركة دار الأرقم . بيروت . ١٤١٦هـ — ١٩٩٥م : بلفظه في : كتاب بدء الخلق : (٣٥/٥٩) . باب صفة إبليس وجنوده : (١١) برقم : (٣٢٧٩) . ص : ٦٩٠ . و بلفظ مقارب : في كتاب

قال ابن عبد البر (رحمه الله) :

"يحتمل أن تكون الفتنة في هذا الحديث معناها الكفر . وكانت المشرق يومئذ دار كفر فأشار إليها" (١)

٣- النفاق :

قال الله تعالى في شأن المنافقين: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

فالمراد بالفتنة هنا النفاق . وقد جاء ذلك عن مجاهد (٢) (رحمه الله) (٣).

فرض الخمس : (٣٣/٥٧) . باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ : (٤) . برقم : (٣١٠٤) . ص : ٦٥٤ . وفي كتاب الطلاق : (٤٢/٦٨) . باب الإشارة في الطلاق والأمور : (٢٥/٢٤) . برقم : (٥٢٩٦) . ص : ١١٦٣ . وفي كتاب الفتن : (٦٧/٩٢) . باب قول النبي ﷺ الفتنة من قبل المشرق : (١٦) . برقم : (٧٠٩٢) . ص : ١٤٩٦ . ونحوه : في كتاب المناقب : (٣٧/٦١) . باب : (٦/٥) . برقم : (٣٥١١) . ص : ٧٤٢ . وفي كتاب الفتن : (٦٧/٩٢) . باب قول النبي ﷺ : الفتنة من قبل المشرق : (١٦) . برقم : (٧٠٩٣) . ص : (١٤٩٦) . صحيح مسلم . لمسلم بن الحجاج القشيري . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . طبعة دار الحديث . القاهرة . الطبعة الأولى . ١٤١٢ هـ — ١٩٩١ م : بلفظ مقارب في : كتاب الفتن وأشراف الساعة : (٥٢) . باب الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان : (١٦) . برقم : (٢٩٠٥) . ٢٢٢٨/٤ — ٢٢٢٩ . (١) التمهيد . لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر التمري . تحقيق : مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري . طبعة وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية . المغرب . ١٣٨٧ هـ : ١٢/١٧ . (٢) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي الإمام المقرئ الحافظ الفقيه العابد الورع المتقن ، ثقة إمام في التفسير وفي العلم . وهو أحد أئمة التابعين . روى عن جماعة من الصحابة . مات سنة ١٠٣ هـ — وقيل : قبلها . وقيل : بعدها .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٤٦٦/٥ . التاريخ الكبير : ٤١١/٧ . الجرح والتعديل : ٣١٩/٨ . ثقات ابن حبان : ٤١٩/٥ . تهذيب الكمال : ٢٢٨/٢٧ . تذكرة الحفاظ : ٩٢/١ . الكاشف : ٢٤٠/٢ . تهذيب التهذيب : ٣٨/١٠ . تقريب التهذيب : ٥٢٠/١ . لسان الميزان : ٣٤٩/٧ . (٣) انظر : جامع البيان . ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . الطبعة الثانية : ٢٢٦/٢٧ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٦/١٧ . محاسن التأويل : ٥٦٨٤/١٦ . غريب الحديث . للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي ، تحقيق ودراسة د . سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد . طبعة مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى . الطبعة الأولى : ١٤٠٥ هـ : ٩٣٢/٣ .

٤- الصّد :

قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

أي احذر اليهود أن يصدّوك ويصرفوك ويستزِيلوك عن بعض ما أنزل الله إليك^(١). ومثلها في الإسراء: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

أي كاد المشركون أن يصدّوك ويستزِيلوك عن ما أوحاه الله إليك^(٢).

٥- الضّلال :

قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣].

أي لن تقدروا أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله أن تضلّوا أحداً إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم^(٣).
فقوله "بفاتنين" أي بمضلّين^(٤).

(١) انظر: مجاز القرآن: ١٦٨/١. تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٣. جامع البيان: ٣٩٢/١٠. شاكِر. وقد ذكر أسباب نزول الآية. زاد المسير: ٢٨٧/٢. التفسير الكبير: ١٤/١٢ ونقل فيه عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: "يريد به يردوك إلى أهوائهم". الجامع لأحكام القرآن: ٢١٣/٦. قاموس القرآن للدّامغاني: ص: ٣٤٩. كشف السّرّاتر لابن العماد: ص: ١٢٤. محاسن التّأويل: ٢٠١٩/٦. غريب الحديث للحري: ٩٣٧/٣.

(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٣. التفسير الكبير: ٢٣/٢١. الجامع لأحكام القرآن: ٣٠٠/١٠. قاموس القرآن للدّامغاني: ص: ٣٤٩. كشف السّرّاتر لابن العماد: ص: ١٢٤. محاسن التّأويل: ٣٩٥٦/١٠. غريب الحديث للحري: ٩٣٧/٣.

(٣) تيسير الكريم الرّحمن: ص: ٦٥٤. بتصرف يسير.

(٤) غريب القرآن وتفسيره لليزيدي: ص: ٣٢٠. جامع البيان: ١٠٩/٢٣ - ١١٠. الحلبي. وذكر بالأسانيد من قال ذلك من الصحابة والتابعين وغيرهم. معاني القرآن للزّجاج: ٣١٥/٤. المفردات في غريب القرآن: ص: ٣٧٢. تفسير القرآن العظيم: ٣٦/٤. قاموس القرآن للدّامغاني: ص: ٣٤٩. كشف السّرّاتر لابن العماد: ص: ١٢٤. محاسن التّأويل: ٥٠٦٨/١٤. غريب الحديث للحري: ٩٣٧/٣.

وفي حديث قَيْلَةَ بنت مَخْرَمَةَ (رضي الله عنها): "المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفتان" (١).

يروى بضمّ الفاء وفتحها. بالضمّ جمع فائن، وهم الذين يضلّون الناس عن الحقّ. وبالفتح هو الشيطان الذي يضلّ الناس عن دينهم. (٢)

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه. قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: "يا معاذ أفتان أنت" (٣). فالفتنة هنا صرف الناس عن الدين وحملهم على الضلالة. (٤)

(١) سنن أبي داود . لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني. طبعة بيت الأفكار الدولية . ١٤٢٠هـ —

١٩٩٩م : بلفظه — جزء من حديث — في : كتاب الخراج : (١٩) . باب في إقطاع الأرضيين : (٣٤، ٣٦) .

برقم : (٣٠٧٠) . قال الألباني رحمه الله : "ضعيف الإسناد" . ص : ٣٤٧ .

سنن البيهقي الكبرى . لأحمد بن الحسين بن عليّ أبي بكر البيهقي . تحقيق : محمد عبد القادر عطا . طبعة مكتبة

دار الباز . مكة المكرمة . ١٤١٤هـ — ١٩٩٤م : بلفظه في باب ما لا يجوز إقطاعه من المعادن الظاهرة . ١٥٠/٦

(٢) انظر : النهاية في غريب الحديث : ٤١٠/٣ . عون المعبود . لمحمد شمس الحق العظيم آبادي . طبعة دار الكتب

العلمية . بيروت . الطبعة الثانية . ١٤١٥هـ : ٢٢٥/٨ .

قال ابن منظور (رحمه الله) :

"الفتان أيضاً اللص الذي يعرض للرفقة في طريقهم . فينبغي فهم أن يتعاونوا على اللص" .

لسان العرب : ٣١٩/١٣ .

(٣) صحيح البخاري : بلفظه (وهو جزء من حديث) : في كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب من لم ير إكفار من قال

ذلك متأولاً أو جاهلاً : (٧٤) . برقم : (٦١٠٦) . ص : ١٣٠٧ . ولفظ مقارب في : كتاب الأذان : (٥/١٠) . باب

من شك إمامه إذا طوّل : (٢١٤/٦٣) . برقم : (٧٠٥) . ص : ١٥٨ . وفي باب إذا صلى ثم أمّ قوماً : (٢١٧/٦٦) .

برقم : (٧١١) . ص : ١٥٩ . ونحوه : في باب إذا طوّل الإمام وكان للرجل حاجة فخرج فصلّى : (٢١١/٦٠) .

برقم : (٧٠١) . ص : ١٥٧ .

صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الصلوة : (٤) . باب القراءة في العشاء : (٣٦) . برقم : (٤٦٥) . ٣٣٩/١ .

ونحوه : في : ٣٤٠/١ .

(٤) انظر : عون المعبود : ٥/٣ .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

"ومعنى الفتنة هاهنا أن التطويل يكون سبباً لخروجهم من الصلوة وللتكره للصلوة في الجماعة" .

فتح الباري . لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . محب الدين الخطيب . طبعة دار

المعرفة . بيروت . ١٣٧٩هـ : ١٩٥/٢ .

٦ - العذاب:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾
[النحل: ١١٠]. أي من بعد ما عذبوا. (١)

كما تطلق الفتنة على نوع من العذاب وهو الأذى. ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾
[العنكبوت: ١٠]. أي جعل أذى الناس كعذاب الله تعالى. (٢)

وقد تطلق على الإحراق بالنار خاصة، وهو نوع من العذاب. من ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿[الذاريات: ١٣-١٤].

أي يوم هم على النار يحرقون فيقال لهم تقرعياً وتحقيراً وتوبيخاً: ذوقوا
حريقكم الذي كنتم به تستعجلون. ومن ذكر العذاب من العلماء إنما أراد العذاب
بالنار وهو الإحراق بها. (٣)

وقال الداودي (رحمه الله):

"يحتمل أن يريد بقوله: "فَتَان": أي مُعَذَّب لأنه عذبهم بالتأويل". فتح الباري: ١٩٥/٢. طبعة دار المعرفة
عون المعبود: ٥/٣. فعلى هذا يكون المراد بالفتنة هنا العذاب.

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: ٢٢٠/٣. الكشف: ٣٤٥/٢. المكتبة التجارية. زاد المسير: ٣٦٤/٤. وقد نقل
ذلك المعنى عن ابن عباس (رضي الله عنهما). التفسير الكبير: ١٢٥/٢٠ - ١٢٦. الجامع لأحكام القرآن:
١٩٢/١. قاموس القرآن للدأمغاني: ص: ٣٤٨. كشف السرائر لابن العماد: ص: ١٢٤. غريب الحديث
للحري: ٩٣٥/٣.

(٢) انظر: مجاز القرآن: ١١٤/٢. تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٢. جامع البيان: ١٣٢/٢٠ - ١٣٣. الخلي. وقد
نقل أقوال من قال ذلك من التابعين وغيرهم. معاني القرآن للزجاج: ١٦١/٤. الكشف. مطبعة الاستقامة بالقاهرة.
الطبعة الثانية: ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م. ٣٤٩/٣. الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٩/١٣. تفسير القرآن العظيم:
٦٤٦/٣ - ٦٤٧. محاسن التأويل. ٤٧٤٠/١٣. غريب الحديث للحري: ٩٣٤/٣.

(٣) انظر: غريب القرآن وتفسيره لليزيدي: ص: ٣٤٨. تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٢. جامع البيان: ١٩٣/٢٦ -
١٩٥. الخلي. وقد نقل أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم في ذلك. المفردات في غريب القرآن: ص: ٣٧١.
الجامع لأحكام القرآن: ٣٤/١٧ - ٣٥. تفسير القرآن العظيم: ٣٥٩/٤. قاموس القرآن للدأمغاني: ص: ٣٤٨.

ومن ذلك استعادة النبي ﷺ من فتنَةِ النَّارِ^(١). أي إحراقها وعذابها.^(٢)
ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمَّا تَبَايَعُوا
فَلَهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].
أي أحرقوهم وعذبوهم بالنار.^(٣)

٧- القتل :-

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ
الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١]
أي إن خفتُم أن يقتلكم الذين كفروا . فقد فسرت الفتنة هنا بالقتل^(٤).

كشف السرائر لابن العماد: ص: ١٢٣. محاسن التأويل: ٥٥٢٥/١٥. تيسر الكريم الرحمن: ص: ٧٥١. غريب
الحديث للحري: ٩٣٥-٩٣٧/٣. التبيان في أقسام القرآن. لابن قيم الجوزية. تصحيح وتعليق محمد حامد
الفقي. دار المعرفة. بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م. ص: ٢٩٠. روضة المحييين ونزهة المشتاقين. المنسوب لابن
القيم. فسر غريبه وراجع صابر يوسف. مطبعة الفجالة الجديدة. القاهرة. ١٩٧٣م. ص: ٤٣.
(١) انظر: صحيح البخاري: كتاب الدعوات: (٥٤/٨٠). باب التَّعَوُّذِ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ: (٣٩). برقم: (٦٣٦٨).
ص: ١٣٥٧. وفي باب الاستعادة من أرذل العمر ومن فتنة الدنيا وفتنة النار: (٤٤). برقم: (٦٣٧٥). ص:
١٣٥٩.

(٢) وانظر: فتح الباري: ١١/١٨١. طبعة دار المعرفة.

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٢. جامع البيان: ١٣٧/٣٠. الخلي. نقل فيه أقوال من قال ذلك من
الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ وغيرهم. الكشَّاف. طبعة مصطفى الباي الخلي وأولاده. عصر: ٢٣٧/٤. التفسير الكبير:
١٢١/٣١. الجامع لأحكام القرآن: ٢٩٥/١٩. تفسير القرآن العظيم: ٧٨١/٤. قاموس القرآن للدِّمَغَانِي: ص:
٣٤٨. كشف السرائر لابن العماد: ص: ١٢٣. معجم ألفاظ القرآن الكريم. مجمع اللغة العربية. الطبعة الثانية
١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر: ٣١٢/٢. غريب الحديث للحري: ٩٣٥/٣. زاد
المعاد: ١٦٩/٣. التبيان في أقسام القرآن: ص: ٢٩٠.

(٤) انظر: جامع البيان: ١٢٣/٩. شاكر. زاد المسير: ١٨١/٢. قاموس القرآن للدِّمَغَانِي: ص: ٣٤٨. كشف
السرائر لابن العماد: ص: ١٢٤. محاسن التأويل: ١٥٠٢/٥. إلَّا أَنَّهُ قَالَ: "يقاتلكم" فجعل الفتنة المقاتلة لا القتل.
غريب الحديث للحري: ٩٤٠/٣.

ومثلها قوله تعالى ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]. أي أن يقتلهم^(١).

عن أسامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أشرف على أطم^(٢) من أطام المدينة ثم قال: "هل ترون ما أرى إنني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر"^(٣).
يعني بذلك : القتل والحروب التي تكون بين المسلمين.^(٤)

١- الإِثْم : -

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنَنِي ۖ لَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

(١) انظر: زاد المسير: ٤/٤٦. نقل ذلك عن ابن عباس (رضي الله عنهما). قاموس القرآن للدعاعي: ص: ٣٤٨.

كشف السرائر لابن العماد: ص: ١٢٤. غريب الحديث للحري: ٣/٩٤٠.

(٢) أطم: الأطم بضم الهمزة والطاء هو القصر والحسن، وجمعه أطام. ومعنى أشرف: على وارتفع.

شرح صحيح مسلم. للإمام النووي. طبعة دار الفكر: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م : ٧/١٨.

وانظر: غريب الحديث. للقاسم بن سلام أبي عبيد الهروي. تحقيق محمد عبد المعيد خان. دار الكتاب العربي.

بيروت. الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ - ٧٢/٢ - ٧٣. غريب الحديث. لعبد الله بن مسلم بن قتيبة. تحقيق عبد الله

الجبوري. مطبعة العاني. بغداد. الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ - ٢٨٦/٢. غريب الحديث. لحمد بن محمد بن إبراهيم

الخطاطي. تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرابوي. طبعة جامعة أم القرى. مكة المكرمة. ١٤٠٢هـ - ١٠٥/١.

الفائق: ٤٧/١. النهاية في غريب الحديث: ٥٤/١.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الحج: (٨/٢٩). باب أطام المدينة: (٢١٧/٨). برقم: (١٨٧٨). ص: ٣٩١.

وفي كتاب المظالم والغصب: (٢٢/٤٦). باب الغرفة والعلية المشرفة: (٢٥). برقم: (٢٤٦٧). ص: ٥١٢. إلا أنه

قال: "إني أرى". و بلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النبوة في الإسلام: (٢٥). برقم:

(٣٥٩٧). ص: ٧٥٧. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النبي ﷺ: "ويل للعرب من شرّ قد اقترب": (٤).

برقم: (٧٠٦٠). ص: ١٤٩١.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط الساعة: (٥٢). باب نزول الفتن كمواقع القطر: (٣). برقم:

(٢٨٨٥). ٢٢١١/٤.

(٤) انظر: شرح النووي على مسلم: ٨/١٨. فتح الباري: ١٣/١٣. طبعة دار المعرفة.

قال الزَّجَّاج (رحمه الله) :

"أي لا تَوَثَّنِي بِأَمْرِكَ إِيَّاي بالخروج وذلك غير متيسر لي فأثم" (١).
فالفتنة هنا الإثم (٢). وبعض العلماء نصَّ على أنَّ المراد بالفتنة هنا المعصية (٣).
والمعنى متقارب .

٩- المصيبة والشر : —

من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝﴾ [الحج: ١١].

أي إن أصابه خير ورخاء وعافية اطمأنَّ به ، وإن أصابته مصيبة وشر وشدة ارتدَّ عن إسلامه وفارق دينه (٤).
وفي حديث عائشة (رضي الله عنها) في استعاذة النبي ﷺ من فتنة الفقر (٥).
فسرَّها بعض العلماء بالمصيبة (٦).

(١) معاني القرآن: ٤٥١/٢ .

(٢) انظر: مجاز القرآن: ٢٦١/١ . تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٣ . جامع البيان: ٢٨٦/١٤-٢٨٨ . شاكرو . وفيه أنَّ قائل ذلك هو الجَدُّ بن قيس أخو بني سلمة . فقد قال له النبي ﷺ عندما أراد غزوة تبوك: "هل لك يا جدَّ العام في جلد بني الأصفر — أي الرُّوم — ؟ فقال: يا رسول الله: أو تأذن لي ولا تفتني، فو الله لقد عرف قومي ما رجل أشدَّ عُجباً بالنساء مِنِّي ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: "قد أذنت لك". ففي الجدَّ بن قيس نزلت هذه الآية . زاد المسير: ٣٠٥/٣ . التفسير الكبير: ٨٣/١٦ . الجامع لأحكام القرآن: ١٥٩/٨ .

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥٩/٨ . زاد المعاد: ١٧٠/٣ .

(٤) انظر: جامع البيان: ١٢٢/١٧-١٢٣ . الحلبي . معاني القرآن للتحاسن: ٣٨٣/٤ . تفسير القرآن العظيم: ٣٣٥/٣ . — ٣٣٦ . تيسير الكريم الرحمن: ص: ٤٨٤ .

(٥) انظر: صحيح البخاري: كتاب الدَّعَوَات: (٥٤/٨٠) . باب التَّعوُّذ من المأثم والمغرم: (٣٩) . برقم: (٦٣٦٨) .

ص: ١٣٥٧ . وباب التَّعوُّذ من فتنة الفقر: (٤٦) . برقم: (٦٣٧٧) . ص: ١٣٥٩ .

صحيح مسلم: كتاب الذِّكْر والدَّعَاء والتَّوْبَة والاستغفار: (٤٨) . باب التَّعوُّذ من شر الفتن وغيرها: (١٤) .

برقم: (٥٨٩) . ٢٠٧٨-٢٠٧٩ .

(٦) انظر: فيض القدير: ١٢٧/٢ .

١٠- الفضيحة : -

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾

[المائدة: ٤١] .

قيل في معنى الفتنة هنا: أي ومن يرد الله فضيحته . وهناك أقوال أخرى (١).

١١- المعنرة : -

قال الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٣].

أي لم تكن معذرتهم حين قيل لهم ذلك إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين . ومن فسر من العلماء الفتنة هاهنا بالقول : أي بمعنى لم يكن قولهم . لا يخالف ما ذكر . إذ قولهم هو الذي اعتذروا به عن شركهم (٢).

١٢- الجنون : -

قال تعالى: ﴿فَسَتْبَصِرُ وَيُبَصِّرُونَ ﴿٦﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٥﴾﴾ [القلم: ٥، ٦].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١٧٦/٢ . زاد المسير: ٢٧٧/٢ . لسان العرب: ٣١٩/١٣ . تاج العروس: ٤٢٥/١٨ .

(٢) انظر: جامع البيان: ٢٩٧/١١-٣٠٠ . شاكرو . وقد ذكر من قال بذلك من الصحابة والتابعين . معاني القرآن للزجاج . ٢٣٥-٢٣٦/٢ . وقال : " وتأويل هذه الآية تأويل حسن في اللغة لطيف ، لا يفهمه إلا من عرف معاني الكلام وتصرف العرب في ذلك ، والله جلّ وعزّ ذكر في هذه الأفاضيص التي جرت في أمر المشركين وهم مفتنون بشركهم ، أعلم الله أنه لم يكن افتتاهم بشركهم وإقامتهم عليه إلا أن تبرّعوا منه وانتفوا منه ، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين . ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنساناً يحبّ غاويّاً فإذا وقع فيهلكة تبرّأ منه ، فتقول له: ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه " . زاد المسير: ١٤/٣ . الجامع لأحكام القرآن: ٤٠٢/٦ . تفسير القرآن العظيم: ٢٠٤/٢ . قاموس القرآن للدعاعي: ص: ٣٤٩ . كشف السرائر لابن العماد: ص: ١٢٤ . محاسن التأويل: ٢٢٧٣/٦-٢٢٧٤ .

إمّا أن يراد بالمفتون المجنون . وتكون الباء بمعنى في . فيكون الكلام: في أي الفريقين المجنون؟

وإمّا أن يراد بالمفتون الجنون . فيكون المفتون مصدراً بمعنى الفتون كقولك: معقود وميسور بمعنى العقد واليسر .
وقيل: المفتون هو الشيطان . أي قالوا: إنّ به شيطناً . وهو الذي يحصل من مسّه الجنون^(١).

١٣- الإِجَابُ بِالشَّيْءِ: —

قال تعالى: ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٥].

قال قوم موسى ﷺ: أي ربنا لا تظفر بنا قوم فرعون وتسلطهم علينا فيظنّوا أنّهم إنّما سلطوا علينا لأنهم على الحقّ ونحن على الباطل . فيعجبوا بذلك^(٢).

(١) انظر: جامع البيان : ٢٩/١٩-٢٠ . الحلي . ذكر من قال ذلك من الصحابة والتابعين . ثم قال:

"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: بأيكم الجنون؟ ووجه المفتون إلى الفتون بمعنى المصدر، لأنّ ذلك أظهر معاني الكلام" . التفسير الكبير: ٨٢/٣٠ . الجامع لأحكام القرآن: ٢٢٩/١٨ . تفسير القرآن العظيم: ٦٣٠/٤ . قاموس القرآن للدّامغاني : ص: ٣٤٩ . محاسن التأويل: ٥٨٩٣/١٦ . روضة المحيّن: ص: ٤٣ . التّبيان في أقسام القرآن: ص: ٢١٨-٢١٩ .

ذكر فيه ابن القيم (رحمه الله) أقوال العلماء في الآية: ثم قال:

"وهذه الأقوال كلّها تكلف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه . ويستصر: مضمّن معنى تشعر وتعلم ، فعذّي بالبلاء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به . قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ [العلق: ١٤] . وإذا

دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد" .

وانظر إلى أقوال أهل اللغة في معنى "الباء" في تهذيب اللغة: ٢٩٩/١٤ .

(٢) انظر: جامع البيان: ١٥/١٦٨-١٦٩ . شاكر . معاني القرآن للزّجاج: ٣٠/٣ . معاني القرآن للتّحسّس: ٣٠٩/٣ .

زاد المسير: ٧٤/٤ . التفسير الكبير: ١٤٦/١٧ . الجامع لأحكام القرآن: ٣٧٠/٨ . تفسير القرآن العظيم:

٦٦٣/٢ . غريب الحديث للحري: ٩٣٨-٩٣٩/٣ . إغاثة اللّهفان: ١٦٤/٢ . تاج العروس: ٤٢٥/١٨ .

وذهب ابن قتيبة (رحمه الله) إلى أن المراد بالفتنة هنا العبرة . فقال:
 " أي يعتبرون أمرهم بأمرنا، فإذا رأونا في ضررٍ وبلاء ورأوا أنفسهم في غبطة
 ورخاء ظنوا أنهم على حق ، ونحن على باطل" (١).
 وعن أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ قال: " ما تركت بعدي
 فتنة أضرَّ على الرجال من النساء" (٢).
 أي يعجب الرجال بالنساء فينشغلوا عن العمل الصالح. (٣)

١٤ - اللبس والشبهات : —

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ
 الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: ٧].

أي الذين في قلوبهم مرض وميل عن الاستقامة ، وانحرف لسوء قصدهم
 يتبعون ما تشابه من كلام الله طلباً لإيقاع غيرهم في الشبهات واللبس . وهو المراد
 بالفتنة هنا (٤).

ومن فسرها من العلماء بفساد ذات البين ، فسرها باللازم . لأن طلب الشبهات
 واللبس على عباد الله يؤدي إلى الخلاف بينهم والتقاتل وهو فساد ذات
 البين .

(١) تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٤ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب النكاح: (٤١/٦٧). باب ما يتقي من شوم المرأة: (١٨/١٧). برقم :

(٥٠٩٦). ص: ١١٢١ .

صحيح مسلم : كتاب الرقاق. باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء: (٢٦). برقم: (٢٧٤٠).

٢٠٩٧/٤ . وزاد: " هي أضرّ". و بلفظ مقارب : في الكتاب والباب السابقين . برقم: (٢٧٤١). ٢٠٩٨/٤ .

وزاد في الإسناد: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه .

(٣) انظر: فتح الباري: ٢٥٨/١١. طبعة دار المعرفة. لسان العرب: ٣١٩/١٣ .

(٤) انظر: جامع البيان: ١٩٦/٦-١٩٩ . شاکر . معاني القرآن للزجاج: ٣٧٧/١ . معاني القرآن للتحلس: ٣٠٨/٢ .

زاد المسير: ٣٠٣/١ . التفسير الكبير: ١٧٥/٧ . الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٤ . تفسير القرآن العظيم: ٥١٧/١ -

٥١٨ . محاسن التأويل: ٧٥٢/٤ . تيسير الكريم الرحمن: ص: ١٠١-١٠٢ .

﴿ الفصل الثاني ﴾

إخبار الرسول ﷺ بالفتن وتحذيره منها وظهورها

وفيه مبحثان:

﴿ المبحث الأول ﴾

إخبار الرسول ﷺ بالفتن وتحذيره منها

وفيه مطلبان :

﴿ المطلب الأول ﴾

إخبار الرسول ﷺ بالفتن

لقد أخبر الرسول ﷺ أصحابه بالفتن التي أوحى الله إليه بوقوعها في الأمة .
فعن أم سلمة (رضي الله عنها) زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة
فزعاً يقول: "سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن ، من يوقظ
صواحب الحجرات – يريد أزواجه – لكي يصلين ، رب كاسية في الدنيا عارية في
الآخرة " (١).

(١) صحيح البخاري : بلفظه في: كتاب الفتن : (٦٧/٩٢). باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه: (٦). برقم:
(٧٠٦٩). ص: ١٤٩٢. ولفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣). باب العلم والعظة بالليل: (٤٠). برقم: (١١٥).
ص: ٤٣-٤٢. وفي كتاب الصلاة: (٥/١٩). باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والتوافل من غير إيجاب:
(٤٨٢/٥). برقم: (١١٢٦). ص: ٢٣٩. وفي كتاب اللباس: (٥١/٧٧). باب ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللبس
والبسط: (٣١). برقم: (٥٨٤٤). ص: ١٢٦٤. وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب التكبير والتسبيح عند
التعجب: (١٢١). برقم: (٦٢١٨). ص: ١٣٢٧-١٣٢٨. ونحوه: في كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامت
النبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٥٩٩). ص: ٧٥٨.

وفي حديث أسامة بن زيد (رضى الله عنهما) قال: أشرف النبي ﷺ على أطم من أطام المدينة فقال: "هل ترون ما أرى؟ قالوا: لا . قال: "فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر" (١).

والتشبيه بوقع القطر في الكثرة والعموم، أي إنها كثيرة وتعم الناس ، لا تختص بها طائفة دون طائفة. وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم. (٢)

وقد كان ﷺ حريصاً كل الحرص على بيانها وتوضيح أمرها إلى أصحابه ﷺ . بل بلغ من حرصه في بيانها أن جعلها من أهم الأمور التي يجب أن يُعلم خبرها ويُنذر شرّها .

عن عبد الرحمن بن عبد ربّ الكعبة (٣) قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظلّ الكعبة ، والناس مجتمعون عليه ، فأتيتهم فجلست إليه ، فقال: كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خياءه (٤)، ومنا من ينتضل (٥)، ومنا من هو في جشّره (٦) ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : الصلّاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: "إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم ، وإن

(١) الحديث سبق تخريجه . انظر: ص: ١٨ .

(٢) شرح النووي على مسلم: ٧/١٨-٨ . عمدة القاري شرح صحيح البخاري . لبدر الدّين محمود بن أحمد العيني . طبعة دار إحياء التراث العربي . بيروت : ١٨٢/٢٤ .

(٣) هو عبد الرحمن بن عبد ربّ الكعبة العائذي أو الصائدي . كوفي ثقة . من كبار التابعين . سمع ابن مسعود وعبد الله بن عمرو . روى له مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة هذا الحديث وحده .

وانظر: التاريخ الكبير: ٣١٩/٥ . معرفة الثقات: ٨١/٢ . الجرح والتعديل: ٢٦١/٥ . ثقات ابن حبان: ١٠١/٥ .

تهذيب الكمال: ٢٥١/١٧ . الكاشف: ٦٣٥/١ . تهذيب التهذيب: ١٩٩/٦ . تقريب التهذيب: ٣٤٥/١ .

(٤) الخياء: أحد بيوت العرب من وبر أو صوف ، ولا يكون من شعر ، ويكون على عمودين أو ثلاثة . والجمع أخبية . وسمي خباء لأنه يُختبأ فيه . النهاية في غريب الحديث: ٩/٢ بتصرف يسير .

(٥) ينتضل: أي يترامى بالسهم لأجل السبق .

انظر: الفائق: ٤٣٩/٣ . النهاية في غريب الحديث: ٧١/٥ .

(٦) جشّره: المراد أنهم أخرجوا دوابهم ومكثوا معها للرعي .

وانظر: غريب الحديث للهروي: ٤١٩/٣ . غريب الحديث لابن قتيبة: ٦٨/٢ . غريب الحديث للحطّلي: ٦٧٧/١ .

الفائق: ٢١٥/١ . النهاية في غريب الحديث: ٢٧٣/١ .

أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيئ فتنة فيرقق بعضها بعضاً^(١)، وتجيئ الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي ثم تتكشف، وتجيئ الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه... الحديث (٢).

وقد أطل في ذكرها حتى ينجلي أمرها، وينتهك سترها .
عن حذيفة ؓ قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه^(٣).

وعن أبي زيد عمرو بن أخطب ؓ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلّى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلّى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا^(٤).

وعن طارق بن شهاب (رحمه الله)^(٥) قال: سمعت عمر ؓ يقول: "قام فينا النبي ﷺ مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار

(١) يرقق بعضها بعضاً : أي : يخسن. غريب الحديث للهروي: ٤٤٢/٤.

قال ابن الأثير (رحمه الله) : "والمعنى : أي تُشَوِّف بتحسينها وتسويلها" . النهاية في غريب الحديث: ٢٥٣/٢.
وانظر: الفائق: ٧٩/٢.

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول: (١٠). برقم: (١٨٤٤). ١٤٧٢/٣-١٤٧٣.

(٣) المرجع السابق: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط الساعة: (٥٢). باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة: (٦). برقم: (٢٨٩١). ٢٢١٧/٤.

(٤) المرجع السابق: بلفظه في: الكتاب والباب السابقين. برقم: (٢٨٩٢). ٢٢١٧/٤.

(٥) طارق بن شهاب بن عبد شمس أبو عبد الله الأسلمي البجلي الأحمر الكوفي . أدرك الجاهلية . قال أبو داود: "رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه" . وقال إحياء ابن حجر في الإصابة: "إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي على

منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه " (١) .

وكان ﷺ يكثر من ذكرها، فتارة يبين أنواعها، وأخرى يفصل إجمالها .

عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: كنا قعوداً عند رسول الله فذكر الفتن فأكثر في ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس (٢). فقال قائل: يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: "هي هَرَبٌ وَحَرَبٌ" (٣)، ثم فتنة

الراجح ، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايتة عنه مرسل صحابي ، وهو مقبول على الراجح". وكانت أكثر روايته عن الصحابة. توفي سنة: ٨٣هـ. وقيل: ٨٢هـ .

وانظر: الطبقات الكبرى: ٦٦/٦. التاريخ الكبير: ٣٥٢/٤. معرفة الثقات: ٤٧٥/١. الجرح والتعديل: ٤٨٥/٤. ثقات ابن حبان: ٢٠١/٣. مشاهير علماء الأمصار . لأبي حاتم محمد بن حبان البستي . تحقيق : م . فلايشهر طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . ١٩٥٩م : ٤٨/١ . الكاشف: ٥١١/١ . الإصابة في تمييز الصحابة . لابن حجر العسقلاني . تحقيق : علي محمد الجاوي . طبعة دار الجيل . بيروت . الطبعة الأولى . ١٤١٢هـ — ١٩٩٢م : ٥١٠/٣ . تهذيب التهذيب: ٤/٥ . تقريب التهذيب: ٢٨١/١ .

(١) صحيح البخاري : بلفظه في: كتاب بدء الخلق: (٣٥/٥٩). باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي

يَبْدُوْا اَلْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيْدُهُ ﴾ [الروم: ٢٧] : (١). برقم: (٣١٩٢). ص: ٦٧٥.

(٢) الأحلاس : جمع جلس وهو كساء يكون تحت البردعة التي توضع على ظهر البعير. وهو أيضاً بساط يسط في البيت.

انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٥٦٢/١. غريب الحديث للخطابي: ٤٢٧/٢. الفائق: ٣٠٤/١. النهاية في غريب الحديث: ٤٢٣/١.

قال الخطابي (رحمه الله):

"إنما أضيفت الفتنة إلى الأحلاس لدوامها وطول لبثها . يقال للرجل إذا كان يلزم بيته لا يرح منه : هو جلس بيته ، لأن المجلس يفترش فيبقى على المكان مادام لا يرفع . وقد يحتمل أن تكون هذه الفتنة إنما شبّهت بالأحلاس لسواد لونها وظلمتها".

معالم السنن لأبي سليمان الخطابي مع مختصر سنن أبي داود وتهذيب ابن القيم . تحقيق محمد حامد الفقي . مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ — ١٩٤٩م . : ١٣١/٦ . وانظر: غريب الحديث له: ٢٨٧/١ . و الفائق: ٣٠٥/١ .

(٣) الحَرَبُ بالتحريك : نهب مال الإنسان وتركه لاشيء له . النهاية في غريب الحديث: ٣٥٨/١ .

وقال الخطابي (رحمه الله) : "الحَرَبُ : ذهاب المال والأهل ، يقال : حرب الرجل فهو حريب : إذا سلب أهله وماله". معالم السنن مع المختصر: ١٣١/٦ .

السَّراء^(١) دَخَنُهَا^(٢) من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه منِّي وليس منِّي ، وإنما أوليائي المتَّقون . ثمَّ يصطَلح النَّاس على رجل كورك على ضِلَع .^(٣) ثمَّ فتنَّة الدَّهِيَّاء^(٤) لا تدع أحداً من هذه الأُمَّة إلاَّ لطمته لكمة ، فإذا قيل انقضت تمادت ، يصبح الرَّجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، حتَّى يصير النَّاس إلى فسْطَاطين^(٥) :

(١) السَّراء : هي البطحاء . الفائق: ٣٠٥/١ . النِّهاية في غريب الحديث: ٣٦١/٢ .

كما تطلق السَّراء على حالة اليسر والسَّعة والرَّاحة ، وهي بخلاف الضَّراء . انظر: المرجع السَّابق: ٣٦١/٢ .

(٢) دَخَنُهَا: الدَّخَن: هو الدَّخان . وأصله أن يكون في لون الدَّابة أو الثَّوب أو غير ذلك كدورة إلى سواد .

انظر: غريب الحديث للهروي: ٢٦٢/٢ .

شبه ظهور تلك الفتنه وإثارتها بظهور الدَّخان وارتفاعه ، أي أنَّها تنور من تحت قدمه كما يثور الدَّخان ويرتفع .

لأنه — أي الرَّجل — سبب إثارتها .

انظر: غريب الحديث للخطَّابي: ٢٨٧/١ . النِّهاية في غريب الحديث: ١٠٩/٢ . وانظر: الفائق: ٣٠٥/١ .

(٣) كورك على ضِلَع :

قال الخطَّابي (رحمه الله) :

"كورك على ضلع: مثل ، ومعناه: الأمر الذي لا يثبت ولا يستقيم . وذلك أنَّ الضلع لا يقوم بالورك ولا

يحمّله ، وإنما يقال في باب الملازمة والموافقة إذا وصفوا : هو ككفٍّ على ساعد ، وكساعد في ذراع ، أو نحو

ذلك . يريد أنَّ هذا الرَّجل غير خَلِيق للملك ولا مستقل به " . معالم السنن مع المختصر: ١٣١/٦ — ١٣٢ .

وذكر نحوه منه في غريب الحديث: ٢٨٧/١ . وانظر: الفائق: ٣٠٥/١ .

وقال ابن الأثير: (رحمه الله) :

" يصطَلح على رجل كورك على ضلع : أي يصطَلحون على أمرٍ واحدٍ لا نظام له ولا استقامة ، لأنَّ الورك لا

يستقيم على الضلع ولا يتركب عليه ، لاختلاف ما بينهما وبعده " . النِّهاية في غريب الحديث: ١٧٦/٥ .

(٤) الدَّهِيَّاء : تصغير الدَّهْماء ، وهي الدَّاهية . انظر: غريب الحديث للهروي: ١٢٥/٤ . الفائق: ٣٠٥/١ .

قيل: صغرها على طريق المذمة لها . انظر: غريب الحديث للخطَّابي: ٢٨٧/١ .

وقيل: صغرها للتعظيم . وأراد بفتنة الدَّهِيَّاء : الفتنة المظلمة . انظر: النِّهاية في غريب الحديث: ١٤٦/٢ .

(٥) الفُسْطَاط: بالضَّم والكسر: المدينة التي فيها مجتمع النَّاس ، وكلَّ مدينة فسْطَاط .

المرجع السَّابق: ٤٤٥/٣ .

قال الرَّيْشَرِي : "هو ضرب من الأبنية في السَّفر دون السَّرادق" . الفائق: ١١٦/٣ .

زاد ابن الأثير: "وبه سُمِّيت المدينة . ويقال لمصر والبصرة الفسْطَاط" . النِّهاية في غريب الحديث: ٤٤٥/٣ .

فُسْطَاطُ إِيْمَانٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ ، وَفُسْطَاطُ نِفَاقٍ لَا إِيْمَانَ فِيهِ . فَإِذَا كَانَ ذَاكُمْ فَانْتَظِرُوا
الدَّجَالَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ غَدِهِ" . (١)

وَمِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ كَانُوا عِنْدَهُمُ الْعِلْمُ الْكَثِيرُ بِأَحَادِيثِ
الْفِتَنِ . (٢) وَإِنْ خَصَّ بَعْضُهُمْ بِمَزِيدٍ عِلْمٍ .

عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : " أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَيَّ أَنْ تَقُومَ
السَّاعَةُ ، فَمَا مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَدْ سَأَلْتَهُ ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ مَا يَخْرُجُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنَ
الْمَدِينَةِ " (٣) .

وَحُذَيْفَةُ ﷺ هُوَ الْقَائِلُ : " وَاللَّهِ إِنِّي لِأَعْلَمُ النَّاسَ بِكُلِّ فِتْنَةٍ هِيَ كَائِنَةٌ فِيمَا بَيْنِي
وَبَيْنَ السَّاعَةِ . وَمَا بِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَسْرًا إِلَيَّ فِي ذَلِكَ شَيْئًا لَمْ يَحْدِثْهُ
غَيْرِي . وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَحْدِثُ مَجْلِسًا أَنَا فِيهِ عَنِ الْفِتَنِ ، فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَعِدُ الْفِتْنَ : " مِنْهُمْ ثَلَاثٌ لَا يَكْدُنُ يَذْرُنَّ شَيْئًا ، وَمِنْهُمْ فِتْنٌ كَرِيحُ
الصَّيْفِ ، مِنْهَا صَغَارٌ وَمِنْهَا كِبَارٌ " . قَالَ حُذَيْفَةُ : فَذَهَبَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ كُلُّهُمْ غَيْرِي " (٤) .
وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ لَمْ يُشَيِّعُوا أَحَادِيثَ الْفِتَنِ كَمَا أَشَاعُوا أَحَادِيثَ
الْأَحْكَامِ . وَإِنَّمَا اقْتَصَرُوا عَلَى مَا فِيهِ نَفْعٌ وَفَائِدَةٌ . وَسَكَنُوا عَمَّا يُؤَدِّي إِلَى الشَّرِّ .

(١) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب الفتن والملاحم: (٣٤). باب ذكر الفتن ودلائلها: (١). برقم: (٤٢٤٢).

قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٤٦٣.

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ١٣٣/٢. قال أحمد شاكر رحمه الله: "إسناده صحيح". مسند أحمد بتحقيق أحمد

شاكر. طبعة دار المعارف. مصر. ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م: ٢٤/٩ - ٢٦. برقم: (٦١٦٨).

المستدرك على الصحيحين. ل محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. طبعة دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة

الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا: بلفظ مقارب في: ٥١٣/٤. وقال: "هذا

حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(٢) انظر: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: لأبي عبد الله القرطبي. دار الريان للتراث. القاهرة. الطبعة

الثانية: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م: ص: ٦٤١.

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراف الساعة: (٥٢). باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة:

(٦). برقم: (٢٨٩١). ٢٢١٧/٤.

(٤) المرجع السابق: بلفظه في: الكتاب والباب السابقين. برقم: (٢٨٩١). ٢٢١٦/٤.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "حفظت من رسول الله وعائين، فأما أحدهما فبثنته ، وأما الآخر فلو بثنته قطع هذا البلعوم" (١).

وهو الذي قال لجماعة فيهم مروان بن الحكم (٢) : سمعت الصادق المصدوق يقول: "هلكة أمّتي على يد غلّمة من قريش " . فقال مروان: لعنة الله عليهم غلّمة . فقال أبو هريرة : "لو شئت أن أقول بني فلان ، وبني فلان لفعلت" (٣) .

قال القرطبي (رحمه الله):

"قال علماؤنا رحمة الله عليهم: هذا الحديث يدلّ على أنّ أبا هريرة كان عنده من علم الفتن العلم الكثير، والتّعيين على من يحدث عنه الشرّ الغزير، ألا تراه يقول: لو شئت قلت لكم هم بنو فلان وبنو فلان ، لكنّه سكت عن تعيينهم مخافة ما يطرأ من ذلك من المفاصد" (٤) .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب العلم : (٣) . باب حفظ العلم : (٤٢) . برقم: (١٢٠) . ص: ٤٣ .
(٢) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو عبد الملك الأموي القرشي . ولد سنة اثنتين من الهجرة . ولم يصح له سماع من النبي صلى الله عليه وآله ، ولم تثبت له صحبة . كان ابن عمّ عثمان رضي الله عنه وكتبه في خلافته . تولّى إمرة المدينة لمعاوية ، وبويع له بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد ، وخلافته تسعة أشهر وأيام . مات في رمضان سنة ٦٥ هـ .

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٣٥/٥ . التاريخ الكبير: ٣٦٨/٧ . الجرح والتعديل: ٢٧١/٨ . تهذيب الكمال: ٣٨٧/٢٧ . الكاشف: ٢٥٣/٢ . الإصابة: ٢٥٧/٦ . تهذيب التهذيب: ٨٢/١٠ . تقريب التهذيب: ٥٢٥/١ . لسان الميزان: ٣٨٢/٧ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب قول النبي صلى الله عليه وآله : " هلاك أمّتي على يدي أغيلمة سفهاء" : (٣) . برقم: (٧٠٥٨) . ص: ١٤٩٠ . ولفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٣٧/٦١) . باب علامات النبوة في الإسلام: (٢٥) . برقم: (٣٦٠٤) . ص: ٧٥٨ . وبرقم: (٣٦٠٥) . ص: ٧٥٨-٧٥٩ .
صحيح مسلم: بمعناه في: كتاب الفتن وأشراف الساعة: (٥٢) . باب لا تقوم الساعة حتّى يمرّ الرَّجل بقر الرَّجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء: (١٨) . برقم: (٢٩١٧) . ٢٢٣٦/٤ .
(٤) التذكرة: ص: ٦٤٣ .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"والمراد بالأمة هنا أهل ذلك العصر ومن قارهم لا جميع الأمة إلى يوم القيامة ... وعن أبي هريرة رفعه : "أعوذ بالله من إمارة الصّبيان ، قالوا: وما إمارة الصّبيان؟ قال: إن أطعموهم هلكتم — أي في دينكم — وإن عصيتموهم أهلكوكم " أي في دنياكم بإزهاق النفس أو بإذهاب المال أو هما . وفي رواية ... أن أبا هريرة كان يمشي في السّوق ويقول: "اللّهم لا تدركني سنة ستين ولا إمارة الصّبيان" . وفي هذا إشارة إلى أنّ أوّل الأغيلمة كان في سنة

﴿المطلب الثاني﴾

تحذير الرسول ﷺ من الفتن

لقد حذر النبي ﷺ من الفتن ، و أنذر بها . وما حذر وأنذر به فلا شك في وقوعه ، وقد قال سبحانه في شأنه: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤،٣] .

عن زينب بنت جحش (رضي الله عنها) زوج النبي ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ يوماً فزعاً مُحَمَّرًا وجهه يقول: "لا إله إلا الله ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه" . وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها . قالت: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصّالحون؟ قال: "نعم إذا كثّر الخبث" (١) .
ففي الحديث تحذير بقرب وقوع الشرّ وهو المعبر عنه بقوله "فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه" (٢) .

ستين ، وهو كذلك فإن يزيد بن معاوية استخلف فيها وبقي إلى سنة أربع وستين فمات ، ثم ولي ولده معاوية ومات بعد أشهر ... والمراد أنهم يهلكون الناس بسبب طلبهم الملك والقتال لأجله فتفسد أحوال الناس ، ويكثر الخبط بتوالي الفتن ، وقد وقع الأمر كما أخبر ﷺ .

فتح الباري لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . الطبعة الأولى: ١٩٩٣م-١٤١٤هـ . ٥٠٠/١٤ .

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠) . باب قصة يأجوج ومأجوج: (٨/٧) .

برقم: (٣٣٤٦) . ص: ٧٠٤ . وفي كتاب المناقب: (٣٧/٦١) . باب علامات النبوة في الإسلام: (٢٥) . برقم:

(٣٥٩٨) . ص: ٧٥٧-٧٥٨ . وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب قول النبي ﷺ "ويل للعرب من شرّ قد اقترب":

(٤) . برقم: (٧٠٥٩) . ص: ١٤٩٠-١٤٩١ . وفي كتاب الأحكام: (٦٨/٩٣) . باب يأجوج ومأجوج:

(٢٩/٢٨) . برقم: (٧١٣٥) . ص: ١٥٠٣ .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراف الساعة: (٥٢) . باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج:

(١) . برقم: (٢٨٨٠) . ٢٢٠٨/٤ . و بلفظ مقارب في: ٢٢٠٧/٤ .

(٢) انظر: عون المعبود: ٢١٥/١١ .

وإذا فتح ذلك القدر في زمنه ﷺ لم يزل الفتح يتسع على مرّ الأوقات ^(١). وفي ذلك دلالة على توالي الفتن ووقوعها في الأمة .

وجاء ذلك صراحة في حديث أم سلمة "ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن" ^(٢).

وفي حديث أسامة "فإنّي لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر" ^(٣). وخاطب بذلك العرب وخصّهم بالذكر لأنّهم كانوا حينئذ معظّم من أسلم ^(٤). وأنّ الفتن إذا وقعت كان الهلاك إليهم أسرع ^(٥).

وقد حثّ النبي ﷺ على مواجهة تلك الفتن التي دنا أمرها وقرب أجلها بالمسارعة بالأعمال الصالحة، لشدّتها، وظلمتها، وعدم تبيّن أمرها، وتخبّط المرء فيها، وتأرجحه بين الإيمان والكفر عند حلولها. وفي ذلك تحذير منها أيّما تحذير . فعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: "بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا" ^(٦).

قال الإمام النووي (رحمه الله):

"معنى الحديث الحثُّ على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذّرها، والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا القمر . ووصف ﷺ نوعاً من شدائد تلك الفتن وهو أنّه يمسي مؤمناً ثمّ

(١) فتح الباري: ٥٠٤/١٤.

(٢) سبق تخريج الحديث. انظر: ص: ٢٣ .

(٣) سبق تخريج الحديث. انظر: ص: ١٨ .

(٤) انظر: فتح الباري: ٦٢١/١٤. عون المعبود: ٢١٥/١١.

(٥) عمدة القاري: ١٨١/٢٤.

(٦) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب الحثّ بالمبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن: (٥١). برقم:

(١١٨). ١١٠/١.

يصبح كافراً أو عكسه — شكّ الراوي — وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب والله أعلم" (١) .

والمراد من التشبيه بظلمة الليل بيان حال الفتن من حيث إنه بشيع فظيع ، ولا يعرف سببها ولا طريق الخلاص منها (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "يتقارب الزمان ، وينقص العمل، ويلقى الشُّحُ (٣) ، وتظهر الفتن ، ويكثرُ الهرجُ " . قالوا: يا رسول الله أئيم هو؟ قل: " القتل القتل " (٤) .

(١) شرح التووي على مسلم: ١٣٣/٢ .

(٢) تحفة الأحوذ بشرح جامع الترمذي . لأبي على محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري . دار الكتب العلمية . بيروت : ٣٦٤/٦ .

روى الترمذي عن الحسن البصري (رحمه الله) أنه كان يقول في هذا الحديث: "يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً" . قال : يصبح الرجل محرماً لدم أخيه وعرضه وماله ، ويمسي مستحلاً له . ويمسي محرماً لدم أخيه وعرضه وماله، ويصبح مستحلاً له".
سنن الترمذي المعروف بجامع الترمذي . لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي . طبعة بيت الأفكار الدولية. ١٤٢٠هـ — ١٩٩٩م: كتاب الفتن: (٣٠). باب ما جاء ستكون فتن كقطع الليل المظلم: (٣٠). برقم: (٢١٩٨) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح الإسناد عن الحسن". ص: ٣٦٥ . وهذا من قصر المعنى العام على المعنى الخاص . والأولى حمل الحديث على عمومته .

(٣) الشُّحُ : هو أشدُّ البخل . النهاية في غريب الحديث : ٤٤٨/٢ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب ظهور الفتن: (٥). برقم: (٧٠٦١). ص: ١٤٩١ . ولفظ مقارب في: كتاب الأدب : (٥٢/٧٨). باب حسن الخلق والسَّخاء وما يكره من البخل: (٣٩). برقم: (٦٠٣٧). ص: ١٢٩٥ . ونحوه في: كتاب العلم: (٣). باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس: (٢٤). برقم: (٨٤). ص: ٣٦ . وفي كتاب الصلاة: (٥/١٥). باب ما قيل في الزلازل والآيات: (٤٢٤/٢٧). برقم: (١٠٣٦). ص: ٢٢١ . وفي كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النبوة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٦٠٨). ص: ٧٥٩ . وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور: (٢٣/٢٢). برقم: (٧١١٥). ص: ١٥٠٠ . عن أبي موسى وعبد الله بن مسعود (رضي الله عنهما) . وفي باب : (٢٦/٢٥). برقم: (٧١٢١). ص: ١٥٠٠-١٥٠١ . عن أبي موسى وعبد الله أيضاً.
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٤٧). باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان: (٥). برقم: (١٥٧). ٢٠٥٧/٤ . ونحوه في: كتاب الفتن وأشراط الساعة: (٥٢). باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: (٤). برقم: (١٥٧). ٢٢١٥/٤ .

فقله : "تظهر الفتن" المراد كثرتها واشتهارها وعدم التكاثر بها (١) .
ففي هذه النصوص تنبيه منه ﷺ للأمة وتحذير لها من الفتن التي يتوقع
حلولها، ويترقب وقوعها ، كي تحزم الأمة أمرها فلا تسقط فريسة لها ، ولا تتحرف
بسببها عن دينها ، ولا تزيغ من أجلها عن شرعها ، وتعدّ العدة لمواجهة
ومجابهتها ، لخطورتها ، وسوء حالها ، وكرامة شأنها .

(١) فتح الباري: ٥٠٩/١٤ . عمدة القاري: ١٨٣/٢٤ .

المبحث الثاني

ظهور الفتن

وفيه تمهيد ومطالب:

التمهيد

وقوع ما أخبر عنه

لقد ظهر كثير من الفتن من بعد النبي ﷺ إلى يومنا هذا ، تصديقاً لما ذكر ﷺ وهي لا تزال في ازدياد وتكاثر ، حتى ملأت أرجاء الأرض ، وعمت وطمت ، وقلّ بلد من بلاد الدنيا إلّا وحلّ فيه أنواع ، ووقع فيه أصناف منها . وإن كثرت في بعض البلاد دون بعض .

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: ذكر النبي ﷺ : "اللهم بارك لنا في شأمننا، اللهم بارك لنا في يمننا" . قالوا : وفي نجدنا قال: "اللهم بارك لنا في شأمننا، اللهم بارك لنا في يمننا" . قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا . فأظنه قال في الثالثة : "هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان" (١).

وفي رواية عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ أنه قام إلى جنب المنبر فقال: "الفتنة ههنا ، الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان أو قال: قرن الشمس" (٢) .

ونجد المراد في هذه الأحاديث نجد العراق لا نجد الحجاز، لأن النبي ﷺ أشار إلى المشرق وهو يومئذ بالمدينة ، ومشرق المدينة إنما هو العراق وما جاورها .

(١) الحديث: سبق تخريجه . ص : ١٢ . ولكنه بهذا اللفظ في صحيح البخاري: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول

النبي ﷺ : "الفتنة من قبل المشرق" : (١٦). برقم: (٧٠٩٤). ص: ١٤٩٦ . و بلفظ مقارب في: كتاب الصلاة: (٥/١٥) . باب ما قيل في الزلازل والآيات: (٤٢٤/٢٧). برقم: (١٠٣٧). ص: ٢٢١-٢٢٢ .

(٢) الحديث: سبق تخريجه. انظر: ص : ١٢ . ولكنه بهذا اللفظ في صحيح البخاري: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب

قول النبي ﷺ "الفتنة من قبل المشرق" : (١٦). برقم: (٧٠٩٢). ص: ١٤٩٦ .

قال الخطابي (رحمه الله):

" نجد من جهة المشرق ، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها ، وهي مشرق أهل المدينة ، وأصل النجد ما ارتفع من الأرض ، وهو خلاف الغور ، فإنه ما انخفض منها ، وتهامة كلّها من الغور ، ومكة من تهامة" (١) .
وقد جاء ذلك صراحة عن سالم بن عبد الله (رحمه الله) (٢) الذي روى الحديث عن أبيه .

فقد روى مسلم بسنده إلى سالم بن عبد الله بن عمر يقول: " يا أهل العراق ما أسألكم عن الصّغيرة ، وأركبكم للكبيرة ، سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنّ الفتنة تجي من هاهنا " وأوما بيده نحو المشرق . " من حيث يطلع قرنا الشيطان" . وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض . وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عزّ وجلّ له: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ [ص: ٤٠] " (٣)

وقد وقع مصداق ما ذكره ﷺ ، إذ كانت العراق وما جاورها مصدراً لعظائم الفتن التي حلّت بأهل الإسلام ، قديماً وحديثاً . وكذلك البدع والفرق الضالة نشأت من تلك الناحية (٤) .

(١) فتح الباري: ٥٤٦/١٤ . فيما نقله الحافظ عنه .

(٢) هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي ، أبو عمر أو أبو عبد الله المدني . أحد فقهاء المدينة السبعة . جمع بين العلم والعمل ، والزهد والشرف . يُشَبَّه بأبيه في الهدى والسمت . وكان ثباتاً في الحديث . مات سنة : ١٠٦ هـ .

وانظر: الطبقات الكبرى: ١٩٥/٥ . التاريخ الكبير: ١١٥/٤ . الجرح والتعديل: ١٨٤/٤ . تذكرة الحفاظ: ٨٨/١ . تمهيد التهذيب: ٣٧٨/٣ . تقريب التهذيب: ٢٢٦/١ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراف الساعة: (٥٢) . باب الفتن من قبل المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان: (١٦) . برقم: (٢٩٠٥) . ٢٢٢٩/٤ - ٢٢٣٠ .

(٤) انظر: فتح الباري : ٥٤٦/١٤ . عمدة القاري: ١٩٩/٢٤ . الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة . لمحمد صديق حسن القنوجي . مكتبة الثقافة بالمدينة . دار الكتب العلميّة . بيروت: ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م . ص: ٣٠ — ٢٩ .

وما انفكت العراق تقذف بالفتن إلى العالم الإسلامي . وما حرب الخليج المدمرة التي أزهقت فيها أرواح ، ورُمّلت فيها نساء ، ويَتَمَّ فيها أطفال إلاّ سوءاً من سوءاتها . ولا زال أهل الإسلام يعانون من آثار تلك الحرب بما أفرزته من أحقاد وإحن وخلافات . بات المسلمون على إثرها مضطّعي الأوصال ، مفرقي الكلمة ، مشتتّي الشمل . وقد ضعفت قوتهم أمام أعدائهم من اليهود والنصارى . وهم الذين جنوا ثمرة ذلك القتال .

وسوف أتناول بإذن الله أنواعاً من الفتن التي ذكرها رسول الله ﷺ أو أشار إليها ، والتي وقع كثير منها .

إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة. حمود بن عبد الله التوينجي. مطابع الرياض . الطبعة الأولى: ١٣٩٤هـ. : ١١٥/١-١١٦.

وسوف يأتي تفاصيل ذلك في ثنايا البحث.

﴿المطلب الأول﴾

فتنة الناس أثر موت النبي ﷺ

عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في غزوة تبوك^(١) وهو في خباء من أدم^(٢)، فجلست بفناء^(٣) الخباء، فقال رسول ﷺ: " ادخل يا عوف " فقلت: بكلي يا رسول الله؟ قال: " بكلك " . ثم قال: " يا عوف احفظ خلالاً ستاً بين يدي الساعة: إحداهن موتي " . قال: فوجمت^(٤) عندها وجمة شديدة . فقال: " قل: إحدى . ثم فتح بيت المقدس ، ثم داء يظهر فيكم يستشهد الله به ذراريكم وأنفسكم ويزكي به أموالكم ، ثم تكون الأموال فيكم حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً ، وفتنة تكون بينكم لا يبقى بيت مسلم إلا دخلته ، ثم تكون بينكم وبين بني الأصفر^(٥) هذنة " ، فيغدرون بكم ، فيسيرون إليكم في ثمانين

(١) تبوك: بالفتح ثم الضم وواو ساكنة وكاف: موضع بين وادي القرى والشام . وقيل: بركة لأبناء سعد من بن عذرة . وأصلها من البوك وهو إدخال اليد في الشيء وتعريكه .
وقال أبو زيد (رحمه الله): " تبوك بين الحجر وأول الشام ، على أربع مراحل من الحجر ، نحو نصف طريق الشام ، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي ﷺ " .
وغزوة تبوك هي آخر غزوة غزاها النبي ﷺ وكانت في مواجهة الروم الذين تجمعوا هنالك . ثم تفرقوا فلم يقع قتال . وذلك في العام التاسع للهجرة .
انظر: معجم البلدان . لياقوت بن عبد الله الحموي . طبعة دار الفكر . بيروت: ١٤/٢ - ١٥ . وانظر: معجم ما استعجم . لعبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي . طبعة عالم الكتب . بيروت . الطبعة الثالثة . ١٤٠٢ هـ .
تحقيق مصطفى السقا : ٣٠٣/١ .
وتبوك اليوم مدينة مشهورة من مدن المملكة العربية السعودية ، وهي في أقصى الشمال بالقرب من الحدود مع الأردن .

(٢) أدم: من الأدم وهو الجلد . انظر: مختار الصحاح: ص: ١٠ - ١١ . القاموس المحيط: ص: ١٣٨٩ .
(٣) فناء: يقال: فناء الدار وهو: ما امتد من جوانبها . والجمع أفنية . مختار الصحاح: ص: ٥١٣ . وانظر: القاموس المحيط: ص: ١٧٠٤ .

(٤) فوجمت: يقال وجم الرجل يجم وجوماً: إذا أسكنه الهم وعلته الكآبة . انظر: غريب الحديث للهروي: ٢٣٢/٣ .
الفائق: ٤٥/٤ . النهاية في غريب الحديث: ١٥٦/٥ .

(٥) بنو الأصفر: يعني الروم ، لأن أباهم الأول كان أصفر اللون . وهو روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم .

غاية (١)، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً (٢) .

وفي حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يتوضأ وضوءاً مكيناً فرفع رأسه فنظر إليّ فقال: "ست فيكم أيتها الأمة موت نبيكم ﷺ". فكأنما انتزع قلبي من مكانه ، قال رسول الله: "واحدة". ثم ذكر الحديث نحوه من حديث عوف السابق (٣) .

إن موته ﷺ أول أمر دهم الإسلام ، وأول فاجعة أصيبت بها الأمة ، وأعظم مصيبة حلت بالمسلمين . فبموته انقطع الوحي . وكان أول ظهور الشرّ بارتداد العرب ، وكان أول نقصان الخير في الأمة (٤) .

قال أنس بن مالك ﷺ : " لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ، ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي ، وإنّا نفي دفنه حتّى أنكرنا قلوبنا" (٥) .

النهاية في غريب الحديث: ٣٧/٣ .

(١) غاية: يعني رؤية . انظر: غريب الحديث للهيروي: ٨٧/٢ . الفائق: ٣٩٢/٣ . النهاية في غريب الحديث: ٤٠٤/٣ .

(٢) سنن أبي داود: أخرج جزءاً منه في كتاب الأدب: (٤٠) . باب ما جاء في المزاح: (٨٥) . برقم: (٥٠٠٠) .

قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٥٤١ .

سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني . طبعة بيت الأفكار الدولية. ١٤٢٠هـ —

١٩٩٩م : بلفظه في: كتاب الفن : (٣٦) . باب أشرار الساعة: (٢٥) . برقم: (٤٠٤٢) . قال الألباني رحمه

الله: " صحيح " . ص: ٤٣٥ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان . للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي . تحقيق وتخريج شعيب

الأرنؤوط . طبعة مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الأولى ١٤١٢هـ — ١٩٩١م . : بلفظ مقارب في: باب

ذكر الأخبار عن فتح المسلمين بيت المقدس . برقم: (٦٦٧٥) . ٦٦/١٥ .

مستدرک الحاكم: نحوه في: ٤٦٥/٤ . وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السّياقة".

وقال الذهبي رحمه الله: " على شرط البخاري ومسلم " .

(٣) مسند أحمد: بلفظه في: ١٧٤/٢ .

(٤) انظر: التذكرة: ص: ٧١٥ .

(٥) سنن الترمذي: بلفظه في: كتاب المناقب: (٤٥) . باب في فضل النبي ﷺ : (١) . برقم: (٣٦١٨) . وقال:

" هذا حديث غريب صحيح " . وقال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٥٦٨ .

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٦١) . باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ : (٦٥) . برقم: (١٦٣١) .

قال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ١٧٨ .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"يريد أنهم وجدوها تغيرت عما عهدوه في حياته من الألفة والصفاء والرقّة،
لفقدان ما كان يمدّهم به من التّعليم والتّأديب" (١).

وقال ابن إسحاق (رحمه الله):

"ولما توفي رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين ، فكانت عائشة ، فيما
بلغني تقول: " لما توفي رسول الله ﷺ ارتدّت العرب ، واشترأبت اليهوديّة
والنصرانيّة ، ونجم النّفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة (٢) في اللّيلة الشّلتية ،
لفقد نبيّهم ﷺ ، حتّى جمعهم الله على أبي بكر" (٣).

لقد كان موته ﷺ ثلّة عظيمة في تاريخ الأمة الإسلاميّة ، وخرقاً واسعاً لا
يرقع ، ولو كان أحد من البشر يستحقّ الخلود في هذه الدّنيا لكان أولى النّاس بذلك
رسول الله ﷺ ، ولكنّ الله تعالى قال له: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ
مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ (٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ
وَالْيَنَّا تُرْجَعُونَ ﴾ (٥) [الأنبياء: ٣٤ - ٣٥].

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢٢١/٣، ٢٦٨.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: : بلفظ مقارب في: باب ذكر إنكار الصّحابة قلوبهم عند دفن صفى الله
ﷺ . برقم: (٦٦٣٤). قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم". ٦٠١/١٤.

مستدرک الحاكم: ٥٩/٣. جزء منه. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه".
وقال الذهبي رحمه الله: "على شرط مسلم".

مسند أبي يعلى . لأحمد بن عليّ بن المثنى أبي يعلى الموصلي . طبعة دار المأمون للتراث . دمشق . الطّبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م. تحقيق حسين سليم أسد: بلفظ مقارب . برقم: (٣٢٩٦). ٥١/٦. و برقم:

(٣٣٧٨). ١١٠/٦. قال المحقّق حسين أسد: "إسناده صحيح".

(١) فتح الباري: ١٤٩/٨. طبعة دار المعرفة.

(٢) المطيرة: أي الماطرة . من باب فعيلة بمعنى فاعلة . انظر : الفائق : ٤٨/١ .

(٣) السّيرة النبويّة: ٤٩٥/٤.

وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ

تَخْتَصِمُونَ ﴿ [الزمر: ٣٠، ٣١] .

وقد قال لنا ﷺ : "إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبتة بي ، فإنها أعظم المصائب عنده" (١) .

نعم ! إن كل مصيبة بعد المصيبة بموته تهون ، وكل خطب بعد وفاته يسهل .
وقد عبّر عن ذلك بعض الصحابة ﷺ .

قال أبو بكر الصديق ﷺ في أبيات يرثي بها النبي ﷺ :

فَلْتُحَدِّثَنَّ حَوَادِثُ مِنْ بَعْدِهِ تُعْنَى بِهِنَ جَوَانِحُ (٢) وَصُدُورُ

(١) سنن ابن ماجه : عن عائشة (رضي الله عنها) مرفوعاً في جزء من حديث ولفظه : " يا أيها الناس أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري فإنّ أحداً من أمّتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشدّ عليه من مصيبي " . في : كتاب الجنائز : (٦) . باب ما جاء في الصبر على المصيبة : (٥٥) . برقم : (١٥٩٩) . قال الألباني رحمه الله : " صحيح " . ص : ١٧٤ .

سنن الدارمي لعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي . طبعة دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ — تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي : بلفظ مقارب في : باب وفاة النبي ﷺ . برقم : (٨٤) . عن مكحول (رحمه الله) مرسلاً . و برقم : (٨٥) . عن عطاء (رحمه الله) مرسلاً أيضاً . ٥٣/١ . المعجم الكبير . لسليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني . تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي . طبعة مكتبة العلوم والحكم . الموصل . الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ — ١٩٨٣م : بلفظه عن عبد الرحمن بن سابط عن أبيه ﷺ : برقم : (٦٧١٨) . ١٦٧/٧ .

المعجم الأوسط . للطبراني . تحقيق : طارق بن عوض الله . عبد الحسن بن إبراهيم الحسيني . طبعة : دار الحرمين القاهرة . ١٤١٥هـ : نحوه عن عائشة (رضي الله عنها) مرفوعاً : ٣٦٥/٤ . المعجم الصغير . للطبراني . تحقيق : محمد شكور محمود . طبعة : المكتب الإسلامي . دار عمّار . بيروت . عمّان الطبعة الأولى : ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م : نحوه عن عائشة (رضي الله عنها) مرفوعاً : ٣٦٦/١ .

(٢) الجوانح : أوائل الضلوع تحت الترائب ممّا يلي الصدر ، كالضلوع ممّا يلي الظهر ، سميت بذلك لجنوحها على القلب ، وقيل : الجوانح الضلوع القصار التي في مقدّم الصدر ، والواحدة جانحة . لسان العرب : ٤٢٩/٢ .

وقالت صفية بنت عبد المطلب (رضي الله عنها) :

لعمرك ما أبكي النبي لفقده لكن ما أخشى من الهرج آتيا . (١)

وقال حسان بن ثابت ؓ في مرثيته الدالية:

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يُكون من تبكي السماوات يومه ومن قد بكته الأرض فالناس أكمَدُ (٢)
وهل عدلت يوماً رزية هالك رزية يوم مات فيهم محمد
تقطع فيه منزل الوحي عنهم وقد كان ذا نور يغور (٣) ويُجد (٤)

.....

وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يُفقد (٥).
وأما ما حل بالصحاب ؓ فقد صورّه الإمام ابن العربي تصويراً بليغاً فقال:
"فكان موت النبي ؓ قاصمة الظهر ومصيبة العمر . فأما علي فاستخفى في
بيته مع فاطمة . وأما عثمان فسكت . وأما عمر فأهجر (٦) وقال: " ما مات رسول الله
ؐ وإنما وعده الله كما وعده موسى ، وليرجعن رسول الله ؐ فليقطعن أيدي نلس

(١) التذكرة: ص: ٧١٥.

والهرج: هو الفتنة والاختلاط ويطلق على القتل. انظر: مختار الصحاح: ص: ٦٩٤. القاموس المحيط: ص: ٢٦٨.
(٢) الكمد: أشد الحزن . كمد كمداً و أكمده الحزن . و كمد الرجل، فهو كمد و كميّد.

لسان العرب : ٣/ ٣٨١ .

(٣) غور كل شيء قعره ، يقال : فلان بعيد الغور . والغور أيضاً المطنن من الأرض ، والغور تهامة وما يلي اليمن .

مختار الصحاح : ص : ٤٨٤ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ٥٨١ .

(٤) النجد من الأرض : قفافها وصلابتها ، وما غلظ منها وأشرف وارتفع واستوى ، والجمع أنجد وأنجاد

و نجاد و نُجود . وما ارتفع عن تهامة إلى أرض العراق ، فهو نجد . انظر : لسان العرب : ٣/ ٤١٣ .

وانظر مختار الصحاح : ص : ٦٤٦ . القاموس المحيط : ص : ٤١٠ .

والمراد أن نوره وهو الوحي الذي يحمله كان يجوب كل الأرض ، فيبلغ ما انخفض منها وما ارتفع .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ٤٩٦-٤٩٧.

والقصيدة في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ؓ . طبعة : دار صادر . دار بيروت . ١٣٨١هـ —

١٩٦١ م . ص : ٥٤-٥٧ .

(٦) أهجر: من أهجر أو أهجر وهو الهذيان . انظر: لسان العرب: ٥/ ٢٥٣.

وأرجلهم " ... واضطرب أمر الأنصار يطلبون الأمر لأنفسهم ، أو الشّركة فيه مع المهاجرين . وانقطعت قلوب الجيش الذي كان قد برز مع أسامة بن زيد بالجرف (١) " (٢) .

وارتدت أحياء كثيرة من العرب ، وعظم الخطب واشتدّ الحال ، وطمع كثير من الأعراب في المدينة لقلة الجند بها بعد إنفاذ الصّدّيق ﷺ جيش أسامة ﷺ . وامتنع كثير منهم من أداء الزّكاة . فقاتلهم أبو بكر ﷺ ، وقال قولته المشهورة :
" والله لأقاتلنّ من فرق بين الصّلاة والزّكاة ، فإنّ الزّكاة حقّ المال ، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها " (٣) .
وقد كان محقّقاً ﷺ في ذلك . فنصره الله عليهم ، وأعاد الله به للإسلام عزّته ، وحمى به بيضته ، وردّ الرّدة إلى صوابها ، والأمور إلى نصابها . (٤)

(١) الجُرف: بضمّ الجيم وسكون الرّاء . موضع على نحو ثلاثة أميال من المدينة نحو الشّام . انظر: معجم البلدان: ١٢٨/٢ .

وقيل: بضمّ الجيم والرّاء ، وأتت على بعد ميل من المدينة . انظر: معجم ما استعجم: ٣٧٦/١-٣٧٧ . وهو اليوم حيّ معروف من أحياء المدينة المنورة .

(٢) العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصّحابة بعد وفاة النّبي ﷺ . للقاضي أبي بكر بن العربي . تحقيق: محبّ الدين الخطيب . طبع ونشر الرئاسة العامّة لإدارة البحوث العلميّة . الرّياض . ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ص: ٣٧-٤١ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب استنابة المرتدين: (٦٣/٨٨) . باب قتل من أبي قبول الفرائض وما نسبوا إلى الرّدة: (٣) . برقم: (٦٩٢٥) . ص: ١٤٦١-١٤٦٢ . ولفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنة: (٧١/٩٦) . باب الاقتداء بسنن الرّسول ﷺ : (٣/٢) . برقم: (٧٢٨٤) ، (٧٢٨٥) . ص: ١٥٣١ . إلّا أنّه قال: "عقالاً" . ونحوه في: كتاب الزّكاة: (٧/٢٤) . في باب أخذ العناق في الصدقة: (٤٠) . برقم: (١٤٥٦) . ص: ٣٠٧-٣٠٨ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (١) . باب الأمر بقتال النّاس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله محمّد رسول الله: (٨) . برقم: (٢٠) . ٥١/١-٥٢ . إلّا أنّه قال: "عقالاً" .

(٤) انظر: البدء والتّاريخ . لمطهر بن طاهر المقدسي . طبعة مكتبة الثقافة الدّينيّة . القاهرة: ١٥٣/٥ . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . لعبد الرّحمن بن عليّ أبي الفرج بن الجوزي . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م . تحقيق محمّد ومصطفى عبد القادر عطا : ٧٤/٤ فما بعدها . وفيات الأعيان وأنبياء الزّمان . لأبي العباس شمس الدّين أحمد بن محمّد بن حلّكان . تحقيق : إحسان عباس . طبعة دار الثقافة . بيروت .

﴿المطلب الثاني﴾

ظهور الكذابين

إنَّ رسول الله ﷺ أخبر أنَّه سيظهر في هذه الأمة كذَّابون يدعون النبوة. وقد وردت عدَّة أحاديث عن جماعة من الصَّحابة تبيِّن ذلك . منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تقوم الساعة حتَّى يبعث دجالون ^(١) كذَّابون قريب من ثلاثين كلَّهم يزعم أنَّه رسول الله " ^(٢) .

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه : " وإنَّه سيكون في أمَّتِي ثلاثون كذَّابون كلَّهم يزعم أنَّه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبيَّ بعدي " ^(٣) .

١٩٦٨م. : ٦٧/٣ فما بعدها . البداية والنهاية . لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير . طبعة مكتبة المعارف . بيروت : ٣١١/٦ فما بعدها .

(١) دجالون: أي كذَّابون مُموَّهون . وأصل الدَّجل : الخلط . يقال: دَجَل فلان : إذا لَبَسَ وموَّه وخادع . والكلمة من أبنية المبالغة ، أي يكسر منهم الكذب والتَّلبيس .

انظر: النهاية في غريب الحديث: ١٠٢/٢ . الفائق: ٤١٢/١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: : كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب : (٢٦/٢٥) . برقم: (٧١٢١) . ص: ١٥٠٠-١٥٠١ . وقد أورده ضمن حديث طويل .

صحيح مسلم: بلفظه في: : كتاب الفتن وأشرط الساعة: (٥٢) . باب لا تقوم الساعة حتَّى يمرَّ الرَّجلُ بقبر الرَّجلِ فيتمنَّى أن يكون مكان الميِّت . برقم: (١٥٧) . ٢٢٣٩/٤-٢٢٤٠ .

(٣) هذا الحديث جزء من حديث ثوبان رضي الله عنه الطويل ، وهو في :

سنن أبي داود: بلفظه — إلا إنَّه قال : " كذَّابون ثلاثون " — في كتاب الفتن والملاحم: (٣٤) . باب ذكر الفتن ودلائلها: (١) . برقم: (٤٢٥٢) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٤٦٤ .

سنن الترمذي: بلفظه في: : كتاب الفتن: (٣٠) . باب ما جاء لا تقوم الساعة حتَّى يخرج كذَّابون: (٤٣) . برقم: (٢٢١٩) . وقال: " هذا حديث حسن صحيح " . وقال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٣٦٧ .

سنن ابن ماجه: بنحوه في كتاب الفتن: (٣٦) . باب ما يكون من الفتن: (٩) . برقم: (٣٩٥٢) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٤٢٤-٤٢٥ .

مسند أحمد: بلفظه — إلا إنَّه قال : " كذَّابون ثلاثون " — في: ٢٧٨/٥ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: : نحوه في باب ذكر البيان بأنَّ حدوث وقع السيِّف في هذه الأمَّة بين المسلمين يقيى إلى قيام الساعة . برقم: (٦٧١٤) . ١١٠/١٥ . و برقم: (٧٢٣٨) . ٢٢٠/١٦ . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح على شرط مسلم " .

وعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) قال سمعت النبي ﷺ يقول: "إنَّ بين يدي السَّاعةِ كذَّابين ، منهم صاحبُ اليمامة^(١) ، ومنهم صاحبُ صنعاء العنسي ، ومنهم صاحبُ جَمَيْر ، ومنهم الدجَّال وهو أعظمهم فتنةً " ^(٢) .

وعن حذيفة رضي الله عنه أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: " في أمَّتي كذَّابون ودجَّالون سبعة وعشرون ، منهم أربع نسوة ، وإنِّي خاتم النَّبيين لا نبيَّ بعدي " ^(٣) .
وقد تكاثرت الروايات الدَّالة على ظهورهم. في بعضها أنَّهم ثلاثون بالجزم. وفي بعضها أنَّهم قريب من ثلاثين ، وفي أخرى أنَّهم سبعة وعشرون . ومن جزم بالثلاثين فعلى طريق جبر الكسر ^(٤) .

وليس المراد بالأحاديث كلَّ من ادَّعى النُّبوَّة مطلقاً ، فأولئك لا يحصون كثرة ، وإنَّما المراد من قويت شوكته ، وظهر أمره ، وكثر أتباعه ، وأثار الفتن بباطله ^(٥) .
من أولئك الذين ظهروا : مُسَيِّمَةُ الكَذَّاب ^(٦) الذي استفحل أمره ، وكثر أتباعه ،

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٤/٤٩٦. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه هذه السِّيَاقَة". وقال الذهبي رحمه الله: "على شرط البخاري ومسلم".

وأصل الحديث في صحيح مسلم . في كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢). باب هلاك هذه الأُمَّة بعضهم ببعض: (٥). برقم: (٢٨٨٩). ٤/٢٢١٥.

(١) اليمامة: اسم حارية زرقاء كانت تبصر الرَّاكِب من مسيرة ثلاثة أيَّام . سمَّيت لها بلدة اليمامة ، وهي بلدة مشهورة قديمة في بادية الحجاز . كانت تسمَّى بجوَّ . انظر: معجم البلدان: ٥/٤٤٢-٤٤٧. وانظر: وفيات الأعيان: ٣/٢٧٠.
لسان العرب: ٢/٦٤٨. القاموس المحيط: ص: ١٥١٤.

(٢) مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٣/٣٤٥.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حَبَّان: بلفظه في: باب ذكر الإخبار عن وصف ما كان يتوقَّع ﷺ من وقوع الفتن من ناحية البحرين . برقم: (٦٦٥٠). ١٥/٢٦. قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده قوي".

(٣) مسند أحمد: بلفظه في: ٥/٣٩٦.

(٤) انظر: فتح الباري: ١٤/٥٩٦. تحفة الأحوذى: ٦/٣٨٥.

(٥) انظر: فتح الباري: ٧/٣٢٤. اليوم الآخر (١) القيامة الصغرى وعلامات القيامة الكبرى . لعمر سليمان الأشقر. طبعة مكتبة الفلاح . الكويت . الطَّبعة الثَّانية : ١٤٠٨هـ — ١٩٨٨ م : ص: ١٦٢.

(٦) هو مُسَيِّمَةُ بن ثمامة بن كثير بن حبيب أبو ثمامة وقيل: أبو هارون من بني حنيفة . جاء في وفد بني حنيفة إلى الرِّسُول ﷺ ، فلمَّا رجع إلى اليمامة ارتدَّ وتنبَّأ وكذَّب ، وتسمَّى بالرحمن ، وزعم أنَّه أشرك في النُّبوَّة ، وجعل يسجع سجع الكهَّان مضاهاة للقرآن ، وأحلَّ لأتباعه الخمر والزَّنا ، ووضع عنهم الصَّلَاة ، وهو مع ذلك مقرّر

واستطار شره ، حتى قتل في معركة اليمامة في العام الثاني عشر من الهجرة النبوية^(١).

وظهر الأسود العنسي^(٢) الدجال الذي ادعى النبوة واستولى على اليمن، وضلّ به خلق كثير، حتى قتل في صفر من العام الحادي عشر للهجرة. وخرجت سجاح^(٣) في بني تميم وادّعت النبوة. وفيها يقول الشاعر^(٤):
أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا
وتزوجها مسيلمة ، ورجعت إلى الإسلام بعد قتله.

بنوّة التي ﷺ . وقد كتب إلى النبي ﷺ يخبره بشراسته له في الرسالة . فردّ عليه النبي ﷺ بخطاب يكذبه فيه . وقد تبعه على ذلك كثير من أحلاف العرب ، واستفحل أمره جدّاً . إلى أن عقره الله بعد معارك طاحنة ، وقتال مريع في السنة الثانية عشرة للهجرة.

انظر: البدء والتاريخ: ١٦٠/٥ - ١٦٥. المنتظم: ٢٠/٤ - ٢٢. البداية والنهاية: ٥٠/٥ - ٥١/٦. ٢٠٠/٦. ٣٢٣. فما بعدها. ٣٤١/٦. وانظر: الطبقات الكبرى: ١/٢٧٣، ٣١٧. المنتظم: ٣/٣٨٢ - ٣٨٣. ٨٠/٤. فما بعدها. وفيات الأعيان: ٦٧/٣.

(١) انظر: العبر في خير من قير . للذهبي . دار الكتب العلمية . بيروت: ١١/١. شذرات الذهب في أخبار من ذهب . لابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمد العكبري الحنبلي الدمشقي . طبعة دار ابن كثير . بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط : ١/١٥١. وانظر : نماذج من كذبه وترهاته في : المنتظم: ٢٠/٤. سير أعلام النبلاء: ٦٩/٣. البداية والنهاية: ٦/٣٢٠ - ٣٢١.

(٢) الأسود العنسي: هو عبهلة بن كعب بن غوث ذو الخمار . كان كاهناً مشعوذاً له شيطان يأتي له بالأخبار . ادّعى النبوة فضلّ به خلق كثيرون ، واستطارت فتنته وعظم شره . واستوثقت له اليمن بكاملها ، وقويت شوكلته . وكان يشرب الخمر ولا يصلي ولا يغتسل من جنابة . قتل غيلة في العام الحادي عشر للهجرة ، وتفرّق أتباعه . انظر: البدء والتاريخ: ١٥٣/٥ - ١٥٥. المنتظم: ٤/١٨ - ٢٠. وفيات الأعيان: ٦٦/٣. العبر: ١٠/١. البداية والنهاية: ٦/٣٠٧ - ٣١١. ٣٤٠. شذرات الذهب: ١/١٣١.

(٣) هي سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان أم صادر التعلبية ، السّاحرة . من الجزيرة . من نصارى العرب . ادّعت النبوة ووازرها على ذلك قومها ، واستجاب لها عامة بني تميم . قصدت اليمامة لحرب مسيلمة فهاهما ، ثم استأمنها وتزوجها ، وكان صداقها أن يضع عن قومها صلاة الفجر والعشاء . أسلمت أيام عمر رضي الله عنه وحسن إسلامها.

انظر: البدء والتاريخ: ١٦٤/٥ - ١٦٥. المنتظم: ٤/٢٢ - ٢٤. وفيات الأعيان: ٦٧/٣. البداية والنهاية: ٥١/٥، ٣٢١ - ٣٢٣. فتح الباري: ٧/٣٢٣.

(٤) هو عطارذ بن الحاحب. انظر: البدء والتاريخ: ٥/١٦٥. البداية والنهاية: ٦/٣٢٠.

وخرج في خلافة الصديق ﷺ طليحة بن خويلد الأسدي^(١) ، ثم تاب ومات على الإسلام على الصحيح في خلافة عمر ﷺ .
ثم ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي^(٢) الكذاب الدعي الذي غلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير ﷺ ، ثم قتل .
ومنهم الحارث^(٣) الكذاب الذي خرج في خلافة عبد الملك بن مروان^(٤) فقتل .

(١) هو طليحة بن خويلد بن نوفل الأسدي الصحابي . يضرب بشجاعته المثل . أسلم سنة تسع من الهجرة ، ثم ارتد وتنبأ بنجد ، وزعم أن ذا التون يأتيه بالوحي . وعظم أمره واشتد له حروب مع المسلمين انتهت بهزيمته وفراره إلى الشام ، ثم ارعوى وأسلم وحسن إسلامه ، وشهد القادسية وهاوند وبها استشهد ، وذلك عام واحد وعشرين من الهجرة .

وانظر: البدء والتاريخ: ١٥٧/٥-١٥٩ . المنتظم: ٢٤/٤-٢٥ . وفيات الأعيان: ٦٧/٣ . سير أعلام النبلاء: ٣١٦-٣١٧ . العبر: ١١/١ . البداية والنهاية: ٣١٧/٦-٣١٨ . الإصابة: ٥٤٢/٣ . شذرات الذهب: ١٧٥/١ .
(٢) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو إسحاق . ولد في أول الهجرة ، وليست له صحة ولا رؤية . بايع عبد الله بن الزبير ﷺ ، ثم ذهب إلى العراق فدعى إلى محمد بن الحنفية (رحمه الله) وزعم أنه المهدي المنتظر . وأظهر الانتصار لأهل البيت في العلن وهو يسر طلب الدنيا . فاجتمع عليه خلق كثير من الشيعة ، وقوي أمره واشتد ، وتبع قتلة الحسين فقتلهم . ثم ادعى النبوة ، وزعم أن جبريل يترل عليه . وكان يأتي بالكذب الصريح . وقد قال النبي ﷺ: " يكون في ثقيف كذاب ومبير - أي مهلك - " - مسند أحمد: ٣٥١/٦ . المعجم الكبير: ١٠١، ٩٧، ٨١/٢٤ - فشهدت أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنها) أن الكذاب هو المختار . قتله مصعب بن الزبير بالكوفة سنة ٦٧هـ .

وانظر: الطبقات الكبرى: ١٠٥-٩٨/٥ . البدء والتاريخ: ١٥/٦-٢١ . المنتظم: ٢٩/٦-٣٠ ، ٥١ فما بعده . العبر: ١/٥٤-٥٥ . البداية والنهاية: ٢٤٩/٨-٢٥٠ . الإصابة: ٣٤٩/٦-٣٥١ . شذرات الذهب: ٢٩٢/١-٢٩٣ . الأعلام: ٢٩٣ . خير الدين الزركلي . طبعة دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة السابعة ١٩٨٦م: ١٩٢/٧ .

(٣) الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي مولى أبي الجلاس العبدري المتنبئ الكذاب . نزل دمشق وتبعه بها وتنسك وتزهد ، ثم مكر به وأضله الشيطان فانسلخ من آيات الله فكان من الغاوين . وكان دجالاً مشعوراً زنديقاً يفعل من الأعاجيب ما يأخذ بعقول العامة ، فتبعه خلق كثير . ثم ادعى النبوة فطلبه عبد الملك حتى ظفر به ، فاستتابه فأبى فصلب وقتل عام ٧٩هـ .

انظر: المنتظم: ٢٠٤/٦-٢٠٧ . البداية والنهاية: ٢٧/٦-٢٩ .
(٤) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي الأموي أبو الوليد ، المدني ثم الدمشقي ، أمير المؤمنين . كان من فقهاء أهل المدينة وقرائهم ، فولي الخلافة بعد أبيه ، ثم اشتغل بها فتغير حاله . مات سنة: ٨٦هـ .

وخرج في خلافة بني العباس جماعة (١).

وفي القرن الماضي ظهر حسين بن علي الميرزا (٢) في إيران وادّعى النبوة،
ولقب بالبهاء. وأتباعه البهائية. (٣)

ومنهم الضالّ محمود محمد طه السوداني الذي أضلّ خلقاً كثيراً ، معظمهم من
النساء ، وكانت له كتابات ومقالات نشر فيها كفره وضلاله وردّته. قتل في عام
١٩٨٥م. وتفرّق أتباعه الذين عرفوا باسم الجمهوريين ، وخمدت فتنته (٤).

وانظر: الطبقات الكبرى: ٢٢٣/٥. التاريخ الكبير: ٤٢٩/٥. ثقات ابن حبان: ١١٩/٥. تاريخ بغداد: ٣٨٨/٥.

تهذيب الكمال: ٤٠٨/١٨. تهذيب التهذيب: ٣٧٣/٦. تقريب التهذيب: ٣٦٥/١.

(١) فتح الباري: ٣٢٤/٧.

(٢) هو حسين عليّ نوري بن عباس بن بزرك الميرزا . المعروف بالبهاء ، أو بهاء الله . رأس البهائية ومؤسسها . إيراني
مستعرب . التقى بعليّ بن محمد الشيرازي الملقّب الباب فاعتنق دعوته وقام بها بعده . نفي من إيران ثم من
العراق ، اعتقل وسجن مرّات ، وتوفي بفلسطين ودفن بها . عام: ١٣٠٩هـ - ١٨٩٢م. من آثاره: الكتاب
الأقدس ، والإيقان، والهيكل، والألواح. انظر: الأعلام: ٢٤٨/٢ - ٢٤٩.

(٣) البهائية: حركة فكرية عقائدية نشأت سنة ١٢٦٠هـ - ١٨٤٤م. تحت رعاية الاستعمار الروسي والإنجليزي
بهدف إفساد العقيدة الإسلامية ، وتفكيك وحدة المسلمين، وصرفهم عن قضاياهم الأساسية.
حذورها: أديان الهند الباطلة، إضافة إلى اليهودية والنصرانية والذهرية والتشيع الضالّ والتراث الفارسي القديم
والفرق الباطنية. وتحتوي بين طيّاتها لميماً من العقائد المنحرفة كالحلولية والاتحاد والتناسخ. ويزعمون أن دينهم
ناسخ لدين النبي محمد ﷺ ، ويؤوّلون القرآن تأويلات باطنة توافق معتقداتهم .

انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة . التدوة العالمية للشباب الإسلامي. المملكة العربية السعودية.
الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م : ص: ٦٣-٦٤.

(٤) أنشأ المهندس محمود محمد طه السوداني الذي ولد عام ١٩١١م ، وتخرّج في جامعة الخرطوم حزبه الذي سمّاه
الحزب الجمهوري عام ١٩٤٥م إبان الاستعمار البريطاني على السودان . سجن عدّة مرّات ، واعتكف عدّة
سنوات خرج على إثرها بآراء عقائدية وفكرية وسياسية شاذّة ومشوشة ومضطربة، من أديان وآراء ومذاهب
كثيرة ، قديمة وحديثة ، تتكوّن من العقائد الصوفيّة الباطنية، وآراء الفلاسفة ، والاشتراكية الماركسية، والنصرانية.
وقد زعم أنّه رسول الرّسالة الثانية، أمّا محمد ﷺ فهو رسول الرّسالة الأولى . كما زعم أنّ الإنسان يترقى حتّى
يكون الله ، وأسقط أصول التكاليّف كالصلاة والزكاة والحج وغيرها. وله في القرآن تأويلات باطنة تصرفه عن
ظاهره. كثر أتباعه ومناصروه ، ومعظمهم من النساء والمتقنين الذين خلا فكرهم من الثقافة الدّينية الإسلامية.
حكم عليه بالإعدام بتهمة الزندقة ، وأمهل ثلاثة أيّام فلم يتب ، فنقذ فيه الحكم شقاً يوم الجمعة ٢٧ ربيع الثّاني
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م/١/١٨ على مرأى من الناس. وانخر أتباعه.

انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ص: ١٨٣-١٩٠.

﴿المطلب الثالث﴾

مقتل عمر رضي الله عنه وانتشار الفتن

لقد كان استشهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في سنة ثلاث وعشرين من الهجرة فتحاً لباب الفتن وانتشارها في أمة الإسلام.

ورد ذلك في حديث حذيفة رضي الله عنه حيث يقول: "بينما نحن جلوس عند عمر إذ قال: أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة؟ قال: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال: ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر. قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً. قال عمر: أيكسر الباب أم يفتح؟ قال: بل يكسر. قال عمر: إذا لا يُخلق أبداً؟ قلت: أجل. قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم! كما أعلم أن دون غد ليلة، وذلك أنني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط ^(١). فهبنا أن نسأله من الباب؟ فأمرنا مسروقاً ^(٢) فسأله. فقال: من الباب؟ قال: عمر" ^(٣).

(١) الأغاليط: جمع أغلوط، وهي التي يغالط بها. فمعناه: حديثه حديثاً صدقاً محققاً، ليس هو من صحف الكبايين، ولا من اجتهد ذي رأي، بل من حديث النبي ﷺ. شرح النووي على مسلم: ١٧٥/٢. وانظر: الفائق: ٧٣/٣. النهاية في غريب الحديث: ٣٧٨/٣.

(٢) هو مسروق بن الأجدع بن مالك أبو عائشة الهمداني الوادعي الكوفي. أحد أعلام التابعين، ثقة فقيه عابد مخضرم. من أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. مات سنة ٦٣هـ. وقيل: ٦٢هـ. —
وانظر: الطبقات الكبرى: ٧٦/٦. التاريخ الكبير: ٣٥/٨. معرفة الثقات: ٢٧٣/٢. الجرح والتعديل: ٣٩٦/٨. ثقات بن حبان: ٤٥٦/٥. تاريخ بغداد: ٢٣٢/١٣. تهذيب الكمال: ٤٥١/٢٧. تذكرة الحفاظ: ٤٩/١. الكاشف: ٢٥٦/٢. الإصابة: ٢٩١/٦. تهذيب التهذيب: ١٠٠/١٠.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب الفتنة التي تموج كموج البحر: (١٧). برقم: (٧٠٩٦). ص: ١٤٩٧. و بلفظ مقارب في: كتاب مناقب الصلاة: (٥/٩). باب الصلاة كفارة: (١١٣/٤). برقم: (٥٢٥). ص: ١٢٥. وفي كتاب الزكاة: (٧/٢٤). باب الصدقة تكفر الخطيئة: (٢٣). برقم: (١٤٣٥). ص: ٣٠٢-٣٠٣. وفي كتاب الصوم: (٩/٣٠). باب الصوم كفارة: (٣). برقم: (١٨٩٥). ص: ٣٩٥. وفي كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النبوة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٥٨٦). ص: ٧٥٦. صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الفتن وأشراف الساعة: (٥٢). باب في الفتنة التي تموج كموج البحر: (٧). برقم: (١٤٤). ٢٢١٨/٤.

عنى عمر رضي الله عنه بالفتنة التي تموج كموج البحر نوعاً معيناً من الفتن ، وهي تلك التي تضطرب اضطراب البحر عند هيجانه ، لشدتها وعظمتها ، وذلك كناية عن كثرة الخصام والنزاع الذي يؤدي إلى القتال بين المسلمين ^(١).

وقد كان عمر رضي الله عنه هو الحائل بين الفتن والإسلام ، وهو المعبر عنه بالباب هنا ، فما دام حياً فلا تدخل ، فإذا مات دخلت . وكذا كان ^(٢).

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"وكانه مثل الفتن بدار ، ومثل حياة عمر بباب لها مغلاق ، ومثل موته بفتح ذلك الباب . فما دامت حياة عمر موجودة فهي الباب المغلق ، لا يخرج مما هو داخل تلك الدار شيء ، فإذا مات فقد انفتح ذلك الباب فخرج ما في تلك الدار" ^(٣) . وأشار بالكسر إلى قتله ، وبالفتح إلى موته رضي الله عنه ^(٤) .

عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أن رجلاً قال له: يا أبا سليمان اتق الله ، فإن الفتن قد ظهرت . قال ^(٥): فقال: "وابن الخطاب حي؟ إنما تكون بعده ... فينظر الرجل فينفكر هل يجد مكاناً لم ينزل به مثل ما نزل بمكانه الذي هو فيه من الفتنة والشر فلا يجده . قال : وتلك الأيام التي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم " بين يدي الساعة أيام الهرج فنعوذ بالله أن تدركننا وإياكم تلك الأيام" ^(٦) .

(١) انظر: شرح النووي على مسلم: ١٧١/٢ . فتح الباري: ٣٠٩/٧ . تحفة الأحوذى: ٤٤٢/٦ .

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم: ١٧٥/٢ .

(٣) فتح الباري: ٣١٠/٧ .

(٤) عمدة القاري: ٢٠٢/٢٤ . والظاهر أنه أراد بالكسر أنه لن يخلق أبداً ، وبالفتح أنه سوف يخلق . كما ذكر ذلك عمر رضي الله عنه .

(٥) لعل القائل عزرة بن قيس راوي الأثر عن خالد رضي الله عنه .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده: بلفظه: في: ٩٠/٤ .

المعجم الكبير: بلفظ مقارب: في: ١١٦/٤ .

المعجم الأوسط: بلفظ مقارب: في: ٢٢٨/٨ .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد . طبعة: دار الريان للتراث . القاهرة . دار الكتاب العربي . بيروت . ١٤٠٧هـ .

وقال: " رجاله ثقات وفي بعضهم ضعف " : ٣٠٨/٧ . ولا يضر ضعفه ، وقد ثبت حديث حذيفة رضي الله عنه .

قال ابن كثير (رحمه الله):

"هكذا وقع الأمر سواء بعد ما قتل في سنة ثلاث وعشرين وقعت الفتن بين الناس، وكان قتله سبب انتشارها بينهم" (١)

(١) التَّهْيَاة فِي الْفَتَنِ وَالْمَلَا حِم . لِأَبِي الْفَدَاءِ ابْنِ كَثِيرٍ . تَحْقِيقُ مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ عَبْدُ الْعَزِيزِ . نَشْرُ دَارُ الْبَيِّنَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ .
الْأَزْهَرُ : ١٥ / ١ .

﴿المطلب الرابع﴾

مقتل عثمان ؓ

لَمَّا قُتِلَ عُمَرُ ؓ ، وانكسر الباب الذي كان حاجزاً من وقوع الفتن اشترأبت الفتن ، واقتحمت معقل الإسلام الآمن ، مدينة رسول الله ﷺ ، وحطت رحالها في دار خلافته، فكان الخليفة الراشد عثمان ذو النورين ؓ فريسة لها . فلم يهدأ لها بال حتى سفكت دمه ، وأزهقت روحه . وصدق في شأنه قول النبي ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري ؓ . عندما دخل النبي ﷺ حائطاً من حوائط المدينة ، وجلس أبو موسى على بابهِ ، ثم استأذنه أبو بكر ؓ في الدخول ، ثم عمر ؓ ، ثم عثمان ؓ . قال النبي ﷺ في شأن عثمان ؓ : " ائذن له وبشره بالجنة ، معها بلاء يصيبه" (١).

ولكن لماذا خصَّ عثمان ؓ بالبلاء مع أن عمر ؓ قد قتل أيضاً؟

أجاب عن ذلك ابن بطال (رحمه الله) فقال:

"إنما خصَّ عثمان بذكر البلاء مع أن عمر قتل أيضاً ، لكون عمر لم يمتحن بمثل ما امتحن عثمان من تسلط القوم الذين أرادوا منه أن ينخلع من الإمامة بسبب ما نسبوه إليه من الجور والظلم مع تتصله من ذلك ، واعتذاره عن كل ما أورده عليه، ثم هجومهم عليه في داره وهاجمهم ستر أهله، وكل ذلك زيادة على قتله" .

(١) هذا جزء من حديث طويل في:

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب الفتنة التي تموج كموج البحر: (١٧). برقم: (٧٠٩٧). ص: ١٤٩٧. و بلفظ مقارب في: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (المناقب): (٣٧/٦٢). باب: (٣٤/٥). برقم: (٣٦٧٤). ص: ٧٧٢. وفي باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي: (٣٥/٦). برقم: (٣٦٩٣). ص: ٧٧٦. وفي باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي: (٣٦/٧). برقم: (٣٦٩٥). ص: ٧٧٦. وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب نكت العود في الماء والطين: (١١٩). برقم: (٦٢١٦). ص: ١٣٢٧.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب فضائل الصحابة: (٤٤). باب من فضائل عثمان ؓ: (٣). برقم: (٢٤٠٣). (١٨٦٨-١٨٦٩/٤).

ثمَّ أَرَدَفَ الْحَافِظُ ابْنَ حَجَرٍ (رَحِمَهُ اللهُ) — بَعْدَ نَقْلِهِ لِلْقَوْلِ السَّابِقِ — :
"وَحَاصِلُهُ : أَنَّ الْمَرَادَ بِالْبَلَاءِ الَّذِي خَصَّ بِهِ ، الْأُمُورَ الزَّائِدَةَ عَلَى الْقَتْلِ وَهُوَ
كَذَلِكَ" (١).

لَقَدْ قَتَلَ مَظْلُومًا ﷺ ، لَمْ يَأْتْ بِمَنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ يَبْرِرُ قَتْلَهُ . وَمَا نَسَبَ
إِلَيْهِ كَانَ جَوْرًا وَظُلْمًا .

وَقَدْ رَدَّ الْعُلَمَاءُ (رَحِمَهُمُ اللهُ) عَلَى ذَلِكَ شُبْهَةً شُبْهَةً حَتَّى اقْتَلَعُوا جُذُورَهَا ،
وَفَنَّدُوا مَزَاعِمَهَا ، فَذَهَبَتْ أَدْرَاجُ الرِّيَاحِ (٢).

وَيَكْفِي فِي رَدِّ تِلْكَ الْمَزَاعِمِ جُمْلَةٌ . مَا رَوَاهُ كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ ﷺ قَالَ : "ذَكَرَ
رَسُولُ اللهِ ﷺ فَنَتَنَةً فَقَرَّبَهَا . فَمَرَّ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ رَأْسَهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : "هَذَا
يَوْمُئِذٍ عَلَى الْهَدْيِ" . فَوُثِّبَتْ فَأَخَذَتْ بِضَبْعِي (٣) عُثْمَانُ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ
فَقُلْتُ : هَذَا ؟ قَالَ : "هَذَا" (٤).

لَقَدْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَنَّهُ عَلَى الْهَدْيِ . وَحَسْبُكَ هَذِهِ الشَّهَادَةُ ، إِذْ لَا
تَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدٍ .

وَالَّذِينَ تَوَلَّوْا كِبَرَ حِصَارِهِ وَقَتْلَهُ ﷺ فَلَوْ مِنْ أَقْوَامٍ لَا خَلَقَ لَهُمْ مِمَّنْ غَلَا فِي
الدِّينِ ، أَوْ افْتَرَسَتْهُ الْعَصْبِيَّةُ ، أَوْ مَلَأَ الْحَقْدُ وَالْحَسَدُ قَلْبَهُ عَلَى خِيَارِ الْأُمَّةِ ﷺ ، أَوْ
الْمُوتُورُونَ فِي حَدِّ شَرْعِي ، أَوْ أَصْحَابُ الْأَغْرَاضِ وَالْمَطَامِعِ الرَّخِيسَةِ ، أَوْ
الْحَاقِقُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، أَوْ الْحَقْمِيُّ وَالْجَهْلَةُ الَّذِينَ غَرَّرَ بِهِمْ (٥).

وَقَدْ سَمَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ كُلَّ أَوْلَئِكَ بِالْمُنَافِقِينَ .

(١) فتح الباري: ٥٥٢/١٤ وانظر: عمدة القاري: ٢٠٢/١٤-٢٠٣ .

(٢) انظر: العواصم من القواصم: ص ٦١ فما بعدها . البداية والنهاية : ١٧١/٧ .

(٣) ضبعي: الضَّعْبُ بِسُكُونِ الْبَاءِ : وَسَطُ الْعَضْدِ . وَقِيلَ : هُوَ مَا تَحْتَ الْإِبْطِ . النَّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْخَدِيثِ : ٧٣/٣ .

(٤) سنن ابن ماجه: بلفظه في: المقدمة. باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ : (١١). فضل عثمان ﷺ . برقم:

(١١١) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٢٩

(٥) انظر: العواصم من القواصم: ص: ٥٨-٥٩ . الهامش . والصَّحِيحُ إِنَّهُ لَمْ يَتَّعِنْ لَهُ قَاتِلٌ مَعِينٌ ، بَلْ أَخْلَاطُ مَنْ

النَّاسِ وَرِعَاعٌ جَاعُوا مِنْ مِصْرَ وَالْعِرَاقِ وَغَيْرِهَا . انظر: التَّذَكُّرَةُ : ص : ٦١٦

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ: "يا عثمان إن وَّلاكَ الله هذا الأمر يوماً ، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمَّصك الله فلا تخلعه". يقول ذلك ثلاث مرَّات . قال النُّعمان ﷺ [١٠]: فقلت لعائشة ما منعك أن تعلمي النَّس ببهذا؟ قالت: أنسيته" (١).

وبحمد الله لم يسع أحد من الصَّحابة عليه، ولم يقعد عن نصرته، ولو استتصر بهم ما غلب على أمره، ولكنَّه اختار أهون الشرِّين في نظره، فضحَّى بنفسه خشية اتِّساع الفتنة، وسفك دماء المسلمين (٢). ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقد قال لمن اجتمع حوله من أبناء الصَّحابة الَّذِينَ قَدِمُوا لِلدِّفَاع عنه: "أعزم على كلِّ من رأى أن لي عليه سمعاً وطاعة إلاَّ كفَّ يده وسلاحه، فإنَّ أفضلكم غناء من كفَّ يده وسلاحه" (٣).

فكما أنَّه ﷺ لم يتنازل عن أمر الخلافة ، ويترك أمة محمد يولِّي عليها السَّفهاء

(١) سنن الترمذي: نحوه في كتاب المناقب: (٤٥). باب في مناقب عثمان ﷺ: (١٨). برقم: (٣٧٠٥). وقال: "هذا حديث حسن غريب". وقال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٥٧٩.
سنن ابن ماجة: بلفظه في: المقدِّمة . باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ: (١١). فضل عثمان ﷺ . برقم: (١١٢). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٢٩.
مستدرک الحاكم: نحوه في: ١٠٦/٣. وقال: "هذا حديث صحيح عالي الإسناد ولم يخرجاه".
(٢) انظر: العواصم من القواصم: ص: ١٣٦—١٣٧. مع الهامش.
(٣) المرجع السابق: ص: ٤١.
قال ابن كثير (رحمه الله):

"كان الحصار مستمراً من أواخر ذي القعدة إلى يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة، فلما كان قبل ذلك بيوم ، قال عثمان للذين عنده في الدار من المهاجرين والأنصار — وكانوا قريباً من سبعمائة . فيهم عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسن ، والحسين ، ومروان ، وأبو هريرة، وخلق من مواليه. ولو تركهم لمنعوه . فقال لهم : " أقسم على من لي عليه حق أن يكفَّ يده ، وأن ينطلق إلى منزله " . وعنده من أعيان الصَّحابة وأبنائهم حمّ غفیر . وقال لرفيقه: " من أعمد سيفه فهو حرّ " . فبرد القتال من داخل ، وحمى من خارج ، واشتدَّ الأمر . وكان سبب ذلك أن عثمان رأى في المنام رؤيا دلَّت على اقتراب أجله ، فاستسلم لأمر الله رجاء موعوده، وشوقاً إلى رسول الله ﷺ ، وليكون خير أبي آدم " . البداية والنهاية: ١٨١/٧ .

من يختارونه ، فيقع بذلك الهرج ، ويفسد أمر الأمة بسبب ذلك ^(١) . كذلك لم ير القتال والدفاع من أجله ، حتى لا تسفك الدماء ، ويقتل المسلمون بعضهم بعضاً . وما تخوَّف منه ﷺ فقد وقع . فبقتله انفتح باب شرٍّ عظيم على الأمة ، وهاجت الفتنة واشتدَّ أوارها ، وعصفت رياحها بجيل الإسلام الأول .

قال سعيد بن المسيَّب ^(٢) (رحمه الله) :

"وقعت الفتنة الأولى ، يعني مقتل عثمان ، فلم تبق من أصحاب بَدْر ^(٣) أحداً ، ثم وقعت الفتنة الثانية ، يعني الحرّة ^(٤) ، فلم تبق من أصحاب الحُدَيْبِيَّة ^(٥) أحداً ، ثم وقعت الثالثة ، فلم ترتفع وللناس طبّاخ ^(٦) " ^(٧) .

(١) انظر: البداية والنهاية: ١٨٠/٧ .

(٢) سعيد بن المسيَّب بن حزن بن أبي وهب أبو محمَّد القرشي المخزومي المدني . سيّد التابعين ، وأحد العلماء الأثبات والفقهاء الكبار . ولد لستين مضتاً من خلافة عمر ﷺ . ثقة حجّة في الحديث ، رفيع الذّكر ، رأس في العلم والعمل . قال عليّ بن المديني (رحمه الله) : "لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه" . مات سنة : ٩٣ أو ٩٤ هـ . وانظر: الطبقات الكبرى: ٣٧٩/٢ . ١١٩/٥ . طبقات خليفة بن خِياط . طبعة دار طيبة . مراجعة : د . أكرم ضياء العمري . الرياض . ١٩٨٢م - ١٤٠٢هـ : ص : ٢٤٤ . التاريخ الكبير: ٥١٠/٣ . معرفة الثقات: ٤٠٥/١ . الجرح والتعديل: ٥٩/٤ . ثقات ابن حبان: ٢٧٣/٤ . مشاهير علماء الأمصار: ٦٣/١ . تهذيب الكمال: ٦٦/١١ . تذكرة الحفاظ: ٥٤/١ . الكاشف: ٤٤٤/١ . تهذيب التهذيب: ٧٤/٤ . تقريب التهذيب: ٢٤١/١ .

(٣) بَدْر: ماء مشهور بين مكة والمدينة . ثم أطلق على الموضع . وبه كانت الوقعة المشهورة التي أعزّ الله بها الإسلام ، وفرّق بها بين الحقّ والباطل ، وكانت في شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة النبوية . انظر: معجم البلدان: ٣٥٧/١ - ٣٥٨ . وانظر: معجم ما استعجم: ٢٣١/١ - ٢٣٢ . وهي اليوم بلدة معروفة بالمملكة العربية السعودية ، على طريق مكة المدينة ، وهي أقرب إلى المدينة . (٤) الحرّة: يأتي الكلام عنها قريباً .

(٥) الحديبية : الحديبية بضمّ الحاء وفتح الدالّ وياء ساكنة وباء موحدة مكسورة ، وياء اختلفوا فيها : فمنهم من شدّدها ، ومنهم من خفّفها . وهي قرية متوسطة ، ليست بالكبيرة ، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بليع رسول الله ﷺ تحتها . معجم البلدان : ٢ / ٢٣٠ بتصرّف . (٦) طبّاخ: أصل الطبّاخ : القوّة والسَّمَن ، ثم استعمل في غيرهما . فقالوا : فلان لا طبّاخ له : أي لا عقل له ولا خير عنده .

غريب الحديث للخطّابي: ٤١/٣ . انظر : النهاية في غريب الحديث: ١١١/٣ . وزاد: (أراد أنّها لم تبق في الناس من الصحابة أحداً) . وانظر: الفائق: ٣٥٥/٢ - ٣٥٦ . (٧) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب المغازي: (٣٨/٦٤) . باب: (١٢) . ص: ٨٤٠ - ٨٤١ .

وما حدث من قتال بين المسلمين بعد ذلك إنما تولّد أصله من مقتله ﷺ ، ولذا
حُقّ لهذه الفتنة أن توصف بالفتنة الكبرى. وقد صدق الوصف فيها بأنها التي تموج
كموج البحر .

وقوله: "ثم وقعت الثالثة" قيل: هي فتنة الأزارقة التي وقعت عقب موت يزيد بن معاوية ، واستمرت أكثر من
عشرين سنة. وقيل: هي خروج أبي حمزة الخارجي في خلافة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم سنة ثلاثين
ومائة . وأبعد الحافظ ابن حجر الأوّل . لأنّ الذي يظهر أنّ المراد الفتنة التي وقعت بالمدينة دون غيرها . انظر: فتح
الباري : ٦١/٨ .

﴿المطلب الخامس﴾

موقعة الجمل*

لما قتل عثمان رضي الله عنه انعقدت البيعة لعلّي رضي الله عنه بطوع واختيار من المهاجرين والأنصار رضي الله عنه . وقد خشي أجلة الصحابة أن يرجع الناس إلى أمصارهم بخبر قتل عثمان ولم يقدّم بعده قائم ، فلا يؤمن عند ذلك من اختلاف الناس وفساد الأمة .

وممن بايعه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام (رضي الله عنهما) . ثم خرجا إلى مكة فالتقيا بأمة المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) ، ثم اتفقا على الخروج للبصرة ^(١) . وقد خرجوا مطالبين بقتل عثمان رضي الله عنه الذين اندسوا في صفوف جيش علي رضي الله عنه ^(٢) . ورأوا أنه لا بد من أن ينتصروا للشهيد المظلوم ، ويقمعوا أهل الفساد والعصيان ، وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه ^(٣) .

* سميت بموقعة الجمل لأن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) كانت تحمل أثناء المعركة في هودج على

جمل اسمه عسكر اشتراه لها يعلى بن أمية رضي الله عنه . انظر : البداية والنهاية : ٢٣١/٧ . فما بعدها .
(١) انظر : تاريخ الطبري . تاريخ الأمم والملوك . لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة : دار المعارف . بمصر . الطبعة الثانية : ١٥٥/٥ - ١٥٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٣١٨/١٦ .
وانظر : العواصم من القواصم : ص : ١٤٢ - ١٤٣ مع الهامش . والبصرة : مدينة بالعراق معروفة ، سميت بذلك لأن أرضها غليظة وبها حجارة رخوة فيها بياض . وقيل : غير ذلك . فتحت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
انظر : معجم البلدان : ٤٣٠/١ - ٤٣١ .

قال ابن أبي العز (رحمه الله) في شرحه لقول الإمام الطحاوي (رحمه الله) :
" ونبت الخلافة بعد عثمان لعلّي (رضي الله عنهما) . قال : " لما قتل عثمان وبايع الناس علياً صار إماماً حقاً واجب الطاعة ، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة ، كما دلّ عليه حديث سفينة رضي الله عنه ... أنه قال : قال رسول الله ﷺ : " خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء " . وكانت خلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر ، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً ، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة ، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر ، وخلافة الحسن ابنه ستة أشهر " . أبو داود : (٤٦٤٦) . ٥٠٧ . الترمذي : (٢٢٢٦) . ٣٦٨ .
شرح العقيدة الطحاوية للفاضل علي بن علي بن أبي العز الحنفى . تحقيق وتعليق وتخريج د. عبد الله بن عبد المحسن التركي — شعيب الأرناؤوط . مؤسسة الرسالة — بيروت . الطبعة الثانية : ١٤١٣هـ — ١٩٩٣م : ص : ٧٢١ - ٧٢٢ .

(٢) انظر : التذكرة ص : ٦٢٣ . البداية والنهاية : ٢٣١/٧ . العبر : ٢٧/١ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص : ٧٢٣ .

ولم يخرجوا ﷺ لينازعوا علياً في الخلافة ، أو يولّوا أحداً منهم ، وإنما أنكروا على عليّ ﷺ إيواؤه قتل عثمان ﷺ ، وترك الاقتصاص منهم^(١) .

وقد رأوا أن الصلح بين المسلمين ، واجتماع الكلمة لا يتأتى إلا بعد القضاء على قتل عثمان ﷺ وإقامة حكم الله فيهم^(٢) .

وعليّ ﷺ ما خرج للقاء أولئك إلا من أجل الإصلاح ، وإطفاء نائرة الناس ليجتمعوا على الخير ، ويلتئم شمل الأمة . هذا ما بينه ﷺ لأهل الكوفة^(٣) عندما دعاهم إليه فأجابهم جمع غفير منهم . فقال لهم :

" يا أهل الكوفة أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يرجعوا فذاك الذي نريده ، وإن أبوا داويناكم بالرقق حتى يبدؤنا بالظلم ، ولم ندع أمراً فيه صلاح إلا أثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى " ^(٤) .

وهو ﷺ لم يترك القصاص على قتل عثمان ﷺ ، وإنما أخر ذلك حتى يستوثق الأمر له ، وتجتمع عليه الكلمة ، ويقع الطلب من أولياء عثمان ﷺ ، وهم أبناؤه ، فيجري القضاء بالحق . ولو أقام الحدّ عليهم قبل اجتماع الكلمة لتعصّبت لهم قبائل ، وانتصرت لهم طوائف ، فزاد الفتق

(١) انظر: فتح الباري: ٥٥٨/١٤ .

(٢) انظر: البداية والنهاية: ٢٣٨/٧ وانظر: العواصم من القواصم: ص: ١٥٤، ١٥١ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله):

"فإن عائشة لم تقاتل ، ولم تخرج لقتال ، وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين ، وظنت أن خروجها مصلحة للمسلمين . ثم تبين لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى . فكانت إذا ذكرت خروجها تبكي حتى تبل حمارها . وهكذا عامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال ، فندم طلحة والزبير وعليّ ﷺ أجمعين . ولم يكن يوم الجمل هولاء قصد في القتال ، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم " .

المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال . وهو مختصر منهاج السنة . تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية . اختصره الحافظ أبو عبد الله الذهبي . تحقيق محب الدين الخطيب . المكتبة السلفية — القاهرة . الطبعة الثالثة: ص: ١٩٤-١٩٥ .

(٣) الكوفة : مدينة قديمة معروفة بأرض بابل من سواد العراق ، سميت بذلك لاستدارتها . وقيل لاجتماع

الناس بها . وقيل غير ذلك . كانت قرية صغيرة فوسّع بناءها سعد بن أبي وقاص ﷺ بأمر عمر بن الخطاب ﷺ ، واستوطنها الجند . انظر : معجم البلدان : ٤٩٠/٤ .

(٤) البداية والنهاية: ٢٣٧/٧ وانظر: ٢٣٩/٧ .

وقول عليّ ﷺ في تاريخ الطبري : ٤٨٧/٤ وبه زيادات . وانظر: ٤٧٩/٤ .

في الأمة ، وترتب على ذلك مفسدة أعظم من مصلحة قتلهم . فكان ﷺ في ذلك أسدَّ رأياً وأصوب قولاً (١).

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى إلى إثارة فتنة ، أو تشتيت كلمة (٢). وقد كان ﷺ يبغض قتلة عثمان ﷺ ويتبرأ منهم بل ويلعنهم، وكان يتربص بهم الدوائر يود لو تمكن منهم ليأخذ حق الله منهم (٣).

ولما التقى الفريقان بالبصرة تشاورا فانتظم الأمر بينهما على الصلح والتفرق على الرضا . فخاف قتلة عثمان ﷺ من أن يتمكنوا منهم فيقتص لعثمان ﷺ منهم، فاجتمعوا وتشاوروا واتفقوا على إثارة الحرب بين الفريقين عند السحر، فتم لهم ما أرادوا . وظن كل فريق أن الآخر قد غدر به ، فنشبت الحرب . ودافع كل فريق عن نفسه فقتل خلق لا يحصون . فلم يقع القتال على اختيار من الطرفين وإنما أثار ذلك المفسدون (٤).

وعليّ ﷺ كان مصيباً في قتال أهل الجمل . وقد نقل الإجماع على ذلك جماعة من العلماء (٥).

ويؤيده ما جاء عن زيد بن وهب (رحمه الله) (٦) أنه قال:

" بينما نحن حول حذيفة إذ قال: " كيف أنتم وقد خرج أهل بيت نبيكم ﷺ في فئتين يضرب بعضكم وجوه بعض بالسيف " . فقلنا: يا أبا عبد الله وإن ذلك لكائن ؟ قال : " أي والذي بعث محمداً ﷺ بالحق إن ذلك لكائن " . فقال بعض أصحابه:

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣١٨/١٦ . التذكرة: ص: ٦٢٣ . البداية والنهاية: ٢٣٨/٧ . وانظر: العواصم من القواصم: ص: ١٦٤ فما بعدها مع الهامش .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣١٨/١٦ . التذكرة: ص: ٦٢٣ .

(٣) انظر: البداية والنهاية: ٢٣٠/٧ . وانظر: ٢٤١/٧ . المنتقى من منهاج الاعتدال ص: ١٩٦ .

(٤) انظر: تاريخ الطبري: ٥٠٦-٥٠٧/٤ . الجامع لأحكام القرآن: ٣١٨-٣١٩/١٦ . التذكرة: ص: ٦٢٠-٦٢١ . البداية والنهاية: ٢٤٠/٧ . وانظر: شرح العقيدة الطحاوية ص: ٧٢٣ .

(٥) انظر: كتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية . لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي . طبعة دار الأفاق الجديدة . بيروت . الطبعة الثانية : ١٩٧٧م : ص: ١٠١-١٠٢، ٣٤٢ . التذكرة: ص: ٦٢٦ .

(٦) زيد بن وهب الجهني أبو سليمان نزيل الكوفة، محضرم ، أسلم في عهد النبي عليه السلام ، وهاجر إليه فقبض النبي وهو في الطريق . وهو ثقة حليل ، كثير الحديث . توفي سنة ٩٦هـ وقيل بضع وثمانين .

وانظر: الطبقات الكبرى: ١٠٢/٦ . التاريخ الكبير: ٤٠٧/٣ . الجرح والتعديل: ٥٧٤/٣ . ثقات ابن حبان: ٢٥٠/٤ .

تاريخ بغداد: ٤٤٠/٨ . تهذيب الكمال: ١١١/١٠ . تذكرة الحفاظ: ٦٦/١ . الكاشف: ٤١٩/١ . الإصابة: ٦٤٩/٢ .

تهذيب التهذيب: ٣٦٨/٣ . تقريب التهذيب: ٢٢٥/١ .

يا أبا عبد الله فكيف نصنع إن أدركنا ذلك الزمان ؟ قال: " انظروا الفرقة التي تدعو إلى أمر عليّ عليه السلام فالزموها، فإنّها على الهدى " ^(١). ومثله لا يقال بالرأي .

(١) مسند البزار . لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار . طبعة مؤسسة علوم القرآن . بيروت . مكتبة العلوم والحكم . المدينة . الطبعة الأولى : ١٤٠٩ هـ . تحقيق محفوظ الرحمن زين الله : بلفظه . برقم: (٢٨١٠) . ٢٣٦/٧ - ٢٣٧ . وأورده الحافظ ابن حجر في فتح الباري بلفظ مقارب ، وسكت عنه . ٥٧٧/١٤ . وقد قال: "وأقتصر على ما أورده بسند صحيح أو حسن وأبين ما عده" . فتح الباري: ٥٥٦/١٤ .

﴿المطلب السادس﴾

موقعة صفين

لَمَّا فرغ عليٌّ عليه السلام من وقعة الجمل رجع إلى الكوفة ، ثم بعث إلى معاوية رضي الله عنه الذي كان والياً على الشام ومن معه يعلمهم باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، ويخبرهم بما كان في وقعة الجمل، ويدعوهم إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ، فأبوا أن يبايعوا حتّى يقتل قتلة عثمان رضي الله عنه ، أو يَمَكَّنهم منهم . وصمّموا على القيام بطلب دم عثمان رضي الله عنه الذي قتل مظلوماً ^(١). فالتقى الفريقان في سهل صفين ^(٢) في العام السادس والثلاثين من الهجرة النبويّة . وبعد مراسلات ومناوشات جرت بينهما وحروب يطول ذكرها . قتل من الفريقين سبعون ألفاً . وكان بينهم تسعون زحفاً ^(٣).

وقد حمل العلماء هذه الوقعة على حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: " لا تقوم الساعة حتّى تقتتل فئتان عظيمتان ، و تكون بينهما مقتلة عظيمة، ودعواهما واحدة ^(٤) " ^(٥) .

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٥٦١/٤ فما بعدها . الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير . دار صادر للطباعة والنشر —

دار بيروت للطباعة والنشر . ١٣٨٥هـ — ١٩٦٥م: ٢٧٦/٣ فما بعدها . البداية والنهاية: ٢٥٤/٧ فما بعدها . وانظر: التذكرة ص: ٦٢٣ .

(٢) صفين: موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي . كانت فيه الوقعة بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما) . انظر: معجم البلدان: ٤١٤/٢ . وانظر معجم ما استعجم: ٨٣٧/٣

(٣) انظر: العبر: ٣١/١ . البداية والنهاية: ٢٧٥/٧

(٤) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٣٧/٦١) . باب علامات النبوة في الإسلام: (٢٥) . برقم:

(٣٦٠٩) . ص: ٧٥٩ . وفي كتاب استنابة المرتدّين: (٦٣/٨٨) . باب قول النبي صلى الله عليه وآله " لا تقوم الساعة حتّى يقتتل

فئتان دعواهما واحدة " : (٨) . برقم: (٦٩٣٥) . ص: ١٤٦٣ . وفي كتاب الفتن : (٦٧/٩٢) . باب: (٢٦/٢٥) .

برقم: (٧١٢١) . ص: ١٥٠٠ — ١٥٠١ .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراف الساعة: (٥٢) . باب إذا تواجد المسلمان بسيفيهما: (٤) . برقم:

(١٥٧) . (٢٢١٤/٤) .

(٥) انظر : التذكرة : ص: ٧١٥ . البداية والنهاية: ٢٧٥/٧

ولمّا توجّه النّصر لجند العراق على أهل الشّام، رفع الشّاميّون المصاحف على أسنة الرّماح طلباً لتحكيم كتاب الله بين الفريقين. فكفّ النّاس عند ذلك عن القتال^(١). وقد أحدثت تلك الواقعة شرخاً عظيماً في صفوف المسلمين، وفتقاً لم يرتق في وحدتهم. حيث سفكت فيها دماء أهل الإسلام، وولدت إحناً ومحناً في النفوس، وخلفت من الأحقاد والعداوات والبغضاء الشّيء الكثير.

وكان أصلح للإسلام وأهله ألاّ تقع، ولكن أمر قدره الله عزّ وجل، فنفذ قدر الله في ذلك. ولم يقع القتال برغبة من أمير المؤمنين عليّ أو معاوية (رضي الله عنهما)، وإنما أجج نار فتنته قتلة عثمان رضي الله عنه كما أججوا القتال في وقعة الجمل من قبل، وانضاف إليهم هنا أناس يحبّون سفك الدّماء وإثارة البلبال.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله):

"وأكثر الذين كانوا يختارون القتال من الطائفتين لم يكونوا يطيعون عليّاً ولا معاوية. وكان عليّ ومعاوية (رضي الله عنهما) أطلب لكفّ الدّماء من أكثر المقتتلين، لكن غلبا فيما وقع. والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفاء نارها. وكان في العسكريين مثل الأشتر النّخعي^(٢)، وهاشم بن عتبة المرقال^(٣)،

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٤٨/٥ فما بعدها. الكامل في التّاريخ: ٣١٦/٣ فما بعدها. العواصم من القواصم: ص:

١٧٢ فما بعدها. العبر: ٣٠/١-٣١. البداية والنهاية: ٢٧٦/٧ فما بعدها.

(٢) الأشتر النّخعي: هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النّخعي الأشتر، أحد الأشراف، أدرك الجاهليّة فهو مخضرم، نزل الكوفة. كان من شيعة عليّ رضي الله عنه وشهد معه الجمل وصفين ومشاهده كلّها. ولآه عليّ مصر فمات قبل أن يدخلها سنة ٣٧هـ. وهو ممن سعى في الفتنة وآلب على عثمان رضي الله عنه، وشهد حصره.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٢١٣/٦. طبقات خليفة: ص: ١٤٨. ثقات ابن حبان: ٣٨٩/٥. تهذيب الكمال:

١٢٦/٢٧. الكاشف: ٢٣٤/٢. الإصابة: ٢٦٨/٦. تهذيب التّهذيب: ١٠/١٠. تقريب التّهذيب: ٥١٦/١.

(٣) هو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ابن أخي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. المعروف بالمرقال — لإسراعه في الحرب — شجاع مشهور. أسلم يوم فتح مكّة، وكان ممن يستعين به عمر رضي الله عنه على أمور المسلمين، ويقدمه في البعث. حضر مع عمّه سعد رضي الله عنه حرب القادسيّة، وله بها آثار مذكورة. قتل بصفين مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: قتل بالجمل.

وانظر: ثقات ابن حبان: ٤٣٧/٣. مشاهير علماء الأمصار: ١٤/١. تاريخ بغداد: ١٩٦/١. الإصابة: ٥١٥/٦.

وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد^(١)، وأبي الأعور السلمي^(٢)، ونحوهم من المحرّضين على القتال . قوم ينتصرون لعثمان غاية الانتصار ، وقوم ينفّرون عنه، وقوم ينتصرون لعليّ، وقوم ينفّرون عنه . ثمّ قتال أصحاب معاوية معه لم يكن لخصوص معاوية ، بل كان لأسباب أخرى . وقاتل الفتنة مثل قتال الجاهليّة لا تتضبط مقاصد أهلها واعتقاداتهم . كما قال الزُّهري^(٣) : "وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون ، فأجمعوا أن كلّ دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فإنّه هدر . أنزلوهم منزلة الجاهليّة"^(٤) .

ولمّا وقع القتال ثبت كلّ من الفريقين للآخر ممّا أدى إلى استحراء القتل

بينهم .

(١) هو عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي . كان عظيم القدر ، وله صحبة ، ولكنّه لم يسمع

من النبي ﷺ ، ولم يحفظ عنه . كان مع معاوية رضي الله عنه ، وشهد معه صفين . مات سنة ٤٦هـ .

وانظر: ثقات ابن حبان: ٢٥٠/٣ . مشاهير علماء الأمصار: ٥٢/١ . الإصابة: ٣٣/٥ .

(٢) أبو الأعور السلمي هو عمرو بن سفيان بن عبد شمس . مشهور بكنيته . ذكره جماعة في الصحابة ، وأنكر ذلك

ابن أبي حاتم وابن حبان . أدرك الجاهليّة . وهو من أصحاب معاوية رضي الله عنه ، وله مواقف معه بصفين .

وانظر: طبقات خليفة: ص: ٥١ . الجرح والتعديل: ٢٣٤/٦ . الإصابة: ٦٤١/٤ .

(٣) هو محمّد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب أبو بكر القرشي الزُّهري . التابعي العلم ، الفقيه الحافظ،

متفق على جلالته وإتقانه . من أحفظ أهل زمانه للسنن وأحسنهم لها سياقاً . مات سنة ١٢٥هـ وقيل بعدها .

وانظر: التاريخ الكبير: ٢٢٠/١ . معرفة الثقات: ٢٥٣/٢ . الجرح والتعديل: ٧١/٨ . ثقات ابن حبان: ٣٤٩/٥ .

مشاهير علماء الأمصار: ٦٦/١ . تهذيب الكمال: ٤١٩/٢٦ . تذكرة الحفاظ: ١٠٨/١ . الكاشف: ٢١٩/٢ .

تهذيب التهذيب: ٣٩٥/٩ . تقريب التهذيب: ٥٠٦/١ .

(٤) المنتقى من منهاج الاعتدال: ص: ٢٢٥-٢٢٧ .

وقول الزهري أورد البيهقي نحوه في السنن الكبرى : باب من قال لأتباعه في الخراج والدماء ، ومافات من

الأموال في قتال أهل البغي . ١٧٥/٨ .

قال عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (رحمه الله): (١)

"كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية ، فالتقوا في الإسلام معهم على الحمية وسنة الإسلام ، فتصابروا واستحيوا من الفرار ، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء ، وهؤلاء في عسكر هؤلاء ، فيستخرجون قتلاهم فيدفعونهم" .

قال الشعبي (رحمه الله): (٢)

"هم أهل الجنة ، لقي بعضهم بعضاً فلم يفر أحد من أحد" (٣) .

ولا شك أن علياً عليه السلام كان محققاً في قتاله لأهل الشام ، كما كان محققاً في قتاله لأصحاب الجمل ، وأن من قاتلوه كانوا بغاة ، لأنه الإمام المبايع ، ومن خرج عليه وجب قتاله حتى يفى إلى الحق ، وينقاد إلى الصلح .

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ

(١) عبد الرحمن بن زياد بن أنعم أبو أيوب أو أبو خالد المعافري الشَّعْبَانِي الإفريقي القاضي . كان رجلاً صالحاً ، ولكنه ضعيف في الحديث . مات سنة ١٥٦ و قيل : بعدها .

وانظر: التاريخ الكبير: ٢٨٣/٥ . ضعفاء العقيلي لأبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلي . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م . تحقيق عبد المعطي أمين قلعمجي: ٣٣٢/٢ . الجرح والتعديل: ٢٣٤/٥ . المروحين لأبي حاتم محمد بن حبان البستي . طبعة دار الوعي . حلب . تحقيق محمود إبراهيم زايد: ٥٠/٢ . الكامل في ضعفاء الرجال لعبد الله بن عدي بن عبد الله أبي أحمد الجرحاني . طبعة دار الفكر . بيروت . الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ — ١٩٨٨ م . تحقيق يحيى مختار غزّاوي: ٢٧٩/٤ . تاريخ بغداد: ٢١٤/١٠ . تهذيب الكمال: ١٠٢/١٧ . الكاشف: ٦٢٧/١ . تهذيب التهذيب: ١٥٧/٦ . تقريب التهذيب: ٣٤٠/١ .

(٢) الشعبي : هو الإمام العلم عامر بن شراحيل الهمداني الحميري الكوفي ، أبو عمرو علامة التابعين . ولد زمن عمر رضي الله عنه . وكان إماماً فاضلاً حافظاً فقيهاً متقناً ثباتاً . قال مكحول رحمه الله: "مارأيت أفقه منه" . مات بعد المائة . وانظر: الطبقات الكبرى: ٢٤٦/٦ . التاريخ الكبير: ٤٥٠/٦ . معرفة الثقات: ١٢/٢ . ثقات ابن حبان: ١٨٥/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ١٠١/١ . تاريخ بغداد: ٢٢٧/١٢ . التعديل والتحريح لمن خرّج له البخاري في الجامع الصحيح . لسليمان بن خلف بن سعد أبي الوليد الباجي . طبعة دار اللواء الرياض . الطبعة الأولى : ١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م . تحقيق أبي لبابة حسين : ٩٩٢/٣ . تهذيب الكمال: ٢٨/١٤ . تذكرة الحفاظ: ٧٩/١ . الكاشف: ٥٢٢/١ . تهذيب التهذيب: ٥٧/٥ . تقريب التهذيب: ٢٨٧/١ . لسان الميزان: ٥٠٩/٧ .

(٣) البداية والنهاية: ٢٧٨/٧ .

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

[الحجرات: ٩] .

قال ابن القيم (رحمه الله):

"وقد أمر سبحانه بالإصلاح بين الطائفتين المقتلتين أولاً، فإن بغت إحداهما على الأخرى فحينئذ أمر بقتال الباغية لا بالصّح فإنّها ظالمة، ففي الإصلاح مع ظلمها هضم لحقّ الطائفة المظلومة" (١) .

وقال رحمه الله لعمّار بن ياسر (رضي الله عنهما) : " تقتلك الفئة الباغية " (٢) ، وعمّار رحمه الله كان يقاتل في صفّ عليّ رحمه الله ، وقتله أهل الشام .

قال الإمام النووي (رحمه الله):

"قال العلماء: هذا الحديث حجة ظاهرة في أنّ عليّاً رحمه الله كان محقّاً مصيباً، والطائفة الأخرى بغاة ، لكنهم مجتهدون ، فلا إثم عليهم ... وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ من أوجه منها: أنّ عمّاراً يموت قتيلاً ، وأنّه يقتله مسلمون ، وأنهم بغاة ، وأنّ الصحابة يقاتلون ، وأنهم يكونون فرقتين باغية وغيرها ، وكلّ هذا قد وقع مثل فلق الصّبح" (٣) .

(١) أعلام الموقعين عن ربّ العالمين . لابن القيم . طبعة مكتبة الكليات الأزهرية . تعليق : طه عبد الرؤوف سعد .

١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م . شركة الطّباعة الفنّية المتّحدة بمصر : ١٠٩/١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الصّلاة: (٥/٨) . باب التعاون في بناء المسجد: (٦٣) . برقم: (٤٤٧) .

ص: ١١٠ . وفي كتاب الجهاد والسير: (٣٢/٥٦) . باب مسح الغبار عن النّاس في السّبيل: (١٧) . برقم:

(٢٨١٢) . ص: ٥٩٤ . عن أبي سعيد الخدري رحمه الله .

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢) . باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل

فيتمنّى أن يكون مكان الميّت من البلاء: (١٨) . برقم: (٢٩١٦) . ٢٢٣٦/٤ . عن أمّ سلمة (رضي الله عنها) .

وبلفظ مقارب برقم: (٢٩١٥) . ٢٢٣٥/٤ . عن أبي سعيد رحمه الله .

(٣) شرح التّووي على مسلم: ٤٠/١٨ .

وقال ﷺ : "تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين ، يقتلها أولى الطائفتين بالحق" (١) .

وهؤلاء المارقة هم الذين خرجوا على عليّ ﷺ وقاتلوه يوم النهروان (٢) .
فدلّ الحديث على أن عليّاً ﷺ وطائفته أقرب إلى الحق من طائفة معاوية ﷺ (٣) .
وقد ذهب جمهور أهل السنة إلى تصويب عليّ ﷺ في قتاله ، وأن مقاتليه قد اجتهدوا فأخطأوا فلا يذمون (٤) .

والمراد هنا أن تلك الواقعة كانت فتنة عظمت بين المسلمين الأول ، لما أحدثته من فرقة وشتات ، وما أورثته من أحقاد وعداوات ، ضعفت على إثرها شوكة المسلمين ، وتضعضت قوتهم . وبات أبناء الدين الواحد يقتل بعضهم بعضاً . فبدلاً

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: في كتاب الزكاة: (١٢). باب ذكر الخوارج وصفاتهم: (٤٧). برقم: (١٠٦٥).
٧٤٥/٢. و بلفظ مقارب في: ٧٤٦/٢. عن أبي سعيد الخدري ﷺ .

(٢) النهروان: وفيها لغات أخرى. بلاد واسعة بين بغداد وواسط من ناحية الشرق. وبها عدة مدن وقرى ، هدمت قديماً . وأصل النهروان اسم نهر ، ثم أطلق الاسم على المكان . وبها أوقع عليّ ﷺ بالخوارج في الواقعة المشهورة .
انظر: معجم ما استعجم: ١٣٣٦/٤-١٣٣٧. معجم البلدان: ٣٢٤/٥-٣٢٥ .

(٣) المنتقى من منهاج الاعتدال: ص: ٢٢٣ .

(٤) انظر: التذكرة ص: ٦٢٦-٦٢٧ . الجامع لأحكام القرآن ٣١٨/١٦ . المنتقى من منهاج الاعتدال: ص: ٥٤-٥٦ .
(وقد ذكر فيه شيخ الإسلام ابن تيمية أقوال أهل العلم وطوائف أهل الإسلام في حكم قتال صفين) .
البداية والنهاية: ٢٦٧/٧ فما بعدها . فتح الباري: ٥٧١/١٤ . الإذاعة: ص: ٣٧ . وانظر: العواصم من القواصم: ص: ١٦٨ فما بعدها .

وقد ذكر الشيخ محب الدين الخطيب (رحمه الله) تحقيقات ضافية ، وتعليقات مفيدة تلج الصدر ، في تعليقه على كلام الإمام ابن العربي (رحمه الله) حول تلك الواقعة .

انظر: هامش رقم (٤) ص: ١٦٨ وهامش رقم (١) ص: ١٧٠ من الكتاب السابق .

وقال (رحمه الله):

"إن هذه الحرب المثالية هي الحرب الإنسانية الأولى في التاريخ ، التي جرى فيها المتحاربان معاً على مبادئ الفضائل التي يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها في حروبهم ، ولو في القرن الحادي والعشرين ، وإن كثيراً من قواعد فقه الحرب في الإسلام لم تكن لتعلم وتدوّن لو لا وقوع هذه الحرب ، والله في كل أمر حكمة" . هامش (١) ص: ١٦٥ . من المرجع السابق .

وانظر: الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٣-٢٩٤ . الجامع لأحكام القرآن: ٣١٩/١٦-٣٢٠ .

من أن توجه السيوف إلى أعداء الله المتربصين بدين الإسلام وجهت إلى صدور أهل الإسلام وفلذات كبده .

وقد حذر الله ورسوله ﷺ أيما تحذير من قتل المؤمن وقتاله .

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا

وَعُذِّبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قال: "من حمل علينا السلاح فليس منا" (١) .

(١) هذا الحديث ورد عن جماعة من الصحابة في الصحيحين:

[أ] عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما):

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الديات: (٦٢/٨٧). باب قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾

[المائدة: ٣٢] : (٢). برقم: (٦٨٧٤). ص: ١٤٥٠. وزاد: رواه أبو موسى عن النبي ﷺ . وفي كتاب الفتن:

(٦٧/٩٢). باب قول النبي ﷺ : "من حمل علينا السلاح فليس منا": (٧). برقم: (٧٠٧٠). ص: ١٤٩٢.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب قول النبي ﷺ : "من حمل علينا السلاح فليس منا": (٤٢).

برقم: (٩٨). ٩٨/١.

[ب] أبو موسى الأشعري ﷺ :

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النبي ﷺ : "من حمل علينا السلاح فليس منا":

(٧). برقم: (٧٠٧١). ص: ١٤٩٢.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب قول النبي ﷺ : "من حمل علينا السلاح فليس منا": (٤٢).

برقم: (١٠٠). ٩٨/١.

[ج] أبو هريرة ﷺ :

صحيح مسلم: بلفظه في: الكتاب والباب السابقين. وزاد: "من غشنا فليس منا". برقم: (١٠١). ٩٩/١.

[د] سلمة ﷺ :

صحيح مسلم: في الكتاب والباب السابقين. ولفظه: "من سل علينا السيف فليس منا". برقم: (٩٩). ٩٨/١.

قال النووي (رحمه الله):

"قاعدة مذهب أهل السنة والفقهاء وهي: أن من حمل السلاح على المسلمين بغير حق ولا تأويل ولم يستحلّه فهو عاص ولا يكفر بذلك فإن استحلّه كفر .

فأما تأويل الحديث: فقيل : هو محمول على المستحل بغير تأويل فيكفر ويخرج من الملة . وقيل: معناه ليس على سيرتنا الكاملة وهدينا . وكان سفيان بن عيينة (رحمه الله) يكره قول من يفسره بليس على هدينا ويقول: "بئس

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار " (١).

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

" وفي هذين الحديثين تحريم قتال المسلم وقتله ، وتغليظ الأمر فيه، وتحريم تعاطي الأسباب المفضية إلى أدبته بكل وجه، وفيه حجة للقول بسد الذرائع " (٢).
وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" (٣).

هذا القول . يعني بل يمسك عن تأويله ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر والله أعلم .

شرح النووي على مسلم: ١٠٨/٢ . وانظر: عمدة القاري: ١٨٦/٢٤ .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النبي ﷺ: "من حمل علينا السلاح فليس منا":

(٧). برقم: (٧٠٧٢). ص: ١٤٩٢.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب البر والصلة والآداب: (٤٥). باب النهي عن الإشارة بالسلاح للمسلم:

(٣٥). برقم: (٢٦١٧). ٤/٢٠٢٠.

(٢) فتح الباري: ٥٢٠/١٤ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الإيمان: (٢). باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر:

(٣٧/٣٦). برقم: (٤٨). ص: ٢٥. وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب ما ينهى من السباب واللعن: (٤٤).

برقم: (٦٠٤٤). ص: ١٢٩٦. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النبي ﷺ: " لا ترجعوا بعدي كفاراً

يضرب بعضهم رقاب بعض " : (٨). برقم: (٧٠٧٦). ص: ١٤٩٣.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب قول النبي ﷺ: " سباب المسلم فسوق وقتاله كفر " : (٢٨).

برقم: (٦٤). ٨١/١.

قال النووي (رحمه الله) :

"أما معنى الحديث فسب المسلم بغير حق حرام بإجماع الأمة ، وفاعله فاسق كما أخبر به النبي ﷺ . وأما قتاله بغير حق فلا يكفر به عند أهل الحق كقوله يخرج به من الملة ... إلا إذا استحلّه . فإذا تقرر هذا . فقل في تأويل الحديث أقوال: أحدها: أنه في المستحل . والثاني: المراد كفر الإحسان والتعنة وأخوة الإسلام لا كفر الجحود . والثالث: أنه يؤول إلى الكفر بشؤمه . والرابع: أنه كفعل الكفار . والله أعلم . ثم إن الظاهر من قتاله المقاتلة المعروفة " . ثم نقل قول القاضي عياض (رحمه الله) :

" ويجوز أن يكون المراد المشاركة والمدافعة والله أعلم " . شرح النووي على مسلم: ٥٤/٢ .

وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: "ويحكم - أو قال - ويلكم لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" (١).

(١) هذا الحديث ورد عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم في الصحيحين:

[أ] عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما):

صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب حجة الوداع: (٧٨/٧٧). برقم: (٤٤٠٣). ص: ٩١٥. ضمن خطبته في حجة الوداع. وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب ما جاء في قول الرجل ويلك: (٩٥). برقم: (٦١٦٦). ص: ١٣١٨. وفي كتاب الذيات: (٦٢/٨٧). باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: ٣٢]: (٢). برقم: (٦٨٦٨). ص: ١٤٥٠.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب معنى قول النبي ﷺ: "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" (٢٩). برقم: (٦٦). ٨٢/١.

[ب] جرير بن عبد الله:

صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣). باب الإنصات للعلماء: (٤٣). برقم: (١٢١). ص: ٤٤. وفي كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب حجة الوداع: (٧٨/٧٧). برقم: (٤٤٠٥). ص: ٩١٥. وفي كتاب الذيات: (٦٢/٨٧). باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: ٣٢]: (٢). برقم: (٦٨٦٩). ص: ١٤٥٠. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النبي ﷺ: "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" (٨). برقم: (٧٠٨٠). ص: ١٤٩٣.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (١). باب معنى قول النبي ﷺ: "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" (٢٩). برقم: (٦٥). ٨١-٨٢.

[ج] عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما):

صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الحج: (٨/٢٥). باب الخطبة أيام منى: (١٣٣/١٣٢). برقم: (١٧٣٩). ص: ٣٦٤. ضمن خطبته في يوم التحر. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النبي ﷺ: "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" (٨). برقم: (٧٠٧٩). ص: ١٤٩٣.

[د] أبو بكره رضي الله عنه: (ضمن خطبته يوم التحر):

صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الحج: (٨/٢٥). باب الخطبة أيام منى: (١٣٣/١٣٢). برقم: (١٧٤١). ص: ٣٦٤. وفي كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب حجة الوداع: (٧٨/٧٧). برقم: (٤٤٠٦). ص: ٩١٦-٩١٥. وفي كتاب الأضاحي: (٤٧/٧٣). باب من قال لا أضحي يوم التحر: (٤). برقم: (٥٥٥٠). ص: ١٢١٢. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النبي ﷺ: "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" (٨). برقم: (٧٠٧٨). ص: ١٤٩٣. وفي كتاب التوحيد: (٧٢/٩٧). باب قول الله تعالى:

وعن الأحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد هذا الرجل . فلقيني أبو بكره فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ يعني علياً، قال: فقال لي: يا أحنف ارجع، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار" قال: فقلت أو قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: "إنه قد أراد قتل صاحبه" (١).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً . وقد احتج بها من لم ير القتال في الفتنة كسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأبي بكره ﷺ وغيرهم .

وذهب بعضهم إلى الكف عن المقاتلة حتى لو أن أحداً أراد قتله لم يدفعه عن نفسه. ورأى بعضهم أنه لا يدخل في الفتنة ، فإن أراد أحد قتله دفع عن نفسه . وذهب جمهور الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام إلى وجوب نصر المحق في الفتن ، وقتال الباغي . وتأولوا الأحاديث على من لم يظهر له المحق ، أو ضعف عن القتال، أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما (٢). أو كان لهوى أو لطلب الدنيا ، أو كان القتال لعصبية . كما جاء عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]: (٢٤). برقم: (٧٤٤٧). ص: ١٥٦٤.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب القسامة: (٢٨). باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال: (٩). برقم: (١٦٧٩). ١٣٠٥/٣-١٣٠٦.

(١) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب الإيمان: (٢). باب ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: ٩] فسماهم المؤمنين: (٢٣/٢٢). برقم: (٣١). ص: ٢١. وفي كتاب الديات:

(٦٢/٨٧). باب قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ [المائدة: ٣٢]: (٢). برقم: (٦٨٧٥). ص: ١٤٥١.

وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما: (١٠). برقم: (٧٠٨٣). ص: ١٤٩٤. صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشرط الساعة: (٥٢). باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: (٤). برقم: (٢٨٨٨). ٢٢١٣/٤-٢٢١٤.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم: ١٠/١٨ . فتح الباري: ٥٣٠/١٤ .

جاهليّة، ومن قاتل تحت رؤية عميّة^(١)، يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل فقتله جاهلية، ومن خرج على أمّتي يضرب برّها وفاجرّها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفى لذي عهد عهده فليس مني ولست منه^(٢).

ولا شك أنّ الصحابة رضي الله عنهم ليسوا بداخلين في الوعيد الذي ورد في النصوص السابقة، لأنّ أهل السنّة والحق اتفقوا على إحسان الظنّ بهم، ومنع الطعن فيهم بسبب ما شجر بينهم، ولو عرف المحق منهم، لأنّهم كانوا مجتهدين في قتالهم، متأولين فيه، لم يقصدوا معصية ولا محض دنيا، بل اعتقد كلّ فريق منهم أنّه على الحقّ، وأنّ مخالفه مخطئ وباغ، فيجب عليه قتاله. وكانت الأمور مشتبهة حتّى تحيّر في ذلك جماعة منهم فاعتزلوا الطائفتين.

وما جاء عن أبي بكرة رضي الله عنه في منعه للأحنف عن القتال مع عليّ رضي الله عنه وقع ذلك عن اجتهاد منه^(٣).

قال الطبري (رحمه الله):

"لو كان الواجب في كلّ اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين الهرب منه، ولزوم المنازل، وكسر السيوف لما أقيم حدّ، ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كلّ ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم، بأن يتحزّبوا عليهم، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا هذه فتنة قد نهينا عن القتال فيها، وأمرنا بكفّ الأيدي والهرب منها، وذلك مخالف لقوله عليه الصلّاة والسّلام: "خذوا على أيدي سفهائكم"^(٤).

(١) عميّة: وحكى بعضهم فيها ضمّ العين. وهي من العمى، والمراد الضلالة. كالقتال للعصبة والأهواء.

انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/٣٠٤. وانظر: الفائق: ٣/٢٥.

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي

كلّ حال، وتحريم الخروج على الطّاعة ومفارقة الجماعة: (١٣) برقم: (١٨٤٨). ٣/١٤٧٦-١٤٧٧. ولفظ

مقارب في: ٣/١٤٧٧. ومختصراً عن حنّوب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: برقم: (١٨٥٠). ٣/١٤٧٨.

(٣) انظر: شرح التّووي على مسلم: ١٨/١١. الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٣٢١-٣٢٢. فتح الباري: ١٤/٥٣٠.

وانظر: التذكرة: ص: ٦٣٦.

(٤) نقلاً عن التذكرة ص: ٦٣٦. ولم أقف عليه في شيء من مؤلّفات الطبري رحمه الله التي رجعت إليها.

ولكن وقوع القتال بين صحابة رسول الله ﷺ فتح باب شرّ عظيم على أمة الإسلام . حذر منه رسول الله ﷺ في حديث ثوبان الذي سبق ذكره بقوله: "إذا وضع السيف في أمّتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة" . وفيه: "حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً" (١) . وذلك هو البأس الذي ورد ذكره في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال ﷺ: " سألت ربّي ثلاثاً ، فأعطاني ثنتين ، ومنعني واحدة . سألت ربّي أن لا يهلك أمّتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمّتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها " (٢) .

وقد وضع السيف في الأمة ولن يرفع . وكثرت الحروب والقتل بعد ذلك ، واشتدّ بأسهم فيما بينهم ، وعظمت الفتن وعمّ شرّها .

والحديث في الفردوس بمأثور الخطاب . لأبي شجاع شيرويه بن شهردار الديلمي الحمذاني . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٩٨٦م . تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول . بلفظه . عن التعمان بن بشير (رضي الله عنهما) . برقم: (٢٨٣٨) . ١٦٧/٢ .

(١) سبق تخريجه . أنظر : ص : ٤٣ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط الساعة: (٥٢) . باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض: (٥) . برقم : (٢٨٩٠) . ٢٢١٦/٤٠ .

﴿المطلب السابع﴾

تتابع الفتن

❦ لقد تتابعت الفتن بعد وقعة صفين على أمة الإسلام . فخرجت الخوارج (١) بعد حادثة التحكيم من جيش علي بن أبي طالب ؑ ، ورفعوا شعارهم لا حكم إلا لله . وكفروا علياً ؑ ومقاتليه ، واستباحوا دماء المسلمين ، وأحدثوا في الأمة بلاء عظيماً . وهم الذين عناهم رسول الله ﷺ في حديث علي بن أبي طالب ؑ . بقوله: " يأتني في آخر الزمان قوم خدثاء الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة " (٢) .

(١) الخوارج: هم الذين خرجوا من جيش أمير المؤمنين علي ؑ بعد وقعة صفين، ورفضوا التحكيم، وقالوا له: لم حكمت الرجال، لا حكم إلا لله ؟. وهم المارقة الذين اجتمعوا بالنهروان فقاتلهم علي ؑ . ثم تكونت منهم فيملا بعد فرق شتى . يجمعهم القول بالتبري من عثمان ؑ ، وتكفير أصحاب الكبائر، والخروج على الإمام إذا خالف السنة.

وانظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين . لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. طبعة دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الثالثة. تحقيق: هلموت ريتز : ص: ٨٦. الفرق بين الفرق : ص: ٥٤ فما بعدها . الملل والتحلل . لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني . طبعة دار المعرفة. بيروت. ١٤٠٤ هـ . تحقيق محمد سيد كيلاني : ١١٤/١ فما بعدها .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النبوة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٦١١). ص: ٧٦٠. وفي كتاب فضائل القرآن: (٤٠/٦٦). باب من رأيا بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به: (٣٦). برقم: (٥٠٥٧). ص: ١١١٤. ولفظ مقارب في: كتاب استنابة المرتدين: (٦٣/٨٨). باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم: (٦). برقم: (٦٩٣٠). ص: ١٤٦٢. صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الزكاة: (١٢). باب التحريض على قتل الخوارج: (٤٨). برقم: (١٠٦٦). ٧٤٦/٢.

والأحاديث في شأن الخوارج تبلغ حد التواتر . ساق الإمام ابن كثير (رحمه الله) جملة غفيرة منها . انظر: البداية والنهاية: ٣٠٧-٢٩٠/٧ .

وقد قاتلهم عليٌّ عليه السلام في وقعة النهروان ، فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل^(١) . ولكن شرهم لم يجتث من دابرهم . فكانوا يظهرهم كلما قويت لهم شوكة فيحدثون البلبال والفتن والمفاسد في الأمة .

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ينشأ نساء يقرؤون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، كلما خرج قرنٌ قطع" . قال ابن عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كلما خرج قرن قطع" . أكثر من عشرين مرة . "حتى يخرج في عراضهم^(٢) الدجال"^(٣) .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"عظم البلاء بهم ، وتوسّعوا في معتقدهم الفاسد ، فأبطلوا رجم المحصن ، وقطعوا يد السارق من الإبط ، وأوجبوا الصلاة على الحائض في حال حيضها ، وكفّروا من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن كان قادراً ، وإن لم يكن قادراً فقد ارتكب كبيرة . وحكم مرتكب الكبيرة عندهم حكم الكافر ، وكفّوا عن أموال أهل الذمة^(٤) ، وعن التعرّض لهم مطلقاً ، وفتكوا فيمن ينسب إلى الإسلام بالقتل والسبي والنهب"^(٥) .

❦ ولما بويع ليزيد بن معاوية^(٦) بالخلافة بعد أبيه امتنع الحسين بن عليّ (رضي الله عنهما) عن بيعته ، ولجأ إلى مكة ، فأرسل إليه أهل العراق يدعونه

(١) وانظر: تاريخ الطبري: ٦٤/٥ فما بعدها . ٧٢/٥ فما بعدها . الكامل في التاريخ: ٣٢٦/٣ فما بعدها . ٣٣٤/٣ فما بعدها . ٣٤١/٣ فما بعدها . العبر: ٣١/١-٣٢ . البداية والنهاية: ٢٧٨/٧ فما بعدها . ٢٨٥/٧ فما بعدها .

(٢) أي : مواجهتهم . شرح السيوطي على سنن ابن ماجه : ص : ١٦ . وانظر: النهاية في غريب الحديث : ٢١١/٣ .

(٣) سنن ابن ماجه . بلفظه في المقدمة . باب ذكر الخوارج: (١٢) . برقم: (١٧٤) . قال الألباني رحمه الله: "حسن" .

ص: ٣٤-٣٥ . وهو في صحيح الجامع الصغير وزيادته . للشّيخ محمد ناصر الدين الألباني . طبعة : المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الثالثة . ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م . برقم: (٨١٧١) . ١٣٥٧/٢-١٣٥٨ .

(٤) الذّمة : بالكسر تطلق على العهد والعقد والأمان . والمراد بأهل الذّمة أهل العهد - من غير المسلمين - الذين

أعطوا الأمان . وانظر: مختار الصحاح: ص: ٢٢٣ . القاموس المحيط: ص: ١٤٣٤ .

(٥) فتح الباري : ٢٨٥/١٢ . طبعة دار المعرفة .

(٦) هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أبو خالد الأموي القرشي . ولي الخلافة بعهد من أبيه سنة ستين . كان قوياً شجاعاً ، ذا رأي وحزم وفطنة وفصاحة ، وكان فظاً غليظاً . ليس له رواية تعتمد ، وليس بأهل أن يروى عنه .

للقُدوم إليهم . وحذّره ذوو الرأْي والمحبّة له من الخروج إليهم فأبى . ثمّ سار إلى العراق في أهل بيته ، وأبناء إخوته . وأخاف عبيد الله بن زياد ^(١) والي العراق النَّاس فنكسوا عن الحسين عليه السلام ، وانكفّوا عنه وخذّلوه . ثمّ أرسل جيشاً بقيادة عمر ابن سعد بن أبي وقاص ^(٢) فلقى الحسين عليه السلام ومن معه بسهل كربلاء ^(٣) فقتل عليه السلام ، وقتل معه بضِع وسبعون نفساً . منهم بضعة عشر رجلاً من أولاده ، وإخوته وأهل بيته . وقد كان مقتله عليه السلام فتنة لأهل الإسلام . حزن له المسلمون ، وكرهوا قتله وقتل أصحابه ، وسخطوا على قاتليه . ولم يرض قتله إلاّ شُرْزمة قليلة ممّن أغوتهم الدّنيا ، وأغرّتهم المطامع ، وأهلكتهم الأهواء ، أو امتلأت قلوبهم حقداً لآل بيت النّبي صلى الله عليه وآله ، أو كانوا طُلّاب رئاسة ومناصب .

وكان قتله هفوة من هفوات بني أميّة التي حفظها لهم التّاريخ ، وأوغرت صدور كثير من المسلمين عليهم . كما كان مقتله فتنة لقوم ادّعوا حبّ آل البيت ، وتشيّعوا

قال الذّهي (رحمه الله): "يزيد تمّن لا نسبه ولا نحته ، وله نظراء من خلفاء الدّولتين". مات سنة ٦٤هـ .
وانظر: المنتظم: ٣٢٢/٥ . سير أعلام النبلاء: ٣٥/٤ . العمر: ٥١/١ . البداية والنهاية: ٢٢٦/٨ . تهذيب التّهذيب: ٣١٦/١١ . تقريب التّهذيب: ٦٠٥/١ . لسان الميزان: ٢٩٣/٦ . شذرات الذّهب: ٢٨٦/١ .
(١) هو عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان أبو أحمد ، ويقال لأبيه زياد بن أبيه . ويعرف بابن مرجانة . أمير الكوفة لمعاوية عليه السلام وابنه يزيد . كان سفاكاً للدماء ، شديداً على الرّعيّة . وهو الذي جهّز الجيش الذي قاتل الحسين بن عليّ (رضي الله عنهما) حتّى قتل بكربلاء . قتله إبراهيم بن الأشتر في وقعة الخازر سنة ٦٦هـ .
وانظر: التّاريخ الكبير: ٣٨١/٥ . سير أعلام النبلاء: ٥٤٥/٣ . البداية والنهاية: ٨٢٣/٨ . تعجيل المنفعة . لأحمد ابن عليّ بن حجر العسقلاني . طبعة دار الكتاب العربي . بيروت . الطّبعة الأولى . تحقيق : إكرام الله إمداد الحقّ : ٢٧٠/١ . شذرات الذّهب: ٢٩٢/١ .

(٢) هو عمر بن سعد بن أبي وقاص أبو حفص القرشي الزّهرّي التابعي المدني نزّيل الكوفة . وهم من ذكره في الصّحابة . وهو صدوق في الحديث ولكن مقتله النَّاس لقتاله الحسين بن عليّ (رضي الله عنهما) ، إذ كان أمير الجيش الذي أرسله ابن زياد لقتاله . قتله المختار بن عبيد سنة ٦٥هـ أو بعدها .
وانظر: الطّبقات الكبرى: ١٦٨/٥ . معرفة النّقات: ١٦٦/٢ . الجرح والتّعديل: ١١١/٦ . تهذيب الكمال: ٣٥٦/٢١ . الكاشف: ٦١/٢ . الإصابة: ٢٨٦/٥ . تهذيب التّهذيب: ٣٩٦/٧ . تقريب التّهذيب: ٤١٣/١ . لسان الميزان: ٣١٨/٧ .

(٣) كربلاء: موضع في طرف البرّة عند الكوفة . وهو الموضع الذي قتل فيه الحسين بن عليّ (رضي الله عنهما) . انظر معجم البلدان: ٤٤٥/٤ .

لهم حيث جعلوا يوم مقتله ^(١) يوم حزن وجزع ومأتماً يأباه الإسلام ، وارتكبوا فيه البدع الشنيعة ، والأهواء الفظيعة ، والشرك الأكبر ممّا يفوق حدّ الوصف ، وأوردوا من الأخبار الباطلة ، والروايات الكاذبة في صفة مصرعه ما ينافي الحقائق الثابتة ، والروايات الصحيحة ، والعقول السليمة ^(٢) .

❦ وفي سنة ثلاث وستين من الهجرة النبوية خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية ، وأخرجوا عامله ^(٣) من بين أظهرهم . فجهّز يزيد جيشاً لحربهم عليه مسلم ابن عقبة المري ^(٤) ، وأمره إذا ظهر عليهم أن يبيح المدينة ثلاثة أيام . فنزل شرقي المدينة في الحرّة ، ودعا أهلها ثلاثة أيّام فأبوا إلاّ المحاربة والمقاتلة ، فقاتلهم فهزمهم ، وقتل خلقاً كثيراً من بقايا المهاجرين والأنصار وأبناء الصحابة وخيار التابعين ، ثمّ استباح المدينة ثلاثة أيّام . فانتهبت الأموال ، وهتكت الأعراض ، وأريق الدماء ، ووقع شرٌّ عظيم ، وفساد عريض ، وفتن لا توصف ^(٥) .

قال سعيد بن المسيّب (رحمه الله):

"وقعت الفتنة الأولى ، يعني مقتل عثمان فلم تبق من أصحاب بدر أحداً ، ثمّ وقعت الفتنة الثانية ، يعني الحرّة فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً ، ثمّ وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ" ^(٦) .

(١) وهو يوم عاشوراء ، العاشر من محرم .

(٢) انظر في مقتل الحسين عليه السلام ، وأسباب قتله ، وصفة ذاك القتل : تاريخ الطبري: ٣٤٧/٥ . فما بعدها ٤٠٠/٥ .

فما بعدها . الكامل في التاريخ: ١٩/٤ . فما بعدها ٣٧/٤ . فما بعدها ٤٦/٤ . فما بعدها . البداية والنهاية:

١٤٩/٨ . فما بعدها ١٥٩/٨ . فما بعدها ١٧٢/٨ . فما بعدها . وانظر: العبر: ٤٧/١-٤٨ .

(٣) هو عثمان بن محمّد بن أبي سفيان (ابن عمّ يزيد) .

(٤) هو مسلم بن عقبة بن رياح المريّ أبو عقبة . وهو أمير الجيش الذي أرسله يزيد بن معاوية لغزو المدينة ، وتسمّى

مسرفاً لإسرافه في قتل أهل المدينة . مات في الطريق بين المدينة ومكة سنة : ٦٣هـ .

وانظر: العبر: ٥١/١ . الإصابة: ٢٩٤/٦ . شذرات الذهب: ٢٨٦/١ .

(٥) انظر: تاريخ الطبري: ٤٨٢/٥-٤٩٥ . الكامل في التاريخ: ١١١/٤-١٢١ . التذكرة ص: ٦٨٨-٦٨٩ .

البداية والنهاية: ٢١٧/٨-٢٢٤ . وانظر: العبر: ٥٠/١-٥١ .

(٦) سبق ذكره . ص : ٥٤ .

❁ وامتنع عبد الله بن الزُّبَيْر (رضي الله عنهما) عن بيعه يزيد ، وأوى إلى مكة. فحاصره فيها أصحاب يزيد ، ونصبوا المنجنيق على الكعبة ، ورموها بالنار فاحترق جزء منها . ولمّا بلغ الجيش وفاة يزيد ترحّلوا عنه . فبايعه أهل الحرمين بالخلافة ، ثمّ أهل العراق واليمن حتّى كادت تجتمع عليه الأمة ^(١).

❁ وفي عهده وقعت مقتلة عظيمة بين الضّحّاك بن قيس الفهري ^(٢) الدّاعي لأمر ابن الزُّبَيْر (رضي الله عنهما) ومروان بن الحكم الذي بايعه بنو أميّة بالخلافة بمرج راهط . ^(٣) قتل فيها الضّحّاك ، وقتل خلق لا يحصون كثرة ^(٤).

❁ وتوثّب على الكوفة المختار بن عبيد الثّقفي الكذاب ، الذي ادّعى أنّ جبريل ينزل عليه ، وتتبع قتلة الحسين عليه السلام فقتلهم . ثمّ لقي جيشه الأمويين في وقعة الخازر ^(٥)

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٤٧٥/٥، ٤٩٧/٥-٤٩٩. ٥٠١/٥، ٦٢٢/٥. الكامل في التّاريخ: ١٢٣/٤-١٢٤.

العبر: ٥١/١. البداية والنهاية: ٢٢٤/٨-٢٢٥، ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) هو الضّحّاك بن قيس بن خالد أبو أنيس القرشي الفهري . الأمير المشهور . ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله بنحو ست سنوات . ولذا اختلف في صحبته. إلّا أنّ الحافظ ابن حجر (رحمه الله) حزم بها في تقريب التهذيب. شهد فتح دمشق ، وشهد صفين مع معاوية رضي الله عنه . دعا أولاً إلى بيعه ابن الزُّبَيْر (رضي الله عنهما) ، ثمّ دعا إلى نفسه. قتل يوم مرج راهط سنة : ٦٤ أو ٦٥ هـ .

وانظر: الطبقات الكبرى: ٤١٠/٧. طبقات خليفة: ص: ١٢٧، ٢٩. التّاريخ الكبير: ٣٣٢/٤. ثقات ابن حبلان: ١٩٩/٣. تهذيب الكمال: ٢٧٩/١٣. الكاشف: ٥٠٩/١. جامع التّحصيل في أحكام المراسيل. لأبي سعيد بن خليل بن كيكلدي العلاني . طبعة عالم الكتب . بيروت. الطّبعة الثّانية ١٤٠٧ هـ — ١٩٨٦ م. تحقيق حمدي عبد المجيد السّلفي : ص: ١٩٩. الإصابة: ٤٧٨/٣. تهذيب التهذيب: ٣٩٤/٤. تقريب التهذيب: ٢٧٩/١. إسعاف المبطأ . لعبد الرّحمن بن أبي بكر السيوطي . طبعة المكتبة التّجاريّة الكبرى. مصر. ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م : ص: ١٤.

(٣) مرج راهط : موضع بالشّام عليّ أميال من دمشق .

انظر: معجم ما استعجم: ٦٣٠/٢. وانظر: معجم البلدان: ٢١/٣. ١٠١/٥.

(٤) انظر: تاريخ الطبري: ٥٣٤/٥-٥٣٨. الكامل في التّاريخ: ١٤٩/٤-١٥١. العبر: ٥٢/١. البداية والنهاية: ٢٤٣-٢٤١/٨.

(٥) الخازر: اسم نهر بين إربل والموصل . ثمّ أطلق عليّ الموضع .

انظر: معجم البلدان: ٣٣٧/٢.

فهزمهم ، وقتل أمراءهم . وجرت فتنة (١) .

❖ ولما تحقق ابن الزبير (رضي الله عنهما) من خيانة المختار وكذبه ، أرسل له جيشاً بقيادة مصعب بن الزبير. (٢) فقتل المختار وتشتت جنده . وجرت فتنة (٣) .

❖ ثم التقى مصعب بجيش الأمويين وعليه عبد الملك بن مروان الذي بويع له بالخلافة بعد أبيه . وكان بينهما وقعة هائلة بدّير الجاثليق. (٤) قتل فيها مصعب وهزم جيشه. وجرت فتنة (٥) .

❖ ثم أرسل عبد الملك الحجاج بن يوسف (٦) إلى ابن الزبير . فحاصره بمكة.

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٧/٦ فما بعدها. ٦٦-٣٨/٦. ٩٢-٨١/٦. الكامل في التاريخ: ٢١١/٤-٢٤٤.

٢٦١/٤-٢٦٥. العبر: ٥٤/١. البداية والنهاية: ٢٦٤/٨-٢٨٣.

(٢) هو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد أبو عبد الله القرشي الأسدي التابعي. ولد في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة: ٣٣هـ . وكان جميلاً جواداً شجاعاً من فرسان قريش وعقلاء أهل الحجاز . قتله عبد الملك بن مروان سنة: ٧١ وقيل: ٧٢هـ.

وانظر: الطبقات الكبرى: ١٨٢/٥. طبقات خليفة: ص: ٢٤١. التاريخ الكبير: ٣٥٠/٧. الجرح والتعديل: ٣٠٣/٨. ثقات ابن حبان: ٤١٠/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٦٧/١. تاريخ بغداد: ١٠٥/١٣. تعجيل المنفعة: ٤٠٣/١.

(٣) انظر: تاريخ الطبري: ٩٣/٦-١١٦. الكامل في التاريخ: ٢٦٧/٤-٢٧٣. العبر: ٥٥/١. البداية والنهاية: ٢٨٧/٨-٢٨٩.

(٤) دير الجاثليق: دير قدم قرب بغداد وغربي دجلة.

انظر: معجم ما استعجم: ٥٧٢/٢. معجم البلدان: ٥٠٣/٢.

والدّير: بيت يتعبد فيه الرهبان. معجم البلدان: ٤٩٥/٢.

(٥) انظر: تاريخ الطبري: ١٥١/٦-١٦٢. الكامل في التاريخ: ٣٢٣/٤-٣٢٨. العبر: ٥٩/١. البداية والنهاية: ٣١٦-٣١٤/٨.

(٦) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم أبو محمد الثقفي . أمير العراق الشهير ، الظالم المبير . كان فصيحاً بليغاً سفاكاً للدماء مع شجاعة وإقدام ودهاء . وقع ذكره وكلامه في الصحيحين وغيرهما ، وليس بأهل أن يروى عنه. مات سنة: ٩٥هـ.

وانظر: تهذيب الأسماء . للإمام النووي . طبعة دار الفكر . بيروت . الطبعة الأولى: ١٩٩٦ م : ١٥٨/١. سير أعلام النبلاء: ٣٤٣/٤. العبر: ٨٤/١. تهذيب التهذيب: ١٨٤/٢. تقريب التهذيب: ١٥٣/١. لسان الميزان: ١٨٠/٢. تعجيل المنفعة: ٨٧/١. شذرات الذهب: ٣٧٧/١.

ودام القتال شهراً ، وقتل ابن الزبير (رضي الله عنهما) . وجرت فتنة (١) .
 ❀ ومن الفتن العظمى في الإسلام . فتنة عبد الرحمن بن الأشعث (٢) الذي
 خرج على الحجاج ، وتبعه عامة أهل البصرة من العلماء والعباد . واجتمع له جيش
 عظيم . ثم كانت له حروب مع الحجاج يطول ذكرها . ختمت بوقعة دير الجماجم (٣)
 التي قتل فيها خلق لا يحصون كثرة . ثم قتل ابن الأشعث (٤) .
 ❀ وخرج زيد بن علي بن الحسين بن علي (رضي الله عنهما) (٥) بالكوفة ،
 وبايعه خلق كثير ، وحارب متولي العراق للأمويين يوسف بن عمر النخعي (٦) فظفر
 به يوسف . ثم قتل وصلب ، وتفرق أتباعه . وكانت فتنة (٧) .

(١) انظر: تاريخ الطبري: ١٨٧/٦-١٩٣ . الكامل في التاريخ: ٣٤٨/٤-٣٥٩ . العبر: ٦٠/١ . البداية والنهاية: ٣٢٩/٨-٣٣٢ .

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي . تولى سجستان للحجاج . ثم ثار عليه لظلم الحجاج وجبروته ، وتبعه جمع كبير من العلماء والصلحاء . فقاتله الحجاج حتى قتل عام ٨٤هـ . ونكل بأتباعه . وانظر: سير أعلام النبلاء: ١٨٣/٤ . العبر: ٧١/١ . البداية والنهاية: ٥٣/٩ . شذرات الذهب: ٣٤٧/١ .
 (٣) دير الجماجم: الجماجم جمع جمجمة . وهو موضع يقع على شاطئ الفرات الغربي . وقيل : هو دير بظاهر الكوفة على طريق السالك إلى البصرة .

انظر: معجم ما استعجم: ٥٧٣/٢ . معجم البلدان: ٥٠٣/٢-٥٠٤ .
 (٤) انظر: تاريخ الطبري: ٣٤٢/٦-٣٥٠ . الكامل في التاريخ: ٣٧٥-٣٥٧/٦ . العبر: ٥٠١/٤ ، ٤٨٢-٤٧٨/٤ . البداية والنهاية: ٥١-٣٥/٩ ، ٥٥/٩ .

(٥) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) . أبو الحسين القرشي الهاشمي العلوي المدني التابعي . ولد سنة ٨٠هـ . من أفاضل أهل البيت وعبادهم . وهو الذي تنسب إليه الزيدية . ثقة في الحديث . خرج في خلافة هشام بن عبد الملك . فقتل بالكوفة سنة ١٢٢هـ . وقيل: قبلها .
 وانظر: الجرح والتعديل: ٥٦٨/٣ . مشاهير علماء الأمصار: ٦٣/١ . تهذيب الكمال: ٩٥/١٠ . الكاشف: ٤١٨/١ . تهذيب التهذيب: ٣٦٢/٣ . تقريب التهذيب: ٢٢٤/١ .

(٦) هو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي . أمير العراق وخرسان هشام بن عبد الملك . كان شهماً سائساً مهيباً جواداً ، جباراً عسوقاً . قتل سنة ١٢٧هـ .

وانظر: وفيات الأعيان: ١٠١/٧ . سير أعلام النبلاء: ٤٤٢/٥ . العبر: ١٢٦/١ . شذرات الذهب: ١١٧/٢ .
 (٧) انظر: تاريخ الطبري: ١٦٠/٧-١٧٣ . الكامل في التاريخ: ٢٢٩/٥-٢٤٧ . العبر: ١١٨/١ . البداية والنهاية: ٣٣١-٣٢٧/٩ .

❁ واستولى بنو العباس على الخلافة بعد قتال مرير وويلات وحروب مع جيوش بني أمية ، وأكثروا القتل في من ناوأمهم حتى استتب لهم الأمر^(١) .

❁ ولما توفي السفاح^(٢) أول خلفاء بني العباس خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ،^(٣) فخرج عليه عمه عبد الله بن علي ،^(٤) ودعا إلى نفسه بالشام ، فأرسل إليه أبو جعفر ، أبا مسلم الخراساني^(٥) صاحب دعوة بني العباس ومنشئ

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٤٢١/٧-٤٥٨. الكامل في التاريخ: ٤٠٨/٥-٤٣٢. العبر: ١٣٢/١، ١٣٤. البداية والنهاية: ٤٠/١٠-٤٦.

(٢) هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) . القرشي الهاشمي العبّاسي. أول خلفاء بني العباس . بويع له بالخلافة سنة: ١٣٢هـ . ولكن لم تطل خلافته فمات سنة: ١٣٦هـ .

وانظر: تاريخ بغداد: ٤٦/١٠. سير أعلام النبلاء: ٧٧/٦. العبر: ١٤٢/١. فوات الوفيات والذيل عليها محمد ابن شاكر الكتيبي. طبعة دار صادر. بيروت. ١٩٧٣م. تحقيق إحسان عباس: ٢١٥/٢. البداية والنهاية: ٥٢/١٠. شذرات الذهب: ١٦١/٢.

(٣) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي الهاشمي العبّاسي المنصور. ثاني خلفاء بني العباس . ولي الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة: ١٣٦هـ . وهو والد الخلفاء العبّاسيين جميعاً . كان ذا رأي وحزم ، ودهاء وجبروت . تاركاً للهو واللعب ، كامل العقل ، حسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم . بنى مدينة بغداد . وقد قتل خلقاً كثيراً حتى توطّد ملكه . مات سنة: ١٥٨هـ .

وانظر: تاريخ الطبري: ٤٧١/٧. تاريخ بغداد: ٥٣/١٠. الكامل في التاريخ: ٤٦١/٥. سير أعلام النبلاء: ٨٣/٧. العبر: ١٧٦/١. فوات الوفيات: ٢١٦/٢. البداية والنهاية: ١٢١/١٠. شذرات الذهب: ٢٦١/٢. الأعلام: ١١٧/٤.

(٤) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) . عم السفاح والمنصور . من رجال العالم ودهاء قريش . كان بطلاً شجاعاً ، ذا حزم ورأى ودهاء ، مهيباً جباراً عسوفاً سفاكاً للدماء . به قامت الدولة العبّاسية . مات في سجن المنصور سنة: ١٤٧هـ .

وانظر: تاريخ بغداد: ٨/١٠. سير أعلام النبلاء: ١٦١/٦. العبر: ١٥٩/١. البداية والنهاية: ١٠٤/١٠. شذرات الذهب: ٢١٤/٢.

(٥) هو عبد الرحمن بن مسلم وقيل: ابن عثمان بن يسار الخراساني الأمير . صاحب دعوة بني العباس ، وهازم جيوش الدولة الأموية ، والقائم بإنشاء الدولة العبّاسية . وكان سفاكاً للدماء . خلع المنصور ودعا لنفسه ، فتمكّن منه المنصور فقتل بين يديه سنة: ١٣٧هـ .

وانظر: تاريخ بغداد: ٢٠٧/١٠. وفيات الأعيان: ١٤٥/٣. سير أعلام النبلاء: ٤٨/٦. العبر: ١٤٣/١. ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي. طبعة دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى

دولتهم . فالتقى الجيشان بنصيبين ^(١) واشتدّ بينهما القتال ، ثمّ انهزم جيش عبد الله ، وهرب إلى البصرة ، وخمدت فتنته ^(٢) .

✽ ثمّ خلع أبو مسلم المنصور ولجأ إلى خرسان، فاحتال عليه المنصور حتّى قدم إليه ثمّ قتله ، ووضع السيّف في أتباعه حتّى سكنت فتنته ^(٣) .
✽ وكان العلويّون لا يهدى لهم بال ، كلّما وجدوا فرصة سانحة خرجوا على الدّولة العبّاسيّة ، فيتبعهم خلق كثير ، ممّا يدفع خلفاء بني العبّاس إلى قتالهم وإخماد فتنهم ^(٤) .

✽ واسـتفـحل أمـر الزّنادقة ^(٥) فـفي عـهد

١٩٩٥م. تحقيق عليّ محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود: ٣١٧/٤. لسان الميزان: ٤٣٦/٣. شذرات الذهب: ١٣١/٢.

(١) نصيبين: موضع بين العراق والشّام .

انظر: معجم ما استعجم: ١٣١٠/٤. معجم البلدان: ٢٨٨/٥.

(٢) انظر: تاريخ الطّبري: ٤٧٠/٧-٤٧٩. الكامل في التّاريخ: ٤٦٤/٥-٤٦٨. العبر: ١٤٣/١. البداية والنّهاية: ٦٣-٦١/١٠.

(٣) انظر: تاريخ الطّبري: ٤٧٩/٧-٤٩٢. الكامل في التّاريخ: ٤٦٨/٥-٤٨٠. العبر: ١٤٣/١. البداية والنّهاية: ٧٢-٦٣/١٠.

(٤) انظر: العبر: ١٥٢/١-١٥٥. ١٩٧/١. ٢٥٧/١. البداية والنّهاية: ٨٢/١٠-٩٥.

(٥) الزّنادقة : من الزّندقة وهي عند الإطلاق يراد بها عدّة معاني: فقد كانت تطلق على أتباع (ماني) ، ثمّ أطلقت على الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا بالنّبوات، ثمّ على من أسرّ الكفر وأظهر الإسلام ، فتكون مرادفة للتّفاق. ثمّ اتسع هذا اللفظ فشمل أهل المجون والخلاعة ، وكلّ من كان فيه خروج عن الدّين بالقول والعمل . وكلّ اتجاهات الزّنادقة تلتقي في هدف واحد وهو الوقوف في وجه الإسلام .

انظر: التّفاق والزّندقة وأثرهما في مواجهة الدّعوة الإسلاميّة قديماً وحديثاً . رسالة ماجستير . إعداد الطّالب : عطية عتيق عبد الله الزّهراني . وإشراف الشّيخ محمّد الغزالي . جامعة الملك عبد العزيز بمكّة المكرّمة . كليّة الشّريعة والدراسات الإسلاميّة . فرع العقيدة : ص: ٣٥. وانظر: لسان العرب: ١٤٧/١. مجموع الفتاوى: لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية . تحقيق : عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم . طبعة مكتبة ابن تيمية . الطّبعة الثّانية . ٦٣/٥. فتح الباري: ٢٧٠/١٢-٢٧١. طبعة دار المعرفة.

المهدي (١) العباسي ، وأحدثوا شروراً وفساداً عظيماً فنتبّعهم ونكل بهم (٢) .
 ومن ذلك الفتنة التي وقعت بين الأمين (٣) والمأمون (٤) ابني الرّشيد (٥)
 الذي عقد العهد من بعده للأمين ثمّ المأمون ، فتعجّل الأمين فخلع أخاه . فجبرت
 بينهما حروب طويلة ، وفتن كبيرة ، انتهت بقتل الأمين ، وتولّى الخلافة المأمون
 الذي كان وبلاً على أهل السّنة (٦) . وهو الذي أظهر القول بخلق القرآن ، وامتحن

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن عليّ ، الهاشمي ، الخليفة العباسي . كان جواداً ممدحاً
 معطاء محبباً إلى الرعيّة ، حسن الأخلاق حليماً . قامعاً لأهل البدع والأهواء والزنادقة ، مع شجاعة فيه وعدل . ملئت
 سنة : ١٦٩هـ . وبويع لابنه الهادي .

وانظر: تاريخ بغداد: ٣٩١/٥ . سير أعلام النبلاء: ٤٠٠/٧ . العبر: ١٩٧/١ . البداية والنهاية: ١٢٩/١٠ .
 شذرات الذهب: ٣٠٥/٢ .

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ١٤٨/٨ ، ١٦٥ . الكامل في التّاريخ: ٦٠/٦ ، ٧٣ ، ٧٥ . العبر: ١٩٠ ، ١٨٤/١ . البداية
 والنهاية: ١٤٥/١٠ ، ١٤٦ ، ١٤٩ .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن هارون الرّشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور الهاشمي ، الخليفة العباسي . كان ذا قوّة
 وشجاعة وأدب وفصاحة ، ولكّنه سيئ التدبير ، مفرط مبذّر ، أرعن ذو لعب ، مع صحّة إسلام ودين . تولّى
 الخلافة بعد أبيه الرّشيد . ثارت بينه وبين أخيه المأمون حروب انتهت بقتله سنة : ١٩٨هـ .

وانظر: تاريخ بغداد: ٣٣٦/٣ . العبر: ٢٥٤/١ . البداية والنهاية: ٢٢٢/١٠ . شذرات الذهب: ٤٦٠/٢ .

(٤) هو أبو العباس عبد الله بن هارون الرّشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور . الخليفة العباسي . كان من أذكّاء
 العالم ، فقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل ، وعرب كتبهم ، وبالغ في ذلك ، ودعا إلى القول
 بخلق القرآن . كان ذا حزم وعزم ورأي وعقل وهيبة وحلم مع اعتزال وتشيع . استتبّ له الأمر بعد مقتل أخيه
 الأمين . مات سنة : ٢١٨هـ .

وانظر: تاريخ بغداد: ١٨٣/١٠ . البدء والتّاريخ: ١١٢/٦ . سير أعلام النبلاء: ٢٧٢/١٠ . العبر: ٢٩٥/١ .

فوات الوفيات: ٢٣٥/٢ . البداية والنهاية: ٢٤٤/١٠ . شذرات الذهب: ٨٢/٣ .

(٥) هو هارون الرّشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الخامس . ولي الخلافة بعد أخيه الهادي
 سنة : ١٧٠هـ . كان من أنبل الخلفاء ، ذا حجّ وجهاد ، وغزو وشجاعة ، ورأي وفصاحة ، وعلم وبصر بأعباء
 الخلافة ، وله نظر جيّد في الأدب والفقه . وكان عادلاً جواداً محباً للعلماء . وقد ازدهرت الدّولة الإسلاميّة في
 عهده وتوسّعت . مات سنة : ١٩٣هـ .

وانظر: تاريخ الطبري: ٢٣٠/٨ . تاريخ بغداد: ٥/١٤ . الكامل في التّاريخ: ١٠٦/٦ . سير أعلام النبلاء:

٢٨٦/٩ . العبر: ٢٤٣/١ . شذرات الذهب: ٤٣١/٢ . الأعلام: ٦٢/٨ .

(٦) انظر: تاريخ الطبري: ٤٩٨-٣٧٤/٨ . الكامل في التّاريخ: ٢٢٢-٢٨٨ . العبر: ٢٤٤/١ ،

٢٤٦-٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ . البداية والنهاية: ٢٢٣/١٠ ، ٢٤١ .

النَّاس على ذلك، وعظمت المصيبة، واشتدَّ البلاء على أهل العلم، فأجاب أكثرهم على سبيل الإكراه، وامتنع آخرون فحبسوا وضربوا وقتل بعضهم. وكانت فتنة عظيمة . استمرت طيلة عهد المأمون والمعتصم ^(١) والواثق ^(٢) ورفعت في عهد المتوكل ^(٣) الذي أحيا السَّنة وأمات البدعة ^(٤) .

❁ ومن ذلك فتنة بابك الخرمي ^(٥) الذي أفسد البلاد والعباد ، وقوي أمره

(١) هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور الخليفة العباسي. تولَّى الخلافة بعد أخيه المأمون ، وكان ذا قوَّة وبطش وشجاعة وهيبة وشهامة، ولكنَّه قليل العلم ، كثير اللُّهو ، مسرف على نفسه. امتحن النَّاس بخلق القرآن. مات سنة: ٢٢٧هـ.

وانظر: تاريخ بغداد: ٣/٣٤٢. البدء والتَّاريخ: ٦/١١٤. سير أعلام النبلاء: ١٠/٢٩٠. العبر: ١/٣١٥. فوات الوفيات: ٤/٤٨. البداية والنهاية: ١٠/٢٩٥. شذرات الذهب: ٣/١٢٧.

(٢) هو أبو القاسم هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد الخليفة العباسي. ولي الخلافة بعد أبيه المعتصم . كان أديباً شاعراً. دعا إلى خلق القرآن، وقيل: إنَّه رجع قبيل موته. مات سنة ٢٣٢هـ.

وانظر: تاريخ بغداد: ١٤/١٥٠. سير أعلام النبلاء: ١٠/٣٠٦. العبر: ١/٣٢٥. فوات الوفيات: ٤/٢٢٨. البداية والنهاية: ١٠/٣٠٨. شذرات الذهب: ٣/١٥٠.

(٣) هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد، الخليفة العباسي. تولَّى الخلافة بعد أخيه الواثق . كان حوَّاداً ممداحاً كريماً مع تبذير ولعب فيه. رفع محنة خلق القرآن، ونصر السَّنة وأهلها. قتل سنة: ٢٤٧هـ.

وانظر: وفيات الأعيان: ١/٣٥٠. سير أعلام النبلاء: ١٢/٣٠. العبر: ١/٣٥٣. فوات الوفيات: ١/٢٩٠. البداية والنهاية: ١٠/٣١٠. شذرات الذهب: ٣/٢١٨.

(٤) انظر: تاريخ الطَّبري: ٨/٦١٩، ٦٣١-٦٤٦. ٩/١٣٥-١٣٩، ١٩٠. الكامل في التَّاريخ: ٦/٤٢٣-٤٢٧. العبر: ١/٢٧٣، ٢٨٤، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٥٣. البداية والنهاية: ١٠/٢٧٢-٢٧٤، ٣٠٣-٣٠٦، ٣١٦.

(٥) بابك الخرمي: كان رجلاً ثانوياً على دين ماني ومزدك. يقول بتناسخ الأرواح، ويستحلُّ البنت وأمها. وكان يريد أن يقيم ملَّة الجوس . تبعه الأشرار وقطَّاع الطَّريق والزَّنادقة. وقد أباد خلائق من الأُمَّة. قتله الخليفة المعتصم عام ٢٢٣هـ.

وانظر: سير أعلام النبلاء: ٩/٢٩٣-٢٩٧. العبر: ١/٣٠٢. شذرات الذهب: ٣/٩٥ فما بعدها.

قال أبو حامد الغزالي (رحمه الله) :

" وأما الخرمية فلقبوا بها نسبة لهم إلى حاصل مذهبهم وزبدته ، فأنه راجع إلى طيِّ بساط التَّكليف ، وخطَّ أعباء الشَّرع عن المتعبدين ، وتسليط النَّاس على اتِّباع اللَّذات ، وطلب الشَّهوات ، وقضاء الوطر من المباحات والحرِّمات . وخرَّم لفظ أعجمي يبنى عن الشَّيء المستلذ المستطاب الذي يرتاح الإنسان إليه بمشاهدته ، ويهتَر

واشتدّ بلاؤه وكثر أتباعه، وكان يقول بالتّناسُخ^(١)، ويريد أن يقيم ملّة المجوس^(٢)، وامتدّت أيامه نيفاً وعشرين سنة. كثرت فيها حروبه مع جيوش الدولة العباسية. وختمت بالقضاء عليه وعلى أتباعه^(٣).

لرؤيته . وقد كان هذا لقباً للمزدكيّة . وهم أهل الإباحة من المجوس الذين نبغوا في أيام قباد ، وأباحوا النّساء وإن كنّ من المحارم ، وأحلّوا كلّ محظور . وكانوا يسمّون حُرْمَدِيَّة " .

فضائح الباطنية لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي . طبعة مؤسسة دار الكتب الثّقافيّة . الكويت . تحقيق عبد الرّحمن بدوي : ص: ١٤ . وانظر: الفرق بين الفرق: ص: ٢٥١ . بيان تلبس الجهميّة في تأسيس بدعهم الكلاميّة لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلّيم بن تيمية . مطبعة الحكومة . مكّة المكرّمة . الطّبعة الأولى : ١٣٩٢هـ . تحقيق محمد بن عبد الرّحمن بن قاسم : ٣٧٤/١ .

(١) التّناسُخية : هم القائلون بتناسُخ الأرواح في الأجساد ، والانتقال من شخص إلى شخص . وما يلقي الإنسان من الرّاحة، والتعب، والدّعة، والتّصب فمرّت على ما أسلفه من قبل، وهو في بدن آخر جزاء على ذلك. والإنسان أبداً في أحد أمرين إمّا في فعل، وإمّا في جزاء ، وما هو فيه إمّا مكافأة على عمل قدّمه، وإمّا عمل ينتظر المكافأة عليه . والجنة والنار في هذه الأبدان، وأعلى عليّين درجة الثّبوة، وأسفل السّافلين دركة الحية . فلا وجود أعلى من درجة الرّسالة ، ولا وجود أسفل من دركة الحية . ومنهم من يقول الدّرجة الأعلى درجة الملائكة، والأسفل دركة الشّياطين . الملل والنحل: ٢٥٣/١-٢٥٤ . بتصرّف يسير . وانظر: ٥٦-٥٥/٢ . الفصل في الملل والأهواء والنحل . لأبي محمد عليّ بن أحمد بن حزم الظّاهري . طبعة دار الفكر مصوّرة عن طبعة المطبعة الأدبيّة . مصر . الطّبعة الأولى : ١٣١٧هـ : ٩٠/١-٩١ .

(٢) المجوس : هم الذين أثبتوا أصلين مدبّرين قديمين ، يقتسمان الخير والشرّ ، والتّفع والضّر، والصّلاح والفساد . يسمّون أحدهما: التّور والآخر الظّلّة . وبالفارسية: يزدان واهرمين . وهم في ذلك تفصيل مُذهّب . ومسائل المجوس كلّها تدور على قاعدتين اثنتين: إحداهما بيان سبب امتزاج التّور بالظّلّة . والثّانية: بيان سبب خلاص التّور من الظّلّة . وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معاداً . الملل والنحل: ٢٣٢/١ . بتصرّف . وانظر: الإبانة عن أصول الدّيانة . لعليّ بن إسماعيل أبي الحسن الأشعري . طبعة دار الأنصار . القاهرة . الطّبعة الأولى : ١٣٩٧هـ . تحقيق فوقية حسين محمود : ١٦، ١٥/٢ . الفرق بين الفرق: ص: ٢٧٨ . ٣٢١-٣٢٢ . تبين كذب المفترّي فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري . لعليّ بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي . طبعة دار الكتاب العربي . بيروت . الطّبعة الثّالثة : ١٤٠٤هـ : ص: ١٥٦ . اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين . لمحمد بن عمر بن الحسين الرّازي . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . ١٤٠٢هـ . تحقيق عليّ سامي التّشّار : ص: ٨٦-٨٩ . الإعلام بما في دين التّصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام . لأبي عبد الله محمد ابن أحمد القرطبي . طبعة دار التراث العربي . القاهرة . ١٣٩٨هـ . تحقيق أحمد حجازي السّقا : ص: ١٦٥-١٦٦ . مسائل الجاهليّة التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهليّة . لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب . طبعة الجامعة الإسلاميّة . المدينة المنورة . ١٣٩٦هـ . تحقيق محمود شكري الألوسي : ص: ٥٠ .

(٣) انظر: تاريخ الطّبري: ١١/٩-٥٥ . العبر: ٣٠٢، ٢٩٨، ٢٦٢/١ . البداية والنهاية: ٢٨٢/١٠-٢٨٥ .

❁ ومن الفتن العظمى فتنة الزُّنْج^(١)، حيث خرج قائدهم^(٢) بالبصرة ودعاه إلى نفسه، وزعم أنه علوي، فتبعه كل صاحب فتنة، واستفحل أمره، وهزم جيوش الخليفة في عدة وقائع، واستباح المدن التي غلب عليها، وكان زنديقاً خبيثاً يتستر بمذهب الخوارج، وقد طالت أيامه، وكثر فسادُه. فسفك الدماء، وسبب النساء، وانتهى الأمر بقتله، وتفرق الزنج من حوله^(٣).

❁ ومنها فتنة القرامطة^(٤)، وهم زنادقة مارقة عن الدين، تفاقم أمرهم، واشتدّ البلاء بهم، وهزموا جيوش الخلافة مرّات عديدة، وأفسدوا في الأرض إفساداً عظيماً. أحرقوا المساجد، ووضعوا السيوف في أهل الإسلام، وقتلوا الحجاج يوم التروية، واستباحوا مكة، ثم قلعوا باب الكعبة، ونزعوا الحجر الأسود وأخذوه إلى هجر^(٥).

وأسسوا فيما بعد الدولة الفاطمية^(٦) الباطنية الملحدة التي أذاقت المسلمين

(١) أول من بادر إليها عبيد أهل البصرة. فقيل لها فتنة الزنج. انظر: العبر: ٣٦٥/١.

(٢) زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى ابن الشهيد زيد بن علي. ولم يثبتوا نسبه.

العبر: ٣٦٥/١. وانظر: مقالات الإسلاميين: ص: ٨٥.

(٣) انظر: تاريخ الطبري: ٤١٠/٩-٦٦٣. العبر: ٣٦٤/١-٣٨٨.

(٤) القرامطة: حركة باطنية هدامة. اعتمدت التنظيم السري العسكري. ظاهرها التشيع لآل البيت، والانتساب لـ محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وحقيقتها الإلحاد والشيوعية والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية. سُمّي هذا الاسم نسبة إلى حمدان قرمط بن الأشعث الذي نشرها في سواد الكوفة سنة: ٢٧٨هـ. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ص: ٣٩٥. وانظر: بيان تلبيس الجهمية: ١/١٠٥، ٢٤٤، ٢٥٩، ٢٦٠. البداية والنهاية: ١١/٦١-٦٢.

(٥) هجر: مدينة قديمة بأرض البحرين.

وانظر: معجم ما استعجم: ١٣٤٦/٤. معجم البلدان: ٣٩٣/٥.

(٦) أسسها عبيد الله الذي ادعى أنه من ولد جعفر الصادق، وأنه علوي وتلقب بالمهدي عام ٢٩٧هـ. وانتسب خلفاؤه من بعده إلى فاطمة (رضي الله عنها). وتسموا بالفاطميين. وقد ذكر أهل العلم أنهم كذبوا فجرة في ذلك. وإنما نسبهم إلى عبيد بن سعد الجرهمي اليهودي الدّعي الكاذب. وقد كانوا زنادقة باطنية، روافض، يدينون بدين المجوس. وقد استمرت دولتهم ٢٨٠ سنة. إلى أن أزالها الله على يدي صلاح الدين يوسف بن أيوب.

الأمريين . (١)

❁ ومن أعظم الفتن التي حلت بأهل الإسلام فتنَةُ النَّتَّارِ (٢) الَّذِينَ قَدَمُوا مِنْ بَادِيَةِ الصَّيْنِ فَخَرَّبُوا مَعْظَمَ الْبِلَادِ ، وَأَبَادُوا كَثِيرًا مِنَ الْعِبَادِ ، فَقَتَلُوا وَسَبُّوا وَأَخَذُوا الْأَمْوَالَ وَانْتَهَكُوا الْأَعْرَاضَ . وَلَوْلَا حِفْظُ اللَّهِ وَعَنَايَتُهُ لَمَا أَبْقَوْا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَيْنًا تَطْرَفُ (٣) .

ثُمَّ تَكَاثَرَتِ الْفِتْنُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَانْفَرَطَ عَقْدُهَا ، وَتَشَعَّبَ أَمْرُهَا ، حَيْثُ يَعْجُزُ الْمَرْءُ عَنْ حَصْرِهَا ، أَوْ سِيَاقِ خَبَرِهَا . وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

وانظر البداية والنهاية: ٣٤٥/١١-٣٤٦. وانظر: ٢٦٧/١٢-٢٦٨. الموسوعة الميسرة: ص: ٤٦-٤٧.

(١) انظر: العبر: ٣٩٩/١، ٤١١، ٤١٧، ٤١٩، ٤٢٤-٤٢٥، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٧٤.

(٢) هم طوائف من المغول الذين يقيمون ببادية أرض الصين، عمّك عليهم جنكيزخان فأذعنوا له بالطاعة في كل شيء. ولم يكن يتقيد بدين. فحاربهم الممالك من حوله فاستولى عليها، فقويت شوكتهم، واشتد أمرهم، فعاثوا في الأرض فساداً. وانظر: سير أعلام النبلاء: ٢٤٣/٢٢. البداية والنهاية: ٣٦/١٣، ٤٨، ٨٢، ٨٦، ٨٧.

قال ابن الأثير (رحمه الله):

" هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمّت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يتلوا بمثلها لكن صادقا. فإن التواريخ لم تتضمن ما يقارها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما حرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل. ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتقنى الدنيا إلا يأحوج ومأحوج. وأما الدجال فإنه يبقى على من أتبعه ويهلك من خالفه. وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة. فإننا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. " ثم استفاض (رحمه الله) في الحديث عنهم، وذكر أخبارهم، وابتلاء أهل الإسلام بهم. انظر: الكامل في التاريخ: ٣٢٨/٩. فما بعدها. طبعة دار الكتاب العربي.

(٣) انظر: طرفاً من أخبارهم في العبر: ١٦٨/٣، ١٧٢، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٢، ٢٠٠، ٢١٨.

الفصل الثالث

أنواع الفتن وعلاجها

وفيه تمهيد ومباحث:

التمهيد

أثر الشيطان في إثارة الفتن

إنَّ الله تعالى خلق آدم (عليه السلام) ، ثمَّ شرَّقه وكرَّمه بأمره للملائكة بالسَّجود له. فاستجاب الملائكة لأمر الله فسجدوا جميعاً ، ولم يشذ منهم إلاَّ إبليس - عليه لعنة الله - فاستكبر وتعالى واغترَّ في نفسه ، وادَّعى أنَّه خير من آدم . لأنَّه خلق من نار و آدم من طين . ولا يمكن للفاضل أن يسجد للمفضول . فنظر إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى تشريف الله لآدم (عليه السلام) ^(١) . فكانت العاقبة أن ألبسه الله من رحمته، وجعله شيطاناً رجيماً ، وأهبطه من جنَّته .

فلما استيقن اللعين من إبعاده طلب من الله النَّظرة إلى يوم الدين . فأجابه الله لما طلب. لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشئنة التي لا تُخالف ولا تُمانع . ثمَّ تمادى الشيطان في غيِّه ، معانداً ربَّه ، متمرداً عليه بأنَّه سوف يقعد على صراط الله المستقيم ، وطريقه القويم . فيضلَّ كلَّ من خلقه الله من ذرية هذا الذي أبعد بسببه من الجنَّة . فبيَّن له الرَّبَّ سبحانه أنَّه سوف يملأ منه وممن تبعه جهنم.

وأسكن الله آدم (عليه السلام) وزوجه حواء الجنَّة ، وأباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلاَّ شجرة واحدة اختباراً وامتحاناً لهما. فحسدهما الشيطان ، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة لهما . ليزيل عنهما ما هما فيه من النِّعيم المقيم . فدلَّهما بغرور حتَّى ذاقا الشَّجرة. وعند ذلك بدت لهما عوراتهما، وسلبا ذاك النِّعيم .

(١) ولا يسلم لإبليس في دعواه بأنَّ عنصر النار أفضل من عنصر الطين .

أما آدم وزوجه (عليهما السلام) فقد تابا إلى الله ، وأنابا إليه . فتقبل الله توبتهما . وأما الشيطان — عليه لعنة الله — فظل على عناده واستكباره . فأنزل الجميع إلى الأرض . وقد استحكمت بينهم العداوة والبغضاء ^(١) . وقد أخبر الله سبحانه وتعالى في آيات كثر أن الشيطان عدو شديد العداوة . فقال:

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ^(٣٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣٩) [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ ^(٤٠) [المائدة: ٩١] .

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ ^(٤١) [القصص: ١٥] .

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ^(٤٢) [فاطر: ٦] .

وفي هذا تحذير لبني آدم ليأخذوا حذرهم من هذا العدو الماكر ، الذي قد أبان عداوته من زمن آدم (عليه السلام) ، وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بنيهِ ^(٢) . كما حذرهم سبحانه وتعالى جميعاً من فتنة هذا العدو الذي لا تخمد نار عداوته ولا ينطفئ لهيبها . فقال: ﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهِمَآ إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ

(١) أنظر: البقرة: الآيات: ٣٤-٣٨ . الأعراف: الآيات: ١١-٢٥ . وأنظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٩١/١ -

٣٢٩ . ١٦٨-١٨١ تفسير القرآن العظيم: ١١٤-١٢٤ . ٣٢٥-٣٣٢ .

(٢) أنظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠٩/٢ .

وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ [الأعراف: ٢٧] .

قال ابن كثير (رحمه الله):

" يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله ^(١)، مبيّناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم (عليه السلام) في سعيه في إخراجهم من الجنة التي هي دار النعم إلى دار التعب والعناء. والتسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه. وما هذا إلا عن عداوة أكيدة . وهذا كقوله تعالى : —

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠] . ^(٢)

والشيطان يدخل من بابين واسعين لفتنة العباد. فيهما تتحصر جميع أنواع الفتن:

أولهما: ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة .

والثاني: ما يلقي إلى العبد من الشهوات والإرادات الفاسدة ^(٣).

والنوع الأول هو أخطر أنواع الفتن ، وأشدّها لأنّها قد تؤوّل إلى الكفر والنفاق ، ويندرج تحتها جميع البدع على اختلاف مراتبها .

ويستغل الشيطان في ذلك ضعف البصيرة ، وقلة العلم ، ولا سيّما إذا اقترن بذلك فساد القصد ، وحصول الهوى ^(٤) .

والنوع الثاني هي فتنة المعاصي بأنواعها التي تدفع إليها الشهوات .

(١) القبيل : جمع قبيلة ، وهي الجماعة المجتمعة التي يقبل بعضها على بعض .

المفردات : ص : ٣٩٢ . وانظر : لسان العرب : ٥٤٢/١١ . القاموس المحيط : ص : ١٣٥١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٣٣٤/٢ . وانظر : جامع البيان : ٣٧٣/١٢ . شاكر . زاد المسير : ١٢٥/٣ . محاسن التأويل : ٢٦٤٩/٧ .

(٣) انظر : زاد المعاد : ١٠/٣ .

(٤) انظر : إغاثة اللّهفان : ١٦٥/٢ .

قال ابن القيم (رحمه الله):

"وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: —

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٩].

أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها. والخلاق هو النصيب المقدر، ثم قال:

﴿وَحُضِّنْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩] ...

فهذا الخوض بالباطل، وهو الشبهات .

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل . لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح .

فالأول: هو البدع وما والاها، والثاني: فسق الأعمال .

فالأول فساد من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات . ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه" (١).

والشيطان — عليه لعنة الله — يسلك مسالك شتى، ويستخدم أساليب متنوعة لإلقاء الناس في فتن الشبهات والشهوات .

قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْشَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٢٨﴾ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَتَّيْنَتْهُمْ وَلَا مَرْنَتْهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَتْهُمْ فَلْيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٢٩﴾ يَعِدُهُمْ

(١) المصدر السابق: ١٦٦/٢ .

وَيُؤْمِنُ بِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١١٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١١٨﴾ [النساء: ١١٧-١٢١] .

فهو يضلّ العباد ويصرفهم عن الحق ، ويزين لهم الباطل ، ويعدهم بالأماني ، ويأمرهم بالتسويف والتأخير ، ويغرهم ويخدعهم بأباطيله وترهاته ، ويدفعهم إلى ارتكاب المعاصي كتشقيق آذان الأنعام ، وتغيير خلق الله تعالى (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا آلِدِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخْرَتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٧﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٨﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَظَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٩﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٧٠﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥] .

فقد زعم أنه سوف يستولي على بني آدم ويحتويهم ، ويستأصلهم بالإغواء والإضلال ، فيسوقهم حيث شاء ويقودهم حيث أراد .
وله أن يستزل ويستخف من استطاع إضلاله ، وأن يستعين بكل داع يدعو إلى معصية الله ، ويجلب عليهم بكل راكب وماش في سخط الله ، ويشاركهم في ما يملكون من أموال وأولاد بالعمل فيها بما لا يرضي الله ، ويعدهم بما شاء من وعود كاذبة ، ويخدعهم بما شاء من حيل وخدع ، ويجمع كل ما يقدر عليه من مكائد لإضلالهم . فإن عباد الله المؤمنين لن يصل إلى بغيته منهم أبداً لأن الله حافظهم من كيدته ومكره. (٢)

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣٨٨/٥-٣٩٥ . تفسير القرآن العظيم: ٨٤٣/١-٨٤٥ .

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٧/١٠-٢٩٠ . تفسير القرآن العظيم : ٨٢/٣-٨٣ .

عن جابر رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول : " إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيْسَ أَنْ يَعْبُدَهُ
المَصْلُونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ " (١) .

قال النَّوَوِيُّ (رحمه الله):

" أَيْسَ أَنْ يَعْبُدَهُ أَهْلُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنَّهُ سَعَى فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ
بِالْخُصُومَاتِ وَالشَّحْنَاءِ وَالْحُرُوبِ وَالْفِتَنِ وَنَحْوَهَا " (٢) .

ووسائله كثيرة جداً في إضلال العباد وفتنتهم، يضيق هذا المقام عن ذكرها.
وهو يستعين بأتباعه من الشياطين لفتنة الخلق.

عن جابر رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول : " إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ ،
فَيَبْعُثُ سَرَايَاهُ (٣) فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ ، فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ [وَفِي الرِّوَايَةِ الْآخَرَى: مِنْزَلَةٌ]
أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً " (٤) .

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : " إِنَّ إِبْلِيسَ يَضْعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ
يَبْعُثُ سَرَايَاهُ ، فَأُدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزَلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً ، يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ : فَعَلْتُ كَذَا
وَكَذَا . فَيَقُولُ : مَا صَنَعْتَ شَيْئاً . قَالَ : ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ : مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى
فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ . قَالَ : فَيَدِينِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نَعَمْ أَنْتَ " . قَالَ الْأَعْمَشُ (٥) .

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠). باب تحريش الشَّيْطَانِ وبعثه سراياه لفتنة
النَّاسِ وَأَنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ قَرِينًا : (١٦). برقم: (٢٨١٢). ٢١٦٦/٤.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١٥٦/١٧.

(٣) سرايا: جمع سرية. وهي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تُبْعَثُ إِلَى الْعَدُوِّ. سُمُوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ
خُلَاصَةَ الْعُسْكَرِ وَخِيَارَهُمْ. مِنَ الشَّيْءِ السَّرِيِّ النَّفِيسِ. وَقِيلَ سُمُوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَنْفِلُونَ سَرًّا وَخُفْيَةً.
النهاية في غريب الحديث: ٣٦٣/٢. بتصرف يسير.

(٤) صحيح مسلم: بلفظه في: الكتاب والباب السابقين. برقم: (٢٨١٣). ٢١٦٧/٤.

(٥) هو سليمان بن مهران أبو محمد الأسدي الكاهلي مولاهم الكوفي الأعمش. كان رأساً في العلم النافع والعمل
الصالح، عالماً بالقرآن خبيراً بالقراءات، إماماً في الحديث ثقة حافظاً، ولكنه يدلس. مولده سنة: ٦١هـ ومات
سنة: ١٤٨ أو ١٤٧هـ.

وانظر: الطبقات الكبرى: ٣٤٢/٦. طبقات خليفة: ص: ١٦٤. التاريخ الكبير: ٣٧/٤. معرفة النقات: ٤٣٢/١.
الجرح والتعديل: ١٤٦/٤. ثقات ابن حبان: ٣٠٢/٤. مشاهير علماء الأمصار: ١١١/١. تاريخ بغداد: ٣/٩.
التعديل والتجريح: ١١١٦/٣. تهذيب الكمال: ٧٦/١٢. تذكرة الحفاظ: ١٥٤/١. الكاشف: ٤٦٤/١. جامع

أراه قال: " فيلتزمه " * (١)
وسأتناول بإذن الله تعالى أنواعاً من فتن الشبهات والشهوات التي يثيرها الشيطان في
نفوس أهل الإسلام.

التعديل والتجريح: ١١١٦/٣. تهذيب الكمال: ٧٦/١٢. تذكرة الحفاظ: ١٥٤/١. الكاشف: ٤٦٤/١. جامع
التحصيل في أحكام المراسيل: ص: ١٨٨. التبيين لأسماء المدلسين. لإبراهيم بن محمد بن سبط ابن العجمي. طبعة
مؤسسة الريان. بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ — ١٩٩٤م. تحقيق محمد إبراهيم داود الموصلي: ص: ١٠٥.
تهذيب الكمال: ١٩٥/٤. تقريب التهذيب: ٢٥٤/١. لسان الميزان: ٢٣٨/٧. طبقات المدلسين. لأحمد بن علي بن
حجر العسقلاني. طبعة مكتبة المنار. عمان. الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م. تحقيق عاصم بن عبد الله
القريري: ص: ٣٣.

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠). باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة
الناس وأن مع كل إنسان قريناً: (١٦). برقم: (٢٨١٣). ٢١٦٧/٤.

المبحث الأول

الافتراق

إن الله تعالى أمر المؤمنين بالاعتصام بحبله ، وعدم التفرق . فقال سبحانه:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

وبين أن التفرق والاختلاف من سنن الأمم الماضية ، فعلى أهل الإسلام أن يجتنبوه. فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ

الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] .

قال القرطبي (رحمه الله) :

" فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه ، والرجوع إليهما عند الاختلاف ، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً . وذلك سبب اتفاق الكلمة ، وانتظام الشئآت الذي يتم به مصالح الدنيا والدين والسلامة من الاختلاف ، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين . هذا معنى الآية على التمام".^(١)

بل التفرق والاختلاف سمة من سمات أهل الشرك ولذا قال سبحانه:

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٠٦] من

الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [النحل: ١٠٧]

[الروم: ٣٢، ٣١] .

والآيات في التحذير من الاختلاف والتفرق كثيرة جداً ، يقصر هذا المقام عن

ذكرها.

كما حذر رسول الله ﷺ من الافتراق.

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٦٤/٤ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا؛ ويكره لكم: قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال" ^(١).
ومع هذا التحذير إلا أن الله ورسوله ﷺ بيّن أن الافتراق سوف يقع في هذه الأمة، وأنها سوف تكون شيعاً وأحزاباً .

عن جابر رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾. قال رسول الله ﷺ: "أعوذ بوجهك" قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: "أعوذ بوجهك" ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال رسول الله ﷺ: "هذا أهون أو هذا أيسر" ^(٢).

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة وسبعون في النار . وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، فأحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة . والذي نفس محمد

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الأقضية: (٣٠). باب التهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ، والتهي عن منع وهات ، وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه: (٥). برقم: (١٧١٥). ١٣٤٠/٣.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب التفسير: (٣٩/٦٥). باب ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ

عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]: (٢). برقم: (٦٨٢٨). ص: ٩٧١. و بلفظ مقارب في:

كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: (٧١/٩٦). باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]:

(١٢/١١). برقم: (٧٣١٣). ص: ١٥٣٧. وفي كتاب التوحيد: (٧٢/٩٧). باب قول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ

هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]: (١٦). برقم: (٧٤٠٦). ص: ١٥٥٥.

بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار . قيل يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة " (١) .

وفي رواية: "وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء" (٢) كما يتجارى الكلب (٣) لصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله" (٤) .

(١) سنن أبي داود: نحوه في كتاب السنة: (٣٩). باب شرح السنة: (١). برقم: (٤٥٩٦). عن أبي هريرة رضي الله عنه . قللى الألباني رحمه الله: "حسن صحيح" . ويرقم: (٤٥٩٧). عن معاوية رضي الله عنه . قال الألباني رحمه الله: "حسن". ص: ٥٠٣.

سنن الترمذي: نحوه في كتاب الإيمان: (٣٧). باب ما جاء في افتراق هذه الأمة: (١٨). برقم: (٢٦٤٠). عن أبي هريرة رضي الله عنه . وقال: "وفي الباب عن سعد وعبد الله بن عمرو وعوف بن مالك . وحديث أبي هريرة حديث حسن صحيح". وقال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٤٢٨.

سنن ابن ماجه: بلفظه في كتاب الفتن: (٣٦). باب افتراق الأمم: (١٧). برقم: (٣٩٩٢). ونحوه عن: أبي هريرة رضي الله عنه برقم: (٣٩٩١). وأنس بن مالك رضي الله عنه برقم: (٣٩٩٣). قال الألباني رحمه الله عن حديث عوف رضي الله عنه وحديث أنس رضي الله عنه: "صحيح". وعن حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "حسن صحيح". ص: ٤٢٩.

مسند أحمد: نحوه عن: أبي هريرة رضي الله عنه . في: ٣٣٢/٢. وأنس رضي الله عنه في: ١٤٥، ١٢٠/٣. قال أحمد شاكر رحمه الله: "إسناده صحيح". (رواية أبي هريرة). مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٦٩/١٦. برقم: (٨٣٧٧).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه . برقم: (٦٢٤٧). ١٤٠/١٤. قال شعيب الأرناؤوط: "حديث حسن".

مستدرك الحاكم: نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه في: ٤٧/١، ٢١٧. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وله شواهد". وقال الذهبي: "على شرط مسلم".

(٢) أي يتواقعون في الأهواء الفاسدة ، ويتذاعون فيها ، تشبهها بحري الفرس . النهاية في غريب الحديث: ٢٦٤/١ .

(٣) قال الخطابي رحمه الله:

" فإن الكلب داء يصيب الإنسان من عضة الكلب الكلب ، وهو الذي قد ضري — أي اعتاد وولع — بلحوم الناس فإذا أكثر منها أصابه شبه جنون . فيقال إنه إذا عقر إنساناً أصابه الكلب ، فيعوي عواء الكلب ، ويمزق على نفسه ، ثم يأخذه العطاش حتى يموت ، وهو ينظر إلى الماء ولا يشربه " . غريب الحديث: ٥٨٩/١ .

وانظر: الفائق: ٢٧٤/٣ . النهاية في غريب الحديث: ١٩٥/٤ .

(٤) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب السنة: (٣٩). باب شرح السنة: (١). برقم: (٤٥٩٧). عن معاوية رضي الله عنه . قال الألباني رحمه الله: "حسن". ص: ٥٠٣.

مسند أحمد: بلفظه — إلا أنه قال: "بصاحبه" — في: ١٠٢/٤ .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٢١٨/١ . وصحح إسناده ووافقه الذهبي .

وقد وقع الافتراق في الأمة في عصر الإسلام الأول ، وأُطلّت فرق الأهواء برؤوسها ، مع توافر الصحابة والتابعين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله):

" الصحابة رضي الله عنهم كانوا أقلّ فتناً من سائر من بعدهم ، فإنه كلما تأخر العصر عن النبوة كثر التفرّق والخلاف . ولهذا لم يحدث في خلافة عثمان بدعة ظاهرة ، فلمّا قتل وتفرّق الناس حدثت بدعتان متقابلتان: بدعة الخوارج المكفرين لعليّ ، وبدعة الرافضة (١) المدّعين لإمامته وعصمته ، أو نبوته أو إلهيته . ثمّ لما كان في آخر عصر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك حدثت بدعة المرجئة (٢) والقدريّة (٣) .

(١) الرافضة: من الرّفْض وأصله التّرك. سمّوا رافضة لتركهم زيد بن عليّ لما لم يترأّ من الشّيعين أبي بكر الصّدّيق وعمر بن الخطّاب (رضي الله عنهما) ثمّ أصبح يطلق على كلّ من تبراّ منهما ، وكذلك على كلّ من تبراّ من الصحابة. وهم مجمعون على أنّ النبي ﷺ نصّ على استخلاف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه باسمه ، وأظهر ذلك وأعلنه ، وإنّ أكثر الصحابة ضلّوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ . وقد ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة (رضي الله عنها) ولم يجوزوا ثبوتها في غيرهم .

وانظر: مقالات الإسلاميين: ص: ١٦ فما بعدها. الفرق بين الفرق: ص: ٢٢ فما بعدها. الملل والتحليل: ١٥٤/١ فما بعدها. التعاريف المسمّى التوقيف على مهمّات التعاريف . لمحمد عبد الرؤوف المناوي . طبعة دار الفكر المعاصر . بيروت . دمشق . الطبعة الأولى : ١٤١٠هـ . تحقيق محمد رضوان الدّاية : ص: ٣٦٩.

(٢) المرجئة : من الإرجاء وهو التأخير. والمرجئة لقب أطلق على طائفة تؤخّر العمل عن الإيمان، أي أنّهم لا يدخلون العمل في مسمّى الإيمان ، ويقصرون الإيمان على المعرفة. وأكثرهم يرى أنّ الإيمان لا يتبعّض ، ولا يزيد ولا ينقص . وزعم بعضهم : أنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

وانظر: مقالات الإسلاميين: ص: ١٣٢. الفرق بين الفرق: ص: ١٩. الملل والتحليل: ١٣٩/١ فما بعدها. التعريفات . لعليّ بن محمد بن عليّ الجرجاني. طبعة دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ . تحقيق : إبراهيم الأبياري. : ص: ٢٦٨. التعاريف: ص: ٦٤٩.

(٣) القدريّة : هم الذين كانوا يخوضون في قدر الله تعالى ، ويذهبون إلى إنكاره، وهم طوائف شتى . يزعم بعضهم أنّ العبد يخلق فعله، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله .

وانظر: الفرق بين الفرق: ص: ٩٣ فما بعدها. الملل والتحليل: ٤٣/١ فما بعدها. التعريفات: ص: ٩٢.

ثم لما كان في أول عصر التابعين في أواخر الخلافة الأموية حدثت بدعة
الجهمية^(١) والمشبّهة^(٢) الممثلة^(٣) « (٤) » .

وما ذكره شيخ الإسلام هي أصول فرق المبتدعة . ثم انقسمت كل فرقة فيما
بعد إلى فرق شتى وطوائف عدة^(٥) .

ولا شك أن وجود هذه الفرق كان فتنه لأهل الإسلام . لما تحدثه من نزاعات
وخلافات وحروب كلامية تصل أحياناً إلى تجريد السيوف ، وسفك الدماء ، أو
التفسيق أو التبديع أو التكفير . وقد تقوم دولة بأكملها في نصر فرقة ما أو تأييد

(١) الجهمية: هم اتباع جهم بن صفوان الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال ، وأنكر الاستطاعات كلها ،
وزعم أن الجنة والنار تبيدان وتفتيان ، وزعم أيضاً أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط ، وأن الكفر هو الجهل به
فقط ، وقال لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى ، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المحاز . وزعم أيضاً أن
علم الله تعالى حادث ، وامتنع من وصف الله تعالى بأنه شيء أو حي أو عالم أو مرید . وامتنع عن وصف الباري
بصفة يوصف بها خلقه ، ووصفه بأنه قادر وموجود وفاعل وخالق ومحي ومميت لأن هذه الأوصاف مختصة به
وحده . وقال بحدوث كلام الله تعالى كما قالته القدريّة ، ولم يسم الله تعالى متكلماً به .

الفرق بين الفرق: ص: ٢٩٣. بتصرف. وانظر: مقالات الإسلاميين: ص: ٢٧٩-٢٨٠. الملل والتحليل:

٨٧-٨٦/١.

(٢) المشبّهة: قوم شبّهوا الله بالمخلوقات ، ومثّلوه بالمحدثات . وهم صنفان: صنف شبّهوا ذات الباري بذوات غيره.
وصنف شبّهوا صفاته بصفات غيره . فيقولون: له وجه كوجه المخلوق ، ويد كيده ، ونحو ذلك . ومنهم من
يزعم أن معبودهم جسم ذو أبعاد محدودة . تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وانظر: مقالات الإسلاميين: ص: ٣١ فما بعدها . الفرق بين الفرق: ص: ٢١٤ فما بعدها . الملل والتحليل :
١٠٣/١ فما بعدها . منهاج السنة النبويّة لشيخ الإسلام ابن تيمية . طبعة مؤسسة قرطبة . الطبعة الأولى:
١٤٠٦هـ . تحقيق محمد رشاد سالم : ٥٢٢/٢-٥٢٣ . الكواشف الجلية عن معاني الواسطية . لعبد العزيز المحمّد
السلّماني . طبعة شركة الراجحي للصرافة . الطبعة العاشرة : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م : ص: ٨٩.

(٣) الممثلة: هم المشبّهة. انظر: بيان تلبس الجهمية: ٤٧/١.

(٤) المنتقى من منهاج الاعتدال: ص: ٣٢٤-٣٢٥.

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن: ١٦٠/٤-١٦٤.

وقد قسم تلك الفرق الإمام ابن حزم إلى خمسة فرق وهي : أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والشيعية والخوارج.

انظر: الفصل في الملل والأهواء والتحليل : ١١١/٢ .

كما قسمها الشهرستاني إلى أربعة فرق وهي: القدريّة والصفاتية والخوارج والشيعية.

انظر: الملل والتحليل : ١٥/١.

طائفة ما. أضف إلى ذلك ما ولّدته هذه الفرق من انحرافات منهجيّة أو عقديّة أو فكريّة أو سياسيّة ، أو غير ذلك في دين الله تعالى .

بل كان وجود تلك الفرق والطوائف عاملاً مؤثراً في ضعف المسلمين وتفريق كلمتهم ، ممّا جعلهم عاجزين عن القيام برسالة الإسلام والاطّلاع بأعبائها ، فصاروا أذلاء أمام أعداء الله تعالى . إضافة إلى ما يحدث من تشويه للإسلام ، وتفسير عنه ممّا يصبح حجر عثرة أمام من يريد الانتماء إليه . بل قد يجد المسلم نفسه حائراً بين الانتماء إلى هذه الطائفة أو تلك ^(١) ، فيعجز عن تبيين الحق والوصول إليه فيضطرب أمره ، ويتهاوى ثباته ، فينحرف وينجرف .

(١) وذلك التفرق والاختلاف نتيجة الجهل والتعصب والهوى . ويخرج عن ذلك الاختلاف في الفروع الفقهيّة ما لم يبلغ درجة الافتراق والتعصب والتّزاع .

المبحث الثاني

فتنة الدنيا

ضرب الله تعالى الأمثلة للدنيا موهناً لأمرها، محقراً لشأنها، مدلاً على زوالها وانقضائها حتى لا يفتتن بها العباد ، ويغتر بها من جهل أمرها وانغمس في لذاتها . فقال تعالى: ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا آءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْعُرُورِ ۝٢٠﴾ [الحديد: ٢٠] (١).

وكذلك حذر رسول الله ﷺ منها ومن فتنتها . فقال في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ : "إن الدنيا حلوة خضرة" ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء" (٢) . فوصفها ﷺ بأنها حلوة أي لذيدة حسنة ، وأنها ناعمة طرية سريعة الزوال كالخضر . وفي ذلك بيان بأنها تفتن الناس بلونها وطعمها (٣) .

(١) وانظر: آل عمران: الآية : ١٤ . يونس : الآية : ٢٤ . وللقوف على معاني الآيات انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٧/٨-٣٢٨ ، ٤١٢/١٠-٤١٣ ، ٢٥٤/١٧-٢٥٦ . تفسير القرآن العظيم : ٦٤٠/٢-٦٤١ ، ١٣٩/٣ ، ٤٨٧/٤-٤٨٨ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: (٤٨) . باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء ، وبيان الفتنة بالنساء : (٢٦) برقم : (٢٧٤٢) . ٢٠٩٨/٤ .

(٣) انظر: تحفة الأحوذى: ٣٥٦/٦ .

ومع ذلك قلّ من ينجو من فتنتها، أو يفلت من براثنها .

عن وَبَرَة (رحمه الله) ^(١) قال: سأل رجل ابن عمر (رضي الله عنهما): أطوف بالبيت وقد أحرمت بالحجّ؟ فقال: وما يمنعك؟ قال: إني رأيت ابن فلان يكرهه، وأنت أحبّ إلينا منه، رأينا قد فتنته الدنيا. فقال: وأيّنا - أو أيكم - لم تفتنه الدنيا؟ ثم قال: رأينا رسول الله ﷺ أحرّم بالحجّ، وطاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، فسنة الله وسنة رسوله ﷺ أحقّ أن تتبّع من سنة فلان . إن كنت صادقاً " ^(٢) .

فإذا كان ابن عمر (رضي الله عنهما) وهو من هو! يرى أنه فتن بالدنيا - وهذا من تواضعه - فكيف بغيره ممّن لم يبلغ مقامه ويصل إلى منزلته؟ .
ولأجل هذا حرص الرسول ﷺ على تعليم الصحابة الالتجاء إلى الله تعالى، والاستعاذة به من فتنها ومكرها .

فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كان النبي ﷺ يعلمنا هؤلاء الكلمات كما تعلّم الكتابة: " اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن نردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر " ^(٣) .

قال النووي رحمه الله:

- " ومعنى الدنيا خضرة حلوة : يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا شَيْئَانِ : أَحَدُهُمَا : حُسْنُهَا لِلتَّقْوَى وَنَضَارَتُهَا وَلَذَّتُهَا كَالْفَاكِهَةِ الْخَضِرَاءِ الْحُلُوهِ ، فَإِنَّ التَّقْوَى تَطْلُبُهَا طَلَبًا حَثِيئًا فَكَذَا الدُّنْيَا .
والثَّانِي : سُرْعَةُ فَنَائِهَا كَالشَّيْءِ الْأَخْضَرِ فِي هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ . وَمَعْنَى مُسْتَخْلَفِكُمْ فِيهَا : جَاعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنَ الْقُرُونِ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ ، فَيَنْظُرُ هَلْ تَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ أَمْ بِمَعْصِيَتِهِ وَشَهْوَاتِكُمْ " . شرح النووي على مسلم: ٥٥/١٧ .
- (١) هو وَبَرَة بن عبد الرحمن أبو خزيمه . وقيل: أبو العباس المسلي ، من مذجح . كوفي ، تابعي ثقة .
انظر: الطبقات الكبرى: ٣١٢/٦ . التاريخ الكبير: ١٨٢/٨ . الجرح والتعديل: ٤٢/٩ . ثقات ابن حبان: ٤٩٧/٥ . تهذيب الكمال: ٤٢٦/٣٠ . الكاشف: ٣٤٨/٢ . تهذيب التهذيب: ٩٨/١١ .
- (٢) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الحجّ: (١٥) . باب ما يلزم من أحرم بالحجّ ثم قدم مكة من الطواف والسعي: (٢٨) . برقم: (١٢٣٣) . ٩٠٥-٩٠٦ .
- (٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الدعوات: (٥٤/٨٠) . باب التَّعَوُّذِ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا: (٥٦) . برقم: (٦٣٩٠) . ص: ١٣٦١ . ولفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسير: (٣٢/٥٦) . باب ما يتعوّذ من الجبن: (٢٥) . برقم: (٧٨٢٢) . ص: ٥٩٦ . وفي كتاب الدعوات: (٥٤/٨٠) . باب التَّعَوُّذِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ: (٣٧) . برقم: (٦٣٦٥) .

بل بلغ من خشيته ﷺ من فتنها أنه حذر أصحابه ﷺ في آخر حياته من التنافس فيها ، والافتتال من أجلها .

عن عُبَيْة بن عامر ﷺ قال: صَلَّى رسول الله ﷺ على قتلى أحد ، ثم صعد المنبر كالمودع للأحياء والأموات فقال: "إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ^(١)، وَإِنْ عَرْضُهُ كَمَا بَيْنَ أُيْلَةٍ^(٢) إِلَى الْجُحْفَةِ^(٣) ، إِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَشْرَكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَتَافَسُوا فِيهَا، وَتَقْتَتِلُوا فَتَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ". قال عقبة: فكانت آخر ما رأيت رسول الله ﷺ على المنبر^(٤) .

-
- ص: ١٣٥٧. وفي باب التَّعَوُّذِ مِنَ الْبَخْلِ: (٤١). برقم: (٦٣٧٠). ص: ١٣٥٨. ونحوه في: باب الاستعاذة من فتنة الغنى: (٤٥). برقم: (٦٣٧٤). ص: ١٣٥٩.
- (١) أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَي مَقْدَمُكُمْ إِلَيْهِ . يُقَالُ : فَرَطٌ يَفْرِطُ ، فَهُوَ فَارِطٌ وَفَرِطٌ إِذَا تَقَدَّمَ وَسَبَقَ الْقَوْمَ لِيَرْتَادَ هُم الْمَاءُ ، وَيُهَيِّئُ هُم الدَّلَاءَ وَالْأَرْضِيَّةَ .
- النهاية في غريب الحديث: ٣ / ٤٣٤ . وانظر: غريب الحديث للهروي : ٤٥/١ . غريب الحديث لابن قتيبة : ٤٨٩/٢ .
- (٢) أُيْلَةٌ : بفتح أوله على وزن فعلة ، مدينة على شاطئ البحر الأحمر في منتصف ما بين مكة ومصر ، وهي تعد من بلاد الشام . قيل : سميت أيلة بئنت مدين بن إبراهيم عليه السلام . وقد روي أَنَّهَا القرية الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ، وَآلَتِي حَاءَ ذَكَرَهَا فِي الْقُرْآنِ . وينسب إليها جماعة من رواة الأحاديث .
- انظر: معجم ما استعجم: ٢١٦/١-٢١٧ . معجم البلدان: ٢٩٢/١ .
- (٣) الْجُحْفَةُ : قرية حامية على الطريق بين المدينة ومكة . كانت تسمى مِهْيَعَةً ، فجاء سيل فاحتجف من فيها فسميت الجحفة . جعلها النبي ﷺ مهلاً لأهل الشام .
- انظر: معجم ما استعجم: ٣٦٧/١-٣٧١ . معجم البلدان: ١١١/٢ .
- (٤) صحيح البخاري: نحوه في : كتاب الجنائز: (٦/٢٣) . باب الصلاة على الشهيد: (٧٢) . برقم: (١٣٤٤) . ص: ٢٨٢ . وفي كتاب المناقب : (٣٧/٦١) . باب علامات النبوة في الإسلام: (٢٥) . برقم: (٣٥٩٦) . ص: ٧٥٧ . وفي كتاب المغازي: (٣٨/٦٤) . باب غزوة أحد: (١٧) . برقم: (٤٠٤٢) . ص: ٨٤٧ . وفي باب "أحد يحبنا" : (٢٨/٢٧) . برقم: (٤٠٨٥) . ص: ٨٥٥ . وفي كتاب الرقاق: (٥٥/٨١) . باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها: (٧) . برقم: (٦٤٢٦) . ص: ١٣٦٩ . وفي باب الحوض: (٥٣) . برقم: (٦٥٩٠) . ص: ١٣٩٧ .
- صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفضائل : (٤٣) . باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته : (٩) برقم: (٢٢٩٦) . ١٧٩٦/٤ . ونحوه في : ١٧٩٥/٤ .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"فيه إنذار بما سيقع فوق كما قال ﷺ ، وقد فتحت عليهم الفتوح بعده، وآل الأمر إلى أن تحاسدوا وتقاتلوا ، ووقع ما هو المشاهد المحسوس لكل أحد مما يشهد بمصدق خبره ﷺ ، ووقع من ذلك في هذا الحديث إخباره بأنه فرطهم أي سابقهم وكان كذلك ، وأن أصحابه لا يشركون بعده فكان كذلك ، ووقع ما أنذر به من التنافس في الدنيا " (١) .

وإذا كان التنافس في الدنيا ، والتقاتل فيها وقع في عصور الإسلام الأول ، فكيف بنا نحن في هذا العصر الذي انغمس أهله في المادة إلى آذانهم ، وتكالبوا على حطام الدنيا الزائل ؟. فما رفع عندهم إلا من نال قسطاً منها . إذ العزيز عندهم من كثر ماله ، والعظيم عندهم من علا منصبه ، وكبرت وظيفته فنال التيجان والأوسمة ، وهتف له الناس ورفعوا ذكره .

إن حب الدنيا واللّهت وراءها سيطر على عقول كثيرين من أهل الإسلام اليوم ، حتى عميت البصائر عن رؤية الحق ، وضعفت الأمة وانكسرت شوكتها، وهزلت أمام أعدائها ، حتى تداعت عليها أمم الكفر والضلال فسلبوا الديار ، وحازوا الأموال ، وجثموا على صدر الأمة يذيقونها الويلات والنكال .

ولقد صدق قول الرسول ﷺ في حديث ثوبان ﷺ : "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها " . فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء" (٢) كغثاء السيل ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عِدْوِكُمُ الْمَهَابَةَ (٣) مِنْكُمْ وَلَيَقْدِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ (٤)

(١) فتح الباري: ٣٢٠/٧ .

(٢) الغناء : بالضم والمد ما يجيء فوق السيل مما يحمله من الزبد والوسخ وغيره .

النهاية في غريب الحديث: ٣/٣٤٣ .

زاد الخطابي رحمه الله: " يشبه به كل شيء رديء من الناس وغيرهم " . غريب الحديث: ٩٧/٣ .

(٣) المهابة : يقال هابه يهابه هيبه ومهابة إذا خافه وأجله .

انظر: مختار الصحاح: ص: ٧٠٣ القاموس المحيط: ص: ١٨٥-١٨٦ .

(٤) الوهن: هو الضعف . ويحرك أيضاً . انظر: مختار الصحاح: ص: ٧٣٨ . القاموس المحيط: ص: ١٥٩٩ .

فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: "حب الدنيا وكرهية الموت" (١) .
والدنيا لا تترك كلها ، ولا تهمل ، بل يستمتع بما لادها ونعمها بحيث لا يتلهم
دين المرء ، ولا يضر بآخرته لقوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ
الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ
فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النقص: ٧٧] .
والاعتدال والتوسط في كل ذلك هو الذي يضمن للعبد السلامة فيها ، والتحرز من
الوقوع في فتنها ، والانغماس في شهواتها ، ليبقى له دينه ، ويسلم من الزيغ عنه .
وسأتناول أعظم فتن الدنيا في ثلاثة مطالب :

قال العظيم آبادي:

" الوهن أي الضعف ، وكأنه أراد بالوهن ما يوجهه ، ولذلك فسره بحب الدنيا وكرهية الموت . قاله القساري.
وما الوهن ؟ أي ما يوجهه وما سببه ؟ . قال الطيبي (رحمه الله) : سؤال عن نوع الوهن ، أو كأنه أراد من أي
وجه يكون ذلك الوهن ؟ قال : حب الدنيا ، وكرهية الموت . وهما متلازمان ، فكأنهما شيء واحد يدعوهم إلى
إعطاء الدنيا في الدين من العدو الممين ونسأل الله العافية " . عون المعبود: ١١ / ٢٧٣ .
(١) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الملاحم: (٣٦) . باب في تداعي الأمم على الإسلام: (٥) . برقم: (٤٢٩٧) .
قال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٤٦٩ .
مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢٧٨/٥ . ونحوه في: ٣٥٩/٢ .
مسند أبي داود الطيالسي . لسليمان بن داود أبي داود الطيالسي . طبعة دار المعرفة . بيروت : نحوه برقم: (٩٩٢) .
ص: ١٣٣ .
قال شعيب الأرناؤوط عن إسناده الإمام أحمد في: ٢٧٨/٥ : " وسنده قوي ، فصَحَّ به " .
شرح السنّة . للحسين بن مسعود البغوي . طبعة المكتب الإسلامي . الطبعة الأولى: ١٣٩٠هـ — ١٩٧١م .
تحقيق زهير الشاويش . شعيب الأرناؤوط : ١٥/١٦ . ورقمه: (٤٢٢٤) . الهامش .

﴿المطلب الأول﴾

فتنة النساء

إنَّ الله سبحانه حذَّر من فتنة النساء . وجعلهنَّ من الشهوات التي تفتن الرجال .
فقال تعالى: ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ
الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثُ ذَٰلِكَ مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ [آل عمران: ١٤] .

قال الإمام القرطبي (رحمه الله):

"بدأ بهنَّ لكثرة تشوِّف النفوس إليهنَّ ، لأنهنَّ حباثل الشيطان ، وفتنة الرجال
... ففتنة النساء أشدَّ من جميع الأشياء" (١) .

وقال الإمام ابن كثير (رحمه الله):

"يخبر تعالى عمَّا زَيْن للنَّاس في هذه الحياة الدُّنيا من أنواع الملاذ من النساء
والبنين . فبدأ بالنساء لأنَّ الفتنة بهنَّ أشدَّ" (٢) .

وكذلك حذَّر رسول الله ﷺ من الفتنة بهنَّ لشدة خطرهما . فقال في حديث أسامة
ابن زيد (رضي الله عنهما): "ما تركت بعدي فتنة أضربَّ على الرجال من النساء" (٣) .
وفي هذا دلالة على أنَّ الفتنة بالنساء أشدَّ من الفتنة بغيرهنَّ . ولذلك جعلهنَّ
أضربَّ شيء على الرجال (٤) .

قال المباركفوري (رحمه الله):

"لأنَّ الطَّبَّاع كثيراً تميل إليهنَّ ، وتقع في الحرام لأجلهنَّ ، وتسعى للقتال
والعداوة بسببهنَّ ، وأقلَّ ذلك أن ترغبه في الدنيا . وأي فساد أضربَّ من هذا" (٥) .

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٩/٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٥٢٦/١ . وانظر: فتح الباري: ١٧٢/١٠-١٧٣ .

(٣) سبق تخريجه . انظر: ص: ٢٢ .

(٤) انظر: فتح الباري: ١٧٢/١٠ .

(٥) تحفة الأحوذى: ٥٣/٨ .

ولهذا أمر ﷺ باتقائهنّ خشية الهلاك بسبب فتنتهنّ كما هلك بنو إسرائيل لما فتنوا بهنّ . فقال في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ : "إنّ الدّنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتّقوا الدّنيا واتّقوا النّساء فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النّساء" (١) .

قال الإمام النّووي (رحمه الله):

" فاتّقوا الدّنيا: ومعناه تجنّبوا الافتتان بها وبالنّساء . وتدخل في النّساء الزّوجات وغيرهنّ ، وأكثرهنّ فتنة الزّوجات، ودوام فتنتهنّ ، وابتلاء أكثر النّاس بهنّ " (٢) .

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتِمْثَالٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأُولَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] .

ولما كانت الفتنة بهنّ عظيمة أحاطهنّ الشّارع الحكيم بجملة من الأحكام الشرعيّة حتّى تتكفّ فتنتهنّ ، ويقلّ الشرّ بهنّ .
من ذلك :

١- أمرهنّ بالقرار في البيوت ، وعدم الخروج منها إلّا لضرورة أو حاجة . وإذا خرجنّ لحاجتهنّ فلا يتبرجنّ (٣) .

فقال سبحانه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحراب: ٣٣] .

قال مجاهد (رحمه الله):

"كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرّجال، فذلك تبرّج الجاهليّة" .

(١) سبق تخريجه . ص : ٩٩ .

(٢) شرح النّووي على مسلم: ٥٥/١٧ .

(٣) يتبرّجنّ: من تبرّجت المرأة : إذا أظهرت زينتها ومحاسنها للرّجال .

انظر: مختار الصّحاح: ص: ٤٦ . القاموس المحيط: ص: ٢٣١ .

وقال قتادة (رحمه الله):

"إذا خرجت من بيوتكن ، وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج (١) . فنهى الله تعالى عن ذلك" (٢) .

قال القرطبي (رحمه الله):

"وأن المقصود من الآية مخالفة من قبلهن من المشية على تغنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرجال ، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعاً . وذلك يشمل الأقوال كلها ويعمها ، فيلزم من البيوت ، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكن على تبدل وتستتر تام" (٣) .

ويؤيده حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله . وليخرجن تفلات" (٤) .

(١) يقال غنّجت الجارية وتغنّجت فهي مغنّاج وغنّجة : إذا تكسّرت وتدلت . من الغنّج الذي هو التكسر والتدلل . انظر: لسان العرب: ٣٣٨/٢ . النهاية في غريب الحديث: ٣٨٩/٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٧٦٨/٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٨٠/١٤ . التبدل : ترك التزين والتّهيء بالهيئة الحسنة الجميلة على جهة التواضع .

التهاية في غريب الحديث : ١١١/١ . لسان العرب : ٥٠/١١ .

(٤) تفلات : من الثفل وهو الريح الكريهة . والمراد يخرجن غير متطيّبات .

انظر: النهاية في غريب الحديث: ١٩١/١ . وانظر: غريب الحديث للهروي: ٢٦٤/١-٢٦٥ . غريب الحديث لابن قتيبة: ٩٤/٢ . الفائق: ١٥١/١ .

والحديث في:

سنن أبي داود: بلفظ مقارب في: كتاب الصلاة: (٢) . باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد: (٥٢) . برقم: (٥٦٥) . قال الألباني رحمه الله: "حسن صحيح" . ص: ٨٥ .

سنن الدارمي: بلفظ مقارب في: باب التهي عن منع النساء عن المساجد وكيف يخرجن إذا خرجن . برقم: (١٢٧٩) . ٣٣٠/١ .

مسند أحمد: بلفظه في : ٤٣٨/٢ ، ٤٧٥ . عن أبي هريرة رضي الله عنه . وفي : ٦٩/٦-٧٠ . عن عائشة (رضي الله عنها) . وزادت: "ولو رأى حالن اليوم منعهن" .

و بلفظ مقارب في: ٥٢٨/٢ . عن أبي هريرة رضي الله عنه . وفي : ١٩٣ ، ١٩٢/٥ . عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه . قال أحمد شاكر رحمه الله: "إسناده صحيح" . (رواية أبي هريرة الأولى) . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٩٠/١٨ . برقم: (٩٦٤٣) .

وقال ﷺ : " المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان " (١) .

٢- أمرهنّ بالحجاب ، وستر جميع أجسادهنّ ، وعدم كشف شيء منها للأجانب .
قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ
عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابٍ ذَٰلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩] .

قال القرطبي (رحمه الله):

" الجلابيب جمع جلباب، وهو ثوب أكبر من الخمار، وروي عن ابن عباس
وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل: إنه القناع . والصحيح أنه الثوب الذي يستر
جميع البدن ... أمر الله سبحانه جميع النساء بالستر، وأن ذلك لا يكون إلا بما
لا يصف جلدّها " (٢) .

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (رحمه الله):

" ومن الأدلة القرآنية على احتجاب المرأة وسترها جميع بدنّها حتّى وجهها .
قوله تعالى — فذكر الآية — فقد قال غير واحد من أهل العلم . أن معنى

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظه في : باب ذكر الرّجاء عن منع النّساء عن إتيان المساجد للصّلاة.
برقم: (٢٢١١). عن زيد بن خالد الجهني رحمه الله ٥٨٩/٥. وفي باب ذكر وصف خروج المرأة التي أبيع لها شهود
العشاء في الجماعة. برقم: (٢٢١٤). عن أبي هريرة رحمه الله ٥٩٢/٥.
قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده حسن". لكلا الطّريقين.

وأصل الحديث في صحيح مسلم عن ابن عمر (رضي الله عنهما) . في : كتاب الصّلاة: (٤). باب خروج
النّساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة ، وأنها لا تخرج مطيّبة: (٣٠). برقم: (٤٤٢). ٣٢٧/١.
(٩) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب الرّضاع: (٩). باب (١٨). برقم: (١١٧٣). عن عبد الله بن مسعود رحمه الله .
وقال: "هذا حديث حسن صحيح". وقال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٢٠٨.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب مع زيادة فيه. في: باب ذكر الإخبار عما يجب على المرأة من
لزوم قعر بيتها . وله عنده طريقتان : الأوّل برقم: (٥٥٩٨). والثاني برقم: (٥٥٩٩). قال شعيب الأرناؤوط:
عن الأوّل: "رجاله ثقات رجال الصّحيح لكنّه منقطع". وعن الثاني: "إسناده صحيح على شرط مسلم".
٤١٣-٤١٢/١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٤٣/١٤ .

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] . أَنَّهُنَّ يَسْتَرْنَ بِهَا جَمِيعَ
وُجُوهُنَّ . وَلَا يَظْهَرُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ إِلَّا عَيْنٌ وَاحِدَةٌ تَبْصُرُ بِهَا " (١) .

٣- حَرَّمَ عَلَيْهِنَ الْخُلُوةَ بِالْأَجَانِبِ ، وَالسَّقَرِ إِلَّا مَعَ ذِي مُحَرَّمٍ .
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ يَقُولُ: " لَا
يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مُحَرَّمٍ . وَلَا تَسَافِرُ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مُحَرَّمٍ "
فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَةً ، وَإِنِّي اكْتَتَبْتُ فِي
غَزْوَةٍ كَذَا وَكَذَا قَالَ: " انْطَلِقْ فَحِجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ " (٢) .

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا
يَخْلُونَ بِامْرَأَةٍ لَيْسَ مَعَهَا ذُو مُحَرَّمٍ مِنْهَا . فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ " (٣) .

(١) أَسْوَءُ الْبَيَانِ فِي إِضْحَاحِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ . لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ الْحَكَنِيِّ الشَّنْقِيطِيِّ . الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ
١٤٠٠-١٩٧٩ م . طَبْعَةُ ابْنِ لَادَن: ٥٨٦/٦ .

وَالْأَدَلَّةُ عَلَى وَجُوبِ الْحِجَابِ وَسِتْرِ جَمِيعِ الْجَسَدِ بِمَا فِيهِ الْوَجْهَ وَالْكَفَّانِ كَثِيرَةٌ جَدًّا . أورد الشَّيْخُ صَالِحُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ
الْبَلِيهِيِّ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ دَلِيلًا . مِنْهَا أَرْبَعُ آيَاتٍ وَثَلَاثُونَ حَدِيثًا وَالبَقِيَّةُ مِنَ الْآثَارِ .

انْظُرْ: يَا فَتَاةَ الْإِسْلَامِ اقْرَئِي حَتَّى لَا تَخْذَعِي . دارُ الْمُسْلِمِ — الرِّيَّاضُ . الطَّبْعَةُ الثَّالِثَةُ : ١٤١٦ هـ — ١٩٩٦ م
ص: ١٧٩-٢٥٣ .

(٢) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: نَحْوُهُ فِي: كِتَابِ الْحِجَّ: (٨/٢٨) . بَابِ حِجِّ النِّسَاءِ: (١٠٨/٢٦) . بِرَقْمٍ: (١٨٦٢) . ص:
٣٨٨ . وَفِي كِتَابِ الْجِهَادِ وَالسَّيْرِ: (٣٢/٥٦) . بَابِ مَنْ أَكْتَبَ فِي جَيْشٍ فَخَرَجَتْ امْرَأَتُهُ حَاجَةً وَكَانَ لَهُ عَذْرٌ هَلْ
يُؤْذَنُ لَهُ: (١٣٩/١٤٠) . بِرَقْمٍ: (٣٠٠٦) . ص: ٦٣٢ . وَفِي بَابِ كِتَابَةِ الْإِمَامِ لِلنَّاسِ: (١٨٠/١٨١) . بِرَقْمٍ:
(٣٠٦١) . ص: ٦٤٥ . وَفِي كِتَابِ النِّكَاحِ: (٤١/٦٧) . بَابِ لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَذُو مُحَرَّمٍ ، وَالدَّخُولُ عَلَى
الْمَغِيْبَةِ: (١١٢/١١١) . بِرَقْمٍ: (٥٢٣٣) . ص: ١١٥٠ .
صَحِيحُ مُسْلِمٍ: بَلْفِظُهُ فِي: كِتَابِ الْحِجَّ: (١٥) . بَابِ سَفَرِ الْمَرْأَةِ مَعَ مُحَرَّمٍ إِلَى حِجٍّ وَغَيْرِهِ: (٧٤) . بِرَقْمٍ: (١٣٤١) .
٩٧٨/٢ .

(٣) مُسْنَدُ أَحْمَدَ: بَلْفِظُهُ — جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ — فِي: ٣٣٩/٣ . وَأَصْلُهُ مَرْوِي عَنْ جَمَاعَةٍ . انْظُرْ:
سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ: كِتَابُ الْأَدَبِ: (٤٠) . بَابُ مَا جَاءَ فِي دُخُولِ الْحَمَامِ: (٤٣) . بِرَقْمٍ: (٢٨٠١) .
وَقَالَ: " هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ طَاوُوسٍ عَنْ جَابِرٍ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ " . وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ
اللَّهُ: " حَسَنٌ " . ص: ٤٤٩ .

سُنَنِ النَّسَائِيِّ لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَحْمَدَ بْنِ شُعَيْبٍ النَّسَائِيِّ . طَبْعَةُ بَيْتِ الْأَفْكَارِ الدَّوْلِيِّ . ١٤٢٠ هـ — ١٩٩٩ م :
كِتَابُ الْغُسْلِ وَالتَّيْمُمِ: (٤) . بَابُ الرَّخَصَةِ فِي دُخُولِ الْحَمَامِ: (٢) . بِرَقْمٍ: (٤٠١) . قَالَ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:
" صَحِيحٌ " . ص: ٥٨ .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " إياكم والدخول على النساء " فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله. أفرأيت الحمى ^(١) ؟ قال: " الحمى الموت " ^(٢) .

٤- حرّم عليهن الاختلاط بالرجال .
عن أبي أسيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد . فاختلط الرجال مع النساء في الطريق . فقال رسول الله ﷺ للنساء: "استأخرن فإنه ليس لكن أن تحقّقن الطريق ، عليكن بحافات الطريق" . فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتّى إن ثوبها ليتعلّق بالجدار من لصوقها به ^(٣) .

مستدرك الحاكم: ٣٢٠/٤ . وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه " . وقال الذهبي رحمه الله: " على شرط مسلم " .

وله شاهد من حديث عمر رضي الله عنه . في:

سنن الترمذي: كتاب الفتن : (٣٠) . باب ما جاء في لزوم الجماعة: (٧) . برقم: (٢١٦٥) .

وقال: " هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه... وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النبي ﷺ " . وقال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٣٦٠ .

مسند أحمد: ١٨/١ . قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٢٠٤-٢٠٥ . برقم: (١١٤) .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: برقم: (٤٥٧٦) . قال شعيب الأرناؤوط عن رجاله: " ثقات من رجال الصحيح " . ٤٣٦/١٠ . و برقم: (٦٧٢٨) . قال: " صحيح " . ١٢٢/١٥ . و برقم: (٧٢٥٤) . قال: " إسناده صحيح على شرط الشيخين " . ٢٣٩/١٦ .

(١) الحمى: أحد الأسماء وهم أقارب الزوج ، والمعنى أن خلّو الحمى بالمرأة كوقوع الموت ، لما يترتب على ذلك من الفساد ، فيجب الحذر منه .

انظر: غريب الحديث للهروي: ٣٥٣/٣-٣٥٤ . غريب الحديث للخطّابي: ٧١/٢ . الفائق: ٣١٨/١ . النهاية في غريب الحديث: ٤٤٨/١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب النكاح: (٤١/٦٧) . باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم ، والدخول على المغيبة: (١١٢/١١١) . برقم: (٥٢٣٢) . ص: ١١٤٩ .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب السلام: (٣٩) . باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها : (٨) . برقم: (٢١٧٢) . ١٧١١/٤ .

(٣) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الأدب: (٤٠) . باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق: (١٦٧-١٦٨) . برقم: (٥٢٧٢) . قال الألباني رحمه الله: " حسن " . ص: ٥٦٥ .

قال أبو داود في سننه:

"باب في اعتزال النساء في المساجد عن الرجال"

ثم ساق بسنده حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لو تركنا هذا الباب للنساء".

قال نافع (رحمه الله) ^(١): "فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات" ^(٢).

ثم قال في سننه: "باب انصراف النساء قبل الرجال من الصلاة".

ثم ساق بسنده حديث أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم مكث قليلاً. وكانوا يرون أن ذلك كيما ينفذ النساء قبل الرجال" ^(٣).

(١) هو نافع مولى ابن عمر (رضي الله عنهما) أبو عبد الله المدني، قيل: اسم أبيه هرمز وقيل: كاسوس. من أئمة

التابعين في المدينة، إمام في العلم، ثقة ثبت في الحديث.

قال الإمام مالك بن أنس (رحمه الله): "كنت إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر لا أبالي أن أسمع من غيره".

مات سنة ١١٧هـ أو بعدها.

وانظر: التاريخ الكبير: ٨٤/٨. معرفة الثقات: ٣١٠/٢. ثقات ابن حبان: ٤٦٧/٥. تهذيب الكمال:

٢٩٨/٢٩. تذكرة الحفاظ: ٩٩/١. الكاشف: ٣١٥/٢. تهذيب التهذيب: ٣٦٨/١٠. تقريب التهذيب:

٥٥٩/١.

(٢) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب الصلاة: (٢). باب في اعتزال النساء في المساجد عن الرجال: (١٧). برقم:

(٤٦٢). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٧٤. وفي باب التشديد في ذلك - أي خروج النساء إلى

المسجد: (٥٣). برقم: (٥٧١). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٨٥.

مسند أبي داود الطيالسي: ولفظه: عن ابن عمر (رضي الله عنهما). أن رسول الله ﷺ لما بنى المسجد جعل باباً

للنساء وقال: "لا يلحن من هذا الباب من الرجال أحد".

قال نافع: "فما رأيت ابن عمر داخلاً من ذلك الباب ولا خارجاً منه". برقم: (١٨٢٩). ص: ٢٥١.

وهو أقوى في الدلالة لاشتماله على النهي الصريح.

(٣) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب الصلاة: (٢). باب انصراف النساء قبل الرجال من الصلاة: (١٩٦-١٩٧). برقم:

(١٠٤٠). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ١٣٠.

والحديث في: صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الصلاة (الأذان): (٥/١٠). باب التسليم:

(٣٠٣/١٥٢). برقم: (٨٣٧). ص: ١٨٣. وفي باب مكث الإمام في مصلاه بعد السلام: (٣٠٨/١٥٧). برقم:

(٨٤٩). و برقم: (٨٥٠). ص: ١٨٥-١٨٦. وفي باب صلاة النساء خلف الرجال: (٣١٥/١٦٤). برقم:

(٨٧٠). ص: ١٨٩-١٩٠. ونحوه في باب انتظار الناس قيام الإمام العالم: (٣١٤/١٦٣). برقم: (٨٦٦). ص:

١٨٩.

والمرأة كلما تباعدت عن الرجال فهو خير لها . لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة ؓ : "خير صفوف الرجال أولها . وشرها آخرها . وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها" (١) .

قال الإمام النووي (رحمه الله):

"وإنما فضل آخر صفوف النساء الحاضرات مع الرجال لبعدهن من مخالطة الرجال ورؤيتهم ، وتعلق القلب بهن عند رؤية حركاتهم ، وسماع كلامهم ، ونحو ذلك . وذنم أول صفوفهن لعكس ذلك والله أعلم" (٢) .

لقد شرع الإسلام هذه الأحكام للحفاظ على النساء ، وصيانتهم من أن يفتن أو يفتن . فأقرهن في البيوت ليقمن بوظائفهن الأساسية من تدبير المنزل ، وتربية الأطفال ، لينشئن مجتمعاً صالحاً خالياً من الانحلال والتفكك . ولا يخرجن إلا لضرورة أو حاجة تستدعي خروجهن . وإذا خرجن خرجن محتجبات محتشمات بعيدات عن السفور والتبرج والتفتك ، لا يزاحمن الرجال ولا يختلطن معهم .

ولكن النساء لم يلتفتن إلى هذه الأحكام — إلا من رحم الله — وخاصة في هذا العصر . فقد خرجن لابسات من الثياب مارقاً وشفافاً ، باديات لوجوههن بل وشعورهن وأعناقهن وأرجلهن بل وسوقهن . وضعن الأصابع والمساحيق على وجوههن وأكفهن إثارة للفتنة ، وأعلن من شعور رعوسهن إلغاء للفضيلة ، ودعوة للرذيلة .

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ : "صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الصلاة: (٤). باب تسوية الصفوف وإقامتها ، وفضل الأول فالأول منها ، والازدحام على الصف الأول ، والمساواة إليها ، وتقديم أولي الفضل وتقريرهم من الإمام: (٢٨). برقم: (٤٤٠). ٣٢٦/١.

والمراد بالحديث صفوف النساء اللواتي يصلين مع الرجال ، وأما إذا صلين متميزات ، بعيدات عن الرجال فهن

كالرجال ، خير صفوفهن أولها وشرها آخرها . شرح النووي على مسلم: ١٥٩/٤

(٢) المرجع السابق: ١٥٩/٤-١٦٠ . وأنظر: يا فتاة الإسلام اقربي: ص: ٨٧ .

ميملات مائلات . رعوسهنّ كأسنمة البُخت^(١) المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا^(٢) .

فهنّ كاسيات في الاسم عاريات في الحقيقة ، لأنهنّ يلبسن ثياباً رقيقة تشفّ عما تحتهنّ ، أو ثياباً قصيرة لا تستر معظم جسدها . يمشين مائلات متبخرات كمشية البغايا اللاتي يردن إغواء الرجال . يرفعن شعورهنّ ويكورنهنّ إلى أعلى فتشبه أسنمة البخت المائلة^(٣) . إنّه وصف دقيق لنساء هذا الزّمن .

وقد زاحمن الرجال في ميادين عملهم ، واقتحمن مجالات أعمالٍ لم يخلقن لها ، وخالطنهم في المدرسة والجامعة والمصنع والمكتب والشارع .

قال ابن القيم (رحمه الله):

"ولا ريب أنّ تمكين النّساء من اختلاطهنّ بالرجال أصل كلّ بليّة وشرّ ، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامّة ، كما أنّه من أسباب فساد أمور العامّة والخاصّة .

واختلاط الرجال بالنّساء سبب لكثرة الفواحش والزّنا ، وهو من أسباب الموت العام والطّواعين المتّصلة ... فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزّنا بسبب تمكين النّساء من اختلاطهنّ بالرجال ، والمشي بينهم متبرّجات متجمّلات . ولو علم أولياء

(١) قال ابن منظور (رحمه الله) :

"البُخت والبُخَيّة: دخيل في العربيّة ، أعجمي مُعَرَّبٌ . وهي الإبل الخُرّاسانيّة ، تُنتج من بين عربيّة وفالّج — جمل ضخّم ذو سنامين — ؛ وبعضهم يقول : إنّ البُختَ عربيّ ... وهي جمالٌ طوالّ الأعناق . ويُجمّع على بُختٍ وبُخاتٍ ؛ وقيل : الجمع بُخاتيّ ، غير مصروف " .

لسان العرب: ٩ / ٢ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب اللباس والزّينة: (٣٧) . باب النّساء الكاسيات العاريات الميملات المائلات: (٣٤) . برقم: (٢١٢٨) . ١٦٨٠/٣ . وفي كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها : (٥١) . باب التّار يدخلها الجبارون والجنّة يدخلها الضّعفاء: (١٣) . برقم: (٢١٢٨) . ٢١٩٢/٤ - ٢١٩٣ .

(٣) انظر: إتحاف أهل الإيمان بما يعصم من فتن هذا الزّمان ، لعبد الله بن حار الله — مطابع ابن تيمية بالقاهرة — نشر دار الصّميعي ، ص : ٤٦ . وليّان معنى الحديث انظر: شرح التّووي على مسلم: ١١٠/١٤ ، ١٩٠/١٧ - ١٩١ الجامع لأحكام القرآن: ٣١٠/١٢ .

الأمر ما في ذلك من فساد الدنيا والرّعيّة — قبل الدّين — لكانوا أشدّ شيء منعاً
لذلك " (١) .

بل سلكن من السّبل المحرّمة ما يعجز الإنسان عن وصفه . فمنهنّ المذيعّة
الّتي أبدت مفاتنها من خلال شاشة التّلفاز ليراها القاصي والداني . ومنهنّ الممثّلة
الّتي تجوب دور السّينما والمسرح ذاهبة وآيبة . ومنهنّ الرّاقصّة الّتي تتمايل أمام
الّعين الشرّهة . ومنهنّ المغنّيّة الّتي تفسد بصوتها القلوب . بل ومنهنّ عارضة
الأزياء الّتي ملئت بصورها العارية المجالات الخليعة .

بل أصبحت المرأة سلعة يستخدمها أصحاب المؤسّسات والدّعائيات ترويجاً
لتجاراتهم وبضاعاتهم مقابل أجر زهيد يقدّم لها .

فقد انحطّت المرأة من منزلتها الّتي وضعها الله فيها عزيزة مكرّمة ، مصونة
مطهّرة ، وأعطيت من الحقوق ما لا يمكن حصرها ولا تعدادها ، ولا توجد في أرقى
قوانين الأمم المتمدّنة . ولكنّها أبّت كلّ ذلك بدعوى التّحرّر ، وتحطيم القيود ، وهضم
الحقوق الّتي يلهج بها دعاة الشرّ والمجون . فعادت سلعة رخيصة كلفت من العمل
مالاً تطيق ، مماثلة للمرأة الكافرة في ديار الغرب ، بل رجعت إلى الوراء أيّام
محنتها واحتقارها في عصور الجاهليّة المظلمة .
فالفتنة بالنّساء عظيمة ، والشرّ بهنّ جسيم .

(١) الطّرق الحكمية في السّياسة الشرعيّة . لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزيّة . مطبعة المدني . القاهرة . تحقيق محمد

جميل غازي . ص : ٤٠٧-٤٠٨ .

﴿المطلب الثاني﴾

فتنة المال

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ

عَظِيمٌ﴾ [الأَنْفَال: ٢٨] .

وقال: ﴿إِنَّمَا آمَوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] .

قال ابن جرير (رحمه الله):

"يقول تعالى ذكره للمؤمنين: واعلموا أيها المؤمنون أنما أموالكم التي خولكموها الله ، وأولادكم التي وهبها الله لكم اختبار وبلاء ، أعطاكموها ليختبركم بها ويبتليكم ، لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حق الله عليكم فيها ، والانتهاه إلى أمره ونهيه فيها .

"وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ" يقول: واعلموا أن الله عنده خير وثواب عظيم على طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم في أموالكم وأولادكم التي اختبركم بها في الدنيا . وأطيعوا الله فيما كلفكم فيها تنالوا به الجزيل من ثوابه في معادكم .

ثم روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة . فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن" (١) .

لقد بين الله سبحانه أن المال والأولاد فتنة يختبر بهما الإنسان ، ويبتلى بهما . فإما أن يعمل فيهما بطاعة الله فيسلم ، وإما أن يعمل فيهما بمعصية الله فيهلك . والمال أشد فتنة وأعظم ، خاصة على هذه الأمة . ولذلك قال رسول الله ﷺ في حديث كعب بن عياض رضي الله عنه : "إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال" (٢) .

(١) جامع البيان: ٤٨٦/١٣-٤٨٧ . طبعة شاكر . ١٢٦/٢٨ طبعة الحلي . وانظر في معنى الآيتين: الكشف:

١٢٣/٢ طبعة المكتبة التجارية . التفسير الكبير: ٢٧/٣٠ محاسن التأويل: ٢٩٨٠/٨ ، ٥٨٢٥/١٦ .

(٢) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب الزهد: (٣٣) . باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال: (٢٦) . برقم: (٢٣٣٦) .

وقال: " هذا حديث حسن صحيح غريب" . وقال الألباني رحمه الله: " صحيح" . ص: ٣٨٥ . وهو في السلسلة

أي اللّهُ به ، لأنّه يشغل البال عن القيام بالطّاعة وينسي الآخرة. (١)
 وحذّر من فتنته أصحابه ﷺ أيّما تحذير. فقال في حديث عمرو بن عوف ﷺ :
 " فو الله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنّي أخشى عليكم أن تُبْسَط الدّنيا عليكم كما
 بسطت على من كان قبلكم . فتنّافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم " (٢) .
 وقال في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) : " إذا فتحت
 عليكم فارس والروم أي قوم أنتم؟ قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله .
 قال رسول الله ﷺ : " أو غير ذلك . تتنافسون ، ثمّ تتحاسدون ، ثمّ تتدابرون ، ثمّ
 تتباغضون — أو نحو ذلك — ثمّ تتطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم
 على رقاب بعض " (٣) .

فقد أبان ﷺ أن فتنة المال تولّد الشقاق والخصام بين النّاس، فيتقاطعون من
 أجله ، ويتحاسدون ، ويتباغضون ، بل ويتقاتلون ، ومن أجله يهلكون .
 عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " تقى الأرض أفلاذ كبدها، أمثل
 الأسطوان من الذهب والفضّة ، فيجئ القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجئ القاطع
 فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجئ السّارق فيقول: في هذا قطعت يدي .

الصّحيحة وشيء من فقهها وفوائدها . لمحمد ناصر الدين الألباني . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة

الرّابعة : ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م : ١٤١/٢ . برقم: (٥٩٢) .

مسند أحمد: بلفظه — إلاّ أنّه قال : " وإن فتنة أمتي " — في : ١٦٠/٤ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب في: باب ذكر تخوّف المصطفى ﷺ على أمّته من التّكاثّر في
 الأموال والتّعمّد في الأقوال . برقم: (٣٢٢٣) . قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده قوي " . ١٧/٨ .

مستدرک الحاكم: بلفظه — إلاّ أنّه قال: " وإن فتنة أمتي " — في : ٣٥٤/٤ . وقال: " هذا حديث صحيح الإسناد ولم
 يخرجاه " . وقال الذهبي رحمه الله : " صحيح " .

(١) تحفة الأحوذى: ٥١٨/٦ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الجزية والموادعة: (٣٤/٥٨) . باب وما جاء في أخذ الجزية من

اليهود والنّصارى والمجوس والعجم . برقم: (٣١٥٨) . ص: ٦٦٧ .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الزّهد والرفاق: (٥٣) . برقم: (٢٩٦١) : ٢٢٧٤/٤ . (وهو جزء من حديث) .

(٣) المرجع السّابق : بلفظه في: كتاب الزّهد والرفاق: (٥٣) . برقم (٢٩٦٢) : ٢٢٧٤/٤ — ٢٢٧٥ .

ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً" (١). وفي رواية: "وتقى الأرض أفلاذ كبدها من الذهب والفضة، ولا ينتفع بها بعد ذلك اليوم . يمرُّ بها الرجل فيضربها برجله، ويقول: في هذه كان يقتل من كان قبلنا، وأصبحت اليوم لا ينتفع بها" (٢).

والنفس البشرية مجبولة على حب المال ، والسعي في طلبه بكل وجه . وأنها لا تشبع منه ، إلا من عصمها الله تعالى .

قال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠] أي كثيراً فاحشاً (٣).

وقال: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ (٤) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٦﴾ [العاديات ٦-٨] . والخير هو المال (٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى وادياً ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب" (٥). وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "يهرم ابن آدم وتشب منه اثنان: الحرص على المال والحرص على العمر" (٦).

(١) المرجع السابق : بلفظه في: كتاب الزكاة: (١٢). باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها: (١٨) . برقم: (١٠١٣) . ٧٠١/٢ .

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظه — وهو جزء من حديث — في باب ذكر الإخبار عن وصف الرّيح التي تجيء تقبض أرواح الناس في آخر الزّمان . برقم: (٦٨٥٣) . ٢٦٧/١٥ .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم: ٨٠٥/٤ .

(٤) انظر: المرجع السابق : ٨٦١/٤ . والكنود هو الكفور الجحود: انظر: المرجع السابق ٨٦٠/٤ .

(٥) صحيح البخاري: بلفظه : —إلا إنه قال: "لا بتغى ثالثاً"— في: كتاب الرّقاق: (٥٥/٨١) . باب ما يتقى من فتنة المال: (١٠) . برقم: (٤٦٣٦) . ص: ١٣٧٠ . عن ابن عباس (رضي الله عنهما) . ونحوه عنه برقم: (٤٦٣٧) . ص: ١٣٧١ .

صحيح مسلم: بلفظه عن أنس رضي الله عنه في: كتاب الزكاة: (١٢) . باب لو أن لابن آدم واديين لا بتغى ثالثاً: (٣٩) . برقم (١٠٤٨) : ٧٢٥/٢ . ونحوه عنه بالرقم السابق . وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) . برقم: (١٠٤٩) .

(٦) صحيح البخاري: نحوه في كتاب الرّقاق : (٥٥/٨١) . باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله: ﴿ أَوْلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٧] : (٥) . برقم: (٦٤٢٠) . ص: ١٣٦٨ . وعنه عن أبي هريرة رضي الله عنه بنفس الرقم والصفحة.

والمال لا يمدح نيله بإطلاق ، كما لا يذم بإطلاق . فمن أخذه بوجه طيب حلال لا ظلم فيه ولا عدوان ، وناله بطريق مشروع بعيداً عن الحرام ، ولم يغتر به وبيالغ في استقصائه ونيله ، وصرفه في أوجهه المشروعة ، وأعطى حق الله فيه ، واستعان به على ما ينفعه في دنياه وآخرته ، ولم يشغله عن طاعة الله والقيام بأمور دينه . وكان كما قال الله تعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ۖ وَالْأَبْصَارُ ۖ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۖ ﴾

[النور: ٣٦-٣٨] . وقال : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِيكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ

عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۖ ﴾ [المنافقون: ٩]

وتوسل به إلى فعل القربات ، وأعان به المحتاجين ، ولم يسرف في إنفاقه ولم يقتّر ، وإنما كان عدلاً وسطاً . كما قال سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۖ ﴾

[الفرقان: ٦٧] .

فهذا الصنف من الناس الذين لم يفتنهم المال، ولو ملكوا منه ما ملكوا .

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : "يا

رسول الله ذهب أهل الدُّثُور ^(١) بالأجور ، يصلّون كما نصلي ، ويصومون كما

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الزكاة: (١٢). باب كراهة الحرص على الدنيا: (٣٨) برقم (١٠٤٧) .

٧٢٤/٢ . ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه . برقم: (١٠٤٦) .

(١) الدُّثُور : جمع دُثْر وهو المال الكثير. انظر: غريب الحديث للهروي: ٤/٤٦٠ . الفائق: ١/٤١١ . النهاية في غريب

الحديث: ١٠٠/٢ .

نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم... الحديث (١) .

فقد غبط الصحابة إخوانهم أصحاب الأموال لما رأوا ما يقومون به من طاعة الله في أموالهم ، التي لم تلفتهم كثرتها عن اتباع أمر الله فيها .

بل دعا رسول الله ﷺ لأنس بن مالك ﷺ بأن يكثر الله ماله وولده. (٢)
فلو كان التكثر من ذلك شراً محضاً لما دعا له .

قال أنس ﷺ : " فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به : "اللهم ارزقه مالاً وولداً ، وبارك له فيه " فأني لمن أكثر الأنصار مالاً . وحدثني ابنتي أمينة (٣) أنه دفن لصلبي مقدم الحجاج (٤) البصرة بضع وعشرون ومائة" (٥) .

(١) صحيح البخاري: نحوه في كتاب الصلاة (الأذان) : (٥/١٠) . باب الذكر بعد الصلاة: (٣٠٦/١٥٥) . برقم: (٨٤٣) . ص: ١٨٤ . وفي كتاب الدعوات: (٥٤/٨٠) . باب الدعاء بعد الصلاة: (١٨) . برقم: (٦٣٢٩) . ص: ١٣٥٠-١٣٥١ . عن أبي هريرة ﷺ . وهو جزء من حديث .

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزكاة: (١٢) . باب بيان إن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف: (١٦) . برقم: (١٠٠٦) : ٦٩٧/٢ . ونحوه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة: (٥) . باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته: (٢٦) . برقم: (٥٩٥) . ٤١٦/١ . وفي ٤١٧/١ . عن أبي هريرة ﷺ . وهو جزء من حديث .

(٢) انظر: صحيح البخاري: كتاب الصوم: (٩/٣٠) . باب من زار قوماً فلم يفطر عندهم: (٦١) . برقم: (١٩٨٢) . ص: ٤١٣-٤١٤ . وفي كتاب الدعوات: (٥٤/٨٠) . باب قول الله تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣] . ومن خصّ أخاه بالدعاء دون نفسه: (١٩) . برقم: (٦٣٣٤) . ص: ١٣٥٢ . وفي باب دعوة النبي ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله: (٢٦) . برقم: (٦٣٤٤) . ص: ١٣٥٣ . وفي باب الدعاء بكثرة المال مع البركة: (٤٧) . برقم: (٦٣٧٨) (٦٣٨٠) (٦٣٨١) . ص: ١٣٥٩-١٣٦٠ .

صحيح مسلم: في كتاب المساجد ومواضع الصلاة: (٥) . باب جواز الجماعة في النافلة ، والصلاة على حصير وحجرة وثوب وغيرها من الطاهرات: (٤٨) . برقم: (٦٦٠) . ٤٥٧/١-٤٥٨ . وفي كتاب فضائل الصحابة: (٤٤) . باب فضائل أنس بن مالك ﷺ : (٣٢) . برقم: (٢٤٨٠) (٢٤٨١) . ١٩٢٨/٤-١٩٢٩ .

(٣) أمينة: هي بنت أنس بن مالك الأنصاري، روى عنها أبوها . مقبولة الحديث .
انظر: تهذيب الكمال: ١٣٢/٣٥ . الكاشف: ٥٠٣/٢ . تهذيب التهذيب: ٤٣٠/١٢ . تقريب التهذيب: ٧٤٣/١ .

(٤) حجاج: هو ابن يوسف النخعي . سبقت ترجمته . انظر : ص : ٧٧ .
(٥) صحيح البخاري: بلفظه — مع زيادة في أوله — في كتاب الصوم: (٩/٣٠) . باب من زار قوماً فلم يفطر عندهم: (٦١) . برقم: (١٩٨٢) . ص: ٤١٣-٤١٤ .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"وفي هذا الحديث ... الدعاء بكثرة المال والولد ، وأنّ ذلك لا ينافي الخير الأخروي، وأنّ فضل التّقلّ من الدّنيا يختلف باختلاف الأشخاص" (١) .
ولا شك أنّ المقتصد الذي يأخذ من المال بقدر حاجته، وما يسدّ به الرّمق ممدوح على لسان النّبي ﷺ .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) أنّ رسول الله ﷺ قال: "قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً" (٢)، وقنّعه الله بما آتاه" (٣) .

قال الإمام النّووي (رحمه الله):

"الكفاف الكفاية بلا زيادة ولا نقص ، وفيه فضيلة هذه الأوصاف . وقد يحتجّ به لمذهب من يقول الكفاف أفضل من الفقر ومن الغنى" (٤) .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "اللّهم اجعل رزق آل محمّد قوتاً" (٥) . والقوت ما يسدّ به الرّمق . وفي الحديث فضل التّقلّ من الدّنيا، والاقتصر منها على ما يكفي الحاجة ، والدّعاء بذلك (٦) .

وإن كان الخلاف دائراً بين العلماء أيهما أفضل الغنى أم الكفاف؟ وهو ما ألمح إليه الإمام النّووي (رحمه الله) في قوله السّابق . إلّا أنّ الأمر يختلف من شخص إلى شخص ومن حال إلى حال ، وذلك ما أشار إليه الحافظ ابن حجر (رحمه الله) .

(١) فتح الباري: ٧٥٢/٤ .

(٢) الكفاف : هو الذي لا يُفْضَلُ عن الشّيء ويكون بقدر الحاجة إليه . النهاية في غريب الحديث : ١٩١/٤ .
وانظر : الفائق : ٢٧٢/٣ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزّكاة: (١٢) . باب في الكفاف والقناعة: (٤٣) . برقم: (١٠٥٤) .
٧٣٠/٢ .

(٤) شرح النّووي على مسلم: ١٤٥/٧-١٤٦ .

(٥) انظر: المرجع السّابق: ١٤٦/٧ . والحديث: في صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الرّقاق: (٥٥/٨١) .
باب كيف كان عيش النّبي ﷺ وأصحابه وتخلّيه من الدّنيا: (١٧) . برقم: (٦٤٦٠) . ص: ١٣٧٥ .

وفي صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزّكاة: (١٢) . باب في الكفاف والقناعة: (٤٣) . برقم: (١٠٥٥) .
٧٣٠/٢ . وفي كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣) . بالرّقم السّابق : ٢٢٨١/٤ .

(٦) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٤٦/٧ .

ولعلَّ السرَّ في مدح الكفاف ما جاء بيانه في حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال: "اثنان يكرههما ابن آدم: الموت . والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال . وقلة المال أقلُّ للحساب" (١) .

وما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يقول العبد مالي . مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى" (٢) . وما سوى ذلك فهو ذاهب ، وتاركه للناس" (٣) .

فلا يحاسب الإنسان إلا بما ملك . ولا ينتفع إلا بما أكل ، أو لبس، أو تصدَّق . والذي يَنَمُّ المال في حقِّه فهو الذي أخذه من غير وجه صحيح ، ولم يعمل بحقِّ الله فيه ، وصرفه في غير حقِّه . فهو لا يبالي أمن حلال أخذ أم من حرام ؟ بل الحلال عنده ما ملكه بيده وحازه ، والحرام ما منع منه ولم يستطع الوصول إليه . وهو قد يسلك في كسبه أي طريق أتيح له ، ويستخدم كلَّ وسيلة تمكنه من الحصول عليه . كالغشِّ والخداع والمكر والكذب والجحود . ولا يعبأ إن كان ذلك مال ربياً ، أو مال أيتام ، أو مغصوب ، أو سرقة ، أو جاء إليه عن طريق الرشوة (٤) ، أو غلِّه (٥) من المال العام .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : " أيُّها النَّاسُ إنَّ الله طيِّب لا يقبل إلا طيباً . وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين . فقال:

(١) مسند أحمد: بلفظه في : ٤٢٧/٥ .

قال الهيثمي (رحمه الله) : " رجاله رجال الصحيح " . مجمع الزوائد : ٣٢١/٢ . وانظر : ٢٥٧/١٠ . وقال المنذري (رحمه الله) : " رواه أحمد بإسنادين ، رواة أحدهما محتجَّ بهما في الصحيح " . الترغيب والترهيب . لأبي حمَّد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري . تحقيق : إبراهيم شمس الدين . طبعة دار الكتب العلميَّة . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤١٧هـ : ٧٣/٤ .

(٢) قال النَّووي (رحمه الله): " أو أعطى فاقتنى " : هكذا هو في معظم النسخ ، ولمعظم الرواة "فاقتنى" بالتاء . ومعناها: أدخره لآخرته ، أي : أدخر ثوابه . وفي بعضها " فأقنى " بحذف التاء ، أي: أَرْضَى . شرح النَّووي على مسلم: ٩٤-٩٥/١٨ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزَّهد والرفاق: (٥٣) . برقم: (٢٩٥٩) . ٢٢٧٣/٤ .

(٤) الرشوة : هي ما يعطى لإبطال حقٍّ ، أو لإحقاق باطل . التعريفات: ص: ١٤٨ . التعاريف: ٣٦٥/١ .

(٥) غلٌّ : من الغُلُول وهو الخيانة . انظر: مختار الصحاح: ص: ٤٧٩ . القاموس المحيط: ص: ١٣٤٣ .

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝﴾
 [المؤمنون: ٥١]. وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾
 [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ
 يا ربّ ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذّي بالحرام فأنّى
 يستجاب لذلك؟ " (١).

وهو مع ذلك شديد الطّمع ، كثير الحرص ، شره النفس ، لا يهّمه إلا جمع
 المال وتكديسه.

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ : " تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدَّرْهَمِ
 وَالْقَطِيفَةِ (٢) وَالْخَمِيصَةِ (٣) . إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ " (٤).

قال العيني (رحمه الله):

" قوله : "عبد الدّينار" : أي طالبه وخادمه والحريص على جمعه والقائم على
 حفظه فكأنه لذلك عبده " .

ونقل عن الطيبي (رحمه الله) أنّه قال:

"خصّ العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها ، كالأسير الذي
 لا يجد خلاصاً " (٥).

(١) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزكاة: (١٢) . باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها: (١٩) . برقم
 (١٠١٥): ٧٠٣/٢ .

(٢) القطيفة : كساء له خمل . النهاية في غريب الحديث: ٨٤/٤ .

(٣) الخميصة : وهي ثوب خزّ أو صوف معلّم . وقيل : لا تُسمّى خميصة إلا أن تكون سوداء معلّمة . وكانت من
 لباس الناس قديماً . وجمّعها الخمائصُ . النهاية في غريب الحديث : ٨١ / ٢ . وانظر: الفائق: ١٦٧/٢ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الجهاد والسير: (٣٢/٥٦) . باب الحراسة في الغزو في سبيل الله: (٦٩/٧٠) .

برقم: (٢٨٨٦) . ص: ٦٠٨ . ثم أردف ذلك برواية مقاربة مع زيادة فيها في نفس الموضع . برقم: (٢٨٨٧) .

ص: ٦٠٨-٦٠٩ . وفي كتاب الرقاق: (٥٥/٨١) . باب ما يتقى من فتنة المال وقول الله تعالى:

﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] : (١٠) . برقم: (٦٤٣٥) . ص: ١٣٧٠ .

(٥) عمدة القاري : ٤٥/٢٣ .

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال: "إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه . وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى" (١) .

فوصفه بأنه " خضرة حلوة " للرجبة فيه والميل إليه ، وحرص النفوس عليه . وإشراف النفس: تطلعها إليه ، وتعرضها له ، وطمعها فيه (٢) .

وقد أخذ المال فكره ، وشغل قلبه ، وأصبح أكبر همه لا يفارق باله ، ولو كان في عبادة ربه .

عن مالك (رحمه الله) عن عبد الله بن أبي بكر (٣) أن رجلاً من الأنصار كان يصلي في حائط له بالقف (٤) — واد من أودية المدينة — في زمان الثمر، والنخل قد ذلت فهي مطوقة بثمرها، فنظر إليها فأعجبه ما رأى من ثمرها، ثم رجع إلى صلاته فإذا هو لا يدري كم صلى؟ فقال: " لقد أصابتنني في مالي هذا فتنة " . فجاء

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الزكاة: (٧/٢٤). باب الاستغفار عن المسألة: (٥٠). برقم: (١٤٧٢). ص: ٣١١-٣١٢. وفي كتاب الوصايا: (٣١/٥٥). باب قول الله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّهِ تَوْصُوتُ بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾ [النساء: ١٢]: (٩). برقم: (٢٧٥٠). ص: ٥٧٩. وفي كتاب فرض الخمس: (٣٣/٥٧). باب ما كان التي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه: (١٩). برقم: (٣١٤٣). ص: ٦٦٣-٦٦٤. وفي كتاب الرقاق: (٥٥/٨١). باب قول التي ﷺ: "هذا المال خضرة حلوة": (١١). برقم: (٦٤٤١). ص: ١٣٧١.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزكاة: (١٢). باب بيان إن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح: (٣١). برقم: (١٠٣٥). ٧١٧/٢.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم: ١٢٦/٧.

(٣) هو عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أبو محمد ويقال أبو بكر الأنصاري المدني القاضي، تابعي ثقة، من سادات الناس وفقهائهم . مات سنة ١٣٥هـ .

انظر: التاريخ الكبير: ٥/٥٤ . معرفة الثقات: ٢/٢٣ . الجرح والتعديل: ٥/١٧ . ثقات بن حبان: ٥/١٦ ، ١٠/٧ . مشاهير علماء الأمصار: ١/٦٨ . تهذيب الكمال: ١٤/٣٤٩ . تهذيب التهذيب: ٥/١٤٤ . تقريب التهذيب: ١/٢٩٧ .

(٤) القف: علم لواد من أودية المدينة عليه مال لأهلها . معجم البلدان : ٤ / ٣٨٣ .

عثمان بن عفان، وهو يومئذ خليفة، فذكر له ذلك وقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الخير، فباعه عثمان بن عفان بخمسين ألفاً، فسمي ذلك المال الخمسين" (١).

فهذا لما شغله المال وفتته عن عبادة ربه في حادثة واحدة قدمه كله لله . فكيف بمن كان المال لا يفارق مخيلته كأنه خلق من أجله . وما جمعه من مال إنما جمعه للذات الدنيا وشهواتها. مشابهاً حال الكفار في قول الله تعالى لهم:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى

لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

فكما كسبه بغير وجه شرعي، أنفقه في غير وجه شرعي . فلم ينفقه على مسكين ولا يتيم ولا محتاج ، ولا على من لزمه الإنفاق عليه ، وإن فعل فإنما فعل رياء ومناً. وقد حجب حق الله تعالى فيه ، فلم تطرق باب ماله زكاة ، ولا تمرّ بخلاصه صدقة . بخيل في أوجه الخير ، مبذر مسرف في أوجه الشر . إكثاره منه قلّة، ووجوده عنده استدراج .

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : " إنَّ المكثرين هم المقلّون يوم القيامة ، إلّا من أعطاه الله خيراً فنفع فيه يمينه وشماله (٢) ، وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيراً " (٣).

(١) الموطأ للإمام مالك بن أنس . مطبعة دار إحياء الكتب العربيّة . القاهرة . تصحيح وترقيم محمّد فؤاد عبد الباقي : كتاب الصلّاة: (٣) باب التّظر في الصلّاة إلى ما يشغله عنها: (١٨) برقم: (٧٠) . ٩٩/١ . وهنالك رواية عن أبي طلحة رضي الله عنه منقطعة . ٩٨/١ .

(٢) قال ابن الأثير (رحمه الله): "نفع فيه يمينه وشماله : أي ضرب يديه فيه بالعطاء . التّفح : الضرب والرّمي" .
النهاية في غريب الحديث : ٨٩/٥ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه — وهو جزء من حديث — في كتاب الرّفاق: (٥٥/٨١) . باب المكثرون هم المقلّون: (١٣) . برقم: (٦٤٤٣) . ص: ١٣٧٢ . و بلفظ مقارب في باب قول النبي ﷺ " ما أحبّ أن لي مثل أحد ذهباً":

(١٤) . برقم: (٦٤٤٤) . ص: ١٣٧٢-١٣٧٢ .

صحيح مسلم: بلفظه — وهو جزء من حديث — في كتاب الزّكاة: (١٢) . باب التّرجيب في الصّدقة: (٩) . برقم: (٩٤) . ٦٨٨/٢-٦٨٩ .

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦، ٥٥] .

قال ابن كثير (رحمه الله):

"يعني أیظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا ؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿لَحْنُ أَكْثَرِ أَمْوَالِ وَأَوْلَدِنَا وَمَا لَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥] . لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجائهم ، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً" (١) .
فهذا الذي ذم المال في حقه ، وهو الذي فتن بالمال . فالمال له فتنة وليس بنعمة .

ولقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً رائعاً مبيناً فيه حال المفرط في جمع المال، المانع من حقه، المفتتن به ، وحال المقتصد المنتفع به .
عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا" . قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال: "بركات الأرض" . قالوا: يا رسول الله وهل يأتي الخير بالشر؟ قال: "لا يأتي الخير إلا بالخير . لا يأتي الخير إلا بالخير . إن كل ما أنبت الربيع يقتل أو يُلْمُ . إلا آكلة الخضر، فإنها تأكل حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت الشمس . ثم اجتثت وبالت وتلّطت . ثم عادت فأكلت . إن هذا المال خضرة حلوة . فمن أخذه بحقه، ووضعها في حقه، فنعم المعونة هو . ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع" (٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٩٦ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الزكاة: (٧/٢٤) . باب الصدقة على اليتامى: (٤٧) . برقم: (١٤٦٥) . ص: ٣١٠ . وفي كتاب الجهاد والسير: (٣٢/٥٦) . باب فضل الثقة في سبيل الله: (٣٧) . برقم: (٤٨٤٢) . ص: ٦٠٠ . وفي كتاب الرقاق: (٥٥/٨١) . باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها: (٧) . برقم: (٦٤٢٧) . ص: ١٣٦٩ .

فقد بين النبي ﷺ أن نبات الربيع وخضره يقتل بالتخمة إذا أكثر الأكل منه ،
أو يقرب أن يقتله . وأما المقتصر منه على ما تدعو إليه الحاجة فإنه لا يضره .
وهكذا المال فهو كنبات الربيع تشتاق إليه النفوس وتميل إليه لحسنه . فمن أكثر منه ،
واستغرق في جمعه ، ولم يصرفه في وجوهه ، فهذا يهلكه أو يقارب هلاكه ؛ أما
المقتصد الذي أخذ يسيراً أو أخذ كثيراً ولكن فرقته في وجوهه ، فهذا لا يضره^(١) .

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزكاة: (١٢). باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا: (٤١). برقم (١٠٥٢) .

٧٢٨/٢ . و بلفظ مقارب في : ٧٢٧/٢ ، ٧٢٨ .

قال ابن الأثير رحمه الله:

" هذا الحديث يحتاج إلى شرح ألفاظه مجتمعة فإنه إذا فُرق لا يكاد يفهم الغرض منه . الحبط — هذه العبارة
وردت في بعض رواياته — بالتحريك الهلاك يقال : حبط يحبط حبطاً ... ويُلم : يقرب أي يدنو من الهلاك .
والخضير : بكسر الضاد نوع من البقول ليس من أحرارها وجيدها . وتلط البعير يُلَط : إذا ألقى رجيعه سهلاً
رقيقاً .

صَرَب في هذا الحديث مثلين : أحدهما للمفرد في جمع الدنيا ، والمنع من حقها . والآخر للمقتصد في أخذها
والنفع بها . ف قوله : " إنَّ مَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطاً أَوْ يُلَمُّ " : فإنه مثل للمفرد الذي يأخذ الدنيا بغير حقها .
وذلك أن الربيع يُنْبِتُ أحرار البقول فتستكثر الماشية منه لاستطاعتها إياه ، حتى تنتفخ بطونها عند مجاوزتها حد
الاحتمال ، فتشقق أمعاؤها من ذلك فتَهْلِكُ ، أو تُقَارِبُ الهلاك . وكذلك الذي يجمع الدنيا من غير حِلِّها ،
ويمنعها مستحقها قد تعرض للهلاك في الآخرة بدخول النار . وفي الدنيا بأذى الناس له ، وحسدهم إياه ، وغير
ذلك من أنواع الأذى . وأما قوله : " إلا أكلة الخضير " : فإنه مثل للمقتصد . وذلك أن الخضر ليس من أحرار
البقول وجيدها التي يُنْبِتُها الربيع بتوالي أمطاره فتحسن ، وتنعّم ، ولكنه من البقول التي ترعاها المواشي بعد هيج
البقول ويُسِّسها ، حيث لا تجد سواها ، وتسميها العرب الحَبَّة . فلا ترى الماشية تُكثر من أكلها ، ولا تستمرها .
فضرب أكلة الخضر من المواشي مثلاً لمن يقتصد في أخذ الدنيا وجمعها ، ولا يحمله الخرص على أخذها بغير
حقها ، فهو بنَجْوَةٍ من وبالها كما نَحَتُ أكلة الخضر .

ألا تراه قال : " أَكَلْتُ ، حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت عين الشمس فقلطت ، وبالت " . أراد أنها إذا
شبعَت منها برَكَتْ مُسْتَقْبِلَةُ عين الشمس تستمرى بذلك ما أكلت ، ونَحَرُ وتلَط . فإذا تلطت فقد زال عنها
الحبط . وإنما تحبط الماشية لأنها تمتلئ بطونها ولا تلط ، ولا تبول . فتنتفخ أحوافها فيعرض لها المرض فههلك .
وأراد بزهرة الدنيا : حُسْنُها وبَهْجَتها . وبركات الأرض : نَمَاعُها ، وما يخرج من نباتها .

النهاية في غريب الحديث: ٢ / ٤٠ — ٤١

(١) انظر: شرح النووي على مسلم . ١٤٣/٧ .

﴿المطلب الثالث﴾

فتنة الأولاد

إن الله سبحانه جعل حبّ الأولاد فطرة في النفس ، جبلت عليه . وهو من الشهوات التي تميل إليها ، وترغب فيها . فقال سبحانه :

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال: ﴿ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦].

ولكن قد يصل الأمر بميل النفس إليهم إلى الإلهاء بهم عن طاعة الله عزّ وجلّ ، أو الإتيان بما يخلّ بتلك الطاعة . أو الوقوع في المعصية وارتكاب الإثم من أجلهم . ولذا قال تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨] ^(١) .

قال الإمام الرّازي (رحمه الله):

" قال ابن عباس (رضي الله عنهما) : " لا تطيعوهم في معصية الله تعالى " . وفتنة: أي بلاء وشغل عن الآخرة ... فإنّ الإنسان مفتون بولده لأنّه ربّما عصى الله تعالى بسببه ، وبأشرف الفعل الحرام لأجله ، كغصب مال الغير وغيره . ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ : أي جزيل ، وهو الجنة ... والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد ، ولا تؤثرهم على ما عند الله من الأجر العظيم ^(٢) .

(١) انظر : إغاثة اللّهفان: ١٦٠/٢ .

(٢) التفسير الكبير: ٢٧/٣٠ .

عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال: كان النَّبِيُّ ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين (رضي الله عنهما) ، وعليهما قميصان أحمران ، يعثران فيهما ، فنزل النَّبِيُّ ﷺ فقطع كلامه ، فحملهما ، ثم عاد إلى المنبر . ثم قال: " صدق الله : ﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ . رأيت هذين يعثران في قميصيهما ، فلم أصبر حتَّى قطعت كلامي فحملتهما " (١) .

لقد قطع النَّبِيُّ ﷺ خطبته ، ونزل من المنبر فحمل الحسن والحسين (رضي الله عنهما) وسمَّى ذلك فتنة . والسبب في هذا الفعل محبته لهما . وفي هذا دلالة على أنَّ الفتنة بالولد مراتب ، وأنَّ ما حدث من أدناها ، ولكنها قد تجرَّ إلى ما فوقها (٢) .

(١) سنن أبي داود : بلفظ مقارب في كتاب الصَّلَاة: (٢) . باب الإمام يقطع الخطبة لأمر يحدث: (٢٢٥-٢٢٧) .

برقم: (١١٠٩) . قال الألباني رحمه الله: "صحيح" . ص: ١٣٦ .

سنن الترمذي: بلفظ مقارب في كتاب المناقب: (٤٥) . باب مناقب (الحسن والحسين رضي الله عنهما) : (٣٠) .

برقم: (٣٧٧٤) . وقال: "هذا حديث حسن غريب" . و قال الألباني رحمه الله: "صحيح" . ص: ٥٨٧-٥٨٨ .

سنن النسائي : بلفظه في كتاب الجمعة: (١٤) . باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة وقطعه كلامه

ورجوعه إليه يوم الجمعة: (٣٠) . برقم: (١٤١٣) . قال الألباني رحمه الله: "صحيح" . ص: ١٦٦ . و بلفظ مقلوب

في كتاب صلاة العيدين: (١٩) . باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة: (٢٧) . برقم: (١٥٨٥) . قال

الألباني رحمه الله: "صحيح" . ص: ١٨٧ .

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في كتاب اللباس: (٣٢) . باب لبس الأحمر للرجال: (٢٠) . برقم: (٣٦٠٠) . قال

الألباني رحمه الله: "صحيح" . ص: ٣٨٨ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ٣٥٤/٥ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب . برقم: (٦٠٣٨) . قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده حسن" .

٤٠٢/١٣ . و برقم: (٦٠٣٩) . ٤٠٣/١٣ .

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في : ٤٢٤/١ . وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه" . و قلل

الذهبي رحمه الله: " على شرط مسلم" . وفي : ٢١٠/٤ . وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم

يخرجاه" . و قال الذهبي رحمه الله: " على شرط البخاري ومسلم" .

(٢) انظر: فتح الباري: ٣٣/١٣ .

الرسول ﷺ معصوم عن الوقوع في الفتن ، ولكنه أراد أن يبين لأصحابه أنَّ قطع الخطبة لمثل هذه الأمور جائز .

وأنَّ الأولاد فتنة حقاً . وانظر: المرجع السابق: ٣٣/١٣ .

فمن الفتنة بهم اشتغال الإنسان بهم عن كثير من الخير ، أو التفريط عما يلزمه من القيام بحقوقهم ، كالتأديب والتعليم والتربية والنصح ، لأن الإنسان مسئول عما استترعاه الله عليه (١) .

ومن ذلك الاستجابة لرغباتهم ، والامتثال لطلباتهم ، ولو أدى ذلك إلى سخط الله تعالى أو مخالفة أمره . ولا شك أن حب الله ورسوله مقدم على حب الأولاد . كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ، وولده ، والناس أجمعين " (٢) .

ومنها موالاتهم ، ومودتهم مع عدم إيمانهم .

قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

وقال سبحانه : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣] .

ومن الأولاد من تبلغ فتنته بأن يصبح عدواً لوالده ، وذلك بصرفه عن الطاعات ، وحمله على المعاصي . ولذلك حذر الله تعالى من هؤلاء فقال :

(١) انظر: شرح النووي على مسلم: ١٧١/٢ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الإيمان : (٢) . باب حب الرسول ﷺ من الإيمان : (٨) . برقم: (١٥) . ص:

١٧ . عن أنس بن مالك ﷺ . ونحوه عن أبي هريرة ﷺ برقم: (١٤) . ص: ١٧ .

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإيمان : (١) . باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين ، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة: (١٦) . برقم: (٤٤) . ٦٧/١ . عن أنس ﷺ .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفُّواْ وَتَصَفَّحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

سأل رجل ابن عباس (رضي الله عنهما) عن هذه الآية فقال: " هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة ، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي ﷺ ، فلما أتوا النبي ﷺ رأوا الناس قد فقهاوا في الدين همّوا أن يعاقبوه ، فأُنزل الله تعالى . الآية " (١)

والآية عامّة في كلّ معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد . وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم (٢) .

ولذا قال مجاهد (رحمه الله) :

" يحمل الرجل على قطيعة الرّحم ، أو معصية ربّه ، فلا يستطيع الرّجل مع حبّه إلّا أن يطيعه".

وقال: "ما عادوهم في الدنيا ، ولكن حملتهم مودّتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوه إياهم " (٣) .

وقد يغترّ الإنسان بكثرة الأموال والأولاد ، ويعتقد أن ذلك دلالة على محبة الله له ، واعتناؤه به ، وأنّه ما أعطي ذلك إلّا لقربه من الله .

ولكنّ الله تعالى أكذب هذا النوع من البشر ، ويبيّن أنّه يعطي المال والأولاد من يحبّ ومن لا يحبّ ، وله في ذلك الحكمة التّامة ، والحجّة البالغة . وإنّما الذي يقرب إلى الله الإيمان والعمل الصّالح .

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٤١/١٨ . تفسير القرآن العظيم: ٥٨٨/٤ .

والأثر في: سنن الترمذي: بلفظ مقارب في كتاب تفسير القرآن: (٤٣). باب ومن سورة التغابن: (٦٤). برقم:

(٣٣١٧) . وقال: " هذا حديث حسن صحيح". وقال الألباني رحمه الله: " حسن". ص: ٥٢٥ .

و مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ٥٣٢/٢ . وقال: " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وقال الذهبي رحمه الله: " صحيح".

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤٢/١٨ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٥٨٨/٤ .

قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَةِ ءَامِنُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾ [سبا: ٣٥-٣٧] (١).

إن كثرة الأموال والأولاد قد تكون استدراجاً أو عذاباً؟ كما قال الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ ﴿٣٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وقال: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾ [التوبة: ٥٥].

ولا يعني هذا أن يمتنع الإنسان من أن يطلب ربه أن يرزقه الأولاد بحجة أنهم فتنة له . ذلك لأن طلب الأولاد من سنة المرسلين . كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨] .

وقال عن زكريا (عليه السلام) : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ﴿٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨] .

وقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ﴿٧٤﴾ [الفرقان: ٧٤] .

(١) وانظر: معنى الآيات في : المرجع السابق : ٨٦٠/٣ .

وقال ﷺ : " تزوجوا الودود^(١) الولود ، إني مكاثركم الأنبياء يوم القيامة " ^(٢). ودعا لأنس ﷺ فقال: " اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له " ^(٣). وفي ذلك حثٌ منه ﷺ على التكاثر من النسل^(٤) . والعبرة في ذلك بصلاح الأولاد واستقامتهم . فأولئك وإن كثروا نفعوا والديهم في الدنيا والآخرة ، ولم يكونوا لهم فتنة ولا أعداء .

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " . ^(٥)

- (١) الودود : لفظ يطلق على الرجل والمرأة . والمراد : المحبة . من الود وهو الحب . انظر : لسان العرب : ٤٥٤/٣ . وانظر : النهاية في غريب الحديث : ١٦٤/٥ .
- (٢) سنن أبي داود : نحوه في كتاب النكاح: (١٢) . باب التهي عن تزويج من لم يلد من النساء . برقم: (٢٠٥٠) . قال الألباني رحمه الله: "حسن صحيح" . ص: ٢٣٤ . عن معقل بن يسار ﷺ .
- سنن النسائي: بلفظ مقارب في كتاب النكاح: (٢٦) . باب كراهة تزويج العقيم: (١١) . برقم: (٣٢٢٧) . قال الألباني رحمه الله: "حسن صحيح" . ص: ٣٤٢ . عن معقل ﷺ .
- سنن ابن ماجه: نحوه في كتاب النكاح: (٩) . باب ما جاء في فضل النكاح: (١) . برقم: (١٨٤٦) . قال الألباني رحمه الله: "حسن" . ص: ٢٠١ . عن عائشة (رضي الله عنها) . وفي باب تزويج الحرائر والودود: (٨) . برقم: (١٨٦٣) . قال الألباني رحمه الله: "صحيح" . ص: ٢٠٢-٢٠٣ . عن أبي هريرة ﷺ .
- مسند أحمد: بلفظه في: ٢٤٥/٣ . و بلفظ مقارب في: ١٥٨/٣ . عن أنس ﷺ .
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب برقم: (٤٠٢٨) . قال شعيب الأرناؤوط: "حديث صحيح لغيره" . ٣٣٨/٩ . عن أنس ﷺ .
- مستدرک الحاکم: نحوه في: ١٧٦/٢ . وقال: " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السّياقة " . وقال الذهبي رحمه الله: "صحيح" . عن معقل ﷺ .
- (٣) سبق تخريجه . انظر : ص : ١١٨ .
- (٤) إن دين الإسلام حث أتباعه على الإكثار من التسل ، كما وردت بذلك التصوص أعلاه . فعلى المسلم أن لا يلتفت إلى الدعوة المقرضة الآئمة التي ينعم بها دعاة الغرب وأذنابهم من أبناء الشرق الذين ينادون بتحديد التسل ، ويحذرون من تكثيره تمتطين أسباباً واهية لا وزن لها عند العقلاء ، ولا يضاهيها مقاصد الشرع الحنيف .
- (٥) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الوصية: (٢٥) . باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته: (٣) . برقم: (١٦٣١) . ١٢٥٥/٣ . وانظر: الجامع لأحكام القرآن : ٧٢/٤-٧٣ ، ٨/١١ .

المبحث الثالث

المعاصي

لقد سبق بيان إطلاق الفتنة على المعصية والإثم ^(١).

ولا شك أن المعصية فتنة ، لأن المرء بارتكابها وفعلها ينصرف عن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ . إضافة إلى أن المعصية تدفع إلى فعلها الشهوة ، والحديث عن الشهوات ذكر آنفاً ^(٢).

ولقد بين النبي ﷺ أن هذه الأمة سوف تظهر فيها كثير من المعاصي . وقد ظهر الكثير منها كما نبأ بذلك رسول الله ﷺ . ولا زال بعضها في ازدياد واستشراء . وقد يكون في المستقبل أكثر مما هو في الماضي . ولا يمكن أن نحصر هنا جميع تلك المعاصي ، ولكن نورد بعضاً منها في أربعة مطالب على سبيل التمثيل مع شيء من الإيجاز .

(١) انظر: ص ١٨-١٩ .

(٢) انظر: ص ٨٨ فما بعدها .

﴿المطلب الأول﴾

القول على الله تعالى بغير علم

حرّم الله عزّ وجلّ على العبد أن يقول عليه سبحانه وعلى رسوله ﷺ ما ليس له به علم ، أو يتكلّم ويفتي في دين الله تعالى بجهل . فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

بل جعل القول عليه بغير علم من أعظم المحرّمات . فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

فذكر سبحانه في الآية أنواع المحرّمات بدءاً بالأخف متدرجاً إلى الأثقل .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

"وقد حرّم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء ، وجعله من أعظم المحرّمات ، بل جعله في المرتبة العليا منها — فذكر الآية السابقة — فرتب المحرّمات أربع مراتب ، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، ثم تّتى بما هو أشدّ تحريماً منه وهو الإثم والظلم . ثم تّلت بما هو أعظم تحريماً منهما وهو الشرك به سبحانه ، ثم ربّع بما هو أشدّ تحريماً من ذلك كلّهُ وهو القول عليه بلا علم ، وهذا يعمّ القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه" (١) .

ولمّا كان القول على الله بغير علم يتصدّر المحرّمات جميعاً . حذّر الرسول ﷺ من أناس يتكلّمون في دين الله بجهل ، فيحرّمون ما أحلّ الله تعالى ، أو يحلّون

(١) أعلام الموقعين : ٣٨/١ .

ما حرّم ، متجنّين على شريعة الله ، يصدرّون الأحكام ويرسلون الفتاوى من غير مراقبة لله تعالى ولا خوف منه . لا همّ لهم إلا حبّ المناصب ، والتسلّط على رقاب الخلق .

أولئك حذرّ منهم رسول الله ﷺ كما جاء في حديث حذيفة بن اليمان ؓ — فنذكر الحديث — وفيه : " قوم يستنون بغير سنّتي ، ويهدون بغير هدي ، تعرف منهم وتتكبر . فقلت: هل بعد ذلك الخير من شرّ ؟ قال : " نعم دعاة على أبواب جهنّم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها " فقلت : يا رسول الله صفهم لنا . قال : " نعم قوم من جلدتنا ويتكلّمون بألسنتنا " الحديث (١)

فهؤلاء الدّعاة هم الذين يتبوّون مناصب العلماء وليسوا بعلماء ، ويوقعون عن الله ورسوله ﷺ جهلاً وافتراءً فيضلّون ويضلّون . وبسببهم ينزع علم الشرع من الأرض ، ويحلّ الجهل بالعباد ، فلا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك (٢) وذلك عند استحكام الجهل واستشرائه .

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النبوة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٦٠٦). ص: ٧٥٩. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة: (١١). برقم: (٧٠٨٤). ص: ١٤٩٤.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإمارة: (٣٣). باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، وفي كلّ حال ، وتحريم الخروج على الطّاعة ، ومفارقة الجماعة: (١٣). برقم: (١٨٤٧) ١٤٧٥/٣-١٤٧٦ . ومعناه في: ١٤٧٦/٣.

(٢) ورد ذلك في حديث حذيفة بن اليمان ؓ قال: قال رسول الله ﷺ : " يذرّس — أي يعفى ويذهب — الإسلام كما يدرس وشي — نقش — الثوب حتّى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ، وكيسرى على كتاب الله عزّ وجلّ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس ، الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلاّ الله فنحن نقوها " . فقال له صِلْ — ابن زُفر التابعي — : ما تعني عنهم لا إله إلاّ الله ، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؟ فأعرض عنه حذيفة ، ثمّ ردّها عليه ثلاثاً كلّ ذلك يعرض عنه حذيفة . ثمّ أقبل عليه في الثالثة فقال : يا صِلْ تنجيهم من النار ثلاثاً .

سنن ابن ماجه . بلفظه في كتاب الفتن: (٣٦). باب ذهاب القرآن والعلم : (٢٦). برقم: (٤٠٤٩). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٤٣٥. وهو في السلسلة الصحيحة: ١٢٧/١ . برقم: (٨٧). مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ٥٢٠/٤ ، ٥٨٧. وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ". وقال الذهبي رحمه الله: "على شرط مسلم". وانظر: فتح الباري: ٥٠٧/١٤ .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساً جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا " (١).

قال الإمام النووي (رحمه الله) :

"هذا الحديث يبين أن المراد بقبض العلم في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفاظه ، ولكن معناه أنه يموت حملته ويتخذ الناس جهالاً يحكمون بجهالتهم فيضلّون ويضلّون " (٢).

ويريد النووي (رحمه الله) بالأحاديث المطلقة الأحاديث التي ورد فيها رفع العلم ، وانتشار الجهل . كحديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا" (٣).

(١) صحيح البخاري : بلفظ مقارب في كتاب العلم : (٣). باب كيف يقبض العلم: (٣٤). برقم: (١٠٠). ص: ٤٠ . وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: (٧١/٩٦). باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس : (٨/٧). برقم: (٧٣٠٧). ص: ١٥٣٦.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب العلم: (٤٧). باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان: (٥). برقم: (٢٦٧٣). ٢٠٥٨/٤ .

(٢) شرح النووي على مسلم: ٢٢٣/١٦-٢٢٤.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه — إلا إنه قال : إن من أشراط الساعة في كتاب العلم : (٣). باب رفع العلم وظهور الجهل: (٢١). برقم: (٨٠). ص: ٣٥ . و بلفظ مقارب : في الكتاب والباب السابقين برقم: (٨١). ص: ٣٥ . وفي كتاب النكاح: (٤١/٦٧). باب يقل الرجال ويكثر النساء: (١١١/١١٠). برقم: (٥٢٣١). ص: ١١٤٩ . وفي كتاب الأشربة: (٤٨/٧٤). باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠]: (١). برقم: (٥٥٧٧). ص: ١٢١٦-١٢١٧ . وفي كتاب الحدود: (٦١/٨٦). باب إثم الزنا: (٦/٢٠). برقم: (٦٨٠٨). ص: ١٤٣٨.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب العلم : (٤٧). باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان: (٥). برقم: (٢٦٧١). ٢٠٥٦/٤ .

وفي الرواية الأخرى "إنّ من أشراط السّاعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ..."^(١)
وفي حديث عبد الله وأبي موسى (رضي الله عنهما) قالوا: قال رسول الله ﷺ :
"إنّ بين يدي السّاعة أيّاماً يرفع فيها العلم ، وينزل فيها الجهل ، ويكثر فيها الهرج ،
والهرج القتل " ^(٢) .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"معناه أنّ العلم يرتفع بموت العلماء ، فكّلما مات عالم ينقص العلم بالنسبة إلى
فقد حامله ، وينشأ عن ذلك الجهل بما كان ذلك العالم ينفرد به عن بقية العلماء" ^(٣) .
فإذا قبض أهل العلم الصّادقون ، وحلّ مكانهم أدعياء العلم ذهب العلم ، وانتشر
الجهل .

ولا شك أنّ الفتنة بدعاة السّوء القائلين على الله وعلى رسوله ﷺ بغير علم
عظيمة جداً ، لما يحدث من إضلال للخلق ، وإيعاد عن الحقّ ، وانتشار الأقوال
والفتاوى الباطلة ، وما ينتج عن ذلك من تفرّق الأمتة ، وتشتّت شملها كما هو مشاهد
ممنّ نصبوا أنفسهم منظرين وزعماء ، واقتطع كلّ واحد منهم قطعة من المجتمع
يبثّ بينهم انحرافات وضلالاته ، فيستجيبون له وينصاعون لأمره ، بل ويدافعون
عنه ، ويبرّرون لأقواله وأفعاله . حتّى طفق الكيل ، وبلغ السيل الزبى ^(٤) ، وعانى
أهل الإسلام من أولئك أبلغ المعاناة .

(١) صحيح البخاري: بلفظه — إلّا أنّه قال : من أشراط السّاعة — في كتاب الحدود: (٦١/٨٦). باب إثم الزّنا:
(٦/٢٠). برقم: (٦٨٠٨). ص: ١٤٣٨.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب العلم : (٤٧). باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥).
برقم (٢٦٧١) . ٢٠٥٦/٤ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الفتن : (٦٧/٩٢). باب ظهور الفتن: (٥). برقم: (٧٠٦٢، ٧٠٦٣،
٧٠٦٤، ٧٠٦٥، ٧٠٦٦). ص : ١٤٩١ .

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب العلم : (٤٧). باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥).
برقم (٢٦٧٢) . ٢٠٥٦/٤ . وعبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) فتح الباري : ٥١٠/١٤ .

(٤) الزّبي : جمع زُبّة وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده . وأصلها الرّابية لا يعلوها الماء . فإذا بلغها السيل كان
جارفاً مجحفاً . يضرب لما جاوز الحد .

ولذا كان خوف النبي ﷺ منهم على الأمة عظيماً . فقال في حديث ثوبان رضي الله عنه : " وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين " (١) .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" علماء السوء جلسوا على باب الجنة ، يدعون إليها الناس بأقوالهم ، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم ، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا ، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم ، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له ، فهم في الصورة أدلاء ، وفي الحقيقة قطاع الطرق " (٢) .

مجمع الأمثال . لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد . طبعة دار المعرفة . بيروت : ٩١/١ . وانظر : كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري . تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش . طبعة دار الفكر . بيروت . الطبعة الثانية : ١٩٨٨م : ٢٢٠/١ . المستقصى في أمثال العرب . لأبي القاسم محمود بن عمر الزّحشري . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الثانية : ١٩٨٧م : ١٤/٢ .

(١) سبق تحريجه . انظر : ص : ٤٣ .

(٢) الفوائد لابن قيم الجوزية . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م : ص : ٦١ .

﴿المطلب الثاني﴾

ظهور الشرك

الشرك هو أن يتخذ نذ مع الله ، فيدعى أو يرجى أو يخاف منه أو يحب كمحبة الله ، أو يصرف له أي عبادة من العبادات ، أو يعطى حق التشريع (١) .
فمن فعل شيئاً من ذلك معتقداً لما فعل فقد وقع في الشرك .

والشرك أعظم ظلم وقع في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ
وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] .
لأنه صرف لحق الله لغيره . وحقه سبحانه العبادات ، ولا يجوز أن يصرف منها
شيء إلى سواه سبحانه .

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٢) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ
رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾
[الذاريات: ٥٦-٥٨] .

وقد سمى الله عز وجل الشرك فتنه كما سلف ذكره (٢) . وحذر من الوقوع
فيه ، لأنه يحبط جميع عمل العبد ، ولا تصلح معه طاعة . وفي ذلك يقول المولى
سبحانه : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣)
[الأنعام: ٨٨] . ويقول عز في علاه : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤) [الزمر: ٦٥] .
وحرّم سبحانه جنّته على كل من قدم إليه يوم القيامة مثلبساً به .

(١) انظر: الكواشف الجلية . ص: ٣٢٠-٣٢٢ .

(٢) انظر: ص: ١١-١٢ .

فقال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢] .

فالشرك أمره عظيم ، وخطره جسيم ، وشره عميم ، ومرتعته وخيم . فلا يفلح العبد ولا يسلم إلا باجتنابه ، والبعد عنه ، والحذر من ولوج بابه ، أو القرب من أسبابه .

ولكن رسول الله ﷺ أخبرنا! ويا أسفا على ما أخبرنا عنه . لقد أخبرنا أن هذه الأمة سوف تقع في الشرك ، بل وتتغمس فيه .

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: " لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليآت نساء دوس على ذي الخلصة ^(١) " . وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية ^(٢) .

(١) قال ياقوت الحموي (رحمه الله) : " ذو الخلصة : الخلصة مضاف إليها ذو بفتح أوله وثانيه ، ويروى بضم أوله وثانيه ، والأول أصح . والخلصة في اللغة نبت طيب الريح يتعلق بالشجر ، له حب كعنب الثعلب . وجمع الخلصة خلص . وهو بيت أصنام كان لدوس وخنثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بقبالة ، وهو صنم لهم . فأحرقه جرير بن عبد الله البجلي حين بعثه النبي ﷺ . وقيل : كان لعمر بن لحي بن قعدة ، نصبه أعني الصنم بأسفل مكة حين نصب الأصنام في مواضع شتى . فكانوا يلبسونه القلائد ، ويلقون عليه بيض التعام ، ويدبحون عنده . وكان معانهم في تسميتهم له بذلك أن عباده والطائفين به خلصة . وقيل : هو الكعبة اليمانية التي بناها أبرهة بن الصلاح الحميري ، وكان فيه صنم يدعى الخلصة فهدم . وقيل : كان ذو الخلصة يسمى الكعبة اليمانية ، والبيت الحرام الكعبة الشامية ... وقال أبو المنذر : " ومن أصنام العرب ذو الخلصة ، وكانت مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيفة التاج ، وكانت بقبالة بين مكة واليمن على مسير سبع ليال من مكة ، وكان سدنتها بني أمامة من باهلة بن أعصر ، وكانت تعظمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب ومن هوازن ... فلما فتح رسول الله ﷺ مكة ، وأسلمت العرب ، ووفدت عليه وفودها ، قدم عليه جرير بن عبد الله مسلماً . فقال له : " يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة ؟ " فقال : بلى . فوجهه إليه ، فخرج حتى أتى بني أحمس من بجيلة ، فسار بهم إليه ، فقاتلته خثعم ، وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم ، وظفر بهم وهزمهم ، وهدم بنيان ذي الخلصة ، وأضرم فيه النار فاحترق " . معجم البلدان: ٣٨٣/٢ - ٣٨٤ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن : (٦٧/٩٢) . باب تغير الزمان حتى يعبدوا الأوثان: (٢٤/٢٣) . برقم: (١١٦) . ص: ١٥٠٠ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب الفتن وأشراف الساعة: (٥٢) . باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة : (١٧) . برقم: (٢٩٠٦) . ٢٢٣٠/٤ .

والمراد أن الناس يرجعون إلى الجاهليّة وعبادة الأوثان ^(١). وعبر عن ذلك بطوّاف نساء دوس حول ذي الخلصة حتّى ترتج أعجازهن ^(٢).

وقد ورد ذلك صراحة في حديث ثوبان رضي الله عنه ، وفيه: "ولا تقوم الساعة حتّى تلحق قبائل من أمّتي بالمشرّكين ، وحتّى تعبد قبائل من أمّتي الأوثان" ^(٣).

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: " لا يذهب الليل والنهار حتّى تعبد اللات ^(٤) والعزى ^(٥) " فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظنّ حين أنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] أن ذلك تامّاً

(١) الوثن: هو الصنم الذي اتّخذ إلهاً من دون الله ولم يكن له جسم أو صورة .

انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥٦/٣ . لسان العرب: ٣٤٩/١٢ .

قال ابن الأثير (رحمه الله) :

"الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كلّ ماله جنة معمولة من جواهر الأرض ، أو من الحشّب والحجارة كصورة الآدمي ، تُعمل وتُنصب فتُعبد ، والصنم الصورة بلا جنة . ومنهم من لم يُفرّق بينهما وأطلقها على المعنيين . وقد يُطلق الوثن على غير الصورة " . النّهاية في غريب الحديث : ١٥١ / ٥ .

ويجمع على أوثان . والأوثان عند العرب كلّ تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضّة أو نحاس أو نحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها . لسان العرب: ١٣ / ٤٤٣ .

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم: ٣٣/١٨ . التذكرة: ص: ٧٢١ . عمدة القاري: ٢٤/٢١١ .

(٣) سبق . ص: ٤٣ .

(٤) اللات : اسم صنم كانت تعبده ثقيف . وقيل اسم صخرة كان يجلس عليها رجل يلت السويق للحاج . فلمّا مات بنوا على تلك الصخرة بيتاً وعبدوه . فبعث النبي صلى الله عليه وآله أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة (رضي الله عنهما) فهدماه . وهي التي جاء ذكرها في القرآن . انظر: معجم البلدان : ٤/٥ .

(٥) العزى: قال ياقوت الحموي (رحمه الله) :

"العزى بضمّ أوله ... صنم كان لثقيف . والعزى سمرة كانت لغطفان يعبدونها ، وكانوا بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدة . فبعث النبي صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد إليها فهدم البيت ، وأحرق السمرة . والعزى تأنيث الأعز . مثل الكبرى تأنيث الأكبر . والأعز بمعنى العزيز ، والعزى بمعنى العزيزة . وقال ابن حبيب : العزى شجرة كانت بنحلة عندها وثن تعبد غطفان ، وسدنتها من بني صرمة بن مرة... وكانت العرب وقريش تسمي بها عبد العزى . وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ، ويتقربون عندها بالذبائح " .

المرجع السابق : ٤ / ١١٦

قال: "إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فتوفي كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم " (١) .

ولا يعني حديث عائشة (رضي الله عنها) أن الشّرك لا يقع في الأمّة إلا بعد الريح التي تقبض أرواح المؤمنين . وإنما يعني الحديث استحكام ذلك وغلبته في الأمّة . وهو ما جاء مبيّناً في حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) وفيه: " ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشّام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته . حتّى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتّى تقبضه " قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: "فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع . لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً . فيتمتّل لهم الشيطان فيقول: " ألا تستجيبيون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارٌ رزقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ في الصّور (٢) ... " (٣) الحديث .

ويؤيّد حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : " لا تقوم الساعة حتّى لا يقال في الأرض: الله الله " (٤) .

وفي الرواية الأخرى: " لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله، الله " (٥) .

(١) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط الساعة: (٥٢). باب لا تقوم الساعة حتّى تعبد دوس ذا الخلصة (١٧) . برقم (٢٩٠٧) . ٢٢٣٠/٤ .

(٢) الصّور : هو القرن الذي ينفخ فيه ملك الموت (عليه السّلام) عند بعث الموتى إلى الحشر . وقال بعضهم : إنّ الصّور جمع صوارة ، يُريد صوَر الموتى ينفخ فيها الأرواح . والصّحيح الأوّل ، لأنّ الأحاديث تعاضدت عليه ، تارة بالصّور ، وتارة بالقرن . النّهاية في غريب الحديث: ٦٠ / ٣ . بتصرّف يسير .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط الساعة: (٥٢) . باب في خروج الدّجال (٢٣) . برقم: (٢٩٤٠) . ٢٢٥٨-٢٢٥٩/٤ .

(٤) المرجع السّابق : بلفظه في كتاب الإيمان: (١) . باب ذهاب الإيمان آخر الزّمان : (٦٦) . برقم (١٤٨) . ١٣١/١ .

(٥) المرجع السّابق . بلفظه في الكتاب والباب السّابقين . وبالرقم والصّفحة السّابقة .

وفي رواية : " لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض لا إله إلا الله " (١) .
وهذا عند فساد الزمان ، واستعلاء الكفر وكثرته ، وبقاء الأشرار واستشراء
الفسق والمعاصي (٢) .

ومظاهر الشرك في الأمة جليلة بيّنة لا لبس فيها ولا غموض . فكم من مشهد
بني على قبر وقصد للدعاء والتعظيم والتبرك والنذر . وكم من وثن طيف به كما
يطاف ببيت الله ، وقدمت له القرابين ، وأقيمت له الأعياد .

وكم من شخص عظم وقّس ، وخلع عليه لباس الولاية حقاً كان أم باطلاً ،
ودعي في الشدائد لكشف الملمات وقضاء الحاجات . وكم من طاغوت (٣) أنصب نفسه
نداً لله تعالى ، وشرع من الدين ما لم يأذن به الله ، وأصدر من الأحكام والقوانين ما
يضاهاه به شريعة الله سبحانه ، وألزم الناس بالتحاكم إليها . كما قال تعالى :
﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١] .

(١) مسند أحمد: بلفظه في : ٢٦٨/٣ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: ولفظه: " لا تقوم الساعة على أحد يقول: لا إله إلا الله". في باب ذكر
الإخبار عن وصف الناس الذين يكون قيام الساعة على رؤوسهم . برقم: (٦٨٤٨) . قال شعيب الأرناؤوط:
"إسناده صحيح" . ٢٦٢/١٥ .

مستدرک الحاكم: بلفظه في ٥٤٠/٤ . وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه".
و بلفظ مقارب في نفس الصفحة. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه".

(٢) انظر: النهاية في الملاحم والفتن: ٢٤١/١ .

(٣) طاغوت: هو ما عبد من دون الله عز وجل ، وكل رأس في الضلال طاغوت . وقيل : الطاغوت الأصنام ، وقيل:
الشيطان ، وقيل : الكهنة ، وقيل : مرده أهل الكتاب . لسان العرب: ٤٤٤/٨ .
وقال الراغب (رحمه الله) :

"الطاغوت عبارة عن كل متعدّ ، وكلّ معبود من دون الله . ويستعمل في الواحد والجمع " .

المفردات : ص : ٣٠٤-٣٠٥ .

وقال سبحانه: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّوهُ إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب: فقال : " يا عدي اطرح عنك هذا الوثن ". وسمعه يقرأ في سورة براءة ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ . قال : " أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أكلوا لهم شيئاً استحلّوه ، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه " (١).

فالأمّة فتنّت في أعزّ ما تملك ، وهي العقيدة الصّافيّة الصّحيحة التي سادت بها أمم الضلال والكفر من قبل ، ونالت بها العزّة والنصر والتمكين في الأرض كما قال سبحانه: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

ولكنّها لما تنكّبت الطّريق ، واختلت العقيدة في القلوب ، وبسط الشّرك أطنابه في بلدان المسلمين — إلّا ما قلّ وندر — ارتبك أمر الأمّة ، وانهار كيانه ، فأصبحت مهضومة الحقوق ، مكسورة الجناح ، مضعضة الأوصال . ولا سعادة لها ولا فلاح إلّا بتصحيح المعتقد ، وإقامة الأساس ، الذي هو توحيد الله تعالى ، ومحق الشّرك ، وإزالة مظاهره من الوجود .

(١) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب تفسير القرآن: (٤٣). باب ومن سورة التوبة: (٩). برقم : (٣٠٩٥). قال

الألباني رحمه الله: " حسن ". ص: ٤٩٢.

سنن البيهقي الكبرى: نحوه برقم: (٢٠١٣٧)، (٢٠١٣٨). ١٠/١١٦.

معجم الطبراني الكبير: نحوه برقم: (٢١٨). ١٧/٩٢.

﴿ المطلب الثالث ﴾

انتشار الزنا

إن الله تعالى حرّم الزّنا ، ونهى عباده عنه وعن قربه والدّنوّ منه وعن أسبابه . فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الزّنا سيفشو في هذه الأمّة ، وأن فشوه من أشراط الساعة وعلاماتها .

عن أنس بن مالك ؓ قال: ألاّ أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم أحد بعدي سمعه منه : " إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويفشو الزّنا ، ويشرب الخمر ، ويذهب الرّجال ، ويبقى النّساء حتّى يكون لخمسين امرأة قيّم واحد " (١) .

ولا يقف الأمر عند فشو الزّنا وانتشاره ، بل يتعدّى ذلك إلى استحلاله .
فعن أبي مالك ؓ (٢) أن النبي ﷺ قال: " لَيَكُونَنَّ من أمّتي أقوام يستحلّون الحرّ (٣) والحرير والخمر والمعازف (٤) " (٥) .

وأما في آخر الزّمان ، وبعد ذهاب الخيرين وبقاء الأشرار ، فإنّ الزّنا يصبح علناً مشاعاً يفعل أمام أعين النّاس من غير خفاء ولا تستر .

(١) سبق: ص: ١٣٥ . وقيّم المرأة هو الذي يقوم بأمرها وما تحتاج إليه . انظر : النّهاية في غريب الحديث: ١٣٥/٤ .

(٢) هو أبو مالك الأشعري الصّحابي ، مشهور بكنيته مختلف في اسمه . قيل : اسمه عمرو بن عاصم .: وقيل كعب بن عاصم . وقيل عبيد . وانظر: الإصابة : ٤/٦٥٤ ، ٥/٥٩٧ ، ٧/٣٥٦ . فتح الباري: ١٠/٥٥ . طبعة دار المعرفة .

(٣) الحرّ: هو الفرج . وذلك كناية عن الزّنا . وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ١/٣٦٦ .

(٤) المعازف: هي الملاهي كالعود والطّنّور ، واحدها معزف ومعزفة . وانظر: لسان العرب: ٩/٢٤٤ . القاموس المحيط: ص: ١٠٨٢ .

(٥) صحيح البخاري: بلفظه — وهو جزء من حديث — في كتاب الأشربة: (٤٨/٧٤) . باب ما جاء فيمن يستحلّ

الخمر ويسمّيه بغير اسمه : (٦) . برقم: (٥٥٩٠) . ص: ١٢١٨-١٢١٩ .

عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه — فذكر الحديث — وفيه قال رضي الله عنه : "ويبقى شرار الناس ، يَنْهَارُ جُونٌ^(١) فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة"^(٢) .

قال الإمام النووي (رحمه الله):

"أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير ، ولا يكثرثون لذلك"^(٣) .

ويؤيد ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ : " لا تقوم الساعة حتَّى تتسافدوا^(٤) في الطريق تسافد الحمير " . قلت: إن ذاك لكائن؟ قال: " نعم ليكوننَّ "^(٥) .

وهذا إما يكون عند تردّي الإنسانية إلى الحضيض ، وغياب من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانتشار الفواحش ، ورضا الناس بذلك .
فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتَّى يقوم الرجل إلى المرأة ، فيفترشها في الطريق ، فيكون خيارهم يومئذ من يقول: لو واريثها وراء هذا الحائط "^(٦) .

وإن كان الأمة الإسلامية لم تصل الآن إلى هذا المستوى من التردّي والانحراف الذي أشار إليه النبي ﷺ إلا أن الزّنا يمارس في المجتمعات الإسلامية

(١) يتهارجون : أي يتجامعون ، يقال : بات فلان يهرجها إذا بات بجامعها . والهرج في غير هذا الاختلاط والقتل .

انظر: غريب الحديث للهروي : ٧٧/٤ . وانظر النّهاية في غريب الحديث : ٢٥٦/٥ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه — وهو جزء من حديث طويل — في كتاب الفتن وأشراف السّاعة : (٥٢) . باب ذكر الدّجال وصفته وما معه : (٢٠) برقم (٢٩٣٧) . ٢٢٥٥/٤ .

(٣) شرح النووي على مسلم: ٧٠/١٨ .

(٤) تتسافدوا : السّفاد هو نزو الذّكر على الأنثى . لسان العرب: ٢١٨/٣ . وانظر القاموس المحيط: ص: ٣٦٩ .

(٥) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظه في : باب ذكر الإخبار عن ظهور الزّنا ، وكثرة الجهر به في آخر الزّمان . برقم : (٦٧٦٧) . قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح" . ١٧٠/١٥ .

(٦) مسند أبي يعلى : بلفظه برقم : (٦١٨٣) . قال المحقّق حسين أسد: "إسناده قوي" . ٤٣/١١ . وقال الهيثمي "رجاله رجال الصّحيح" . مجمع الزوائد: ٣٣١/٧ .

وقد أخبرني الشّيخ سيّد سابق (رحمه الله) أنّ ذلك وقع فعلاً في بعض دول أوروبا . أعادنا الله .

في جنح الخفاء ، وقد يكثر في بعضها دون البعض الآخر ، وهذا أمر لا يخفى على عاقل .

وخطر الزنا لا يقف عند حدّ فاعله بل يتعداه إلى غيره ، وذلك بإحداثه كثيراً من المفساد والشرور التي تؤدي إلى الفتك بالأمّة وتدهورها . كتفكك الأسر ، وتدني الأخلاق بانتشار الرذيلة ، واختلاط الأنساب ، ووجود أفراد في المجتمع لم ينشئوا تحت مظلة أسرة واقية وكنف أب راعي ممّا يجعلهم وبالاً على ذلك المجتمع . أضف إلى ذلك انتشار الأوبئة الفتاكة التي تتخر في عظام الأمّة فتعطّل سيرها ، وتضعف قوتها ، وتحدث من الهلع والخوف في النفوس الشيء الكثير . وما الإيدز (١) الذي أصبح مصدر ذعر للعالم اليوم إلا نتيجة ممّا أفرزته فاحشة الزنا .

وقد صدق رسول الله ﷺ عندما قال في حديث عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) : " يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ ، وأعوذ بالله أن تدرّكوهنّ : لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتّى يُعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الطّاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ... " الحديث (٢) .
والفاحشة هي الزنا .

(١) الإيدز: هو نقص المناعة في الجسم ممّا يعرضه للأمراض .

(٢) سنن ابن ماجة : بلفظه في : كتاب الفتن: (٣٦) . باب العقوبات: (٢٢) . برقم : (٤٠١٩) . قال الألباني رحمه الله: " حسن " ص: ٤٣٢ . وهو في السلسلة الصحيحة : ١٦٧/١ . برقم : (١٠٦) .
وتمام الحديث: " ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاّ أخذوا بالسّنين — أي الجذب والفحط — وشدة المفونة ، وحوار السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلاّ منعوا القطر من السماء ولو لا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلاّ سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكّم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا — أي يطلبوا الخير — ممّا أنزل الله إلاّ جعل الله بأسهم بينهم " .

﴿المطلب الرابع﴾

توسيد الأمر إلى غير أهله

من الفتن الشائكة التي حلت بأهل الإسلام تولّى أمر الناس ردّالتهم وسفهاهم وأسافلهم ، واستنثارهم بمواطن القيادة والمسئولية في الأمة ، دون أهل الصّلاح والتّقوى . حيث أصبح أولئك قادة النّاس وسادتهم ، فتربّعوا على عروش مصّالح العباد . وأقصي أهل الخير والإيمان وأبعدوا ، فأصبحوا لا حول لهم ولا قوّة . وهذا أمر حذرّ منه رسول الله ﷺ ، وحذرّ من مغبّته وخطره على أمة الإسلام .

عن أبي هريرة ؓ قال: بينما النّبي ﷺ في مجلس يحدث القوم ، جاءه أعرابي فقال: متى السّاعة ؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث ، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال . وقال بعضهم: بل لم يسمع . حتّى إذا قضى حديثه قال: أيّن أراه السّائل عن السّاعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله . قال: "فإذا ضيّعت الأمانة فانتظر السّاعة" قال: كيف إضاعتها؟ قال: "إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر السّاعة" (١) .

قال العيني (رحمه الله):

"قوله : " إذا وسّد الأمر " : المراد به جنس الأمور التي تتعلّق بالدين ، كالخلافة والقضاء والإفتاء ونحو ذلك ، ويقال : أي بولاية غير أهل الدين والأمانات ومن يعينهم على الظلم والفجور . وعند ذلك تكون الأئمة قد ضيّعوا الأمانة التي فرض الله عليهم . حتّى يؤتمن الخائن ويخون الأمين . وهذا إنّما يكون إذا غلب الجهل ، وضعف أهل الحقّ عن القيام به " (٢) .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب العلم : (٣). باب من سئل علماً وهو مشغول في حديثه فأتمّ الحديث ثمّ أحلب السّائل: (٢). برقم: (٥٩). ص: ٢٨. ونحوه في كتاب الرّقاق: (٥٥/٨١). باب رفع الأمانة: (٣٥). برقم: (٦٤٩٦). ص: ١٣٨١.

(٢) عمدة القاري : ٧/٢ . وانظر: التذكرة: ص: ٧٢٧ . جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم . لزين الدّين بن رجب الحنبلي . طبعة دار المعرفة . بيروت الطبعة الأولى : ١٤٠٨ : ص : ٤١ .

فالَّذي يتولَّى أمر النَّاس ومصالحهم في دينهم ومعاشهم يجب أن يكون أميناً مؤتمناً على ما كلف به ، ناصحاً للأمة ، صادقاً في وقوله وفعله ، بعيداً عن الخيانة والظلم والأثرة . وهذا لا يتأتَّى إلا لأهل الإيمان والتقوى ، القائمين بحدود الله ، الملتزمين بأمره ، المجتنبين لنهيه . وهم الَّذِينَ يجب على الأمة أن تسلّم لهم قيادها ، وتوليهم شئونها . لأنَّ حياة البشر لا تصلح ، ولا تقوم لها قائمة إلا إذا تقلّد المناصب فيها أهل الكفاءة من أصحاب الصّلاح ، الَّذِينَ يستشعرون همّ المسؤولية في نفوسهم قبل غيرهم .

وذلك ما كان عليه أمر الأمة من قبل ، حيث كان بيدي أهل الخير والصّلاح فكانت الأمة تتبوأ مركز الصّدارة بين الأمم وقتها ، رفيعة المنزلة ، عزيزة الجانب ، يسودها العدل ، ويكتنف جوانبها الأمن ، لا ظلم ولا خيانة ، لا كذب ولا خداع ، يجد كلّ صاحب حقّ حقّه ، ويردع كلّ صاحب باطل عن باطله .

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: " حدّثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدّثنا " أن الأمانة نزلت في جذر ^(١) قلوب الرّجال ، ثمّ نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السّنة " . ثمّ حدّثنا عن رفع الأمانة . قال : " ينام الرّجل النّومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل الوكّت . ^(٢) ثمّ ينام النّومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل المجلّ . ^(٣) كجمر دحرجته على رجلك فنفط ^(٤) ، فتراه مُنبَترًا ^(٥) وليس فيه شيء .

(١) جذر: الجذر هو الأصل من كلّ شيء . انظر: غريب الحديث للهرودي: ١١٧/٤ . الفائق: ٢٠٠/١ .

(٢) الوكّت: هو أثر يسير في الشّيء من غير لونه . انظر: غريب الحديث للهرودي: ١١٨/٤ . الفائق: ٢٠٠/١ . النّهاية

في غريب الحديث: ٢١٧/٥ .

(٣) المجلّ: هو أثر العمل في الكفّ ، يعالج بها الإنسان الشّيء حتّى يغلظ جلدها . غريب الحديث للهرودي: ١١٩/٤ .

انظر: الفائق: ٢٠١/١ . النّهاية في غريب الحديث: ٣٠٠/٤ .

(٤) نفط: أي انتفخ وارتفع الجلد عن اللّحم فكان بينهما ماء من أثر العمل . وانظر: لسان العرب: ٤١٦/٧-٤١٧ .

(٥) مُنبَترًا: أي متنفّخاً مرتفعاً وليس فيه شيء . انظر: غريب الحديث للهرودي: ١١٩/٤ . الفائق: ٢٠١/١ . النّهاية

في غريب الحديث: ٧-٦/٥ .

(ثُمَّ أَخَذَ حَصَى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ) . فَيَصْبِحُ النَّاسُ يَتْبَاعِيْعُونَ ، لَا يَكَادُ أَحَدٌ يُوَدِّي الْأَمَانَةَ . حَتَّى يَقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا . حَتَّى يَقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ ، مَا أَظْرَفَهُ ، مَا أَعْقَلَهُ ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مَثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ" . وَلَقَدْ أَتَى عَلِيٌّ زَمَانًا وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْت . لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا لِيَرُدَّنَّ عَلَيَّ دِينَهُ ، وَلَئِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لِيَرُدَّنَّ عَلَيَّ سَاعِيَهُ^(١) . وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ لِأُبَايِعَ مِنْكُمْ إِلَّا فَلَانًا وَفَلَانًا " (٢) .

فَقَدْ بَيَّنَّ حَذِيفَةَ ﷺ أَنَّ الْأُمَّةَ كَانَتْ بَخِيرَ ، وَأَنَّ التَّقَى كَانَتْ مُتَوَفَّرَةً ، وَالْأَمَانَةُ قَائِمَةً ، وَالْعُهُودُ مُصَانَةً ، لِأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ هُمَا الْحُكْمَانِ عَلَى الْعِبَادِ حِينَهَا . وَلَكِنْ بَدَأَ الْوَهْنُ يَدْبُ إِلَى النَّفُوسِ ، وَالتَّقَلُّتُ عَنْ حُكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَخَالِطُ الْقُلُوبَ ، وَالْحَالُ يَتَغَيَّرُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِمَّا دَفَعَ حَذِيفَةَ ﷺ أَنْ يَقِفَ مَوْقِفَ الْحَيْطَةِ وَالْحَذَرِ ، وَلَا يَقْدُمُ إِلَّا عَلَى مُعَامَلَةٍ مِنْ يَعْرِفُ حَالَهُ (٣) .

إِذَا كَانَ هَذَا فِي عَهْدِ حَذِيفَةَ ﷺ فَكَيْفَ بَنَّا الْيَوْمَ؟ لَا شَكَّ إِنَّنَا فِي بَعْدِ سَاحِقٍ ، وَبِئْسَ شَاسِعٌ عَنِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَتَّسِمُ بِهَا الْأَخْيَارُ الَّذِينَ يَقُودُونَ الْأُمَّةَ ، وَيَسِيرُونَ أَمْرَهَا بِأَفْضَلِ الطَّرِيقِ وَأَمْثَلِ الْوَجُوهِ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ . ﴿وَقَلِيلٌ مِمَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] .

(١) قَالَ الْمَهْرُوي (رَحِمَهُ اللَّهُ) :

" وَقَوْلُهُ: لِيَرُدَّنَّ عَلَيَّ سَاعِيَهُ — يَعْنِي الْوَالِي الَّذِي عَلَيْهِ ، يَقُولُ: يُنْصَفُنِي مِنْهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِسْلَامٌ ، وَكُلٌّ مِنْ وَلِيٍّ شَيْئًا عَلَى قَوْمٍ فَهُوَ سَاعٍ عَلَيْهِمْ ، وَأَكْثَرُ مَا يَقَالُ ذَلِكَ فِي وَلَاةِ الصَّدَقَةِ " . غَرِيبُ الْحَدِيثِ لِلْمَهْرُوي: ١٢٠ / ٤ .

(٢) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ : بَلْفِظَ مُقَارِبٌ فِي كِتَابِ الرَّفَاقِ: (٥٥/٨١) . بَابُ رَفْعِ الْأَمَانَةِ: (٣٥) . بِرَقْمٍ: (٦٤٩٧) . ص: ١٣٨١-١٣٨٢ . وَفِي كِتَابِ الْفَتَنِ: (٦٧/٩٢) . بَابُ إِذَا بَقِيَ فِي حَثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ: (١٣) . بِرَقْمٍ: (٧٠٨٦) . ص: ١٤٩٥ .

صَحِيحُ مُسْلِمٍ: بَلْفِظَهُ فِي كِتَابِ الْإِيْمَانِ: (١) . بَابُ رَفْعِ الْأَمَانَةِ وَالْإِيْمَانِ مِنْ بَعْضِ الْقُلُوبِ ، وَعَرْضُ الْفِتَنِ عَلَى الْقُلُوبِ: (٦٤) . بِرَقْمٍ (١٤٣) . ١٢٦/١-١٢٧ .

(٣) وَانْظُرْ: شَرْحُ التَّوْوِيِّ عَلَى مُسْلِمٍ: ١٧٠/٢ .

وقوله ﷺ: " حَتَّى يَقَالَ لِلرَّجُلِ : مَا أَجْلَدَهُ ، مَا أَظْرَفُهُ " . أشار إليه بكثرة العقل والظرافة والجلادة ، وقد خلا قلبه من الإيمان ^(١) .

إنَّها مقاييس ومظاهر دنيوية لا تكفل لصاحبها تولى أمور النَّاس . ولكنَّها في الحقيقة أصبحت هي السَّمات التي ينطلق منها في اختيار أرباب المناصب ، وأصحاب المسئوليات .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "سيأتي على النَّاس سنوات خداعات يُصَدِّقُ فيها الكاذب ، وَيُكَذِّبُ فيها الصَّادِق . وَيُؤْتَمَنُ فيها الخائن ويخون فيها الأمين ، وينطق فيها الرُّويِّبُضَةُ ^(٢) " . قيل : وما الرُّويِّبُضَةُ ؟ قال: " الرَّجُل النَّافِه ^(٣) في أمر العامَّة " ^(٤) .

والذي يلقي بنظرة فاحصة في عالم اليوم يجد أن هذه الأوصاف تنطبق تماماً فيه ، فالكذب عمَّ البلاء به ، والخيانة طمَّت وعمَّت ، وأصبح أهل الكفر والفجور هم الذين يتصدَّرون القافلة ، ويملكون من الوسائل المرئية والمسموعة والمقروءة ما يشيعون به الكذب ، ويصدِّرونه إلى أنحاء العالم المختلفة ، فيتلقَّف السَّدج ذلك الكذب

(١) وانظر: تحفة الأحوذى : ٣٣٨/٦-٣٣٩ . وانظر: أشراف السَّاعة . ليوسف بن عبد الله الوابل . دار طيبة . نشر

مكتبة ابن الجوزي . الدِّمام . الطَّبعة الأولى: ١٤٠٩-١٩٨٩ م . ص: ١٤٠ .

(٢) الرُّويِّبُضَةُ: تصغير رابضة ، وهو العاجز الذي ربح عن معالي الأمور ، وحُثِم عن طلبها . وزيادة التَّاء للمبالغة . الفائق: ٢٧/٢ .

(٣) النَّافِه : هو الخسيس الحَقِير الحامل من النَّاس . انظر: غريب الحديث للهروي: ١٥٣/٣ . الفائق: ٢٧/٢ . النَّهاية في غريب الحديث: ١٩٢/١ .

(٤) سنن ابن ماجه: بلفظه في : كتاب الفتن: (٣٦) . باب شدَّة الزَّمان: (٢٤) . برقم (٤٠٣٦) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٤٣٤ . وهو في السَّلسلة الصَّحيحة: ٥٠٨/٤ . برقم: (١٨٨٧) .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ٢٩١/٢ . قال الشَّيخ أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده حسن ومثنه صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣٧/١٥-٣٨ . برقم: (٧٨٩٩) .

وفي: ٣٣٨/٢ . قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٩٤/١٦ . برقم: (٨٤٤٠) . عن أنس رضي الله عنه . في: ٢٢٠/٣ .

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في : ٥٥٧،٥١٢/٤ . وقال: " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . وقال الذهبي رحمه الله: " صحيح " .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب برقم: (٣٧١٥) . عن أنس رضي الله عنه . قال المحقق: " رجاله ثقات " . ٣٧٨/٦ .

فيصدقونه، ويروجونه . بل ويرتمون في أحضان أولئك الكفرة بزعم أنهم أهل الصدق والأمانة ، وأهل العدل والإنصاف ، الذين يحلّون مشاكل الأمة ، ويعيدون لها ما سلب من حقوق .

وقد تكلم في شئون العالم التافهون من الرجال ، الذين يوشكون بقيادتهم له أن يدمروا جميع البشرية (١) .

عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع (٢) بن لكع " (٣) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تنقضي الدنيا حتى تكون عند لكع بن لكع " (٤) .

(١) انظر: اليوم الآخر (١) ص: ١٩٣ .

(٢) لكع: هو السافل من الناس أو اللئيم . وقد يطلق على الصغير . وانظر: غريب الحديث للهروي: ١٥٤/٣ . غريب الحديث للخطابي: ١٠٣/٣ . الفائق: ٣٢٩/٣ .

قال ابن الأثير: " اللكع عند العرب العبد ، ثم استعمل في الحمق والذم . يقال للرجل لكع . وللمرأة لكاع " . النهاية في غريب الحديث: ٢٦٨/٤ .

(٣) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب الفتن: (٣٠) . باب : (٣٧) . برقم: (٢٢٠٩) . وقال: " هذا حديث حسن غريب " . وقال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٣٦٦ . وهو في صحيح الجامع: برقم: (٧٤٣١) . ١٢٣٨/٢ .

مسند أحمد: بلفظه في : ٣٨٩/٥ .

(٤) المرجع السابق: بلفظ مقارب في: ٣٢٦/٢ ، ٣٥٨ . عن أبي هريرة رضي الله عنه . وفي: ٤٦٦/٣ . عن ابن نيار رضي الله عنه . وفي: ٤٣٠/٥ . عن بعض الصحابة .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظه في : باب ذكر الإخبار بأن الدنيا يملكها من لاحظ له في الآخرة . برقم: (٦٧٢١) . قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده صحيح " . ١١٦/١٥ . وانظر: مجمع الزوائد : ١٤٠٧ هـ : ٣٢٥/٧ .

المبحث الرابع

فتنة الدجال

هنالك علامات وأحداث تقع في هذا الكون تدلّ على قرب قيام الساعة . منها علامات صغرى قد تناولت بعضها فيما سبق . ومنها علامات كبرى وهي التي ورد ذكرها في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: اطّلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: "ما تذاكرون" قالوا: نذكر الساعة . قال: "إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات: فذكر الدخان ^(١) والدجال ، والدابة ^(٢)،

(١) الدخان: هو الذي ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾ يعشى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ [الدخان: ١٠، ١١] . وهل وقع الدخان أم هو آية مرتقة؟ قولان لأهل العلم .

قال النووي (رحمه الله):

" هذا الحديث يؤيد قول من قال إنّ الدخان دخان يأخذ بأنفاس الكفار ، يأخذ المؤمن منه كهية الزكام ، وأنه لم يأت بعد ، وإنما يكون قريباً من قيام الساعة . وقد سبق في كتاب بدء الخلق قول من قال هذا ، وإنكار ابن مسعود عليه . وأنه قال: إنّما هو عبارة عما نال قريشاً من القحط حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهية الدخان . وقد وافق ابن مسعود جماعة ، وقال بالقول الآخر حذيفة وابن عمر والحسن . ورواه حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً . ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار " . شرح النووي على مسلم ٢٧/١٨ . وانظر: التذكرة للقرطبي: ص: ٧٤١ .

وقد رجّح ابن كثير (رحمه الله) أنه من الآيات المنتظرة الدالة على قرب قيام الساعة . وأيد ذلك بظاهر القرآن ، وأحاديث مرفوعة ، وآثار من الصحابة . انظر تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢١١-٢١٣ . وانظر النهاية في الفتن: ١ / ٢٢٤ . اليوم الآخر: ص: ٢٢١-٢٢٣ . أشراف الساعة: ص: ٢٩٩-٣٠٤ .

(٢) الدابة: هي التي ورد ذكرها في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، طلوع الشمس من مفرها ، والدجال ودابة الأرض " . صحيح مسلم: كتاب الإيمان: (١) باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (٧٢) برقم: (١٥٨) ١٣٨/١ .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم ، ثم يغمرون — أي يكتفون — فيكم حتى يشتري الرجل البعير فيقول ممن اشتريته ؟ فيقول : من أحد المخطمين " . مسند أحمد ٢٦٨/٥ . مجمع الزوائد: ٦/٨ . وقال: "رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح غير عمر بن عبد الرحمن بن عطية

وطلوع الشمس من مغربها ^(١) ، ونزول عيسى ابن مريم ^(٢) ،

وهو ثقة". وهو في السلسلة الصحيحة : ٥٧٦/١ . برقم: (٣٢٢) . صحيح الجامع : برقم: (٢٩٢٧) . ٥٦٤/١ .

وهذه الدآبة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق . قيل : تخرج من مكة . وقيل : من غيرها . فتكلم الناس أي تخاطبهم مخاطبة ، تقول : ﴿ أَنْ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ . تفسير القرآن العظيم: ٥٩٨/٣ .

(١) طلوع الشمس من مغربها : هو الذي ورد ذكره في قول الله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] .

بذلك فسرها رسول الله ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون ، فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً " .

صحيح مسلم: كتاب الإيمان: (١) . باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان: (٧٢) . برقم: (١٥٧) . ١٣٧/١ .

فمن كان مؤمناً مصلحاً في عمله قبل طلوع الشمس من مغربها نفعه إيمانه ، وأمّا من كان كافراً فأنشأ إيماناً ، أو عاصياً فأحدث توبة لا يقبل منه لأن تلك العلامة من أكبر أشراط الساعة الدالة على اقترابها ودنوها ، فعومل ذلك الوقت معاملة يوم القيامة .

انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣١٣/٢ . النهاية في الفتن: ٢٢٢/١ .

(٢) لقد بين الله سبحانه أن عيسى (عليه السلام) رفع من الأرض إلى السماء ، وأن اليهود — عليهم لعائن الله — لم يقتلوه ولم يصلبوه كما اعتقد ذلك النصارى ، وأنه رفع بروحه وجسده ، وهو حي عند الله تعالى .

فقال سبحانه: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنَّ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٣٤﴾ [النساء: ١٥٨، ١٥٧] .

وسوف يترى بمشيئة الله في آخر الزمان دلالة وعلامة على قرب قيام الساعة . كما قال سبحانه ﴿ وَإِنَّهُ

لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا ﴾ [الزخرف: ٦١] .

ويأجوج ومأجوج^(١) ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب .

وحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كما قال سبحانه: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝ ﴾ [النساء: ١٥٩] .

ويترل حاكماً بشريعة محمد ﷺ لا ناسخاً لها ، ولا يترل برسالة مستقلة . فيكسر الصليب إبطالاً لما يزعمه التصاري من تعظيمه ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية فلا يقبل من الكفار إلا الإسلام ، ويقتل الدجال . ويفيض المال ويكثر ، وتترل البركات والخيرات بسبب العدل وعدم التظالم .

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ : "والذي نفسي بيده ليوشكن أن يترل فيكم ابن مريم ؑ حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد".

صحيح البخاري: بلفظ مقارب. في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠). باب نزول عيسى ابن مريم (عليهما السلام): (٥٠/٤٩) ص: ٧٣١. صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا ﷺ: (٧١). برقم: (١٥٥): ١٣٥/١.

وانظر في نزول عيسى (عليه السلام):

تأويل مختلف الحديث . لابن قتيبة . تصحيح محمد زهدي التجار . الناشر مكتبة الكليات الأزهرية : ١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م ميدان الأزهر. ص : ١٨٨ . شرح الثووي على مسلم: ١٩٠/٢-١٩١. التذكرة: ص: ٧٦٣-٧٦٤. الجامع لأحكام القرآن: ١٠/٦-١١. النهاية في الفتن: ١٨٣/١، ١٩٣/١. تفسير القرآن العظيم: ٨٧٢/١-٨٨٩. القناعة فيما يحسن الإحاطة به من أشرط الساعة . لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي. تحقيق: مجدي السيد إبراهيم . مكتبة القرآن . القاهرة . ص: ٢٨. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضئية في عقيدة الفرق المرضية . لمحمد بن أحمد السفاريني . نشر مكتبة أسامة . الرياض . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت: ٩٤/٢-٩٥. موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية للباحث . طبعة مكتبة الرشد . الرياض . الطبعة الأولى : ١٤١٨هـ — ١٩٩٨م : ٢٣٠-٢١٤/٢.

(١) إن يأجوج ومأجوج أمتان كثيرتا العدد من ذرية آدم ، كانوا يخرجون على بلاد الترك فيعيثون فيها فساداً ، ويهلكون الحرث والتسل . فلما بلغ ذو القرنين تلك البلاد طلب أهلها منه أن يبني بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً ففعل . وقد جاء خبر ذلك السد في الآيات: ٩٣-٩٩ من سورة الكهف .

كما بين النبي ﷺ في حديث زينب بنت جحش أنه قد فتح في عهده من ذلك السد حلقة صغيرة (انظر الحديث: ص : ٣٠) ولكنهم لا يتمكنون من الخروج حتى يأذن الله لهم به في آخر الزمان قرب قيام الساعة فيندك السد ويخرجون في عدد هائل لا طاقة لأهل الأرض بهم ، فيعيثون في الأرض فساداً .

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْتَرَبَ أَلْوَعْدُ الْحَقِّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوَلَّوْنَآ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

وفي حديث التماس بن سمعان رضي الله عنه قال عليه السلام: "إذ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بمقاتلهم فحرّز عبادي إلى الطور . ويعت الله يأجوج ومأجوج وهم من كلّ حدب ينسلون ، فيمرّ أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها . ويمرّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء . ويحصد نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم . فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه . فيرسل الله عليهم الغف — دود يكون في أنوف الإبل والغنم — في رقاهم فيصبحون فرسى — قتلى — كموت نفس واحدة " الحديث : سبق تخريجه انظر: ص : ١٤٥ .

انظر في شأن يأجوج ومأجوج :

الجامع لأحكام القرآن : ١١ / ٥٥-٦٥ . تفسير القرآن العظيم : ٣ / ١٦٨-١٧٢ ، ٣١١-٣١٥ . النهاية في الفتن : ١ / ٢٠١ . اليوم الآخر: ص : ٢٧١-٢٧٦ . أشرط الساعة: ص: ٢٨٥-٢٩٦ .

(١) هذه النار الحاشرة هي آخر أشرط الساعة الكبرى ، وأول آية تدلّ على قيام الساعة . وقد جاء في رواية عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه تحديد موطن خروجها قال عليه السلام: "ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس" . صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشرط الساعة: (٥٢) . باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (١٣) . برقم: (٢٩٠١) . ٢٢٢٦/٤ .

وجاء عن أنس رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب" . صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠) . باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته: (١) . برقم: (٣٣٢٩) . ص: ٦٩٩ .

ويجمع بينهما بأنّ آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات ، وأوليتها بأنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلاً . بل يقع بانتهائها التفخ في الصّور ، بخلاف ما ذكر معها فإنّه يبقى بعد كلّ آية منها أشياء من أمور الدنيا . فتح الباري : ١٣ / ٨٢ . طبعة دار المعرفة . القناعة ص: ٤٨ .

وهذا الحشر ليس المراد به حشر الناس يوم القيامة بعد البعث من القبور ، وإنّما حشر يكون في آخر الدنيا قبيل يوم القيامة . وقد جاء وصفه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار . تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا " . صحيح مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١) . باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة: (١٤) . برقم: (٢٨٦١) . ٢١٩٥/٤ .

تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم " . (١)

ومن تلك العلامات الكبرى الدّجّال . وهو رجل من بني آدم خلقه الله عزّ وجلّ ، وأقدره على أشياء من الخوارق ليكون فتنة للنّاس وبلاء في آخر الزّمان .
فيضلّ الله به كثيراً من العباد ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً (٢) .

وقد تواترت الأخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ بذكره ، فهو حقيقة

انظر شرح التّووي على مسلم: ١٩٤/١٧-١٩٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٣-٢/١٨ . النّهاية في الفتن: ٢٣٠/١-٢٣١ .

وقد صح في الحديث أنّ ذلك الحشر يكون إلى أرض الشّام كما جاء في حديث هز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : " ههنا " ونحا بيده نحو الشّام: "إنكم محشورون رجالاً وركباناً ، وتجرون على وجوهكم " . سنن الترمذي . كتاب صفة القيامة والرقائق والورع . باب ما جاء في شأن الحشر: برقم: (٢٤٢٤) ص: ٣٩٧ . مسند أحمد: ٤، ٣/٥ . مستدرک الحاكم: ٦٠٨/٤ . وانظر: صحيح الجامع : برقم : (٢٣٠٢) . ٤٥٦/٢ .

وورد أنّه يكون إلى بيت المقدس . كما جاء في حديث ميمونة (رضي الله عنها) أنّه لما سئل ﷺ عن بيت المقدس قال : " أرض المحشر والمنشر " . ولكن الحديث لم يصح . سنن ابن ماجه . كتاب إقامة الصّلاة . باب ما جاء في الصّلاة في مسجد بيت المقدس . ص: ١٥٦ برقم : (١٤٠٧) . مسند أحمد: ٤٦٣/٦ .
وهذه النار ليست نار الحجاز التي ورد ذكرها في حديث أبي هريرة ؓ أنّ رسول الله ﷺ قال: " لا تقوم الساعة حتّى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل بُبُرَى " . صحيح البخاري: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب خروج النّار: (٢٥/٢٤) . برقم: (٧١١٨) . ص: ١٥٠٠ . صحيح مسلم : كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢) . باب لا تقوم الساعة حتّى تخرج نار من أرض الحجاز: (١٤) برقم: (٢٩٠٢) . ٢٢٢٧/٤-٢٢٢٨ .
فذلك ظهرت في القرن السّابع الهجري .

قال التّووي رحمه الله: " وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة ، وكانت ناراً عظيمة جدّاً من جنب المدينة الشّرقية وراء الحرة . تواتر العلم بها عند جميع الشّام ، وسائر البلدان . وأخبرني من حضرها من أهل المدينة " . شرح التّووي على مسلم: ٢٨/١٨ . وانظر: التّذكرة: ص: ٧٢١-٧٢٢ . النّهاية في الفتن: ٢٧/١ . فتح الباري: ٥٨٧/١٤ .

والحديث أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط السّاعة . باب في الآيات التي تكون قبل السّاعة : (١٣) برقم: (٢٩٠١) ٢٢٢٥/٤-٢٢٢٦ .

(١) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢) . باب في الآيات التي تكون قبل السّاعة: (١٣) . برقم: (٢٩٠١) ٢٢٢٥/٤-٢٢٢٦ . ونحوه في: ٢٢٢٦/٤ .

(٢) انظر: شرح التّووي على مسلم: ٥٨/١٨ . النّهاية في الفتن: ١٦٤/١ ، ١٧٢ . عمدة القاري: ٢٤/٢١٦ .

خلاقاً لمن أنكره (١).

وفتنته — قبّحه الله — من أعظم الفتن التي عرفتْها البشرية قاطبة ، ولذلك حذّر منه رسل الله كافة .

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : " خطبنا رسول الله ﷺ ، فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدّجال وحذّراه . فكان من قوله أن قال : " إنّه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدّجال ، وإنّ الله لم يبعث نبياً إلّا حذّر أمته الدّجال ، وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة ، وإن يخرج وأنا بين ظهْرانيكم (٢) فأنا حجيج لكلّ مسلم ، وإن يخرج من بعدي فكلّ امرئ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كلّ مسلم... " الحديث (٣) .

وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال : فقام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله . ثمّ ذكر الدّجال فقال : " إنّي لأُنذِرْكُمُوه . ما من نبيّ إلّا وقد أنذره قومه . لقد أنذره نوح قومه . ولكن أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبيّ لقومه ، تعلّموا أنّه أعور ، وأنّ الله تبارك وتعالى ليس بأعور " (٤) .

(١) انظر: النهاية في الفتن: ١٦٤/١ ومن أنكره: الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة وبعض المحدثين . انظر: شرح

التنوير على مسلم: ٥٨/١٨ . التذكرة: ص: ٧٥١ . النهاية في الفتن: ١٦٤/١ . أشراف الساعة . ص: ٢٤٦ .

(٢) ظهْراني: بين أظهرهم . أي بينهم . انظر: الفائق: ٤١/١ . النهاية في غريب الحديث: ١٦٦/٣ .

(٣) سنن ابن ماجه: بلفظه في : كتاب الفتن: (٣٦) . باب فتنة الدّجال ، وخروج عيسى ابن مريم ، وخروج يأجوج

ومأجوج: (٣٣) . برقم: (٤٠٧٧) . ص: ٤٣٩-٤٤٠ .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٥٨٠/٤ . وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السّياقة " . وقال الذهبي رحمه الله: " على شرط مسلم " .

وانظر: التصريح بما تواتر في نزول المسيح . للشيخ محمد أنور شاه الكشميري . ترتيب محمد شفيع . تحقيق عبد الفتاح أبو غدة . الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب . ودار القرآن الكريم . بيروت . الطبعة الثالثة :

١٤٠١هـ - ١٩٨١ .

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : " إنّها ليست من فتنة صغيرة ولا كبيرة إلّا تتّضع لفتنة الدّجال " .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : ٢١٨/١٥ . وانظر: مسند أحمد: ٣٨٩/٥ . مجمع الزوائد: ٣٣٥/٧ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في : كتاب الجهاد والسير: (٣٢/٥٦) . باب كيف يعرض الإسلام على الصّبي:

(١٧٧/١٧٨) . برقم: (٣٠٥٧) . ص: ٦٤٤ . وفي كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠) . باب قول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ﴾

ولمّا عظمت فتنته أكثر النّبي ﷺ من ذكر أوصافه حتّى ينجلي أمره ، ويتّضح خبره ، ويعرف ضلاله ، وينجو المؤمنون من فتنته ، ولا يهلك فيه إلّا من كتب الله عليه الهلاك .

والأحاديث في ذلك كثيرة جداً منها:

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أنّ رسول الله ﷺ ذكر الدّجال بين ظهرائي للنّاس فقال: " إنّ الله تعالى ليس بأعور . إلّا وإنّ المسيح الدّجال أعور العين اليمنى . كأن عينه عنبة طافئة (١) " (٢) .

[نوح: ١] : (٣) . برقم: (٣٣٣٧) . ص: ٧٠١ . وفي كتاب المغازي: (٣٨/٦٤) . باب حجة الوداع: (٧٨/٧٧) . برقم: (٤٤٠٢) . ص: ٩١٥ . وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨) . باب قول الرّجل للرّجل : اخسأ: (٩٧) . برقم: (٦١٧٥) . ص: ١٣٢٠ . وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب ذكر الدّجال: (٢٧/٢٦) . برقم: (٧١٢٧) . ص: ١٥٠١-١٥٠٢ .

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراف السّاعة: (٥٢) . باب ذكر ابن صياد: (١٩) . برقم: (١٦٩) . ٢٢٤٥/٤ .

(١) طافئة: رويت بالهمز وتركه وكلاهما صحيح . فالمهموزة هي الّتي ذهب نورها ، وغير المهموزة هي الّتي نثأت وارتفعت وفيها ضوء . شرح التّووي على مسلم: ٦٠/١٨ . القناعة : ص: ٢٥ . وانظر : النّهاية في الفتن: ١/١٦٥ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠) . باب ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾

إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴿ مريم: ١٦ ﴾ : (٤٩/٤٨) . برقم: (٣٤٣٩) . ص: ٧٣٠ . وفي كتاب المغازي:

(٣٨/٦٤) . باب حجة الوداع: (٧٨/٧٧) . برقم: (٤٤٠٢) . ص: ٩١٥ . وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب

ذكر الدّجال: (٢٧/٢٦) . برقم: (٧١٢٣) . ص: ١٥٠١ . ونحوه في كتاب التّوحيد: (٧٢/٩٧) . باب قول الله

تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩]: (١٧) . برقم: (٧٤٠٧) . ص: ١٥٥٥ .

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراف السّاعة: (٥٢) . باب ذكر الدّجال وصفته ومامعه: (٢٠) . برقم:

(١٦٩) . ٢٢٤٧/٤ . و بلفظ مقارب في كتاب الإيمان : (١) . باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدّجال:

(٧٥) . برقم: (١٦٩) . ١٥٥/١ .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " الدَّجَالُ ممسوح العين . مكتوب بين عينيه كافر " . ثم تَهَجَّأُها " ك ف ر ، يقرؤه كل مسلم " (١) .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " الدَّجَالُ أعور العين اليسرى ، جُفَّال الشَّعر (٢) ، معه جَنَّةٌ ونار ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ ، وَجَنَّتُهُ نار " (٣) .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " إِنِّي قد حَدَّثْتُكُمْ عن الدَّجَالِ حتَّى خَشِيتُ أن لا تعقلوا . إنَّ مَسِيحَ الدَّجَالِ رجل قصير أَفْحَجُ (٤) جَعْدٌ (٥) "

(١) صحيح البخاري: نحوه: في كتاب التَّوْحِيد: (٧٢/٩٧). باب قول الله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾

[طه: ٣٩]: (١٧). برقم: (٧٤٠٨). ص: ١٥٥٥. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب ذكر الدَّجَالِ: (٢٧/٢٦).

برقم: (٧١٣٧). ص: ١٥٠٢.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأَشْرَاطُ السَّاعَةِ: (٥٢). باب ذكر الدَّجَالِ وصفته ومآله: (٢٠). برقم:

(٢٩٣٣). ٢٢٤٨/٤.

قال التَّوْبِي رحمه الله:

" الصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ أَنَّ هَذِهِ الْكِتَابَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا ، وَأَنَّهَا كِتَابَةُ حَقِيقَةٍ جَعَلَهَا اللَّهُ آيَةً وَعَلَامَةً مِنْ حِمْلَةِ الْعَلَامَاتِ الْقَاطِعَةِ بِكُفْرِهِ وَكَذِبِهِ وَإِبْطَالِهِ ، وَيُظْهِرُهَا اللَّهُ تَعَالَى لِكُلِّ مُسْلِمٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ ، وَيُخْفِيهَا عَنْ مَنْ أَرَادَ شِقَاقَوتَهُ وَفِتْنَتَهُ ، وَلَا امْتِنَاعَ فِي ذَلِكَ " . شرح التَّوْبِي على مسلم: ٦٠/١٨ . وانظر: النَّهْيَةُ فِي الْفِتَنِ: ١٦٥/١ .

(٢) جُفَّال الشَّعر: أي كثير الشَّعر مجتمعه. انظر: الْفَائِقُ: ٢١٨/١ . وانظر: غريب الحديث للهِرَوِي: ١٦٣/٣ . النَّهْيَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: ٢٨٠/١ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأَشْرَاطُ السَّاعَةِ: (٥٢). باب ذكر الدَّجَالِ وصفته ومآله: (٢٠). برقم:

(٢٩٣٤). ٢٢٤٨-٢٢٤٩/٤.

(٤) أَفْحَج: أي متباعد مابين الفخذين. انظر: غريب الحديث للهِرَوِي: ٣٥٢/١ .

النَّهْيَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: ٤١٥/٣ .

(٥) جعد: أي قصير . أو المراد: جعد الشَّعر: أي شعره متعقد ومنقبض ليس بسبَّط . والسبَّط هو الممتد المنبسط .

وانظر: غريب الحديث للهِرَوِي: ٢٧/٣ . غريب الحديث للهِرَوِي: ٣٠٣/١ . الْفَائِقُ: ١١٣/١ ، ٤٤٤ . النَّهْيَةُ فِي

غريب الحديث: ٢٧٥/١ ، ٣٣٤/١ .

أعور مطموس العين ، ليس بناتئة ولا حَجْرَاء^(١). فَإِنَّ أَلْبِسَ عَلَيْكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ
ليس بأعور" ^(٢).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: " الدَّجَّالُ عَيْنُهُ خَضِرَاءُ
كَزْجَاجَةٍ ، وَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ " ^(٣).

وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ الْمَسِيحَ ابْنَ
مَرْيَمَ فَوَصَفَهُ ، ثُمَّ وَصَفَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: "رَجُلٌ جَسِيمٌ أَحْمَرُ جَعْدُ الرَّأْسِ ، أَعُورُ الْعَيْنِ
كَأَنَّ عَيْنَهُ عَنَبَةٌ طَافِيَةٌ " ^(٤).

وعن ابن عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ الدَّجَّالَ فَقَالَ:
"أَعُورٌ هِجَانٌ"^(٥) أَزْهَرُ^(٦) ،

(١) حجراء : أي ليست بصلبة متحجرة ، لكنّها رخوة لينة . وعلى تقلص الجيم : أي غائرة . انظر: غريب الحديث
للخطّابي: ٣٥٢/١. الفائق: ٣٦٨/٢. النهاية في غريب الحديث: ٣٤٣/١.

(٢) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الملاحم: (٣٦). باب خروج الدَّجَّال: (١٤). برقم: (٤٣٢٠). قال الألباني
رحمه الله: " صحيح ". ص: ٤٧١. وانظر: صحيح الجامع: برقم: (٢٤٥٩). ٤٨٣/١.
مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٣٢٤/٥.

(٣) الإحسان في تقريب صحيح ابن حَبَّان: بلفظه في : باب ذكر الإخبار عن العلامة التي يعرف بها الدَّجَّال عند
خروجه. برقم: (٦٧٩٥). قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح". ٢٠٦/١٥ . وهو في السُّلسلة
الصَّحِيحة: برقم: (١٨٦٣) . ٤٧٧/٤.

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب ذكر الدَّجَّال: (٢٧/٢٦). برقم: (٧١٢٨).
ص: ١٥٠٢. و بلفظ مقارب في كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠). باب : ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ
إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦] : (٤٩/٤٨). برقم: (٣٤٤١). ص: ٧٣٠. وفي كتاب التعبير:
(٦٦/٩٨). باب رؤيا الليل: (١١). برقم: (٦٩٩٩). ص: ١٤٧٨. ونحوه في كتاب اللباس: (٥١/٧٧). باب
الجعد : (٦٨). برقم: (٥٩٠٢). ص: ١٢٧٣.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب الإيمان: (١). باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدَّجَّال: (٧٥). برقم:
(١٦٩). (١٧١). ١٥٦/١.

(٥) هجان: أي أبيض . انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٣٠٧/١. الفائق: ١٣٨/٢. النهاية في غريب الحديث:
١٠٧/٤ ، ٢٤٧/٥.

(٦) أزهر: الأزهر هو الأبيض التبر الذي لا يخالط بياضه حمرة . انظر: غريب الحديث للهيروني: ٢٧/٣. الفائق:
١٣٧/٢. النهاية في غريب الحديث: ٣٢١/٢.

كَأَنَّ رَأْسَهُ أَصْلَةً^(١) ، أَشْبَهَ النَّاسَ بَعْدَ الْعُزَّى بْنِ قَطَنَ^(٢) فَإِنْ هَلَكَ الْهَلَكُ^(٣) ، فَإِنْ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعُورَ^(٤) .

وهذه الصفات التي ذكرها رسول الله ﷺ : كلّها صفات ذميمة أو معظمها ، وهي تبين كذب الدّجّال في دعواه الإلهيّة ، وإنّه عاجز عن إزالة ما به من عيب ونقص ، والإله سبحانه يتعالى عن النّقص . ومن كان عاجزاً عن إزالة نقصه فهو أعجز عن نفع غيره أو مضرته . فلا يغترّ به إلّا من لم يوفّق للهداية^(٥) .

(١) أصله: هي حيّة كبيرة الرأس . انظر: . الفائق: ١٣٨/٢ . وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٣٠٧/١ .
(٢) عبد العزّى بن قطن بن عمرو بن جندب . رجل من خزاعة هلك في الجاهليّة . وأمه هالة بنت خويلد . انظر: فتح الباري: ٤٨٨/٦ . طبعة دار المعرفة . وذكر الألباني (رحمه الله) أنّه من الصّحابة . انظر : سلسلة الأحاديث الصّحيحة : ١٩١ / ٣ . ولم أقف عليه بين أسماء الصّحابة ﷺ . فلعل الشّيخ (رحمه الله) وهم في ذلك ، أو اختلط عليه أمر أكنم بن أبي الجون ﷺ وهو صحابي . فقد روي أنّ رسول الله ﷺ شَبَّهَ بالدّجّال . ولكنّ الخبر بذلك لم يصح . وإتّما الذي صحّ تشبيه الرسول ﷺ لأكنم بعمرو بن لُحَي الخزاعي . وانظر : الاستيعاب . لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البر . تحقيق : علي محمّد البجاوي . طبعة : دار الخليل بيروت . الطبعة الأولى : ١٤١٢ هـ - ١٤٢/١ . الإصابة : ١٠٦/١ - ١٠٧ . وانظر : الطبقات الكبرى : ٢٩٢/٤ .

(٣) اهُلَّك : جمع هالك . أي إن هلك به ناس جاهلون وضلّوا فاعلموا أنّ الله ليس بأعور . وفي الرواية الأخرى: اهُلَّك كَلَّ اهُلَّك : أي الهلاك كلّ الهلاك . انظر: الفائق: ١٣٨/٢ . النّهاية في غريب الحديث: ٢٦٩/٥ . وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٣٠٨/١ .

(٤) مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢٤٠/١ . قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٩-١٨/٤ . برقم: (٢١٤٨) .

ونحوه في: ٣١٢/١ . قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣٠٧/٤ . برقم: (٢٨٥٤) .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظه في : باب ذكر الإخبار عن وصف خلقة الدّجّال ، ومن كان يشبه من هذه الأمّة . برقم: (٦٧٩٦) . قال شعيب الأرناؤوط: " حديث صحيح " . ٢٠٧/١٥ . وانظر: السّلسلة الصّحيحة برقم: (١١٩٣) . ١٩٠/٣ .

(٥) انظر: شرح التّووي على مسلم: ٥٩/١٨ . التّدكرة ص: ٧٤٩ .

وقد ركز الرسول ﷺ على عور الدجال لأنه علامة بيّنة بديهية يدركها كل أحد من الخلق عالماً كان أو عامياً (١) .

والدجال يعطى من الأمور الخارقة الشئ العظيم ، وهي العوامل المؤدية إلى فتنة الناس وإضلالهم . فهو ينتقل في الأرض بسرعة فائقة كسرعة الغيث إذا استدبرته الريح ، فلا يتمكن ضعفاء العقول من الوقوف على حاله . وأن معه ما يشبه الجنة والنار ، فناره جنة وجنته نار . ومعه أنهار من الماء وجبال من الخبز . ويأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت ، ويأمر خرائب الأرض فتنبعه كنوزها كيغاسيب (٢) النحل . ويقتل رجلاً مؤمناً ثم يحييه أمام أعين الناس ، ويستعين بالشیاطين ليروجّ بهم إفكه وضلاله . وكل ذلك من الأمور التي تفتن الخلق فتنة عظيمة .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بما سبق ذكره . من ذلك :

ما جاء في حديث النّوّاس بن سمران رضي الله عنه . وفيه قلنا : يا رسول الله : وما إسراعه في الأرض ؟ قال : " كالغيث استدبرته الريح . فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم

(١) انظر : شرح التّووي على مسلم : ٦٠/١٨ . فتح الباري : ٦٠٧/١٤ . عمدة القاري : ١٧/٢٤ . اليوم الآخر (١) : ص : ٢٣٣ .

وأما ما جاء من تعارض في وصف كلّ واحدة من العينين بالور ، وانطباق بقية الصفات عليهما . وفق بين كلّ ذلك القاضي عياض (رحمه الله) فيما نقله عنه الإمام التّووي (رحمه الله) واستحسنه . قال : " يجمع بين الأحاديث وتصحّح الروايات جميعاً بأن تكون المطموسة والمسحوخة التي ليست بحجاء ولا نائمة هي العوراء الطّافئة بالهمز ، وهي العين اليمنى كما جاء هنا . وتكون الجاحظة والتي كأنها كوكب ، وكأنها نخاعة هي الطّافئة بغير همز ، وهي العين اليسرى كما جاء في الرواية الأخرى . وهذا جمع بين الأحاديث والروايات في الطّافئة بالهمز وبتركه . وأعور العين اليمنى واليسرى لأن كلّ واحدة منهما عوراء . فإن الأعور من كلّ شيء المعيب ، لا سيما ما يختصّ بالعين . وكلا عيني الدجال معيبة عوراء ، إحداهما بذهاها والأخرى بعيها " . شرح التّووي على صحيح مسلم : ٢ / ٢٣٥ . وانظر كلام الحافظ ابن حجر (رحمه الله) في الجمع بين الروايات في فتح الباري : ١٤ / ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٢) يعاسيب : جمع يعسوب وهو السيّد والرئيس والمقدّم ، وأصله فحل التحل . والمعنى أي تظهر له وتجتمع عنده كما تجتمع التحل على يعاسيبها . انظر : النهاية في غريب الحديث : ٣ / ٢٣٤ - ٢٣٥ . وانظر : غريب الحديث للخطّابي : ٩ / ٢ . الفائق : ٢ / ٤٣١ .

سَارِحَتْهُمْ أَطُولَ مَا كَانَتْ ذُرّاً^(١)، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعاً، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ^(٢). ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيُرَدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيَصْبَحُونَ مُمَحِلِّينَ^(٣)، لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كَنُوزَكَ فَتَتْبَعُهُ كَنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مِمَّتِلًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ^(٤) رَمِيَةَ الْغَرَضِ^(٥)، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَقْبَلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ يَضْحَكُ". الْحَدِيثُ^(٦).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ مِثْلُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَالَّتِي يَقُولُ إِنَّهَا الْجَنَّةُ هِيَ النَّارُ"^(٧).

(١) ذُرّاً: جمع ذُرْوَةٍ وهي ما على وارتفع من السَّامِ. انظر: الفائق: ٨/٢-٩. النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: ١٥٩/٢-١٦٠.

(٢) وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ: أي أوسعها وأتمها. النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: ٣٠٩/٤.

(٣) مُمَحِلِّينَ: من المَحْلِ وهو الجذب ويبس الأرض من الكَلَا لَانْقِطَاعِ الْمَطَرِ عَنْهَا. انظر: مختار الصحاح: ص: ٦١٦. لسان العرب: ١١/٦١٧. القاموس المحيط: ص: ١٣٦٥.

(٤) جَزَلَتَيْنِ: أي قطعتين. مفردهما جَزْلَةٌ. انظر: غريب الحديث للخطابي: ١/٢٠٣. الفائق: ١/٢١٠. النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: ٢٦٩/١-٢٧٠.

(٥) رَمِيَةُ الْغَرَضِ: الْغَرَضُ الْهَدَفُ. أَرَادَ أَنَّهُ يَكُونُ بُعْدُ مَا بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ بِقَدْرِ رَمِيَةِ السَّهْمِ إِلَى الْهَدَفِ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ وَصَفُ الضَّرْبَةِ، أَيْ تُصِيبُهُ إِصَابَةُ رَمِيَةِ الْغَرَضِ. النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: ٣/٣٦٠. وانظر: غريب الحديث للخطابي: ١/٢٠٣. الفائق: ١/٢١٠.

(٦) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأَشْرَاطُ السَّاعَةِ: (٥٢). باب ذكر الدَّجَالِ وصفته ومأمعه: (٢٠). برقم: (٢٩٣٧). ٢٢٥٢/٤-٢٢٥٣.

(٧) صحيح البخاري: بلفظه — إِلَّا إِنَّهُ قَالَ: "بِمِثَالٍ" — فِي كِتَابِ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ: (٣٦/٦٠). باب قول الله

تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[نوح: ١]: (٣٣). برقم: (٣٣٣٨). ص: ٧٠١.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأَشْرَاطُ السَّاعَةِ: (٥٢). باب ذكر الدَّجَالِ وصفته ومأمعه: (٢٠). برقم: (٢٩٣٦). ٢٢٥٠/٤. جزء من حديث.

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"إِمَّا أَنْ يَكُونَ الدَّجَالُ سَاحِرًا فَيُحِيلُ الشَّيْءَ بِصُورَةٍ عَكْسِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بَاطِنَ الْحِجَةِ الَّتِي يَسْخَرُهَا الدَّجَالُ نَارًا، وَبَاطِنَ النَّارِ حِجَّةً، وَهَذَا الرَّاجِحُ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كُنَايَةً عَنِ التَّعَمُّدِ وَالرَّحْمَةِ بِالْحِجَّةِ، وَعَنِ الْخُبَةِ وَالتَّقَمُّدِ بِالنَّارِ. فَمَنْ أَطَاعَهُ فَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِجَنَّتِهِ يُوَوِّلُ أَمْرَهُ إِلَى دُخُولِ نَارِ الْآخِرَةِ وَبِالْعَكْسِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ جَمَلَةِ الْخُبَةِ وَالفِتْنَةِ، فَيَرَى النَّاطِرُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ دَهْشَتِهِ النَّارِ فَيُظَنُّهَا حِجَّةً وَبِالْعَكْسِ". فتح الباري: ١٤/٦١٢.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لأننا أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران يجريان ، أحدهما رأي العين ماء أبيض ، والآخر رأي العين نار تأجج فإمّا أدركنّ أحد فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمضْ ، ثم ليطأطِء رأسه فيشرب منه فإنّه ماء بارد ... "الحديث (١) .

وعن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه قال: ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال أكثر ممّا سألته . قال: "وما سؤالك؟" . قال قلت: إنهم يقولون: معه جبال من خبز ولحم ونهر من ماء قال: "هو أهون على الله من ذلك" (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري قال: حدّثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال فكان فيما حدّثنا قال: "يأتي وهو محرّم عليه أن يدخل نقاب (٣) المدينة، فينتهي إلى بعض السباخ (٤) التي تلي المدينة ، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدّثنا رسول الله ﷺ

وما رجّحه الحافظ هو الأولى ، فلا مدعاة إلى التأويل .

(١) صحيح البخاري: نحوه في كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠). باب ما ذكر عن بني إسرائيل: (٥١/٥٠). برقم: (٣٤٥٠). ص: ٧٣٢. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب ذكر الدجال: (٢٧/٢٦). برقم: (٧١٣٠). ص: ١٥٠٢.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراف الساعة: (٥٢). باب ذكر الدجال وصفته ومأمعه: (٢٠). برقم: (٢٩٣٤) (٢٩٣٥). ٢٢٤٩/٤. وهو جزء من حديث.

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب ذكر الدجال: (٢٧/٢٦). برقم: (٧١٢٢). ص: ١٥٠١.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراف الساعة: (٥٢). باب في الدجال وهو أهون على الله عز وجل: (٢٢). برقم: (٢٩٣٩). ٢٢٥٧/٤-٢٢٥٨. ولفظ مقارب في كتاب الآداب: (٣٨). باب جواز قوله لغير ابنه: يابني . واستحبابه للملاطفة: (٦). برقم: (٢١٥٢). ١٦٩٣/٣.

ومعنى أهون على الله من ذلك: أي هو أهون على الله من أن يجعل ما خلقه الله تعالى على يده مضلاً للمؤمنين ومشككاً لقلوبهم ، بل إنّما جعله له ليزداد الذين آمنوا إيماناً ، ويثبت الحجة على الكافرين والمنافقين ونحوهم ، وليس معناه أنّه ليس معه شيء من ذلك . شرح التّووي على مسلم: ٧٤/١٨-٧٥ . وانظر : فتح الباري: ٦٠٤-٦٠٣/١٤ .

(٣) نقاب: جمع نقب وهو الطريق بين الجبلين . النهاية في غريب الحديث: ١٠٢/٥ .

(٤) السباخ: جمع سبخة وهي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر . النهاية في غريب الحديث: ٣٣٣/٢ .

حديثه . فيقول الدَّجَالُ: أرأيتم إن قتلت هذا ثمَّ أحْيَيْتَهُ أَتَشْكُونُ في الأمر؟ فيقولون: لا . قال: فيقتله ثمَّ يحييه ، فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك قطَّ أشدَّ بصيرة منِّي الآن . قال: فيريد الدَّجَالُ أن يقتله فلا يسلِّط عليه" (١) .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه - فذكر الحديث - وفيه : قال ﷺ "وإنَّ من فتنته أنَّ معه جنةً وناراً ، فناره جنةٌ وجنته نار ، فمن ابتلي بناره فليستغث بالله ، وليقرأ فواتح الكهف فنكون عليه برداً وسلاماً كما كانت النار على إبراهيم . وإنَّ من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أنَّي ربك ؟ فيقول: نعم ، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمّه ، فيقولان: يا بني اتبعه فإنَّه ربك . وإنَّ من فتنته أن يسلِّط على نفس واحدة فيقتلها وينشرها بالمنشار ، حتَّى يلقي شقتين ثمَّ يقول: انظروا إلى عبدي هذا فإنِّي أبعثه الآن ، ثمَّ يزعم أنَّ له ربّاً غيري . فيبعثه الله ، ويقول له الخبيث من ربك ؟ فيقول ربِّي الله ، وأنت عدوُّ الله ، أنت الدَّجَالُ ، والله ما كنت بعد أشدَّ بصيرة بك منِّي اليوم ... وإنَّ من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر ، ويأمر الأرض أن تتبت فتتبت .

وإنَّ من فتنته أن يمرَّ بالحي فيكذبونه فلا تبقى لهم سائمة (٢) إلَّا هلكت . وإنَّ من فتنته أن يمرَّ بالحي فيصدِّقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ، ويأمر الأرض أن تتبت فتتبت ، حتَّى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه ، وأمدّه خواصر وأدرّه ضروعا .." الحديث (٣) .

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الحجّ (فضائل المدينة) : (٨/٢٩) . باب لا يدخل الدَّجَالُ المدينة:

(٢١٨/٩) . برقم: (١٨٨٢) . ص: ٣٩٢ . وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب ذكر الدَّجَالِ: (٢٧/٢٦) . برقم:

(٧١٣٢) . ص: ١٥٠٢ .

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراف الساعة: (٥٢) . باب في صفة الدَّجَالِ وتحريم المدينة عليه ، وقتله

المؤمن وإحيائه: (٢١) . برقم: (٢٩٣٨) . ٢٢٥٦/٤ .

(٢) سائمة: من السَّوْم وهو الرّعي . يقال سامت الماشية إذا رعت فهي سائمة . غريب الحديث للخطّابي: ٦٤٣/١ .

وانظر التَّهْيَاة في غريب الحديث: ٤٢٦/٢ .

(٣) سبق قريباً . انظر : ص: ١٥٧ .

والنبي ﷺ من رحمته بهذه الأمة ورأفته بها أرشدها إلى المسالك التي تتجو بها من فتنة الدجال وشرها ، لعظم تلك الفتنة وخطرها على عباد الله .

فذكر ﷺ صفاته السابقة ليعرف حاله ، ويظهر أمره . وكشف عن عوامل فتنته ليكون العبد من أمره على بصيرة ، ولم يكتف بذلك ﷺ بل وجه الأمة إلى ما يعصمها من فتنته ، وينجيها من محنته .

✽ أمر بالتعوذ والالتجاء إلى الله والاحتماء به من فتنته . وكان يداوم على ذلك في صلاته .

عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة: " اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات ... " الحديث (١) .

✽ أمر ﷺ بالبعد عنه ، والفرار من وجهه لما معه من الشبهات ، وإن وثق المؤمن في نفسه .

عن عمران بن حصين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " من سمع بالدجال فليناً عنه ، فو الله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه ممّا يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات " (٢) .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الصلاة (الأذان): (٥/١٠). باب الدعاء قبل السلام: (٣٠٠/١٤٩). برقم: (٨٣٢). ص: ١٨٢. ونحوه في كتاب الدعوات: (٥٤/٨٠). باب التَّعوذ من المأثم والمغرم: (٣٩). برقم: (٦٣٦٨). ص: ١٣٥٧. وفي باب الاستعاذة من أرذل العمر ، ومن فتنة الدنيا وفتنة النار: (٤٤). برقم: (٦٣٧٥). ص: ١٣٥٩. وفي باب الاستعاذة من فتنة الغنى: (٤٥). برقم: (٦٣٧٦). ص: ١٣٥٩. وفي باب التَّعوذ من فتنة الفقر: (٤٦). برقم: (٦٣٧٧). ص: ١٣٥٩.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب المساجد ومواضع الصلاة: (٥). باب ما يستعاذ منه في الصلاة: (٢٥). برقم: (٥٨٩). ٤١٢/١. ونحوه عن أبي هريرة ؓ. برقم: (٥٨٨). ٤١٢/١. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) . برقم: (٥٩٠). ٤١٣/١. وعن عائشة (رضي الله عنها) . برقم: (٥٨٩). في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: (٤٨). باب التَّعوذ من شرّ الفتن وغيرها: (١٤). ٢٠٧٨-٢٠٧٩.

(٢) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الملاحم: (٣٦). باب خروج الدجال: (١٤). برقم: (٤٣١٩). قال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٤٧١. وهو في صحيح الجامع: برقم: (٦٣٠١). ١٠٨٠/٢ . مسند أحمد: نحوه في: ٤٤١، ٤٣١/٤ .

﴿ أمر ﴿ من أدركه أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، أو يحفظ عشر آيات منها .

عن النّوّاس بن سميان ﴿ في حديثه الطويل . قال ﴿ : " فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف " (١) .

وعن أبي الدرداء ﴿ أن النبي ﴿ قال : " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدّجال " (٢) .

﴿ أرشد ﴿ إلى سكنى المدينة ومكة لأنّ الدّجال لا يدخلهما (٣) .

عن أنس بن مالك ﴿ قال : قال رسول الله ﴿ : " ليس من بلد إلا سيطؤه الدّجال إلا مكة والمدينة ، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين تحرسها . فينزل بالسّبخة (٤) فترجف المدينة ثلاث رجفات ، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق " . (٥)

مستدرک الحاكم: نحوه في: ٥٧٦/٤ . وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه". وسكت عنه الذهبي .

(١) سبق . ص : ١٦٣ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب صلاة المسافرين : (٦) . باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي: (٤٤) برقم (٨٠٩) . قال مسلم: "قال شعبة : من آخر الكهف . وقال همام : من أول الكهف " ٥٥٥/١-٥٥٦ . قال الثّوري رحمه الله:

" سبب ذلك ما في أولها من العجائب والآيات ، فمن تدبرها لم يفتن بالدّجال . وكذا في آخرها قوله تعالى : ﴿

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا ﴿ [الكهف: ١٠٢] . ٩٣/٦ .

(٣) انظر: النّهاية في الفتن : ١٧١/١ .

(٤) السّبخة : أرض ذات ملح ، ولا تكاد تُنبِتُ إلا بعض الشّجر . انظر : لسان العرب : ٢٤/٣ .

وقال أبو عبيد الأندلسي : " السّبخة : بفتح أوله وثانيه وبالحاء المعجمة ، موضع بالمدينة بين موضع الخندق وبين سلع الجبل المتصل بالمدينة " . معجم ما استعجم : ٧١٧/٣ .

(٥) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الحجّ (فضائل المدينة): (٨/٢٩) . باب لا يدخل الدّجال المدينة:

(٢١٨/٩) . برقم: (١٨٨١) . ص: ٣٩٢ . وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب ذكر الدّجال: (٢٧/٢٦) . برقم:

(٧١٢٤) . ص: ١٥٠١ . ونحوه في باب لا يدخل الدّجال المدينة: (٢٨/٢٧) . برقم: (٧١٣٤) . ص: ١٥٠٢ .

الفصل الرابع

عوامل الثبات عند الفتن

وفيه تمهيد ومباحث:

التمهيد

عرض الفتن على القلوب

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ ءَايَتَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٤﴾ [الحج: ٥٢-٥٤].

إن الله عز وجل بيّن في هذه الآيات أنه يجعل ما يلقي الشيطان من شبه وشكوك فتنة لطائفتين من الناس :

الأولى : أصحاب القلوب المريضة التي بها ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم ، فتتأثر بما يلقيه الشيطان من شبه فيدخلها الرّيب والشك فتفتن بذلك .

وفي كتاب التوحيد: (٧٢/٩٧). باب قول الله تعالى : ﴿ تَوَتَّى الْمُلُكُ مَنْ تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] :

(٣١). برقم: (٧٤٧٣). ص: ١٥٦٩.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراف الساعة : (٥٢). باب قصة الجساسة: (٢٤). برقم: (٢٩٤٣) . ٢٢٦٥/٤ .

وقد ألحق بعض العلماء بيت المقدس بمكة والمدينة في عدم دخول الدجال إليه . وأوردوا في ذلك بعض الأحاديث التي أشاروا إلى صحة بعضها . انظر: فتح الباري : ١٣/١٠٥ . طبعة دار المعرفة. القنعة: ص: ٢٩-٣٠ .

الثانية: أصحاب القلوب القاسية الغليظة ، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير ، ولا تعي عن الله ورسوله لصلابتها وقسوتها ؛ فإذا سمعت ما ألقاه الشيطان جعلته حجة على باطلها ، ومشاقة لله ومعاندة للحق ، فتفتن بذلك .

وأما الطائفة الثالثة التي ورد ذكرها في الآيات فهم أصحاب القلوب المختبة المتواضعة لله ، المطمئنة بما جاءها عن الله ورسوله ، الخاضعة لأمر الله . فإذا سمعت ما ألقاه الشيطان علمت أنه باطل فتمسكت بالحق ، وتشببت بالصرّاط المستقيم ، وثبتت على ذلك ، فلم تؤثر فيها شبهات الشيطان ولا شكوكه^(١) .

فالقلوب في الآية ثلاثة: قلبان مفتونان: القلب الأول : قلب مريض غلبت عليه العلة فمال إلى العطب وجانب السلامة . كقلوب أهل النفاق التي فتنت بمرض الشبهات .

كما قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠] .

وقلوب أهل المعاصي التي فتنت بمرض الشهوات .

كما قال سبحانه: ﴿ لَّيْسَ لَّمَّيْنَتِهِ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠] .

والقلب الثاني: قلب قاسي ميّت لا حياة به ، يحكمه الهوى ، وتقوده الشهوة ، ويسوقه الجهل ، وتدفعه الغفلة ، أسكرته دنياه فغاب عن آخرته^(٢) .

فهو قلب يابس يفوق الحجارة صلابة . كما قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] . وهو قلب أغلف مطبوع

(١) انظر: كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل . للإمام ابن القيم . صححه محمد بدر

الدين أبو فراس التفساني الحلبي . مكتبة الرياض الحديثة . الطبعة الأولى: ١٣٢٣هـ . ص: ١٠٦ ، ١٩٢ . إغاثة

اللّهفان: ١٠/١ . تيسير الكريم الرحمن: ص: ٤٩١-٤٩٢ .

(٢) انظر: إغاثة اللّهفان: ١٠/١ .

مختوم عليه ، استحوذ عليه الشيطان فلا يبصر هدى ، ولا يسمع حقاً ، ولا يفقه أمراً ، ولا يعقل شرعاً .

قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال سبحانه: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧] .

قال مجاهد (رحمه الله):

" ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ قال: الطبع ، ثبتت الذنوب على القلب فحقت به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه ، التقاؤها عليه الطبع ، والطبع الختم " (١) .
والقلب الثالث: هو القلب المؤمن ، المخبى إلى الله المطمئن ، الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، وكل شبهة تعارض خبره . خلصت عبوديته لله وخلص عمله له ، وسلم قياده لرسول الله ﷺ ، فهو يسير على خطاه ، ويتتبع آثاره . فجرد الإخلاص لله ، وحقق المتابعة لرسوله ﷺ . وتلك سمات القلب السليم .

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨١﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. (٢)

قال سعيد بن المسيب (رحمه الله):

"القلب السليم هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ، لأن قلب الكافر والمنافق مريض" (٣) .

(١) تفسير القرآن العظيم: ٧١/١ .

(٢) وانظر: إغاثة اللهفان: ٧/١ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٥٤٢/٣ .

وقال ابن القيم (رحمه الله) :

" القلب السليم هو الذي سلم من الشُّرك والغُل والحقد والحسد والشَّح والكبر وحبِّ الدُّنيا والرِّياسة ، فسلم من كلِّ آفة تبعده من الله ، وسلم من كلِّ شبهة تعارض خبره ، ومن كلِّ شهوة تعارض أمره ، وسلم من كلِّ إرادة تزاحم مراده ، وسلم من كلِّ قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم في جنَّة معجَّلة في الدُّنيا ، وفي جنَّة في البرزخ ، وفي جنَّة يوم المعاد ، ولا يتمُّ له سلامته مطلقاً حتَّى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التَّوحيد ، وبدعة تخالف السُّنَّة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذِّكر ، وهوى يناقض التَّجريد والإخلاص" (١)

فلما صحَّ هذا القلب وسلم لله إخلاصاً ومحبةً وتوكلّلاً وإخباتاً وخشية ، ولرسوله ﷺ انقياداً وتحكيماً ، وطاعة والتزاماً . وعلم الله صدقه ووفاءه أنزل الطمأنينة والثبات عليه . كما قال سبحانه: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح: ١٨] (٢) .

فلا تضرَّ صاحبه فتنة ، ولا تؤثر فيه شبهة ، ولا يحدث له شك ولا ريب ، ولو عرضت عليه الفتن عرضاً .

عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " تعرض الفتن على القلوب كالحصير (٣) عوداً عوداً ، فأَيُّ قلبٍ أُشْرِبَهَا نكت (٤) فيه نُكْتَةٌ سوداء ، وأيُّ قلبٍ أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتَّى تصير على قليين: على أبيض مثل الصِّفا (٥) فلا

(١) كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي . لابن القيم . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت : ص : ٨٤ .

(٢) وانظر معنى الآية في :

الجامع لأحكام القرآن: ٢٧٨/١٦ . تفسير القرآن العظيم: ٢٩٣/٤ .

(٣) الحصير: هو البساط الصَّغير المنسوج من الثَّبات . انظر : لسان العرب: ١٩٦/٤ .

(٤) نكت: يقال : نكت الأرض بقضيب : هو أن يضربها بطرفه فيؤثّر فيها . والنكّة أثر قليل كالنقطة .

انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١١٢/٥ - ١١٣ .

(٥) الصِّفا: جمع صفاة ، وهي الصَّخرة والحجر الأملس . المرجع السَّابق : ٤١/٣ .

تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُربّاداً ^(١) كالْكُوز ^(٢) مُجْحِيّاً ^(٣) لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه ^(٤) .

لقد شبّه الرسول ﷺ عرض الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً كعرض عيدان الحَصِير عوداً عوداً .

وذلك أن ناسج الحَصِير كلّما صنع عوداً أخذ آخر ونسجه . فشبهه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحَصِير على صانعها واحداً تلو الآخر . وقسم القلوب إلى قسمين :

قلب كلّما عرضت عليه فتنة أشربها ، ودخلت فيه دخولاً تامّاً ، وحلّت منه محلّ الشراب . فلا يزال يشرب كلّ فتنة تعرض عليه حتّى يسودّ وينتكس ، فلا يعلق به خير ولا حكمة . مثل الكوز المنكوس . فيشتبه عند ذلك عليه المعروف بالمنكر فلا يميّز بينهما ، بل قد يعتقد المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والحقّ باطلاً والباطل حقّاً ، ويتحكّم فيه هواه فينقاد له ويتبعه .

وقلب أبيض تلاًّ نور الإيمان فيه ، وأشرقت فيه شمسهُ ، وكان كالصّخر الأملس الذي قوي وصلب ، وسلم من الخل فلا يعلق به شيء . وهكذا هذا القلب لا تلتصق به الفتن ولا تؤثر فيه ، وإذا عرضت عليه أنكرها وردّها ، وزاد إيمانه ، وقوي نوره .

(١) مربّاداً : من الرُبْدَة وهي لون الرّماد . أو لون بين السّود والغرة . وانظر: غريب الحديث للهيروي: ١٢١/٤ .

الفائق: ٤١٨/٢ . النّهاية في غريب الحديث: ١٨٣/٢ .

(٢) الكُوز: من الأواني معروف . وهو كوب له عروة . من اكتاز الماء: أي اغترفه . انظر: لسان العرب: ٤٠٢/٥ - ٤٠٣ .

(٣) مُجْحِيّاً : أي مائلاً . غريب الحديث للهيروي: ١٢٠/٤ - ١٢١ . الفائق: ٤١٨/٢ .

قال ابن الأثير (رحمه الله) : " المجحّي : المائل عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذي لا يعي خيراً بالكُوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء . النّهاية في غريب الحديث: ١ / ٢٤٢ .

(٤) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإيمان: (١) . باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسعود غريباً وأنه يآرز بين المسجدين : (٦٥) برقم (١٤٤): ١٢٨/١ - ١٢٩ .

فالأول قلب من افترسته الفتن وأهلكته . والثاني قلب من ثبت عندها فلم يترزع ولم يتضعع^(١) .

وهناك عوامل معينة ومساعدة على الثبات عند الفتن يلجأ إليها المؤمن أو إلى بعضها متى ما عرضت عليه الفتن أو دهمته . ومنها أمور يحتاط بها المؤمن تجنباً للفتنة قبل حلولها عليه . أتناول منها بإذن الله ما يمكن تناوله في المباحث الآتية :

(١) انظر معنى الحديث في :

شرح التّرووي على مسلم: ١٧١/٢-١٧٤. إغاثة اللّهُفان: ١٢/١ .

المبحث الأول

التعوذ من الفتن

إنَّ المسلم لابد أن يلجأ إلى الله ، ويستعيذ به لدفع الفتن عنه . فإنه متى ما طرح نفسه بين يدي ربه سبحانه مستعيناً به ، راغباً إليه ، ملتجئاً إلى جنبه ، مفتقراً إليه ، أعاده ربه من شرّها، وحماه من مفسدها ، وثبته على الإسلام .

وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ ، ويأمر غيره بالاستعاذة منها:

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كان النبي ﷺ يقول: " اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار، وفتنة القبر وعذاب القبر، وشرّ فتنة الغنى وشرّ فتنة الفقر، اللهم إني أعوذ بك من شرّ فتنة المسيح الدّجال ... " الحديث (١) .

وعنها (رضي الله عنها) أن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلّة: " اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدّجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات ، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم (٢) " .

فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم؟ فقال: " إن الرّجل إذا غرم حدّث فكذب ووعد فأخلف " (٣) وفي رواية " وأعوذ بك من فتنة الدّنيا " (٤) .

(١) الحديث سبق ص: ١٦٦ . إلا أن هذه الرواية بهذا اللفظ في صحيح البخاري: كتاب الدّعوات: (٥٤/٨٠) .

باب التّعوذ من فتنة الفقر: (٤٦) . برقم: (٦٣٧٧) . ص: ١٣٥٩ .

(٢) قال ابن الأثير (رحمه الله) :

" المَغْرَمُ : مَصْدَرٌ وَضِعَ مَوْضِعَ الْأَسْمِ ، وَيُرِيدُ بِهِ مَغْرَمُ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي . وَقِيلَ : الْمَغْرَمُ كَالْغُرْمِ وَهُوَ الدَّيْنُ . وَيُرِيدُ بِهِ مَا اسْتَدِينَ فِيهِمَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ أَوْ فِيهِمَا يَجُوزُ ثُمَّ عَجَزَ عَنْ أَدَائِهِ ، فَأَمَّا دَيْنٌ أَحْتَاجَ إِلَيْهِ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَدَائِهِ فَلَا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ " . النهاية في غريب الحديث : ٣٦٣/٣ .

(٣) الحديث سبق ص: ١٦٦ .

(٤) هذه الرواية وردت من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ في صحيح البخاري: في كتاب الدّعوات: (٥٤/٨٠) .

باب التّعوذ من عذاب القبر: (٣٧) . برقم: (٦٣٦٥) . ص: ١٣٥٧ . وفي باب التّعوذ من البخل: (٤١) . برقم:

(٦٣٧٠) . ص: ١٣٥٨ . وفي باب الاستعاذة من أرذل العمر ومن فتنة الدّنيا وفتنة التّار: (٤٤) . برقم: (٦٣٧٤) .

ص: ١٣٥٩ . ونحوه في باب التّعوذ من فتنة الدّنيا: (٥٦) . برقم: (٦٣٩٠) . ص: ١٣٦١ .

وعن عمّار بن ياسر (رضي الله عنهما) — فذكر الحديث — وفيه: "وأعوذ بك من ضراء مضرّة ، وفتنة مضلّة " (١) .

وعن زيد بن ثابت ؓ — فذكر الحديث — وفيه: قال ﷺ : " تعوذوا بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن " . قالوا: نعوذ بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن . قال: "تعوذوا بالله من فتنة الدّجال " قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدّجال " (٢) .

وعن أنس ؓ عندما أكثروا على النبي ﷺ في المسألة . وفيه:
ثم أنشأ عمر فقال: " رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، نعوذ بالله من سوء الفتن " . (٣)

وفي الرواية الأخرى: قال: " عانداً بالله من شرّ الفتن " . (٤)

(١) سنن النسائي: بلفظه — جزء من حديث طويل — في: كتاب السّهو: (١٣). باب نوع آخر من الدّعاء:

(٦٢) . برقم: (١٣٠٦) . و بلفظ مقارب برقم: (١٣٠٥) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ١٥٤ .

مسند أحمد: بلفظه — إلّا أنّه قال: "ومن فتنة" — في: ٢٦٤/٤ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب في: باب ذكر حوارج دعاء المرء في الصّلاة بما ليس في كتاب الله . برقم: (١٩٧١) . قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده قوي " . ٣٠٥/٥ .

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ٧٠٥/١ . وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه — جزء من حديث — في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١) . باب عرض مقعد الميّت من الجنّة أو النّار عليه ، وإثبات عذاب القبر والتّعوذ منه: (١٧) . برقم: (٢٨٦٧) . ٢٢٠٠-٢١٩٩/٤ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه — إلّا أنّه قال: "من الفتن" — في كتاب الدّعوات: (٥٤/٨٠) . باب التّعوذ من الفتن: (١٥) .

الفتن: (٣٥) . برقم: (٦٣٦٢) . ص: ١٣٥٦ . وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب التّعوذ من الفتن: (١٥) .

برقم: (٧٠٨٩) . ص: ١٤٩٥ . ونحوه في كتاب مواقيت الصّلاة: (٥/٩) . باب وقت الظّهر عند الزّوال:

(١٢٠/١١) . برقم: (٥٤٠) . ص: ١٢٨ . وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنة: (٧١/٩٦) . باب ما يكره من

كثرة السّؤال وتكلّف ما لا يعنيه: (٤/٣) . برقم: (٧٢٩٤) . ص: ١٥٣٣ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب الفضائل: (٤٣) . باب توقيه ﷺ وترك إكثار سؤاله عمّا لا ضرورة إليه ،

أو لا يتعلّق به تكليف ، وما لا يقع ونحو ذلك: (٣٧) . برقم: (٢٣٥٩) . ١٨٣٤/٤ . ونحوه في: ١٨٣٢/٤ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب التّعوذ من الفتن: (١٥) . برقم: (٧٠٩١) .

ص: ١٤٩٦ . ونحوه برقم: (٧٠٩٠) .

قال ابن بطال (رحمه الله): عند قوله ﷺ: "أعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات" :

" هذه كلمة جامعة لمعان كثيرة ، وينبغي للمرء أن يرغب إلى ربه في رفع ما نزل ، ودفع ما لم ينزل ، ويستشعر الافتقار إلى ربه في جميع ذلك ، وكلن ﷻ يتعوذ من جميع ما ذكر دفعاً عن أمته ، وتشريعاً لهم ليبين لهم صفة المهّم من الأدعية ^(١) .

فلا تدفع الفتن بأعظم من الالتجاء إلى المولى سبحانه ، والاعتماد عليه ، والاستعانة به في كشف شرورها ، والتحرّز من الوقوع فيها . فمن لجأ إليه ، واعتمد عليه ، واستعان به فقد أوى إلى ركن ركين ، ومعين لا يغلب ، وناصر لا يهزم .

(١) نقلاً عن فتح الباري: ٤٦٨/١٢ .

المبحث الثاني

تجنب الفتن والفرار منها

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

روى ابن جرير (رحمه الله) بسنده إلى الحسن^(١) وقتادة (رحمهما الله)
وغيرهما أن هذه الآية نزلت في عليّ وعثمان وطلحة والزبير .

قال الزبير :

" قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها ، فإذا نحن المعنيون بها " (٢) .

عن مطرف (رحمه الله) (٣) قال:

" قلنا للزبير : يا أبا عبد الله ما جاء بكم ، ضيَعتم الخليفة حتى قتل ، ثم
جئتم تطلبون بدمه ؟ قال الزبير :

(١) هو الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد البصري . ولد لستين بقينا من خلافة عمر . ثقة فقيه فاضل مشهور ، رأس في العلم والعمل . كان يرسل كثيراً ويدلس . توفي سنة : ١١٠ هـ .
وانظر: التاريخ الكبير: ٢٨٩/٢ . الجرح والتعديل: ٤٠/٣ . ثقات ابن حبان: ١٢٢/٤ . تهذيب الكمال: ٩٥/٦ .
الكاشف: ٣٢٢/١ . جامع التحصيل: ص: ١٦٢ . تهذيب التهذيب: ٢٣١/٢ . تقريب التهذيب: ١٦٠/١ . طبقات المدلسين: ص: ٢٩ .

(٢) جامع البيان: ٤٧٣/١٣ . طبعة شاكر .

(٣) هو مطرف بن عبد الله بن الشَّحِير أبو عبد الله العامري الحرشي البصري ، من خيار التابعين ، وأبوه صحابي ، ثقة فاضل مشهور ، عابد ، زاهد ، رأس في العلم والعمل . توفي سنة: ٩٥ هـ . وقيل: غير ذلك .
وانظر: الطبقات الكبرى: ١٤١/٧ . طبقات خليفة: ص: ١٩٧ . التاريخ الكبير: ٣٩٦/٧ . معرفة الثقات: ٢٨٢/٢ . الجرح والتعديل: ٣١٢/٨ . ثقات ابن حبان: ٤٢٩/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ٨٨/١ . التعديل والتحريج: ٧٣٤/٢ . تهذيب الكمال: ٦٧/٢٨ . تذكرة الحفاظ: ٦٤/١ . الكاشف: ٢٦٩/٢ . الإصابة: ٢٦٠/٦ . تهذيب التهذيب: ١٥٧/١٠ . تقريب التهذيب: ٥٣٤/١ .

" إنا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ؓ وَاتَّقُوا
فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ؓ لم تكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت
منا حيث وقعت " . (١)

وعن السُّدِّي (رحمه الله) (٢) قال:

"هذه نزلت في أهل بدر خاصة ، وأصابتهم يوم الجمل فاقنتلوا "

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال:

"أمر الله المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب "

وعن مجاهد (رحمه الله) قال:

"هي أيضاً لكم" (٣) .

قال ابن كثير (رحمه الله) في قول ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" هذا تفسير حسن جداً " . وعضده بقول مجاهد (رحمه الله) .

ثم قال: "والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم
هو الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن " (٤) .

(١) مسند أحمد: بلفظه في : ١٦٥/١ . قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد

شاكر: ٩/٣ . برقم: (١٤١٤) .

ونحوه في: ١٦٧/١ . قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٢٣/٣ .

برقم: (١٤٣٨) .

مسند الطيالسي: نحوه برقم: (١٩٢) . ص: ٢٧ .

(٢) السُّدِّي هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة أبو محمد القرشي الكوفي الأعور . كان يقعد في سدة باب الجملع

بالكوفة فسمي السُّدِّي . وهو السُّدِّي الكبير . روى عن بعض الصحابة ، وهو صدوق يهم ، وقد رمي بالتشيع .

توفي سنة: ١٢٧هـ .

انظر: طبقات بن سعد: ٣٢٣/٦ . ضعفاء العقيلي: ٨٧/١ . الجرح والتعديل: ١٨٤/٢ . ثقات ابن حبان:

٢٠/٤ . مشاهير علماء الأمصار: ١١١/١ . تهذيب الكمال: ١٣٢/٣ . الكاشف: ٢٤٧/١ . سير أعلام النبلاء:

٢٦٤/٥ . تهذيب التهذيب: ٢٧٣/١ . تقريب التهذيب: ١٠٨/١ .

(٣) جامع البيان: ٤٧٣/١٣ - ٤٧٥ . طبعة شاكر .

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٤٧١/٢ .

ففي الآية تحذير من الله لعباده المؤمنين باجتناب أصحاب المعاصي والذنوب لأن العقاب والمحن إذا وقعت عمّت المسيء وغيره ، ولا تخصّ من باشر الذنب ، مادام أقرّ ، ولم يدفع ولم يرفع^(١) .

قال الإمام القرطبي (رحمه الله):

"ومقصود الآية: واتقوا فتنة تتعدى الظالم ، فتصيب الصالح والطالح " (٢) .

وهذا المعنى هو الذي تعضّده الأحاديث المتكاثرة عن رسول الله ﷺ .
من ذلك حديث عائشة (رضي الله عنها) قالت: عبث رسول الله ﷺ في منامه ، فقلنا: يا رسول الله صنعت شيئاً في منامك لم تكن تفعله . فقال: " العجب إن ناساً من أمّتي يؤمّون بالبيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت ، حتّى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم " فقلنا: يا رسول الله إن الطريق قد يجمع الناس . قال: " نعم ، فيهم المستبصر ، والمجبور ، وابن السبيل ، يهلكون مهلكاً واحداً ، ويصدرون مصادر شتى ، يبعثهم الله على نياتهم " (٣) .

قال الإمام النووي (رحمه الله):

"وفي هذا الحديث من الفقه التباعد من أهل الظلم ، والتحذير من مجالستهم ومجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين ، لئلا يناله ما يعاقبون به . وفيه أن من كثّر سواد قوم جرى عليه حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا " (٤) .

(١) انظر: المرجع السابق: ٤٧١/٢ . محاسن التأويل: ٢٩٧٦/٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣٩٣/٧ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط الساعة: (٥٢) . باب الخسف بالجيش الذي يؤمّ البيت: (٢) .
برقم: (٢٨٨٤) . ٢٢١٠-٢٢١١/٤ .

معنى: يؤمّون: أي يقصدون . والبيداء: الأرض الملساء التي لا شيء بها ، والمراد بها بيداء المدينة وهي التي أمام ذي الحليفة إلى جهة مكة . والمستبصر: المستبين لذلك القاصد له عمداً . والمجبور: المكره . ويهلكون مهلكاً واحداً ، ويصدرون مصادر شتى: أي يقع الهلاك في الدنيا على جميعهم ، ثم يبعثون مختلفين على قدر نياتهم فيجازون بحسبها . انظر: شرح التّووي على مسلم: ٧-٥/١٨ .

(٤) المرجع السابق: ٧/١٨ .

ولهذا أمر النبي ﷺ باجتنب الفتن ، والابتعاد عنها وعن أهلها، حتّى لا يصاب المسلم بشرّها، فيدخل فيمن دخل فيها ، أو يهلك فيمن هلك .

فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ : "ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من السّاعي. من تشرف لها تستشرفه" (١) فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به" (٢).

وفي الرواية الأخرى: " تكون فتنة النّائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من السّاعي. فمن وجد ملجأ أو معاذاً فليستعذ " (٣).

فقد حثّ النبي ﷺ على تجنّب الفتن ، والبعد عنها ، والهرب منها ، وعدم التّشبّه بشيء منها . وأن شرّها يكون على حسب التّعلّق بها (٤) .

نقل الحافظ ابن حجر (رحمه الله) عن الدّاودي أنّه قال:

" إنّ المراد من يكون مباشراً لها في الأحوال كلّها ، يعني أنّ بعضهم في ذلك أشدّ من بعض . فأعلامهم في ذلك السّاعي فيها بحيث يكون سبباً لإثارتها ، ثمّ من يكون قائماً بأسبابها وهو الماشي ، ثمّ من يكون مباشراً لها وهو القائم ، ثمّ من يكون مع النّظارة ولا يقاتل وهو القاعد ، ثمّ من يكون مجتنباً لها ولا يباشر ولا ينظر، وهو المضطجع اليقظان ، ثمّ من لا يقع منه شيء من ذلك ولكنه راضي وهو النّائم،

(١) أي من تطلّع إليها وتعرّض لها واثته فوقع فيها . النّهاية في غريب الحديث: ٤٦٢/٢.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن : (٦٧/٩٢). باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم: (٩). برقم :

(٧٠٨١). ص: ١٤٩٣. ولفظ مقارب في كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النّبوة في الإسلام: (٢٥).

برقم : (٣٦٠١). ص: ٧٥٨. وفي كتاب الفتن : (٦٧/٩٢). باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم: (٩).

برقم : (٧٠٨٢). ص: ١٤٩٣-١٤٩٤.

صحيح مسلم: بلفظه — إلّا أنّه قال: " ومن وجد " ولم يذكر : " معاذاً " — في كتاب الفتن وأشراط السّاعة:

(٥٢). باب نزول الفتن كمواقع القطر: (٣). برقم : (٢٨٨٦). ٢٢١١/٤-٢٢١٢.

(٣) المرجع السابق : بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب نزول الفتن كمواقع القطر: (٣). برقم:

(٢٨٨٦). ٢٢١٢/٤.

(٤) انظر: شرح التّووي على مسلم: ٩/١٨ . مختصر سنن أبي داود مع معالم السنن وتهذيب ابن القيّم : ١٤٩/٦ .

فتح الباري: ٥٢٦/١٤ . عون المعبود: ٢٢٤/١١ . الإذاعة: ص: ٢٣-٢٤ .

والمراد بالأفضلية في هذه الخيرية من يكون أقلّ شراً ممن فوقه على التفصيل المذكور" (١) .

وكلمًا بعد الإنسان من الفتن كان أفضل ممّن قرب منها ، وأسلم له في دينه .
يوضح ذلك ما جاء من زيادة في رواية أبي بكرة ؓ . قال ؓ : " فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إيل فليلق بابله ، ومن كانت له غنم فليلق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلق بأرضه .." الحديث (٢) .

وعن أم مالك البهزيّة قالت: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقرّبها قالت: قلت يا رسول الله من خير الناس فيها؟ قال: " رجل في ماشيته يؤدّي حقّها ويعبد ربّه، ورجل آخذ برأس فرسه يخيف العدوّ ويخيفونه " (٣) .
وعند أحمد والطبراني (رحمهما الله): " رجل معتزل في ماله يعبد ربّه ويؤدّي حقّه " (٤) .

وقد جاءت الروايات تترى عن النبي ﷺ ، وبصيغ متعدّدة تحذّر من الدّنو من الفتن ، وتأمّر بالابتعاد عنها . من ذلك :

❁ الدّعوة إلى اجتنابها، والسّعادة لمن جنبها :

عن المقداد بن الأسود ؓ قال: أيّم الله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إنّ السّعيد لمن جنب الفتن ، إنّ السّعيد لمن جنب الفتن ، إنّ السّعيد لمن جنب الفتن .

(١) فتح الباري: ٥٢٦/١٤ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢) . باب نزول الفتن كمواقع القطر: (٣) برقم: (٢٨٨٧) . ٢٢١٣-٢٢١٢/٤٠ .

(٣) سنن الترمذي: كتاب الفتن: (٣٠) . باب ما جاء كيف يكون الرّجل في الفتنة: (١٥) . برقم: (٢١٧٧) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٣٦١-٣٦٢ . انظر: السّلسلة الصّحيحة: ٣١٨/٢ . برقم: (٦٩٨) . وانظر: صحيح البخاري: كتاب الرّفاق: (٥٥/٨١) . باب العزلة راحة من غلاط السّوء : (٣٤) . برقم: (٦٤٩٤) . ص: ١٣٨١ .

(٤) مسند أحمد: بلفظه — جزء من حديث — في: ٤١٩/٦ .

معجم الطبراني الكبير: بلفظه . برقم: (٣٦٠) . ١٥٠/٢٥ .

ولمن ابتلي فصبر فَوَاهَا^(١) " (٢) .

❁ الأمر باعتزالها:

عن كُرْز الخَزَاعِي قال: أتى النَّبِيُّ ﷺ أعرابيَّ فقال: يا رسول الله هل لهذا الأمر من منتهى؟ قال: " نعم! فمن أراد الله به خيراً من أعجم أو عرب أدخله عليهم ثم تقع فتن كالظُّلِّ^(٣) يعودون فيها أسود صبّاً^(٤) ، يضرب بعضهم رقاب بعض، وأفضل النَّاس يومئذ مؤمن معتزل في شعب^(٥) من الشَّعَاب يَتَّقِي رَبَّهُ تبارك وتعالى ويدع النَّاس من شرِّه" (٦) .

(١) فواها : كلمة تقال للتَّلهف ، وقد توضع موضع الإعجاب بالشيء ، وقد ترد بمعنى التَّوجَّع . وقيل التَّوجَّع يقال فيه : آها . انظر: التَّهْيِة في غريب الحديث: ١٤٣/٥ . وانظر: غريب الحديث للخطَّابي: ٣٣٨/٢-٣٣٩ .

(٢) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الفتن والملاحم: (٣٤) . باب في التَّهْيِة عن السَّعْيِ في الفتن: (٢) . برقم: (٤٢٦٣) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح" . ص: ٤٦٥ . . وانظر معنى الحديث في: عون المعبود: ٢٣١/١١-٢٣٢ . إتحاف الجماعة: ٦٥/١ .

(٣) الظُّلُّ: جمع ظُلَّة وهي : كلُّ ما أظْلَكَ . أراد كأنَّها الجبال أو السَّحب . انظر: التَّهْيِة في غريب الحديث: ١٦٠/٣ .

(٤) الأسود أحبُّ الحَيَات وأعظمها . والصَّبَّ: جمع صُبُوب . وأصله إنَّ الأسود إذا أراد أن ينهش ارتفع ثم انصبَّ على المملوغ . شبه سرعتهم في الدَّخُول للفتن كسرعة انصباب الأسود إذا هُمَش . وقيل: الأسود جمع أسودة . وأسودة جمع سواد من التَّاس وهم الجماعة . وصُبُّ بوزن غُرَى جمع صاب من الصَّبَّوة أي جماعات مائلة إلى الدُّنْيَا متشوقَّة إليها ، أو تخفيف صابٍ من صبا عليه إذا أُثِيرَ من حيث لا يحتسب . أي إنَّهم يميلون إلى الفتن جماعات كثيرة . وانظر: غريب الحديث للخطَّابي: ٤٢٨/٢ . الفائق: ٢٠٨/٢ . التَّهْيِة في غريب الحديث: ٤١٩/٢ . ١١،٥/٣ .

(٥) الشَّعْب والشَّعْبَة : هو ما تشعَّب من الشيء أي تفرَّع منه . وشُعَب الجبال ما تفرَّق من رءوسها . انظر: الفائق: ٢٥١/٢ .

(٦) مسند أحمد: بلفظه في: ٤٧٧/٣ . قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح" . شرح السنَّة: ٢٩/١٥ . هامش (٢) . وانظر : الموسوعة الحديثية : مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٢٦٢/٢٥ . هامش : (١) .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حَبَّان: نحوه: برقم: (٥٩٥٦) . قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده حسن" . ٢٨٧/١٣ .

مستدرک الحاكم: نحوه في: ٨٩/١ . وقال: " هذا حديث صحيح وليس له علَّة ولم يخرجاه" . وقال الذهبي رحمه الله: " لم يخرجاه لتفرَّد عروة عن كرز وهو صحابي" . مسند أبي داود الطيالسي: نحوه برقم: (١٢٩٠) . ص: ١٨٢ .

❁ الدّعوة إلى الفرار منها:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف ^(١) الجبال ومواقع القطر ، يفرّ بدينه من الفتن " ^(٢) .

❁ الأمر بلزوم البيت، وكفّ اللسان، والاهتمام بأمر نفسه ، وترك غيره: وفي ذلك دعوة إلى اعتزال الفتن وأهلها، وإغلاق كلّ المسالك التي تؤدي إليها .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكر الفتنة فقال: " إذا رأيتم الناس قد مرّجت ^(٣) عهودهم ، وخفّت أماناتهم ، وكانوا هكذا " وشبك بين أصابعه قال: فقلت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: " الزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ بما تعرف ، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصّة نفسك ، ودع عنك أمر العامّة " ^(٤) .

(١) شَعَفٌ: شعف كلّ شيء أعلاه ، وجمعه شعاف. والمراد رأس الجبال. انظر: غريب الحديث للهيروني: ٧/١.

الفائق: ٢٤٨/٢. النّهاية في غريب الحديث: ٤٨١/٢.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الإيمان: (٢). باب من الدّين الفرار من الفتن: (١٢). برقم: (١٩). ص: ١٨. وفي كتاب بدء الخلق: (٣٥/٥٩). باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال: (١٥). برقم: (٣٣٠٠). ص: ٦٩٤. إلّا أنّه قال: " مال الرّجل ". وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب التّعرب في الفتنة: (١٤). برقم: (٧٠٨٨). ص: ١٤٩٥. و بلفظ مقارب في كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النّبوة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٦٠٠). ص: ٧٥٨. وفي كتاب الرّفاق: (٥٥/٨١). باب العزلة راحة من خلّاط السّوء: (٣٤). برقم: (٦٤٩٥). ص: ١٣٨١.

(٣) مَرَجَتْ: أي احتلّطت وفسدت. وأصل المَرَج أن يقلق الشّيء فلا يستقر . وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٣٦٨/١. الفائق: ٢٦٠/١. النّهاية في غريب الحديث: ٣١٤/٤.

(٤) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب الملاحم: (٣٦). باب الأمر والنهي: (١٧). برقم (٤٣٤٣). قال الألباني رحمه الله: " حسن صحيح ". ونحوه برقم: (٤٣٤٢). قال الألباني رحمه الله: " صحيح ". ص: ٤٧٤. سنن ابن ماجه: نحوه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب الثّبت في الفتنة: (١٠). برقم: (٣٩٥٧). قال الألباني رحمه الله: " صحيح ". ص: ٤٢٥. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٣٦٧/١. برقم: (٢٠٥). مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢١٢/٢. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٧٢/١١-١٧٣. برقم: (٦٩٨٧).

❁ والأحاديث دالة على اعتزال الفتن واجتتاب أهلها . وقد أدى ذلك إلى اختلاف السلف رحمهم الله في أصل العزلة ، وهل هي جائزة مطلقاً لهذه الأحاديث أم مقيدة بشروط أخرى؟ .

فذهب الجمهور إلى أن الاختلاط بالناس أولى ، لما يترتب على ذلك من الفوائد الدينية ، كالقيام بشعائر الإسلام ، وتكثير سواد المسلمين ، وإيصال الخير إليهم.

وذهب قوم إلى أن العزلة أولى لتحقيق السلامة فيها .
وذهب البعض إلى تفضيل المخالطة لمن غلب على ظنه أنه لا يقع في معصية . فإن أشكل عليه الأمر فالعزلة أولى .

وذهب آخرون: إلى أن الأمر يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، فمنهم من يتحتم عليه المخالطة . ومنهم من تترجح المخالطة في حقه . ومنهم من يستوي عنده الأمران ، فلا يتحقق أحدهما من الآخر . ومنهم من تترجح عنده العزلة .

ونحوه في: ١٦٢/٢ . قال أحمد شاكر رحمه الله: "إسناده صحيح" . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٣-٩/١٠ . برقم: (٦٥٠٨) .

ونحوه في: ٢٢٠/٢ . قال أحمد شاكر رحمه الله: "إسناده صحيح" . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٢/١٢ . برقم: (٧٠٤٩) .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: نحوه برقم: (٥٩٥٠) . قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم" . عن أبي هريرة رضي الله عنه . ٢٧٩/١٣ . ونحوه عنه برقم: (٥٩٥١) . ٢٨١/١٣ . وبرقم: (٦٧٣٠) . ١٢٤/١٥-١٢٥ .

مستدرک الحاكم: نحوه في: ١٧١/٢ . وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السّياقة" . وقال الذهبي رحمه الله: "على شرط البخاري ومسلم" . ونحوه في: ٤٨١/٤ . وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" . وقال الذهبي رحمه الله: "صحيح" .

مسند أبي يعلى: نحوه برقم: (٥٥٩٣) .
وانظر: شرح السنّة: ١٣/١٥ برقم: (٤٢٢١) . وانظر شرح الحديث في: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: ٢٠١-٢٠٠/١٥ . عون المعبود: ٣٣٤/١١-٣٣٥ .

وهذا كله حيث لا تكون فتنة عامة ، فإن وقعت الفتنة ترجّحت العزلة ، لما يحدث في الغالب من الوقوع في المحذور ، ووقوع العقوبة على أصحاب الفتن وغيرهم^(١).

قال ابن كثير (رحمه الله):

"والمقصود أنه إذا ظهرت الفتن فإنه يسوّغ اعتزال الناس حينئذ " (٢).

وقال العيني (رحمه الله):

"إنّ اعتزال الناس عند ظهور الفتن والهرب عنهم أسلم للذين من مخالطتهم" (٣).

وقد أمر النبي ﷺ بعض الصحابة ﷺ باعتزال الفتن وتجنبها. وقد فعلوا ﷺ فلم يخوضوا في الفتن التي وقعت في عصرهم . من أولئك :

• أبو ذر ﷺ :

عن أبي ذر ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ : "يا أبا ذر" قلت : لبيك (٤)
يارسول الله وسعدّيك (٥) — فذكر الحديث — قال فيه كيف أنت إذا أصاب الناس

(١) انظر: فتح الباري: ٥٤١/١٤. وانظر: ١٣٢/١٣ .

(٢) النّهاية في الفتن: ٣٧/١ .

(٣) عمدة القاري : ٨٣/٢٣ .

(٤) لبيك: من التلبية ، مأخوذة من لبّ فلان بالمكان إذا لزمه . ومعنى لبيك : أي أنا مقيم على طاعتك وأمرك . وإنّما

تثوره للتوكيد لأنّهم أرادوا به : إقامة بعد إقامة ، وطاعة مع طاعة ، وإجابة بعد إجابة .

انظر: غريب الحديث للهروي: ١٥/٣-١٦ ، ٤٠/٢٤٠ . غريب الحديث لابن قتيبة: ٢٢٠/١ . غريب الحديث

للخطّابي: ٢٢٦-٢٢٧ . الفائق: ٢٩٥/٣ . النّهاية في غريب الحديث: ٢٢٢/٤ .

(٥) سعدّيك: أي سعداً مقروناً بسعد . غريب الحديث لابن قتيبة: ٢٢٠/١ . وقيل معناه: إجابة ومساعدة . والمساعدة

المطاوعة . أي: أجيبك إجابة وأطيعك طاعة . والمراد بالتثنية التكرير والتكثير . انظر: الفائق: ١٧٩/٢ . وانظر:

النّهاية في غريب الحديث: ٣٦٦/٢ .

موت يكون البيت فيه بالوصيف ^(١) — يعني القبر — " قلت : الله ورسوله أعلم . أو قال : ما خار الله لي ورسوله ؟ . قال : "عليك بالصبر" . أو قال : "تصبر" . ثم قال لي : " يا أبا ذر " قلت : لبيك وسعديك . قال : "كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت ^(٢) قد غرقت بالدم ؟" قلت : ما خار الله لي ورسوله ؟ . قال : "عليك بمن أنت منه" قلت : يا رسول الله أفلا أخذ سيفي وأضعه على عاتقي ^(٣) ؟ قال : "شاركت القوم إذن" . قلت : فما تأمرني ؟ قال : "تلزم بيتك" . قلت : فإن دخل علي بيتي ؟ قال : "فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك يَبوء بإثمك وإثمه" ^(٤) .

❁ محمد بن مسلمة رحمته الله :

عن أبي بردة ^(٥) قال : دخلت على محمد بن مسلمة فقال : إن رسول الله ﷺ قال : "إنها ستكون فتنة وفرقة واختلاف . فإذا كان كذلك فأت بسيفك أحداً فاضربه

(١) الوصيف: هو العبد ، والأمة وصيفة . وجمعها وصفاء ووصائف . يريد يكثر الموت حتى يصير موضع قبر يشترى بعدد من كثرة الموت . وقبر الميت بيته . النهاية في غريب الحديث : ١٩١/٥ .

(٢) أحجار الزيت : جمع حجر منسوبة إلى الزيت الذي يؤتمد به . موضع متصل بالمدينة قريب من الزوراء . إليه كان يبرز رسول الله ﷺ إذا استسقى . معجم ما استعجم : ١ / ٤٢٦ . وانظر : معجم البلدان : ١٠٩/١ .

(٣) العاتق هو المنكب . انظر : القاموس المحيط : ص : ١١٧٠ .

(٤) سنن أبي داود : بلفظه في : كتاب الفتن والملاحم : (٣٤) . باب في التهي عن السعي في الفتنة : (٢) . برقم : (٤٢٦١) . قال الألباني رحمه الله : " صحيح " . ص : ٤٦٥ . ونحوه في كتاب الحدود : (٣٧) . باب في قطع التباش : (٢٠) . برقم : (٤٤٠٩) . قال الألباني رحمه الله : " صحيح " . ص : ٤٨٢ .

سنن ابن ماجه : نحوه في : كتاب الفتن : (٣٦) . باب التثبت في الفتنة : (١٠) . برقم : (٣٩٥٨) . قال الألباني رحمه الله : " صحيح " . ص : ٤٢٥ .

مسند أحمد : نحوه في : ١٦٣، ١٤٩/٥ .

مستدرک الحاكم : نحوه في : ١٦٩/٢ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " . وقال الذهبي رحمه الله : " على شرط البخاري ومسلم " . ونحوه في : ٤٧٠/٤ .

مسند الطيالسي : نحوه برقم : (٤٥٩) . ص : ٦٢ .

وانظر : شرح السنة : برقم : (٤٢٢٠) . ١٢/١٥ .

(٥) أبو بردة : هو ابن عبد الله بن قيس أبي موسى الأشعري . قيل اسمه عامر — وعليه الأكثرية — وقيل : الحارث . وقيل : اسمه كنيته . تابعي ، روى عن جماعة من الصحابة . ثقة ، فقيه ، من نبلاء العلماء . كثير الحديث . تولى القضاء بالكوفة . توفي سنة : ١٠٤هـ .

حَتَّى يَنْقُطِعَ ، ثُمَّ اجْلِسْ فِي بَيْتِكَ حَتَّى تَأْتِيكَ يَدُ خَاطِئَةٍ ، أَوْ مَنِيَّةٌ ^(١) قَاضِيَةٌ . فَقَدْ وَقَعْتَ ، وَفَعَلْتَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " ^(٢) .

وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ ﷺ هُوَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ حَذِيفَةُ ﷺ : " إِنِّي لَأَعْرِفُ رَجُلًا لَا تَضُرُّهُ الْفِتْنُ شَيْئًا . قَالَ ^(٣) : فَخَرَجْنَا فَإِذَا فُسْطَاطٌ مُضْرُوبٌ ، فَدَخَلْنَا فَإِذَا فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ . فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ . ، فَقَالَ : مَا أُرِيدُ أَنْ يَشْتَمَلَ عَلَيَّ شَيْءٌ مِنْ أَمْصَارِكُمْ حَتَّى تَنْتَجِلِيَ عَمَّا أَنْجَلْتَ " ^(٤) .

❁ أَهْبَانُ بْنُ صَيْفِي الْغَفَارِيُّ ﷺ :

عَنْ عُدَيْسَةَ بِنْتِ أَهْبَانَ ^(٥) قَالَتْ: لَمَّا جَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ هَهُنَا الْبَصْرَةَ دَخَلَ عَلَى أَبِي فَقَالَ: يَا أَبَا مُسْلِمٍ أَلَا تَعِينُنِي عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ؟ قَالَ: بَلَى . قَالَ: فَدَعَا جَارِيَةً لَهُ ، فَقَالَ: يَا جَارِيَةُ أَخْرِجِي سَيْفِي . قَالَ: فَأَخْرَجْتَهُ . فَسَلَّ مِنْهُ قَدْرَ شِبْرِ فَإِذَا

وانظر: الطبقات الكبرى: ٢٦٨/٦. طبقات خليفة: ص: ١٥٨. التاريخ الكبير: ٤٤٧/٦. معرفة الثقات: ص: ٣٨٧/٢. الجرح والتعديل: ٣٢٥/٦. ثقات ابن حبان: ١٨٧/٥. مشاهير علماء الأمصار: ١٠٤/١. تهذيب الكمال: ٦٦/٣٣. التعديل والتحريح: ٩٩٠/٣. تذكرة الحفاظ: ٩٥/١. الكاشف: ٤٠٧/٢. جامع التحصيل: ص: ٢٠٤. تهذيب التهذيب: ٢١/١٢. تقريب التهذيب: ٦٢١/١.

(١) المنيّة: هي الموت أو قدر الموت . انظر: لسان العرب: ٢٩٤/١٥. القاموس المحيط: ص: ١٧٢١. وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ٣٠٧/١.

(٢) سنن ابن ماجه : بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب التثبت في الفتنة: (١٠). برقم: (٣٩٦٢). قال الألباني رحمه الله: " صحيح " ص: ٤٢٦. وهو في السلسلة الصحيحة: ٣٦٩/٣ . مستدرک أحمد: نحوه في: ٤٩٣/٣ . مستدرک الحاكم: نحوه في: ١٢٧/٣ .

(٣) القائل هو: ثعلبة بن ضبيعة راوي الحديث عن حذيفة ﷺ .

(٤) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب السنة: (٣٩). باب ما يدلّ على ترك الكلام في الفتنة: (١٢) . برقم: (٤٦٦٤) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح لغيره " ص: ٥٠٩ . مستدرک الحاكم: نحوه في: ٤٩١/٣ - ٤٩٢ . وقال: " هذه فضيلة كبيرة بإسناد صحيح " . وقال الذهبي رحمه الله: " صحيح " .

(٥) عديسة بالتصغير - بنت أهبان بن صيفي الغفاري . تابعة . وأبوها من الصحابة ﷺ . روت عنه وعن عليّ ابن أبي طالب ﷺ . قال عنها ابن حجر (رحمه الله) : مقبولة .

وانظر: الطبقات الكبرى: ٤٨١/٨ . تهذيب الكمال: ٢٤٠/٣٥ . الكاشف: ٥١٤/٢ . تهذيب التهذيب: ٤٦٥/١٢ . تقريب التهذيب: ٧٥٠/١ .

هو خشب . فقال: إنَّ خليلي وابن عمِّك ﷺ عهد إليَّ إذا كانت الفتنة بين المسلمين فأتَّخذ سيفاً من خشب . فإن شئت خرجت معك . قال: لا حاجة لي فيك ، ولا في سيفك ^(١) .

وقد اعتزل الفتن جماعة من الصحابة غير ما ذكر . منهم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأبو بكر وعمران بن حصين وغيرهم ﷺ ^(٢) .
وقد احتجَّت طائفة من أهل العلم بهذه الأحاديث على اعتزال الفتنة ، ولزوم البيت ، وتسليم النفس للقتل عند جميع الفتن . وأنَّه لا يجوز للمسلم أن ينهض في شيء منها ، ولو أدَّى ذلك إلى إزهاق نفسه فليس له أن يدفع عنها .
وذهب جماعة إلى الاعتزال ولزوم البيوت ، ولكن إذا أراد أحد نفسه أو ماله فعليه بدفع ذلك عنه ، سواء كان المريد لذلك متعمداً أو متأولاً .

وهو الصحيح من القولين . ويسنده حديث أبي هريرة ﷺ . قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: "فلا تعطه مالك" قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: "قاتله" قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: "أنت شهيد" قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: "هو في النار" ^(٣) .

كما أنَّ الأحاديث السابقة دالة في مضمونها على الهجرة من موطن الفتن إلى المواطن التي يأمن المسلم فيها على دينه .

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ

(١) سنن ابن ماجه: بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب الثَّبَت في الفتنة: (١٠) . برقم: (٣٩٦٠) . قال الألباني

رحمه الله: " صحيح " . ص: ٤٢٦ . وهو في السُّلْسِلَة الصَّحِيحَة: ٣٦٨/٣ .

مسند أحمد: نحوه في: ٦٩/٥ .

(٢) انظر: التَّذْكَرَة: ص: ٦٥٧ . فتح الباري: ٥٣٠/١٤ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإيمان: (١) . باب الدَّلِيل على أنَّ من قصد أخذ مال غيره بغير حقَّ كان القاصد

مهْدِر الدَّم في حقِّه ، وإن قتل كان في النَّار ، وأنَّ من قتل دون ماله فهو شهيد: (٦٢) . برقم: (١٤٠) . ١٢٤/١ .

وانظر: شرح النَّوَوِي على مسلم: ١٠/١٨ . التَّذْكَرَة: ص: ٦٥٦-٦٥٧ . فتح الباري: ٥٣٠/١٤ . وأمَّا القَتَال

في الفتنة لنصر الحقِّ ، ودفع الفتنه الباغية ، والخلاف في ذلك ، وذكر الرَّاحِج . سبق الحديث عنه: انظر: ص: ٦٩ .

وَسِعَتْ فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا
 الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا
 ﴿١٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٩﴾

[النساء: ٩٧-٩٩] .

قال ابن كثير (رحمه الله):

"هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين ، وهو قادر
 على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه ، مرتكب حراماً
 بالإجماع، وبنص هذه الآية " (١) .

وقال الإمام القرطبي (رحمه الله):

"وفي هذه الآية دليل على هجران الأرض التي يعمل فيها بالمعاصي" (٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم: ٨٢٢/١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣٤٦/٥ .

وفي الآية أيضاً تحذير بالغ للذين يقيمون في بلاد الكفر بحجة أن بلاد الإسلام غير صالحة للإقامة فيها . إما لضيق
 العيش ، أو عدم توفر فرص للعمل ، أو لضغوط سياسية ، أو غير ذلك .

عن أبي الأسود (رحمه الله) قال " قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه ، فلقيت عكرمة فأخبرته . فنهاني أشد
 النهي . ثم قال : أخبرني ابن عباس أن أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثر سواد المشركين على
 رسول الله ﷺ ، فيأتي السهم فيرمى فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يضربه فيقتله . فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

تَوَفَّلَهُمُ الْمَلِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النساء: ٩٧] .

صحيح البخاري: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب من كره أن يكثر سواد الفتن والظلم: (١٢) . برقم:

(٧٠٨٥) . ص: ١٤٩٤-١٤٩٥ . ولفظ مقارب في كتاب التفسير: (٣٩/٦٥) . بلب : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّلَهُمْ

الْمَلِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النساء: ٩٧] . برقم: (٤٥٩٦) . ص: ٩٦٢ .

وعن هز بن حكيم بن معاوية عن أبيه عن جده (رحمهم الله) مرفوعاً : " لا يقبل الله عز وجل من مشرك بعد ملأ
 أسلم عملاً أو يفارق المشركين إلى المسلمين" .

ولا يعكّر على هذا ما جاء في حديث عائشة (رضي الله عنها) قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة فقال: " لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا" (١) .

وقد أجيب على هذا الحديث بأجوبة ، يتوجّه منها جوابان :
أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكّة لأنها صارت دار إسلام .
والثاني: لا هجرة بعد الفتح فضلها كفضل الهجرة قبل الفتح .
والمراد بالفتح فتح مكّة (٢) .

سنن النسائي: كتاب الزكاة: (٢٣). باب من سأل بالله عزّ وجلّ: (٧٢). برقم: (٢٥٦٨). قال الألباني (رحمه الله): "حسن". ص: ٢٧٧. سنن ابن ماجه بلفظ قريب . في كتاب الحدود: (٢٠). باب المرتدّ عن دينه: (٢). برقم: (٢٥٣٦). قال الألباني رحمه الله: "حسن". ص: ٢٧٦.
وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال ﷺ: " أنا بريء من كلّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين" قالوا يا رسول الله لم ؟ قال: " لا تراءى نارهما".

سنن أبي داود: كتاب الجهاد: (١٥). باب التّهي عن قتل من اعتصم بالسّجود. برقم: (٢٦٤٥). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٢٩٨. سنن الترمذي: بلفظ قريب . في: كتاب السّير: (١٨). باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين: (٤٢). برقم: (١٦٠٤). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٢٨٠.
والأحاديث في ذلك كثيرة وكلّها دأمة لمن أقام بين ظهري الكفار لغير سبب شرعي كالدعوة إلى الله ، أو طلب علمي ضروري يحتاج إليه أهل الإسلام ، ونحو ذلك .

ولذا قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله): " وفيه — أي حديث أبي الأسود — تخطئة من يقيم بين أهل المعصية باختياره لا لقصد صحيح من إنكار عليهم مثلاً ، أو رجاء إنقاذ مسلم من هلكة . وأنّ القادر على التحول عنهم لا يعذر كما وقع للذين كانوا أسلموا ومنعهم المشركون من أهلهم من الهجرة .." . فتح الباري ١٤/٥٣٥ .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الجهاد والسّير: (٣٢/٥٦). باب فضل الجهاد والسّير: (١). برقم: (٢٧٨٣). ص: ٥٨٨. عن ابن عباس (رضي الله عنهما) . وعنه في باب وجوب التّفير ، وما يجب من الجهاد والنتية: (٢٧). برقم: (٢٨٢٥). ص: ٥٩٧. و بلفظ مقارب عنه أيضاً في باب لا هجرة بعد الفتح: (١٩٣/١٩٤). برقم: (٣٠٧٧). ص: ٦٤٨.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإمارة: (٣٣). باب المبايعه بعد فتح مكّة على الإسلام والجهاد والخير ، وبيان "لا هجرة بعد الفتح" : (٢٠). برقم: (١٨٦٤). ٣/١٤٨٨ .

(٢) انظر: شرح الثّوري على مسلم: ١٢٣/٩ ، ٨/١٣ الجامع لأحكام القرآن: ٣٥٠/٥ وانظر: فتح الباري: ٦/١٢٢ ، ٧/٦٣٥ .

وعن عطاء بن أبي رباح (رحمه الله) ^(١) قال: زرت عائشة (رضي الله عنها) مع عبيد بن عمير الليثي ^(٢) . فسألناها عن الهجرة . فقالت: " لا هجرة اليوم . كان المؤمنون يفرّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه . فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام . واليوم يعبد ربّه حيث شاء ولكن جهاد ونية " ^(٣) .

فقد بينت عائشة (رضي الله عنها) أن الهجرة سببها الخوف من الفتنة . والحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً . فمتى ما وجدت الفتنة وعجز الإنسان عن القيام بما يجب عليه وجبت عليه الهجرة ^(٤) .

وقد أذن النبي ﷺ لسلمة بن الأكوع ﷺ في سكن البادية بعد هجرته إلى المدينة .

(١) هو عطاء بن أبي رباح . وأبو رباح اسمه أسلم — أبو محمد القرشي مولا هم اليماني نزيل مكّة . من أئمة التابعين وسادتهم . ثقة فقيه فاضل لكنّه كثير الإرسال . كان مفتي مكّة في زمانه ومحدثهم . سمع طائفة من الصحابة . مات سنة ١١٤ هـ على المشهور .

وانظر: الطبقات الكبرى: ٣٨٦/٢ ، ٤٦٧/٥ . طبقات خليفة: ص: ٢٨٠ . التاريخ الكبير: ٤٦٣/٦ . معرفة الثقات: ١٣٥/٢ . الجرح والتعديل: ٣٣٠/٦ . ثقات ابن حبان: ١٩٨/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ٨١/١ . التعديل والتحريح: ١٠٠١/٣ . تهذيب الكمال: ٦٩/٢٠ . تذكرة الحفاظ: ٩٨/١ . الكاشف: ٢١/٢ . جامع التحصيل: ص: ٢٣٧ . تهذيب التهذيب: ١٧٩/٧ . تقريب التهذيب: ٣٩١/١ . لسان الميزان: ٣٠٥/٧ .

(٢) هو عبيد بن عمير بن قتادة الليثي ، أبو عاصم المكي . لأبيه صحة . من كبار التابعين ، وروى عن جماعة من الصحابة . قاص أهل مكّة . كان عالماً واعظاً بليغاً فصيحاً كبير القدر . كثير الحديث ، مجمع على ثقته . مات سنة: ٧٤ هـ . وقيل: ٦٨ هـ .

وانظر: الطبقات الكبرى: ٤٦٣/٥ . طبقات خليفة: ص: ٢٧٩ . التاريخ الكبير: ٤٥٥/٥ . معرفة الثقات: ١١٨/٢ . الجرح والتعديل: ٤٠٩/٥ . ثقات ابن حبان: ١٣٢/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ٨٢/١ . التعديل والتحريح: ٩٢٥/٢ . تهذيب الكمال: ٢٢٣/١٩ . تذكرة الحفاظ: ٥٠/١ . الكاشف: ٦٩١/١ . جامع التحصيل: ص: ٢٣٤ . الإصابة: ٦٠/٥ . تهذيب التهذيب: ٦٥/٧ . تقريب التهذيب: ٣٧٧/١ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب مناقب الأنصار: (٣٧/٦٣) . باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: (١٠٥/٤٥) برقم: (٣٩٠٠) . ص: ٨١٥ . و بلفظ مقارب في كتاب الجهاد والسير: (٣٢/٥٦) . باب لا هجرة بعد الفتح: (١٩٣/١٩٤) . برقم: (٣٠٨٠) . ص: ٣٤٩ .

ونحوه في كتاب المغازي: (٣٨/٦٤) . باب: (٥٤/٥٣) . برقم: (٤٣١٢) . ص: ٨٩٥ .

(٤) انظر: فتح الباري: ٦٣٥/٧ .

وقد أجمعت الأمة على تحريم ترك المهاجر هجرته ورجوعه إلى وطنه ،
وعلى أن ارتداد المهاجر أعرابياً ^(١) من الكبائر ^(٢) .
ولذلك قال الحجاج لسلمة عليه السلام : يا ابن الأكوع ارتدّدت على عقبيك ؟ تعرّبت ^(٣) ؟
قال : لا . ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله أذن لي في البدو ^(٤) .
وقد كان صلى الله عليه وآله خرج إلى الرّبذة ^(٥) لما قتل عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وتزوَّج هناك
امراً وولدت له ، فلم يزل بها حتّى اقبل قبل أن يموت بليال فنزل المدينة ^(٦) .
فيتبين ممّا سبق أن إذن النّبي صلى الله عليه وآله لسلمة عليه السلام بالتعرّب والهجرة عند حلول
الفتن . ولذلك عنون البخاري له بباب التعرّب في الفتنة .

قال الإمام القرطبي (رحمه الله):

"قال علماؤنا: فالفتنة إذا عملت هلك الكلّ وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار
المنكر وعدم التّغيير، وإذا لم تُغيّر وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران
تلك البلدة والهرب منها" ^(٧) .

(١) الأعرابي : هو ساكن البادية الذي يقيم في الأمصار ولا يدخلها إلّا لحاجة . والجمع أعراب .

انظر: لسان العرب: ٥٨٧/١ .

(٢) شرح التّووي على مسلم: ٦/١٣ .

(٣) تعرّب: أي صار أعرابياً فعاد للبادية وأقام بها مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً . انظر: لسان العرب: ٥٨٧/١ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن : (٦٧/٩٢) . باب التعرّب في الفتنة: (١٤) . برقم : (٧٠٨٧) .

ص: ١٤٩٥ .

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإمارة: (٣٣) . باب تحريم رجوع المهاجر إلى استيطان وطنه: (١٩) . برقم :

(١٨٦٢) . ١٤٨٦/٣ .

(٥) الرّبذة: أصلها الشّدة . وقيل: هي حفّة القوائم في المشي ، وحفّة الأصابع في العمل . وهي قرية معروفة من قرى

المدينة النبويّة . وهي التي أقام فيها أبو ذر الغفاري رضي الله عنه حتّى مات وقبر بها . انظر: معجم البلدان: ٢٤/٣ .

(٦) انظر: صحيح البخاري: كتاب الفتن : (٦٧/٩٢) . باب التعرّب في الفتنة: (١٤) . برقم : (٧٠٨٧) .

ص: ١٤٩٥ .

(٧) الجامع لأحكام القرآن: ٣٩٢/٧ . التّذكرة ص: ٦١١-٦١٢ . وفيه اختلاف يسير .

﴿ المبحث الثالث ﴾

الصَّبر عند وقوع الفتن

قال الله تعالى: ﴿الْمَرْءُ أَحْسَبُ النَّاسِ أَنْ يَتْرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ ﴿١﴾ [العنكبوت: ١-٣] .

أي أحسب الذين ادَّعوا أنهم مؤمنون وقالوا ذلك بأفواههم أننا نقنع منهم بما قالوا دون اختبار وامتحان يتبين من خلاله صدق الصادق في قوله . الذي رسخ قدمه في الإيمان ، وثبت على دينه ، وصبر عند الفتن فلم يتزعزع ولم يتضعع . من كذب الكاذب في دعواه . الذي لم يستقر الإيمان في قلبه ، ولم يصبر عند المحن ، ولم يثبت عند الفتن . فدعواه خالية من الحقيقة ، لا وزن لها ولا قيمة . وليس هذا التمهيص متعلقاً بهذه الأمة فحسب ، بل هو حكم أجري على الأمم السابقة . فقد محصهم الله وامتحانهم ليتبين صدق صادقهم من كذب كاذبهم ^(١) .

قال الزمخشري:

" أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم ، وأظهروا القول بالإيمان: أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يمحنهم الله بضروب المحن حتى يبلو صبرهم ، وثبات أقدامهم ، وصحة عقائدهم ، ونصوح نياتهم ، ليتميز المخلص من غير المخلص ، والراسخ في الدين من المضطرب ، والتمكّن من العابد على خوف" ^(٢) .

(١) انظر معاني الآيات في :

جامع البيان: ١٢٨/٢٠-١٢٩ . طبعة الحلبي . معاني القرآن للزجاج: ١٥٩/٤-١٦٠ . الجامع لأحكام القرآن:

٣٢٤/١٣ . تفسير القرآن العظيم: ٦٤٤/٣ .

(٢) الكشف: ٣٤٥/٣ . مطبعة الاستقامة .

وقال القاسمي (رحمه الله) : بعد إيراده لمجموعة من الآيات التي تقيّد المعاني السابقة . قال :

" وكلّ هذه الآيات وأمثالها ممّا نزل بمكّة في تثبيت قلوب المؤمنين ، وتصبيرهم على ما كان ينالهم من أذى المشركين ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي من أتباع الأنبياء عليهم السّلام بضروب من الفتن من أعدائهم ، كما دون التاريخ اضطهادهم . أي فصبروا وما وهنوا لما أصابهم حتّى علت كلمة الله " (١) .

فالفتن إنّما تأتي لتمحّص العباد ، واختبر إيمانهم ، فمن صبر فذاك الذي اجتاز المحنة بصدق وثبات ، ومن وهن عن الصّبر فذاك الذي رسب في ما اختبر به .

قال الإمام ابن القيم (رحمه الله) :

" فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصّبر ، فإن صبر كانت الفتنة ممحّصة له ، ومخلّصة من الذّنوب ، كما يخلّص الكير (٢) خبث الذهب والفضة . فالفتن كير القلوب ، ومحكّ الإيمان ، وبها يتبيّن الصّادق من الكاذب . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣] .

فالفتنه قسّمت للناس إلى صادق وكاذب ، ومؤمن ومنافق ، وطيّب وخبيث . فمن صبر عليها كانت رحمة في حقّه ، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها ، ومن لم

قوله: العابد على حرف: أصل الحرف من كلّ شيء: طرفه وشفيره وحده ، ومن الجبل أعلاه المحّد . والمراد هنا: أي أنّه يعبد الله على وجه . كأن يعبد على السّراء لا على الضّراء ، أو على شكّ ، أو على غير طمأنينة على أمره : أي لا يدخل في الدّين متمكّناً . انظر: القاموس المحيط: ص: ١٠٣٢-١٠٣٣ .

(١) محاسن التّأويل: ٤٧٣٦/١٣-٤٧٣٧ .

(٢) كير: الكير: كير الحدّاد . وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات . لسان العرب: ١٥٧/٥ . انظر: مختار

الصّحاح : ص: ٥٨٥ . القاموس المحيط: : ص: ٦٠٨ . وهو إنّما يستخدمه الحدّاد لينفخ به النار ليبلّين بها الحديد ويجلو صدأه . والمراد هنا : أنّ الابتلاء يجلو العبد المؤمن ويظهره من أدران المعاصي كما يجلو الكير صدأ الحديد .

يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها " (١) .

ولما كان الصبر ذا أثر عظيم في الثبات عند الفتن قرنه الله عز وجل بالفتنة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] .

أي إن ربك لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله ، وترك دياره وأمواله مبتغياً رضوان الله ، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر ولكنه ثبت على إيمانه ، وجاهد أعداء الله وصبر ، فإنه ينال بذلك مغفرة الله لذنوبه ورحمته له (٢) .

كما قرن سبحانه بين الفتنة والصبر في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠] .

أي إن الله عز وجل فتن العباد بعضهم ببعض . ففتن الرسل بالمرسل إليهم في دعوتهم ، والصبر على أذاهم ، وحمل مشاق تبليغ رسالات الله . وفتن المرسل إليهم بالرسل هل يطيعونهم وينصرونهم ، أم يخالفونهم ويكفرون بهم ؟ . وفتن العلماء بالجهال هل يعلمونهم وينصحونهم ويصبرون على ذلك ؟ . وفتن الجهال بالعلماء هل يطيعونهم ويهتدون بهم ؟ . وفتن الملوك بالرعية ، والرعية بالملوك . والأغنياء بالفقراء ، والفقراء بالأغنياء . الضعفاء بالأقوياء ، والأقوياء بالضعفاء . والسادة بالأتباع ، والأتباع بالسادة . والرجل بامرأته ، والمرأة بزوجها . والمؤمن بالكافر ، والكافر بالمؤمن . والمعافى بالمبتلى ، والمبتلى بالمعافى (٣) .

(١) إغاثة اللهفان: ١٦٢/٢ .

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص: ٤٠٢ ، وانظر في معنى الآية وأسباب نزولها : جامع البيان: ١٨٣/١٤ . طبعة الحلبي . معاني القرآن للزجاج: ٢٢٠/٣ . التفسير الكبير: ١٢٥/٢٠-١٢٦ . تفسير القرآن العظيم: ٩١٣/٢ . محاسن التأويل: ٣٨٦٦-٣٨٦٧/١٠ .

(٣) انظر: إغاثة اللهفان : ١٦٠/٢-١٦١ . وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ١٨٤/١٨-١٩٥ . طبعة الحلبي . التفسير الكبير: ٦٥/٢٤-٦٦ . الجامع لأحكام القرآن: ١٨/١٣-١٩ . تفسير القرآن العظيم : ٥٠٠/٣ . تفسير الكريم الرحمن: ٧٠/٦ .

وهكذا فتن الخلق بعضهم ببعض تمحيصاً واختباراً لهم ليعلم مدى صبرهم على الحق وثباتهم فيما فتوا به .

ولذلك كان تخصيص رسول الله ﷺ بكرامة النبوة فتننة لأشراف الناس من الكفار في عصره .

ولذا اعترضوا فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] (١) .

وذلك ليس لهم ، بل هو الله ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته . فينتقي لها أزكى الخلق قلباً ونفساً ، وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً . ولذا رد عليهم فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] (٢) .

كما كان إيمان الضعفاء من الرجال والنساء ، والعبيد والإماء في أول مبعث النبي ﷺ فتننة للأشراف . إذ استكثر هؤلاء أن يخصّ الضعفاء من بينهم بإصابة الحق ، وهداية الإيمان دونهم ، وهم كما يزعمون أولى بالخير من أولئك الضعفاء كما قالوا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] .

فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] (٣) .

فإنه أعلم بمن يستحقّ نعمة الهداية فيشكره عليها، ومن أغفل قلبه ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] .

(١) وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٨/١٣ .

(٢) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ١٩٢/٤ .

(٣) وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ٣٨٨-٣٨٩ . طبعة شاكر . زاد المسير: ٣٤/٣ . تفسير القرآن العظيم:

٢١٦/٢ . محاسن التأويل: ٢٣٢٦-٢٣٢٧ . إغاثة اللهفان: ١٦١/٢-١٦٢ .

وقد صبر أولئك الضعفاء ، وثبتوا على إيمانهم فلم تؤثر فيهم مزاعم الكفار وترهاتهم واستحقارهم واستهزاؤهم بهم . فكان جزاؤهم عند الله عظيماً . ألا وهو الفوز بالجنة .

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [١١] فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿ ١٢ ﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿ ١٣ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١١] (١).

فالكافر مفتون بالمؤمن ، والمؤمن مفتون بالكافر .
ولهذا جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين الذين أمر الله المؤمنين من هذه الأمة بالتأسي بهم فيه:
﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المنحة: ٥] .

قال الإمام ابن جرير (رحمه الله):
" يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل إبراهيم خليله والذين معه: يا ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا بك ، فجددوا وحدانيتك ، وعبدوا غيرك بأن تسلطهم علينا فيروا أنهم على حق ، وأنا على باطل . فتجعلنا بذلك فتنة لهم " .
ثم روى بسنده عن مجاهد (رحمه الله) قال: " لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا " .
وروى عن قتادة (رحمه الله) أنه قال: " لا تظهرهم علينا فيفتتوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه " .

(١) وانظر: إغاثة اللهفان: ١٦٢/٢ .

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: " لا تسلطهم علينا فيفتنونا " (١).
وقد دعا بذلك أصحاب موسى عليه السلام: ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٥] (٢).

فالمؤمن في هذه الحياة معرض للفتن بشتى أنواعها ، فإذا أصيب بدائها فعليه أن يلجأ إلى الصبر فإنه العلاج الناجع الذي يكشف داء الفتن . وهو أعظم العوامل تأثيراً في الثبات عندها .

ولذلك وجه رسول الله ﷺ أبا ذر ﷺ للتمسك بالصبر متى ما حلت به الفتن، فقال له: "كيف أنت إذا أصاب الناس موت يكون البيت فيه بالوصيف؟" قلت: الله ورسوله أعلم . أو قال: ما خار الله لي ورسوله ؟ . قال: "عليك بالصبر" أو قال: "تصبر" (٣).

بل أرشد ﷺ الناس جميعاً إلى الصبر عند الفتن . وإن كان في ذلك مشقة بالغة تبلغ مشقة من يصبر على قبض الجمر .

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "يأتي على الناس زمان الصّابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر" (٤) .

ولهذا لما شكّا الناس إلى أنس بن مالك ﷺ ما يلقون من فتنة الحجاج دَلَّهم ﷺ على الصبر اقتداءً وتأسياً بحديث النبي ﷺ السابق .

(١) جامع البيان: ٦٤/٢٨ . طبعة الحلبي . وانظر: التفسير الكبير: ٣٠٢/٢٩ . الجامع لأحكام القرآن: ٥٧/١٨ .

تفسير القرآن العظيم: ٥٤٤/٤ . محاسن التأويل: ٥٧٦٦-٥٧٦٧ . تيسير الكريم الرحمن: ص: ٧٩٤ .

(٢) انظر في معنى الآية: زاد المسير: ٧٤/٤ . التفسير الكبير: ١٤٦/١٧-١٤٧ . الجامع لأحكام القرآن: ٣٧٠/٨ .

تفسير القرآن العظيم: ٦٦٣/٢ . وانظر: إغاثة اللهفان: ١٦٤/٢ .

(٣) سبق . ص: ١٨٦ .

(٤) سنن الترمذي: بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٠) . باب: (٧٣) . برقم: (٢٢٦٠) . وقال: "هذا حديث غريب من

هذا الوجه" . وقال الألباني رحمه الله: "صحيح" . ص: ٣٧٤ . وهو في السلسلة الصحيحة: ٦٨٢/٢ . برقم:

(٩٥٧) . وانظر: تحفة الأحوذى: ٤٤٤/٦-٤٤٥ .

عن الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِي (رحمه الله) ^(١) قال: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فَشَكُونَا إِلَيْهِ مَا
نَلْقَى مِنَ الْحَجَّاجِ فَقَالَ: "اصْبِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ
حَتَّى تَلْقُوا رَبَّكُمْ" سمعته من نبيكم ﷺ ^(٢).

(١) هو الزُّبَيْرُ بْنُ عَدِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَوْ أَبُو عَدِي الْأَيْمِيُّ الْهَمْدَانِيُّ الْكُوفِيُّ، قَاضِي الرِّيِّ، تَابِعِي، ثِقَّةٌ ثَبَتَ، فَقِيهٌ عَابِدٌ،
صَاحِبُ سَنَةِ. تَوَفَّى سَنَةَ ١٣١ هـ.

وانظر: التَّارِيخُ الْكَبِيرُ: ٤١٠/٣. مَعْرِفَةُ النَّقَاتِ: ٣٦٨/١. الْجَرَحُ وَالتَّعْدِيلُ: ٥٧٩/٣. ثَقَاتُ ابْنِ حَبَّانَ:
٢٦٢/٤. التَّعْدِيلُ وَالتَّجْرِيعُ: ٥٨٩/٢. تَهْذِيبُ الْكَمَالِ: ٣١٥/٩. الْكَاشِفُ: ٤٠٢/١. تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ:
٢٧٣/٣. تَقْرِيبُ التَّهْذِيبِ: ٢١٤/١. لِسَانُ الْمِيزَانِ: ٢١٩/٧، ٤٩٧.

(٢) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: بَلْفَظُهُ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ: (٦٧/٩٢). بَابُ لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ: (٦). بِرَقَمٍ:
(٧٠٦٨). ص: ١٤٩٢.

المبحث الرابع

المبادرة إلى الطاعات عند حلول الفتن

إنَّ الاشتغال بطاعة الله تعالى ، والانصراف إلى عبادته حال حلول الفتن من أعظم العوامل الدّاعية إلى الثّبات . لأنّ العبادة تربط العبد بربّه ومولاه الذي يعصمه من الفتن ويحميه منها، وهي تقوّي إيمانه فلا تجد الفتن منفذاً إلى قلبه الذي عمر بالإيمان لملازمة صاحبه على الطّاعات ، مهما عظم شأن تلك الفتن واشتدّ أوارها . ولذا حثّ النّبيّ ﷺ إلى المسارعة إلى الأعمال الصّالحة عند وقوع الفتن . فقال في حديث أبي هريرة ؓ : " بادروا بالأعمال فتناً كقطع اللّيل المظلم ، يصبح الرّجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع أحدهم دينه بعرض من الدّنيا " (١) .

وإن كانت المبادرة إلى الطّاعات ، والمسابقة إلى الصّالحات ، والمسارعة إلى القربات أمر مرغّب فيه من قبل الشّارع الحكيم في كلّ وقت وحين ، ولو لم تكن هنالك فتنة .

وفي ذلك يقول المولى سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] . وقال عزّ وجلّ : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١] .

والمسارعة والمسابقة إلى الجنّة إنّما تكون بالطّاعات والأعمال الصّالحات .

(١) سبق تخريجه . ص : ٣١ .

وانظر معناه في : شرح التّووي على مسلم: ١٣٣/٢ . تحفة الأحوذى: ٣٦٤/٦-٣٦٥ . الإحسان في تقریب صحيح ابن حبان: ٢٠٠/١٥-٢٠١ الهامش .

ولذلك مدح سبحانه بعض أنبيائه بمسارعتهم إلى الأعمال الصالحة فقال : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ٨٩ ﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ٩٠ ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠] .

بل مدح المؤمنين الطائعين المسارعين في القربات بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ٥٧ ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠ ﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ٦١ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] ولكن المسارعة بالطاعات عند مداهمة الفتن أكد ، والفرار إليها أقوم وأرشد لأن الفتن مزلق عظيم ، ووقعها على النفوس خطير ، قل أن ينجو العبد عندها ، ويسلم من ضررها . ولذا يعجل بالتسبب بالطاعة كي يجتاز عقبتها ، ويسلم من وهدتها .

ولذلك دعا ﷺ أزواجه (رضي الله عنهن) إلى الصلاة والاشتغال بها حال الفتن ليتقوين بذلك على دفعها والخروج من شرها .
عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول: " سبحان الله ! ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن ؟ من يوقظ صواحب الحجرات - يريد أزواجه - لكي يصلين ، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة " (١) .

ولما كانت العبادة من أعظم العوامل المعينة على الثبات عند الفتن خشي النبي ﷺ من التفريط فيها ، والاشتغال عنها بغيرها ، فبين عظم أجرها عند وقوع الفتن .

(١) سبق . ص : ٢٣ . وانظر معناه: في عمدة القاري: ١٧٢/٢-١٧٥ .

فعن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: " العبادۃ في الهرج كهجرة إليّ " (١)

وفي الرواية الأخرى: " العبادۃ في الفتنة كالهجرة إليّ " (٢).

قال الحافظ ابن رجب (رحمه الله):

"وسبب ذلك أن الناس في زمن الفتن يتبعون أهواءهم ولا يرجعون إلى دين ، فيكون حالهم شبيهاً بحال الجاهليّة ، فإذا انفرد من بينهم من يتمسك بدينه ويعبد ربّه ويتبع مرضيه ويجتنب مساخطه كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهليّة إلى رسول الله ﷺ مؤمناً به متّبِعاً لأوامره مجتنباً لنواهيه " (٣).

وقال النووي (رحمه الله):

"وسبب كثرة فضل العبادۃ فيه أن الناس يغفلون عنها ويشغلون عنها ولا يتفرغ لها إلاّ الأفراد " (٤).

وإذا كانت الطاعات والمبادرة إليها من العوامل الجالبة للثبات عند الفتن فإنّ المعاصي من المؤثرات المانع من عندها .

قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ

يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] .

فمخالفة أمر الرسول ﷺ وعصيانه ، وتكب سبيله ومنهاجه يوقع في الفتنة أيّاً كان نوعها ، كفرأ أو شركأ أو نفاقأ أو بدعة أو قتلاً أو زلزل وأهوالأ أو سلطانأ

(١) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراف السّاعة : (٥٢). باب فضل العبادۃ في الهرج: (٢٦). برقم (٢٩٤٨). ٢٢٦٨/٤ .

(٢) مسند أحمد: بلفظه في: ٢٧/٥. عن معقل بن يسار رضي الله عنه . أيضاً.

معجم الطبراني الكبير: بلفظه — إلاّ أنّه قال: " كهجرة " — برقم: (٤٩٢)، (٤٩٣). ٢١٣/٢٠ .

(٣) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف . للحافظ أبي الفرج زين الدّين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي . ضبط ومراجعة : إبراهيم رمضان . وسعيد اللحام . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى :

١٤٠٩هـ — ١٩٨٩م : ص ١٥٦ .

(٤) شرح التّووي على مسلم: ٨٨/١٨ .

جائراً أو طبعاً على القلب أو غير ذلك. ^(١) وبذلك يحرم العاصي من الثبات على الحقّ فينجرف مع تيار الفتنة فيهلك فيمن هلك .

(١) وانظر معنى الآية في:

جامع البيان: ١٧٨/١٨ . الحلي . الكشف: ٢٠٥/٣ . الاستقامة . التفسير الكبير: ٤٢/٢٣ . الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٣/١٢ . تفسير القرآن العظيم: ٤٩١/٣ .

المبحث الخامس

تمني الموت عند حلول الفتن

لاشكَّ إنَّ للفتن وقعاً عظيماً على نفس المؤمن وقلبه ، وقد تبلغ إلى الحد الذي تذهب دينه وإيمانه ، وتلك خسارة عظيمة وهلاك كبير . وخير لهذا المؤمن أن يطلب من ربه استعجال الموت ليموت وهو ثابت على إيمانه ، باقٍ على دينه . لأنَّ الموت خير من الفتنة التي تذهب دين الإنسان . وبذلك نطق النبي ﷺ .

فعن محمود بن لبيد رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال : " اثنتان يكرههما ابن آدم: الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال وقلة المال أقلَّ للحساب" (١).

وقد جاءت الأدلة الدالة على تمني الموت عند حلول الفتن . من ذلك:

قال تعالى في شأن مريم عليها السلام: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ

النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣] .

إنَّ مريم عليها السلام خافت من قالة الناس فيها ، وخشيت عدم ثباتها على دينها وصبرها عليه ، فتمنَّت الموت قبل الذي حدث لها ، وأنها لو كانت شيئاً لا يؤبه له .

قال القرطبي (رحمه الله):

" تمنَّت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين:

أحدهما: أنها خافت أن يظنَّ بها الشرُّ في دينها وتعيَّر فيفتنها ذلك .

الثاني: لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنا وذلك مهلك . وهو على هذا الحد يكون تمنى الموت جائزاً " (٢).

(١) سبق تخريجه. انظر: ص: ١٢٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٩٢/١١ . التذكرة: ص: ٧ .

والأول أوجه. ولذلك قال الإمام ابن كثير (رحمه الله):

"وقوله تعالى إخباراً عنها - فذكر الآية - فيه دليل على جواز تمنّي الموت عند الفتنة . فإنّها عرفت أنّها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها . وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية . فقالت: ﴿ يَلِيَّتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ أي قبل هذا الحال: ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾: أي لم أخلق ، ولم أك شيئاً . قاله ابن عباس " (١).

واستدلّ بعضهم على جواز تمنّي الموت بقول الله تعالى في شأن يوسف عليه السلام: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] .

قال قتادة (رحمه الله):

" لم يتمنّ الموت أحد نبي ولا غيره إلا يوسف عليه السلام . حين تكاملت عليه النعم ، وجمع له الشمل اشتاق إلى لقاء ربه عزّ وجلّ " (٢) .
وذكر نحو هذا عن ابن عباس (رضي الله عنهما) (٣) .
والصحيح أن يوسف عليه السلام لم يتمنّ الموت ، وإنما تمنّى الوفاة على الإسلام ، وأن يتوفاه الله حين يتوفاه مسلماً . وعلى ذلك جمهور أهل العلم (٤) .

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٨٩/٣ . وانظر معنى الآية في : الكشاف ٤٠٨/٢ - ٤٠٩ . محاسن التأويل: ٤١٣٤/١١

تيسير الكريم الرحمن: ص: ٤٤١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٩/٩ . التذكرة: ص: ٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٧٦١/٢ .

(٤) انظر: زاد المسير: ٢١٨/٤ . الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٩/٩ . تفسير القرآن العظيم: ٧٦٠/٢ - ٧٦١ . محاسن التأويل: ٣٥٩٧/٩ .

وفي دعائه عليه السّلام طلب الثّبات على الإسلام ، والاستمرار عليه حتّى يتوفّاه الله على ذلك (١) .

ومما يدلّ على جواز سؤال الموت عند الفتن:

حديث ابن عبّاس (رضي الله عنهما) في اختصام الملاء الأعلى وفيه قال ﷺ :
" اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبّ المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون " (٢) .

وفي رواية معاذ بن جبل ﷺ : " وإذا أردت فتنة في قوم فتوفّني غير مفتون " (٣) . فهو صريح في تمني الموت حال الفتنة .

واستدلّ بعضهم بحديث أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال:

" لا تقوم الساعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيقول يا ليتني مكانه " (٤) .

(١) انظر تيسير الرّحمن: ص: ٣٦١ .

(٢) انظر: التذكرة: ص: ٧ . النّهاية في الملاحم والفتن: ٣٨/١ . والحديث في:

سنن الترمذي: بلفظه — جزء من حديث — في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣) . باب ومن سورة [ص]: (٣٨) .

برقم: (٣٢٣٣) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٥١٣ .

موطأ مالك: بلفظ مقارب في: كتاب القرآن: (١٥) . باب العمل في الدّعاء: (٩) . برقم: (٤٠) . ٢١٨/١ . بلاغاً

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٣٦٨/١ . قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد

شاكر: ١٦٣-١٦٢/٥ . برقم: (٣٤٨٤) .

مستدرک الحاكم: نحوه في: ٧٠٢/١ . وقال: " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . عن عبد الرّحمن بن

عائش الحضرمي ﷺ .

(٣) سنن الترمذي: بلفظه — إلّا أنّه قال: " فتنة قوم " . وهو جزء من حديث — في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣) .

باب ومن سورة [ص]: (٣٨) . برقم: (٣٢٣٥) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح " . ص: ٥١٤ .

مسند أحمد: بلفظه في: ٢٤٣/٥ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن: (٦٧/٩٢) . باب لا تقوم الساعة حتّى يغبط أهل القبور (٢٣/٢٢) .

برقم: (٧١١٥) . ص: ١٥٠٠ .

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشرط السّاعة: (٥٢) . باب لا تقوم الساعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل

فيتمني أن يكون مكان الميّت من البلاء: (١٨) . برقم: (١٥٧) . ٢٢٣١/٤ .

نقل الحافظ ابن حجر عن ابن بطلال (رحمه الله) أنه قال:

"تغييب أهل القبور ، وتمني الموت عند ظهور الفتن إنما هو خوف ذهاب الدين بغلبة الباطل وأهله ، وظهور المعاصي والمنكر" (١).
ولكن ليس في الحديث ما يدل على جواز ذلك لأنه لم يتعرض للحكم وإنما سيق مساق الإخبار بأن ذلك سوف يقع في آخر الزمان عند اشتداد الأمر بالناس وفساد الحال ، وقد لا يكون ذلك التمني من خوف ذهاب الدين ، وإنما لضرر نزل بالإنسان .

وقد جاء ذلك صراحة في رواية مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : " والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر وليس به الدين إلا البلاء" (٢).
وقد تمنى بعض السلف (رحمهم الله) الموت منهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأبو هريرة رضي الله عنهم ، وعمر بن عبد العزيز (٣) والبخاري (رحمهم الله) (٤).

(١) فتح الباري: ٥٨١/١٤ . وانظر: تفسير القرآن العظيم ٧٦٢/٢ . عمدة القاري ٢٤/٢١١ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراف الساعة: (٥٢). باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمرغ فيكون مكان الميت من البلاء: (١٨). برقم: (١٥٧). ٢٢٣١/٤ . وانظر: التذكرة: ص: ٧ . فتح الباري: ٥٨٢/١٤ .

(٣) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، أبو حفص الأموي القرشي ، المدني ثم الدمشقي . الإمام العادل والخليفة الصالح . وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ولي إمرة المدينة للوليد بن عبد الملك ، وكان مع سليمان كالوزير ، وولي الخلافة بعده ، فأحيا ما أميت قبله من السنن ، وسلك مسلك من تقدمه من الخلفاء الراشدين . عده الشافعي (رحمه الله) الخليفة الراشد الخامس .
قال عنه الذهبي رحمه الله: " كان إماماً فقيهاً مجتهداً عارفاً بالسنن كبير الشأن ثبتاً حجة حافظاً قانتاً لله وأهلاً منيباً " توفي سنة: ١٠١هـ .

وانظر: الطبقات الكبرى: ٣٣٠/٥ . التاريخ الكبير: ١٧٤/٦ . الجرح والتعديل: ١٢٢/٦ . ثقات ابن حبان: ١٥١/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ١٧٨/١ . التعديل والتجريح: ٩٤١/٣ . تهذيب الكمال: ٤٣٢/٢١ . تذكرة الحفاظ: ١١٨/١ . الكاشف: ٦٥/٢ . جامع التحصيل: ص: ٢٤٢ . تهذيب التهذيب: ٤١٨/٧ . تقريب التهذيب: ٤١٥/١ .

(٤) وانظر: التذكرة: ص: ٧ . تفسير القرآن العظيم: ٧٦٢/٢ . فتح الباري: ٥٨٢/١٤ .

ولا يعكّر على ما سبق ما ورد من نهي عن تمنّي الموت في بعض الأحاديث والآثار . من ذلك :

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : " لا يتمنّين أحدكم الموت لضرّ نزل به ، فإن كان لابد متمنياً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي " ^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: " لا يتمنّي أحدكم الموت ، ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، إنّه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنّه لا يزيد المؤمن عمره إلّا خيراً " ^(٢) .

قال أنس رضي الله عنه :

" لو لا أن رسول الله ﷺ قال: " لا يتمنّين أحدكم الموت " . لتمنّيته " ^(٣) .
وعن قيس بن أبي حازم (رحمه الله) ^(٤) قال: دخلنا على خبّاب وقد اكتوى سبع كيّات في بطنه. فقال: " لو ما أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعوا بالموت

(١) صحيح البخاري: بلفظه — إلّا إنّه قال: " أحد منكم " . وقال: " متمنياً للموت " — في كتاب الدعوات: (٥٤/٨٠). باب الدعاء بالموت والحياة: (٣٠). برقم: (٦٣٥١). ص: ١٣٥٤. و بلفظ مقارب في كتاب المرضى: (٤٩/٧٥). باب تمّني المريض الموت: (١٩). برقم: (٥٦٧١). ص: ١٢٣٣.
صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: (٤٨). باب تمّني كراهة الموت لضرّ نزل به: (٤). برقم: (٢٦٨٠). ٢٠٦٤/٤ .

(٢) المرجع السابق . في الكتاب والباب السابقين . برقم: (٢٦٨٢). ٢٠٦٥/٤ .

(٣) المرجع السابق . في الكتاب والباب السابقين: برقم: (٢٦٨٠). ٢٠٦٤/٤ .

(٤) هو قيس بن أبي حازم — واسم أبي حازم عوف بن الحارث على قول الأكثر — أبو عبد الله البجلي الكوفي . ولأبيه صحبة . أسلم في عهد النبي ﷺ ، وهاجر إلى المدينة فقبض النبي ﷺ قبل أن يلقاه . ثقة مخضرم . وقيل : له رؤية ولم تثبت . روى عن كبار الصحابة . مات بعد التسعين أو قبلها ، وقد جاز المائة وتغيّر .

وانظر: الطبقات الكبرى: ٦٧/٦ . طبقات خليفة: ص: ١٥١ . التاريخ الكبير: ١٤٥/٧ . معرفة الثقات:

٢٢٠/٢ . الجرح والتعديل: ١٠٢/٧ . ثقات ابن حبان: ٣٠٧/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ١٠٢/١ . تاريخ بغداد:

٤٥٢/١٢ . التعديل والتحريج: ١٠٥٩/٣ . تهذيب الكمال: ١٠/٢٤ . تذكرة الحفاظ: ٦١/١ . الكاشف: ١٣٨/٢ .

جامع التحصيل: ص: ٢٥٧ . الإصابة: ٥٣١/٥ . تهذيب التهذيب: ٣٤٦/٨ . تقريب التهذيب: ٤٥٦/١ . لسان

الميزان: ٣٤٣/٧ .

لدعوت به" (١).

ويوفق بين هذه الأحاديث بأن تمنّي الموت إنّما يكون عند حلول الفتن ،
والخشية من ذهاب الدين وضياعه . والنّهْي ينصب على ضرر أصاب الإنسان في
نفسه أو ماله أو غير ذلك . فهذا عليه بالصبر ليعظم له الأجر .

ولذا قال الإمام النووي (رحمه الله) في بيانه لحديث أنس رضي الله عنه السابق:

" فيه: التصريح بكراهة تمنّي الموت لضرر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة
من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا . فأما إذا خاف ضرراً في دينه ، أو فتنة فيه
فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره . وقد فعل هذا الثّاني خلافاً من السّلف
عند خوف الفتنة في أديانهم .

وفيه: أنه إن خاف ولم يصبر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه فليقل: اللهم
أحيني إن كانت الحياة خيراً لي ... الخ . والأفضل الصبر والسكون للقضاء" (٢).
وهذا توفيق حسن منه (رحمه الله) بين الأدلة التي يظهر منها التعارض .

(١) صحيح البخاري: نحوه : في كتاب المرضى: (٤٩/٧٥). باب تمّني المريض الموت: (١٩). برقم: (٥٦٧٢).

ص: ١٢٣٣. وفي كتاب الدعوات: (٥٤/٨٠). باب الدعاء بالموت والحياة: (٣٠). برقم: (٦٣٤٩) (٦٣٥٠).

ص: ١٣٥٤. وفي كتاب الرقاق: (٥٥/٨١). باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها: (٧). برقم: (٦٤٣٠).

ص: ١٣٦٩. وفي كتاب التّمتّي: (٦٩/٩٤). باب ما يكره من التّمتّي: (٦). برقم: (٧٢٣٤). ص: ١٥٢٣.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨). باب تمّني كراهة الموت لضرر نزل به:

(٤). برقم: (٢٦٨١). ٢٠٦٤/٤.

(٢) شرح الثّووي على مسلم: ٨-٧/١٧.

﴿ الفصل الخامس ﴾

نماذج للثبات عند الفتن

وفيه مباحث:

﴿ المبحث الأول ﴾

رسل الله عليهم السلام

إن رسل الله وأنبياءه صفوة البشرية ، وخيرتهم عند الله تعالى . قوم اختارهم الله لحمل رسالته وتبليغها للخلق ، وقذف في قلوبهم الإيمان ، وغرس في نفوسهم اليقين ، وجبلهم على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وهبهم لحمل الأمانة وأداء الرسالة ، كما قال سبحانه: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد أدوا ما كلفوا به تمام الأداء ، وقاموا بذلك خير قيام ، وواجهوا أقوامهم بكل جرأة وثبات . فلم تؤثر فيهم أراجيف أعداء الله ، ولم تضعف نفوسهم أمام كيدهم ، ولم تهن قواهم أمام مكرهم ، ولم يذلوا أمام جبروتهم ، ولم يتضعضوا أمام فتنهم . بل ثبتوا على الحق ثبات الجبال الرواسي ، حتى شهد الله سبحانه لهم بذلك فقال: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ ^(١) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ^(٢) وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٦١﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٢﴾ فَكَاتِلُهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨] .

(١) رَبِّيُونَ: جمع ربي وهو الرباني ، والرباني هو الذي يربي نفسه بالعلم . انظر: المفردات: ص: ١٨٤ .

(٢) استكانوا: أي خضعوا وذلوا . من الاستكانة وهي الذلة والخضوع . انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٣٠ .

وانظر: لسان العرب: ١٣/ ٢١٨ .

وقد جعل سبحانه ثباتهم أنموذجاً للثبات الصادق ، وصبرهم مثالاً للصبر الحق . به يقتدي الثابتون ، ومنه يأخذ الأسوة الصابرون ، وعلى ضوئه يستتير المهتدون .

ولو لم يبلغ ثباتهم ذلك المبلغ ما أمر إمام الهدى وسيد المرسلين أن يتأسى بهم في الثبات.

وذلك حين قال له المولى عز وجل: ﴿ وَكَأَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتُ بِهِمْ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠] .

يقول ابن كثير (رحمه الله):

" يقول تعالى : وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم ، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين . كل هذا مما نثبت به فؤادك أي قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة " (١) .

فمن قصصهم تؤخذ العبر ، ومن أخبارهم تلتقط الدرر ، وفي حوادثهم تحار الفكر . ولكن ذلك لأهل العقول النيرة ، والقلوب الخيرة .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١] .

عجزت الفتن أن تتال منهم بغيتها ، وتهاوت المحن أن تصل منهم إلى غايتها ، وتساقطت الخطوب أن تجد فيهم رغبتها . ويكفيهم شرفاً وفخراً أنهم رسل الله ، واسطة بين الله وعباده في تبليغ دينه ، وإقامة شرعه . فكيف لا يكونون قدوة

(١) تفسير القرآن العظيم: ٧٢٠/٢ .

في الثّبات ؟ ، وكيف لا يكونون أسوة في الصّبر عند الشّدائد والملمات ، مهما
تكاثرت حولهم الفتن ، ومهما تفاقمت حولهم المحن ؟ .
وهذه نماذج رائعة ، أقتطفها من رياض رسل الله اليانعة ، تبرز عظيم ثباتهم
في الفتن ، وجليل صبرهم فيها . أضمتها مطالب أربعة :

﴿المطلب الأول﴾

محمد بن عبد الله ﷺ

إن الله تعالى قدّمه على الرّسل جميعاً فقدّمته ، وفضله عليهم طرّة فضائته ،
وختمهم به فبدأت به ﷺ .

لقد حاول أعداؤه من المشركين أن يفتنوه عن بعض ما أنزل إليه ، متّخذين في
ذلك شتى الوسائل ، وسالّكين لذلك كلّ السّبيل من كيد ومكر وعداوة وتعنّت وأذى ،
بأنواع الأساليب المختلفة ، وضروب الحيل المتعدّدة . ولكنّه ﷺ ثبت على الحقّ فلم
يزل عنه ، وظلّ على الاستقامة فلم ينحرف عنها ولو في جزئية يسيرة من أمر
دينه ، لتثبيت الله له وعنايته به ، وحفظه من كيد الأعداء وفتنهم . فباعت جميع
محاولاتهم بالفشل ، وذهبت جميع مساوماتهم أدراج الرياح .

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ
عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً ۖ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ
إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ إِذَا لَا ذَقْنَكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ
لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۚ﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥] .

ذكر الإمام ابن الجوزي (رحمه الله) أن سبب نزول هذه الآيات ينحصر في
أربعة أقوال:

أولها: إن وفد تقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: متّعنا باللات سنة ، وحرّم
واديننا كما حرّمت مكة . فأبى ذلك . فأقبلوا يكثرّون مسألتهم ، وقالوا: إنا نحبّ أن
تعرف العرب فضلنا عليهم . فإن خشيت أن يقول العرب: أعطيتهم مالم تعطنا، فقل:
الله أمرني بذلك . فأمسك رسول الله ﷺ عنهم ودخلهم الطمع . فنزلت هذه الآية .
رواه عطاء (رحمه الله) عن ابن عباس (رضي الله عنهما) .

وروى عطية (رحمه الله) ^(١) عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنهم قالوا: أجلنا سنة ثم نسلم ونكسر أصنامنا . فهم أن يؤجلهم فنزلت هذه الآية .

الثاني: إن المشركين قالوا للنبي ﷺ : لا نكف عنك إلا بأن تلم ^(٢) بالهتنا ، ولو بأطراف أصابعك . فقال رسول الله ﷺ : " ما عليّ لو فعلت والله يعلم أنني لكاره ؟" فنزلت هذه الآية . قاله سعيد بن جبير (رحمه الله) ^(٣) .

وقد ذكر ابن الجوزي (رحمه الله) أن هذا باطل ، وما ذكر أيضاً عن عطية (رحمه الله) . لأن كل ذلك مخالف في حقه ﷺ .

الثالث: إن قريشاً خلت برسول الله ﷺ ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه ويقولون: أنت سيدنا وابن سيدنا، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون ، ثم عصمه الله من ذلك . ونزلت هذه الآية .

الرابع: إن بعض زعماء قريش قالوا لرسول الله ﷺ : اطرده عنا سقاط ^(٤) الناس ومواليهم ، وهؤلاء الذين راثحتهم رائحة الضأن . وذلك أنهم كانوا يلبسون

(١) هو عطية بن سعد بن جنادة أبو الحسن العوفي الجدي القيسي الكوفي . تابعي معروف ، ضعيف الحفظ ، مشهور بالتدليس القبيح . وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: " صدوق يخطئ كثيراً وكان شيعياً مدلساً" . توفي سنة : ١١١ هـ .

وانظر: الطبقات الكبرى: ٣٠٤/٦ . طبقات خليفة: ص: ١٦٠ . التاريخ الكبير: ٨/٧ . ضعفاء العقيلي: ٣٥٩/٣ . الجرح والتعديل: ٣٨٢/٦ . المحروحين: ١٧٦/٢ . الكامل في ضعفاء الرجال: ٣٦٩/٥ . تهذيب الكمال: ١٤٥/٢٠ . الكاشف: ٢٧/٢ . تهذيب التهذيب: ٢٠٠/٦ . تقريب التهذيب: ٣٩٣/١ . لسان الميزان: ٥١٥/٧ . طبقات المدلسين: ص: ٥٠ .

(٢) تلم : أي تجتمع بها . وانظر: لسان العرب: ٥٤٩/١٢ .

(٣) هو سعيد بن جبير بن هشام أبو عبد الله أو أبو محمد الأسدي الكوفي الوالي مولاهم المقرئ . أحد أعلام التابعين . كان ثقة ثباتاً فقيهاً عابداً ورعاً فاضلاً . خرج مع ابن الأشعث فقتله الحجاج سنة ٩٥ هـ . وله ٥٧ سنة ، وقيل : ٤٩ سنة .

وانظر: الطبقات الكبرى: ٢٥٦/٦ . طبقات خليفة: ص: ٢٨٠ . التاريخ الكبير: ٤٦١/٣ . معرفة الثقات: ٣٩٥/١ . الجرح والتعديل: ٩/٤ . ثقات ابن حبان: ٢٧٥/٤ . مشاهير علماء الأمصار: ٨٢/١ . التعديل والتجريح: ١٠٧٥/٣ . تهذيب الكمال: ٣٥٨/١٠ . تذكرة الحفاظ: ٧٦/١ . الكاشف: ٤٣٣/١ . تهذيب التهذيب: ١١/٤ . تقريب التهذيب: ٢٣٤/١ . إسعاف المبطأ: ص: ١٢ .

(٤) سقاط : جمع ساقط . وهم رذالة الناس وأدواهم . انظر: لسان العرب: ٣١٩/٧ .

الصَّوْف . حَتَّى نَجَالِسْكَ وَنَسْمَعَ مِنْكَ ، فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَسْتَدْعِي بِهِ إِسْلَامَهُمْ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ (١) .

والأولى أن تحمل الآيات على العموم من غير نظر إلى سبب معيّن لنزولها لأنّ فتن المشركين برسول الله ﷺ لا تنحصر . وهم الذين دأبوا صباح مساء بأذلين أقصى ما عندهم من جهد لإطفاء دينه وإخماد دعوته .

ولذا قال الإمام ابن جرير (رحمه الله) بعد ذكره لبعض أسباب النزول السابقة:

" الصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ أَخْبَرَ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ كَادُوا أَنْ يَفْتَنُوهُ عَمَّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ لِيَعْمَلَ بِغَيْرِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْاِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ . وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ كَانَ ذَلِكَ مَا ذَكَرَ عَنْهُمْ مِنْ ذِكْرِ أَنَّهُمْ دَعَوْهُ إِلَى أَنْ يَمَسَّ آلِهَتَهُمْ وَيُلْمَ بِهَا ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ كَانَ ذَلِكَ مَا ذُكِرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ أَمْرٍ تَقْيِيفٍ وَمَسْأَلَتِهِمْ إِيَّاهُ مَا سَأَلُوهُ مِمَّا ذَكَرْنَا ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ ذَلِكَ . وَلَا بَيَانُ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي خَبَرٍ يَقْطَعُ الْعُذْرَ أَيْ ذَلِكَ كَانَ . وَالْاِخْتِلَافُ فِيهِ مَوْجُودٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فَلَا شَيْءَ فِيهِ أَصُوبٌ مِنَ الْإِيمَانِ بظَاهِرِهِ حَتَّى يَأْتِيَ خَبَرٌ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ بَيَانٌ مَا عُنِيَ بِذَلِكَ مِنْهُ " (٢) .

وفي الآية منّة وفضل لله على رسوله ﷺ في تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو لا ذلك لركن إلى المشركين وأجابهم إلى ما سألوه ، وحينئذ يذيقه الله ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة. ولكن تثبته وقوّى أمره بسبب قوّة إيمانه وصدق توكّله .

قال ابن كثير (رحمه الله):

" يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته وعصمته وسلامته من شرّ الأشرار وكيد الفجار، وأنّه تعالى هو المتولّي أمره ونصره، وأنّه

(١) زاد المسير: ٤٩/٥ وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣٠٠-٢٩٩/١٠ . والأقوال الثلاثة الأولى أوردها ابن جرير (رحمه الله) بأسانيده في جامع البيان: ١٣٠-١٢٩/١٥ . طبعة الحلبي . والقول الرابع ذكره الزّجاج في معاني القرآن: ٢٥٤/٣ والتحاسن في معاني القرآن: ١٧٩/٤ .

(٢) جامع البيان: ١٣٠/١٥ . طبعة الحلبي . وانظر: التفسير الكبير: ٢٣-٢٢/٢١ . محاسن التأويل: ٣٩٥٥-٣٩٥٦/١٠ .

لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليّه وحافظه وناصره ومؤيّده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين" (١).

وقد حاول اليهود — عليهم لعائن الله المتتالية إلى يوم القيامة — أن يسلكوا مسلك إخوانهم المشركين فيكيدوا رسول الله ﷺ فيفتنوه عن بعض ما أنزله الله إليه ، ويصرفوه عن دين الله تعالى فيفوزوا بغاية ما يتمنون ، وينالوا غاية ما يرجون ، إذ همّهم إطفاء نور هذا الإسلام الذي شرقوا به ، وغصّت به حلوقهم ، وأدبل عليهم به .

وما فتئوا يبحثون عن كلّ ثغرة ليلجوا من خلالها إلى جسد الإسلام الشامخ المنيع فيبتئوا شرورهم وينفّسوا عن أحقادهم، وأنّى لهم ذلك؟

فإنّ الله قد عصم رسوله ﷺ منهم ، وحماه من مكرهم ، وحفظه من حسدهم ، ووقاه من كيدهم . فلم يفلحوا في صرفه ولو عن جزء يسير من شرع الله . وقد أكثروا المحاولة في ذلك فما نجحوا ، وبذلوا غاية الجهد فما أفلحوا . لتثبيت الله لرسوله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥١﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠] .

(١) تفسير القرآن العظيم: ٨٧/٣-٨٨ . وانظر: تيسير الكريم الرحمن: ص: ٤١٥-٤١٦ . وقد أشار (رحمه الله) إلى أمر مهم جداً وهو افتقار العبد إلى تثبيت الله له . في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب . طبعة دار الشروق . الطبعة العاشرة : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م : ٢٢٤٥/٤ .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : احذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاءوك محتكمين إليك أن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من حكم كتابه ، فيحملوك على ترك العمل به واتباع أهوائهم ."

ثم روى بسنده عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: " قال كعب بن أسد وابن سوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعننا نفنته عن دينه . فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أننا أخبار ^(١) يهود وأشرافهم وساداتهم ، وأننا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فنقضي لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدقك . فأبى رسول الله ﷺ . فأنزل الله فيهم:

﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ إلى قوله ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ^(٢) .

لقد اجتاز رسول الله ﷺ فتنهم بثبات كما اجتاز فتن المشركين من قبل بثبات وصبر . وما برح أعداء الله يرسلون إليه الفتنة عقب الفتنة ، والمحنة تلو المحنة وهو ثابت ، يفوق بثباته الجبل الأشم حتى فارق هذه الحياة وهو كذلك ﷺ .

(١) أخبار: جمع خبر أو خبر وهو العالم . انظر: لسان العرب: ٣١٧/٤ .

(٢) جامع البيان: ٣٩٢/١٠ - ٣٩٣ . طبعة شاكر . وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢١٣/٦ .

﴿المطلب الثاني﴾

موسى بن عمران عليه السلام

لقد مرّ عليه السلام بفتن كثيرة ومحن عظيمة ، من ابتداء أمره إلى منتهاه .
فحفظه الله منها ، وعصمه عنها ، فما وجدت إليه سبيلاً .

قال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ
فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ
وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ
يَمْوَسَّىٰ ﴿٤٠﴾ [طه: ٤٠] .

سأل سعيد بن جبیر (رحمه الله) ابن عباس (رضي الله عنهما) عن قوله
تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فقال: " نستأنف لها النهار " . ثم لما أصبح أخذ ابن
عباس (رضي الله عنهما) يقرأ عليه الآيات الواردة في شأن موسى عليه السلام من
أول أمره . فأورد قصة فرعون وقتله لأولاد بنى إسرائيل الذكور ، وأن موسى عليه
السلام ولد في السنة التي يقتل فيها الأولاد . وأن أمّه خافت عليه فوضعتة في
تابوت وألقته في اليمّ فالتقطه آل فرعون . وامتنع من الارتضاع من الأجانب . وأنه
أخذ بلحية فرعون فجرّها فأراد فرعون قتله فاختره بجمرة ودرّة فأخذ الجمرة . ثمّ
قتل القبطي فأرادوا قتله فخرج من مصر خائفاً يترقب ، وهرب إلى مدين فصار
أجيراً ، ثمّ عاد إلى مصر وقد أخطأ الطريق في ليلة مظلمة . ثمّ ذكر ما كان من
شأن النار والعصا ويده ، وخوفه من العصا . ثمّ ما كان من أمر فرعون والسحرة .
وانفلاق البحر ، وإتمامه لميعاد ربّه ، وعبادة قومه للعجل . إلى آخر ما ذكر .

وكان ابن عباس (رضي الله عنهما) يقول عند كلّ بليّة: " وهذا من الفتون يا ابن جبير " (١)

وفي كلّ هذه الفتن ثبت الله نبيّه موسى عليه السّلام فلم تؤثر فيه ، ولم يستجب لفتنة منها . فكان مثلاً يحتذى به في الثّبات عند الفتن ، ونبراساً يستضاء بصبره عند المصاعب والمحن .

(١) هذا الأثر أورده بطوله النّسائي في سننه الكبرى . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١١هـ — ١٩٩١م : كتاب التّفسير . حديث الفتون . برقم: (١١٣٢٦) : ٤٠٥-٣٩٦/٦ . وأبو يعلى في مسنده : ١٠/٥ برقم: (٢٦١٨) . قال عنه المحقّق: " رجاله ثقات " .

وأورده جماعة من المفسّرين عند تفسيرهم للآية السّابقة، وأشار بعضهم إليه إجمالاً . انظر: جامع البيان: ١٦٤/١٦-١٦٧ طبعة الخليلي . الكشّاف: ٤٣٤/٢ . زاد المسير: ١٩٩/٥ . التّفسير الكبير: ٥٥/٢٢ . الجامع لأحكام القرآن: ١٩٨/١١ . تفسير القرآن العظيم: ٢٣٨/٣-٢٤٥ . ونسبه للإمام النّسائي في سننه الكبرى ثمّ قال عقبه: " وهو موقوف من كلام ابن عباس ، وليس فيه مرفوع إلّا قليل منه، وكأنّه تلقّاه ابن عباس (رضي الله عنهما) ممّا أبيع نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار ، أو غيره . والله أعلم . وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجّاج المزّي يقول ذلك أيضاً " اهـ . وكثير ممّا أورده ابن عباس (رضي الله عنهما) في هذا الأثر حله ذكره في القرآن الكريم .

﴿المطلب الثالث﴾

داود عليه السلام

مثل موسى عليه السلام نبي الله داود عليه السلام فقد اجتاز الفتنة والمحنة التي مرت به بثبات ويقين وصدق وإيمان ، قائماً بأمر ربه ، عابداً له منيباً إليه ، حتى نال من الدرجات ما عظم ، ومن المراتب ما علا .
قال تعالى في شأنه:

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص: ٢١-٢٥] .

ولكن ما هي الفتنة التي وقع فيها داود عليه السلام ثم تعادها بثبات وصبر؟
للمفسرين في هذه الفتنة أقوال كثيرة ، وآراء متنوعة ترجع في جملتها إلى قولين:

قول من يرى أن داود عليه السلام ألم بذنب ثم غفر له .
وقول من يرى أن ما وقع عبارة عن حكومة جرت بين خصمين لا علاقة لها بما سبق (١) .

(١) انظر: محاسن التأويل: ٥٠٨٨/١٤ .

وأصحاب القول الأول يطيلون في ذكر قصّة هنا. حاصل كلامهم فيها:
إنّ داود عليه السّلام عشق امرأة رجل من جنده يدعى أوريا ، وكان لداود عليه السّلام تسع وتسعون امرأة . فاحتال على أوريا بأوجه كثيرة حتّى قتل ، ثمّ تزوّج بامرأته . فأرسل الله له ملكين في صورة متخاصمين في حادثة شبيهة بتلك الحادثة . فحكم داود عليه السّلام بحكم يلزم منه وقوعه في الذّنب ، فلجأ عند ذلك إلى التّوبة والاستغفار (١) .

والذي يدين الإنسان ربّه به أنّ داود عليه السّلام نبيّ معصوم من الله تعالى، حاشاه أن يقع منه أمثال هذه الحثالات التي يترفع عن مثلها سائر المسلمين .
ثمّ أين في سياق الآيات ما يدلّ على هذا الذي قيل ؟ . بل المتفحّص للآيات يوى أنّ فيها مدحاً وثناء على داود عليه السّلام .

بل يكفي داود عليه السّلام فخراً أن أمر الله رسوله محمداً ﷺ بالتّأسي به والافتداء به في المصابرة ومكابدة المشاق ، وتحمل أذى قومه له كما تحمل داود عليه السّلام أذى قومه وسفههم وشططهم وصبر على ذلك وثبت (٢) .

فذكر هذه الحادثة جاء في سياق الافتداء والتّأسي في الصّبر والثّبات . ولذا قال تعالى مفتتحاً آياها بقوله لمحمد ﷺ :

﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧] .
ولو كان الأمر كما ذكر ما صلح ذلك التّأسي ولا الافتداء . فكيف يمدح الله داود عليه السّلام بقوله: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴾ [ص: ٢٥] . وقد صدر منه ذلك الجرم؟ .

وكيف يفوّض له خلافة الأرض والحكم بين النّاس بالحقّ بقوله: ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ [ص: ٢٦] . وقد صدر منه

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٨٩/٢٦ .

(٢) انظر: المرجع السابق: ١٨٩/٢٦-١٩٤ .

ذلك الظلم ؟ . والله لم يورد في الآيات هذا الذنب المزعوم ، ولم يكشف النقاب عنه ، فلم النبش عن ذلك ، والتكلف الذي لا فائدة فيه ؟ .

والفائدة إنما تكمن فيما قصّه الله علينا من توبته وإنابته، وأنه قد تبوأ منزلة عظيمة بذلك . ^(١) فلا حاجة للدخول في مضايق لا يسلم الإنسان من ذكرها .
وأما الاستغفار والتوبة فلا يلزم منهما وقوع ذنب أو معصية . وها هو رسول الله ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ^(٢) .

يقول في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : " والله إنّي لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرّة " ^(٣) .

ولذا قال الإمام ابن حزم (رحمه الله):

"وأما استغفاره وخروره ساجداً ، ومغفرة الله تعالى له فالأنبياء عليهم السّلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة . والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبي ولا من مذنب ولا من غير مذنب . فالنبي يستغفر الله لمذنبه أهل الأرض، والملائكة كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [عافر: ٧] .

وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ [ص: ٢٤] .

وقوله تعالى: ﴿ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكْ ﴾ [ص: ٢٥] .

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص: ٦٥٧ .

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ لِيَعْرِفَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ١-٢] .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الدعوات: (٥٤/٨٠) . باب استغفار النبي ﷺ في اليوم واللييلة: (٣) . برقم: (٦٣٠٧) . ص: ١٣٤٦ .

فقد ظنّ داود عليه السّلام أن يكون ما آتاه الله عزّ وجلّ من سعة الملك العظيم فتنة. فقد كان رسول الله ﷺ يدعو في أن يثبتّ الله قلبه على دينه^(١). فاستغفر الله تعالى من هذا الظنّ فغفر الله تعالى له هذا الظنّ إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة " (٢).

والقصة مع كثرة من ذكرها من المفسّرين لم تثبت ، وإنّما كانت من ترهّات اليهود ليطعنوا بها في نبي الله داود عليه السّلام كشأنهم دائماً مع أنبياء الله تعالى .

ولذا قال الإمام ابن كثير (رحمه الله):

" قد ذكر المفسّرون هاهنا قصّة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتّباعه ... فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصّة وأن يردّ علمها إلى الله عزّ وجلّ ، فإنّ القرآن حقّ ، وما تضمّن فهو حقّ " (٣).

فالرواية لم تثبت لها صحة ، ولم تقم لها قائمة . ولذلك تناولها علماء الإسلام قديماً وحديثاً بالردّ والتّضعيف ، وأبانوا عوارها ، وكشفوا عن زيفها سنداً ومتناً ، وشرعاً وعقلاً ، فبطل الاستناد عليها واللّجؤ إليها^(٤).

والمراد هنا أن داود عليه السّلام ظنّ أنه مرّ بفتنة ، ولكنّه اجتاز ذلك الظنّ بصبر وثبات ممّا أدّى إلى مدح الله له وثنائه عليه ، فصار بعد ذلك في مقام أسمى من الذي كان فيه .

(١) تأتي الأدلة على ذلك .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١٨/٤-١٩ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤٧/٤ .

(٤) من أولئك:

الإمام ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١٨/٤-١٩ . القاضي عياض في الشّفا بتعريف حقّوق المصطفى . طبعة : المكتبة التّجاريّة الكبرى . وتوزيع دار الفكر . بيروت : ١٦٣/٢-١٦٤ . الإمام الرّازي في التّفسير الكبير: ١٨٨/٢٦-١٩٩ وقد أطلّ (رحمه الله) في الردّ عليها . الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٧٥/١٥ . أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط في التّفسير . مراجعة : صدقي محمّد جميل . طبعة دار الفكر . بيروت . ١٤١٢هـ — ١٩٩٢م : ١٤٦/٩-١٥٢ . السيوطي في الإكليل في استنباط التّزويل . مراجعة : أبي الفضل عبد الله محمّد الصّديق الغماري . مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة . ص : ١٨٤-١٨٦ . القاسمي في محاسن التّأويل: ١٤/٥٠٨٨-٥٠٩٣ . سيّد قطب في ظلال القرآن ٣٠١٨/٥ وغيرهم الكثير .

﴿المطلب الرابع﴾

سليمان بن داود عليهما السلام

مثل داود عليه السلام ابنه سليمان عليه السلام الذي احتوشته فتنة ، الله أعلم بها وبشأنها ؟. فصبر كما صبر أبوه من قبل ، وثبت عندها فلم تصل إلى غايتها منه . بل عاد منها ظافراً منتصراً نال من الملك ما لا ينبغي لأحد بعده ، وسخرت له الريح تسير بأمره حيث شاء ، والشياطين يعملون بأمره فيما أراد وشاء ، ويعطي من يريد ويمنع من يشاء بإذن الله تعالى ، ولا حساب عليه . وفوق كل ذلك له يوم القيامة القربة من الله تعالى ، والمرجع الحسن ، وهو الدرجات العالية في الجنة .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٤-٤٠] .

وما ذكره العلماء هنا من قصّة مطوّلة في فتنة سليمان عليه السلام. تتلخّص في أن شيطاناً سلبه ملكه مدّة من الزّمن ثمّ رجع إليه ملكه . فهي مأخوذة عن أخبار بني إسرائيل ، وفيهم من لا يعتقد بنبوته عليه السلام . وفي القصّة ما ينكر، وبعضها كذب (١) .

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/٥٤-٥٥ . وانظر في بيان عدم ثبات تلك القصّة والردّ عليها : الفصل في الملل والأهواء والتحل: ٤/١٩-٢٠ . الشفا: ٢/١٦٦-١٦٧ . التفسير الكبير: ٢٦/٢٠٧-٢٠٩ . الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٢٠١ . البحر المحيط: ٩/١٥٥-١٥٦ . محاسن التأويل: ١٤/٥١٠٤-٥١٠٥ . في ظلال القرآن: ٥/٣٠٢٠ .

فالدّرس الذي يستفاد ، والعبرة الّتي تؤخذ أن سليمان عليه السّلام حلّت به فتنة
فتبت عندها وصبر ، فنال جزاء ذلك في الدّنيا والآخرة كما سبق بيانه في معاني
الآيات . فهو عليه السّلام أنموذج رابع يوضّح ثبات الرّسل عليهم السّلام عند الفتن .
هذه نماذج وغيرها كثير ، ذكرت على سبيل التّمثيل لا الحصر ، إذ أن رسل الله
عليهم السّلام كانوا جميعاً أثبت النّاس عند فتنة ، وأصبرهم عند محنة . ولكن
راعى في ذكر هؤلاء اقتران أسمائهم بلفظ الفتنة في القرآن ليكون ذلك أقرب
للاستدلال .

المبحث الثاني

أصحاب الكهف

إن قصة أصحاب الكهف من القصص العجيبة التي أوردها الله في قرآنه . تتمثل فيها قوة الإيمان الصادق الذي يطمئن النفوس ، ويقذف في القلوب الثبات واليقين ، ويهون أمر هذه الدنيا ببهرجها وزينتها على أصحابه ، فيلجأ أصحابه إلى الله فارين بدينهم إليه من الفتن ، معتزلين المجتمع بأسره ، حفاظاً على دينهم ، وحماية لعقيدتهم . فيحيط الله أولئك بكنفه ، ويرعاهم بحفظه ، وتشملهم رحمته ، ويهيئ لهم من الأسباب الحامية المانعة ما يكف عنهم شر كل ذي شر وأذى كل ذي أذى .

إن أصحاب الكهف جماعة من الشباب جمعت بينهم العقيدة ، ووحدت بين قلوبهم كلمة التوحيد فعملوا ألا إله إلا الله ، وألا ربَّ يعبد سواه ، ورأوا في قومهم انحرافاً عن هذه الحقيقة ، وانغماساً في أدناس الكفر والشرك . فواجهوهم بالحق ، وصدعوا بالأمر بكل جرأة وثبات . لا يخافون في الله لومة لائم . ولكن قومهم أجمعوا أمرهم على الكيد بهم ، وأرادوا صدهم عما هم فيه ، وفتنتهم عن دينهم الحق .

قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [١٣] وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ [الكهف: ١٣-١٥] .

قوله تعالى: ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ :

قال ابن جرير (رحمه الله):

"وزدناهم إلى إيمانهم برّبهم إيماناً وبصيرة بدينهم حتّى صبروا على هجران دار قومهم ، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله ، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه إلى خشونة المكث في كهف الجبل" (١) .

وقال الزمخشري:

"بالتوفيق والتّثبيت" (٢) .

وقال ابن الحوزي (رحمه الله):

"أي تثبتناهم على الإيمان" (٣) .

وقال القرطبي (رحمة الله):

"أي يسرّناهم للعمل الصّالح ، من الانقطاع إلى الله تعالى ، ومباعدة النّاس ، والزّهد في الدّنيا . وهذه زيادة على الإيمان" (٤) .

وقوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ :

قال ابن جرير (رحمه الله):

"وألهمناهم الصّبر وشدّدنا قلوبهم بنور الإيمان حتّى عزفت أنفسهم عمّا كانوا عليه من خفض العيش" (٥) .

وقال النّحاس (رحمه الله):

"والمعنى عند أهل اللّغة: صبرناهم وثبتناهم" (٦) .

(١) جامع البيان: ٢٠٧/١٥ . طبعة الحلبي .

(٢) الكشّاف: ٣٨٢/٢ .

(٣) زاد المسير: ٨٠/٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٣٦٥/١٠ .

(٥) جامع البيان: ٢٠٧/١٥ . طبعة الحلبي

(٦) معاني القرآن: ٢٢٢/٤ .

وقال الزمخشري:

"وقويتها بالصبر على هجر الأوطان والنعم ، والفرار بالدين إلى بعض
الغيران ، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام" (١) .

وقال ابن الجوزي (رحمه الله):

"أي ألهمناها الصبر" (٢) .

وقال الرازي (رحمه الله):

"أي ألهمناها الصبر وثبتناها" (٣) .

وقال القرطبي (رحمه الله):

"عبارة عن شدة عزم وقوة صبر ، أعطاه الله لهم حتى قالوا بين يدي
الكفار: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذَا
شَطَطًا ﴾ ولما كان الفرع وخور النفس يُشبهه بالتناسب الانحلال حسن في شدة
النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط " (٤) .

وقال ابن كثير (رحمه الله):

"وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش
الرغيد والسعادة والنعمة ، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف
أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم" (٥) .

(١) الكشف: ٣٨٢/٢ . الطبعة التجارية .

(٢) زاد المسير: ٨٠/٥ .

(٣) التفسير الكبير: ٩٧/٢١ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٣٦٥/١٠ .

(٥) تفسير القرآن العظيم: ١٢١/٣ .

وقال القاسمي (رحمه الله):

"أي قويتناها بالصبر على المجاهدة . وشجعناهم على محاربة الشيطان، والفرار بالدين إلى بعض الغيران ، ومخالفة النفس ، وهجر المألوفات الجسمانية، واللذات الحسية ، والقيام بكلمة التوحيد" (١) .

وقال السعدي (رحمه الله):

"أي صبرناهم وثبتناهم ، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة ، وهذا من لطفه تعالى بهم وبرّه ، أن وفقهم للإيمان والهدى والصبر والثبات والطمأنينة" (٢) .

وقال سيّد قطب (رحمه الله):

"فإذا هي ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحقّ الذي عرفت ، معترزة بالإيمان الذي اختارت" (٣) .

وقال ابن القيم رحمه الله:

"والربط على قلوبهم يتضمّن الشّدّ عليها بالصبر والتّثبيت ، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان ، حتّى صبروا على هجران دار قومهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من خفّض العيش ، وفرّوا بدينهم إلى الكهف" (٤) .
وكلّ هذه الأقوال تفيد رباطة جاش أولئك الفتية المؤمنین ، وقوّة عزائمهم ، وشدة صبرهم ، وصلابتهم في الحقّ . وذلك كلّه يترجم ثباتهم (رحمهم الله) .

(١) محاسن التأويل: ٤٠٢٨/١١ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ص: ٤٢٢ .

(٣) في ظلال القرآن: ٢٢٦٢/٤ .

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: للإمام ابن قيم الجوزيّة. مطبعة السّنة المحمديّة:

١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م. نشر دار الكتاب العربي . بيروت. تحقيق محمّد حامد الفقي : ٦٧/٣ .

ولمّا خاف أولئك الفتية من قومهم أن يفتنّوهم فرّوا بدينهم فلبّجوا إلى غار في جبل ليختفوا فيه . فقالوا حين دخلوه سائلين الله من رحمته ولطفه ، وأن يحفظهم من كلّ شرّ ، ويوفّقهم لكلّ خير ، وييسّر لهم كلّ سبب موصل إلى الرّشد ، ويصلح لهم دينهم ودنياهم:

قال تعالى: ﴿ إِذْ أَوْى الْفَتِيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠] .

فجمعوا بين السّعي والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه ، وبين تضرّعهم وسؤالهم الله تيسير أمورهم ، وعدم اتّكالهم على أنفسهم وعلى الخلق . فلذلك استجاب الله دعاءهم ، وقبّض لهم ما لم يكن في حسابهم . قال: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ عِزَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١] . أي أمناهم سنين عدداً . وهي ثلاثمائة وتسع سنين . وفي النّوم حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف ، وحفظ لهم من قومهم (١) .

وأحاطهم الله عزّ وجلّ بسياج سميك من الحماية والرّعاية والعناية، وهياً لهم من أسباب الحفظ ما يكفل بقاء أجسامهم هذه المدة الطويلة .

فحفظهم من الشّمس . فإذا طلعت مالت عنهم يمناً، وإذا غربت مالت عنهم يسرة ، فلا تؤثر حرارتها في أبدانهم . وهم في موضع متّسع من ذلك الغار فلا يتأذون بضيق المكان ولا بقلّة الهواء .

ومن رآهم حسبهم إيقاظاً وهم رقود . وهم في نومهم يتقلّبون ذات اليمين وذات الشّمال حتّى لا تفسد الأرض أجسامهم . وقد ألقيت عليهم المهابة فلا يتأتّى لأحد قربهم والدنو منهم ، بل يتملّكه الخوف ويمتلئ قلبه ذعراً فيلوذ بالفرار خوفاً ورعباً.

(١) تيسير الكريم الرّحمن: ص: ٤٢١ . بتصرّف يسير .

قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ۝١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ۝١٨﴾ [الكهف: ١٧، ١٨] (١) .

ثم بعثهم الله ليكونوا آية للعالمين ، وبصيرة وبقينا للمؤمنين ، وحجة ودليلاً على الجاحدين الكافرين .

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ۝٢١﴾ [الكهف: ٢١] .

وليقف أهل الإيمان على خبرهم فيتعلموا منهم الثبات على الدين، والاعتصام بالله واللجوء إلى جنابه ، وتحمل كل أذى في سبيله وابتغاء مرضاته ، ولو أدى ذلك إلى اعتزال المجتمع والفرار منه ما دام الغاية أن يبقى للإنسان دينه ، وتسلم له عقيدته .

(١) وانظر معاني الآيات في:

الجامع لأحكام القرآن: ٣٦٨/١٠ - ٣٧٠ . تفسير القرآن العظيم: ١٢٤/٣ - ١٢٥ . تيسير الكريم الرحمن: ص: ٤٢٢ .

المبحث الثالث

أصحاب الأخدود

إنهم فئة من المؤمنين في أمة سابقة ، آمنوا بالله تعالى ، ورسخت عقيدة الإيمان في قلوبهم . فتسلط عليهم طغاة من أهل الكفر والإلحاد والظلم ، وأرادوهم أن يقلعوا عن عقيدتهم ويرتدوا عن دينهم فأبوا ، فعمد الطغاة والجبارون فشققوا شقوقاً في الأرض ، وأججوا فيها النيران ، ثم قذفوا المؤمنين فيها على مشهد ومرأى من الظلمة وأعوانهم . ولم يكن لأولئك المؤمنين جريرة ارتكبوها ولا ذنب قارفوه عند هؤلاء إلا إيمانهم بالله العزيز الحميد .

فثبت المؤمنون على إيمانهم ، فلم ينتثوا عن عقيدتهم ، ولم يستجيبوا لفتنة أولئك مع شدة العقاب وهول العذاب .

قال الله تعالى: ﴿ قَتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿١﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٢﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٣﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٤﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٥﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٧﴾ ﴾ [الروج: ٤-١٠] .

قال ابن كثير (رحمه الله):

"هذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل ، فقهرتهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم ، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً ، واعدوا لها وقوداً يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقفوهم فيها... وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجنايته ، المنيع الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره" (١) .

(١) تفسير القرآن العظيم: ٧٧٦/٤ .

والقصّة سيقّت لبيان ثبات أولئك القوم على دينهم ، ولكي يأخذ المؤمنون العبرة والعظة ، ويتأسّوا بهم في الصّبر على الحقّ .

ولذا قال الزّمخشري:

" إنّ السّورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكّة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدّمهم من التعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى ، وصبرهم وثباتهم حتّى يأنسوا بهم ، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أنّ كفّارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرّقين بالنّار ملعونون أحقّاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش كما قيل ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ و﴿ قُتِلَ ﴾ دعاء عليهم كقوله: ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عس: ١٧] ^(١) .

وقد أشار النّبّي ﷺ إلى قصّة أصحاب الأخدود في حديث طويل ، مبيّناً فيه ثبات أولئك القوم على دينهم ، وصبرهم على العذاب في ذات الله تعالى ، وكيف جادوا بأنفسهم حفاظاً على إيمانهم .

عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلمّا كبر قال للملك : إنّني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السّحر ^(٢) ، فبعث إليه غلاماً يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ^(٣) ، ففقد إليه وسمع كلامه

(١) الكشّاف: ٢٣٧/٤ . الطبعة الحلبية .

(٢) السّحر: هو كلّ ما لطف مأخذه ودقّ فهو سحر . انظر: مختار الصّحاح: ص: ٢٨٨ . لسان العرب: ٣٤٨/٤ .
القاموس المحيط: ص: ٥١٩ .

وهو في الشرع عمل يتقرّب فيه إلى الشّيطان ويتمّ بمعوّنة منه . وأصله صرف الشّيء عن حقيقته إلى غيره . انظر: لسان العرب: ٣٤٨/٤ .

وقيل: لفظ السّحر في عرف الشرع يختصّ بكلّ أمر يخفى سببه ويتخيّل على غير حقيقته ، ويجري مجرى التّمويه والخذاع . وإذا أطلق ذمّ فاعله . وقد يستعمل مقيداً فيما يمدح ويحمد . التعاريف: ١ / ٣٩٩ . والسّحر ليس كلّه تخيّل ، بل منه ماهو حقيقة وما هو تخيّل .

وهو يقال على معان : الأول: تخيّل لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعبد . الثاني: استحلاب معاونة الشّيطان بضرب من التّقرّب إليه . الثالث: ما يغيّر الصّور والطّباع كجعل الإنسان حماراً . انظر: المفردات: ص: ٢٢٦ .

(٣) الرّاهب: هو المتعبّد . وجمعه رهبان . وأصله من التّرهّب وهو استعمال الرّهبة وهي الخوف — في العبادة . ويطلق على ذلك الفعل: رهبانية وهي: غلو في تحمّل التّعبّد من فرط الرّهبة . وانظر: المفردات: ص: ٢٠٤ .

فأعجبه ، فكان إذا أتى السّاحر مرّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى السّاحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال: إذا خشيت السّاحر فقل: حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني السّاحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس . فقال: اليوم أعلم السّاحر أفضل أم الراهب أفضل ؟. فأخذ حجراً فقال: اللّهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر السّاحر فاقتل هذه الدّابة حتّى يمضي النّاس. فرماها فقتلها ومضى النّاس . فأتى الراهب فأخبره . فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل منّي ، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ . وكان الغلام يبرئ الأكْمَه^(١) والأبرص ويداوي النّاس من سائر الأدواء^(٢).

فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني . فقال: إنّي لا أشفي أحداً إنّما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك . فآمن بالله ، فشفاه الله . فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك ؟ قال: ربّي . قال: ولك ربّ غيري ؟ قال: ربّي وربّك الله . فأخذه فلم يزل يعذّبه حتّى دلّ على الغلام ، فجئ بالغلام ، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكْمَه والأبرص وتفعل وتفعل ، فقال: إنّي لا أشفي أحداً ، إنّما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذّبه حتّى دلّ على الراهب ، فجئ بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى ، فدعا بالمشّار^(٣) ، فوضع المشّار في مفرق رأسه فشقه حتّى وقع شقّاه ، ثمّ جئ بجليس الملك ، فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المشّار في مفرق رأسه فشقه به حتّى وقع شقّاه. ثمّ جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فلصعدوا

لسان العرب: ٤٣٧/١. ورهبانيّة النّصارى الّتي عرفوا بها : أنّهم كانوا يترهبون بالتحلّي من أشغال الدّنيا وترك ملاذها والزّهد فيها ، والعزلة عن أهلها ، وتعمّد مشاقّها ، حتّى إنّ منهم من كان يخصي نفسه ويضع السّلسلة في عنقه . وغير ذلك . النّهاية في غريب الحديث: ٢٨٠/٢. بتصرّف يسير.

(١) الأكْمَه: هو الأعمى . وقيل هو الَّذي ولد أعمى. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢٠١/٤.

(٢) الأدواء : جمع داء وهو المرض . انظر: مختار الصّحاح: ص: ٢١٤. لسان العرب: ٧٩/١.

(٣) المشّار: بهمزة بعد الميم وهو الأفصح ، ويجوز تخفيف الهمزة ياء ، ويجوز المنشار بالنون . وعلى هذا يقال : نشرت الخشبة . وعلى الأوّل يقال أشركها . شرح التّووي على صحيح مسلم : ٧٤/١٨. بتصرّف.

به الجبل فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه . فذهبوا به ، فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفينهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك . فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرُقُور ^(١) ، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه . فذهبوا به . فقال: اللهم اكفينهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك . فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله . فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به . قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد ^(٢) واحد ، وتصابني على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتي ^(٣) ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل: باسم الله رب الغلام ، ثم ارمني . فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنني . فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال باسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوق السهم في صدغه ^(٤) ، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات . فقال الناس: آمناً برب الغلام . آمناً برب الغلام . آمناً برب الغلام . فأتى الملك فقيل له: رأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذر ^(٥) . قد آمن الناس . فأمر بالأخدود في أفواه السكك ^(٦) فحذت ، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن

(١) قُرُقُور: هو السفينة العظيمة وجمعها قَرَقِير . النهاية في غريب الحديث: ٤ / ٤٨ .

(٢) الصعيد : هو التراب ، ويطلق على وجه الأرض وعلى الطريق . والجمع صُعد وصُعدان . : انظر: لسان العرب: ٢٥٤/٣ . وانظر: المرجع السابق: ٢٩/٣ .

(٣) الكنانة: أصلها من الكِن وهو الستر والوقاء . وهي جعبة السهام التي توضع فيها ، وتتخذ من جلود أو خشب . انظر: لسان العرب: ١٣/٣٦٠-٣٦١ . وانظر: غريب الحديث للخطابي: ١١٢/١ . مختار الصحاح: ص: ٥٨٠ . القاموس المحيط: ص: ١٥٨٥ .

(٤) الصُدْغ : هو ما بين العين إلى شحمة الأذن . النهاية في غريب الحديث: ١٧/٣ .

(٥) نزل بك حذر : أي ما كنت تحذر وتحاف . شرح النووي على مسلم: ١٨/١٣٣ .

(٦) السكك : هي الطريقة المستوية المصطفى من النخل . ومنها قيل للأزقة سكك لاصطفاف الدور فيها . غريب الحديث للهروي: ١/٣٤٩ . الفائق: ٢/١٨٩ . النهاية في غريب الحديث: ٢/٣٨٤ . وقال النووي (رحمه الله) : " السكك : الطرق . وأفواها : أبوابها . " شرح النووي على مسلم: ١٨/١٣٣ .

دينه فأحْمُوهُ (١) فيها . أو قيل له: اقتحم . ففعلوا . حتَّى جاءت امرأة ومعهما صبي لها . فتقاعست (٢) أن تقع فيها ، فقال لها الغلام: يا أمِّه اصبري فإنَّك على الحقَّ (٣) .

لقد أضحي هؤلاء المؤمنون مثلاً يحتذى به لكلِّ مفتون في الأرض من أهل الإيمان من أجل دينه وعقيدته ، مهما بلغت تلك الفتنة، ولو أدَّت إلى إزهاق الأرواح وسفك الدماء ، بل والحرق بالنَّار كما حدث لهؤلاء . لأنَّ كلَّ شيء في ذات الله يهون ، وكلَّ صعب من أجله يسهل . وما أعدّه للصَّابرين الثَّابتين على الحقِّ يفوق كلَّ ما يتصوَّر من عظيم الثَّواب وفائق الأجر .

ولذا حرص رسول الله ﷺ أن يورد هذه الحادثة بطولها ليدفع أهل الإيمان على الثَّبات عند شدائد الفتن بذكره لهم أخبار السَّابِقين من الأمم ، وما عانوه من مشاقٍّ من أجل دينهم .

قال الإمام القرطبي (رحمه الله):

" قال علماؤنا: أعلم الله عزَّ وجلَّ المؤمنين من هذه الأمَّة في هذه الآية ما كلن يلقاه من وحد قبلهم من الشدائد يؤنسهم بذلك . وذكر لهم النَّبيُّ ﷺ قصَّة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام ، والمشقات التي كانوا عليها ليتأسَّوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلَّبه في الحقِّ وتمسَّكه به، وبذله نفسه في حقِّ إظهار دعوته ، ودخول النَّاس في الدِّين مع صغر سنِّه وعظم صبره . وكذلك الرَّاهب صبر على التَّمسَّك بالحقِّ حتَّى نشر بالمنشار . وكذلك كثير من النَّاس لما آمنوا بالله

(١) يقال: حمى الشمس وحموها: اشتداد حرّها. ويقال: حمى المسمار وغيره في التَّار حمياً وحموراً: سخُنَ. انظر:

مختار الصَّحاح: ص: ١٥٨. لسان العرب: ٢٠١/١٤.

والمراد: ارموه فيها حتَّى يحترق . وانظر: شرح التَّووي على مسلم: ١٣٣/١٨.

(٢) فتقاعست: أي تأخَّرت . انظر: النَّهْاية في غريب الحديث: ٨٧/٤.

وقيل: توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدَّخول في التَّار. شرح التَّووي على مسلم: ١٣٣/١٨.

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الزَّهد الرَّقائِق (٥٣) . باب قصَّة أصحاب الأُخْدود والسَّاحر والرَّاهب

والغلام: (١٧) برقم: (٣٠٠٥) . ٢٣٠١-٢٢٩٩/٤ .

تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطّرح في النّار ولم يرجعوا في دينهم " (١) .

إنّ الثّبات على العقيدة يمثّل انتصاراً للحقّ على الباطل ، واستعلاء للإيمان وأهله على الحياة الماديّة الفانية . إنّ فقد النّفوس ، وضياح الأجساد لا يوازن بضياح الإيمان والدين ، إذ خسارة الأجساد خسارة دنيا زائلة بينما خسارة الاعتقاد خسارة أخرى باقية ، والفرق بين ذلك شاسع وبعيد .

إنّ وهج النّار ولفحها لم يزل إلّا الأبدان ، وأمّا الإيمان الذي استقرّ في القلوب فإنّه لم يصل إليه ، وهو الذي ضمن لأولئك القوم السّعادة الأبديّة في الجنان الوارفة .

ولو نجت تلك النّفوس المؤمنة من تلك النّار الحارقة في مساومة مع الإيمان لخسرت خسارة لا تجبر ، وفقدت سعادة لا تقوّم .

وتعجبني كلمة للشيخ سيّد قطب (رحمه الله) في روعة سياقها، وعذوبة معناها، أعضدّ بها ما ذكرت ، وأذيل بها هذه الجزئية من البحث . يقول:

" تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالرّوعة . روعة الإيمان المستعلي على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرّد من أوهاق (٢) الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدّنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشريّة كلّها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرّية ، وانحطاطها حين يسيطر الطّغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنّ معنى كريم جداً ، ومعنى كبير جداً هذا الذي ربّحوه وهم بعد في الأرض . ربّحوه وهم يجدون مسّ النّار ، فتحترق

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٩٣/١٩ .

(٢) الأوهاق : جمع وهق بالتحريك وقد يسكن ، وهو حبل كالطّول تشدّ به الإبل والخيل لئلا تنسّ.

لسان العرب: ٣٨٦/١٠ .

فلعله أراد بقوله : والانطلاق المتجرّد من أوهاق الجسم : أي الانطلاق المتجرّد من تقييدات الجسم . لأنّ الوهق يُقيّد به .

أجسادهم وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تذكيه النار، وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطّاغيين حساب . يعقب به السياق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝﴾ [البروج: ١٠-١١] ^(١) .

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٨٧٤ .

المبحث الرابع

أصحاب رسول الله ﷺ

إن أصحاب رسول الله ﷺ هم الفئة المختارة من هذه الأمة بعد نبيها ﷺ ، جعلهم الله وزراء نبيه يدافعون عن دينه ، وينافحون عن شرعه ، وامتدحهم في قرآنه في آيات كثر.

فقال تبارك وتعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَابِهِمِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩] .

وقال عز وجل: ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٨٨] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٨٨، ٨٩] .

ولا سيما السابقون على الإسلام منهم . وفيهم يقول المولى سبحانه: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] .

وأثنى عليهم رسول الله ﷺ جملة في قوله: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم" (١) .

وقال ابن مسعود ﷺ :

" من كان منكم مستتاً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ ، كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم " (٢) .

إنهم لم يبلغوا المنزلة العظيمة ، والتكرمة الرفيعة ، والثناء العاطر إلا لصدقهم في حمل هذا الدين ، علماً وعملاً ودعوة . حملوه بقلوب لا تعرف الملل ، وأجساد لا تعرف الكلال ، وصبر وثبات كثبات الراسيات من الجبال . وذلك في وقت قل

(١) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الشهادات: (٢٨/٥٢). باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد: (٩). عن عمران بن حصين ﷺ . برقم : (٢٦٥١). إلا أنه قال: " خيركم " . وعن عبد الله بن مسعود ﷺ . برقم : (٢٦٥٢). ص: ٥٥١. وفي كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ : (٣٧/٦٢). باب فضائل أصحاب النبي ﷺ : (٢٩/١) . عن عمران ﷺ برقم : (٣٦٥٠). إلا أنه قال: " خير أمتي " . وعن عبد الله ﷺ برقم : (٣٦٥١). ص: ٧٦٧. وفي كتاب الرقاق: (٥٥/٨١). باب ما يُعذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها: (٧). عن عمران ﷺ برقم : (٦٤٢٨). إلا أنه قال: " خيركم " . وعن عبد الله ﷺ . برقم : (٦٤٢٩). ص: ١٣٦٩. وفي كتاب الأيمان والتنوير: (٥٧/٨٣). باب إثم من لا يفى بالنذر: (٢٧). برقم : (٦٦٩٥). إلا أنه قال: " خيركم " . ص: ١٤١٦ . و بلفظ مقارب عن عبد الله ﷺ في باب إذا قال أشهد بالله ، أو شهدت بالله: (١٠). برقم : (٦٦٥٨). ص: ١٤٠٩.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب فضائل الصحابة: (٤٤). باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم: (٥٢). عن عبد الله ﷺ . برقم : (٢٥٣٣). ١٩٦٣/٤ . و بلفظ مقارب عن عمران ﷺ . برقم : (٢٥٣٥). ١٩٦٤/٤ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ص: ٤٣٢ . طبعة المكتب الإسلامي . وقد أورد أبو نعيم قريباً منه من قول عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) . حلية الأولياء . طبعة دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ : ٣٠٦-٣٠٥/١ .

وانظر: الاعتصام لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي . طبعة المكتبة التجارية . مصر . تعريف محمد رشيد رضا : ٣٣٧/١ .

فيه المعين من البشر وندر فيه الناصر ، وطغى فيه سلطان الكفر والشرك ، وكثر عن أنياب العداء السافر لحملة الحق من الصحابة الميامين . وكل ذلك لم يثن عزائمهم ، ولم يضعضع قواهم . بل واجهوا جحافل الشرك بقلوب ثابتة ، وإيمان راسخ .

لقد ثبتوا على هذا الدين منذ بزوغ فجره عندما كانوا في قلة من العدد وضعف من العدد . يحتوشهم مجتمع بلغ في الطغيان منتهاه ، وفي الظلم أعلاه ، وفي العدوان غايته . جرّدت قلوب أصحابه من الشفقة ، وأرواحهم من الرحمة ، لأنّها قلوب دنست بوحل الشرك ، وأرواح لطّخت بظلم الكفر . فانبروا لأولئك الضعفة يذيقونهم الأمرين ، تفنّناً في التّكيل ، وتنوّعاً في التّعذيب . والقصد أن يفتن أولئك المؤمنون عن دينهم ، ويرتدّوا عن توحيدهم .

وبذل أولئك القساة كلّ جهد يملكونه ، وكلّ أسلوب يعرفونه لينالوا من تلك الفئة الثّابتة . واشتدّت وطأة تعذيبهم عليهم فما استجاب لها إلا النّزر اليسير ، وبعضهم مكرهاً . وثبت الجلّ الكثير فلم ينتكس .

قال ابن إسحاق (رحمه الله):

"ثم إنّهم - أي المشركون - عدو على من أسلم ، واتّبع رسول الله ﷺ من أصحابه ، فوثبت كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضّرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكّة إذا اشتدّ الحرّ، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم . فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ، ويعصمه الله منهم" (١) .

وأولئك الذين أجابوا المشركين في بعض ما أرادوا إنّما أجابوا دفعاً للتّعذيب ، وإكراهاً على الكفر ، وليس رضاً به .

(١) السّيرة النبويّة لابن هشام: ١٩٤/١ . ولم أقف على النصّ كاملاً كما ذكره ابن هشام (رحمه الله) . في سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي . تحقيق: محمّد حميد الله . طبعة: معهد الدّراسات والأبحاث للتعريب: ١٧٠/٤ .

وفي شأنهم يقول الله عز وجل: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] (١) .

عن سعيد بن جبیر (رحمه الله) قال: قلت لعبد الله بن عباس (رضي الله عنهما): " أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : " نعم والله ؟ إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة . حتى يقولوا له اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول: نعم . حتى إن جعل ليمر بهم ، فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداء منهم مما يبلغون من جهده " (٢) .

وقد غفر الله لهم ذلك كله بعد هجرتهم وجهادهم وصبرهم .
وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] .

يقول الإمام ابن جرير (رحمه الله):

" يقول تعالى ذكره: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين ، وانتقلوا عنهم إلى ديار أهل الإسلام ومساكنهم وأهل ولايتهم من بعد ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين أظهرهم قبل هجرتهم عن دينهم ، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف ، وبأسننتهم بالبراءة منهم ومما يعبدون من دون الله ، وصبروا على جهادهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول: إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِ فَعَلْتُمْ هَذِهِ لَكُمْ لَغُفُورٌ . يقول: لنو ستر على ما

(١) وانظر: في معنى الآية: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/١٨٠-١٩١ وفيه تفصيل جامع في معنى الإكراه ، وحده ، وتطبيقه في الفروع الفقهيّة . ومذاهب أهل العلم في ذلك .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ١/١٩٦ .

كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بالسنتهم ، وهم لغيرها مضمرون ، وللايمان معتقدون . رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابنتهم إلى الله وتوبتهم^(١).

ولما رأى النبي ﷺ ما أصاب أصحابه من الشدة والبلاء والفتنة ، وأنه لا يقدر على منعهم وحمايتهم أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة لأن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد . حتى يجعل الله لهم مخرجاً مما هم فيه . فخرجوا إليها مخافة الفتنة ، وفراراً بدينهم إلى الله^(٢) .

وفي ذلك يقول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي^(٣) . بعد أن عدّ له أمور الإسلام :

" فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنّا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وشقّوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيّها الملك " ^(٤) .

ثم لما بلغهم أن قريشاً كفّت أذاها عن من أسلم رجعوا إلى مكة . وازداد عدد المسلمين بها . فعاود المشركون الكرّة ، واشتدّ العذاب والفتنة على المسلمين . فأمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن .

(١) جامع البيان: ١٨٣/١٤ . طبعة الحلبي . وانظر: معاني القرآن للزجاج: ٢٢٠/٣ . تفسير القرآن العظيم: ٩١٣/٢ . محاسن التأويل: ٣٨٦٦/١٠ . وفي الآية أقوال أخرى . انظر: التفسير الكبير: ١٢٥/٢٠-١٢٦ . الجامع لأحكام القرآن: ١٨٠/١٠-١٨١ وقد ذكر أسماء من فتن ، ومن لم يجب المشركين في تلك الفتنة .

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١٩٧/١ .

(٣) النجاشي: هو أصحمة بن أبجر النجاشي ملك الحبشة ، واسمه بالعربية عطية النجاشي لقب له . أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يهاجر إليه ، وكان ردةً للمسلمين نافعاً . أحسن إلى من هاجر إليه في صدر الإسلام . صلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب . انظر: الإصابة: ٢٠٥/١ .

(٤) مسند أحمد: بلفظه هو جزء من حديث أم سلمة (رضي الله عنها) الطويل في شأن الهجرة الأولى إلى الحبشة — في: ٢٠٢/١ . قال أحمد شاكر رحمه الله: "إسناده صحيح" . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٨٥-١٨٠/٣ . برقم: (١٧٤٠) . ولفظه عدا أحرف يسيرة في: ٢٩١/٥ .

وفي ذلك يقول عروة بن الزبير (رحمه الله) ^(١):

"وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخالفتها ، وفراراً مما كانوا فيه من الفتن والزلازل . فلما استُرُخي عنهم ، ودخل في الإسلام من دخل منهم ، تُحَدَّثُ باسترخائهم عنهم . فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه استُرُخي عنَّ كان منهم بمكة ، وأنهم لا يفتنون . فرجعوا إلى مكة ، وكادوا يأمنون بها ، وجعلوا يزدادون ويكثر . وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير ، وفشا بالمدينة الإسلام ، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة . فلما رأت ذلك قريش تذامرت ^(٢) على أن يفتنوهم ويشتدوا عليهم . فأخذوهم ، وحرصوا على أن يفتنوهم ، فأصابهم جهد شديد . وكانت الفتنة الآخرة . فكانت ثنتين: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة ... وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة " ^(٣).

(١) هو عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد أبو عبد الله الأسدي القرشي المدني . وأمه أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنها) . من أئمة التابعين وفقهائهم الأفاضل . كان ثقة عابداً صالحاً ، كثير الحديث . لم يدخل في شيء من الفتن . توفي سنة : ٩٤ هـ . على الصحيح .

وانظر: الطبقات الكبرى: ١٧٨/٥ . طبقات خليفة: ص: ٢٤١ . التاريخ الكبير: ٣١/٧ . معرفة النقات: ١٣٣/٢ . الجرح والتعديل: ٣٩٥/٦ . ثقات ابن حبان: ١٩٤/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ٦٤/١ . التعديل والتجريح: ١٠٢٠/٣ . تهذيب الكمال: ١١/٢٠ . تذكرة الحفاظ: ٦٢/١ . الكاشف: ١٨/٢ . جامع التحصيل: ص: ٢٣٦ . تهذيب التهذيب: ١٦٣/٧ . تقريب التهذيب: ٣٨٩/١ . إسعاف المبطأ: ص: ٢١ .

(٢) تذامرت: أي تحاضت على القتال . انظر: القاموس المحيط: ص: ٥٠٩ .

(٣) هذا الأثر أورده الإمام ابن جرير (رحمه الله) مطولاً عن عروة بن الزبير (رحمه الله) فيما كتبه إلى عبد الملك بن

مروان . في جامع البيان: ٥٣٩/١٣ - ٥٤٢ (طبعة شاكر) . عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا

تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] .

وأشار الشيخ أحمد شاكر (رحمه الله) إلى أنه أورده في مواضع متفرقة من التفسير والتاريخ . وذكر أن إسناده صحيح . انظر: جامع البيان ٥٤٢/١٣ هامش: ٣ . كما أورده الإمام ابن كثير (رحمه الله) في تفسيره بطوله عند تفسير الآية السابقة وقال: "وهذا صحيح على عروة (رحمه الله) " .

تفسير القرآن العظيم: ٤٨٧/٢ .

والقصد أن أصحاب رسول الله ﷺ داهمتهم فتن مدلهمة ، وأصابتهم محن وشدائد عظيمة ، فصبروا وثبتوا على دين الله ، وظلّوا يكافحون وينافحون مع رسول الله ﷺ لنصرة هذا الدين وإعلاء رأيته . حتّى نصر الله الدين بهم ، ورفع شأنه بثباتهم ، وقوى أمره بصبرهم . وأبدلهم بعد الضعف قوة ، وبعد الدّل عزّة ، وبعد الغلبة نصرة ، وبعد الفقر غنى . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦] .

وظهر الإسلام بعد أن كان خافياً ، ووضح الحق بعد أن كان عافياً .

قالت عائشة (رضي الله عنها):

" لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفرّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه ، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام ، واليوم يعبد ربّه حيث شاء ، ولكن جهاد ونية " (١) .

هذا عن الصحابة في الجملة . وأما الأفراد فهناك نماذج مشرقة لصحابة رسول الله ﷺ ضربوا بها أروع الأمثلة في الثبات عند الفتن ، والصبر على المحن ، وعطروا بها تاريخ الإسلام الحافل بالبطولات النادرة ، وورثوها للأجيال من بعدهم لتكون نبراساً يضيئ لهم الطريق متى ما استشفوا القدوة منها ، وتعلّقوا بالأسوة فيها .

وقد اخترت من أولئك أنموذجين رائعين من نماذج شتى ، ومثلين فذيين من أمثال عدّة ، تأكيداً لما سبق ، وتأبيداً لما مضى . وليكونا في مطلبين .

(١) سبق . ص : ١٩١ .

﴿المطلب الأول﴾

بلال بن رباح ؓ

إنّه مؤذن رسول الله ﷺ ، ومن السابقين الأولين الذين عذبوا في الله تعالى .
كان مولى لبعض بنى جمح^(١) ، مولداً من مولديهم ، فهو من المستضعفين
فيهم . وقر الإيمان في قلبه ، فصدق مع الله حق الصدق . فأعلنها مدوية في سماء
مكة: ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فجمح إليه مواليه يذيقونه حرّ العذاب ،
وعظيم الأذى ووافر العقاب . يريدون أن يفتتوه عن دينه ، ويطفئوا النور الذي ملأ
جوانح صدره ، واستقرّ في سويداء قلبه ليعود مرة أخرى إلى ظلام الوثنية ،
وضلال الشرك .

كانوا يخرجونه إذا حميت الظهيرة ، واشتدّ حرّها ، فيطرحونه على ظهره في
بطحاء مكة وبين صخورها ، ثمّ يأتون بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . كلّ
ذلك من أجل أن يكفر بمحمد ﷺ ، ويعبد اللات والعزى . ولكنهم لا يجدون عنده ملأ
يطمعون ، ولا يصلون منه إلى ما يتمنون ، وإنما يصكّ أذانهم بقوله: أحد ، أحد^(٢) .

قال عبد الله بن مسعود ؓ :

" كان أول من أظهر إسلامه سبعة : رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه
سمية وصهيب وبلال والمقداد . فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب^(٣) ،
وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون ، وألبسوهم أذراع

(١) بنو جمح : بطن من قريش . وهم بنو جمح بن عمرو . من مضر من العدنانية . انظر : معجم قبائل العرب

القديمة والحديثة . لعمر رضا كحالة . طبعة دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الثانية : ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م :

٢٠٢/١-٢٠٣ . معجم قبائل الحجاز . لعاتق بن غيث البلادي : ٨٦/١ .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام : ١٩٤/١ .

(٣) أبو طالب اسمه : عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم . القرشي الهاشمي . والد عليّ ؓ ، وعمّ رسول الله ﷺ

وكافله ومربيّه وناصره وحاميه . من أبطال قريش وعقلائهم وزعمائهم وخطبائهم وشعرائهم . دعاه النبي ﷺ
للإسلام فامتنع خوفاً من أن تعيره العرب ، ووعد بالتصبر والحماية . وظلّ على ذلك حتّى توفي قبل الهجرة النبوية
بثلاثة أعوام . والشّيعّة تزعم أنّه أسلم وكنم إسلامه ، وذلك مخالف للتّصوص . انظر : الأعلام : ١٦٦/٤ .

الحديد ، وصهروهم في الشمس . فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم^(١) على ما أرادوا إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه ، فأخذوه فأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد " (٢) .

إن ذلك العذاب كله لم يؤثر في ثبات بلال رضي الله عنه ، هانت عليه هذه الدنيا ، وهانت عليه هذه النفس ، فلم يعبأ بما يصيبها من الأذى ، ولو قطعت أو أزهقت . فثبت ثبات الجبال الشم التي لا تؤثر فيها العواصف المزمجرة ، ولا السيول العاتية . إنه الإيمان الصادق ، واليقين الخالص الذي استقر في ذلك القلب الطاهر فلم يتجه إلى غير الله ، ولم يذكر سوى الله حتى أعجز قومه أن يفتنوه عن دينه ، فسعوا في الخلاص منه . فخلصه أبو بكر رضي الله عنه .

قال ابن سيرين^(٣) (رحمه الله):

"إن بلالاً لما ظهر مواليه على إسلامه مطّوه في الشمس ، وعذبوه ، وجعلوا يقولون: إلهك اللات والعزى . وهو يقول: أحد ، أحد . فبلغ أبا بكر فاتاهم ، فقال: علام تقتلونه ؟ فإنه غير مطيعكم . قالوا: اشتريه . فاشتراه بسبع أواق ، فأعتقه" (٤) .

(١) واتاهم : أي أعطاهم . انظر : مختار الصحاح : ص : ٥ .

(٢) سنن ابن ماجه: بلفظه في: المقدمة. باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد . برقم: (١٥٠). قال الألباني رحمه الله: "حسن". ص: ٣٢.

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٤٠٤/١. قال أحمد شاكر رحمه الله: "إسناده صحيح". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣١٩/٥. برقم: (٣٨٣٢).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظه إلا أحرف يسيرة في: باب ذكر بلال بن رباح المؤذن رضي الله عنه . برقم: (٧٠٨٣). قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده حسن". ٥٥٨/١٥.

مستدرک الحاكم: نحوه في: ٣٢٠/٣. وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وقال الذهبي رحمه الله: "صحيح". (٣) هو محمد بن سيرين أبو بكر الأنصاري ، مولى أنس بن مالك رضي الله عنه . من أئمة التابعين وفقهاء أهل البصرة وعبادهم . رأى ثلاثين من الصحابة . وكان إماماً ربانياً عالماً رفيعاً كثير العلم كبير القدر ، ثقة ثباتاً ، علامة في التعبير ، رأساً في الورع . وكان به صمم . توفي سنة : ١١٠ هـ .

وانظر: الطبقات الكبرى: ١٩٣/٧. طبقات خليفة: ص: ٢١٠. التاريخ الكبير: ٩٠/١. معرفة الثقات: ٢٤٠/٢. الجرح والتعديل: ٢٨٠/٧. ثقات ابن حبان: ٣٤٨/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٨٨/١. تاريخ بغداد: ٣٣١/٥. التعليل والتحريح: ٦٧٦/٢. تهذيب الكمال: ٣٤٤/٢٥. تذكرة الحفاظ: ٧٧/١. الكاشف: ١٧٨/٢. جامع التحصيل: ص: ٢٦٤. تهذيب التهذيب: ١٩٠/٩. تقريب التهذيب: ٤٨٣/١. إمعان المبتأى: ص: ٢٥.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٣٥٣/١ .

﴿المطلب الثاني﴾

عبد الله بن حذافة السهمي

إنّ هذا الصّحابي الجليل ، الذي كان أحد السّابّقين إلى الإسلام ، ومن مهاجري الحبشة الأول ضرب أروع الأمثلة في الثّبات على الحقّ . جابهته الفتن في أعلى صورها فلم تزعه عن دينه ، وواجهته في أسوأ أشكالها فلم تردّه عن يقينه بهذا الإسلام . خبره من أعجب ما يروى وأغرب ما يذكر .

إنّ عمر بن الخطّاب ؓ وجّه جيشاً إلى الروم فيه عبد الله بن حذافة ؓ ، فقدّر الله له أن يقع أسيراً في أيديهم ، فذهبوا به إلى ملكهم وأخبروه أنّه من أصحاب محمّد ؐ . فدعاه الملك إلى دين النّصرانية ، وسأومه بأن يعطيه نصف ملكه ، ويزوّجه ابنته . فقال بصدق وثبات: " لو أعطيتني جميع ما تملك ، وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمّد ؐ طرفت عين ما فعلت " .

فقال: إذا أقتلك . فقال: " أنت وذاك " . فأمر به فصلب ، ثمّ أمر الرّماة أن يرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النّصرانية فيأبى . ثمّ دعا بقدر صب فيها ماء ، وأحمي عليه حتّى احترق ، ثمّ دعا بأسير أو أسيرين من المسلمين فألقيا فيها فإذا هما عظام تلوح . وعبد الله ينظر إلى ذلك ، فعرض عليه النّصرانية مرّة أخرى وهو يأبى . فأمر به أن يلقي في القدر فبكى ، فظنّ الملك أنّه قد جزع ، وطمع فيه . فقال: ردّوه ثمّ سأله عن سبب بكائه فقال: " إنّني إنّما بكيت لأنّ نفسي إنّما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر السّاعة في الله فتذهب ، فأحببت أن يكون لي بعدد كلّ شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله " .

وفي بعض الرّوايات إنّ الملك سجنه في بيت ، ومعه خمر ولحم خنزير ثلاثاً وهو لا يأكل حتّى كاد أن يهلك . فلمّا أخرج سأله الملك: ما منعك أن تأكل وتشرب؟ قال: " أما إنّ الضّرورة كانت قد أحلتها لي ، ولكن كرهت أن أشمّتك بالإسلام " . فقال الملك: قبّل رأسي وأنا أطلقك . قال: " وتطلق معي جميع أسارى المسلمين " .

قال: نعم . فقبل رأسه . فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين . فلما رجع إلى عمر رضي الله عنه وعلم الخبر قال: "حقّ على كلّ مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا ابدأ " . فقام فقبل رأسه ^(١) .

إنّ عبد الله رضي الله عنه لم يصدّه عن الثّبات ما هدّد به من قتل وإزهاق نفس ، ولو كان ذلك بأسوأ الأساليب ، وأقبح الوسائل . ولم تثن عريكته ، ولم يفتّ في عضده شدة الجوع والظّمأ ، والطّعام والشراب على مقربة منه ، وقد أباح له الشرع حال الضرورة ما لم يبحه له في غيره .

وليس الأمر أن تزول نفسه ، وتذهب روحه كي لا يزول الإسلام أو يدمر . وإنّما الأمر أن تزول نفسه كي لا يشمت فقط في الإسلام ! .

أعظم به من موقف مشرّف جليل القدر . أين هو من مواقف متخاذلة من كثيرين انتموا إلى هذا الدّين العظيم ، ولكنهم جهلوا قدره أو تجاهلوه ؟ . لم يقنعهم ما يرونه من سعي حثيث من أعداء الله عزّ وجلّ من اليهود والنصارى لتدمير الإسلام وكنم أنفاسه ، وسفك دماء أبنائه ، وإذلالهم وتشريدهم ، وسلب حقوقهم . لم يقنعهم كلّ ذلك فراحوا يسامون على حساب دين الله الذي أزهقت نفوس من أجله ، وقطعت أعضاء في سبيله ، وذهبت أموال في نصرته ، وأبيدت جيوش من أجل حمايته . يسامون إرضاء لأعداء الله . ولو دعاهم ذلك إلى تحريف النصوص ، وتغيير أحكام الشرع الثّابتة لفعلوا . أما سمع هؤلاء قول الله عزّ وجلّ لأمثالهم من قبل :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا سَآئِرُ الْيَوْمِ ۚ ﴾

(١) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة . لأبي الحسن عليّ بن محمّد عز الدّين بن الأثير . طبعة دار المعرفة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٨هـ — ١٩٩٧م . تحقيق خليل مامون شيخنا : ٥٧٨/٢ . سير أعلام النبلاء : ١٤/٢ — ١٥ . تفسير القرآن العظيم : ٩١٢/٢ . الإصابة : ٥٨/٤ .

دَائِرَةً فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِيهِ
أَنْفُسَهُمْ نَادِمِينَ ﴿٥١﴾ [المائدة: ٥١-٥٢]

أم يظنّ هؤلاء المتخاذلون أنّ أعداء الله يرضيهم ذلك منهم ؟ فإن ظنّوا ذلك
فليستمعوا لقول الله تعالى: ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ
مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

وهذه مواقف ينأ عنها أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا نماذج فذة في الثبات
على الدين ، ومصابرة الشدائد ومغالبة الأهوال حيث لا يرضى أحدهم أن يتنازل
عن جزء يسير من دين الله ، أو يرضخ لفتنة من الفتن تمسّ جسد الإسلام ولو كان
فيها هلاك نفسه ، وذهاب روحه .

لقد تركوا آثاراً مضيئة في الثبات تفوق حدّ الوصف ، ويعجز اليراع أن يحيط
بها أو يأتي عليها جميعاً . وما ذكر إنما هو قليل من كثير؛ ونزر يسير يقصد به
التمثيل وليس الحصر .

المبحث الخامس

الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله)

إن تاريخ الإسلام حافل بالنماذج الفريدة في الثبات على الحق . وقد ترك المخلصون من هذه الأمة بصمات خالدة ، وخلّدوا آثاراً عظيمة تدلّ على صدقهم في التمسك بدين الله القويم ، والصبر على الأذى فيه ، وتحمل المشاق من أجل إعزازه ونصرته .

وقد طفحت كتب السير والتاريخ بذكر أخبارهم ، ودوّنت آثارهم ، ممّا يعجز جميع الأمم الأخرى أن توجد أمثالهم ، أو تبرز أشباههم .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع^(١)
ولعلي اختار من بين أولئك أنموذجاً فذاً ، ضرب بأطنابه في أعماق الثبات على الحق ، وسلك طريقاً في مجابهة الفتن والصبر عندها عجز عن السير عليه كثير من السالكين . نصر الله بثنائه الدين ، وأبان الحق وأزهق الباطل . ورُفِع علم السنّة ونكّست رايات البدع . إنه: إمام أهل السنّة أحمد بن حنبل (رحمه الله) .

قال عنه الشافعي (رحمه الله):

" خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ، ولا اتقى من أحمد بن حنبل " ^(٢) .

(١) بيت الشعر للفرزدق . وهو في ديوانه . شرح وضبط وتقدم الأستاذ عليّ فاعور . طبعة دار الكتب العلميّة .

بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م : ص : ٣٦٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٩٥/١١ . انظر : طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى . طبعة دار المعرفة .

بيروت . توزيع دار المؤيد . الرياض : ١٨/١ .

وقال أبو عمر بن النّحاس (رحمه الله) عنه :

" في الدّين ما كان أبصره ، وعن الدّنيا ما كان أصبره ، وفي الزّهد ما كان أخبره ، وبالصّالحين ما كان ألحقه ، وبالماضين ما كان أشبهه ، عرضت عليه الدّنيا فأبأها ، والبدع فنفاها " (١) .

وقال الذهبي (رحمه الله):

" وإلى الإمام أحمد المنتهى في معرفة السّنة علماً وعملاً ، وفي معرفة الحديث وفنونه ، ومعرفة الفقه وفروعه . وكان رأساً في الزّهد والورع والعبادة والصّدق " (٢) .

وأقوال العلماء في مدحه والثّناء عليه كثيرة جداً .

لقد ثبت هذا الإمام (رحمة الله عليه) عند تلك الفتنة المظلمة التي أوشكت أن تقتلع جذور العقيدة الإسلاميّة من نفوس المسلمين ، وتبثّ البدع والضّلال بينهم . وهي فتنة خلق القرآن التي تحالف على نصرتها وحمايتها قوّة السّلطان مع علماء الضّلال والابتداع . والذي تولّى كبرها الخليفة العبّاسي المأمون . ولم يكن في الخلفاء قبله من بني أميّة وبني العبّاس خليفة إلّا على مذهب السّلف ومنهاجهم في أن القرآن كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله ، لا يعرفون غير ذلك . فظهر المأمون وكان متكّماً ، فاستجلب كتب الأوائل ، وعرب كتب اليونان ، والتفّ حوله جماعة من المعتزلة ، (٣)

(١) البداية والنهاية: ٣٣٦/١٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٩١/١١ - ٢٩٢ .

(٣) المعتزلة فرقة من الفرق الكلاميّة التي عمّدت العقل ، وتعطيه منزلة فوق منزلة التّصوص الشرعيّة ، مما حدا بها إلى الانحراف في كثير من جوانب الاعتقاد السّليم الذي كان عليه سلف الأمة رحمهم الله تعالى . وقد بيّنت كثيراً من جوانب انحراف هذه الفرقة في كتابي موقف المدرسة العقليّة من السّنة النبويّة . انظر: ٩٥/١ فما بعدها .

وقد أشار الإمام الشّهستاني إلى سبب تسميتهم بالمعتزلة فقال:

" دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا إمام الدّين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر . والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعيديّة الخوارج . وجماعة يرجنون أصحاب الكبائر . والكبيرة عندهم لا تضرّ مع الإيمان . بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولا يضرّ مع الإيمان معصية ، كما لا

والجهميّة ، والشّيعيّة ^(١)، وزيّتوا له القول بخلق القرآن ، وحملوه على ذلك . فقام في هذه البدعة قيام معتقد متعبد بها . وآل به الحال إلى أن حمل الأُمّة على ذلك ، وكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ^(٢) يأمره أن يدعو النّاس إليها ، وأن يمتحن العلماء عليها ، ويتهدّد بهم بالضّرب وقطع الأرزاق بل والقتل . فعظمت المصيبة ، واشتدّ البلاء ، وعمّ الخطب . وأجاب أكثر العلماء على سبيل الإكراه ، وتوقّف بعضهم ثمّ أجاب تحت وطأة التعذيب . وثبت قلة فلم يجيبوا .

ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجنة الآمّة . فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً . فكّر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، بل هو في مترلة بين المترلّين : لا مؤمن ولا كافر . ثمّ قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرّر ما أجاب على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسَمّي هو وأصحابه معتزلة " .
الملل والتحل: ٤٨/١ .

(١) الشّيعيّة : هم الذين شايعوا عليّاً عليه السلام على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصّاً ووصية ، إمّا حليّاً وإمّا خفيّاً ، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فيظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده . وقالوا ليست الإمامة قضية مصلحيّة تناط باختيار العامّة وينتصب الإمام بنصهم ، بل هي قضية أصوليّة ، وهي ركن الدّين ، لا يجوز للرّسل عليهم الصّلاة والسّلام إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامّة وإرساله . وهم فرق شتّى يجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيب ، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمّة وجوباً عن الكبار والصّغار ، والقول بالتّوليّ والتّبرّي قولاً وفعلاً وعقداً إلّا في حال التّقية ، ويخالفهم بعض الزّيدية في ذلك . ولهم في تعدية الإمام كلام وخلاف كثير . وعند كلّ تعدية وتوقّف مقالة ومذهب وخط .
وأصول فرقهم خمس : كيسانيّة وزيدية وإماميّة وغلاة وإسماعيليّة . وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال ، وبعضهم إلى السّنة ، وبعضهم إلى التشبيه . الملل والتحل: ١٤٦/١ - ١٤٧ . بتصرّف يسير . وانظر: مقالات الإسلاميين: ص: ٥ فما بعدها . التعريفات : ص: ١٧١ . التعاريف: ٤٤٣/٢ .

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي أمير بغداد نحواً من ثلاثين سنّة ، وعلى يده امتحن العلماء بأمر المأمون في خلق القرآن . وكان صارماً سائساً حازماً . توفي سنة : ٢٣٥ هـ .
انظر: سير أعلام النبلاء: ١١/١٧١ . العبر: ٣٣٠/١ . شذرات الذهب: ٣/١٦٤ .

منهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل (رحمه الله) ^(١) .
 فلما لم يجب الإمام أحمد (رحمه الله) فيمن أجاب حمل إلى المأمون على بعير
 متقللاً بقيود الحديد ، وقد أقسم المأمون إن لم يجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنه .
 فدعا الإمام أحمد ربّه ألا يراه . فهلك قبل قدومه عليه ^(٢) .
 وتولّى الخلافة بعده أخوه المعتصم ، الذي نهج نهج أخيه في امتحان الناس ،
 وفتنتهم بتلك القولة المبتدعة .
 ولما حمل إليه الإمام أحمد في قيوده دعا علماء المبتدعة لمناظرته . فنالظهم
 أمام المعتصم بقلب ثابت وحجج نافذة كسر بها حججهم ، ودحض بها باطلهم ^(٣) .
 قال ابن مصعب ^(٤) :
 " ما رأيت أحداً لم يداخل السلطان ، ولا خالط الملوك ، كان أثبت قلباً من
 أحمد يومئذ ، ما نحن في عينه إلا كأمثال الذباب " ^(٥) .

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٣٦/١١ . العبر: ٢٩٣/١ . البداية والنهاية: ٣٣٤/١٠ .

قال ابن كثير (رحمه الله):

"وكان الذين ثبتوا على الفتنة فلم يجيبوا بالكلية أربعة: أحمد بن حنبل وهو رئيسهم ، ومحمد بن نوح بن ميمون
 الجنديسابوري ومات في الطريق ، ونعيم بن حماد الخزازي وقد مات في السجن ، وأبو يعقوب البويطي وقد مات
 في سجن الوثائق على القول بخلق القرآن وكان مثقلاً بالحديد ، وأحمد بن نصر الخزازي " .

البداية والنهاية: ٣٣٥/١٠ .

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٤١/١١ .

(٣) انظر: ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل . جمع أبي عبد الله حنبل بن إسحاق بن حنبل . دراسة وتحقيق د. محمد
 نغس . الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م . مطبعة دار نشر الثقافة - القاهرة: ص: ٦٦ . سير أعلام النبلاء:
 ٢٤٥/١١ .

(٤) هو محمد بن إبراهيم بن مصعب صاحب شرطة المعتصم بعد أخيه إسحاق بن إبراهيم .

انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٤٠/١١ .

(٥) المرجع السابق : ٢٤٠/١١ .

وقال ابن أبي دؤاد (١):

"ما رأيت أحداً أشدَّ قلباً من هذا . يعني: أحمد ، جعلنا نكلّمه ، جعل الخليفة يكلّمه ، يسمّيه مرّةً ويكنّيه مرّةً ، وهو يقول: يا أمير المؤمنين ، أوجدني شيئاً من كتاب الله أو سنّة رسولهِ حتّى أجيبك إليه " (٢) .

ولمّا عجز أولئك عن مناظرته أغروا الخليفة على تعذيبه وضربه ، بل وزيّنوا له قتله . والخليفة يتودّد إليه بكلّ ما يمكن . فلمّا يئس عن إجابته أمر به فضرب ضرباً مبرحاً حتّى ذهب عقله مراراً تحت ألم الضرب ، وكبّ على وجهه ، وسحب وخلع وديس عليه ، وهو مع ذلك صائم فلم يفطر (٣) .

قال أحد جلاّديه:

"ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطاً ، لو ضربته فيلاً لهدمته " (٤) .

ثمّ ألقي في السّجن ، وزيد في قيوده ، وكان يخرج فيضرب ثمّ يعاد . وهو مع ذلك ثابت لم يجد منه أعداؤه ما يتمنّون .

وظلّ في الحبس مدّة تربو على ثلاثين شهراً ، ذاق فيها الأمرين حتّى يئس من إجابته المعتصم فأطلقه (٥) .

ولمّا هلك المعتصم وتولّى الأمر الواثق تبع أباه في امتحان النّاس بخلق القرآن ، وضيق على الإمام أحمد تضيقاً عظيماً ، فأرسل إليه بأن لا يجتمعنّ إليه أحد ، ولا يساكنه بأرض ولا مدينة هو فيها ، وأن يذهب حيث شاء من أرض الله .

(١) هو أحمد بن فرج بن كَرِير أبو عبد الله بن أبي دؤاد الإيادي البصري ثمّ البغدادي ، الجهمي . القاضي . كان داعية

إلى خلق القرآن ، وهو من ألب المأمون على امتحان العلماء على القول بخلقهِ . مات سنة : ٢٤٠هـ .

وانظر: تاريخ بغداد: ١٤١/٤ . وفيات الأعيان: ٨١/١ . سير أعلام النّبلاء: ١٦٩/١١ . العبر: ٣٣٩/١ .

شذرات الذهب: ١٧٩/٣ .

(٢) سير أعلام النّبلاء: ٢٩٥/١١ .

(٣) انظر: ذكر محنة الإمام أحمد: ص: ٦٤، ٦٣، ٦٠ . سير أعلام النّبلاء: ٢٤٧/١١ ، ٢٤٩/١١ - ٢٥٢ .

(٤) ذكر المحنة: ص: ١٢ .

(٥) انظر: المرجع السّابق : ص: ١٢ . سير أعلام النّبلاء: ٢٤٣ .

فاختفى (رحمه الله) بقية حياة الواصل ، لاقى في أثناء ذلك محناً عظيمة وفتناً بالغة (١).

فلما ولى المتوكل بعد الواصل رفع المحنة عن الناس ، وأظهر السنة وأمات البدعة ، وأطلق من اعتقل بسبب تلك المقالة ، وعاقب من يقول بها ، ثم استدعى الإمام أحمد فأكرمه وعظمه وأجله (٢).

لقد ثبت الإمام أحمد (رحمه الله) في تلك الفتنة ثباتاً عظيماً ، وصبر صبراً جميلاً حتى نال بذلك إمامة الدين ، فلا يذكر اسمه إلا مقروناً بذكرها .

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] .

لقد ذاق أصنافاً من العذاب: قيد بتقيل الحديد ، وحبس في غياهب السجون ، وضرب بأقسى أنواع الضرب حتى ظل أثره في مواضع من جسده يجد ألمه حتى توفي ، وخلعت يده ، وديس عليه ، وهدد بالقتل ، وضيق عليه بالنفي والتشريد . وهو مع ذلك صابر لا يجيبهم إلى شيء مما طلبوه .

قال بشر بن الحارث (رحمه الله) (٣):

" قام أحمد مقام الأنبياء ، وأحمد عندنا امتحن بالسراء والضراء ، فكان فيهما معتصماً بالله " (٤) .

(١) انظر: ذكر المحنة: ص: ٨٤ . سير أعلام النبلاء: ٢٦٤/١١ .

(٢) انظر: ذكر المحنة: ص: ١٣ . سير أعلام النبلاء: ٢٦٥/١١ . العبر: ٣٢٥/١ . البداية والنهاية: ٣٣٧/١٠ .

(٣) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال ، أبو نصر المعروف بالحافي ، الزاهد الجليل المشهور . نزيل بغداد . طلب الحديث في أول أمره ثم أقبل على العبادة واعتزل الناس فلم يحدث . ثقة قدوة .

قال عنه الخطيب رحمه الله: " كان ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد ، تفرّد بوفور العقل وأنواع الفضل ، وحسن الطريقة ، واستقامة المذهب ، وعزوف النفس ، وإسقاط الفضول " . توفي سنة : ٢٢٧ هـ .

وانظر : الطبقات الكبرى: ٣٤٢/٧ . الجرح والتعديل: ٣٥٦/٢ . ثقات ابن حبان: ١٤٣/٨ . تاريخ بغداد: ٦٧/٧ . تهذيب الكمال: ٩٩/٤ . سير أعلام النبلاء: ٤٦٩/١٠ . تهذيب التهذيب: ٣٨٩/١ . تقريب

التهذيب: ١٢٢/١ .

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٠٢/١١ .

ولو أجاب (رحمه الله) لا نفتح باب شرّ عظيم على الأمة ، لأنه إمام يقتدى به ، ويتمسك الناس وخاصة العوام بهديه . فلو أجاب لظنوا أن ذلك حق . وعندئذ يلتبس الحق بالباطل . وكان (رحمه الله) يعرف هذه الحقيقة كما كان يعرفها معاصروه من العلماء .

قال حنبل (رحمه الله) ^(١) :

" قال أبي ^(٢) : فدخلت على أبي عبد الله ، ومعني حاجبه فقلت له : يا أبا عبد الله ، قد أجاب أصحابك ، وقد أعذرت فيما بينك وبين الله ، وقد أجاب أصحابك والقوم ، وبقيت أنت في الحبس والضيق . فقال لي : يا عم إذا أجاب العالم تقيّة ^(٣) والجاهل يجهل ، فمتي نتبين الحق ؟ قال أبي : فأمسكت " ^(٤) .

قال الإمام أحمد (رحمه الله) :

"ما رأيت أحداً على حداثة سنّه ، وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح ^(٥) ، إنني لأرجو أن يكون قد ختم له بخير . قال لي ذات يوم : يا أبا عبد الله ، الله الله ، إنك لست مثلي . أنت رجل يقتدى بك . قد مدّ الخلق أعناقهم إليك ، لما

(١) هو حنبل بن إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد أبو علي الشيباني . ابن عم الإمام أحمد وتلميذه . حافظ ، ثقة ثبت ، مصنف . سمع المسند من الإمام أحمد (رحمه الله) .

وانظر : طبقات الحنابلة : ١٤٣/١ . تاريخ بغداد : ٢٨٦/٨ . تذكرة الحفاظ : ٦٠٠/٢ . سير أعلام النبلاء : ٥١/١٣ . العبر : ٣٩٤/١ . البداية والنهاية : ٥٢/١١ . شذرات الذهب : ٣٠٧/١ .

(٢) أبوه هو : إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد أبو يعقوب الشيباني ، عم الإمام أحمد رحمه الله . وكان يلازمه في أكثر أوقاته ، ونقل عنه كثيراً . وهو ثقة . توفي سنة : ٢٥٣هـ .

وانظر : طبقات الحنابلة : ١١١/١ . تاريخ بغداد : ٣٦٩/٦ .

(٣) تقيّة : من الوقاية وهي الحذر والحماية . انظر : لسان العرب : ٤٠١/١٥ .

والمراد أن يجيب العالم إجابة يدفع بها المكروه عن نفسه .

(٤) ذكر المحنة : ص : ٤٤

(٥) هو محمد بن نوح بن ميمون بن عبد الحميد بن أبي الرجال العجلي ، المعروف والده بالمضروب . كان أحد المشهورين بالسنّة . أثنى عليه الإمام أحمد ووثقه . توفي سنة : ٢١٨هـ في الطريق وهو محمول مع الإمام أحمد إلى المأمون .

وانظر : تاريخ بغداد : ٣٢٢/٣ . العبر : ٢٩٦/١ . البداية والنهاية : ٢٧٤/١٠ .

يكون منك ، فاتق الله واثبت لأمر الله . أو نحو هذا . فمات ، وصليت عليه ، ودفنته " (١) .

لقد خشي أبو عبد الله (رحمه الله) أن يفتح ثلثة في دين الله فثبت وصبر ، متجرّعاً غصص العذاب وويلات العقاب نصرة لدين الله ، وإعلاء لكلمة الله . فصدق فيه قول علي بن المديني (٢) (رحمه الله):
" أعزّ الله الدين بالصدّيق يوم الرّدة ، وبأحمد يوم المحنة " (٣) .

إنّه أنموذج عزيز في الثّبات يضاف إلى رصيد عظيم وحصيلة وافرة لنماذج مدّخرة ثبتت على هذا الدين الخاتم ، وحملته بصدق وإخلاص ، وتجرّعت من أجله غصص العذاب ، وويلات الألم ، ولكنها ظلت شموساً شامخة في الثّبات ، وأعلاماً راسخة في الصّبر ، لتلفت انتباه كثرة كائنة من أبناء هذه الأمّة الفاضلة كي يحملوا هذا الدين بحقّ وصدق ، وثبات وصبر ، لتعرف الأمم مقامه ، وتقرّ بعظمته ، ويبان لها فضله ، وتتّضح لها عزّته ، فتأتي إليه خاضعة لأوامره ، متمسكة بهديه ، مجانية لنهيه ، لتتحقّق لها السّعادة في هذه الدّنيا ، وتنال الفلاح في الآخرة .

(١) سير أعلام النّبلاء: ٢٤٢/١١ . وذكر نحوه عن أبي جعفر الأنباري ٢٣٩/١١ . وانظر: ذكر المحنة: ص: ٤٠ .

(٢) هو عليّ بن عبد الله بن جعفر بن نجیح أبو الحسن التّميمي السّعدي مولا هم المديني ثمّ البصري . حافظ العصر وصاحب التّصانيف . ثقة ثبت إمام ، أعلم أهل عصره بالحديث وعلمه . قال عنه البخاري: " ما استصغرت نفسي إلاّ عند عليّ بن المديني " . توفي سنة: ٢٣٤هـ .

وانظر: الطبقات الكبرى: ٣٠٨/٧ . التّاريخ الكبير: ٢٨٤/٦ . الجرح والتّعديل: ١٩٣/٦ . ثقات ابن حبان: ٤٦٩/٨ . تاريخ بغداد: ٤٥٨/١١ . التّعديل والتّجريح: ٩٦٢/٣ . تهذيب الكمال: ٥/٢١ . تذكرة الحفاظ: ٤٢٨/٢ . الكاشف: ٤٢/٢ . تهذيب التّهذيب: ٣٠٦/٧ . تقريب التّهذيب: ٤٠٣/١ . لسان الميزان: ٣١٢/٧ .

(٣) سير أعلام النّبلاء: ١٩٦/١١ .

باب وقائي

الثبات عند الابتلاء

وفيه فصول :

الفصل الأول

محاني الابتلاء في اللغة والشرع

الفصل الثاني

ابتلاء الإنسان سنة من سنن الله في الكون

الفصل الثالث

أنواع الابتلاء والحكمة منها

الفصل الرابع

عوامل الثبات عند الابتلاء

الفصل الخامس

نماذج للثبات عند الابتلاء

الفصل الأول

معاني الابتلاء في اللغة والشرع

وفيه مبحثان :

المبحث الأول

معاني الابتلاء في اللغة

يقال : بَلَوْتُ الرَّجُلَ بَلَاءً وَبَلَاءً ، وابتليته ابتلاءً : إذا جربته واختبرته وامتحنته .^(١) وبلاءه يَبْلُوهُ بَلَاءً : إذا جربه واختبره .^(٢)

ومن ذلك قول القائل :

بَلَيْتُ وَفَقَدَانُ الْحَبِيبَ بَلِيَّةً وكم من كريم يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ^(٣)
وبلى الشيء بلاءً وابتلى ابتلاءً إذا اختبر . والاسم : الْبَلْوَى وَالْبَلُوءُ وَالْبَلِيَّةُ وَالْبَلِيَّةُ
والبلاء .^(٤) فالبلاء والابتلاء هو الامتحان والاختبار ، ويكون في الخير والشر .^(٥)
يقال : ابتليته بلاءً حسناً وبلاءً سيئاً .

(١) انظر : تهذيب اللغة : ٣٩٠/١٥ . الصحاح : ٢٢٨٥/٦ . لسان العرب : ٨٣/١٤ . المصباح المنير . لأحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي : تصحيح مصطفى السقا - طبعة مصطفى الحلبي . مصر : ٦٩/١ . القاموس المحيط : ١٦٣٢ . تاج العروس : ٢١٦/١٩ . ٢١٧ .

(٢) انظر : لسان العرب : ٨٣/١٤ . معجم متن اللغة : ٣٤٦/١ . المعجم الوسيط لجماعة من العلماء : ٧١/١ .

(٣) معجم مقاييس اللغة : ٢٩٣/١ . وهو لحسان بن ثابت رضي الله عنه في ديوانه : ص : ٩٩ . وأوله : بلاء .

(٤) انظر : لسان العرب : ٨٤/١٤ . القاموس المحيط : ص : ١٦٣٢ . تاج العروس : ٢١٧/١٩ . معجم متن اللغة : ٣٤٦/١ .

(٥) انظر : تهذيب اللغة : ٣٩١/١٥ . معجم مقاييس اللغة : ٢٩٣/١ . مجمل اللغة : ١٣٣/١ . الصحاح : ٢٢٨٥/٦ . لسان العرب : ٨٤/١٤ . معجم متن اللغة : ٣٤٦/١ .

ويقال : بلاء الله وأبلاه وابتلاه : إذا اختبره وامتحنه بالخير والشر ليُعلم شكره وصبره .^(١) . فالبلاء : الشدة والمحنة تنزل بالمرء ليختبر بها .^(٢)

والبلاء : الإنعام .

ومنه قول زهير :^(٣)

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذي يبُلُو^(٤)

أي أعطاهما خير العطاء أو الصنيع الذي يبُلُو به عباده .^(٥)

والبلاء : الغم . لأنه يبلي الجسم .^(٦) . والحزن أيضاً يسمّى بلاء .^(٧)

والبلاء : الإخبار . يقال : ابتليته فأبلاني : إذا استخبرته فأخبرني .^(٨)

والبلاء : الحلف . يقال : بليت فلاناً وأبليته يمينا : إذا حلفت له بيمين طيّبت بها نفسه .^(٩)

ومن ذلك قول أوس بن حُجْر^(١٠) :

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة : ٢٩٣/١ . لسان العرب : ٨٤/١٤ .

(٢) انظر : المعجم الوسيط : ٧١/١ .

(٣) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني . حكيم الشعراء في الجاهلية . وأحد شعراء المعلقات . أسلم أبناء كعب ويحجر . وله ديوان شعر مطبوع . الأعلام : ٥٢/٣ .

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى . طبعة : دار صادر . بيروت . ص : ٦١ .

(٥) انظر : تهذيب اللغة : ٣٩٠/١٥ . معجم مقاييس اللغة : ٢٩٤/١ . الصحاح : ٢٢٨٥/٦ . لسان العرب :

٨٤/١٤ . تاج العروس : ٢٢٠/١٩ .

(٦) انظر : القاموس المحيط : ص : ١٦٣٢ . تاج العروس : ٢١٧/١٩ . معجم متن اللغة : ٣٤٨/١ .

المعجم الوسيط : ٧١/١ .

(٧) انظر : المرجع السابق : ٧١/١ .

(٨) انظر : معجم مقاييس اللغة : ٢٩٤/١ . لسان العرب : ٨٣/١٤ . القاموس المحيط : ص : ١٦٣٢ .

تاج العروس : ٢١٦/١٩ . معجم متن اللغة : ٣٤٦/١ .

(٩) انظر : مجمل اللغة : ١٣٤/١ . الصحاح : ٢٢٨٥/٦ . لسان العرب : ٨٤/١٤ . ٨٦ . تاج العروس :

٢١٧/١٩ . معجم متن اللغة : ٣٤٦/١ .

(١٠) هو أوس بن حجر بن مالك التميمي أبو شريح . شاعر تميم في الجاهلية . عمّر طويلاً ولم يدرك الإسلام . له

ديوان شعر مطبوع . انظر : الأعلام : ٣١/٢ .

كَأَنَّ جَدِيدَ الْأَرْضِ يُبْلِيكَ عَنْهُمْ تَقِيَّ الْيَمِينَ بَعْدَ عَهْدِكَ حَالِفٌ (١)

والبلاء : الجهد الشديد (٢) .

وأبلى فلان : إذا اجتهد في صفة حرب أو كرم . فيقال : أبلى فلان ذلك اليوم

بلاء حسناً (٣) .

والبلاء : التّكليف ، لأنّ فيه جهد ومشقة (٤) . فيقال ابتلاه بكذا : أي كلّفه (٥) .

والبلاء : الاختيار . نقول : ابتليت فلاناً إذا اخترته (٦) . وأصله من

الاختبار (٧) .

والبليّة والبليّ : النّاقة التي صارت نضواً (٨) هالكا (٩) . والجمع البلايا .

فيقال : ناقة بلو سقر . وهي التي أبلاها السقر وأجهدها (١٠) .

والبليّة أيضاً : النّاقة التي كانت تعقل في الجاهليّة عند قبر صاحبها ، فلا

تعلف ولا تسقى حتّى تموت ، أو يحفر لها حفرة وتترك فيها إلى أن تموت . لأنّهم

(١) تهذيب اللّغة : ٣٩٠/١٥ . معجم مقاييس اللّغة : ٢٩٤/١ . لسان العرب : ٨٦/١٤ . تاج العروس : ٢١٧/١٩

أي يحلف لك جديد الأرض أنّه ما حلّ بهذه الدّار أحد للدروس معاهدها . المرجع السّابق : ٢١٧/١٩ .

(٢) انظر : المعجم الوسيط : ٧١/١ .

(٣) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٩١/١٥ . لسان العرب : ٨٤/١٤ . تاج العروس : ٢٢٠/١٩ .

(٤) انظر : القاموس المحيط : ص : ١٦٣٢ . تاج العروس : ٢١٧/١٩ . معجم متن اللّغة : ٣٤٨/١ .

(٥) انظر المرجع السّابق : ٣٤٦/١ .

(٦) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٩١/١٥ . لسان العرب : ٨٤/١٤ . تاج العروس : ٢١٦/١٩ .

(٧) انظر : لسان العرب : ٨٤/١٤ .

(٨) نضواً : التّضؤ بالكسر : البعر الممهزول . وقيل : هو الممهزول من جميع الدّواب . وهو أكثر .

والجمع أنضاء . وقد يستعمل في الإنسان . لسان العرب : ٣٣٠/١٥ . وانظر القاموس المحيط : ص : ١٧٢٦ .

(٩) انظر : تاج العروس : ٢٢٠/١٩ . معجم متن اللّغة : ٣٤٦/١ .

(١٠) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٩١/١٥ . معجم مقاييس اللّغة : ٢٩٣/١ . الصّحاح : ٢٢٨٤/٦ . لسان العرب :

٨٥/١٤ . تاج العروس : ٢١٥/١٩ .

كانوا يزعمون : أنَّ النَّاسَ يحشرون ركبناً على البَلَايا ، ومشاة إذا لم تعكس مطاياهم على قبورهم^(١) .

قال أبو زبيد^(٢) :

كالبلایا رؤوسها في الولایا ما نحات السموم حُرَّ الخدود^(٣)
والبلَاء : لغة في البَلَى وهو إخلاق الشيء . يقال : بلى الثوبُ يَبْلَى بِلَى أي
خلق ، فإذا فتحت الباء قلت : بلاء .

ومن ذلك قول العجاج^(٤) :

والمرء يُبْلِيه بَلَاءُ السَّرْبَالِ مرُّ اللَّيَالِي واختلافُ الأحوال^(٥)
وهذه المعاني لا تخرج عن أصل معنى الابتلاء الذي هو الاختبار والامتحان ،
لأنَّ الابتلاء كما سبق إمَّا أن يكون بالمنحة وهي النعمة ، أو المحنة وهي الشدة .
فالإخبار والاختيار والحلف وإخلاق الثوب لا تخرج عن ذلك . لأنها يمكن أن تتلَّتْ
عن طريق الاختبار والتمحيص . ويتَّضح ذلك من خلال المعنى الشرعي للابتلاء .

(١) الصحاح : ٢٢٨٥/٦ . وانظر : تهذيب اللغة : ٣٩١/١٥ . لسان العرب : ٨٥/١٤ . القاموس المحيط : ص :

١٦٣٢ . تاج العروس : ٢١٦/١٩ . معجم معن اللغة : ٣٤٦/١ - ٣٤٨ . المعجم الوسيط : ٧١/١ .

(٢) هو حرملة بن المنذر بن معد يكرب الكندي الطائي . أبو زيد . مشهور بكنيته . قيل : كان نصرانياً . واختلفوا
في إسلامه . عاش في الجاهلية والإسلام . توفي نحو سنة ٦٢هـ . وهو من المعمرين .

وانظر : الإصابة : ١٦٢/٢ . ١٧٠ . الأعلام : ١٧٤/٢ .

(٣) تهذيب اللغة : ٣٩١/١٥ . معجم مقاييس اللغة : ٢٩٢/١ - ٢٩٣ . لسان العرب : ٨٦/١٤ . تاج العروس :
٢١٩/١٩ .

(٤) هو عبد الله بن روبة بن لبيد بن صخر السعدي التميمي أبو الشعساء . راجز مجيد . ولد في الجاهلية وأسلم
وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك . وهو والد روبة بن العجاج الرّاجز المشهور . وله ديوان شعر مطبوع .
الأعلام : ٨٦/٤ - ٨٧ .

(٥) انظر : تهذيب اللغة : ٣٩٠/١٥ . معجم مقاييس اللغة : ٢٩٢/١ . مجمل اللغة : ١٣٣/١ . الصحاح :
٢٢٨٥/٦ . لسان العرب : ٨٥/١٤ . تاج العروس : ٢١٤/١٩ - ٢١٥ .

والسَّرْبَال هو : القميص والدرع . وقيل : كُلُّ ما لَيْسَ فهو سَرْبَالٌ ، وقد سَرَبَلَ به ، سَرَبَلَهُ إِيَّاه ، سَرَبَلْتُهُ
فَسَرَبَلْتُ أي ألبسته السَّرْبَال . لسان العرب : ٣٣٥/١١ . وانظر : مختار الصحاح : ص : ٢٩٣ . القاموس المحيط :
ص : ١٣١١ .

المبحث الثاني

معاني الابتلاء في الشرع

الابتلاء في الأصل هو الاختبار والامتحان ، وقد ورد ذلك في القرآن كثيراً .
من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٦] (١) .

والمراد أن يختبر الأولياء اليتامى في عقولهم وأفهامهم وحسن تصرفهم فيما يؤول إليهم من أموال ، فإن تبين صلاحهم وحسن تصرفهم ورشدهم دفعت إليهم أموالهم ، وإلا منعوا من تسلمها (٢) .
ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨] .

أي اختبرناهم بالخصب والعافية والجذب والشدائد ليرجعوا عن كفرهم (٣) .
وحقيقة الابتلاء أن يظهر بالفعل أو الترك أمر يستحسن أو يستقبح .

ولذا قال الرازي (رحمه الله) :

" والتحقق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر إليه قصداً إلى ظهوره " (٤) .

(١) تأويل مشكل القرآن : ص ٤٦٩ . كتاب الغريين : غريب القرآن والحديث . لأبي عبيد أحمد بن محمد بن محمد الهروي . رواية أبي سعد الماليني . تحقيق محمود محمد الطناحي ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م . مطابع الأهرام التجارية . القاهرة : ٢١٠/١

(٢) انظر : جامع البيان : ٥٧٤/٧ . طبعة شاكر . الجامع لأحكام القرآن : ٣٤/٥ . محاسن التأويل : ١١٢٧/٥ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٣١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٣١٠/٧ . وانظر : تأويل مشكل القرآن : ٤٦٩

(٤) التفسير الكبير : ٤٦/٢٨

وقال القاسمي (رحمه الله) :

"والابتلاء في الأصل الاختبار ، أي تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشقّ عليه غالباً فعله أو تركه " (١) .

وقال الرّاضب (رحمه الله) :

"إذا قيل : ابتلى فلان كذا وأبلاه . فذلك يتضمّن أمرين : أحدهما : تعرّف حاله ، والوقوف على ما يجهل من أمره .
والثاني : ظهور جودته ورداعته . وربّما قصد به الأمران ، وربّما يقصد به أحدهما . فإذا قيل في الله تعالى : بلا كذا أو أبلاه : فليس المراد منه إلاّ ظهور جودته ورداعته ، دون التّعرّف لحاله والوقوف على ما يجهل من أمره ، إذ كان الله علّام الغيوب " (٢) .

فالابتلاء من الإنسان لظهور ما جهل ، وأمّا من الله تعالى فهو لإظهاره ما علم لأنّه لا تخفى عليه خافية سبحانه .

وقد جاء الابتلاء في القرآن والسّنّة مستوعباً لمعانيه السّابقة في اللّغة ، والتي في الحقيقة لا تخرج عن معنى الاختبار والامتحان . وهو يكون حسناً ويكون سيّئاً لأنّه يكون بالخير ويكون بالشرّ . فالله يبتلي عباده بالمحن والشّدائد التي يكرهونها ليظهر صبرهم ، كما يبتليهم بالنعم والصنع الجميل ليظهر شكرهم .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً

وَاللِّينَا تَرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

"ونختبركم أيّها النّاس بالشرّ ، وهو الشّدّة نبتليكم بها ، وبالخير وهو الرّخاء والسّعة والعافية فنفتكم به " (٣) .

(١) محاسن التّأويل : ٢٤٤/٢ .

(٢) المفردات : ص : ٦١-٦٢ .

(٣) جامع البيان : ٢٤/١٧ . طبعة الحلبي . ٤٩/٢ . طبعة شاكر .

وقال ابن عطية (رحمه الله):

" والظاهر أن المراد من الخير والشر هنا كل ما يصح أن يكون فتنه وابتلاء ، وذلك خير المال وشره ، وخير البدن وشره ، وخير الدنيا في الحياة وشرها " (١) .

وقد ورد الابتلاء بمعنى الإنعام والعطاء الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩] (٢) .

ففي الآية يعدد الله نعمه على بني إسرائيل ويذكرهم بها ، حيث خلّصهم من عدوهم فرعون وملئه ، إذ كانوا يبطشون بهم فيذيقونهم أشدّ العذاب والنكال ، وذلك بتسخيرهم في الأعمال الشاقة ، وتذبيح الأبناء الذكور وتقتيلهم ، وإيقاء النساء على قيد الحياة على سبيل المنّة والإهانة . فأهلك عدوهم وأنجاهم من كل ذلك . وتلك نعمة عظيمة تستوجب الشكر .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الإشارة في قوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ تعود إلى ما كانوا فيه من العذاب ، وذبح الأبناء ، واستحياء النساء إلى غير ذلك . فيكون البلاء ههنا بمعنى المحنة والشدة .

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي . تحقيق جماعة من العلماء . الطبعة الأولى . الدوحة . ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م : ١٠ / ١٤٦ - ١٤٧ . وانظر معنى الآية في : تأويل مشكل القرآن : ص : ٤٦٩ . الكشف : ٩٢ / ٣ . طبعة الاستقامة . التفسير الكبير : ١٦٩ / ٢٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٧ / ١١ . تفسير القرآن العظيم : ٢٨٦ / ٣ . روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . لشهاب الدين محمود الألوسي البغدادى . إدارة الطباعة المنيرية . دار إحياء التراث العربى . بيروت : ٤٧ / ١٧ .

(٢) ونحوها في سورة الأعراف الآية : ١٤١ . وسورة إبراهيم الآية : ٦ .

والأولى المعنى الأول ، لأن الآية ذكرت في تعداد النعم . وقد ورد ذلك عن ابن عباس (رضي الله عنهما) ، ومجاهد ، وابن جريج ^(١) ، وغيرهم . فيما رواه ابن جرير (رحمه الله) عنهم ^(٢) .

وأصرح من هذه الآية قوله تعالى في سياق غزوة بدر : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٧].

أي : لينعم على المؤمنين نعمة عظيمة ، ويعطيهم عطاء حسناً يتمثل في الظفر بأعدائهم ، وغنيمة ما معهم ، ويكتب لهم أجور جهادهم ، وثواب أعمالهم .
فالبلاء هنا الإنعام والعطاء الحسن ^(٣) .

ومن الأحاديث : قول كعب بن مالك رضي الله عنه في حديثه الطويل ، قال كعب :
" وقلت يا رسول الله إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، قال : فو الله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق

(١) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أبو الوليد . ويقال أبو خالد . الرومي . الأموي . القرشي مولاهم المكّي . من فقهاء أهل مكة وقرائهم . وثن جمع العلم وصنّف فيه . ومن العباد . ثقة كثير الحديث جداً . وكان يدّلس ويرسل . أدرك صغار الصحابة . وتوفي سنة ١٥٠هـ .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٤٩١/٥ . طبقات خليفة : ص : ٢٨٣ . التاريخ الكبير : ٤٢٢/٥ . الجرح والتعديل : ٣٥٦/٥ . ثقات ابن حبان : ٩٣/٧ . مشاهير علماء الأمصار : ١٤٥/١ . تاريخ بغداد : ٤٠٠/١٠ . التعديل والتجريح : ٩٠٤/٢ . تهذيب الكمال : ٣٣٨/١٨ . تذكرة الحفاظ : ١٦٩/١ . الكاشف : ٦٦٦/١ . جامع التحصيل : ص : ٢٢٩ . تهذيب التهذيب : ٣٥٧/٦ . تقريب التهذيب : ٣٦٣/١ . طبقات المدلسين : ص : ٤١ .

(٢) جامع البيان : ٤٨/٢ - ٤٩ " طبعة شاكر " . وانظر في معنى الآية : تأويل مشكل القرآن ص : ٤٧٠ . كتاب الغريين : ٢٠٩/١ . إصلاح الوجوه والنظائر ص : ٧٧ . الطبعة الأولى ١٩٧٠ م . المفردات ص : ٦١ . المحرر الوجيز : ٢٨٦/١ . التفسير الكبير : ٧٠/٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٨٧/١ . تفسير القرآن العظيم : ١٣٦/١ - ١٣٧ . تفسير أبي السعود المسمّى " إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " لأبي السعود محمد بن محمد العمادي . طبعة دار إحياء التراث العربي . بيروت : ١٠٠/١ - روح المعاني : ٢٥٤/١ - محاسن التأويل : ١٢٢/٢ - ١٢٣ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٣٤ .

(٣) انظر : جامع البيان : ٤٤٨/١٣ . طبعة شاكر . الكشاف : ١٦٢/٢ . طبعة الاستقامة . المحرر الوجيز : ٢٥١/٦ . التفسير الكبير : ١٤١/١٥ . تفسير القرآن العظيم : ٤٦٧/٢ . تفسير أبي السعود : ١٣/٤ . روح المعاني : ١٨٧/٩ . محاسن التأويل : ٢٩٦٨/٨ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٧٩ .

الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به " الحديث (١) .

قال الإمام النووي (رحمه الله) :

" أي أنعم عليه . والبلاء والإبلاء يكون في الخير والشر لكن إذا أطلق كان للشر غالباً ، فإذا أريد الخير قيد كما قيده هنا ، فقال : أحسن مما أبلاني " (٢) ومن ذلك حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره " (٣) .

أي من أعطي نعمة أو عطاء حسن فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره . فالبلاء هنا الإنعام والإحسان (٤) .

كما يأتي البلاء بمعنى المشقة والجهد الشديد .

ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه في تقسيمه للفيء (٥) ، قال : " وقسم رسول الله ﷺ :

(١) صحيح البخاري : بلفظ مقارب في كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب حديث كعب بن مالك . وقول الله عز وجل : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴾ [التوبة: ١١٨] : (٨٠/٧٩) . برقم : (٤٤١٨) . ص : ٩٢٠ . صحيح مسلم : بلفظه في كتاب التوبة : (٤٩) . باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه : (٩) . برقم : (٢٧٦٩) . ٢١٢٧/٤ .

(٢) شرح التتوي على مسلم : ٩٧/١٧ . وانظر : فتح الباري : ٤٦٥/٨ . النهاية في غريب الحديث : ١٥٥/١ (٣) سنن أبي داود : بلفظه في : كتاب الأدب : (٤٠) . باب في شكر المعروف : (١١) . برقم : (٤٨١٤) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٥٢٤ . وهو في السلسلة الصحيحة : ١٨٢/٢ . برقم : (٦١٨) .

(٤) انظر : المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث . للحافظ أبي موسى محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى المديني الأصفهاني . تحقيق : عبد الكريم الغرياني - الطبعة الأولى : ١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م . دار المسدي : ١٩٠/١ . النهاية في غريب الحديث : ١٥٥/١ . عون المعبود : ١١٥/١٣ . الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ — طبعة دار الكتب العلمية . بذل المجهود في حل أبي داود . للشيخ خليل أحمد السهارنفوري مع تعليق العلامة محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي . طبع شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة . نشر دار اللواء . الرياض : ٦٨/١٩ .

(٥) الفبيء : الغنيمة . والخراج . تقول : أفاء الله على المسلمين مال الكفار فيبيء إفاة . وهو ما يحصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا جهاد . وأصل الفبيء : الرجوع . كأنه كان في الأصل لهم فرجع إليهم . ومنه قيل للظل الذي يكون بعد الزوال فبيء لأنه يرجع من جانب الغرب إلى جانب الشرق . لسان العرب : ١٢٦/١ . بتصرف يسير . وانظر : القاموس المحيط : ص : ٦١ .

فالرَّجُل وَقِدَمَهُ ، والرَّجُل وَبِلَاؤُهُ ، والرَّجُل وَعِيَالُهُ ، والرَّجُل وَحَاجَتُهُ " (١) .
 فقوله : الرَّجُل وَبِلَاؤُهُ : أي مشقَّته وسعيه في الحرب (٢) .
 ومثله حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم بدر : " عسى أن يعطى هذا منى لا
 يُبَلِّى بلاني " . الحديث (٣) .
 ومما ورد بمعنى الإخبار أو الحلف ، ما جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها (أنها) أن النَّبِيَّ ﷺ قال : " إِنْ مِنْ أَصْحَابِي مِنْ لَا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ يَفَارِقَنِي " قال -
 القائل عبد الرَّحْمَنِ بن عوف رضي الله عنه - فَأَتَى عَمْرٍو فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ . قال : فَأَتَاهَا عَمْرٍو
 فَقَالَ : أَذْكَرُكَ اللَّهُ أَمْهُمْ أَنَا ؟ قَالَتْ : اللَّهُ لَا ، وَلَنْ أُبْلَى أَحَدًا بَعْدَكَ " (٤) .

(١) سنن أبي داود : بلفظه في كتاب الخراج والإمارة والفيء . باب فيما يلزم الإمام من أمر الرعية والحجبة عنه :
 (١٣، ١٢) . برقم (٢٩٥٠) . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن موقوف " ص : ٣٣٤ .
 سنن البيهقي : بلفظه إلا أحرف يسيرة . في باب ما جاء في قسمة ذلك - أي الفيء - على قدر الكفاية .
 ٣٤٦/٦ - ٣٤٧ . مسند أحمد : نحوه في : ٤٢/١ .
 (٢) انظر : عون المعبود : ١١٩/٨ . بذل المجهود : ٢٣٩/١٣ وانظر : النهاية في غريب الحديث : ١٥٦/١
 (٣) هذا جزء من حديث أصله في صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب الأنفال : (١٢) . برقم :
 (١٧٤٨) . ١٣٦٧/٣ - ١٣٦٨ . وهو في :
 سنن أبي داود : بلفظ مقارب في كتاب الجهاد : (١٥) . باب في النفل : (١٤٤/١٤٥) . برقم : (٢٧٤٠) . قال
 الألباني (رحمه الله) : " حسن صحيح " . ص : ٣٠٩ .
 سنن الترمذي : بلفظه في كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة الأنفال : (٨) . برقم : (٣٠٧٩) . وقال :
 " هذا حديث حسن صحيح " . وقال الألباني (رحمه الله) : " حسن صحيح " . ص : ٤٨٩ - ٤٩٠ .
 سنن البيهقي : بلفظ مقارب في باب بيان مصرف الغنيمة في ابتداء الإسلام . ٢٩١/٦ .
 مسند أحمد : بلفظ مقارب في : ١٧٨/١ . قال أحمد شاكر (رحمه الله) : " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق
 أحمد شاكر : ٦٩/٣ . برقم : (١٥٣٨) .
 مستدرک الحاكم : بلفظ مقارب في : ١٤٤/٢ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . وقال الذهبي :
 " صحيح " .

مسند أبي يعلى . نحوه في : ٨٤/٢ . برقم : (٧٣٥) .

(٤) مسند أحمد : بلفظه في : ٣٠٧/٦ . ونحوه في : ٢٩٨، ٣١٢/٦ .

الطبراني في الكبير : نحوه في : ٣١٧/٢٣ . برقم : (٧١٩) . ورجال أحمد ثقات .

أي لن أخبر أحداً بعدك . ويمكن أنها حلفت له بيمين طيبت بها نفسه ، فيكون
البلاء بمعنى الحلف (١) .

كما ورد بمعنى الاختيار في حديث حذيفة ، عندما أقيمت الصلاة فتدافعوا
فتقدم حذيفة رضي الله عنه فصلّى بهم ، ثم قال : " لَتَبْتَ لَهَا إِمَاماً غَيْرِي أَوْ لَتُصَلَّنَّ
وُحْدَاناً " (٢) . أي لَتَخْتَارُنَّ لَهَا إِمَاماً غَيْرِي (٣) .

(١) انظر : المجموع المغيث : ١٨٨/١ . النهاية في غريب الحديث : ١٥٦/١

(٢) سنن البيهقي : بلفظه في : باب كراهية الإمامة . ١٢٧/٣ .

مصنف عبد الرزاق : لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني . طبعة المكتب الإسلامي . الطبعة الثانية : ١٤٠٣هـ —

تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي : بلفظ مقارب في باب الإمامة وما كان فيها . برقم : (١٨٧٩) . ٤٨٩/١ .

(٣) انظر : كتاب الغريين : ٢١٠/١ . النهاية في غريب الحديث : ١٥٦/١-١٥٧

﴿ الفصل الثاني ﴾

ابتلاء الإنسان سنة من سنن الله في الكون

لقد خلق الله عز وجل هذا الإنسان وكرمه في هذه الحياة ، وعظم شأنه ورفع قدره ، وبسط عليه فضله كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولم يخلقه عبثاً ، ولم يتركه سدى ، ولم يوجد هملأ ، كما قال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

وخلق له السماوات والأرض ، ورتب فيهما جميع ما يحتاج إليه من مبادئ الحياة وأسباب المعاش ، وبث بينهما من آياته الدالة على كمال قدرته سبحانه وعظيم سلطانه ، بل وسخر له الكون علويه وسفليه ليحقق هذا الإنسان حكمة وجوده ، وغاية خلقه وهي سنة الابتلاء .

فقال تعالى في تسخير ما في الكون له : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ [النحل: ١٢] ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [النحل: ١٢] ﴿ وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

وقال في خلق ذلك من أجل الابتلاء : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
وَلَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا
سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [هود: ٧] (١) .

فوجود ذلك الخلق ، وهذا التسخير ليستشعر الإنسان عظمة هذا الابتلاء
وجديته وأهميته وجوده (٢) .

كما جعل سبحانه هذه الدنيا بأسرها داراً للابتلاء والاختبار ، وهيأها بالوسائل
المعينة على تحقيقه واستمراره . فجعل ما على الأرض من أنواع المنافع ، وتعدد
المصالح ، وما فيها من زخارف وبهارج ومحاسن كل ذلك من أجل الابتلاء .
فقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا ﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: ٧-٨] (٣) .

وقد أوجد الله الإنسان من العدم ، وأخرجه إلى هذه الأرض ليحيا عليها من
أجل الابتلاء ، ثم ينتقل منها إلى دار أخرى لينال عاقبة الابتلاء . فحياته وموته من
أجل الابتلاء .

(١) انظر معنى الآية في : الكشف : ٢٩٧/٢ " طبعة الاستقامة " . تفسير القرآن العظيم : ٦٧٨/٢ . تفسير أبي
السعود : ١٨٧/٤ - ١٨٨ . روح المعاني : ١٠/١٢ . محاسن التأويل : ٣٤١٢/٩ - ٣٤١٣

(٢) انظر : في ظلال القرآن : ١٨٥٨/٤

(٣) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ١٩٥/١٥ - ١٩٦ " طبعة الحلبي " . الكشف : ٥٤٩/٢ . المحرر الوجيز :

٢٣٤/٩ - ٢٣٥ . التفسير الكبير : ٨٠/٢١ - ٨١ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٤/١٠ . تفسير القرآن العظيم :

١١٨/٣ - ١١٩ . تفسير أبي السعود : ٢٠٤/٥ - ٢٠٥ . روح المعاني : ٢٠٦/١٥ - ٢٠٧ . محاسن التأويل :

٤٠٢٤/١١ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٤٢٠ - ٤٢١ . في ظلال القرآن : ٢٢٦٠/٤

قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿ ﴾ [الملك: ١-٢] . (١)

والإنسان هو الذي استخلفه الله في هذه الأرض ، وملكه إياها ، وجعل له حق التصرف فيها ، والقيام بعمارتها ، وأبقى فيها نوعه ، يخلف بعضهم بعضاً ، جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، وخلفاً بعد سلف . وخالف بين أحوالهم في الخلق والعقل والرزق والقوة والبسطة والعلم والفضل . كل ذلك لتحقيق سنة الابتلاء ، ويتحقق استمرارها .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] . (٢)

وقد خلقه الله طوراً إثر طور ، وحالاً بعد حال ، حتى استقام عوده ، وكمل خلقه ، بعد أن كان شيئاً حقيراً بل لم يكن شيئاً . وزوده بوسائل الإدراك ليميز بها غاية وجوده وحكمة خلقه ، ويتمكن بواسطتها من اجتياز مدة الابتلاء والاختبار ، ويحقق الهدف المرجو من وجوده .

(١) انظر معنى الآية في : التفسير الكبير : ٥٤/٣٠ - ٥٦ . تفسير القرآن العظيم : ٦١٩/٤ . تفسير أبي السعود :

٣-٢/٩ . روح المعاني : ٥-٤/٢٩ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٨١٠ .

(٢) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٢٨٧/١٢ - ٢٨٩ " طبعة شاكر " . الكشف : ٦٦/٢ " طبعة الاستقامة " .

الحرر الوجيز : ٤٢١/٥ . التفسير الكبير : ١٣/١٤ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥٨/٧ . تفسير القرآن العظيم :

٣٢٠/٤ . تفسير أبي السعود : ٢٠٨/٣ . محاسن التأويل : ٢٥٩٦/٦ - ٢٥٩٧

قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ١-٣]. (١)

والله لم يوجده مجرداً عن ما يعينه على تحقيق الحكمة التي أوجد بسببها ومن أجلها ، بل وهبه من الوسائل والعوامل التي يتمكن بها من أن يجتاز سنة الابتلاء ويتعدى مرحلة الاختبار .

وتلك الوسائل والعوامل هي :

﴿ أولاً : الفطرة : ﴾

الفطر في اللغة : هو الشق ، وفطر الله الخلق : خلقهم وبرأهم . وفطر الأمر : ابتدأه وأنشأه (٢) .

وأما الفطرة في الشرع ، فقد اختلفت عبارة السلف في المراد بها . والأشهر من أقوالهم والأرجح أن المراد بها الإسلام (٣) .

يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الرؤم: ٣٠] .

فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يسدّد وجهه ، ويستمر على الدين الذي شرعه الله له ، وهو دين إبراهيم عليه السلام ، وهو الملة الحنيفية ، وهو الإسلام المركوز في

(١) انظر معنى الآية في : الكشف : ١٩٤/٤ - ١٩٥ . طبعة الخليلي " . الجامع لأحكام القرآن : ١٢١/١٩ - ١٢٢ .

تفسير القرآن العظيم : ٧١٠-٧١١ . تفسير أبي السعود : ٧٠/٩ . روح المعاني : ١٥٢/٢٩ - ١٥٣ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٨٣٣-٨٣٤ . في ظلال القرآن : ٣٧٨٠/٦ . والأمشاج . هي : الأخلاط .

(٢) انظر : القاموس المحيط : ص : ٥٨٧ . وانظر : المفردات : ص : ٣٨٢ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٥/١٤ . مجموعة الرسائل الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية : الرسالة الرابعة

عشر في الكلام على الفطرة . مطبعة محمد عليّ صبيح وأولاده بالأزهر . ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م . فتح

الباري : ٦١٩/٣

الفطر ، الذي فطر الله خلقه عليه ، وهو الدين المستقيم الذي لا يبدل ولا يغير^(١) .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" فبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو إخلاص القصد وبذل الوسع لدينه ، المتضمن محبته وعبادته ، حنيفاً مقبلاً عليه ، معرضاً عما سواه هو فطرته التي فطر عليها عباده . فلو خلوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه " (٢) .

ولكن مع ذلك قد يطرأ على الفطرة ما يغيرها ويبدلها ، ويفسد سلامتها واستقامتها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه^(٣) . كما تنتج^(٤) البهيمة بهيمة جمعاء^(٥) هل تحسون فيها من جدعاء^(٦) ؟ " ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم : ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَىهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] ^(٧) .

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٨٨/٣-٦٨٩

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة : لابن قيم الجوزية . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت : ٨٧/٢ . الضوء المنير على التفسير : جمعه عليّ الحمد المحمّد الصّاحي من كتب الإمام ابن القيم . مؤسسة التّور بعنيزة مع التعاون مع مكتبة دار السلام بالرياض : ٥٢٩/٤-٥٣٠

(٣) من المجوسية . وقد سبق تعريفها . انظر : ص : ٨٣ .

(٤) كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء : أي تلد . يقال : بُتجت الناقة إذا ولدت فهي مثروجة ، وأنتجت إذا حملت فهي تُتوج . ولا يقال : مُنتج . وتنتج الناقة أنثجها : إذا ولدتها ، والتأنيج للإبل كالتأنيج للنساء .
التهاية في غريب الحديث : ١٢/٥ .

(٥) جمعاء : أي سليمة من العيوب ، مُجمعة الأعضاء كاملتها ، فلا جدع لها ولا كي .
التهاية في غريب الحديث : ٢٩٦/١ . وانظر : الفائق : ١٢٧/٣ .

(٦) جدعاء : هي الجدوعة الأنف . غريب الحديث للهروي : ١٠١/١ .

(٧) صحيح البخاري : بلفظ مقارب في كتاب الجنائز : (٦/٢٣) . باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه . وهل يعرض على الصبي الإسلام : (٧٩) . برقم : (١٣٥٨ . ١٣٥٩) . ص : ٢٨٥ . وفي كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) .

باب ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الزّوم: ٣٠] : (٢/٠) . برقم : (٤٧٧٥) . ص : ١٠٢٨ .

وفي حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : " ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا . كل مال نحلته ^(١) عبداً حلال . وإني خلقت عبادي حنفاء ^(٢) كلهم ، وإنهم اتتهم

ونحوه في: كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب ما قيل في أولاد المشركين: (٩٢). برقم: (١٣٨٥). ص: ٢٩٠-٢٩١.
وفي كتاب القدر: (٥٦/٨٢). باب الله أعلم بما كانوا عاملين: (٣). برقم: (٦٥٩٩). ص: ١٣٩٩.
صحيح مسلم: بلفظه وينحوه في: كتاب القدر: (٤٦). باب معنى كل مولود يولد على الفطرة . وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين: (٦). برقم: (٢٦٥٨). ٤/٢٠٤٧-٢٠٤٨.
قال ابن قتيبة (رحمه الله):

" أما قوله : " كل مولود يولد على الفطرة " : فإنه يريد: أنه يولد على الإقرار بالله ، وهو الميثاق الذي أخذَه الله عليهم حين أخرجهم من ظهر آدم أمثال الذر وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فالتاس جميعاً وإن اختلفوا في أديانهم ونحلهم عالمون بأن الله عز وجل خالقهم . والفطرة ابتداء الخلقة ومنه قول الله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ١] أي مبتدئهما... والبهيمة الجمعاء هي السليمة ، سُميت بذلك لاجتماع السلامة لها في أعضائها... وشبه المولود حين يُولد في سلامته من الكفر بها، ثم يهود اليهود أبناءهم ويُنصر النصارى أبناءهم أي يعلمونهم ذلك كما كانت الجاهلية تقطع آذان البهائم السليمة وتفقأ عيونها " . غريب الحديث لابن قتيبة: ١/٣٥١-٣٥٠.
وانظر معنى الحديث في : النهاية في غريب الحديث : ٤٥٧/٣ . شرح التتوي على مسلم : ٢٠٧/١٦-٢٠٩.

فتح الباري : ٦١٩/٣-٦٢٢

(١) النحل . بالضم: إعطاؤك الإنسان شيئاً بلا استعاضة. وعم به بعضهم جميع أنواع العطاء. وقيل: هو الشيء المُعطى. وقد أنحله مالا ونحله إياه. وأبى بعضهم هذه الأخيرة. ونحل المرأة: مهرها. والاسم النحلة. تقول: أعطيتها مهرها نحلة. بالكسر. إذا لم تُرد منها عوضاً. لسان العرب: ١١/٦٥٠.
وانظر: مختار الصحاح: ص: ٦٤٩. القاموس المحيط: ص: ١٣٧١.

(٢) حنفاء : أي طاهري الأعضاء من المعاصي، لا أنه خلقهم كلهم مسلمين ، لقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢]. وقيل أراد أنه خلقهم حنفاء مؤمنين لما أخذ عليهم الميثاق ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فلا يوجد أحد إلا وهو مؤثر بأن له رباً وإن أشرك به، واختلفوا فيه. والحنفاء جمع حنيف: وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه والحنيف عند العرب: من كان على دين إبراهيم عليه السلام. وأصل الحنف المائل . النهاية في غريب الحديث ١ / ٤٥١.

الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ^(١) عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّتْ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يَشْكُرُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ... " الْحَدِيثُ^(٢) .

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ ، فَإِذَا تَرَكْتَ الْفِطْرَةَ بِلَا فُسَادٍ كَانَ الْقَلْبُ عَارِفًا بِاللَّهِ مَحَبًّا لَهُ ، عَابِدًا لَهُ وَحْدَهُ . لَكِنْ تَفْسُدُ فَطْرَتُهُ مِنْ مَرَضِهِ فَأَبْوَاهُ يَهُودَانَهُ أَوْ يَنْصَرَانَهُ أَوْ يَمَجَّسَانَهُ ، وَهَذِهِ كُلُّهَا تَغْيِيرُ فَطْرَتِهِ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ كَانَتْ بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، كَمَا يَغْيِرُ الْبَدَنَ بِالْجُوعِ ، ثُمَّ قَدْ يَعُودُ إِلَى الْفِطْرَةِ إِذَا يَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا مِنْ يَسْعَى فِي إِعَادَتِهَا إِلَى الْفِطْرَةِ .

وَالرَّسُلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ بَعَثُوا لِنَقْرِيرِ الْفِطْرَةِ وَتَكْمِيلِهَا لَا لِتَغْيِيرِ الْفِطْرَةِ وَتَحْوِيلِهَا ، وَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ مَحَبًّا لِلَّهِ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ لَمْ يَبْتَلِ بِحُبِّ غَيْرِهِ أَصْلًا^(٣) .

فَالْإِنْسَانُ إِذَا لَمْ تَفْسُدْ فَطْرَتُهُ يَكُونُ مُجْبُولًا عَلَى سُلُوكِ الطَّرِيقِ الَّذِي يَجْتَازُ بِهِ مَرَحِلَةَ الْإِبْتِلَاءِ ، وَيَحَقِّقُ بِذَلِكَ الْغَايَةَ الَّتِي خَلَقَ مِنْ أَجْلِهَا .

❁ ثَانِيًا : الْعَقْلُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنْ عَلَى الْإِنْسَانِ بِنِعْمٍ شَتَّى . وَمَنْ أَعْظَمُ تِلْكَ النِّعَمُ نِعْمَةُ الْعَقْلِ الَّذِي يُمَيِّزُ بِهِ ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ دُونَ الْحَيَوَانَ الْبَهِيمِ ، كَمَا وَهَبَهُ نِعْمَةُ السَّمْعِ وَنِعْمَةُ الْبَصَرِ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [التحل: ٧٨] . وَقَالَ : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣] .

(١) فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ : أَيِ اسْتَحَفَّتْهُمْ فَجَالُوا مَعَهُمْ فِي الضَّلَالِ . يُقَالُ جَالَ وَاجْتَالَ : إِذَا ذَهَبَ وَجَاءَ وَمِنْهُ الْجَوْلَانُ فِي الْحَرْبِ ، وَاجْتَالَ الشَّيْءُ إِذَا ذَهَبَ بِهِ وَسَاقَهُ ، وَاجْتَالَ الرَّائِلُ عَنْ مَكَانِهِ . وَرُوي بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ .

الْتِهَاءِ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ : ٣١٧ / ١ .

(٢) صَحِيحُ مُسْلِمٍ : بِلَفْظِهِ فِي كِتَابِ الْجَنَّةِ وَصْفَةُ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا : (٥١) . بَابُ الصِّفَاتِ الَّتِي يَعْرِفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ

الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ : (١٦) . بِرَقْمِ (٢٨٦٥) . ٢١٩٧ / ٤ .

(٣) بِمَجْمُوعِ الْفَتَاوَى : ١٣٥ / ١٠ . وَانْظُرْ : ٢٩٦ / ١٤ .

وهذه الحواس هي أعظم المدارك لاستيعاب أمر الابتلاء وتحقيق غايته .

قال سيّد قطب (رحمه الله) :

" إنَّ اللهَ لم ينشئ البشرَ ويمنحهم هذه الخصائص عبثاً ولا جزافاً لغير قصد ولا غاية ، إنّما هي فرصة الحياة للابتلاء " (١) .

ولذلك ربط الله سبحانه بين قضية الابتلاء وبين هذه المدارك ليبين لنا أنّها الوسائل التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يحقق غايته التي خلق من أجلها .

فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا

بَصِيرًا ۝ ﴾ [الإنسان: ٢] .

فعلى الإنسان أن يستخدم هذه الحواس استخداماً صحيحاً خالياً من الآفات التي تعطل ما فيها من الاستعداد الفطري حتّى يتمكّن من اجتياز عقبة الابتلاء على مواد الله .

ولهذا عاتب سبحانه لفيماً عظيماً من هذه البشرية عطلوا هذه الحواس عن منافعها وغايتها فانحدروا إلى حضيض البهيمة بل تجاوزوا ذلك بمراحل .

إذ البهيمة تؤدّي ما أسند إليها من وظائف أداء صحيحاً على قدر ما أودع فيها من خصائص . وأمّا الإنسان قد يعطل تلك المدارك فلا يؤدّي ما أسند إليه من مهام أنيطت به ، فعندها ينحطّ مقامه فيكون أسوأ من الأنعام .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا

كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝ ﴾ [الفرقان: ٤٤] .

(١) في ظلال القرآن : ٦ / ٣٦٤٦

ومن هنا كانت المسئولية عظيمة جداً على من عطّل هذه الحواس ، أو استخدمها استخداماً سيئاً ينافي الأداء السليم الذي خلقت وهيئت له . فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

وهناك يعود المعطلون للانتفاع بها بالملامة على أنفسهم ، ويندمون حيث لا ينفع الندم ولا يجدي اللوم فتيلاً (١) .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿ [الملك: ١٠-١١] .

قال العلامة ابن كثير (رحمه الله) :

" أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق ، لما كنّا على ما كنّا عليه من الكفر بالله والاعتذار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم " (٢) .
فهؤلاء فشلوا في اجتياز عقبة الابتلاء حيث لم ينتفعوا من عقولهم وأسماعهم وأبصارهم .

❁ ثالثاً : الهداية :

لما أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة إلى دار الابتلاء والاختبار أعطاه عهداً له ولبنيه من بعده إن تمسكوا به ردّهم تارة أخرى إلى جنّته .

(١) الفَتِيل: حبل دقيق من ليف أو عِرْق أو غير ذلك . و الفَتِيل و الفَتِيلَة: ما فتّنته بين أصابعك .

وقيل: الفَتِيل ما يخرج من بين الإصبعين إذا فتّنتهما ، وما يكون في شَقِّ التّوارة . وفي التّزِيل العزير : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٤٩] . أي لا يظلمون قدر ما يكون بين شَقِّ التّوارة . وهو يضربَ حِمْلًا

للشّيء التّافه الحقير القليل . انظر: لسان العرب: ٥١٤/١١ . وانظر: القاموس المحيط: ص: ١٣٤٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٦٢٠/٤

فقال سبحانه : ﴿ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ

تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

وفي الآية الأخرى : ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ

وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣] (١).

وعهده سبحانه هو هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده ،
وميز لهم بها بين الحق والباطل . وهي التي أرسل بها رسله وأنزل بها كتبه . فقال
سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ

يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى

فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧] (٢).

وهي لا تخص الرسل وحدهم بل لهم وللعلماء من بعدهم .

والله لا يعذب أحداً من خلقه إلا بعد إيصال هذه الهداية إليه ، فيدعوه سبحانه
وبيِّن له طريق الحق من طريق الضلال لتقوم بذلك حجته على الخلق وينتهي
عذرهم .

فقال سبحانه : ﴿ مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ

عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [

[الإسراء: ١٥].

(١) انظر : مفتاح دار السعادة ٣٢/١-٣٣ . الضوء المنير : ٢٠٣/١-٢٠٤

(٢) انظر : مدارج السالكين : ٤٢/١-٤٣ . الضوء المنير : ٦٨/١

وقال : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] (١) .

فبهذه الهداية يميّز الإنسان طريق الحقّ الموصل إلى الله تعالى ، الذي من سلّكه حقّق مراد الله من خلقه وسبب جوده على الأرض ، ومن تنكّبه وسلك طريق الضلال فشل في تحقيق الغاية التي وجد من أجلها وهي الابتلاء .

ولهذا لما كان الابتلاء يتوقّف تحقّقه على هذه الهداية التي تميّز بين الطّريقين ، وتدعو الإنسان لسلوك الطّريق الأقوم ، قرن الله بينها وبين الابتلاء في قرآنه . فقال تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢-٣] .

ونحو ذلك قوله : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] .

ومع كلّ هذا أعطى الإنسان حرية الاختيار . فيسلك الطّريق الذي أراده . وعلى ذلك ينبني أمر الثواب والعقاب الأخروي .

وهذه العوامل الثلاثة - أعني : الفطرة ومدارك الإنسان والهداية - بينهم رابطة وثيقة وعلاقة حميمة .

فالرسل عليهم السلام الذين بعثوا بالهداية إنّما جاءوا مذكّرين بما في الفطرة ، مقرّرين لذلك ، مكملين له (٢) .

والهداية إنّما تتأتّى بواسطة العقل والسمع والبصر (٣) .

والمؤمن يحسن الاختيار متى ما اختار طريق الخير وتجنّب طريق الشر ، وذلك بانتفاعه بما وهبه الله من عقل وسمع وبصر فيميّز بهم ما يسعده ممّا يشقيه ،

(١) انظر : شفاء العليل : ص : ٨٠ .

(٢) انظر : التبيان في أقسام القرآن لابن القيم : تصحيح وتعليق طه يوسف شاهين . مكتبة القاهرة . دار الطباعة

المحمّدية بالأزهر : ص : ٣٩

(٣) انظر : مفتاح دار السعادة : ١٠٧/١ . الضوء المنير : ٣٦٣/٦

منصاعاً في ذلك لما جاءه من قبل الله على أيدي رسله عليهم السلام ، محافظاً على فطرته من الانحراف والتبديل ، وهو بذلك يجتاز مرحلة الابتلاء ، بفوز ونجاح .
﴿ وقد جاء الدليل من كتاب الله عز وجل يبين أن الخلق إنما خلقوا من أجل العبادة : فقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة .
وهي الغاية المحبوبة لله ، المرضية له ، الجامعة لكمال الحب مع كمال الخضوع والانقياد لأوامره سبحانه ^(١) .

ومن أجلها أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، وشرعت الشرائع . فما من رسول من رسل الله إلا ودعا قومه إليها فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ^(٢) فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿ [النحل: ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ^(٣) .

ومقصود العبادة : ألا يعبد إلا الله ، وأن يعبد بما أمر وشرع ، لقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَنْ

(١) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية : وهي الرسالة الرابعة عشرة من مجموعة التوحيد " طبعة دار الفكر : ص :

٥٤٤-٥٤٥ . مجموع الفتاوى : ١٠/١٤٩-١٥٠، ١٥٣ .

(٢) الطَّاغُوت : هو كل متعدٍّ وكل معبود من دون الله . ويستعمل في الواحد والجمع . وأصله من طغى الذي هو

تجاوز الحد في العصيان . انظر: المفردات: ص: ٣٠٤-٣٠٥ .

(٣) انظر الآيات من : سورة الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ . سورة الأنبياء : ٩٢ . سورة الأحقاف : ٢١

كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾
 [الكهف: ١١٠]. وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥] ^(١) .

وخلق الخلق من أجل العبادة لا ينافي ويعارض خلقهم من أجل الابتلاء ، لأنَّ العبادة هي التي تظهر نتيجة الابتلاء ، وتبرز حقيقته إن كانت ثواباً أو عقاباً على حسب الطائع أو العاصي ^(٢) . لأنَّ حقيقة العبادة هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" فأخبر سبحانه عن خلق العالم ، والموت والحياة ، وتزيين الأرض بما عليها أنه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أحسن عملاً . فيكون عمله موافقاً لمحابِّ الرّبِّ تعالى ، فيوافق الغاية التي خلق هو لها وخلق لأجلها العالم ، وهي عبوديته المتضمنة لمحبتّه وطاعته . وهي العمل الأحسن ، وهو مواقع محبّته ورضاه . وقدّر سبحانه مقادير تخالفها بحكمته في تقديرها ، وامتنح خلقه بين أموره وقدره ليبلوهم أيهم أحسن عملاً " ^(٣) .

وسوف يأتي لهذا الأمر مزيد بيان في المبحث القادم بإذن الله .

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٧٢/١٠ - ١٧٤

(٢) انظر : الابتلاء في القرآن الكريم . رسالة دكتوراه . إعداد الطالب : محمد عبد العزيز حمادي الرّحالي . إشراف الدكتور سمير عبد العزيز شيلوي . جامعة أمّ القرى . كلية الدّعوة وأصول الدّين . قسم الكتاب والسّنة .

١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م . ص : ٣٦ .

(٣) روضة المحيّن : ص : ٦١

﴿ الفصل الثالث ﴾

أنواع الابتلاء والحكمة منها

وفيه مبحثان :

﴿ المبحث الأول ﴾

الابتلاء بالتكليف وحكمته .

التكليف في اللغة : من الكلفة ، وهي : المشقة .

قال الفيروز آبادي (رحمه الله) :

" التكليف : الأمر بما يشقّ عليك ، وتكلفه : تجشّمه . والمتكلف : العريض لما لا يعنيه . وحملتُه تكلفه إذا لم تُطقه إلاّ تكلفاً (١) "

قالت الخنساء (رضي الله عنها) (٢) :

يُكَلِّفُهُ الْقَوْمُ مَا عَالَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِداً (٣)

(١) القاموس المحيط : ص : ١٠٩٩ . وانظر : الصحاح : ١٤٢٤/٤ . تاج العروس : ٤٦٥/١٢ . النهاية في غريب الحديث : ١٩٦/٤ .

(٢) الخنساء : هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية . الشاعرة المشهورة . الصحابية . أجمع أهل العلم بالشعر أنّه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها . انظر : الإصابة : ٦١٣/٧ .

(٣) ديوان الخنساء . طبعة : دار صادر . دار بيروت . بيروت . ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م : ٣٠ . وهي ترثي به أخاها صخرأ . وقولها : عالهم : أي افتقروا إليه . انظر : القاموس المحيط : ص : ١٣٤٠ .

وأما التكليف في الشرع : فقيل : هو إلزام ما فيه مشقة وكلفة . وعلى هذا فلا يدخل في حدّه إلا الواجب ^(١) والحرام ^(٢) فقط .
وقيل : هو طلب ما فيه مشقة وكلفة ، وعليه يدخل في حدّه الواجب والمندوب ^(٣) والحرام والمكروه ^(٤) .

(١) الواجب : هو ما توعّد بالعقاب على تركه . وقيل : ما يعاقب تاركه . وقيل : ما يذمّ تاركه شرعاً .
روضة الناظر : لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي . طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود . الرياض . الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ . تحقيق : د . عبد العزيز عبد الرحمن السعيد : ص : ٢٦ . وانظر : المستصفى : لأبي حامد الغزالي . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤١٣هـ . تحقيق : محمد عبد السلام عبد الشافي : ص : ٥٣ . المنحول : لأبي حامد الغزالي . طبعة دار الفكر . دمشق . الطبعة الثانية : ١٤٠٠هـ . تحقيق : د . محمد حسن هيتو : ص : ١٣٦ . الموافقات : لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي . طبعة دار الفكر . ١٣٤١هـ : ٨٨-٨٧/١ . إرشاد الفحول : محمد بن عليّ الشوكاني . طبعة دار الفكر . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤١٢هـ . ١٩٩٢م . تحقيق محمد سعيد البدري : ص : ٢٣ .
(٢) الحرام : هو ما يذمّ فاعله ويمدح تاركه ، ويقال له المحرم والمحذور والمعصية والذنب والمزجور عنه والمتوعّد عليه والقبيح . انظر : إرشاد الفحول : ص : ٢٤ . وانظر : المستصفى : ص : ٢٣ . المنحول : ص : ١٣٧ . روضة الناظر : ص : ٤١ .

(٣) المندوب : التدب في اللغة الدعاء إلى الفعل كما قال الشاعر :
لا يسألون أحاهم حين يندبهم في التائبات على ما قال برهاناً
وحده في الشرع : مأمور لا يلحق بتركه ذمّ من حيث تركه من غير حاجة إلى بدل . وقيل : هو ما في فعله ثواب ولا عقاب في تركه . روضة الناظر : ص : ٣٥ . وبيت الشعر لقريط بن أنيف أحد بني العنبر . انظر : ديوان الحماسة . لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي . (دون توثيق) : ٥/١ .
وقال الشوكاني (رحمه الله) :

"المندوب ما يمدح فاعله ولا يذمّ تاركه . وقيل : هو الذي يكون فعله راجحاً في نظر الشرع ، ويقال له مرغّب فيه ومستحبّ ونفل وتطوع وإحسان وسنة . وقيل : إثم لا يقال له سنة إلا إذا داوم عليه الشارع كالوتر ورواتب الفرائض " . إرشاد الفحول : ص : ٢٤ . وانظر : المستصفى : ص : ٥٣ . المنحول : ص : ١٣٧ . الموافقات : ٨٦/١ ، ٩٩ .

(٤) المكروه : هو ما يمدح تاركه ولا يذمّ فاعله . ويقال بالاشتراك على أمور ثلاثة : على ما هي عنه فهي تزيه وهو الذي أشعر فاعله أنّ تركه خير من فعله . وعلى ترك الأولى كترك صلاة الصلح . وعلى المحذور . إرشاد الفحول : ص : ٢٤ . وانظر : المستصفى : ص : ٥٣-٥٤ . المنحول : ص : ١٣٧ . روضة الناظر : ص : ٤١ .
الموافقات : ٨٦/١ .

ولذا قال صاحب مراقي السَّعُود في تعريفه :

وهو إلزام الَّذي يشقّ أو طلب فاه بكلّ خلق (١)

والطلب يشمل الأمر والنهي .

فالتكليف إذن هو : خطاب الشَّارِع للمكلفين بأمر أو نهي (٢). والأمر قد يكون واجباً أو مندوباً ، كما أن النَّهي قد يكون حراماً أو مكروهاً . وبالأمر والنَّهي تتحقّق العبادة التي خلق الخلق من أجلها (٣) .

وليس المقصود بالعبادات المشقّة والكلفة بالقصد الأوّل ، وإن وقع ذلك ضمناً وتبعاً في بعضها لأسباب اقتضت ذلك لا بد منها (٤) .

فالمشقّة الموجودة في العبادة والتكاليف هي مشقّة معتادة .

والله سبحانه إذ ابتلى عباده بالأوامر والنواهي التي هي التكاليف ، لم يكن لمنفعة تعود عليه سبحانه ، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم ، ونهاهم عما يعود مضرته عليهم في معاشهم ومعادهم . فحكمة ابتلائه مختصة بهم (٥) .

وهو سبحانه علم أعمال عباده وأحوالهم وما هم إليه صائرون قبل أن يخلقهم ويوجدتهم في دار الابتلاء ، ثم أخرجهم إليها ، وأرسل إليهم رسله ، وأنزل كتبهم ،

(١) نثر الورود على مراقي السَّعُود : للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي . ومراقي السَّعُود لعبد الله بن إبراهيم العلوي . تحقيق الدكتور : محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي . دار المنارة للنشر والتوزيع . الطبعة الأولى : ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م : ٤٢/١ - ٤٣ . وانظر : البرهان في أصول الفقه لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف . تحقيق وتقديم دكتور : عبد العظيم الديب . طبعة قطر . الطبعة الأولى : ١٣٩٩هـ :

١٠١/١

(٢) انظر : الإحكام في أصول الأحكام : لسيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد الأمدي . مطبعة المجلد بمصر . ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م : ٢١٥/١ . نزهة الخاطر العاطر للشيخ عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بدران . شرح كتاب روضة الناظر وحة المناظر . للشيخ موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي . دار الكتب العلمية . بيروت : ١٣٦/١ . وانظر : مجموع الفتاوى : ٣٤٤/١٠

(٣) انظر : شفاء العليل : ص : ٢٤٨

(٤) انظر : إغاثة اللّهفان : ٣١/١ . الضوء المنير : ٤٥٧/٣ . وانظر في ذلك : المفردات : ص : ٤٣٩

(٥) انظر : شفاء العليل : ص : ٢٤٦ . إغاثة اللّهفان : ٣١/١ .

وشرع شرائعه ، فابتلاهم بأوامره ونواهيه ، وبالخير والشر ليظهر معلومه الذي علمه من قبل فيهم ، فيستحقوا بذلك المدح أو الذم ، والثواب أو العقاب ، ويعذر الله إليهم بإقامة الحجة عليهم (١) .

وهو بهذا الابتلاء يميز بين المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي ، والصّادق والكاذب ، ومن يشكره ويعبده ومن يكفره ويعرض عنه .

قال سبحانه : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] .

أي : ما كان الله تعالى ليدع المؤمنين مختلطين بالمنافقين والكفار حتى يميز بينهم بما يشرعه من تكاليف لا يستجيب لها إلا المؤمنون الصادقون ، فيُعرف عند ذلك المؤمن من غيره . ولو لم تكن التكاليف هي التي تميز بين أولئك لما استطاع أحد أن يميز بينهم لأنه من الغيب الذي لا يمكن الاطلاع عليه إلا بواسطة رسل الله الذين يوحى إليهم (٢) .

وهو سبحانه بهذا الابتلاء يعلم عباده المؤمنين ليجزيهم . وإن كان سبحانه يعلم ذلك قبل وقوعه ، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم حتى يوجد معلومه ، ويتحقق منهم فيقع الجزاء عليه . كما قال سبحانه : ﴿ أَمَرَ حَسْبُكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] .

(١) انظر : شفاء العليل : ص : ٢٤٦

(٢) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٤٢٤/٧-٤٢٧ " طبعة شاكر " . الكشف : ٤٨٣/١ " طبعة الحلبي " .

التفسير الكبير : ١١٠/٩-١١١ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٩/٤ . تفسير القرآن العظيم : ٦٤٩/١ . محاسن

التأويل : ١٠٤٤-١٠٤٥ . زاد المعاد : ٢٢٠/٣

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصّابرين على مقاومة الأعداء " (١) .

والله تعالى جعل لعباده المؤمنين منازل في الجنة أراد أن يكرمهم بها ، فابتلاهم بالتكاليف المختلفة المتنوعة لكي ينالوا بذلك أرفع المقامات وأسمى الدرجات في عالي الجنّات . فلم يقف الأمر عند جزائهم بل تعدّى ذلك إلى رفع درجاتهم بالابتلاء .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" لولا هذا الابتلاء والامتحان لما ظهر فضل الصّبر والرّضا والتّوكّل والجهاد والعفة والشّجاعة والحلم والعفو والصّفح . والله سبحانه يحبّ أن يكرم أوليائه بهذه الكمالات ، ويحبّ ظهورها عليهم ليثني بها عليهم هو وملائكته ، وينالوا باتّصافهم بها غاية الكرامة واللّذة والسّرور ، وإن كانت مرة المبادئ فلا أحلى من عواقبها " (٢) .

كما ربط سبحانه تحقّق بعض الحكم بالابتلاء بتكاليف متعدّدة . أوامر ونواهي . التي لولا ذلك الابتلاء بتلك التكاليف المتنوعة لما تحقّقت . فقال في شأن إبراهيم عليه السّلام :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] .

ولا خلاف بين العلماء أنّه ابتلاه بأوامر ونواهي كلّها بالقيام بها ، فقام بذلك عليه السّلام خير قيام ، وأدّاهن أحسن تأدية ، من غير تفريط ولا توان . وإن كانوا قد اختلفوا في تعيين تلك الكلمات . ولم يأت ما يعينها فتبقى على الإطلاق .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٦١٢/١ . وانظر : شفاء العليل : ص : ٢٤٥ . إغاثة اللّهفان : ١٨٨/٢

(٢) شفاء العليل : ص : ٢٤٤ . وانظر : زاد المعاد : ٢٢١/٣

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" وكان اختبار الله تعالى ذكره إبراهيم اختباراً بفرائض فرضها عليه ، وأمر أمره به . وذلك هو الكلمات التي أوحاهنّ إليه ، وكلفه العمل بهنّ امتحاناً منه له واختباراً^(١) . "

فلما وفى بذلك عليه السلام جعله الله إماماً يقتدى به ، وأبقى له الثناء الدائم في الدنيا ، وجعل في ذريته النبوة ، وأجزل له العطاء في الآخرة^(٢) . وكلّ هذه الحكم والغايات العظيمة إنّما حدثت له نتيجة لقيامه بتلك التكليف التي ابتلي بها .

ومن ذلك ما ابتلي الله به أصحاب طالوت عندما خرجوا لقتال جالوت وقومه ، فابتلاهم بالنهي عن الشرب من النهر مع شدة عطشهم واحتياجهم إلى الماء ، ولم يأذن إلا بغرفة^(٣) ليرى طاعتهم وامتنالهم لنهيهِ فيتميّز عند ذلك الصّابر الذي يثبت عند القتال من غيره .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

قال الرّازي (رحمه الله) :

" المقصود من هذا الابتلاء أن يتميّز الصّدّيق عن الزّنديق^(٤) ، والموافق عن المخالف ، فلما ذكر الله تعالى أن الذين يكونون أهلاً لهذا القتال هم الذين لا يشربون

(١) جامع البيان : ٧/٣ . وانظر : ١٤/٣-١٥ " طبعة شاكر " .

(٢) انظر في معنى الآية : الكشاف : ٣٠٨/١-٣٠٩ " طبعة الخليلي " . المحرر الوجيز : ٤٧٣/١ . الجامع لأحكام القرآن : ٩٦/٢-٩٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢٤٥/١-٢٤٩ " وفيه تحقيق قيم للمراد بالكلمات " . تفسير أبي السعود : ١٥٤/١-١٥٥ . محاسن التأويل : ٢٤٤/٢-٢٤٥ . تيسر الكريم الرّحمن : ص : ٤٧ . وسوف يأتي

مزيد بيان لابتلاء إبراهيم عليه السلام والغايات التي تحققت له في التّماذج .

(٣) غرفة : العُرف : أخذ الماء باليد . والعُرفة هي المرّة الواحدة منه . انظر : القاموس المحيط : ص : ١٠٨٧ .

(٤) الزّنديق : من الزّندقة . وقد سبق بيّانها . انظر : ص : ٨٠ .

من هذا النَّهر ، وأنَّ كلَّ من شرب منه فإنَّه لا يكون مأذوناً في هذا القتال ، وكان في قلبهم نفرة شديدة عن ذلك القتال ، لا جرم أقدموا على الشَّرب ، فتميّز الموافق عن المخالف ، والصديق عن العدو " (١) .

ونحو هذا ما حدث لأصحاب القرية من بني إسرائيل الذين حرَّم الله عليهم صيد السمك في يوم السبت لأنَّه يوم معظَّم عندهم . فنهاهم الله عن الاصطياد فيه ابتلاء وامتحاناً لهم . فكانت الحيتان تكثر وتظهر فيه دون بقية الأيام ابتلاء من الله لهم ليعلم امتثالهم لنهيهِ وانصياعهم لطاعته . ولكنَّهم خالفوا النَّهي فاحتالوا على صيد السمك في اليوم المحرَّم عليهم فمسخوا قرده.

قال تعالى : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] (٢) .

وفي ذلك يقول النَّبي ﷺ في حديث أبي هريرة ؓ : " لا تتركبوا ما ارتكب اليهود فتستحلّوا محارم الله بأدنى الحيل " (٣) .
وقد وقع نحو ذلك لصحابة النَّبي ﷺ الذين هم قدوة هذه الأمة بعد نبيِّهم ﷺ .

(١) التفسير الكبير : ١٨٢/٦ . وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ٣٣٨/٥-٣٤٩ " طبعة شاكر " . الجامع لأحكام القرآن : ٢٥١/٣ . تفسير القرآن العظيم : ٤٥٢/١ . تيسر الكريم الرحمن : ص : ٩٠ . مجموع الفتاوى : ١٤٥/١٤ .

(٢) انظر : الآيات بعدها . والآيتين : ٦٥-٦٦ من سورة البقرة . وقوله : ﴿ شُرْعًا ﴾ : أي شوارع ظاهرة على الماء كثيرة . الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٥/٧ . وانظر معنى الآية في : الكشف : ١٣٤/٢ " طبعة الاستقامة " . المحرر الوجيز : ١١٤/٦-١١٦ . التفسير الكبير : ٣٦/١٥-٣٧ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٦-٣٠٥/٧ . تفسير القرآن العظيم : ٤٠٨/٢ . تفسير أبي السعود : ٢٨٤/٣-٢٨٥ . إغاثة اللهفان : ٣١٧/٢-٣١٨ . أعلام الموقعين : ١٦٢/٣ . الضوء المنير : ٢١٨/١ .

(٣) هذا الحديث أورده ابن كثير (رحمه الله) في تفسيره . ونسبه إلى الإمام أبي عبد الله بن بطّة (رحمه الله) الذي رواه بإسناده . ثم قال ابن كثير (رحمه الله) : " وهذا إسناده جيّد ... ويصحّ الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً " . تفسير القرآن العظيم : ٤٠٨/٢ . ولم أقف عليه في شيء من كتب الحديث التي رجعت إليها مع شهرته .

فقد ابتلاهم الله بأوامر ونواهي ليظهر امتثالهم لأمر الله واجتنابهم لنهيهِ ، ويتحقق فيهم مراد الله من ذلك الابتلاء . من ذلك :

أن الله جلّ في علاه شرع للنبي ﷺ أن يتوجّه أولاً بالصلاة إلى بيت المقدس ثم صرفه عنه إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعه ويطيعه ويتّجه معه أينما اتّجه ممّن انقلب على عقبيه وارتدّ عن دينه . وإن كان صرف القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أمراً عظيماً على النفوس إلاّ أنّه سهل ميسور على الذين هدى الله قلوبهم وصدقوا برسول الله ﷺ ، وأيقنوا أن كلّ ما جاء به فهو حقّ ، وأنّ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وله أن يكلف عباده بما شاء ، وله الحكمة التامة والحجّة البالغة (١) .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

روى ابن جرير (رحمه الله) بسنده إلى قتادة (رحمه الله) أنه قال :

" كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص . صلت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم نبي الله ﷺ ، وصلى نبي الله ﷺ بعد قدومه المدينة مهاجراً نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، ثم وجهه الله بعد ذلك إلى الكعبة البيت الحرام . فقال في ذلك قائلون من الناس : ﴿ مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢] . لقد اشتاق الرجل إلى مولده . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢] . فقال أناس - لما صرفت

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢٨٥/١ بتصرف .

القبلة نحو البيت الحرام : كيف بأعمالنا التي كنّا نعمل في قبلتنا الأولى ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

وقد يبتلي الله العباد بما شاء من أمره ، الأمر بعد الأمر ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، وكل ذلك مقبول ، إذ كان في ذلك إيمان بالله ، وإخلاص له ، وتسليم لقضائه " (١) .

ومن ذلك أن الله تعالى شرع لعباده الجهاد ، وهو تكليف عظيم ، وبين أنه له فيه حكمة ، وهو اختبار له عبده من يطيعه ممن يعصيه .
فليس المراد من الجهاد القتال فقط ، وإنما المراد الانقياد لأمر الله تعالى ، ولحكمه وتكليفه ، فيحصل حينئذ الانتفاع بذلك ، وينال المجاهد رضوان الله مع ما يحصل عليه من أجر .

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦] (٢) .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" أم حسبتم أيها المؤمنون أن يترككم الله بغير محنة يمتحنكم بها ، وبغير اختبار يختبركم به ، فيعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه " (٣) .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ

بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٤] .

(١) جامع البيان : ١٥٧/٣ " طبعة شاكر " .

(٢) قال في الفاموس المحيط : " الوليعة الدخيلة . وخاصتك من الرجال . أو من تتخذه معتمداً عليه من غير أهلكت .

وهو وليجتهم أي لصيق بهم " . ص : ٢٦٧ . وانظر : المفردات : ص : ٥٣٢ . والمراد هنا البطانة من غير المسلمين .

(٣) جامع البيان : ٩٢/١٠ " طبعة الحلبي " . وانظر في معنى الآية : الكشف : ١٩٨/٢ " طبعة الاستقامة " .

التفسير الكبير : ٦/١٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٨٨/٨ . تفسير القرآن العظيم : ٥٣٢/٢ . تفسير أبي السعود :

٤٩/٤ . روح المعاني : ٦٣/١٠ - ٦٤ . محاسن التأويل : ٣٠٨٤/٨ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٩١ .

أي : لو شاء الله لانتصر من المشركين بغير قتال وكفى المؤمنين ذلك كله ، ولكنه سبحانه أمر المؤمنين بالجهاد ليعلم المطيع الصابر فيثيبه ، ويعاقب بأيدي المؤمنين من شاء منهم حتى ينيبوا إلى الله .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ

وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ ۖ ﴾ [محمد: ٣١] (١) .

ومثال ما جاء في الابتلاء بالنهي لهذه الأمة قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن

يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٤] .

والآية كما جاء في سبب نزولها أنها نزلت في عمرة الحديبية حيث ابتلى الله عز وجل المؤمنين بالصيّد وهم محرمون ، فيغشاهم في رحالهم ، فكانوا متمكّنين من صيده أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم ، ولكن الله نهاهم عن ذلك لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره من معصية العاصي (٢) .

عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : في قوله تعالى : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ

وَرِمَاحُكُمْ ۖ ﴾ . هو الضعيف من الصيّد وصغيره ، يبتلي الله تعالى ذكره به عباده في

إحرامهم ، حتّى لو شاءوا نالوه بأيديهم ، فنهاهم الله أن يقربوه " (٣) .

(١) وانظر في معنى الآيتين : جامع البيان : ٤٣/٢٦ ، ٦١ " طبعة الحلبي " . الكشاف : ٥٣١/٣ " طبعة الحلبي " .

التفسير الكبير : ٤٦/٢٨ - ٤٧ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٩/١٦ - ٢٣٠ ، ٢٥٣ - ٢٥٤ . تفسير القرآن العظيم : ٢٦٦/٤ ، ٢٧٧ . تفسير أبي السعود : ٩٣/٨ ، ١٠١ . روح المعاني : ٤٢/٢٦ ، ٧٨ . محاسن

التأويل : ٥٣٧٨/١٥ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٧٣٠ ، ٧٣٤ .

(٢) انظر في معنى الآية : جامع البيان : ٥٨٢/١٠ - ٥٨٥ " طبعة الحلبي " . الكشاف : ٦٤٣/١ - ٦٤٤ " طبعة

الحلبي " . المحرر الوجيز : ٣٤/٥ . التفسير الكبير : ٨٥/١٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٩/٦ - ٣٠٠ . تفسير

القرآن العظيم : ١٥٧/٢ . تفسير أبي السعود : ٧٨/٣ . روح المعاني : ٢١/٧ - ٢٢ . محاسن التأويل : ٢١٥٣/٦ .

تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٠٦ .

(٣) جامع البيان : ٣٩/٧ . (طبعة دار الفكر) . تفسير القرآن العظيم : ١٥٧/٢ .

المبحث الثاني

الابتلاء بالنعم والمصائب وحكمته

إنَّ الله تعالى شاء وأراد أن يبتلي عباده بالنعم والنقم ، والمنح والمحن وله في ذلك الحكم البالغة والحمد التام ، وإن كانت عقول العباد لا تدرك كثيراً ممَّا في ذلك الابتلاء من عواقب حميدة وحكم عظيمة .

فإنَّ لله عبودية على عباده فيما ابتلاهم به من مصائب ، كما له عبودية فيما ابتلاهم به من نعم ، فعلى العباد أن يحققوا عبادة الله في ذلك ^(١) . قال سليمان عليه السلام فيما ذكره ربه سبحانه عنه : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠] .

أي ما أعطاني الله من التمكن والملك والسلطان الذي أنا فيه حتى حمل إليَّ عرش من اليمن إلى الشام في قدر ارتداد الطرف لهو فضل عظيم ونعمة جزيلة من الله ، جاد عليَّ بها ليختبرني أشكره على ذلك أم أكفره ، ومن شكر فإنما ينفع نفسه ، ومن كفر فإنما يضرها والله غني عن كل ذلك ^(٢) .

ولهذا عدَّد الله ابتلاءاته على عباده بنعمه ، كما نوَّعها عليهم بنقمه ، وقرن ذلك بكثير من حكمه . فقال سبحانه :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

[الأنبياء: ٣٥] .

(١) انظر : طريق المحررتين وباب السعادتین لابن القيم . طبعة دار ابن القيم . الدمام . الطبعة الثانية :

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م . تحقيق : عمر بن محمود أبي عمر : ص : ٤٠٢ . ٤١٧ . علَّة الصَّابرين وذخيرة

الشَّاكرين : لابن القيم . طبعة دار الكتب العلميَّة . بيروت . تحقيق زكريا عليَّ يوسف : ص : ٩ .

(٢) انظر : جامع البيان : ١٦٥/١٩ . " طبعة الحلبي " .

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال . وإلينا يردون فيجازون بأعمالهم ، حسنها وسيئها " .

وقال ابن زيد (رحمه الله) :

" نبلوهم بما يحبون وبما يكرهون ، نختبرهم بذلك ، لننظر كيف شكرهم فيما يحبون ، وكيف صبرهم فيما يكرهون " (١) .

وقول ابن زيد (رحمه الله) أعم من قول ابن عباس (رضي الله عنهما) .

ولذا قال ابن عطية (رحمه الله) :

" والظاهر أن المراد من الخير والشر هنا كل ما يصح أن يكون فتنه وابتلاء ، وذلك خير المال وشره ، وخير البدن وشره ، وخير الدنيا في الحياة وشرها " (٢) .
ثم استبعد دخول الهدى والضلال والأوامر والنواهي في معنى الآية (٣) .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨] .

أي اختبرناهم بالرخاء والشدة ، والرغبة والرغبة ، والعافية والبلاء لعلهم ينيبون إلى الله ويرجعون إليه (٤) .

(١) جامع البيان : ٢٥/١٧ . " طبعة الحلبي " .

(٢) المحرر الوجيز : ١٤٦/١٠ - ١٤٧ .

(٣) انظر : المرجع السابق : ١٤٧/١٠ . وانظر في معنى الآية : الكشف : ٩٢/٣ " طبعة الاستقامة " . التفسير

الكبير : ١٦٩/٢٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٧/١١ . تفسير القرآن العظيم : ٢٨٦/٣ . تفسير أبي السعود :

٦٦/٦ . روح المعاني : ٤٧/١٧ . عدة الصابرين : ص : ١٣٢ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٤١٢/٢ .

وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا
وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥].

أي جرت سنة الله تعالى أنه يبنتلي الأمم التي أرسل إليها الرسل بالبأساء ، وهي ما
يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام ، وبالضراء وهي ما يصيبهم من فقر وحاجة
ونحو ذلك لعلهم يخشعون إلى الله ، ويدعون ويبتهلون له في كشف ما نزل بهم ،
فلما لم يفعلوا ما أردنا منهم قلبنا عليهم الحال فأبدلنا الشدة رخاء ، والمرض والسقم
صحة وعافية ، والفقر غنى ليشكروا وينيبوا إلى الله ، فما فعلوا هذا ولا ذلك ولا
استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين ، وإنما زعموا أن تلك عادة جارية في الأولين
واللاحقين ، فتارة يكونون في سراء ، وأخرى في ضراء إذ هي تقلبات الزمن . عند
ذلك أخذناهم بالعذاب بغتة وهم في غفلة لا يشعرون (١) .

فابتلاء الله للعباد بالنعم وسعة الرزق لا يدل على إكرامه وتفضيله لهم ، كما
أن ابتلاءهم بالمصائب وتقتير الرزق وتضييقه ليس إهانة وإذلالاً لهم . بل إنما ذلك
للاختبار والامتحان لتظهر طاعة الطائع من معصية العاصي . لأن إكرام الله للعبد
إنما يكون بالتقوى والطاعة ، وإهانته له تكون بالمعصية والذنوب لا بالغنى والفقر .

(١) انظر : جامع البيان : ٥٧٢/١٢ - ٥٧٣ " طبعة الخليلي " . تفسير القرآن العظيم : ٣٧٢/٢ - ٣٧٣ . تيسير الكريم

الرحمن : ص : ٢٦٠ .

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر: ١٥-١٦] (١) .

وقال سبحانه في معرض الابتلاء بالنعمة : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف: ٧] .

فقد بين سبحانه أنه جعل ما على الأرض من زينة كالذهب والفضة والمسلكن والملابس والمراكب والزرورع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير ذلك من أنواع النعم كل ذلك خلقه لابتلاء عباده أيهم أطوع له وأرضى (٢) .

قال الفضيل بن عياض (٣) (رحمه الله) في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] :

(١) انظر معنى الآيات في : جامع البيان : ١٨١/٣٠ - ١٨٢ " طبعة الحلبي " . الكشف : ٢٥١/٤ " طبعة الحلبي " .
الحرر الوجيز : ٤٤١/١٥ - ٤٤٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٥١/٢٠ - ٥٢ . تفسير القرآن العظيم : ٨٠٥/٤ .
تفسير أبي السعود : ١٥٦/٩ . روح المعاني : ١٢٥/٣٠ - ١٢٧ . محاسن التأويل : ٦١٥٢/١٧ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٨٥٤ . عدة الصابرين : ص : ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢) انظر : عدة الصابرين ص : ١٣٣ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٤٢٠ - ٤٢١ . قال تعالى في بيان أنواع الزينة :
﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبِّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ
وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ
حُسْنُ الْمَبَاقِ ﴾ [آل عمران: ١٤] . وهي الأولى في بيان الآية .

(٣) هو الفضيل بن عياض بن مسعود أبو علي التميمي البزيعي المروزي الخرساني . المكي . الزاهد المشهور . كان إماماً ربانياً عابداً قانناً فاضلاً ثقة كبير الشأن ورعاً . كثير الحديث . توفي بمكة سنة ١٨٧هـ .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٥٠٠/٥ . التاريخ الكبير : ١٢٣/٧ . معرفة الثقات : ٢٠٧/٢ . الجرح والتعديل : ٧٣/٧ .
ثقات ابن حبان : ٣١٥/٧ . مشاهير علماء الأمصار : ١٤٩/١ . التعديل والتحريح : ١٠٥١/٣ . تهذيب الكمال :
٢٨١/٢٣ . تذكرة الحفاظ : ٢٤٥/١ . الكاشف : ١٢٤/٢ . تهذيب التهذيب : ٢٦٤/٨ . تقريب التهذيب : ٤٤٨/١ .
لسان الميزان : ٣٣٧/٧ .

"أخلصه وأصوبه" ، قالوا : يا أبا عليّ : ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : " إنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتّى يكون خالصاً وصواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصّواب أن يكون على السنّة " (١) .

وقال سبحانه في معرض الابتلاء بالنّقم : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] .

لقد بيّن سبحانه أنّه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن والمصائب ليميّز الصّادق من الكاذب ، وأهل الخير من أهل الشرّ ، لأنّ حكمته تقتضي ذلك . فأخبر أنّه سيبتليهم بشيء من الخوف وشيء من الجوع ، لأنّه إذا ابتلاهم بالخوف كلّهُ أو الجوع كلّهُ لهلكوا ، والمحن تمحّص لا تهلك غالباً ، ونقص من الأموال بما يعتريها من جوائح وغرق وحرق وضياح وأخذ الظلمة وقطاع الطريق لها وغير ذلك ، والأنفس بذهاب الأحباب من أولاد وأقارب وأصحاب ، أو بالأمراض في بدن العبد أو من يحبّه ، والثمرات أي الحبوب كثمار النّخيل والأشجار كلّها والخضر ببرد أو حرّق أو آفة كالجراد ونحو ذلك (٢) .

(١) قول الفضيل (رحمه الله) . أورده أبو نعيم (رحمه الله) في حلية الأولياء بلفظ مقارب . ٩٥/٨ . وقد ذكره شيخ

الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في عدّة مواطن . انظر على سبيل المثال : مجموع الفتاوى : ١٧٤/١ . ٣٣٣ . ١٢٤/٣ . ٤٩٥/٧ . ٦٠٠،٥٨٥،٥٠٩/١١ . ٢٥٠/١٨ . ١٨٨/٢٢ . ١٥١/٢٦ . ١٤٨/٢٧ .

الاستقامة : لشيخ الإسلام ابن تيمية . طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود . بلد التّشريح : ١٧٧،١٣٤،٢٣/٢٨ .

المدينة المنورة . الطبعة الأولى : ١٤٠٣ هـ . تحقيق : محمّد رشاد سالم : ٢٤٨/١ - ٢٤٩ . وتلميذه ابن القيم

(رحمه الله) في مدارج السّالكين : ٨٣/١ . وابن كثير (رحمه الله) في البداية والنهاية : ١٠/١٩٩ . وابن رجب

(رحمه الله) في جامع العلوم والحكم : ص : ١٣-١٤ .

(٢) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٥٨-٥٩ . " بتصرّف " . وانظر معنى الآيات في : جامع البيان : ٢١٩/٣ - ٢٢٣ "

طبعة شاكر . " الكشف : ٣٢٣/١ " طبعة الحلبي . " التفسير الكبير : ٤/١٤٩-١٥٥ . الجامع لأحكام

فَاللّٰهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِهَذِهِ الْمَصَائِبِ وَغَيْرَهَا لِنَظَرِ طَاعَتِهِمْ وَصَبْرِهِمْ وَرَجْوَعِهِمْ إِلَيْهِ .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ لَتَبْلُوُنَّ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيْرًا وَإِنْ تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

وقوله : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيْرًا ﴾ الأذى اسم جامع لكل ما يحدث به الضرر ، والمراد أنواع ما يقع من أذى على المؤمنين من أعداء الله ، سواء كان قولاً أو فعلاً ، من الطعن فيهم ، وفي دينهم ، وكتابهم ورسولهم ، ومخالفتهم ، وحربهم وتشتيتهم والإساءة إليهم ، وكل ذلك من الابتلاء لتظهر تقوى المؤمنين وصبرهم ، وليوطنوا أنفسهم على وقوع ذلك من أعداء الله فيستعدوا له طائعين منقادين (١) .

القرآن : ١٧٣/٢ - ١٧٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢٩٤/١ . تفسير أبي السعود : ١٨٠/١ - ١٨١ . روح المعاني :

٢٣-٢٢/٢ . محاسن التأويل : ٣٢٥-٣٢٩ .

وقد ذكر (رحمه الله) فوائد الابتلاء بالمصائب والحن وحكمها ملخصاً لها من كلام الإمام عز الدين محمد بن عبدالسلام .. وأنا أشير لك إلى ما ذكر مختصراً لنعم الفائدة . وهي :

- | | |
|---|---|
| ١/ معرفة عز الربوبية وقهرها . | ٢/ معرفة ذل العبودية وكسرها . |
| ٣/ الإخلاص لله تعالى . | ٤/ الإنابة إلى الله والإقبال عليه . |
| ٥/ التضرع والدعاء . | ٦/ الحلم ممن صدرت منه . |
| ٧/ العفو عن جانيها . | ٨/ الصبر عليها . |
| ٩/ الفرح بها لأجل فوائدها . | ١٠/ الشكر عليها . |
| ١١/ تمحيصها للذنوب والخطايا . | ١٢/ رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلوهم . |
| ١٣/ معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها . | ١٤/ ما أعد على هذه الفوائد من ثواب أحروي . |
| ١٥/ ما في طيها من الفوائد الخفية . | ١٦/ أنها تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر . |
| ١٧/ الرضا الموجب لرضوان الله . | * انظر : محاسن التأويل : ٣٢٩-٣٣٩ . |

(١) انظر في معنى الآية : جامع البيان : ٤٥٤-٤٥٥ " طبعة شاكر " . الكشف : ٤٨٦/١ " طبعة الخلي " .
المحرر الوجيز : ٤٤٨-٤٤٩ . التفسير الكبير : ١٢٧-١٢٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٣/٤ .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

"إنَّ البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام . فإنَّه إمَّا أن يكون في نفسه ، أو في ماله ، أو في عرضه ، أو في أهله ومن يحب . والذي في نفسه قد يكون بتلفها تارة ، وبتألمها بدون التلف . فهذا مجموع ما يبتيلى به العبد في الله . وأشدُّ هذه الأقسام : المصيبة في النفس " (١) .

والمصائب بخلاف النعم ، فإنَّ النعم إمَّا تكون من فضل الله ومنه ، وأمَّا المصائب إمَّا تكون بسبب الذنوب والمعاصي ، إمَّا بترك واجب أو فعل محرّم ، وكلّ ذلك لا يخرج عن نطاق الابتلاء .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [٧٨-٧٩] .

مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩] .

الذي عليه عامة المفسرين أن المراد بالحسنة والسيئة : النعم والمصائب . فبين الله عزّ وجلّ أنّ الكفّار والمنافقين كانوا إذا أصابتهم نعمة كخصب ورزق من ثمار وأولاد ونتاج وغير ذلك قالوا : هذا من الله لما علم فينا من الخير . وإذا أصابتهم مصيبة كقحط وجذب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد ونتاج وغير ذلك قالوا : هذا من عند محمد بسبب الدين الذي جاء به ، تشاؤماً وتطيّراً. (٢)

تفسير القرآن العظيم : ٦٥٣/١ . تفسير أبي السعود : ١٢٣/٢-١٢٤ . روح المعاني : ١٤٧/٤-١٤٨ . محاسن

التأويل : ١٠٦٠/٤-١٠٦١ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٢٧ .

(١) إغاثة اللّهفان : ١٩٣/٢-١٩٤ .

(٢) التّطير : من قولك تطيّرت من الشيء وبالشيء . والاسم منه الطّيرة . بكسر الطاء وفتح الياء . مثال العنبة . وقد تُسكّن الياء . وهو ما يُنشأ به من الفأل الرديء . وأصله فيما يقال : التّطيرُ بالسّوانح والبوارح من الطّباء والطّير وغيرهما . وكان ذلك يصدّهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه ، وأخبر أنّه ليس له تأثير في جلب نفع ولا دفع ضرر . انظر : لسان العرب : ٥١٢/٤ . وانظر : مختار الصحاح : ص : ٤٠٢ . القاموس المحيط : ص : ٥٥٥ .

كما قال تعالى عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣١] . وعن قوم صالح : ﴿ قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَّيَّرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النمل: ٤٧] .

وتلك عادة في الكفار يضيفون ما أصابهم من المصائب إلى فعل أهل الإيمان . فبين الله لرسوله ﷺ أن ما أصابه من نعمة ونقمة كل ذلك من عند الله تعالى خلقاً وإيجاداً وتقديراً لأن الجميع بقضائه وقدره . ثم بين له أن ما أصابه من نعمة ورخاء وعافية وسلامة فمن فضل الله ونعمته وكرمه ومنه عليه ، وما أصابه من مصيبة وشدة ومشقة وأذى ومكروه فبسبب ذنبه وما كسبته يده ، وإن كان مقدراً عليه . والخطاب للنبي ﷺ والمراد جنس الإنسان .

قال أبو صالح (رحمه الله) ^(١) . عن ما أصاب العبد من المصائب :
" بذنبك وأنا قدرتها عليك " ^(٢)

(١) أبو صالح : هو ذكوان السمان أو الزيات التميمي الغطفاني. المدني الكوفي. مولى جويرية بنت الأحمس. تابعي. ثقة ثبت. مات سنة ١٠١هـ.

وانظر: الطبقات الكبرى: ٣٠١/٥ . ٢٢٦/٦ . طبقات خليفة: ص: ٢٤٨ . التاريخ الكبير: ٢٦٠/٣ . معرفة الثقات: ٣٤٥/١ . الجرح والتعديل: ٤٥٠/٣ . ثقات ابن حبان: ٢٢١/٤ . مشاهير علماء الأمصار: ٧٥/١ . التعديل والتجريح: ٥٦٨/٢ . تهذيب الكمال: ٥١٣/٨ . تذكرة الحفاظ: ٨٩/١ . الكاشف: ٣٨٦/١ . جامع التحصيل: ص: ١٧٤ . تهذيب التهذيب: ١٨٩/٣ . تقريب التهذيب: ٢٠٣/١ .

(٢) جامع البيان : ٥٥٩/٨ " طبعة شاكر " . وانظر : معنى الآيات من سورة النساء في : المرجع السابق : ٥٥٦/٨ - ٥٥٩ " طبعة شاكر " . التفسير الكبير : ١٨٨/١٠ - ١٨٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٤/٥ - ٢٨٥ . تفسير القرآن العظيم : ٧٩٩/١ - ٨٠٠ . روح المعاني : ٨٨/٥ - ٩٠ . محاسن التأويل : ١٤٠٢/٥ - ١٤٠٥ . مجموع الفتاوى : ١١٢/٨ - ١١٤ . وانظر : ١٦٢/٨ - ١٦٣ .

فَالنَّعَمُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَالْمَصَائِبُ بِسَبَبِ الذَّنُوبِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ

مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وَقَالَ : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ

الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

وَقَالَ : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦].

وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ الْمَصَائِبِ وَرَتَّبَ وَقُوعَهَا عَلَى فِعْلِ بَعْضِ الذَّنُوبِ ،

وَمَعَ ذَلِكَ لَا تَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهَا ابْتِلَاءً .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ : أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ :

" يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرِ

الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطَّ ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فُشِيَ فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ

مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضُوا . وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ

وَشِدَّةِ الْمُنُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ . وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَنَعُوا الْقَطْرَ مِنْ

السَّمَاءِ ، وَلَوْ لَا الْبِهَائِمُ لَمْ يَمْطُرُوا . وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بِبَعْضِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ . وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أُمَمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ

وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهَمِ بَيْنَهُمْ " (١) . وَهَذَا الْحَدِيثُ يُؤَكِّدُ

مَا سَبَقَ . وَفِيهِ تَحْذِيرٌ مِنَ الْوُقُوعِ فِي هَذِهِ الذَّنُوبِ الْجَالِبَةِ لَتِلْكَ الْمَصَائِبِ .

فَإِبْتِلَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ لَهُ حُكْمٌ كَثِيرَةٌ يَضِيقُ هَذَا الْمَقَامُ عَنْ ذِكْرِهَا .

وَقَدْ يَجْهَلُ الْعَبْدُ كَثِيرًا مِنْ حَقَائِقِ الْإِبْتِلَاءِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ جَمَّةٍ

وَفَوَائِدِ عَدَّةٍ .

(١) سبق تخريجه. انظر: ص: ١٤٦ .

يقول الإمام ابن القيم (رحمه الله) :

" من تمام رحمة أرحم الراحمين : تسليط أنواع البلاء على العبد ، فإنّه أعلم بمصلحته ، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به ، لكنّ العبد لجهله وظلمه يتّهم ربّه بابتلائه ، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه ... فمن رحمته سبحانه بعباده ابتلاؤهم بالأوامر والنّواهي رحمة وحمية ، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به فهو الغني الحميد ، ولا بخلاً منه عليهم بما نهاهم عنه فهو الجّواد الكريم .

ومن رحمته أن نغصّ عليهم الدّنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها ، ولا يطمئنّوا إليها ، ويرغبوا في النّعيم المقيم في داره وجواره ، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان ، فمنعهم ليعطيهم ، وابتلاهم ليعافيهم ، وأماتهم ليحييهم " (١) .
وهذه عبارات ضافية ، وكلمات قيّمة ذيلت بها هذه الجزئيّة لعظيم وقعها على النّفس ، وكبير أثرها على الحس . ألا رحم الله ابن القيم وأجزل له عظيم المثوبة .

(١) إغاثة اللّهُفان : ١٧٤/٢ - ١٧٥ .

الفصل الرابع

عوامل الثبات عند الابتلاء

فيه تمهيد ومباحث:

التمهيد

الابتلاء يظهر حقيقة الإيمان

إنَّ الله عزَّ وجلَّ يبْتَلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ليظهر حقيقة إيمانهم ، ويتبين صدق الصادق من كذب الكاذب ، وتلك سنة الله في عباده المؤمنين السابقين واللاحقين ، فإنه يمتحنهم بأنواع المحن والبلايا ليظهر ثباتهم على الإيمان ورسوخ أقدامهم فيه . وينكشف الكاذب في دعواه وزعمه ، فيبان عواره وتبدو حقيقته للعيان .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ العنكبوت: ١-٣ ﴾ .

قال الزمخشري :

" أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على أسنتهم وأظهروا القول بالإيمان : أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ؟ بل يمتحنهم الله بضروب المحن ، حتى يبلو صبرهم ، وثبات أقدامهم ، وصحة عقائدهم ، ونصوح نيّاتهم ، ليتميز المخلص من

غير المخلص ، والرأسخ في الدين من المضطرب ، والتمكّن من العابد على حرف " (١) .

ولذلك أنكر الله على قوم من المكذّبين الذين يدّعون الإيمان بالسنتهم ، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم ، فإذا جاءتهم محنة وبلاء اعتقدوا أن ذلك من عذاب الله ونقمته بهم ، فارتدّوا عن الإسلام (٢) .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي آلِهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠] .

روى ابن جرير (رحمه الله) بسنده إلى مجاهد (رحمه الله) أنه قال :
" أناس يؤمنون بالسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم افتتوا فجعلوا ذلك في الدنيا كعذاب الله في الآخرة " .
وروى نحوه عن ابن عباس (رضي الله عنهما) والضحاك (٣) وابن زيد (رحمهما الله) (٤) .

(١) الكشاف : ٣/٣٤٥ . " طبة الاستقامة " . وانظر : جامع البيان : ٢٠/١٢٨-١٢٩ . " طبة الحلي " . معاني القرآن للزجاج : ٤/١٥٩-١٦٠ . الجامع لأحكام القرآن : ٣/٣٢٤ . تفسير القرآن العظيم : ٣/٦٤٤ . محاسن التأويل : ١٣/٤٧٣٦-٤٧٣٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٣/٦٤٦-٦٤٧ " بتصرف يسير " .

(٣) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي . أبو القاسم أو أبو محمد . الخرساني . اعتنى بعلم القرآن مع لزوم الورع . لم يسمع التفسير من ابن عباس على الراجح وإنما أخذه عن سعيد بن جبير . صدوق كثير الإرسال . قيل : لم يثبت له سماع من أحد من الصحابة . مات سنة ١٠٥هـ .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٦/٣٠٠ . طبقات خليفة : ص : ٣١١ . التاريخ الكبير : ٤/٣٣٢ . الضعفاء الكبير : ٢/٢١٨ . ثقات ابن حبان : ٦/٤٨٠ . مشاهير علماء الأمصار : ١/١٩٤ . الكامل في الضعفاء : ٤/٩٥ . تهذيب الكمال : ١٣/٢٩١ . الكاشف : ١/٥٠٩ . جامع التحصيل : ص : ١٩٩ . تهذيب التهذيب : ٤/٣٩٧ . تقريب التهذيب : ١/٢٨٠ .

لسان الميزان : ٧/٢٤٩

(٤) جامع البيان : ٢٠/١٣٢-١٣٣ . " طبة الحلي " .

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

فهؤلاء لا يثبت إيمانهم عند الشدائد ، ولا يستقر عند المحن ، وإنما ارتبط إيمانهم بمصالح الدنيا العاجلة ، فإذا فقدوها فقدوا الإيمان .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" إنَّ المكلفين بعد إرسال الرّسل إليهم بين أمرين : إمّا أن يقول أحدهم آمنت ، وإمّا أن لا يقول بل يستمر على السيئات . فمن قال آمناً امتحنه الرّب تعالى وابتلاه لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه ، وثباته عليه ، وإنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط ، بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء . ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربّه تعالى ويفوته ، بل هو في قبضته ، وناصيته بيده ، فله من البلاء أعظم ممّا ابتلى به من قال آمنت " (١) .

وقال (رحمه الله) في موطن آخر :

" فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محلّ الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة ، وأمّا إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين ، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية " (٢) .

فالله سبحانه قد ابتلى من سبق من الرّسل والمؤمنين بما كلفهم به وبأنواع البلايا والمحن ، فأصابتهم الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والشدائد والنوائب وأذى أعداء الله ، وبلغ بهم الجهد مبلغه ، والشدّة منتهاها ، وأزعجوا إزعاجاً عظيماً ، وحركوا بالتخويف ، والرّعب ، حتّى استبطئوا النصر من الله تعالى مع تيقّنهم بوقوعه ، ولكن استعجلوه لما بلغ بهم من الشدّة والعنت وطول البلاء وضيق الحال ، ومع ذلك ثبتوا على إيمانهم ثبات الجبال الشامخة ، وظلّوا متمسكين بدينهم

(١) شفاء العليل : ص : ٢٤٥ . وانظر : إغاثة اللّهفان : ١٩٢/٢ . الفوائد : ص : ٢٠٨ .

(٢) طريق المحرّتين : ص : ٤١٧ .

فلم ينحرفوا ولم ينحرفوا حتّى أظلم لهم الله بنصره . ﴿ آيَاتِ نَصْرِ اللَّهِ

قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] . وهذه سنته في عباده المؤمنين التي لا تتبدل ولا تتغير .

فمن كان مؤمناً فليوطن نفسه على الابتلاء فإنّه واقع به ولا شك .

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ

خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِتَى نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] ^(١)

وفي الآية دعوة إلى التّأسي . ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ

وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] .

وفي معناه حديث خباب بن الارت رضي الله عنه قال : " شكونا إلى رسول الله ﷺ

وهو متوسد برُدة ^(٢) له في ظلّ الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال :

" قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيؤتى بالمنشار

فيوضع على رأسه فيجعل بنصفين ، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد فيما دون عظمه ولحمه

فما يصرفه ذلك عن دينه ، والله ليُتِمِّنَ الله هذا الأمر حتّى يسير الرّاكب من

(١) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٢٨٨/٤ " طبعة شاكر " . الكشف : ٣٥٥/١-٣٥٦ " طبعة الحلبي " .

التفسير الكبير : ٢١-١٩/٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٥-٣٤/٣ . تفسير القرآن العظيم : ٣٧٧-٣٧٦/١ .

تفسير أبي السعود : ٢١٥/١ . روح المعاني : ١٠٤/٢ . محاسن التأويل : ٥٢٩/٣-٥٣٠ . تيسير الكريم الرحمن :

ص : ٢١٤ .

(٢) بردة : البردة الشّملة المخططة . وقيل كساء أسود مُرَبَّع فيه صور تُلبسه الأعراب ، وجمعها برْدُ . النهاية في غريب

الحديث : ١١٦/١ .

صَنَعَاءَ ^(١) إِلَى حَضْرَمَوْتَ ^(٢) لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ ^(٣) .

وفي رواية : " وهو متوسد بردة ، وهو في ظلّ الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ^(٤) .

يقول سيّد قطب (رحمه الله) في كلمة قيّمة ضافية حول معنى الآية ^(٥) ، أقتطع منها - بلفظها - ما يناسب المقام لفائدتها :

" هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى ، وهكذا وجهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها ، وإلى سنته سبحانه في تربية عباده المختارين ، الذين يكلّ إليهم رايته ، وينوط بهم أمانته في الأرض ومنهجه وشريعته . وهو خطاب مطّرد لكلّ من يختار لهذا الدور العظيم .

(١) صنعاء : مدينة باليمن معروفة . كان أوّل من نزلها صنعاء بن أزال بن يعبر بن عابر فسُمّيت به . وقيل : إنّ الحبيشة لما دخلتها فرأى مبنية بالحجارة قالوا : صنعة صنعة . وتفسيره بلسانهم : حصينة ، فسُمّيت بذلك . قال الحمداي : " وقد كانت في الجاهلية تسمّى أزال " . قال : " وأوّل من نزلها وأسس قصبتها غمدان بن سام بن نوح فيها تعرف ذريته " . معجم ما استعجم : ٨٤٣/٣ . وقد أطلّ ياقوت الحموي في ذكرها والحديث عنها . انظر : معجم البلدان : ٤٢٥/٣ - ٤٢٩ . وهي عاصمة جمهورية اليمن اليوم .

(٢) حضرموت : بالفتح ثمّ السكون وفتح الرّاء والميم اسمان مركبان . والتّسبة إليها حضرمي . والتّصغير حُضْرَمَوْتَ تصغير الصّدر منهما ، وكذلك الجمع . يقال : فلان من الحضارمة مثل المهالبة . وقيل : سمّيت بحاضر مَيّت وهو أوّل من نزلها ، ثمّ خفف بإسقاط الألف . وقال أبو عبيدة : " حضرموت بن قحطان نزل هذا المكان فسُمّي به فهو اسم موضع واسم قبيلة " . وهي ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر ، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف ، وبها قبر هود عليه السّلام . معجم البلدان : ٢٦٩/٢ - ٢٧٠ . وانظر : معجم ما استعجم : ٤٥٥/١ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النّبوة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٦١٢). ص: ٧٦٠. وفي كتاب مناقب الأنصار: (٣٧/٦٣). باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة: (٨٩/٢٩). برقم: (٣٨٥٢). ص: ٨٠٥. وفي كتاب الإكراه: (٦٤/٨٩). باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر: (٢/١). برقم: (٦٩٤٣). ص: ١٤٦٦.

وأما اللفظ أعلاه فهو في : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: في باب ذكر الإخبار عن أمن الناس عند ظهور الإسلام في جزائر العرب. برقم: (٦٦٩٨). ٩١/١٥.

(٤) هذه الرواية أوردها البخاري بلفظها ضمن روايته. في كتاب مناقب الأنصار. الموطن السابق.

(٥) أي آية سورة البقرة السابقة .

وإنّها لتجربة عميقة جليّة مرهوبة . إنّ هذا السؤال من الرّسول والّذين آمنوا معه ، من الرّسول الموصول باللّهِ ، والمؤمنين الّذين آمنوا باللّهِ . إنّ سؤالهم ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ ؟ ليصوّر مدى المحنة الّتي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة . ولن تكون إلّا محنة فوق الوصف ، تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب . فتبعث منها ذلك السؤال المكروب : ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ ؟ .

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة ، عندئذ تتمّ كلمة اللّهِ ،
ويجيء النّصر من اللّهِ : ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ .

إنّه مدّخر لمن يستحقّونه ، ولن يستحقّه إلّا الّذين يثبتون حتّى النّهاية ، الّذين يثبتون على البأساء والضّرّاء ، الّذين يصمدون للزلزلة ، الّذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة ، الّذين يستيقنون أن لا نصر إلّا نصر اللّهِ ، وعندما يشاء اللّهِ ، وحتّى حين تبلغ المحنة ذروتها ، فهم يتطلّعون فحسب إلى نصر اللّهِ لا إلى أي حلّ آخر ، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند اللّهِ ، ولا نصر إلّا من عند اللّهِ " (١) .

والابتلاء يمحّص قلوب أهل الإيمان ، ويخلصها من الشوائب المنافية للإيمان وينقيها ويهذبها ، ويصهر ما فيها من أدران الزيف والرياء والشك والذنوب ، فيرتبط أصحابها برّبهم في الشدّة والرخاء ، وعند المصائب والنعم ، فلا تستزلزل أقدامهم ، ولا تتهاوى قوّتهم ، ولا يضعف جنانهم ، فهم أكثر النّاس طاعة ، وأسرع النّاس استجابة ، وأمثلهم انصياعاً ، وأثبتهم أقداماً .

قال تعالى : ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] (٢) .

(١) في ظلال القرآن : ٢١٨/١ - ٢١٩ .

(٢) الآية في سياق غزوة أحد . وانظر معناها في : جامع البيان : ٣٢٤/٧ - ٣٢٥ " طبعة شاكر " . الكشف :

٤٧٣/١ " طبعة الحلبي " . تفسير القرآن العظيم : ٦٢٧/١ . تفسير أبي السّعود : ١٠٢/٢ . روح المعاني :

٩٧/٤ - ٩٨ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٢١ . في ظلال القرآن : ٤٩٧/١ .

فالابتلاء كير العبد ، ومحك إيمانه ، يتمحص به كما يتمحص الذهب بالنار لينصع
طيبه ويذوب خبثه ، فيخرج تبراً أحمر يثبت في مواطن الثبات ويرسو عند عظام
البلايا (١) . وهنالك عوامل تدفع للثبات عند الابتلاء متى ما تمسك المؤمن بها وجد
فيها إعانة على الثبات ، أتاولها في المباحث الآتية :

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ٢٥٤/١٤ - ٢٥٥ . طريق المحرتين : ص : ٤١٧ . زاد المعاد : ٢٣٧/٣ - ٢٣٨ .

المبحث الأول

عامل الثبات عند الابتلاء بالتكليف

إنما يثبت المؤمن عند التكليف إذا أطاع أمر الله ورسوله ، وانصاع انصياعاً كاملاً لذلك ، وانقاد انقياداً تاماً له ، واجتنب ما نهى الله عنه ورسوله ، وابتعد عنه كل البعد ، وحذر من الوقوع فيه .

قال المولى سبحانه في شأن الطاعات: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيْتًا ﴾ [النساء: ٦٦] .

قال ابن جرير (رحمه الله):

" ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ يعني: ما يذكرون به من طاعة الله والانتهاء إلى أمره . ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ في عاجل دنياهم وآجل معادهم . ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيْتًا ﴾ وأثبت لهم في أمورهم ، وأقوم لهم عليها " (١) .

وقال أبو السعود (رحمه الله):

" ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ من متابعة الرسول وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به ظاهراً وباطناً . وسميت أوامر الله تعالى ونواهيها مواعظ لاقترانهما بالوعد والوعيد . ﴿ لَكَانَ ﴾ أي فعلهم ذلك . ﴿ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ عاجلاً وآجلاً ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيْتًا ﴾ لهم على الإيمان ، وأبعد من الاضطراب فيه . ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيْتًا ﴾ لثواب أعمالهم " (٢) .

(١) جامع البيان: ٥ / ١٦١ . " طبعة دار الفكر " .

(٢) تفسير أبي السعود: ١٩٨ / ٢ .

وقال السَّعدي (رحمه الله) :

" فَإِنَّ اللَّهَ يَثْبُتُ الَّذِينَ آمَنُوا بِسَبَبِ مَا قَامُوا بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ ، الَّذِي هُوَ الْقِيَامُ بِمَا وَعَظُوا بِهِ ، فَيَثْبُتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عِنْدَ وَرُودِ الْفِتَنِ فِي الْأُمُورِ وَالنَّوَاهِيِ وَالْمَصَائِبِ ، فَيَحْصِلُ لَهُمْ ثَبَاتٌ يَوْفَقُونَ بِهِ لِفِعْلِ الْأُمُورِ وَتَرْكِ الزَّوْاجِرِ الَّتِي تَقْتَضِي النَّفْسُ فِعْلَهَا ، وَعِنْدَ حُلُولِ الْمَصَائِبِ الَّتِي يَكْرَهُهَا الْعَبْدُ ، فَيُفَوِّقُ لِلتَّثْبِيتِ بِالتَّوْفِيقِ لِلصَّبْرِ أَوْ لِلرَّضَا أَوْ لِلشُّكْرِ . فَيَنْزِلُ عَلَيْهِ مَعُونَةٌ مِنَ اللَّهِ لِلْقِيَامِ بِذَلِكَ ، وَيَحْصِلُ لَهُ الثَّبَاتُ عَلَى الدِّينِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَفِي الْقَبْرِ . وَأَيْضاً فَإِنَّ الْعَبْدَ الْقَائِمَ بِمَا أَمَرَ بِهِ لَا يَزَالُ يَتِمَرَّنَ عَلَى الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ حَتَّى يَأْلَفَهَا ، وَيَشْتَاقَ إِلَيْهَا وَإِلَى أَمْثَالِهَا ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَعُونَةً لَهُ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى الطَّاعَاتِ " (١) .

وروى ابن جرير بسنده إلى أبي إسحاق السَّيِّعِي (٢) قال :

" لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ قَالَ رَجُلٌ : لَوْ أَمَرْنَا لَفَعَلْنَا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانَا ! فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : " إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لَرَجَالاً ، الْإِيمَانُ أَثْبَتُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي " (٣) .

(١) تيسير الكريم الرحمن: ص: ١٥٠ . وانظر: معالم التنزيل: للحسين بن مسعود الفراء البغوي . طبعة دار المعرفة . بيروت . الطبعة الثانية : ١٤٠٧ هـ — ١٩٨٧ م . تحقيق : خالد العك — مروان سوار : ٤٤٩/١ . الجامع لأحكام القرآن: ٢٧٠/٥ . تفسير القرآن العظيم: ٧٩٠/١ — ٧٩١ . فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير . لحمّد بن عليّ الشوكاني . طبعة دار الفكر . بيروت : ٤٨٥/١ .

(٢) هو عمرو بن عبد الله الحمداني الكوفي أبو إسحاق السَّيِّعِي . مشهور بكنيته . ثقة مكثر عابد حافظ . من أوعية العلم . سمع ثمانية وثلاثين صحابياً . مشهور بالتدليس ، واختلط بآخرة . توفي سنة : ١٢٩ هـ . وقيل قبل ذلك . وانظر: الطبقات الكبرى: ٣١٣/٦ . التاريخ الكبير: ٣٤٧/٦ . معرفة الثقات: ١٧٩/٢ . الجرح والتعديل: ٢٤٢/٦ . ثقات ابن حبان: ١٧٧/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ١١١/١ . التعديل والتجريح: ٩٧٦/٣ . تهذيب الكمال: ١٠٢/٢٢ . تذكرة الحفاظ: ١١٤/١ . الكاشف: ٨٢/٢ . جامع التحصيل: ص: ٢٤٥ . التبيين لأسماء المدلسين: ص: ١٦٠ . تهذيب التهذيب: ٥٦/٨ . تقريب التهذيب: ٤٢٣/١ . لسان الميزان: ٣٢٦/٧ . ٤٥١ .

(٣) جامع البيان: ١٦٠ — ١٦١ . " طبعة دار الفكر " .

وقال سبحانه في الإنفاق في سبيله وهو من أجل الطاعات: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥].

قال ابن جرير (رحمه الله):

" يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ فيصدقون بها، ويحملون عليها في سبيل الله، ويقوون بها أهل الحاجة من الغزاة والمجاهدين في سبيل الله، وفي غير ذلك من طاعات الله و طلب مرضاته. يعني بذلك: "وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ" يعني: لهم على إنفاق ذلك في طاعة الله وتحقيقاً، من قول القائل: ثبتت فلاناً في هذا الأمر - إذا صححت عزمه، وحققت، وقويت فيه رأيه - أثبتته تثبيتاً، كما قال ابن رواحة:

فثبتت الله ما آتاك من حسن تثبتت موسى، ونصراً كالذي نصرنا
وإنما عنى الله جل وعزّ بذلك: أن أنفسهم كانت موقنة مصدقة بوعد الله إياها فيما أنفقت في طاعته بغير من ولا أذى، فثبتت في إنفاق أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وصحّ عزمهم وآراءهم يقيناً منها بذلك، وتصديقاً بوعد الله إياها ما وعداها. ولذلك قال من قال من أهل التأويل في قوله: ﴿وَتَثْبِيتًا﴾: وتصديقاً، ومن قال منهم: ويقيناً. لأن تثبتت أنفس المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله إياهم إنما كان

ذكر السيوطي أن ذلك القول صدر من جماعة من الصحابة سُمي منهم أبا بكر الصديق وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن رواحة وغيرهم ٢٢٢ جميعاً. انظر: الدر المنثور: لجلال الدين السيوطي. طبعة دار الفكر. بيروت. سنة الطبع: ١٩٩٣ م: ٥٨٧/٢ - ٥٨٨.

روى الربيع بن حبيب بسنده إلى جابر بن زيد ٢٢٣ عن النبي ﷺ قال: " الإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبل الرواسي على قرارها ". مسند الربيع: تحقيق: محمد إدريس. عاشور بن يوسف. طبعة: دار الحكمة بيروت. مكتبة الاستقامة. سلطنة عُمان. الطبعة الأولى: ١٤١٥ هـ. ص: ٣٧٧. برقم: (٩٩٥). وهذا شاهد لرواية أبي إسحاق (رحمه الله).

عن يقين منها وتصديق بوعد الله...عن الشعبي: ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ قال:
وتصديقاً من أنفسهم ، ثبات ونصرة " (١).

كما بين سبحانه أن ارتكاب المعاصي يزيح عن الثبات ، ويجرف عن
الاستقامة ، ويوقع في الزلل والاضطراب والحيرة. فقال: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ
دَخْلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحل: ٩٤].

قال ابن كثير (رحمه الله):

" حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً أي خديعة ومكراً لئلا تزل قدم بعد
ثبوتها، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها ، وزلّ عن طريق الهدى بسبب
الأيمان الحائثة المشتملة على الصّدّ عن سبيل الله ، لأنّ الكافر إذا رأى أنّ المؤمن
قد عاهده ثمّ غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فانصدّ بسببه عن الدخول في الإسلام ،
ولهذا قال ﴿ وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴾ " (٢).

وقال الشوكاني (رحمه الله):

" ومعنى ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ فتزلّ قدم من اتخذ يمينه دخلاً عن
محبة الحقّ بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها. قيل: وأفرد القدم للإيذان بأنّ زلّ قدم
واحد أي قدم كانت عزّت أو هانت محذور عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة؟ وهذا
استعارة للمستقيم الحال يقع في شرّ عظيم ويسقط فيه ، لأنّ القدم إذا زلّت نقلت
الإنسان من حال خير إلى حال شرّ ، ويقال لمن أخطأ في شيء زلّت به قدمه" (٣).

(١) جامع البيان: ٦٩/٣. "طبعة دار الفكر". وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣١٤-٣١٧. تفسير القرآن العظيم:

٤٧٦/١. فتح القدير: ٢٨٥/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٩٠٧/٢.

(٣) فتح القدير: ١٩١/٣. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٧٢/١٠. تيسير الكريم الرحمن: ص: ٤٠٠.

فترك الطّاعات وارتكاب المعاصي يزلق السّالك عن الثّبات على الحقّ ،
ويرديه في أودية المهالك ، فيصبح أمره في سفال ، وشأنه في وبال ، فلا يستقيم
أمره، ولا يصلح حاله. وإنّما الثّبات يكمن في قيامه بما أمره الله به ، وتجنّبه لما
نهاه عنه.

المبحث الثاني

عوامل الثبات عند الابتلاء بالنعم

إنما يثبت العبد عند النعم حين يبتليه الله بها إذا شكر الله عليها . لأن حقيقة الشكر هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافاً ، وعلى قلبه شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة . إذ الشكر قيد النعم الموجودة ، وصيد النعم المفقودة (١) .

ولذا قرنه الله بالنعم في آيات كثر . فقال سبحانه : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢] .

وقال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١] .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] .

ويعينه على شكرها أن يديم تذكرها عليه ، فيعند الحالة به ولا ينس السالفة عنه ، وليعلم أنها نعم زائلة لا بقاء لها ولا استقرار ، ومع ذلك هي مكثرة بما يعقبها من أزداد .

قال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١] .

(١) انظر : مدارج السالكين : ٢٤٤/٢ - ٢٤٥

قال السَّعْدِي (رحمه الله) :

" وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية ، أي : أثن على الله بها ، وخصّها بالذكر ، إن كان هناك مصلحة . وإلاّ فحدّث بنعم الله على الإطلاق ، فإنّ التحدّث بنعمة الله داع لشكرها ، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها ، فإنّ القلوب مجبولة على محبة المحسن " (١) .

ويؤيّد ما سبق قوله سبحانه ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣] .

وهذا أمر شامل لذكرها بالقلب اعترافاً ، وباللسان ثناء ، وبالجوارح انقياداً . فإنّ ذكر نعمه تعالى داع لشكره (٢) .

وينافي شكرها وذكرها أن تؤدّي بالعبد إلى الإعراض عن طاعة الله ، والتلبّس بالمعاصي ، والوقوع في الآثام .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ [الإسراء: ٨٣] .

ويقول عزّ وجلّ : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ

الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١]

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٨٥٨ .

(٢) المرجع السابق : ص : ٦٣٠ . بتصرّف يسير .

كما ينافي شكرها أن يركن العبد إليها ، ويغتر بها حتى تحمله على البطر^(١) والأشر^(٢) ، والفرح المذموم الذي لا يحبّه الله ولا يحبّ أهله .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله " ^(٣) .

ولا ينهمك في نيلها والوصول إليها بكلّ السبل ولو كانت محرّمة ، ويبالغ في استقصائها . كما يصبر على أداء حقّ الله فيها ولا يضيعه ، فإنّها تسلب منه بضيايح حقّ الله فيها ، ويصبر عن صرفها في الحرام فلا يمكّن نفسه في كلّ ما تريده منها^(٤) .

فإنّ النّعم تحتاج من العبد إلى ثبات عندها وصبر كما تحتاج إلى ذلك المصائب والنّقم ، بل لعلّ الصّبر والثّبات عند النّعم أشدّ على النّفس من الصّبر على المصيبة .

قال عبد الرّحمن بن عوف رضي الله عنه :

" ابتلينا مع رسول الله ﷺ بالضّرّاء^(٥) فصبرنا ، ثمّ ابتلينا بالسّرّاء بعده فلم نصبر " ^(٦) .

(١) البطر: هو شدّة المرح والطغيان عند التّعمة وطول الغنى . انظر: لسان العرب: ٦٩/٤ . وانظر: مختار

الصحاح: ص: ٥٥-٥٦ . القاموس المحيط: ص: ٤٤٩ .

(٢) الأشر: المرح . يقال: أشر الرجل . بالكسر . يَأْشُرُ أَشْرًا . فهو أَشِيرٌ وَأَشْرٌ وَأَشْرَانٌ: مَرَحٌ . وقيل: أَشَدُّ

البطر . انظر: لسان العرب: ٢٠/٤ .

(٣) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الزهد والرفائق : (٥٣) . برقم : (٢٩٦٣) . ٢٢٧٥/٤ .

(٤) وانظر : عدّة الصّابرين : ص : ١٠٩ .

(٥) الضّرّاء الحالة التي تضرّ وهي تقيض السّرّاء ، وهما بناءن للمؤثّ ولا مُدَكَّرَهما . يُريد إنا اختبرنا بالفقر والشّدّة

والعذاب فصبرنا عليه ، فلمّا جاءتنا السّرّاء وهي الدّنيا والسّعة والراحة بطرنا ولم نصبر .

التهاية في غريب الحديث: ٨٢/٣ .

(٦) سنن الترمذي : بلفظه في كتاب صفة القيامة: (٣٤) . باب : (٢٨) . برقم: (٢٤٦٤) . وقال: "هذا حديث

حسن" . وقال الألباني (رحمه الله): " حسن الإسناد" . ص: ٤٠٣ .

لأن الصّبر على النّعمة مقرون بالقدرة والاختيار بخلاف الصّبر على المصيبة فهي خارجة عن قدرة الإنسان واختياره .
فالمؤمن إذا قام تجاه النّعم بما سبق ذكره أعانه ذلك على الثّبات على الحقّ ، وعدم الانزلاق عنه ، ولو أعطي من النّعم ما أعطي ، ونال منها ما نال ، لأنّه علم قدر النّعم عنده ، وقدر المنعم بها ، فلا تكون سبباً يحيله عن الثّبات أو يصرفه عنه .

وانظر : دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية . تحقيق : محمّد السيّد الجليلند . طبع مطبعة التّقدّم . القاهرة .
نشر دار الأنصار . القاهرة . الطّبعة الأولى : ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م : ٢/٢٠٥-٢٠٦ . ففيه كلام قيّم عن الصّبر على النّعم .

﴿ المبحث الثالث ﴾

عوامل الثبات عند الابتلاء بالمصائب

وفيه مطالب:

﴿ المطلب الأول ﴾

ملاحظة حسن الجزاء

قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

لقد بشر الله عز وجل الصابرين الذين صبروا وثبتوا عند حلول المصائب عليهم - إذ الصبر هو قوة الثبات - بشرهم بأجر الصابرين الذين يوفون أجرهم بغير حساب . كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ﴿١﴾ ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال عز وجل : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [النحل: ٩٦].

فنالوا ذلك الأجر العظيم والثواب الجسيم بصبرهم وثباتهم عند مداهمة المصيبة لهم ، لأن ذلك هو الصبر المطلوب المرغّب فيه الذي يعظم ثوابه ، وذلك عند هجوم المصيبة وحرارتها ، لأنه يكون حينئذ شاقاً على النفس صعباً عليها ، ولا يقع إلا من أهل القلوب الثابتة والعزائم الراسخة ، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر حينئذ . ولذا قال ﷺ : " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " (١) .

(١) هذا جزء من حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه . وهو في:

فَلَمَّا ثَبَتُوا وَصَبَرُوا تَسَلَّوْا حِينَئِذٍ بِقَوْلِهِمْ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أي نحن مملوكون لله عبيد له ، وهو خالقنا ونحن تحت أمره وتصريفه ، فإن ابتلانا بشيء من المصائب فقد تصرف بعذله وحكمته فلا اعتراض عليه فيما فعل ، وسوف نرجع إليه لننال الأجر كاملاً في يوم المعاد .
فهؤلاء الذين يستحقون المغفرة من الله والرحمة ، والمدح والثناء الحسن ، والثواب الجزيل ، وهم المهتدون الذين عرفوا الحق وتشبثوا به ^(١) .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

" نعم العدلان ^(٢) ونعمة العلاوة : ﴿ أَوْلَيْتِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ فهذان العدلان ؛ ﴿ وَأَوْلَيْتِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ " فهذه العلاوة " ^(٣) .
وهي ما توضع بين العدلين وهي زيادة في الحمل فكذا هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً . ^(٤)

صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب زيارة القبور: (٣١). برقم: (١٢٨٣). ص: ٢٧٠.
و بلفظ مقارب في الكتاب السابق . باب الصبر عند الصدمة الأولى: (٤٢). برقم: (١٣٠٢). ص: ٢٧٤. وفي كتاب الأحكام: (٦٨/٩٣). باب ما ذكر أن النبي ﷺ لم يكن له بواب: (١١). برقم: (٧١٥٤). ص: ١٥٠٦.
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب الجنائز: (١١). باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى: (٨). برقم: (٩٢٦). ٦٣٧/٢.

(١) انظر معنى الآيات في : جامع البيان : ٢٢٣-٢٢١/٣ " طبعة شاكر " . الكشف : ٣٢٣/١ " طبعة الخلي " .
التفسير الكبير : ١٥٦-١٥١/٤ . الجامع لأحكام القرآن : ١٧٧-١٧٤/٢ . تفسير القرآن العظيم : ٢٩٤/١ .
تفسير أبي السعود : ١٨١-١٨٠/١ . روح المعاني : ٢٣/٢ . محاسن التأويل : ٣٢٧-٣٢٦/٢ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٥٨-٥٩ . عدة الصابرين : ص : ٥٨ . زاد المعاد : ١٨٩/٣ .

(٢) العدل : المثل والتظير . والعدلان : التماثلان . انظر : القاموس المحيط : ص : ١٣٣٢ .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٢٩٤/١ . والأثر في :
صحيح البخاري: بلفظ مقارب — معلقاً — في كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب الصبر عند الصدمة الأولى: (٤٢). ص: ٢٧٤.

سنن البيهقي: نحوه في: باب الرغبة في أن يتعزى بما أمر الله تعالى به من الصبر والاسترجاع. ٦٥/٤.
مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في : ٢٩٦/٢. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه".

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٢٩٤/١.

عن أم سلمة (رضي الله عنها) زوج النبي ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : " إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها ، إلا أجره الله في مصيبته ، وأخلف له خيراً منها " . قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ " (١) .

ففي الحديث جزاء الاسترجاع عند المصيبة لمن صبر ، وعلاوة على ذلك أن يخلف الله له خيراً مما أخذ منه ، وهو معضد لما جاء في الآيات .

قال السَّعْدِي (رحمه الله) :

" فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها ، لتخفف وتسهل إذا وقعت ، وبيان ما تقابل به إذا وقعت ، وهو الصبر ، وبيان ما يعين على الصبر ، وما للصَّابرين من الأجر ، ويعلم حال غير الصَّابرين بضدِّ حال الصَّابرين ، وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، وبيان أنواع المصائب " (٢) .

وقال سبحانه في بيان جزاء الابتلاء بالمصائب : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١] .

(١) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الجنائز: (١١). باب ما يقال عند المصيبة: (٢). برقم: (٩١٨). ٦٣٣/٢ .

وبلفظ مقارب في ٦٣٢/٢ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن : ص : ٥٩ .

فقد بيّن سبحانه وتعالى أن من خرج مجاهداً في سبيل الله ، وأصابه من أنواع المشقة ما أصابه نال الأجر العظيم والثواب الجزيل .

وقد ذكر سبحانه أنواعاً من المصائب مدلاً بها على غيرها ، وهي : العطش الشديد ، والإعياء والتعب ، والمجاعة الشديدة التي تضمر البطن ، ووضع أحدهم قدمه أو حافر فرسه في موضع يغضب الكفار ويغيظهم ، أو أسرهم لعدو أو قتله أو هزيمته . وكل ذلك يجلب المشقة والعنت ؛ وهو قربة عند الله تعالى ، وأعمال صالحة تجلب عظيم الأجر والمثوبة (١) .

وهذه المصائب وقعت آثاراً ونتيجة لعمل العبد ، وناشئة عن فعله ، ومع ذلك يثاب بالصبر عليها الثواب العظيم الذي هو أعظم من الثواب الناتج من الصبر على المصائب التي لم تقع آثاراً لأعماله كالمرض . لأن الأولى وقعت نتيجة لأفعال تمت بمراد العبد طاعة لله ومن أجل مرضاته ، وأما الثانية ف وقعت بغير مراد العبد (٢) . وأما الأحاديث التي ورد فيها إثبات الجزاء لمن ثبت عند الابتلاء بالمصائب كثيرة جداً منها :

حديث جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " يودّ أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض " (٣) .

(١) انظر معنى الآيات في : جامع البيان : ٦٤/١١ - ٦٦ . " طبعة الحلبي " . التفسير الكبير : ٢٢٤/١٦ . الجامع

لأحكام القرآن : ٢٩٠/٨ - ٢٩١ . تفسير القرآن العظيم : ٦٢٠/٢ . روح المعاني : ٤٦/١١ - ٤٧

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ١٢٢/١٠ - ١٢٤

(٣) سنن الترمذي : بلفظه في كتاب الزهد : (٣٣) . باب : (٥٩) . برقم : (٢٤٠٢) . وقال : " هذا حديث غريب لا

نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه " . وقال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٣٩٣ . وهو في السلسلة

الصحيحة : ٢٤٠/٥ . برقم : (٢٢٠٦) . ومشكاة المصابيح . لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي . تحقيق : محمد

ناصر الدين الألباني . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الثانية : ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م : ٤٩٤/١ .

برقم : (١٥٧٠) .

سنن البيهقي : بلفظ مقارب في باب ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من الصبر على جميع ما يصيبه من الأمراض

والأوجاع والأحزان لما فيها من الكفارات والدرجات . ٣٧٥/٣ .

المعجم الصغير : بلفظ مقارب في : ١٥٦/١ . برقم : (٢٤١) .

وفي الكبير نحوه موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه في : ١٥٥/٩ . برقم : (٨٧٧٧ ، ٨٧٧٨) .

وحديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط " . (١)

وحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ : " ما أحد من المسلمين يبلى ببلاء في جسده إلا أمر الله عز وجل الحفظة الذين يحفظونه : اكتبوا لعبدي مثل ما كان يعمل وهو صحيح ما دام محبوساً في وثاقي " (٢) .

كما وردت أحاديث في جزاء من ابتلي بمصائب معينة من ذلك :
حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : " إنَّ الله قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة " . يريد عينيه (٣) .

(١) سنن الترمذي : بلفظه في : كتاب الزهد : (٣٣) . باب ما جاء في الصبر على البلاء : (٥٧) . برقم : (٢٣٩٦) .

وقال : " هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه " . وقال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٣٩٣ .

سنن ابن ماجه : بلفظه — إلا أحرف يسيرة — في كتاب الفتن : (٣٦) . باب الصبر على البلاء : (٢٣) . برقم :

(٤٠٣١) . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٤٣٤ . وهو في : السلسلة الصحيحة : ٢٢٧/١ . برقم :

(١٤٦) . ومشكاة المصابيح : ٤٩٣/١ . برقم : (١٥٦٦) .

(٢) سنن أبي داود : بمعناه عن أبي موسى رضي الله عنه . كتاب الجنائز : (٢٠) . باب إذا كان الرجل يعمل عملاً صالحاً فشغله

عنه مرض أو سفر . برقم : (٣٠٩١) . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٣٥٠ .

سنن الدارمي : بلفظ مقارب في باب المرض كفارة . ٤٠٧/٢ .

مسند أحمد : بلفظه في : ١٩٤/٢ . قال أحمد شاكر (رحمه الله) : " إسناده صحيحان " . مسند أحمد بتحقيق أحمد

شاكر : ٦٥-٦٦/١ . برقم : (٦٨٢٥) . و بلفظ مقارب في ١٥٩/٢ . قال أحمد شاكر (رحمه الله) : " إسناده

صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر : ١٩٦-١٩٧/٩ . برقم : (٦٤٨٢) .

(٣) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب المرضى : (٤٩/٧٥) . باب فضل من ذهب بصره : (٧) . برقم : (٥٦٥٣) .

ص : ١٢٢٩ .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" والمراد بالحبيبتين المحبوتان لأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه . لما يحصل له بفقدتهما من الأسف على فوات رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به . أو شر فيجتنبه " . فتح الباري : ١١٦/١٠ . طبعة دار المعرفة .

وحديث عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ قال : " من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار " (١) .
والمراد بما سبق أن المبتلى إذا نظر إلى جزاء بلائه في الآخرة أعانه ذلك على الصبر عليه والثبات عنده .

ولذا قال ابن القيم (رحمه الله) :

" وعلى حسب ملاحظته - أي حسن الجزاء - والوثوق به ومطالعته يخفّ حمل البلاء ، لشهود العوض ، وهذا كما يخفّ على كل متحمّل مشقة عظيمة حملها ، لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها ، ولولا ذلك لتعطّلت مصالح الدنيا والآخرة ، وما أقدم أحد على تحمّل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة ، فالنفس موكلّة بحبّ العاجل ، وإنما خاصّة العقل تلمح العواقب ، ومطالعة الغايات " (٢) .

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الزكاة: (٧/٢٤). باب اتقوا النار ولو بشقّ تمرّة . والقليل من الصدقة: (٩/١٠). برقم: (١٤١٨). ص: ٢٩٩. وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب رحمة الولد وتقيله ومعاقبته: (١٨). برقم: (٥٩٩٥). ص: ١٢٨٨.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب البر والصلة والآداب: (٤٥). باب فضل الإحسان إلى البنات: (٤٦). برقم: (٢٦٢٩). ٢٠٢٧/٤.

قال ابن بطال (رحمه الله) :

" إنما ستمّاه ابتلاء لأنّ الناس يكرهون البنات . فجاء الشرع بزجرهم عن ذلك . ورغب في إبقائهن وترك قتلهنّ بما ذكر من الثواب الموعود به من أحسن إليهنّ ، وجاهد في نفسه في الصبر عليهنّ " . نقلاً عن فتح الباري : ٣٩/١٢ . وانظر : شرح النووي على مسلم : ١٧٩/١٦ .

(٢) مدارج السالكين : ١٦٦/٢ .

﴿المطلب الثاني﴾

حَطُّ الذُّنُوبِ وَتَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ

من نعم الله عزّ وجلّ على عباده المؤمنين ورحمته بهم أن جعل ما يصيبهم من المصائب والشّدائد مكفّراً لما وقع منهم من معاصي وذنوب .
والمراد بتكفير الذُّنُوب هو سترها ، أو محو أثرها المترتّب عليها من استحقاق العقوبة (١) .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣] .

قال ابن بطّال (رحمه الله) :

" ذهب أكثر أهل التّأويل إلى أن معنى الآية أن المسلم يجازى على خطاياهم في الدّنيا بالمصائب التي تقع له فيها فتكون كفّارة لها " (٢) .

ولذا عقد البخاري (رحمه الله) باباً في كتاب المرضي ، فقال :

" باب ما جاء في كفّارة المرض . وقوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا

يُجْزَ بِهِ ﴾ (٣) . فهو يرى أن الآية دليل على كفّارة الذُّنُوب بالمصائب .

ويؤيد ذلك ما ورد عن أبي هريرة ؓ قال : لما نزلت : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا

يُجْزَ بِهِ ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً ، فقال رسول الله ﷺ : " قاربوا

وسددوا ، ففي كلّ ما يصاب به المسلم كفّارة حتّى النّكبة يُنكَبُها (٤) ، أو الشّوكة يُشاكُها (٥) " (٦) .

(١) انظر : فتح الباري : ١٠٩/١٠ . طبعة دار المعرفة .

(٢) نقلاً عن المرجع السابق : ١٠٤/١٠ . طبعة دار المعرفة .

(٣) صحيح البخاري : ص: ١٢٢٧ .

(٤) النّكبة : هي ما يصيب الإنسان من الحوادث . التّنهاية في غريب الحديث : ١١٣/٥ .

(٥) أي أصابته شوكة في جسده ودخلت فيه . انظر : لسان العرب : ٤٥٣/١٠ .

(٦) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥) باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن

أو نحو ذلك حتّى الشّوكة يشاكها : (١٤) : برقم (٢٥٧٤) . ١٩٩٣/٤ .

وقد ورد كثير من الأحاديث التي تفيد تكفير الذنوب بالابتلاء بالمصائب ، من ذلك :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " ما يصيب المسلم من نصب ^(١) ولا وصب ^(٢) ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها " ^(٣) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها " ^(٤) .

(١) النَّصَبُ : التَّعَبُ . وقد نَصَبَ يَنْصِبُ ونَصَبَهُ غَيْرُهُ وأنصَبَهُ . النهاية في غريب الحديث : ٦٢/٥ .

(٢) الوَصَبُ : دَوَامُ الوجع وكُرومه . وقد يطلق على التعب والفتور في البدن .

انظر : المرجع السابق : ١٨٩/٥ .

(٣) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب المرضى : (٤٩/٧٥) . باب ما جاء في كفارة المرض وقول الله تعالى :

﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣] : (١) . برقم : (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) . ص : ١٢٢٧ .

صحيح مسلم : نحوه في : كتاب البر والصلة والآداب : (٤٥) . باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن

أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها : (١٤) . برقم : (٢٥٧٣) : ٤/١٩٩٢-١٩٩٣ .

(٤) صحيح البخاري : بلفظه إلا أحرف يسيرة في : كتاب المرضى (٤٩/٧٥) : باب وضع اليد على المريض : (١٣) .

برقم : (٥٦٦٠) . ص : ١٢٣١ . وفي باب قول المريض : إني وجع . أو وأرأساه . أو اشتد بي الوجع : (١٦) .

برقم : (٥٦٦٧) . ص : ١٢٣٢ . ونحوه في : باب شدة المرض : (٢) . برقم : (٥٦٤٧) . ص : ١٢٢٨ . وفي باب أشد

الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول : (٣) . برقم : (٥٦٤٨) . ص : ١٢٢٨ . وفي باب ما يقال للمريض ويوجب :

(١٤) . برقم : (٥٦٦١) . ص : ١٢٢٩ .

صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب البر والصلة والآداب : (٤٥) . باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن

أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها : (١٤) . برقم : (٢٥٧١) : ٤/١٩٩١ .

قال العيني (رحمه الله) :

" حاصل المعنى أن المرض إذا اشتد ضاعف الأجر ، ثم زاد عليه بعد ذلك أن المضاعفة تنتهي إلى أن تحط

السيئات كلها " . عمدة القارئ : ٢١/٢١٢ .

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما من مسلم يُشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة " (١) .

وعن يحيى بن سعيد (رحمه الله) (٢) أن رجلاً جاءه الموت في زمان رسول الله ﷺ ، فقال رجل : هنيئاً له ، مات ولم يُبتل بمرض ، فقال رسول الله ﷺ : " ويحك ، وما يدريك لو أن الله ابتلاه بمرض يكفر به من سيئاته " (٣) .

فقد غبط الرجل من مات ولم يبتل بمرض ، غبطه بسلامته من الأمراض ، فأنكر عليه النبي ﷺ ذلك مبيئاً له أن إصابته بالمرض الذي يكفر سيئاته أفضل من سلامته من الأمراض مع بقاء سيئاته (٤) .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكل مؤمن ، لأن الآدمي لا ينفك غالباً من ألم بسبب مرض أو هم أو نحو ذلك مما ذكر ، وأن الأمراض والأوجاع والآلام - بدنية كانت أو قلبية - تكفر ذنوب من تقع له " (٥) .

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب البر والصلة والآداب : (٤٥). باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن

أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها : (١٤) . برقم : (٢٥٧٢) / ٤٠ / ١٩٩١ .

(٢) هو يحيى بن سعيد بن قيس بن عمرو أبو سعيد الأنصاري ، قاضي المدينة ، ثم قاضي العراق لأبي جعفر المنصور . تابعي صغير مشهور ، سمع أنس بن مالك ﷺ ، حافظ فقيه ثقة ثبت متقن ، من أهل الصلاح . مات سنة ١٤٣ هـ وقيل : بعدها .

وانظر: التاريخ الكبير: ٢٧٥/٨ . معرفة الثقات: ٣٥٢/٢ . الجرح والتعديل: ١٤٧/٩ . ثقات ابن حبان:

٥٢١/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ٨٠/١ . تهذيب الكمال: ٣٤٦/٣٠ . تذكرة الحفاظ: ١٣٧/١ . الكاشف:

٣٦٦/٢ . تهذيب التهذيب: ١٩٤/١١ . تقريب التهذيب: ٥٩١/١ .

(٣) موطأ مالك : كتاب العين : (٥٠) باب ما جاء في أجر المريض : (٣) . برقم (٨) : ٩٤٢/٢ . ورجاله ثقات .

(٤) انظر : كتاب المنتقى شرح موطأ إمام دار الهجرة . للقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي

الأندلسي . الطبعة الأولى: ١٣٣٢ هـ . مطبعة السعادة بمصر : ٢٥٩/٧

(٥) فتح الباري : ١٠٨/١٠ . طبعة دار المعرفة .

❦ وقد وقع الخلاف بين أهل العلم : هل الابتلاء بالمصائب يكفر الذنوب فقط أم يقع الأجر مع التكفير ؟ وهل الأجر يقع بمجرد حصول المصيبة أم بالصبر عليها ؟ .

نقل النووي (رحمه الله) عن القاضي عياض (رحمه الله) فيما حكاه عن بعضهم : أن المصائب تكفر الخطايا فقط ، ولا ترفع درجة ولا تكتب حسنة (١) .
ولشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) تفصيل في ذلك . فهو يرى أن المصائب التي تجري بغير اختيار العبد كالمرض وموت العزيز تكفر الخطايا فقط ، ولا يؤجر الإنسان عليها إلا بالصبر . وأمّا المصائب التي تنتج باختيار العبد كالمصائب التي تقع للمجاهد في سبيل الله بأيدي الأعداء فإنه يؤجر عليها إضافة إلى تكفير الذنوب ، وبالصبر معها يعظم أجره (٢) .

وبيّن الحافظ ابن حجر (رحمه الله) أن الأحاديث صريحة في ثبوت الأجر بمجرد حصول المصيبة ، وأمّا الصبر والرضا فقد زائد يثاب عليهما زيادة على ثواب المصيبة (٣) . ثم قال :

" والتحقق أن المصيبة كفارة لذنوب يوازيها ، وبالرضا يؤجر على ذلك ، فلن لم يكن للمصاب ذنب عوض عن ذلك من الثواب بما يوازيه " (٤) .
وهو توجيه حسن ولكن يعوزه الدليل .

والقصد هنا أن المؤمن الذي ابتلي بالمصائب إذا علم أن في ذلك تكفيراً لخطاياهم ومحواً لذنوبه أعانه ذلك على الصبر والثبات عند الابتلاء .

(١) شرح النووي : ١٢٨/١٦ - ١٢٩ . ومن يرى هذا المذهب الشيخ عز الدين بن عبد السلام (رحمه الله) . فتح الباري : ١٠ / ١٠٥ . طبعة دار المعرفة .

(٢) مجموع الفتاوى : ١٠ / ١٢٤ . ٢٥٥ / ١٤ .

(٣) انظر : فتح الباري : ١٠ / ١٠٥ . طبعة دار المعرفة . وعلى هذا القول جماهير العلماء وهو الذي ارتضاه الإمام النووي (رحمه الله) . انظر : شرح النووي على مسلم : ١٢٨/١٦ - ١٢٩ .

(٤) فتح الباري : ١٠ / ١٠٥ . طبعة دار المعرفة .

ولهذا السبب كان أهل الإيمان كثيري الابتلاء بالمصائب دون أهل الكفر والنفاق ، لأن الله سبحانه يكفر عنهم بذلك ذنوبهم ، ويحطّ عنهم خطاياهم ، ويرفع لهم درجاتهم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " مثل المؤمن كمثل الزرع ، لا تزال الرّيح تميله ، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء . ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز^(١) لا تهتز حتى تستحصد " ^(٢) .

وفي رواية : " مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفيء ورقه من حيث أتتها الرّيح تكفّنها فإذا سكنت اعتدلت . وكذلك المؤمن يكفّأ^(٣) بالبلاء . ومثل الكافر كمثل الأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء " ^(٤) .

قال الإمام النووي (رحمه الله) :

" قال العلماء : معنى الحديث أنّ المؤمن كثير الآلام في بدنه أو أهله أو ماله ، وذلك مكفر لسيئاته ورافع لدرجاته ، وأمّا الكافر فقليلها ، وإن وقع به شيء لم يكفر شيئاً من سيئاته بل يأتي بها يوم القيامة كاملة " ^(٥) .

(١) الأرز : بتسكين الرّاء ، وهو شجر معروف بالشّام ، واحداً أرزة . انظر: غريب الحديث للهروري : ١١٨/١ .

(٢) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب المرضى : (٤٩/٧٥) . باب ما جاء في كفارة المرض: (١) . برقم: (٥٦٤٣) .

عن كعب بن مالك رضي الله عنه . وبرقم: (٥٦٤٤) . عن أبي هريرة رضي الله عنه . ص: ١٢٢٧ .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠) . باب مثل المؤمن كالزّرع ومثل الكافر

كشجرة الأرز: (١٤) . برقم: (٢٨٠٩) . عن أبي هريرة رضي الله عنه . ونحوه برقم: (٢٨١٠) . عن كعب رضي الله عنه .

٢١٦٣/٤ - ٢١٦٤ .

(٣) أي يميله ويقبله . انظر: النهاية في غريب الحديث: ١٨٢/٤ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في: في كتاب التوحيد: (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى: ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ

تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] . برقم: (٧٤٦٦) . عن أبي هريرة رضي الله عنه . ص: ١٥٦٨ .

(٥) شرح النووي على مسلم : ١٥٣/١٧ .

شبه المؤمن بالخامة التي تميلها الرّيح لأنّه مُرَزَأٌ — أي مصاب من الرزيفة وهي المصيبة — في نفسه وأهله وماله

وولده ، وأمّا الكافر فمثل الأرزة التي لا تميلها الرّيح ، والكافر لا يرزأ شيئاً حتى يموت فإن رزئ لا يؤجر عليه ،

فشبه موته بالنجاع تلك حتى يلقي الله بذنوبه جمّة . غريب الحديث للهروري : ١١٨/١ . وانظر معناه في : فتح

الباري : ١٠٦/١ - ١٠٨ . طبعة دار المعرفة . عمدة القارئ : ٢٠٩/٢ - ٢١٠ .

ويؤيد هذا المعنى حديث أبي هريرة رضي الله عنه الآخر . قال : قال رسول الله ﷺ :
" ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه
خطيئة " (١) .

-
- (١) سنن الترمذي: بلفظه في: كتاب الزهد: (٣٣). باب ما جاء في الصبر على البلاء: (٥٧). برقم: (٢٣٩٩).
وقال: " هذا حديث حسن صحيح". وقال الألباني (رحمه الله): " حسن صحيح". ص: ٣٩٣. وهو في السلسلة
الصحيحة: ٣٤٩/٥ . برقم: (٢٢٨٠) .
موطأ مالك: نحوه في: كتاب الجنايز: (١٦). باب الحسنة في المصيبة: (١٣). برقم: (٤٠). ٢٣٦/١ .
سنن البيهقي: بلفظ مقارب في: باب ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من الصبر على جميع ما يصيبه: ٣٧٤/٣ .
مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢٨٧/٢ ، ٤٥٠ . وفي مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: برقم: (٧٨٤٦) ،
(٩٨١٠) . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . ٢٤٧/١٤ ، ٤٢/١٩ .
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب في: ذكر البيان بأن تواتر البلاء على المسلم قد لا تبغي عليه
سيفة يناقش عليها في العقبة . برقم: (٢٩١٣) . قال شعيب الأرنؤوط: " إسناده حسن " . ١٧٦/٧ .
وفي باب ذكر البيان بأن البلاء بالمرء قد تحط خطاياها بها . برقم: (٢٩٢٤) . ١٨٧/٧ .
مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ٤٩٧/١ . وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وله شاهد
صحيح " . وفي : ٣٥٠/٤ . وقال الذهبي (رحمه الله): " على شرط مسلم " .
مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في: ٣١٩/١٠ . برقم: (٥٩١٢) . قال المحقق: " إسناده حسن " .
وفي: ٤٠٦/١٠ . برقم: (٦٠١٢) .
وانظر معناه في : تحفة الأحوذى : ٦٧-٦٨ .

﴿المطلب الثالث﴾

الإيمان بقدر الله السابق

قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لَّكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

يخبر الله سبحانه وتعالى أن ما يصيب العباد من بلاء في الأرض ، كالقحط وقلة النباتات والثمار وغلاء الأسعار . وما يصيب الأنفس : كالأوصاب والأسقام وذهاب الأحباب ، كل ذلك بقدر الله السابق الذي قدره قبل أن يخلق الأنفس ، أو المصيبة أو الأرض أو مجموع ذلك - وهو الأحسن - حتى لا يحزن عباده بما أصابهم من النقم وفوات النعم ، ولا يفرحوا بما أعطاهم من نعم الدنيا فيتخذونها أسراً وبطراً ويفخرون بها على الناس ، فإنها كلها بقدر الله ، وكلها ذاهبة ^(١) .

وقال سبحانه : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [التغابن: ١١].

يبين الله سبحانه وتعالى أنه لا أحد من الخلق يبتلى بمصيبة إلا كان ذلك بمشيئة الله وتقديره . فمن أصيب بمصيبة فآمن بالله واستسلم له وانقاد ، وعلم أن ذلك بقضائه وقدره فصبر واحتسب هدى الله قلبه وقذف فيه اليقين والنبات ^(٢) .

روى ابن جرير (رحمه الله) بسنده إلى ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۖ ﴾ : " يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه " .

(١) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٢٣٣/٢٧ - ٢٣٥ . " طبعة الحلبي " . التفسير الكبير : ٢٣٦/٢٩ - ٢٣٧ .

الجامع لأحكام القرآن : ٢٥٧/١٧ - ٢٥٨ . تفسير القرآن العظيم : ٤٨٩/٤ - ٤٩٠ . شفاء العليل : ص : ١٩٤ .
(٢) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ١٢٣/٢٨ . " طبعة الحلبي " . المحرر الوجيز : ٤٨٠/١٤ . الجامع لأحكام

القرآن : ١٣٩/١٨ . تفسير القرآن العظيم : ٥٨٦/٤ - ٥٨٧ .

وروى عن علقمة^(١) أنه قال : " هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى " (٢) .

وقال القرطبي (رحمه الله) :

﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ للصبر والرضا ، وقيل : يثبت على الإيمان " (٣) .

فالمؤمن عليه أن ينظر إلى المصائب بعين القدر ، وأنها مكتوبة عليه لابد له منها ، وأن ذلك اختيار الله له وتقديره .

واختياره سبحانه لعبده المؤمن خير من اختيار المؤمن لنفسه ، لأنه سبحانه أعلم بمصلحة المؤمن من نفسه ، وهو لا يقضي له قضاء إلا كان خيراً له .

كما قال النبي ﷺ : " عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له " (٤) .

(١) هو علقمة بن قيس بن عبد الله . أبو شبل التخعي الكوفي . التابعي الجليل . أدرك الجاهلية والإسلام فهو مخضرم . لازم ابن مسعود ؓ وكان من أنبل أصحابه . ثقة ثبت فقيه عابد ورع . مات بعد سنة ٦٠ هـ وقيل : بعد سنة ٧٠ هـ .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٨٦/٦ . طبقات خليفة : ص : ١٤٧ . التاريخ الكبير : ٤١/٧ . معرفة الثقات : ١٤٥/٢ . الجرح والتعديل : ٤٠٤/٦ . ثقات ابن حبان : ٢٠٧/٥ . مشاهير علماء الأمصار : ١٠٠/١ . تاريخ بغداد : ٢٩٦/١٢ . التعديل والتحريج : ١٠١٥/٣ . تهذيب الكمال : ٣٠٠/٢٠ . تذكرة الحفاظ : ٤٨/١ . الكاشف : ٣٤/٢ . جامع التحصيل : ص : ٢٤٠ . الإصابة : ١٣٦/٥ . تهذيب التهذيب : ٢٤٤/٧ . تقريب التهذيب : ٣٩٧/١ . (٢) جامع البيان : ١٢٣/٢٨ " طبعة الحلبي " . وأثر ابن عباس (رضي الله عنهما) . أورده البخاري في صحيحه بمعناه في : كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . سورة التغابن : (٦٤) . ص : ١٠٧١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ١٣٩/١٨ .

(٤) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الزهد والرفائق : (٥٣) . باب المؤمن أمره كله له خير : (١٣) . برقم : (٢٩٩٩) . عن صهيب ؓ . ٢٢٩٥/٤ . وانظر فتح الباري : ١٠٩/١٠ . طبعة دار المعرفة . وانظر مجموع الفتاوى : ٤٤/١٠ .

فَاللّٰهُ سَبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ بَعْدَهُ الْمُؤْمِنَ خَيْرًا ابْتِلَاهُ بِالصَّائِبِ فَتَكُونُ خَيْرًا لَهُ مِنْ عَدْمِهَا .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قال رسول الله ﷺ : " من يرد الله به خيراً يصب منه " (١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إذا أراد الله بعبد الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبد الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة " (٢) .

فالمصيبة قد تكون في نفسها مكروهة للعبد المؤمن نظراً لما يتأذى من ذلك ، ولكنها تكون محبوبة مرضية من وجه آخر ، وذلك بالنظر لحكمة الله وقضائه لها ، وما تضمنته من خير لذلك المؤمن (٣) .

والقصد هنا أن إيمان المؤمن بقضاء الله وقدره فيما قدره عليه من مصائب يعينه على الثبات عند تلك المصائب ، لأنها حينئذ تهون عليه ، ويخفف وقعها ، ويسهل أمرها على قلبه فيثبت ويصبر (٤) .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب المرضى: (٤٩/٧٥) . باب ما جاء في كفارة المرض: (١). برقم: (٥٦٤٥) ص: ١٢٢٨.

وانظر في معنى الحديث : فتح الباري : ١٠٨/١٠ . طبعة دار المعرفة . عمدة القارئ : ٢١١/٢١ . شرح موطأ الإمام مالك لأبي عبد الله محمد بن عبد الباقي الزرقاني . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤١١هـ : ٤١٤/٤ .

(٢) سنن الترمذي : بلفظه في: كتاب الزهد: (٣٣). باب ما جاء في الصبر على البلاء: (٥٧). برقم: (٢٣٩٦). وقال: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه" وقال الألباني (رحمه الله): "حسن صحيح". ص: ٣٩٣. وهو في : السلسلة الصحيحة: ٢٢٠/٣ . برقم: (١٢٢٠) . ومشكاة المصابيح : ٤٩٣/١ . برقم: (١٥٦٥) . مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ٦٥١/٤ .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في: ٢٤٧/٧ . برقم: (٤٢٥٤) .

(٣) انظر مجموع الفتاوى : ٤٢/١٠ .

(٤) هنا أمر تعرض له أهل العلم وهو : هل الرضا بما يقدره الله على المؤمن من مصائب لا اختيار له فيها واجب عليه كالصبر عليها أم هو مستحب ؟ . خلاف بين العلماء . والذي رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم (رحمهما الله) : أنه مستحب وليس بواجب . وللمزيد انظر : مجموع الفتاوى : ١٩١/٨ . مدارج السالكين : ١٩٣/٢ .

﴿المطلب الرابع﴾

ملاحظة العواقب المحمودة

✽ إن الابتلاء بالمصيبة قد يكون نعمة ، وذلك إذا نظر العبد إلى العواقب الحسنة المترتبة على الثبات والصبر عليها .

قال تعالى : ﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٥٠-٥٢].

فهذا وصف للمنافقين الذين كان يسوءهم ما يصيب النبي ﷺ والمؤمنين من حسنة ونعمة ، ويفرحهم ما يصيبهم من مصيبة ونقمة ، زاعمين أنهم لم يصابوا مع من أصيب لحذرهم ويقظتهم وتعقلهم . فأرشد الله رسوله إلى أن يجيبهم بأن ما أصابه والمؤمنين بقدر الله وقضائه ، وأنه نعمة من نعم الله عليهم أي ذلك كان : فإما أن نظفر بالعدو فننال الأجر والغنيمة والسلامة ، وإما أن نقتل بأيديهم فننال الشهادة في سبيل الله ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار . وكل ذلك أمر محبوب لا يكره ، وهو نعمة (١) .

(١) انظر في معنى الآيات : جامع البيان : ١٥٠/١٠-١٥١ " طبعة الحلبي " . المحرر الوجيز : ٥١٧/٦ . التفسير الكبير : ٨٧-٨٤/١٦ . تفسير القرآن العظيم : ٥٦٤/٢-٥٦٥ . روح المعاني : ١١٤/١٠-١١٦ . محاسن التأويل : ٣١٧٢/٨-٣١٧٣ .

ولكن كيف تصير المصيبة نعمة ؟

قال شريح (رحمه الله) ^(١) :

" ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم : ألا تكون كانت في دينه ، وألا تكون أعظم مما كانت ، وأنها لا بد كائنة فقد كانت " ^(٢) .

وقال الغزالي (رحمه الله) :

" البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه : إما في الدنيا أو في الدين ، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب " ^(٣) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" ما يصيب الإنسان ، إن كان يسره : فهو نعمة بيّنة ، وإن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياهم ، ويثاب بالصبر عليه . ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] ^(٤) .

(١) هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم . أبو أمية الكندي الكوفي . تابعي مخضرم . ثقة فقيه مشهور . وقيل : له صحة ولم تثبت . تولى قضاء الكوفة لعمر وعلي (رضي الله عنهما) . مات سنة ٧٨ هـ . وقيل بعدها . ويقال عاش ١٢٠ سنة .

وانظر : الطبقات الكبرى : ١٣١/٦ . طبقات خليفة : ص : ١٤٥ . التاريخ الكبير : ٢٢٨/٤ . معرفة الثقات : ٤٥١/١ . الجرح والتعديل : ٣٣٢/٤ . ثقات ابن حبان : ٣٥٢/٤ . مشاهير علماء الأمصار : ٩٩/١ . تهذيب الكمال : ٤٣٥/١٢ . تذكرة الحفاظ : ٥٩/١ . الكاشف : ٤٨٣/١ . جامع التحصيل : ص : ١٩٥ . الإصابة : ٣٣٤/٣ . تهذيب التهذيب : ٢٨٧/٤ . تقريب التهذيب : ٢٦٥/١ .

(٢) عدة الصّابرين : ص : ١٠٠ .

(٣) إحياء علوم الدين . لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي . نشر مؤسسة الحلبي وشركاه . ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م : ١٦٧/٤ . وانظر : ١٦٠/٤ .

(٤) مجموع الفتاوى : ٢١٠/٨ . وانظر : ٣٠٦/١٤ .

❁ من نظر إلى مصيبيته يجد أنّ الله أبقى له أفضل منها أو مثلاً ، ولو شاء سبحانه أن يصيبه بأعظم منها في الدنيا لفعل ، ويمكن أن تكون في دينه ، وذلك أعظم بلاء وأشدّ ، فعليه بالشكر والصبر (١) .

❁ الابتلاء بالمصائب دواء لكثير من الأمراض والأخلاق الفاسدة كالكبر العجب وقسوة القلب ، فالله يرحم عباده بالمصائب كي لا يطغوا ولا ييغوا ، فيشفّهم بها ويهذبهم ويطهرهم وينقيهم ليشرفهم بأعلى المراتب وأعظم الثواب (٢) .

❁ لو فتش المصاب حوله لم ير في العالم إلا مبتلى بفوات محبوب ، أو حصول مكروه ، وأن بلاء الدنيا لا يدوم بل هو منقطع في العاجل أو الآجل ، فالصبر عليه أهون من بلاء الآخرة السرمدي (٣) الذي لا ينقطع . فالفرق بينهما شاسع والبون بينهما كبير (٤) .

❁ إن الله سبحانه هيأ منازل لعباده المؤمنين في الجنة لم تبلغها أعمالهم ، فقيض لهم من الأسباب ما يوصلهم إليها ، فابتلاهم بالمحن ليبلغوا تلك المنازل (٥) .
قال رسول الله ﷺ : " إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله ، أو في ولده ، ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له منه " (٦) .

(١) انظر : إحياء علوم الدين : ١٦٠/٤ . زاد المعاد : ١٩٠/٤ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ١٤٧/١٠ . زاد المعاد : ٢٢١/٣ . ١٩٥/٤ .

(٣) السرمّد دوام الزمان من ليل أو نهار . ولسيل سمرّد : طويل . وفي التّغريل العزيز : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ

جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا ﴾ [القصص: ٧٢] . أي دائماً لا ينقطع . انظر : لسان العرب : ٢١٢/٣ .

(٤) انظر : إحياء علوم الدين : ١٦١/٤ . شفاء العليل : ص : ٢٤٦ . زاد المعاد : ١٩٠/٤ - ١٩١ .

(٥) انظر : المرجع السابق : ٢٢١/٣ .

(٦) سنن أبي داود : بلفظ مقارب في : كتاب الجنائز : (٢٠) . باب الأمراض المكفرة للذنوب : (١) . برقم : (٣٠٩٠) .

قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٣٥٠ . عن رجل من أصحاب النبي ﷺ .

سنن البيهقي : بلفظ مقارب في : باب ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من الصبر على جميع ما يصيبه . ٣٧٤/٣ .

مسند أحمد : بلفظه في : ٢٧٢/٥ .

مسند أبي يعلى : بلفظ مقارب في : ٢٢٤/٢ . برقم : (٩٢٣) .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات ، التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان ، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه ، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة ، فصورته صورة ابتلاء وامتحان ، وباطنه فيه الرحمة والنعمة ، فكم لله من نعمة جسيمة ومنّة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان " (١) . وهذه عبارات رصينة ، جمعت بين حسن المعنى وجودة السبك .

فهذه العواقب المحمودّة وغيرها الكثير متى ما استحضرها المسلم عند ابتلائه وجد فيها خير معين وأبلغ مساعد على صبره وثباته .
❦ ولا يفهم ممّا سبق أنّ المسلم يتمنّى الابتلاء بالمصائب ويتعرّض له لما يرى فيه من الأجر والثواب ، لأنّ العافية خير من البلاء بالمصيبة ، وأسلم للمسلم منه .

ولذا كان الرّسول ﷺ يتعوّذ من جهد البلاء كما في حديث أبي هريرة ؓ قال : " كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء " (٢) .

وجهد البلاء هو شدّة المشقّة ، وما لا طاقة للمرء بحمله ولا قدرة له على دفعه . وقيل : هو قلة المال وكثرة العيال ، والأولى حملهُ على العموم (٣) .

(١) مفتاح دار السعادة : ص : ٢٩٩/١ . وللمزيد من الوقوف على عوامل الثبات عند الابتلاء فانظر : إحياء علوم

الدين : ٩٣-٩٠/٤ . ١٥٨-١٢٩/٤ . زاد المعاد : ١٨٨-١٩٦/٤ . شفاء العليل : ص : ٣٤-٣٥ .

١٩٥-١٩٤ . ٢٤٨-٢٤٤ . فتح الباري : ١٠/١٠٤ فما بعدها . طبعة دار المعرفة .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الدعوات: (٥٤/٨٠) . باب التّعوذ من جهد البلاء: (٢٨) . برقم: (٦٣٤٧) .

ص: ١٣٥٤ . وفي كتاب القدر: (٥٦/٨٢) . باب من تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء: (١٣) . برقم:

(٦٦١٦) . ص: ١٤٠٢ . ولفظه: "تعوذوا بالله من جهد البلاء . ودرك الشقاء . وسوء القضاء . وشماتة الأعداء" .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: (٤٨) . باب التّعوذ من سوء القضاء

ودرك الشقاء وغيره: (١٦) . برقم: (٢٧٠٧) . ٢٠٨٠/٤ .

(٣) انظر : شرح التوي على مسلم : ٣١/١٧ . فتح الباري : ٤٣٧/١٢ .

وكان ﷺ يحمد الله على العافية والسلامة من البلاء بالمصائب .
عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " من رأى مبتلى فقال : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً ، لم يصبه ذلك البلاء " (١) .
فالمسلم لا ينبغي له أن يتعرض للبلاء بالمصيبة ولا للأسباب التي تؤدي إلى ذلك ، والسلامة خير له وأفضل (٢) .

(١) سنن الترمذي : بلفظه في : كتاب الدعوات : (٤٤) . باب ما يقول العبد إذا رأى مبتلى : (٣٧) . برقم : (٣٤٣٢) . وقال : " هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه " . وقال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " .
و بلفظ مقارب برقم : (٣٤٣١) . وقال : " هذا حديث غريب " . وقال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٥٤٣ . وهو في السلسلة الصحيحة : ٥٣١/٦ . القسم الأول . برقم : (٢٧٣٧) .
سنن ابن ماجه : بلفظ مقارب في : كتاب الدعاء : (٣٤) . باب ما يدعو به الرجل إذا نظر إلى أهل البلاء : (٢٢) . برقم : (٣٨٩٢) . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٤١٧ .
معجم الطبراني الصغير نحوه عن أبي هريرة ﷺ . في : ٤/٢ . برقم : (٦٧٥) .
(٢) للمزيد في هذه الجزئية . انظر : مجموع الفتاوى : ٣٨/١٠ - ٣٩ . وأشار إلى ذلك الغزالي في إحياء علوم الدين : ١٦٨/٤ .

﴿المطلب الخامس﴾

مجانبة العوارض القاذحة

وهناك أمور إضافة إلى ما سبق متى ما طرأت على ثبات المسلم عند الابتلاء بالمصائب كدثرته ، وأقضت مضجعه ، فترهل ذلك الثبات ، وعجز أن يؤهل صاحبه لاجتياز الامتحان بتفوق ونجاح . من ذلك :

١/ الشكوى :

وهي أن يذكر للناس ما به من مصيبة على سبيل التضرر والتبرم ^(١) . لأن المشتكي في الحقيقة طالب بلسان الحال إما إزالة ما يضره ، أو حصول ما ينفعه ^(٢) . وهذا ينافي الصبر والثبات لأنه يقدح في رضا العبد بقضاء الله ، ورجائه في مولاه ، وأنه يطلب من الخلق ملا يقدر عليه إلا الله سبحانه . وفيه شكوى العبد ربه إلى عباده .

وأما الشكوى إلى الله فإنها لا تنافي الصبر والثبات لقول الله عن يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦] ^(٣) . مع قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ٨٣، ٨٤] ^(٤) . لأن الشكوى إليه سبحانه استعطاف وتملق واسترحام ^(٥) .

(١) وانظر : الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل : للإمام ابن القيم . نشر : دار الكتب العلمية .

بيروت . ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م : ص : ٢٥٩ . فتح الباري : ١٠/ ١٢٤ . طبعة دار المعرفة .

(٢) مجموع الفتاوى : ١٠/ ٦٦٧ .

(٣) قال الراغب (رحمه الله):

" وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي ﴾ أي غمي الذي يئنه عن كتمان . فهو مصدر في تقدير

مفعول . أو بمعنى غمي الذي بث فكري نحو: توزعني الفكر . فيكون في معنى الفاعل . المفردات: ص: ٣٧ .

(٤) وانظر : مجموع الفتاوى : ١٠/ ١٨٤ . ٦٦٦ . الروح : ص : ٢٥٩ . وجاء ذلك عن أيوب عليه السلام .

وسوف يأتي خبره في التماذج .

(٥) انظر : الروح : ص : ٢٥٩ .

فَاللّٰهُ يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِالصَّائِبِ لِيَسْمَعَ شِكْوَاهُ وَتَضَرَّعَهُ إِلَيْهِ وَدَعَاَهُ ، وَالْإِنْكَسَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَإِظْهَارَ التَّذَلُّلِ وَالْفَاقَةَ وَالْعَجْزَ .

وَلِذَا ذَمَّ مَنْ لَمْ يَتَضَرَّعْ إِلَيْهِ فِي كَشْفِ الْبَلَاءِ فَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ

بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦] ^(١) .

وَالشَّكْوَى لَا تَنَافِي الْإِخْبَارَ بِالْحَالِ ، كَالْإِخْبَارِ الْإِنْسَانَ لِمَنْ يُوَدُّ الْإِسْتِرْشَادَ مِنْهُ ، أَوْ مُعَاوَنَتَهُ ، أَوْ إِزَالَةَ ضَرَرٍ بِهِ فِي مَقْدَرَتِهِ إِزَالَتَهُ ، كَالْإِخْبَارِ الْمَرِيضَ لَصَدِيقِهِ أَوْ طَبِيبِهِ بِحَالِهِ مِنْ غَيْرِ تَبَرُّمٍ ، أَوْ الْمَظْلُومَ لِمَنْ يَرْجُو مِنْهُ إِزَالَةَ الظُّلْمِ عَنْهُ ^(٢) .

وَلِذَا عَنَوْنَ الْبُخَارِي (رَحِمَهُ اللَّهُ) فِي كِتَابِ الْمَرَضِيِّ مِنْ صَحِيحِهِ بَاباً قَالَ فِيهِ : " مَا رَخَّصَ لِلْمَرِيضِ أَنْ يَقُولَ : إِنِّي وَجَعٌ أَوْ وَارَأْسَاهُ ، أَوْ اشْتَدَّ بِي الْوَجَعُ . وَقَوْلُ أَيُّوبَ : ﴿ أَنْتِي مَسْنِيَّ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣] " ^(٣) .

وَاسْتَدَلَّ لِذَلِكَ بِأَحَادِيثٍ مِنْهَا :

حَدِيثُ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) لَمَّا قَالَتْ : " وَارَأْسَاهُ " فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ : " بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ .. الْحَدِيثُ " ^(٤) .

(١) انظر : عدّة الصّابرين : ص : ٢٦ . الرّوح : ص : ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) انظر : عدّة الصّابرين : ص : ١٠ . ٢٣٢ . و انظر : الرّوح : ص : ٢٥٩ . فتح الباري : ١٠ / ١٢٤ . طبعة دار المعرفة .

(٣) صحيح البخاري : رقم الكتاب : (٤٩/٧٥) . ورقم الباب : (١٦) . ص : ١٢٣٢ . والآية في الشكوى إلى الله لا إلى الخلق . وذلك مطلوب شرعاً . فذكرها هنا لا يسلم من اعتراض .

(٤) هذا جزء من حديث في :

صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب المرضي : (٤٩/٧٥) . باب قول المريض : إِنِّي وَجَعٌ ، أَوْ وَارَأْسَاهُ ، أَوْ اشْتَدَّ بِي الْوَجَعُ : (١٦) . برقم : (٥٦٦٦) . ص : ١٢٣٢ . وفي كتاب الأحكام : (٦٨/٩٣) . باب الاستخلاف : (٥١) . برقم : (٧٢١٧) . ص : ١٥٢٠ .

وقد وجهه ابن القيم (رحمه الله) بمعنيين . قال فيهما :

" فالمعنى الأوّل : يفهم أنّك لا تشتكى واصبري ، في من الوجع مثل ما بك ، فتأسّي بي في الصبر وعدم الشكوى . والمعنى الثاني : يفهم إعلامها بصدق محبته لها أي : انظري قوّة محبتي لك كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك ، فلم تكوني متوجّعة وأنا سليم من الوجع ، بل يؤلمني ما يؤلمك كما يسرّني ما يسرّك " . الرّوح : ص : ٢٥٩ .

فالمعنى الأوّل يعني به التّأسّي . والثاني موافقة الحبّ لخبوبه في ألمه وسروره .

وحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما قال : " جاءنا رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتدّ بي زمن حجة الوداع فقلت : بلغ بي ما ترى .. الحديث " (١) .

٢/ الجزع والسخط :

الجزع نقيض الصبر (٢) ، والسخط نقيض الرضا (٣) .
لقد خلق الله الإنسان وخلق فيه نفساً تميل أحياناً إلى الأخلاق الذميمة ، والأفعال القبيحة ، فإذا أصابه ضررٌ ومكروه فزع وجزع ، وأصابه الهلع والرعب واليأس ، إلا من عصمه الله وهداه إلى الحق ، ووفقه ويسر له السبيل الموصل إليه سبحانه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٣﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢] (٤) .

والجزع والسخط داءان منافيان للثبات ، معارضان له ، لأنّ فيهما اعتراضاً على قدر الله وحكمه ، ويتطرقّ معهما الشكّ إلى قضاء الله وحكمته .
عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإنّ الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط " (٥) .

(١) هذا جزء من حديث في:

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب المرضى: (٤٩/٧٥). باب قول المريض: إني وجع ، أو وارساه ، أو اشتدّ بي الوجع: (١٦). برقم: (٥٦٦٨). ص: ١٢٣٢. و بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب رثي النبي ﷺ سعد بن خولة: (٣٦). برقم: (١٢٩٥). ص: ٢٧٢. وفي كتاب مناقب الأنصار: (٣٧/٦٣). باب قول النبي ﷺ: " اللهم امض لأصحابي هجرهم " : (١٠٩/٤٩). برقم: (٣٩٣٦). ص: ٨٢٥. وفي كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب حجة الوداع: (٧٨/٧٧). برقم: (٤٤٠٩). ص: ٩١٦. وفي كتاب الدعوات: (٥٤/٨٠). بلب الدعاء برفع الوباء والوجع: (٤٣). برقم: (٦٣٧٣). ص: ١٣٥٨. صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الوصية: (٢٥). باب الوصية بالثلث: (١). برقم: (١٦٢٨). ١٢٥٠/٣-١٢٥١.

(٢) القاموس المحيط : ص : ٩١٦ .

(٣) المرجع السابق : ص : ٨٦٤ .

(٤) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٥٩/٤ .

(٥) سبق تخريجه . ص : ٣٢٤ .

وفي رواية : " ومن جزع فله الجزع " (١) .

قال ابن القيم (رحمه الله) في الجزع :

" إن الجزع ضعف في النفس ، وخوف في القلب ، يمدّه شدة الطمع والحرص ، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر ، وإلا فمتى علم أن المقدّر كائن ولا بد كان الجزع عناء محضاً ومصيبة " (٢) .

والسخط باب للهّم والغمّ والحزن ، وشتات القلب ، والظن بالله خلاف ما هو أهله . والرضى يخلص العبد من كلّ ذلك ، ويعينه على الثبات .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" إن السخط يوجب تلوّن العبد ، وعدم ثباته مع الله ، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه ، والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وبما لا يلائمه ، وكلّما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه ، فلا تثبت له قدم على العبوديّة ، فإذا رضي عن ربّه في جميع الحالات ، استقرّت قدمه في مقام العبوديّة ، فلا يزيل التلّون عن العبد شيء مثل الرضا " (٣) .

وللجزع والسخط مظاهر متعدّدة ، كشقّ الثياب عند المصيبة ، ولطم الوجه ، وضرب الخدّ ، وحلق الشعر ، والصياح والدعاء بالويل والنّبور (٤) ، وعظائم الأمور ، وغير ذلك ممّا نهى عنه الرّسول ﷺ .

(١) هذه الرواية في مسند أحمد : بلفظها عن محمود بن لبيد رحمه الله . في : ٤٢٩، ٤٢٧/٥ .

وفي شعب الإيمان . لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي . تحقيق : محمّد السعيد بسيوني زغلول . طبعة دار الكتب

العلميّة . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤١٠ هـ : بلفظها : في : ١٤٥/٧ .

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد . وقال : " ورجاله ثقات " . ٢٩١/٢ . والمنذري في الترغيب والترهيب . وقال :

" ورواته ثقات " . ١٤٢/٤ .

وانظر في معنى الحديث : تحفة الأحوذى : ٦٥/٧ .

(٢) الرّوح : ص : ٢٥٠ .

(٣) مدارج السّالكين : ٢٠٧/٢ - ٢٠٨ .

(٤) النّبور : الهلاك والخسران والويل . وقد تَبَرَّئْتُ نُبُورًا . وتَبَرَّهَ اللَّهُ : أهلكه إهلاكاً لا يتعش . انظر : لسان

العرب : ٩٩/٤ . وانظر : مختار الصحاح : ص : ٨٢ . القاموس المحيط : ص : ٤٥٦ .

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ليس منا من ضرب
الخدود ، أو شقّ الجيوب ، أو دعا بدعوى الجاهلية (١) " (٢) .
وعن أبي موسى رضي الله عنه : " إن رسول الله ﷺ برئ من الصّالقة (٣) ،
والخالقة (٤) ، والشّاقة (٥) " (٦) .
وكلّ هذه الأمور تنافي الصّبر والثّبات عند الابتلاء بالمصيبة .

(١) دعوى الجاهلية: هي التّياحة ، وندبه الميت ، والدّعاء بالويل وشبهه . والمراد بالجاهلية ما كان في الفترة قبل

الإسلام . شرح التّووي على مسلم: ١١٠/٢ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٦/٢٣) . باب ليس منا من شقّ الجيوب: (٣٥) . برقم:

(١٢٩٤) . ص: ٢٧٢ . وفي باب ليس منا من ضرب الخدود: (٣٨) . برقم: (١٢٩٧) . وفي باب ما ينهى من

الويل ودعوى الجاهلية عند المصيبة: (٣٩) . برقم: (١٢٩٨) . ص: ٢٧٣ . وفي كتاب المناقب: (٣٧/٦١) . باب

ما ينهى من دعوى الجاهلية: (١١/٨) . برقم: (٣٥١٩) . ص: ٧٤٤ .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١) . باب تحريم ضرب الخدود . وشقّ الجيوب . والدّعاء بدعوى

الجاهلية: (٤٤) . برقم: (١٠٣) . ٩٩/١ .

(٣) الصّالقة: من الصّلق وهو الصّوت الشّديد . ويقال بالسّين أيضاً . والمراد بالصّالقة المرأة التي ترفع صوتها عند المصيبة

والفجعة بالموت . انظر : التّهاية في غريب الحديث: ٤٨/٣ . وانظر: غريب الحديث للهروي : ٩٧/١ ، ٢٧٥/٣ .

الفائق: ٣٠٩/٢ .

(٤) الخالقة: هي التي تخلق شعرها عند المصيبة . شرح التّووي على مسلم: ١١٠/٢ . فتح الباري: ١٦٦/٣ . طبعة دار

المعرفة . وانظر: الفائق: ٣٠٦/١ . التّهاية في غريب الحديث: ٤٢٧/١ .

(٥) الشّاقة: التي تشقّ ثوبها عند المصيبة . شرح التّووي على مسلم: ١١٠/٢ . وانظر: فتح الباري: ١٦٦/٣ . طبعة دار

المعرفة .

(٦) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الجنائز: (٦/٢٣) . باب ما ينهى من الخلق عند المصيبة: (٣٧) . برقم:

(١٢٩٦) . ص: ٢٧٣ .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١) . باب تحريم ضرب الخدود . وشقّ الجيوب . والدّعاء بدعوى

الجاهلية: (٤٤) . برقم: (١٠٤) . ١٠٠/١ .

٣/ الحُزْنُ :

هو عبارة عما يحصل لوقوع مكروه ، أو فوات محبوب في الماضي ^(١) .
والحزن نهى الله عنه في مواطن عدة من كتابه كقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .
وكقوله لرسوله ﷺ : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [التحل: ١٢٧] .
وكقوله : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنْ أَلَّاهُ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] .
والآيات كثيرة في ذلك . وإنما نهى عنه لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة ، فليس فيه فائدة ، ولا يَأْتُم الإنسان به إذا لم يقارنه محرّم . كحزن يعقوب عليه السلام كما جاء عنه في قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأسَفُ عَلَى يُوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤] .
وأما الحزن إذا أفضى إلى ترك مأمور أو فعل محظور فإنه محرّم ، وذلك كالحزن الذي ينافي الصبر عند المصائب نتيجة لضعف قلب صاحبه ، وضعف ثباته ، ويظهر في فعل الأيدي ، كشق الثياب ولطم الخدود ، أو فعل اللسان كالصيّاح والعويل والدعاء بالويل والثبور وغير ذلك . وهذا الذي ينافي الثبات عند المصائب .
ولذا قال ﷺ : " إِنْ أَلَّاهُ لَا يَعَذَّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا بِحُزَنِ الْقَلْبِ ، وَلَكِنْ يَعَذَّبُ بِهَذَا — وأشار إلى لسانه — أَوْ يَرْحَمُ " ^(٢) .

(١) التعريفات : ص : ١١٧ .

(٢) هذا جزء من حديث في :

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب البكاء عند المريض: (٤٤). برقم: (١٣٠٤). ص:

٢٧٤. عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما).

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١). باب البكاء على الميت: (٦). برقم: (٩٢٤). ٦٣٦/٢.

وقال ﷺ : " تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا " (١) .

وفي الحديثين دلالة أيضاً على أن البكاء الذي لا ندب فيه ولا نياحة ولا صياح ولا عويل لا شيء فيه ، ولا ينافي الثبات عند المصيبة . والأدلة على ذلك كثيرة جداً (٢) .

(١) هذا جزء من حديث في:

صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب قول النبي ﷺ : " إنا بك لحزونون " : (٤٣) .

برقم: (١٣٠٣) . ص: ٢٧٤ . عن أنس رضي الله عنه .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفضائل: (٤٣) . باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال ، وتواضعه وفضل ذلك: (١٥) .

برقم: (٢٣١٥) . ١٨٠٧/٤ - ١٨٠٨ .

وانظر: مجموع الفتاوى : ١٠/١٦-١٧ . وانظر: عدة الصّابرين : ص : ٢٣٣ .

(٢) انظر إلى بحث تفصيلي قيم عن البكاء وعدم منافاته للثبات في : عدة الصّابرين : ص : ٨١-٨٣ .

الفصل الخامس

نماذج للثبات عند الابتلاء

وفيه مباحث :

المبحث الأول

رسل الله عليهم السلام

إن رسل الله وأنبياءه عليهم السلام هم الصقوة المختارة من البشرية جمعاء الذين حباهم الله جزيل نعمه ، وأمطر عليهم سحائب مننه ، وهياهم لحمل رسالته ، وأداء أمانته ، ووهبهم من السمات والصفات ما يجعلهم في المقام الذي يؤهلهم لإبلاغ ما كلفوا به .

ولذلك محصهم بالابتلاء ، وصقلهم بالاختبار ليكونوا أهلاً لذلك ، فكانوا عليهم السلام أعظم الناس بلاءً وأشدّهم محنة . قاسوا الشدائد بأنواعها ، وذاقوا المصائب بأشكالها ، فما لانت عريكتهم ، وما تضعضعت قواهم ، ولا فترت همهم ، ولا انحلت عزائمهم ، بل كانوا أهل اليقين والثبات ، والإيمان والصبر حتى حازوا قصب السبق في معالي الأمور ، وعبروا إلى أعظم الغايات وأجل النهايات فنالوا الجزاء والثواب ، ورفع الله قدرهم ، وأعلى ذكرهم ، وجعلهم قدوة الأنام ، وأئمة الخلق الذين يهتدى بهم ، ويتأسى بأقوالهم وأفعالهم .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ

وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] .

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أي الناس أشدّ بلاء ؟

قال : " الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه

صَلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رَقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرَكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ " (١) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَكُ (٢) . فوضعت يدي عليه ، فوجدت حرَّةً بين يدي ، فوق اللَّحَافِ ، فقلت : يا رسول الله ما أَشَدُّهَا عَلَيْكَ ! قال : " إِنَّا كَذَلِكَ . يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ " قلت : يا رسول الله أي النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قال : " الْأَنْبِيَاءُ " قلت : يا رسول الله ثُمَّ مَنْ ؟ قال : " ثُمَّ الصَّالِحُونَ . إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدَهُمْ

(١) سنن الترمذي : بلفظه في كتاب الزَّهْد: (٣٣) . باب ما جاء في الصَّبر على البلاء: (٥٧) . برقم : (٢٣٩٨) .

وقال: "حسن صحيح" . وقال الألباني (رحمه الله): "حسن صحيح" . ص: ٣٩٣ .

سنن ابن ماجه: بلفظه إلَّا أحرف يسيرة . في كتاب الفتن: (٣٦) . باب الصَّبر على البلاء: (٢٣) . برقم :

(٤٠٢٣) . قال الألباني (رحمه الله): "حسن صحيح" . ص: ٤٣٣ .

سنن الدَّارِمِي: بلفظ مقارب في كتاب الرِّقَاق . باب أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً : ٤١٢ / ٢ .

سنن البيهقي: بلفظ مقارب في باب ما ينبغي لكلِّ مسلم أن يستشعره من الصَّبر على جميع ما يصيبه من الأمراض

والأوجاع والأحزان ٣٧٢ / ٣ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ١٧٢ / ١ ، ١٧٣ ، ١٨٠ . ولفظه إلَّا أحرف يسيرة في: ١٨٥ / ١ .

قال أحمد شاكر (رحمه الله): "إسناده صحيح" . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٤٦ / ٣ ، ٥٢ ، ٩٧ ، ٧٨ ، برقم :

(١٤٨١) ، (١٤٩٤) ، (١٥٥٥) ، (١٦٠٧) .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حَبَّان: : بلفظ مقارب في باب ذكر الإخبار عمَّا يجب على المرء من توطئ النَّفْسِ

على تحمُّل ما يستقبلها من الخن والمصائب . برقم : (٢٩٠٠) . قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده حسن" .

١٦٠ / ٧ . ولفظه سوى أحرف يسيرة برقم : (٢٩٠١) . ١٦١ / ٧ . ونحوه في باب ذكر البيان بأنَّ المسلم كَلَّمَا

تُخَن دِينُهُ كَثُرَ بَلَاؤُهُ . برقم : (٢٩٢٠) ، (٢٩٢١) . ١٨٣ / ٧ - ١٨٤ .

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ١ / ٩٩ - ١٠٠ . وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين" .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب . برقم : (٨٣٠) . قال المحقق: "إسناده حسن" . ١٤٣ / ٢ .

(٢) يوعك : الوعك بفتح الواو وسكون العين المهملة الحمى . وقد تفتح . وقيل : ألم الحمى . وقيل : تعبها . وقيل

إرعادها الموعوك وتحريكها إياه . وعن الأصمعي : الوعك : الحر . فتح الباري: ١١١ / ١٠ - ١١٢ . طبعة دار

المعرفة . وانظر: التَّهْيَاة في غريب الحديث : ٥ / ٢٠٦ .

إِلَّا الْعَبَاةَ ^(١) يُحَوِّيَهَا ^(٢) ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لِيَفْرَحَ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ ^(٣) .

قال الإمام النووي (رحمه الله) :

" قال العلماء : والحكمة في كون الأنبياء أشدَّ بلاء ثمَّ الأمثل فالأمثل أنَّهم مخصوصون بكمال الصَّبر ، وصحَّة الاحتساب ، ومعرفة أنَّ ذلك نعمة من الله تعالى ليتمَّ لهم الخير ، ويضاعف لهم الأجر ، ويظهر صبرهم ورضاهم " ^(٤) .

وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أنَّ الأنبياء يبلغ بهم الابتلاء مبلغه ، والمحنة غايتها حتَّى يستبطنوا النَّصر من الله مع تيقَّنه بوقوعه ، وثقتهم به ، ومع عظيم ثباتهم ، وقوَّة جلدتهم واصطبارهم ، ولكن مع ذلك يظلُّوا على الثَّبات مهما تأخَّر نصر الله عنهم ، حتَّى تتفرَّج الشَّدة ويزول الضَّنك .

ولذا أمر الله تعالى أهل الإيمان أن يتأسَّوا بهم في الثَّبات فقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] ^(٥) .

والرَّسل عليهم السَّلام وإن اشتدَّ ابتلاؤهم فإنَّ العاقبة لهم .

(١) العبادة : ضربٌ من الأكسِيَّة ، ويقال : عبَاة . والجمع عباء . انظر : النِّهاية في غريب الحديث : ١٧٥/٣ .

(٢) يحويها : أي يجمعها . انظر : الفائق : ٣٢٨/١ . النِّهاية في غريب الحديث : ٤٦٦/١ .

(٣) سنن ابن ماجة : بلفظه في كتاب الفتن : (٣٦) . باب الصَّبر على البلاء : (٢٣) . برقم : (٤٠٢٤) . قال الألباني

(رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤٣٣ . وهو في السَّلسلة الصَّحيحة : ٢٢٦/١ . برقم : (١٤٤) .

مسند أحمد : نحوه في : ٩٤/٣ .

(٤) شرح التَّووي على مسلم : ١٢٩/١٦ . وانظر : عمدة القارئ : ٢١١/٢١ . تحفة الأحوذى : ٦٦-٦٧ .

(٥) والآية سبق شرحها مع مصادر الشَّرح . انظر : ٣٠٦ .

فمن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) في حديث هرقل ^(١) الطويل وفيه : قال هرقل لأبي سفيان : " وسألتك هل قاتلتموه وقاتلكم ؟ فزعمت أن قد فعل ، وأن حربكم وحربه يكون دُولاً . ويُدال ^(٢) عليكم المرة وتُدالون عليه الأخرى ، وكذلك الرّسل تبلى وتكون لها العاقبة " ^(٣) .

وهذا من حكمة الله وسنته في رسله بأن يدالوا مرة ، ويدال عليهم أخرى ليمتيز من يتبعهم بصدق وإخلاص ممن يتبعهم من أجل الغلبة ^(٤) . وليعظم الله بذلك أجرهم ، ويكثر ثوابهم ^(٥) . وليكمل لهم أنواع العبادة فيتعبدهم في الشدة كما تعبدهم في الرخاء ، ويتعبدهم بالصبر والثبات كما تعبدهم بالحمد والشكر . وله في كل ذلك الحكمة الكاملة ، والحجة البالغة .

وهذه نماذج مضيئة لثلة قليلة من صفوة البشرية ، ضربوا بها أروع الأمثلة في الثبات عند الابتلاء ، والصبر عند الاختبار ، أدل بها على صدق ما أسلفت من القول بأن الأنبياء عليهم السلام كانوا أكثر الناس ابتلاء ، وأعظمهم ثباتاً .
وأتناول ذلك في مطالب أربعة :

(١) هرقل : هو ملك الروم . وهرقل اسمه . ولقبه قيصر . وكان له علم في دين النصرانية . وهو الذي أرسل إليه النبي ﷺ

خطاباً يدعوه فيه إلى الإسلام . فأراد أن يسلم ولكن الروم أبت عليه . فضن بملكه فلم يسلم .

انظر : البداية والنهاية : ٢٦٢/٤ - ٢٦٨ . فتح الباري : ١/٣٣ - ٣٧ . طبعة دار المعرفة .

(٢) الإدالة : الغلبة . يقال : أدبل لنا على أعدائنا أي نصيرنا عليهم ودانت الدولة لنا ، والدولة الائتقال من حال

الشدة إلى الرخاء . ومعنى : يُدال عليكم وتُدالون عليه : أي يغلبكم مرة . وتغلبونه أخرى .

انظر : النهاية في غريب الحديث : ١٤١/٢ .

(٣) جزء من حديث أبي سفيان رضي الله عنه الطويل :

صحيح البخاري : كتاب : بدء الوحي . باب : (١/٦) . برقم : (٧) . ص : ١٤ . وفي كتاب : الجهاد والسير :

(٣٢/٥٦) . باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة : (١٠١/١٠٢) . برقم : (٢٩٤١) . ص : ٦٢٠ . وفي كتاب :

التفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] : (٤) . برقم : (٤٥٥٣) . ص : ٩٥٠ .

صحيح مسلم : كتاب : الجهاد والسير : (٣٢) . باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام : (٢٦) . برقم :

(١٧٧٣) . (١٣٩٧-١٣٩٣/٣) .

(٤) انظر : زاد المعاد : ٢١٩/٣ .

(٥) انظر : شرح التووي على مسلم : ١٠٦/١٢ . تحفة الأحوذى : ٦٧/٧ .

﴿المطلب الأول﴾

محمد بن عبد الله ﷺ

إن المتأمل في سيرة هذا الرسول الكريم ﷺ يجد أنه قد تحمل من الابتلاءات ما لم يتحمّله غيره ، وذاق من أنواع الشدائد ما لم يذقه سواه ، منذ أن انبثق فجر نبوته إلى أن لقي ربه سبحانه وتعالى .

فمنذ أن صدع بالحق في مكة واجهه قومه الذين ترعرع بينهم بكل سبة وبلاء ، تفنّوا في أذيته بأنواع الأذى وأصنافه ، بالقول والفعل ، والافتراء عليه والبهتان ، فتارة بأنه ساحر ، وأخرى بأنه كاهن ، وحيناً بأنه كذاب ، وضيقوا عليه وعلى من معه الخناق حتى ألجئوه إلى الخروج من وطنه ومسقط رأسه (١) .

وهو في المدينة لم يهدأ له بال ، ولم يهنأ براحة من العيش ولذيق المطعم ، بل ظلّ عليه السلام يكابد المشاق ، ويقاوم أنواع المحن . حروب من أعداء الله لا ينطفئ لهيبها ولا تخدم نارها ، يفقد في بعضها من أعزّ أهله وأصحابه إليه ، كما فقد أبناءه وفلذات كبده من قبل . ويشجّ وجهه ، وتكسر رباعيته ، ويلقي من الأذى ما يلاقي .

وكيد من اليهود والمنافقين الذين لم يرعوا عن إيصال كل أذية وبلاء إليه وإلى أصحابه ، سالكين كل مسلك يوصلهم إلى ذلك . وهو مع هذا لم يهنأ برغد العيش ، وطيب الطعام ، فلم يمتلئ جوفه قطّ بخبز برّ إلى أن لقي الله تعالى .

قالت عائشة (رضي الله عنها) :

" ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز برّ حتى مضى لسبيله " (٢) .

(١) انظر : فيما لقي النبي ﷺ من أذى قومه : السيرة النبوية لابن هشام : ١٧٣/١ - ١٧٤ - ٢٢١ . وانظر : مفتاح

دار السعادة : ص : ٣٠١/١ .

(٢) صحيح البخاري: نحوه في كتاب الأطعمة: (٤٤/٧٠). في باب قول الله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا

رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧] : (١). برقم : (٥٣٧٤). ص: ١١٧٩. عن أبي هريرة ؓ .

وقد كان يشتد به المرض ﷺ إلى منتهاه ، ويبلغ به الوجد غايته .
عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فقلت :
يا رسول الله : إنك توعك وعكاً شديداً ، قال : " أجل إنني أوعك كما يوعك رجلان
منكم " قلت : ذلك أن لك أجريين ، قال : " أجل ذلك كذلك ، ما من مسلم يصيبه أذى
شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها " (١) .
وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت :
" ما رأيت أحداً أشد عليه الوجد من رسول الله ﷺ " (٢) .

وفي باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون: (٢٣). برقم: (٥٤١٦). ص: ١١٨٧. وفي باب ما كان السلف
يذخرون في بيوتهم وأسفارهم من الطعام وغيره: (٢٧). برقم: (٥٤٢٣). ص: ١١٨٨. وفي باب القديد:
(٣٧). برقم: (٥٤٣٨). ص: ١١٩٠. وفي كتاب الرقاق: (٥٥/٨١). باب كيف كان عيش النبي ﷺ
وأصحابه وتخليهم من الدنيا: (١٧). برقم: (٦٤٥٤). ص: ١٣٧٤-١٣٧٥. وفي كتاب الأيمان والتنوير:
(٥٧/٨٣). باب إذا حلف أن لا يأتد فأكمل ثمراً بخبز . وما يكون من الأدم: (٢٢). برقم: (٦٦٨٧). ص:
١٤١٤.

صحيح مسلم: بلفظه وينحوه في كتاب الزهد والرقائق: (٥٣). برقم: (٢٩٧٠). ٢٢٨١/٤-٢٢٨٢.
ونحوه عن أبي هريرة ﷺ برقم: (٢٩٧٦). ٢٢٨٤/٤.
(١) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب المرضى: (٤٩/٧٥). باب : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول: (٣).
برقم: (٥٦٤٨). ص: ١٢٢٨. و بلفظ مقارب في باب شدة المرض: (٢). برقم: (٥٦٤٧). ص: ١٢٢٨.
وفي باب وضع اليد على المريض: (١٣). برقم: (٥٦٦٠). ص: ١٢٣١. وفي باب ما يقال للمريض وما يجيب:
(١٤). برقم: (٥٦٦١). ص: ١٢٣١. وفي باب قول المريض : إني وجع . أو وأرأساه . أو اشتد بي الوجد:
(١٦). برقم: (٥٦٦٧). ص: ١٢٣٢.
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب البر والصلة والآداب: (٤٥). باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض ، أو
حزن ، أو نحو ذلك ، حتى الشوكة يشاكها: (١٤). برقم: (٢٥٧١). ١٩٩١/٤. وانظر معنى الحديث في :
فتح الباري : ١١٢/١٠ . طبعة دار المعرفة .

(٢) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب المرضى : (٤٩/٧٥) . باب شدة المرض : (٢) . برقم : (٥٦٤٦) . ص :
١٢٢٨ .

صحيح مسلم : بلفظه — إلا إنها قالت : " رجلاً " — في : كتاب البر والصلة والآداب : (٤٥) . باب ثواب
المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك : (١٤) . برقم : (٢٥٧٠) . ١٩٩٠/٤ .

ومع عظيم هذه الابتلاءات ، وشديد هذه الامتحانات ، ثبت رسول الله ﷺ على الحق ولم ينحرف عنه يسرة ولا يمنة ، بل ظلّ على الطريق المستقيم والمنهج القويم ، يكافح وينافح من أجل إرضاء ربه ونصرة دينه .

قال فخر الدين الرازي (رحمه الله) :

" إنه ﷺ تحمّل في أداء الرسالة أنواعاً من المشاق والمتاعب ، ولم يتغيّر عن المنهج الأوّل البتّة . ولم يطمع في مال أحد ولا جاهه ، بل صبر على تلك المشاق والمتاعب ، ولم يظهر في عزمه فتور ، ولا في إصراره قصور " (١) .

ويقول جمال الدين القاسمي (رحمه الله) عند تفسير قول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] . يقول :

" أي في أخلاقه وأفعاله قدوة حسنة ، إذ كان منها ثباته في الشدائد وهو مطلوب ، وصبره على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب (٢) ، ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة ، لا يخور في شديدة ، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة ، وقد لقي بمكة من قریش ما يُشَيِّبُ النَّوَاصِي ، ويَهْدِي الصِّيَاصِي (٣) ، وهو مع الضّعف يصابر صبر المستعلي ، ويثبت ثبات المستولي " (٤) .

وكيف لا يثبت ﷺ عند الابتلاء وهو الذي يعلم أنّه ما بعث إلاّ للابتلاء ، وأنّه لابد أن يبتلى ، كما أخبره ربه بذلك ؟.

(١) الأربعين في أصول الدين . لفخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي . الناشر . مكتبة الكليات الأزهرية . ص :

٣١٢ .

(٢) محروب : أي سلب ماله . من حَرَبَ .. انظر : القاموس المحيط : ص : ٩٣ .

(٣) الصياصي : جمع الصيصّة . وهي : الحصن . وكلّ ما امتنع به . انظر : المرجع السابق : ص : ٨٠٣ . مادة :

صيص .

(٤) محاسن التأويل : ٤٨٣٦/١٣ .

عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه : أنه عليه السلام قال : " ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا " . وفيه : " وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك " الحديث (١) .

قال النووي (رحمه الله) :

" معناه لامتحانك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة ، وغير ذلك من الجهاد في الله حق جهاده ، والصبر في الله تعالى ، وغير ذلك . وأبتي بك من أرسلتك إليهم ، فمنهم من يظهر إيمانه ، ويخلص في طاعته ، ومن يتخلف ويتأبد (٢) بالعداوة والكفر ، ومن ينافق " (٣) .

(١) الحديث سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٧٧ .

(٢) أي يظل ويقوم على العداوة والكفر . وانظر : لسان العرب : ٦٨/٣ .

(٣) شرح النووي على مسلم : ١٩٨/١٧ .

﴿المطلب الثاني﴾

إبراهيم عليه السلام

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اَمْتَدَحَ نَبِيَّهٖ اِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاثْنَى عَلَيْهِ فِي آيَاتٍ كَثْرَ ، وَرَفَعَ مَكَانَهُ وَأَعْلَا مَقَامَهُ ، فَقَالَ فِي شَأْنِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ اِنَّ اِبْرَاهِيْمَ كَانَ اُمَّةً قَانِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ۝ شَاكِرًا لِّاَنْعَمَ عَلَيْهِ اٰجْتَبَلَهُ وَهَدَلَهُ اِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ ۝ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَّإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِيْنَ ۝ ثُمَّ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ اَنْ اَتَّبِعْ مِلَّةَ اِبْرَاهِيْمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ۝ ﴾ [التَّحْل: ١٢٠-١٢٣].

فهو أمة ، والأمة : القدوة المعلم للخير الذي يَأْتِمُّ النَّاسُ بِهِ . وهو قانت ، والقانت : المطيع لله ، الملازم لطاعته . وهو حنيف ، والحنيف : المقبل على الله ، المعرض عما سواه . وهو الشاكر لنعم الله القائم بحققها خير قيام . وهو إمام التوحيد وقائد الموحدين ، الذين أخلصوا العبادة لله . وهو الذي أمر رسول الله ﷺ بِاتِّبَاعِ مِلَّتِهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ (١) . وهو خليل الرحمن الذي اتخذهُ خَلِيْلًا كَمَا قَالَ : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ اِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلًا ۝ ﴾ [النَّسَاء: ١٢٥] . وذلك لِأَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَخَلَّلَتْ رُوحَهُ وَقَلْبَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَوْضِعٌ لِّغَيْرِهِ (٢) . وهو المتضرع إلى الله المكثّر من دُعَائِهِ ، الْحَلِيمَ عَمَّنْ ظَلَمَهُ وَأَنَالَهُ مَكْرُوهًا . كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ اِنَّ اِبْرَاهِيْمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيْمٌ ۝ ﴾ [التَّوْبَة: ١١٤] (٣) . وهو صاحب القلب السليم ، الذي قد سلم لربّه ، وسلم لأمره ، فسلم من كلّ شبهة تعارض خبره ، ومن كلّ شهوة تعارض أمره ، ومن كلّ

(١) انظر : جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام : لابن القيم . نشر : دار العروبة . الكويت . الطبعة الثانية : ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م . تحقيق : شعيب الأرنؤوط — عبد القادر الأرنؤوط : ص : ٢٦٩ . مفتاح دار

السعادة : ١٧٤/١ . الضوء المنير : ٨٠-٧٩/٤ . ١٤٤٤/٥ - ١٤٥٠ .

(٢) انظر : مدارج السالكين : ٣٠/٣ . الضوء المنير : ١٥٠/٥ .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٦١٤/٢ .

إرادة تراحم مراده ، ومن كل قاطع يقطعه عن الله ، وفي ذلك قال سبحانه وتعالى :
﴿ وَإِذْ مِّنْ شَيْعَتِهِ لِبَرْهِيمَ ۖ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤] (١) .

وقد لاقى هذا النبي الكريم أصنافاً من الابتلاءات ، وأنواعاً من الاختبارات فاجتازها بثبات ورباطة جأش ، وقوة عزيمة ، وصدق إيمان ، وصبر ومصابرة ، حتى جعله الله إماماً يحتذى حذوه ، وجعل النبوة في ذريته .

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَبْلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] (٢) .

ابتلاه بما كلفه به من الأوامر والنواهي فقام بهن خير قيام ، وأداهن أحسن تأدية ، حتى شهد الله له بذلك ، فقال : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [التحيم: ٣٧] .

وابتلاه بالنار حين قذفه قومه فيها بعد أن حطم أصنامهم ، وحاجهم ، فألزمهم الحجة ، فاجتاز بلاء النار بصبر وثبات ، فأنجاه الله منها ، وسلمه من قومه .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۚ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا

فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠] (٣) .

(١) انظر : كتاب الجواب الكافي : ص : ٨٤ . مفتاح دار السعادة : ٤١/١ . الضوء المنير : ٤٣٤/٤-٤٣٥

(٢) قد سبق الكلام في معنى هذه الآية . انظر ص : ٢٨٨

(٣) انظر : الآيات قبلها .

ولقد خاض مع ابنه إسماعيل^(١) عليهما السلام تجربة قاسية ، واختباراً شاقاً لا يثبت فيه إلا أهل الإيمان الصادق ، واليقين الذي لا يتطرق إليه الشك ، ولا يعتريه الوهن .

قال تعالى في سياقه لتلك الحادثة المروعة :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِنِ ۖ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَأَبَّتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَلَدَيْنَاهُ أَن يَكْأَبِرْهِمُ ۝ قَدْ صَدَّقَتِ الرَّءْيَا إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ۝ وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَبَرَكَنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ۝ ﴾ [الصفافات: ٩٩-١١٣] .

(١) اختلف أهل العلم في الذبيح على أقوال . حصرها الألوسي (رحمه الله) في أربعة أقوال : الأول : أنه إسماعيل عليه السلام . الثاني : أنه إسحاق عليه السلام . الثالث : الله أعلم أيهما الذبيح (أي التوقف فيه) . الرابع : حدث مرتين : مرة بالشام لإسحاق . ومرة بمكة لإسماعيل . انظر : روح المعاني : ١٣٦/٢٣ .

فإذا استبعدنا القول الثالث والرابع لضعفهما فإن بعض أهل العلم نصر القول بأنه إسحاق كما زعم أهل الكتاب - من أولئك الإمام القرطبي (رحمه الله) وقد انتصر لذلك في مواضع من تفسيره . انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٥/١٠٠، ١٠١، ١١٢، ١١٣ - وذهب جمهور الصحابة والتابعين وجمهور أهل العلم على أنه إسماعيل عليه السلام . وهو الصواب الذي تدعمه الأدلة . انظر : التفسير الكبير : ١٥٨/٢٦ . تفسير القرآن العظيم : ٢٧/٤ - ٣٠ . تفسير أبي السعود : ٢٠٠/٧ . روح المعاني : ١٣٦/٢٣ . تيسير الكريم الرحمن : ص: ٦٥٢ . وانتصر لهذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم . وأبطلا القول بأنه إسحاق بأكثر من عشرين وجهاً . انظر : زاد المعاد : ٧١/١ - ٧٥ . الضوء المنير : ٤٩٦/٣ - ٤٩٩ . إغاثة اللهنان : ٣٥٥/٢ - ٣٥٧ .

إن إبراهيم عليه السلام بعد أن نجا من النار أيس من قومه ، فاعتزلهم مهاجراً إلى حيث يتمكن من عبادة ربه ، طالباً الهداية من الله في أمر دينه ودنياه .

ثم توجه إلى ربه بالدعاء ليهب له أبناء صالحين يستعيض بهم عن قومه وعشيرته الذين فارقهم . فأجاب الله دعاءه ، وبشره بغلام ذكر موصوف بالحلم ، الذي يتضمن الصبر ، وحسن الخلق ، وسعة الصدر ، والعفو عمن جنى في حقه .

ثم وهبه إياه فكان أول ابن له ، وهو إسماعيل عليه السلام . فلما كبر وترعرع وبلغ المبلغ الذي يسعى مع أبيه ويعينه في أمور دنياه ، أو طاق ما يفعله أبوه من السعي ، وبلغ سنّاً يكون فيها أحبّ لوّالديه ، حيث ذهبت مشقّته وأقبلت منفعتها ، رأى أبوه في النوم أنّه يذبحه - ورؤيا الأنبياء وحي^(١) - عند ذلك استشار ابنه في هذا الخطب العظيم ، والأمر الجلل ليرى صبر ابنه وثباته في طاعة الله ، والانقياد لأمره ، ولتقرّ عينه بذلك ، وليكون الذبح أهون على ابنه ، ولينال الثناء الحسن في الدنيا ، والثواب العظيم في الآخرة^(٢) .

(١) روى البخاري في صحيحه عن عبيد بن عمير (رحمه الله) قال: " رؤيا الأنبياء وحي ثم قرأ: ﴿ إِنِّي أَرَىٰ

فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] . كتاب الوضوء: (٤) . باب التخفيف في الوضوء: (٥) . ص:

(٢) بين شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) الحكمة من ابتلاء إبراهيم بذبح ابنه . والمنفعة التي تعود على المبتلى من ذلك . فقال : " والتحقيق أنّ الأمر الذي هو ابتلاء وامتحان يحضّ عليه من غير منفعة في الفعل متى اعتقده العبد وعزم على الامتثال حصل المقصود . وإن لم يفعله كإبراهيم لما أمر بذبح ابنه وهذا هو الحكمة الناشئة من نفس الأمر والتي لا من نفس الفعل . فقد يؤمر العبد وينهى . وتكون الحكمة طاعته للأمر وانقياده له . وبذلك للمطلوب . كما كان المطلوب من إبراهيم تقديم حبّ الله على حبه لابنه حتّى تتمّ خلّته به قبل ذبح هذا المحبوب لله . فلما أقدم عليه ، وقوي عزمه بإرادته لذلك تحقّق بأنّ الله أحبّ إليه من الولد وغيره . ولم يبق في قلبه محبوب يزاحم محبة الله .

وكذلك أصحاب طالوت . ابتلوا بالامتناع من الشرب ليحصل من إيمانهم وطاعتهم ما تحصل به الموافقة . والابتلاء ههنا كان بنهي لا بأمر . وأمّا رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة فالفعل في نفسه مقصود لما تضمنه من ذكر الله " . مجموع الفتاوى : ١٤٥/١٤ . وانظر : إغاثة اللّهفان : ٣٥٦/٢ . زاد المعاد : ٧٤/١ . الضوء المنير : ٤٩٨/٣ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٦٥٢ .

عندها أجاب إسماعيل عليه السّلام منصاعاً لأمر الله ، منقاداً له : امض يا
أبت لما أمرك الله فإنّي سأصبر واحتسب أجري عند الله ، وقرن ذلك بمشيئة الله
لأنّه لا شيء يكون إلّا بمشيئته ، وفيه طلب العون من الله .

ولقد الزم نفسه عليه السّلام بالصّبر ووعد أباه به ، وفي ذلك توطين للنفس
على الثّبات . وقد وفّى بوعده وبما التزم به من الصّبر والثّبات فمدحه الله بذلك ،
فقال : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصّٰبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥] .

وقال : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا
نَبِيًّا ﴾ [مرم: ٥٤] .

لقد استسلما لأمر الله وانقادا له ، وأخلصا نفسيهما إلى ربّهما سبحانه
وتعالى . إبراهيم جازم بذبح ثمرة فؤاده امتثالاً لأمر الله ، وإسماعيل موطن نفسه
على الصّبر في طاعة الله وطاعة والده .

ويتحقّق العزم على الفعل ، وتوطنّ النفس على مقدماته ، فيصرع إبراهيم
عليه السّلام فلذة كبده الوحيد على أحد جنبيه استعداداً لتنفيذ أمر الله فيه ، فيأتي
الفرج من الله ، وينكشف الكرب ، وتزول الغمّة .

لقد قام إبراهيم عليه السّلام بما كلّف به خير قيام ، وأدى الطّاعة على أكمل
وجه ، وفعل ما أمكنه فعله ، صابراً ثابتاً ، ممتثالاً ، طائعاً . ولذا خلّصه الله من
هذه المحنة بكبش العظيم القدر يذبح فداء لابنه عليه السّلام .

وتلك سنة الله في تخليص المحسنين من الشّدائد والابتلاءات . بل واستحقّق
بذلك الثّناء الحسن والأجر العظيم ، لأنّه اجتاز بثباته وثبات ابنه عقبة كأداء ، ومحنة
بيّنة صعبة ، شديدة المراس ، لا يجتازها إلّا الصّادقون المخلصون . فأبقى الله له
ثناء جميلاً عاطراً في الأمم .

فما من أمة إلّا وتعظّمه ، وتوجّ الله ابتلاءه له بسلام منه ، وشرّفه بالإضافة
إليه لأنّه أعطى العبوديّة حقّها .

وجعل الله ما جرى على يديه سنة في أهل الإسلام : أن يذبح كلّ قادر منهم
مستطيع كبشاً تعظيماً لله ، وتأسياً بإبراهيم عليه السلام ^(١) .

إنّ تلك الحادثة تغرس في نفس المسلم الإيمان الصادق بالخالق عزّ وجلّ ،
والانصياع التّام لأوامره سبحانه وتعالى ، ولو كان في ذلك هلاك النفس ، وذهاب
الروح . كما تتجلّى فيها حكمته سبحانه في ابتلاء عباده ببعض التّكاليف الشّاقة التي
توصلهم بالثّبات والصّبر عليها إلى المقامات السّامية ، والمنازل العالية . وفيها تنبيه
لكلّ مسلم صادق في هذه الحياة بأنّه معرض للابتلاء مهما بلغ إيمانه ، وزاد يقينه .
وقد يكون ذلك بما تكرهه نفسه ، ويأباه قلبه ليوطّن نفسه على الثّبات ، ويهيئها على
الصّبر .

(١) انظر في معنى الآيات : الكشف : ٣/٣٤٨-٣٤٩ . " طبعة الحلبي " . المحرر الوجيز : ١٢/٣٨٤-٣٨٧ .
التفسير الكبير : ٢٦/١٥٦-١٥٩ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥/٩٧-١١٢ . تفسير القرآن العظيم :
٤/٢٣-٣٦ . تفسير أبي السعود : ٧/٢٠٠-٢٠٢ . روح المعاني : ٢٣/١٣١-١٣٦ . محاسن التّأويل :
١٤/٥٠٤٩-٥٠٥٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٦٥٢ . وانظر : مفتاح دار السّعادة . ص : ١/٣٠٠ .

﴿المطلب الثالث﴾

يوسف بن يعقوب عليهما السلام

لقد ابتلي يوسف عليه السلام بمحن متتالية ، وابتلاءات متعاقبة ثبتت عندها ثبات الكرام ، وصبر صبر الأبطال العظام ، حتى اجتازها مكرماً منعماً ، نال بها سعادة الدنيا والآخرة .

ابتلي عليه السلام بحسد إخوته له لحب أبيه له ولأخيه دون من سواه ، حيث قالوا : ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [يوسف: ٨] (١) .

وكادوه عليه السلام حتى فرقوا بينه وبين أبيه . وأجمعوا أمرهم على إلقائه في أسفل الجب (٢) وحيداً فريداً .

كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٥] (٣) .

ثم باعوه رقيقاً بثمن قليل جداً لمن ذهب به إلى بلاد الكفر ، وكانوا فيه زاهدين لأن قصدهم إبعاده عن أبيه لا الثمن ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٢١/١٠ .. وانظر في معنى الآية : الجامع لأحكام القرآن : ١٣٠/٩-١٣١ . تفسير

القرآن العظيم : ٧٢٦/٢ .

(٢) الجُبُّ: البئرُ ، مذكر . وقيل: هي البئر التي لم تُطَوَّ . وقيل: هي الجيدة الموضع من الكَلأ . وقيل:

هي البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر ، أو هي مما وجد لا مما حفره الناس . انظر : القاموس المحيظ : ص: ٨٣ .

وانظر : لسان العرب : ٢٥٠/١ .

(٣) انظر : إغاثة اللهفان : ١١٤/٢ . وانظر في معنى الآية : الجامع لأحكام القرآن : ١٤١/٩-١٤٤ . تفسير القرآن

العظيم : ٧٢٨/٢-٧٢٩ .

عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرُّهُ بِشْمَسٍ بِخَسِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ
الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ [يوسف: ١٩-٢٠] (١) .

وقد باعه أولئك مملوكاً إلى عزيز مصر الذي أعجب به ، وتوسّم الخير
والصلاح فيه ، فوصّى عليه امرأته قائلاً لها : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا
أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١] .

وفي بيت العزيز ابتلي يوسف عليه السلام بمحنة عظيمة فاقت في عظمها كل
المحن السابقة .

لقد كانت محن إخوته له من باب المصائب التي لا اختيار له في دفعها ، وأما
ابتلاؤه هنا فبمعصية له الاختيار في دفعها أو الوقوع فيها . والثبات عندها أشدّ على
النفس من الثبات على ما سبق ، خاصة وأن تلك المعصية حفت بالدواعي المتكاثرة
التي تدفع العبد دفعاً لارتكابها ، والإقدام على فعلها (٢) .

يقول تعالى : ﴿ وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ
﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ
السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٣-٢٤] (٣) .

لقد كان يوسف عليه السلام ذا جمال وكمال وبهاء ، فتعلّقت به امرأة العزيز
وأحبّته حبّاً بلغ شغاف (٤) قلبها ، حتّى حملها على مرادته ومحاولته أن يواقعها ،

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٢١/١٠ . شفاء العليل . ص : ٣٤ .. وانظر في معنى الآيتين : الجامع لأحكام

القرآن : ١٥٧-١٥٢/٩ . تفسير القرآن العظيم : ٧٣٠-٧٣١/٢ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٣٥١ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ١٢٢/١٠ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٣٥٢-٣٥١ .

(٣) انظر في معنى الآيتين : الجامع لأحكام القرآن : ١٦٢/٩-١٧٠ . تفسير القرآن العظيم : ٧٣٢/٢-٧٣٤ . تيسير

الكريم الرحمن : ص : ٣٥٢-٣٥١ .

(٤) شغاف : الشَّعَافُ غِلَافُ الْقَلْبِ . وهو جلدة دونه كالْحِجَابِ . وقيل : هي سُودَاؤُهُ . ويقال : بل هو غشاء

القلب . وَشَعْفَةُ الْحُبِّ يَشَعْفُهُ شَعْفًا وَشَعْفًا . وَصَلَ إِلْحَبُ شِعَافَ قَلْبِهِ .

وكانت الدواعي الداعية لوقوع تلك الواقعة قوية جداً لا يثبت عندها إلا من تثبته الله
وصبره ، من ذلك :

١/ إنَّ الرجل بطبعه يميل إلى المرأة كما تميل هي إليه ، كميل العطشان إلى الماء ،
والجائع إلى الطعام ، بل قد يكون أشدَّ .

٢/ إنَّ يوسف عليه السلام كان شاباً ، والشهوة في الشباب أقوى وأحد .

٣/ إنَّه كان عزباً ، لا زوجة تكسر قوة شهوته .

٤/ كان غريباً ، لا يحتشم كما يحتشم من كان في وطنه وبين أهله ومعارفه .

٥/ كانت المرأة ذات منصب وجمال ، وكلَّ من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

٦/ إنَّها لم تكن ممتنعة ولا آبية ، بل كانت طالبة رغبة .

٧/ إنَّه كان في دارها وتحت سلطانها ، وقد غلقت الأبواب وغيّبت الرقباء ، وتهيأت
بما يحسنها ويجملها لتدفعه على الفاحشة .

٨/ كان غلامها ومملوكها وفي دارها وخدمتها ، يتاح له ما لا يتاح لغيره .

٩/ إنَّها استعانة عليه بأئمة المكر والاحتتيال اللائي أعنها عليه ، ودعته لطاعة
أمرها ، وتحقيق ما تصبو إليه .

١٠/ توعّده بالسجن والعذاب الأليم ، وفي ذلك إكراه وإجبار له .

١١/ لم تظهر من الزوج غيرة ونخوة تفرق بينهما ، وتبعد كل واحد عن صاحبه ،
والغيرة في الرجل من أقوى ما يمنع من وقوع الفاحشة في أهله (١) .

إلا إنَّه عليه السلام مع كل هذه الدواعي وقوتها أثر مرضاة الله ، وقدم حبَّ
الله على شهوة النفس ، وطاعة الله على طاعة الهوى ، وثبت ثبات الراسيات في
موطن لا يثبت فيه إلا الذين كمل إخلاصهم وصدقهم ، وغمرت قلوبهم مخافة الله ،

وقوله: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف: ٣٠] قيل: دخل حُبُّه تحت الشَّغاف . وقيل: غَشَّى الحُبُّ

قَلْبَهَا . وقيل: أصاب شَغَافَهَا . انظر: لسان العرب: ١٧٩/٩ . وانظر: القاموس المحيط: ص: ١٠٦٦ .

(١) الجواب الكافي . ص: ١٤٨-١٤٩ . " بتصرف " .. وانظر : دقائق التفسير : ٤٣٦/٣ . تيسير الكريم الرحمن :

ص : ٣٥١ .

وصقلها اليقين ، فلا تتحرك إلا في طاعته ، ولا تتساق إلا لمراده واختياره سبحانه ، يحيط كل ذلك حفظ الله وعنايته .

كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١)

[يوسف: ٢٤] (١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" فليتدبر اللبيب هذه الدواعي التي دعت يوسف إلى ما دعته ، وأنه مع توفرها وقوتها ليس له عن ذلك صارف إذا فعل ذلك ، ولا من ينجيه من المخلوقين ، ليتبين له أن الذي ابتلي به يوسف كان من أعظم الأمور ، وأن تقواه وصبره عن المعصية حتى لا يفعلها مع ظلم الظالمين له حتى لا يجيبهم كان من أعظم الحسنات وأكبر الطاعات ، وإن نفس يوسف عليه الصلاة والسلام كانت من أزكى الأنفس " (٢) .

لقد امتنع يوسف عليه السلام أشد الامتناع من الوقوع في الفاحشة ، وعصمه الله لصدقه وإخلاصه من مطاوعة المرأة ، واختار السجن والذل والحبس مع الطهارة والنقاء ، على العز وقضاء الشهوة والمال مع المعصية والفحشاء . ولذا قال : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي

(١) والهم هنا : هم خطرات ، وهو حديث النفس ، لا هم إصرار . وعلى مثله يجازى العبد بالحسنات . وفي الحديث

القدسي : عن ابن عباس (رضي الله عنهما) عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى قال : " إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك . فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة . وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنه عشر حسنات إلى سبعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة . وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة " . صحيح مسلم : بلفظه . في كتاب الإيمان : (١) . باب إذا هم العبد بحسنة كتب . وإذا هم بسيئة لم تكتب : (٥٩) . برقم : (١٣١) . ١١٨/١ . وانظر

بمجموع الفتاوى : ٧٤٠/١٠ . دقائق التفسير : ٤٣٢/٣ - ٤٣٣ . تفسير القرآن العظيم : ٧٣٤/٢

(٢) دقائق التفسير : ٤٣٦/٣ - ٤٣٧ .

كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ [يوسف: ٣٣-٣٤] (١) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وفي قول يوسف - فذكر الآية الأولى - عبرتان :

أحدهما : اختيار السّجن والبلاء على الذّنوب والمعاصي .

والثّانية : طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ، ويصرفه إلى طاعته ، وإلاّ فإذا لم يثبت القلب وإلاّ صبا إلى الأمرين بالذنوب ، وصار من الجاهلين .
ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطّاعة ، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطّاعة (٢) .

وجزاء لهذا الثّبات وذلك الصّبر أخرج الله عزّ وجلّ من السّجن معزّراً مكرّماً ، فتحقّق الملك من براءته ونزاهة عرضه ممّا نسب إليه ، وعلم أمانته وصبره وجلده ، وعظمت عنده منزلته ، فجعله من خاصّته وأهل مشورته ، ومكّنه في أمر مملكته بتمكين الله له ، فصار نافذ القول ، عزيز الجانب ، فنال بذلك عزّ الدّنيا وسعادتها . وما ادّخره الله له في الآخرة أعظم وأجل .

قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِمِثْلِ مَا أَصَابَكَ لَوَلَّى وُجْهُكَ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٣٣﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤-٥٧] (٣) .

(١) وانظر في معنى الآيتين : الجامع لأحكام القرآن : ١٨٤/٩ - ١٨٥ . تفسير القرآن العظيم : ٧٣٨/٢ .

روح المعاني : ٢٣٦/١٢ . تيسر الكريم الرحمن : ص : ٣٥٢-٣٥٣ .

(٢) دقائق التفسير : ٤٢٩/٣ .

(٣) انظر في معنى الآيات : الجامع لأحكام القرآن : ٢١٠/٩ - ٢٢٠ . تفسير القرآن العظيم : ٧٤٥/٢ - ٧٤٦ .

إن يوسف عليه السلام لما لم يخش للنوائب وعيذاً ، ولا للتجارب تهديداً ، ولم يخف للسجن ظلماً وشرّاً ، ولا للتتكيل به ألماً وضرراً ، بل ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب ، نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ، ولسان الصدق طول أيام الدهر ؛ وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام ، ولم يعبث بنضارته كرور الأعوام ، بل ادّخرت لنا مثالاً نفتقي أثره عند طروء التجارب ، وملاذاً نعوذ به في المحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار ، وننهج منهاجه في التقوى وطيب الإزار ، فننال في الدنيا سمة المجد ، ونفوز في الآخرة بدار الخلد (١) .

قال بعضهم :

أما في نبيّ الله يوسف أسوة مثلك محبوساً على الجور والإفك (٢)
أقام جميل الصبر في الحبس برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك (٣)

(١) محاسن التأويل : ٣٥٥٨/٩ .

(٢) الإفك : هو الكذب . انظر: مختار الصحاح : ص : ١٩ . لسان العرب : ٣٩٠/١٠ . القاموس المحيط : ص : ١٢٠٣ .

(٣) هذان البيتان للبحرّي في ديوانه . طبعة : دار صادر . دار بيروت . بيروت . ٣٧١/٢ .

﴿المطلب الرابع﴾

أيوب عليه السلام .

إن قصة أيوب عليه السلام مثل رائع للثبات عند الابتلاء ، وأنموذج فريد للصبر عند الشدائد والمحن . فيها عبرة لكل معتبر ، وأسوة لكل متأس . ولذا أوردها الله في قرآنه في سياق التذكير والتنبية ، والحض والتتويه ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ

وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ [ص: ٤١] .

وفي الآية الأخرى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

الرَّحِيمِينَ ﴿٨٣﴾ [الأنبياء: ٨٣] .

ففيها تسلية للنبي محمد ﷺ فيما أصابه من الأذى ، وتذكير له بحال إخوته الأنبياء السابقين ، وما أصابهم من البلاء ليجد في ذلك عوناً على الصبر والثبات عند حدوث الملمات والشدائد القاسيات ، وأن يحسن الثناء والذكر على أيوب عليه السلام ، الذي ضرب مثلاً في الصبر للعالمين طراً ، فتحدثت بصبره الركبان ، وشاع ذكره في جميع الأوطان .

لقد ذكر أهل العلم أن أيوب عليه السلام كان في نعمة عظيمة وخير وفير . كثرت عنده الأموال بأصنافها وأنواعها ، من الأنعام والعبيد والأراضي والمساكن ، وكثر أولاده وأهله ، ثم حلّ به البلاء في ماله وولده فذهب ذلك كله ، وأصيب في جسده بمرض شديد وخيم .

وقد ورد في بلائه روايات متعددة ومختلفة ، وأكثرها من الإسرائيليات التي ملئت بما ينافي مقام النبوة .

وإن كان يؤخذ من مجموع تلك الروايات ما يفيد أن أيوب عليه السلام ابتلي ببلاء فادح وضرّ عظيم ، ولكن لم يزد ذلك البلاء إلا صبراً وثباتاً ، وحمداً وشكراً حتى ضرب به المثل (١) .

فلما طال به الأمد ، واشتدّ به الحال ، وتمّ الأجل المقدر لمكثته في البلاء ، رفع أكفّ الضراعة لباسط الأرض ورافع السماء ليكشف ما به من ضرّ ويرفع ما به من ابتلاء .

لقد علم عليه السلام أن الذي يكشف الضرّ هو الله ، والذي يلجأ إليه عند المحن والشدائد هو قيوم السماوات والأرض ، الذي إذا دعي أجاب وإذا سئل أعطى .

فطرح نفسه بين يديه ، وشكا حاله مبتهلاً إليه ﴿ أَنْتَ مَسْنَى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣] . ﴿ أَنْتَ مَسْنَى الشَّيْطَانِ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص: ٤١] (٢) . وليس ذلك جزءاً منه عليه السلام لأنّ الشكوى إلى الله لا تنافي الثبات والصبر ، وإنما ينافيه الشكوى إلى المخلوق (٣) ، وقد أزال الله اللبس بقوله مادحاً له : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ [ص: ٤٤] .

عند ذلك أمره الله بأمر فيه صلاحه ونجاحه ، فقال له : ﴿ أَرَكُضْ بِرَجْلِكَ

هَذَا مُعْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص: ٤٢] .

(١) انظر : البداية والنهاية : ٢٠٧/١ " طبعة دار الكتب العلمية " .

(٢) وانظر معنى الآيتين في : جامع البيان : ٥٧/١٧ . ١٦٦/٢٣ " طبعة الخليفي " . المحرر الوجيز : ٤٦٤/١٢ .

التفسير الكبير : ٢٠٣/٢٢ . ٢١٢/٢٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٥/١١ . ٢٠٨-٢٠٧/١٥ . تفسير القرآن

العظيم : ٣٠١/٣ . ٦٠/٤ . تفسير أبي السعود : ٢٢٨/٧ . روح المعاني : ٨١-٨٠/١٧ . ٢٠٦/٢٣ . محاسن

التأويل : ٤٢٩٦/١١ . تفسير الكريم الرحمن : ص : ٤٧٨ . ٦٦٠ .

(٣) انظر . ص : ٣٤٠ من هذا البحث .

أي حرك الأرض وادفعها برجلك ، فانبجست^(١) له عين ، اغتسل منها وشرب .
وقيل عيان اغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فبالاغتسال ذهب البلاء من
ظاهره ، وبالشرب ذهب البلاء من باطنه ، ففرج الله عنه ، وتكاملت له العافية
ظاهراً وباطناً^(٢).

وهكذا يفعل الله بعباده الأتقياء ، فيفرج عنهم عند الشدة ، ويكشف ما بهم عند
الضيق ، متى علم إخلاصهم وصدقهم ، وصبرهم وثباتهم .

وأعطي عليه السلام أهله ومثلهم معهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ

وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الأنبياء: ٨٤] .

وفي الآية الأخرى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ [ص: ٤٣] .

قيل : ردوا عليه بأعيانهم . وقيل : بل أعطي مثل أهله الذين هلكوا ،
وأعطي أجرهم في الدنيا^(٣) .

وقوله: ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الأنبياء: ٨٤] . وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا

لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٤٣] .

أي فعلنا به ذلك ، ورحمناه رحمة شاملة ينال بها الجزاء عاجلاً وأجلاً
لصبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته^(٤) . ورزقناه رزقاً واسعاً حتى صبيناه
عليه المال صباً .

(١) انبجست : أي انشقت وتفجرت . انظر : القاموس المحيط : ص : ٦٨٤ .

(٢) انظر : جامع البيان : ١٦٦/٢٣-١٦٧ " طبعة الحلبي " . الجامع لأحكام القرآن : ٢١١/١٥ . تفسير القرآن

العظيم : ٦٠/٤ . تفسير أبي السعود : ٢٢٩/٧ . روح المعاني : ٢٠٧/٢٣ .

(٣) انظر : جامع البيان : ٧٢/١٧-٧٣ " طبعة الحلبي " . تفسير القرآن العظيم : ٣٠٣/٣-٣٠٤ . ٦١/٤ . روح

المعاني : ٨١/١٧ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٦١/٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٦٦٠ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " بينما أيوب يغتسل عرياناً خرّ عليه رجل جراد ^(١) من ذهب ، فجعل يحثي في ثوبه فنادى ربّه : يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال : بلى يا ربّ ، ولكن لا غنى لي عن بركتك " ^(٢) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " إن أيوب نبي الله ﷺ لبث في بلائه ثمان عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصّ إخوانه ، كانا يغدوان إليه ويروحان . فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه : وذاك ؟ قال : منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به . فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتّى ذكر ذلك له . فقال أيوب : لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أنّي كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله ، فأرجع إلى بيتي فأكفرّ عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حقّ . قال : وكان يخرج إلى حاجته ، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده . فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيوب في كتابه ﴿ أَرَكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص: ٤٢] فاستبطنته فبلغته ، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء فهو أحسن ما كان ، فلما رآته قالت : أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ؟ والله على ذلك ما رأيت أحداً كان أشبه به منك

(١) رجل جراد: هي الجماعة الكثيرة من الجراد . انظر: الفائق: ٤٧/٢ . وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٤١١/٢ . غريب الحديث للخطّابي: ٣٨٨/٢ . النهاية في غريب الحديث: ٢٠٣/٢ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب : أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب: قول الله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣] : (٢١/٢٠) . برقم: (٣٣٩١) . ص: ٧١٥ . ولفظه إلا أحرف يسيرة في كتاب التوحيد: (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ [الفتح: ١٥] : (٣٥) . برقم: (٧٤٩٣) . ص: ١٥٧٣ . ولفظ مقارب في كتاب: الغسل (الوضوء) : (٤/٥) . باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة . ومن تسرّ فالتسّتر أفضل: (٩٩/٢٠) . برقم: (٢٧٩) . ص: ٧٥ .

إذ كان صحيحاً ؟ قال فَإِنِّي أنا هو . وكان له أندران ، أندر ^(١) القمح وأندر الشعير . فبعث الله صاحبتي ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاضت ، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضت " ^(٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَذَكَرَ لِلْعَبِيدِ ﴾ [الأنبياء: ٨٤] ، وقوله :

﴿ وَذَكَرَ لِأُولَى الْأَلْبِ ﴾ [ص: ٤٣] .

أي إن الله تعالى جعل قصته عبرة لأصحاب العقول النيرة ، ليستشفوا من خلالها القدوة والأسوة ، فيوطنوا أنفسهم على الصبر والتبات عند الشدائد والبلايا ، وليعلموا أن الله قد يبتلي أوليائه وأحباؤه بأنواع من البلاء ، في النفس والأهل والمال ، لا لهُوانهم عليه ، ولكن لبلوغ ما أعد لهم من منازل لم تبلغها أعمالهم ، فيجزئهم بذلك الجزاء الحسن والثواب العظيم .

وفيه تثبيت لقلوبهم ، مهما طال بهم البلاء واشتد عليهم الأذى ، فلا ييأسوا من رحمة الله وسعة فضله ^(٣) .

(١) الأندَر : هو البَيْدَرُ ، وهو الموضع الذي يُداسُ فيه الطَّعامُ بلغة الشَّام . والأندَرُ أيضاً صُبرةٌ من الطَّعام ،

وهَمْزةُ الكلمة زائدة . النهاية في غريب الحديث : ٧٤/١ .

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : : بلفظه في : باب من امتحن بمحنة في الدنيا فيلقاها بالصبر . برقم :

(٢٨٩٨) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده على شرط مسلم " : ١٥٧/٧ - ١٥٩ .

مستدرک الحاكم : بلفظ مقارب في : ٦٣٥-٦٣٦ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم

يخرجاه " . وقال الذهبي (رحمه الله) : " على شرط البخاري ومسلم " . وفيه : " أنه لبث في بلائه خمس عشرة سنة " .

مسند أبي يعلى : بلفظ مقارب في : ٢٩٩/٦ - ٣٠١ . برقم : (٣٦١٧) .

وقال الهيثمي (رحمه الله) : " رواه أبو يعلى والبزار . ورجال البزار رجال الصحيح " . مجمع الزوائد : ٢٠٨/٨ .

وقال الخافظ ابن حجر (رحمه الله) : : " أصح ما ورد في قصته " . فذكره . إلا أنه ذكر أن مدة بلائه ثلاث عشرة

سنة . فتح الباري : ٧٨/٧ .

(٣) انظر في معنى الآيتين : جامع البيان : ٧٣/١٧ " طبعة الحلبي " . الخمر الوجيز : ٤٦٨/١٢ . التفسير الكبير :

٢١٠/٢٢ . ٢١٥/٢٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٧/١١ . تفسير القرآن العظيم : ٣٠٤/٣ . روح المعاني :

٨١/١٧ . ٢٠٧/٢٣ . محاسن التأويل : ٤٢٩٧/١١ - ٤٢٩٨ .

ومن تمام نعمة الله وفضله عليه قوله له : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرُبْ

بِهِ وَلَا تَحْنِثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ^(١) ﴾ [ص: ٤٤] .

وذلك أنه غضب على امرأته في أمر فعلته ، فحلف إن شفاه الله ليضربنها ، فلمّا شفي أبرّ الله يمينه ، وجعل له مخرجاً من نذره ، فأمره أن يأخذ حزمة من حشيش أو شجر أو شمراخ ^(٢) فيضربها بها ضربة واحدة لأنها كانت محسنة له ، صابرة محتسبة ، كابدت معه المشاق ، وقاست معه الشدائد ، فمن الإحسان إليها ألاّ تجازى بالضرب والأذى ؛ فخفف الحكم في شأنها رحمة بها ، ومنعاً لأيوب عليه السلام من الحنث في يمينه ^(٣) .

وكلّ هذه النعم وذلك الإحسان الذي سيق لأيوب عليه السلام من كشف البلاء عنه ، وإرجاع أهله وأولاده أو مثلهم له ، وبسط المال وسعة الرزق ، إضافة إلى ما أدخر له من أجر عظيم في الآخرة . كلّ ذلك بسبب صبره وثباته عند البلاء ، وإقباله على طاعة ربه ورضائه بقدره ، وإكماله لمراتب العبوديّة له في الشدّة والرخاء ، والضرّاء والسرّاء . ولذلك مدحه الله بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ

الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ^(٤) ﴾ [ص: ٤٤] .

(١) الأواب : كالتوّاب وهو الراجع إلى الله تعالى بترك المعاصي وفعل الطاعات . المفردات: ص: ٣٠

(٢) شمراخ : الشّمْرَاخُ والشّمْرُوخ: العُتْكَالُ الذي عليه البُسْرُ . وأصله في العِذْق . وقد يكون في العنب.

لسان العرب: ٣١/٣ . وانظر: القاموس المحيظ: ص: ٣٢٥.

(٣) انظر : جامع البيان : ١٦٨/٢٣-١٦٩ " طبعة الخلي " . تفسير القرآن العظيم : ٦١/٤ . تفسير أبي السعود :

٢٢٩/٧ . روح المعاني : ٢٣/٢٠٨-٢٠٩ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٦٦٠ . وانظر : البداية والنهاية :

٢٠٩/١-٢١٠ .

المبحث الثاني

أتباع الرّسل عليهم السّلام

ما سبق من نماذج للثّابتين على الابتلاء يتعلّق بأنبياء الله تعالى ورسله . وقد يعترض معترض بأنّ أنبياء الله ورسله معصومون ، ومن عصمة الله لهم أن يثبتهم عند المحن والشّدائد ، وعند الأوامر والنّواهي ، فكيف بغيرهم ممّن لم يعصموا ؟ وللجواب على ذلك في الجملة :

فأقول : إنّ الأنبياء والرّسل جعلوا أسوة وقدوة للبشر فيما كلّفهم الله به لإبلاغه للعباد ، والأسوة والقُدوة لا تتأتّى في غير المستطاع والمقدور عليه من الأقوال والأفعال ، والثّبات عند الابتلاء من المقدور عليه الذي يتأتّى فيه التّأسي والافتداء . ولذا أخبر الله تعالى من أخبار الرّسل والأنبياء في شأن الثّبات على البلاء لهذا القصد .

وأما التّفصيل فإنّي أورد مثالين فذّين من غير الأنبياء والرّسل ، أحدهما في هذه الأمّة والآخر في الأمم السّابقة . وإن كانت الأمثلة كثيرة جداً لا يمكن حصرها ، ولكن في القليل ما يغني عن الكثير ، والقصد من ذلك التّمثيل لا الحصر .

وليكن الأوّل في الثّبات عند النّقم والآخر في الثّبات عند النّعم ليتحقّق المواد ، ويتمّ المقصود . والحديث عنهما في المطالبين الآتين :

﴿المطلب الأول﴾

خبيب بن عدي رضي الله عنه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " بعث رسول الله ﷺ عشرة عينا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت ^(١) الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب ^(٢) حتى إذا كانوا بالهذأة ^(٣) بين عسفان ^(٤) ومكة ذكروا الحي من هذيل ^(٥) يقال لهم

(١) عند ابن إسحاق (رحمه الله) : أنه أمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي . انظر : السير النبوية لابن هشام : ١٢٥/٣ . وإن كان ابن إسحاق (رحمه الله) إماماً في المغازي والسير إلا أن ما في الصحيح أكثر طمأنينة . والله أعلم
(٢) عاصم بن عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي . أبو عمر ويقال أبو عمرو القرشي المدني . ولد في حياة النبي ﷺ . فهدى من كبار التابعين . كان جواداً نبيلاً . من عقلاء قريش وعباد التابعين . مات سنة ٧٠ هـ وقيل : بعدها .
وانظر : الطبقات الكبرى : ١٥/٥ . طبقات خليفة : ص : ٢٣٤ . التاريخ الكبير : ٤٧٧/٦ . معرفة الثقات : ٩/٢ .
الجرح والتعديل : ٣٤٦/٦ . ثقات ابن حبان : ٢٣٣/٥ . مشاهير علماء الأمصار : ٦٦/١ . التعديل والتحريج : ٩٩٥/٣ . تهذيب الكمال : ٥٢٠/١٣ . الكاشف : ٥٢٠/١ . الإصابة : ٣/٥ . تهذيب التهذيب : ٤٦/٥ . تقريب التهذيب : ٢٨٦/١ .

(٣) الهدأة : اسم موضع بين عسفان ومكة . وليس هو الهدأة الذي بين مكة والطائف . فهذا بدون ألف . انظر : معجم البلدان : ٣٩٥/٥ .

(٤) عسفان : بضم أوله — في صحيح البخاري بفتح أوله — وسكون ثانيه ثم فاء وآخره نون فعلان من عسفت المفازة وهو يعسفها ، وهو قطعها بلا هداية ولا قصد . وكذلك كل أمر يركب بغير روية . قيل : سميت عسفان لتعسف السبل فيها كما سميت الأبواء لتبوء السبل بها . وهي منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة . على ستة وثلاثين ميلاً من مكة وهي حد تهامة . معجم البلدان : ١٢١/٤ - ١٢٢ . بتصرف .

(٥) هذيل : قبيلة من كبار القبائل الحجازية . ينسبون إلى هذيل بن مدركة بن الياس . ولهم بطون متعددة .
انظر : جمهرة أنساب العرب . لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م : ١٩٦/١ . فلاندا الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان . لأبي العباس أحمد ابن علي القلقشندي . تحقيق : إبراهيم الأبياري . طبع : مطبعة السعادة . نشر : دار الكتب الحديثة . القاهرة .
الطبعة الأولى : ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م : ص : ١٣٣ - ١٣٤ . المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب . لعبد الرحمن بن حمد بن زيد المغيرة اللامي الطائفي . تحقيق : إبراهيم محمد الزايد . الطبعة الأولى : ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م : ص : ٥٤٣ - ٥٤٦ .

بنو لحيان^(١) ، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلمهم التمر في منزل نزلوه ، فقالوا تمر يثرب^(٢) ، فأتبعوا آثارهم ، فلما حس بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى موضع ، فأحاط بهم القوم ، فقالوا لهم : انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً .

فقال عاصم بن ثابت : أيها القوم أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ، ثم قال : اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ . فرمواهم بالنبل فقتلوا عاصماً ، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق ، منهم خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر^(٣) ، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها ، قال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم ، إن لي بهؤلاء أسوة ، يريد القتل ، فجرروهم وعالجوه فأبى أن يصحبهم . فانطلق بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بعد وقعة بدر ، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيباً ، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر . فلبث خبيب عندهم أسيراً حتى أجمعوا قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحذ^(٤) بها ، فأعارته ، فدرج بُني لها وهي غافلة حتى أتاه ، فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده . قالت : ففزعت فزعة عرفها خبيب ، فقال : أتخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك . قالت : والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب ، والله لقد وجدته يوماً يأكل قطفاً من عنب في يده وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة . وكانت تقول : إنه لرزق رزقه الله خبيباً .

فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل ، قال لهم خبيب : دعوني أصلي ركعتين . فتركوه ، فركع ركعتين . فقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع

(١) بنو لحيان : بطن من هذيل . وهم بنو لحيان بن هذيل . ولهم أفخاذ عدلة . وانظر : جمهرة أنساب

العرب : ١٩٦/١-١٩٧ . قلائد الجمان : ص : ١٣٣ . المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب : ص : ٥٤٦ .

(٢) يثرب : بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر الراء وباء موحدة هي مدينة رسول الله ﷺ . سُميت بذلك لأن أول من سكنها عند التفرق يثرب بن قانية . فلما نزلها رسول الله ﷺ سماها طيبة وطابة كراهية للتثريب . وسُميت مدينة الرسول ل نزوله بها . معجم البلدان : ٤/٣٠٠ . بتصرف . وانظر : معجم ما استعجم : ٤/١٣٨٩ .

(٣) واسمه : عبد الله بن طارق . السيرة النبوية لابن هشام : ٣/١٢٧ .

(٤) يستحذ : من الاستحذاء وهو حلق العانة بالحديدة . واستحذ ﷺ لئلا يظهر شعر عانيته عند قتله . انظر :

التهاية في غريب الحديث : ١/٣٥٣ . وانظر : غريب الحديث للهروي : ٢/٣٦-٣٧ .

لزدت . ثم قال : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ^(١) ولا تبق منهم أحداً ، ثم أنشأ يقول :

فلست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزّع ^(٢)
ثم قام إليه أبو سروة عتبة بن الحارث فقتله ، وكان خبيب هو سنّ لكلّ مسلم
قتل صبراً الصلّة.

وأخبر أصحابه يوم أصيبوا خبرهم . وبعث ناس من قریش إلى عاصم بن
ثابت حين حدثوا أنه قتل أن يؤتوا بشيء منه يُعرف - وكان قتل رجلاً عظيماً من

(١) بدداً : البدد : جمع بدّة وهي الحصّة ، والتقدير : واقتلهم قتلاً بدداً ، أي قتلاً مقسوماً عليهم بالحِصص . وعن الأصمعي : اللهم اقتلهم بدداً ، بفتح الباء أي متفرقين . انظر: الفائق: ٢١/٣ . وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ١١٠/١

(٢) الشلو هو العضو . انظر: الفائق: ٢٦٠/٢ . وممزّع : مقطّع . وانظر: الفائق: ٣٦٣/٣ . النهاية في غريب الحديث: ٣٢٥/٤

قال ابن إسحاق (رحمه الله) : وكان مما قيل في ذلك من الشعر . قول خبيب بن عدي حين بلغه أن القوم قد اجتمعوا لصلبه :

لقد جمع الأحزاب حولي وآلوا قبائلهم واستجمعوا كلّ مجمع
وكلّهم مبدي العداوة جاهد عليّ لأتي في وثاق ممضّع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم وقربت من جذع طويل ممّنع
إلى الله أشكو غربتي ثمّ كربتي وما أُرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرني على ما يراد بي فقد بضّعوا خمي وقد يأس مطمعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزّع
وقد خيروني الكفر والموت دونه وقد هملت عينا من غير مجزّع
وما بي حذار الموت . إني لميت ولكن حذاري جحيم نار ملّقع
فر الله ما أرجو إذا مت مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
فلست عبد للعدوّ تخشعاً ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي
قال ابن هشام (رحمه الله) : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له . السيرة النبوية لابن هشام : ١٣٠/٣ .

عظمائهم - فبعث الله لعاصم مثل الظلة^(١) من الدبر^(٢) فحمته من رسلهم فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئاً^(٣) .

إنَّ خبيباً ﷺ ضرب مثلاً رائعاً ، وأ نموذجاً فريداً في الثبات قلَّ أن يوجد نظيره . رجل يقاد إلى الموت من أناس أطغى الكفر قلوبهم ، وغطَّ الحقد نفوسهم ، وغابت الرحمة والشفقة من بين جوانحهم ، وهو يعلم مصيره الذي ينتظره ، إنه القتل ، وقد يكون بأبشع صورته . ومع ذلك يملأ الإيمان قلبه ، واليقين نفسه ، فيتدفق صبراً وثباتاً فلا يخاف ولا يجزع ، بل ولم يصدر منه فعل أو قول يجد المشركون فيه بغيتهم أو يُشفي به غليلهم ، بل الصلاة التي هي قربة لله لما خشي أن يجدوا فيها متنفساً لهم إذا أطال فيها أو زاد من ركعاتها فيستشعروا من ذلك جزعه وعدم ثباته تجوَّز فيها ﷺ .

بل من يلقي نظرة خاطفة على أبيات الشعر التي تفوه بها عند قتله يجدها تشع صبراً وثباتاً وصدقاً وولاء لهذا الدين ، وقد خير أن يطلق سراحه عند مفارقة دينه أو القتل مع بقاءه عليه ، فاختر البقاء مع القتل ، ومادام ذلك في ذات الله ومن أجله فالأمر ميسور عنده لا وزن لقتله حينئذ ، إذ كان هدفه الآخرة ، ونيل رضا الله ليست هذه الدنيا الفانية ، ولذا أظهر من البسالة ما يعجز المرء عن تصوُّره .

(١) الظلة: هي كل ما أظلك . وتطلق على السحابة . انظر: النهاية في غريب الحديث: ١٦٠/٣ .

(٢) الدبر: بسكون الباء التحل . وقيل الزنايبير . انظر: النهاية في غريب الحديث: ٩٩/٢ . وانظر: الفائق: ٢١١/٣ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) باب : (١٠) . برقم : (٣٩٨٩) . ص: ٨٣٤-٨٣٥ . ونحوه في

باب غزوة الرجيع ورغل وذكوان وبئر معونة : (٢٩/٢٨) . برقم : (٤٠٨٦) . ص: ٨٥٥-٨٥٦ .

وفي كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر . ومن ركع ركعتين عند القتل :

(١٦٩/١٧٠) . برقم : (٣٠٤٥) . ص: ٦٤١-٦٤٢ . وقطعة منه في كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب

ما يذكر في الذات والتعوت . وأسامي الله عز وجل : (١٤) . برقم : (٧٤٠٢) . ص: ١٥٥٤ .

وانظر في شأن خبيب ﷺ : السيرة النبوية لابن هشام : ١٢٥/٣-١٣٤ . زاد المعاد : ٢٤٤/٣-٢٤٦ . البداية

والنهاية : ٦٤/٤-٧١ . سير أعلام النبلاء : ٢٤٦/١-٢٤٩ . الإصابة : ٢٦٢/٢-٢٦٣ .

قال له أبو سفيان : أيسرك أن محمداً عندنا تضرب عنقه ، وإنك في أهلك ؟
فقال : " لا والله ، ما يسرتني أني في أهلي ، وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه
تصيبه شوكة تؤذيه " (١) .

إنها عبارة تترجم الولاء والصدق الذي ملئ به قلبه .
بهذا النوع من البشر نصر الله دينه ، وأعلى كلمته . ولذلك اختارهم لصحبة
نبيه وإعزاز دينه ، فرضي الله عن خبيب وعن الصحابة أجمعين .

(١) زاد المعاد : ٢٤٥/٣ . وانظر : البداية والنهاية : ٦٦/٤ . عند ابن إسحاق (رحمه الله) : أن قاتل ذلك هو زيد بن
الدثنة . انظر : السيرة النبوية لابن هشام : ١٢٧/٣ .

﴿المطلب الثاني﴾

الأعمى الشكور

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : " إن ثلاثة في بني إسرائيل : أبرص ^(١) وأقرع ^(٢) وأعمى ، فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قد قذرنى ^(٣) الناس . قال فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً . قال : فأني المال أحب إليك ؟ قال : الإبل (أو قال : البقر . شك إسحاق ^(٤)) إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما : الإبل . وقال الآخر : البقر . قال : فلأعطي ناقة عسراء ^(٥) . فقال : بارك الله لك فيها .

قال : فأتى الأقرع فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عني هذا الذي قذرنى الناس . قال : فمسحه ، فذهب عنه . وأعطى شعراً حسناً . قال : فأني المال أحب إليك ؟ قال : البقر . فأعطى بقرة حاملاً . فقال : بارك الله لك فيها .

(١) قال في القاموس : " البرص : - محرّكة - بياض يظهر في ظاهر البدن لفساد مزاج . برص كفرح فهو أبرص . وأبرصه الله . والذي ابيض من الدابة من أثر العض " . القاموس المحيط . ص : ٧٩٠ .
(٢) الأقرع : هو الذي ذهب شعر رأسه . انظر المرجع السابق . ص : ٩٦٩ .
(٣) قذرنى الناس : يقال قذرت الشيء أقدره إذا كرهته واجتنبته . يريد أنهم تقذروا منه واشمأزوا من رؤيته .
وانظر : النهاية في غريب الحديث : ٢٨/٤ . فتح الباري : ١٨٠/٧ .
(٤) هو إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، أبو يحيى الأنصاري ، مدني ، تابعي ، ثقة حجة ، توفي سنة ١٣٢هـ .
وقيل : بعدها .

وانظر : التاريخ الكبير : ٣٩٣/١ . معرفة الثقات : ٢١٩/١ . الجرح والتعديل : ٢٢٦/٢ . ثقات ابن حبان : ٢٣/٤ . تهذيب الكمال : ٤٤٤/٢ . الكاشف : ٢٣٧/١ . تهذيب التهذيب : ٢١٠/١ . التقريب : ١٠١/١ .
(٥) عسراء : هي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك أسمها حتى تضع ، وبعد أن تضع أيضاً .
وجمّعها عشار ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ [التكوير: ٤] . ومثله في التقدير امرأة نفساء ، وجمّعها نفاس . ويقال عشت في عسراء ، ولا يقال ذلك إلا للناقة . وهي من أنفس المال .
انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٣٤٠/١ . وانظر : غريب الحديث للخطابي : ١٦٤/٣ . النهاية في غريب الحديث : ٢٤٠/٣ . فتح الباري : ١٨٠/٧ . عمدة القارئ : ٤٨/١٦ .

قال : فأنتى الأعمى . فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إليّ بصري فأبصر به الناس . قال : فمسحه ، فردّ الله إليه بصره . قال : فأني المال أحب إليك ؟ قال : الغنم . فأعطي شاة والدأ .

فأنْتَجَ (١) هذان وولّد هذا . قال : فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

قال : ثمّ إنّه أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين ، قد انقطعت بي الحبال (٢) في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلاّ بالله ثمّ بك ، أسألك بلّذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بعيداً أتبلّغ عليه في سفري . فقال : الحقوق كثيرة . فقال له : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ؟ فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنّما ورثت هذا المال كابراً عن كابر (٣) . فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا ، وردّ عليه مثل ما ردّ على هذا . فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأعمى في صورته وهيئته . فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلاّ بالله ثمّ بك ، أسألك بلّذي ردّ عليك بصرك ، شاة أتبلّغ بها في سفري . فقال : قد كنت أعمى فردّ الله إليّ بصري

(١) أنْتَجَ : - رباعي - وهي لغة قليلة الاستعمال . والمشهور نتج - ثلاثي - ومعناه : تولّى الولادة . وهي التّنج والإنتاج . شرح التّووي على مسلم : ٩٨/١٨ . وانظر : فتح الباري : ١٨٠/٧ . عمدة القارئ : ٤٨/١٦ .

قال ابن الأثير : " فَأَنْتَجَ هَذَانِ وَوُلِدَ هَذَا : كذا جاء في الرواية أنْتَجَ وإنّما يُقال : نَتَجَ . فأما أنْتَجَتْ فمعناه إذا حَمَلَتْ أو حَانَ نَتَاجُهَا . وقيل : هُمَا لُغَتَانِ . التّنهاية في غريب الحديث : ١٢/٥ .

(٢) جمع حبل : أي الأسباب التي يقطعها في طلب الرّزق . وقيل العقبات . وقيل : الخيل هو المستطيل من الرّمل . فتح الباري : ١٨٠/٧-١٨١ . وانظر : التّنهاية في غريب الحديث : ٣٣٣/١ . شرح التّووي على مسلم : ٩٩/١٨ . عمدة القارئ ك ٤٩/١٦ .

(٣) أي ورثته عن آبائي الذين ورثوه من أجدادي الذين ورثوه من آبائهم كبيراً عن كبير في العزّ والشرف والثروة . شرح التّووي على مسلم ٩٩/١٨ . وانظر : فتح الباري : ١٨١/٧ . عمدة القارئ : ٤٩/١٦ .

فَخَذُ مَا شِئْتَ ، وَدَعَّ مَا شِئْتَ ، فَوَ اللّٰهُ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئاً أَخَذْتَهُ اللّٰهُ (١) .
فَقَالَ : أَمْسِكْ مَا لَكَ ، فَإِنَّمَا ابْتَلَيْتُمْ فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ ، وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ " (٢) .

إِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى ابْتَلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ ، فَأَبْدَلَ حَالَهُمْ مِنْ شَرٍّ إِلَى خَيْرٍ ، وَمِنْ نَقَمٍ إِلَى نَعَمٍ . فَبَعْدَ أَنْ كَانُوا فَقَرَاءَ لَا مَالَ لَهُمْ ، يَسْتَقْذِرُهُمُ النَّاسُ عَلَى مَا فِيهِمْ مِنْ عَاهَاتٍ ، فَأَصْلَحَ شَأْنَهُمْ ، وَوَهَبَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ الطَّائِلَةَ لِيَشْكُرُوا نِعْمَتَهُ ، وَيَحْمَدُوهُ عَلَى فَضْلِهِ ، وَيَعْرِفُوا حَقَّهُ فِيهَا ، فَيَكْرُمُوا الضَّعْفَاءَ ، وَيُعْطُوا الْفُقَرَاءَ ، وَيَحْسِنُوا إِلَى الْمَحْتَاجِينَ ، لَتَدُومَ لَهُمْ تِلْكَ النِّعَمُ .

أَمَّا الْأَبْرَصُ وَالْأَقْرَعُ فَلَمْ يَفْعَلَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ، بَلْ جَدَا نَعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمَا ، وَكَفَرَا فَضَلَ اللّٰهُ لَهُمَا ، وَحَرَمَا مِنْ يَسْتَحِقُّ الْإِنْفَاقَ وَالْعَطَاءَ ، وَبَخَلَا بِمَالِ اللّٰهِ الَّذِي أَعْطَاهُمَا ، بَلْ وَحَمَلَهُمَا ذَلِكَ الْبَخْلُ عَلَى الْكُذْبِ فَأَنْكَرَا أَنْ يَكُونَا عَلَى الْحَالِ الَّذِي كَانَا عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ . فَلَمْ يَثْبِتَا عِنْدَ الْإِبْتِلَاءِ ، وَلَمْ يَجْتَازَا اخْتِبَارَ اللّٰهِ لَهُمَا ، فَسَلَبَا النِّعَمَ ، وَأَبْدَلَا النِّقَمَ ، وَعَادَا إِلَى مَا كَانَا عَلَيْهِ مِنَ الْحَالِ السَّيِّئِ ، وَالْفَقْرِ الْمَدْقَعِ ، وَإِهَانَةِ النَّاسِ لَهُمَا .

وَأَمَّا الْأَعْمَى فَقَدْ وَفَّقَهُ اللّٰهُ وَأَعَانَهُ وَثَبَّتَهُ عِنْدَ الْإِبْتِلَاءِ ، فَعَرَفَ النِّعْمَةَ وَعَرَفَ الْمُنْعَمَ بِهَا . شَكَرَ اللّٰهُ الَّذِي أَنْارَ لَهُ بَصَرَهُ بَعْدَ الْعَمَى ، وَأَغْنَاهُ بَعْدَ الْفَقْرِ ، وَأَعَزَّهُ بَعْدَ الذَّلِّ ، وَحَمَدَهُ عَلَى مَا وَهَبَهُ مِنْ نَعَمٍ وَأَزَالَ عَنْهُ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالنِّقَمِ ، وَبَذَلَ الْمَطْلُوبَ ، وَأَعْطَى مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَطَاءَ ، غَيْرَ بَخِيلٍ بِمَالِ اللّٰهِ ، وَلَا شَحِيحٍ بِفَضْلِ اللّٰهِ ، فَثَبَّتَ عِنْدَ الْإِمْتِحَانِ وَصَبَرَ عِنْدَ الْإِخْتِبَارِ ، فَثَبَّتَتْ لَهُ النِّعْمَةُ ، وَزَالَتْ عَنْهُ النِّقْمَةُ ، وَدَامَ لَهُ الْفَضْلُ . وَهَكَذَا يَكُونُ الثَّبَاتُ عِنْدَ الْإِبْتِلَاءِ بِالنِّعَمِ .

(١) أي : لَا أَشَقُّ عَلَيْكَ بَرْدَ شَيْءٍ تَأْخُذُهُ أَوْ تَطْلُبُهُ مِنْ مَالِي . شرح التَّوْوِي عَلَى مُسْلِمَ : ١٠٠/١٨ .

وَانْظُرْ : فَتَحَ الْبَارِي : ١٨١/٧ . عَمْدَةُ الْقَارِئِ : ٤٩/١٦ .

(٢) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ - بَلْفُظُ مُقَارَبٍ - كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ : (٣٦/٦٠) . بَابُ : حَدِيثُ أَبْرَصٍ وَأَعْمَى وَأَقْرَعٍ فِي

بَنِي إِسْرَائِيلَ : (٥١) : بِرَقْمٍ : (٣٤٦٤) . ص : ٧٣٤ .

صَحِيحُ مُسْلِمَ : بَلْفُظُهُ فِي كِتَابِ الزَّهْدِ وَالرَّقَائِقِ : (٥٣) . بِرَقْمٍ : (٢٩٦٤) . ٢٢٧٧-٢٢٧٥/٤ .

باب رقاد

الثبات في الدعوة إلى الله

تعالى

وفيه فصول :

الفصل الأول

محاني الدعوة في اللغة والشرع واصطلاح الدعاة

الفصل الثاني

أهمية الدعوة إلى الله والظاية منها وحكمها

الفصل الثالث

عوامل الثبات في الدعوة إلى الله تعالى

الفصل الرابع

نماذج للثبات في الدعوة

الفصل الأول

معاني الدّعوة في اللّغة والشرع والاصطلاح

وفيه مبحثان :

المبحث الأول

معاني الدّعوة في اللّغة

يقال : دعا بالشيء دَعْواً ودَعْوَةً ودُعَاءً ودَعْوَى : طلب إحضاره ، ودعاه إليه : حثّه على قصده (١) ، ورغبة فيه ، وقربه إليه (٢) ، وساقه إليه (٣) .
ودعوت فلاناً : صحت به واستدعيته (٤) ، وناديته (٥) . ومنه دعا الميّت : أي نديه ، كأنّه ناداه (٦) .

(١) انظر : المعجم الوسيط : ٢٨٦/١ .

(٢) انظر : معجم متن اللّغة : ٤١٩/٢ .

(٣) انظر : لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ . معجم متن اللّغة : ٤١٩/٢ . المعجم الوسيط : ٢٨٦/١ .

(٤) انظر : الصّحاح : ٢٣٣٧/٦ . أساس البلاغة . ص : ١٣١ . مختار الصّحاح : ص : ٢٠٦ . لسان العرب : ٢٥٨/١٤ .

(٥) انظر : لسان العرب : ٢٥٨/١٤ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ . معجم متن اللّغة : ٤١٩/٢ . المعجم الوسيط : ٢٨٦/١ .

(٦) انظر : أساس البلاغة . ص : ١٣١ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ . معجم متن اللّغة :

٤١٩/٢ . المعجم الوسيط : ٢٨٦/١

ودعوته زيدا : أي سمّيته به^(١) . وتدعو القطا : أي تصوّت^(٢) . ويقال : ما دعاك
إلى هذا الأمر : أي ما الذي جرّك إليه واضطّرك^(٣) . ودعاه الله بمكروه : أنزله
به^(٤) . ودعا إلى الصلّاة : أذن^(٥) . ودعا بالكتاب : استحضره^(٦) .

ودعا الله : طلب منه الخير ، وابتهل إليه ، واستغاث به ، وعبده ، وأتّى
عليه^(٧) . ولذا يقال : دعا الله لفلان : طلب له الخير منه ، ودعا على فلان :
طلب له الشر^(٨) .

والدعاء : واحد الأدعية^(٩) ، وهو الرغبة إلى الله تعالى^(١٠) والاستغاثة به^(١١) .

(١) انظر : أساس البلاغة . ص : ١٣١ . لسان العرب : ٢٦١/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ . معجم متن
اللغة : ٤١٩/٢ . المعجم الوسيط : ٢٨٦/١ .

(٢) انظر : تهذيب اللغة : ١٢٣/٣ . لسان العرب : ٢٦٠/١٤ .

(٣) تهذيب اللغة : ١٢٣/٣ . لسان العرب : ٢٦٠/١٤ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ .

(٤) انظر : أساس البلاغة . ص : ١٣١ . لسان العرب : ٢٦٠/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ . معجم متن
اللغة : ٤١٩/٢ .

(٥) المرجع السابق : ٤١٩/٢ .

(٦) انظر : أساس البلاغة . ص : ١٣١ . تاج العروس : ٤٠٩/١٩ .

(٧) انظر : معجم متن اللغة : ٤١٩/٢ .

(٨) انظر : المعجم الوسيط : ٢٨٦/١ .

(٩) الصحاح : ٢٣٣٧/٦ . لسان العرب : ٢٥٨/١٤ . تاج العروس : ٤٠٥/١٩ .

(١٠) انظر : لسان العرب : ٢٥٧/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ .

(١١) انظر : تهذيب اللغة : ١١٩/٣ . لسان العرب : ٢٥٧/١٤ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ .

والدَّعْوَةُ : المرّة الواحدة من الدَّعاء^(١) ، وتطلق على الدَّعاء إلى الطَّعام
والشَّرَاب ، وخصَّها البعض بالوليمة^(٢) . كما تطلق على الحِلْف^(٣) ، والأُذَان^(٤) .
وأما الدَّعْوَةُ - بالكسر - فهي الادِّعاء^(٥) .

والدَّاعِيَّة : هو الدَّاعي الَّذي يدعو إلى الدِّين أو إلى فكرة .
والهاء : للمبالغة^(٦) . والجمع دُعاة وداعون ، كقضاة وقاضون^(٧) . ويطلق على
صريخ الخيل في الحروب^(٨) .

ويقال : المؤذّن داعي الله^(٩) . والنَّبي داعي الأمّة إلى توحيد الله تعالى
وطاعته^(١٠) .

(١) انظر : الصَّحاح : ٢٣٣٧/٦ . مختار الصَّحاح . ص : ٢٠٦ . لسان العرب : ٢٥٨/١٤ . تاج العروس :

٤٠٨/١٩ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ٤٠٧/١٩ .

(٣) انظر : لسان العرب : ٢٦٢/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ . تاج العروس : ٤٠٧/١٩ . معجم متن

اللَّغة : ٤٢٠/٢ .

والحِلْف هو : العهد بين القوم . مختار الصَّحاح . ص : ١٤٩ . القاموس المحيط . ص : ١٠٣٥ .

(٤) انظر : لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . تاج العروس : ٤٠٦/١٩ . معجم متن اللَّغة : ٤٢٠/٢ .

(٥) انظر : تهذيب اللَّغة : ١٢٠/٣ . معجم متن اللَّغة : ٤٢٠/٢ .

(٦) انظر : المعجم الوسيط : ٢٨٧/١ . وانظر : تهذيب اللَّغة : ١٢٢/٣ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ .

(٧) انظر : تاج العروس : ٤٠٦/١٩ .

(٨) انظر : تهذيب اللَّغة : ١٢١/٣ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ . تاج العروس :

٤٠٦/١٩ . معجم متن اللَّغة : ٤٢٠/٢ .

(٩) انظر : تهذيب اللَّغة : ١٢٠/٣ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ .

(١٠) تهذيب اللَّغة : ١٢٠/٣ . وانظر : لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ . تاج

العروس : ٤٠٦/١٩ .

وداعي اللّبن : ما يبقى في الضّرع ليدع ما بعده^(١) .

والدّعاة : قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة^(٢) . ودواعي الدّهر : صروفه^(٣) .

نخلص من هذه التعريفات : أنّ الدّعوة تطلق ويراد بها معاني عدّة ، منها :
الطلب ، والحثّ على الشّيء ، والرّغبة فيه ، والاستغاثة ، والنّداء ، والنّذب ،
والتّسمية ، والتّناء .

(١) انظر : تهذيب اللّغة : ١٢١/٣ . الصّحاح : ٢٣٣٧/٦ . أساس البلاغة . ص : ١٣١ . مختار الصّحاح . ص :

٢٠٦ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ .

(٢) تهذيب اللّغة : ١٢٢/٣ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ .

(٣) الصّحاح : ٢٣٣٧/٦ . أساس البلاغة . ص : ١٣١ . لسان العرب : ٢٦٠/١٤ . القاموس المحيط . ص :

١٦٥٥ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ . معجم متن اللّغة : ٤٢٠/٢ . المعجم الوسيط : ٢٨٧/١ .

﴿ المبحث الثاني ﴾

معاني الدعوة في الشرع واصطلاح الدعوة

وفيه مطلبان :

﴿ المطلب الأول ﴾

معاني الدعوة في الشرع

لقد تعددت معاني الدعوة في القرآن الكريم والسنة النبوية كما تعددت في اللغة ، وإن كان جلّ تلك المعاني يدور حول الحثّ على الشيء ، وقصده ، والرغبة فيه ، وطلبه ، والميل نحوه . وبيان ذلك :

١/ الحثّ على الشيء وقصده :

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣] . وقال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ [يونس: ٢٥] .
فهي تعني هنا : الحثّ على الشيء وقصده (١) .

٢/ الاستغاثة :

قال تعالى : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٣] .
أي استغيثوا بهم (٢) .
ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [يونس: ٣٨] (٣) .

(١) انظر : المفردات في غريب القرآن . ص : ١٧٠ .

(٢) انظر : تهذيب اللغة : ١١٩/٣ . لسان العرب : ٢٥٧/١٤ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ .

(٣) انظر : إصلاح الوجوه والنظائر . ص : ١٧٤ .

٣/ العبادة :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾
[الأعراف: ١٩٤] . أي الذين تعبدون من دون الله^(١) .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ [الأنعام: ٧١] . أي أنعبدوا من دون الله^(٢) .

٤/ النداء :

قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ ﴾ [الفر: ٦] . أي يوم ينادي المنادي .
وقال ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤] . أي إن تتادوهم لا يسمعون نداءكم^(٣) .

٥/ السؤال :

قال سبحانه : ﴿ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [البقرة: ٦٨] . أي سل لنا ربك^(٤) .

٦/ الجعل :

قال عز في علاه : ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩١] . أي جعلوا له ولداً^(٥) .

(١) انظر : تهذيب اللغة : ١١٩/٣ . لسان العرب : ٢٥٧/١٤ .

(٢) إصلاح الوجوه والنظائر . ص : ١٧٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق : ص : ١٧٤ .

(٤) انظر : المرجع السابق : ص : ١٧٤ . المفردات في غريب القرآن . ص : ١٧٠ . تهذيب اللغة : ١٢٣/٣ . لسان

العرب : ٢٦٠/١٤ .

(٥) انظر : تهذيب اللغة : ١٢٤/٣ . لسان العرب : ٢٦١/١٤ .

٧/ النسبة :

قال تعالى : ﴿ اَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٥] . أي أنسبواهم لهم^(١) .
وحمل بعضهم قوله تعالى : ﴿ اَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مرم: ٩١] . على
هذا المعنى^(٢) .

٨/ التسمية :

قال سبحانه : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ
بَعْضًا ﴾ [التور: ٦٣] . أي لا تسمّوه باسمه فتقولوا : يا محمد . وفي ذلك حث على
تعظيمه عليه السلام^(٣) .
ومن ذلك أثر عمر رضي الله عنه : " كان يقدّم الناس على سابقتهم في أعطياتهم^(٤) ،
فإذا انتهت الدعوة إليه كبر " ^(٥) . أي إذا انتهت التسمية إليه . ويمكن أن يحمل
المعنى هنا على النداء^(٦) .

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١١٩/١٤ . تفسير القرآن العظيم : ٧٤٣/٣ . لسان العرب : ٢٦١/١٤ .

(٢) انظر : معجم الألفاظ والأعلام القرآنية . لمحمد إسماعيل إبراهيم . طبعة دار الفكر العربي . الطبعة الثانية .
ص : ١٨٨ .

(٣) انظر : المفردات في غريب القرآن . ص : ١٧٠ . تفسير القرآن العظيم : ٤٩١/٣ .

(٤) أعطياهم : العطاء والعطية : اسم لما يُعطى ، والجمع عطايا وأعطية ، وأعطيات جمع الجمع .
لسان العرب : ٦٩/١٥ .

(٥) الأثر أورده ابن الأثير في النهاية : ١٢١/٢ . ولم أقف عليه في شيء من كتب الحديث والآثار التي رجعت إليها .

(٦) انظر : النهاية في غريب الحديث : ١٢١/٢ .

٩/ كلمة الشهادة :

قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ [الرعد: ١٤]. جاء عن عليّ ؓ أن دعوة الحق هي التوحيد . وعن محمد بن المنكدر^(١) : أنها لا إله إلا الله^(٢) . والمعنى مترادف .

وفي كتابه ؓ إلى هرقل : " أدعوك بدعاية الإسلام "^(٣) أي بدعوته ، وهي كلمة الشهادة التي يدعى إليها أهل الملل الكافرة^(٤) .

فهي هنا تعنى حقيقة الإسلام كدين له أصوله وتكاليفه التي تقتضيها الشهادة ، وبهذا المفهوم عرفها بعض كتاب المسلمين^(٥) .

(١) محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير أبو عبد الله القرشي التيمي المدني ، إمام حافظ عابد مقريء ، تابعي

حليل . جمع على ثقته وتقدمه في العلم والعمل . مات سنة : ١٣٠هـ أو بعدها .

وانظر : طبقات خليفة : ص : ٢٦٨ . التاريخ الكبير : ١/ ٢١٩ . معرفة الثقات : ٢/ ٢٥٥ . الجرح والتعديل : ٨/ ٩٧ .

ثقات ابن حبان : ٥/ ٣٥٠ . مشاهير علماء الأمصار : ١/ ٦٥ . التعديل والتحريح : ٢/ ٦٣٨ . تهذيب الكمال :

٥٠٣/ ٢٦ . تذكرة الحفاظ : ١/ ١٢٧ . الكاشف : ٢/ ٢٢٤ . جامع التحصيل : ص : ٢٧٠ . تهذيب التهذيب : ٩/ ٤١٧ .

تقريب التهذيب : ١/ ٥٠٨ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٢/ ٧٨٤ . وانظر : لسان العرب : ١٤/ ٢٥٨ . تاج العروس : ١٩/ ٤٠٨ .

(٣) سبق تخريجه : ص : ٣٥٠ .

(٤) النهاية في غريب الحديث : ٢/ ١٢٢ . لسان العرب : ١٤/ ٢٥٨ .

(٥) انظر : الإحكام بين مراحل العمل في دعوة النبي ﷺ ، للدكتور / يوسف محي الدين أبو هالة . طبعة دار

العاصمة بالرياض : ١٤١١هـ . ص : ١٠ . وانظر : مجموعة من تلك التعريفات في الكتاب نفسه .

ص : ١٠ - ١١ . وانظر : فصول في الدعوة الإسلامية . د . حسن عيسى عبدالظاهر . نشر وتوزيع دار الثقافة

بقطر . الطبعة الأولى . ١٤٠٦هـ — ١٩٨٥ م . ص : ٢٢ .

١٠ / العذاب :

قال تبارك وتعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَىٰ ۖ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝ تَدْعُو مَنْ ۖ
أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ﴾ [المعارج: ١٥-١٧] . يعني تعذب^(١) . وقد حمل بعض العلماء المعنى
هنا على النداء ، أي تنادي من كانوا يعملون في الدنيا عملها^(٢) .

١١ / التَّمَنَّى :

قال عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝ ﴾ [الانشقاق: ١١] . أي يتمنى
هلاكاً^(٣) .

١٢ / الأذان :

قال ﷺ : " الخلافة في قریش ، والحكم في الأنصار ، والدعوة في
الحبشة " .^(٤)
أراد بالدعوة : الأذان^(٥) .

(١) انظر : إصلاح الوجوه والنظائر . ص : ١٧٥ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٥٨/٤ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٩/١٨ .

(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية . ص : ١٨٨ .

(٤) سنن الترمذي: بمعناه عن أبي هريرة ؓ في: كتاب المناقب: (٤٥). باب في فضل اليمن: (٧١). برقم:

(٣٩٣٦). قال الشيخ الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٦٠٥ .

مسند أحمد: بلفظه في: ١٨٥/٤ . عن عتبة بن عبد الله . ومعناه في: ٣٦٤/٢ . عن أبي هريرة ؓ . قال الشيخ

أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣١٠/١٦ . برقم: (٨٧٤٦) .

معجم الطبراني الكبير: بلفظه في: ١٢١/١٧ . عن عتبة ؓ .

(٥) النهاية في غريب الحديث : ١٢٢/٢ .

وفي حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قال :
" من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة ... " الحديث^(١) .
المراد بالدعوة هنا : أَلْفَاظُ الْأَذَانِ^(٢) .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب: الأذان " الصلاة " : (٥/١٠). باب الدعاء عند النداء: (٨/١٥٩). برقم:

(٦١٤). ص: ١٤١. وفي كتاب: التفسير: (٣٩/٦٥). باب ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا

مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] : (١٠/١١). برقم: (٤٧١٩). ص: ١٠٠٢.

(٢) عمدة القارئ : ١٢٢/٥ .

﴿المطلب الثاني﴾

الدَّعوة في اصطلاح الدَّعاة

إنَّ الدَّعوة إذا أطلقت فالمراد بها الدَّعوة إلى الله تعالى ، وهي تعني أمرين :
الأول : الدين الإسلامي . فهي مرادفة لكلمة إسلام كما سبق في معناها الشرعي^(١) .
الثاني : عملية نشر الإسلام بين الناس^(٢) .

وعلى هذا الإطلاق الأخير حاول بعض الكتاب أن يصطلحوا تعريفاً جامعاً مانعاً لكلمة الدَّعوة .

وقد تعددت تعريفاتهم وتكاثرت ، والكثير منها يعترضه القصور والنقص .
ولعلِّي أنتقي من بين تلك التعريفات ما أراه أقرب إلى الصَّواب ، وأبلغ في الدلالة .

قال الشيخ محمد الحبيب :

" إنَّ الدَّعوة إلى الله هي : قيام من له أهلية بدعوة النَّاس جميعاً في كلِّ زمان ومكان لاقتفاء أثر رسول الله ﷺ والتَّأسي به قولاً وعملاً وسلوكاً " ^(٣) .

فشمل تعريفه : الدَّعاة ، والمدعوين ، والمدعو إليه ، وعالمية الدَّعوة .

وقال محمد السيّد الوكيل :

" جمع النَّاس على الخير ، ودلالاتهم على الرِّشد بأمرهم بالمعروف ونهيهم

(١) انظر : ص : ٣٩٠ - ٣٩١ من هذا البحث .

(٢) انظر : الدَّاعي إلى الله : تكوينه - مسؤوليته : للدكتور / زيد بن عبدالكريم الزَّيد . طبعة دار العاصمة . الرِّيلض

الطَّبعة الأولى . ١٤١٥ هـ . ص : ١١ - ١٢ . الإحاكم بين مراحل العمل . ص : ٩ - ١١ .

(٣) الدَّعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل . للدكتور / محمد بن سيدي بن الحبيب . دار الوفاء . جدَّة . الطَّبعة

الأولى . ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م . ص : ٢٧ .
(٣٩٣)

عن المنكر " (١) .

وقد استقى ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

وقال د . يوسف أبو هالة :

" هي قيام المسلمين المؤهلين ، دولة ، وأمة ، وأفراداً ، بتبليغ الناس كافة ، وحثهم على اتباع الإسلام ، إيماناً ، وعملاً ، ومنهاج حياة ، بطرق مشروعة مخصوصة " (٢) .

فتعريفه شمل موضوع الدعوة ، والداعية ، والمدعو ، والوسيلة .
ويمكن أن أستخلص مما سبق تعريفاً جامعاً مانعاً يتضمن كل جوانب الدعوة .
وهو :

أن يقوم من له أهلية واستطاعة من المسلمين فرداً أو جماعة بتبليغ دين الإسلام إلى الناس كافة أفراداً أو جماعات ، في كل زمان ومكان بالقول أو الفعل أو السلوك ، مقتفين في ذلك أثر رسول الله ﷺ ، متأسين به ، سالكين لذلك طرقاً مشروعة مخصوصة .
والدعوة بهذا التعريف هي المقصودة بهذا البحث .

(١) أسس الدعوة وأداب الدعاة . للدكتور / محمد السيد الوكيل . مطابع الأخبار . ١٩٧٩ م . نشر دار الطباعة

والنشر الإسلامية . القاهرة . ص : ٩ .

(٢) الإحكام بين مراحل العمل . ص : ١٣ .

﴿ الفصل الثاني ﴾

أهمية الدعوة إلى الله والغاية منها وحكمها

وفيه مبحثان :

﴿ المبحث الأول ﴾

أهمية الدعوة إلى الله

إن الدعوة إلى الله مقام عظيم من مقامات الإيمان والعمل الصالح ، لقوله عزّ في علاه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

وهي أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها ، لأنها أعظم الأعمال وأرفع العبادات .

وهي أخصّ خصائص رسل الله عليهم السلام ووظيفتهم ومهمّتهم التي بها بعثوا ، ولها حملوا ، ومن أجلها شرفوا ، وبها فضلوا ، ولها اختيروا .

وهي أبرز مهام عباد الله الصالحين ، وأوليائه المخلصين ، الذين بها قاموا ، وللوائها رفعوا ، ولها نصرّوا ، وبها عظموا .

والدعوة إلى الله هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أنزل الله به كتبه ، وأرسل به رسله^(١) .

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٥/١٦٦ .

قال الرّازي (رحمه الله) في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] . قال :

" الدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان : أحدهما : الترغيب في فعل ما ينبغي وهو بالمعروف . والثاني : الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر ، فذكر الجنس أولاً ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان . التفسير الكبير : ٨/١٦٧ .
﴿ ٣٩٥ ﴾

قال الغزالي (رحمه الله) :

" إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطّلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلى يوم التّناد " (١) .

وكيف لا تتأتى هذه الأهمية للدعوة إلى الله وهي التي تعرّف الإنسان بسرّ وجوده على هذه الأرض ، والغاية التي لها خلق ، والهدف الذي من أجله وجد ، وهو عبادة ربّه سبحانه كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ؟ .

فتعرّفه برّبّه وخالقه ، وكيف يعبده ويوحّده ، ويلتزم شرعه ، ويقوم بأمره ، ويتجنّب نهيه ، ويتحرّر من رقّ العبوديّة لغيره .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" الدّعوة إلى الله هي الدّعوة إلى الإيمان به ، وبما جاءت به رسله . بتصديقهم فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا ، وذلك يتضمّن الدّعوة إلى الشّهادتين ، وإقام الصّلاة ، وإيتاء الزّكاة ، وصوم رمضان ، وحجّ البيت ، والدّعوة إلى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشرّه ، والدّعوة إلى أن يعبد العبد ربّه كأنّه يراه " (٢) .

وقيل : ذلك من باب عطف الخاص على العام لمزيد فضلها . انظر : روح المعاني : ٢١/٤ . فتح البيان في مقاصد القرآن . لأبي الطّيب صدّيق بن حسن القنوجي البخاري . طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر : ٣٠٥/٢ . محاسن التّأويل : ٩٢١/٤ .

(١) إحياء علوم الدّين : ٣٩١/٢ .

(٢) مجموع الفتاوى : ١٥٧/١٥ - ١٥٨ .

وهي شاملة لحاجة الإنسان في هذه الحياة فيما يتعلّق بجوانب الاعتقاد ،
والتكاليف ، وتصحيح مساره فيما يتعلّق بجوانب الأخلاق ، والاجتماع ، والاقتصاد
والسياسة ، وبيان حقوق نفسه ، وعلاقته بخالقه ، وبالكون ، وبالناس من حوله
أفراداً وجماعات ، وما في هذه الحياة من عوالم ، وما وراء هذه الحياة^(١) .

وهي التي تدلّ الناس على الخير ، وتجمعهم على الحقّ ، وتنتشر بينهم
العدل ، وتبثّ بينهم الأمن ، وتدفعهم إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وتحقّق
لهم المصالح العظيمة في معاشهم ومعادهم ، وتدفع عنهم كلّ شرّ ، وتبعد عنهم كلّ
ضلال .

﴿ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْذُ أَنْ بَعَثَ اللَّهُ آدَمَ
عَلَيْهِ السَّلَامَ ، ثُمَّ بَدَأَ يَدْبُ فِيهِمُ الانْحِرَافَ عَنِ الْحَقِّ حَتَّى حَادُوا عَنْهُ ، وَتَرَكُوا عِبَادَةَ
اللَّهِ إِلَى غَيْرِهِ فَأَرْسَلَ اللَّهُ لَهُمْ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي طَلِيعَةِ الرَّسْلِ مُبَشِّرًا وَمُنْذِرًا لِيُرِدَّ
النَّاسَ إِلَى عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ ، وَيَرْجِعَهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى .

قال سبحانه : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾
[البقرة: ٢١٣] .

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" كان بين نوح و آدم عشرة قرون كلّهم على شريعة من الحقّ ، فاختلّفوا ،
فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين " ^(٢) .

(١) انظر : فصول في الدّعوة الإسلاميّة ، ص : ٦٣ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ١٠٦/٢٠ . تفسير القرآن العظيم : ٣٧٤/١ .

وأثر ابن عباس (رضي الله عنهما) في : جامع البيان : ٣٣٤/٢ . طبعة دار المعرفة . البداية والنهاية : ١٠١/١ .
وقد أورده الحاكم في المستدرک . ولفظه : " عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : " كان بين آدم ونوح عشرة
قرون كلّهم على شريعة من الحقّ ، فلمّا اختلفوا بعث الله النبيّين والمرسلين ، وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة " .
وقال : " هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه " . ٤٨٠/٢ . وانظر : ٥٩٦/٢ .
(٣٩٧)

ولم تغب شمس الرسالة بعد نوح عليه السلام ، ولم يندثر أثرها من الأرض ، بل كلما انحرقت أمة عن جادة الصواب بعث الله لها رسلاً ليقيم عوجها ويزيل صلفها . كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤] .

ولقد اصطفاهم الله عز وجل واختارهم واجتباهم لحمل دعوته وتبليغ دينه . فقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] . وقال عز وجل : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] .

يقول ابن القيم (رحمه الله) :

" فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وميراثاً ، فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة ، وتعظيم المرسل والقيام بحقه ، والصبر على أوامره ، والشكر لنعمه ، والتقرب إليه ، ومن لا يصلح لذلك " (١) .

ولذا تولى سبحانه تنشئتهم ورعايتهم كي يقوموا بهذا الواجب العظيم ، ويؤدوا تلك الوظيفة الرفيعة ، فقال عز وجل عن موسى عليه السلام : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩] .

(١) طريق المحررتين . ص : ١٧١-١٧٢ .

قال قتادة (رحمه الله) :

" أي تُربّي وتُغذّي على مرأى مني " (١) .

وقال السّدي (رحمه الله) :

" أي ولتربّي على نظري وفي حظي وكلاعتي . وأي نظر وكفالة أجلّ وأكمل من ولاية البر الرّحيم القادر على إيصال مصالح عبده ، ودفع المضار عنه " (٢) .

وقال سبحانه عن محمّد ﷺ : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَىٰ ۖ ﴾ [الضحى: ٦-٨] .

فلو لم تكن الدّعوة إلى الله بالغة الأهميّة ، جليّة القدر ماهيّة الله لها تلك الصّفة ، واختار لها أولئك الجلّة ليقوموا بأدائها وإيلاغها . وهم بهذه الكفالة وتلك الكلاءة قاموا بحملها خير قيام ، وأدّوها أعظم أداء ، وكانوا جميعاً دعاة إلى الله تعالى ، بل أعظم دعاة إليه سبحانه ، بشرّوا وأنذروا ، ودعوا وحذّروا كما قال العزيز الرّحيم عنهم : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨] .

وتلك زبدة ما أرسلوا به ، وهي البشارة والنّذارة ، وذلك مستلزم لبيان المبشّرو والمبشّر به والأعمال المؤدّية إلى حصول البشارة ، وليبيان المنذر والمنذر به والأعمال المؤدّية إلى النّذارة (٣) .

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٩٧/١١ .

(٢) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٥٤ .

(٣) انظر : المرجع السّابق : ص : ٢١٩ .

وقال عز وجل : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ [الكهف: ٥٦].

فهم يدعون الناس لكل خير ، وينهونهم عن كل شر ، ويبشرون من صدقهم من أهل الإيمان بالثواب على الطاعات ، وينذرون من كذبهم وخالفهم من الكفار بالعقاب على المعاصي (١) .

وكلهم دعا إلى دين الله الأوحى الذي لا دين سواه . قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] . ولا يقبل غيره . كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] . وهو المشروع على ألسنتهم جميعاً عليهم السلام . كما قال سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] .

وغايته أن يُعْبَدَ الله وحده ولا يشرك معه أحد من خلقه . وهو القدر المشترك الذي دعا له جميع الرسل ولم يشذ عنهم أحد في الدعوة إليه . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل: ٣٦] . وقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

(١) انظر : جامع البيان : ٢٦٧/١٥ . التفسير الكبير : ١٤١/٢١ . تفسير القرآن العظيم : ١٤٨/٣ . تيسر الكريم

الرحمن . ص : ٤٣٠ .. وانظر : مجموع الفتاوى : ٣٣٦/١٥ .
(٤٠٠)

وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كما قال عز وجل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فدينهم واحد وهو الإسلام . (١)
وفي ذلك يقول ﷺ في حديث أبي هريرة : " والأنبياء إخوة لعلات (٢) أمهاتهم شتى ودينهم واحد " (٣) .

وكل ذلك يبرز أهمية الدعوة إلى الله التي كلف الله بها تلك الصقوة ، وأمرهم بإبلاغ تلك الغايات العظمى إلى الخلق طرة .

وقد ختمت كوكبة الأنبياء بأعظمهم قدراً ، وأعلاهم رتبة ، وأكملهم دعوة ، خيرة الله في خلقه ، وأمينه على وحيه ، الداعي بإذن ربه ، والهادي إلى سبيله . قال الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠] .
وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ، ويقولون :

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم : ١٦٤/٤ .. وانظر : مجموع الفتاوى : ١٥٨/١٥ - ١٥٩ .

(٢) بنو العلات هم الإخوة لأب واحد وأمهات شتى . ويقال : إنما سُميت ضرة المرأة علة لأنها تعل بعد صاحبها . أي ينتقل الزوج من إحداها إلى الأخرى كالعلل في الشرب بعد التهل . فإذا كان الإخوة لأب واحد وأم واحدة فهم بنو الأعيان ، وإن كانوا لأم واحدة وآباء شتى فهم الأخياف لاختلاف أصولهم .
انظر : غريب الحديث للخطابي : ١٦٠/٢ .

(٣) جزء من حديث في :

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب: أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠). باب : ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦] : (٤٩/٤٨). برقم: (٣٤٤٣). ص: ٧٣٠. و بلفظ مقارب برقم: (٣٤٤٢). ص: ٧٣٠.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب: الفضائل: (٤٣). باب فضائل عيسى عليه السلام: (٤٠). برقم: (٢٣٦٥). ١٨٣٧/٤ .

لولا موضع اللبنة " قال رسول الله ﷺ : " فأنا موضع اللبنة ، جئت فختمت
الأنبياء " (١) .

قال أبو العباس القرطبي (رحمه الله) :

" ومقصود هذا المثل أن يبين به ﷺ أن الله تعالى ختم به النبيين
 والمرسلين ، وتمم به ما سبق في علمه إظهاره من مكارم الأخلاق ، وشرائع
 الرسل . فبه كمل النظام ، وهو ختم الأنبياء والرسل الكرام ، صلى الله عليه وعلى
 آله أفضل صلاة وسلم عليه أبلغ سلام " (٢) .

فدعوته خاتمة ، ولذا جمعت بين طياتها دعوات الرسل جميعاً وفاضت عليها
 بالتشريع الكامل الدائم .

ولما كانت خاتمة ، كانت عامة ، وللناس كافة ، عربهم وعجمهم ، وأبيضهم
 وأسودهم ، وإنسهم وجنهم .

قال سبحانه : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي
 لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب: المناقب: (٣٧/٦١). باب خاتم النبيين ﷺ: (١٨). عن جابر رضي الله عنه

برقم: (٣٥٣٤). ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم: (٣٥٣٥). ص: ٧٤٧.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب: الفضائل: (٤٣). باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين: (٧). برقم: (٢٢٨٧).

ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد (رضي الله عنهما) . ١٧٩١-١٧٩٠/٤ .

اللبنة : بفتح اللام وكسر الباء واجدة اللين وهي التي يُبنى بها الجدار ، ويُقال : بكسر اللام وسكون الباء .

التهاية في غريب الحديث : ٢٢٩/٤ - ٢٣٠ .

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم . لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي . تحقيق جماعة من

أهل العلم . طبعة : دار ابن كثير . دار الكلم الطيب . دمشق . الطبعة الأولى : ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م : ٨٨/٦ .

يقول ابن كثير (رحمه الله) :

" يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ " قل : يا محمد : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾
وهذا خطاب للأحمر والأسود ، والعربي والعجمي . ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
جَمِيعًا ﴾ أي جميعكم . وهذا من شرفه وعظمه ﷺ أنه خاتم النبيين ، وأنه
المبعوث إلى الناس كافة " (١) .

ويؤيد ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبا: ٢٨] .
وفي الحديث قال ﷺ : " أعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلي ، كان كل نبيٍّ
يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كلٍّ أحمر وأسود " (٢) .

ولما كانت عامة ، كانت شاملة كاملة لا نقص فيها ، ولا زلل يعتريها ،
جمعت الخير كله ، والفضل جلّه ، كافية وافية ، استغنت بها الأمة عن سواها ،
واكتفت بها عما وراءها .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٤٠٤/٢ - ٤٠٥ . وانظر : جامع البيان : ٨٦/٩ . التفسير الكبير : ٢٦/١٥ . الجواهر

الحسان في تفسير القرآن . للشيخ عبدالرحمن بن مخلوف الثعالبي ، تحقيق محمد الفاضلي . طبعة المكتبة العصرية .
بيروت : ٥٦/٢ . محاسن التأويل : ٢٨٨٣/٧ .

(٢) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب: التيمم " الطهارة " : (٤/٧) . باب التيمم: (١٣٩/١) . برقم: (٣٣٥) . ص:

٨٧ . وفي كتاب: الصلاة: (٥/٨) . باب قول النبي ﷺ : " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " : (٥٦) . عن
جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) . برقم: (٤٣٨) . ص: ١٠٨ .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب: المساجد ومواضع الصلاة: (٥) . عن جابر ﷺ . برقم: (٥٢١) . وبعناه عن
أبي هريرة ﷺ . برقم: (٥٢٣) . ٣٧١-٣٧٠/١ .

يقول ابن القيم (رحمه الله) :

"وبالجملة فقد جاءهم رسول الله ﷺ بخير الدنيا والآخرة بحذافيره^(١) . ولم يجعل الله بهم حاجة إلى أحد سواه ، ولهذا ختم الله به ديوان النبوة فلم يجعل بعده رسولا ، لاستغناء الأمة به عمّن سواه " (٢) .

ولذا قام ﷺ بالدعوة على قدم وساق ، غير مفرط فيها ولا متكاسل عنها ، وهو الذي علم أنه ما أرسل إلا من أجلها ، وما اصنطفي إلا بسببها ، وقد قال له ربه سبحانه وتعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [٤٥-٤٦] . وقال : ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧] . وقال : ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص: ٨٧] . والآيات في ذلك كثيرة جداً .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في وصف الله لنبيه ﷺ بقوله : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] . يقول :

" هو بيان لكمال رسالته ، فإنه ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف ، ونهى عن كل منكر ، وأحل كل طيب ، وحرّم كل خبيث " (٣) .

(١) حَذَافِيرُ الشَّيْءِ: أَعَالِيهِ وَتَوَاحِيهِ . وَاحِدُهَا حِذْفَارٌ . بِحَذَافِيرِهِ أَي بِجَمِيعِهِ . وَيُقَالُ: أَعْطَاهُ الدَّنْيَا

بِحَذَافِيرِهَا أَي بِأَسْرَافِهَا . انظر : لسان العرب : ١٧٧/٤ . وانظر : مختار الصحاح : ص : ١٢٧ . القاموس المحيط : ص : ٤٧٨ .

(٢) بدائع الفوائد : لابن قيم الجوزية . تحقيق جماعة من المحققين . الناشر : مكتبة نزار مصطفى الباز . مكة . الطبعة الأولى : ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م : ٣/٣٧٧ . الضوء المنير : ٤/٥١٦ .

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تقديم د/ محمد جميل غازي ، مطبعة المدني .

المؤسسة السعودية بمصر . ص : ١٢ . وهو في مجموع الفتاوى : ١٢١/٢٨ .
﴿٤٠٤﴾

وأما ما تحمله دعوته ﷺ بين جنباتها فقد كشف النقاب عنه جعفر بن أبي طالب ﷺ عندما أخبر النجاشي بشأنها حين قال :

" أيها الملك كنا وقومنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات^(١) ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. " فعدد عليه أمور الإسلام^(٢) .

إذا هي دعوة جمعت الخير كله ، وحذرت من الشر كله ، فحق لها أن توصف بقول الله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٧] . وبقوله : ﴿ هَذَا بَصِيرُ النَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الحاقة: ٢٠] . وأن يوصف صاحبها بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

وهذا كله يبرز عظم مقام الدعوة إلى الله ، وسمو شأنها ، وعلو منزلتها ، ورفيع مكانتها .

(١) المحصنات : أصل الإحصان المنع . والمرأة تكون مُحْصَنَةً بالإسلام والعفاف والحرية والتزويج . يقال: أَحْصَنَتِ المرأةُ ، فهي مُحْصَنَةٌ وَمُحْصِنَةٌ ، وكذلك الرجل . والمُحْصَنُ ، بالفتحة : يكون بمعنى الفاعل والمفعول . لسان العرب : ١٢٠/١٣ . وانظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٢١٤/١ . المفيدات : ص : ١٢١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٢٠٦/١ . سير أعلام النبلاء : ٤٣٢/١ - ٤٣٤ . وأثر جعفر ﷺ سبق تخرجه . انظر :

وما خيّرت هذه الأمة وفضلت على الناس جميعاً إلا لقيامها بواجب الدّعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وفي ذلك يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهذا وصف لها بما وصف به نبيّها من قبل ، فهي تشترك معه في واجب القيام بالدّعوة إلى الله تعالى (١) .

وقد أورد ابن جرير (رحمه الله) عدّة أقوال عن أهل العلم تفيد أن الآية تخصّ فئة معيّنة ، ثم ذكر أقوالاً أخرى في إفادتها العموم ، ورجّح ذلك (٢) .

وإن كان ظاهر الخطاب يفيد الخصوصية إلا أنّه عامّ في كلّ الأمة ، ونظيره قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣] . ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ﴾ [البقرة: ١٧٨] (٣) .

ولذا قال ابن كثير (رحمه الله) :

" والصّحيح إنّ هذه الآية عامّة في جميع الأمة كلّ قرن بحسبه ، وخير قرونهم الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ ، ثمّ الذين يلونهم ، ثمّ الذين يلونهم (٤) ، كما

(١) انظر : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية . ص : ١٣ . مجموع الفتاوى : ١٢٢/٢٨ .

مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لفاروق عبد المجيد حمود السامرائي . مطابع دار المطبوعات الحديثة . حدة . نشر مكتبة دار الوفاء . حدة . ص : ١٨ .

(٢) جامع البيان : ٤٣/٤ - ٤٥ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ١٧٩/٨ .

(٤) هذا لفظ حديث سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٤٠ .

قال في الآية الأخرى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي خياراً
﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] " (١) .

وهذا الذي تسنده الأدلة الدالة على أفضلية هذه الأمة على سائر الأمم .
قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

فقد أخبر تعالى أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً ، وهذا حقيقة الوسط ، فهم خير
الأمم وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإراداتهم ونياتهم . وبهذا استحقوا أن يكونوا
شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة (٢) .

وفي حديث علي بن أبي طالب ؓ . قال رسول الله ﷺ : " أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ
أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ " وذكر فيه : " وجعلت أمتي خير الأمم " (٣) .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥٨٥/١ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٧١/٤ . الجواهر الحسان : ٢٨٠/١ . فتح

البيان : ٣١١-٣١٠/٢ . روح المعاني : ٢٧/٤-٢٨ .

(٢) أعلام الموقعين : ١٣٢-١٣٣ بتصرف يسير . الضوء المنير : ٢٧٦/١ .

(٣) سنن البيهقي : بلفظه في : باب الدليل على أن الصعيد الطيب هو التراب . ٢١٣/١-٢١٤ .

مسند أحمد : بلفظه في : ٩٨/١ . قال الشيخ أحمد شاكر (رحمه الله) : " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق

أحمد شاكر : ١١٣/٢ . برقم : (٧٦٣) . و بلفظ مقارب في : ١٥٨/١ . قال الشيخ أحمد شاكر (رحمه الله) :

" إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر : ٣٤٩/٢ . برقم : (١٣٦١) .

قال ابن كثير (رحمه الله) : " تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وإسناده حسن " . تفسير القرآن العظيم :

٥٨٥/١ . والحديث أصله في الصحيحين . وقد مرّ قريباً في : ص : ٤٠٣ .

﴿٤٠٧﴾

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ألا إنكم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل " (١) . والأحاديث في ذلك كثيرة (٢) .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال :

" يا أيها الناس ، من سره أن يكون من تلك الأمة ، فليؤد شرط الله منها " (٣) .
وإنما استحققت الأفضلية على الأمم ، ونالت الخيرية عليها لإيمانها بالله ،
ولقيامها بالدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك هو علة الخيرية
التي حكم الله تعالى بثبوت الوصف بها لهذه الأمة (٤) .

ومن أجل ذلك قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآية على الإيمان
بالله ، مع أن الإيمان شرط في الأعمال ، ولكنه قدر مشترك بين جميع الأمم دون
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي فضلت به هذه الأمة (٥) .

(١) سنن الترمذي: بلفظ مقارب في: كتاب: تفسير القرآن: (٤٣). باب ومن سورة آل عمران: (٤). برقم:

(٣٠٠١). وقال: "هذا حديث حسن". وقال الشيخ الألباني (رحمه الله): "حسن". ص: ٤٧٩.

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في كتاب: الزهد: (٣٧). باب صفة أمة محمد ﷺ: (٣٤). برقم: (٤٢٨٨).

ونحوه برقم: (٤٢٨٧). قال الشيخ الألباني (رحمه الله): "حسن". ص: ٤٦٢.

سنن الدارمي: بلفظ مقارب في: باب قول النبي ﷺ "أنتم آخر الأمم". ٤٠٤/٢.

سنن البيهقي: بلفظه إلا أحرف يسيرة في كتاب: السير. باب مبتدأ الخلق. ٥/٩.

مسند أحمد: بلفظه في: ٣/٥. و بلفظ مقارب في: ٤٤٧/٤. ونحوه في: ٥، ٣/٥.

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ٩٤/٤. وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

وقال الذهبي (رحمه الله): "صحيح".

قال ابن كثير: "وهو حديث مشهور". تفسير القرآن العظيم: ٥٨٥/١.

(٢) ساق الحافظ ابن كثير (رحمه الله) جمهرة منها في تفسيره. انظر: ٥٨٦/١-٥٩٢.

(٣) جامع البيان: ٤٣/٤. تفسير القرآن العظيم: ٥٩٣/١.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ١٧٩/٨-١٨٠.

(٥) انظر: المرجع السابق: ١٨٠/٨. روح المعاني: ٢٨/٤.

وقد يعترض على ذلك بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان موجوداً في الأمم السابقة ، ويدلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١].

قال القرطبي (رحمه الله) :

" دلّت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة ، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة " (١) .

ولكن القليل منهم من كان يقوم بذلك ، وسائرهم كان تاركاً للأمر والنهي ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

يقول ابن كثير (رحمه الله) :

" وقوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته " (٢) .

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤٧/٤ .. وانظر في معنى الآية وسبب نزولها : جامع البيان : ٢١٥-٢١٦/٣ . التفسير

الكبير : ٢١٥/٧ . فتح البيان : ٢٠٨/٢ . محاسن التأويل : ٨١٧/٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٧١٨/٢ .. وانظر : جامع البيان : ١٣٨-١٣٩/١٢ . التفسير الكبير : ٧٤-٧٥/١٨ .

الجامع لأحكام القرآن : ١١٣/٩ . الجواهر الحسان : ٢٠٣/٢ . روح المعاني : ١٦١/١٢ . فتح البيان :

٢٧٠/٦ . محاسن التأويل : ٣٤٩٦/٩ . تيسير الكريم الرحمن . ص : ٣٤٧ .

وأكد القرطبي (رحمه الله) ذلك بقوله :

" إنما صارت أمة محمد ﷺ خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى " (١) .

وقد ذكر القفال (رحمه الله) وجهاً آخر فيما نقله الرّازي (رحمه الله) عنه .
إذ يقول :

" تفضيلهم على الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بأكد الوجوه وهو القتال ، لأن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب وباللسان وباليد ، وأقواها ما يكون بالقتال ، لأنه إلقاء النفس في خطر القتل " (٢) . ولا تتأفر بين الوجهين .

والخيرية مشتركة بين أول هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم ، وإن كانت متفاضلة في ذاتها ، كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم (٣) .

وهم خير الأمم للناس ، وأنفعهم لهم ، وأعظمهم إحساناً إليهم ، لأنهم أكمل الناس أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، حيث أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لكل أحد ، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم . وهذا كمال النفع للخلق (٤) .

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٧١/٤ .

(٢) التفسير الكبير : ١٨٠/٨ .

(٣) مكاشفة القلوب المقرب إلى علام الغيوب لأبي حامد الغزالي . دار المعرفة بيروت . الطبعة الأولى :

١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م . ص : ٦٤ . فتح البيان : ٣١٠/٢ .

(٤) مجموع الفتاوى : ١٢٣/٢٨ . بتصرف .

وفي ذلك يقول أبو هريرة رضي الله عنه : في قوله تعالى :
" ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] : خير الناس للناس ،
تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام " (١) .
وفي ذلك قمة النفع لعباد الله .
وتلزمهم هذه الخيرية ما أقاموا على ذلك واتصفوا به ، فإذا تركوا الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر زالت عنهم (٢) .
والمراد أن الأمة نالت الخيرية وحازت قصب السبق على الأمم قاطبة لما
قامت بالدعوة إلى الله ، وهذا يبين أهمية الدعوة إلى الله وعظيم نفعها .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب: التفسير: (٣٩/٦٥). باب ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

[آل عمران: ١١٠] : (٧). برقم: (٤٥٥٧). ص: ٩٥١.

(٢) انظر : مكاشفة القلوب . ص : ٦٤ . الجامع لأحكام القرآن : ١٧٣/٤ . فتح البيان : ٣١٠/٢ .

المبحث الثاني

الغاية من تبليغ الدعوة إلى الله وحكمها

إنَّ الإنسان مكوّن : من روح تسمو إلى العلو ، وتدفعه إلى الهدى ، وتهديه إلى النقي ، تعينها فطرة ترفض الشرّ وتأباه ، وتسعى إلى الخير وترجوه ، ومن جسم خلق من طين يرنو إلى السفول ، ويخلد إلى الأرض ، ويهوي إلى الحضيض ، تحيط به شياطين ، وتدفعه أهواء ، وتحفّ به شهوات فيطلب حصول اللذة العاجلة ، والراحة المستعجلة فيهوي الشرّ ، ويتتبع طرق الغواية . فيحتدم الصراع بين هذا وتلك ، ويشتدّ النزاع بينهما ، وغالباً ما يتغلب الجسم على الروح لكثرة دواعي الشرّ ، فتنفسد الفطرة ، ويتحكم الهوى ، وتسيطر الشهوة فتختل الموازين والقيم ، وينحرف الإنسان عن جادة الطريق ، ويرتمي بين أحضان الباطل والضلال (١) .

والفطرة داعية للحقّ مجانية للباطل ، ساعية للخير مباحدة للشرّ .

قال ابن القيم (رحمه الله):

" فإنَّ الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحقّ والانقياد له ، والطمأنينة به ، والسكون إليه ومحبّته ، وفطرها على بغض الكذب والباطل ، والنفور عنه ، والريبة به ، وعدم السكون إليه . ولو بقيت الفطرُ على حالها لما أثرت على الحقّ سواه ، ولما سكنت إلاّ إليه ، ولا اطمأنت إلاّ به ، ولا أحبّت غيره " (٢) .

وهي لا تصل إلى الحقّ في جميع جوانبه ، ولا إلى الصلاح في كلّ مراميه ، ومع ذلك تتأثّر بالزمان والمكان ومنّ حولها .

(١) انظر : أسس الدعوة وآداب الدعاة . ص : ٩ - ١٠ .

(٢) مدارج السالكين : ٤٧١/٣ . الضوء المنير : ٣٥/٢ .

أضف إلى ذلك العوامل المؤثرة الأخرى ، كالنفس الأمارة . قال سبحانه :
﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٥٣] . واليهوى الطالب . قال تعالى :
﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الحج: ٢٣] . والشيطان الغرور . قال عز وجل :
﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥] (١) .

وفي الحديث : " وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً " (٢) .

والمحيط الذي تنشأ فيه . وفي الحديث : " كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه " (٣) .

فهذه وغيرها الكثير صارفة للفطرة عن الوصول إلى الحق القويم ، وجارفة لها عن الصراط المستقيم .

والعقول أيضاً قاصرة عن إدراك الحق ، والوصول إلى الهداية بذاتها مهما بلغت تلك العقول من حصافة وذكاء ونبوغ .

والحكماء والمفكرون والأذكىاء والمنظرون والفلاسفة والطبيعيون لا يمكنهم أبداً أن يهدوا البشرية ، وأن يقودوها إلى برّ الأمان وطريق النجاة .

وإنما يكون الصلاح ، وتحقق الهداية والنجاة على أيدي رسل الله عليهم السلام ، المبلغين لدين الله ، الداعين بأمر الله ، السائرين على هدى الله .

(١) وانظر : مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ص : ٣٣ .

(٢) سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٧٧ .

(٣) سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٧٥ .

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى الرسالة ، ففيها السعادة والهدى ، وفي البعد عنها الضلال والشقاء ، وكل خير في الوجود فمن جهتها نشأ ، وكل شر في الوجود بمخالفتها جاء .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" والرسالة ضرورية للعباد ، لأبد لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء . والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأى صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ ... فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه ، وبيان حالهم بعد الوصول إليه والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده ، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة ، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة ، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع ، فإنه بين حركتين : حركة يجلب بها ما ينفعه ، وحركة يدفع بها ما يضره . والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره . والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده ، وحصنه الذي من دخله كان آمناً ... ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد . فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منة عليهم أن أرسل إليهم رسوله ، وأنزل عليهم كتبه ، وبيّن لهم الصراط المستقيم . ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل أشر حالاً منها . فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية ، ومن ردّها وخرج عنها فهو من شرّ البرية ، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم ... الخ " (١) .

(١) مجموع الفتاوى : ٩٣/١٩ - ١٠٠ .

فحاجة الناس إلى الرسالة فوق كل حاجة ، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة (١) . ولا تصل الرسالة إلى العباد إلا عن طريق الدعوة إلى الله التي يقوم بها رسل الله ، والدعاة إلى الله السائرون على طريق الرسل عليهم السلام .
فالدعوة هي المسلك الأوحى الذي يسلكه رسل الله وأتباعهم لإيصال دين الله إلى الناس كافة . وهي الوسطة التي تعرف بها أحكام الله وشريعته ، وبغيرها الأبواب موصدة والطرق مغلقة (٢) .

وإذا كانت الدعوة بهذه المثابة فإن بها تتحقق غايات عظمى ، وأهداف كبرى يعجز هذا المقام عن حصرها . من أهمها :

١- عبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به . فالغاية العظمى ، والهدف السامي على هذه الأرض أن تتحقق العبودية لله تعالى ، وأن تتوجه القلوب إليه بالذل والخضوع والخوف والرغبة والإنابة ، وأن تخلع عنه الأنداد والأمثال ، فلا تعبد ولا ترجى . إذ هو الخالق الواحد الذي يستحق العبادة .
فما رفعت السماء ، وما بسطت الأرض ، وشق فيها من أنهار وبحار ، وأرسي عليها من جبال ، وأنبت فيها من أشجار ، وما وجد عليها من مخلوقات إلا من أجل عبادة الله وحده .

يقول ابن القيم (رحمه الله) :

" إن الله عز وجل أرسل رسله وأنزل كتبه ، وخلق السماوات والأرض ليعرف ويعبد ويوحّد ويكون الدين كله له ، والطاعة كلها له ، والدعوة له كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الحج: ٨٥] .

(١) انظر : زاد المعاد : ٦٩/١ . مفتاح دار السعادة : ١١٧/٢ .

(٢) وانظر : المفهم : ٢١٨-٢١٩ . فتح الباري : ٢٩٩/١ .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢] (١) .

فإن تحقيق الألوهية لله وتوحيده ، وزوال الشرك من الأرض هو مقصود الدعوة إلى الله وأصلها وحقيقتها (٢) .

قال ربيعة بن عامر ؓ عندما سأله رستم (٣) عن سبب مجيء جيش المسلمين إلى بلاد الفرس . قال :

" الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام " (٤) .

ولذا كانت عبادته وحده أول ما يدعو له رسل الله عليهم السلام . قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩] . وقال : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥] .

(١) الجواب الكافي . ص : ٨٨-٨٩ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ١٥/١٦٣-١٦٤ .

(٣) رستم هو قائد جيش الفرس في معركة القادسية التي كانت بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص ؓ والفرس

في العام الخامس عشر أو السادس عشر من الهجرة . وفيها انتصر المسلمون ، وقتل رستم .

انظر: العبر: ١٥/١ . شذرات الذهب: ١٦١/١-١٦٢ .

(٤) البداية والنهاية : ٣٩/٧ .

وهكذا عن صالح^(١) وشعيب^(٢) ، وغيرهما عليهم السّلام .

قال الرّازي (رحمه الله) :

" ما العبادة التي خلق الجنّ والإنس لها ؟

قلنا : التّعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، فإنّ هذين النوعين لم يخل شرع منهما ... ولما كان التّعظيم اللائق بذي الجلال والإكرام لا يعلم عقلاً لزم اتّباع الشرائع فيها ، والأخذ بقول الرّسل عليهم السّلام . فقد أنعم الله على عباده بإرسال الرّسل وإيضاح السّبل في نوعي العبادة " (٣)

٢- الإيمان بالله ورسله والملائكة والكتب المنزلة من عند الله ، والإيمان بالقدر خيره وشره وبالبعث يوم الجزاء ، وتحقيق العمل الصّالح الذي هو قرين الإيمان . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ ﴾ [الكهف: ١٠٧] ، وهو يشمل كلّ ما ينفع الإنسان في دينه ونفسه وأهله ومجتمعه ، وكلّ ما يقوّي المسلمين علمياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وخلقياً على الأسس التي جاء بها الإسلام (٤) .

وبيان الصّراط المستقيم وهو الطّريق الموصل إلى الله الذي نصبه لرسله وأتباعهم ، المتمثّل في امتثال أمره واجتناب نهيه ، والإيمان بوعدته ووعيده ، وتعريف حال عباده بعد الوصول إليه ، وهو ما يتضمّنه اليوم الآخر من حساب وحوض وميزان وصراط وجنة ونار .

(١) انظر : الأعراف : الآية (٧٣) .

(٢) انظر : الأعراف : الآية (٨٥) .

(٣) التفسير الكبير : ٢٨/٢٣٣-٢٣٤ .

(٤) انظر : الدّعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل . ص : ٦٣ فما بعدها . وانظر : مجموع الفتاوى :

وبيان عاقبة المؤمنين وما أعدّ الله لهم من نعيم مقيم ، وبيان عاقبة الكافرين وما أعدّ لهم من عقاب وخيم . (١) .

٣- إصلاح الأمة في جميع شئونها العقديّة والخلقيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة ، لتكون أمة تكلؤها السعادة ، وتحيط بها الطمأنينة ، ويثبت في جوانبها الأمن ، ويرفرف عليها العدل ، وتسودها المحبة ، ويسري بين وجدانها التعاون ، وينخذل الظلم ، ويتلاشى الخوف ، ويغيب العداء ، وتتطمس الأحقاد ، وينحسب الحسد ، وتتدثر الشّحناء ، ويتهاوى الفجور ، ويذبل الضلال ، فتشمخ العزة ، وتعلو الكرامة ، فتكون للأمة السيادة والريادة ، فتقام المدنيات ، وتشيّد الحضارات فيتأتى الفلاح والنجاح ، والخير والصّلاح .

٤- دفع الهلاك والدمار عن الأمة ، وإنقاذها من عذاب الله ونقمته .
وذلك أن انزواء أهل الصّلاح عن ساحة الدّعوة إلى الله ، وإحجامهم عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر يفتح الباب على مصراعيه لأهل الفساد ، فيبثوا بضاعتهم في الأمة ، فتتداعى الأخلاق ، وتتساقط القيم ، وتتحكّم الأهواء والشّهوات ، ويعمّ الشرّ ، ويستشري الفساد فيحلّ بالأمة الهلاك والدمار .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا

فَحَقَّقَ عَلَيْهَا الْقَوْلَ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦] .

أي سلطنا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم (٢) . والعقاب إذا وقع عم الصّالح والطّالح . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] .

(١) انظر : مدارج السّالكين : ٣/٣٤٨-٣٤٩ . الصّوّ المنير : ٢٧٧/٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٠/٢٣٢ .

نقل ابن كثير (رحمه الله) عن ابن عباس (رضي الله عنهما) في قوله تعالى :
﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥] قال :

"يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة " .

وقال في رواية له أخرى في تفسير هذه الآية :

" أمر الله المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين ظهرائهم فيعمّهم الله بالعذاب " .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" وهذا تفسير حسن جداً " (١) .

ففي الآية تحذير من الله لعباده المؤمنين من مغبة عذاب ومحنة ، لا تختصّ
بأهل المعاصي ومن باشر الذنوب ، وإنما تعمّ المسيئ وغيره (٢) .

وهذا ما تؤيده الأدلة الواردة عن رسول الله ﷺ .

فعن أم المؤمنين زينب بنت جحش (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ دخل عليها
فرعاً يقول : " لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرّ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم
يأجوج ومأجوج مثل هذه - وحلّق بإصبعيه الإبهام والّتي تليها - فقلت : يارسول
الله أنهلك وفيما الصّالحون ؟ قال : " نعم إذا كثّر الخبث " (٣) .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٤٧١/٢ .

(٢) انظر في معنى الآية : أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي . تحقيق علي محمد الجلولي .

الطبعة الثانية : ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م . طبعة عيسى الحلبي : ٨٣٥/٢ - ٨٣٦ . الجامع لأحكام القرآن :

٣٩٣-٣٩١/٧ . تفسير القرآن العظيم : ٤٧١/٢ - ٤٧٣ . الجواهر الحسان : ٨٤/٢ - ٨٥ . روح المعاني :

١٩٤-١٩٢/٩ . فتح البيان : ١٥٨/٥ - ١٦٠ . محاسن التأويل : ٢٩٧٦-٢٩٧٧ . تيسير الكريم الرّحمن .

ص : ٢٨٠ .

(٣) سبق تخريجه . انظر : ص : ٣٠ .

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم " (١) . والأحاديث في ذلك كثيرة (٢) .

وإنما يتعدى العقاب إلى من لم يباشر الذنب إذا ترك المنكر فاستفحل ، ولم يسع إلى تغييره . ويؤيد ذلك حديث النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ قال : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم . فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً " (٣) .

وحديث جرير رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدر أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا " (٤) .

(١) سنن الترمذي: بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٠). باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (٩). وقال:

"هذا حديث حسن صحيح". وقال الألباني (رحمه الله): "حسن". برقم: (٢١٦٩). ص: ٣٦٠.

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٣٨٨/٥. و بنحوه في: ٣٩١، ٣٠/٥.

(٢) أورد ابن كثير (رحمه الله) جملة منها في تفسيره . انظر : ٤٧١/٢ - ٤٧٣ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الشراكة: (٢٣/٤٧). باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه: (٦). برقم:

(٢٤٩٣). ص: ٥١٨. و بنحوه في: كتاب الشهادة: (٢٨/٥٢). باب القرعة في المشكلات: (٣١/٣٠). برقم:

(٢٦٨٦). ص: ٥٦٠.

قال الترووي (رحمه الله) : " القائم في حدود الله تعالى : معناه : المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها ، والمراد بالحدود : ما هي الله عنه " . رياض الصالحين : طبعة المكتب الإسلامي . ص : ١١٥ .

(٤) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب الملاحم: (٣٦). باب الأمر والنهي: (١٧). برقم: (٤٣٣٩). قال الألباني

(رحمه الله): " حسن". ص : ٤٧٤.

فإنَّ النَّاسَ إِذَا تَظَاهَرُوا بِالْمُنْكَرِ كَانَ عَلَى كُلِّ مَنْ رَأَاهُ أَنْ يَغْيِرَهُ ، فَإِذَا سَكَتَ عَنْهُ فَكُلُّهُمْ عَاصٍ ، هَذَا بِفَعْلِهِ ، وَهَذَا بِرِضَاهُ بِهِ ، وَحِينَئِذٍ تَنْتَظِمُ الْعُقُوبَةُ الْجَمِيعُ (١) .

كما أنَّ سَكُوتَ الدَّعَاةِ وَالْعُلَمَاءِ عَنْ بَيَانِ الْمُنْكَرِ يَدْفَعُ بِالْعَامَّةِ إِلَى فَعْلِهِ وَاسْتِحْسَانِهِ بِحُجَّةٍ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ رَأَوْهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَلَمْ يَعْتَرِضُوا . وَإِذَا تَكَاثَرَ الْمُنْكَرُ أَمَامَ أَعْيُنِ النَّاسِ أَلْفَتَهُ الْقُلُوبُ وَاسْتَسَاغَتْهُ النَّفُوسُ وَاسْتَمَرَّتْهُ ، فَيَصْبِحُ مَعْرُوفاً عِنْدَ مَنْ جَهَلَ أَمْرَهُ .

ولذا كَانَ عَلَى الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَقُومُوا بِوُجُوبِ الدَّعْوَةِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ حَتَّى يَنْكَفَ الشَّرُّ مِنَ الْأَرْضِ ، وَيَنْقَمِعَ أَهْلُهُ فَلَا يَبْقَى لَشَرِّهِمْ أَثَرٌ لِيَنْدَفِعَ الْعِقَابُ وَالْعَذَابُ عَنِ الْأُمَّةِ .

٥- إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْعِبَادِ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ الَّتِي كَلَّفَ بِهَا الرِّسْلَ وَالدَّعَاةَ ، وَانْتَقَلَ الْمَعْذِرَةَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرِّسْلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥] .

سنن ابن ماجه: بنحوه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (٢٠). قال الألباني (رحمه الله): "حسن". ص: ٤٣١.

سنن البيهقي: بنحوه في: باب ما يستدل به على أن القضاء وسائر أعمال الولاية مما يكون أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر من فروض الكفاية. ٩١/١٠.

مسند أحمد: بنحوه في: ٤/٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٦.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب في: باب ذكر استحقاق القوم الذين لا يأمرؤن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر عن قدرة منهم عموم العقاب من الله جلّ وعلا. برقم: (٣٠٠). قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن". ٥٣٦/١. وفي باب ذكر توقع العقاب من الله جلّ وعلا لمن قدر على تغيير المعاصي ولم يغيّرهما. برقم: (٣٠٢). ٥٣٧/١.

مسند أبي يعلى: بنحوه . برقم: (٧٥٠٨). قال محققه: "رجاله ثقات". ٤٩٧/١٣.

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي: ٨٣٦/٢ .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" يقول : أرسلت رسلي إلى عبادي مبشرين ومنذرين لئلا يحتج من كفر بي ، وعبد الأنداد من دوني ، أو ضلّ عن سبيلي ، بأن يقول إن أردت عقابه ﴿ لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى ﴾ ﴿ طه: ١٣٤ ﴾ . فقطع حجة كل مبطل ألد في توحيده ، وخالف أمره بجميع معاني الحجج القاطعة عذره ، إظهاراً منه بذلك إليهم ، لتكون لله الحجة البالغة عليهم ، وعلى جميع خلقه " (١) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ، وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل " (٢) .

(١) جامع البيان : ٣٠/٦ .. وانظر : التفسير الكبير : ١١٠/١١ . تفسير القرآن العظيم : ٨٩٦/١ . روح المعاني :

١٨/٦-١٩ . فتح البيان : ٣٠٣/٣ . محاسن التأويل : ١٧٥٢/٥-١٧٥٣ .

(٢) صحيح البخاري: بنحوه في: كتاب التفسير: (٣٩/٦٥). باب : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥١] : (٧). برقم: (٤٦٣٤). ص: ٩٧٢. وفي باب : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] : (١). برقم: (٤٦٣٧). ص: ٩٧٤. وفي

كتاب التكاثر: (٤١/٦٧). باب الغيرة: (١٠٨/١٠٧). برقم: (٥٢٢٠). ص: ١١٤٧. وفي كتاب التوحيد:

(٧٢/٩٧). باب قول الله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] : (١٥). برقم:

(٧٤٠٣). ص: ١٥٥٤. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وفي باب قول النبي ﷺ "لاشخص أغير من الله" :

(٢٠). برقم: (٧٤١٦). ص: ١٥٥٧. عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

صحيح مسلم: بلفظه و بنحوه في: كتاب التوبة: (٤٩). باب غيرة الله وتحريم الفواحش: (٦). برقم: (٢٧٦٠).

٢١١٣/٤-٢١١٤. عن عبد الله رضي الله عنه . و بنحوه في: كتاب اللعان: (١٩). برقم: (١٤٩٩). ١١٣٦/٢. عن

المغيرة رضي الله عنه .

فَاللّٰهُ سَبْحَانَهُ أَرْسَلَ رَسُلَهُ ، وَأَنْزَلَ إِلَيْهِمْ كِتَابَهُ ، وَأَمَرَهُمْ بِالذَّعْوَةِ إِلَيْهِ لِيُقِيمَ حُجَّتَهُ عَلَى الْعِبَادِ ، وَيَقْطَعَ مَعْذَرَتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى لَا يَأْتِيَ مِنْ يَقُولُ بِأَنَّ دَعْوَةَ اللَّهِ لَمْ تَبْلُغْهُ .

وَمَنْ عَدَلَهُ وَحُكْمَتَهُ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ .
قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] .
وَقَالَ : ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [١٠٠] قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك: ٨-٩]

وَقَالَ سَبْحَانَهُ : ﴿ يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأأنعام: ١٣٠] .

فَهُوَ سَبْحَانَهُ لَا يُعَذَّبُ إِلَّا مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، وَهُوَ الْمَذْنُوبُ الْمَعْتَرَفُ بِذَنْبِهِ ، وَذَلِكَ إِمَّا بِإِعْرَاضِهِ عَنِ الْحُجَّةِ وَعَدَمِ إِرَادَتِهَا وَالْعَمَلِ بِمُوجِبِهَا ، وَإِمَّا الْعِنَادَ لَهَا بَعْدَ قِيَامِهَا وَتَرْكِ إِرَادَةِ مُوجِبِهَا (١) .

وَهَذِهِ غَايَةُ عَظِيمَةِ شَرَعَتْ لَهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ .

قَالَ صَدِيقُ حَسَنِ خَانَ (رَحِمَهُ اللَّهُ) :

" وَإِنَّمَا شَرَعَ لَكَ الدَّعْوَةُ ، وَأَمَرَكَ بِهَا قِطْعًا لِلْمَعْذَرَةِ ، وَتَتِمِيمًا لِلْحُجَّةِ ، وَإِزَاحَةً لِلشُّبْهَةِ " (٢) .

(١) طَرِيقُ الْمَجْرَتَيْنِ . ص : ٦١٠-٦١١ بِتَصَرُّفٍ .

(٢) فَتْحُ الْبَيَانِ : ٣٤٠/٧ .

وقد أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى عن قرية من قرى بني إسرائيل انقسم أهلها إلى ثلاث فرق :

* فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على صيد السمك في يوم السبت ، وهو محرم عليهم .

* وفرقة وعظت الفرقة المذنبة ، وزجرتها عن ذلك الفعل ، وحذرتها من عاقبة ذنبها .

* وفرقة لم تأمر ولم تنه ، بل أنكرت على الواعظة وعظها بحجة أن أولئك قوم استحقوا العذاب فلا فائدة في النهي .

فأجابهم الناهون بأنهم قاموا بذلك إظهاراً إلى الله ، وإقامة لحجته على أولئك المذنبين ، ولعلمهم يرتدعون عن منكرهم ، ويؤوبون إلى رشدهم . فأبوا فأمر الله عليهم سحائب نقمته ، ومسخرهم إلى قردة خاسئين .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهَوُّ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٥﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٥] (١) .

(١) وانظر في معناها : جامع البيان : ٩٠/٩ - ١٠١ . أحكام القرآن لابن العربي : ٧٨٨-٧٨٥/٢ . التفسير الكبير :

٤١-٣٨/١٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٩-٣٠٤/٧ . تفسير القرآن العظيم : ٤٠٨-٤١١ . الجواهر :

الحسان : ٦٠-٥٨/٢ . روح المعاني : ٩٠/٩ - ٩٤ . فتح البيان : ٥٨/٥ - ٦٣ . محاسن التأويل : ٢٨٨٧/٧ - ٢٨٩٣ .

قال الشيخ السعدي (رحمه الله) :

" وهذا هو المقصود الأعظم من إنكار المنكر ، ليكون معذرة ، وإقامة حجة على المأمور المنهي ، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي " (١).

٦ - رد شبه أعداء الإسلام من الوثنيين وأصحاب الأديان الباطلة ، والمحرقة ، وأرباب المذاهب الفكرية المعاصرة .

هذه هي أهم الغايات والأهداف التي يمكن أن تحصل بالدعوة إلى الله ، وتبليغ دينه لعباده ، وبيان هديه لخلق .

❁ وأما حكم الدعوة إلى الله :

فقد اتفق أهل العلم على وجوب الدعوة إلى الله ، ثم اختلفوا في نوعية الوجوب . أهو فرض عين (٢) على كل مكلف ؟ أم هو فرض كفاية (٣) تأثم الأمة جميعاً بتركه ، وإذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين .

ومنشأ الخلاف في كلمة " من " في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ف قيل : إنها لبيان الجنس ، والمعنى : كونوا جميعاً أمة داعية للخير ، أمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر . مثاله قوله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ [الحج: ٣٠] . وعلة ذلك :

أولاً : إن الأمة كلها خوطبت بالدعوة إلى الله في قوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١) تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٢٧٠ .

(٢) فرض العين : هو ما قصد الشارع حصوله من كل واحد من المكلفين بعينه . سمي عيناً لتعلقه بكل عين .

انظر : نثر الورود على مراقبي السعود : ٢٢٦/١ .

(٣) فرض الكفاية : هو ما قصد الشارع بطلبه مجرد حصوله من غير نظر إلى ذات الفاعل . سمي بذلك لأن البعض

يكفي فيه . انظر : المرجع السابق : ٢٢٦/٢ .

ثانياً : إنه لا مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إما بيده أو بلسانه ، أو بقلبه ^(١) .

وفي ذلك يقول ابن حزم (رحمه الله) :

" والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على كل مسلم ، إن قدر بيده فبيده ، وإن لم يقدر بيده فبلسانه ، وإن لم يقدر بلسانه فبقلبه ولا بد ، وذلك أضعف الإيمان ، فإن لم يفعل فلا إيمان له " ^(٢) .

وقيل : إن " من " للتبعض . وعلة ذلك :

أولاً : العجز عن الدعوة ، وعدم القدرة على القيام بها لكل فرد .

ثانياً : عدم توفر العلم الكافي عند كل أحد ^(٣) . فليس كل فرد يصلح للقيام بالدعوة .

وهذا هو القول الراجح ، وعليه جمهور أهل العلم ^(٤) .

(١) انظر : التفسير الكبير : ١٦٦/٨ .

(٢) الخليلي . لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم . تحقيق : أحمد محمد شاكر . طبعة : دار الفكر : ٣٦١/٩ .

وقوله (رحمه الله) يمكن أن يحمل على درجات إنكار المنكر فهو يجب على المسلم باليد ، فإن لم يستطع فيجب عليه باللسان ، فإن لم يستطع فيجب عليه بالقلب . ووجوبه بالقلب أمر في مقدرة الجميع ، فهو بذلك يكون واجباً على كل أحد . وهذا التفصيل يمكن أن يجمع القولين .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ١٦٧/٨ . المفهم : ٢٣٣/١ .

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٦٥/٤ . روح المعاني : ٢١/٤ . الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم .

ص : ٣٥ . مناهج العلماء ، ص : ٥٦ .

قال الغزالي (رحمه الله) :

" ففي الآية بيان الإيجاب ، فإنّ قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنَّ ﴾ أمر وظاهر الأمر الإيجاب . وفيها بيان أنّ الفلاح منوط به إذ حصر . وقال : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . وفيها بيان أنّه فرض كفاية لا فرض عين ، وأنّه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلّكم أمرين بالمعروف ، بل قال : ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ﴾ فإذا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختصّ الفلاح بالقائمين به المباشرين . وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عمّ الحرج كافة القادرين عليه لا محالة " (١) .

ومع ذلك قد تجب الدّعوة على كلّ مسلم بالقدر الذي يطيقه ، وفي حدود ما تعلّمه من العلم . وقد وجب على كلّ مسلم من العلم ما يؤدّي به الفرائض المفروضة عليه صحيحة كاملة (٢) . كما أنّ الجميع مطالب بالدّعوة في حدود مسؤوليّته (٣) .

ولذا قال ابن كثير (رحمه الله) في بيان معنى الآية السابقة :

" والمقصود من هذه الآية ، أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدّية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجباً على كلّ فرد فرد من الأمة بحسبه " (٤) .

(١) إحياء علوم الدّين : ٣٩١/٢ - ٣٩٢ .

(٢) انظر : أسس الدّعوة ، ص : ١٧ .

(٣) انظر : الدّعوة إلى الله في سورة إبراهيم . ص : ٤١ .

(٤) تفسير القرآن العظيم : ٥٨٣/١ . وانظر : أحكام القرآن لابن العربي : ٢٩٢/١ . شرح التّووي على مسلم :

٢٣/٢ . مجموع الفتاوى : ١٦٦/١٥ .

﴿ الفصل الثالث ﴾

عوامل الثبات في الدعوة إلى الله تعالى

وفيه تمهيد ومباحث :

﴿ التمهيد ﴾

مشقة الدعوة إلى الله والعقبات التي تعترض طريقها

إنَّ طريق الدعوة إلى الله ليس بميسر ولا سهل ، بل هو طريق شاقّ صعب ، ومسلك وعر ، مملوء بالمخاطر ، ومحفوف بالمخاوف ، ومليء بالعقبات ، لا يقوى على السير فيه إلا مَنْ كان راسخ القدمين ، عالي الهمة ، قوي العزيمة ، ثابت الجأش ، مفعماً بالصبر ، لا تزغزه الأهوال ، ولا تزعجه العواصف . يظلّ حاملاً لدعوته بعزم وإصرار ، لا يعرف الفتور ، ولا ينتابه الخمول ، يسعى بجِدّ ونشاط مع ملازمة الأناة ، ودوام المثابرة ، متمادياً في سيره ، مواصلاً لسعيه .

فالدعوة لا تُقدَّر بعدد ، ولا تضبط بزمان إذا استنفده الداعي برئ من العهدة ، بل يستأنفها مرّة بعد أخرى حتّى يبلغ مداها وتأثيرها في نفوس المدعوّين مبلغه ، بل شمسها لا تغيب أبداً من نفس الداعي طيلة بقائه على قيد الحياة ، بل يظلّ داعية إلى الممات .

والثبات هو المعين بعد عون الله على مواصلة الدعوة .

ولا شك أن العقبات التي تقابل الداعية عقبات كؤود صعبة المراس ، كلّما اجتاز عقبة اعترضته أخرى .

فهو يودّ أن ينقل نفوساً من ملّة إلى أخرى ، ومن عقيدة ظلّوا عليها سنيين عدداً إلى عقيدة لم يعرفوها . ومن مشارب ألفوها إلى مشرب جهلوه ، ومن أمر دأبوا عليه إلى أمر آخر لا عهد لهم به . وهذا فيه من الصّعوبة البالغة ما فيه .

وليس وحيداً في ميدان الدعوة ، خلا له الجو من المنافس والمناهض . بل هناك دعاة آخرون يُؤْأزرون الباطل ، ويقفون بإزائه ، وينصرون الضلال ويقاومون الحق ، لا يتزحزون . لا يقلّ عزمهم ، ولا تلين عريكتهم .

يتقدّمهم كبيرهم وعدو البشرية - عليه لعائن الله - وفي شأنه يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

وفي الآية الأخرى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [لقمان: ٢١].

وليست دعوة الشيطان لهؤلاء وآبائهم محبة ومودة لهم ، وإنما عداوة ومكر بهم ، فقبلوا دعوته فتمكن منهم ، وظفر بهم ، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير (١) .

وليس للشيطان دليل فيما دعا إليه ، ولا حجة تسند دعوته ، وإنما كانت مجرد دعوة صادفت قلوباً خاوية فتمكنت ، وآذاناً صاغية فاستجابت ، تعينها الأهواء والشهوات . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن . ص : ٥٩٨ .

الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ [إبراهيم: ٢٢] ^(١) . فالشَّيْطَانُ داعيةٌ إلى الضَّلَالِ ،
مصادمٌ لدعوة الحقِّ ، دائمٌ على دعوته ، مستمرٌّ عليها .

ويُلي الشَّيْطَانُ في المرتبة أئمةَ الكفر والضَّلَالِ الَّذِينَ نَصَبُوا أَنْفُسَهُمْ دَعَاةً
لِلْبَاطِلِ ، وَأَبَواقاً لِلْفَسَادِ ، وزعماء للضَّلَالِ ، يترجمون دعوة الشَّيْطَانِ في الأرض ،
ويقودون بها الغوغاء المنحرفين إلى مهاوي الرَّدَى ، ودار الشَّقَاءِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ

لَا يُنصَرُونَ ﴿٣٣﴾ [القصص: ٤١] ^(٢) .

وهم شوكة في حلق الدَّعاة إلى الله دوماً ، يتفنَّنون في الكيد والمكر ، كما قال

سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا

وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٤﴾ [الأنعام: ١٢٣] .

يقول الشيخ السَّعْدِيُّ (رحمه الله) :

" ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا ﴾ أي : الرؤساء

الَّذِينَ قَدْ كَبُرَ جَرْمُهُمْ ، واشتدَّ طغيانهم ﴿ لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ بالخدعة والدَّعوة إلى

سبيل الشَّيْطَانِ ، ومحاربة الرِّسْلِ وأتباعهم بالقول والفعل " ^(٣) .

وهم ثابتون على باطلهم لا يتراجعون عنه ، بل داعون غيرهم للتَّبات عليه ،

قال سبحانه : ﴿ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا وَأَصْبَرُوا عَلَى الْهَيْكُمِ إِنَّ هَذَا

لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٣٥﴾ [ص: ٦] .

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٨١٩/٢ .

(٢) وانظر معنى الآية في الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٩/١٣ - ٢٩٠ .

(٣) تيسير الكريم الرَّحْمَنِ . ص : ٢٣٤ .

باذلون أموالهم في الذود عنه ليضمنوا له الاستمرار والدوام كما قال عز في علاه :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ
تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

بل ولو دعا ذلك إلى تجريد السيوف وإزهاق الأرواح ، قال تعالى :
﴿ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وغير هؤلاء دعاة آخرون ، وهم كثر ، يسعون جاهدين إلى تكثير سواد
الهالكين ، مناهضين بأقوالهم وأفعالهم لدعاة الحق ، سالكين ثبج^(١) الباطل ، دائبين
على نشر الضلال بين الناس ، يقودون الناس إلى النار ويدفعونهم إليها دفعاً .
وفي شأنهم قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ
وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].
وهم الذين عناهم حديث رسول الله ﷺ : " دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها
قذفوه فيها " الحديث^(٢) .

وهذا الزخم من دعاة الباطل يحتاج إلى ثبات من دعاة الحق ، ليردوا كيدهم ،
ويدحروا باطلهم ، ويكشفوا عوارهم .
فعلى دعاة الحق أن يتمسكوا بالحق ويصبروا عليه بكل ثبات وجرأة ليتمكنوا
من إزالة تمسك أهل الباطل بباطلهم .

(١) ثبج : ثبج كل شيء معظمه ووسطه وأعلاه ، والجمع أثباج و ثبوج . لسان العرب: ٢/٢١٩.

(٢) سبق تخريجه . ص: ١٣٤ .

ولا يزول ذلك بخَوَرٍ وضعف عزيمة ، بل لابد من عزيمة ثابتة ، وحركة مؤثرة ، وجرأة صلبة ليقوم الحق ويذهب الباطل (١) .

قال الشيخ السَّعْدِي (رحمه الله) :

" وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم يناضلون هؤلاء المجرمين ، ويردون عليهم أقوالهم ، ويجاهدونهم في سبيل الله ، ويسلكون بذلك السبيل الموصلة إلى ذلك ، ويعينهم الله ، ويسدد رأيهم ، ويثبت أقدامهم ، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم ، حتى يدول الأمر في عاقبته ، بنصرهم وظهورهم ، والعاقبة للمتقين " (٢) .

فالباطل له دعوة ، وله إصرار وعزيمة فلا بد من أن يقابل بعزيمة أقوى وأشد .

ولابد لمن حمل دعوة الله تعالى أن يناله من أذى الخلق المعارضين لدعوته . أذى بالقول وأذى بالفعل ، ولا يسلم أحد البتة من ذلك حتى رسل الله عليهم السلام . قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ

مَجْنُونٌ ﴾ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣]

وقال سبحانه : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ

وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ ﴿١٨٤﴾ [آل عمران: ١٨٤] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿١١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ

مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ [الحجر: ١٠-١١] .

(١) طرق الدعوة الإسلامية - للذكر أحمد بن محمد العدناني . ص : ٦٨-٦٩ - بتصرف .

(٢) تيسير الكريم الرحمن . ص : ٢٣٤ .

والآيات في هذا المضممار كثيرة جداً ، وهي تعكس أنواعاً من الأذى الذي يواجه به رسل الله ودعاة الحق في سبيل الدعوة إلى الله .

قال ابن كثير (رحمه الله) مؤكداً لما سبق تقريره :

" فكل من قام بحق ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر فلا بد أن يؤذى فما له دواء إلا الصبر في الله ، والاستعانة به ، والرجوع إلى الله " (١) .

والأذى نوعان : أذى يضر الدعوة فذلك غير مقبول المآل ، لأنه يوقف سير عجلتها ، ويكبتها عن الانطلاق ، وأذى يصيب حملتها فذلك مآل لا بد منه ، ولذا فرق الله بينهما في قوله : ﴿ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا يُوَلَّوْكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١١١] (٢) .

وأذى الخلق الموجه إلى الدعوة إلى الله ليس له علاج أنجع وأنفع من الصبر والثبات على الدعوة .

فإذا ارتضم بالدعاة الصادقين فحينها يتحطم أذاهم على عتبة الثبات ، وتتلاشى مضايقاتهم ورعوناتهم عند قدم الصبر ، فلا يتأثر الدعاة ولا يتزلزلون ، بل يظلون أرسى من الجبال الرواسي ، حاملين لدعوة الله غير مباليين ، مشمرين عن سواعد الجد غير متخاذلين ، ضاربين بأذى الخلق عرض الحائط غير أبهين به .

ولذا وجه الله الرسل والدعاة إلى الله أن يقابلوا أذى المتمردين على دين الله بالصبر والثبات ، فقال تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴾ [٣] وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ

(١) تفسير القرآن العظيم : ٦٥٤/١ .

(٢) وانظر : عقبات في طريق الدعوة . لأبي زكريا إبراهيم محمد أبكر عباس . منشورات نادي جازان الأدبي . طبعة

دار العلم بجدة . الطبعة الأولى : ١٤١١هـ - ١٩٩١ م . ص : ٨٤ .
(٤٣٣)

لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤].
 وقال عز وجل: ﴿لَتَبْلُوتَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا
 وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

يقول سيد قطب (رحمه الله) :

"إنها سنة العقائد والدعوات ، لا بد من بلاء ، ولا بد من أذى في الأموال
 والأنفس ، ولا بد من صبر ومقاومة واعتزام . إنه الطريق إلى الجنة ، وقد حفت الجنة
 بالمكاره ، بينما حفت النار بالشهوات (١) .

ثم إنه هو الطريق الذي لا طريق غيره ، لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة ،
 وتنهض بتكاليفها . طريق التربية لهذه الجماعة ، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة
 والاحتمال ... ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً . فهؤلاء هم الذين
 يصلحون لحملها إذا والصبر عليها . فهم عليها مؤتمنون .

وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم وتعلو ، بقدر ما يصيبهم في سبيلها من عنات
 وبلاء ، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال . فلا يفرطوا فيها بعد ذلك ، مهما
 تكن الأحوال . وذلك لكي يصلب عود الدعوة والدعاة ...

إنها سنة الدعوات . وما يصبر على ما فيها من مشقة ، ويحافظ في ثنایا الصّواع
 المرير على تقوى الله ، فلا يشطّ فيعتدي وهو يردّ الاعتداء ، ولا ييأس من رحمة الله
 ويقطع أمله في نصره وهو يعاني الشدائد ... ما يصبر على ذلك كله إلا أولو العزم
 الأقوياء : ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ " (٢) .

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حفت الجنة بالمكاره وحفت النار

بالشهوات " . صحيح البخاري : نحوه في : كتاب الرقاق : (٥٥/٨١) . باب حجت النار بالشهوات : (٢٨) .

برقم : (٦٤٨٧) . ص : ١٣٨٠ . صحيح مسلم بلفظه في : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها : (٥١) . برقم :

(٢٨٢٢) . ٢١٧٤/٤ .

(٢) في ظلال القرآن : ٥٣٩/١ - ٥٤٠ .

عقد الإمام البخاري (رحمه الله) في صحيحه باباً في كتاب الأدب قال فيه :
" باب الصبر على الأذى . وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ

أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] .

ثم روى بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " ليس أحد - أو ليس شيء - أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له ولداً ، وإنه ليعافيههم ويرزقهم " (١) .

وروى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . قال : قسم النبي ﷺ قسمة كبعض ما كان يقسم . فقال رجل من الأنصار : والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله . قلت : أما أنا لأقولن للنبي ﷺ . فأتيتُهُ وهو في أصحابه فساررتُهُ ، فشق ذلك على النبي ﷺ ، وتغير وجهه ، وغضب ، حتى وددت أني لم أكن أخبرته . ثم قال : " قد أؤذي موسى بأكثر من ذلك فصبر " (٢) .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (رحمه الله) :

" قوله : " باب الصبر في الأذى " : أي حبس النفس عن المجازاة على الأذى قولاً أو فعلاً ، وقد يطلق على الحلم ... قال بعض أهل العلم :

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب الصبر على الأذى: (٧١). برقم: (٦٠٩٩). ص: ١٣٠٦.

و بلفظ مقارب في: كتاب التوحيد: (٧٢/٩٧). باب قول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ

الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨] (٣). برقم: (٧٣٧٨). ص: ١٥٥٠.

والحديث في صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠). باب لا أحد أصبر على

أذى من الله عز وجل : (٩). برقم: (٢٨٠٤). ٢١٦٠/٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب الصبر على الأذى: (٧١). برقم: (٦١٠٠). ص: ١٣٠٦.

و بلفظ مقارب في: كتاب فرض الخمس: (٣٣/٥٧). باب ما كان النبي ﷺ يعطي المولفة قلوبهم وغيروهم من

الخمس ونحوه: (١٩). برقم: (٣٠٥٠). ص: ٦٦٥.

والحديث في صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الزكاة: (١٢). باب إعطاء المولفة قلوبهم على الإسلام وتصبر

من قوي إيمانه: (٤٦). برقم: (١٠٦٢). ٧٣٩/٢.

الصَّبر على الأذى جهاد النفس ، وقد جبل الله الأنفس على التَّألم بما يفعل بها ويقال فيها ، ولهذا شقَّ على النَّبي ﷺ نسبتهم له الجور في القسمة ، لكنَّه حلم عن القائل فصبر لما علم من جزيل ثواب الصَّابرين ، وأنَّ الله تعالى يأجره بغير حساب " (١) .

فالدَّاعية وهو ينطلق بدعوته إلى الله فلا بد أن يضع في حسبانهِ ما يكال له من اتِّهَامات كاذبة ، وأقاويل باطلة ، وشبهات مدلهمة ، وإساءات بالغة .

بل يتوقَّع ما يجده من حبس واعتقال ، وتعذيب وتشريد ، واعتداء مادي وجسمي . وفوق ذلك تهجيرهِ وإيعاده من بلده وأهله وولده ، ولعلَّه يبلغ به الاضطهاد إلى القتل والاستشهاد .

بل يضع في حسبانهِ ما يقابل به من إغراء بالمنصب والوظيفة والمال والجاه ، وإغواء بالجنس والنساء (٢) .

فعليه أن يضع كلَّ ذلك وغيره الكثير من ضروب الأذى أمام عينيه فلا يتنازل عن دعوته ، ولا يتزعزع عنها . بل يظلَّ ثابتاً كالجبل الأشم ، لأنَّ ما عند الله له أجلُّ وأعظم .

وله أسوة بمن سبقه من الأنبياء ، وما وجدوه من أقوامهم من أذى وسخرية واستهزاء ، وإعراض وإخراج وشبه . بل تقتيل وسفك دماء ، فكان الثَّبات شعارهم والصَّبر دثارهم .

وهذا من طبيعة دعوة الله أنَّها تقتضي الصِّدام بين الحقِّ والباطل ، لأنَّ النفوس الخبيثة الملتوية النَّافرة الفاسدة لا بد أن تطعن في أهل الخير والصَّلاح ، وتقذح فيهم .

(١) فتح الباري : ١٢ / ١٤٠ .

(٢) وانظر : صفات الدَّاعية التَّفسيّة . لعبد الله ناصح علوان . طبعة دار السَّلام . ص : ٣٥-٣٦ .

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتّى يراق على جوانبه الدّم^(١)
فعلى الدّاعية أن يلاقي كلّ ذلك بتحمّل وصبر وثبات حتّى لا يضيع دعوته ،
وتذهب جهوده أدراج الرياح .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :
" لا بد ... أن يكون حليماً ، صبوراً على الأذى ، فإنّه لا بد أن يحصل له
أذى ، فإن لم يحلم ويصبر يفسد أكثر ممّا يصلح " (٢) .

فعظمة الدّعوة تستوجب عظم الجهد . وقديماً قال المتنبّي (٣) :
وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام . (٤)
ولمّا كانت الدّعوة إلى الله تحتاج إلى الثّبات في جميع مراحلها قرن الله معها
الصّبر في آيات كثر .

(١) انظر : عقبات في طريق الدّعوة . ص : ١١٠-١١١ . وبيت الشّعر للمتنبي . في ديوانه : ص : ٥٧١ . طبعة

دار صادر . انظر : يتيمة الدّهر . لأبي منصور عبد الملك الثّعالبي . تحقيق : د . مفيد محمّد قميحة . طبعة دار
الكتب العلميّة . بيروت . الطبعة الثّانية : ١٩٨٣م : ٢٥٨/١ .

(٢) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ص : ٣٢ . وهو في مجموع الفتاوى : ١٣٦/٢٨ .

(٣) هو أحمد بن الحسين بن حسن أبو الطّيب الجعفي الكندي الكوفي ، حامل لواء الشّعر في زمنه ، ومن أذكّاء
عصره . بلغ شعره الذّروة في التّظم ، وله أبيات فائقة الحسن يضرب بها المثل . تنبأ ثمّ تاب فلُقّب بالمتنبي . قتل سنة
٣٥٤هـ . وله ديوان شعر مطبوع ومشروح .

وانظر : تاريخ بغداد : ١٠٢/٤ . المنتظم : ٢٤/٧ . وفيات الأعيان : ١٢٠/١ . سير أعلام النبلاء : ١٩٩/١٦ . العبر :
٩٤/٢ . لسان الميزان : ١٥٩/١ . التّحجّج الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة . جمال الدّين أبي المحاسن يوسف بن
تغري بردي الأتابكي . طبعة : المؤسّسة المصريّة العامّة : ٣٤٠/٣ . شذرات الذهب : ٢٨٢/٤ . الأعلام : ١١٥/١ .

(٤) ديوان المتنبي . وبهامشه العرف الطّيب في شرح ديوان أبي الطّيب . للشّيخ ناصف اليازجي . طبعة : دار صادر .

دار بيروت . بيروت . ١٣٨٤هـ — ١٩٦٤م : ١٤/٢ .
﴿٤٣٧﴾

قال تعالى : ﴿ يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلَاةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَاَنْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَاَصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُوْر ﴾ [لقمان: ١٧].

فهذا فيما أوصى به لقمان ابنه ، وذلك بعد أن أمره بتكميل نفسه بفعل الخير
وترك الشر ، أمره أن يكمل غيره بأمره بالخير ونهيه عن الشر ، وقد علم أن ذلك
يشقّ على النفوس ويزعجها ، فأمره بالصبر ، وأنه من الأمور التي يعزم عليها ،
ويهتم بها ، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم (١) .

ولما أمر الله رسوله ﷺ بالدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال
بالتّي هي أحسن ، أمره عقب ذلك وَمَنْ مَّعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بالصبر ، فقال تعالى :
﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٧].

وفي هذا دعوة حارة للثبات على الدعوة .

قال صديق حسن خان (رحمه الله) :

" أمر سبحانه رسوله ﷺ بالصبر فقال : ﴿ وَأَصْبِرْ ﴾ على ما أصابك من
صنوف الأذى ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أي بتوفيقه وتثبيتته " (٢) .

(١) انظر : تيسير الكريم الرحمن . ص : ٥٩٧ . وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ٧٣/٢١ . التفسير الكبير :

١٤٩/٢٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٦٨/١٤ . تفسير القرآن العظيم : ٧١٠/٣ . روح المعاني : ٨٩/٢١ . فتح

البيان : ٢٨٧/١٠ .

(٢) المرجع السابق : ٣٤٢/٧ .

وقال القاسمي (رحمه الله) :

" أكد تعالى الأمر بالصبر ليقوى الثبات والاحتمال لكل ما يلاقيه في سبيل الحق بقوله : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ

مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١)

وقال السعدي (رحمه الله) :

" ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك " (٢) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر: ١-٣] .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" قال الشافعي : لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لوسعته . وذلك أن العبد كماله في تكميل قوته : قوة العلم وقوة العمل ، وهما الإيمان والعمل الصالح ، وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره ، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر . وأخية (٣) ذلك وقاعدته وساقه الذي يقوم عليه إنما هو الصبر " (٤) .

وقال : " صَبَرُوا عَلَى الْحَقِّ وَوَصَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ وَالثَّبَاتِ " (٥) .

(١) محاسن التأويل : ٣٨٨٠/١٠ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن . ص : ٤٠٤ . وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ١٩٧/١٤ - ١٩٨ . التفسير الكبير :

١٤٢/٢٠ - ١٤٣ . تفسير القرآن العظيم : ٩١٩/٢ . روح المعاني : ٢٥٨/١٤ - ٢٥٩ .

(٣) الأخية العروة التي تثبت فيها الدابة . ومراده : مستند ذلك ومتمسكه . انظر : لسان العرب : ٢٣/١٤ - ٢٤ .

(٤) عدة الصابرين . ص : ٦٠ . وانظر التبيان في أقسام القرآن . ص : ٦٢ - ٦٣ .

(٥) مفتاح دار السعادة : ٥٦/١ .

وقال الرازي (رحمه الله) :

" كما يلزم المُكَلَّفُ تحصيل ما يخصّ نفسه ، فكذلك يلزمه في غيره أمور .
منها : الدّعاء إلى الدّين ، والنّصيحة ، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وأنّ
يحبّ له ما يحبّ لنفسه . ثمّ كرّر التّواصي ليضمن الأوّل الدّعاء إلى الله ، والثّاني
الثّبات عليه " (١) .

فالله تعالى أمر المؤمنين بأن يتواصوا بالحقّ ، وهو القيام بالدّعوة إليه ،
والتّبلغ لدينه ، ولما كان ذلك يجلب الأذى والضّئك للأمر النّاهي أردف الأمر
بالتّواصي بالصّبر ، وفي ذلك دعوة إلى الثّبات .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" أمر الله الرّسل وهم أئمّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بالصّبر ...
بل ذلك مقرون بتبليغ الرّسالة . فإنّه — أي محمّد ﷺ — أوّل ما أرسل أنزلت عليه
سورة ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: ١] بعد أن أنزلت سورة ﴿ أَقْرَأْ ﴾ [العلق: ١]
التي بها نبئ . فقال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿ وَرَبَّكَ
فَكَبِّرْ ﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿
وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر: ٥-٧] . فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار ،
وختمها بالصّبر . ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، فعلم أنّه يجب
بعده الصّبر " (٢) .

ثمّ أورد (رحمه الله) مجموعة من الآيات التي تأمر بالصّبر في مواجهة أعباء
الدّعوة .

(١) التفسير الكبير : ٨٩/٣٢ - ٩٠ .

(٢) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ص : ٣٢ وهو في مجموع الفتاوى : ١٣٦/٢٨ - ١٣٧ . مع اختلاف طفيف

وانظر : ١٦٧/١٥ - ١٦٨ .

ومن هنا تتبين لنا أهمية الثبات للداعية ، وأنه لا يمكنه أن يواصل سيره في
دعوته إلا إذا اصطحبه معه في جميع مراحلها .

وبشباته في ميدان الدعوة يتحقق له كثير من النتائج التي لا تتأتى له دون
ذلك . منها :

- ❁ قوة العزيمة وشدة الاحتمال على مواجهة الصعاب .
 - ❁ اصطفاء الشخصيات الداعية ، واستخلاص العناصر القوية .
 - ❁ الوقوف على صدق الصادقين من الدعاة وقوة ارتباطهم وتماسكهم (١) .
 - ❁ برهنته جدارة الدعوة وأنها حق يجب الاتباع .
 - ❁ ضمان استمرارية الدعوة ووقوفها أمام التحديات .
 - ❁ عجز أهل الباطل من النيل منها لصلابة سياجها ومنعة حصنها .
 - ❁ تكثير أتباعها . ونيل ما يترتب عليها من ثواب دنيوي وأخروي .
- وتمت عوامل كثيرة تعين على الثبات على الدعوة ، أتناول منها ما كان ذا
صلة قوية بهذا الجانب في المباحث الآتية :

(١) وانظر : طرق الدعوة . ص : ٨٦ . وانظر فيه قولاً قيماً عن الثبات في الدعوة وما يجنيه الدعاة من ثبلقهم . ص :

المبحث الأول

الترغيب في الدعوة والثواب المترتب على ذلك .

والترهيب من تركها والعقاب المترتب عليه

لقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بالدعوة إليه في أكثر من موضع في كتابه ، وبين ما يناله الدعاة إلى الله من الأجر الجزيل والثواب العظيم .

فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ

إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣] .

أي لا أحد أحسن كلاماً ولا أطيب مقالاً من الذي قام بتبليغ دين الله لعباده الله ، على مراد الله ، بأمر من الله .

قال الرازي (رحمه الله) :

" قوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ يدل على أن الدعوة إلى

الله أحسن من كل ما سواها . إذا عرفت هذا فنقول : كل ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجباً ، لأن كل ما لا يكون واجباً فالواجب أحسن منه ، فثبت أن كل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، إذا عرفت هذا فنقول : الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية ، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، ثم ينتج أن الدعوة إلى الله واجبة " (١) .

(١) التفسير الكبير : ١٢٥/٢٧-١٢٦ . وقد سبق بيان نوعية هذا الوجوب والتفصيل فيه . انظر : ص :

والآية عامّة لكلّ من دعا إلى الله من الأنبياء والمؤمنين ، ولا تختصّ بشخص أو صنف معيّن من النّاس كما ذهب إلى ذلك بعض أهل العلم^(١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

ففي الآية أمر من الله عزّ وجلّ للأمة أن تتصّب دعاة اتّقياء ناصحين ليقوموا بأمر الله في الدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وأولئك هم الذين وصفوا بالفلاح .

والفلاح هو الطّفر وإدراك البغيّة ، وهو دنيوي وأخروي . فالدّنيوي : هو إدراك السّعادة التي تطيب بها الحياة . والأخروي : بقاء بلا فناء - في دار البقاء وهي الجنة - وعزّ بلا ذل ، وغنى بلا فقر ، وعلم بلا جهل^(٢) .

والأمة تتألّف الفلاح في الدّنيا والأخرى إذا عملت بدينها الذي شرعه الله لها ولم تتكبّ طريقه ، وقامت بالدّعوة إلى الله خير قيام ، فبلّغت رسالة الله ، وأدّت أمانته ، ونصحت فيه أبلغ النّصح ، وجاهدت فيه حقّ الجهاد ، فحينها تتبوأ مراتب العزّ ، وتتألّف المجد والسّودد ، والشّرف على الأمم قاطبة ، وتستحقّ في يوم الخلود النّعيم المقيم والفوز العظيم .

(١) وانظر : جامع البيان : ١١٧/٢٤ - ١١٨ . أحكام القرآن لابن العربي : ١٦٥٠/٤ . التفسير الكبير :

١٢٦-١٢٤/٢٧ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٦٠/١٥ . تفسير القرآن العظيم : ١٥١/٤ . الجواهر الحسان :

١٧٦/٣ . روح المعاني : ١٢٣-١٢٢/٢٤ . فتح البيان : ٢٥١/١٢ . محاسن التّأويل : ٥٢٠٥/١٤ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٩٤-٦٩٥ . وفيه تفصيل قيّم لأنواع الدّعوة التي يجب أن يقوم بها الدّعاة إلى الله .

(٢) محاسن التّأويل : ٩٢٠/٤ . بتصرّف . وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ٣٨/٤ . أحكام القرآن لابن العربي :

٢٩٣-٢٩٢/١ . التفسير الكبير : ١٦٦-١٦٨/٨ . تفسير القرآن العظيم : ٥٨٣/١ . الجواهر الحسان :

٢٧٨-٢٧٧/١ . روح المعاني : ٢٢-٢٠/٤ . فتح البيان : ٣٠٥-٣٠٤/٢ .

وقال عز وجل : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤].

فالله وعد بالثواب الجزيل والأجر العظيم الذي لا حد لمبلغه لمن أمر بالخير المتضمن لوجوه الصلاح في الأرض ، وحذر من الشر المتضمن لوجوه الفساد ، إذ كل أمر بخير يقتضي نهياً عن شرّ مقابل .
وفي الآية بيان لما يناله الدعاة إلى الله من ثواب عظيم جزاء قيامهم بأمر الدعوة (١) .

وقال تعالى في وصف المنافقين : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧] .
ثم وصف المؤمنين بضد ذلك فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١] .

فمن صفات أهل الإيمان التي يتميزون بها عن المنافقين ، والتي استحقوا بها رحمة الله تعالى أنهم يأْمُرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر إضافة إلى ما ذكر من صفات في الآية ، بينما يتميز المنافقون بخلاف ذلك .

(١) وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ٢٧٦/٥ . أحكام القرآن لابن العربي : ٤٩٨-٤٩٩ . التفسير الكبير :

٤٠/١١-٤٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٨٣/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٨٤٢/١ . الجواهر الحسان : ٣٨٤/١ .

روح المعاني : ١٤٥-١٤٤/٥ . فتح البيان : ٢٣٧-٢٣٩ . محاسن التأويل : ١٥٤٢-١٥٤٣ .

ولذا قال القرطبي (رحمه الله) :

" فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين ، فدلّ على أنّ أخصّ أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " (١)

وفي هذا دافع للمؤمن كي يقوم بأمر الدعوة حتّى يتسم بسمّة من سمات الإيمان الفارقة بينه وبين النفاق .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [١١] أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا
لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ [١٢] [آل عمران: ٢١-٢٢].

قال القاسمي (رحمه الله):

" قد دلّت الآية على عظم حال من يأمر بالمعروف ، وعظم ذنب قاتله ، لأنّه
قرن ذلك بالكفر بالله تعالى ، وقتل الأنبياء " (٢) .
والآيات في هذا الشأن كثيرة . وأمّا الأحاديث :

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤٧/٤ . وانظر : جامع البيان : ١٧٨/١٠-١٧٩ . التفسير الكبير : ١٣٠/١٦-١٣١ .

الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٣-٢٠٢/٨ . تفسير القرآن العظيم : ٥٧٤-٥٧٥/٢ . روح المعاني :

١٠/١٣٦-١٣٥ . فتح البيان : ٣٤٧-٣٤٥/٥ . محاسن التأويل : ٣٢٠/٨-٣٢٠/١ . تيسير الكريم الرحمن .

ص : ٣٠٣ .

(٢) محاسن التأويل : ٨١٧/٤ .

فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " (١) .

فقد وصف صلى الله عليه وسلم من قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وهما شقاً الدعوة - بالإيمان ، وأنه يتناقص ذلك الإيمان كلما ضعف صاحبه في جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال أبو العباس القرطبي (رحمه الله) :

" وقوله " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده " هذا الأمر على الوجوب ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات الإيمان ، ودعائم الإسلام بالكتاب والسنة وإجماع الأمة " (٢)

بل من لم يباشر ذلك ، ولو بقلبه ، يسلب إيمانه . وقد صرح صلى الله عليه وسلم بذلك في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حينما قال : " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون (٣) وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف (٤) ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب بيان كون التهي عن المنكر من الإيمان: (٢٠). برقم:

(٤٩). ٦٩/١.

(٢) المفهم: ٢٣٣/١.

(٣) حواريون: جمع حوارى وهم خلصاء الأنبياء وأنصارهم .

انظر: غريب الحديث للهروي: ١٦/٢. التهاية في غريب الحديث: ٤٥٨/١.

(٤) خلوف: جمع خلوف وهو من يجئ بعد من مضى . انظر: التهاية في غريب الحديث: ٦٥/٢-٦٦. وانظر:

الفائق: ٤٨/١. غريب الحديث لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي . تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي .

طبعة: دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى: ١٩٨٥ م: ٢٩٧/١.

بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدتهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدتهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " (١) .

وعن عليّ ؓ أن الرسول ﷺ قال له : " انفذ على رسلك (٢) حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النّعم " (٣) .

وفي هذا إثبات للأجر العظيم الذي ينال الدّاعية إلى الله متى ما اهتدى على يديه عبّد من عباد الله . فإنّ ذلك خير له من حمر النّعم ، التي هي أشرف النّعم وخيارها عند أهلها .

قال أبو العباس القرطبي (رحمه الله) :

" وقوله " فوالله لأن يهدي الله ... النّعم " حضّ عظيم على تعليم العلم وبثّه في النّاس ، وعلى الوعظ والتّذكير بالدار الآخرة والخير ... والهداية : الدّلالة والإرشاد . والنّعم : هي الإبل . وحُمْرُها : هي خيارها حسناً وقوّة ونفاسة ، لأنّها أفضل عند العرب . ويعنى به - والله أعلم - أن ثواب تعليم رجل واحد ، وإرشاده

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب بيان كون التّهي عن المنكر من الإيمان: (٢٠). برقم:

(٥٠) . ٧٠/١ .

(٢) الرّسل : هو السّكون والتّأني . والمراد أي اتّمد في أمرك ولا تعجل فيه . وانظر: الفائق: ٥٦/٢ . ٩٤/٣ . التّهاية في

غريب الحديث: ٢٢٢/٢ - ٢٢٣ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب فضائل أصحاب التّبي ﷺ " المناقب ": (٣٧/٦٢). باب مناقب عليّ بن أبي

طالب ؓ : (٣٨/٩). برقم: (٣٧٠١). ص: ٧٨٠ . وفي كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب غزوة خيبر:

(٣٩/٣٨). برقم: (٤٢١٠). ص: ٨٨٠ . و بلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسير: (٣٢/٥٦). باب دعاء

التّبي ﷺ إلى الإسلام والتّوبة: (١٠١/١٠٢). برقم: (٢٩٤٢). ص: ٦٢١ . وفي باب فضل من أسلم على يديه

رجل: (١٤٢/١٤٣). برقم: (٣٠٠٩). ص: ٦٣٣ .

صحيح مسلم: بلفظه برقم: (٢٤٠٦) ومعناه برقم: (٢٤٠٥). في: كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤). باب من

فضائل عليّ بن أبي طالب ؓ : (٤). ١٨٧١ - ١٨٧٢ / ٤ .

﴿٤٤٧﴾

للخير أعظم من ثواب هذه الإبل النفيسة لو كانت لك فتصدقت بها ، لأنَّ ثواب تلك الصدقة ينقطع بموتها ، وثواب العلم والهدى لا ينقطع إلى يوم القيامة " (١) .

والهداية في الحديث هي هداية البيان والدلالة والإرشاد ، وهي التي كلف بها الرسل والدعاة إلى الله ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] . وليست بهداية التوفيق والإلهام ، إذ ليست هذه في مقدور الخلق ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦] (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً " (٣) .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" أخبر ﷺ أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به ، والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضلَّ به ، لأنَّ هذا بذل قدرته في هداية النَّاس ، وهذا بذل قدرته في ضلالتهم ، فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التَّام " (٤) .

(١) المفهم : ٢٧٦/٦ . وانظر : مفتاح دار السعادة : ٦٢/١ .

(٢) وانظر : مجموع الفتاوى : ١٧٢/١٨ - ١٧٣ . مفتاح دار السعادة : ٨٤/١ - ٨٥ .

(٣) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب العلم : (٤٧) . باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة ، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة :

(٦) . برقم : (٢٦٧٤) . ٢٠٦٠/٤ .

(٤) مفتاح دار السعادة : ٦٢/١ . وانظر : مجموع الفتاوى : ٧٢٤/١٠ . طريق الحجرتين . ص : ٥٣٣ .

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله " (١) .

قال النووي (رحمه الله) :

" فيه فضيلة الدلالة على الخير والتّنبية عليه والمساعدة لفاعله . وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لا سيما لمن يعمل بها من المتعبّدين وغيرهم " (٢) .

فالدّاعية في الحديثين نال الأجر العظيم لأنّه :

١ - أنقذ ذلك المهتدي من النّار ، وهي دار الشّقاء إلى الجنّة التي هي دار السّعادة .
وذلك أعظم معروف وإحسان يقدّمه الدّاعية لغيره .

٢ - كلّ ما يقوم به المهتدي من حركات وسكنات ينال بها أجراً كان للدّاعية مثل أجره ، لأنّه السّبب في اهتدائه . وذلك باب من الأجر لا يغلق .

٣ - من اهتدى يكون عوناً للدّاعية على أداء رسالته ، حيث تضمّ الجهود إلى بعضها ، وتتقوى الدّعوة بزيادة عناصرها .

٤ - يكتسب الإسلام فرداً جديداً من أفراده ، ويخسر الشّيطان بعض أعوانه ، وفي ذلك لبنة في بناء الإسلام الشّاهق تسبّب في إضافتها الدّاعية (٣) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " نَصَرَ اللَّهُ امرءاً سَمِعَ مقالتي فوعاها ، وحفظها وبلّغها ، فَرُبَّ حَامِلٍ فقه إلى مَنْ هُوَ أَفقه منه " الحديث (٤)

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره ، وخلافه

في أهله بخير: (٣٨). برقم: (١٨٩٣). ١٥٠٦/٣ .

(٢) شرح النووي على مسلم : ٣٩/١٣ .

(٣) وانظر : قواعد الدّعوة إلى الله - للدكتور همام عبد الرّحيم سعيد - دار العدوي . عمّان الأردن . الطّبعة

الأولى : ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ . ص : ٢٣-٢٦ .

(٤) سنن أبي داود: بنحوه في: كتاب العلم: (٢٤). باب فضل نشر العلم: (١٠). برقم: (٣٦٦٠). عن زيد بن

ثابت رضي الله عنه . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٤٠٤ .
﴿٤٤٩﴾

فلو لم يكن في فضل الدّعوة إلّا هذا الحديث لكفى ، فإنّ رسول الله ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه ، ثمّ بلغه وبّته في الأمّة بالنّضارة ، وهي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به ، وفرح القلب وسروره واللّذاة به ، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه (١) .

❁ وقد جاء خطاب الشّرع بالأمر بالدّعوة متنوّع الأساليب ، متعدّد الأوجه، حاثّاً للدّعاة إلى الله أن يقوموا بها على أكمل الوجوه ، وأحسن الطّرق ، وأقوم السّبل .

قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] .

سنن الترمذي: بلفظه عن ابن مسعود ؓ . برقم: (٢٦٥٨) — مع زيادة فيه — و بنحوه عنه برقم: (٢٦٥٧) . كتاب العلم: (٣٨) . باب ماجاء في اخّ على تبليغ السّماع: (٧) . وقال: " هذا حديث حسن صحيح " . وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٤٣٠ .

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: المقيّمه . باب من بلغ علماً: (١٨) . عن زيد ؓ برقم: (٢٣٠) . وعن جابر بن مطعم ؓ برقم: (٢٣١) . وعن أنس ؓ برقم: (٢٣٦) . و بنحوه عن عبد الله ؓ برقم: (٢٣٢) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٤٠ . و بلفظ مقارب في: كتاب المناسك: (٢٥) . باب الخطبة يوم النحر: (٧٦) . برقم: (٣٠٥٦) . عن جابر ؓ . ص: ٣٣١ .

سنن الدارمي: بلفظ مقارب في: باب الاقتداء بالعلماء . عن جابر ؓ . ونحوه عن أبي الدرداء ؓ . ٨٧-٨٦/١ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٨٠/٤ . عن جابر ؓ . ونحوه عن ابن مسعود ؓ في: ٤٣٦/١ . وعن جابر ؓ في: ٨٢/٤ . وزيد ؓ في: ١٨٣/٥ .

هذه بعض طرق هذا الحديث . وهو حديث متواتر . انظر : دراسة وافية وقيمة له لشيخنا عبد المحسن بن حمد العباد حفظه الله . في كتابه : دراسة حديث نصر الله امرأ سمع مقالتي...رواية ودراية . فقد ذكر له أربعة وعشرين صحابياً ممن رواه عن النبي ﷺ . وذكره السيوطي في قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة . تحقيق الشيخ خليل محي الدين عيسى . المكتب الإسلامي . الطبعة الأولى : ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م . ص: ٢٨ .

(١) انظر : مفتاح دار السعادة : ٧٢/١ .

أمر الله سبحانه في الآية الدّعاة إلى الله أن يدعوا إلى دينه بالحكمة ، وهي كما يقول مالك (رحمه الله) : " طاعة الله والاتباع لها ، والفقّه في دين الله ، والعمل به " (١) . أو هي معرفة الحقّ والعمل به ، والإصابة في القول والعمل (٢) .

وهي دعامة ثابتة ، وركيزة قويّة من ركائز الدّعوة ، ولكنها لا تتأتّى إلا لمن نال قسطاً وافراً من فقه الدّعوة .

ولذا مدح الله أهلها فقال : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

ولا تكون الدّعوة بحكمة إلا إذا كان مقصوداً بها الوصول إلى الغايات المحمودة ، والمطالب النّافعة المشتملة على العلم النّافع والعمل الصّالح (٣) .

كما أمرهم أن يدعوا إليه بالموعظة الحسنة ، وهي الأمر والنّهي المقرون بالترغيب والترهيب (٤) ، لما في ذلك من الأثر العظيم والخير العميم . إذ التّرجيب

(١) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله . لأبي عمر يوسف بن عبد البر التّمري القرطبي . تقدّم :

عبد الكريم الخطيب . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م . طبع المطبعة الفنّية بالقاهرة . نشر دار الكتب الإسلامية . ص : ٤٠ .

(٢) مدارج السّالكين : ٤٧٨/٢ . الضّوء المنير : ٤٥٦/١ . وقد تعدّدت أقوال أهل العلم في المراد بالحكمة . انظر : جامع البيان : ٨٩/٣ - ٩١ . التفسير الكبير : ٦٧/٧ - ٦٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٣٠/٣ . روح المعاني : ٤١/٣ . فتح البيان : ١٣٠/٢ . فتح الباري : ٢٣٠/١ . وما ذكرته هو القول الجامع لمعنى الحكمة . ولذا استحسّنه ابن القيم (رحمه الله) انظر : مدارج السّالكين : ٤٧٨/٢ .

(٣) انظر : شفاء العليل : ص : ١٩٠ . الضّوء المنير : ٢٩٣/٢ .

(٤) انظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٠٤ . ويقصد بالترغيب : كلّ ما يشوّق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحقّ ، والثّبات عليه . ويقصد بالترهيب : كلّ ما يخيف ويحدّ المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحقّ أو عدم الثّبات عليه بعد قبوله . والأصل في التّرجيب أن يكون في نيل رضا الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة ، وأن يكون التّرهيب بالتّخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة . أصول الدّعوة . لعبد الكريم زيدان . مؤسّسة الرّسالة بيروت . الطّبعة السّابعة : ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م . ص : ٤٣٧ . بتصرّف يسير .

والتّرهيب عاملان مؤثران في دفع النّاس للخير وتجنّيبهم للشرّ . ولأجل هذا تكاثرت الآيات الأمرّة بالدّعوة بالموعظة ، كقوله تعالى :

﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ [النساء: ٥٨]. وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣]. وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ [لقمان: ١٣] . وغيرها الكثير .

كما أمرهم بالجدال بالتي هي أحسن ، وهو إقامة الحجج والبراهين لنصرة الحقّ وكبت الباطل ، ودفع الشّبهات ، وإفساد حجج الخصم ^(١) .

ولكن بما يحسن من الأدلّة ، ويجمّل من الكلام ، بأن يكون منك للخصم تمكين ، وفي خطابك له لين ، وأن تستعمل من الأدلّة أظهرها وأنورها ، وإذا لم يفهم المجادل أعاد عليه الحجّة وكررها ^(٢) .

وقال في آية مماثلة : ﴿ وَلَا تَجَدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] . أي جادلوهم بالخصلة التي هي أحسن للتّوابع على سبيل الدّعوة لهم ، والتّنبية على حجج الله وبراهينه رجاء أن ينصاعوا للإسلام ، لا عن طريق الإغلاظ والمخاشنة ^(٣) .

(١) وانظر : الفروسيّة لابن قيم الجوزيّة . تحقيق : مشهور بن حسن بن محمود بن سليمان . طبعة دار الأندلس . حائل . الطبعة : الأولى : ١٤١٤هـ — ١٩٩٣م . ص : ١٨٥-١٨٦ . مفتاح دار السّعادة : ٥٨/٢ . الضّوء المنير : ١٧٣/٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ١٤٧٥/٣ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٠/١٣ . فتح البيان : ٢٠١/١٠ .

مستندين إلى العلم الصحيح ، والهدى الرشيد ، والكتاب البين ، قاصدين الحق . ليس كقوم قال الله في شأنهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١﴾ [الحج: ٨-٩].
والذي يحسن الجدل هو العالم الذي تتأتى له الحجج ، ويحضره الجواب ، ويسرع إليه الفهم (١) .

والناس ليسوا أمام الدعوة في حدّ سواء ، فهم مختلفون في الفهم والانقياد والافتناع ، فيسلك معهم أقرب السبل التي توصلهم إلى الحق .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" الناس ثلاثة أقسام : إمّا أن يعترف بالحق ويتّبعه ، فهذا صاحب الحكمة . وإمّا أن يعترف به لكن لا يعمل به ، فهذا يوعظ حتّى يعمل . وإمّا أن لا يعترف به فهذا يجادل بالتي هي أحسن ، لأنّ الجدل في مظنة الإغصاب ، فإذا كان بالتي هي أحسن حصلت منفعة بغاية الإمكان كدفع الصائل " (٢) .

وممّا أمر به الدعاة إلى الله أن يؤدّوا واجب النصّح لعباد الله ، لأنّ الدعاة أمناء على دين الله ، فإذا لم يقوموا بنصح الأمة فقد نقضوا تلك الأمانة .

(١) انظر : جامع بيان العلم . ص : ٤٣٣ .

ولمعرفة أنواع الجدل وما يجوز منه وما يمنع . انظر : فتح الباري : ٢٥٢/١٥ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٤٥/٢ .

قال أبو حاتم (رحمه الله) :

" الواجب على المرء لزوم النصيحة للمسلمين كافة ، وترك الخيانة لهم ، بالإضمار والقول والفعل معاً ، إذ المصطفى ﷺ كان يشترط على من بايعه من أصحابه النصح لكل مسلم مع إقام الصلاة وإيتاء الزكاة " (١) .

ولما كان النصح عظيماً جعله الله من صفات رسله . فقال عن نوح عليه السلام : ﴿ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢] . وقال عن هود عليه السلام : ﴿ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨] . وقال عن صالح عليه السلام : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩] .

وقد جعل رسول الله ﷺ عماد الدين وقوامه النصيحة (٢) . فقال في

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء . للإمام أبي حاتم محمد بن حبان البستي . تحقيق : عادل أحمد عبدالموجود ، وعلي محمد معوض - الطبعة الثالثة : ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م . مكتبة نزار مصطفى الباز . مكة - الرياض . ص: ٣٢٦ . عن جرير بن عبد الله ﷺ قال : " بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم " . صحيح البخاري: كتاب الإيمان: (٢) . باب قول النبي ﷺ " الذين النصيحة: (٤٢/٤٣) . برقم: (٥٧) . ص: ٢٨ - وهو في مواضع أخرى من صحيحه - . صحيح مسلم: كتاب الإيمان: (١) . باب بيلن أن الذين النصيحة: (٢٣) . برقم: (٥٦) . ٧٥/١ .

(٢) النصيحة : كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له . وهي من وجيز الكلام الذي ليس في كلام العرب كلمة مفردة تستوفيها العبارة عن معنى هذه الكلمة . وقيل : هي مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه ، فشبهوا فعل الناصح فيما يتجرأه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب . وقيل : مأخوذة من نصحت العسل إذا صفّيته من الشمع . فشبهوا تخلص القول من الغش بتخلص العسل من الخلط .
شرح التووي على مسلم : ٣٧/٢ بتصرف يسير .

حديث تميم الداري رضي الله عنه : " الدين النصيحة " قلنا : لمن ؟ قال : " لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " (١) .

وقيام الداعية إلى الله بالنصح فيه دلالة على بذله غاية الجهد في إيلاغ دين الله وبيانہ للناس ، إذ ليس كل أحد يؤدي النصيحة إلى عباد الله أداءً سليماً ، لما تحتاجه من جوانب شتى يجب على الداعي أن يتحلى بها .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" النصيحة إحسان إلى من تتصحه بصورة الرحمة له ، والشفقة عليه ، والغيرة له وعليه ، فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه ، والإحسان إلى خلقه ، فيتلطف في بذلها غاية التلطف ، ويحتمل أذى المنصوح ولائحته ، ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق للمريض المشبع مرضاً ، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرتة ، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن فهذا شأن الناصح " (٢) .

ولكي ينجح الداعي في حصول مقصوده في النصيحة فليقدمها سرّاً بينه وبين المنصوح له حتى تؤتى أكلها . وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣] . أي انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم (٣) .

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: (١). باب بيان أن الدين النصيحة: (٢٣). برقم: (٥٥). ٧٤/١. وانظر شرح

الحديث ، ومراد النبي ﷺ من التصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم . في : المفهم : ٢٤٤-٢٤٣/١ .

شرح التتوي على مسلم : ٣٧/٢-٣٩ . فتح الباري : ١٨٧/١-١٨٨

(٢) الروح . ص : ٢٥٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٧٨٦/١ . وانظر : تفسير الكريم الرحمن . ص : ١٤٩ .

﴿ وَاللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا أَمَرَ الدَّعَاةَ بِالْقِيَامِ بِأَمْرِ الدَّعْوَةِ حَذَّرَهُمْ أَيْمًا تَحْذِيرَ عَنِ النَّكُوصِ عَنْهَا ، وَتَرَكَ الْقِيَامَ بِهَا ، وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ الْوَخِيمَةَ الَّتِي تَتَالَهُمْ إِذَا هُمْ أَهْمَلُوا أَمْرَهَا ، وَتَرَكَوْا شَأْنَهَا .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ۝

[المائدة: ٧٨-٧٩].

لقد طرد الله وأبعد من رحمته قوماً من بني إسرائيل بشهادة وإقرار بعض أنبيائهم ، وذلك لما عصوا الله وظلموا عباده ، ثم فسّر ذلك العصيان الذي استجلب لهم اللعن ، أنهم كانوا يفعلون المنكر ، ولا ينهى بعضهم بعضاً عنه . فانتظم اللعن المباشر للمنكر والساكت عن نهيه مع قدرته عليه^(١) .

والآية دأمة لكل من فعل فعلهم ، ومحذرة له من أن يرتكب ما ارتكبه^(٢) .

ولذا قال الألوسي (رحمه الله) :

" وفي هذه الآية زجر شديد لمن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " ^(٣) .

(١) تيسير الكريم الرحمن . ص : ٢٠٣ . وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ٦/٣١٧-٣٢٠ . التفسير الكبير :

١٢/٦٣-٦٤ . الجامع لأحكام القرآن : ٦/٢٥٢-٢٥٤ . تفسير القرآن العظيم : ٢/١٣٢ . الجواهر الحسان :

١/٤٤١-٤٤٢ . روح المعاني : ٦/٢١١-٢١٣ . فتح البيان : ٤/٣١-٣٢ . محاسن التأويل :

٦/٢١١٠-٢١١٣ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٦/٢٥٣ . تفسير القرآن العظيم : ٢/١٣٢ .

(٣) روح المعاني : ٦/٢١٣ .

وقال الغنوجي (رحمه الله) :

" والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية ، وأجل الفرائض الشرعية ، ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المعصية ، ومستحقاً لغضب الله وانتقامه " (١) .

وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك ، وأوامره تترك ، وحدوده تُضيّع ، ودينه يهمل ، وشرعه يرغب عنه وهو مع ذلك ساكت أخرس ، بارد القلب ، عاجز الهمة ، لا يحرك ساكناً ، ولا يتمرّ وجهه في الله يوماً .
وهل ابتلي الإسلام إلا بمثل هؤلاء الذين يرون - صباح مساء - دين الله يعطل ، وشرعه يدنس ، ولا مبالاة لهم بما يجري ، وكأن الأمر لا يعينهم ؟!

(١) فتح البيان : ٣٢/٤ . وقد نقل القاسمي عن الحاكم (رحمهما الله) أنه قال في الآية : " تدل على أن ترك النهي

من الكبائر " محاسن التأويل : ٢١١١/٦ .

وقد أطبق علماء التفسير على إيراد حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند تفسير هذه الآية . ومفاده : أن الرجل من بني إسرائيل إذا لقي من يفعل المنكر ينهاه ، ثم لا يمتنع بعد ذلك أن يكون أكيله وشرهيه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله على قلوب بعضهم ببعض ولعنهم . والحديث أخرجه أبو داود في سننه : كتاب الملاحم : (٣٦) . باب : الأمر والنهي : (١٧) . برقم : (٤٣٣٦) . قال الألباني (رحمه الله) : " ضعيف " . ص : ٤٧٣ . والترمذي في سننه : كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة المائدة : (٥) . برقم : (٣٠٤٨) . قال الألباني (رحمه الله) : " ضعيف " . ص : ٤٨٦ . وابن ماجه في سننه : كتاب الفتن : (٣٦) . باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : (٢٠) . برقم : (٤٠٠٦) . قال الألباني (رحمه الله) : " ضعيف " . ص : ٤٣٠-٤٣١ . والبيهقي في سننه : باب ما يستدل به على أن القضاء وسائر أعمال الولاية مما يكون أمراً معروفاً أو نهياً عن منكر من فروض الكفايات : ٩٣/١٠ . وأبو يعلى في مسنده : ٤٤٨/٨ . برقم : (٥٠٣٥) . قال محققه : " إسناده ضعيف " . والطبراني في المعجم الأوسط : ٣١٦/١ .

وعلة ضعفه أنه رواه أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن أبيه وهو لم يسمع منه . فالحديث منقطع . وانظر : الترغيب والترهيب : ١٦١/٣ . ولذا ضربت عنه صفحاً لما تبين لي عدم صحته . انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة : ١١٠٥/٣ .

فأي خير في هؤلاء ، إنهم لا خير فيهم ، فحق لمثلهم أن يلحقوا بالعصاة والمجرمين (١) .

ولعل البعض تقوم في ذهنه شبهة إذا رأى الفساد استشرى ، والباطل صلب عوده ، والمعاصي استفحلت ، ولا أثر للدعوة فيمن فسد ، فحينها يترك الأمر والنهي ، ويرفع عقيرته بقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥] . حيث يستمد من الآية فهماً خاطئاً فحواه : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سقطا عنه ، إذ لا يضره ضلال من ضل ، وغواية من غوى ما دام هو على الجادة .

وقد تطرق هذا الفهم الخاطئ للآية قديماً مما جعل خليفة رسول الله ﷺ أبابكر الصديق رضي الله عنه ينبري لتصويبه .

عن قيس (رحمه الله) (٢) قال : قال أبو بكر رضي الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه : " يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ... وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول : " إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمَ اللَّهُ بِعِقَابٍ " ... وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، ثم يقدر على أن يغيروا ، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب " (٣) .

(١) انظر : أعلام الموقعين : ١٧٧/٢ . الضوء المنير : ٢٢٢/٣ .

(٢) هو ابن أبي حازم (رحمه الله) . سبقت ترجمته . انظر : ص : ٢٠٨ .

(٣) سنن أبي داود : بلفظه في : كتاب الملاحم : (٣٦) . باب الأمر والنهي : (١٧) . برقم : (٤٣٣٨) . قال الألباني

(رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤٧٣ .

فقد أجلي الصّدِّيق ﷺ معنى الآية بحيث لا يصبح للسّاكت عن الدّعوة متمسك فيها ، بل هي آية حاثّة للقيام بأمر الدّعوة .

ولذا قال الإمام أبو بكر بن العربي (رحمه الله) عنها :

" هذه الآية من أصول الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الذي هو أصل الدّين وخلافة المسلمين " (١) .

وبيان ذلك أنّ الله أمر عباده أن يصلحوا أنفسهم ، ثمّ يصلحوا غيرهم بأن يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، فإن هم فعلوا ذلك فلم يرتدع من أمر أو نهي فلا يضرّهم ضلاله وانحرافه حينئذ .

قال الطّبري (رحمه الله) :

" فإنّه لا يضرّكم ضلال من ضلّ إذا أنتم رمتم العمل بطاعة الله ، وأديتم فيمن ضلّ من النّاس ما ألزمكم الله به فيه ، من فرض الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، الذي يركبه أو يحاول ركوبه ، والأخذ على يديه ، إذا رام ظلماً لمسلم

سنن الترمذي: بنحوه في: كتاب الفتن: (٣٠). باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغيّر المنكر: (٨). برقم:

(٢١٦٨). ص: ٣٦٠. وقال: " وهذا حديث صحيح ". قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " .

سنن ابن ماجه: بنحوه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: (٢٠). برقم: (٤٠٠٥).

قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٤٣٠.

مسند أحمد: بنحوه في: ٩، ٧/١. قال أحمد محمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد

شاكر: ١٦٨/١، ١٧٦. برقم: (٥٣، ٢٩).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بنحوه في: باب ذكر البيان بأن المنكر والظلم إذا ظهرا كان على من علم

تغييرها حذر عموم العقوبة . برقم: (٣٠٤ ، ٣٠٥) . قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده صحيح على شرط

مسلم ". ص: ٥٣٩/١-٥٤٠.

مسند أبي يعلى: نحوه برقم: (١٢٨ ، ١٣١). قال محققه: " إسناده صحيح ". ١١٨-١١٩.

(١) أحكام القرآن : ٧٠٣/٢ .

أو معاهد ومنعه منه ، فأبى النزوع عن ذلك ، ولا ضير عليكم في تماديه في غيّه
وضلاله إذا أنتم اهتديتم ، وأديتم حقّ الله تعالى فيه " (١) .

فالآية آمرة بالدعوة حائّة عليها ، ليست بمتبّطة عنها .
وبعد هذا ، فإنّ الدّاعية إلى الله متى ما استشعر أوامر الله ورسوله الحائّة له
على القيام بتبليغ دين الله ، وما ينتج من ذلك من ثمرات دنيويّة وأخرويّة ، كما
استشعر الزّواجر النّاهية له عن النّكوص عن الدّعوة والسّكوت عن بيان دين الله ،
وما يترتّب على ذلك من عواقب دنيويّة وأخرويّة ، دفعه ذلك كلّه للقيام بالدّعوة إلى
الله والثّبات عليها ، والصّبر على ما يقابله من شدّة فيها وعنت مهما كانت العقبات
والمعوقات والمصاعب والآلام التي تصاحب الدّعوة إلى الله والتي تعترض طريق
سيره إليه سبحانه .

(١) جامع البيان : ٩٩/٧-١٠٠ . وانظر : التفسير الكبير : ١١١/١٢-١١٣ . الجامع لأحكام القرآن :

٣٤٢/٦-٣٤٥ . تفسير القرآن العظيم : ١٧٦/٢ . الجواهر الحسان : ٤٥٤/١-٤٥٥ . روح المعاني :

٤٦-٤٥/٧ فتح البيان : ٦٩/٤-٧١ . محاسن التّأويل : ٢١٨٩/٦-٢١٩٣ .

﴿ المبحث الثاني ﴾

العلم الشرعي*

إن العلم هو الروح الذي تحيا به الدعوة ، وهو النور الذي تستضيء به ، وهو الغذاء الذي يضمن لها بقاءها وقوتها .

والداعية بغيره ، يعجز أن يؤدي دوره الذي كلف به ، ومهمته التي أنيطت به ، وهي تبليغ دعوة الله إلى الناس كافة .

قال سبحانه : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ

فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فبنور العلم والإيمان يستطيع الداعية أن يمشي بين الناس متبصراً في أموره ، مهتدياً لسبيله ، عارفاً للخير ، مؤثراً له ، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره ، عارفاً بالشر ، مبغضاً له ، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره (١) .

والعلم الذي تحتاجه الدعوة هو العلم الديني المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ، وليس هو العلم بمعناه الواسع الذي يشمل مختلف العلوم والمعارف ، كالطب والهندسة والفلك ونحو ذلك .

* العلم : عاملٌ مُعينٌ على الثبات في كلِّ المواطن ، فهو من العوامل العامة ، ولكن أثرت الحديث عنه هنا لارتباطه الوثيق بالدعوة ، وأهميته العظمى في ثبات الداعية .

(١) تيسير الكريم الرحمن . ص : ٢٣٤ . بتصرف يسير .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (رحمه الله) :

" والمراد بالعلم : العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته ، والعلم بالله وصفاته ، وما يجب له من القيام بأمره ، وتنزيهه عن النقائص ، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه " (١) .

❁ وقد ندب الله المؤمنين إلى التفقه في الدين وتعلمه ، كي ينذروا قومهم ، ويبلغوهم دين الله إذا رجعوا إليهم .

فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢] (٢) .

(١) فتح الباري : ١/١٩٢ .

(٢) وقد اختلف العلماء في المراد من الآية : هل الطائفة النافرة هي التي تتفقه أم القاعدة مع التي ❁ ؟ . قولان .

ولكل قول مؤيدون من أهل التفسير . انظر : جامع البيان : ١١/٦٦-٧١ . أحكام القرآن لابن العربي : ١٠١٨-١٠١٩/٢ . التفسير الكبير : ١٦/٢٢٥-٢٢٨ . الجامع لأحكام القرآن : ٨/٢٩٣-٢٩٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٦٢١-٦٢٢ . الجواهر الحسان : ٢/١٤٩-١٥٠ . روح المعاني : ١١/٤٨-٤٩ . فتح البيان : ٥/٤٢٤-٤٢٥ . محاسن التأويل : ٨/٣٢٩٨-٣٣٠١ .

وعلى القولين فإن الآية مرغبة في التفقه في الدين ، وتعلمه وتعليمه . انظر : مفتاح دار السعادة : ١/٥٦ . ولذا قال القرطبي (رحمه الله) : " هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم " .

الجامع لأحكام القرآن : ٨/٢٩٣ . وانظر : أحكام القرآن لابن العربي : ٢/١٠١٩ .

وقد أساء إلى دعوة الله أناس نالوا قسطاً من علوم شتى كالطب والهندسة والجغرافيا وغيرها ، وخلا وفاضهم من علم الكتاب والسنة إلا من بصيل لم يكفر لإيضاح الرؤية ، ومنهم من قذفت به جامعات الغرب ، فنصب هؤلاء أنفسهم دعاة إلى الله ، بل لم يقف بعضهم عند ذلك الحد ، فتبوأ مقام الصدارة في موكب الدعوة ، يرسل الفتاوى ويكثير التنظيرات فيزيد الأمة وبالأعلى ما هي عليه ، ويفتك بأبنائها فيقطع طائفة منهم يثبت سمومه فيهم ، ويملي رعوناته عليهم فيرددونها كالبابغاوات ، فتنجرف الدعوة عن مسارها الصحيح ، وتقف عجلة تقدّمها بل لعلها تعود إلى الوراء .

وخير هؤلاء أن يكفوا ويتركوا الأمر إلى أهل العلم الشرعي الذين يصّرون الأمة ، ويحسنون قيادتها ، ويقومون عوجها ، فهم أولى وأرشد ، وليُذَيَّل أولئك القافلة فذاك المقام هم أخرى وأنسب .

قال الرازي (رحمه الله) :

" دلّت الآية على أنه يجب أن يكون المقصود من التّفقه والتّعلّم دعوة الخلق إلى الحقّ ، وإرشادهم إلى الدّين القويم والصّراط المستقيم ، لأنّ الآية تدلّ على أنّه تعالى أمرهم بالتّفقه في الدّين لأجل أنّهم إذا رجعوا إلى قومهم أنذروهم بالدّين الحقّ ... فكلّ من تفقه وتعلّم لهذا الغرض كان على المنهج القويم والصّراط المستقيم " (١) .

والعلم للدّعوة سلاح مضاء ، وضرورة ملحة ، وغاية مستهدفة ، وزاد لجميع مراحلها لا يمكنها أن تسير إلّا به ، ولا تتقدّم إلّا في ضوئه ، ولا يتّضح طريقها ويستقيم أمرها إلّا باصطحابه ، ولذا قرنه الله بها في قوله :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

فقد أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يخبر النّاس بأنّ هذه سبيله ، أي طريقه ومسلكه وسنّته وهي الدّعوة إلى الله على بصيرة ، وهي العلم واليقين والبرهان . وكلّ من تبعه يدعو إلى ما دعا إليه على بصيرة ويقين وبرهان (٢) .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" وإذا كانت الدّعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها ، فهي لا تحصل إلّا بالعلم الذي يدعو به وإليه ، بل لا بد في كمال الدّعوة من البلوغ في العلم إلى حدّ يصل إليه السّعي " (٣) .

(١) التفسير الكبير : ٢٢٨/١٦ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٧٦٦-٧٦٧/٢ . وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ٧٩-٨٠/١٣ . التفسير

الكبير : ٢٢٥/١٨ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٧٤/٩ . الجواهر الحسان : ٢٣٦-٢٣٧/٢ . روح المعاني :

٦٧/١٣ . فتح البيان : ٤١٥-٤١٦/٦ . محاسن التأويل : ٣٦١-٣٦١/٩ . تيسير الكريم الرّحمن .

ص : ٣٦١ .

(٣) مفتاح دار السّعادة : ١٥٤/١ .

ونفع العلم للدعوة عظيم وخيره لها عظيم ، فهو يحيي القلوب الميتة كما يحيي الغيث البلد الميت ، وهكذا شبهه النبي ﷺ .

عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال : " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ^(١) والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب^(٢) أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان^(٣) لا تمسك ماء ولا تثبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " ^(٤) .

فقد شبه ﷺ العلم والهدى الذي جاء به بالغيث ، لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية ، وسائر مصالح العباد فإنها بالعلم والمطر . وشبه القلوب بالأراضي التي يقع عليها المطر ، لأنها المحل الذي يمسك الماء فينبت

(١) الكلأ : هو العشب سواء كان رطباً أو يابساً. انظر: التهامة في غريب الحديث: ١٩٤/٤ .

(٢) أجادب : الأجادب صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعاً . وقيل : هي الأرض التي لا نبات بها ،

مأخوذ من الجذب وهو القحط . التهامة في غريب الحديث: ٢٤٢/١-٢٤٣ .

(٣) قيعان : القيعان جمع قاع والقاع أرض حرة لا رمل فيها ، ولا يثبت فيها الماء لاستوائها ، ولا غدر فيها تمسك

الماء ، فهي لا تثبت الكلأ ولا تمسك الماء . غريب الحديث لابن الجوزي: ٢٧٤/٢ . وانظر التهامة في غريب

الحديث: ١٣٣-١٣٢/٤ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب العلم: (٣). باب فضل من علم وعلم: (٢٠). برقم : (٧٩). ص: ٣٥ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الفضائل: (٤٣). باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم:

(٥). برقم : (٢٢٨٢). ١٧٨٧/٤-١٧٨٨ .

سائر أنواع النَّبات النَّافع ، كما أنَّ القلوب تعي العلم فيثمر فيها ويزكو ، وتظهر بركته وثمرته^(١) .

قال لقمان (رحمه الله) ^(٢) لابنه :

" يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإنَّ الله سبحانه يحيي القلوب بنور

(١) مفتاح دار السعادة : ٦٠/١ . وانظر شرحاً قيماً للحديث في : المفهم : ٨٣/٦-٨٤ . شرح التلوي على

مسلم : ٤٧/١٥-٤٨ . فتح الباري : ٢٣٨/١ . طريق المحررتين . ص : ١٧٢-١٧٣ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ

مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ

فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ [الرعد: ١٧] قال :

" فشبه العلم بالماء المتزل من السماء لأن به حياة القلوب ، كما أنَّ بالماء حياة الأبدان ، وشبه القلوب بالأودية

لأنها محل العلم كما أنَّ الأودية محل الماء . فقلب يسع علماً كثيراً وواد يسع ماء كثيراً ، وقلب يسع علماً قليلاً

وواد يسع ماء قليلاً . وأخبر تعالى أنه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء ، وأنه يذهب جفاء ، أي :

يرمى به ويخفى ، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر ، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات فإذا

ترابى فيها الحق تارت فيها تلك الشهوات والشبهات ، ثم تذهب جفاء ويستقر فيها الأيمان والقرآن الذي ينفع

صاحبه والناس " . مجموع الفتاوى : ٩٤/١٩-٩٥ .

(٢) لقمان : هو لقمان بن عنقاء بن سدون . ويقال : لقمان بن ثاران . وكان نبيّاً من أهل أيلة ، وكان رجلاً

صالحاً ذا عبادة وعبرة وحكمة عظيمة . ويقال : كان قاضياً في زمن داود عليه السلام .

عن عكرمة عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال كان : " عبداً حبشياً تجاراً " . وعن سعيد بن المسيّب

(رحمه الله) قال : " كان لقمان من سودان مصر ، ذو مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة " . وعن عكرمة

(رحمه الله) أنه قال : " كان لقمان نبياً " . وهذا ضعيف . والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيماً وليّاً ولم يكن

نبيّاً . وقد ذكره الله تعالى في القرآن فأثنى عليه ، وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده . انظر : البداية والتهاية :

١٢٣/٢-١٢٦ . وانظر : البدء والتاريخ : ١٠٢/٣-١٠٣ .

الحكمة كما يحيي الأرض بوابل^(١) السماء " (٢) .

فحاجة الدّاعية إلى العلم الذي يحيي به قلبه وقلوب العباد كحاجة الأرض إلى المطر ، بل هو أعظم من ذلك بكثير لعظيم نفع العلم .

قال الإمام أحمد (رحمه الله) :

" الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطّعام والشراب ، لأنّ الطّعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرّة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس " (٣) .

وبيّن الغزالي (رحمه الله) هذه الفضيلة فيقول :

" لأنّ العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوّة الأبدان من الضّعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتّفكر فيه يعدل الصّيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عزّ وجلّ وبه يعبد ، وبه يوحد وبه يمجّد ، وبه يتورّع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يلهمه السّعداء ويحرّمه الأشقياء " (٤) .

ولقد مدح الله رسله وذكر فضله ومنّته عليهم بما آتاهم من العلم لأنّ الرّسالة لا تتأتّى إلّا به ، فقال عن خاتمهم ﷺ : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] .
وقال في يوسف عليه السّلام : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا

(١) الوابل : هو المطر الشّديد الضّخم القطر . لسان العرب : ٧٢٠/١١ . القاموس المحيط : ص : ١٣٧٨ . وانظر مختار

الصّحاح : ص : ٧٠٧ . المصباح المنير : ٢ / ٦٤٦ .

(٢) إحياء علوم الدّين : ١ / ١٨ .

(٣) مفتاح دار السّعادة : ١ / ٦١ . وانظر : ١ / ٨١ .

(٤) إحياء علوم الدّين : ١ / ٢٢ .

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ [يوسف: ٢٢]. وقال في موسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤]. وقال في عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [المائدة: ١١٠]. وقال عن الخضر عليه السلام : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥] . وقال عن داود وسليمان عليهما السلام : ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩] ^(١) .

وقال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]. والأمة : هو المعلم للخير ، أو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال من العلم والعمل ، أو هو الإمام الذي يقتدى به ^(٢) .

فاللَّهُ سبحانه ربِّي رسله بالعلم تهيئة لهم ليقوموا بالدعوة إليه . بل افتتح نبوة محمد ﷺ التي هي أصل دعوته بالعلم ، فكان أول ما أنزل عليه : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۖ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۖ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۖ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۖ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥] ^(٣) .

(١) انظر : مفتاح دار السعادة : ٥٧/١ - ٥٨ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ١٧٤/١ . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٩١٦/٢ .

(٣) قال سيد قطب : " إنها السورة الأولى من هذا القرآن ، فهي تبدأ باسم الله . وتوجه الرسول ﷺ أول ما توجهه في أول لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى ، وفي أول خطوة من خطواته في طريق الدعوة التي اختير لها توجهه إلى أن يقرأ باسم الله ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١] . في ظلال القرآن : ٣٩٣٨/٦ .

﴿٤٦٧﴾

كما أثنى الله ورسوله ﷺ على أهل العلم القائمين به ، الداعين إليه ، المبغين له ، المحسنين إلى الناس به ، وهم الأمناء الموكّلون بحفظ دينه ، والقيام بأمره ، والذب عنه ، وهم خلفاء رسل الله في أممهم نصحاً وإرشاداً وتعليماً وأمرأ بالمعروف ونهياً عن المنكر .

فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩] . وقال : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١] (١) .
وقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨] . والآيات في ذلك كثيرة جداً . وأمّا الأحاديث فمنها :
حديث معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " (٢) .

(١) انظر كلاماً قيماً لشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في بيان رفع درجات العلماء .

مجموع الفتاوى : ٤٨/١٦ - ٤٩ .

قال ابن عبد البر (رحمه الله) : " أنشدني أبو بكر قاسم بن مروان الوراق لنفسه :

والعلم زين وتشريف لصاحبه ... أتت إلينا بذا الأنباء والكتب

والعلم يرفع أقواماً بلا حسب ... فكيف من كان ذا علم له حسب

فاطلب بعلمك وجه الله محتسباً ... فما سوى العلم فهو اللّهُو واللّعب "

جامع بيان العلم . ص : ٩٧

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب العلم: (٣). باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين: (١٣). برقم :

(٧١) . ص : ٣٢ . وفي كتاب فرض الخمس: (٣٣/٥٧) . باب قول الله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾

[الأنفال: ٤١] : (٧) . برقم : (٣١١٦) . ص : ٦٥٧ . وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: (٧١/٩٦) . باب

قول النبي ﷺ " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق " : (١١/١٠) . برقم : (٧٣١٢) . ص : ١٥٣٧ .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الزكاة: (١٢) . باب التهي عن المسألة: (٣٣) . برقم : (١٠٣٧) .

٧١٨-٧١٩ . وفي كتاب الإمارة: (٣٣) . باب قوله ﷺ : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق

لا يضرهم من خالفهم: (٥٣) . برقم : (١٠٣٧) . ١٥٢٤/٣ .

﴿ ٤٦٨ ﴾

و حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : " لا حسد ^(١) إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها " ^(٢) .

و حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ،

(١) لاحسد إلا في اثنتين : المراد بالحسد هنا الغبطة ، وهي أن يتمنى الإنسان مثل ما للإنسان . وأما الحسد فهو أن يتمنى زوال ذلك عن المحسود وإن لم يحصل له .

غريب الحديث لابن الجوزي: ٢١٢/١ . انظر : النهاية في غريب الحديث: ٣٨٣/١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب العلم: (٣). باب الاغتباط في العلم والحكمة: (١٥). برقم: (٧٣). ص:

٣٣. وفي كتاب الزكاة: (٧/٢٤). باب إنفاق المال في حقّه: (٥). برقم:

(١٤٠٩). — إلا إنه قال: "حكمة" — ص: ٢٩٧. وفي كتاب الأحكام: (٦٨/٩٣). باب أحر من قضى

بالحكمة: (٣). برقم: (٧١٤١) — إلا إنه قال: "حكمة" — ص: ١٥٠٤. و بلفظ مقارب في: كتاب

الاعتصام بالكتاب والسنة: (٧١/٩٦). باب ما جاء في اجتهد القضاة بما أنزل الله تعالى: (١٤/١٣). برقم:

(٧٣١٦). ص: ١٥٣٨. ومعناه في كتاب فضائل القرآن: (٤٠/٦٦). باب اغتباط صاحب القرآن: (٢٠).

برقم: (٥٠٢٥). عن ابن عمر (رضي الله عنهما). و برقم: (٥٠٢٦). عن أبي هريرة رضي الله عنه. ص: ١١٠٨.

وفي كتاب التمني: (٦٩/٩٤). باب تمنى القرآن والعلم: (٥). برقم: (٧٢٣٢). ص: ١٥٢٣. وفي كتاب

التوحيد: (٧٢/٩٧). باب قول النبي ﷺ: "رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار": (٤٥).

برقم: (٧٥٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه. و برقم: (٧٥٢٩) عن ابن عمر (رضي الله عنهما). ص: ١٥٨٢.

صحيح مسلم: بلفظه — إلا إنه قال: "فسلطه" وقال: "حكمة" — في كتاب صلاة المسافرين وقصرها: (٦).

باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه: (٤٧). برقم: (٨١٦). عن ابن عمر (رضي الله عنهما). ٥٥٩/١. ومعناه

عنه برقم: (٨١٥). ٥٥٨/١.

إنّ العلماء ورثة الأنبياء ، إنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنّما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر " (١) .

وحديث عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " خيركم من تعلّم القرآن وعلمه " (٢) . والأحاديث في ذلك كثيرة أيضاً .

(١) سنن أبي داود: بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٢٤). باب الحثّ على طلب العلم: (١). برقم: (٣٦٤١).

قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٤٠٣ .

سنن الترمذي: بلفظه في: كتاب العلم: (٣٨). باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: (١٩). برقم: (٢٦٨٢).

قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٤٣٤ .

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: المقدمة. باب فضل العلماء والحثّ على طلب العلم: (١٧). برقم:

(٢٢٣). قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٣٩ .

سنن الدارمي: بلفظ مقارب في: باب فضل العلم والعالم . ١١٠/١ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ١٩٦/٥ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب في: باب ذكر وصف العلماء الذين لهم الفضل الذي ذكرنا.

برقم: (٨٨). قال شعيب الأرنؤوط: " حديث حسن " . ٢٨٩/١ .

هذا حديث عظيم يدلّ على أنّ طلب العلم أفضل الأعمال ، وأنّه لا يبلغ أحد رتبة العلماء ، وأنّ رتبتهم ثانية

عن رتبة الأنبياء . المفهم : ٦٨٥/٦ .

وقوله : " وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم " : ذلك أنّ العبد إذا طلب العلم فقد سعى في أعظم

ما ينصح به عباد الله ، فلأجل ذلك تحبّه الملائكة وتعظمه حتّى تضع أجنحتها له رضاء ومحبة وتعظيماً .

انظر : مفتاح دار السعادة : ٦٣/١ .

وتخصيص العلماء بأنهم ورثة الأنبياء بالعلم دون العباد مع أنّ العباد ورثوا منه ما صاروا به عبّاداً لأنّ العلماء

نابوا عنه ﷺ في حمل العلم وتبليغه ، وإرشاد الأمة وهدايتها ، لأنّهم هم الذين يعلمون مصالح الأمّة بعده ،

والذّابون عن سنّته ، الحافظون لشريعته ، فهم أولى بالإرث والتّباية عنه لتعدّي نفعهم ، وأمّا العباد فقد قصر

نفعهم ، وقلّ منه حظّهم . انظر : المفهم : ٦٨٦/٦ . مفتاح دار السعادة : ٦٦/١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب فضائل القرآن : (٤٠/٦٦) . باب خيركم من تعلّم القرآن وعلمه: (٢١).

برقم: (٥٠٢٧) . ونحوه برقم: (٥٠٢٨) . ص: ١١٠٨ .
(٤٧٠)

قال الإمام أحمد (رحمه الله) :

" الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضلّ إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين " (١) .

وقال ابن القيم (رحمه الله) بعد ذكره طبقات الرسل والأنبياء عليهم السلام :

" الطبقة الرابعة : ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهجهم ، وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة ... وهؤلاء هم الربانيون (٢) وهم الراسخون في العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأُمَّته ، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملته دينه " (٣) .

فإذا علم الداعية ما يتبوأه العلم وأهله من مكانة عظيمة ، وأهمية بالغة حرص كل الحرص على الاستقاء منه ، ووطد صلته بالأصلين والمنبعين الصافيين ،

(١) الرد على الزنادقة والجهمية . للإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل . تحقيق : محمد حسن راشد . المطبعة

السلفية . القاهرة . ١٣٩٣ هـ : ص : ٦ .

(٢) الربانيون : جمع الرباني : منسوب إلى الرب لأنه خصّ بعلمه دون غيره .

قال ابن الأعرابي (رحمه الله) : " الرباني : العالم المعلم الذي يغذي الناس بصغار العلم قبل كباره " . وقال محمد بن علي بن الحنفية (رحمه الله) لما مات عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) : " اليوم مات رباني هذه الأمة " . وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال : " الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومعلم على سبيل نجاته ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق " . فالرباني هو العالم الراسخ في العلم والدين ، أو الذي يطلب بعلمه وجه الله . وقيل : العالم العامل المعلم . وقيل : الرباني : العالي الدرجة في العلم . لسان العرب : ٤٠٤/١ . بتصرف .

(٣) طريق المحررتين . ص : ٥١٦-٥١٧ . وانظر : تقسيمه (رحمه الله) إلى أهل العلم وحصره إليهم في قسمين :

حفاظ حديث وفقهاء أسلام ، وفضل كل منهما في تبليغ دين الله . أعلام الموقعين : ٩-٨/١ .

كتاب الله وسنة رسوله ، حفظاً وفهماً ، ونال قسطاً وافراً منهما ليتمكن به من دفع سفينة الدعوة ، ويضمن استمرارية سيرها وعدم توقّفها .

وكلّما نقص علم الدّاعية أو قلّ وجود العلم النّافع عنده أبطأ به السير ، ووقف به المسار ، بل لعله يتراجع إلى الوراء فيكون عبأ على دعوة الله .

والدّاعية يجب عليه أن يكون عالماً بالمعروف الذي يأمر به والمنكر الذي ينهى عنه^(١) . حتّى لا يكون عرضة للخطأ والتّخليط ، فلا يفرّق بين الواجب والمستحب ، والحرام والمكروه ، والبدعة والسّنة .

وأن يكون ملماً بحال المأمورين وحال المنهيين لتعدّد أصنافهم ، وتباين أحوالهم ، فمنهم المقارب ومنهم المباعّد ، ولكلّ سبيل إلى إيصال الحقّ له . فيكون على بيّنة من أمرهم حتّى يسلك في دعوتهم ما يليق بأحوالهم ، وماذا يقدر لهم ؟ وماذا يؤخّر عنهم ؟ مبتدئاً بالأهم فالأهم .

ففي حديث معاذ رضي الله عنه عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قال : " إنك تقدم على قوم أهل الكتاب فليكن أوّل ما تدعوهم إليه عبادة الله " الحديث^(٢) .

(١) انظر : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ص : ٣١ .

(٢) هذا جزء من حديث في :

صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب الزكاة : (٧/٢٤) . باب لا تؤخذ كرائم أموال التّاس في الصدقة : (٤١) .
برقم : (١٤٥٨) . ص : ٣٠٨ . ونحوه : في باب أخذ الصدقة من الأغنياء وتردّ في الفقراء حيث كانوا : (٦٣) .
برقم : (١٤٩٦) . ص : ٣١٧ . وفي كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع : (٦١/٦٠) . برقم : (٤٣٤٧) . ص : ٩٠٤ . وفي كتاب التّوحيد : (٧٢/٩٧) . باب ما جاء في دعاء التّسبيح :
﴿ أمّته إلى توحيد الله تبارك وتعالى : (١) . برقم : (٧٣٧٢) . وقال : " أوّل ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى " .
ص : ١٥٤٨ . برقم : (١٩) . ٥١/١ .

صحيح مسلم : بلفظه ونحوه في : كتاب الإيمان : (١) . باب الدّعاء إلى الشّهادتين وشرائع الإسلام : (٧) .
برقم : (١٩) . ٥١-٥٠/١ .

قال أبو العباس القرطبي (رحمه الله) :

" يعنى به اليهود والنصارى لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العوب ،
أو أغلب ، وإنما نبّهه على هذا ليتّهيأ لمناظرتهم ، ويعدّ الأدلة لإفحامهم ، لأنّهم أهل
علم سابق بخلاف المشركين وعبداء الأوثان " (١) .

قال ابن مسعود رضي الله عنه :

" ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة " (٢) .

وقال علي رضي الله عنه :

" حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبّون أن يكذب الله ورسوله " (٣) .

ففي الحديث والأثرين دلالة على معرفة أحوال المدعوّين.

وعلي الدّاعية أن يكون عالماً أيضاً بالطريق الذي يسلكه ، والسبيل الذي يصل
به إلى قلوبهم ، والكيفيّة التي تتمّ بها دعوتهم ، والأسلوب الذي يوجّه به الدّعوة إليهم ،
والذي يكون ملائماً لأحوالهم .

وفهم الدّاعية وإطلاعه على البيئة التي يعيش فيها ، وأحوالها وظروفها له
أهمّيته القصوى في إيصال الدّعوة إلى من حوله ، واستمراره على العطاء والبذل .

(١) المفهم : ١٨١/١ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في: المقدّمة. باب التّهي عن الحديث بكل ما سمع : (٣). برقم : (٥) . ١١/١ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه — معلقاً — في كتاب العلم: (٣). باب من خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهيّة

أن لا يفهموا: (٤٩). ص: ٤٦ .

قال ابن كثير (رحمه الله) في قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى: ٩] :

" أي ذكر حيث تنفع التذكّرة ، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله كما قال أمير

المؤمنين علي رضي الله عنه . . . " . فذكر القول أعلاه . تفسير القرآن العظيم : ٧٨٩/٤ .

فثقافته الواعية ، وإلمامه بمن حوله ، ونضجه وإدراكه ، ووعيه المتجدد الذي يستوعب من خلاله حاجة المجتمع والمدعوين ، وفي بمتطلبات الدعوة، ومعرفته بدعوات الشر من حوله وما فيها من سقطات وهنات .

وكل هذه أمور مهمة يجب أن تضاف إلى حصيلة علم الدّاعية لأنها تعين على ثباته واستمراره في دعوته.

والعلم لا يعين الدّاعية على الثّبات إذا اعترضه أمران . كلّ منهما مفسد للدّاعية ، مقوّض لدعوته ، مؤرّج لثباته . لا يستقر له معها قرار ، ولا تثبت في الدّعوة معها له قدم . ولذلك حذرّ منهما الشّارع الحكيم أيّما تحذير، وشنّع بمن تلبّس بهما أيّما تشنيع. أتناولهما بالحديث في مطلبين :

﴿المطلب الأول﴾

كتمان العلم

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِنُونَ ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

ذكر بعض أهل العلم أن الآية تعني اليهود والنصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ مع وجوده في التوراة والإنجيل ، فيكون حكمها خاصاً بأولئك دون غيرهم .
والصحيح أنها لا تقصر عليهم وإن كانوا سبب نزولها ، بل تجرّ بذيلها إلى كل من كتم شيئاً من دين الله ووجب عليه تبليغه وبيانه^(١) . إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب^(٢) .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاص من الناس ، فإنها معني بها كل كاتم علماً فرض الله تعالى بيانه للناس " ^(٣) .

(١) قال الرّازي : " قال القاضي : " الكتمان ترك إظهار الشيء مع الحاجة إليه ، وحصول الدّاعي إلى إظهاره لأنّه

متى لم يكن كذلك لا يعدّ كتماناً ، فلمّا كان ما أنزله الله من البينات والهدى من أشدّ ما يحتاج إليه في الدين ، وصف من علمه ولم يظهره بالكتمان " . التفسير الكبير : ١٦٣/٤ .

(٢) هذه قاعدة أصوليّة تفيد أنّه إذا ورد حكم بلفظ عامّ على سبب خاصّ فإنّه يعتبر بعموم لفظ الحكم ، ولا يعتبر

بخصوص سببه . وهنالك خلاف في المسألة مرجوح . وانظر: المستصفى : ٢٣٦/١ . الحصول في علم الأصول .

محمد بن عمر بن الحسين الرّازي . تحقيق : طه جابر فياض العلواني . طبعة : جامعة الإمام محمد بن سعود

الإسلاميّة . الرّياض . الطبعة الأولى : ١٤٠٠ هـ : ١٨٩/٣ - ١٩٠ . إرشاد الفحول : ٢٣٠/١ .

(٣) جامع البيان : ٥٣/٢ .

وقال ابن كثير (رحمه الله) :

" هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة ، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بيته الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله " (١) .

فهؤلاء معرضون للعنة الله والإبعاد والطرْد من رحمته ، ولعنة جميع من يقع منه اللعن لغشهم لعباد الله ، ومعاندتهم لأمره بإظهار دينه ، وسعيهم في إخفائه وطمسه ، إلا إذا رجعوا عما فعلوا ، وأصلحوا ما أفسدوا ، وبَيَّنوا ما كتموا (٢) .

ويمائل الآية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤-١٧٥] .

فهي متضمنة أيضاً الوعيد الشديد للكافرين لما أنزل الله ، المؤثرين عليه عرض الدنيا ، فلهم من الله العذاب العظيم والسخط الأليم ، وأن الله لا يوفقهم ولا

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢٩٨/١ .

قال ابن العربي (رحمه الله) : " استدلل بها علماؤنا على وجوب تبليغ الحق وبيان العلم على الجملة " .
أحكام القرآن : ٤٨/١ . وهذا يفيد عمومها أيضاً .

(٢) انظر معنى الآيتين في : جامع البيان : ٥٢/٢-٥٧ . التفسير الكبير : ١٦٢/٤-١٦٦ . الجامع لأحكام القرآن :

١٨٧-١٨٤/٢ . تفسير القرآن العظيم : ٢٩٨/١-٢٩٩ . الجواهر الحسان : ١٢٤/١-١٢٥ . روح المعاني :

٢٨-٢٦/٢ . فتح البيان : ٣٢٣/١-٣٢٥ . محاسن التأويل : ٣٥١/٣-٣٥٢ . تيسر الكريم الرحمن . ص :

يغفر لهم يوم القيامة لإيثارهم الضلالة على الهدى ، والعذاب على المغفرة
فليصبروا على شدة النار^(١) .

وسرّ ذلك أنّ الله تعالى قد أخذ العهد الثقيل المؤكّد من أهل العلم أن يبلغوه ولا
يكتُمونه ، ويظهره ولا يخفونه ، ويوضحوه ولا يسترونه .
فقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا
يَشْتُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] .

فهو سبحانه أخذ العهد من أهل الكتاب أن يبيّنوا الحقّ فكتّموه ، واعتاضوا عنه
بالدّون الطّفيف ، والحظّ السّخيف ، فبيّست صفقتهم وبيعتهم .
وفي هذا تحذير لأهل العلم أن يسلكوا مسلكهم فيصيّبهم ما أصابهم ، فيقعوا في
الهلكة . فعليهم أن يبذلوا ما بأيديهم من علم نافع ولا يكتُمون منه شيئاً^(٢) .

(١) انظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٥ . وانظر : جامع البيان : ٨٩/٢ - ٩٢ . التفسير الكبير : ٣٢-٢٥/٥ .

الجامع لأحكام القرآن : ٢٣٤/٢ - ٢٣٥ . تفسير القرآن العظيم : ٣٠٧/١ - ٣٠٨ . الجواهر الحسان :
١٣١-١٣٠/١ . روح المعاني : ٤٣/٢ - ٤٤ . فتح البيان : ٣٤٥/١ - ٣٤٦ . محاسن التأويل : ٣٨٤/٣ - ٣٨٥ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٥٥/١ .. وانظر : جامع البيان : ٢٠٢/٤ - ٢٠٥ . التفسير الكبير :

١٢٩/٩ - ١٣١ . الجواهر الحسان : ٣١٥/١ . روح المعاني : ١٤٩/٤ - ١٥٠ . فتح البيان : ٣٩٧-٣٩٥/٢ .
محاسن التأويل : ١٠٦١/٤ - ١٠٦٢ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ١٢٧ .

قال الرّمحشري : " كفى به — أي هذه الآية — دليلاً على أنّه مأخوذ على العلماء أن يبيّنوا الحقّ للناس وما
علموه ، وأن لا يكتُموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظّلمة ، وتطبيب لنفوسهم ، واستحلاب لمسلّهم ،
أو لجرّ منفعة وحطام الدّنيا ، أو لتقية بما لا دليل عليه ولا أمانة ، أو لبخل بالعلم وغيرة أن ينسب إليه غيرهم "

الكشاف : ٤٨٦/١ . طبعة الخلي .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " من سئل عن علم فكتمه أجمه الله بلجام ^(١) من نار يوم القيامة " ^(٢) .

فالملمج نفسه عن قول الحق والإخبار عن العلم يُعاقب في الآخرة بلجام من نار ، وذلك في العلم الذي يلزمه تعليمه إياه ، ويتعين عليه فرضه ^(٣) .

فنشر الدعوة وإبلاغ العلم واجب في حدود ما وصل إليه من العلم ، وبقدر ما يستطيع ، إذ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها .

وقد خاف السلف من مغبة الكتمان لما يترتب عليه من آثام وعواقب ، ولذا سارعوا ببيان الدين وإبلاغه .

(١) قال ابن الأثير (رحمه الله):

" الممسك عن الكلام ممثّل بمن أجم نفسه بلجام ، والمراد بالعلم ما يلزمه تعليمه ويتعين عليه ، كمن يرى رجلاً حديث عهد بالإسلام ولا يحسن الصلاة وقد حضر وقتها فيقول علموني كيف أصلي ، وكمن جاء مستفتياً في حلال أو حرام فإنه يلزم في هذا وأمثاله تعريف الجواب ، ومن منعه استحقّ الوعيد" .
التهاية في غريب الحديث: ٢٣٤/٤ .

(٢) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب العلم : (٢٤) باب كراهية منع العلم: (٩) . برقم: (٣٦٥٨) .

قال الألباني (رحمه الله): " حسن صحيح " . ص: ٤٠٤ .

سنن الترمذي: بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣٨) . باب ما جاء في كتمان العلم: (٣) . برقم: (٢٦٤٩) .
وقال: " حديث حسن " . وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٤٢٩ .

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: المقدمة. باب من سئل عن علم فكتمه: (٢٤) . برقم: (٢٦٤) . عن أنس رضي الله عنه .
قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . و برقم: (٢٦٦) . عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " .
و نحوه برقم: (٢٦١) . عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً . قال الألباني (رحمه الله): " حسن " . و برقم: (٢٦٥) . عن أبي سعيد رضي الله عنه . قال الألباني (رحمه الله): " ضعيف جداً " . ص: ٤٣ .

مسند أحمد: بلفظه — وزاد في اسم الجلالة " عزّ وجلّ " — في: ٣٤٤/٢ . و بلفظ مقارب في: ٢/٢٦٣ ، ٣٠٥ ، ٣٥٣ ، ٤٩٥ . و نحوه في: ٢/٢٩٦ ، ٤٩٩ ، ٥٠٨ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٤/٦-٧ . برقم: (٧٥٦١) ، ٨٧/١٥ . برقم: (٧٩٣٠) ، ١٥/١٩٤ . برقم: (٨٠٣٥) ، ٢٠/٩٨ . برقم: (١٠٤٢٥) ، ٢٠/١١٩ . برقم: (١٠٤٩٢) ، ٢٠/١٥٥ . برقم: (١٠٦٠٥) .

(٣) جامع الأصول : ١٢/٨ .

قال أبو هريرة رضي الله عنه :

" إنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ : أَكْثَرُ أَبُو هُرَيْرَةَ ، وَلَوْ لَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتَ حَدِيثًا . ثُمَّ يَتْلَوُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ . إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفَقُ ^(١) بِالْأَسْوَاقِ ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يُلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَبْعِ بَطْنِهِ ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ ، وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ " ^(٢) .

(١) الصَّفَقُ : هو البيع . وقيل للبيع صفقة لضرب اليد على اليد عند عقد البيع .

انظر: الفائق: ٥١/٤ .. غريب الحديث لابن الجوزي: ٥٩٤/١ . النهاية في غريب الحديث: ٣٨/٣ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب العلم: (٣) . باب حفظ العلم: (٤٢) . برقم: (١١٨) . ص: ٤٣ . ونحوه

في: كتاب البيوع: (١٠/٣٤) . باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي

الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠] وقوله:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ

تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩] : (١) . برقم:

(٢٠٤٧) . ص: ٤٢٥ . وفي كتاب الحث والمزاعة: (١٧/٤١) . باب ما جاء في الفرس: (٢١) . برقم:

(٢٣٥٠) . ص: ٤٨٦-٤٨٧ . وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: (٧١/٩٦) . باب الحجة على من قال : إنَّ

أحكام النبي ﷺ كانت ظاهرة: (٢٣/٢٢) . برقم: (٧٣٥٤) . ص: ١٥٤٤ .

صحيح مسلم: نحوه في: كتاب فضائل الصحابة: (٤٤) . باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه : (٣٥) . برقم:

(٢٤٩٢) . ص: ١٩٣٩-١٩٤٠ .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) : " ومعناه : لولا أنَّ اللَّهَ ذَمَّ الْكَائِمِينَ لِلْعِلْمِ مَا حَدَّثَ أَصْلًا ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ

الْكُتْمَانُ حَرَامًا وَجِبَ الْإِظْهَارُ " . فتح الباري : ١/٢٨٩ .

وقال أبو نر   :

" لو وضعتم الصمصامة ^(١) على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أنني أنفذ كلمة سمعتها من النبي   قبل أن تُجيزوا عليّ لأنفذتها " ^(٢) .

وقال القاسم بن محمد ^(٣) (رحمه الله) :

" إنكم تسألوننا عما لا نعلم ، والله لو علمناه ما كتماناه ، ولا استحللنا كتماناه " ^(٤) .

(١) الصمصامة : هو السيف القاطع . النهاية في غريب الحديث ٥٢/٣ . وانظر: غريب الحديث للهروي: ١٠/٤ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه - معلقاً - في كتاب العلم: (٣) . باب العلم قبل القول والعمل: (١٠) . ص: ٣٢ . سنن الدارمي: بلفظه - إلا إنه قال: " من رسول الله   " - في باب البلاغ عن رسول الله   وتعليم الناس . ١٤٦/١ .

(٣) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، أبو عبد الرحمن أو أبو محمد القرشي التيمي الإمام القدوة ، من خيار التابعين وفقهائهم . ثقة رفيع ، ورع ، كثير الحديث . أحد فقهاء المدينة السبعة . قال أيوب السختياني: " ما رايت أفضل منه " . توفي سنة: ١٠٦هـ على الصحيح .

وانظر: الطبقات الكبرى: ١٨٧/٥ . طبقات خليفة: ص: ٢٤٤ . التاريخ الكبير: ١٥٧/٧ . معرفة الثقات: ٢١١/٢ . الجرح والتعديل: ١١٨/٧ . ثقات ابن حبان: ٣٠٢/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ٦٣/١ . التعديل والتحريح: ١٠٦٠/٣ . تهذيب الكمال: ٤٢٧/٢٣ . تذكرة الحفاظ: ٩٦/١ . الكاشف: ١٣٠/٢ . جامع التحصيل: ص: ٢٥٣ . تهذيب التهذيب: ٢٩٩/٨ . تقريب التهذيب: ٤٥١/١ .

(٤) كتاب العلم . لأبي خيثمة زهير بن حرب النسائي . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . الرسالة الثالثة ضمن مجموعة رسائل من كنوز السنة . نشر وتوزيع دار الأرقم . الكويت . ص : ١٤٢ . وانظر : جامع بيان العلم : ص : ٣٥٤ .

وقال ابن القاسم^(١) (رحمه الله) :

" كنا إذا ودّعنا مالكا يقول لنا : " اتّقوا الله ، وانثروا هذا العلم ، وعلموه ولا تكتُموه " (٢) .

والدّاعية إذا كتّم علمه ولم يبلغه ذهب عنه ، لأنّ ثمرة العلم ومقصوده بثّه في الأُمّة ، فهو كالكنز المدفون في الأرض فإذا لم ينفق منه ذهب ، فإذا أنفق منه نما وزكا (٣) . وهكذا شبّهه رسول الله ﷺ .

عن أبي هريرة ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " مثل الذي يعلم العلم ولا يحدث به كمثل رجل رزقه الله مالا فلم ينفق منه " (٤) .

(١) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة ، أبو عبد الله العُتقي مولاهم ، فقيه الديار المصريّة ، تفقّه على

الإمام مالك (رحمه الله) . ثقة ، صالح ، إمام في الورع والزهد . توفي سنة : ١٩١هـ .
وانظر : الجرح والتعديل : ٢٧٩/٥ . ثقات ابن حبان : ٣٧٤/٨ . التعديل والتحريح : ٨٧٦/٢ . تهذيب الكمال :
٣٤٤/١٧ . تذكرة الحفاظ : ٣٥٦/١ . الكاشف : ٦٤٠/١ . تهذيب التهذيب : ٢٢٧/٦ . تقريب التهذيب :
٣٤٨/١ .

(٢) جامع بيان العلم : ص : ١٩٥ .

(٣) انظر : مفتاح دار السعادة : ٧٢/١ .

(٤) كتاب العلم لأبي خيثمة : ص : ١٤٧ . قال الألباني (رحمه الله) : " حديث حسن " هامش (٨٠) .

وفي ذلك يقول الألبيري (رحمه الله) :

وكتّر لا تخاف عليه لصاً ***** خفيف الحمل يوجد حيث كنت

يزيد بكثرة الإنفاق منه ***** وينقص إن به كفّاً شددت .

ديوان أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري . تحقيق : محمّد رضوان الدّاية . طبعة : دار قتيبة . دمشق .

الطبعة الثانية : ١٤٠١هـ — ١٩٨١م : ص : ٢٦ .

وكتب عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) إلى أبي بكر بن حزم (رحمه الله) (١) :
" انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإنني خفت دروس العلم
وذهاب العلماء . ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ . ولتقشوا العلم ، ولتجلسوا حتى يُعَلَّمَ
من لا يَعْلَمُ ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً " (٢) .
فمتى ما كتم الدّاعية ما معه من العلم ذهب علمه ، وذهبت دعوته تبعاً لذلك ،
قال أمره إلى السقوط ، وحاله إلى الضياع ، فلا يبقى له ثبات البتّة ، ولا تستمر له
دعوة .

(١) هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، قاضي المدينة . اسمه كنيته . وقيل: كنيته أبو محمد . ثقة علبد

من سادات التابعين . توفي سنة: ١٢٠هـ .

وانظر: طبقات خليفة: ص: ٢٥٧ . الجرح والتعديل: ٣٣٧/٩ . ثقات ابن حبان: ٥٦١/٥ . مشاهير علماء
الأمصار: ٧٦/١ . التعديل والتحريح: ١٢٥٥/٣ . الكاشف: ٤١٢/٢ . تهذيب التهذيب: ٤٠/١٢ . تقريب

التهذيب: ٦٢٤/١ .

(٢) صحيح البخاري : بلفظه — معلقاً — : كتاب العلم: (٣) . باب كيف يقبض العلم : (٣٤) . ص: ٣٩ .

﴿المطلب الثاني﴾

القول على الله بغير علم

وهو من أعظم المحرمات وأقبحها وأشنعها ، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها ويكيد بها عباد الله ، ويبذل فيها كل ما يمكنه من مكر وخداع ليغوي الدعاة إلى الله ، والخلق بها .

قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩] (١) .
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

قال ابن القيم (رحمه الله):

" وقد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء ، وجعله من أعظم المحرمات ، بل جعله في المرتبة العليا منها فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] . فرتب المحرمات أربع مراتب ، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، ثم تلى بما هو أشدّ تحريماً منه وهو الإثم والظلم ، ثم تلت بما هو أعظم تحريماً منهما وهو الشرك به سبحانه ، ثم رتب بما هو أشدّ تحريماً من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم ، وهذا يعمّ القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه " (٢) .

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٣٠٤/١ . تيسير الكريم الرحمن . ص : ٦٣ .

(٢) أعلام الموقعين : ٣٨/١ .

وذكر الآية في موطن آخر ثم بين خطورة القول على الله بغير علم فقال :
 " فهذا أعظم المحرمات عند الله ، وأشدّها إثماً ، فإنّه يتضمّن : الكذب على
 الله ، ونسبته إلى ما لا يليق به ، وتغيير دينه وتبديله ، ونفي ما أثبتّه وإثبات
 ما نفاه ، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حقّقه ، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه ،
 وحبّ ما أبغضه وبغض ما أحبّه ، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله
 وأفعاله . فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ، ولا أشدّ إثماً ، وهو أصل
 الشّرك والكفر ، وعليه أسست البدع والضلالات ، فكلّ بدعة مضلّة في الدّين
 أساسها القول على الله بلا علم " (١) .

وهو مسلك من مسالك المشركين التي يحلّلون بها ويحرّمون بمجرد الوصف
 والرأي ويكذبون بها على الله تعالى .

وقد حذر سبحانه المؤمنين أن يسلكوا مسلكهم فيقعوا فيما وقع فيه أولئك ،
 فقال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ
 لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ
 ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧] .

فقدّم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه ، وقولهم لما لم
 يحرّمه : هذا حرام ، ولما لم يحلّه : هذا حلال . وهذا بيان منه سبحانه أنّه لا يجوز
 للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام ، إلّا بما علم أنّ الله سبحانه أحلّه أو حرّمه (٢) .
 ويدخل في هذا كلّ من ابتدّع بدعة ليس فيها مستند شرعي ، أو حلّل شيئاً ممّا
 حرّم الله ، أو حرّم شيئاً ممّا أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه (٣) .

(١) مدارج السالكين : ٣٧٢/١ .

(٢) أعلام الموقعين : ٣٨/١ .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٩١٥/٢ .

بل نهى عن تتبّع ما لا يعلمه الإنسان من الأقوال والأفعال ، وأمره بالتّحري والتّثبت كي لا يقول بغير علم ، ولا يتحدّث بغير معرفة ، حتّى لا يقع في المساءلة يوم القيامة فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] (١) .

وقد حذّر رسول الله ﷺ من أناس أدياء للعلم فارغين منه ، يتربّعون على مناصب أهل العلم فيرسلون الفتاوى ، ويصدرون الأحكام بالجهل والهوى فيضلّون ويضلّون .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتّى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا " (٢) . فبسبب هؤلاء يرفع العلم من الأرض ، ويفشوا الجهل فيها ، وما أكثرهم في الأمّة .

قوم اغتروا بأنفسهم فتقمّصوا أقمصّة أهل العلم ، وعظّموا أنفسهم ، واغتر بهم العوام فتمسّحوا بأثوابهم وقبّلوا أيديهم ، وظنّوا الشّحم فيمن عنده ورم ، وهم بلاء على الأمّة وابتلاء لها (٣) .

ومنهم حدّثاء أسنان ، سفهاء أحلام ، متطفّلون على العلم ، اقتحموه من غير باب ، وتعلّقوا منه بغير أسبابه . حفظ أحدهم باباً من أبوابه ، أو أجاد مسألة من مسائله فظنّ أنّه حوى العلم كلّّه ، وبلغ فيه منتهاه ، وزاده غروراً التفاف بعض الأحداث حوله ، فأعجبه مقامه ، فراح يأمر وينهى ، ويوقع عن الله ورسوله ما

(١) وانظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٠٩ .

(٢) الحديث سبق تخريجه . انظر : ص : ١٣٥ .

(٣) وقد أجاد القرطبي (رحمه الله) في وصف أولئك في كتابه المفهم : ٣٧٥/٧ . فهو حري بالوقوف عليه .

ليس له به علم فيحدث من الشغب والفتن ما يؤدي إلى إراقة الدماء، وإشاعة الفوضى بين الناس .

وقد كان ابن القيم (رحمه الله) عالماً بهؤلاء وشغبيهم حين قال :
" أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة ، والفهم عن الله
ورسوله نفس المراد ، وعلم حدود المنزل .

وأخس همم طلاب العلم قصر همته على تتبع شواذ المسائل ، وما لم ينزل
ولا هو واقع . أو كانت همته معرفة الاختلاف ، وتتبع أقوال الناس ، وليس له همّة
إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال ، وقل أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه " (١) .

وهؤلاء جهلوا العلم ، وعجزوا عن كيفية تلقيه ، ولذا أساءوا ولم يفلحوا .
وقد قال لهم البخاري (رحمه الله) من قبل معلقاً على قول ابن عباس (رضي
الله عنهما): " كونوا ربانيين حلماء فقهاء " . قال: " ويقال الرباني الذي يربي الناس
بصغار العلم قبل كباره " (٢) .

فهو يتدرج في تلقي العلم على مهل وتروّي ، دون استعجال ولا ملل ، مبتدئاً
بالأهم فالهم ، مع فهم مدرك وعقل مستوعب ، غير متجري ولا متهور ، يسير
بخطى ثابتة وأقدام راسخة ، يبين ما علم ويسكت عما جهل ، همه بيان الدين
وإيصال الحق لا رؤية نفسه ومدح الناس . فذلك هو الرباني .

(١) الفوائد . ص : ٦١ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب العلم : (٣) . باب العلم قبل القول والعمل : (١٠) . ص : ٣٢ .

وقد كثر خوف السلف رحمهم الله عن الفتوى ، أو القول في دين الله بما لا يعلمون ، وتواردت الأنباء عنهم بذلك مما يكشف عن خطورة هذا المسلك .

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى (رحمه الله) ^(١) :

" أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار ، ما فيهم أحد يسأل عن شيء إلا ودَّ أن أخاه كفاه ، ولا يحدث حديثاً إلا ودَّ أن أخاه كفاه " ^(٢) .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

"يا أيها الناس ، من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم . فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم . قال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦] ... الأثر . ^(٣) .

(١) عبد الرحمن بن أبي ليلى : واسم أبي ليلى يسار ، أبو عيسى الأنصاري ، المدني ثم الكوفي ، الإمام الفقيه . من

كبار التابعين وثقاتهم . ومن أصحاب علي رضي الله عنه . توفي سنة : ٨٣ هـ .

وانظر : الطبقات الكبرى : ١٠٩/٦ . طبقات خليفة : ص : ١٥٠ . معرفة الثقات : ٨٦/٢ . الجرح والتعديل :

٣٠١/٥ . ثقات ابن حبان : ١٠٠/٥ . مشاهير علماء الأمصار : ١٠٢/١ . تاريخ بغداد : ١٩٩/١٠ . التعديل

والتجريح : ٨٨١/٢ . تهذيب الكمال : ٣٧٢/١٧ . تذكرة الحفاظ : ٥٨/١ . الكاشف : ٦٤١/١ . جامع التحصيل :

ص : ٢٢٦ . تهذيب التهذيب : ٢٣٤/٦ . تقريب التهذيب : ٣٤٩/١ . لسان الميزان : ٢٨٤/٧ ، ٥٠٠ .

إسعاف المبطل : ص : ١٩ .

(٢) سنن الدارمي : بلفظ مقارب في : باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع . ٦٥/١ .

كتاب العلم لأبي خيثمة : بلفظه في : ص : ١١٤ .

(٣) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦] :

(٣) . برقم : (٤٨٠٩) . ص : ١٠٣٩ . و بلفظ مقارب في : باب ﴿ فَلَا يَرْبُؤْا ﴾ [الروم: ٣٩] : (١/١٠) .

برقم : (٤٧٧٤) . ص : ١٠٢٨ . ونحوه في : باب ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [٣] :

[الدخان: ١٢] : (٣) . برقم : (٤٨٢٢) . ص : ١٠٤٧ .

صحيح مسلم : بلفظ مقارب في : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم : (٥٠) . باب الدخان : (٧) . برقم :

(٢٧٩٨) . ٢١٥٦-٢١٥٧ / ٤ .

قال ابن عون (رحمه الله) ^(١) :

" كنت عند القاسم بن محمد إذ جاءه رجل فسأله عن شيء ، فقال القاسم : لا أحسنه . فجعل الرجل يقول : إني رفعت إليك ، لا أعرف غيرك ، فقال القاسم : لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي ، والله ما أحسنه . فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه : يا ابن أخي الزمها ، فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم .

فقال القاسم : والله لأن يقطع لساني أحب إلي من أن أتكلّم بما لا علم لي به " ^(٢) .

والقاسم (رحمه الله) هو القائل :

" لأن يعيش الرجل جاهلاً خير له من أن يفتي بما لا يعلم " ^(٣) .

(١) هو عبد الله بن عون بن أربطبان ، أبو عون المزني مولا هم البصري . إمام في العلم ، رأس في التأله والعبادة ، حليل القدر ، كبير الشأن ، ثبت متقن فاضل ، حافظ فقيه ورع ، مبغض لأهل البدع . كثير الحديث . رأى أنس بن مالك رضي الله عنه ولم يسمع منه . توفي سنة : ١٥٠ هـ على الصحيح . وانظر : الطبقات الكبرى : ٢٦١/٧ . طبقات خليفة : ص : ٢١٩ . التاريخ الكبير : ١٦٣/٥ . معرفة النقات : ٤٩/٢ . الجرح والتعديل : ١٣٠/٥ . ثقات ابن حبان : ٣/٧ . مشاهير علماء الأمصار : ١٥٠/١ . التعديل والتجريح : ٨٤٣/٢ . تهذيب الكمال : ٣٩٤/١٥ . تذكرة الحفاظ : ١٥٦/١ . الكاشف : ٥٨٢/١ . جامع التحصيل : ص : ٢١٥ . تهذيب التهذيب : ٣٠٣/٥ . تقريب التهذيب : ٣١٧/١ .

(٢) جامع بيان العلم : ص : ٣٥٥ .

(٣) كتاب العلم لأبي خيثمة : ص : ١٣٠ .

وما وقع للقاسم (رحمه الله) وقع نحوه لإمام دار الهجرة مالك بن أنس (رحمه الله) .

قال عبد الرحمن بن مهدي^(١) (رحمه الله) :

" كنّا عند مالك بن أنس ، فجاءه رجل ، فقال له : يا أبا عبد الله جئتُك من مسيرة ستة أشهر ، حملني أهل بلدي مسألة أسألك عنها . قال : فسل . فسأله الرجل عن المسألة . فقال : لا أحسنها . قال فبهت الرجل كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء . فقال : أي شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم ؟ قال : تقول لهم : قال مالك : لا أحسن " (٢) . وهذا عنهم رحمهم الله كثير جداً .

وما توقّف هؤلاء الأجلة إلا لعلمهم بما يترتب على القول على الله بغير علم من المفسد والمهلك .

وهو إضافة إلى ما ذكر يلقي بالدّاعية في المتناقضات ، وقد يدخل في دين الله ما ليس منه ، أو يغيّر ويبدّل ما كان منه ، وفي ذلك تجرؤ على الله واستطالة على أحكامه .

وقد يطّلع المدعو على خطأ الدّاعية وعدم صحّة قوله فيكون مانعاً للأخذ عنه فيما بعد . فيعرض الدّاعية دعوته للاهتزاز والتّأرجح وعدم الثّبات . والله لم يكلفه أن يبلغ من دين الله ما جهله ولم يعلمه ، فذلك لا طاقة له به ، وإنّما كلف أن يبلغ ما علم .

(١) عبد الرحمن بن مهدي بن حسان اللؤلؤي أبو سعيد مولى الأزدي البصري . الحافظ الكبير والإمام العلم الشّهير ،

ثقة ثبت كثير الحديث ، فقيه عظيم الشأن . قال عنه علي بن المديني : " لو حلفت بين الركن والمقام خلعت أنّي لم

أر مثل عبد الرحمن " . توفي سنة : ١٩٨ هـ .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٢٩٧/٧ . طبقات خليفة : ص : ٢٢٧ . التاريخ الكبير : ٣٥٤/٥ . معرفة الثّقات :

٨٨/٢ . الجرح والتّعديل : ٢٨٨/٥ . ثقات ابن حبان : ٣٧٣/٨ . تاريخ بغداد : ٢٤٠/١٠ . التّعديل والتّجريح :

٨٦٥/٢ . تهذيب الكمال : ٤٣٠/١٧ . تذكرة الحفاظ : ٣٢٩/١ . الكاشف : ٦٤٥/١ . تهذيب التهذيب : ٢٥٠/٦

تقريب التهذيب : ٣٥١/١ .

(٢) جامع بيان العلم : ص : ٣٥٦ .

وإذا سئل عما لا يعلم وكل العلم إلى الله ، ولم يعبأ بما يصفه الناس به من
جهل أو قلة علم .

بذلك تسلم له بركة علمه ويتلافى محققها ، فيحيي بذلك دعوة الله تعالى ،
ويضمن استمراريتها وبقاءها بعيدة عن الزلل والانحراف ، ثابتة من السقوط
والانجراف ، سالمة من الضياع والإتلاف .

المبحث الثالث

العمل بالعلم .

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَهُمْ سَادَةُ الدَّعَاةِ أَنْ يَعْمَلُوا بِمَا عُلِّمُوا .
فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١] .

وَأَمَرَ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ كَمَا أَمَرَ الرُّسُلَ .
فَقَالَ : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥] .

وجاء في الحديث ما يؤكد ذلك ويقرّره ، ويبين أهمية العمل .
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحْبَبْتُهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِينَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاعَتَهُ " (١) .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الرِّقَاق: (٥٥/٨١) . باب التَّوَاضُّع: (٣٨) . برقم: (٦٥٠٢) . ص:

والعمل سبب دخول الجنة التي يسعى لها كل مؤمن على ظهر الأرض .
قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

[الزخرف: ٧٢] .

وغاية العلم العظمى وهدفه الأسمى أن يتوصل به إلى العمل ، وإلا كان وبالاً
على صاحبه ثقيلاً عليه .

قال المسيح عليه السلام :

" من تعلم وعمل فذاك يدعا عظيماً في ملكوت السماء " (١) .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

" يا أيها الناس تعلموا ، فمن علم فليعمل " (٢) .

وشرك ظاهر . وليس في الحديث ما يدل على ذلك . بل فرق الحديث بين الرب والعبد ، والمعبود والعابد ،
والخالق والمخلوق . يدرك ذلك من ألقى بنظرة فاحصة على الحديث ولو كانت على عجل . وانظر شرحاً وافياً
له في : فتح الباري : ٣٤٢/١١ - ٣٤٥ . فقد أزال فيه الشبهة ، وأبان الحق ، وزيف الزيف فلم يبق لضال فيه
متمسك . وللشوكاني (رحمه الله) كتاب قطر الولي على حديث الولي . شرح فيه هذا الحديث شرحاً مستفيضاً .

(١) كتاب العلم لأبي خيثمة : ص : ١١١ .

(٢) المرجع السابق : ص : ١١٠ .

وقال سفيان الثوري (رحمه الله) :

" إنما يتعلم العلم ليتقى به الله ، وإنما فضل العلم على غيره لأنه يتقى

به الله " . جامع بيان العلم : ص : ٢٧١ .

قال أيوب السخيتاني (رحمه الله) ^(١) :

" قال لي أبو قلابة ^(٢) : " إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة ، ولا يكن

همك أن تحدث به " ^(٣) .

وقال الخطيب البغدادي (رحمه الله) :

" والعلم يراد للعمل ، كما العمل يراد للنَّجاة ، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلاً على العالم ، ونعوذ بالله من علم عاد كلاً ، وأورث ذلاً ، وصار في رقبة صاحبه غلاً ... وكما لا تنفع الأموال إلاّ بإنفاقها كذلك لا تنفع العلوم إلاّ لمن عمل بها ، وراعى واجباتها ... إلخ " ^(٤) .

-
- (١) هو أيوب بن أبي تميمة كيسان أبو بكر السخيتاني العتري مولا هم البصري . الإمام العلم الحافظ الفقيه، من سادات أهل البصرة وكبار عبّاد أتباع التابعين . ثقة ثبت حجة جامع كثير العلم . اشتهر بالفضل والعلم والتسك والورع ، والصّلاة في السنّة والقمع لأهل البدع . توفي سنة: ١٣١هـ .
- و انظر : الطّبقات الكبرى: ٢٤٦/٧ . طبقات خليفة: ص: ٢١٨ . التاريخ الكبير: ٤٠٩/١ . الجرح والتعديل: ٢٥٥/٢ . ثقات ابن حبان : ٥٣/٦ . مشاهير علماء الأمصار: ١٥٠/١ . التعديل والتجريح: ٣٨٥/١ . تهذيب الكمال: ٤٥٧/٣ . تذكرة الحفاظ: ١٣٠/١ . الكاشف: ٢٦٠/١ . جامع التحصيل: ص: ١٤٨ . تهذيب التهذيب: ٣٤٨/١ . تقريب التهذيب: ١١٧/١ . إسعاف المبطأ : ص: ٦ .
- (٢) هو عبد الله بن زيد بن عمرو ويقال : عامر أبو قلابة الجرمي الأزدي البصري . مشهور بكنيته . من عبّاد التابعين وزهادهم وأئمّتهم . ثقة فاضل عظيم القدر . كثير الحديث وكثير الإرسال . توفي سنة : ١٠٤ هـ بالشّام هارباً من القضاء .
- و انظر : الطّبقات الكبرى: ١٨٣/٧ . طبقات خليفة: ص : ٢١١ . التاريخ الكبير: ٩٢/٥ . معرفة الثّقات: ٣٠/٢ . الجرح والتعديل: ٥٧/٥ . ثقات ابن حبان: ٢/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ٨٩/١ . التعديل والتجريح: ٨٢٠/٢ . تهذيب الكمال: ٥٤٢/١٤ . تذكرة الحفاظ: ٩٤/١ . الكاشف: ٥٥٤/١ . جامع التحصيل: ص: ٢١١ . التبيين لأسماء المدّلسين: ص: ٢٦٢ . تهذيب التهذيب: ١٩٧/٥ . تقريب التهذيب: ٣٠٤/١ .
- (٣) جامع بيان العلم : ص : ٢٦٦ .
- (٤) اقتضاء العلم العمل . لأبي بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب البغدادي . تحقيق محمّد ناصر الدّين الألباني . الرسالة الرَّابعة من ضمن مجموعة كنوز السنّة : ص : ١٥٨-١٥٩ .

وقد أحسن من قال:

إذا العلم لم تعمل به كان حجة عليك ولم تعذر بما أنت جاهله
فإن كنت قد أوتيت علماً فإنما يصدق قول المرء ما هو فاعله (١)

ولقد ذم الله تعالى أهل الكتاب الذين يأمرون الناس بالخير والطاعات
ويتركون أنفسهم فلا يأترون ، مع أنهم يتلون كتاب الله ويعلمون ما فيه .
فقال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

ولشدة ما قرع الله في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء
الذين هم غير عاملين بالعلم . فاستنكر عليهم أولاً : أمرهم للناس بالبر مع نسيان
أنفسهم من ذلك الأمر الذي قاموا به في المجامع ، ونادوا به في المجالس إيهاً
للناس بأنهم مبلّغون عن الله ما تحمّلوه من حججه ، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه ،
وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وأتمنهم عليه ، وهم أترك الناس لذلك ، وأبعدهم
من نفعه ، وأزهدهم فيه .

ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبيّنة لحالهم وكاشفة لعوارهم ،
وهاتكة لأستارهم ، وهي إنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة ، والخصلة الفظيعة ، على

أنشد بعضهم :

اعمل بعلمك تغنم أيها الرجل لا ينفع العلم إن لم يحسن العمل
والعلم زين وتقوى الله زينته والمتقون لهم في علمهم شغل
وحجة الله يا ذا العلم بالغة لا المكر ينفع فيها لا ولا الحيل
تعلم العلم واعمل ما استطعت به لا يلهيتك عنه اللهو والجدل
وعلم الناس واقصد نفعهم أبداً إياك إياك أن يعتادك الملل

المرجع السابق : ص : ١٧٤-١٧٥

(١) البيتان لسابق البربري (رحمه الله) . جامع بيان العلم : ص : ٢٨٦ .

علم منهم ومعرفة بالكتاب الذي أنزل عليهم ، وملزمة لتلاوته ، وهم في ذلك كما قال المعري^(١) :

وإنما حمل التّوراة قارئها كسب الفوائد لا حبّ التّلاوات^(٢)

ثمّ انتقل معهم من تقرّيع إلى تقرّيع ، ومن توبيخ إلى توبيخ ، فقال : إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم ، وحملة الحجّة ، وأهل الدّراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممّن يعقل حائلاً بينكم وبين ذلك ، ذائداً لكم عنه ، زاجراً لكم منه ، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم؟^(٣) .

ثمّ إنّ هذا التّوبيخ والتّقرّيع - وإن كان خطاباً لبني إسرائيل ، إلّا أنّه عام من حيث المعنى - لكلّ واعظ يأمر ولا يأمّر ، ويزجر ولا ينزجر ، ينادي الناس البدار البدار ، ويرضى لنفسه التّخلف والبوار ، ويدعو الخلق إلى الحقّ وينفر عنه ، ويطلب العوام بالحقائق ولا يشمّ ريحها منه^(٤) .

(١) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان أبو العلاء التّنوخي المَعريّ اللّغوي الشّاعر المشهور . ولد بَعْرَة التّعمان فنسب إليها . جُلِبَ وهو صغير فذهب بصره . له ذكاء مفرط وإطلاع واسع على اللّغة مع معرفة بالنّسب وأيام العرب . شعره في الدّروّة ، وله فيه ما يدلّ على زندقته . نقل عنه أهل العلم اضطراباً في ديوانته . من دواوين شعره : سقط الرّند ، ولزوم ما لا يلزم وهي مطبوعة ، وغيرها . وله كثير من كتب الأدب . وقد طبع بعضها . توفي سنة : ٤٤٩ هـ . وقد كتب عنه كثير من الكتاب .

و انظر : تاريخ بغداد : ٤/٢٤٠ . المنتظم : ٨/١٨٤ . وفيات الأعيان : ١/١١٣ . سير أعلام النبلاء : ١٨/٢٣ . العبر : ٢/٢٩٣ . ميزان الاعتدال : ١/٢٥٢ . البداية والنهاية : ١٢/٧٢ . لسان الميزان : ١/٢٠٣ . ٧/٨٣ . التحريم الزّاهرة : ٥/٦١ . شذرات الذهب : ٥/٢٠٩ . الأعلام : ١/١٥٧ .

(٢) اللّزوميّات لأبي العلاء المَعريّ . تحقيق : أمين عبد العزيز الخانجي . طبعة : مكتبة الهلال . بيروت . مكتبة الخانجي القاهرة : ١/١٧٥ .

(٣) فتح البيان : ١/١٥٦ . وانظر معنى الآية في : التفسير الكبير : ٣/٤٦-٤٨ . الجامع لأحكام القرآن : ١/٣٦٥-٣٦٩ . تفسير القرآن العظيم : ١/١٢٩-١٣١ . محاسن التّأويل : ٢/١١٨ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٤ .

(٤) روح المعاني : ١/٢٤٨ .

ويؤيد عموم الآية السابقة وعدم اختصاصها بأهل الكتاب قوله تعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

أي لم تقولون الخير وتحثون الناس عليه وأنتم لا تفعلونه ، وتتهونهم عن الشر وأنتم ترتكبونه ، وهذا يجلب لكم المقت من الله ، وهو أشد البغض (١) .

ومثلها قول شعيب عليه السلام فيما أخبر الله به عنه : ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ

قال أبو عمر بن عبد البر (رحمه الله) :

" قد ذم الله في كتابه قوماً كانوا يأمرون الناس بأعمال البر ولا يعملون بها ذمّاً ، ووبّخهم الله بها توبيخاً يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : - ثم تلا الآية أعلاه - " . جامع بيان العلم : ص : ٢٧٤ .
وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم له ، فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر . والعالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله ، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه .
تفسير القرآن العظيم : ١٢٩/١ " بتصرف " . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٦٦-٣٦٧ .

قال الرّازي (رحمه الله) :

" إنَّ المكلف مأمور بشيئين : أحدهما : ترك المعصية . والثاني : منع الغير عن فعل المعصية . والإخلال بأحد التكليفين لا يقتضي الإخلال بالآخر " . التفسير الكبير : ٤٧/٣ . وانظر : روح المعاني : ٢٤٨/١ .

وقال النووي (رحمه الله) :

" قال العلماء : ولا يشترط في الأمر والتأهي أن يكون كامل الحال ممثلاً ما يأمر به ، مجتنباً ما ينهى عنه ، بل عليه الأمر وإن كان مخلاً بما يأمر به ، والنهي وإن كان متلبساً بما ينهى عنه ، فإنه يجب عليه شيان : أن يأمر نفسه وينهاها ، ويأمر غيره وينهاها ، فإذا أحلّ بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر ؟ " .

شرح النووي على مسلم : ٢٣/٢ .

(١) انظر : تيسير الكريم الرحمن : ص : ٧٩٦ . وللآيتين معنى آخر . انظر : جامع البيان : ٨٣/٢٨ - ٨٥ . الجامع

لأحكام القرآن : ٧٨/١٨ - ٨٠ . تفسير القرآن العظيم : ٥٥٨-٥٦٠ . الجواهر الحسان : ٣٦٢/٣ . فتح

البيان : ٩٧/١٤ - ٩٨ .

أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنَهَلَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا إِلَّا صَلَحَ مَا أَسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي
إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ [هود: ٨٨].

فهو لا يأمرهم بأمر أو ينهاهم عن نهي ويخالف إلى غيره ، بل يريد هدايتهم
وتركية نفوسهم ، واستقامتهم ما تمكن من ذلك ووجد إليه سبيلاً ^(١) .

وقد بين عقاب من يأمر ولا يأتمر ، وينهى ولا ينتهي . فقال في حديث
أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) : " يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ،
فتندلق ^(٢) أفتاب ^(٣) بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ^(٤) ، فيجتمع إليه أهل
النار ، فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟
فيقول : بلى . قد كنت آمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهي عن المنكر وآتية " ^(٥) .

(١) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ١٠٣/١٢ . التفسير الكبير : ٤٥/١٨ - ٤٦ . الجامع لأحكام القرآن :

٨٩/٩ - ٩٠ . تفسير القرآن العظيم : ٧٠٦/٢ - ٧٠٧ . روح المعاني : ١١٨/١٢ - ١٢١ . فتح البيان :
٢٣٢/٦ - ٢٣٣ . محاسن التأويل : ٣٤٧٩/٩ .

(٢) فتندلق : الاندلاق خروج الشيء من مكانه ، وقيل خروجه سريعاً . والمراد خروج أمعائه من جوفه . وانظر :

غريب الحديث للهروي : ٣١/٢ . غريب الحديث للحري : ٨٨٧/٢ . غريب الحديث لابن الجوزي : ٣٤٦/١ .
التهاية في غريب الحديث : ١٣٠/٢ .

(٣) أفتاب : جمع قُتَب وهو الأمعاء . انظر : غريب الحديث للهروي : ٣٠/٢ - ٣١ . غريب الحديث للحري :

٨٩٤/٢ . الفائق : ٤٣٤/١ . غريب الحديث لابن الجوزي : ٢١٨/٢ . التهاية في غريب الحديث : ١١/٤ .

(٤) الرّحى : هي التي يطحن بها ، والجمع أرْح ، وأرْحاء . وأصل الرّحى الحجر العظيم .

انظر : لسان العرب : ٣١٢/١٤ . وانظر : المصباح المنير : ٢٢٣/١ . القاموس المحيط : ١٠٠/١ .

(٥) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الزهد والرقائق : (٥٣) . باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن

المنكر ويفعله : (٧) . برقم : (٢٩٨٩) ٢٢٩١/٤٠ .

قال أبو العباس القرطبي (رحمه الله) في معرض شرحه للحديث :

" وإنا اشتد عذاب هذا لأنه كان عالماً بالمعروف والمنكر ، وبوجوب القيام عليه بوظيفة كلّ واحد منهما ،
ومع ذلك فلم يعمل بشيء من ذلك ، فصار كأنه مستهين بجرمات الله تعالى ، ومستخفّ بأحكامه ، ثم إنه لم
﴿٤٩٧﴾

وقال في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : " مررت ليلة أُسْرِي بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، قلت ما هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطباء أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " (١) .

وفي حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال رضي الله عنه : " مثل العالم الذي يعلم النَّاسَ الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للنَّاس ويحرق نفسه " (٢) .

ومن هنا جاء خوف السلف رحمهم الله من سلوك هذا المسلك المشين لما يترتب عليه من آثار ذميمة ، وعواقب وخيمة .

يتب عن شيء من ذلك ، وهذا من جملة من لم ينتفع بعلمه ، الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : " أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه " . المفهم : ٦٢١/٦ .

والحديث الذي استدلل به أورده : الطبراني في الصغير : ١٣٠٥/١ . وهو في مسند الشهاب لأبي عبد الله محمد ابن سلامة بن جعفر القضاعي . تحقيق : حمدي بن عبد الحميد السلفي . طبعة : مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الثانية : ١٤٠٧ هـ — ١٩٨٦ م : ١٧١/٢ . و شعب الإيمان : ٢٨٥/٢ . والترغيب والترهيب : ٧٥/١ . وقال الهيثمي : " فيه عثمان البري قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط صاحب بدعة ضعفه أحمد والتسائي والذارقطني " . مجمع الزوائد : ١٨٥/١ .

- (١) مسند أحمد: بلفظه في : ١٨٠/٣ . و بلفظ مقارب في : ١٢٠/٣ ، ١٣١ ، ٢٣٩ .
- مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في : ٦٩/٧ ، ٧٢ . برقم : (٣٩٩٢) ، (٣٩٩٦) . ونحوه في : ١٨٠/٧ . برقم : (٤١٦٠) . قال المحقق : " الحديث صحيح " .
- مسند أبي داود الطيالسي: نحوه في : ص : ٢٧٤ . برقم : (٢٠٦٠) .
- وقال الألباني (رحمه الله) : " إسناده حسن " . اقتضاء العلم العمل : هامش : (١١١) . ص : ١٩٩ - ٢٠٠ .
- (٢) معجم الطبراني الكبير: بلفظه في : ١٦٥-١٦٦ . قال الألباني (رحمه الله) : " حديث صحيح " . اقتضاء العلم العمل : هامش (٧٠) . ص : ١٨٢ . وهو في صحيح الجامع : برقم : (٥٨٣١) . ١٠١٥/٢ .
- ﴿٤٩٨﴾

قال أبو الدرداء رضي الله عنه :

"إني لست أخشى أن يقال لي : يا عويمر ماذا علمت ؟ ولكنني أخشى أن

يقال : يا عويمر ماذا عملت فيما علمت ؟" (١) .

قال رجل لإبراهيم بن أدهم (رحمه الله) (٢) : قال الله عز وجل : ﴿ وَقَالَ

رَبُّكُمْ أَذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] . فمالنا ندعوا فلا يستجاب لنا ؟ .

فقال إبراهيم : " من أجل خمسة أشياء . قال : وما هي ؟ قال : عرفتم الله فلم
تؤدّوا حقّه ، وقرأتم القرآن فلم تعملوا بما فيه ، وقلتم نحبّ الرسول ﷺ وتركتم
سنّته ، وقلتم نلعن إبليس وأطعتموه ، والخامسة تركتم عيوبكم وأخذتم في عيوب
الناس " (٣) .

والدّاعية إلى الله هو أولى الناس بتطبيق ما يأمر به ، لأنّ سلوكه هو
الصّورة الحيّة العمليّة لدعوته ، التي يراها الناس في سكونه وحركته ، ووقوفه
ومشيته ، وبكائه وضحكته ، وأنّه بفعله يصيب من قلوب الناس أبلغ ممّا تصيب
الكلمة مهما كانت طيّبة ومؤثّرة .

(١) اقتضاء العلم العمل : ص : ١٧٧ .

وأورده الخارث بن أبي أسامة في مسنده . تحقيق : حسين أحمد صالح الباكري . طبعة : مركز خدمة السّنة
والسّيرة النبوية . المدينة المنورة . الطبعة الأولى : ١٤١٣هـ — ١٩٩٢م : مرفوعاً . ولفظه : "إنّ أبا الدرداء قال :
قال لي رسول الله ﷺ : " كيف أنت يا عويمر إذا قيل لك يوم القيامة أعلمت أم جهلت ؟ فإن قلت علمت .
قيل : فماذا عملت فيما علمت ؟ . وإن قلت جهلت . قيل لك : فما كان عذرک فيما جهلت ألا تعلّمت ؟ " . كتاب
البعث . باب كيف البعث . ١٠٠٤/٢ .

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور أبو إسحاق العجلي وقيل : التّميمي البلخي ، سكن الشّام . زاهد ، صدوق في
الحديث . توفي سنة : ١٦١هـ . وقيل : بعدها .

و انظر : التاريخ الكبير : ٢٧٣/١ . ثقات ابن حبان : ٢٤/٦ . مشاهير علماء الأمصار : ١٨٣/١ . تهذيب
الكمال : ٢٧/٢ . الكاشف : ٢٠٧/١ . تهذيب التهذيب : ٨٨/١ . تقريب التهذيب : ٨٧/١ .

(٣) جامع بيان العلم : ص : ٢٨٢-٢٨٣ .

فدعوته للناس تقتضي أن يكون ملتزماً بما يأمر به ، آخذاً نفسه بذلك ، ونهيه لهم يستوجب عليه أن يكون منتهياً عن ذلك (١) .

قال المأمون :

" نحن إلى أن نوعظ بالأعمال أحوج منا أن نوعظ بالأقوال " (٢) .

وذلك لأن أثر الفعل أبلغ من القول .

ويؤيده حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : اتَّخَذَ النَّبِيُّ ﷺ خَاتِماً مَنْ ذَهَبَ فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتِماً مِنْ ذَهَبٍ فَنَبَذَهُ ، وَقَالَ : " إِنِّي لَنْ أَلْبَسَهُ أَبَدًا " فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ " (٣) .

(١) انظر : أسس الدعوة : ص : ٧٤-٧٥ .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣] أي هو في نفسه مهتد بما يقوله ، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، وينهون عن المنكر ويأتونه ، بل يأمر بالخير ويترك الشر ، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى . وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك " . تفسير القرآن العظيم : ١٥١/٤ .

وانظر : مبحثاً قيماً بعنوان : التربية بالقُدوة في كتاب : طرق الدعوة : ص : ١٠٠-١١٢ .

(٢) جامع بيان العلم : ص : ٢٨٥ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : (٧١/٩٦) . باب : الاقتداء بأفعال النبي ﷺ :

(٥/٤) . برقم : (٧٢٩٨) . ص : ١٥٣٣ . ونحوه في : كتاب اللباس : (٥١/٧٧) . باب خواتيم الذهب : (٤٥) . برقم : (٥٨٦٥) . ص : ١٢٦٧ . وفي باب خاتم الفضة : (٤٦) . برقم : (٥٨٦٦) . ص : ١٢٦٨ . وفي باب : (٤٧) . برقم : (٥٨٦٧) . ص : ١٢٦٨ . وفي باب من جعل فص الخاتم في بطن كفه : (٥٣) . برقم : (٥٨٧٦) . ص : ١٢٦٩ . وفي كتاب الإيمان والتدور : (٥٧/٨٣) . باب من حلف على الشيء وإن لم يحلف : (٦) . برقم : (٦٦٥١) . ص : ١٤٠٨ .

صحيح مسلم: نحوه في : كتاب اللباس والزينة : (٣٧) . باب تحريم خاتم الذهب على الرجال ، ونسخ ما كان من إباحة في أول الإسلام : (١١) . برقم : (٢٠٩١) . ١٦٥٥/٣ .

(٥٠٠)



ولمّا أمرهم ﷺ عام الحديبية بالتّحلّل وتأخّروا عن المبادرة رجاء أن يأذن لهم في القتال وإكمال العمرة ، قالت له أمّ سلمة (رضي الله عنها): " اخرج إليهم واحلق واذبح " . ففعل فتابعوه مسرعين . فدلّ ذلك على أنّ الفعل أبلغ من القول (١) .

وبالتّالي إذا لم يكن الدّاعية عاملاً بنصحه ملتزماً به لا يصل نصحه إلى قلوب المنصوحين ، بل لعله يكون عرضة للسّخرية والاستهزاء .

قال مالك بن دينار (٢) (رحمه الله) :

" إنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلّ القطر عن الصّفا " (٣) .

وقال الزّهري (رحمه الله):

" لا يوثق للنّاس عملُ عامل لا يعلم ، ولا يُرضى بقول عالم لا يعمل " (٤) .

(١) ذكر تلك الحادثة البخاري في صحيحه . في جزء من حديث طويل عن غزوة الحديبية عن المسورة بن محرمة رضي الله عنه

ومروان (رحمه الله) . في كتاب الشّروط: (٣٠/٥٤) . باب الشّروط في الجهاد ، والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشّروط: (١٥) . برقم: (٢٧٣١، ٢٧٣٢) . ص: ٥٧١-٥٧٤ . انظر: فتح الباري : ٢٠٥/١٥ .

(٢) مالك بن دينار أبو يحيى السّامي التّاجي مولاهم البصري . من زهاد التابعين وعبّادهم ، واعظ ، صدوق قليل

الحديث ، كان يكتب المصاحف . ووثّقه التسائي . توفي سنة : ١٣٠ هـ . أو نحوها .

و انظر : الطبقات الكبرى: ٢٤٣/٧ . طبقات خليفة: ص: ٢١٦ . التاريخ الكبير: ٣٠٩/٧ . معرفة الثّقات:

٢٦٠/٢ . الجرح والتّعديل: ٢٠٨/٨ . ثقات ابن حبان: ٣٨٣/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ٩٠/١ . تهذيب

الكمال: ١٣٥/٢٧ . الكاشف: ٢٣٥/٢ . تهذيب التهذيب: ١٣/١٠ . تقريب التهذيب: ٥١٧/١ . لسان الميزان:

٣٤٧/٧ .

(٣) جامع بيان العلم : ص : ٢٨٧ . اقتضاء العلم العمل : ص : ١٩٢ .

والصّفا : هو العريض من الحجارة الأملس ، جمع صفاة . يكتب بالألف فإذا تني قبل صفوان ، وهو الصّفواء .

لسان العرب: ٤٦٤/١٤ . وانظر: مختار الصّحاح : ص: ٣٦٦ .

(٤) اقتضاء العلم العمل : ص : ١٦٦ .

قال أبو الأسود الدّؤلي ويروى للعرزمي :

يا أيّها الرّجل المعلّم غيظه هلاًّ لنفسك كان ذا التّعليم

وقد تحقق بركة علمه ، بل لعله يزول عنه ولا ينتفع به .

قال علي بن أبي طالب عليه السلام :

" هتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل " (١) .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه :

" مثل علم لا يعمل به كمثل كنز لا ينفق منه في سبيل الله عز وجل " (٢) .

ابدأ بنفسك فانهها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى بالعلم منك وينفع التعليم
تصف الدواء لذي السقام من الضنا كيما يصح به وأنت سقيم
أراك تلقح بالرشاد عقولنا نصحا وأنت من الرشاد علم
لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم .
جامع بيان العلم : ص : ٢٧٧-٢٧٨

(١) اقتضاء العلم العمل : ص : ١٧٣ .

ونسبه ابن عبد البر إلى سفيان الثوري (رحمه الله) . جامع بيان العلم : ص : ٢٩٠ .

(٢) اقتضاء العلم العمل : ص : ١٦٥ . قال الشيخ ناصر الألباني (رحمه الله) : " إسناده موقوف لا بأس به وقد جاء

مرفوعاً " . هامش (١٢) .

وهو في سنن الدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ولفظه : " مثل علم لا ينتفع به كمثل كنز لا ينفق منه في سبيل

الله " . في باب البلاغ عن رسول الله ﷺ : ١ / ١٤٨ . ونحوه عن سلمان رضي الله عنه موقوفاً عليه . ١ / ١٤٨ .

و مسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً مرفوعاً بلفظ مقارب لرواية الدارمي : ١٢١ / ٧ .

وفي المصنف لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شبة . تحقيق : كمال يوسف الحوت . طبعة : مكتبة الرشد .

الرياض . الطبعة الأولى : ١٤٠٩ هـ : عن سلمان رضي الله عنه موقوفاً ولفظه : " مثل علم لا يعمل به كمثل كنز لا ينفق

منه " . ١٢١ / ٧ .

وقال مطر^(١) (رحمه الله) :

" خير العلم ما نفع ، وإنما ينفع الله بالعلم من عِلْمَةٍ ثَمَّ عَمِلَ بِهِ ، ولا ينفعُ به مَنْ عِلْمَةٍ ثَمَّ تَرَكَهُ " (٢) .

والدّاعية قدوة لغيره ، فعليه أن يستشعر ذلك في كلّ أحيائه ، إذ هو تحت مراقبة دقيقة وفاحصة ممّن يقتدون به ، وعليه أن يكون أوّل من يترجم في حياته ما يتلفّظ به لغيره ، لبيان صِدْقِهِ ، ولتصدّق دَعْوَتَهُ ، ولا يكون همّه أن يلقي المواعظ ، ويدبّج الخطب ، ويصدر النّصائح ، وهو كليل عليل ، همّه إصلاح النّاس لا إصلاح نفسه ، فيضيّع مسؤوليته تجاه نفسه أمام مسؤوليته تجاه غيره . فليس من العقل أن ينصح غيره ويهمل نفسه ، وهذا ينافي مقصود الدّعوة إذ هي لإصلاح النّاس لا لإفسادهم . فمن دعا غيره وأهمل نفسه لعله يفسد أكثر ممّا يصلح لأنّه حينئذ يكون داعية إلى التّهاون بالدين والجرأة علي المعاصي ، زاجراً للنّاس عن أداء الطّاعات ، دافعاً لهم على ارتكاب المخازي ، يقولون لو كان صادقاً فيما يقول لطابق قوله فعله ، وجانب فعله المعصية . فكان فعله مانعاً لقبول دعوته .

(١) هو مطر بن طهمان أبو رجاء الورّاق السّلمي مولاهم الخرساني البصري . صدوق كثير الخطأ ، وروايته عن أنس

رضي الله عنه مرسلة . توفي سنة : ١٢٥ هـ .

و انظر : الطبقات الكبرى: ٢٥٤/٧ . طبقات خليفة: ص: ٢١٥ . التاريخ الكبير: ٤٠٠/٧ . معرفة الثّقات: ٢٨١/٢ . الجرح والتعديل: ٢٨٧/٨ . ثقات ابن حبان: ٤٣٥/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ٩٥/١ . الكامل في ضعفاء الرّجال: ٣٩٦/٦ . تهذيب الكمال: ٥١/٢٨ . الكاشف: ٢٦٨/٢ . جامع التّحصيل: ص: ٢٨١ . تهذيب التهذيب: ١٥٢/١٠ . تقريب التّهذيب: ٥٣٤/١ . لسان الميزان: ٣٨٩/٧ .

(٢) اقتضاء العلم العمل ، ص : ١٧١ .

قال عبد الملك بن إدريس الحزيري الوزير الكاتب :

والعلم ليس بنافع أربابه ما لم يفد عملاً وحسن تبصّر
سيان عندي علم من لم يستفد عملاً به وصلاة من لم يظهر
فاعمل بعلمك توف نفسك وزنها لا ترض بالتضييع وزن المخسر

جامع بيان العلم : ص : ٢٨٩ .

﴿٥٠٣﴾

ورحم الله ابن القيم عندما وصف أناساً هذا شأنهم ، وذلك مسلكهم ، فأبلغ في الوصف ، حيث قال :

" علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم ، فكلماً قالت أقوالهم للناس هلموا ، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم ، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له ، فهم في الصّور أدلاء وفي الحقيقة قطاع طريق " (١) .

فداعية هذا شأنه ينقطع به السّير في وسط الطّريق ، بل قل: في أوله ، ويعجز عن مواصلة مشوار دعوته ، بل لعله يكون عبئاً ثقيلاً عليها وعلى الدّعاة الثّابتين على الطّريق ، لما يجلبه عليهم من همز ولمز وإساءة ، فتتعرّ الدّعوة في سيرها ، وتراجع في تقدّمها ، بل تتهاوى إلى السّفول ، حين ينطمس نورها في نفس الدّاعية ، وينمحي أثرها ، إذ فقدت عنصراً مهماً من عناصر دفعها ، وسنداً قوياً يضمن لها بقاءها .

فالدّاعية صاحب الكلمة الصّادقة والقولة المؤثّرة ، هو الذي عني بتربية نفسه فجاهدها عن المعصية وألزمها الطّاعة ، يراقب ربّه فيها ، ويحاسبها على إخلالها ، ويروضها على الخير ، ويحبسها عن الشرّ ، مع تنقية السّريرة وملازمة التّقوى ، فتشع حينئذ تلك النّفس صفاء وطهراً ، وتزكية ونوراً ، فتخرج كلماته مؤثّرة ، فتصيب أهدافها في قلوب الآخرين ، ومراميتها في نفوسهم ، فينجرون إليها في لهفة ونهم ، منصاعين لما يقول ، متأسّين بما يفعل . وحينها يسعد باستمرار دعوته وثباتها ، وطول مكثها وبقائها .

(١) الفوائد : ص : ٦١ . وله كلام قيّم مستفيض فيمن آثر الدّنيا من أهل العلم ، وقال عن الله بغير علم ، وما

ضرب الله لهم من الأمثلة . انظر المرجع السّابق : ١٠٠-١٠٢ .
(٥٠٤)

قال الحسن (رحمه الله) :

" كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وبصره ولسانه
ويده وصلاته وزهده ، وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به
فيكون خيراً له من الدنيا وما فيها لو كانت له فجعلها في الآخرة " (١) .

(١) جامع بيان العلم : ص : ١٠٣ . والحسن هو : البصري (رحمه الله) .

المبحث الرابع

الإخلاص*

الإخلاص : مصدر أخلص يُخلص ، وهو مأخوذ من مادة " خ ل ص " التي تدلّ على تنقية الشيء وتهذيبه (١) .

والخالص كالصافي إلّا أنّ الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه ، والصافي قد يقال لما لا شوب فيه (٢) .

وفي الاصطلاح : تخلص القلب عن شائبة الشوب المكثّر لصفائه ، فإذا صفا عن شوبه ، وخلص عنه يسمّى : خالصاً ، ويسمّى الفعل المخلص : إخلاصاً .

قال تعالى : ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرَثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا ﴾ [الحل: ٦٦] . فإنما خلوص اللّبن إلّا يكون فيه شوب من الفرث والدم (٣) .

والمخلص في عبادته هو الذي يخلصها من شوائب الشرك والرياء ، وذلك لا يتأتّى له إلّا بأن يكون الباعث له على عملها قصد التقرب إلى الله تعالى وابتغاء ما عنده (٤) .

والإخلاص أمره عظيم وشأنه عزيز ، ولذا أمر الله به رسله عليهم السّلام ، وأثنى عليهم بتحقيقه .

* الإخلاص عامل مهم للثبات في كلّ موطن ، ولكن أوردته هنا لعلاقته الوطيدة بالدعوة ، وحاجة الدعاة الماسة إليه .

(١) موسوعة نضرة التّعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ . إعداد مجموعة من المختصّين . دار الوسيلة . جة

الطبعة الأولى : ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م : ١٢٤/٢ .

(٢) المفردات : ص : ١٥٤ .

(٣) التعريفات : ص : ٢٨ .

(٤) المفهم : ٧٤٢/٣ .

قال تعالى في شأن الخاتم عليه السلام : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ ﴾ [١] أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۚ ﴾ [الزمر: ٢-٣] وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ ﴾ [الزمر: ١١]. وقال : ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۚ ﴾ [٢] فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۚ ﴾ [الزمر: ١٤-١٥]. وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۚ ﴾ [الأَنْعَام: ١٦٢-١٦٣].

وقال عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۚ ﴾ [ص: ٤٦]. وقال عن يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ۚ ﴾ [يوسف: ٢٤]. وعن موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۚ ﴾ [مريم: ٥١]. وأمر به عباده فقال : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۚ ﴾ [البقرة: ٥]. وقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۚ ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض (رحمه الله) عن الآية السابقة :

" هو أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا عليّ ، ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتّى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنّة . ثمّ قرأ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] (١) .

وأما الأحاديث في شأن الإخلاص فهي كثيرة جداً . منها :

حديث عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إنّما الأعمال بالنية ، وإنّما لامرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه " (٢) .

(١) مدارج السالكين : ٨٣/٢ - ٨٤ - ٨٩ - ٩٠ . وانظر : الأمر بالعرف والتّهي عن المنكر : ص : ٢٩ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه — إلا أنّه قال : " إلى دنيا " — في : كتاب الأيمان والتّذور: (٥٧/٨٣) . باب التّية في

الأيمان: (٢٣) . برقم: (٦٦٨٩) .

ص: ١٤١٥ . ولفظ مقارب في: كتاب الإيمان : (٢) . باب ما جاء إنّ الإيمان بالتّية: (٤٢/٤١) . برقم: (٥٤) .

ص: ٢٧ . وفي كتاب العتق: (٢٥/٤٩) . باب الخطأ والتّسيان في العتاقة والطلاق: (٦) . برقم: (٢٥٢٩) . ص:

٥٢٥ . وفي كتاب النكاح: (٤١/٦٧) . باب من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوى: (٥) . برقم:

(٥٠٧٠) . ص: ١١١٦ . وفي كتاب الحيل: (٦٥/٩٠) . باب في ترك الحيل: (١) . برقم: (٦٩٥٣) . ص:

١٤٦٨ . ونحوه في: في كتاب بدء الوحي: (١) . باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ : (١) . برقم:

(١) . ص: ١١ . وفي كتاب مناقب الأنصار [المناقب] : (٣٧/٦٣) . باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة:

(١٠٥/٤٥) . برقم: (٣٨٩٨) . ص: ٨١٥ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة: (٣٣) . باب قوله ﷺ " إنّما الأعمال بالتّية " : (٤٥) . برقم: (١٩٠٧) .

ص: ١٥١٥/٣ - ١٥١٦ .

وحديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه . وفيه قال ﷺ : " إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه " (١) .

وحديث زيد بن ثابت رضي الله عنه . وفيه قال ﷺ : " ثلاث لا يغفل^(٢) عليهن قلب امرئ مسلم : إخلاص العمل لله ، والنصح لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم " (٣) .
وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " (٤) .

(١) سنن الترمذي: بلفظه — جزء من حديث — في كتاب الجهاد: (٢٥). باب من غزا يلتمس الأجر والذكر: (٢٤).

برقم: (٣١٤٠) . قال الألباني (رحمه الله): " حسن صحيح " . ص: ٣٣٢ .
معجم الطبراني الكبير: بلفظ مقارب في: ١٤٠/٨ .

(٢) يغفل: روي بوجهين: يُغفلُ من الإغلال الذي هو الخيانة. وَيُغفلُ من الغل الذي هو الحقد والضغن والشحناء.
قال الخطابي: "إن هذه الخلال الثلاث مما لا يخالج القلب ريب آتتهن بر وطاعة ، لأنها من المعروف الذي تعرفه النفوس وتسكن إليه القلوب " . غريب الحديث للخطابي: ٥٨٥/١ .
وقال الزنجشيري: " إن هذه الخلال يُستصلح بها القلوب ، فمن تمسك بها طهر قلبه من الدغل والفساد " .
الفائق: ٧٢/٣ .

و انظر : غريب الحديث للهروي: ١٩٩/١-٢٠٠ . غريب الحديث لابن الجوزي: ١٦١/٢ . النهاية في غريب الحديث: ٣٨١/٣ .

وقال ابن القيم (رحمه الله) :

" ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم : ... أي لا يبقى فيه غلّ ، ولا يحمل الغلّ مع هذه الثلاثة بل تنفي عنه غلّه ، وتنقيته منه ، وتخرجه عنه . فإن القلب يغفل على الشرك أعظم غلّ ، وكذلك يغفل على الغش ، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة . فهذه الثلاثة تملوه غلاً ودغلاً . ودواء هذا الغلّ واستخراج أخلاطه : بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة " . مدارج السالكين : ٩٠/٢ .

(٣) هذا جزء من حديث : " نضر الله امرءاً " . وقد سبق تخريجه : ص : ٤٤٩-٤٥٠ . ولكن هذا اللفظ أورده ابن

ماجه في سننه في المقدمة . باب من بلغ علماً : (١٨) . برقم: (٢٣٠) . ص: ٤٠ .

(٤) صحيح مسلم: بلفظه في : في كتاب البر والصلة والآداب: (٤٥) . باب تحريم ظلم المسلم : (١٠) . برقم:

فالإخلاص غاية عظمى ، وهدف سام . وهو شرط في صحة الأعمال ، فلا يقبل الله من أحد صرفاً ولا عدلاً ما لم يؤسس عمله عليه ، بل تذهب أعماله أدراج الرياح إذا فقد هذا الشرط .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] (١) .

والدعاة إلى الله في أمس الحاجة إليه ليضمنوا سلامة دعوتهم من العطب ، وصفاءها من الكدر ، ونقاءها من الدنس ، كي تزكو وتطهر ، ويشع نورها ، وينصع طيبها .

وقد لفت الله انتباههم إليه كي يصطحبوه في دعوتهم ولا يغفلوا عنه أبداً . فقال سبحانه : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤] .

قال الرازي (رحمه الله):

" هذه الأقسام الثلاثة من الطاعات وإن كانت في غاية الشرف والجلالة إلا أن الإنسان إنما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه الله ، ولطلب مرضاته ، فأما إذا أتى بها للرياء والسمعة انقلبت القضية فصارت من أعظم المفاصد . وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن المطلوب من الأعمال الظاهرة رعاية أحوال القلب في إخلاص النية ، وتصفية الداعية عن الالتفات إلى غرض سوى طلب رضوان الله " (٢) .

(١) الهباء : الشيء المنبث الذي تراه في البيت من ضوء الشمس شبيهاً بالغيار . وقوله عز وجل : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] تأويله : أن الله أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور .

لسان العرب: ٣٥١/١٥ . وانظر : المفردات : ص: ٥٣٦ .

(٢) التفسير الكبير : ٤١/١١ - ٤٢ .

ولذا كان رسل الله عليهم السلام وهم سادة الدعاة وأئمتهم قد ضربوا بعطن^(١)

في أمر الإخلاص والتجرد إلى الله . حملوا الدعوة صافية نقية ، لا تكثرها كدرة ، ولا تشوبها شائبة ، ولم يطلبوا بها هدفاً رخيصاً ولا غاية حابطة ، إذ كان همهم أن يبلغوا دين الله إلى العباد ، وينقذوا البشرية من مهاوي الردى ، وينتشلوها إلى بر الأمان . فلم يبتغوا بها من الناس مالا ولا مكانة ولا جاهاً .

وهذا سر قولهم عليهم السلام لأممهم : لا نسألكم أجراً ، ولا نطلب منكم على دعوتنا ثمناً ، وإنما الرب سبحانه هو الذي تكفل بأجرنا ومثوبتنا .

وقد قرّر الله هذه الحقيقة وكرّرها مع كل الرسل^(٢) ، ليزهد الدعاة فيما عند

الناس من مصالح دنيوية ، وأهداف ثانوية تصرفهم عن هدفهم الأصيل ، وغايتهم العظمى ، وهمم الأكبر ، وهو حمل دعوة الله ونشرها في الآفاق ، وتقديمها على المصالح الخاصة .

وليكون قصدهم وجه الله والدار الآخرة ، ونصرة دينه وإعلاء كلمته ، لا اللهث وراء الدنيا والسعي خلف بريقها . فإنه من استهوته هوى إليها . والله سبحانه يقول : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ [هود: ١٥-١٦] .

(١) العطن للإبل كالوطن للناس ، وقد غلب على مركها حول الحوض ، والمعطن كذلك ، والجمع أعطان .

يقال : ضربت الإبل بعطن : إذا رويت ثم بركت حول الماء ، أو عند الحياض لتعاد إلى الشرب مرة أخرى لتشرب . لسان العرب: ٢٨٦/١٣ . بتصرف .

ويقال: ضربوا بعطن : إذا رويوا ثم أقاموا على الماء . القاموس المحيط: ص: ١٥٦٩ . بتصرف يسير .

والمراد أنهم بلغوا في الإخلاص مبلغاً عظيماً وارتووا منه ، حيث لا مزيد على ذلك .

(٢) انظر: الآيات : الأنعام : (٩٠) . هود : (٢٩)(٥١) . الشعراء : (١٠٩)(١٢٧)(١٤٥)(١٦٤)(١٨٠) . سبأ :

(٤٧) . يس : (٢١) . الشورى : (٢٣) .

ويُقبَح بالدَّاعِيَةِ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةِ الْعِلْمِ لِكَيْ يَصْلَحَ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ ، أَنْ يُوَجِّهَ تِلْكَ النِّعْمَةَ لِنَيْلِ مَتَاعِ زَائِلٍ وَدُنْيَا فَانِيَةٍ .

وَلِذَا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الصَّنَفَ مِنَ الدَّعَاةِ أَيْمَا تَحْذِيرٍ فَقَالَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ : " مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيَصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَعْنِي رِيحَهَا " (١) .

وَقَالَ فِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ : " مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ (٢) بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِيَ (٣) بِهِ السَّقَهَاءَ ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وَجْهَهُ النَّاسَ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ " (٤) .

(١) سنن أبي داود: بلفظه — إِلَّا إِيَّاهُ قَالَ: " وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " — فِي كِتَابِ الْعِلْمِ: (٢٤). بَابُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لغيرِ اللَّهِ

تَعَالَى: (١٢). بِرَقْمِ: (٣٦٦٤). قَالَ الْأَلْبَانِيُّ (رَحِمَهُ اللَّهُ): " صَحِيحٌ ". ص: ٤٠٥.

سنن ابن ماجه: بلفظه في: المَقَدِّمَةِ. بَابُ الِاتِّفَاعِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِهِ: (٢٣). بِرَقْمِ: (٢٥٢). قَالَ الْأَلْبَانِيُّ (رَحِمَهُ اللَّهُ): " صَحِيحٌ ". ص: ٤٢.

مسند أحمد: بلفظه — إِلَّا إِيَّاهُ قَالَ: " قَالَ سَرِيحٌ فِي حَدِيثِهِ: يَعْنِي رِيحَهَا " — ٣٣٨/٢. قَالَ أَحْمَدُ شَاكِرٌ (رَحِمَهُ اللَّهُ): " إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ ". بِرَقْمِ: (٨٤٣٨). مَسْنَدُ أَحْمَدَ بِتَحْقِيقِ أَحْمَدَ شَاكِرٍ: ١٦/١٩٣.

الإِحْسَانُ فِي تَقْرِيبِ صَحِيحِ ابْنِ حَبَّانَ: بلفظه في: بَابُ ذِكْرِ وَصْفِ الْعِلْمِ الَّذِي يَتَوَقَّعُ دُخُولُ النَّارِ فِي الْقِيَامَةِ لِمَنْ طَلَبَهُ. وَلَمْ يَذْكُرْ: " يَعْنِي رِيحَهَا ". بِرَقْمِ: (٧٨). قَالَ شُعَيْبُ الْأَرْنَؤُوطُ: " حَدِيثٌ صَحِيحٌ ". ٢٧٩/١.

مُسْتَدْرَكُ الْحَاكِمِ: بلفظه مقارب في: ١٦٠/١. وَقَالَ: " هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ سَنَدُهُ ، ثِقَاتٌ رَوَاتُهُ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يَخْرُجَاهُ ". وَقَالَ الذَّهَبِيُّ (رَحِمَهُ اللَّهُ): " عَلَى شَرْطِهِمَا ".

مسند أبي يعلى: بلفظه — دُونَ الزِّيَادَةِ الْآخِرَةِ — بِرَقْمِ: (٦٣٧٣). قَالَ الْمُخَفَّقُ: " إِسْنَادُهُ حَسَنٌ ". ٢٦٠/١١.

وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ (رَحِمَهُ اللَّهُ): " حَدِيثٌ صَحِيحٌ ". اقْتِضَاءُ الْعِلْمِ الْعَمَلِ: ص: ١٩٤ هَامِش (١٠٢) .

(٢) قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ (رَحِمَهُ اللَّهُ):

" مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ: أَيُّ يَجْرِي مَعَهُمْ فِي الْمُنَازَعَةِ وَالْجِدَالِ لِيُظْهِرَ عِلْمَهُ إِلَى النَّاسِ رِيَاءً وَسَمْعَةً ".

الْتِهَامَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: ٢٦٤/١.

(٣) مِنَ الْمَمَارِيِّ وَهِيَ الْمُجَادَلَةُ عَلَى وَجْهِ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ. انْظُرْ: التَّهْيَاةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: ٣٢٢/٤. وَانْظُرْ: غَرِيبِ

الْحَدِيثِ لِلْهَرَوِيِّ: ١١/٢. الْفَائِقُ: ٣٥٦/٣. غَرِيبِ الْحَدِيثِ لِابْنِ الْجَوَازِيِّ: ٣٥٤-٣٥٥.

(٤) سنن الترمذي: بلفظه في: كِتَابِ الْعِلْمِ: (٣٨). بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ يَطْلُبُ بِعِلْمِهِ الدُّنْيَا: (٦). بِرَقْمِ: (٢٦٥٤).

وَقَالَ: " هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ ". وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ (رَحِمَهُ اللَّهُ): " حَسَنٌ ". ص: ٤٣٠.

وليس بمستعجب أن يكون هؤلاء في أول من تسعّر بهم جهنم .
 فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه - فذكر رجلاً استشهد ... ثم قال - ورجل تعلّم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأُتي به فعرفه نعمة فعرّفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلّمتُ العلم وعلمته ، وقرأتُ فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلّمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل . ثم أمر به فسُحب على وجهه حتّى ألقي في النار ... الحديث " . ثم ذكر المنفق (١) .

ومن هنا جاء تحذير أهل العلم للدعاة أن يكون همهم من علمهم أن يعمرّوا به دنياهم ، ولا ينصرون به دعوة الله ، ولا يبلّغونه إلى عباد الله .

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: المقدمة. باب الانتفاع بالعلم والعمل به: (٢٣). عن ابن عمر (رضي الله عنهما) برقم: (٢٥٣). وعن أبي هريرة رضي الله عنه برقم: (٢٦٠). ونحوه عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) برقم: (٢٥٤). وحذيفة رضي الله عنه برقم: (٢٥٩). قال الألباني (رحمه الله) عن حديث أبي هريرة وابن عمر وحذيفة رضي الله عنهم: "حسن". وعن حديث جابر رضي الله عنه: "صحيح". ص: ٤٢-٤٣.
 سنن الدارمي: بلفظ مقارب في: باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله. عن مكحول (رحمه الله) مرسلًا، وموقوفًا عليه. ١١٦/١. ونحوه في: باب العمل بالعلم وحسن النية فيه. عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا عليه. ٩٢/١.
 الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: نحوه في: باب ذكر وصف العلم الذي يتوقع دخول النار في القيامة لمن طلبه. عن جابر رضي الله عنه برقم: (٧٧). ١٧٨/١. قال شعيب الأرنؤوط: "رجاله ثقات رجال الصحيح".
 مستدرک الحاكم: نحوه عن جابر رضي الله عنه ، وعن ابن جريج (رحمه الله) مرسلًا. ١٦١/١.
 معجم الطبراني الكبير: نحوه في: ٦٦/٢٠. عن معاذ رضي الله عنه . وفي: ٢٨٤/٢٣. عن أم سلمة (رضي الله عنها).
 (١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب من قاتل للرّياء والسّمعة استحقّ النار: (٤٣). برقم:

(١٩٠٥). ١٥١٤/٣ .

قال النووي (رحمه الله) :

" قوله ﷺ في الغازي والعالم والجوّد وعقاهم على فعلهم ذلك لغير الله وأدخالهم النار ، دليل على تغليظ تحريم الرّياء ، وشدة عقوبته ، وعلى الحثّ على وجوب الإخلاص في الأعمال " .

شرح النووي على مسلم : ٥٠/١٣ - ٥١

قال لقمان (رحمه الله) لابنه :

" يا بني لا تتعلم العلم لثلاث ، ولا تدعه لثلاث ، لا تتعلمه لتماري به ، ولا لتباهي به ، ولا لترائي به ، ولا تدعه زهادة فيه ، ولا حياء من الناس ، ولا رضاء بالجهالة " (١) .

قال الحسن (رحمه الله) :

" من طلب العلم ابتغاء الآخرة أدركها ، ومن طلب العلم ابتغاء الدنيا فهو حظه منها " (٢) .

وقال أبو حاتم بن حبان (رحمه الله) :

" العاقل لا يبيع حظَّ آخرته بم قصد في العلم ، لما يناله من حطام هذه الدنيا ، لأن العلم ليس القصد فيه نفسه دون غيره ، لأن المبتغى من الأشياء كلها نفعها لا نفسها ، والعلم ونفع العلم شيئان ، فمن أغضى عن نفعه ، لم ينتفع بنفسه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع " (٣) .

وقال الزمخشري :

" وليجعلوا غرضهم ومرمى همّتهم في التّفقه ، إنذار قومهم وإرشادهم ، والنّصيحة لهم ، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ، ويؤمّونه من المقاصد الركيكة ، من التّصدّر والتّروّس والتّبسيط في البلاد ، والتّشبه بالظّلمة في ملابسهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضاً ، وفشو داء الضّرائر بينهم ، وانقلاب حماليق^(٤)

(١) جامع بيان العلم : ص : ١٧٣ .

(٢) اقتضاء العلم العمل : ص : ١٩٤ .

(٣) روضة العقلاء : ص : ٤٣ .

(٤) حملاق العين : بالكسر والضمّ وكعصفور : باطن أجفائها الذي يسودّ بالكحلة ، أو ما غطّته الأجفان من بياض المقلة ، أو باطن الجفن الأحمر الذي إذا قلب للكحل رأيت حمرة ، أو ما لرق بالعين من موضع الكحل من بياض.

أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر ، أو شرنمة جثوا بين يديه . وتهالكة على أن يكون موطاً العقب^(١) دون الناس كلهم . فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل : ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣] ^(٢) .

وقد بين الذهبي (رحمه الله) تفاوت أهل العلم في قصدهم من طلبه فقال :
 " فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنَبَلُوا ، وصاروا أئمة يقتدى بهم ، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله ، وحصلوه ، ثم استفاقوا ، وحاسبوا أنفسهم ، فجرّهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق ... وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا ، وليئثنى عليهم ، فلهم ما نوا ... وترى هذا الضرب لم يستضيئوا بنور العلم ، ولا لهم وقع في النفوس ، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل ، وإنما العالم من يخشى الله تعالى .
 وقوم نالوا العلم ، وولّوا به المناصب ، فظلموا ، وتركوا التقيّد بالعلم ، وركبوا الكبائر والفواحش فتبّاً لهم ، فما هؤلاء بعلماء ... إلخ " ^(٣) .

والجمع : حماليق . وحملق : فتح عينيه ونظر شديداً . القاموس المحيط : ص : ١١٣٢ . انظر : لسان العرب : ٦٩/١٠ .

(١) أي كثير الأتباع . بأن يكون سلطاناً ، ومقدماً ، أو ذا مال ، فيتبعه الناس ويمشون وراءه .
 لسان العرب : ٢٠٠/١ .

(٢) الكشف : ٢٢١/٢ . في تفسير الآية (١٢٢) من التوبة . الطبعة الحلبية .

(٣) سير أعلام النبلاء : ١٥٢/٧ - ١٥٣ .

لما ولي إسماعيل بن عُلَيَّة (رحمه الله) على العشور أو الصدقات كتب إلى عبد الله بن المبارك (رحمه الله) يستمده برجال من القراء يعينونه على ذلك . فكتب إليه عبد الله بن المبارك (رحمه الله) :
 يا جاعل العلم له بازياً يضطاد أموال المساكين
 احتلت للدنيا ولذتها بحيلة تذهب بالدين
 فصرت مجنوناً بها بعدما كنت دواء للمجانين
 أين روايتك فيما مضى عن ابن عون وابن سيرين
 ودرسك العلم بآثاره وتركت أبواب السلاطين
 تقولوا أكرهت فماذا كذا زلّ حمار العلم في الطين . جامع بيان العلم : ص : ٢٥٨ .
 ﴿٥١٥﴾

وبعد هذا يتبين لنا أن الداعية المخلص هو الذي يقصد من دعوته التَّقَرُّبَ إلى الله ، ونصرة دينه ، ونصح عباده ، وهو يحبّ لدين الله أن يعلو ، وأن يمتثل العباد لأوامر الله ، ويجتنبوا نواهيه . فلا يرضيه إلا ما يرضي ربه ، ولا يغضبه إلا ما يغضب ربه . لاحظ لنفسه في دعوته ، فهو لا يستهويه المال ، ولا يغره المنصب ، ولا تستغزه الشهرة ، ولا تجذبه القيادة ، ولا تدفعه الشهوة ، ولا ترغبه الشهادة ، ولا يحثه الطمع ، ولا يسعى لمدح الناس وثنائهم ومحمدتهم ، ولا تستخفه المجاملة والمحاباة فيرضي غيره على حساب دعوته . وهو بعيد عن الرياء والعجب وحب السمعة والظهور .

فهذه كلّها آفات وغيرها الكثير تتأفي الإخلاص . ومتى ما تطرق منها شيء إلى قلب الداعية ونفسه دبّ فيه الخمول ، وانتابته العلل ، وداخله الكسل ، وارتبطت الدعوة عنده بالمصلحة فإذا وجدها دعا ، وإن حرمها سكت ، وأبطأ به السير ، وخاب سعيه . لأنّ دعوته لم تتبع من صميم قلبه ولا من صدق نفسه ، فهي آيلة إلى السقوط والهوي . إذ الدعوة النابعة عن إخلاص يجد صاحبها عزيمة لا تقلّ ، وقوة لا تنهار ، فيتمادى بها إلى آخر رمق من حياته ، يكلؤها الصبر ويحفّها الثبات ، ويحيط بها الصدق ، ويدفعها اليقين .

ودعوة هذا شأنها لا تخبو ، وداعية هذا وصفه لا يخفق ، لأنّه لا ينتابه الكلال ، ولا يوقفه الملل ، ولا تحلّ به السّامة ، ولا يثبّطه اليأس .

وانظر : روضة العقلا : ص : ٤٩-٥١ .

وقد علّل ابن القيم (رحمه الله) سبب تحذير أولئك الفضلاء ، فقال :
" كلّ من أثر الدنيا من أهل العلم واستحبّها فلا بد أن يقول على الله غير الحقّ في فتواه وحكمه ، في خيره والزامه ، لأنّ أحكام الرّب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ، ولاسيّما أهل الرّئاسة والذين يتبعون الشّبهات ، فإنّهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحقّ ودفعه كثيراً . فإذا كان العالم والحاكم محبّين للرّئاسة متبعين للشّهوات لم يتم لهم ذلك إلا بدفع ما يصادّه من الحقّ ، ولاسيّما إذا قامت له شبهة ، فتتفق الشبهة والشّهوة ويثور الهوى فيخفى الصّواب وينطمس وجه الحقّ ، وإن كان الحقّ ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته
وقال : لي مخرج التوبة . " . الفوائد : ص : ١٠٠ .

المبحث الخامس

مراعاة المصالح والمفاسد

إنَّ الإنسان بطبعه مهتما ببلوغ من علم ونبوغ وحصافة ونكاء لا يمكنه أبداً أن يحيط بجميع جوانب الإصلاح في هذه الحياة لعجزه وضعفه وجهله .

والَّذي تفرّد بعلم مصالح العباد دون سواه هو العليم الخبير سبحانه ، لأنَّه الخالق ، فهو عالم بحاجة خلقه . ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] .

ولذا أرسل الرّسل وأنزل الكتب وشرع الشّرائع لإرشاد عباده إلى ما يصلحهم ، وتحذيرهم ممّا يفسدهم .

قال الشّاطبي (رحمه الله) :

" إنَّ وضع الشّرائع إنّما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً " (١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنَّ الشّريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وأنّها ترجّح خير الخيرين وشرّ الشرّين ، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما " (٢) .

وهذا سرّ تعليل الشّارع لكثير من الأحكام وربطها بعلاها ليبين ما تتطوي عليه تلك الأحكام من مصالح .

فقال في تقرير التّوحيد : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ

تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] .

(١) الموافقات : ٢/٢ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٤٨/٢٠ .

وَقَالَ عَقِبَ آيَةِ الْوُضُوءِ : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦]
 وقال في الصَّلَاةِ : ﴿ إِنِ الصَّلَاةُ تَنَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

وقال في شأن القبلة : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٠] .

وقال في الصِّيَامِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] .

وقال في الجهاد : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩] .

وقال في القصاص : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩] ^(١) .

فالشرعية جاءت بتحقيق المصالح وتحصيلها ، وتقويت المفساد وتعطيلها .
 هذا حين تتفرد المصالح أو المفساد من غير تعارض بينهما .
 وأما متى ما تعارضت المصالح والمفساد وتزاحمت الحسنات والسيئات فإنه
 وجب حينئذ تقديم الرّاجح منهما ^(٢) .

والأصل في ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] .

(١) وانظر : الموافقات : ٣/٢ .

(٢) انظر : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ص : ٢٢-٢٣ . مجموع الفتاوى : ١٢٩/٢٨ .

يقول ابن كثير (رحمه الله) :

" يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة ، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين " (١) .

وقد عقد البخاري (رحمه الله) في صحيحه باباً من كتاب العلم قال فيه :
" من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه " . ثم روى بسنده إلى عائشة (رضي الله عنها) قالت : قال النبي ﷺ : " يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - قال ابن الزبير : بكفر - لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين باب يدخل الناس ، وباب يخرجون " (٢) - ففعله ابن الزبير - .
قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" وفي الحديث معنى ما ترجم له لأن قريشاً كانت تعظم أمر الكعبة جداً ، فخشي ﷺ أن يظنوا لأجل قرب عهدهم بالإسلام أنه غير بناءها لينفرد بالفخر عليهم في ذلك . ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة ، ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه " (٣) .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢٦٢/٢ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب العلم : (٣) . باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه : (٤٨) . برقم : (١٢٦) . ص : ٤٦ . ونحوه في : كتاب الحج : (٨/٢٥) . باب فضل مكة وبنائها : (٤٢) . برقم : (١٥٨٣-١٥٨٦) . ص : ٣٣٤ . وفي كتاب أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب : (١١/١٠) . برقم : (٣٣٦٨) . ص : ٧١٠ . وفي كتاب التفسير : (٩٣/٦٥) . باب قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ [البقرة: ١٢٧] : (١٠) . برقم : (٤٤٨٤) . ص : ٩٣٣ . وفي كتاب التمحي : (٦٩/٩٤) . باب ما يجوز من

اللو : (٩) . برقم : (٧٢٤٣) . ص : ١٥٢٤-١٥٢٥ .

صحيح مسلم: نحوه في : كتاب الحج : (١٥) . باب نقض الكعبة وبنائها : (٦٩) . برقم : (١٣٣٣) . ٩٧١-٩٦٩/٢ .

(٣) فتح الباري : ٣٠٣/١ .

وقال النووي (رحمه الله) :

" في هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام ، منها : إذا تعارضت المصالح ، أو تعارضت مصلحة ومفسدة ، وتعدّر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدئ بالأهم ، لأنّ النبي ﷺ أخبر أنّ نقض الكعبة وردّها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم ﷺ مصلحة ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريباً وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة فيرون تغييرها عظيماً فتركها ﷺ " (١) .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : " جاء أعرابيُّ فبال في طائفة المسجد ، فزجره النَّاسُ ، فنهاهم النَّبيُّ ﷺ فلما قضى بوله . أمر النَّبيُّ ﷺ بِذُنُوبِ (٢) من ماءِ فأهريقَ (٣) عليه " (٤) .

إنّ بول الأعرابي في المسجد مفسدة محققة لأنّه تلوّث لجزء من المسجد بالنّجاسة وذلك منكر ، ومع هذا نهى النَّبيُّ ﷺ الصّحابة عن منعه ، لأنّه لو منع إمّا

(١) شرح التّووي على مسلم : ٨٩/٩ . وانظر : عمدة القارئ : ٢٠٤/٢ .

(٢) الذّنوب: هي الدّلّو . غريب الحديث لابن قتيبة : ٣٨٨/١ .

وقال ابن الأثير: " الذّنوب الدّلّو العظيمة . وقيل : لا تسمّى ذنوباً إلّا إذا كان فيها ماء " .

التهاية في غريب الحديث : ١٧١/٢ .

(٣) أهريق : يقال: هَرَأَقَ الماءُ يُهَرِّقُهُ بفتح الهاء هِرَاقَةً بالكسر صبّه . وأصله أَرَأَقَ يُرِيقُ إِرَاقَةً . وفيه لغة أخرى أَهَرَقَ الماءُ يُهَرِّقُهُ إِهَرَأَقاً على أَفْعَلَ يُفْعَلُ . وفيه لغة ثالثة أَهَرَأَقَ يُهَرِّقُ إِهَرَأَقَةً فهو مُهَرِّقٌ والشّيءُ مُهَرَأَقٌ و مُهَرَأَقٌ أيضاً بفتح الهاء . مختار الصّحاح : ص : ٦٩٤ . وانظر : لسان العرب : ٣٦٧/١٠ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الوضوء : (٤) . باب يهريق الماء على البول : (٦٢/٥٨) . ص : ٦٤-٦٥ . ونحوه في : باب ترك التّي ﷺ والنّاس الأعرابي حتّى فرغ من بوله في المسجد : (٦٠/٥٧) . برقم : (٢١٩) . عن أنس ﷺ . ص : ٦٤ . وفي باب صبّ الماء على البول في المسجد : (٦١/٥٨) . برقم : (٢٢٠) . عن أبي هريرة ﷺ . ص : ٦٤ . وفي كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب الرّق في الأمر كلّهُ : (٣٥) . برقم : (٦٠٢٥) . عن أنس ﷺ . ص : ١٢٩٣ . وفي باب قول التّي ﷺ : " يسروا ولا تعسروا " : (٨٠) . برقم : (٦١٢٨) . عن أبي هريرة ﷺ . ص : ١٣١١ .

صحيح مسلم: نحوه في : كتاب الطّهارة : (٢) . باب وجوب غسل البول وغيره من التّجاسات : (٣٠) . برقم : (٢٨٥) . عن أنس ﷺ . ٢٣٧/١ .

أن يقطع بوله فيتضرّر ، أو لا يقطعه فلا يأمن حينئذ من تتجسّ بدنه أو ثوبه أو انتشار البول في المسجد وذلك مفسدة أعظم .

قال العيني (رحمه الله) :

" فيه دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما ، وتحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما . فإن البول فيه مفسدة ، وقطعه على البائل مفسدة أعظم منها ، فدفع أعظمها بأيسر المفسدتين . وتنزيه المسجد عنه مصلحة ، وترك البائل إلى الفراغ مصلحة أعظم منها ، فحصل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما " (١) .

وعن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال : " أقبلت راكباً على حمار أتان (٢) - وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام - ورسول الله ﷺ يصلي بمنى إلى غير جدار ، فمررت بين يدي بعض الصف ، وأرسلت الأتان ترتع ، فدخلت في الصف ، فلم ينكر ذلك عليّ " (٣) .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" فيه جواز تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة الخفيفة ، لأن المرور مفسدة خفيفة ، والدخول في الصلاة مصلحة راجحة " (٤) .

فمن هذه النصوص وأقوال من سبق من أهل العلم عنها تنبّه لنا جوانب هذه

القاعدة المهمة .

(١) عمدة القارئ : ١٢٧/٣ . وانظر : فتح الباري : ٤٣٣/١ . نيل الأوطار من أحاديث سيّد الأخيار شرح متقى

الأخبار . لمحمد بن علي الشوكاني . نشر : دار الجليل . بيروت . ١٨٧٣م : ٥٢/١ .

(٢) حمار أتان : الحمار يقع على الذكر والأنثى ، والأتان الحمارة الأنثى خاصة ولا يقال فيها : أتانة وإن كان قد جاء في بعض الحديث . النهاية في غريب الحديث : ٢١/١ . بتصرف .

(٣) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب العلم : (٣) . باب متى يصح سماع الصّغير : (١٨) . برقم : (٧٦) . ص :

٣٤ . و بلفظ مقارب في : كتاب الصلاة : (٥/٨) . باب سترة الإمام سترة من خلفه : (٩٠) . برقم : (٤٩٣) . ص :

١١٩ . وفي كتاب الأذان : (٥/١٠) . باب وضوء الصّبيان : (٣١٢/١٦١) . برقم : (٨٦١) . ص : ١٨٨ . وفي

كتاب جزاء الصّيد (الحج) : (٨/٢٨) . باب حجّ الصّبيان : (٢٥/٢٠٧) . برقم : (١٨٥٧) . ص : ٣٨٨ . ونحوه

في : كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب حجة الوداع : (٧٧/٧٨) . برقم : (٤٤١٢) . ص : ٩١٧ .

صحيح مسلم : بلفظ مقارب في : كتاب الصلاة : (٤) . باب سترة المصلّي : (٤٧) . برقم : (٥٠٤) . ٣٦١/١ .

(٤) فتح الباري : ٢٣١/١ .. وانظر : عمدة القارئ : ٧٠/٢ .

ففي آية الأنعام وحديث عائشة (رضي الله عنها) : ترك المصلحة لأجل مفسدة أعظم منها .

وفي حديث أنس ؓ : دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما ، أو تحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما .

وفي حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) : فعل المفسدة الخفيفة من أجل مصلحة راجحة .

ولقد انبرى شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في إيضاح تطبيق هذه القاعدة العظيمة في أمر الدّعوة إلى الله بكلام رصين أجاد سبكه ، وأحسن صياغته ، وأوضح جوانبه ، وأجلى غموضه ، وبيّنه للدّعاة إلى الله أتمّ بيان حيث لم يترك ما يحوجهم فيه إلى غيره ، فقال (رحمه الله) :

" فَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ - وَإِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ وَدَفْعِ مَفْسَدَةٍ - فَيَنْظُرُ فِي الْمَعَارِضِ لَهُ . فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَفُوتُ مِنَ الْمَصَالِحِ ، أَوْ يَحْصُلُ مِنَ الْمَفَاسِدِ أَكْثَرَ ، لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِهِ ، بَلْ يَكُونُ مُحَرَّمًا إِذَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ ... وَعَلَى هَذَا إِذَا كَانَ الشَّخْصُ وَالطَّائِفَةُ جَامِعِينَ بَيْنَ مَعْرُوفٍ وَمَنْكَرٍ ، بِحَيْثُ لَا يَفْرَقُونَ بَيْنَهُمَا ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَفْعَلُوهُمَا جَمِيعًا ، أَوْ يَتْرَكُوهُمَا جَمِيعًا ، لَمْ يَجْزْ أَنْ يُؤْمَرُوا بِمَعْرُوفٍ وَلَا أَنْ يُنْهَوْا عَنِ مَنْكَرٍ . بَلْ يَنْظُرُ ، فَإِنْ كَانَ الْمَعْرُوفُ أَكْثَرَ أَمْرَ بِهِ ، وَإِنْ اسْتَلْزَمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنَ الْمَنْكَرِ . وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مَنْكَرٍ يَسْتَلْزِمُ تَقْوِيَتَ مَعْرُوفٍ أَكْثَرَ مِنْهُ . بَلْ يَكُونُ النَّهْيُ حِينَئِذٍ مِنْ بَابِ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالسَّعْيِ فِي زَوَالِ طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ ، وَزَوَالِ فِعْلِ الْحَسَنَاتِ .

وإن كان المنكر أغلب ، نُهي عنه . وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر ، وسعيًا في معصية الله ورسوله . وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما .

فتارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النهي . وتارة لا يصلح أمر ولا نهى حيث كان المعروف والمنكر متلازمين - وذلك في الأمور المعيّنة الواقعة - .

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقاً وينهى عن المنكر مطلقاً .
وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بمعرفها وينهى عن منكرها ،
ويحمد محمودها ، وينمّ مذمومها ، بحيث لا يتضمّن الأمر بمعروف فوات معروف
أكبر منه ، أو حصول منكر فوقه . ولا يتضمّن النهي عن المنكر حصول ما هو
أنكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه .
وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتّى يتبين له الحقّ ، فلا يقدم على الطاعة
إلاّ بعلم ونية ، وإذا تركها كان عاصياً . فترك الواجب معصية ، وفعل ما نهى عنه
من الأمر معصية . وهذا باب واسع . ولا حول ولا قوة إلاّ بالله " (١) .
❦ ومن هذا الباب أنّ النبي ﷺ لم يقتل المنافقين الذين آذوه وسمع منهم في
غير موطن ما يكرهه . وعلة ذلك خشيته أن يتحدث الناس أنّه يقتل أصحابه
فينفرون .

فعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) قال : أتى رجل رسول الله ﷺ
بالجعرانة (٢) مُنْصَرَفَهُ من حنين (٣) ، وفي ثوب بلال فضّة ، ورسول الله ﷺ يقبض
منها ، يعطي الناس . فقال : يا محمد اعدل . قال : " ويلك ، ومن يعدل إذ لم أكن
أعدل ؟ لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل " . فقال عمر بن الخطاب ﷺ : دعني
يا رسول الله فأقتل هذا المنافق . فقال : " معاذ الله أن يتحدث الناس أنّي أقتل

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ص : ٢٣-٢٤ . مجموع الفتاوى : ١٢٩/٢٨-١٣١ .

(٢) الجعرانة : بكسر أوله إجماعاً . أهل الحديث يكسرون عنه ويشددون راءه . وأهل الإتيان والأدب يخطئونهم
ويسكنون العين ويخففون الراء . وقد حكى عن الشافعي أنّه قال : " المحدثون يخطئون في تشديد الجعرانة وتخفيف
الحديبية " . وكلاهما روايتان جيّدتان . وهي ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب . نزها التي ﷺ لما قسم
غنائم هوازن مرجعه من غزاة حنين ، وأحرم منها ﷺ . وله فيها مسجد ، وبها بئر متقاربة . معجم البلدان :
١٤٢/٢ . بتصرف . وانظر : معجم ما استعجم : ٣٨٤ / ١ .

(٣) حنين : هو واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً . والأغلب عليه التذكير لأنّه اسم ماء .
وربما أنّته العرب لأنّه اسم للبقعة . وهو الموضع الذي هزم فيه رسول الله ﷺ هوازن . وقيل : إنّ سمي بحنين بن
قايبة بن مهلائيل .

معجم ما استعجم : ٤٧١-٤٧٢ . بتصرف . وانظر : معجم البلدان : ٣١٣ / ٢ .

أصحابي . إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية (١) " (٢) .

❦ ومنه تحذير الصحابة والتابعين وأهل العلم من التحديث ببعض الأحاديث التي يفهم منها خلاف المقصود . وقد يؤدي ما فهم منها إلى مفسدة أعظم من الستر عليها .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

" ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة " (٣) ..
والفتنة هنا : الضلال والحيرة (٤) .

وقال علي رضي الله عنه :

" حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله " (٥) .

(١) الرمية : هي الصيدة التي يرميها الصائد . وتطلق على كل دابة مرمية . وانظر : غريب الحديث للهروري:

١٦٦/١ . غريب الحديث لابن الجوزي: ٤١٧/١ . النهاية في غريب الحديث : ٢٦٨/٢ .

قال ابن الأثير (رحمه الله) : " يمرقون من الذين مروق السهم من الرمية : يريد أن دخولهم في الإسلام ثم خروجهم منهم لم يتمسكوا منه بشيء كالسهم الذي دخل في الرمية ثم نفذ فيها وخرج منها ، ولم يعلق به منها شيء " . النهاية في غريب الحديث : ١٤٩/٢ . وانظر : الفائق: ٣٥٥/٣ .

(٢) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب المناقب: (٣٧/٦١) . باب علامات النبوة في الإسلام: (٢٥) . برقم:

(٣٦١٠) . عن أبي سعيد رضي الله عنه . ص: ٧٥٩ . وفيه إن اسم الرجل ذوالخويصرة من قبيلة غنم . وفي كتاب الأدب:

(٥٢/٧٨) . باب ما جاء في قول الرجل: "ويلك" : (٩٥) . برقم: (٦١٦٣) . عن أبي سعيد رضي الله عنه . ص: ١٣١٨ .

وفي كتاب استئابة المرتدين : (٦٣/٨٨) . باب من ترك قتال الخوارج للتألف . وأن لا ينفر الناس عنه : (٧) .

برقم: (٦٩٣٣) . عن أبي سعيد رضي الله عنه . ص: ١٤٦٣ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الزكاة : (١٢) . باب ذكر الخوارج وصفاتهم : (٤٧) . برقم: (١٠٦٣) .

٧٤٠/٢ . ونحوه عن أبي سعيد رضي الله عنه برقم: (١٠٦٤) . ٧٤٤/٢ .

وانظر شرح النووي على مسلم : ١٥٨/٧ - ١٥٩ . والوصايا في الكتاب والسنة . للدكتور : علي بن محمد نلصر

الفقهية . المجموعة الرابعة . الطبعة الأولى : ١٤١٣ هـ الجامعة الإسلامية بالمدينة . مركز شؤون الدعوة . ص : ٦٥

(٣) سبق . انظر : ص : ٤٧٣ .

(٤) المفهم : ١١٨/١ .

(٥) سبق . انظر : ص : ٤٧٣ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٨٤/٢ - ١٨٥ . ذكر فيه بعض العلوم التي لا

يحدث بها . فتح الباري : ٣٠٤/١ .

وقال أبو قلابة رضي الله عنه :

" لا تحدّث بحديث من لا يعرفه ، فإنّ من لا يعرفه يضرّه ولا ينفعه " (١) .

وقال هشام بن عروة ^(٢) (رحمه الله) :

" ما حدّثت أحداً بشيءٍ من العلم قطّ لم يبلغه علمه إلّا كان ضلالاً عليه " (٣) .

ويدخل في ذلك كتمان أبي هريرة رضي الله عنه لبعض الأحاديث التي تؤدي بتبليغها إلى إثارة الفتنة . حيث يقول : " حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وعاءين : فأما أحدهما فببنته ، وأما الآخر فلو ببنته قطع هذا البلعوم " (٤) .

وقد حمل العلماء ذلك على الأحاديث التي فيها تبين أسماء أمراء السوء ، وأحوالهم ، وزمنهم ، وليست من أحاديث الأحكام ، لأنّه لا يسعه كتمانها (٥) .

ومن ذلك أيضاً أمرُ النبيّ صلى الله عليه وآله بالصبر على جور الأئمة وظلمهم ، وعدم الخروج عليهم ما أقاموا الصلّة . لما يترتب عليه من مفسد عظيمة تبلغ أضعاف ما ارتكبه من مخالفات ومعاصي .

عن عبادة بن الصّام رضي الله عنه قال : دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فَبَايَعَنَا فَكَانَ فِيْمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ (٦)

(١) جامع بيان العلم : ص : ٢١٣ .

(٢) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام . أبو المنذر وقيل : أبو عبد الله . القرشي الأسدي الزبيري المدني . تابعي صغير . إمام حافظ . فقيه . حجة ثبت . متقن كثير الحديث . من أهل الورع والفضل . وربما دلّس . توفي سنة : ١٤٦هـ .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٣٢١/٧ . طبقات خليفة : ص : ٢٦٧ . التاريخ الكبير : ١٩٣/٨ . معرفة الثقات : ٣٣٢/٢ . الجرح والتعديل : ٦٣/٩ . ثقات ابن حبان : ٥٠٢/٥ . مشاهير علماء الأمصار : ٨٠/١ . تاريخ بغداد : ٣٧/١٤ . التعديل والتجريح : ١١٧١/٣ . تهذيب الكمال : ٢٣٢/٣٠ . تذكرة الحفاظ : ١٤٤/١ . الكاشف : ٣٣٧/٢ . جامع التحصيل : ص : ٢٩٣ . التبيين لأسماء المدلسين : ص : ٢٢٧ . تهذيب التهذيب : ٤٤/١١ . تقريب التهذيب : ٥٧٣/١ . لسان الميزان : ٤١٩/٧ . طبقات المدلسين : ص : ٢٦ .

(٣) جامع بيان العلم . ص : ٢١٣ .

(٤) سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٩ .

(٥) انظر : فتح الباري : ٢٩٢/١ - ٢٩٣ .

(٦) الأثرة : بفتح الهمزة والناء الاسم من أثر يؤثر إثارة إذا أعطي . أراد أنّه يستأثر عليهم فيفضل غيرهم في نصيبه من الفيء . والاستئثار الانفراد بالشيء . النهاية في غريب الحديث : ٢٢/١ . بتصرف يسير .

عَلَيْنَا وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ قَالَ : " إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا ^(١) عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ " ^(٢) .

قال النووي (رحمه الله) :

" ومعنى الحديث : لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام ، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم ^(٣) ، وقلوا بالحق حيث ما كنتم . وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين ... وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن ، وإراقة الدماء ، وفساد ذات البين ، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقاءه " ^(٤) .

وعن أم سلمة (رضي الله عنها) زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : " إنه يستعمل عليكم أمراء ، فتعرفون وتتكرون ، فمن كرهه فقد برئ ، ومن أنكره فقد سلم ، ولكن من رضي وتابع " . قالوا : يا رسول الله : ألا نقاتلهم ؟ قال : " لا ، ما صلوا " . أي من كرهه بقلبه وأنكره بقلبه ^(٥) .

(١) بواحاً : يريد ظاهراً بادياً . ومنه قولهم باح بالشيء يوح به : إذا أذاعه وأظهره .

انظر: غريب الحديث للخطابي: ١/٦٩٠ . وانظر : الفائق: ١/١٣٣ . غريب الحديث لابن الجوزي: ١/٩٠ .

النهاية في غريب الحديث : ١/١٦١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه — إلا أحرف يسيرة — في كتاب الفتن : (٦٧/٩٢) . باب قول النبي ﷺ : " سترون

بعدي أموراً تنكرونها " : (٢) . برقم: (٧٠٥٦) . ص: ١٤٩٠ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية . وتحريمها في المعصية:

(٨) . برقم: (١٧٠٩) . ٣/١٤٧٠-١٤٧١ .

(٣) ليس الإنكار على إطلاقه . وإنما هو مقيد بقاعدة جلب المصلحة ودفع المفسدة . وأن يكون بالحسنى واللين

والرفق . وأن يكون سرّاً بينك وبينه .. إلخ الضوابط والشروط التي وردت في هذا السياق . والله أعلم .

(٤) شرح النووي على مسلم : ٢٢٩/١٢ .

(٥) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع . وترك

قتالهم ما صلوا . ونحو ذلك : (١٦) . برقم: (١٨٥٤) . ٣/١٤٨١ . ونحوه في: ٣/١٤٨٠ .

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : " خيار أئمتكم الذين تحبّونهم ويحبّونكم ، ويصلّون عليكم وتصلّون عليهم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم " قيل : يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف (١) ؟ فقال : " لا ، ما أقاموا فيكم الصلّاة ، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ، ولا تنزعوا يداً من طاعة " (٢) .

فقد أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأئمة وعدم الخروج عليهم وقتالهم . وهو أصل من أصول أهل السنة والجماعة خلافاً لأهل الأهواء والبدع الذين يرون قتال الأئمة من أصول دينهم ، ويسمّونه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد يوجب الخروج عليهم وقتالهم من الظلم والفساد أكثر من ظلمهم وفسادهم (٣) .

وولاية الأمر يُنصَحون ويبين لهم الحق كما جاء عنه ﷺ في حديث تميم الداري رضي الله عنه (٤) . ولا يداهنوا ، ولا يُطروا بالباطل ، بل ينصحوا دون تصنع ولا ملق . ويجتنب في نصحتهم الكلام بحضرة الناس ، ويكون في خلوة إبقاء لحرمتهم ، وحفظاً لمقامهم ، لأنّ المجاهرة بالإنكار والقيام عليهم يطرأ عنه عظيم الفتن وبالغ المفاصد ، وقد تأخذهم العزّة بالإثم فيزداد شرّهم ، ويعظم فسادهم .

وقد صحّ عنه ﷺ أنّه قال : " من أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبد له علانية ، ولكن ليأخذ بيده ، فيخلو به ، فإن قبل منه فذاك ، وإلا كان قد أدّى الذي عليه له " (٥) .

(١) أي نقاتلهم على طريق مستقيم مستو في العلم بالمناظرة منّا ومنهم . بأن نظهر لهم العزم على قتالهم ونخبرهم به إخباراً مكشوفاً . والتبد يكون بالفعل والقول في الأجسام والمعاني .

التهاية في غريب الحديث : ٦/٥ . بتصرف يسير .

(٢) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب خيار الأئمة وشرارهم : (١٧) . برقم : (١٨٥٥) . ١٤٨١/٣ . و بلفظ مقارب في : ١٤٨٢/٣ .

وانظر : معاني الأحاديث في : المفهم : ٦٤/٤ - ٦٦ . شرح التتوي على مسلم : ٢٤٢/١٢ - ٢٤٤ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى : ١٧٩/٢٨ - ١٨٠ . الوصايا في الكتاب والسنة . ص : ٥٩ .

(٤) الحديث سبق . انظر . ص : ٤٥٥ .

(٥) مسند أحمد : بلفظه في : ٤٠٣/٣ - ٤٠٤ . عن عياض بن غنم رضي الله عنه . قال الهيثمي في مجمع الزوائد :

" ورجاله ثقات " : ٢٢٩/٥ .

وعن أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) أنه قيل له : ألا تدخل على عثمان فتكلمه ؟ فقال : أترون أنني لا أكلّمه إلا أسمعكم ^(١) ؟ والله لقد كَلَّمته فيما بيني وبينه ، ما دون أن أفتح أمراً لا أحبّ أن أكون أوّل من فتحه ... الحديث " ^(٢) .

هذه نماذج وغيرها كثير يستتير بها الدّعاة في تطبيق قاعدة الموازنات بين الحسنات والسيّئات ، والمصالح والمفاسد في واقع الدّعوة .

والأمر مع الحاجة إليه ليس سهلاً يقتحمه كلّ مَنْ نصّب نفسه داعية إلى الله ، فيزن الأمور بما يراه أو يهواه بعيداً عن النّصوص والقواعد العامّة ، خاصّة وأنّ هذا الباب من المزالق التي ينجرّف بها كثير من الدّعاة عن جادة الطّريق ، لأنّه موطن يسرع فيه الهوى إلى النفوس ، فتضعف أمام المصالح الخاصّة .
فالميزان لا يكون بالأهواء والاجتهادات التي لا تستند إلى دليل من الشّرع .

وله شاهد عند أحمد في المسند أيضاً من حديث ابن أبي أوفى رضي الله عنه موقوفاً في : ٣٨٢/٤ . قال الهيثمي : " ورجال أحمد ثقات " . ٣٣٠/٥

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ٣٢٣/٣ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .
كتاب السنّة لابن أبي عاصم الضّحاک بن مخلد الشّيباني ومعه ظلال الجنة في تخريج السنّة للشّیخ الألبانی . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة : الثّانية : ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م : وله عنده بطرق عن عیاض بن غنم رضي الله عنه برقم: (١٠٩٦ - ١٠٩٨) قال الألبانی (رحمه الله): " فالحديث صحيح بمجموع طرقه والله أعلم " .
٥٠٨ - ٥٠٧ / ٢

(١) أي : أتظنون أنني لا أكلّمه إلا وأنتم تسمعون . شرح التّووي على مسلم : ١١٨/١٨ .

(٢) سبق . انظر : ص : ٤٩٧ .

قال التّووي (رحمه الله) :

" قوله : " افتح أمراً لا أحبّ أن أكون أوّل من فتحه " : يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ كما جرى لقتلة عثمان رضي الله عنه . وفيه الأدب مع الأمراء واللّطف بهم ووعظهم سرّاً . وتبليغهم ما يقول الناس فيهم لينكفوا عنه " . شرح التّووي على مسلم : ١١٨/١٨ . وانظر المفهم : ٦١٩/٦ - ٦٢٠ .

ولو أخذ كثير ممّن يعمل في حقل الدّعوة بهذا المبدأ لأراحوا الأمتة من كثير من الشرور والفتن التي بلغت أوجها في هذا العصر ، من سفك للدماء ، وقتل للأبرياء ، وإحداث للفوضى .

ومنايذة السّلطان بهدف الوصول إلى الإصلاح مسلك عقيم الجدوى ، قليل الفائدة ، بل قد يذهب ما في الأيدي ، دك أن يوصل إلى مكاسب ، وهو محفوف بالمخاطر ، محاط بالعقبات ، ولم نر من سلوكه وصلوا به إلى ما تقرّ به الأعين ، بل قُتلوا وشُرّدوا وتعطلت الدّعوة في مناحي شتى . والواقع خير شاهد .
فالسّير بالدّعوة ليس حماساً يدفع ، ولا عاطفة تجمع ، وإنما هو منهج ثابت ، وفقه مستوعب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة . فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها ، وإلاّ اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر ، وقلّ أن تُعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالاتها على الأحكام " (١) .

فهو يحتاج من الدّاعية إلى علم شرعي مستوعب ، وفقه مستنير ، ومعرفة بمقاصد الشرع ومقادير المصالح والمفاسد ، وتحققها بعيداً عن الظّن والتّوهم والتّخمين ، متجنباً للهوى وحظوظ النفس . وإلاّ كان فسادُه أعظم ، وانحرافه أكبر حين يتّسع عليه الخرق ، وتتشعب أمامه الآراء ، وتضطرب القواعد فيعجز عن لمّ شعثها ، ونظم عقدها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وهذا باب التعارض باب واسع جداً ، لا سيّما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة ، فإنّ هذه المسائل تكثُر فيها ، وكلّما ازداد النّقص ازدادت هذه المسائل ، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمّة ، فإنّه إذا اختلطت الحسنات بالسّيّئات وقع الاشتباه والتّلازم ، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجّحون هذا الجانب وإن تضمّن سيّئات عظيمة ، وأقوام قد ينظرون إلى السيّئات فيرجّحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة .

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ص : ٢٣ . مجموع الفتاوى : ١٢٩/٢٨ .

وفي قوله رحمه الله لفئة انتباه لصغار طلاب العلم الذين جهلوا كثيراً من أحكام الشرع ، بل جهلوا كثيراً من الأصول الواضحة البينة لقلة بضاعتهم من نصوص الوحي ، وانشغالهم بغيرها من العلوم الأخرى ، ثمّ وجّها هذا الباب الخطير ليصلوا من خلاله إلى أهداف وغايات تكتنفها الأهواء ، وتحيط بها المقاصد الخاصّة ، والرغبات الحابطة . وإن وجّها رفعوا عقائدهم بشنّنة طالما سمعت من أخزم : " من أجل مصلحة الدّعوة " . حتّى أصبحت مصلحة الدّعوة صهرة تغطّي لكلّ غرض وهدف رخيص .

والمُتوسِّطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يَتَّبِعِينَ لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة ، أو يَتَّبِعِينَ لهم فلا يجدون من يعينهم العمل بالحسنات وترك السيئات ، لكون الأهواء قارنت الآراء " (١) .

فالدّاعية وهو يسير بدعوته عليه مراعاة المصالح والمفاسد في أمره ونهيّه ، فإن كان في ما يأمر وينهى مصلحة خالصة ، أو مصلحة أعظم ، أمر ونهى . وإن ترتّب على ذلك مفسدة خالصة أو مفسدة أعظم كفّ عن الأمر أو النهي ، وإن استوتا أو اشتبه الأمر توقّف حتّى يَتَّبِعِينَ له . وهو بذلك يضمن سلامة الطريق ، واستمرارية السير ، ومواصلة الدّعوة وثباتها بعيداً عن الهزّات والكبوات .

(١) مجموع الفتاوى : ٥٧/٢٠ - ٥٨ .

المبحث السادس

حسن الخلق

الخلق والخلق : السجية والطبع والمروءة والدين^(١) . والخلق والخلق في الأصل واحد وهو : التقدير ، ولكن خصّ الخلق بالهيئات والأشكال والصّور المؤدّكة بالبصر ، وخصّ الخلق بالقوى والسّجاياء المدركة بالبصيرة^(٢) . وفي الاصطلاح :

الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها ، تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سمّيت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصّادر عنها الأفعال القبيحة سمّيت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً^(٣) .

وحسن الخلق سجية كريمة ، وصفة حميدة ، وسلوك مستقيم . أمر الله الدعاة إليه أن يتحلّوا به في قولهم وفعلهم ، وأمرهم ونهيهم ، لما له من آثار فاضلة ، وثمرات يانعة ، وعواقب محمودة .

فقال تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣] . أي كَلِّمُوهُمْ طَيِّباً ، ولينوا لهم جانباً . ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٤) . وهذا حضّ منه سبحانه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم^(٥) .

وقال جلّ في علاه : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ

يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣] .

(١) القاموس المحيط . ص : ١١٣٧ .

(٢) المفردات . ص : ١٥٧-١٥٨ . بتصرف يسير .

(٣) إحياء علوم الدين . على هامشه : إتحاف السّادة المتّقين للزّيدي . الطّبعة الأولى : ١٤٠٩هـ — ١٩٨٩م . دار الكتب العلميّة . بيروت . ٦٠٧/٨-٦٠٨ . وعنه ذكره الجرجاني في التعريفات . ص : ١٣٦ .

(٤) تفسير القرآن العظيم : ١/١٨٠ .

(٥) وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٦/٢ .

وهذا أمر بكلّ كلام يقرب إلى الله ، من قراءة ، وذكر ، وعلم ، وأمر
بمعروف ، ونهي عن منكر ، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم
ومنازلهم ، وإنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين ، فإنه يأمر بإيثار أحسنهما ، إن لم
يمكن الجمع بينهما .

والقول الحسن : داع لكلّ خلق جميل ، وعمل صالح ، فإن من ملك لسانه
ملك جميع أمره^(١) .

وقال عز وجل : ﴿ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦] .

وفي الآية الثانية : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
فَإِذَا لَدَىٰ بَيْنِكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥] (٢) .

وهذا توجيه إلى عباد الله جميعاً وعلى رأسهم الدعاة إلى الله أن يتسموا
بمكارم الأخلاق ، فيحسنوا إلى من أساء ، ويحلموا على من جهل ، ويعفوا عمن
ظلم ، ويصبروا على ذلك ، فإن القلوب القاسية ، والطبائع الشرسة تنقاد بالإحسان ،
وتتأثر بالكلمة الطيبة ، والعبارة اللطيفة ، والمعاملة الحسنة ما لا تتأثر بسواها .
وقد بينت الأحاديث مقام صاحب الخلق الحسن ، ومنزلته عند ربه ، وفضيلته
على غيره . من ذلك :

(١) تيسير الكريم الرحمن . ص : ٤١١ .

(٢) قال ابن القيم (رحمه الله) :

" أمره في دفع عدوه من شياطين الإنس . بأن يدفع بالتي هي أحسن . فيقابل إساءة من أساء إليه بالإحسان .
وجعله بالحلم . وظلمه بالعفو . وقطيعته بالصلة . وأخبره أنه إن فعل ذلك عاد عدوه كأنه ولي حميم " .

زاد المعاد : ١٦١/٣

﴿ إِنَّهُ مَتَخَلَّقٌ بِأَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ .

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: " كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً ... الحديث " (١)
وذكر عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) رسول الله ﷺ فقال : " لم يكن
فاحشاً ولا متفحشاً " (٢) . وقال : قال رسول الله ﷺ : " إن من خياركم أحاسنكم
أخلاقاً " (٣)

قال النووي (رحمه الله) :

" فيه الحث على حسن الخلق وبيان فضيلة صاحبه ، وهو صفة أنبياء الله
تعالى وأوليائه " (٤) .

(١) صحيح البخاري: بلفظه — إلا إنه قال كان النبي ﷺ — في : كتاب الأدب : (٥٢/٧٨). باب الكنية للصبي

قبل أن يولد للرجل: (١١٢). برقم: (٦٢٠٣) ص: ١٣٢٤.

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب المساجد ومواضع الصلاة: (٥). باب جواز الجماعة في التأفلة: (٤٨). برقم:

(٦٥٩). ٤٥٧/١. وفي كتاب الآداب : (٣٨). باب استحباب تخنيك المولود عند ولادته: (٥). برقم:

(٢١٥٠). ١٦٩٢/٣. وفي كتاب الفضائل: (٤٣). باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً : (١٣). برقم:

(٢٣١٠). ١٨٠٥/٤.

(٢) الفُحْشُ و الفَحْشَاءُ و الفاحشة : القبيح من القول والفعل وجمعها الفَوَاحِش . و الْمُتَفَحِّشُ الَّذِي يَتَكَلَّفُ سَبَّ

الناس و يَتَعَمَّدُهُ . انظر : لسان العرب : ٣٢٥/٦.

قوله: " لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً " : أي لم يكن ناطقاً بالفحش وهو الزيادة على الحد في الكلام السيئ .

والمُتَفَحِّشُ المتكلف لذلك . أي لم يكن له الفحش خلقاً ولا مكتسباً . انظر : فتح الباري : ٥٧٥/٦ .

طبعة المعرفة . و انظر : شرح التتوي على مسلم : ٧٨/١٥ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب صفة النبي ﷺ : (٢٣). برقم:

(٣٥٥٩). ص: ٧٥١. وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً : (٣٨).

برقم: (٦٠٢٩). ص: ١٢٩٤. وفي باب حسن الخلق والسخاء: (٣٩). برقم: (٦٠٣٥). ص: ١٢٩٥. ونحوه

في: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (المناقب): (٣٧/٦٢). باب مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (٥٧/٢٧).

برقم: (٣٧٥٩). ص: ٧٨٩.

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الفضائل: (٤٣). باب كثرة حياته ﷺ : (١٦). برقم: (٢٣٢١). ١٨١٠/٤.

(٤) شرح التتوي على مسلم : ٧٨/١٥

﴿ إِنَّهُ أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا ﴾ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنَهُمْ خَلْقًا ، وَخِيَارَكُمْ خِيَارَكُمْ لِنِسَائِهِمْ خَلْقًا " (١) .

﴿ إِنَّهُ يَدْرِكُ بِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ ﴾ :

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَدْرِكُ بِحَسَنِ خَلْقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ " (٢) .

(١) سنن أبي داود: بلفظ مقارب في: كتاب السنّة: (٣٩). باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: (١٥). برقم:

(٤٦٨٢). قال الألباني (رحمه الله): " حسن صحيح " . ص: ٥١٠ .

سنن الترمذي: بلفظه في: كتاب الرّضاع: (٩). باب ما جاء في حقّ المرأة على زوجها: (١١). برقم:

(١١٦٢). وقال: " هذا حديث حسن صحيح " . وقال الألباني (رحمه الله): " حسن صحيح " . ص: ٢٠٦ .

وبلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (٣٧). باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه: (٦). عن عائشة

(رضي الله عنها) . برقم: (٢٦١٢) . وقال: " حسن " . وقال الألباني (رحمه الله): " ضعيف " . ص: ٤٢٤ .

سنن ابن ماجه: روي آخره في كتاب التّكاح: (٩). باب حسن معاشرّة النساء: (٥٠). عن عبد الله بن عمرو

(رضي الله عنهما) . برقم: (١٩٧٨). قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٢١٤ .

سنن الدارمي: الجزء الأوّل منه بلفظه في: باب في حسن الخلق: ٤١٥/٢-٤١٦ .

سنن البيهقي: أوّل بلفظه في: باب بيان مكارم الأخلاق ومعالجها. ١٩٢/١٠ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢٥٠/٢ . ٤٧٢ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . برقم:

(٧٣٩٦) . (١٠١١٠) . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٣/١٣٣ . ١٢٨/١٩ . وأخرج جزء منه بلفظه في:

٥٢٧/٢ . ونحوه في: ٩٩، ٤٧/٦ . عن عائشة (رضي الله عنها) .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: الجزء الأوّل منه بلفظه في: باب ذكر البيان بأنّ من أكمل المؤمنين إيماناً من

كان أحسن خلقاً . برقم: (٤٧٩) . قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده حسن " . ٢٢٧/٢ . و بلفظه — إلّا قوله

" خلقاً " — في آخره . في باب معاشرّة الزوجين . برقم: (٤١٧٦) . ٤٨٣/٩ .

مستدرک الحاکم: أوّل بلفظه في: ٤٣/١ . وقال: " هذا حديث صحيح ولم يخرج في الصحيحين وهو صحيح على

شرط مسلم " .

مسند أبي يعلى: أوّل بلفظه في: ٢٣٧/٧ . برقم: (٤٢٤٠) . عن أنس رضي الله عنه .

(٢) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب الأدب: (٤٠) . باب في حسن الخلق: (٧) . برقم: (٤٧٩٨) . قال الألباني

(رحمه الله): " صحيح " . ص: ٥٢٣ .

موطأ مالك: نحوه . بلاغاً . في كتاب حسن الخلق: (٤٧) . باب ما جاء في حسن الخلق: (١) . برقم: (٦) .

٩٠٤/٢ .

﴿ إِنَّهُ يَنْقَلُ بِهِ مِيزَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت النَّبِيَّ ﷺ قال : " ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإنَّ الله ليبغض الفاحش البذيء " (١) .

والأدلة على حسن الخلق وفضله كثيرة جداً يضيق هذا المقام عن حصرها .
والمراد أن الدّاعية عليه أن يتحلّى بالصفات الحميدة والسّجايا الكريمة فيكون رخب الصّدر ، حسن الحديث ، بشوش الوجه ، لطيف المعاملة ، رقيق العبارة ليكون قريباً من المدعوّين محبوباً لديهم .

فحسن خلقه يصلح بينه وبين النَّاس ، ويدعوهم لمحبتّه . (٢)

مسند أحمد: بلفظه في : ١٨٧/٦ . إلّا أنّه قال: " إنَّ الرَّجُلَ " . و بلفظ مقارب في: ١٣٣،٩٠/٦ . ونحوه في:

١٧٧/٢ ، ٢٢٠ . عن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " .

برقم: (٦٦٤٨) . (٧٠٥٢) . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٣٤/١٠ ، ١٤/١٢ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب في: باب ذكر رجاء نوال المرء بحسن الخلق درجة القائم ليله

الصّائم ثواره . برقم: (٤٨٠) . ٢٢٨/٢ .

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ١٢٨/١ . وقال : " هذا حديث على شرط الشّيعين ولم يخرجاه " . وقال

الذهبي (رحمه الله): " على شرطهما " . ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه في : ١٢٨/١ . قال الذهبي (رحمه الله): " على

شرط مسلم " .

مسند أبي يعلى: نحوه عن أنس رضي الله عنه . برقم: (٤١٦٦) . قال المحقق: " رجاله رجال الصّحيح " . ١٨٤/٧ .

(١) سنن أبي داود: نحوه منه في كتاب الأدب : (٤٠) . باب في حسن الخلق: (٧) . برقم: (٤٧٩٩) . قال الألباني

(رحمه الله): " صحيح " . ص: ٥٢٢ .

سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب البر والصّلة : (٢٤) . باب ما جاء في حسن الخلق : (٦٢) . برقم: (٢٠٠٢) .

وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ونحوه برقم: (٢٠٠٣) .

وقال : " هذا حديث غريب من هذا الوجه " . وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٣٣٤ .

سنن البيهقي: نحوه في: باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها . ١٩٣/١٠ .

مسند أحمد: نحوه في: ٦/٤٤٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: نحوه في: باب ذكر البيان بأن الخلق الحسن من أثقل ما يجد المرء في ميزانه

يوم القيامة . برقم: (٤٨١) . ٢٣٠/٢ .

مسند أبي داود الطيالسي: نحوه في: ص: ١٣١ . برقم: (٩٧٨) .

(٢) انظر : الفوائد : ص : ٥٤ .

كما يدعوهم للالتفاف من حوله ، والاستماع لنُصحه ، والاستجابة لإرشاده .
بل القلوب النّافرة والنّفوس الشّاردة تميل إليه ، وتصغي إلى حديثه .

وفي ذلك يقول الماوردي (رحمه الله):

" إذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مُصافؤه ، وقلّ مُعادوه ، فتسهّلت عليه الأمور الصّعاب ، ولانت له القلوب الغضاب " (١) .

فحسن الأخلاق عامل مؤثر في استمرارية الدّعوة لأنّه يجذب قلوب النّاس إلى الدّاعي ، ويربطهم به وبدعوته .

وهناك بعض الأخلاق الحسنة الّتي لها صلة وثيقة بالدّعوة ، وأثر بالغ في ثبات الدّاعية واستمراره في التّمسك بدعوته متى ما تحلّى بها . أوجزها في المطالب الأربعة الآتية :

(١) كتاب أدب الدّنيا والدّين . لأبي الحسن علي بن محمّد بن حبيب البصري الماوردي . طبع المطبعة الأميرية . القاهرة . الطّبعة الرّابعة عشرة : ١٣٤١هـ — ١٩٢٣م : ص : ٢١٦ .

﴿المطلب الأول﴾

الرفق

الرفق هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل ، وهو ضدّ العنف ^(١) .

قال الغزالي (رحمه الله) :

" اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة . والعنف نتيجة الغضب والفظاظة ، واللين نتيجة حسن الخلق والسلاسة " ^(٢) .

وقد مدح الله سبحانه رسول الله ﷺ بركة القلب ولين الجانب ، وحسن الرفق فقال : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ

عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

أي إن الله منّ عليك برحمة منه كانت سبباً أن ألنت لأصحابك جانبك ، وخففت لهم جناحك ، وترققت عليهم ، وحسنت لهم خلقك ، فاجتمعوا عليك ، وأحبوك ، وامتنلوا أمرك . ولو كنت سيئ الخلق ، قاسى القلب لنفّرهم هذا عنك . لأنّ لين الجانب وحسن الخلق يؤدي إلى التأليف وجذب العباد لدين الله ^(٣) . وهذا في شأن رسول الله ﷺ ، فكيف بالدعاة سواه ؟

(١) فتح الباري : ٦٤/١٢ .

(٢) إحياء علوم الدين بهامشه إتحاف السادة المتقين : ٤٦٩/٩ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن . ص : ١٢١-١٢٢ بتصرّف . وانظر : في ظلال القرآن : ٥٠٠/١-٥٠١ .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

"واللفظ : الغليظ . المراد به هاهنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك ﴿ غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ أي لو كنت سيئ

الكلام ، قاسى القلب عليهم ، لانفضوا عنك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك ، وألان جانبك لهم تأليفاً

لقلوبهم " . تفسير القرآن العظيم : ٦٢٩/١ .

وقال تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام : ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝ قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَىٰ ۝ ﴾ [طه: ٤٣-٤٦].

أي : اذهبا إلى هذا الذي جاوز الحد في كفره وطغيانه ، وظلمه وعدوانه ، فقولا له قولاً سهلاً لطيفاً ، برفق ولين وأدب في اللفظ ، دون فحش ولا صلف^(١) ، ولا غلظة في المقال أو فظاظة في الأفعال ، لعلّه يذعن إلى الحق ، ويخشى عقاب الرب . والقول اللين قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزْكَىٰ ۝ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝ ﴾ [التازعات: ١٨-١٩] فإن فيه من لطف القول ، وسهولته ، ولين جانبه ، وعدم بشاعته ما لا يخفى على من تأمله^(٢) .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهو إن فرعون في غاية العتوّ والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين " (٣) .

وقال ابن العربي (رحمه الله) :

" فيه — أي في فوائد الآية — جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللين لمن معه القوة ، وضُمِنَت له العصمة ، ألا تراه قال لهما : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾

(١) الصِّلَف : مجاوزة القدر في الظرف والبراعة والادعاء فوق ذلك تكبراً . لسان العرب : ١٩٦/٩ . وانظر :

القاموس المحيط : ص : ١٠٧٠ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن . ص : ٤٥٥ . بتصرف .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٢٤٦/٣ .

ولا تخافا ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ " (١) .

ولما كان الرِّفق ذا آثار حميدة في كسب الناس ، وتأثير عظيم على النفوس ، حيث تنجذب إلى صاحبه ، وتلتفّ حول من يتسم به ، وتتساق لأقواله ، وتتأسى بأفعاله دعا الرّسول ﷺ المؤمنين للتّحلي والتّخلق به ، مبيّناً لهم ثمراته ونتائجه .
من ذلك :

﴿ حبّ الله له ، وعظيم ثوابه عليه :

عن عائشة (رضي الله عنها) زوج النّبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " يا عائشة إنّ الله رفيق يحبّ الرّفق ، ويعطي على الرّفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على ما سواه " (٢) .

(١) أحكام القرآن : ١٢٦٠/٣ . زاد القرطبي (رحمه الله) : " فكيف بنا فنحن أولى بذلك . وحينئذ يحصل الأمر والتّاهي على مرغوبه . ويظفر بمطلوبه . وهذا واضح " . الجامع لأحكام القرآن : ١٩٩/١١ .

وقال الألويسي (رحمه الله) : " قُرِأتُ عند يحيى بن معاذ فبكى . وقال : " إني هذا رفقتك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقتك بمن يقول أنت الله " . وفيها دليل على استحباب إلانة القول للظالم عند وعظه " روح المعاني : ١٩٥/١٦ . وانظر معنى الآيات في : جامع البيان : ١٦٨/١٦ - ١٧٠ . التفسير الكبير : ٥٨-٥٩/٢٢ . فتح البيان : ٢٣٥-٢٣٦/٨ . محاسن التّأويل : ٤١٨١/١١ - ٤١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري: طرفاً منه في كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب الرّفق في الأمر كلّه : (٣٥) . برقم: (٦٠٢٤) . ص: ١٢٩٣ . وفي كتاب استنابة المرتدّين : (٦٣/٨٨) . باب إذا عرض الدّمي وغيره بسبّ النّبي ﷺ ولم يصرّح : (٤) . برقم: (٦٩٢٧) . ص: ١٤٦٢ . ونحواً منه في كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب لم يكن النّبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً : (٣٨) . برقم: (٦٠٣٠) . ص: ١٢٩٤ . وفي كتاب الاستئذان : (٥٣/٧٩) . باب كيف يردّ على أهل الذّمة السّلام: (٢٢) . برقم: (٦٢٥٦) . ص: ١٣٣٦ . وفي كتاب الدّعوات: (٥٤/٨٠) . باب الدّعاء على المشركين: (٥٨) . برقم: (٦٣٩٥) . ص: ١٣٦٢ . وفي باب قول النّبي ﷺ : " يستجاب لنا في اليهود ولا يستجاب لهم فيما " : (٦٢) . برقم: (٦٤٠١) . ص: ١٣٦٤ . صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥) . باب فضل الرّفق: (٢٣) . برقم: (٢٥٩٣) . ٢٠٠٤/٤ . ونحواً منه في كتاب السّلام : (٣٩) . باب التّهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسّلام . وكيف يردّ عليهم: (٤) . برقم: (٢١٦٥) . ١٧٠٦/٤ .

وقوله " يعطي على الرّفق ما لا يعطي على العنف " : أي يثيب عليه ما لا يثيب على غيره . أو يتأثي به من الأغراض ويسهل من المطالب ما لا يتأثي به غيره . شرح التّووي على مسلم : ١٤٥/١٦ .

﴿ دخول الخير عليه . فما يناله من الخير بمقدار ما يفعله من الرِّقِّق :
عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " من أعطي حظّه من الرِّقِّق فقد
أعطي حظّه من الخير ، ومن حرم حظّه من الرِّقِّق فقد حرم حظّه من الخير " (١) .
﴿ يحسن الأشياء ، ويجملها ، والبعد عنه يسيء إليها ويقبحها :
عن عائشة (رضي الله عنها) زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال : " إنّ الرِّقِّق لا
يكون في شيء إلّا زانه ، ولا ينزع من شيء إلّا شأنه " (٢) .

ورجّح ابن حجر (رحمه الله) القول الثاني . انظر : فتح الباري : ٦٤/١٢ . وانظر : المفهم : ٢٧٨/٦ . فقد ذكر
كلاماً قيماً في معنى الحديث .
(١) أصل هذا الحديث في صحيح مسلم : عن جرير رضي الله عنه بلفظ : " من يحرم الرِّقِّق يحرم الخير " . في كتاب البر والصلة
والآداب : (٤٥) . باب فضل الرِّقِّق : (٢٣) . برقم : (٢٥٩٢) . ٢٠٠٣/٤ .
سنن الترمذي : بلفظه في : كتاب البر والصلة : (٢٤) . باب ما جاء في الرِّقِّق : (٦٧) . برقم : (٢٠١٣) . وقال :
" هذا حديث حسن صحيح " . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " .
سنن البيهقي : نحوه في : باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها : ١٩٣/١٠ .
مسند أحمد : نحوه منه في : ٦ / ١٥٩ ، ٤٥١ . الموضع الثاني عن عائشة (رضي الله عنها) .
مسند أبي يعلى : بلفظ مقارب عن عائشة (رضي الله عنها) . برقم : (٤٥٣٠) . قال المحقق : " إسناده حسن " .
٢٤/٨ .

قال أبو حاتم ابن حبان (رحمه الله) :
" الواجب على العاقل لزوم الرِّقِّق في الأمور كلّها . وترك العجلة والحفّة فيها . إذ الله تعالى يحبّ الرِّقِّق في
الأمور كلّها . ومن منع الرِّقِّق منع الخير . كما أنّ من أعطي الرِّقِّق أعطي الخير . ولا يكاد المرء يتمكّن من بغيته في
سلوك قصده في شيء من الأشياء على حسب الذي يحبّ إلّا بمقارنة الرِّقِّق ، ومفارقة العجلة " .

وقال : " وأنشدني منصور بن محمد الكريزي :
الرِّقِّق أئمن شيء أنت تتبعه والخُرْقُ أشأم شيء يُقدّم الرّجلاً
وذو الثّبت من حمد إلى ظفر من يركب الرِّقِّق لا يستحقب الرّجلاً
روضة العقلاء : ص : ٣٥٣-٣٥٤ .

استحقب الشيء : جعله في حقيقته . كأنه يرجع به إلى أهله . انظر : هامش المرجع السابق : ص : ٣٥٤ .
(٢) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب البر والصلة والآداب : (٤٥) . باب فضل الرِّقِّق : (٢٣) . برقم : (٥٩٤) .
٢٠٠٤/٤ .

❦ تصيب دعوة الرسول ﷺ صاحبه :

وعنها (رضي الله عنها) قالت : سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيّتي هذا :
" اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقّق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي
شيئاً فرفق بهم فرفق به " (١) .

والأحاديث عنه ﷺ في شأن الرّقق كثيرة جداً . وقد امتثلته ﷺ في حياته
عملياً ليأخذ الدّعاة من ذلك العبرة ، ويرتشفوا من نميره الأسوة .

عن أنس بن مالك ﷺ قال : " جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد ، فزجره
النّاس ، فنهاهم النّبي ﷺ . فلما قضى بوله أمر النّبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق
عليه " (٢) .

لقد بال هذا الأعرابي في المسجد . وذلك أمر منكر لما يترتب عليه من إصابة
المسجد بالنّجاسة ، ولذا زجره النّاس ونهوه عن ذلك ، ولكنّ رسول الله ﷺ نهاهم
رفقاً به ، وتلطّفاً في تعليمه ، ولاسيّما وهو جاهل وقريب عهد بالإسلام ، وقد يؤدّي
ذلك إلى تنفيره وعوده إلى الكفر مرّة أخرى ، ولذا بالغ النّبي ﷺ في الرّأفة به .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" وفيه الرّقق بالجاهل ، وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف إذا لم يكن ذلك منه
عناداً ، ولاسيّما إن كان ممّن يحتاج إلى استئلافه . وفيه رأفة النّبي ﷺ وحسن
خلقه " (٣) .

وعن معاوية بن الحكم السّلميّ ﷺ قال : بينا أنا أصليّ مع رسول الله ﷺ ،
إذ عطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك الله ، فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت :
وَأَتَكُلُّ أُمِّيَّاهُ (٤) ، ما شأنكم تنظرون إليّ ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ،

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر: (٥) . برقم :

١٤٥٨/٣ . (١٨٢٨)

(٢) سبق . انظر: ص: ٥٢٠ .

(٣) فتح الباري : ٤٣٣/١ . وانظر : كتاب المنتقى شرح موطأ مالك : ١٢٩/١ . نيل الأوطار : ٥٣/١ - ٥٤ .

(٤) وَأَتَكُلُّ أُمِّيَّاهُ : التّكلُّ : فَقَدَ الْوَلَدَ . وامرأة تَأْكُلُ وَتَكْلَى . وَرَجُلٌ تَأْكُلُ وَتَكْلَانُ . التّهاية في غريب الحديث :

٢١٧/١

فلما رأيتهم يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَأْبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ ، فَوَ اللَّهِ مَا كَهَرَنِي^(١) وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي ، قَالَ : " إِنْ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلَحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ .. الْحَدِيثُ " (٢) .

فَفِي الْحَدِيثِ : بَيَانُ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عَظِيمِ الْخُلُقِ الَّذِي شَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ^(٣) ، وَرَفَقَهُ بِالْجَاهِلِ ، وَرَأْفَتَهُ بِأُمَّتِهِ وَشَفَقَتَهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِيهِ التَّخَلُّقُ بِخُلُقِهِ ﷺ فِي الرَّفْقِ بِالْجَاهِلِ وَحَسَنَ تَعْلِيمِهِ وَاللَّطْفَ بِهِ وَتَقْرِيبَ الصَّوَابِ إِلَى فَهْمِهِ^(٤) .
وَالرَّفْقُ هُوَ أَقْوَمُ سَبِيلَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ .

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ (رَحِمَهُ اللَّهُ) :

" يَنْبَغِي لِمَنْ أُمِرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهِيَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ فَقِيهًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ ، رَفِيقًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ رَفِيقًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ ، حَلِيمًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ حَلِيمًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ . فَالْفَقْهُ قَبْلَ الْأَمْرِ لِيَعْرِفَ الْمَعْرُوفَ وَيُنْكَرَ الْمُنْكَرَ ، وَالرَّفْقُ عِنْدَ الْأَمْرِ لِيَسْلُكَ أَقْرَبَ الطَّرِيقِ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ ، وَالْحِلْمُ بَعْدَ الْأَمْرِ لِيَصْبِرَ عَلَى أَذَى الْمَأْمُورِ الْمَنْهَى فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَحْصُلُ لَهُ الْأَذَى بِذَلِكَ " (٥) .
وَالدَّاعِيَةُ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى الرَّفْقِ ، إِذْ بَدُونَهُ لَا تَسْتَقِيمُ دَعْوَتُهُ ، وَلَا تَتَحَقَّقُ رَغْبَتُهُ ، وَلَا يَصِلُ إِلَى مَا يَصْبُو إِلَيْهِ ، وَلَا يَنَالُ بَغْيَتَهُ .

(١) كَهَرَنِي : الْكَهْرُ الْإِثْهَارُ . وَقَدْ كَهَرَهُ يَكْهَرُهُ إِذَا زَبَرَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ بِوَجْهِ عُبُوسٍ .

الْتِهَانَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ : ٢١٢/٤ . وَانْظُرْ : غَرِيبُ الْحَدِيثِ لِلْمُهْرَوِيِّ : ١١٥/١ . الْفَائِقُ : ٢٨٨/٣ .

(٢) صَحِيحُ مُسْلِمٍ : بَلْفُظُهُ فِي : كِتَابِ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ : (٥) . بَابُ تَحْرِيمِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ وَنَسْخِ مَا كَانَ

مِنْ إِبَاحَةٍ : (٧) . بِرَقْمٍ : (٥٣٧) . ٣٨١/١ - ٣٨٢ .

(٣) وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الْقَلَمُ : ٤] .

(٤) شَرْحُ التَّوْرِيِّ عَلَى مُسْلِمٍ : ٢٠/٥ .

(٥) مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى : ١٦٧/١٥ . وَانْظُرْ : ١٣٧/٢٨ . فَقَدْ نَسَبَهُ فِيهَا لِغَيْرِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ جَعَلَهُ مِنْ

الْمَرْفُوعِ .

ولذا قال النووي (رحمه الله) :

"وينبغي الأمر بالمعروف والنّاهي عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب" (١) .

فهو قد يفوت مطلوبه ومرغوبه بعدم رفقته ، وحينها لا يكون من دعوته فائدة ، ولا يقطف لها ثمرة ، فأولى به أن يكفّ . (٢) .

والغلظة والفظاظة في الدّعوة لا تؤدي إلى عاقبة محمودة ، بل تعكس صورة شوهاء لداعية الإسلام ، وتتفرّ النفوس عنه وإن كان قوله حقاً وصدقاً ، بل تورث العداوة بينه وبين المدعوين ، فيعيش منعزلاً بعيداً عن الناس ، بل قد تؤدي إلى ردود فعل بما تثيره من كوامن الشرّ في الإنسان فيكابر ويعاند ويردّ الحقّ مع وضوحه ، وهي تقذف القنوط واليأس في نفس الدّاعية . وهناك يعجز عن السّير ، وينقطع به المسير ، ويجانبه الثّبات ، ويخالفه الصّبر (٣) .

(١) شرح النووي على مسلم : ٢٤/٢ .

(٢) انظر : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ص : ٣٣ .

(٣) انظر في آثار الغلظة والفظاظة : أصول الدّعوة . ص : ٣٥٨ . طرق الدّعوة الإسلامية . ص : ١٨ . أخلاقية

الدّاعية . لعبد الله ناصح علوان . طبعة دار السلام . ص : ٢٧-٣٠ .

والغلظة قد تنفع أحياناً وذلك إذا وضعت في موضعها المناسب لها . لأنّ هنالك من الأمور ما لا يصلح معه إلا الغلظة . قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣] .

قال المتنبي :

ووضع التّدى في موضع السّيف بالعلی ***** مضرّ كوضع السّيف في موضع التّدى .

ديوان أبي الطّيب وبهامشه العرف الطّيب : ١٨٣/٢ .

قال الغزالي (رحمه الله) :

" الرّفق ... محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور . والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على التّدور . وإنّما الكامل من يميّز مواقع الرّفق عن مواقع العنف فيعطي كلّ أمر حقّه . فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرّفق ، فإن التحجّج معه في الأكثر " .

إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٤٧٨/٩ . وهذا تفصيل قيم .

بل الدّاعية النّاصح هو الذي يمتلئ قلبه رحمة وشفقة لعباد الله ، يسعى جاهداً لإنقاذهم وتخليصهم من هاوية الهلاك ، وهو في سبيل ذلك لا تستفزّه الإساءة ، ولا تحرّكه حظوظ النّفس ومعالجة الانتقام ، ولا يسأم من تعنّتهم وصدودهم وكثرة إعراضهم وجهلهم ، فإنّ رحمته بهم وشفقته عليهم عزاء له في كلّ ما يناله منهم من أذى .

وبذلك يصبر على دعوتهم ، ويثبت على إبلاغهم ، ويظلّ في مجاهدتهم دون كلل ولا ملل ، وهو يتذكّر قوله تعالى في رسوله ﷺ : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

فهو يرسل موعظته ، ويبعث نصحه في أسلوب رقيق جميل يحيط به الرّقق ، وتحفّه الرّحمة ، وتكلّله الشّفقة بعيداً عن القسوة والغلظة والجفاء والسّباب والشّتم ، فينزل على قلب المدعو برداً وسلاماً ، فيفتح له القلب ، وينشرح له الصّدر ، وتهتزّ له النّفس ، فيسري في الوجدان سريان الدّم في العروق ، والنّار في الهشيم ، فينساق صاحبه إلى الدّاعية ، وينجرّ لدعوته ، منصاعاً لأمره ، طائعاً لقوله ، مطبقاً لفعله ، فيسعد بذلك الدّاعية ، ويفرح بكسبه وهو يشاهد ثمار جهده ، ونتاج عمله ، فيدفعه إلى المزيد والسّعي الحثيث ، محافظاً على مسلكه ، مداوماً على نهجه .

﴿المطلب الثاني﴾

التيسير

التيسير من اليسر واليسر وهو السهل^(١) . فالتيسير هو التسهيل والأخذ باللين بعيداً عن المشقة والعنت .

وهو صفة ميّزت بها هذه الشريعة التي جاء بها المصطفى ﷺ على الشرائع السابقة .

حيث وضع الله عزّ وجلّ عن هذه الأمة كلّ ثقل في الأمم الماضية ، وأزاح عنها كلّ إصر^(٢) ، ورفع عنها كلّ مشقة .

قال سبحانه : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

[الأعراف: ١٥٧] .

وقال : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

وقال ﷺ : " بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ " ^(٣) .

وقال : " إِنَّ الدِّينَ يَسِرُ وَلَنْ يُشَادَّ ^(٤) الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلِبَهُ فَسَدَدُوا وَقَارَبُوا

(١) انظر : القاموس المحيط . ص : ٦٤٣ . المفردات . ص : ٥٥١-٥٥٢ .

(٢) الإِصْرُ: الْعَهْدُ الثَّقِيلُ .

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ أي ما عُقِدَ عُقْدٌ ثَقِيلٌ عَلَيْهِمْ مِثْلَ قَتْلِهِمْ أَنْفُسَهُمْ ، وما أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ قَرْضِ

الْجُلْدِ إِذَا أَصَابَتْهُ التَّجَاسَةُ . انظر : لسان العرب : ٢٣/٤ . وانظر : المفردات : ص : ١٨-١٩ .

(٣) صحيح البخاري: بمعناه — معلقاً — في كتاب الإيمان : (٢) . باب الدين يسر: (٣٠/٢٩) . ص: ٢٣ .

مسند أحمد : بلفظه — جزء من حديث — في : ٢٦٦/٥ . عن أبي أمامة ؓ . ونحوه في : ١١٦/٦ . عن

عائشة (رضي الله عنها) .

معجم الطبراني الكبير: بلفظه — جزء من حديث — في : ١٧٠/٨ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ .

(٤) المشادة : بالتشديد المغالبة . يقال شاده يشاده مشادة إذا قاراه . والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك

الرفق إلّا عجز وانقطع فيغلب . وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنّه من الأمور المحمودة ، بل منع الإفراط

المؤدّي إلى الملل ، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل ، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلي

الليل كلّه ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة ، أو إلى أن خرج الوقت

المختار أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة . فتح الباري : ٩٤/١ . طبعة دار المعرفة . بتصرف يسير .

وأبشروا واستعينوا بالغُدوة^(١) والروحة^(٢) وشيء من الدلجة^(٣) " (٤) .
 وقد أخذ رسول الله ﷺ بحظّ وافر من التيسير حتّى قالت عنه عائشة (رضي الله عنها) : " ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلّا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ... الحديث " (٥) .
 أي : إذا كان بين أمرين أو عرضت عليه مصلحتان جاز أن يفعل أحدهما اختار الأيسر ، أخذاً بالسهولة وتعليماً للأمة^(٦) .
 وذكر أبو ברزة الأسلمي ؓ : " أنه صحب النبي ﷺ فرأى من تيسيره " (٧) .

وقد كان ذلك دينه ﷺ ، لكمال رحمته ، وعظيم عطفه ، وبالغ إشفاقه على أمته ، وسعيه الدائم على إزالة العنت والمشقة عنها . وهو القائل : " لولا أن أشقّ

-
- (١) الغُدوة : المرّة من الغُدوّ وهو ما بين صلاة العداة وظلوع الشمس . انظر : النهاية في غريب الحديث : ٣/٣٤٦ .
 (٢) الروحة : هي المرّة من الرّواح . وهو ما بعد الزّوال . انظر : المرجع السابق : ٢/٢٧٣-٢٧٤ .
 (٣) الدلجة : يُقال أدلج بالتحفيف إذا سار من أوّل اللّيل ، وأدلج بالتشديد إذا سار من آخره ، والاسم مُثَمّا الدلجة والدلجة بالضمّ والفتح . ومنهم من يجعل الإدلاج ليل كلّ . انظر : المرجع نفسه : ٢/١٢٩ .
 (٤) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب الإيمان : (٢) . باب الدّين يسر : (٣٠/٢٩) . برقم : (٣٩) . ص : ٢٣ .
 عن أبي هريرة ؓ . وللوقوف على المزيد من بيان يسر الشريعة وسهولتها انظر : الموافقات : ١/٢٣٦ فما بعدها . تفسير القرآن العظيم : ٢/٤٠٤ . محاسن التأويل : ٧/٢٨٨١-٢٨٨٢ .
 (٥) صحيح البخاري : بلفظه : في كتاب المناقب : (٣٧/٦١) . باب صفة النبي ﷺ : (٢٣) . برقم : (٣٥٦٠) . ص : ٧٥١ . وفي كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب قول النبي ﷺ " يسّروا ولا تعسّروا " : (٨٠) . برقم : (٦١٢٦) . ص : ١٣١٠ . و بلفظ مقارب في : كتاب الحدود : (٦٠/٨٦) . باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله : (١٠) . برقم : (٦٧٨٦) . ص : ١٤٣٤ .
 صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الفضائل : (٤٣) مباحثته ﷺ للأثام : (٢٠) . برقم : (٢٣٢٧) . ٤/١٨١٣ .
 (٦) انظر : المفهم : ٦/١١٨-١١٩ .
 قال النووي (رحمه الله) : " فيه استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حراماً أو مكروهاً " .
 شرح النووي على مسلم : ٨٣/١٥ .
 (٧) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب قول النبي ﷺ : " يسّروا ولا تعسّروا " : (٨٠) . برقم : (٦١٢٧) . ص : ١٣١٠ .

على أمّتي أو على الناس لأمرتهم بالسّواك مع كلّ صلاة" (١) .
والقائل : " إنّي لأدخل الصّلاة أريد إطلالتها فأسمع بكاء الصّبي فأخفف من شدّة وجد
أمّه به " (٢) .

بل حرص ﷺ على أمر التّيسير تمام الحرص حتّى إنّه كان إذا بعث الدّعاة
إلى الله وصّاهم به كي لا ينفروا المدعوّين أو يشقّوا عليهم .
عن أبي موسى ﷺ أنّ النّبي ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقال : " يسّرا ولا
تعرّسا ، وبشّرا ولا تتفّرا ، وتطاوعا ولا تختلّفا " (٣) .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجمعة: (٥/١١) . باب السّواك يوم الجمعة: (٣٢٥/٨) . برقم: (٨٨٧) .
ص: ١٩٢-١٩٣ . وطرفاً منه بلفظه — ولم يقل : "أو على الناس" — في كتاب التّمني: (٦٩/٩٤) . باب ما
يجوز من اللّو: (٩) . برقم: (٧٢٤٠) . ص: ١٥٢٤ . عن أبي هريرة ﷺ .
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الطّهارة: (٢) . باب السّواك: (١٥) . برقم: (٢٥٢) . ٢٢٠/١ .
وانظر : كتاب المنتقى شرح الموطأ: ١٣٠/١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الأذان (الصّلاة) : (٥/١٠) . باب من أخفّ الصّلاة عند بكاء
الصّبي: (٢١٦/٦٥) . برقم: (٧٠٩) ، (٧١٠) . عن أنس ﷺ . ونحوه برقم: (٧٠٧) . عن أبي قتادة ﷺ .
وبرقم: (٧٠٨) . عن أنس ﷺ . ص: ١٥٨-١٥٩ . وفي باب انتظار الناس قيام الإمام العلّم: (٣١٤/١٦٣) .
برقم: (٨٦٨) . عن أبي قتادة ﷺ . ص: ١٨٩ .
صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الصّلاة: (٤) . باب أمر الأئمة بتخفيف الصّلاة في غمّ: (٣٧) . برقم:
(٤٧٠) . عن أنس ﷺ . ٣٤٣/١ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسير: (٣٢/٥٦) . باب ما يكره من التّنازع والاختلاف في
الحرب: (٦٣/١٦٤) . برقم: (٣٠٣٨) . ص: ٦٣٩ . و بلفظ مقارب في: كتاب المغازي: (٣٨/٦٤) . باب
بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجّة الوداع: (٦١/٦٠) . برقم: (٤٣٤٤) ، (٤٣٤٥) . ص: ٩٠٣ . وفي
كتاب الأدب: (٥٢/٧٨) . باب قول النّبي ﷺ : "يسّروا ولا تعسّروا" : (٨٠) . برقم: (٦١٢٤) . ص:
١٣١ . وفي كتاب الأحكام: (٦٨/٩٣) . باب أمر الوالي إذا وجّه أميرين إلى موقع : أن يتطاوعا ولا يتعاصيا :
(٢٢) . برقم: (٧١٧٢) . ص: ١٥١١ . وطرفاً منه بنحوه في كتاب المغازي: (٣٨/٦٤) . باب بعث أبي موسى
ومعاذ إلى اليمن قبل حجّة الوداع: (٦١/٦٠) . برقم: (٤٣٤١) . (٤٣٤٢) . ص: ٩٠٣ .
صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الجهاد والسير: (٣٢) . باب في الأمر بالتّيسير وترك التّنفير: (٣) . برقم:
(١٧٣٣) . ١٣٥٩/٣ . وطرفاً منه بنحوه في كتاب الأشربة: (٣٦) . باب بيان أنّ كلّ مسكر حمير: (٧) .
١٥٨٦/٣ .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يسرّوا ولا تعسّروا ، وسكّنوا ولا تنفّروا " (١) .

بل كان يغضب ﷺ أشدّ الغضب إذا خالف بعض أصحابه التيسير وشقّ على الناس .

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال :
إنّي لأتأخّر عن صلاة الصّبح من أجل فلان ، ممّا يطيل بنا . فما رأيت النّبيّ ﷺ
غضب في موعظة قطّ أشدّ ممّا غضب يومئذ ، فقال : " يا أيّها النّاس إنّ منكم
منفرّين فأيّكم أمّ النّاس فليوجز ، فإنّ من ورائه الكبير والضعيف وذو الحاجة " (٢) .
وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت : صنع رسول الله ﷺ أمراً فترخص
فيه ، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه ، فكأنّهم كرهوه وتنزّهوا عنه ، فبلغه ذلك ، فقام
خطيباً فقال : " ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه فكرهوه وتنزّهوا عنه ،
فو الله لأنّا أعلمهم بالله وأشدّهم له خشية " (٣) .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب قول النبي ﷺ : "يسرّوا ولا تعسّروا" : (٨٠) .

برقم: (٦١٢٥) . ص: ١٣١٠ . و بلفظ مقارب في: كتاب العلم : (٣) . باب ما كان النبي ﷺ يتحوّصم
بالموعظة والعلم كي لا ينفروا : (١١) . برقم: (٦٩) . ص: ٣٢ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير : (٣) . برقم:
(١٧٣٤) . ١٣٥٩/٣ . و بلفظ مقارب برقم: (١٧٣٢) . ١٣٥٨/٣ . عن أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب العلم : (٣) . باب الغضب في الموعظة والتعلّم إذا رأى ما يكره:

(٢٨) . برقم: (٩٠) . ص: ٣٧ . وفي كتاب الأذان (الصلاة) : (٥/١٠) . باب تخفيف الإمام في القيام . وإتمام

الركوع والسجود : (٢١٢/٦١) . برقم: (٧٠٢) . وفي باب من شكّا إمامه إذا طوّل : (٢١٤/٦٣) . برقم:

(٧٠٤) . ص: ١٥٨ . وفي كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله : (٧٥) .

برقم: (٦١١٠) . ص: ١٣٠٨ . وفي كتاب الأحكام : (٦٨/٩٣) . باب هل يقضي الحاكم أو يفتي وهو

غضبان : (١٣) . برقم: (٧١٥٩) . ص: ١٥٠٧ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الصلاة : (٤) . باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام : (٣٧) . برقم:

(٤٦٦) . ٣٤٠ / ١ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب من لم يواجه الناس بالعتاب : (٧٢) .

برقم: (٦١٠١) . ص: ١٣٠٦ . وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : (٧١/٩٦) . باب ما يكره من تعمّق

والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع : (٦/٥) . برقم: (٧٣٠١) . ص: ١٥٣٤ .

ففي هذه النصوص وغيرها الكثير دعوة حارة إلى القائمين بأمر الدعوة أن يلتزموا مبدأ التيسير في دعوتهم ، والتسهيل في إبلاغهم ، ولا يكونون وجوهاً كالحجة لدعوة الله ، منفّرين عنها ، مبغدين الناس عن طريقها ، صادّين عن الالتزام بها . فإنّ الدّاعية الميسّر محبوب لدى الخلق ، قريب من قلوبهم ، يلتفّون حوله ، يأخذون بقوله ، ممّا يعينه على المداومة ، ويعطيه القدرة على الاستمرار وعدم الانقطاع .

وعليه أن يتدرّج معهم في الأحكام فذلك أدعى لقبولهم ، وأكثر إعانة لهم وله على الثّبات .

قال النووي (رحمه الله) :

" وقد كانت أمور الإسلام في التّكليف على التّدرّج ، فمتى يسّر على الدّاخل في الطّاعة أو المريد للدّخول فيها سهلت عليه ، وكانت عاقبته غالباً التّرايد منها ، ومتى عسّرت عليه أو شك أن لا يدخل فيها ، وإن دخل أو شك أن لا يدوم ، أو لا يستحليها " (١) .

والدّاعية المتعنّت المتزمت تنفر منه طباع النّاس ، وتستثقله نفوسهم ، فيستوحشون منه ، ويفرّون عنه ، فيتطرّق إليه اليأس ، وينتابه الكلل ، ويجرفه الملل ، بما يرى من خلو حصيلته من المكاسب ، وتبعثر جهده في غير طائل ، فتخمد روح الدّعوة في نفسه ، وينتابه الخمول والكسل فينقطع عن الأداء ، ويتوقّف عن العطاء ، فيغيب عنه الثّبات ، ويفارقه الصبر .

صحيح مسلم: بلفظه و بلفظ مقارب في: كتاب الفضائل : (٤٣) . باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته:

(٣٥) . برقم: (٢٣٥٦) . ٤٠ / ١٨٢٩ .

قال أبو العباس القرطبي (رحمه الله) :

" ويستفاد من هذا الحديث التّهي عن التّنعّط في الدّين ، وعن الأخذ بالتّشديد في جميع الأمور . فإنّ دين الله يسر

وهو الخفيفة السّمحة . فإنّ الله يحبّ أن تؤتى رخصه كما يحبّ أن تؤتى عزائمه " . المفهم : ١٥٢/٦ - ١٥٣ .

(١) شرح النووي على مسلم : ٤١/١٢

﴿المطلب الثالث﴾

الحلم

الحلم : الأناة ، وقيل هو : الأناة والعقل ، وهو نقيض السقه ، وجمعه أحلام وحُلُوم ^(١) . يقال : حلم فلان عن فلان إذا لم يقابله على إساءته ولم يجازره عليها .
والله عز وجلّ حليم عن عباده ، لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم ، ويمهلهم بعد المعصية ، ولا يعاجلهم بالعقوبة والانتقام ، ويقبل توبتهم بعد ذلك ^(٢) .
وفي الاصطلاح :

قال الجرجاني (رحمه الله) :

" هو الطمأنينة عند سورة الغضب . وقيل : تأخير مكافأة الظالم " ^(٣) .

وقال الراغب (رحمه الله) :

" الحلم ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب " ^(٤) .

وهو على ضربين :

أحدهما : ما يرد على الخلق من قضاء الله ، من المصائب التي امتحن الله بها عباده ، فيصبر العاقل تحت ورودها ، ويحلم عن الخروج إلى ما لا يليق بأهل العقل .

والآخر : ما يرد على النفس بضدّ ما تشتهي من المخلوقين .

فمن تعود الحلم فليس بمحتاج إلى التّصبر ، لاستواء العدم والوجود عنده ^(٥) .

(١) وانظر : الصحاح : ١٩٠٣/٥ .

(٢) وانظر : تفسير أسماء الله الحسنى . إملاء أبي إسحاق إبراهيم بن السري الزّجاج . تحقيق : أحمد يوسف الدّقلق .

طبع : مطبعة محمد هاشم الكتي . ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م : ص : ٤٥ . نضرة التّعيم : ١٧٣٦/٥ .

(٣) التعريفات . ص : ١٢٥ .

(٤) المفردات . ص : ١٢٩ .

قال أبو حاتم (رحمه الله) :

" فالحلم يشتمل على المعرفة والصبر والأناة والتّثبت . ولم يقرن شيء إلى شيء أحسن من عفو إلى مقدرة .
والحلم أجمل ما يكون من المقتدر على الانتقام " . روضة العقلاء : ص : ٣٤٥ .

(٥) المرجع السابق . ص : ٣٥١ .

فالحلم في الإنسان دلالة على كمال العقل واستيلائه ، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل (١) .

ولذا مدح الله أنبياءه به فقال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] . وقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [هود : ٧٥] . ومدح ابنه إسماعيل عليه السلام كذلك فقال : ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] .

وأمر رسوله ﷺ أن يتحلّى به فقال له : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .
أي خذ العفو من أخلاق الناس وما سمحت به أنفسهم ، وما سهل عليهم ، وتجاوز عن تقصيرهم في حقك ، وأمرهم بالقول الحسن ، والفعل الجميل ، والخلق الكامل ، ولا تقابل أهل الجهل بجهلهم ، ولا تكافئ أهل السقه بمثل سفههم ، بل أعرض عنهم واحلم عليهم (٢) .

(١) انظر : إحياء علوم الدين بهامشه إتحاف السادة المتقين : ٤٣٣/٩ .
(٢) الأَوَّاه : الذي يكثر التَّأَوُّه وهو أن يقول : أود . وكلّ كلام يدلّ على حزن يقال له التَّأَوُّه . ويعبر بالأَوَّاه من يظهر خشية الله تعالى . وقيل في قوله تعالى : ﴿ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ أي المؤمن الداعي . وأصله راجع إلى ما تقدّم .

المفردات : ص : ٣٢ .

(٣) هذه آية جمعت مكارم الأخلاق . وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها كما قال جعفر الصادق (رحمه الله) . وهي متضمنة لقواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات . وللوقوف على معناها بتوسّع وما ذكرته عنها . انظر : جامع البيان : ١٥٤/٩ - ١٥٦ . أحكام القرآن لابن العربي : ٨١٢/٢ - ٨١٥ . التفسير الكبير : ٩٧-٩٥/١٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٤٤/٧ - ٣٤٧ . تفسير القرآن العظيم : ٤٤٠/٢ - ٤٤١ . الجواهر الحسان : ٧١-٧٠/٢ . روح المعاني : ١٤٦/٩ - ١٤٧ . فتح البيان : ١٠٨/٥ - ١٠٩ . محاسن التأويل : ٢٩٢٩/٧ - ٢٩٣٠ . تيسير الكريم الرحمن . ص : ٢٧٦ .

ولذا كان ﷺ في قمة من الحلم حتى قالت عائشة (رضي الله عنها) عنه :
 " ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها" (١) .
 أي كان يصبر على من جهل عليه ويحتمل جفاه ، ويصفح عمن آذاه في
 خاصة نفسه ، ولكن إذا انتهك حق من حقوق الله لا يعفو بل إن كان فيه حد
 أقامه (٢) .

كما مدح سبحانه المؤمنين المتصفين به فقال : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ
 وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] .
 وقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
 الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] .
 وقال : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢] .
 وقال : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ
 وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الفرقان: ٦٣] وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا
 وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٤-٥٥] .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب المناقب: (٣٧/٦١) . باب صفة النبي ﷺ : (٢٣) . برقم: (٣٥٦٠) .
 ص: ٧٥١ . ولفظ مقارب في: كتاب الأدب: (٥٢/٧٨) . باب قول النبي ﷺ : "يسرروا ولا تعسروا" :
 (٨٠) . برقم: (٦١٢٦) . ص: ١٣١٠ . وفي كتاب الحدود : (٦٠/٨٦) . باب إقامة الحدود والانتقام لخرمات
 الله : (١٠) . برقم: (٦٧٨٦) . ص: ١٤٣٤ . وفي كتاب الحدود (المحاربين) : (٦١/٨٦) . باب كم التعزير
 والأدب: (٢٩/٤٢) . برقم: (٦٨٥٣) . ص: ١٤٤٦ .
 صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الفضائل : (٤٣) . مباحثته ﷺ للآثام : (٢٠) . برقم: (٢٣٢٧) .
 ١٨١٣/٤

(٢) المفهم : ١١٨/٦-١١٩ . بتصرف .

وقال في موطن الدعوة : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصل: ٣٤-٣٥].

الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُغْلَبُونَ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

فمتى ما حلّ الحق بقلوب المتصفين بالحلم على مسيء لهم كظموه ، ولم ينتقموا منه بقول أو فعل ، وزادوا على ذلك بمقابلة إساءته بالعفو عنه ، والمسلمة له ، وعدم مؤاخذته ، وسعوا في الإحسان إليه بإيصال النفع له ودفع الشر عنه ، والمسالمة له ، لأنهم يكرمون أنفسهم وينزهونها عن مواطن السوء ، ومقابلة الجاهل بجهله ، والمسيء بإساءته ، واللئيم بلؤمه ، والسقيء بسفوه . لعلمهم أن الحسنه لا تساوي السيئة لما بينهما من الفرق الشاسع والبون الكبير . وأن مقابلة المسيء بفعله لا تفيد شيئاً ، بل تزيد الشحناء ، وتورث البغضاء ، وتكثر العداء . وقصدهم الذي يسعون إليه إرضاء الله ، ونيل مثوبته .

فكانت العاقبة أن انقلب شرّ ذلك المسيء خيراً ، وبغضه محبة ، وإساءته إحساناً ، وعداوته صداقة . وهذا أثر الحلم على النفوس .

ومن الأحاديث قوله ﷺ لأشج عبد القيس^(١) " إِنْ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الحلم والأناة " (٢) .

فالحليم محبوب عند الله ، محبوب عند الناس .

قال لقمان (رحمه الله) :

" ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه " (٣) .

(١) اسمه : المنذر بن عائد بن المنذر بن الحارث العصري — بمهملتين مفتوحتين — أشج عبد القيس الصحابي .

انظر : تقريب التهذيب : ٥٤٦/١ .

(٢) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله ﷺ وشرائع الدين : (٦) . برقم : (١٧) . عن ابن عباس (رضي الله عنهما) إلا أنه قال : " خصلتين " . وبرقم : (١٨) . عن أبي سعيد ﷺ :

٤٨/١-٤٩ .

(٣) إحياء علوم الدين بهامشه إتحاف السادة المتقين : ٤٤٧/٩ .

وقال عليّ عليه السلام :

" إنَّ أوَّلَ ما عَوَّضَ الحليم من حلمه أنَّ النَّاسَ كلَّهم أعوانه على الجاهل " (١) .

وقال الحسن البصري (رحمه الله) :

" اطلبوا العلم وزيتوه بالوقار والحلم " (٢) .

وعن عليّ بن الحسين بن عليّ (رحمه الله) (٣) أنَّه سبَّه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فقال بعضهم : " جمع له خمس خصال محمودّة : الحلم ، وإسقاط الأذى ، وتخليص الرّجل ممّا يبعده من الله عزّ وجلّ ، وحمله على النّدم والتّوبة ، ورجوعه إلى المدح بعد الذّم . اشترى جميع ذلك بشيء من الدّنيا يسير " (٤) . وهذا موقف فريد في الحلم .

قال أبو حاتم بن حبان (رحمه الله) :

" العاقل يلزم الحلم عن النَّاس كافّة ، فإنّ صعب ذلك عليه ، فليتحالم لأنّه يرتقي به إلى درجة الحلم .

وأوّل الحلم المعرفة ، ثمّ التّنبّه ، ثمّ العزم ، ثمّ التّصبّر ، ثمّ الرّضا ، ثمّ الصّمت والإغضاء ، وما الفضل إلّا للمحسن إلى المسيء ، فأما من أحسن إلى المحسن ، وحلّم عمّن لم يؤذّه ، فليس ذلك بحلم ولا إحسان " (٥) .

(١) المرجع السّابق : ٤٤٤/٩ .

(٢) المرجع نفسه : ٤٤٣/٩ .

(٣) عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب القرشي الهاشمي . أبو الحسين . ويقال أبو الحسن . زين العابدين . التابعي الجليل . ثقة ثبت . فقيه عابد . فاضل مشهور . قال عنه الزّهري : " ما رأيت قرشيّاً أفضل منه " . توفي سنة ٩٢ هـ . وقيل : بعدها .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٢١١/٥ . معرفة النّقات : ١٥٣/٢ . الجرح والتّعديل : ١٧٨/٦ . مشاهير علماء الأمصار : ٦٣/١ . التّعديل والتّجريح : ٩٥٦/٣ . تهذيب الكمال : ٣٨٢/٢٠ . تذكرة الحفّاظ : ٧٤/١ . الكاشف : ٣٧/٢ . تهذيب التّهذيب : ٢٦٨/٧ . تقريب التّهذيب : ٤٠٠/١ . إسعاف المبطّأ : ص : ٢١ .

(٤) إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٤٤٥/٩ .

(٥) روضة العقلاء . ص : ٣٤٧ .

وقال : " ما ضمّ شيء إلى شيء هو أحسن من حلم إلى علم ، وما عدم شيء في شيء هو أقبح من عدم الحلم في العالم ، ولو كان للحلم أبوان لكان أحدهما العقل والآخر الصّبر " (١) .

وقال ابن القيم (رحمه الله) :

" وفي الصّبح والعفو والحلم : من الحلاوة والطّمانينة والسّكينة ، وشرف النّفس ، وعزّها ورفعته عن تشفّيها بالانتقام ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام " (٢) .

وأقوال أهل العلم في الحلم كثيرة جدّاً ، وذلك لمكانته ، وشدّة الحاجة إليه ، وعظم شأنه ، وبالعنف .

والدّاعية إلى الله أحوج النّاس إليه ، وأكثرهم ضرورة للتّحلي به كي يجذب القلوب إليه ، ويحبّب النّاس فيه ، ويكسب بذلك نفوسهم (٣) .

وهو يقابل فئات مختلفة ومشارب متعدّدة من المدعوّين ، منهم المهدّب الأديب ، ومنهم الشّرس العنيد ، ومنهم السّقيّ الطّائش ، وقد يجد من بعضهم ما يكرّ الصّقو ، ويجلب الغضب ، ويدعو إلى الانتقام ، والرّد بالمثل ، فإن لم يكن مفعماً بخلق الحلم ، كاظماً لغيظه ، متّسماً بالعفو ، متجلّداً بالصّبر عرض نفسه للنّذل والهوان ، ودعوته للطّعن والإساءة والاهتزاز ، وقد يكون ذلك سبباً للنّفرة عنه وعن دعوته ، فيفسد عند الإصلاّح ، ويعوجّ عند الاستقامة ، ويفشل عند النّجاح ، فيكون عدم حلمه سبباً في عدم ثباته ، وضياّع جهده ، وتبدّد سعيه .

قال الإمام الشّافعي (رحمه الله) :

إذا نطق السّقيّ فلا تجبه فخير من إجابته السّكوت
فإن كلّمته فرّجت عنه وإن تاركته كمدأ يموت . (٤)

(١) المرجع السّابق . ص : ٣٤٩-٣٥٠ .

(٢) مدارج السّالكين : ٣١٩/٢ .

(٣) وانظر : أخلاق الدّاعية . ص : ٢٦ ، ٣٠ .

(٤) روضة العقلاء : ص : ٣٤٩ . هامش (٣) . ولم أقف عليهما في ديوان الشّافعي (رحمه الله) المطبوع .

وفي ذلك قيل :

إذا أنا كافيت الجهول بفعله فهل أنا إلاّ مثله إذ أحاوره
ولكن إذا ما طاش بالجهل طائش عليّ فإنّي بالتّحطّم قاهره^(١)

(١) المرجع السابق . ص : ٣٤٧ . ونسبهما للكريزي .

﴿المطلب الرابع﴾

التواضع

التواضع مصدر تواضع ، أي : تذلل وتخاشع . وهو من وضع الشيء إذا حطّه (١) .

وحقيقته خضوع العبد لصولة الحق ، وانقياده لها ، فلا يقابلها بصولته عليها (٢) .

وقيل هو : إظهار التّزّل عن المرتبة لمن يراد تعظيمه ، أو تعظيم من فوقه لفضله (٣) .

وهو ثلاث درجات :

الأولى : أن يتواضع العبدُ للدين فلا يعارضه بعقل أو قياس أو ذوق أو سياسة ، ولا يتهم دليلاً من أدلته بحيث يظنه فاسداً أو ناقصاً أو قاصراً ، ولا يخالفه بقول أو فعل .

الثانية : أن يرضى بأخوة المسلم فلا يترفع عليه ، ويقبل الحقّ ممّن أبغض وأحبّ فلا يردّه ، ويقبل عذر من أساء إليه .

الثالثة : أن يتواضع للحقّ فيعبد الله بما أمره به لا بما رآه أو اعتاده ، وأن لا يرى لنفسه حقّاً على الله لأجل عمله (٤) .

(١) وانظر : القاموس المحيط . ص : ٩٩٦-٩٩٧ .

(٢) مدارج السالكين : ٣٣٣/٢ .

(٣) انظر : فتح الباري : ٣٤١/١١ . طبعة دار المعرفة . نضرة التّعيم : ١٢٥٥/٤ .

قال أبو العباس القرطبي (رحمه الله) :

" التواضع نقيض التّكبر . والتّكبر : هو التّرفع على الغير . فالتواضع : هو الانخفاض للغير . وحاصله أنّ المتكبر يرى لنفسه مزية على الغير تحمله على احتقاره . والمتواضع لا يرى لنفسه مزية . بل يراها لغيره بحيث يحمله ذلك على الانخفاض له مراعاة لحقه ... والتواضع ... منه : أعلى وأدنى . والأعلى : هو التواضع لله تعالى . ولكتابته . ولرسوله . والأدنى : هو ما عداه " . المفهم : ١٤٠/٧-١٤١ .

(٤) انظر : مدارج السالكين : ٣٣٤/٢-٣٣٨ .

وقد دعا القرآن الكريم إلى خلق التواضع ، وأمر به سيّد المرسلين .

فقال تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨] .

وقال : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥] .

أي ألن جانبك إليهم ، وتلطّف في خطابهم ، وتودّد وتحبّب إليهم ، وحسّن خلقك معهم ، ولا تترفع عليهم ، وتذلّل لهم . وقد فعل ﷺ (١) ذلك كلّهُ وما هو أكثر في هذا المقام .

كما دعا القرآن عبَادَ الله المؤمنين أن يتخلّقوا به . فقال سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] .

أي يمشون بسكينة ووقار من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر (٢) .

قال السّعدي (رحمه الله) :

" أي ساكنين متواضعين لله وللخلق ، فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة ، والتواضع لله ولعباده " (٣) .

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ

يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤] .

(١) وانظر : تيسير الكريم الرحمن : ص : ٥٤٨ . وانظر : مدارج السالكين : ٣٢٨/٢-٣٢٩ . فقد ساق فيه ابن

القيم (رحمه الله) نماذج مشرقة من تواضعه ﷺ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٥١٨/٣ . وانظر : مدارج السالكين : ٣٢٧/٢ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن . ص : ٥٣٤ .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" هذه صفات المؤمنين الكامل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليّه ، متعزّزاً على خصمه وعدوّه ، كما قال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] " (١) .

فهم ذليلون لإخوانهم المؤمنين ذلّ رحمة وعطف وشفقة وإخبات وتواضع ولين وانقياد وليس بذلّ هوان وضعف . وهم أعزّة على الكفار عزّ قوّة ومنعة وغلبة ، وليس بعزّ ذات واستعلاء نفس (٢) .

كما حذّر القرآن ممّا يناقض خلق التّواضع ويخلّ به . قال عزّ وجلّ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ آلَ جَبَالٍ تُولَا ﴾ [الإسراء: ٣٧] .

وقال : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ (٣) خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] .

أي لا تمش متكبراً متغطرساً متجبراً مفتخراً بنفسك معجباً بها ، متعالٍ على النّاس ، متعاضماً عليهم ، فإنّك عندئذ تكون محتقراً عند الله وعند النّاس ، مبغضاً ممقوتاً لديه ولديهم ، مبعداً منه ومنهم . بل امش متواضعاً ، متذللاً لربك ، مخبتاً (٤) مستكيناً ، فإنّه يحبّك الله ويحبّك النّاس (٥) .

(١) تفسير القرآن العظيم : ١١١/٢ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٠/٦ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ١٩٨ . في ظلال القرآن : ٩١٩/٢ .

(٢) وانظر : مدارج السّالكين : ٣٢٧/٢ .

(٣) الصّعر : ميل في العنق . والتّصعير : إمالة عن النّظر كثيراً . المفردات : ص : ٢٨١ .

(٤) المخبّيت : هو المطمئن المتواضع الخاشع لله . انظر : لسان العرب : ٢/٢٧ .

(٥) وانظر في معنى الآيتين : تفسير القرآن العظيم : ٦٧-٦٦/٣ ، ٧١٠ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٠٩ .

وفي حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه قال ﷺ : " وإن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد " (١) .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : " ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " (٢) .
فقوله : " وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " فيه وجهان :
أحدهما : يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس ويجلّ مكانه .

والثاني : أن المراد ثوابه في الآخرة ورفعها فيها بتواضعه في الدنيا (٣) .
وعن أنس رضي الله عنه قال : كانت ناقة لرسول الله ﷺ تُسمّى العَضْبَاء ، وكانت لا تُسَبِّق ، فجاء أعرابيٌّ على قعود له فسبقها ، فاشتدّ ذلك على المسلمين ، وقالوا : سُبِّحت العَضْبَاء . فقال رسول الله ﷺ : " إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وُضعه " (٤) .

(١) صحيح مسلم: بلفظه — جزء من حديث — في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها : (٥١) . باب الصفات التي

يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار : (١٦) . برقم: (٢٨٦٥) . ٢٨٩٩/٤ .

(٢) المرجع السابق: بلفظه في : كتاب البر والصلة والآداب : (٤٥) . باب استحباب العفو والتواضع : (١٩) .

برقم: (٢٥٨٨) . ٢٠٠١/٤ .

(٣) شرح النووي على مسلم : ١٤٢/١٦ .

قال أبو العباس القرطبي (رحمه الله) في معرض بيان الحديث :

" التواضع يقتضي متواضعاً له . فإن كان المتواضع له هو الله تعالى ، أو من أمر الله بالتواضع له كالرسول ، والإمام ، والحاكم ، والوالد ، والعالم فهو التواضع الواجب المحمود ، الذي يرفع الله تعالى به صاحبه في الدنيا والآخرة . وأمّا التواضع لسائر الخلق فالأصل فيه : أنه محمود ، ومندوب إليه ، ومرغّب فيه إذا قصد به وجه الله . ومن كان كذلك رفع الله تعالى قدره في القلوب ، وطّيب ذكره في الأفواه ، ورفع درجته في الآخرة . وأمّا التواضع لأهل الدنيا ، ولأهل الظلم فذلك هو الدّلّ الذي لا عزّ معه . والخسة التي لا رفعة معها . بل يترتب عليها ذلّ الآخرة ، وكلّ صفقة خاسرة . نعوذ بالله من ذلك " . المفهم : ٥٧٥/٦ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الرقاق : (٥٥/٨١) . باب التواضع : (٣٨) . برقم: (٦٥٠١) . ص:

١٣٨٢ . و بلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب ناقة النبي ﷺ : (٥٩) . برقم:

(٧٨٧٢) . ص: ٦٠٦ .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

"فيه إشارة إلى الحثّ على عدم التّرفع ، والحثّ على التّواضع ، والإعلام بأنّ أمور الدّنيا ناقصة غير كاملة " . وقال : " فيه أيضاً حُسن خلق النّبي ﷺ وتواضعه لكونه رضي أن أعرابياً يسابقه " (١) .
ومن أقوال أهل العلم في التّواضع :

قال أبو بكر الصّدّيق ﷺ :

" وجدنا الكرم في التّقوى ، والغنى في اليقين ، والشرف في التّواضع " (٢) .

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ :

" تعلّموا العلم ، وتزيّنوا معه بالوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلّمون منه ولمن تعلّمونه ، ولا تكونوا جبابرة العلماء فيذهب باطلكم حقّكم " (٣) .

وقال قتادة (رحمه الله) :

" من أعطي مالا أو جمالا أو ثناء أو علماً ثمّ لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة " (٤) .

وقال ابن عبد البر (رحمه الله) :

" ومن أفضل آداب العالم تواضعه ، وترك الإعجاب بعلمه ، ونبذ حبّ الرّئاسة عنه " (٥) .

(١) فتح الباري : ٣٤١/١١ . طبعة دار المعرفة .

(٢) إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٢٧٠/١٠ .

(٣) جامع بيان العلم : ص : ٢٢٣ . وقرئاً منه عن عمر بن الخطّاب ﷺ . في شعب الإيمان : ٢٨٧/٢ . وكتاب الزّهد لأبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشّيباني . تحقيق : عبد العلي عبد المجيد حامد . طبعة : دار الرّيان للتراث . القاهرة . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٨هـ : ص : ١٢٠ . ونحوه عن أبي هريرة ﷺ . في الفردوس بمأثور الخطّاب : ٧٩/١ .

(٤) إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٢٦٠/١٠ .

(٥) جامع بيان العلم : ص : ٢٢٣ .

فهذه النصوص وغيرها الكثير تبين حاجة المسلم إلى خلق التواضع لأنه خلق من أخلاق المؤمنين ، يجلب محبة رب العالمين وقربه ، ويوصل إلى مرضاته وجنته .

والداعية إلى الله أشد حاجة له من غيره ، إذ النفوس بطبعها تميل إلى من يتواضع وتلتف حوله ، وتتفر عن من يغتر ويتكبر .

فالداعية الذي بسط وجهه للناس ، وعایشهم في أفراحهم وأتراحهم ، وجالسهم وخالطهم ، وأكل ما يأكلون وشرب ما يشربون ، ولم يترفع عنهم في ملبس أو مركب ، ولم يحتقرهم أو يستصغرهم أو يستطيل عليهم بقوله أو فعله ، أو يكثر الحديث بتعدد مآثره ، ومدح نفسه ، وذم غيره ، فإنه يكون قريباً من قلوبهم ، محبوباً لنفوسهم ، يسمعون عظامته ، ويأخذون بنصائحه ، ويتبعون إرشاده ، وينجذبون لكلامه ، ويفتحون قلوبهم لدعوته ، ويستيقنون صدقه وإخلاصه لأنهم يعلمون حينئذ أنه يُعبدُهم الله لا نفسه ، ويدعوهم لربهم لا لشخصه .

فتوفق دعوته وتثمر ، ويكثر نتاجه ، ويزداد نفعها فيزداد نشاطه ، وترتفع همته فيكثر عطاؤه ، ويستمر بذله ، ويجد في خلق التواضع ما يعينه على الصبر والثبات .

وبعد فإن الرِّقَّ والتيسير والحلم والتواضع هي أهم الأخلاق التي ينبغي للداعية أن يتحلَّى بها في نفسه ، ويصطحبها في دعوته .

وإن كان هنالك كثير من الأخلاق الحسنة التي يحتاج لها الداعية كالصدق ، والكرم ، والسماحة ، والرحمة ، والتضحية ، والجرأة ، والشجاعة ، واليقظة ، والحزم ، والجديّة ، والبشاشة ، والتفاؤل ، والسكينة ، والوقار ، والعفة ، وعلوّ الهمة ، وقوّة العزيمة ، والقناعة ، والنزاهة ، والورع ، وعدم المداهنّة ، وعدم الكسل والخمول واليأس . وغيرها كثير ، وكلّها معين على ثبات الداعية . ولكنني خصصت أهمّها بالذكر وأعظمها أثراً في الثبات ، خشية الإطالة ، وتجنباً للملل .

وفي التنبيه على القليل ما يغني عن الكثير ، وما لا يؤخذ كلّ لا يترك جله .

المبحث السابع

التأني وعدم العجلة

التأني : عدم العجلة في طلب شيء من الأشياء والتمهل في تحصيله والترقق فيه^(١) . والعجلة : فعل الشيء قبل وقته اللائق به^(٢) .

قال الراغب (رحمه الله) :

" العجلة طلب الشيء وتحريه قبل أوانه ، وهو مقتضى الشهوة ، فلذلك صارت مذمومة في عامة القرآن حتى قيل : العجلة من الشيطان " ^(٣) .
ولقد ذم الله سبحانه العجلة في مواضع كثيرة من كتابه ، وعاب الإنسان لتخلقه بها .

فقال : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١] .

فقد أخبر سبحانه عن عجلة الإنسان حيث يدعو في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر ، أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعة ، وهذا لفرط جهله ، فيبادر بذلك كما يبادر بالدعاء في الخير ، فلو استجاب الله له لهلك بدعائه ، ولكن الله يلطف به ^(٤) .

فهو مطبوع على العجلة حيث يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر إلى عاقبته^(٥) .

(١) نضرة التعيم : ٨٦٥/٣ .

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف . ص : ٥٠٤ . وانظر : التعريفات . ص : ٣٦ .

(٣) المفردات . ص : ٣٢٣ . وقوله : " حتى قيل : العجلة من الشيطان " . هذا لفظ حديث يأني قريباً .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٤٤/٣ . تيسير الكريم الرحمن . ص : ٤٠٦ .

(٥) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التبريل وأسرار التأويل للقاضي عبد الله بن عمر البيضاوي . طبعة : دار الفكر .

بيروت . ١٤١٦ هـ — ١٩٩٦ م : ٤٣٤/٣ . بتصرف . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٦/١٠ . فتح

القدير : ٢١١/٣ .

وقال ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" ضجراً ، لا صبر له على السراء والضراء " (١) .

وقال سبحانه : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا

تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] .

أي طبع الإنسان على العجلة ، فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرّة (٢) .

قال البيضاوي (رحمه الله) :

" كأنّه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته كقولك : خلق زيد من الكرم ، جعل ما طبع عليه منزلة المطبوع وهو منه مبالغة في لزومه له ... ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد " (٣) .

وقد نهى سبحانه رسوله ﷺ عن العجلة بإهلاك الكفار والإسراع في عذابهم مع كفرهم وعداوتهم البالغة . فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿١﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٢﴾ ﴾ [مرم: ٨٣-٨٤] .

أي لا تعجل يا رسولنا على هؤلاء الكفار بطلبك من الله إهلاكهم ووقوع العذاب بهم ، وذلك بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم للحق ، وتمردهم عن الاستجابة لدعوتك ، فنحن نعدّ لهم الأيام والليالي والشهور والستين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم ، كما نعدّ أنفاسهم وخطواتهم ولحظاتهم حتى يأتي أجلهم ، وهم لا محالة صائرون إلى عذاب الله ونكاله ، فلم العجلة ؟ (٤) .

(١) معالم التنزيل : ١٠٧/٣ . فتح القدير : ٢١٢/٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٨/١١ .

(٣) أنوار التنزيل : ٩٣/٤ . وانظر : معالم التنزيل : ٢٤٤/٣ . فتح القدير : ٤٠٧/٣-٤٠٨ . تيسير الكريم الرحمن .

ص : ٤٧٢ .

(٤) انظر المعنى في : معالم التنزيل : ٢٠٨/٣-٢٠٩ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥٠/١١ . أنوار التنزيل : ٣٤/٤ .

تفسير القرآن العظيم : ٢٢٠/٣ . فتح القدير : ٣٥٠/٣ . تيسير الكريم الرحمن . ص : ٤٤٩ .

كما أمره سبحانه أن يصبر ويثبت على دعوته كما ثبت إخوانه من الرسل السابقين له ، ولا يتعجل بهلاك الكفار المعاندين له ليرتاح من العناء والمشقة ، بل عليه أن يكافح ويجاهد في تبليغ دعوة الله صابراً ثابتاً محتسباً ، ليس بضجر ولا متضايق ولا متعجل حتى يؤدي مهمته التي كلفه الله بها .

قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِغْ فَعَلٌ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحاف: ٣٥] .

قال ابن جرير (رحمه الله):

" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ، مثبته على المضي لما قلده من عبء الرسالة ، وتقل أحمال النبوة ﷺ ، وأمره بالانتساء في العزم على نفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكاره ، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد ... وقوله ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ يقول : ولا تستعجل عليهم بالعذاب . يقول : لا تعجل بمسألتك ربك ذلك لهم ، فإن ذلك نازل بهم لا محالة " (١) .

وقال الرازي (رحمه الله):

" اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم . ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم " (٢) .

(١) جامع البيان : ٣٧/٢٦ .

(٢) التفسير الكبير : ٣٥/٢٨ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٠/١٦ - ٢٢١ . تفسير القرآن العظيم :

٢٦٣/٤ - وذكر (رحمه الله) أن أهل العلم اختلفوا في تعداد أولي العزم والأشهر أنهم : نوح وإبراهيم وموسى

وعيسى ومحمد صلى الله عليهم جميعاً . روح المعاني : ٣٤/٢٦ - ٣٥ . فتح البيان : ٤١/١٣ . محاسن التأويل :

٥٣٦٩/١٥ - ٥٣٧٠ . تيسير الكريم الرحمن . ص : ٧٢٨ - ٧٢٩

ولذلك أمر ﷺ أصحابه بالصبر والثبات على دعوة الله تعالى ، وذكرهم بأحوال السابقين الذين عانوا ما عانوا ، ولاقوا ما لاقوا من شدائد ومحن ، فثبتوا ولم يتعجلوا . فكونوا أنتم مثلهم .

عن أبي عبد الله خباب بن الارت ﷺ قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد برده له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : " قد كلن من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دينه ، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون " .

وفي رواية : " وهو متوسد برده وقد لقينا من المشركين شدة " (١) .
وأخبرهم ﷺ بأن العجلة من الشيطان لما يتبعه من الطيش والخفة والسفه .
عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : " التّائي من الله ، والعجلة من الشيطان ، وما شيء أكثر معاذير من الله ، وما من شيء أحبّ إلى الله من الحمد " (٢) .
بل مدح أشج عبد القيس بالتّائي وعدم العجلة . فقال له في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ : " إنّ فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة " (٣) .

(١) سبق تخريجه . انظر : ص : ٣٠٧ .

(٢) سنن البيهقي : بنحو منه ولفظه : " التّائي من الله والعجلة من الشيطان " . في باب التّثبت في الحكم : ١٠٤/١٠ .

مسند أبي يعلى : بلفظه في : ٢٤٨/٧ . برقم : (٤٢٥٦) .

مسند الحارث بن أبي أسامة : بلفظه — إلا أنّه قال : " الله عزّ وجلّ " . ٨٢٨ / ٢ .
قال المنذري والهيتمي رحمهما : " رجاله رجال الصحيح " . الترغيب والترهيب : ٢٨٤/٢ . مجمع الزوائد : ١٩/٨ .

وله شاهد عند الترمذي والطبراني عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ . ولفظه : قال : قال رسول الله ﷺ : " الأناة من الله والعجلة من الشيطان " . سنن الترمذي : كتاب البر والصلة : (٢٤) . باب ما جاء في التّائي والعجلة : (٦٦) . برقم : (٢٠١٢) . ص : ٣٣٥ .

معجم الطبراني الكبير : ١٢٢/٦ . وانظر : السلسلة الصحيحة : ٤٠٤/٤ . برقم : (١٧٩٥) .

(٣) سبق تخريجه . انظر : ص : ٥٥٣ .

روى أبو داود عن زارع ﷺ . وكان في وفد عبد القيس . قال : لما قدمنا المدينة . فجعلنا نبادر من رواحلتنا . فنقبل يد النبي ﷺ ورجله . قال : وانتظر المنذر الأشج حتى أتى عبيته (جراب من آدم تجعل فيه الثياب) فلبس

وقد مدحه ﷺ بذلك لما ظهر له من تأنيبه وعدم عجلته (١) .
وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال ﷺ : " التَّوَدُّة (٢) في كلِّ شيءٍ إلَّا في عمل
الآخرة " (٣) .

ومن الآثار وأقوال أهل العلم المحذرة من العجلة وعدم التأني :
قال عبد الله بن مسعود ﷺ :
" إنَّها ستكون أمورٌ مشتبهاةٌ فعليكم بالتَّوَدَّة ، فإنَّك أن تكون تابعاً في الخير خيراً من
أن تكون رأساً في الشرِّ " (٤) .

ثوبه . ثم أتى النبي ﷺ فقال له : " إنَّ فيك خلَّتَيْنِ يُجِيبُهُمَا اللَّهُ الحِلْمُ والأناة " قال : يا رسول الله أنا أخلقُ بهما أم
الله جلّني عليهما ؟ قال : " بل الله جلّك عليهما " . قال : الحمد لله الذي جلّني على خلَّتَيْنِ يحِبُّهُمَا اللَّهُ
ورسوله " . سنن أبي داود : كتاب الأدب : (٤٠) . باب في قِبلَةِ الرَّجُلِ . برقم : (٥٢٢٥) . الشَّطْرُ الأوَّلُ من
الحديث إلى قوله : فنقبَل يد النبي ﷺ ورجله " . قال عنه الشَّيْخُ ناصر الألباني (رحمه الله) : " حسنٌ دون ذكر
الرَّجُل " . وقال عن باقي الحديث : " صحيح " . ص : ٥٦١ . والحديث عند ابن ماجه نحوه في : كتاب الزَّهْد :
(٣٧) . باب الحِلْم : (١٨) . برقم : (٤١٨٧ ، ٤١٨٨) . ص : ٤٥٢ . وانظر روايات الحديث في مجمع الزوائد :
٣٨٧/٩ - ٣٩٠ . ففيها ما يدلُّ على تأنيبه وعدم عجلته ﷺ .

وانظر : المفهم : ١٧٨/١ - ١٧٩ . شرح التَّوَي على مسلم : ١٨٩/١

(١) انظر : المفهم : ١٧٨/١ .
(٢) التَّوَدَّة : التَّأْنِي . يقال أَتَادَ في فعله وقوله ، وتَوَادَّ إذا تَأَنَّى وَتَنَبَّتْ ولم يَعَجَلْ . وَاتَّيَدَ في أمرِك : أي تَنَبَّتْ . واصل
التَّاء فيها واو . النهاية في غريب الحديث : ١٧٨/١ .

(٣) سنن أبي داود : بلفظه في : كتاب الأدب : (٤٠) . باب في الرَّفْق : (١٠) . برقم : (٤٨١٠) . قال الألباني
(رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٥٢٤ .

سنن البيهقي : بلفظه — وزاد : " في كلِّ شيءٍ خير " . في باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها . ١٩٤/١٠ .
مستدرک الحاكم : مثل رواية البيهقي . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " . وقال
الذهبي (رحمه الله) : " على شرطهما " : ١٣٢/١ .

مسند أبي يعلى : بلفظ رواية الحاكم والبيهقي . في : ١٢٣/٢ . برقم : (٧٩٢) . قال المحقق : " رجاله ثقات " .
وهو في السلسلة الصحيحة : ٤٠٣/٤ . برقم : (١٧٩٤) . وصحيح الجامع : برقم : (٣٠٠٩) . ٥٧٨/١ .
وذكره أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي في الآداب الشرعية . تحقيق : شعيب الأرنؤوط وعمر القيسام .
طبعة : مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الثالثة : ١٤١٩ هـ — ١٩٩٩ م : ٢٢٩/٢ . وقال عن رجال
إسناده : " كلُّهم ثقات " . وقال المحققان : " وإسناده صحيح " .

(٤) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية : ٣٢٨/١ .

وأورده ابن أبي شيبة في مصنفه بلفظ مقارب في : ٤٥٦/٧ .

خطب الحسن بن عليؑ بالكوفة فقال : " إنَّ الحلم زينة ، والوقار مروءة ،
والعجلة سفه ، والسَّفه ضعف ، ومجالسة أهل الدَّناءة شين ، ومخالطة الفسَّاق
ريبة " (١) .

وعاب مالك (رحمه الله) العجلة وقال : " قرأ ابن عمر البقرة في ثمان سنين " .
وقال : " العجلة نوع من الجهل والخرق " (٢) .

وقال أبو حاتم بن حبان (رحمه الله):

" الرَّافِق لا يكاد يُسَبِّق ، كما أنَّ العَجَلَ لا يكاد يُلْحَق ، وكما أنَّ من سكَّت لا
يكاد يندم ، كذلك من نطق لا يكاد يسلم ، والعجل يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن
يُسأل ، ويحمد قبل أن يُجربَّ ، ويذمُّ بعد ما يحمد ، ويعزم قبل أن يفكَّر ، ويمضي
قبل أن يعزم ، والعجل تصحبه النَّدامَة ، وتعتزله السَّلامَة ، وكانت العرب تكنِّي
العجلة أمَّ النَّدامات " (٣) .

وقال :

" العجلة تكون من الحِدَّة ، وصاحب العجلة إنَّ أصاب فرصته لم يكن محموداً ،
وإنَّ أخطأها كان مذموماً ، والعجل لا يسير إلَّا مَنكِباً للقصْد ، منحرفاً عن الجادَّة ،
يلتمس ما هو أنكد وأوعر وأخفى مساراً ، يحكم حكم الورَّهَاء (٤) ، ويناسب أخلاق
النِّساء " (٥) .

(١) سير أعلام النبلاء : ٢٦٣/٣ .

(٢) الآداب الشَّرعية : ٢٣٩/٢ - ٢٤٠ . وانظر : العلل ومعرفة الرِّجال للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشَّيباني .
تحقيق : د . وصي الله بن محمد عباس . طبعة : المكتب الإسلامي . دار الحاني . بيروت . الرِّياض . الطبعة
الأولى : ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م : ٧٢/٢ . شعب الإيمان : ٣٣١/٢ .

(٣) روضة العقلاء . ص : ٣٥٥ .

(٤) الورَّة : الحُمُقُ في كلِّ عمل . ويقال : السَّخْرُقُ في العمل . و الأورَّة : الذي تُعْرِفُ وتُكْرِمُ وفيه حُمُقٌ
ولكلامه مَخارجُ . وقيل : هو الذي لا يَمالِكُ حُمُقاً . وقد وَرَّهَ وَرَّهًا . وَكَيْسِبُ أَوْرَة : لا يَمالِكُ . وامرأة
وَرَّهَاء : خَرَفَاءُ بالعمل . لسان العرب : ٥٦٠/١٣ .

(٥) روضة العقلاء . ص : ٣٥٦ .

العجلة تحمل على عدم التَّدبُّر والتَّأمُّل وقلة التَّنظُّر في العواقب فيقع الخطأ ومن ثمَّ قيل : إنَّما تكون الزَّلَّة من
العجلة . فيض القدير : ٥٥/٦ .

فالعجلة مذمومة ، محذّر منها ، مرغّب عنها .

ولا يدخل في ذلك المسارعة إلى أداء الطّاعات ، والمبادرة إلى فعل الخيرات ، والمسابقة إلى عمل القربات ، فذلك أمر محبوب ممدوح مرغّب فيه .
لقله سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

وقوله : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١] .

فهذه من باب المبادرة الممدوحة لا العجلة المذمومة .

وقد فرّق بينهما الإمام ابن القيم (رحمه الله) بقوله :

" الفرق بين المبادرة والعجلة : أن المبادرة انتهاز الفرصة في وقتها ولا يتركها حتّى إذا فاتت طلبها ، فهو لا يطلب الأمور في إدارها ولا قبل وقتها ، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته ، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقت كمال نضجها وإدراكها .
... والعجلة طلب أخذ الشيء قبل وقته ، فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها . فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين : أحدهما التفريط والإضاعة ، والثاني الاستعجال قبل الوقت . ولهذا كانت العجلة من الشيطان ، فإنها خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم ، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها ، وتجلب عليه أنواعاً من الشرور ، وتمنعه أنواعاً من الخير ، وهي قرين الندامة ، فقلّ من استعجل إلاّ ندم ، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة " (١) .

(١) الروح . ص : ٢٥٨ .

فالعجلة مذمومة فيما كان المطلوب فيه الأناة ، محمودة فيم يطلب تعجيله من
المسارعة إلى الخيرات ونحوها . وقد يقال لا منافاة بين الأناة والمسارة فإن سارع
بتؤدة وتأنّ تمّ له الأمران . والضابط أن خيار الأمور أوسطها . (١)
فإذا تبين لنا أمر العجلة فعلى الداعية إلى الله أن يتسم بالتأني والتؤدة في
جميع مراحل دعوته ، ويتجنب التهور والاستعجال حتى لا يسقط في منتصف
الطريق بل في مبدئه .

والداعية عليه أن يقوم بواجب دعوته على أكمل وجه ، ويبذل غاية جهده في
إبلاغ دين الله إلى الناس ، ولا يربط ذلك بنتائج عاجلة ، ويجعلها شرطاً في
مواصلة سيره في الدعوة . وهذا سوء فهم ينشأ عند المتعجلين والقاصرين عن
حقيقة الدعوة .

فالدعاة لا يملكون هداية التوفيق للناس ، وإن كانوا يملكون هداية الإرشاد
لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] . فهذه
هداية تعليم وتوجيه ، وأما الأولى التي هي هداية الإلهام والتوفيق فهي بيد الخالق
سبحانه لقوله لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [الفصل: ٥٦] .

فمتى ما قرن الداعية دعوته بتحقيق النتائج العاجلة واستجابة الناس له ، ولم
يحصل له ذلك انقطع به السير . وهذا من العجلة .
وعليه أن يعلم أن تحقق النتائج واستجابة الناس فضل من الله يؤتيه من يشاء ،
وإن لم يحصل ذلك فلا يضر الداعية شيئاً ، وقد استحقّ الأجر بمجرد دعوته ،
ووبال المعصية على صاحبها .

(١) سبل السلام . للأمرير محمد بن إسماعيل الصنعاني . تحقيق : محمد عبد العزيز الخولي . طبعة : دار إحياء التراث
العربي . بيروت . الطبعة الرابعة : ١٣٧٩ هـ : ٢٠١ / ٤ . بتصرف يسير .

وقد يدفع الحماس الزائد والعاطفة وحبّ الدّعوة بعض النّاس إلى مباشرة الدّعوة ومزاولتها ، وهم قليلو العلم الشّرعي ، كثيرو الجهل بطرق الدّعوة وأساليبها ، مع نقص في الحكمة ، وقصور في التجربة ، يتبع ذلك طيش وتهوّر . فهؤلاء يهدمون أكثر ممّا يبنون ، ويفسدون أكثر ممّا يصلحون ، ويبدّدون أعظم ممّا يجمعون ، ويوقعون النّاس في طامّات وبلايا . وينقطع بهم السّير ويفارقهم الثّبات . وقد أساءوا ولم يحسنوا .

من أولئك شباب دفعه التزامه وحبّه إلى الخير إلى قراءة وريقات من كتب العلم - مع تركيزه على قضايا الخلاف فيها - ثمّ بلغ به حماسه أن ينصبّ نفسه داعية من دعاة الإسلام ، وعالماً من علمائه الذين يشار لهم بالبنان - وخاصّة إذا وجد من بين الأحداث من يلتفّ حوله ويمجّده - فيأمر حينئذ وينهى ، ويفتي ويعقب ، ويعدل ويجرّح ، وينتقد ويصحّح ، ويكثر كلامه ويكثر خطؤه لاندفاعه وتهوّره ، وقد يؤدي به الأمر إلى مخاطر لا تحمد ، ومزالق لا تمدح ، ولعلّه ينحرف عن السّير بعد أن يحرف الكثيرين .

فهذا عليه أن يتأنّى أولاً إلى حين اكتمال فقهه ووعيه ، لقول عمر رضي الله عنه له ولأمثاله : " تفقّهوا قبل أن تسودوا " (١) .

ويتأنّى ثانياً إلى حين اكتمال رجولته وتجربته . ويتأنّى ثالثاً في إيلاغ دعوته إلى النّاس ، وتخيّر حسن الأسلوب وطريقة الأداء . ويتأنّى رابعاً في البدء بالأهمّ فالأهمّ ، ولا يشغل النّاس بقضايا جزئية ، وبعضها انصرافية ، وهم محتاجون إلى أصول العلم ومبادئه . وعليه البدء بصغار العلم قبل كباره .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب العلم : (٣). باب الاغتباط في العلم والحكمة : (١٥). ص: ٣٣ . ولا يعني التفقه المطلوب أن ينتظر المسلم حتّى يبلغ منزلة علياء في العلم فيصبح من أصحاب الإفتاء وأرباب الاجتهاد حتّى يبلغ دعوة الله . بل المراد أن ينال المسلم إضافة إلى حصيلته من التّصوص الشرعيّة ولوازمها ملكة شعوريّة وفكريّة لفقه الدّعوة ، وبصيرة تحكم خطواتها وتبثتها على الجادة . وقد قال ﷺ : " بلغوا عني ولو آية " صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب ما ذكر عن بني إسرائيل: (٥١/٥٠) . برقم: (٣٤٦١) . عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه . ص: ٧٣٣ . وانظر : عقبات في طريق الدّعوة . ص: ٨٩-٩٠ .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" الله يحب من عنده العلم والأناة ، فلا يعجل بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ، ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه ، فالعجلة والطيش من الشيطان ، فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وجزم ، ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش ، وعاقبته الندامة ، وعاقبة الأول حمد أمره . ولكن للأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهي الفوت ، فإنه لا يخاف من التثبیت إلا الفوت ، فإذا اقترن به العزم والحزم تم أمره . ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي ﷺ : " اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد " . (١)

وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح ، وما أتى العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما . فما أتى أحد إلا من باب العجلة والطيش ، واستفزاز البداآت له ، أو من باب التهاون والتّمات وتضييع الفرصة بعد مواتاتها ، فإذا حصل الثبات أولاً والعزيمة ثانياً أفلح كل الفلاح والله ولي التوفيق " (٢) .

فالعجلة كاسمها سرعان ما يقطف صاحبها من الدعاة نتاجها ، فينجرف عن إكمال دعوته ، وأداء مهمته ، فيسقط ، ويسقط غيره ، ويفارقه الثبات .

(١) هذا جزء من حديث في :

سنن الترمذي: بلفظ مقارب في: كتاب الدعوات : (٤٤) . باب : (٢٣) . برقم: (٣٤٠٧) . عن شدّاد بن أوس

رحمه الله . قال الألباني (رحمه الله): " ضعيف " . ص: ٥٣٩ .

سنن التّسائي: بلفظه في : كتاب السّهو : (١٣) . باب نوع آخر من الدّعاء : (٦١) . برقم: (١٣٠٤) . قال

الألباني (رحمه الله): " ضعيف " . ص: ١٥٤ .

مسند أحمد: بلفظه في : ١٢٣/٤ . و بلفظ مقارب في: ١٢٥/٤ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب في: باب ذكر جواز دعاء المرء في صلاته بما ليس في كتاب

الله حلّ وعلا . برقم: (١٩٧٤) . قال شعيب الأرناؤوط : " رجاله ثقات إلا أنه منقطع " : ٣١٠/٥ .

(٢) مفتاح دار السعادة : ١٤٢/١ .

المبحث الثامن

البدء بالتوحيد

التوحيد هو : علم العبد واعترافه واعتقاده ، وإيمانه بتفرد الرب بكل صفة كمال وتوحيده في ذلك . واعتقاده أنه لا شريك له في كماله ، وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين (١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله):

" إن التوحيد الذي بُعِثَ به الرّسل أن يُعْبَدَ الله وحده لا شريك له ، فيعبد الله دون ما سواه ، وعبادته تجمع كمال محبته وكمال الذل له " (٢) .

(١) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية . ص : ٤١٧ . وانظر : التعريفات . ص : ٩٦ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٣٥٢/٨ .

والتوحيد قسمان : - الأول : التوحيد القولي العلمي الخيري الاعتقادي . الذي يسمى توحيد المعرفة والإثبات . وهو نوعان : أ- توحيد الربوبية : وهو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير . فيقر العبد ويعتقد أن الله رب كل شيء ومالكة وخالقه ورازقه ، وأنه المحيي المميت المدبر النافع الضار ، الذي ربى جميع خلقه بأصناف النعم ، وربى خواص خلقه بالعقيدة الصحيحة ، والأخلاق الجميلة ، والعلوم النافع ، والأعمال الصالحة . وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام لأن المشركين الذي قاتلهم رسول الله ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم كانوا مقرّين به كما حكى الله ذلك عنهم في آيات كثر . كقوله سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ١٠٠ فذلّكم الله ربكم الحق فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتَى تُصْرَفُونَ ﴿ ١٠١ ﴾ [يونس: ٣١-٣٢] .

ب- توحيد الأسماء والصفات : وهو إفراد الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . فيعتقد العبد أن الله متفرد بالكمال المطلق من جميع الوجوه ، وأنه مبين لخلق ، ومتره عن النقائص والعيوب . فيثبت ما أثبتته سبحانه لنفسه وما أثبتته له رسوله ﷺ بلا تمثيل ، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ بلا تعطيل . قال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٠٢ [الأعراف: ١٨٠] .

والأدلة على ذلك كثيرة جداً ، من ذلك :

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ ﴾ [التحل: ٥١] .

وقوله عز وجل : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١-٤] .

الثاني : التوحيد القصدى الإرادى العملى الطلى : وهو توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد العبادة . وهو الاعتراف والإقرار بأن الله سبحانه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وإفراده بالعبادة كلها ، وإخلاص الدين له ، وينبني على تجريد القصد له سبحانه والحقبة والتعظيم . فيصرف العبد جميع عباداته لله وحده كالخوف والرجاء والتوكل والإنابة والاستعانة والاستغاثة والدعاء والتذلل والذبح ، ولا يجعل فيها شيئاً لغيره سبحانه ، لا لملك مقرب ، ولا لنبى مرسل ، ولا لعبد صالح فضلاً عن غيرهم . لقوله سبحانه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] . وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣] .

وهذا النوع هو الذى وقع فيه النزاع في القدم والحديث ، وعارض فيه الرسل أقوامهم ، وهو معنى قول لا إله إلا الله .

وانظر في بيان أنواع التوحيد : الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة . لابن القيم . تحقيق : د. علي بن محمد الدخيل الله . الطبعة الثالثة : ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م . دار العاصمة . الرياض : ٤٠١/٢ - ٤٠٣ . بدائع الفوائد : ١/١٤٦ . مدارج السالكين : ١/٢٤ - ٢٥ . شرح العقيدة الطحاوية . ص : ٧٦ - ٧٩ . ٨٨ . طبعة المكتب الإسلامى . تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب . طبعة : مكتبة الرياض الحديثة . الرياض : ص : ١٧ - ٢٠ . توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيم . لأحمد بن إبراهيم بن عيسى . تحقيق زهير الشاويش . طبعة المكتب الإسلامى . بيروت . الطبعة : الثالثة : ١٤٠٦ هـ : ٢/٢٥٩ - ٢٦٠ . الكواشف الجلية . ص : ٤١٧ - ٤١٨ .

وقد افتتح رسل الله عليهم السلام جميعاً دعواتهم بالتوحيد فلم يشذ
رسول منهم في بدء دعوته به .

قال تعالى عن نوح على السلام : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ
يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩] (١) .

وقال عن هود عليه السلام : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥] (٢) .

وعن صالح عليه السلام : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٧٣] (٣) .

وعن شعيب عليه السلام : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَلْقَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٨٥] (٤) .

وهكذا عن جميع الرسل عليهم السلام فلم يبدأ رسول دعوته بغير التوحيد .
ولذا عمم الله ذلك عنهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في
الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

(١) وانظر : المؤمنون : ٢٣ .

(٢) وانظر : هود : ٥٠ .

(٣) وانظر : هود : ٦١ .

(٤) وانظر : هود : ٨٤ .

وإمامهم وقوتهم الذي كان أكمل الناس توحيداً صلوات الله وتسليماته عليه
 سار على نهج سلفه من الأنبياء عليهم السلام في بدء دعوته بالتوحيد ، وهو الذي
 أمر بالافتداء بهم في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنَهُمْ
 أَقْتَدَهُ ﴾ [الأنعام: ٩٠] ^(١) . فأى افتداء أعظم من أن ينهج نهجهم في بدء دعوته
 به ^(٢) .

ففي حديث أبي سفيان عندما سأله هرقل عن ما يقوله النبي عليه السلام لهم ؟
 قال : يقول : " اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آبائكم ..
 الحديث " ^(٣) .

وفي حديث أم سلمة (رضي الله عنها) في الهجرة إلى الحبشة عندما سألهم
 النجاشي عن دعوة النبي ﷺ أجابه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله : " دعانا إلى الله
 لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ...
 " . الأثر . ^(٤) . وكان ذلك في مبدأ دعوته .

وقد ظل ﷺ يدعو إلى ذلك في مكة ثلاثة عشر عاماً قبل أن يأمر بصلاة أو
 زكاة أو صوم أو حج ، كما كان ينهى عن الشرك قبل أن ينهى عن ربا أو زنا أو
 سرقة أو قتل نفس بغير حق ^(٥) .

(١) يقول شيخنا الدكتور ربيع بن هادي (حفظه الله) : " تلك هي دعوة الأنبياء جميعاً وعلى رأسهم أولو العزم
 منهم ، الأنبياء الذين يبلغ تعدادهم أربعة وعشرين ألفاً ومائة ألف يسرون في دعوتهم في منهج واحد ، وينطلقون
 من منطلق واحد ، هو التوحيد . أعظم القضايا والمبادئ التي حملوها إلى الإنسانية جميعاً في جميع أجيالهم ومختلف
 بيئاتهم وبلدانهم وأزمانهم ، مما يدل أن هذا هو الطريق الوحيد الذي يجب أن يسلك في دعوة الناس إلى الله ، وستة
 من سننه التي رسمها لأنبيائه وأتباعهم الصادقين ، لا يجوز تبديلها ولا العدول عنها " . منهج الأنبياء في الدعوة إلى
 الله فيه الحكمة والعقل . للدكتور ربيع بن هادي طبعة الدار السلفية . الكويت . الطبعة الأولى :
 ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م . ص : ٢٦-٢٧ .

(٢) انظر : مدارج السالكين : ٤٤٨/٣ .

(٣) سبق تخريجه . انظر : ص : ٣٩٠ .

(٤) سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٤٣ .

(٥) انظر : منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله . ص : ٥ .

وصبر على ذلك صبراً عظيماً متحملاً الإيذاء والبلاء فيه ، لا ينحرف عنه
يمنة ولا يسرة ، وقد ضجّ المشركون من ذلك وضائق عليهم الأرض بما رحبت ،
وبذلوا كلّ ما يستطيعون لإسكاته عن دعوته إليه وما يتبع ذلك من عيب آلهتهم
وبيان بطلانها . ولكنّه ظلّ ثابتاً على الدّعوة إلى التّوحيد لا يلوي عنه . بل ارتبطت
دعوته كلّها به .

قال الطّبري (رحمه الله) في بيان قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى
اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] . قال :

" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد ﴿ هَذِهِ ﴾ الدّعوة التي
أدعو إليها ، والطّريقة التي أنا عليها من الدّعاء إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة
له ، دون الآلهة والأوثان ، والانتهاى إلى طاعته ، وترك معصيته ﴿ سَبِيلِي ﴾
وطريقتي ودعوتي ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ وحده لا شريك له " (١) .

بل القرآن الذي أنزل عليه ﷺ كان كلّ دعوة إلى التّوحيد ونهياً عمّا يناقضه .
فإنّ القرآن إمّا إخبار عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو التّوحيد العلمي
الخبري ، وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه ، فهو
التّوحيد الإرادي الطّلبّي ، وإمّا أمر ونهي وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التّوحيد
ومكمّلاته ، وإمّا خبر عن إكرامه لأهل توحيده ، وما فعل بهم في الدّنيا ، وما
يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وإمّا خبر عن أهل الشّرك وما فعل بهم
في الدّنيا من النّكال ، وما يحلّ بهم في العقبي من العذاب ، فهو جزاء من خرج عن
حكم التّوحيد .

(١) جامع البيان : ١٣/٧٩-٨٠ .

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائمه ، وفي شأن الشرك وأهله
وجزائهم^(١) .

ولذلك ما برح ﷺ قائماً به يدافع عنه ويكافح ، لا يكفّ عن إبلاغه وبيانهِ
للناس ، بل قد جرد السيف في الدّفاع والذّبّ عنه كما قال ﷺ في حديث ابن عمر
(رضي الله عنهما) : " بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتّى يعبد الله وحده لا شريك
له ، وجعل رزقي تحت ظلّ رمحي ، وجعل الذلّ والصغار^(٢) على من خالف
أمري ، ومن تشبّه بقوم فهو منهم " ^(٣) .

وأباح عليه الصلّاة والسلام دماء ونفوس وأموال من لم يقبل دعوة التّوحيد ولم يستجب
لها ، فقال : " أمرت أن أقاتل الناس حتّى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، فمن قال : لا إله إلاّ الله ،
عصم منّي ماله ونفسه إلاّ بحقه ، وحسابه على الله " ^(٤) .
والناس هنا عام مخصوص وهم المشركون الذين يقفون في طريق الدّعوة .

(١) شرح العقيد الطّحاوية . ص : ٨٨-٨٩ . طبعة المكتب الإسلامي . وانظر : تيسير العزيز الحميد . ص : ٢٣ .

شرح قصيدة ابن القيم : ٢٦٠/٢ .

(٢) الصّغار : هو الذلّ والهوان . النهاية في غريب الحديث : ٣٢/٣ .

(٣) مسند أحمد : بلفظه — إلاّ أنّه قال : " الدّلة " — في : ٥٠/٢ . و بلفظه في : ٩٢/٢ . و بلفظ مقارب في :

٥٠/٢ . قال أحمد شاكر (رحمه الله) : " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر : ١٢١/٧ ، ١٢٢ .

٤٤/٨ . برقم : (٥١١٤ ، ٥١١٥ ، ٥٦٦٧) .

(٤) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب استنابة المرتدّين : (٦٣/٨٨) . باب قتل من أبي قبول الفرائض وما نسبوا إلى

الرّدّة : (٣) . برقم : (٦٩٢٤) . ص : ١٤٦١ . وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : (٧١/٩٦) . باب الاقتداء

بسنن رسول الله ﷺ : (٣/٢) . برقم : (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) . ص : ١٥٣١ . عن أبي هريرة ؓ . و بلفظ مقارب

في : كتاب الإيمان : (٢) . باب ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾

[التوبة : ٥] : (١٧) . برقم : (٢٥) . ص : ١٩ . عن ابن عمر (رضي الله عنهما) . وفي كتاب الزّكاة : (٧/٢٤) .

باب وجوب الزّكاة : (١) . برقم : (١٣٩٩) . ص : ٢٩٥ . وفي كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب دعاء

التي ﷺ إلى الإسلام والتّوبة : (١٠١/١٠٢) . برقم : (٢٩٤٦) . ص : ٦٢١ . عن أبي هريرة ؓ . و نحوه في :

كتاب الصلّاة : (٥/٨) . باب فضل استقبال القبلة : (٢٨) . برقم : (٣٩٢) . ص : ١٠٠ . عن أنس ؓ .

صحيح مسلم : بلفظه — إلاّ أنّه قال : " فقد عصم " — في كتاب الإيمان : (١) . باب الأمر بقتال الناس حتّى

يقول لا إله إلاّ الله : (٨) . برقم : (٢٠) . و بلفظه برقم : (٢١) . عن أبي هريرة ؓ . و بلفظ مقارب برقم :

(٢١) . عن أبي هريرة وجابر (رضي الله عنهما) . و برقم : (٢٢) . عن ابن عمر (رضي الله عنهما) .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله) :

" وقد عُلِمَ بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتَّفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأوّل ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلماً ، والعدوّ وليّاً ، والمباح دمه وماله معصوم الدّم والمال ، ثمّ إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان ، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان ، وفيه البداءة في الدّعوة والتّعليم بالأهمّ فالأهمّ " (١) .

وكان صلوات الله وتسليماته عليه يأمر دعائه أن يفتتحوا دعوتهم بالتّوحيد ، وينهاهم أن ينتقلوا إلى غيره إلّا بعد أن يقرّهم الناس عليه .

عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى نحو أهل اليمن ، قال له : " إنك تقدّم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أوّل ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا صلّوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فتردّ على فقيرهم ، فإذا أقرّوا بذلك فخذ منهم وتوقّ كرائم أموال الناس " (٢) .

فقد رتب ﷺ شرائع الإسلام في الدّعوة إليه وبدأ بالأهمّ فالأهمّ ، والأوكد فالأوكد (٣) .

فالتّوحيد أوّل دعوة الرّسل ، وأوّل منازل الطّريق ، وأوّل مقام يقوم فيه السّالك إلى الله عزّ وجلّ ، وهو أوّل الدّين وآخره وباطنه وظاهره ، ، ولأجله خلقت الخليقة وأرسلت الرّسل وأنزلت الكتب ، ولأجله افترق الناس إلى مؤمنين وكفّار وأهل جنّة وأهل نار . وهو أوّل واجب على المكلف ، وأوّل ما يدخل به الإسلام ،

(١) تيسر العزيز الحميد . ص : ١٠١ .

(٢) سبق تخريجه : انظر : ص : ٤٧٢ .

(٣) انظر : المفهم : ١٨٢/١ . شرح التّووي على مسلم : ١٩٨/١ . منهج الأنبياء في الدّعوة إلى الله . ص : ٤ .

وآخر ما يخرج به من الدنيا . كما قال ﷺ : " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ^(١) " ^(٢) .

وأهمية التوحيد لا تقف عند هذا الحد لكي يبدأ بالدعوة به ، بل هي تفوق كل وصف ، وتتجاوز كل قدر . من ذلك :

١- إنه أحب أمر إلى الله تعالى ، كما أن الشريك الذي يناقضه أبغض أمر إليه سبحانه ^(٣) .

٢ - إنه أفضل ما نطق به الناطقون كما قال ﷺ : " أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له " ^(٤) .

(١) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الجنائز : (٢٠) . باب في التلقين : (١٥/١٦) . برقم: (٣١١٦) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٣٥٣ .

مسند أحمد: بلفظه — إلا إله قال : " وحب له الجنة " — في ٢٣٣/٥ . ٢٤٧ .

مستدرک الحاكم: بلفظه في : ٥٠٣/١ ، ٦٧٨ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .

معجم الطبراني الكبير: بلفظه في : ١١٢/٢٠ .

معجم الطبراني الأوسط : ولفظه : " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم يدخل النار " . عن علي ﷺ :

٣٤٢/١ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية . ص : ٧٤-٧٥ . طبعة المكتب الإسلامي . وانظر : شفاء العليل . ص :

١٣٩ . مدارج السالكين : ٤٤٣-٤٤٤ . تيسير العزيز الحميد . ص : ٢٠-٢٣ .

عقد الإمام محمد بن إسحاق بن مندة (رحمه الله) في كتابه الإيمان . باباً ذكر فيه أن أول ما يدعى إليه العبد التوحيد ثم الصلوات الخمس ثم الزكاة . وذكر حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) في بعث معاذ إلى اليمن وحديث أبي هريرة ﷺ في قتال أبي بكر مانعي الزكاة . ٣٧٩/١ . تحقيق : علي بن محمد بن ناصر الفقيهي . طبعة : مؤسسة الرسالة بيروت . الطبعة الثانية : ١٤٠٦هـ .

(٣) انظر : الاستقامة : ٥٨/٢ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى : ٣٥١/٢ . والحديث في :

سنن الترمذي: بلفظ مقارب في: كتاب الدعوات : (٤٤) . باب في دعاء يوم عرفة : (١٢٢) . برقم:

(٣٥٨٥) . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . قال أبو عيسى : " هذا حديث غريب من هذا الوجه " .

وقال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص: ٥٦٢ .

موطأ مالك : بلفظه في : كتاب القرآن : (١٥) . باب ما جاء في الدعاء : (٨) . برقم: (٣٢) . ٢١٥/١ . وفي

كتاب الحج : (٢٠) . باب جامع الحج : (٨١) . برقم: (٢٤٦) . عن طلحة بن عبيد الله بن كريب .

٤٢٣-٤٢٢/١ .

وأشرف علم على الإطلاق (١) .

٣ - يندفع به كيد الشيطان ، ويحترز به صاحبه منه .

يقول ابن القيم (رحمه الله) في بيان قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [التح: ٩٩-١٠٠] يقول :

" فتضمن ذلك أمرين : أحدهما : نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص . والثاني : إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه . ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأن: ٨٢-٨٣] . فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله عز وجل ، وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله ، وإنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله . فهو لاء رعيته ، فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم " (٢) .

وأعظم أمر يظفر به الشيطان من بني آدم أن يجردّه من التوحيد ويلقي به في الشرك ، فحينئذ يستريح من تعبهِ وكده ، وقد بلغ أعلا ما يناله منه ، فيصير حينها ابن آدم من جنده وعسكره ، بل ربّما استتابه على أمثاله وأشكاله فيصبح داعية من دعائه (٣) .

سنن البيهقي: بلفظه في : باب الاختيار للحاج في ترك صوم يوم عرفة . ٢٨٤/٤ . وفي باب أفضل الدعاء دعاء

يوم عرفة . ١١٧/٥ . عن طلحة رضي الله عنه .

(١) انظر : أعلام الموقعين : ٥/١ .

(٢) إغاثة اللّهفان : ٩٨/١-٩٩ .

(٣) انظر : بدائع الفوائد : ٤٨٣/٢ .

٤ - إِنَّهُ مَفْزَعُ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِهِ .

فَأَمَّا أَعْدَاؤُهُ فَيُنْجِيهِمْ مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا وَشِدَائِهَا ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا

هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥] .

وَأَمَّا أَوْلِيَائُوهُ فَيُنْجِيهِمْ بِهِ مِنْ كَرِبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَشِدَائِهَا ، وَلِذَلِكَ فَزَعَ إِلَيْهِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَنَجَّاهُ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ ^(١) ، وَفَزَعَ إِلَيْهِ أَتْبَاعَ الرَّسْلِ فَنَجَّاهُ بِهِ مِمَّا عَذَبَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي الدُّنْيَا وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ . وَلَمَّا فَزَعَ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ عِنْدَ مَعَايِنَةِ الْهَلَاكِ ، وَإِدْرَاكِ الْغَرَقِ لَهُ لَمْ يَنْفَعَهُ ^(٢) لِأَنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمَعَايِنَةِ لَا يَقْبَلُ ، هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ .

فَمَا دَفَعَتْ شِدَائِدَ الدُّنْيَا بِمِثْلِ التَّوْحِيدِ . وَلِذَلِكَ كَانَ دَعَاءُ الْكَرْبِ ^(٣) بِالتَّوْحِيدِ ^(٤) ،

(١) وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَذَا الثَّنُونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨] .

(٢) وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَجَلَّوْنَا بَيْنَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمَا فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَقَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٦﴾ ءَالْكَافِرِينَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٧﴾ [يونس: ٩٠-٩١] .

(٣) الْكَرْبُ : عَلَى وَزْنِ الضَّرْبِ : الْحُزْنُ وَالْغَمُّ الَّذِي يَأْخُذُ بِالنَّفْسِ . وَجَمْعُهُ كُرُوبٌ . وَكَرْبُهُ الْأَمْرُ وَالْغَمُّ يَكْرُبُهُ كَرْبًا : اشْتَدَّ عَلَيْهِ . فَهُوَ مَكْرُوبٌ وَكَرِيبٌ . وَالاسْمُ الْكُرْبَةُ . انظر : لسان العرب : ٧١١/١ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ١٦٦ .

(٤) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ : " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ . لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ " .

ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله كربه بالتوحيد ^(١) .
فلا يلقي في الكرب العظام إلا الشّرك ، ولا ينجي منها إلا التّوحيد ، فهو
مفرع الخليفة وملجؤها وحصنها وغيائها ^(٢) .

٥ - لا تقوم للأعمال قائمة إلا إذا أسست عليه ، ولا تنفع طاعة إلا إذا أقيمت
عليه . بل متى ما فقد التّوحيد حبط ثواب جميع الطّاعات ولم ينتفع بها صاحبها .
قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ

لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥] .

وعدّد سبحانه جماعة عظيمة من الرّسل والأنبياء ثم قلل : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا

لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨] .

صحيح البخاري: في كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب الدّعاء عند الكرب : (٢٧) . برقم: (٦٣٤٦) . ص :
١٣٥٤-١٣٥٣ . صحيح مسلم: في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب دعاء الكرب :
(٢١) . برقم: (٢٧٣٠) . ٢٠٩٢/٤ .

وعن أبي بكره ؓ . أنّ رسول الله ﷺ قال : " دعوات المكروب : اللهمّ رحمتك أرجو . فلا تكليني إلى نفسي
طرفة عين . واصلح لي شأني كلّ . لا إله إلا أنت " . سنن أبي داود: في كتاب الأدب : (٤٠) . باب ما يقول
إذا أصبح : (١٠١/١٠٠) . برقم: (٥٠٩٠) . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٥٤٩ . مسند أحمد:
٤٢/٥ . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: في باب ذكر وصف دعوات المكروب . برقم: (٩٧٠) . قال
شعيب الأرناؤوط : " إسناده محتمل للتّحسين " . ٢٥٠/٣ .

(١) عن سعد بن أبي وقاص ؓ . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرّج
الله عنه . كلمة أحى يونس ؓ : ﴿ فَتَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي

كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] . وهو صحيح الإسناد . كتاب الأذكار لأبي زكريا يحيى بن
شرف التّووي . تحقيق : بشير محمد عيون . طبعة : مكتبة المؤيد . الطائف . مكتبة دار البيان . دمشق . الطبعة
الثّانية : ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م . دمشق . بيروت : ص : ١٦٥ مع الهامش . وانظر : سنن الترمذي: كتاب
الدّعوات : (٤٤) . باب : (٨١) . برقم: (٣٥٠٥) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٥٥٢ . سنن
البيهقي: ١٦٨/٦ . مستدرک الحاكم: ٦٨٤/١ . ٦٨٥ ، ٦٣٧/٢ ، ٦٣٩ . مسند أبي يعلى: ٦٥/٢ . برقم:
(٧٠٧) . عمل اليوم والليلة لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب التّسائي . تحقيق : د . فاروق حمادة . طبعة :
مؤسسة الرّسالة . بيروت . الطبعة الثّانية : ١٤٠٦هـ : ص : ٤١٥-٤١٦ . برقم: (٦٥٦ . ٦٥٥) .

(٢) الفوائد . ص : ٥٣ بتصرّف .

إن العاص بن وائل ^(١) نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة ، وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين بدنة ، وأن عمراً سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال : " أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك " ^(٢) .

٦ - إنه يجلب لصاحبه الأمن التام في الدنيا والآخرة .

فقد حكى الله عن خليفه إبراهيم عليه السلام أنه قال في حاجته لقومه : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨١] . ففصل الله بحكم قاطع بين الفريقين فقال : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] .

وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه فسّر الظلم هنا بالشرك ، وأيد ذلك بقول لقمان (رحمه الله) : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] ^(٣) .

(١) العاص بن وائل بن هاشم السهمي ، القرشي ، أحد الحكّام في الجاهلية ، ومن زعماء بني سهم ، والد الصحابين الجليلين عمرو وهشام (رضي الله عنهما) ، أدرك الإسلام فلم يسلم ، ومات على كفره ، وكان من المستهزئين بالإسلام وبالتالي ﷺ . انظر : الأعلام : ٢٤٧/٣ .

(٢) مسند أحمد : بلفظه في : ١٨١/٢ - ١٨٢ . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . قال أحمد شاكر (رحمه الله) : " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر : ١٧٦/١٠ . برقم : (٦٧٠٤) . و انظر : مجمع الزوائد : ١٩٢/٤ .

(٣) انظر : صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ

إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥] : (٩/٨) . برقم : (٣٣٦٠) . ص : ٧٠٧ . و باب قول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ [لقمان: ١٢] : (٤٢/٤١) . برقم : (٣٤٢٩) .

ص : ٧٢٦ . و كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . سورة لقمان [٣١] . باب ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ

لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] : (١) . برقم : (٤٧٧٦) . ص : ١٠٢٨ - ١٠٢٩ . و كتاب استنباط

فالتوحيد أقوى سبب للأمن من المخاوف ، وضده الشرك الذي هو أعظم أسباب حصول المخاوف^(١) .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" فإذا جرّد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه ، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله تعالى ، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمّته منه وخرج من قلبه اهتمامه به ، واشتغاله به ، وفكره فيه ، وتجرّد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً واشتغالاً به عن غيره . فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده ... فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الأمنين . قال بعض السلف : " من خاف الله خافه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء " (٢) .

٧- إنه أعظم عامل للاستخلاف والتمكين^(٣) في الأرض .

قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التور: ٥٥] .

المرتدين : (٦٣/٨٨) . باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة : (١) . برقم : (٦٩١٨) . ص :

١٤٦٠ . و باب ما جاء في المتأولين : (٩) . برقم : (٦٩٣٧) . ص : ١٤٦٤ .

صحيح مسلم : كتاب الإيمان : (١) . باب صدق الإيمان وإخلاصه : (٥٦) . برقم : (١٢٤) . ١١٥/١ - ١١٤ .

(١) انظر : مفتاح دار السعادة : ٢٧٣/٢ .

(٢) بدائع الفوائد : ٤٦٩/٢ - ٤٧٠ . روى القضاعي الأثر بسنده مرفوعاً . عن واثلة بن الأسقع ؓ قال : قال

رسول الله ﷺ : " من خاف الله خوفاً منه كل شيء ومن لم يخف الله خوفاً منه كل شيء " .

مسند الشهاب : ٣٦٥/١ . قال المنذري : " ورفع منكر " . الترغيب والترهيب : ١٣٤/٤ .

(٣) التمكن هو : مقام الرسوخ والاستقرار على الاستقامة . التعريفات . ص : ٩٢ .

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أي أئمة الناس والولادة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، ويخضع لهم العباد . وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى ، وله الحمد والمنة^(١) .

وقد قال ﷺ في حديث أبي بن كعب ؓ : " بشر هذه الأمة بالسَّناء^(٢) والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب " ^(٣) .

فقوله سبحانه : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" ليورثهم الله أرض المشركين من العرب والعجم فيجعلهم ملوكها وساستها " ^(٤) .

وقال البيضاوي (رحمه الله) :

" ليجعلهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم " ^(٥) .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٤٨٠/٣ .

(٢) قال ابن الأثير (رحمه الله) :

" بَشَّرَ أُمَّتِي بالسَّناء : أي بارتقاع المنزلة والقدر عند الله تعالى وقد سَيَّ سَنَاء أي ارتفع والسَّنى بالقصر الضوء " . النهاية في غريب الحديث : ٤١٤ / ٢ .

(٣) مسند أحمد: بلفظه في : ١٣٤/٥ . مع زيادة : " وهو يشك في السادسة " . و بلفظه في نفس الصفحة ولم يذكر : " الدين " . ونحن منه في الموضع نفسه .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: نحوه في: باب ذكر وصف إشراف المرء بالله جلّ وعلا في عمله . برقم: (٤٠٥) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده حسن " . ١٣٢/٢ .

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ٣٤٦/٤ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . وقال الذهبي (رحمه الله): " صحيح " . وهو في صحيح الجامع : برقم : (٢٨٢٥) . ٥٤٥/١ . وانظر : تفسير القرآن العظيم :

٤٨٣/٣ .

(٤) جامع البيان : ١٥٨/١٨ . طبعة دار الفكر . وانظر : معالم التنزيل : ٣٥٣/٣ - ٣٥٤ .

(٥) أنوار التنزيل : ١٩٧/٤ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ .

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها ، ويظهر دينهم على سائر الأديان " (١) .

وقال ابن جرير (رحمه الله) :

" وليوطنن لهم دينهم ، يعني ملتهم التي ارتضاها لهم فأمرهم بها " (٢) .

وقال السعدي (رحمه الله) :

" بأن يتمكّنوا من إقامته - أي : الإسلام - وإقامة شعائره الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم ، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين " (٣) .

ولا ينال هذه الوعود الصادقة إلا من حقق التوحيد ، لأن المولى سبحانه شرط حصول ذلك بقوله : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ .

ولذا قال البيضاوي (رحمه الله) :

" ﴿ يَعْبُدُونَنِي ﴾ حال من الذين ، لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد ، أو استئناف ببيان المقتضى للاستخلاف والأمن " (٤) .

٨ - إنه يجمع بين القلوب ، ويوحّد بين الشّئات ، وعليه تجتمع الكلمة ويتّحد الهدف .

فالمسلمون أمة واحدة ، يتساوون في الحقوق والواجبات ، لا تفرّق بينهم الألوان أو الأجناس أو الأوطان ، وتلك الوحدة أعظم مظهر للإسلام ، ولا يتأتّى لهم

(١) معالم التنزيل : ٣/٣٥٤ . وانظر : فتح القدير : ٤/٤٧ .

(٢) جامع البيان : ١٨/١٥٩ . طبعة دار الفكر .

(٣) تيسير الكريم الرحمن . ص : ٥٢١ .

ذكر الاستخلاف أولاً ، وهو جعلهم ملوكاً ، ثم ذكر التمكين ثانياً ليفيد أن الملك على وجه الاستقرار والثبات لهم ولعقبهم من بعدهم . وليس أمراً طارئاً . انظر : فتح القدير : ٤/٤٧ .

(٤) أنوار التنزيل : ٤/١٩٨ .

ذلك إلا إذا صفت قلوبهم ، وخلصت ضمائرهم فأفردوا إلههم الواحد سبحانه بالعبودية ولم يشركوا معه سواه . ولو أشركوا لوقع بينهم التفرق والشّاتات الذي حذرهم معبودهم سبحانه منه لأنه سمة بارزة لأهل الشرك ، وذلك في قوله :

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣١﴾ [الروم: ٣١-٣٢]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" أهل التوحيد فإنهم يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً في بيوته التي قد أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ^(١) ، مع أنه قد جعل لهم الأرض كلّها مسجداً وطهوراً ^(٢) ، وإن حصل بينهم تنازع في شيء مما يسوغ فيه الاجتهاد لم يوجب ذلك لهم تفرقاً ولا اختلافاً : بل هم يعلمون أن المصيب منهم له أجران ، وأن المجتهد المخطئ له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور له ^(٣) ، والله هو معبودهم وحده ، إياه يعبدون ، وعليه يتوكلون ، وله يخشون ويرجون ، وبه يستعينون ويستغيثون ، وله يدعون ويسألون " ^(٤) .

(١) وذلك لقوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا

بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ رجالٌ لا تُلْهِيمُهُمْ تجرّةً ولا بيعَ عن ذكرِ الله وإقامِ الصلوة وإيتاء الزّكوة يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوبُ والآبصارُ ﴾ [التور: ٣٦-٣٧] .

(٢) وذلك لقوله ﷺ : " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي .. الحديث " . وفيه : " وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً . فأَيُّما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان " صحيح مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة : (٥) . برقم : (٥٢١) / ١ - ٣٧٠ - ٣٧١ .

(٣) وذلك لقوله ﷺ في حديث عمرو بن العاص ﷺ : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " . صحيح البخاري : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : (٧١/٩٦) . باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ : (٢٢/٢١) . برقم : (٧٣٥٢) . ص : ١٥٤٣ . صحيح مسلم : كتاب الأفضية : (٣٠) . باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ : (٦) . برقم (١٧١٦) . ١٣٤٢/٣ .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم . لشيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق : محمد حامد الفقي . مطبعة السنة المحمدية . القاهرة . الطبعة الثانية : ١٣٦٩م : ص : ٤٥٧ .

٩ - إنه يعصم مال العبد ودمه ، فلا يؤخذ ماله ولا يسفك دمه إلا بحق شرعي .

قال ﷺ : " من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حَرَّمَ ماله ودمه وحسابه على الله " .

وفي الرواية الثانية : " من وحد الله " . ثم ذكر بمثله (١) .

١٠ - إنه أعظم سبب لمغفرة الذنوب وتكفيرها لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ

أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا

عَظِيمًا ۝ ﴾ [النساء: ٤٨] .

فمن نُقض توحيدِهِ ومات على ذلك فلا يغفر ذنبه ، ولا يتجاوز له عن سيئاته ، وأما الموحد فذنوبه يُرجى لها المغفرة ولو بلغت ما بلغت . كما ثبت ذلك من حديث أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " قال الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان (٢) السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " (٣) .

لقد وفق شيخ الإسلام (رحمه الله) في تسطير هذه الكلمات المضيفة . وفيها لفتة انتباه حادة لدعاتنا اليوم الذين ربط بينهم التوحيد الذي هو أصل أصيل وركن ركين في هذا الدين . ولكنهم افترقوا في أمور من الاجتهاد لا تبلغ بهم ما هم فيه من تناحر وتباغض . بل وصل الأمر ببعضهم إلى الطعن في إخوانه الدعاة وإبراز عيوبهم والرد عليهم . والأمة في أمس الحاجة إلى نصحتهم وتوجيههم ، وهي تعاني من خلل عظيم في أعظم جوانب الإسلام . ويفعلهم ذاك زادوها تفرقاً وشتاتاً وانقساماً .

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله : (٨) . برقم: (٢٣) . عن أبي مالك عن أبيه ﷺ . ٥٣/١ .

(٢) العنان بالفتح : السحاب ، والواحدة عنانة . وقيل ماعن لك منها ، أي اعترض وبدا لك إذا رفعت رأسك ويروى أغنان السماء أي تواجيها ، واجلها : عَنَنْ ، وَعَنْ . النهاية في غريب الحديث : ٣١٣/٣ . وانظر : غريب الحديث للهيروي : ٨٤-٨٣/٤ . الفائت : ٣٣/٣ .

(٣) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب الدعوات : (٤٤) . باب خلق الله مائة رحمة : (٩٨) . برقم: (٣٥٤٠) . وقال : " هذا حديث حسن غريب " . وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٥٥٧ .

قال ابن رجب (رحمه الله) في معرض بيانه للحديث السابق :

" من أسباب المغفرة التّوحيد ، وهو السّبب الأعظم ، فمن فقدّه فقد المغفرة ، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة ... فمن جاء مع التّوحيد بقواب الأرض - وهو ملؤها ، أو ما يقارب ملأها^(١) - خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة ، لكن هذا مع مشيئة الله عزّ وجلّ ، فإن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه بذنوبه ، ثمّ كان عاقبته ألاّ يخلد في النّار ، بل يخرج منها ، ثمّ يدخل الجنّة ... فمن تحقّق بكلمة التّوحيد قلبه أخرجت منه كلّ ما سوى الله محبةً وتعظيماً ، وإجلالاً ومهابةً ، وخشيةً ، ورجاءً ، وتوكلاً ، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياها كلّها ، ولو كانت مثل زبد البحر ، وربما قلبتها حسنات ... فإنّ هذا التّوحيد هو الإكسير^(٢) الأعظم ، فلو وضع ذرة منه على جبال الذّنوب والخطايا لقلبها حسنات " (٣) .

١١ - إنّ أعظم سبب لدخول الجنّة والنّجاة من النّار .

عن جابر رضي الله عنه : أتى النّبي ﷺ رجلٌ فقال : " يا رسول الله : ما الموجبتان ؟ فقال : " من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النّار " (٤) .

سنن الدارمي: بلفظ مقارب . مع تقديم وتأخير . في باب إذا تقرب العبد إلى الله . عن أبي ذر رضي الله عنه . ٤١٤/٢ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب مع تقديم وتأخير . في : ١٦٧/٥ . ١٧٢ . ونحوه في : ١٥٤/٥ . عن أبي ذر رضي الله عنه .

(١) انظر : التّهاية في غريب الحديث : ٣٤/٤ .

(٢) الإكسير : هو الكميء . القاموس المحيط : ص : ٦٠٤ .

(٣) جامع العلوم والحكم : ص : ٣٩٨ . وانظر كلاماً قيماً جداً للإمام ابن القيم (رحمه الله) حول هذا المعنى في :

إغاثة اللّهفان : ٦٤/١ . أعلام الموقعين : ٢٢٦/١ . هداية الخياري في أحوبة اليهود والنصارى . طبعة الجامعة

الإسلامية . المدينة المنورة : ص : ١٣٠ . وانظر : اعتقاد أئمة الحديث لأبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي .

تحقيق : محمد بن عبد الرحمن الخميس . طبعة : دار العاصمة . الرياض . الطبعة الأولى : ١٤١٢ هـ : ص : ٦٤ .

تيسير العزيز الحميد . ص : ٧٣-٧٥ .

(٤) صحيح البخاري: بنحو منه عن ابن مسعود رضي الله عنه من قوله . في كتاب الجنائز : (٦/٢٣) . باب في الجنائز . ومن

كان آخر كلامه لا إله إلا الله : (١) . برقم : (١٢٣٨) . ص : ٢٦١ .

صحيح مسلم: بلفظه و بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان : (١) . باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة :

(٤٠) . برقم : (٩٣) . ونحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه . برقم : (٩٢) . ٩٤/١ .

وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة " (١) .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ : " أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبد غير شاكّ فيهما إلا دخل الجنة " (٢) .

وفي حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : " فإن الله قد حرّم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله " (٣) .

(١) المرجع السابق : بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب الدليل على أن مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً : (١٠) . برقم : (٢٦) . ٥٥/١ .

(٢) صحيح البخاري : نحوه في : كتاب الشّركة : (٢٣/٤٧) . باب الشّركة في الطّعام والتّشهد والعروض : (١) . برقم : (٢٤٨٤) . عن سلمة رضي الله عنه . ص : ٥١٧ . وفي كتاب الجهاد والسير : (٥٦/ ٣٢) . باب حمل الرّزاد في الغزو : (١٢٢/١٢٣) . برقم : (٢٩٨٢) . عن سلمة رضي الله عنه . ص : ٦٢٨ . صحيح مسلم : بلفظه و بلفظ مقارب في : كتاب الإيمان : (١) . باب الدليل على أن مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً : (١٠) . برقم : (٢٧) . ٥٧-٥٦/١ .

(٣) هذا جزء من حديث في :

صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب الصّلاة : (٥/٨) . باب المساجد في البيوت : (٤٦) . برقم : (٤٢٥) . ص : ١٠٦ . وفي كتاب التّهجد (الصّلاة) : (٥/١٩) . باب صلاة التّوافل جماعة : (٥١٣/٣٦) . برقم : (١١٨٦) . ص : ٢٤٩ . وفي كتاب الأطعمة : (٤٤/٧٠) . باب الخزيرة : (١٥) . برقم : (٥٤٠١) . ولم يقل : " قد " . ص : ١١٨٤ . ونحوه في : كتاب استتابة المرتدّين : (٦٣/٨٨) . باب ما جاء في المتأولين : (٩) . برقم : (٦٩٣٨) . ص : ١٤٦٤ . صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب المساجد ومواضع الصّلاة : (٥) . باب الرّخصة في التّخلف عن الجماعة بعذر : (٤٧) . برقم : (٣٣) . ٤٥٦/١ .

وقد اشتهر عند كثير من الناس أن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ولو لم يعمل عملاً . فيكفيه قولها . وهذا زعم خاطئ . فإن : لا إله إلا الله لها لوازم وحقوق يجب على القائل ها أن يلتزم بها وإلا لم ينتفع بها . ولا شك أن : لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والتّجاة من النار ومقتضى لذلك . ولكنّ المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه . فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه ، أو لوجود ما نع . ولهذا قيل للحسن (رحمه الله) : إن ناساً يقولون : من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة . فقال : " من قال : لا إله إلا الله فأدّى حقّها وفرضها دخل الجنة " . وقال وهب بن منبه (رحمه الله) لمن سأله : أليس : لا إله إلا الله . مفتاح الجنة ؟ قال : " بلى . ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان . فإن حنت بمفتاح له أسنان فتح لك . وإلا لم يفتح " . ويدلّ على ذلك أن الله ربّ دخول الجنة على الإيمان والأعمال الصّالحة . وكذلك التّبي ﷺ كما في الصّحاحين عن أبي أيوب رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى التّبي ﷺ فقال : دلّني على عمل أعمله يدني من الجنة ويباعدني من النار ؟ قال :

والنصوص في ذلك كثيرة جداً وكلّها تفيد أنّ الموحد يدخل الجنة ، سواء كان دخوله دخولاً أولياً ، أو يدخلها بعد ما ينال قسطاً من العذاب في النار على معاصيه التي مات مصراً عليها . إذ لا يخلد في النار إلاّ المشرك ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢] .

وقد ثبت أنّ بعض أهل التوحيد يدخلون النار ولكن لا يخلّدون فيها كما جاء في حديث جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتّى يكونوا فيها حُمَمًا ^(١) ، ثمّ تدركهم الرحمة فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة ، قال : فيرُسُّ عليهم أهل الجنة الماء فينبِتون كما ينبت الغنّاء ^(٢) في حمالة السّيل ^(٣) ، ثمّ يدخلون الجنة " ^(٤) .

" تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل ذا رحمك " . صحيح البخاري: كتاب الزكاة : (٧/٢٤) . باب وجوب الزكاة : (١) . برقم: (١٣٩٦) . ص: ٢٩٤ . صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة : (٤) . برقم: (١٣) . ٤٢/١ - ٤٣ . تيسير العزيز الحميد . ص: ٦٩-٧٠ . وانظر : الوابل الصّيب من الكلم الطّيب لابن قيم الجوزية . تحقيق : محمد عبد الرحمن عوض . طبعة : دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م : ص: ٣٣ .

(١) حُمَمًا : جمع حُمّة وهي الفحمة . يقال : رجل مُحَمَّم : أي مُسَوّد الوجه وهو مُفْعَل من الحُمم . ويقال فلان أسود كأنه الحُمم . ومنه يقال رجل أحَمّ وامرأة حَمَاء إذا كانا أسودَيْن . انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٥٢٣/١ . وانظر : غريب الحديث للمهروي : ١٩٣/١ . الفائق : ٣٢١/١ . النهاية في غريب الحديث : ٤٤٤/١ .

(٢) الغنّاء بالصّتم والمدّ : ما يجيء فوق السّيل ممّا يحمله من الزّبد والوسخ وغيره . النهاية في غريب الحديث : ٣٤٣/٣ .

(٣) حمالة السّيل : وهو ما يجيء به السّيل من طين أو غنّاء وغيره . فشبه به سرعة عود أبدانهم وأجسامهم إليهم بعد إحراق النّار لها . انظر : النهاية في غريب الحديث : ٤٤٢/١ .

(٤) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب صفة جهنّم : (٣٦) . باب : (١٠) . برقم: (٢٥٩٧) . وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٤٢١ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٣٩١/٣ .

وهذا الحديث أصله في الصحيحين . انظر :

صحيح البخاري: كتاب الإيمان : (٢) . باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال : (١٥) . برقم: (٢٢) . ص: ١٨-١٩ . وكتاب الرقاق : (٥٥/٨١) . باب صفة الجنة والنار : (٥١) . برقم: (٦٥٦٠) . ص: ١٣٩٢ .

ولذلك قال الترمذي (رحمه الله) :

" إنَّ أهل التَّوْحِيدِ سيدخلون الجنَّةَ ، وإن عَذَّبوا بالنَّارِ بذنوبهم فإنَّهم لا يخلَّدون في النَّارِ " (١) .

١٢ - إنَّه أعظم سبب لنيل الشَّفاعَةِ (٢) يوم القيامة .

فقد بيَّن سبحانه أنَّ الشَّفاعَةَ كُلُّها له فقال : ﴿ قُلِ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ

مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٤] .

كما بيَّن أنَّها لا تقع يوم القيامة إلَّا إذا أذن للشافِعِ ، ورضي عن المشفوع فيه

لقوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب إثبات الشَّفاعَةِ وإخراج الموحَّدين من النَّارِ : (٨٢) . برقم : (١٨٤) : ١٧٢/١ .

(١) سنن الترمذي: ص: ٤٢٨ . ونسبه إلى بعض أهل العلم .

والقاعدة الجامعة في ذلك ما نص عليه الإمام التتوي (رحمه الله) بقوله :

" واعلم أنَّ مذهب أهل السَّنة وما عليه أهل الحقِّ من السَّلف والخلف : أنَّ من مات موحِّداً دخل الجنَّة قطعاً على كلِّ حال . فإن كان سالماً من المعاصي كالصَّغير والمجنون والذي اتَّصل جنونه بالبلوغ والثَّابت توبة صحيحة من الشُّرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته . والموفق الذي لم يتبل بمعصية أصلاً . فكلُّ هذا الصَّنَف يدخلون الجنَّة ، ولا يدخلون النَّار أصلاً ، لكنَّهم يردونها على الخلاف المعروف في الورد ... وأمَّا من كانت له معصية كبيرة ، ومات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى ، فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنَّة أولاً وجعله كالقسم الأوَّل . وإن شاء عَذَّبَه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى ثُمَّ يدخله الجنَّة فلا يخلد في النَّار أحد مات على التَّوحيد ولو عمل من المعاصي ما عمل . كما أنَّه لا يدخل الجنَّة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل . هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحقِّ في هذه المسألة . وقد تظاهرت أدلَّة الكتاب والسَّنة وإجماع من يعتدُّ به من الأئمة على هذه القاعدة . وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعي " .

شرح التتوي على مسلم : ٢١٧/١

(٢) قال الرَّاغِب (رحمه الله) :

" الشَّفاعَةُ : الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه . وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة

إلى من هو أدنى . ومنه الشَّفاعَةُ في القيامة " . المفردات . ص : ٢٦٣ .

وقال الجورجاني (رحمه الله) :

" الشَّفاعَةُ : هي السَّؤال في التجاوز عن الذَّنوب من الذي وقع الجنابة في حقِّه " . التعريفات . ص : ١٦٨ .

وقوله : ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس: ٣] .

وقوله : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء: ٢٨] .

وجمع بين الشرطين في قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ

الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩] .

وقوله : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ

أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [التجم: ٢٦] .

وهذا لا يتأتى إلا لأهل التوحيد الذين جردوا التوحيد وخلصوه من شوائب

الشرك ، فهم الذين ارتضاهم الله سبحانه .

وأما أهل الشرك فلا يرضاهم ولا يرضى قولهم ، ولا يأذن بالشفاعة فيهم ^(١) .

بل الشفاعة في حقهم منفية لأنهم جعلوا وسائط بينهم وبين الله في جلب ما ينفعهم
ودفع ما يضرهم ، زاعمين أنهم شفعاؤهم عند الله . فحرموا لذلك الشفاعة الحقة .

كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ

مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ

فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [

[الأنعام: ٩٤] .

وقوله عز وجل : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨] ^(٢) .

وقد بين النبي ﷺ أن شفاعته لأهل التوحيد لا يشركهم فيها سواهم وإنما

يختصون بها .

(١) وانظر : إغاثة اللهفان : ٢٢٠/١ - ٢٢١ .

(٢) وانظر : مجموع الفتاوى : ١٥٤/١ . مفتاح دار السعادة : ٢٦٩/٢ - ٢٧٠ .

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ : " أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه " (١) .

وفي حديثه الآخر ﷺ قال رسول الله ﷺ : " لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً " (٢) .

هذه جوانب - وغيرها الكثير - تبرز أهمية التوحيد وسمو مكانته ، ورفيع منزلته متى ما وقف عليها الداعية إلى الله تحتم عليه أن يبدأ دعوته به ، وأن يؤسسها عليه ، لأن التوحيد مرتكزها ومحورها الذي تتطرق منه .

فصحة العقيدة هي المنطلق الأول للداعية ، وهي القاعدة والأساس التي يركز عليها هذا البناء . والعقيدة الصحيحة بمثابة القوة المحركة للداعية التي تدفعه للأداء وتنشئه على الطريق . وأي خلل في هذه القاعدة يعدّ خللاً في حياة الداعية . فصلاح العقيدة يتوقف عليه صلاح الأمر كله ، فإذا فسدت فسد سائر العمل وأصبح غثاء (٣) .

ولا يمكن البتة لهذا الداعية أن يثبت على دعوته ، وتقوم لدعوته قائمة ما لم يؤسسها على التوحيد الخالص من شوائب الشرك .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب العلم : (٣) . باب الحرص على الحديث : (٣٣) . برقم: (٩٩) . ص : ٣٩ . و بلفظ مقارب في: كتاب الرقاق : (٥٥/٨١) . باب صفة الجنة والنار : (٥١) . برقم: (٦٥٧٠) . ص : ١٣٩٣-١٣٩٤ .

(٢) المرجع السابق : نحوه في: كتاب الدعوات : (٥٤/٨٠) . باب لكل نبي دعوة مستجابة : (١) . برقم: (٦٣٠٤) . عن أبي هريرة رضي الله عنه . و برقم: (٦٣٠٥) . عن أنس رضي الله عنه . ص : ١٣٤٥ . وفي كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب ﴿ تَوْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] : (٣١) . برقم: (٧٤٧٤) . عن أبي هريرة رضي الله عنه . ص : ١٥٩٦ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب في قول النبي ﷺ : " أنا أول الناس يشفع في الجنة : (٨٥) . برقم: (١٩٩) . عن أبي هريرة رضي الله عنه . ونحوه عنه برقم: (١٩٨ . ١٩٩) . و برقم: (٢٠٠) . عن أنس رضي الله عنه . و برقم: (٢٠١) . عن جابر رضي الله عنه : ١/ ١٨٨-١٩٠ .

(٣) عقبات في طريق الدعوة . ص : ٣٤ .

وقد نفت الخالق سبحانه الانتباه لذلك مبيّناً أن التّوحيد مصدر الثّبات لجميع الطّاعات التي منها الدّعوة إلى الله تعالى ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧] .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" فإنه سبحانه شبّه شجرة التّوحيد في القلب بالشّجرة الطّيّبة الثّابتة الأصل ، الباسقة الفرع في السّماء علوّاً ، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كلّ حين ، وإذا تأملت هذا التّشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التّوحيد الثّابتة الرّاسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصّالحة الصّاعدة إلى السّماء ، ولا تزال هذه الشّجرة تثمر الأعمال الصّالحة كلّ وقت بحسب ثباتها في القلب ، ومحبة القلب لها ، وإخلاصه فيها ، ومعرفته بحقيقتها ، وقيامه بحقوقها ، ومراعاتها حقّ رعايتها " (١) .

ثمّ استرسل (رحمه الله) في بيان ذلك بأسلوب رصين شائق إلى أن قال :

" ... فالقول نوعان : ثابت له حقيقة ، وباطل لا حقيقة له ، وأثبت القول كلمة التّوحيد ولوازمها ، فهي أعظم ما يتّبت الله بها عبده في الدّنيا والآخرة " (٢) .

ويقول سيّد قطب (رحمه الله) :

" إنّ العقيدة هي الرّكيزة الثّابتة في حياة المؤمن ، تضطرب الدّنيا من حوله فيثبت هو على هذه الرّكيزة ، وتتجاذبه الأحداث والدّوافع فيثبت هو بالصّخرة التي

(١) أعلام الموقّعين : ١٧٢/١ .

(٢) المرجع السّابق : ١٧٧/١ .

لا تتزعزع ، وتنتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول .

هذه قيمة العقيدة في حياة المؤمن . ومن ثم يجب أن يستوي عليها ، متمكناً منها ، واثقاً بها ، لا يتلجلج فيها ، ولا ينتظر عليها جزاء ، فهي في ذاتها جزاء . ذلك أنها الحمى الذي يلجأ إليه ، والسند الذي يستند عليه . أجل هي في ذاتها جزاء على تفتح القلب للنور ، وطلبه للهدى . ومن ثم يهبه الله العقيدة ليأوي إليها ، ويطمئن بها . هي في ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله تتجاذبهم الرياح ، وتتقاذفهم الزوابع ، ويستبد بهم القلق ، بينما هو بعقيدته مطمئن القلب ، ثابت القدم ، هادئ البال ، موصول بالله ، مطمئن بهذا الاتصال " (١) .

فالتوحيد أعظم ما يزكو به القلب لأنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات الحق في القلب ، وهو حقيقة لا إله إلا الله ، وهذا أصل ما تزكو به القلوب (٢) .

وهو أبلغ أسباب شرح الصدر ، فبحسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه ، كما أن الشرك من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه (٣) . فالداعية إلى الله لا يمكنه أبداً أن يثبت على دعوة الله إلا إذا بناها على هذا الأساس المتين ، وأرض التوحيد الصلبة .

ولذا تهاوت كثير من الدعوات وتزلزلت أركانها ، وتحطمت قواعدها ، وتفرقت دعائها شذراً مذرراً (٤) لأنها لم تنطلق في مبدئها من عقيدة التوحيد ، وإنما تعلقت بأمور من الإسلام لم تتل من الأهمية ما ناله التوحيد ، ولم تصل في المكانة إلى مكانته . وهي قد تحاشت البدء به إما جهلاً بمقامه ، أو صعوبة مسلكه ، وشدة

(١) في ظلال القرآن : ٢٤١٢/٤ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٩٧/١٠ بتصرف يسير .

(٣) زاد المعاد : ٢٣/٢ - ٢٤ بتصرف .

(٤) شَذَرَ مَذَرَ وَشَذَرَ مَذَرَ وَبَذَرَ : أي ذهبوا في كل وجه . ولا يقال ذلك في الإقبال ؛ وذهبت غنمك شَذَرَ مَذَرَ وَشَذَرَ مَذَرَ : كذلك . ويروى بكسر الشين والميم وفحهما . لسان العرب : ٣٩٩/٤ . بتصرف .

الأذى على من قام به ، وخطر مواجهة المجتمع الذي انخرط الغالب من أفراده في
الشرك إلا من رحم الله ، أو تهويناً لأمره وتقيصاً لمنزلته، أو سوى ذلك من
الأسباب الصارفة عن البدء به .

وما ثبت من الدعاة على دعوتهم إلا من بدؤوا بالتوحيد ، وأسسوها عليه ،
وظلّوا كذلك لا ينحرفون عنه ، وهم أهل الثبات حقاً .

﴿ الفصل الرابع ﴾

نماذج للثبات في الدعوة

وفيه مباحث :

﴿ المبحث الأول ﴾

رسل الله عليهم السلام

إن رسل الله هم الصفوة المختارة ، والنخبة المنتقاة .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥] .

وقال : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] .

وهم سفراء الله إلى الناس ، ومبعوثوه إلى خلقه ، والمبلغون لوحيه ،
والحاملون لدعوته إلى عباده .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ

وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩] .

وقد جعلهم الله وسائط بينه وبين خلقه في إيلاغ دينه ، وإقامة حجته .

قال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [التحل: ٣٥] .

وقال : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥] .

همهم الأعظم وهدفهم الأسمى أن يُعْبَدَ الله في الأرض ، ويطاع فلا يعصى ،

ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

ولذلك حملوا دعوته سبحانه بصدق وإخلاص ، وصبر وعزيمة ، غير خائفين ولا هائبيين ، بل صادعين بها ، رافعين لواءها ، مدافعين عنها ، مجتهدين في نصرتها ، صابرين على شدتها ، حريصين على هداية الناس إليها ، ناصحين ، مرشدين ، مبشرين ومنذرين .

قال تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿ أَبْلِغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢] .

وعن هود عليه السلام : ﴿ أَبْلِغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨] .

وعن صالح عليه السلام : ﴿ فَتَوَلَّيْ عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩] .

وعن شعيب عليه السلام : ﴿ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣] .

فالدعوة إلى الله هي وظيفتهم ، ومهمتهم التي كلفوا من الله أن يبلغوها إلى عباده . ولذا بذلوا فيها غاية جهدهم ، وكرسوا كل حياتهم من أجلها ، والذود عنها . ولم يكن طريقهم سهلاً ، ولا سيرهم ميسراً .

فلم تُفرش لهم الرياحين ، ولم تقطف لهم الورود ، ولم يقابلوا بالهتافات مع عظمتهم ، وجلالة قدرهم . بل ووجهوا بعواصف لا تهدأ ، وزلازل لا تخمد ، وعداوات لا تنطفئ .

وبذل أقوامهم العتاة المتجبرون كل ما يملكون من وسائل ليوقفوا سيرهم ، ويخمدوا دعوتهم فما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .

تتوّعت أسلحتهم في حرب رسل الله ، وتعددت ضلالاتهم في الكيد والمكر
فما أجدت لهم فتيلاً (١) ، ولا نالوا بها قطميراً (٢).

واجهوهم بالكذب ليجردوا الحق الذي معهم من أقوى دعائمه ، وأصلب
أسسه وهو الصدق الذي لازم دعوة الرسل في كل وقت وحين، ولكنهم ما أفلحوا .
قال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [آل عمران: ١٨٤] .

وكان التّكذيب لرسل الله قاعدة لا شنوذ عنها عند أعداء الله ليطفئوا بها نور
الله .

قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا
بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤] .
وأردفوا إلى التّكذيب الأذى فما نجحوا .

قال ربّ العزة : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا
حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ
الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] .

قابلوهم بالاستهزاء والطعن واللمز والسخرية ليحطّوا من قدرهم ، ويهوّنوا
من أمرهم فما أجدى ذلك نفعا .

(١) الفَتِيلُ : ما يكون في شقّ التّواة . وقيل هو ما يُقتل بين الإصبعين من الوسخ . وقيل الحبل وغيره من باب

ضرب . مختار الصحاح : ص : ٤٩٠ . وانظر : لسان العرب : ٥١٤/١١ . القاموس المحيط : ص : ١٣٤٥ .

(٢) القَطْمِيرُ والقَطْمَارُ : شقّ التّواة . وقيل : القَطْمِيرُ الفُوفَةُ الّتي في التّواة . وهي القشرة الدّقيقة الّتي على التّواة

مابين التّواة والتمر . ويقال : هي التّكّة البيضاء الّتي في ظهر التّواة الّتي تنبت منها التّحلة . وما أصبت منه

قَطْمِيرًا أي شيئاً . لسان العرب : ١٠٨ / ٥ . بتصرف يسير . وانظر : مختار الصحاح : ص : ٥٤٣ .

القاموس المحيط : ص : ٥٩٧ .

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ آسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢] .

وضعوا أمامهم الشبه ، ونصبوا في طريقهم العراقل ليفتوهم عن بغيتهم ، ويشغلهم عن غايتهم ، فما قرّت لهم بذلك عين ، ولا سعدت لهم به نفس .

قالوا لنوح عليه السلام : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧] ^(١) .

وقالوا لهود عليه السلام : ﴿ يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ٢٧] . إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون [هود: ٥٣-٥٥] .

وقالوا لصالح عليه السلام : ﴿ يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَلُنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢] وقالوا لشعيب عليه السلام : ﴿ يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ فَأْمُرْكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧] .

(١) وانظر : الشعراء : ١١١ .

وقالوا في موسى وهارون عليهما السلام : ﴿ إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ [طه: ٦٣] .
 وقالوا في محمد ﷺ : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان: ٤-٥] .

وَيَتَّبِعُ مَا ذُكِرَ سِيلَ عَارِمٍ ، وَمَدَّ لَا يَنْقَطِعُ مِنْ شِبْهِ أَهْلِ الْبَاطِلِ عَلَى رِسْلِ اللَّهِ
 فما وصلوا إلى ما يصبون إليه .
 وهددوهم بالقتل والإخراج والسجن . بل منهم من قتل ، ومن سجن ، ومن
 أخرج ، فما نالوا ما يبتغون ، ولا حازوا على ما يريدون ، ولا جنوا بما به
 يسعدون .

قال تعالى في شأن القتل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
 النَّبِيَّ بَعْزِرَ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ
 فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١] ^(١) .

وقال في شأن الإخراج : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ
 أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ١٣] ^(٢) .

وقال في شأن السجن : ﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ
 حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٥] .

(١) وانظر : البقرة : ٦١ ، ٨٧ ، ٩١ . وآل عمران : ١١٢ .

(٢) وانظر : الأعراف : ٨٢ . الشعراء : ١٦٧ .

وقد حاول مشركو مكة أن ينفذوا إحدى هذه الثلاث في رسول الله ﷺ .
وفي ذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ
يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] . فباعت
محاولتهم بالفشل .

وهذه السلسلة من مواجهات أعداء الله لرسله يطول ذكرها ، وكلها فشلت
فشلاً ذريعاً ، وتحطمت أجزاءها ، وتناثرت أشلائها على عتبة ثبات الرسل عليهم
السلام . فما وهنوا ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، وما جبنوا ، وما خاروا ، وما
فُت في عزائمهم ، ولا قُدح في صبرهم ، ولا قُل في قوتهم .

بل ظلوا قمماً شامخة في الثبات ، وجبالاً راسية في الصبر ، حتى بلغوا
دعوة الله ، وأوصلوها إلى كل من كلفهم الله بإيصالها إليه . ومحمد ﷺ الذي هو
خاتم الرسل ، وأُمته التي هي خاتمة الأمم شاهدين على ذلك .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " يجيء النبي يوم
القيامة ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه ، فيقال
لهم : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم .
فيقال له : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأُمته . فيدعى محمد وأُمته فيقال لهم : هل
بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم . فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا
أن الرسل قد بلغوا . فذلك قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ . قال :
يقول : عـدلاً ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ
شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] . (١)

(١) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا

إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح: ١] : (٣) . بـرقـم :
(٣٣٣٩) . ص : ٧٠١ . وفي كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] : (١٣) .

وهذان أنموذجان عظيمان ، ومثالان فذّان ، يشعان ثباتاً ، ويتنفسان صبراً ،
لرسولين كريمين ، ونبيين جليلين : أحدهما : أوّل رسل الله ، والثاني آخر رسل الله
إلى أهل الأرض ليكونا مثالين في الثّبات على الدّعوة إلى الله لبقية كوكبة الرّسل
بينهما . أتحدث عنهما في مطلبين . وأبدأ بآخرهما لأنّه أفضلهما .

برقم: (٤٤٨٧) . ص : ٩٣٤ . وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنة : (٧١/٩٦) . باب قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] : (٢٠/١٩) . برقم: (٧٣٤٩) . ص : ١٥٤٣ .

واللفظ لأحمد في مسنده : ٥٨/٣ . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٢٨٤/١

﴿المطلب الأول﴾

محمّد بن عبد الله ﷺ

أول ما أوحاه ربّه إليه قوله : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] ^(١)
فأمره أن يقرأ في نفسه ، ولم يأمره بالتبليغ . وهذا مبدأ نبوته . ثم أنزل عليه :
﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ [المدثر: ١-٢] . وهذا مبدأ رسالته . ثم أمره أن
ينذر عشيرته الأقربين ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] . ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب
قاطبة ، ثم أنذر العالمين ^(٢) .
وأقام ثلاث سنين يدعو إلى الله مستخفياً حتّى نزل عليه قوله تعالى :
﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] . فأعلن
الدعوة ، وجاهر بها قومه ^(٣) .
ومكث في مكة عشر سنين يدعو إلى الله ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاً ، لا
تأخذه في الله لومة لائم . دعا الصّغير والكبير ، والحرّ والعبد ، والذكر والأنثى ،
والأحمر والأسود ، والجنّ والإنس ^(٤) .
وكان يعرض نفسه على القبائل يدعوهم ، ويذهب إلى الناس في أسواقهم
ومنزلهم ويخبرهم أنّه نبي مرسل من عند الله ، ويطلب منهم أن يمنعوه حتّى يبلغ
رسالة ربّه ^(٥) .

(١) وانظر الآيات بعدها .

(٢) وانظر : السّير النبويّة لابن هشام : ١٤٧/١ . ١٥٩ . فما بعدها .

(٣) انظر : المرجع السابق : ١٥٩/١ . زاد المعاد : ٨٦/١ . وانظر : الرّحيق المختوم . لصفي الرّحمن المبلر كفوري .

طبعة : المكتبة العصريّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٧هـ — ١٩٩٦م : ص : ٦٨-٧٠ .

(٤) زاد المعاد : ١٢/٣ بتصرّف يسير . وانظر : البداية والنهاية : ٣٩-٤٠ .

(٥) انظر : السّير النبويّة لابن هشام : ٢٦٧/١ . زاد المعاد : ٢٣٤/٣ .

وقد حاول قومه جاهدين أن يوقفوا دعوته ، ويعطلوا سيرها ، ويخمدوا
أنفاسها ، ويبيدوها في مهدها .

تلك الدّعوة الّتي عابت آلهم ، وضلّت آباءهم ، وسفّهت أحلامهم ، وحطّت
من كبريائهم ، فأجمعوا على خلافه وعداوته .

✽ سعوا إلى عمّه أبي طالب الحادب عليه^(١) لكي يكفّه وإلا نازلوه ومن معه
حتّى يهلك أحد الفريقين ، ورغبوه كي يبدّله لهم بفتى من قريش ليقتلوه . ولكنّ أباً
طالب لم يفعل ، وحذب على رسول الله حامياً له مدافعاً عنه^(٢) .

✽ سلّكوا معه ﷺ كلّ مسلك معوج ، واستخدموا كلّ وسيلة سيّئة ، وكلّ أسلوب
منحطّ ليتصل عن دعوته ، وينسلخ عنها ، فأبى .

✽ وصفوه بالجنون فقالوا : ﴿ يَأْيُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ

لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦] ^(٣) .

✽ زعموا أنّه كاهن^(٤) . فأجابهم الله داحضاً الفريتين : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ

بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [الطّور: ٢٩] ^(٥) .

(١) حَدِبٌ فَلَانٌ عَلَى فَلَانٍ يَحْدُبُ حَدْبًا فَهُوَ حَدِيبٌ . وَتَحْدَبُ: تَعَطَّفَ ، وَحَنَا عَلَيْهِ . يُقَالُ: هُوَ لَهُ
كَالْوَالِدِ الْحَدِيبِ . وَحَدِيبَتِ الْمَرْأَةِ عَلَى وَلَدِهَا : أَيِ اشْفَقَتْ عَلَيْهِ . وَالتُّحْدَبُ: الْمُتَعَلِّقُ
بِالشَّيْءِ الْمُلَازِمُ لَهُ . انظر : لسان العرب : ١ / ٣٠١ . وانظر : القاموس المحيط : ص: ٩٣ .

(٢) انظر : السّيرة النبويّة لابن هشام : ١ / ١٥٩-١٦١ . الكامل في التّاريخ : ٤٢/٢-٤٣ . وانظر : البداية والنهاية :
٤٠/٣ .

(٣) وانظر : الصّافات : ٣٦ . الطّور : ٢٩ . القلم : ٢ ، ٥١ .

(٤) كاهن : الكاهنُ : الَّذِي يَتَعَاطَى الْخَبَرَ عَنْ الْكَائِنَاتِ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ وَيَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأَسْرَارِ . وَقَدْ كَانَ فِي
العرب كَهَنَةٌ كَثِيرَةٌ وَسَطِيحٌ وَغَيْرُهُمَا . فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ تَابِعًا مِنَ الْحَنِّ وَرَبِّيًّا يُلْقِي إِلَيْهِ الْأَخْبَارَ ،
وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَعْرِفُ الْأُمُورَ مُقَدِّمًا سَبَابَ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى مَوَاقِعِهَا مِنْ كَلَامٍ مَنْ يَسْأَلُهُ أَوْ فَعْلِهِ أَوْ
حَالِهِ ، وَهَذَا يُخَصُّونَهُ بِاسْمِ الْعَرَّافِ كَالَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الشَّيْءِ الْمَسْرُوقِ ، وَمَكَانَ الضَّالَّةِ وَنَحْوَهُمَا .

لسان العرب : ١٣ / ٣٦٣ .

(٥) وانظر : الحاقة : ٤٢ .

﴿ ادعوا أَنَّهُ شاعر ، وَأَنَّ مَا جاء به مفتر ، وهو ضرب من الأحلام فقالوا :
 ﴿ أَضَعْتُ أَحْلَمَ بَلٍ أَفْتَرْتَهُ بَلٍ هُوَ شاعرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
 الْآوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥] ^(١) .

﴿ وسموه بالسحر فقالوا : ﴿ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤] .
 ﴿ سلخوا معه سبيل الاستهزاء والسخرية . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ
 الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٦] ^(٢) .

﴿ أثاروا حوله الشبهات المضللة ، والدعايات المقرضة ، والأراجيف الواهية ،
 فقالوا : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [التحل: ١٠٣] . وقالوا : ﴿ مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ
 الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ [٧]
 [الفرقان: ٧] .

﴿ قالوا عن القرآن الذي جاء به : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أَفْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ
 قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [٥] وقالوا أساطيرُ الأولين أكتبتها
 فهى تملئُ عليه بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤-٥] .

﴿ اتهموه بالكذب ، وادعوا أَنَّهُ يقول عن الله ما لم يأمره به .
 قال سبحانه : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
 وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [آل عمران: ١٨٤] ^(٣) .

(١) وانظر : الصفات : ٣٦ . الطور : ٣٠ . الحاقة : ٤١ .

(٢) وانظر : الفرقان : ٤١-٤٢ .

(٣) وانظر : الحج : ٤٢ . فاطر : ٤ ، ٢٥ .

﴿ سلكوا معه سبيل التعجيز ، فتمحلّوا في اقتراح الآيات عليه .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿١١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿١٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣] (١)

ولمّا باءت هذه المسالك جميعها بالفشل ، سلكوا سبلاً أخرى أنكى وأشد .

﴿ حاولوا إغراءه بالمال والشرف والملك علّه تلين له قناة ، ويدعن لبغيتهم ،

ولكنهم عادوا خائبين .

﴿ أرادوا قتله والقضاء عليه ، وحاولوا ذلك كرات ومرات ، ولكن ذهبت

محاولاتهم أدراج الرياح .

﴿ تفنّنوا في إيصال الأذى إليه بكلّ ما أمكنهم فعله ، فما وصلوا إلى ما يريدون

وما نالوا ما يبتغون (٢) .

(١) وانظر : السيرة النبوية لابن هشام : ١٧٧/١-١٧٨ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ١٧٣/١-١٧٦ . وانظر : الرّحيق المختوم . ص : ٨٧-٨٩ .

﴿ شَنَوْا عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ وَقَفَ مَعَهُ وَآزَرَهُ حَرْباً اِقْتِصَادِيَّةً بِشَعَةِ ، اسْتَمَرَّتْ ثَلَاثَةَ اَعْوَامٍ عَجَافٍ ^(١) ، اَدَّتْ بِهِمْ اِلَى اَكْلِ الْجُلُودِ ، وَاُورَاقِ الشَّجَارِ . وَلَكِنَّهَا فَشَلَّتْ فِي الْقَضَاءِ عَلَى دَعْوَتِهِ ^(٢) .

وَلَمَّا بَلَغَ بِهِ الْاَذَى مَبْلُغَهُ خَرَجَ اِلَى تَقْيِيفٍ فِي الطَّائِفِ يَلْتَمِسُ النَّصْرَةَ وَالْمَنْعَةَ بِهِمْ ، وَرَجَاءُ اَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ رَدُّوهُ رَدّاً مُنْكَرَاً ، وَاَذَوَهُ اَذَى بِالْغَا عَادَ بَعْدَهُ اِلَى مَكَّةَ اُسَيْفَاً حَزِينَاً ^(٣) .

﴿ اَنْتَهَتْ كُلُّ مَحَاوَلَاتِهِمْ بِالْاِخْرَاجِ وَالطَّرْدِ الَّذِي اَدَّى فِيْهَا بَعْدَ بَتَجْرِيدِ السَّيُوفِ ، وَسَفْكِ الدِّمَاءِ ، وَضَرْبِ الْاَعْنَاقِ .

وَهَذَا كُلُّهُ يَحْدُثُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَابِتٌ عَلَى دَعْوَتِهِ ، لَمْ يَتَرَاجَعَ خُطْوَةً عَنْهَا ، وَلَمْ يَتَرْحِزْ قَيْدَ اُنْمَلَةٍ . وَالآيَاتُ تَنْتَزِلُ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ تَدْعُوهُ اِلَى الثَّبَاتِ عَلَى الدَّعْوَةِ وَتَأْمُرُهُ بِهِ ، وَتَهَيِّجُهُ عَلَيْهِ ، وَتَصْبِرُهُ وَتَطْمِئِنُّ قَلْبُهُ .

فَإِنْ كَذَّبَتْ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُلَ اللَّهِ قَبْلَكَ ، وَإِنْ أُودِيتَ فَقَدْ أُودُوا وَلَكِنَّهُمْ ثَبَتُوا فَلْتَبْتَ كُتُبَاتِهِمْ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له ، فيمن كذبه من قومه ، وأمر له بالصبر ، كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعد له بالنصر كما نصرُوا ، وبالظفر حتى

(١) الْعَجْفُ: ذَهَابُ السَّمَنِ وَالْهَرَالِ . وَقَدْ عَجِفَ: بِالْكَسْرِ ، وَعَجِفَ بِالضَّمِّ فَهُوَ أَعَجَفُ وَعَجِفٌ . وَالْأُنْثَى

عَجْفَاءٌ وَعَجِفٌ بغير هاء ، وَالْجَمْعُ مِنْهُمَا عَجَافٌ حَمَلُوهُ عَلَى لَفْظِ سَيْمَانَ . لِسَانُ الْعَرَبِ : ٢٣٣/٩ .

وَانْظُرْ : مَخْتَارُ الصَّحَاحِ : ص : ٤١٤ . الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ : ص : ١٠٧٩ .

(٢) انْظُرْ : السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ : ٢١٩/١ . الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ : ٥٩/٢ - ٦٠ . الْبَدَايَةُ وَالتَّهْيَاةُ : ٩٣/٣ - ٩٦ .

الرَّحِيقُ الْمَخْتُومُ . ص : ٩٧ - ٩٨ .

(٣) انْظُرْ : السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ : ٢٦٤/١ . الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ : ٦٣/٢ - ٦٤ . الْبَدَايَةُ وَالتَّهْيَاةُ :

١٣٥/٣ - ١٣٧ . الرَّحِيقُ الْمَخْتُومُ . ص : ١١٣ .

كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة " (١) .

وقال السعدي (رحمه الله) في قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ :
" ما به يثبت فؤادك ، ويطمئن به قلبك " (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَلَّغَ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ مثبته على المعنى لما قلده من عبء الرسالة ، وتقل أحمال النبوة ﷺ ، وأمره بالانتساء في العزم على النفوذ لذلك بلولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لاقوا فيه من قومهم من المكاره ، ونالهم فيه من الأذى والشدائد .. الخ " (٣) .

وقال الرازي (رحمه الله) :

" اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم ، ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم " (٤) .

وقال صديق حسن خان (رحمه الله) :

" فاصبر كما صبر أرباب الثبات والحزم وأولو الجد والصبر فإنك منهم " (٥) .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢٠٩/٢ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن . ص : ٢١٧ .

(٣) جامع البيان : ٣٧/٢٦ .

(٤) التفسير الكبير : ٣٥/٢٨ .

(٥) فتح البيان : ٤١/١٣ .. وانظر : محاسن التأويل : ٥٣٦٩/١٥ . تيسير الكريم الرحمن . ص : ٧٢٨-٧٢٩ .

وقال عز وجل : ﴿ فَلِذَا لِكَ فَادَعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥] .

قال ابن جرير (رحمه الله):

" فالى ذلك الدين الذي شرع لكم ، ووصى به نوحاً ، وأوحاه إليك يا محمد ، فادع عباد الله ، واستقم على العمل به ، ولا تزغ عنه ، واثبت عليه كما أمرك ربك بالاستقامة " (١) . والآيات في هذا المعنى وافرة .

وقد كان رسول الله ﷺ مثلاً رائعاً وأ نموذجاً فذاً في الثبات على دعوة الله ، فاق من قبله من رسل الله ، وأعجز من بعده أن يصلوا إلى ثباته . وقد تحطمت كبرياء قريش أمامه ، وفشلت كل جهودهم في النيل منه ومن دعوته ، وتضعفت قوتهم أمام صبره ، وتلاشت عزيمتهم أمام عزمه ، وفترت همهم أمام همته .

قال القاسمي (رحمه الله) :

" لا خفاء في أن النبي ﷺ قد بلغ البلاغ التام ، وقام به أتم القيام ، وثبت في الشدائد وهو مطلوب ، وصبر على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب ، وقد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي ، ويهد الصياصي ، وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلي ، ويثبت ثبات المستولي " (٢) .

ولما هاجر ﷺ إلى المدينة ظل يدعو إلى الله عز وجل بالقول واللسان والسيف والسنان ، لم تفتر له عزيمة ، ولم يخلد إلى راحة أبداً حتى لقي ربه .

(١) جامع البيان : ١٧/٢٥ . وانظر : التفسير الكبير : ١٥٨/٢٧ . تفسير القرآن العظيم : ١٦٥/٤ . الجواهر

الحسان : ١٨٧/٣ . فتح البيان : ٢٨٧/١٢ . محاسن التأويل : ٥٢٣٣/١٤ . تيسير الكريم الرحمن . ص : ٧٠١

(٢) محاسن التأويل : ٢٠٦٨/٦ . وقد سبق من قبل : انظر : ٣٥٣ .

بعث الكتب إلى الملوك ، وأرسل السرايا ، وبعث البعوث ، وغزا الغزوات ،
وشمّر عن ساعد الجدّ والساق .

وقام في الدّعوة خير قيام لم يسترح ولم يسكن ، ولم يعيش لنفسه ولا لأهله ،
قام وظلّ قائماً على دعوة الله ، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به ،
عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض ، عبء البشريّة كلّها ، عبء العقيدة كلّها ،
وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتّى ، عاش في المعركة الدّائبة المستمرّة لا يلهيه
شأن عن شأن في خلال هذا الأمد منذ أن سمع النداء العلوي الجليل ، وتلقّى منه
التّكليف الرّهيّب (١) .

فبشّر ﷺ وأنذر ، ورغب ورهب ، ووعظ وذكر ، ونصح وأرشد ، وخطب
وبلّغ ، ودعا بقوله وفعله وخلقه ، وسلك كلّ وسيلة حقّة توصل إلى الله ، ونهج كلّ
أسلوب سليم مقنع مؤثّر يبيّن دين الله تعالى ، وهو مع ذلك ثابت لا يتزلزل .
وقد أمر الخلق بكلّ ما أمر الله به ، ونهاهم عن كلّ ما نهى الله عنه ، أمر
بكلّ معروف ، ونهى عن كلّ منكر ، ودعا بإذن الله ، ولم يشرع ديناً لم يأذن الله
به (٢) .

وحرص كلّ الحرص على هداية أمته ، وإنقاذها من عذاب الله ، ونجاتها من
عقابه ، وإيصالها إلى مرضاته ، وقد شهد الله له بذلك الحرص ، فقال سبحانه :
﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] (٣) .

(١) في ظلال القرآن : ٣٧٤٢-٣٧٤٣ بتصرّف .

(٢) مجموع الفتاوى : ١٦١/١٥ بتصرّف . وانظر : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ص : ١٢ .

(٣) وانظر : التحل : ٣٧ . الكهف : ٦ . الشعراء : ٣ .

عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " مثلي ومثلكم كمثّل رجل أوقد ناراً ، فجعل الجنّادب^(١) والفرّاش يقعنّ فيها ، وهو يدبّهنّ^(٢) عنها ، وأنا آخذ بحجزكم^(٣) عن النار وأنتم تفلّتون من يدي " ^(٤) .

وفي هذا كمال حرصه ، وعظيم اجتهاده في تخليص الأمة من الهلكات ، والأخذ بأيديها عن الوقوع في الدركات ، لشفقته وكمال رحمته^(٥) .

وهو أحقّ الرسل بقوله : " إنّه لم يكن نبيّ قبلي إلّا كان حقّاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم " ^(٦) .

وأثبت الله له في قرآنه أنّه قام بالدعوة خير قيام ، وبلّغ دين الله على الكمال والتّمام ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ يَأْتِيهَا الرّسولُ بَلّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧] .

أمره بالتبليغ ، وأوعده على عدمه ، وضمن له العصمة إن قام به . فوقى بما أمر ، واجتنب ما عنه حذّر ، ونال ما وعد به وبشّر .

(١) الجنّادب : جمّع جُنْدَبٍ بضَمّ الدال وفَتَحِهَا وهو ضَرْبٌ مِنَ الجُرَادِ . وقيل هو الَّذِي يَصُرُّ فِي الْحَرِّ .

التهاية في غريب الحديث : ٣٠٦/١ .

(٢) يَذْبُهِنَّ : الذَّبُّ : الدَّفْعُ وَالْمَنْعُ . وَ الذَّبُّ : الطَّرْدُ . وَ ذَبَّ عَنْهُ يَذْبُ ذَبّاً : دَفَعَ وَمَنَعَ . وَ ذَبَّيْتُ عَنْهُ . وَفُلَانٌ يَذْبُ عَنْ حَرِيمِهِ ذَبّاً أَي يَدْفَعُ عَنْهُمْ .

(٣) بحجزكم : أصل الحُجْزَةُ : موضع شدّ الإزار ، ثم قيل للإزار حُجْزَةٌ لِلْمُجَاوَرَةِ . وَاحْتَجَزَ الرَّجُلُ بِالْإِزَارِ إِذَا شَدَّهُ عَلَى وَسَطِهِ ، فَاسْتَعَارَهُ لِلْإِعْتِصَامِ وَالِاتِّجَاءِ وَالتَّمَسُّكِ بِالشَّيْءِ وَالتَّعَلُّقُ بِهِ . التهاية في غريب الحديث : ٣٤٤/١ .

(٤) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب قول الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِذَاوُودَ

سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠] : (٤١/٤٠) . برقم: (٣٤٢٦) . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ص : ٧٢٦ . وفي كتاب الرقاق : (٥٥/٨١) . باب الانتهاء عن المعاصي : (٢٦) . برقم: (٦٤٨٣) . عن أبي

هريرة رضي الله عنه . ص : ١٣٧٩ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الفضائل : (٤٣) . باب شفقته ﷺ على أمته : (٦) . برقم: (٢٢٨٥) . عن

جابر رضي الله عنه . ونحوه برقم: (٢٢٨٤) . عن أبي هريرة رضي الله عنه . ١٧٨٩/٤ - ١٧٩٠ .

(٥) وانظر : المفهم : ٨٧/٦ . شرح التووي على مسلم : ٤٨/١٥ . ٥٠ .

(٦) هذا جزء من حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) الذي سبق ذكره في الفتن . انظر : ص : ٢٤ .

ولذا قالت عائشة (رضي الله عنها) : " ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ^(١) . والله يقول : ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة: ٦٧] " ^(٢) .

وقد فعل صلوات الله وتسليماته عليه حتى استطاع أن يوجد من قوم ضربوا بأطناهم في الجهالة ، وانحدروا إلى حضيض الأخلاق والطباع ، خير أمة أخرجت للناس ، حتى أصبحت نبراساً ^(٣) تهتدي به الأمم ، وشعاعاً يفتقى أثره في الظلم ، ونهجاً يسير بهديه المصلحون ، والدعاة الصادقون .

وظل ﷺ داعية إلى الله بحق ، ثابتاً على الدعوة بصدق ، قائماً بأمر الله صابراً محتسباً حتى أعز الله دينه ، وأعلى كلمته .

(١) الفرية : يقال : فرى يفرى فرئاً ، وأفرى يفرى إفراءً ، إذا كذب .

انظر : النهاية في غريب الحديث : ٤٤٣/٣ .

(٢) هذا جزء من حديث في :

صحيح البخاري: نحوه في: كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] : (٦/٧) . برقم: (٤٦١٢) . ص : ٨٦٧ . وفي كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) .

باب قول الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة: ٦٧] : (٤٦) . برقم: (٧٥٣١) . ص : ١٥٨٢ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً

أُخْرِىَ ﴾ [التجم: ١٣] : (٧٧) . برقم: (١٧٧) . ١٥٩/١ .

وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ٣٠٧/٦-٣٠٩ . التفسير الكبير : ٤٨/١٢-٥٠ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٣-٢٤٢/٦ . تفسير القرآن العظيم : ١٢٣/٢-١٢٥ . الجواهر الحسان : ٤٣٨/١-٤٣٩ . روح المعاني : ١٨٨/٦-١٨٩ . فتح البيان : ١٨/٤-٢٠ . محاسن التأويل : ٢٠٦٧/٦-٢٠٦٨ .

(٣) التبراس: المصباح والسراج . وهو ثلاثي مشتق من البرس الذي هو القطن . لسان العرب : ٢٢٥/٦ .

بتصرف يسير . وانظر : القاموس المحيط : ص : ٧٤٣ .

ولم يفارق ﷺ الحياة إلا وأفواج من البشر تلج دين الله ، وتلتزم بشرعه ،
وتتمسك بهديه ، ويتحقق بذلك قول ربه سبحانه : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾
وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ
إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ [التصر: ١-٣] .

﴿المطلب الثاني﴾

نوح عليه السلام

إنَّ نوحاً عليه السلام أوَّلَ رسول بعثه الله إلى أهل الأرض (١). وذلك بعد أن انحرفت الإنسانية عن الجادة ، واختلَّت العقيدة ، ودبَّ الاضمحلال إلى التوحيد ، وسرى الوهن إلى القلوب ، والضلال إلى النفوس .

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" كان بين نوح و آدم عشرة قرون ، كلَّهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا فبعث الله النَّبِيِّينَ مبشِّرينَ ومنذرين " (٢) . فكان أوَّل من بعث نوح عليه السلام " (٣) . ولم يلق نبي من الأذى مثل ما لقي ، لطول مكثه (٤) . وقد سلك مسلكاً عظيماً ، واختط طريقاً قوياً في الثبات على الدَّعوة ، يجب أن يقف عليه الدَّعاة إلى الله كي يأخذوا العبرة ، ويستشفوا العظة ، ويتأسوا بنباته وصبره ، وصلابته

(١) ثبت ذلك في حديث الشَّفاعَةِ الطويل :

انظر : صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا

إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح: ١] : (٣) . برقم: (٣٣٤٠) . ص: ٧٠١-٧٠٢ . و كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ

كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣] : (٤/٥) . برقم: (٤٧١٢) . ص: ١٠٠٠-١٠٠١ .

صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب بيان أدنى أهل الجنة منزلة فيها : (٨٤) . برقم: (١٩٣ . ١٩٤) . ١٨٦-١٨٠/١

(٢) سبق تخريجه . انظر : ص : ٣٩٧ .

وعن أبي أمامة ؓ أن رجلاً قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : " نعم مُكَلَّم " . قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : " عشرة قرون " . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: باب ذكر الإخبار عما كان بين آدم ونوح صلوات الله عليهما من القرون . برقم: (٦١٩٠) . ٦٩/١٤ . مستدرک الحاكم: ٢٨٨/٢ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه " . معجم الطبراني الكبير: ١١٨/٨ . معجم الطبراني الأوسط:

١٢٨/١

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٣٧٤/١ عن قتادة (رحمه الله) .

(٤) وانظر : المرجع السابق : ٣٥٧/٢ .

في الحق ، مع وعورة الطريق ، وصعوبة السير ، وطول الأمد . فقد أخبرنا ربنا عز وجل أنه ظل يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاماً ، وذلك في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤] .

وقد بذل غاية الجهد ومنتهى الوسع في دعوتهم ، فكان يدعوهم ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، وخفية وعلناً عليهم يستجيبون ، ولأمر الله ينصاعون ، وبدين الله يلتزمون .

قال تعالى عنه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ [نوح: ٥٠-٦٠] .

وقال : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: ٨-٩] .

وهي دعوة واضحة جلية ، صافية نقية ، يكتنفها العطف ، وتحفها الشفقة ، في رقة ولين ، وتواضع جم ، وأدب ثر . تنطلق من التوحيد الذي هو أصل دعوة الرسل وأساسها الذي تنبني عليه ، وفي ذلك غاية النصح .

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٥-٢٦] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ [نوح: ١-٣] .

فهي عبارات لطيفة رقيقة ، تسودها روح التسامح ، وتجللها الرحمة والشفقة ، والصدق والإخلاص ، لأنها تنبعث من قلب رحيم عطوف يخشى على قومه مصيراً

هائلاً مخيفاً . وهي مع ذلك تتسم بالإقناع ، وقوة الحجة ، بعيدة عن السباب والشتم والقسوة والتفجير والتعالي وحب الانتقام .

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ ﴾ [الأعراف: ٦٠-٦٣] .

وقال سبحانه : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنُنزِلُكُمْ مَّوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ۝ ﴾ [هود: ٢٨] ^(١) .

وقد سلك في دعوتهم كلَّ السبل الناجعة ، واستخدم كلَّ الأساليب الدافعة لإيمانهم ، والممانعة لتكذيبهم وكفرهم .

✽ رغبهم بما عند الله من غفران الذنوب ، ونيل الثواب وعظيم الأجر .

قال تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ ﴾ [نوح: ١٠]

✽ رغبهم بما ينالهم من متاع عاجل ، من طول أجل ، وبسط عمر ، مع كثرة الأمطار والأموال والبنين ، والجنات الظليلة الوارفة ، والأنهار المتدفقة ليجمعوا بين سعادة الدنيا مع نعيم الآخرة .

قال سبحانه : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [نوح: ٤]

وقال : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ

جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝ ﴾ [نوح: ١١-١٢]

(١) وانظر الآيات بعدها .

﴿ رَهَبَهُمُ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ شَدَّةً بَطْشُهُ ، وَأَنَّ أَجْلَهُمُ مُّحْدُوذٌ ، وَعَمَرَهُمُ

مَعْدُوذٌ .

قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩]

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ

أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ [نوح: ٤]

﴿ نَفَتَ نَظَرَهُمُ إِلَىٰ آيَاتِ اللَّهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ الْمَحْسُوسَةِ وَالْمَشَاهِدَةِ كَالسَّمَاءِ

وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَأَثَارَهَا وَمَنَافِعَهَا فِي حَيَاتِهِمْ . وَوَجَّهَهُمْ إِلَىٰ مَبْدَأِ خَلْقِهِمْ ، وَكَيْفِ

أَنْشَأَهُمْ مِنْ تَرَابٍ ، خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا كَمَا يَخْرُجُ النَّبَاتُ ، ثُمَّ

يَعُودُونَ إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ ثُمَّ يَبْعَثُونَ .

قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿٦١﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ

فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿٦٢﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٦٣﴾ ثُمَّ

يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٦٤﴾ [نوح: ١٥-١٨]

﴿ ذَكَرَهُمْ بِنِعْمِ اللَّهِ ، وَكَيْفِ بَسْطِ لَهُمُ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا الْمَسَالِكَ وَالْفَجَاجَ

لِيَسِيرُوا فِيهَا وَيَنْتَفِعُوا بِهَا .

قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا ﴿٦٥﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا

فَجَاجًا ﴿٦٦﴾ [نوح: ١٩-٢٠] ^(١)

وَمَعَ كُلِّ مَا بَذَلَ مِنْ نَصْحٍ وَإِرْشَادٍ وَتَذَكِيرٍ وَتَبْلِيغٍ وَاجْهَوْهُ مُوَاجِهَاتٍ سَافِرَةٍ ،

وَرَدَّوهُ رَدًّا مُنْكَرًا ، وَأَذَوْهُ أَذًى بِالْغَا ، وَسَلَكُوا كُلَّ فَجٍّ ، وَتَبِعُوا كُلَّ سَبِيلٍ لِدَحْضِ

دَعْوَتِهِ وَبَطْلَانِ شَرِّعَتِهِ .

(١) وانظر : في أساليب نوح عليه السلام في الدعوة : الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل . ص : ٢٩٥-٣٠٠ .

وأول من واجهه رؤساؤهم وأشرفهم ، لأن هؤلاء دائماً هم الذين يقفون في وجه الحق خوفاً على سلطانهم ومكانتهم وعزهم الزائف ، ودنياهم الفانية .

وأهالوا عليه وابلاً من الشبهات ، وسيلاً من المعوقات ، وجمهرة من الأراجيف ، مشفوعة بالطعن واللمز والتكذيب والإنكار .

﴿ زعموا أنه بشر فلا يختص بفضل ولا زيادة رتبة عليهم ، فكيف يضع نفسه في مقام لم يدركوه ، وينال منزلة لم يصلوا إليها ، وإن اغترّ بأتباعه فإنهم أراذل القوم وسفلتهم وهمجهم ^(١) ، الذين ينساقون وراء كل ناعق ، ويتبعون كل زاعق ، وقد تبعوه بغير تفكر ولا روية ، ولم يكونوا على بصيرة من أمرهم ، بل بمجود أن دعاهم أجابوه . وهم مع ذلك كاذبون مثله - هكذا زعموا - .

قال تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧] ^(٢) .

(١) اَهْمَجُ : بفتح الحاء جمع هَمْجَةٍ وهي ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها . ويقال للرعاع الحمقى إنما هم هَمْجٌ . مختار الصحاح : ص : ٦٩٨ . وانظر : لسان العرب : ٣٩٢/٢ . القاموس المحيط : ص : ٢٦٩ .

(٢) وانظر : الشعراء : ١١١-١١٤ .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه . وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم . فإنه ليس بعار على الحق ردالة من أتبعه . فإن الحق في نفسه صحيح سواء أتبعه الأشراف أو الأراذل . بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونهم هم الأراذل ولو كانوا أغنياء . ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس . والغالب على الأشراف والكبراء مخالفتهم كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣] . ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال : " أشراف الناس أتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . فقال هرقل : هم أتباع الرسل " .. إلخ ما ذكر . تفسير القرآن العظيم : ٦٨٥/٢ . وانظر : تيسير الكريم الرحمن . ص : ٥٤٣ . وحديث أبي سفيان سبق ذكره . ص : ٣٩٠ .

﴿ قابلوه بالسخرية والاستهزاء والتّهكّم والاستهتار ، كما حكى عنهم ذلك الربّ عزّ وجلّ : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ ﴾ [هود: ٣٨-٣٩] .
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِمٌ ﴾ ﴾ [هود: ٣٨-٣٩] .

﴿ وصموه بالجنون وعدم العقل فقللوا : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٥] .

﴿ قذفوه بالضلال ، وادّعوا أن ضلاله واضح لكل ذي عينين .
قال الحق سبحانه : ﴿ قَالَ أَلَمَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٠] .

﴿ لما أكثر من نصحهم وإرشادهم عكسوا الحقّ ، وقلبوا الأمور ، وأسأوا وشوهوا ، فرموه بكثرة الجدل العقيم القليل النفع .
قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ ﴾ [هود: ٣٢] .

﴿ توجّوا كلّ ذلك بالامتناع عن سماع نصحه ، وتدثّروا بثيابهم بغضاً للحقّ ، وفراراً عنه ، مع الإصرار والاستكبار ، كما ذكر المولى عنه : ﴿ وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِيْٓءَاذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ ﴾ [نوح: ٧] .

﴿ جاهروا بالعصيان ، وبالغوا في المكر والكيد والمعاندة ، وتعصّبوا للالهة الباطلة ، وسعوا في الضلال بكلّ معناه . كما أوضح ذلك ربّ العزّة في قرآنه : ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ﴾ وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كِبَارًا ﴾ ﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا

وَلَا يَعْثُوثُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا ﴿٢٤﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٥﴾ [نوح: ٢٤-٢٥] .

عند ذلك تحدّاهم نوح عليه السّلام في ثبات لا يعهد له مثيل ، وبصبر لا يتطرق إليه الضّعف ، وقوّة عزيمة لا تزلزلها العواصف . قائلاً لهم في صلابة وثقة باللّهِ : يا قوم إن كان عظم مقامي عندكم ولبثي بين أظهركم ، وتذكيري إياكم ، وسئمتوني ، وأردتم أن تتالوا مني بسوء ، فإنّي معتمد على اللّهِ ، متوكّل عليه في دفع كلّ شرّ يراد بي ، ولست مبال بكم ، ولن أكفّ عن دعوتكم فاجتمعوا كلّكم ، واجتهدوا في رأيكم ، واحضروا شركاءكم الذين تعبدونهم من دون اللّهِ ، وليكن أمركم واضحاً علناً ليس بمشتبه ولا خفي ، واقضوا عليّ ولا تمهلوني ساعة واحدة ، وافعلوا ما قدرتم على فعله معي فإنّي لست بخائف منكم ولا هائب .

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِأَيْتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [نوح: ٧١-٧٢] .

رجل وحده يواجه أمة بأجمعها ، مسفّها لدينها ، معيباً لآلهتها ، مضلاً لعقولها ، وهي قد أجمعت على بغضه وعداوته ، مع سطوتها وجبروتها . ويتحدّاهم هذا التّحدّي العظيم بأن تفعل ما تستطيع . لهو رجل بلغ في الثّبات أوجه ، وفي التّوكّل كماله ، وفي اليقين غايته ، وفي الصّلابة قمّتها . صلوات اللّهِ وتسليماته عليه (١) .

(١) وانظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٣٢٥-٣٢٦ . الدّعوة إلى اللّهِ في سورة إبراهيم الخليل . ص :

ولمّا يؤس نوح عليه السّلام من هدايتهم ، وأنّه لا فائدة من دعوتهم ، وأخبره الله بأنّه لن يؤمن من قومه إلّا من آمن كما قال سبحانه : ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦] (١) .

هنالك دعا عليهم بالهلاك والاستئصال مبيّناً السّبب الذي دفعه لذلك مع إخبار الله له بعدم إيمانهم . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦-٢٧] (٢) .

فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالغرق جميعاً ، وأنجى نوحاً عليه السّلام والمؤمنين . وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ٧٦-٧٧] .

وجعل نسله وذريته هي الباقية ، فجميع الناس من نسله ، وأبقى له الذكر الجميل والثناء الحسن لإحسانه في عبادة الله ، وإحسانه إلى الناس بقيامه بالدعوة على أحسن الوجوه ، وأفضل الطرق مع الصبر والثبات . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧] وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿ ٧٨ ﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعِلْمِينَ ﴿ ٧٩ ﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ ٨٠ ﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٨١ ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿ ٨٢ ﴾ [الصافات: ٧٧-٨٢] (٣) .

(١) وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣١٢/١٨ .

(٢) وانظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٨٢٤ .

(٣) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٢٠-١٩/٤ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٥٠-٦٥١ .

المبحث الثاني

مؤمن آل فرعون

هو رجل من قوم فرعون آمن بموسى عليه السلام ، وكان يُسيرَ إيمانه من فرعون وقومه خوفاً على نفسه^(١) .

قيّضه الله تعالى لنصرة الحق والذب عنه بأحسن الوجوه وأكمل الأساليب ، ودافع عن موسى عليه السلام دفاعاً عظيماً حتى أزال ما قصده به فرعون من الشرّ .

كان رجلاً عاقلاً حكيماً فطناً لبيباً دفعه إيمانه للوقوف في وجه الطاغية فرعون موقفاً ترتجف له القلوب ، وتتخلع له الأفئدة ، ولا يثبت عنده إلا المؤمنون الصادقون ، والمخلصون الناصحون . وقد أرسل كلماته التي دونها له القرآن الكريم قوّة الحجّة ، بليغة العبارة ، شديدة الأثر ، مع قلّتها وإيجازها ، ولكنها حوت بين طيّاتها دعوة كاملة شاملة أفضت مضجع الطاغية وزلزلت أقدامه ، وأعجزته عن المواجهة فلجأ إلى الحيل ، والسبل الملتوية ليردّ كبريائه ويثبت جبروته ، ويعيد سطوته .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [٢٦-٢٧] .

وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [٢٧-٢٨] .

لقد زعم فرعون أنّه قاتل موسى عليه السلام ، غير مبال بربه ولا عابئ به ، وهذا منتهى الجحود وقمة النكران مع التّجبر والتّكبر والغرور . وهو يزعم أنّه بذلك

(١) انظر : جامع البيان : ٥٧/٢٤ .

ذكر البعض أنّه كان إسرائيلياً يكم إيمانه من آل فرعون . ففي الكلام تقدم وتأخير . والرّاجح أنّه كان قبطياً من آل فرعون . ولذا أصغى فرعون إلى قوله ، وكفّ عما همّ به من قتل موسى عليه السلام . ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجله بالعقوبة ، لأنهم مضطهدون عنده . انظر : جامع البيان : ٥٨/٢٤ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٦-٣٠٧ . تفسير القرآن العظيم : ١١٧/٤ .

يريد إزالة الشرّ من الأرض ، وتطهيرها من الفساد النّاجم عن موسى عليه السّلام ، وهو بذلك ناصح مشفق على قومه . وهذا من أعجب ما يتصوّر أن يصبح أشرّ النّاس ناصحاً محذراً من خير النّاس في وقته . وهذا معنى المثل الشّائع : صار فرعون مذكراً .

فلجأ موسى إلى الله واستعاذ به فسخر الله له هذا المؤمن الصادق للدّفاع عنه والذبّ عن الحقّ^(١) .

قال الرّازي (رحمه الله) :

"إنّه تعالى قيّض إنساناً أجنبيّاً غير موسى حتّى ذبّ عنه على أحسن الوجوه ، وبالع في تسكين تلك الفتنة ، واجتهد في إزالة ذلك الشرّ " (٢) .

لقد انبرى المؤمن يدافع وينافح في ثبات وصلابة : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ

يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨] .

أي ذنب جناه وأي جريرة ارتكبها ؟ لا شيء سوى أنّه قال : ربّي الله . وهل هذا ذنب يدعو لقتله ؟ ولم يكن قوله مجرداً من الحجّة ، بل جاءكم بالبراهين النّيّرات ، والحجج الدّامغات ، التي عجزتم عن ردّها وإبطالها . فكان أولى بكم أن تكرّموه وتجلّوه وتعظّموه ولا تقتلوه (٣) .

حجّة قويّة ، وأسلوب مقنع ، يحفّظ العطف ، ويوجّه العقل الرّاشد السّديد ، مفعم بالحزم والثّبات ، مع شدّة الإنكار ، ومهابة الموقف .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

"خاف هذا المؤمن على موسى فتلطّف في ردّ فرعون بكلام جمع فيه التّريغيب والتّرهيب ، فقال على وجه المشورة والرّأي - ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ - وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال : " أفضل

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ١١٦/٤ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٢ .

(٢) التفسير الكبير : ٥٧/٢٧ .

(٣) وانظر : المرجع السّابق : ٥٧/٢٧ . فتح البيان : ١٨٢/١٢ .

الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ^(١) وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإن فرعون لا أشدّ جوراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه لأنّ فيه عصمة نبيّ " (٢) .

ثمّ أردف المؤمن الحجّة بحجّة عقلية مقنعة لمن كان له عقل فقال : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨] .

أي إنّ العقل والرأي التّام والحزم يدعوكم أن تتركوه ولا تتالوه بأذى ، لأنّه بين أمرين : إمّا أن يكون كاذباً ، فهو حينئذٍ ضرره على نفسه ، والله يجازيه بالعقوبة ولا يمسّكم من ذلك شيء . وإن كان صادقاً وقد آذيتموه فإنّه حينئذٍ يصبكم بعض ما يتوعّدكم به من العقاب ، فينبغي تركه وعدم التّعريض له ^(٣) .

(١) سنن أبي داود: بلفظه : في كتاب الملاحم : (٣٦) . باب الأمر والتّهي :

(١٧) . برقم : (٤٣٤٤) . عن أبي سعيد رضي الله عنه وفيه زيادة . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤٧٤ .

سنن الترمذي: بلفظ مقارب في: كتاب الفتن : (٣٠) . باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر :

(١٣) . برقم : (٢١٧٤) . عن أبي سعيد رضي الله عنه . وقال : " هذا حديث حسن غريب " . وقال الألباني

(رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٣٦١ .

سنن التّسائي: بلفظ مقارب في: كتاب البيعة : (٣٩) . باب فضل من تكلم بالحقّ عند إمام جائر : (٣٧) . عن

طارق بن شهاب رضي الله عنه . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤٤٢ .

سنن ابن ماجه: بلفظه : في كتاب الفتن : (٣٦) . باب الأمر بالمعروف والتّهي عن المنكر : (٢٠) . برقم : (٤٠١١) .

عن أبي سعيد رضي الله عنه . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤٣١ .

وبلفظ مقارب برقم : (٤٠١٢) . عن أبي أمامة رضي الله عنه . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن صحيح " . ص : ٤٣١ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٦١/٣ . عن أبي سعيد رضي الله عنه . جزء من حديث طويل . وفي : ٣١٤/٤ ، ٣١٥ .

عن طارق رضي الله عنه . ونحوه في : ٢٥١/٥ ، ٢٥٦ . عن أبي أمامة رضي الله عنه .

معجم الطبراني الصّغير : بلفظ مقارب في : ١٠٧/١ . عن أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) البداية والنهاية : ٢٦٠/١ .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم : ١١٧/٤ - ١١٨ .

قال الشيخ السّعدي (رحمه الله) :

" وهذا من حسن عقله ، ولطف دفعه عن موسى ، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم ، وجعل

الأمر دائراً بين تينك الحالتين . وعلى كلّ تقدير فقتله سفه وجهل منكم " . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٣ .

ولم يكن ذلك شكّ منه في صدق موسى عليه السّلام ، فقد وصفه الله بالإيمان ، ولكنّه تلطّف في الخطاب ، وترقيق للكلام في الوعظ ، مع حسن العدل وتمام الإنصاف^(١) .

قال الألوسي (رحمه الله) :

" وفيه مبالغة في التحذير فإنّه إذا حذّرهم من إصابة البعض أفاد أنّه مهلك مخوف فما بال الكلّ ، وإظهار للإنصاف وعدم التعصب ولذا قدّم احتمال كونه كاذباً " (٢) .

ثمّ قال المؤمن ناصحاً لقومه ، مرشداً لهم ، محذراً إيّاهم من زوال نعم الله عنهم ، وحلول نقمه بهم : ﴿ يَلْقَوْنَ لَكُمْ أَلْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَهْرَيْنَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ [غافر: ٢٩] .

لقد أنعم الله عليكم بنعمة الملك والظهور في الأرض ، فنفدت كلمتكم ، وعظم جاهكم ، فهلاً راعيتم تلك النعمة فشكرتم الله وصدقتم رسوله ، وإن أبيتم فاحذروا بأس الله وسوء عذابه ، فإنّ جندكم وقوتكم لا تغني فتيلاً^(٣) .

ومن حسن عرضه للموعظة (رحمه الله) أنّه نسب ما يسرّهم من الملك والظهور في الأرض لهم دونه ، ونظم نفسه معهم فيما يسوء من العذاب تطيباً لقلوبهم ، ومبالغة في نصحتهم ، فهو ساع في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرّهم كسعيه في حقّ نفسه ، ليصل النصح إلى قلوبهم ، ويبلغ أثره إلى نفوسهم^(٤) .

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٧/١٥ . فتح البيان : ١٨٣/١٢ .

(٢) روح المعاني : ٦٤/٢٤ .. وقيل : المراد بالعذاب الدّنيا . وقيل : بعض بمعنى كلّ . انظر : الجامع لأحكام

القرآن : ٣٠٨-٣٠٧/١٥ . روح المعاني : ٦٤/٢٤ .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم : ١١٨/٤ .

(٤) انظر : روح المعاني : ٦٥/٢٤ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٣ .

وقد ظهرت حجته ، وبلغت مبلغها في نفس الحاضرين ممّا جعل فرعون يلجأ إلى المراوغة والإيهام ، والتّضليل والكذب قائلاً لقومه : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩] .

وقد كذب - عليه لعائن الله - فيما زعم - فقد كان مقراً في باطنه بصدق موسى عليه السّلام ، وأن ما جاء به حقّ ، ولم يكن راشداً في أمره ، بل كان على سفه وضلال ، ولذلك أضلّ قومه وما هدى ^(١) .

ولكنّ المؤمن لم يعبأ بقول فرعون ولم يهب منه ، بل زاده ذلك ثباتاً وقوّة ، لأنّ فرعون ترك ما عزم عليه ولجأ إلى هذه الحجّة الضّعيفة الباطلة .

فقال المؤمن مكرراً الدّعوة إلى قومه غير آيس من هدايتهم ، محذراً إيّاهم أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم السّابقة الذين تحزّبوا على أنبيائهم وكذبوهم ، فحلّ بهم من الدّمار والهلاك ما استأصل شأفتهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَلْقَوْنَ إِبْرَاهِيمَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ [٢] مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣٠-٣١] ^(٢) .

ثمّ خوفهم بالعذاب الأخروي عقب تخويفهم بالعذاب الدّنّيوي ليكون أبلغ في ردّهم وأرجى لهدايتهم . فقال : ﴿ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ [٣] يَوْمَ تُولُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: ٣٢-٣٣] ^(٣) .

(١) انظر : البداية والنهاية : ٢٦١/١ .

(٢) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ١١٩/٤ . روح المعاني : ٦٦/٢٤ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٣ .

(٣) قال الرّازي (رحمه الله) :

" أمّا تكرير التّداء ففيه زيادة تنبيه لهم ، وإيقاظ من سنة الغفلة ، وإظهار أنّ له بهذا المهمّ مزيد اهتمام ، وعلى

أولئك الأقوام فرط شفقة " . التفسير الكبير : ٧٠/٢٧ .

وقال القرطبي (رحمه الله) :

" فقال : ﴿ يَلْقَوْنَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه " . الجامع لأحكام القرآن : ٣١٠/١٥ .

وفي هذا تصريح لهم بإيمانه .

ولذا قال القرطبي (رحمه الله) :

" زاد في الوعظ والتخويف ، وأفصح عن إيمانه ، إمّا مستسلماً موطناً نفسه على القتل ، أو واثقاً بأنهم لا يقصدونه بسوء " (١) .

وظلّ المؤمن (رحمه الله) يورد الحجّة بعد الحجّة ، ويقيم الدليل عقب الدليل على صدق موسى عليه السّلام وهو ثابت لا يتزعزع . فنصح وأرشد ، وخوف وأنذر ، وحذّرهم من الدّنيا وزهّدهم في متاعها الزّائل ، ورغبهم في الآخرة ، وأنها لا تقارن بالدّنيا لما فيها من نعيم مقيم ، وثواب عظيم ، ورهبهم من عذابها الدّائم ، وعقابها الّذي لا ينقطع . وذلك بعد أن دعاهم إلى اتّباع موسى عليه السّلام والتّصديق به ، لأنّه هو الرّاشد الّذي على الحقّ ليس كما يدعي الطّاغية فرعون .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۚ ﴾
يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۚ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۚ ﴾ [غافر: ٣٨-٤٠] (٢) .

والتّريغيب بالنّعيم الدّائم ، والتّرهيب عن العذاب الّذي لا ينقطع من أقوى وجوه التّريغيب والتّرهيب (٣) .

ثمّ انبرى المؤمن مواجهاً بدعوته الملاء ، مجاهراً ببطلان ما هم فيه ، مضاداً لفرعون فيما ذهب إليه ، مستكراً عبادتهم لفرعون - عليه لعائن الله - موبخاً إيّاهم من الاستجابة لضلاله ، مبيناً لهم أن دعوة فرعون دعوة إلى النّار ، وإنّما الدّعوة

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣١٠/١٥ .

(٢) وانظر في معنى الآيات : جامع البيان : ٦٧/٢٤ - ٦٨ . التفسير الكبير : ٦٨/٢٧ - ٧٠ . تفسير القرآن العظيم :

١٢١/٤ . روح المعاني : ٧٠/٢٤ - ٧١ . فتح البيان : ١٩٢/١٢ - ١٩٣ . محاسن التّأويل : ٥١٦٨/١٤ - ٥١٦٩ .

تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٤ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٦٩/٢٧ .

الحق هي دعوة موسى عليه السلام ، وهي التي تقودهم إلى النجاة وإلى الجنة ، لأنها دعوة لعبادة الله وحده وهو المستحق للعبادة ، الذي له القوة الكاملة ، والعزة التي لا تقهر ، والذي يتجاوز عن السيئات ويغفر الذنوب ، وأن مردّ العباد يوم القيامة إليه ، وأما فرعون فهو عاجز قاصر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً دعك عن غيره ، فهو لا يستحق أن يعبد .

وفي ذلك يقول المولى سبحانه على لسان المؤمن البار الراشد : ﴿ وَيَقُومِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ [٤١-٤٣] (١) .

﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ ﴾ [٤٣] لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردناً إلى الله وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [٤٣-٤٤] (١) .

لقد بالغ (رحمه الله) في بيان الحق ونصح قومه ، بثبات جاش وقوة عزيمة ، وإصرار منقطع النظير ، مع حسن الأسلوب وقوة الحجّة ، وتنوّع الموعظة . ثم ختم كلامه بعبارة لطيفة حوت تخويفاً وتحذيراً شديداً لهم مع قوة اليقين ورسوخ الإيمان حيث قال : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [٤٤] .

أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ، ونهيتكم عنه ، ونصحتكم ووضّحت لكم ، وتذكّرونه ، وتقدمون حيث لا ينفعكم الندم . وأتوكّل على الله وأستعينه ، وأقاطعكم وأباعدكم ، والله بصير بعباده ، يهدي من يستحق الهداية ، ويضلّ من يستحق الضلال ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة ، والقدر النافذ (٢) .

(١) وانظر معنى الآيات في : جامع البيان : ٦٨/٢٤ - ٧٠ . التفسير الكبير : ٧٠/٢٧ - ٧١ . تفسير القرآن العظيم :

١٢٢/٤ . روح المعاني : ٧١/٢٤ - ٧٢ . فتح البيان : ١٢/١٩٣ - ١٩٥ . محاسن التأويل : ١٤/٥١٦٩ - ٥١٧٠ .

تيسير الكريم الرحمن . ص : ٦٨٤ - ٦٨٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ١٢٢/٤ بتصرف يسير .

عند ذلك أرادوا به كيداً فوقاه الله بلطفه وحفظه ، وردّ كيدهم في نحورهم ، وعاد مكرهم مكرّاً بهم ، وحقّ بهم عذاب الدّنيا متّصلاً بعذاب الآخرة .

قال تعالى : ﴿ فَوَقَّهٖ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦] (١) .

إنّه أنموذج لكلّ داعية صادق ، يريد لدين الله أن ينتصر ، ولدعوته أن تعلو . وفي سبيل ذلك لا يبالي بما يواجهه من صعاب وشدائد مهما عظم أمرها ، وزاد خطرها . فما عند الله أعظم ، وفضله أعلى وأكرم ، وخيره أعم وأنعم . فساعة من الصّبر والثّبات يقفها الدّاعية المخلص تدعو حاجة الدّعوة إليها تورثه نعيماً لا ينفد ، وعزّاً لا يفقد ، وسعادة إلى الأبد .

(١) وانظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٥ .

المبحث الثالث

صحابه رسول الله ﷺ

إنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ هم الَّذِينَ حملوا دعوة الله عزَّ وجلَّ على كواهلهم بعد رسول الله ﷺ ، وعانوا في حملها ما عانوا ، واجتهدوا في إبلاغها أعظم الاجتهاد ، وضَحَّوْا من أجلها أعظم التضحيات .

أودوا فيها أبلغ الأذى^(١) ، وصبروا على حملها أبلغ الصبر . انطلقوا بها في ربوع الأرض لا يعبئون بما يلاقونه من متاعب ، ولا يكثرثون بما يواجهونه من عقبات . استعذبوا في سبيلها الآلام ، ولاقوا من أجلها أنواع المحن العظام . فما اهتزَّ لهم عود ، وما لانت لهم قناة ، ولم يقلَّ عزمهم الاضطهاد ، ولم يوقف سيرهم الشدائد الشداد . بل صبروا صبر الأبطال ، وثبتوا ثبات شوامخ الجبال . واصلوا ليْلهم بنهارهم ، وصباحهم بمساءهم ، حتَّى انتشرت دعوة الله في آفاق الأرض ، وخفقت راياتها في البر والبحر ، وظهر الحقُّ بعد أن كان عافياً ، وأضاء الكون بعد أن كان مظلماً .

ومواقف الصَّحَابَةِ ﷺ في الثبات على دعوة الله التي سطرها لهم التاريخ تفوق حدَّ الوصف ، ويعجز اليراع أن يأتي عليها بما يفي ، وتضيق هذه الصفحات عن ذكرها . ولكنِّي أمثل لها بمثالين لبطلين فذَّين ، وقفَا موقفين متشابهين أمام طاغيتين جبَّارين ظالمين سفَّاحين ، فما ارتجفت لهم بواذر^(٢) ، وما انخلعت لهم قلوب ، وما تضعضعت لهم عزائم ، وما زلَّت لهم أقدام .

لم تمنعهما مهابة المقام أن يبْلِغا دعوة الله ، ولم يثنَّ عزمهما ويدخل الهلع إلى قلوبهما سيوف مصلتة ، ولا رماح مشرعة ، ولا أعداء بالشرِّ متربِّصة . بل قالوا الحقَّ وصدعوا به بعزة نفس ، وصدق إيمان ، وقوة عزم ، وثبات قلب .

(١) انظر فيما لقي الصَّحَابَةُ من الأذى : السِّيرة النَّبَوِيَّة لابن هشام : ١٩٤/١ - ١٩٧ . الكامل في التاريخ : ٤٥/٢

فما بعدها . البداية والنهاية : ٤٩/٣ فما بعدها . فتح الباري : ٥٥٥/٧ - ٥٥٦ .

(٢) بواذر : جمع بادرة : اللَّحمة التي بين المنكب والعنق . لسان العرب : ٥٠/٤ .

﴿ أولهما : النعمان بن مقرن رضي الله عنه :

بعثه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في جماعة من أشراف القوم إلى يزْدَجَرْد (١) ملك
الفرس ليدعوه إلى الله ، وكان متكبراً قليل الأدب .

فلما وقفوا بين يديه قال لترجمانه (٢) : سلهم ما جاء بكم ؟ وما دعاكم إلى
غزونا ؟ والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل أننا تشاغلنا عنكم اجتراءتم علينا ؟
فقال النعمان بن مقرن رضي الله عنه لأصحابه : " إن شئتم تكلمت عنكم ، ومن شاء
أثرته . فقالوا : بل تكلم " .

فقال : " إن الله رحمننا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ،
ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة إلا وقاربه منها فرقة ،
وتباعد عنه بها فرقة ، ثم أمر أن نبتدىء إلى من خالفه من العرب فبدأنا بهم ، فدخلوا
معه على وجهين : مكره عليه فاغتنب (٣) ، وطائع فازداد . فعرفنا جميعاً فضل ما
جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق . ثم أمرنا أن نبتدىء بمن يلينا من
الأمم فندعوهم إلى الإنصاف . فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن ،
وقبح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية ، فإن

(١) هو يزْدَجَرْد بن شهريار بن أبريز ، آخر ملوك الفرس . مُلِك عليهم في العام الذي بويح فيه للصديق رضي الله عنه .
وقيل : في عهد عمر رضي الله عنه . وكان حديث السن ، ضعيفاً في أمره . قتل سنة : ٣١ هـ هارباً من جيوش المسلمين
في خلافة عثمان رضي الله عنه بعد معارك عديدة . استمر ملكه عشرين عاماً .
و انظر : تاريخ البعقوبي . لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي . طبعة : دار صادر . بيروت : ١٧٤/١ .
١٤٣/٢ . تاريخ الطبري : ١٢٠/١ ، ٤٩٤ ، ٢٥٣/٢ ، ٣٧٩ ، ٦٢٠ . طبعة دار الكتب العلمية . البدء
والتاريخ : ١٧٣/٣ ، ١٩٦/٥ . المنتظم : ٣١٣/٣ ، ١٦٠/٤ ، ١٦٤ ، ٢٣٦ ، ١٣/٥ ، ١٤ . الكامل في
التاريخ : ٣٨٨-٣٨٧/١ . طبعة دار الكتب العلمية . وفيات الأعيان : ٣٦١/٤ . البداية والنهاية : ٣٠/٧-١٢٩ .
التحويم الزاهرة : ٨٨/١ .

(٢) الترجمان : المفسر للسان . بالضم والفتح : وهو الذي يُترجم الكلام : أي ينقله من لغة إلى لغة أخرى .
والجمع التراجم . والتاء والتون زائدتان ؛ وقد تُرجمه و تُرجم عنه . لسان العرب : ٦٦/١٢ . وانظر : مختلر
الصحاح : ص : ٢٣٦ . القاموس المحيط . ص : ١٣٩٩ .

(٣) اغتبط : أي حسن حاله . أو فرح بالنعمة . وانظر : لسان العرب : ٣٥٩/٧ . مختار الصحاح :
ص : ٤٦٨ . القاموس المحيط . ص : ٨٧٧ .

أُبيتم فالمناجزة ^(١) ، فإن أجبتكم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن بذلتكم الجزاء قبلنا ومنعناكم ، وإلاّ قاتلناكم " ^(٢) .

❁ ثانيهما : رُبَعي بن عامر رضي الله عنه :

لَمَّا طَلَب رَسْتَم قَائِدُ الْفَرَسِ مِنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رضي الله عنه أَنْ يُرْسِلَ لَهُ رَجُلًا يَكَلِّمُهُ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رُبَعيًا رضي الله عنه .

فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَدْ زَيْنُوا مَجْلِسَهُ بِالنَّمَارِقِ ^(٣) الْمَذْهَبَةِ ، وَالزَّرَابِيِّ ^(٤) الْحَرِيرِ ، وَأَظْهَرَ الْيَوَاقِيتِ وَاللَّائِلِي الثَّمِينَةِ ، وَالزَّيْنَةَ الْعَظِيمَةَ ، وَعَلَيْهِ تَاجُهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْتَعَةِ الثَّمِينَةِ .

وَقَدْ جَلَسَ عَلَى سُرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ . وَدَخَلَ رُبَعي بِثِيَابٍ صَفِيْقَةٍ ^(٥) ، وَسِيفٍ وَتُرْسٍ ^(٦) وَفَرَسٍ قَصِيرَةٍ ، وَلَمْ يَزَلْ رَاكِبَهَا حَتَّى دَاسَ بِهَا عَلَى طَرَفِ الْبَسَاطِ ،

(١) الْمُنَاجَزَةُ : الْمُبَارَزَةُ وَالْمَقَاتِلَةُ . وَهُوَ أَنْ يَتَبَارَزَ الْفَارِسَانِ فَيَتِمَارَسَا حَتَّى يَقْتُلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا

صَاحِبَهُ أَوْ يَقْتُلَ أَحَدَهُمَا . لِسَانُ الْعَرَبِ : ٤١٤/٥ . وَانْظُرْ : الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ . ص : ٦٧٧

(٢) الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ : ٣١٥/٢ . وَانْظُرْ : الْبَدَايَةُ وَالتَّهْيَاةُ : ٤١/٧ - ٤٢ . إِمَامُ الْوَفَا فِي سِيرَةِ اخْلَفَاءِ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ

الْخَضْرِيِّ . تَحْقِيقٌ : عَبْدُ الْمَجِيدِ طَعَمُهُ حَلَبِي . الطَّبْعَةُ الْأُولَى : ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م دَارُ الْمَعْرِفَةِ . بَيْرُوتَ . ص :

٧٤-٧٣

(٣) التَّمَارِقُ : جَمْعُ تَمْرُقَةٍ وَهِيَ الْوَسَادَةُ . انْظُرْ : مَخْتَارُ الصَّحَاحِ : ص : ٦٨٠ . لِسَانُ الْعَرَبِ : ١٠ / ٣٦١ .

الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ . ص : ١١٩٦ .

(٤) الزَّرَابِيُّ : الْبُسْطُ ؛ وَقِيلَ : كُلُّ مَا بُسِطَ وَأُثْكِيَ عَلَيْهِ ؛ وَقِيلَ : هِيَ الطَّنَافِسُ . وَاحِدُهَا زُرْبِي وَيَكْسَرُ .

انْظُرْ : لِسَانُ الْعَرَبِ : ٤٤٧/١ . وَانْظُرْ : مَخْتَارُ الصَّحَاحِ : ص : ٢٧٠ . الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ . ص : ١٢٠ .

(٥) ثَوْبٌ صَفِيقٌ : مَتْنٌ بَيْنَ الصَّفَاقَةِ . وَقَدْ صَفَّقَ صَفَاقَةً : كُنْثَ نَسْجِهِ . وَأَصْفَقَهُ الْحَائِكُ . لِسَانُ الْعَرَبِ :

٢٠٤/١٠ .

(٦) التُّرْسُ مِنَ السَّلَاحِ : الْمَتَوَقَّى بِهَا . وَجَمْعُهُ أَتْرَاسٌ وَتِرَاسٌ وَتِرَاسَةٌ وَتُرُوسٌ وَتُرْسٌ . فَهُوَ آلَةٌ يَتَرَسُّ بِهَا : أَيِ

يَحْتَمِي وَيَتَسَتَّرُ بِهَا . وَانْظُرْ : لِسَانُ الْعَرَبِ : ٣٢/٦ . الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ . ص : ٦٨٨ .

ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته (١) . على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك . فقال : " إني لم آتكم ، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت " . فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها . فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه ندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله " . قالوا : وما موعود الله ؟ قال : " الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي " . فقال رستم : قد سمعت مقاتلكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتتظروا ؟ قال : " نعم ! كم أحب إليكم ؟ يوماً أو يومين ؟ " قال : لا ، بل حتى نكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا . فقال : " ما سن لنا رسول الله ﷺ أن تؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل " . فقال : أسيدهم أنت ؟ قال : " لا ، ولكن المسلمون كالجسد الواحد ، يجير (٢) أدناهم على أعلاهم (٣) " .

فاجتمع رستم برؤساء قومه ، فقال : هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا : معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا ، وتدع دينك إلى هذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه ؟ . فقال : ويلكم لا تنظروا إلى الثياب ، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة . إن العرب يستخفون بالثياب والمأكّل ، ويصنون الأحزاب " (٤) .

(١) البيضة : هي الحرزة التي يلبسها الفارس على رأسه وتصنع من الحديد . انظر : مختار الصحاح : ص : ٧١ .

لسان العرب : ١٢٤/٧ . القاموس المحيط . ص : ٨٢٣ .

(٢) يجير : أي ينقذ ويعيد . انظر : لسان العرب : ١٥٤/٤ . القاموس المحيط . ص : ٤٧١ .

(٣) في حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) قال ﷺ : " والمؤمنون يد على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، يجير عليهم أولهم ، ويردّ عليهم أقصاهم " . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : باب ذكر القصاص في القتل . برقم :

(٥٩٩٦) . قال شعيب الأرنؤوط : " إسناده صحيح " . ٣٤٠ / ١٣ .

(٤) البداية والنهاية : ٣٩/٧ - ٤٠ . وانظر : الكامل في التاريخ : ٣٢٠/٢ - ٣٢١ . إتمام الوفا . ص : ٧٥ - ٧٦ .

هذان مثلان قِيَمَان ، وأنموذجان عظيمان ، بلغا في التّضحية والثّبات مبلغاً بعيد المدى . وهما قطرة من فيض في أمثلة متوافرة ، ونماذج متكاثرة ، حفظها التاريخ لقوم صحبوا رسول الله ﷺ ، فحملوا الدّعوة معه وبعده في وقت مهول مخوف ، أطبقت فيه أمم الأرض على عداوتهم ، وأسفرت عن وجوه كالحة لدعوتهم ، فما أقعدهم ذلك ولا تثبّطهم عن نصرته دين الله ، والذّب عن شرع الله ، وإيصاله إلى كلّ فرد أمكنهم إيصاله إليه ، باذلين المهج ، راكبين الصّعب ، مصارعين الأهوال ، مواجهين المشاقّ ، همّهم أن تعلو كلمة الله ، وأن تسود الأرض دعوة الله ، فيخرج أثر ذلك العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد ، ومن ضيق الدّنيا إلى سعة الدّنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

وقد فعلوا ، وتركوا آثاراً مضيئة ، وبصمات مشعة خلّدها لهم التاريخ بأحرف من نور لتكون نبراساً يضيء طريق الأجيال المتعاقبة من بعدهم . وليقف أبناء الإسلام عندها مترسّمين خطاها ، سائرين على منوالها ، مفاخرين بها الأمم :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع^(١)

والدّعوة اليوم تنن من وطأة ظلم أهلها لها ، وتشكو إلى ربّها من نكول الدّعاة عنها - إلا من رحم الله ، وقليل ما هم - وتتادي أبناءها بصوت كليل مبوح : إليّ إليّ أحفاد ربّعي والنّعمان ، لقد رفع هامتي آباؤكم ، وعظّم قدري أجدادكم ، فهلاًّ فعلتم كما فعلوا ، وقمتم بما قاموا ؟ فإنّ العالم بأسره محتاج إليّ ، متشوّق للقائي . أفيقوا من ثباتكم ، وضمّدوا جراحاتكم ، ورمّموا صفوفكم ، وأزيلوا خلافاتكم واتحدّوا وتعاونوا ، فإنّي مللت من طول الانتظار حتّى كدت أياس ، فعجّلوا عجلّوا .

(١) ديوان الفرزدق : ص : ٣٦٠ .

باب الرابع

الثبات في الجهاد

وفيه فصول :

الفصل الأول
محاني الجهاد في اللغة والشرع

الفصل الثاني
مراحل تشريع الجهاد وأنواعه

الفصل الثالث
حقيقة الجهاد والحكمة من تشريعه

الفصل الرابع
عوامل الثبات في الجهاد

الفصل الخامس
نماذج للثبات في الجهاد

الفصل الأول

معاني الجهاد في اللغة والشرع

وفيه مبحثان :

المبحث الأول

معاني الجهاد في اللغة

الجهد بفتح الجيم : المشقة والغاية ، وبضمها : الطاقة ^(١) .

قال ابن دريد (رحمه الله) :

" والجهْد والجهْد لغتان فصيحتان بمعنى واحد . بلغ الرَّجُلُ جُهْدَهُ وجَهْدَهُ ومجهوده : إذا بلغ أقصى قوته وطوقه " ^(٢) .

وجمهور العلماء على التفريق بين لغتي الفتح والضم ^(٣) .

(١) انظر : تهذيب اللغة : ٣٧/٦ . مقاييس اللغة : ٤٨٦/١ . مجمل اللغة : ٢٠٠/١ . الصحاح : ٤٦٠/٢ . أساس

البلاغة . ١٤٤/١ . المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لعلي بن إسماعيل بن سيده . تحقيق عبدالستار أحمد فراج .
الطبعة الأولى : ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م . مطبعة مصطفى الحلبي . بمصر : ١١٠/٤ . مختار الصحاح : ص :
١١٤ . المصباح المنير : ١٢٢/١ . لسان العرب : ١٣٣/٣ . تاج العروس : ٤٠٧/٤ . المعجم الوسيط :
١٤٢/١ . معجم متن اللغة : ٥٨٧/١ .

(٢) كتاب جمهرة اللغة . لأبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري المشهور بابن دريد . طبعة : مؤسسة الحلبي

وشركاه . القاهرة . نشر : دار صادر : ٧١ / ٢ .

(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم : ٢٢٦/١ .

وقال ابن الأثير (رحمه الله) :

" بالضّم : الوسع والطّاقة ، وبالفتح : المشقّة ، وقيل المبالغة والغاية . وقيل :

هما لغتان في الوسع والطّاقة ، فأما في المشقّة والغاية فالفتح لا غير " (١) .

وقيل : بالضّم لغة أهل الحجاز ، وبالفتح لغة غيرهم . (٢)

وقد أطلقت كلمة الجهد عدّة إطلاقات في اللّغة وكلّها تدور حول المعنيين

السّابقين .

فيقال : جَهَدَ الرَّجُلَ : أي ألحّ عليه في السّؤال . (٣)

: وَجَهَدَ الرَّجُلُ فِي كَذَا : أي جدّ فيه وبالغ (٤) .

: وَجَهَدَهُ الْمَرَضُ : هزله . (٥)

: وَجَهَدَ بِهِ : امتحنه عن الخير وغيره . (٦)

: وَجَهَدَ دَابَّتَهُ وَأَجْهَدَهَا : إذا حمل عليها في السّير فوق طاقتها . (٧)

(١) التّهایة فی غریب الحدیث : ١ / ٣٢٠ .

وانظر : المصباح المنیر : ص : ١٢٢ / ١ . ومعجم متن اللّغة : ٥٨٧ / ١ .

(٢) المصباح المنیر : ١٢٢ / ١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧ / ١ .

(٣) أساس البلاغة : ١٤٤ / ١ . المعجم الوسيط : ١٤٢ / ١ .

(٤) الصّحاح : ٤٦٠ / ٢ . مختار الصّحاح : ص : ١١٤ . لسان العرب : ١٣٣ / ٣ .

(٥) المحکم : ١١١ / ٤ . لسان العرب : ١٣٣ / ٣ . تاج العروس : ٤٠٧ / ٤ .

المعجم الوسيط : ١٤٢ / ١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧ / ١ .

(٦) انظر : المحکم : ١١١ / ٤ . تاج العروس : ٤٠٧ / ٤ .

(٧) الصّحاح : ٤٦٠ / ٢ . مختار الصّحاح : ص : ١١٤ . المصباح المنیر : ١٢٢ / ١ . لسان العرب : ١٣٣ / ٣ . تلرج

العروس : ٤٠٧ / ٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢ / ١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧ / ١ .

: وجهت اللّبن جهداً : إذا مزجته بالماء ومخضته حتى استخرجت زبده فصار
حلواً لذياً^(١).

: وأجهد الطّعام : إذا حمل عليه بالأكل الكثير الشّدِيد^(٢).

: وجهد عيش القوم : إذا نكد واشتدّ^(٣).

ويقال: أجهد : إذا احتاط^(٤) . وإذا اختلط^(٥).

: وأجهد فيه الشّيب إجهاداً : إذا بدا فيه وكثر^(٦).

: وأجهد لك الطّريق أو الحقّ : إذا برز وظهر ووضح^(٧).

: وأجهد ماله : إذا أفناه وفرّقه^(٨).

(١) المصباح المنير : ١١٢/١ . وانظر لسان العرب : ١٣٥/٣ . تاج العروس : ٤٠٧/٤ .

المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٢) معجم مقاييس اللّغة : ٤٨٧/١ . يحمل اللّغة : ٢٠٠/١ . وانظر : الصّحاح : ٤٦٠/٢ . لسان العرب :

١٣٥/٣ . تاج العروس : ٤٠٧/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٣) انظر : الصّحاح : ٤٦١/٢ . تاج العروس : ٤٠٧/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ .

(٤) لسان العرب : ١٣٤/٣ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ ، معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٥) تهذيب اللّغة : ٣٩/٦ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٦) تهذيب اللّغة : ٣٩/٦ . وانظر : أساس البلاغة : ١٤٤/١ . المحكم : ١١١/٤ . لسان العرب : ١٣٣/٣ . تاج

العروس : ٤٠٨/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٧) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٩/١ . لسان العرب : ١٣٤/٣ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ .

معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٨) انظر : تاج العروس : ٤٠٨/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

: وأجهد القوم : إذا أُجذبوا .^(١) وإذا أُشرفوا .^(٢)

: وجاهد جهاداً : إذا بذل وسعه وطاقته في طلبه ليلبغ مجهوده ويصل إلى
نهایتہ.^(٣)

: وجاهد العدو مجاهداً ، وجهاداً : إذا قاتله .^(٤)

والجهاد والتّجاهد والمجاهدة : بذل الوسع والمجهود .^(٥)

والجَهَاد - بالفتح : الأرض الصّلبة .^(٦) أو الغليظة . وقيل : المستوية .^(٧)

فالجهاد ورد في اللّغة بمعاني متعدّدة منها : الإلحاح ، والجد ، والهزال ،
والامتحان ، والشّدّة ، والاحتياط ، والاختلاط ، والوضوح ، والتّفريق ، والجذب ،
والبذل ، والطّاقة ، والمشقّة ، والقتال . وكلّ هذه المعاني يلمح فيها معنى المشقّة
وبذل الوسع .

(١) انظر : لسان العرب : ١٣٤/٣ . تاج العروس : ٤٠٩/٤ .

(٢) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٩/٦ . لسان العرب : ١٣٤/٣ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ . معجم متن اللّغة :
٥٨٧/١ .

(٣) المصباح المنير : ١٢٢/١ . وانظر : لسان العرب : ١٣٥/٣ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ . معجم متن اللّغة :
٥٨٧/١ .

(٤) المحكم : ١١١/٤ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٥) انظر الصّحاح : ٤٦١/٢ ، مختار الصّحاح : ص ١١٤ . لسان العرب : ١٣٥/٣ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ .

(٦) معجم مقاييس اللّغة : ٤٨٧/١ . مجمل اللّغة : ٢٠٠/١ . الصّحاح : ٤٦١/٢ . لسان العرب : ١٣٤/٣ . تاج

العروس : ٤٠٧/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٧) المحكم : ١١١/٤ . لسان العرب : ١٣٤/٣ . تاج العروس : ٤٠٧/٤ .

المبحث الثاني

معاني الجهاد في الشرع والاصطلاح

وردت لفظة الجهاد في القرآن والسنة كثيرة جداً ، وهي لا تخرج في إطلاقاتها عن المعاني اللغوية السابقة مع أن اللغة في ذلك أوسع دائرة وأشمل . وهي مع ذلك لا تخرج عن ما فيه مشقة ، واستفراغ ما في الوسع من طاقة .

وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن ورد مراداً به بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها .^(١)

وقد يرد في غير ذلك : كقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُوا لَا الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٣] .

أي حلفوا واجتهدوا في الحلف على أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم .^(٢)

قال الراغب (رحمه الله) :

" والجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو ، والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس . وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [الحج: ٧٨]^(٣) .

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم : ٢٢٦/١ .

(٢) المفردات في غريب القرآن : ص : ١٠١ .

وانظر : معجم ألفاظ القرآن الكريم : ٢٢٦/١ .

(٣) المفردات في غريب القرآن : ص : ١٠١ .

ومن إطلاقاته في السنّة :

ما ورد في حديث الأعمى والأقرع والأبرص : " فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته الله " . (١) أي لا أشقّ عليك وأردك في شيء تأخذه من مالي الله تعالى . (٢)

وفي حديث أمّ معبد (٣) : " شاة خلفها الجهد عن الغنم " . (٤) . أي الهزال . (٥)

وفي حديث الحسن " لا يُجهد الرجلُ ماله ثم يقعد يسأل الناس " . (٦) أي يفرقه جميعه ها هنا وها هنا . (٧)

وفي دعائه ﷺ : " أعوذ بك من جهد البلاء " . (٨) أي أعوذ بك من الحالة الشاقة التي يمتحن بها الإنسان حتّى يختار عليها الموت ويتمناه . (٩)

(١) الحديث سبق تخريجه . انظر : ص : ٣٨١ .

(٢) النهاية في غريب الحديث : ٣٢٠/١ .

(٣) هي عاتكة بنت خالد بن خليفة الخزاعية . وهي التي نزل عليها النبي ﷺ كما هاجر . مشهورة بكنيتها . وقد أسلمت .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٢٨٨/٨ . الجرح والتعديل : ٤٦٦/٩ . ثقات ابن حبان : ٣٢٥/٣ . الإصابة : ٣٠٥/٨ .

(٤) هذا جزء من حديث أمّ معبد الطويل في شأن هجرة النبي ﷺ : وهو في :

مستدرک الحاكم : بلفظه في : ١٠/٣ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .

معجم الطبراني الكبير : بلفظه — ولم يقل : " شاة " — في : ٤٩/٤ .

(٥) كتاب الغريبين : ٤٢٦/١ . النهاية في غريب الحديث : ٣٢٠/١ .

(٦) هذا الحديث أورده ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث : ٣٢٠/١ . ولم أقف عليه في شيء من كتب

الحديث التي رجعت إليها .

(٧) المرجع السابق : ٣٢٠/١ . وانظر : كتاب الغريبين : ٤٢٦/١ .

(٨) سبق تخريجه . انظر : ص : ٣٣٨ .

(٩) انظر : المرجع السابق : ٤٢٧/١ . النهاية في غريب الحديث : ٣٢٠/١ .

وفي حديث الغسل : " إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها " .^(١) أي دفعها وحفرها .^(٢)

وتعريف الجهاد الاصطلاحي أيضاً أخذ من معناه اللغوي الذي استقي من المشقة وبذل الطاقة ، وذلك ما أشار إليه القسطلاني (رحمه الله) بقوله :
" والجهاد بكسر الجيم مصدر جاهدت العدو مجاهدة وجهاً ، وأصله جيهاد كقبتال فخفف بحذف الياء ، وهو مشتق من الجهد بفتح الجيم وهو التعب والمشقة لما فيه من ارتكابها ، أو من الجهد بالضم وهو الطاقة ، لأن كل واحد منهما بذل طاقته في دفع صاحبه .

وهو في الاصطلاح : قتال الكفار لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله . ويطلق أيضاً على جهاد النفس والشيطان وهو من أعظم الجهاد ، والمراد بالترجمة الأول .^(٣)
فالجهاد في اصطلاح أهل العلم من المحدثين والفقهاء :
بذل الجهد في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه .^(٤)

(١) صحيح البخاري: بلفظه وتماه : " فقد وجب الغسل " في : كتاب الغسل (الوضوء) : (٤/٥) . باب إذا التقى

الختانان : (١٠٧/٢٨) . برقم: (٢٩١) . ص : ٧٧ . عن أبي هريرة ؓ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الحيض : (٣) . باب نسخ " الماء من الماء " ووجوب الغسل بالتقاء الختانين :

(٢٢) . برقم: (٣٤٨) . ٢٧١/١ .

(٢) النهاية في غريب الحديث : ٣٢٠/١ .

(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري . لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني . مؤسسة الحلبي

وشركاه : الطبعة السادسة . ١٣٠٤هـ المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق . مصر : ٣١/٥ .

(٤) انظر : فتح الباري : ٧٧/٦ . نيل الأوطار : ٢٥/٨ . أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف

الضالة فيه . لعلي بن نفع العلياني . دار طيبة - الرياض . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م . ص : ١١٦ .

الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع . لصالح اللحيدان . نشر دار اللواء . الرياض : ١٣٩٧هـ . ص : ١٧ .

وإن كان يطلق أيضاً على جهاد النفس ، كما جاء في حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : " ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب " .^(١)

فيجاهد الإنسان نفسه على تعلّم الهدى ودين الحق ، وعلى العمل به ، والدعوة إليه ، وتعليمه من لا يعلمه ، والصبر على مشاق الدعوة وأذى الخلق .^(٢) وهذا أصل الجهاد وأساسه^(٣) .

(١) هذا الحديث أصله في الصحيحين وغيرهما بطرق متعددة . انظر :

صحيح البخاري: كتاب الإيمان : (٢) . باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده : (٤) . برقم: (١٠) .
عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه . ص : ١٦ . كتاب الرقاق : (٥٥/٨١) . باب الانتهاء عن المعاصي : (٢٦) . برقم: (٦٤٨٤) . ص : ١٣٧٩ .

صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب بيان تفاضل الإسلام ، وأيّ أموره أفضل : (١٤) . برقم: (٤١) . عن جابر رضي الله عنه . و برقم: (٤٢) . عن أبي موسى رضي الله عنه . ٦٥/١-٦٦ .
وهو باللفظ أعلاه في : مسند أحمد : ٢١/٦ .

و الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: في باب ذكر البيان بأن كلّ هجرة ليس فيها التحول من دار الكفر إلى دار الإسلام . برقم: (٤٨٦٢) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح " . ٢٠٣/١١ .
و انظر أيضاً : مسند أحمد: ٢٢/٦ . مستدرک الحاكم: ٥٤/١ . وهو في السلسلة الصحيحة : ٨١/٢ . برقم: (٥٤٩) .

(٢) انظر : زاد المعاد : ١٠/٣ .

(٣) قال ابن القيم (رحمه الله) :

" ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال النبي ﷺ : " المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله ، والمهاجر من هجر ما نهي الله عنه " كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج وأصلاً له ، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج ، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له ، متسلط عليه ، لم يجاهده ولم يحاربه في الله ، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج " .
المرجع السابق : ٦/٣ . وانظر : أهمية الجهاد ص : ١٢١ .

كما يطلق على جهاد الشيطان الذي أمر الله تعالى باتخاذهِ عدوًّا في قوله :
﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ
السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦] .

وفي ذلك تنبيه على استفراغ الوسع في مجاهدته ^(١) . فيجاهد بدفع ما يلقي من
الشبهات والشكوك والشهوات والإرادات الفاسدة . ^(٢) .

ويطلق أيضاً على جهاد المنافقين لقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ
الْكَفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾
[التوبة: ٧٣] [التحريم : ٩] .

وقد تباينت أقوال العلماء في كيفية جهادهم :
فذهب قوم إلى أنهم يجاهدون باللسان وإقامة الحجّة عليهم والغلظة وعدم
الرفق بهم .

وقال آخرون : بل يجاهدون بإقامة الحدود عليهم .
وقيل : يجاهدون كجهاد الكفار وذلك بالسيف والستان . ^(٣)

(١) انظر زاد المعاد : ٦/٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ١٠/٣ .

(٣) انظر : جامع البيان : ١٠/١٨٣-١٨٤ . (طبعة الحلبي) . أحكام القرآن لابن العربي : ٢/٩٦٥-٩٦٦ .

التفسير الكبير : ١٦/١٣٤-١٣٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٨/٢٠٤-٢٠٥ تفسير القرآن العظيم :

٢/٥٧٧-٥٧٨ . فتح البيان : ٥/٣٤٩ .

محاسن التأويل : ٨/٣٢٠٢-٣٢٠٣ . تفسير المراغي . لأحمد بن مصطفى المراغي . طبعة : مصطفى الباي

الحلي وأولاده بمصر . الطبعة الثانية : ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م : ١٠/١٦٣-١٦٤ .

ورجح ابن جرير (رحمه الله) القول الأخير . ولكن ذلك لمن أظهر النفاق وأبان كفره .^(١) وإن كان جمهور العلماء على جهادهم باللسان وإقامة الحجّة عليهم ، إلّا إن ابن كثير (رحمه الله) يرى أنّه لا منافاة بين تلك الأقوال ، لأنّه تارة يؤخذون بهذا وتارة بهذا ، بحسب الأحوال .^(٢) وقوله أولى بالأخذ باختلاف أحوال المنافقين . ولكن لفظ الجهاد إذا أطلق إنّما يعني قتال الكفّار لإعلاء دين الله ونصرته ، ولا ينصرف إلى غيره إلّا بقرينة ، وهو الذي دلّت على فضله النصوص ، وبوّب له علماء الإسلام في كتبهم .^(٣) وهو المقصود بالحديث في هذا الموطن .

(١) انظر : جامع البيان : ١٨٤/١٠ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٥٧٨/٢ . وانظر : زاد المعاد : ١١/٣ . تيسر الكريم الرحمن : ص : ٣٠٣ ،

٨٠٩ .

(٣) انظر : كتاب المقدمات الممهّدة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيّات والتحصيلات المحكمات

الشرعيّات لأمّهات مسائلها المشكلات . لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد . طبع : مطبعة السعادة بمصر . نشر :

دار صادر . بيروت : ٢٥٩/١ . أهميّة الجهاد : ص : ١١٧-١١٨ . وانظر : جامع البيان : ٢٠٥/١٧ .

الفصل الثاني

مراحل تشريع الجهاد وأنواعه

لقد مضت سنة الله تعالى في الأمم السالفة المكذبة للأنبياء أن يعاقبها بالقوارع التي تعم تلك الأمم ، كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعاداً بالدبور^(١) ، وشمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب والحجارة ، وقوم شعيب بيوم الظلة^(٢) .

ولما بعث الله موسى عليه السلام وأهلك عدوه بالغرق ، وأنزل عليه التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر ذلك في بقية الشرائع من بعده.^(٣)

فأصل الجهاد ومحاربة الأعداء من عهد موسى عليه السلام .^(٤) وإن كان بنو إسرائيل قد نكلوا عنه ، وعصوا أمر رسولهم فيه ، وجبنوا عن مواجهة أعدائهم حتى عوقبوا بالتية .^(٥) فإن هذه الأمة قد قامت به على الوجه الأكمل والصقة الأتم .

(١) الدبور : الريح التي تقابل الصبا . مختار الصحاح : ص : ١٩٧ . لسان العرب : ٢٧٢/٤ .

وفي الحديث : " نصرت بالصبا وأهلك عاد بالدبور " . صحيح البخاري : برقم : (١٠٣٥) . ص : ٢٢١ .
وبرقم : (٣٢٠٥) . ص : ٦٧٨ . وبرقم : (٣٣٤٣) . ص : ٧٠٣ . وبرقم : (٤١٠٥) . ص : ٨٦٠ . صحيح مسلم : برقم : (٩٠٠) . ٦١٧/٢ .

(٢) الظلة : ما سترك من فوقك . وتطلق على السحابة . وعذاب يوم الظلة : سمي بذلك لأن سحابة أظلتهم فلجئوا إلى ظلها من شدة الحر فأطبقت عليهم وأهلكتهم . انظر : لسان العرب : ٤١٦/١١ - ٤١٨ .
وانظر : مختار الصحاح : ص : ٤٠٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٤٥٩/٢ . بتصرف .

(٤) انظر : أحكام القرآن لابن العربي : ١٠٠٧/٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٨/٨ .

(٥) انظر : الآيات ٢٠-٢٦ من سورة المائدة . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٥/٢ . محاسن التأويل : ١٩٣٣/٦ -

١٩٣٥ . تفسير المراغي : ٩١/٦ - ٩٥ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٨٩ - ١٩١ . مجموع الفتاوى : ١٢٣/٢٨ - ١٢٤ . والتية : هو المفازة التي يتاه فيها . وتيه بني إسرائيل هو الذي ضلوا فيه فلم يهتدوا للخروج منه . انظر : لسان العرب : ٤٨٢/١٣ - ٤٨٣ .

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" فبين سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس ، فهم أنفعهم لهم ، وأعظمهم إحساناً إليهم ، لأنهم كملوا أمر الناس بالمعروف ونهيههم عن المنكر من جهة الصّفة والقدر ، حيث أمروا بكل معروف ، ونهوا عن كل منكر لكل أحد ، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم ، وهذا كمال النفع للخلق " (١) .

والجهاد فريضة شاقّة على النفوس ، تتفر عنه بطبعها ، لما فيه من ذهاب الأرواح ، وقطع الأطراف ، والتّعرض للجراحات ، وذهاب المال ، ومفارقة الأوطان والأهل ، وحصول أنواع المخاوف ، ومواجهة الأعداء ، وما يتبع ذلك من تعب ونصب .

فهو مكروه للنفوس بطبعها ، ثقيل عليها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] (٢) .

ولذا تدرّج الشّارع الحكيم في تشريعه على مراحل ككلّ الأحكام الشّاقّة ، فإنّه سبحانه يشرعها على سبيل التّدرّج لأنّ الإلزام بها بغتة يحصل عنه مشقّة عظيمة على المكلفين (٣) .

❁ لقد مكث رسول الله ﷺ بمكة يدعو إلى الله ثلاث عشرة سنة لاقى فيها ومن معه من المسلمين من أذى قريش وعنتهم ما لاقوا ، وهم مع ذلك صابرون كآفون

(١) المرجع السابق : ١٢٣/٢٨ .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ٢٦/٦-٢٧ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٩/٣ . فتح البيان : ٤٣٣/١ . محاسن التّأويل :

٥٣٥/٣ . تفسير المراغي : ١٣٢/٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٩-٨٠ . في ظلال القرآن : ٢٢٣/١ ،

١٦١٥/٣ .

(٣) انظر : أضواء البيان : ٧٠٠/٥ . وانظر : تيسير الكريم الرّحمن : ١٥٢ .

عن قتالهم لأنهم لم يؤمروا به ، وإنما كان جهادهم مقصوراً على الدّعوة بالحجّة والبيان مع الصّبر والصّبح .^(١)

وكانت الآيات تنزل عليهم تأمرهم بالكفّ عن القتال ، وتحمل الأذى والصّبر على رعونات قريش واضطهادهم لهم ، كقوله تعالى : ﴿ أَذْفَعَ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت: ٣٤] .

وقوله : ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ ﴾ [المائدة: ١٣] . وقوله : ﴿ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [الزمل: ١٠] . وقوله عزّ في علاه : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية: ٢٢]^(٢)

وإذا شكا إليه أصحابه ما يعانون صبرهم ومَنَاهم ووعدهم بالنّصر وعاجل الفرج ، وتلا على أسماعهم مثل قوله : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الجاثية: ١٤]^(٣) .

إذ كان المسلمون حينها في قلة من العدد ، وضعف من القوة ، فلو أمروا بالقتال لشقّ عليهم .^(٤) بل كان ﷺ ينهاهم عن القتال ويأمرهم بالعفو والصّبر .

(١) وانظر في ذلك : السّيرة النبويّة لابن هشام : ٢٩٣/٢ - ٢٩٤ . زاد المعاد : ١٣/٣ . الجهاد في الإسلام بين الطلب والدّفاع : ص: ٣٥ .

(٢) وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٤٧/٢ . فتح البيان : ٣٨٤/١ .

(٣) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٢٢٧/٤ . الجهاد في الإسلام : ص: ٣٥ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٣٦١/٣ . تفسير المراغي : ١١٨/١٧ . تيسير الكريم الرّحمن : ص: ١٥٢ .

وقد ذكر صاحب الظّلال (رحمه الله) بعض الحكم في عدم تشريع الجهاد بمكّة منها : تطويع نفوس المؤمنين على الصّبر ، وإثارة النّحوه والتّجدة لتحريك القلوب نحو الإسلام ، وتجنّب إحداث معركة في كلّ بيت ، إضافة إلى قلة العدد .

عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أَنَّ عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له ،
أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا : يا رسول الله إنا كنا في عزّ ونحن مشركون ، فلما آمنا
صرنا أذلة . فقال : " إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا " .

فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفوا ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى
الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ [النساء: ٧٧] (١) .

وقد مرّ حديث خباب بن الارت ﷺ في أمره ﷺ لهم بالصبر وتحمل الأذى (٢) .
فلما استقرّ رسول الله ﷺ بالمدينة النبوية بعد الهجرة ، وأيده الله بالمهاجرين
والأنصار ، وقويت شوكة الإسلام ، واشتدّ عوده ، وصارت لهم دار إسلام ومعقل
عزّ يلجؤون إليه أذن الله لهم في الجهاد ، وأباح لهم قتال أهل الكفر ، ولم يفرضه
عليهم .

فقال سبحانه : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم
لقدير ﴾ [النساء: ٩٠] الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ
اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا

انظر : في ظلال القرآن : ١٨٥/١-١٨٦ . وقد أفاض في ذكر هذه الحكم في موطن آخر من كتابه المذكور
بعد مقدّمة ذكر فيها الأدب مع الله في تناول حكم التشريع . انظر : ٧١٣/٢-٧١٥ . وانظر : الجهاد في
الإسلام : ص : ٥٣-٥٤ .

(١) سنن التّسائي: بلفظه في : كتاب الجهاد : (٢٥) . باب وجوب الجهاد : (١) . برقم : (٣٠٨٦) . قال الألباني

(رحمه الله): " صحيح إسناده " . ص : ٣٢٧ .

سنن البيهقي: بلفظ مقارب في: باب مبتدأ الإذن بالقتال . ١١/٩ .

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ٧٦/٢ ، ٣٣٦ . وقال " هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم

يخرجاه " . وقال الذهبي (رحمه الله): " على شرط البخاري " .

(٢) الحديث سبق . انظر : ص : ٣٠٧ .

أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾
[الحج: ٣٩-٤٠] .

وهي أول ما نزل في الإذن بالقتال . (١)

عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : " لما خرج النبي ﷺ من مكة ، قال أبو بكر : " أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن .
فَنَزَلَتْ : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩] . فعرفت : أنه سيكون قتال " .

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) : " فهي أول آية نزلت في القتال " (٢) .

(١) انظر : جامع البيان : ١٧٢/١٧ - ١٧٣ .

الكشاف : ١٢٦/٣ (طبعة الاستقامة) . أحكام القرآن لابن العربي : ١٢٨٤/٣ . التفسير الكبير : ٣٩/٢٣ .
الجامع لأحكام القرآن : ٦٨/١٢ . تفسير القرآن العظيم : ٣٦٢/٣ . فتح البيان : ٥٥/٩ . تفسير المراغي :
١١٧/١٧ . أضواء البيان : ٦٩٩/٥ . وانظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٢٩٤/٢ .

(٢) سنن الترمذي: بلفظ مقارب في: كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة الحج : (٢٢) . برقم:

(٣١٧١) . وقال : " هذا حديث حسن " . وقال الألباني (رحمه الله) : " صحيح الإسناد " . ونحوه برقم:

(٣١٧٢) عن سعيد بن جبير (رحمه الله) رسالاً . ص : ٥٠٤ .

سنن التيسائي: بلفظه في : كتاب الجهاد : (٢٥) . باب وجوب الجهاد : (١) . برقم: (٣٠٨٥) . قال الألباني

(رحمه الله) : " صحيح الإسناد " . ص : ٣٢٧ .

سنن البيهقي: بلفظ مقارب في: باب مبتدأ الإذن بالقتال . ١٠/٩ .

مسند أحمد: بلفظه — إلا أحرف قليلة — في : ٢١٦/١ . قال أحمد شاكر (رحمه الله) : " إسناده صحيح " .

مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٢٦١/٣ - ٢٦٢ . برقم: (١٨٦٥) .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظه — إلا أحرف يسيرة — في باب ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن

فرض الجهاد كان بعد قدوم النبي ﷺ المدينة . برقم: (٤٧١٠) . قال شعيب الأرنؤوط : " إسناده صحيح على

شرط مسلم " . ٨/١١ .

وفي الآية تعليل للإذن بالقتال ، وذلك بسبب الظلم الذي وقع على الصحابة رضي الله عنهم ، وإخراجهم من بلادهم بغير ذنب فعلوه ولا إثم ارتكبوه ، سوى إنهم وحدوا الله وعبدوه وآمنوا بدينه ونصروه ، والتزموا بشرعه وطبقوه . (١) ثم فرض عليهم سبحانه بعد ذلك قتال من قاتلهم والكفّ عن من لم يقاتلهم فقال :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] (٢) .

وهذه مرحلة وسطى مهدّ الله بها لقتال جميع الكفار وإجابه على المؤمنين . (٣)

ثم أمرهم سبحانه بقتال المشركين كافة وإن لم يبدأوا بقتال مع البدء بالأقرب فالأقرب .

فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣] . (٤)

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٧٦/٢ ، ٢٦٩ . ٨/٣ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين

ولم يخرجاه " . وقال الذهبي (رحمه الله): " على شرط البخاري ومسلم " .

وهو في جامع البيان : ١٧٢/١٧ ومن طريقه أورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم : ٣٦١/٣ .

(١) سوف يأتي مزيد بيان لحكم الجهاد وعلل تشريعه في المبحث التالي .

(٢) لأهل العلم بالتفسير خلاف في نسخ هذه الآية وعدم نسخها ، ولهم أقوال في توجيهها في حالة عدم النسخ .

وانظر في ذلك : جامع البيان : ١٨٩/٢ - ١٩٠ . أحكام القرآن لابن العربي : ١٠٢/١ - ١٠٤ . التفسير

الكبير : ١٢٨/٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٤٧/٢ - ٣٥٠ . تفسير القرآن العظيم : ٣٣٩/١ - ٣٤٠ . فتح

البيان : ٣٨٥ - ٣٨٤/١ . محاسن التأويل : ٤٧٤/٣ . تفسير المراغي : ٨٩/٢ - ٩٠ ، تيسر الكريم الرحمن : ٧١ .

(٣) انظر : الجهاد في الإسلام : ص : ٤٩ .

(٤) بين الإمام الرازي (رحمه الله) بثمانية أوجه الحكم المترتبة على البدء في القتال بالأقرب إلى بلد المقاتلين .

انظر : التفسير الكبير : ٢٢٨/١٦ - ٢٢٩ . كما ساق الإمام ابن كثير (رحمه الله) ترتيب هدي النبي صلى الله عليه وسلم

والصحابه رضي الله عنهم في البدء بقتال الأقرب فالأقرب . انظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٢٣/٢ .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النوبة: ٣٦].

وللعلماء أقوال في معنى الآية :

ذهب ابن جرير (رحمه الله) إلى أن المراد : أن يقاتل المؤمنون الكفار جميعاً

غير مختلفين ، ومؤتلفين غير متفرقين . (١)

وذهب ابن العربي (رحمه الله) إلى أنها تعني : محيطين بهم من كل جهة

وحالة . (٢)

بينما يرى السعدي (رحمه الله) أنها تأمر بقتال جميع أنواع المشركين . (٣)

ويرى سيّد قطب (رحمه الله) أن معناها : قتالهم جميعاً بلا استثناء أحد منهم

ولا جماعة . (٤)

ولا يبعد أن تكون الآية جامعة لهذه المعاني لأن كلمة (كَافَّة) شاملة لها

جميعاً .

وقد بدأت هذه المرحلة من انقضاء أربعة أشهر بعد حجّ العام التاسع من

الهجرة وانقضاء العهود التي كانت بينه ﷺ وبين الكفار .

وانظر معنى الآية في الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٧/٨ . فتح البيان : ٤٢٦/٥ محاسن التأويل : ٣٣٠١/٨ .

تفسير المراغي : ٥٠-٤٩/١١ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٣١٣ . وانظر الإكليل في استنباط التفسير : ص :

١٢٣ .

(١) جامع البيان : ١٢٨/١٠ .

(٢) أحكام القرآن : ٩٢٨/٢ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٩٦ .

(٤) في ظلال القرآن : ١٦٥٣/٣ .

وهي المرحلة التي استقرّ عليها أمر الجهاد . فيقاتل المشركون حتّى يسلموا ،
ويقاتل أهل الكتاب والمجوس حتّى يسلموا أو يعطوا الجزية ^(١) مع الذلّ
والصغار . ^(٢)

قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥] .

أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين
فاقتلواهم في أي مكان وجدتموهم فيه من حلّ أو حرم ، وخذوهم بالأسر ، واحبسوهم
وضيقوا عليهم بمنعهم من التصرف في بلاد الإسلام ، واقعدوا لهم في كلّ طريق
وموضع يمرّون عليه ، ورابطوا في جهادهم ، وابذلوا غاية مجهودكم في قتالهم
وحربهم ، حتّى يتوبوا عن شركهم ويؤدّوا الصلّاة بحقوقها والزكاة لمستحقّيها ، أي
يلتزموا بشرائع الإسلام فيكونوا مثلكم فعند ذلك اتركوا سبيلهم وكفّوا عن قتالهم . ^(٣)
وهذه هي آية السيف النّاسخة لآيات العفو والصّحح والإعراض والمسالمة . ^(٤)

-
- (١) الجزية : هي عبارة عن المال الذي يُعقَد للكتّابي عليه الدّمة، وهي فِئلة ، من الجزاء كأنّها جَزَتْ عن قتله .
والجمع الجزى مثل لحية ولحى . انظر : التّهاية في غريب الحديث : ٢٧١/١ . و انظر : الفائق : ٢١١/١ . مختار
الصّحاح : ص : ١٠٣ . القاموس المحيظ : ص : ١٦٤٠ .
(٢) انظر : زاد المعاد : ١٥٩/٣ - ١٦٠ . أهميّة الجهاد : ص : ١٤٣ - ١٤٤ . والصّغار : هو الذلّ والضميم . مختار
الصّحاح : ص : ٣٦٤ .
(٣) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٧٨/١٠ . أحكام القرآن لابن العربي : ٨٨٩/٢ - ٨٩١ . الجامع لأحكام
القرآن : ٧٢/٨ - ٧٥ . تفسير القرآن العظيم : ٥٢٦/٢ - ٥٢٧ . فتح البيان : ٢٣٦/٥ - ٢٣٨ . محاسن التّأويل :
٣٠٧٢/٨ - ٣٠٧٥ . تفسير المراغي : ٥٧/١٠ - ٥٩ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٨٩ - ٢٩٠ .
(٤) الإكليل : ص : ١١٦ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله فمن قال : لا إله إلا الله عصم من ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله " ^(١) والحديث في معنى الآية السابقة .

وقال سبحانه في قتال أهل الكتاب : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] .

وهذه أول آية نزلت أمرة بقتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى بعدما تمهدت أمور المشركين . ^(٢)

وقد نصت على أربع صفات اتسم بها أهل الكتاب كانت العلة في وجوب قتالهم :

- الأولى : إنهم لا يؤمنون بالله إيماناً صحيحاً .
- الثانية : لا يصدقون باليوم الآخر على النحو الذي يصح به الإيمان .
- الثالثة : لا يتبعون شرع الله في تحريم المحرمات .
- الرابعة : لا يدينون بالدين الصحيح ، لأن دينهم إما دين مبدل محرف لم يشوعه الله أصلاً ، أو منسوخ بالدين الخاتم فلا يصح العمل به ، فيجب قتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن قهر لهم وغلبة ، وهم ذليلون حقيرون مهانون . ^(٣)

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٥٧٨ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم : ٥٤٢/٢ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٣٠-٢٨/١٦ . تفسير المراغي : ٩٥-٩٣/١٠ . تيسر الكريم الرحمن : ص : ٢٩٤ .
وانظر : جامع البيان : ١٠٩/١٠ . أحكام القرآن لابن العربي : ٩٠٧-٩٠٥/٢ . الجامع لأحكام القرآن : ١١٠-١٠٩/٨ . فتح البيان : ٢٧٣-٢٧١/٥ .

وقد اكتملت بهذه المرحلة مراحل تشريع الجهاد في الإسلام .(١)

والجهاد نوعان :

الأول : جهاد الابتداء والطلب :

وهو أن يطلب المؤمنون الكفار في بلادهم ، ويغزوهم في عقر دارهم ،
فيدعوهم إلى الإسلام فإن أبوا قوتلوا .(٢)

(١) وليبيان تلك المراحل في الجملة انظر :

أحكام القرآن لابن العربي : ١٠٢/١ . الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح لابن تيمية . مطابع المجد التجارية :
٧٣-٧٢/١ . السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية . تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد
عاشور . مطبعة الشعب . القاهرة : ص: ١٣٩-١٤٠ . زاد المعاد : ٦٩/٣ ، ٧١-١٥٩ ، ١٦٠ . أضواء البيان :
٧٠١-٧٠٠/٥ . فقه السنة للسيد سابق . الطبعة الثامنة : ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م . دار الكتاب العربي . بيروت :
١٠-٩/٣ . الجهاد في الإسلام : ص: ٤٤-٥١ . وقد ذكر الحكيم التي أدت إلى مرور الجهاد بهذه المراحل .
ص: ٥٣-٥٤ . أهمية الجهاد : ص: ١٣٦-١٤٤ .

يقول سيد قطب (رحمه الله) :

" إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد
نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة ، ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والأمكنة
والأزمنة هي التي تحدّد عن طريق الاجتهاد المطلق أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف ، في
زمان من الأزمنة ، في مكان من الأمكنة ، مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يصار إليها متى أصبحت
الأمة المسلمة في الحال التي تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام ، كما كان حالها عند نزول سورة التوبة ، وما بعد ذلك
أيام الفتوحات الإسلامية التي قامت على أساس من هذه الأحكام الأخيرة النهائية . سواء في معاملة المشركين أو
أهل الكتاب " . في ظلال القرآن : ١٥٨٠/٣ . وانظر : ١٥٨٢/٣ .

(٢) انظر : أهمية الجهاد : ص : ١٢٤ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٥٢/٨ . مجموع الفتاوى : ٣٥٩/٢٨ .

السياسة الشرعية : ص: ١٤٩-١٥٠ الفروسيّة : ص : ١٨٧-١٨٨ . الجهاد في الإسلام : ص ١٠٥ .

ومن أدلته :

قوله تعالى : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١] ^(١).

وقول النبي ﷺ في حديث بريدة ؓ : " اغزوا باسم الله ، في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ... " ^(٢) الحديث .

وحكمه أنه فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط إثمه عن الباقيين ، وقد يتعين في بعض الأحوال وعلى بعض الأفراد . ^(٣)

ومن أدلة كونه فرض كفاية :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

(١) لأهل العلم بالتفسير أقوال متعددة في المراد بالخفة والثقل في الآية ، أوصلها الإمام ابن العربي (رحمه الله) إلى عشرة

أقوال . انظر الأحكام : ٩٤٢/٢ .

والأولى ما ذهب إليه ابن جرير (رحمه الله) وتبعه بعض العلماء في أن المراد بذلك : انفروا على كل حال من أحوال الخفة والثقل . إذ الآية لم تعين نوعاً بعينه . انظر : جامع البيان : ١٤٠/١٠ . التفسير الكبير : ٦٩/١٦ . فتح البيان : ٣٠٧/٥ محاسن التأويل : ٣١٥٩/٨ . تفسير المراغي : ١٢٣/١٠ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب تأمير الإمام الأمراء على البعث : (٢) . برقم:

(١٧٣١) . ١٣٥٧/٣ .

(٣) انظر : المحلى : ٢٩١/٧ . المغني لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة . تصحيح : محمد خليل هراس .

مكتبة ابن تيمية : ٣٤٥/٨-٣٤٦ . نيل الأوطار : ٢٥/٨ . الروضة التديّة شرح الدرر البهيّة لأبي الطيّب صديق ابن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري . تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري . طبعة الشؤون الدنيّة بدولة قطر : ٤٧٨/٢-٤٧٩ . فقه السنة : ١٠/٣-١٢ . وانظر : شرح التتوي على مسلم : ٩/١٣ ، ٤٢-٤٣ . مجموع الفتاوى : ١٨٤/٢٨ . فتح الباري : ١٢١/٦ .

وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني لحيان :
" ليخرج من كل رجلين رجل " ثم قال للقاعد : " أيكم خلف الخارج في أهله وماله
بخير كان له مثل نصف أجر الخارج " . (١)

الثاني : جهاد الدّفع :

وهو إذا هاجم العدوّ بلدًا من بلاد المسلمين فيجب على أهل البلد جميعاً جهاده
حتّى يندفع شرّه ، ولو لم يندفع شرّه إلّا بجهاد المسلمين جميعاً لوجب عليهم
جهاده. (٢)

وحكمه فرض عين على الجميع . (٣)

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله : (٣٨) . برقم:

(١٨٩٦) . ١٥٠٧/٣ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٥١/٨ - ١٥٢ . مجموع الفتاوى : ٣٥٨/٢٨ - ٣٥٩ . السياسة الشرعية :

ص ١٤٩ - ١٥٠ . الفروسيّة : ص : ١٨٧ - ١٨٨ . أهميّة الجهاد: ص : ١٣٤ .

(٣) انظر : المغني : ٣٤٧/٨ . فقه السنّة : ١٢/٣ .

الفصل الثالث

حقيقة الجهاد والحكمة من تشريعه

إنّ الجهاد في الإسلام له حكم عدّة ، وأهداف سامية تبرز من خلالها أهميّة هذه الفريضة العظيمة ، إذ الجهاد في الإسلام ليس قتالاً أهوج همّه أن تسفك فيه الدماء وتغتصب فيه الحقوق ، وإنّما هو قتال شرع ليحقّق غايات عظيمة ، وأهدافاً رفيعة . ولما غابت تلك الأهداف عن أذهان كثير ممّن ينتسب إلى الإسلام بسبب البعد عن فهم حقيقة الجهاد ، والغاية منه حلّت مكانها أهداف حابطة ، وغايات رخيصة أشعلت لأجلها نيران الحروب . ففئة تقاتل من أجل وطنها ، لا أرض الإسلام ، وأخرى لأجل القوميّة^(١) ، لا وحدة المسلمين ، وثالثة لأجل المصالح الاقتصاديّة ، أو لحفظ التوازن العالمي ، أو التنافس من أجل السيطرة والهيمنة ، ونحو ذلك . ومن يقاتل باسم الجهاد شوّهت في قتاله صورة الجهاد الحقّة ، فظنّ أنّ الجهاد سفك للدماء ، وإحداث للفوضى في الأرض ، يحمل أحدهم أداة تفجير فيفجّرها في نفسه ومن حوله زاعماً أنّ ذلك جهاد في سبيل الله ، وتتجمّع فئة من الأحداث في بقعة ما ، يدفعهم التّسرّع ، وتستحثّهم العجلة ، وليس لهم هدف إلاّ إزالة سلطان جائر ، أو القضاء عليه . كلّ ذلك باسم الجهاد . ممّا جعل الجهاد في نفوس الكثيرين — حتّى من المسلمين — مسخاً مشوّهاً تصك الأذان عند السّماع به ، وترتجف القلوب عند ذكره . ووجد أعداء الله في ذلك سانحة لهم ، يكيلون من خلالها الشّتائم للإسلام وأهله ، ويبالغون في تشويه صورة الجهاد بإثارة العبارات المقرّضة التي لا

(١) القوميّة : يراد بها : الاجتماع والتكاتف لتطهير البلاد من المستعمر ، وتحصيل المصالح المشتركة ، واستعادة مجد السّليب . وعناصرها : الوطن والتّسب واللّغة ، ولا يدخل في ذلك الدّين . وهدفها : فصل الدّين عن الدّولة ، وإقصاء أحكام الإسلام عن المجتمع ، وإطلاق الحريات للتّزعات الجنسيّة ، والمذاهب الهدّامة . وانظر : نقد القوميّة العربيّة على ضوء الإسلام والواقع . للشّيخ عبد العزيز بن باز . ص : ٨-١٠ . طبعة المكّب الإسلامي .

تميز بين المحق والمخطئ ، فيوصف الجميع بالتطرف والتزمت ، والأصولية المنفردة ، ومصاصي الدماء .

وتبرز في مقابل ذلك عبارات رنانة ، همها القضاء على الجهاد في نفوس أبناء الإسلام ، مثل : الدعوة إلى السلام العالمي ، والتعايش السلمي ، والمجتمع الدولي الموحد ، واحترام حقوق الإنسان ، والأمن الشامل ، وغير ذلك .

ونحن لا نظن في يوم ما أن يرضى أعداء الله عن جهادنا ، ولكن يجب أن نسلك المسلك الحق بعيدين عن التهور والعجلة ، مع إدراك حقيقة الجهاد وأهدافه . فالجهاد شرع لأجل أن يحقق أهدافاً متعددة ، يجني ثمارها أهل الإيمان خاصة دون سواهم .

من تلك الأهداف :

١- الهدف الأسمى والغاية العظمى أن يعبد الله وحده في الأرض ، ويذول الشرك ويندثر ، ويغيب الكفر وينطمس ، تنهأوى أركانه وينهد بنيانه ، فلا يبقى إلا التوحيد الخالص والعبودية لله . وهي الغاية التي خلق الخلق من أجلها كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

ولذا أمر سبحانه أن يقوم سوق الجهاد حتى تتحقق تلك الغاية ، فقال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنْتَهُوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣] . وقال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ آنْتَهُوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩] .

يقول ابن جرير (رحمه الله) :

" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم ، حتى لا تكون فتنة ، يعني : حتى لا يكون شرك بالله ، وحتى لا يعبد دونه أحد ، تضحل

عبادة الأوثان والآلهة والأنداد ، وتكون العبادة والطاعة لله وحده ، دون غيره من الأصنام والأوثان (١).

وفي الحديث قال ﷺ : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ... " الحديث (٢) . وقال ﷺ : " بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري " (٣).

ولما سأل رستم ربعي بن عامر ﷺ عن سبب مجيئهم لقتال الفرس . قال ربعي : " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ... الخ ما ذكر . (٤)

وبتحقيق هذه الغاية يظهر دين الله على سائر الأديان ، ويسود جميع الأرض ، فلا يبقى بيت وبر ولا مدر (٥) إلا دخله بعزّ عزيز أو ذلّ ذليل . (٦)

(١) جامع البيان : ١٩٤/٢ . وانظر : ٢٤٨/٩ . وانظر : معنى الآية في : أحكام القرآن لابن العربي : ١٠٩/١ .

التفسير الكبير : ١٣٣/٥ ، ١٦٣/١٥ - ١٦٤ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٣/٢ - ٣٥٤ . تفسير القرآن العظيم : ٣٤١/١ . فتح البيان : ٣٨٧/١ - ٣٨٨ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٨٢ .

(٢) الحديث : سبق تخريجه . انظر : ص : ٥٧٨ .

(٣) سبق تخريجه انظر : ص : ٥٧٨ .

(٤) البداية والنهاية : ٣٩/٧ - ٤٠ . وكان ذلك في حرب القادسية عندما ابتعته سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى رستم

قائد الفرس . وقد سبق ذكره . انظر : ص : ٤١٦ ، ٦٣٦ .

(٥) بيت وبر : أي ما صنع من وبر الإبل ، وهي بيوت أهل البوادي . انظر : النهاية في غريب الحديث :

١٤٤/٥ . المدر : جمع مدرّة ، وهو الطين . والمراد ببيت المدر ما صنع منه وهي بيوت أهل القرى والأمصار .

وانظر : النهاية في غريب الحديث : ٣٠٩/٤ .

(٦) عن عويم الدّاري ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله

بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل ، عزّاً يعزّ الله به الإسلام وذلاً يذلّ الله به

الكفر " . وكان عويم الدّاري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف

كما قال سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] (١) .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" فيظهره ظهورين : ظهوراً بالحجة والبيان والدلالة ، وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة والتأييد . حتى يظهره على مخالفيه ، ويكون منصوراً " (٢) .

والجهاد لا يكون حقيقة ، والمجاهد لا يكون مجاهداً إلا إذا قصد بجهاده إعلاء كلمة الله دون التفتات إلى حظ دنيوي أو غاية عاجلة . ولذا لما سئل رسول الله ﷺ في حديث أبي موسى ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاثل حمية (٣) ، ويقاثل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله " (٤) .

والعز ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية " . مسند أحمد: ١٠٣/٤ . وانظر : ٤/٦ . سنن البيهقي: ١٨١/٩ . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: ٩١/١٥ ، ٩٣ . مستدرک الحاكم: ٤٧٦/٤ ، ٤٧٧ . معجم الطبراني الكبير: ٥٨/٢ . ٢٥٤/٢٠ . وهو حديث صحيح . انظر : السلسلة الصحيحة : ٧/١ . برقم : (٣) . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٥٤٦/٢ .

(١) وانظر : سورة الفتح : الآية : {٢٨} ، وسورة الصف : الآية : {٩} .

(٢) مدارج السالكين : ٤٧٠/٣ . الضوء المنير : ٤٠٦/٥ . وانظر : الجواب الصحيح : ٧٥/١ . تفسير القرآن العظيم : ٥٤٥/٢ - ٥٤٦ . تيسر الكريم الرحمن : ص : ٢٩٥ - ٢٩٦ . ذكر فيه كلاماً قيماً عن ظهور الإسلام . في ظلال القرآن : ١٦٤٤/٣ .

(٣) الحمية : هي الأنفة والعيرة . النهاية في غريب الحديث : ٤٤٧/١ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . بلب ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصفافات: ١٧١] : (٢٨) . برقم: (٧٤٥٨) . ص : ١٥٦٧ . ونحوه في: كتاب العلم :

(٣) . باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً : (٤٥) . برقم: (١٢٣) . ص : ٤٥ . وفي كتاب الجهاد والسير :

(٣٢/٥٦) . باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا : (١٥) . برقم: (٢٨١٠) . ص : ٥٩٤ . وفي كتاب

٢- قتل الكفار وإذلالهم وتعذيبهم ، وإعزاز المؤمنين ونصرهم .

قال سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤-١٥] .

أي قاتلوا أيها المؤمنون الكفار لتتحقق لكم بقتالهم فوائد جمّة ، وأهداف عظيمة ، فيعذبهم الله بأيديكم ، تارة بالقتل وأخرى بالأسر ، وثالثة بأخذ أموالهم ، ويذلّهم بالأسر والقهر ، ويعطيكم الظفر عليهم والغلبة ، ويبرئ داء صدوركم ، ويذهب وجد قلوبكم .^(١)

فرض الخمس : (٣٣/٥٧) . باب من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره : (١٠) . برقم : (٣١٢٦) . ص : ٦٥٨ .

صحيح مسلم : بلفظه و بنحوه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله : (٤٢) . برقم : (١٩٠٤) . ١٥١٣-١٥١٢/٣ .

وانظر معنى الحديث في : شرح التتوي على مسلم : ٤٩/١٣ . فتح الباري : ١٠٨/٦-١١٠ . نبيل الأوطار : ٣٣/٨ .

وانظر : مجموع الفتاوى : ٣٥٤/٢٨ . السياسة الشرعية : ص : ١٤٤ . الرّوضة التّديّة : ٤٨١/٢ . فقه السّنة : ٢٢-٢١/٣ .

يقول سيّد قطب (رحمه الله) :

"إنّ القتال لله ، لا لأيّ هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشريّة في حروبها الطّويلة ، القتال في سبيل الله ، لا في سبيل الأجداد والاستعلاء في الأرض ، ولا في سبيل المغام والمكاسب ، ولا في سبيل الأسواق والخاملت ، ولا في تسويد طبقة على طبقة ، أو جنس على جنس ، إنّما هو القتال لتلك الأهداف المحدّدة التي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام ، القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض ، وإقرار منهجه في الحياة ، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم ، أو أن يعرفهم الضلال والفساد ، وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام ، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام " . في ظلال القرآن : ١٨٧/١ .

(١) انظر : جامع البيان : ٩٠/٩١-٩١ . الكشف : ١٢٨/٢ " طبعة الاستقامة " . التفسير الكبير : ٤-٢/١٥ . فتح

البيان : ٢٤٨/٥-٢٤٩ . محاسن التأويل : ٣٠٨٣-٣٠٨٤ . تفسير المراغي : ٦٨/٦٩-٦٩ .

وهو بذلك سبحانه يعزّ دينه وينصر أوليائه ، ويبطل الكفر ويمحق أهله . كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ۞ ﴾ [الأنفال: ٧-٨] (١) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿٩﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٧-١٢٨] .

أي ليهلك طائفة منهم ، أو يحزنهم بالهزيمة فيرجعوا منقطعي الأمل من النصر . (٢) .

كلّ ذلك لأنّ الكافر سرطان مدمر ، وجراثومة فتاكة ، وعضو فاسد في المجتمع ، وشرّ مستطير ، ومنبع للإفساد والإهلاك ، لأنّه عزل نفسه عن الإيمان الذي تكمن فيه الحياة الحقّة ، والسعادة الدائمة ، والخيريّة المطلقة ، فيجب أن يستأصل أو يقهر ويذلّ إن لم يخضع للإسلام .

وأعداء الله عزّ وجلّ لا تنطفي نار عداوتهم ولا يخمد لهيبها في محاربة الإسلام وأهله بكلّ وسيلة تمكّنهم لذلك ، إذ العداة لدين الله أصيل في نفوسهم ،

(١) انظر معناهما في : الجامع لأحكام القرآن : ٣٧٠/٧ . تفسير القرآن العظيم : ٤٥٦/٢ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٩٨/٤ . تفسير القرآن العظيم : ٦٠٢/١ . تفسير المراغي : ٦٠/٤ .

مستحكم في قلوبهم ، كشف الله عنه في أكثر من آية .^(١) فيجب على أهل الإيمان أن يبذلوا غاية جهدهم في قتال هؤلاء وإذلالهم . لأن بقتالهم ينكف شرهم ، وتضعف قوتهم ، وينهد عزمهم ، كما قال سبحانه : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤] ^(٢) .

٣- الجهاد سبب عظيم في دفع شرّ الأشرار وفساد الفجار ، فبه يزول شرهم ، ويندحر فسادهم ، ولو تركوا لبغوا في الأرض ، وتغلبوا على أهلها ، وأحدثوا الشرور التي تهلك الحرث والنسل . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] ^(٣) .

(١) انظر : سورة البقرة : الآيات : ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٢٠ . وانظر : سورة آل عمران : الآيات : ١١٨-١٢٠ .

سورة التوبة : الآيات : ٨-١٣ . لسيد قطب (رحمه الله) عند تفسير هذه الآيات من سورة التوبة كلمة كاشفة لعداوة الكفار للمؤمنين والطعن في دينهم . انظر : في ظلال القرآن : ١٦٠٦/٣ .

(٢) وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ١٨٥/٥ . التفسير الكبير : ٢٠٤/١٠-٢٠٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٤/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٨٠٥/١ . فتح البيان : ١٩٠/٣ - محاسن التأويل : ١٤١٧/٥ . تفسير المراغي : ١٠٧/٥ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٥٤ .

(٣) انظر : فتح البيان : ٨٢/٢ . محاسن التأويل : ٦٤٩/٣ . تفسير المراغي : ٢٢٥/٢ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٩٠ . وفي الآيات أقوال أخرى فيما يدفع الله به الشرور استقصاها الرازي (رحمه الله) ووجه كل قول ، ثم حملها على العموم . انظر : التفسير الكبير : ١٩٠/٦-١٩٢ . ورجح القرطبي (رحمه الله) أن المراد بالدفع ما شرعه الله على السنة الرسل من الشرائع . انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٦١/٣ ولا يخفى أن الآية وردت في سياق الجهاد . — انظر : الآيات قبلها — وإن فهم العموم فإن الجهاد أول داخل في ذلك .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] .

يقول الإمام القرطبي (رحمه الله) :

" أي لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك ، وعطلوا ما بنته أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بلنّ أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة ، فالجهاد أمر متقدّم في الأمم ، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات ... أي لولا هذا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفي زمن محمد عليه السلام المساجد " (١) .

٤- الابتلاء حكمة تتأتى من كلّ التكاليف الشرعيّة ، وهي في الجهاد تبرز بوضوح وجلاء ، ولذا أشار الله جلّ جلاله إليها مقرونة بالجهاد في أكثر من موضع .

فقال سبحانه : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَآ

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٧٠/١٢ . وفي الآية أقوال كسابقتها ، وإن أفادت العموم في كلّ ما يندفع به الفساد والشر فالجهاد يدخل دحولاً أولياً .

والأشهر في هذه المواضع : أنّ الصوامع معابد الرهبان ، والبيع معابد النصارى ، والصلوات معابد اليهود ، ويطلق عليها لفظ الكنائس أيضاً ، كما أنّ المساجد للمسلمين . ولأهل العلم بالتفسير خلاف مستفيض في ذلك ، والأشهر ما ذكرته . وانظر في بيان ذلك ومعنى الآية : جامع البيان : ١٧٤/١٧-١٧٨ . الكشف : ١٢٦/٣ " طبعة الاستقامة " . التفسير الكبير : ٢٣/٣٩-٤١ . الجامع لأحكام القرآن : ٧١/١٢ . وفيه تفصيل قيم عن تلك المواضع . تفسير القرآن العظيم : ٣/٣٦٢-٣٦٣ . فتح البيان : ٩/٥٦-٥٧ . محاسن التأويل : ١٢/٤٣٤٦ . تفسير المراغي : ١٧/١١٩ . تيسر الكريم الرحمن : ص : ٤٨٩ .

ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا نَتَصَّرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُؤَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٤١﴾ [محمد: ٤].

أي إن الله قادر على إهلاك الكافرين والانتقام منهم دون قتال ، ولكنه شرع الجهاد ليختبر عباده ويمتحن طاعتهم .^(١)

ويترتب على هذا الاختبار حكم عدّة وفوائد جمّة :
فهو يظهر علم الله ويبرز معلومه في عباده بتحقيق طاعة الطّائعين الذين جاهدوا في الله لإعلاء كلمته ، كما يبين معصية العاصين الذين نكلوا عن الجهاد ، أو قاتلوا لغاية ما أو هدف ما .

قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه ، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحس " ^(٢) .

(١) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٤٣/٢٦ . الكشف : ٤٥٤/٣ " الطبعة التجارية " . التفسير الكبير :

٤٦/٢٨ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٩/١٦ - ٢٣٠ . تفسير القرآن العظيم : ٢٦٦/٤ . فتح البيان : ٥٣/١٣ .

محاسن التأويل : ٥٣٧٧/١٥ - ٥٣٧٨ . تفسير المراغي : ٥٠/٢٦ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٧٢٩ - ٧٣٠ .

(٢) زاد المعاد : ٢٢٣/٣ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٥٤/١٦ . تفسير القرآن العظيم : ٢٧٧/٤ . محاسن

التأويل : ٥٣٩٠/١٥ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٧٣٤ .

ونحو الآية السابقة قوله تعالى : ﴿ أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦].

وقوله : ﴿ أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وفي الآية حكمة أخرى وهي تميّز المؤمنين المخلصين الصادقين من المنافقين الكاذبين . أي ظننتم أيها المؤمنون أن تتركوا بغير اختبار بجهاد يعرف به الصادق منكم ، المخلص في دينه ، المجاهد لإعلاء كلمة الله ، من المنافق الكاذب المقاتل لأجل الدنيا ، والمصالح الفانية (١).

وجاء ذلك صراحة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَيُّ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧] .

فالمنافقون في الرِّخاء والسَّعة والأمن يندسّون بين الصّفّ المؤمن طامعين في نيل مكاسب دنيويّة ، حريصين على إخفاء نفاقهم ، وقد يخفى أمرهم على أهل الإيمان ، وهم عدوّ مكر خبيث العداوة ، فيكشفهم الله بالجهاد ، فيبيان عوارهم ، ويفتضح أمرهم ، إذ الجهاد موطن لإزهاق النفوس والمنافق أحرص ما يكون على نفسه التي بين جنبيه .

(١) انظر : جامع البيان : ٩٢/١٠ . الكشّاف : ١٩٨/٢ " طبعة الاستقامة " . التفسير الكبير : ٦/١٥ . فتح البيان :

٢٥٠/٥ . محاسن التأويل : ٣٠٨٤/٨ . تفسير المراغي : ٧٠/١٠ .

وحكم أخرى بينها سبحانه في قوله : ﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١].

أي إن الله سبحانه من حكمته في الابتلاء بالجهاد أنه يبرز معلومه إلى الوجود بصدق المؤمنين وإخلاصهم ، ويكرم بعض عباده بالشهادة في سبيله ، وهي منزلة عالية يختص الله بها من يشاء من عباده ، ولا سبيل إلى نيلها إلا بواسطة الأسباب المؤدية إليها كالجهاد في سبيله ، ويمحص عباده المؤمنين من ذنوبهم فيطهرهم وينقيهم ليكونوا أصفياء أتقياء ، ويهلك الكافرين فيمحقهم ، ويقطع دابرهم ، لينقطع شرهم وفسادهم . (١)

٥- إنقاذ المستضعفين والأسرى من المؤمنين .

وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

ففي الآية حضّ وحثّ من الله عزّ وجلّ لعباده المؤمنين أن يجاهدوا لإعلاء كلمة الله ، واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من بين أيدي الكفرة الذين يسومونهم سوء

(١) انظر معنى الآيتين في : التفسير الكبير : ١٧/٩-١٨ . الجامع لأحكام القرآن : ٢١٨/٤-٢٢٠ . تفسير القرآن

العظيم : ٦١٢/١ . فتح البيان : ٣٤١/٢-٣٤٢ . محاسن التأويل : ٩٨٠/٤-٩٨٣ . تفسير المراغي :

٨٠/٨٢ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١١٧-١١٨ . في ظلال القرآن : ٤٨١/١ . وانظر : زاد المعاد :

٢٢١/٣-٢٢٣ . إغاثة اللّهفان : ١٨٩/٢-١٩١ . وقد أشار ابن القيم (رحمه الله) إلى بعض الحكم القيمة التي

تنأى من غلبة الكفار للمؤمنين . وهو مبحث حري بالرجوع إليه .

العذاب ، ويقهرونهم ويأذونهم كي يفتنّوهم عن دينهم ، وهم يجأرون إلى الله صباح مساء أن يخلّصهم من أولئك الظّلمة ، ويسخرّ لهم من ينقّذهم منهم ، ويتولّى أمرهم وينصرهم عليهم . (١)

والجهاد الذي يستنقذ به المستضعفون ، ويفكّ به الأسرى من أعظم أنواع الجهاد أجراً ، وأكبرها فائدة ، لأنّه من باب دفع الأعداء ، وحكمه الوجوب . (٢)

هذه أهمّ الحكم والغايات التي شرع من أجلها الجهاد في الإسلام ، وكلّها غايات محمودة ، ودوافع سامية ، تتّضح منها حقيقة الجهاد وقيّمته . وإن كان هنالك حكم أخرى ولكنها تدور في فلك ما ذكرت . (٣)

(١) انظر : جامع البيان : ١٦٧/٥ - ١٦٩ . أحكام القرآن لابن العربي : ٤٥٩/١ - ٤٦٠ . التفسير الكبير : ١٨١/١٠ - ١٨٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٧٩/٥ - ٢٨٠ . تفسير القرآن العظيم : ٧٩٥/١ . فتح البيان : ١٧٨/٣ - ١٧٩ . محاسن التأويل : ١٣٩٥/٥ - ١٣٩٧ . تفسير المراغي : ٩١/٥ - ٩٢ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٥١ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ٣٧١/١ .

(٣) وللوقوف على المزيد من تلك الحكم فانظر : زاد المعاد : ٢١٨/٣ - ٢٤١ . أهميّة الجهاد : ص : ١٦٠ - ١٨٥ .

الفصل الرابع

عوامل الثبات في الجهاد

وفيه تمهيد ومباحث:

التمهيد

مشقة الجهاد وطلب الثبات فيه

لَمَّا كَانَ الجهاد موطناً شاقاً على النفوس ، تنزلزل فيه الأقدام ، وترتجف فيه القلوب ، وتجنب عنده الأفئدة ، كان الثبات فيه لأهل الإيمان أكد ما يكون ، وأوجب ما ينبغي ، إذ الثبات هو روح الجهاد ، وأهم أسباب النصر والفوز والنجاح ، وهو وإن كان محموداً في كل موطن إلا أنه في موطن القتال أعظم حمداً ، وأكثر نفعاً ، لما يترتب من عدم وجوده من المثالب والهزات ، حيث الهزيمة والقتل والأسر وغير ذلك .

فالثبات في الجهاد قوة معنوية يقذفها الله في قلب العبد المؤمن الذي وطّن نفسه لتلقيها ، وقام بما يجب عليه نحوها ، فتسري تلك القوة في بقية جسده فتكسب جوارحه طمأنينة وصبراً ، وإقداماً وشجاعة ، فتثبت أقدامه أمام عدوه ، ويتجدد له حتى ينال النصر والغلبة والظفر .

فكم من عتل^(١) قويّ ضعفت قواه وانهار صريعاً في معترك الوغى أمام من يظنّ ألا يقف له ولا يكافئه بسبب ثبات الثاني ورباطة جأشه .

(١) العتلّ: هو الشّدِيد الجافي والفظُّ الغليظ من الناس . لسان العرب : ٤٢٣/١١ . وانظر :

مختار الصحاح : ص : ٤١١ . القاموس المحيط : ص : ١٣٣٠ .

وكم من جيش عرمرم^(١) مجهّز بالعدد والعتاد أسلم أفراده للريح سوقهم بعد أن حلّت بهم الهزيمة والنكال من فئة قليلة العدد ضعيفة المدد - إلا من الله - بسبب ثباتها وقوة صبرها .

وهكذا يفعل الثّبات عند التحام الجيوش ، واعتراك الخصوم . ولذا أمر الله به المؤمنين المجاهدين أمراً صريحاً يستوجب الإلزام فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٧] .

فإنّ سبحانه يأمر المؤمنين بالثّبات عند قتال الأعداء ، والصّبر والجلد عند لقائهم ، وأن يذكروه سبحانه في تلك الحال ، لأنّ الذكر يبعث الطّمانينة في القلوب ، وينزل عليها برد اليقين ، ويجمع شتاتها ، ويبثّ همومها ، ويذهب جزعها ، وأن يطيعوه سبحانه ويطيعوا رسوله ﷺ . فبالطّاعة يسلم القلب ، وتستقيم الجوارح ، وهي أعظم معين على الثّبات . وينهاهم عن التّنازع والاختلاف ، لأنّ الاختلاف يشتت وحدة القلوب ويضعفها ، فتضعف لضعفها الحواس ، فيؤدّي ذلك إلى الخور والجبن الذي يعقبه الفشل وانحلال العزائم ، وزوال القوّة والدّولة ، وفي ذلك دعوة إلى الالتئاف الذي يقوي القلوب ، ويبثّ في النفوس الطّمانينة ، فتتحد وترتبط ، وتكلّوها عناية الله ورعايته وتأييده ، فتقوى على الصّبر والثّبات .

كما نهاهم عن التّشبه بأعداء الله ، الذين فارق الإخلاص قلوبهم ، وحلّ محلّه الرّياء ، فخرجوا للقتال مفاخرين مستكبرين أشرين ، طالبين للمدح والثّناء ، صادّين

(١) جَيْشٌ عَرَمَرَمٌ : كثير . وقيل : هو الكثير من كلّ شيء . لسان العرب : ٣٩٧/١٢ .

وانظر : القاموس المحيط : ص : ١٤٦٧ .

عن سبيل الله ، وهذه أمراض مفسدة للقلوب ، جالبة للوهن والضعف ، مؤدية إلى
الفشل والهزيمة .^(١)

كما أخبر سبحانه أن دخول الجنة يحصل لمن علم الله صدق جهاده في سبيله ،
وصبره وثباته على مقاومة الأعداء ، فقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ
وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ^(٢) .
والآية بها دعوة إلى الثبات .

وفي حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان في بعض أيامه
التي لقي فيها العدو ، ينتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : " يا أيها الناس لا
تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة
تحت ظلال السيوف " ^(٣) .

(١) انظر في معنى الآيات : جامع البيان : ١٠/١٤-١٨ . أحكام القرآن لابن العربي : ٢/٨٥٥-٨٥٩ . التفسير
الكبير : ١٥/١٧٣-١٧١ . الجامع لأحكام القرآن : ٨/٢٣-٢٥ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٤٩٥-٤٩٧ . فتح
البيان : ٥/١٨٧-١٩٠ . محاسن التأويل : ٨/٣٠١٠-٣٠١٣ . تفسير المراغي : ١٠/٩-١٣ .
تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٨٣-٢٨٤ . أضواء البيان : ٢/٣٧٠-٣٧١ في ظلال القرآن :
٣/١٥٢٥-١٥٢٨ . وانظر : الإكليل : ص : ١١٥ .

(٢) انظر : جامع البيان : ٤/١٠٨ . التفسير الكبير : ٩/١٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٤/٢٢٠ . تفسير القرآن
العظيم : ١/٦١٢ . فتح البيان : ٢/٣٤٢-٣٤٣ . تفسير المراغي : ٤/٨٤ . وانظر : الضوء المنير :
٢/١٣٦-١٣٧ . إغاثة اللهفان : ٢/١٩١ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول
التهاجر آخر القتال حتى تزول الشمس : (١١٢/١١١) . برقم: (٢٩٦٦) . ص : ٦٢٤ . ونحوه في: باب لا
تتمنوا لقاء العدو : (١٥٥/١٥٦) . برقم: (٣٠٢٥) . ص : ٦٣٦-٦٣٧ .
صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب كراهة تمتي لقاء العدو ، والأمر بالصبر عند
اللقاء : (٦) . برقم: (١٧٤٢) . ٣/١٣٦٢ .

قال الإمام النووي (رحمه الله) :

" وإذا لقيتموه فاصبروا " فهذا حثٌّ على الصبر في القتال وهو أكد أركانه ...
وأما قوله ﷺ : " واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف " . فمعناه ثواب الله والسبب
الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله ، ومشى المجاهدين في سبيل
الله ، فاحضروا فيه بصدق واثبتوا " (١).

وقد أمر سبحانه المؤمنين بالثبات والصبر في مقابلة صبر الكافرين وثباتهم
عند القتال ، وأن يغلبوهم في ذلك لأنهم يرجون من الله ما لا يرجوه أهل الكفر .
فقال سبحانه : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] (٢) .

وفي الآية تهييج للمؤمنين على الثبات .

بل أمرهم أن يثبت الواحد منهم أمام عشرة من الكفار ، لأن الكفار لا يفقهون
الحكمة من القتال كما يفقه ذلك أهل الإيمان ، ثم خفف ذلك الحكم رحمة بالمؤمنين ،
فقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [النحل: ١٦] .
الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ
ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا
أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥-٦٦] .

أي حثهم وحضهم على قتال أعداء الله بكل ما يقوي عزائمهم ، وينشط
هممهم ، وبشرهم بما يثبت قلوبهم ويسكن خواطرهم بأنهم إن صبروا وثبتوا في

(١) شرح النووي على مسلم : ٤٦/١٢ .

(٢) وانظر : أحكام القرآن لابن العربي : ٣٠٥/١ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٢/٤ . تفسير القرآن العظيم :

القتال فسوف يغلبون ويقهرون عشرة أمثالهم من الكفار . لأن الكفار يقاتلون على غير بصيرة ولا فقه بحكم القتال ، فهم لا يقاتلون امتثالاً لأمر الله ، ولا رجاء لنوابه ، ولا إعلاء لكلمته ، وإظهاراً لدينه ، وإنما تدفعهم الحمية الجاهلية ، وإثارة البغي والعنوان ، وهم مع ذلك يخشون القتل وذهاب دنياهم ، ثم خفف الله ذلك الحكم وهو ثبات الواحد أمام العشرة حكمة منه تعالى ورحمة بعباده ، فأمر بثبات الواحد أمام الاثنين من الكفار . وهو مع ذلك سبحانه يثبت عباده ويقويهم ويؤيدهم ويعينهم على عدوهم .^(١)

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم " .^(٢)

كما نهاهم سبحانه عن الفرار عند ملاقات الأعداء وحذرهم من مغيبته ، وفي ذلك دعوة إلى الثبات فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۚ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٥﴾ [الأنفال: ١٥-١٦] .

(١) انظر : جامع البيان : ٣٨/١٠ - ٤٢ . فتح البيان : ٢١٠/٥ - ٢١٢ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٨٧ ، وقد

ذكر الإمام الطبري (رحمه الله) علة التخفيف فيما رواه عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال : " إنما أمر الرجل أن يصير نفسه لعشرة ، والعشرة لمئة ، إذ المسلمون قليل ، فلما كثر المسلمون خفف الله عنهم ، فأمر الرجل أن يصير لرجلين ، والعشرة لعشرين ، والمئة لمئتين " . جامع البيان : ٤٠/١٠ .

(٢) هذا جزء من كلامه ﷺ أورده البخاري في صحيحه بلفظه في : كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . بلب ﴿ أَلَسَنَ

خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ ﴾ [الأنفال: ٦٦] : (٨/٧) . برقم : (٤٦٥٣) . ص :

فقد توعّد الله على الفرار من الزّحف بالنّار ، فلا ينبغي للمؤمنين إذا تدانوا من أعدائهم وتقاربت صفوفهم أن يولّوهم ظهورهم وأقفيتهم منهزمين ، بل عليهم الثّبات والصّبر .

قال الشيخ السّعدي (رحمه الله) :

" ﴿ فَلَا تَوَلُّوهُمْ إِلَّا دَبَارَ ﴾ بل اثبتوا لقتالهم ، واصبروا على جلادهم ، فإنّ في ذلك نصرة لدين الله ، وقوّة لقلوب المؤمنين ، وإرهاباً للكافرين " (١)
ولا يستثنى من هذا الوعيد إلّا من انحرف إلى موضع يكون القتال فيه أمكن ، أو يلجأ إلى فئة يعاونهم على القتال .

يقول ابن كثير (رحمه الله) :

" ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أي يفرّ بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنّه قد خاف منه فيتبعه ثمّ يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك . نصّ عليه سعيد بن جبير والسّديّ . وقال الضّحّاك : أن يتقدّم عن أصحابه غرة من العدو فيصيبها . ﴿ أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَى فِتَّةٍ ﴾ أي فرّ من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك ، حتّى لو كان في سرية ففرّ إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرّخصة " (٢) .

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٧٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٤٦٣/٢ . وانظر : محاسن التّأويل ٢٩٦٣/٨ . تفسير المراغي : ١٧٩/٩ تيسير الكريم

الرّحمن : ص : ٢٧٩ . الإكليل : ص : ١١٣ .

قيل : إنّ تحرّم الفرار خاصّ بالصّحابة . وقيل : خاصّ بالأنصار دون المهاجرين . وقيل : خاصّ بأهل بدر . والصّحيح أنّه باقٍ إلى يوم القيامة ، وعلى ذلك سائر العلماء .

انظر تفصيل ذلك في : الأحكام لابن العربي : ٨٣٢/٢-٨٣٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٨٠/٧-٣٨٢ تفسير القرآن العظيم : ٤٦٥/٢ وقد ذكر العلماء شرطاً ثالثاً في جواز الفرار وهو أن يزيد الكفّار على ضعف المسلمين ،

وقد عدَّ الفرار من الزَّحف من الكبائر . فقال في حديث أبي هريرة ؓ :
 " اجتنبوا السَّبع الموبقات " (١) ، قالوا يا رسول الله وما هنَّ ؟ قال : " الشُّرك بالله ،
 والسَّحر ، وقتل النَّفس الَّتِي حرَّم الله إلَّا بالحقِّ ، وأكل الرِّبَا ، وأكل مال اليتيم ،
 والتولَّى يوم الزَّحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات " (٢) .
 وفي الأثر : " الفرار من الزَّحف من الكبائر " (٣) .
 وكونه من الكبائر أدلَّ شيء على تحريمه . (٤)

أخذنا من الآيات السابقة (٦٥-٦٦ من سورة الأنفال) كما نصَّ على ذلك السيوطي . انظر الإكليل : ص :
 ١١٥ .

وفي المسألة تفصيل وخلاف عريض . انظر : المغني : ٤٨٤/٨ - ٤٨٦ . فقه السنة : ٤٠/٣ - ٤١ .

(١) الموبقات : الذنوب المهلكات . النهاية في غريب الحديث : ١٤٦/٥ .

(٢) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب الوصايا : (٣١/٥٥) . باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ

أَمْوَالَ آلَيْتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۖ ﴾ [النساء: ١٠] :

(٢٣) . برقم : (٢٧٦٦) . ص : ٥٨٤ . وفي كتاب الحدود (المحاريب) : (٦١/٨٦) . باب رمي المحصنات :

(٣١/٤٤) . برقم : (٦٨٥٧) . ص : ١٤٤٨ .

صحيح مسلم : بلفظه — مع تقدم وتأخير — وقال : " قيل : يارسول الله " . في كتاب الإيمان : (١) . باب

بيان الكبائر وأكبرها : (٣٨) . برقم : (٨٩) . ٩٢/١ .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة موقوفاً على علي بن أبي طالب وابن عمر (رضي الله عنهما) . ٥٤١-٥٤٢ . قال

الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل . محمد ناصر الدين الألباني . طبعة

المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى : ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م : ٢٤/٥ - ٢٥ . قال ابن عباس (رضي الله

عنهما) : " فإن لقي رجل رجلين ففرّ ، أو رجلاً ففرّ فهي كبيرة ، وإن لقي ثلاثة ففرّ منهم فلا بأس " . مصنف

عبد الرزاق : في باب الفرار من الزَّحف . برقم : (٩٥٢٥) . ٢٥٢/٥ .

(٤) وانظر : نيل الأوطار : ٧٩/٨ . الروضة التديّة : ٤٨٩/٢ .

وكان ﷺ يبايع أصحابه في الحرب على ألا يفرّوا. (١)

وفي ذلك حديث جابر رضي الله عنه قال : " لم يبايع رسول الله ﷺ على الموت (٢) . إنما يبايعناه على أن لا نفر " (٣) .

وعن نافع (رحمه الله) : " يبايعهم على الصبر " (٤)

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" أي على الثبات وعدم الفرار سواء أفضى بهم ذلك إلى الموت أم لا " (٥) .

والفرار وعدم الثبات لا يزيد في العمر ، ولا يباعد في الأجل بل يضر صاحبه ولا ينفعه. وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ

فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٦].

فالفرار من القتل كالفرار من الجهاد ، والفرار منه لا ينفع أبداً ، فمن اعتقد أنه ينفعه فقد كذب الله في خبره ، إذ الفار يأتيه ما قضي له من المضرة كما يأتي الثابت

(١) زاد المعاد : ٩٥/٣ .

(٢) وردت المبايعة على الموت في الصحيح من حديث سلمة بن الأكوع وعبد الله بن زيد (رضي الله عنهما) .

انظر : صحيح البخاري : حديث رقم : (٢٩٥٩) (٢٩٦٠) . ص : ٦٢٣-٦٢٤ . صحيح مسلم : ١٤٨٦/٣ .
وقد وفق الإمام النووي والحافظ ابن حجر (رحمهما الله) بكلام نفيس بين الروايات . انظر : شرح النووي على
مسلم : ٣/١٣ . فتح الباري : ٢٢٠/٦ .

(٣) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال :

(١٨) . برقم : (١٨٥٦) . ١٤٨٣/٣ .

(٤) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب البيعة في الحرب ألا يفرّوا ، وقال بعضهم :

على الموت : (١٠٩/١١٠) . برقم : (٢٩٥٨) . ص : ٦٢٣ .

(٥) فتح الباري : ٢٢٠/٦ .

ما قضي له من المسرة (١).

كما نهى سبحانه عباده المجاهدين عن الوهن والحزن ، والوهن هو الضعف يكون في القلب فيفقد قوته وصبره وثباته ، ويكون في الجسد فيفقد جلده وتحمله وقوته . والحزن يكون في القلب أيضاً يسبب له انكساراً تضعف معه عزيمته وانشراحه . والنهي عنهما فيه دعوة إلى الثبات .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

[آل عمران: ١٣٩] .

أي لم الوهن والحزن وأنتم الأعلون في الحال والمكانة والعاقبة (٢).

وقال سبحانه : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ

وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَغْمَلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥] .

أي لا تضعفوا عن قتال عدوكم فيستولي عليكم الخوف ، بل اصبروا واثبتوا ، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد ، طلباً لمرضاة ربكم ، ونصحاً للإسلام ، وإغضاباً للشيطان ، ولا تدعوا إلى المسالمة والمهادنة ووضع القتال بينكم وبين الكفار ، والحال أنكم أنتم الأعلون الغالبون ، وقد توفرت لكم أسباب النصر . والإنسان لا يهن إلا إذا كان أذلّ من غيره ، وأضعف منه عدداً وعدداً وقوة ، ومع ذلك الله معكم بعونه ونصره وتأييده ، وذلك موجب لقوة قلوبكم ، وإقدامكم على عدوكم ، وسوف لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً ، بل سيوفيها لكم ويزيدكم من

(١) انظر مجموع الفتاوى : ٤٥٣/٢٨ - ٤٥٤ . وانظر : الفروسية : ص : ٤٩١ .

(٢) وانظر : التفسير الكبير : ١٣/٩ . محاسن التأويل : ٩٧٩/٤ . تفسير المراغي : ٧٩-٧٨/٤ . تيسير الكريم

الرحمن : ص : ١١٧ . في ظلال القرآن : ٤٨٠/١ .

فضله .^(١) وهذه كلها أمور تدعو إلى الثّبات .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤] .

أي لا تضعفوا في طلب عدوكم بل جدّوا في قتالهم بصبر وثبات ، واحذروا أن تضعف قلوبكم فتضعف لضعفها أبدانكم فتعجزوا عن مقاومة عدوكم ، بل كونوا أقوياء أشداء .

ثم ذكر أمرين يدعوان إلى تقوية القلوب وثباتها :
الأول : أن ما يصيبكم من الجراح والآلام والتعب يصيب أعداءكم ، فهم بشر مثلكم .

الثاني : إنكم ترجون من ثواب الله ، وعظيم جزائه ، والنّجاة من عقابه ما لا يرجوه أولئك . فهذه الدوافع توجب لكم صدق العزائم ، وقوة القلوب ، والشجاعة التامة ، والصبر والثبات لأنكم أولى بكل ذلك منهم .^(٢)

وهناك عوامل عدّة تعين على الثّبات في الجهاد أتناول بعضاً منها في المباحث الآتية :

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٣٤ . بتصرّف . وانظر : جامع البيان : ٦٣/٢٦ - ٦٤ . التفسير الكبير :

٧٣-٧٢/٢٨ . تفسير القرآن العظيم : ٢٧٨/٤ . أضواء البيان : ٥٩٦/٧ - ٥٩٩ .

(٢) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٢٦٢/٥ - ٢٦٤ . التفسير الكبير : ٣١/١١ . الجامع لأحكام القرآن :

٣٧٤/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٨٣٥/١ . فتح البيان : ٢٢٩/٣ . محاسن التأويل : ١٥٢٩/٥ . تفسير

المراغي : ١٤٤/٥ - ١٤٦ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٦٢ - ١٦٣ .

المبحث الأول

الأمر بالجهاد والتحذير من تركه

لقد أمر الله المؤمنين بالجهاد في أكثر من آية ، ودعاهم إلى ذلك وحثهم عليه ،
ليقوموا بواجب تلك الطاعة العظيمة خير قيام ، فقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا
أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦] .

أي إن المؤمنين الذين صدقوا الله ورسوله وأيقنوا بوعدده هم الذين يقاتلون في
طاعته ونصرة دينه ، بينما يقاتل أهل الكفر في سبيل الشيطان وطاعته ، وفي هذا
تقوية لعزائم أهل الإيمان ، وتشجيع لهم . ثم كشف لهم عن حقيقة مهمّة وهي أن
أهل الكفر أهل وهن وضعف لأنهم حزب الشيطان وأنصاره ، وهو ضعيف الكيد
واهي المكر ، فلا تهابوا قتالهم واثبتوا لهم ، واصبروا لجلادهم فإنهم لا حول لهم
ولا قوّة . (١)

يقول الشيخ السعدي (رحمه الله) في بيانه للآية :

" إن الذي يقاتل في سبيل الله معتمداً على ركن وثيق وهو الحق ، والتوكل
على الله ، فصاحب القوّة والركن يطلب منه من الصبر والثبات ، والنشاط ما لا
يطلب ممّن يقاتل عن الباطل ، الذي لاحقيقة له ، ولا عاقبة حميدة " (٢) .

كما أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يحضّ المؤمنين ويحثهم ويدفعهم إلى الجهاد .

فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ [الأنفال: ٦٥] .

(١) انظر : جامع البيان : ١٦٩/٥ - ١٧٠ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٥٢ .

ودعاهم إلى أن يستفرغوا الجهد ويبالغوا في قتال أعدائه .
فقال : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

أي ابذلوا غاية وسعكم وما تطيقون في قتال الكافرين ، لأن الله اختاركم لنصرة دينه ، واصطفاكم لقتال أعدائه .^(١)

وفي الحديث : " اغزوا باسم الله ، في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله .. " الحديث^(٢) .

والأمر بالجهاد يتضمن الأمر بالثبات فيه ، لأن المجاهد حقاً ذلك الذي ثبت لقرنه استجابة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ للقيام بواجب هذه الطاعة .
كما حذر سبحانه من ترك الجهاد ميئاً ما يترتب على ذلك الترك من عواقب وخيمة ، وآثار سيئة ، من ذلك :

أ - إن تركه يجلب العقاب ، ويؤدي إلى العذاب :
قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ

(١) انظر : جامع البيان : ٢٠٥/١٧ . وفي معنى الآية : أقوال أخرى :

رجح الرازي والسعدي رحمه الله : أن المراد بذلك كل التكليف وليس القتال خاصة . انظر : التفسير

الكبير : ٧٢/٢٣ . تفسير الكريم الرحمن : ص : ٤٩٦ .

وقال ابن جرير (رحمه الله) : " والصواب من القول في ذلك ، قول من قال : عُني به الجهاد في سبيل الله لأن

المعروف من الجهاد ذلك ، وهو الأغلب على قول القائل : جاهدت في الله " جامع البيان : ٢٠٥/١٧ وانظر :

تفسير القرآن العظيم : ٣٧٨/٣ .

وذهب مقاتل والكلبي إلى أن الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التعلين: ١٦] .

ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة فلا حاجة إلى المصير إلى التسخ . انظر : فتح البيان : ٨٨/٩ .

(٢) الحديث سبق تخريجه : انظر : ص : ٦٥٩ .

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

[التوبة: ٣٨-٣٩] .

خاطب الله في الآية عباده المؤمنين حاثاً لهم على الجهاد والخروج في سبيله لقتال أعدائه ، محذراً لهم من الميل إلى الدنيا ، ونعيمها الزائل ، وزهرتها الفانية ومتاعها القليل . في مقابل الآخرة ، ونعيمها العظيم ، وثوابها الجزيل . وفي ذلك تأكيد على الجهاد وتحذير من تركه ، ثم توعد سبحانه من تركوا الجهاد بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة . وهو القادر سبحانه على أن يبدلهم بغيرهم ممن يقوم بأمر الجهاد ، ولا يضره ذلك شيئاً ، فهو الغني عن عباده ، القادر على الانتصار من أعدائه دون أحد .^(١)

ب - إن تركه سبب للهلاك في الدنيا والآخرة :

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥] .

وقد فسّر الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري ﷺ الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد والإقامة في المال والأهل .^(٢)

(١) انظر في معنى الآيتين : جامع البيان : ١٣٣/١٠ - ١٣٥ . أحكام القرآن لابن العربي : ٩٣٦-٩٣٧ . التفسير الكبير : ٦٢-٥٨/١٦ . الجامع لأحكام القرآن : ١٤٠-١٤٢ . تفسير القرآن العظيم : ٥٥٨/٢ . فتح البيان : ٣٠١/٥ - ٣٠٣ محاسن التأويل : ٣١٥٤-٣١٥٦ . تفسير المراغي : ١١٩/١٠ - ١٢١ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٩٧ .

(٢) روى أبو داود بسنده إلى أسلم أبي عمران قال : " غزونا من المدينة ، نريد القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، والروم ملصقوا ظهورهم بخائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مة ، مة ، لا إله إلا الله ، يلقي بيديه إلى التهلكة .

ج- إن تركه علامة للنفاق :

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١-٨٢] .

أي فرح المنافقون بقعودهم وعدم خروجهم مع رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، وكرهوا أن يجاهدوا أعداء الله بأنفسهم وأموالهم ميلاً للدعة والراحة ، وإيثاراً لها على المشقة والتعب ، وشحاً بالمال والنفس أن يقدموها في طاعة الله ، لعدم وجود باعث الإيمان في قلوبهم ، واليقين في نفوسهم ، ووجد

فقال أبو أيوب : إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، لما نصر الله نبيه ، وأظهر الإسلام ، قلنا هلّم نقيم في أموالنا ونصلحها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] . فالإنشاء بالأيدي إلى التهلكة : أن نقيم في أموالنا ونصلحها ، وندع الجهاد ، قال أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية " .

سنن أبي داود: كتاب الجهاد : (١٥) . باب في قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ : (٢٢) . برقم: (٢٥١٢) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٢٨٥ . وانظر : سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة البقرة : (٢) برقم: (٢٩٧٢) . ص : ٤٧٥ . سنن البيهقي: ٤٥/٩ . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : برقم: (٤٧١١) . ٩/١١ . مستدرک الحاكم: ٣٠٢، ٩٤ / ٢ .

وفي الآية : أقوال أخرى : انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٦١/٢-٣٦٣ . تفسير القرآن العظيم : ٣٤٤-٣٤٣/١ . فتح البيان ٣٩١/١-٣٩٢ . والأولى حمل لفظ التهلكة على عمومها ، فكل ما يصدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا داخل فيه . انظر : فتح البيان : ٣٩٢/١ وانظر : تيسير الكريم الرحمن : ص : ٧٢ . ويدخل ترك الجهاد في ذلك دخولاً أولياً لأنه مما ذكر في سبب نزول الآية . انظر : لباب التناول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي . اعتنى به عبد الحميد طعمه الحلبي : الطبعة الأولى : ١٤١٨-١٩٩٧ م . دار المعرفة . بيروت ص : ٣٧-٣٨ .

مع ذلك صارف النفاق الذي غطى قلوبهم . ولم يقفوا عند هذا الحد بل دعوا غيرهم إلى النكول عن الجهاد حتى يفتوا في عضد المؤمنين ، ويتبسطوا عزائمهم ، فقالوا لإخوانهم لا تنفروا في الحرّ فإنه لا يستطيع لشدته ، وكان ذلك في غزوة تبوك^(١) التي كانت في شدة الحرّ والقحط ، وهم بهذا القول قد جمعوا بين ثلاث سوآت : فرحوا بالقيعود ، وكرهوا الجهاد ، ونهوا غيرهم عنه ، فأمر الله رسوله ﷺ أن يخبرهم بأن هنالك حرّاً لا يقارن بالحرّ الذي فررت منه ، إنه نار حامية لا يقدر قدرها ، ولا يطاق حرّها ، فاضحكوا أيها المنافقون قليلاً ، وابكوا كثيراً على ما فاتكم بهذا التّخلف من أجر ، وما حلّ محلّه من وزر ، وبما فررت من مشقة زائلة إلى مشقة لا تحول ولا تزول ، وسوف يكون ضحككم وفرحكم في هذه الدنيا قليلاً بالنسبة لذلك البكاء والحزن الذي سوف يلزمكم في نار لا تقنى ولا تبيد .^(٢)

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّلِّ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٨٦-٨٧].

ففي الآيات ذم وإنكار على المنافقين المتخلفين عن الجهاد ، الناكين عنه ، فحينما سمعوا سورة تأمرهم بالإيمان بالله والجهاد في سبيله ، استأذن أولو الغنى والسعة والقدرة من رسول الله ﷺ أن يتركهم مع المتخلفين عن الجهاد بسبب

(١) توجه النبي ﷺ في سنة تسع للهجرة إلى تبوك من أرض الشام — وهي آخر غزواته — لغزو من انتهى إليه أنه قد

تجمع من الروم وخم وحدام ، فوجدهم قد تفرقوا فلم يلق كيذاً . انظر خبرها في : السير النبوية لابن هشام : ٣٧٩/٤ . فما بعدها . تاريخ الطبري : ١٨١/٢ . فما بعدها . طبعة دار الكتب العلمية . البداية والنهاية : ٢/٥ . فما بعدها .

(٢) انظر في معنى الآيتين : جامع البيان : ٢٠٠/١٠-٢٠١ . تفسير القرآن العظيم : ٥٨٥/٢-٥٨٧ . فتح البيان :

٣٦٠-٣٥٩/٥ . محاسن التأويل : ٣٢١٧/٨-٣٢٢١ . تفسير المراغي : ١٧٣/١٠-١٧٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٣٠٥ .

أعذارهم . فقد رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم أن يكونوا مع النساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد ^(١) ، فهنّ قعود في بيوتهنّ ، والعلة في ذلك أن الله ختم على قلوبهم فلا تقبل حقاً ولا تجتنب باطلاً ، لأنّ النفاق قد أخذ بتلابيبها فأعماها وأصمّها

(١) لقد ذكر العلماء أنّ للجهاد سبعة شروط وهي : الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والذكورية ، والسلامة

من الضرر ، ووجود التفقة . والذكورية تشترط لما روت عائشة (رضي الله عنها) قالت : قلت يا رسول الله :

على النساء جهاد ؟ قال : " نعم عليهنّ جهاد لا قتال فيه . الحج والعمرة " . سنن ابن ماجه : كتاب المناسك :

(٢٥) . باب الحج جهاد النساء : (٨) . برقم : (٢٩٠١) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٣١٦ .

مسند أحمد : ١٦٥/٦ . وانظر : صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب جهاد النساء :

(٦١/٦٢) . برقم : (٢٨٧٥) . ص : ٦٠٦ . فالمرأة ليست من أهل القتال لضعفها وخورها ، ولذلك لا يسنهم

لها . انظر : المعنى : ٣٤٧/٨ . ولذا نهى النبي ﷺ عن قتل النساء في الحروب . فعن رباح بن الربيع قال : كنّا مع

رسول الله ﷺ في غزوة ، فرأى الناس مجتمعين على شيء ، فبعث رجلاً فقال " انظر علام اجتمع هؤلاء ؟ "

فجاء فقال : على امرأة قتيل فقال : " ما كانت هذه لتقاتل " قال : وعلى المقدّمة خالد بن الوليد ، فبعث رجلاً

فقال : قل لخالد : لا يقتل امرأة ولا عسيفاً — العسيف الأجير — . سنن أبي داود : كتاب الجهاد : (١٥) .

باب في قتل النساء : (١١١) . برقم : (٥٦٦٩) . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن صحيح " . ص : ٣٠١ .

سنن البيهقي : باب المرأة تقاتل فتقتل . ٨٢/٩ . وانظر : صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) .

باب قتل الصبيان في الحرب : (١٤٦/١٤٧) . برقم : (٣٠١٤) . ص : ٦٣٤ . و باب قتل النساء في الحرب :

(١٤٧/١٤٨) . برقم : (٣٠١٥) . ص : ٦٣٤ . وانظر : إرواء الغليل : ٣٥/٥ .

ولقد جاء في تفسير : " الخوالم " في الآية السابقة عن ابن عباس (رضي الله عنهما) وجماعة من التابعين أنّ

المراد بذلك النساء لأنهنّ يتخلفن ، ويقعدن في بيوتهنّ ، ولا يخرجن إلى الجهاد . انظر : جامع البيان : ٢٠٨/١٠ .

يقول الشيخ صالح اللحيدان : " ولقد كان الإسلام حريصاً على أن لا تدخل المرأة الجهاد ، وكان الرسول يرى

ونعم ما يرى أنّ هذا ليس فيه من الفائدة أي نفع بجانب تخليها عن الجهاد ، فلزومها بيتها ، وسهرها على حقّ

زوجها ، وتربية أولادها هو نوع من الجهاد " . الجهاد في الإسلام : ص : ٦٠ .

ولكن إذا دعت الضرورة ، وتطلّب الأمر خروج المرأة للجهاد من أجل مداواة الجرحى ، وسقاية الماء ، وخدمة

المجاهدين فلا مانع من ذلك ، مع توفر الشروط التي نصّ عليها الشارع ، من توفر الحرمة والستر وغير ذلك .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " كان رسول الله ﷺ يغزو بآم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا ، فيسقين

الماء ويداوين الجرحى " . صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب غزوة النساء مع الرجل : (٤٧) .

برقم : (١٨١٠) . ١٤٤٣/٣ . وانظر : صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب مداواة

فلا تعي خيراً ولا تفقه مصلحة (١).

والآيات المبيّنة لتخلّف المنافقين عن الجهاد ونكولهم عنه كثيرة ، حتّى أصبح ترك الجهاد والتخلّف عنه سمة بارزة يعرف بها الصّحابة رضي الله عنهم أهل النّفاق . كما قلل كعب بن مالك رضي الله عنه في حديث توبته : " فطفقت إذا خرجت في النّاس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني إنّني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النّفاق ، أو رجلاً ممّن عذر الله تعالى من الضّعفاء " (٢).

التساء الجرحى في الغزو : (٦٦/٦٧) . برقم : (٢٨٨٢) . و باب ردّ التّساء الجرحى والقنلى : (٦٧/٦٨) .
برقم : (٢٨٨٣) . ص : ٦٠٨ . وكتاب الطّب : (٥٠/٧٦) . باب هل يداوي الرّجل المرأة أو المرأة الرّجل :
(٢) . برقم : (٥٦٧٩) . ص : ١٢٣٥ .

وعن أم عطية الأنصارية (رضي الله عنها) قالت : " غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أحلفهم في رحاظم ، فأصنع لهم الطّعام ، وأداوي الجرحى ، وأقوم على المرضى " . صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير :
(٣٢) . باب التّساء الغازيات يرضخ هنّ ولا يسهم : (٤٨) . برقم : (١٨١٢) . ١٤٤٧/٣ . ومع ذلك ما كنّ يقاتلن وقد جاء ذلك في رواية الرّبيع بنت معوذ وهي نحواً من رواية أم عطية ، وقالت : " ولانقاتل " .
فتح الباري : ١٧٤/٦ .

فإذا تبين هذا فأعلم أنّ ما تفعله بعض بلدان المسلمين من تجنيد التّساء ، وتدريبهنّ على الجنديّة ، وحملهنّ السّلاح ، ودفعهنّ إلى الحروب مع الرّجال الأجانِب ، بل وسفرهنّ لذلك ، كلّ هذا ليس من الإسلام في شيء ، بل هو أمر منكر لما يترتّب عليه من مفاسد عظيمة ، وآثار وخيمة . فإضافة إلى ما تركبه أولئك التّساء من محظورات حرّمها عليهنّ الشّرع ، فإنّهنّ يعرضنّ أنفسهنّ هُتكَ أعراضهنّ ، وسلب شرفهنّ من كلّ زائغ ومفسد .

(١) انظر : جامع البيان ٢٠٧/١٠-٢٠٨ . التفسير الكبير : ١٥٦/١٦-١٥٧ . تفسير القرآن العظيم :

٥٩٢-٥٩١/٢ . فتح البيان : ٣٦٤/٥-٣٦٥ . محاسن التأويل ٣٢٢٨/٨-٣٢٢٩ . تفسير المراغي :

١٧٨/١٠-١٧٩ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٠٥-٣٠٦ .

(٢) الحديث سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٦٨ .

وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال ﷺ : "من مات ولم يغز ، ولم يحدث به نفسه ، مات على شعبة من نفاق " (١)

قال الإمام النووي (رحمه الله) :

" المراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف ، فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق " (٢) .

د - إن تركه سبب للذل والهوان :

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إذا تبايعتم بالعين (٣) وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم " (٤)

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب ذم من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو : (٤٧) . ١٥١٧/٣ .

(٢) شرح النووي على مسلم : ٥٦/١٣ وانظر : المفهم : ٧٥٠/٣ .

(٣) العين : هو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به . وسميت عينة لحصول التقدر لصاحب العينة . لأن العين هو المال الحاضر من التقدر . والمشتري إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضرة تصل إليه معجلة . النهاية في غريب الحديث : ٣٣٣-٣٣٤ . بتصرف . وانظر : الفائق : ١٠٨/٢ .

(٤) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب البيوع (أبواب الإجارة) : (٢٢) . باب التهي عن العينة : (٥٤) . برقم : (٣٤٦٢) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٣٨٦ . وهو في السلسلة الصحيحة : ١٥/١ . برقم : (١١) .

سنن البيهقي: بلفظه في : باب ما ورد في كراهية التبايع بالعين . ٣١٦/٥ .

مسند أحمد: نحوه في : ٢٨/٢ ، ٤٢ ، ٨٤ .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب . برقم : (٥٦٥٩) . ٢٩/١٠ . وانظر : زاد المعاد : ٨٧/٣ .

وفي الحديث تحذير من ترك الجهاد ميلاً إلى الدنيا ، وخلوداً إليها ، وانشغالاً بها عن القيام بواجب الجهاد ، فإنّ ذلك يؤدّي إلى الهوان والذلّ ، فيطغى أعداء الله ويبسطون سيطرتهم وهيمنتهم على المسلمين فيذلّونهم ويهينونهم ، كما هو حال أمة الإسلام اليوم ، فقد أطبق الضعف على جوانبها ، وسرى الذلّ في جسدها ، فصارت هيكلاً متخاذلاً ، وذلك لما ضيّعت الأمانة التي كلّفت بحملها ، والمسئوليّة التي أنيطت بعائقها . وجثم أعداء الله على صدرها ، يذيقونها الأمرين ، يثيرون الفتن بين صفوفها ليفرقوا جمعها ، ويشتّتوا شملها لتكون لقمة سائغة يسهل ابتلاعها ، فيسطون حينئذ على خيراتها ، وينهبون ثرواتها ، وهي عليلة عاجزة لا تحرك ساكناً ، ولا تغيّر أمراً ، بل تجرّ أذيال الخيبة فتطرق أبواب أعداء الله ليحلّوا مشاكلها ، وينصفوا مظلومها ، ومتى كان الظلم ينتج عدلاً ، والباطل يخرج حقّاً .

وهي إن أرادت النجاة والسعادة الحقّة فلتنتمسك بهذا الدين ففيه عزّها ، وقوتها ، ونصرها ، وسعادتها ، كما قال لها ربّها : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٠] .

وإن تنكّبت الطّريق ، وتجنّبت الحقّ فسوف تظلّ في هذا الذلّ والهوان إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

قال المناوي (رحمه الله) :

" وأخذتم أذناب البقر : كناية عن الاشتغال عن الجهاد بالحرث . ورضيتم بالزرع : أي بكونه همّتكم ونهمتكم . وتركتم الجهاد : أي غزو أعداء الرّحمن ومصارعة الهوى والشيطان . سلّط الله : أي أرسل بقهره وقوّته عليكم . ذلاً : بضم الذال المعجمة وكسرهما ضعفاً واستهانة . لا يترعه : لا يزيله ويكشفه عنكم . حتّى ترجعوا إلى دينكم : أي الاشتغال بأمور دينكم . وأظهر ذلك في هذا القلب البديع لمزيد الزّجر والتّقريع حيث جعل ذلك بمنزلة الرّدة والخروج عن الدّين " . فيض القدير : ٣١٤/١ . وانظر : ٣٩٧/١ .

وترك الجهاد محرّم إلّا عند العجز .^(١) بل لو امتنعت طائفة عن التزام جهاد الكفّار فوجب على أهل الإسلام قتالها ، وإن كانت مقرّة به ، حتّى ترجع إلى الصّواب ، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء .^(٢)

فالمؤمن الذي يطّلع على هذه الآثار والعواقب النّاجمة من ترك الجهاد يدفعه ذلك إلى الثّبات والصّدق عند لقاء أعداء الله .

(١) انظر الإكليل : ص : ١٩٥ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ٥٠٣/٢٨ .

المبحث الثاني

فضل الجهاد والترغيب فيه .

لقد جاءت بعض الأحاديث عن المصطفى ﷺ تبين أن الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال .

فعن أبي قتادة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم : " أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال " فقام رجل فقال : يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطايي ؟ فقال له رسول الله ﷺ : " نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ... " الحديث (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دلني على عمل يعدل الجهاد . قال : " لا أجده " قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟ قال : ومن يستطيع ذلك ؟ قال أبو هريرة : إن فرس المجاهد ليستن (٢) في طوله (٣) فيكتب له حسنات (٤) .

(١) صحيح مسلم: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب من قتل في سبيل الله كفر خطايه إلا الدين : (٣٢) . برقم:

١٥٠١ / ٣ . (١٨٨٥)

(٢) ليستن في طوله فيكتب له حسنات : أي يخطو ويمرح في حبله فيكتب له ذلك الاستئان حسنات .

انظر : الفائق : ٢٠٣ / ٢ . و انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٢٩٢ / ٢ . النهاية في غريب الحديث : ٤١١ / ٢ .

(٣) طوله : الطول والطيل بالكسر : الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره ، والطرف الآخر في يد الفرس

ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه . النهاية في غريب الحديث : ١٤٥ / ٣ . و انظر : غريب الحديث لابن قتيبة :

٢٩٢ / ٢

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢ / ٥٦) . باب فضل الجهاد والسير : (١) . برقم:

٥٨٨ . (٢٧٨٥)

فهذان دليلان يبينان أن الجهاد من أفضل الأعمال . وقد نصّ على ذلك جماعة من أهل العلم:

قال الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله) :

" لا أعلم شيئاً من العمل بعد الفرائض أفضل من الجهاد " (١) .

قال صاحب المغني في بيان قول الإمام أحمد (رحمه الله) :

" لأنّ الجهاد بذل المهجة والمال ، ونفعه يعمّ المسلمين كلّهم صغيروهم وكبيرهم ، قويّهم وضعيفهم ، ذكرهم وأنثاهم ، وغيره لا يساويه في نفعه وخطره ، فلا يساويه في فضله وأجره " (٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" والأمر بالجهاد ، وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر ، ولهذا كان أفضل ما تطوّع به الإنسان ، وكان باتّفاق العلماء أفضل من الحجّ والعمرة ، ومن الصّلاة التطوّع ، والصّوم التطوّع كما دلّ عليه الكتاب والسنة " (٣).

وقال ابن دقيق العيد (رحمه الله) فيما نقله الحافظ ابن حجر (رحمه الله) عنه :
" القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل لأنّ الجهاد وسيلة إلى إعلان الدين ونشره ، وإخماد الكفر ودحضه ، ففضيلته بحسب فضيلة ذلك والله أعلم " (٤).

(١) المغني : ٩٤٨/٨ .

(٢) المرجع السابق : ٣٤٩/٨ .

(٣) السياسة الشرعيّة : ص : ١٤٢ . مجموع الفتاوى : ٣٥٢/٢٨ .

(٤) فتح الباري : ٨٠/٦ . وقول ابن دقيق العيد في كتابه : إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام :

١٣٢/١ - ١٣٣ . طبعة دار الكتب العلمية . مع زيادات في النصّ .

وأقوال أهل العلم في ذلك كثيرة جداً (١).

فهذا عن فضل الجهاد ، وأما عن فضل المجاهد فقد ورد في شأنه قوله ﷺ
في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قيل يا رسول الله أي الناس أفضل ؟ فقال
رسول الله ﷺ : " مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله " قالوا : ثم من ؟ قال :
" مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره " (٢) . فالمجاهد أفضل
الناس .

ومن هنا يتبين أن الجهاد في سبيل الله أفضل أعمال التطوع على الإطلاق ،
وأن أهله القائمين به بحق هم أفضل الناس ، ولم يتبوا الجهاد هذه المنزلة من
الفضيلة إلا لما ورد فيه من أدلة من القرآن والسنة في بيان عظيم ثوابه ، وجزيل
أجره ، وعظم فضله ، تفوق حدّ الحصر .

(١) انظر : المفهم : ٧١٢/٣-٧١٣ . نيل الأوطار : ٤١/٨ . محاسن التأويل : ١٤٨٥/٥ . فقه السنة : ١٦/٣ . أهمية
الجهاد : ص : ١٢١ .

(٢) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في
سبيل الله : (٢) . برقم : (٢٧٨٦) . ص : ٥٨٩ . ونحوه في : كتاب الرقاق : (٥٥/٨١) . باب العزلة راحة
من خلاط السوء : (٣٤) . برقم : (٦٤٩٤) . ص : ١٣٨١ .
صحيح مسلم : بلفظ مقارب في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الجهاد والرباط : (٣٤) . برقم : (١٨٨٨) .
١٥٠٣/٣ .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) في بيان معنى الحديث :
" وكان المراد بالمؤمن من قام بما تعين عليه القيام به ثم حصل هذه الفضيلة ، وليس المراد من اقتصر على الجهاد
وأهمل الواجبات العينية ، وحينئذ فيظهر فضل المجاهد لما فيه من بذل نفسه وماله لله تعالى ، ولما فيه من التفع
المتعدي ، وإثما كان المؤمن المعتزل يتلوه في الفضيلة لأنّ الذي يخالط الناس لا يسلم من ارتكاب الآثام ، فقد لا
يفي هذا بهذا ، وهو مقيد بوقوع الفتن " . فتح الباري : ٨١/٦ .

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه ، وهو ظاهر عند الاعتبار ، فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة ، فإنه مشتمل من محبة الله تعالى ، والإخلاص له ، والتوكل عليه ، وتسليم النفس والمال له ، والصبر والزهد ، وذكر الله ، وسائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر ، والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسينين دائماً ، إما النصر والظفر ، وإما الشهادة والجنة " (١) .

وهذه مجموعة من النصوص الدالة على ما في الجهاد من عظيم الأجر ،
وجزيل المثوبة :

أولاً : القرآن الكريم :

أ - قال سبحانه : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٥﴾ [النساء: ٩٥-٩٦] . (٢)

(١) السياسة الشرعية : ص: ١٤٣-١٤٤ . مجموع الفتاوى : ٣٥٣/٢٨ .

(٢) أولو الضرر هم أصحاب الأعداء المبيحة للتخلف عن الجهاد ، فهؤلاء يعطون مثل أجور المجاهدين إذا كانت نيّاتهم حازمة عازمة على عدم التخلف ، وقيل : يعطون مثل أجر المجاهدين من غير تضييع ، فيفضلهم المجاهدون بالتضييع لأجل المباشرة ، والأول أرجح لقوله ﷺ في حديث جابر : " إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض " . وفي رواية : " إلا شركوكم في الأجر " . صحيح مسلم : كتاب الإمار : (٣٣) . باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر : (٤٨) . برقم : (١٩١١) . ١٥١٨/٣ . وانظر : صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب من حبسه العذر عن الغزو :

ب - وقال تعالى : ﴿ أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢١٦﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ

(٣٥) . برقم: (٢٨٣٩) . ص : ٦٠٠ . وكتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب : (٨٢/٨١) . برقم : (٤٤٢٣) . ص : ٩٢١ .

والحسن : هي الجنة . وقيل : الجزء الجزيل . والمعنى واحد .

والدرجات : منازل رفيعة في الجنة . وسوف يرد ذكرها في الحديث .

وانظر في معنى الآيتين : جامع البيان : ٢٢٧/٥ - ٢٣٢ . التفسير الكبير ١١/٦ - ١٠ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٢/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٨٢٠/١ - ٨٢١ . فتح البيان : ٣/٢١٠ - ٢١٣ . محاسن التأويل : ١٤٨١/٥ - ١٤٨٦ . تفسير المراغي : ١٢٨/٥ - ١٣٠ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٥٨ - ١٥٩ . أضواء البيلك : ٢٩٥/١ - ٢٩٦ . وانظر : الضوء المنير : ٢/٢٧٦ - ٢٧٨ . الإكليل : ص : ٨٠ .

عن البراء رضي الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فحاء بكف فكتبها وشكا ابن أم مكتوم ضرارته فترلت : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ . صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب قول الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ . برقم : (٢٨٣١) . ص : ٥٩٨ . وانظر : وأنفسهم... الآية . [النساء: ٩٥، ٩٦] : (٣١) . برقم : (٢٨٣١) . ص : ٥٩٨ . وانظر :

كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) باب ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ ... الآية ﴿ { النساء : ٩٥ } : (١٩/١٨) . برقم : (٤٥٩٢ ، ٤٥٩٣ ، ٤٥٩٤) . ص : ٩٦١ - ٩٦٢ . وكتاب فضائل القرآن : (٤٠/٦٦) . باب كتاب النبي ﷺ : (٤) . برقم : (٤٩٩٠) . ص : ١١٠١ - ١١٠٢ .

صحيح مسلم : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين : (٤٠) . برقم : (١٨٩٨) . ٣/١٥٠٩ . وانظر : لباب التقول : ص : ٩٧ .

مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿١٩﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ [التوبة: ١٩-٢٢] (١) .

ج - وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١-١١٢] (٢) .

(١) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : " كنت عند منبر رسول الله ﷺ . فقال رجل : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أَسْقِي الْحَاجَّ . وقال آخر : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قُلتُم ، فجرهم عمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ . وهو يوم الجمعة ، ولكن إذا صَلَّيْتَ الْجُمُعَةَ دَخَلْتَ فَاسْتَفْتَيْتَهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٩] الآية إلى آخرها .

صحيح مسلم: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى : (٢٩) . برقم: (١٨٧٩) .
١٤٩٩/٣ وانظر : لباب التقول : ص : ١٤٩ .
وانظر في معنى الآيات : جامع البيان : ٩٧-٩٦/١٠ . التفسير الكبير : ١٧-١١/١٦ . فتح البيان : ٢٥٦/٥-٢٥٧ . محاسن التأويل : ٣٠٨٩/٨-٣٠٩٠ . تفسير المراغي : ٧٩-٧٧/١٠ وانظر : طريق المهجرين ص : ٥٢٧-٥٢٨ .

(٢) هاتان الآيتان رغبنا في الجهاد بأبلغ وجه وأحسن صورة .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

"يخير تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبده المطيعين له ، ولهذا قال الحسن البصري وقتادة : بايعهم والله فأعلى ثمنهم " . تفسير القرآن العظيم : ٦٠٨/٢ .

وقال ابن القيم (رحمه الله) :

" أقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالإضافة إلى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه وهي : التوراة والإنجيل والقرآن ، ثم أخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه ، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلي نظر إلى المشتري من هو ، وإلى الثمن المبدول في هذه السلعة ، وإلى من جرى على يديه هذا العقد ، فأى فوز أعظم من هذا ، وأى تجارة أربح منه ؟ " . الجواب الكافي : ص : ٦٥ . الضوء المنير ٦٠/٦-٦١ . وانظر : زاد المعاد : ٧٢/٣-٧٥ .

وقد تناول (رحمه الله) هاتين الآيتين كاشفاً من خلاهما عن مكانة الجهاد وعظيم فضله ، في أسلوب بديع مرغّب للتفوس ، مشجّع لها على الجهاد في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . ص : ٥٨-٥٩ .

يقول جعفر الصادق (رحمه الله) :

أُثْمِنُ بِالنَّفْسِ التَّفْهِيسَةَ رَبِّهَا وليس لها في الخلق كلّهم ثمن
بها تُشْتَرَى الْجَنَاتُ إِنْ أَنَا بَعْتُهَا بشيء سواها إِنْ ذَلِكُمْ غَبْنُ
لَنْ ذَهَبَتْ نَفْسِي بِدُنْيَا أُصِيبَتْهَا لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن
الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٨/٨

ثم ذكر سبحانه صفات المجاهدين الذين استحقوا الجنة بتلك المبايعة ، وهي على جهة الشرط .

انظر : فتح البيان : ٤٠٧/٥ .

والسائقون هم الصائمون وإليه ذهب جمهور المفسرين ، وقيل : هو السّفر إلى القربات ، وهو أعم .

وانظر في معنى الآيتين : جامع البيان ٣٥/١١-٤٠ . أحكام القرآن لابن العربي : ١٠٠٦/٢-١٠٠٨ . التفسير الكبير : ١٩٨/١٦-٢٠٧ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٧/٨-٢٧١ . تفسير القرآن العظيم : ٦٠٨/٢-٦٠٩ . فتح البيان : ٤٠٣/٥-٤٠٩ . محاسن التأويل : ٣٢٧٢/٨-٣٢٧٥ . تفسير المراغي : ٣٠/١١-٣٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٣١٠-٣١١ . في ظلال القرآن : ١٧١٩/٣-١٧٢٠ .

د - وقال جل في علاه : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُنُكُمْ عَلَىٰ نَجْوَىٰ تُسَجِّرُكُمْ مِّنْ عَذَابِ ٱلْإِيمِ ۖ تُوْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۚ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۖ ۝ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ ۝ ﴾ [الصف: ١٠-١٣] (١) .

هـ - وقال تبارك اسمه في ثواب الشهداء : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۖ ۝ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۚ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) والآيات مرغبات في الجهاد كسابقتها .

فقد ذكر سبحانه أنَّ الإيمان بالله ، والجهاد بالمال والنفس في سبيله تجارة رابحة ، فإنَّ المجاهد ينال الفوز العاجل ، والثواب الآجل ، فيظفر بالنصرة في الدنيا ، والغلبة على العدو وأخذ الغنائم وكرائم الأموال ، ويحظى في الآخرة بغفران الذنوب ، ورضوان الرب ، والكرامة في جنات الخلود والإقامة ، ولا فوز أعظم من هذا .

تفسير المراعي : ٨٩/٢٨ .

وانظر في معنى الآيات : جامع البيان : ٨٩/٢٨ - ٩٠ . التفسير الكبير : ٣١٦/٢٩ - ٣١٨ . تفسير القرآن العظيم : ٥٦٤/٤ - ٥٦٥ . فتح البيان : ١٢٢/١٤ - ١٢٤ . محاسن التأويل : ٥٧٩٣/١٦ - ٥٧٩٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٧٩٧ - ٧٩٨ . وقد أفاد وأجاد (رحمه الله) في بيان هذه الآيات . أضواء البيان : ١٨٣/٨ - ١٨٦ . وقد بين (رحمه الله) العلة في تقدم المال على النفس في آية الصَّف ، وتأخيره في آية التوبة ، فذكر أنَّ المقام في آية الصَّف مقام تفسير وبيان لمعنى التجارة الرَّابحة ، والحاجة إلى المال هنا أعظم لأنَّه عصب الحرب . وأما آية التوبة فهي في معرض الاستبدال والعرض والطلب ، وهو ما يسمَّى بالمساومة ، والنفس أعزَّ ما يملك الحي وأعلى ما يساوم بها في مقابلة الجنة لأنَّها أعزَّ ما يرهب .

يَحْزَنُونَ ﴿١٧١﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١] (١) .

ثانياً : الأحاديث النبوية :

أ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تَصَمَّنَ اللَّهُ (٢) لمن خرج في سبيله ، لا يخرج به إلا جهاداً في سبيلي ، وإيماناً بي ، وتصديقاً برسلي ، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه ، نائلاً ما نال من

(١) عن مسروق قال : سألتنا عبد الله - هو ابن مسعود - عن هذه الآية : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ قال : أما إننا قد سألنا عن ذلك . فقال :

" أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم بهم إطلاعةً ، فقال : " هل تشتبهون شيئاً ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك هم ثلاث مرّات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يُسألوا ، قالوا : يا رب نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتّى نقتل في سبيلك مرّة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا " .

صحيح مسلم: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة ، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون : (٣٣) . برقم : (١٨٨٧) . ١٥٠٣-١٥٠٢/٣ .

وهذه الآيات من أعظم ما ورد في كتاب الله في بيان فضل من يقتلون في سبيل الله ، فهم أحياء عند الله ، حصّهم بالقرب منه ، وعلو المكان ، والكرامة لديه ، وأعظاهم أفضل أنواع الرّزق ، فقوّت بذلك عيولهم ، وفرحت به نفوسهم ، وجمعوا بين نعيم البدن بالرّزق ، ونعيم الرّوح بالفرح .

وانظر في معنى الآيات : جامع البيان : ١٧٠/٤ - ١٧٥ . التفسير الكبير : ٩٦-٨٨/٩ . فتح البيان : ٣٧٨-٣٧٤/٢ . محاسن التأويل : ١٠٣٢/٤ - ١٠٣٥ . تفسير المراغي : ١٣٠/٤ - ١٣٣ . تيسير الكريم الرحمن :

ص : ١٢٤ .

(٢) قال التّووي (رحمه الله) :

" وفي الرواية الاخرى "تكفل الله" ومعناها : أوجب الله تعالى له الجنة بفضلله وكرمه سبحانه وتعالى . وهذا الضمان والكفالة موافق لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ . الآية " . شرح التّووي على مسلم : ٢٠/١٣ .

أجر أو غنيمة . والذي نفس محمد بيده ما من كَلَمٍ ^(١) يُكَلِّمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كَلِمٍ ، لونه لون دم وريحه مسك ، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشقَّ على المسلمين ما قعدت خلاف سرِّيَّة ^(٢) تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشقَّ عليهم أن يتخلفوا عني ، والذي نفس محمد بيده لوددت إنِّي أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثمَّ أغزو فأقتل ، ثمَّ أغزو فأقتل " (٣) .

ب - وعنه عليه السلام قال : قال النبي ﷺ : " إنَّ في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتهم الله فاسألوه

(١) كَلَمٌ : هو الجُرح . انظر : النهاية في غريب الحديث : ١٩٩/٤ .

والمراد : جرح يجرح . انظر : شرح النووي على مسلم : ٢١/١٣ .

(٢) السَّرِّيَّة : هي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمئة تُبعث إلى العدو . وجمعها السَّرَايا سُمُوا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم من الشيء السَّرِيِّ التَّفِيس . وقيل: سُمُوا بذلك لأنهم يُنفذون سرّاً وخفّة وليس بالوجه . النهاية في غريب الحديث : ٣٦٣/٢ . و انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٢٢٧/١ .

(٣) صحيح البخاري: بنحو منه في كتاب الإيمان : (٢) . باب الجهاد من الإيمان : (٢٧/٢٦) . برقم: (٣٦) . ص : ٢٢ . وفي كتاب فرض الخمس : (٣٣/٥٧) . باب قول النبي ﷺ : " أحلّت لكم الغنائم " : (٨) . برقم: (٣١٢٣) . ص : ٦٥٧ . وفي كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصفّات: ١٧١] : (٢٨) . برقم: (٧٤٥٧) . ص : ١٥٦٦ . وفي باب : (٣٠) . برقم: (٧٤٦٣) . ص : ١٥٦٧ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله : (٢٨) . برقم: (١٨٧٦) . ١٤٩٥/٣ . ونحوه في : ١٤٩٦ .

قال النووي (رحمه الله) : " معنى الحديث أن الله تعالى ضمن أن الخارج للجهاد ينال خيراً بكلّ حال ، فإنما أن يستشهد فيدخل الجنة ، وإنما أن يرجع بأجر ، وإنما أن يرجع بأجر وغنيمة " شرح النووي على مسلم : ٢١/١٣ . وقال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) : في غمّي التي ﷺ القتل في الجهاد : " وكأنه ﷺ أراد المبالغة في بيان فضل الجهاد وتحريض المسلمين عليه " . فتح الباري : ٩٥/٦ . وانظر معنى الحديث في المفهم : ٧٠٧-٧٠٥/٣ .

الفردوس^(١) ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة — أراه — : فوقه عرش الرحمن ،
ومنه تفجر أنهار الجنة " .^(٢)

ج- وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " غدوة في سبيل الله أو روحه
خير مما طلعت عليه الشمس وغربت " .^(٣)
وفي حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنه " خير من الدنيا وما فيها " .^(٤)

(١) الفردوس : هو البستان الذي فيه الكرم والأشجار . والجمع : فرديس ، ومنه جنة الفردوس .

التهاية في غريب الحديث : ٤٢٧/٣ .

(٢) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب درجات المجاهدين في سبيل الله : (٤) .

برقم : (٢٧٩٠) . ص : ٥٩٠ . و بلفظ مقارب في : كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب ﴿ وَكَانَ

عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [هود:٧] : (٢٢) . برقم : (٧٤٢٣) . ص : ١٥٥٨ .

وفي الحديث فضيلة ظاهرة ، وأجر عظيم للمجاهدين . والمراد بالأوسط في الحديث : الأعدل والأفضل .
والأخبار إنما تفجر من الفردوس وليس من العرش كما يوهم السياق ، لما ورد بيانه في رواية أخرى للحديث .

وانظر : فتح الباري : ٨٩/٦ - ٩٠ . عمدة القاري : ٨٩/١٤ - ٩١ .

(٣) صحيح البخاري : بلفظ مقارب في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب الغدوة والروحة في سبيل الله :

(٥) . برقم : (٢٧٩٣) . عن أبي هريرة رضي الله عنه . ص : ٥٩٠ .

صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله : (٣٠) . برقم :
(١٨٨٣) . ١٥٠٠/٣ .

(٤) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب الغدوة والروحة في سبيل الله : (٥) .

برقم : (٢٧٩٢) . عن أنس رضي الله عنه . ص : ٥٩٠ . ومع زيادة في أولها في كتاب الرقاق : (٥٥/٨١) . باب مثل

الدنيا في الآخرة : (٢) . برقم : (٦٤١٥) . عن سهل رضي الله عنه . ص : ١٣٦٧ . وبزيادة في باب صفة الجنة والنار :

(٥١) . برقم : (٦٥٦٨) . عن أنس رضي الله عنه — إلا أنه قال : " غدوة " — ص : ١٣٩٣ . و بلفظ مقارب في :

كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب الغدوة والروحة في سبيل الله : (٥) . برقم : (٢٧٩٤) . عن سهل بن

سعد رضي الله عنه . ص : ٥٩٠ . وفي باب الخور العين : (٦) . برقم : (٢٧٩٦) . عن أنس رضي الله عنه . ص : ٥٩٠ - ٥٩١ .

د- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل للنبي ﷺ : ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل ؟ قال : " لا تستطيعونه " . قال : فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك يقول : " لا تستطيعونه " . وقال في الثالثة : " مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى " .^(١)

ونحوه في كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب فضل رباط يوم في سبيل الله : (٧٢/٧٣) . برقم :

(٢٨٩٢) . عن سهل رضي الله عنه . ص : ٦٠٩-٦١٠ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله : (٣٠) . برقم :

(١٨٨٠) . عن أنس رضي الله عنه . و بلفظ مقارب عن سهل رضي الله عنه . برقم : (١٨٨١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه برقم :

(١٨٨٢) . (١٤٩٩/٣-١٥٠٠) .

الغدوة : بفتح الغين هي المرة الواحدة من الغدو ، وهي السير من أول النهار إلى انتصافه أو إلى الزوال . والروحة هي المرة الواحدة من الرواح ، وهي السير من الزوال إلى آخر النهار .

وقوله : " خير مما طلعت عليه الشمس وغربت " ، هو المراد بقوله : " خير من الدنيا وما فيها " .

فالمعنى : إن ثواب الغدوة أو الروحة في سبيل الله خير للمرء من الدنيا كلها لو جمعها بخذافيها ، وقيل : إن ثواب الواحدة منهما خير له من الثواب الذي يحصل لمن ملك الدنيا كلها فأنفقها في طاعة الله .

وانظر : المفهم : ٧٠٩-٧١٠ . شرح التتوي على مسلم : ٢٦/١٣-٢٧ . فتح الباري : ٩٠/٦-٩١ .

عمدة القاري : ٩٢-٩١/١٤ .

(١) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في

سبيل الله : (٢) . برقم : (٢٧٨٧) . ص : ٥٨٩ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى : (٢٩) . برقم :

(١٨٧٨) . (١٤٩٨/٣) .

قال التتوي (رحمه الله) :

" معنى القانت هنا : المطيع . وفي هذا الحديث عظيم فضل الجهاد ، لأن الصلاة والصيام والقيام بآيات الله أفضل الأعمال ، وقد جعل المجاهد مثل من لم يفتر عن ذلك في لحظة من اللحظات ، ومعلوم أن هذا لا يتأتى

لأحد ، ولهذا قال ﷺ : " لا تستطيعونه " . شرح التتوي : ٢٥/١٣ .

وقال أبو العباس القرطبي (رحمه الله) :

هـ - وفي بيان فضل الشهادة : عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرّات لما يرى من الكرامة " (١) .

و - وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " للشّهِيد عند الله ستّ خصال : يغفر له في أوّل دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفرع الأكبر ، ويحلّى حلّة الإيمان ، ويزوّج من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه " (٢) .

" ووجهه : أن كلّ ما يصدر من الجاهد في حالتي نومه ويقظته ، وسكونه وحركته هو عمل صالح يكتب له ثوابه دائماً ، بدوام أفعاله ، إذ لا يتأتّى لغيره فيه ، لأنّه على كلّ حال في جهاد " . المفهم : ٧٠٨/٣ . وانظر : فتح الباري : ٨٢/٦ . عمدة القاري : ٨٤/١٤ .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب تمّي الجاهد أن يرجع إلى الدنيا :

(٢١) . برقم : (٢٨١٧) . ص : ٥٩٥ . ونحوه في : باب الحور العين : (٦) . برقم : (٢٧٩٥) . ص : ٥٩٠ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب وبنيحوه في كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى : (٢٩) . برقم : (١٨٧٧) . ١٤٩٨/٣ .

ذكر الحافظ ابن حجر عن ابن بطّال أنّه قال : " هذا الحديث أحلّ ما جاء في فضل الشهادة ... وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد فلذلك عظم فيه الثواب " . فتح الباري : ١١٥/٦ . وانظر عمدة القاري : ١١٤/١٤ .

وقال النووي (رحمه الله) : " هذا من صرائح الأدلّة في عظيم فضل الشهادة " شرح النووي : ٢٤/١٣ .

(٢) سنن الترمذي: بلفظ مقارب في: كتاب فضائل الجهاد : (١٩) . باب في ثواب الشّهِيد : (٢٥) . برقم:

(١٦٦٣) . وقال : " هذا حديث حسن صحيح غريب " . وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٢٨٨ .

سنن ابن ماجه: بلفظه في : كتاب الجهاد : (٢٤) . باب فضل الشهادة في سبيل الله : (١٦) . برقم:

(٢٧٩٩) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٠٦ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ١٣١/٤ . ونحوه في: ٢٠٠/٤ . وانظر : أحكام الجنائز وبدعها . لمحمد ناصر

الدّين الألباني . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٣٨٨هـ — ١٩٦٩م : ص : ٣٥-٣٦ .

مشكاة المصابيح : ١١٢٧/٢ . برقم : (٣٨٣٤) .

والمؤمن إذا وقف على هذه الأدلة - وغيرها كثير - الدالة على ما في الجهاد من فضل وأجر استشعر عظم هذه الفريضة ، وسمو مكانتها ، وعلو منزلتها بين شعائر الإسلام فدفعه ذلك إلى القيام بها على أكمل الوجوه ، وأحسن السبل ، لا يهاب عراك الأبطال ، ولا نزال الشجعان ، ولا يخاف صليل السيوف ولا بريق الرماح ، لأن تذكر ما في تلك النصوص من فضل وثواب يقذف الطمأنينة في نفسه ، والثبات في قلبه ، والقوة في عزمه ، إن قتل نال أجر الشهداء، وإن نصر أب بالغنيمة وحسن الجزاء . فاستصحاب فضل الجهاد معين على ثبات القلوب فيه وجلد النفوس ، وقوة العزائم .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" ولأحمد والطبراني من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً (إنَّ للشَّهيد عند الله سبع خصال) .. إسناده حسن " . الفتح : ٩٣/٦ . ولم أقف عليه عند أحمد بلفظ " سبع خصال " . والذي عند الطبراني : " تسع خصال أو قال : عشر خصال " . عن المقدم بن معدي كرب رضي الله عنه . معجم الطبراني الكبير : ٢٦٦/٢٠ .

المبحث الثالث

إعداد القوة

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

فقد أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بإعداد العدة ، وأخذ الأهبة بكل ما يقدرون عليه من قوة عقلية وبدنية ، وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتال أعداء الله .

وقد بين النبي ﷺ المراد بالقوة في الآية كما روى ذلك عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي . ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ^(١) . وتخصيصه ﷺ للرمي من أنواع القوة دون غيره لا ينفي اعتبار غيره ، وإنما ذكر لبيان فضله ، وجلالة قدره في ذلك الوقت .

ولذا قال أبو العباس القرطبي (رحمه الله) في بيان الحديث :

" القوة : التقوي بما يحتاج إليه من الدروع ، والمجان ^(٢) والسيوف ، والرماح ، والرمي ، وسائر آلات الحرب . إلا إنه لما كان الرمي أنكاهاً في العدو ، وأنفعها

(١) صحيح مسلم : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الرمي والحث عليه : (٥٢) . برقم : (١٩١٧) . ١٥٢٢/٣ .

(٢) المَجان : بالفتح . جمع المَجَن وهو الترس لأنه يُواري حامله أي يستره ، والميم زائدة ، وأصله

من الجنة ، بالضم : وهي ما وارك من السلاح واستترت به منه . انظر : لسان العرب : ٩٤ / ١٣ . وانظر :

القاموس المحيط : ١٥٣٢ .

فسرّها ، وخصّصها بالذّكر ، وأكّدها ثلاثاً ، ولم يرد أنّها كلّ العدّة ، بل أنفعها". (١)

وبالتّالي يدخل في هذه القوّة كلّ أنواع الأسلحة والآلات الحربيّة ، من مدافع ، ورشاشات ، وقنابل ، وطائرات ، وصواريخ ، ودبابات ، وسفن حربيّة ، وغوّاصات ، وسيّارات ، وخنادق ، وغير ذلك .

كما يدخل في الإعدادات تعلّم الفنون والصناعات التي يصنع بها كلّ هذه الأشياء ، كما يدخل فيه تجنيد الجيوش وتنظيمها وتعبئتها ، وإحكام التدابير والحيل ، ووضع الخطط الحربيّة ، وحراسة الثّغور . (٢)

ومن ذلك أخذ الحذر ، ومعرفة خطط الأعداء ، وكشف قوّتهم ، وأسلحتهم وعددهم .

(١) المفهم : ٧٥٩/٣ .

(٢) وانظر : تفسير المراغي : ٢٤/١٠ - ٢٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٨٥ - ٢٨٦ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" والقوّة في كلّ ولاية بحسبها ، فالقوّة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب ، وإلى الخبرة بالحروب ، والمخادعة فيها ، فإنّ الحرب خدعة ، وإلى القدرة على أنواع القتال : من رمى وطعن وضرب ، وركوب ، وكرّ ، وفرّ ، ونحو ذلك كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ

الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ . مجموع الفتاوى : ٢٨/٢٥٣ .

وانظر في إعداد القوّة :

جامع البيان : ١٠/٢٩-٣٢ . أحكام القرآن لابن العربي : ٢/٨٦١-٨٦٤ . التفسير الكبير : ١٥/١٨٦-١٨٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٨/٣٥-٣٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٥٠٣ . فتح البيان : ٥/٢٠٣-٢٠١ . محاسن التّأويل : ٨/٣٠٢٤-٣٠٢٦ . وفيه تنبيه طيّب إلى ما وصل إليه المسلمون من ضعف وخور وعجز ، لأنّهم لم يسلكوا السّبل الموصلة إلى إعداد القوّة ، بينما أعداؤهم في قوّة ومنعة واستكبار وعلو بسبب ما يملكون من العدد والعتاد . تفسير المراغي : ١٠/٢٤-٢٦ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٨٥ - ٢٨٦ . في ظلال القرآن : ٣/١٥٣٨ ، ١٥٤٣ . وانظر : شرح التّووي على مسلم : ١٣/٦٤ . فقه السّنة : ٣/٣٥-٣٦ .

الجهاد في الإسلام : ص ٧٨-٧٩ .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا
ثَبَاتٍ أَوْ أَنفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] .

يقول ابن كثير (رحمه الله) :

" يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم ، وهذا يستلزم التأهب لهم
بإعداد الأسلحة والعدد ، وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله . (ثبات) أي جماعة بعد
جماعة ، وفرقة بعد فرقة ، وسريّة بعد سريّة " (١) .

وكلّ هذا من أجل إرهاب أعداء الله ، وتخويفهم ، ونكاية بهم حتّى ينكفّ
شرّهم ، بل ويدخلوا في دين الإسلام فيتحقّق أمر الله في الأرض .
وهذه القوّة من الأسباب التي أمر الشّارع باتّخاذها لأنّها تقضي إلى مسيّباتها ،
ولا يجوز الاتّكال عليها وحدها ، بل هنالك قوّة أعظم منها وهي القوّة المعنويّة التي
ينبغي على المؤمن اصطحابها في جهاده في كلّ أحيانه ، وهي التّوكّل على الله
والالتّجاء إليه .

وهذه إن تخلّفت فلا مناص من الفشل ، وأمّا الأولى فقد تتخلّف لبعض الأسباب ،
ويأتي النصر كما حدث في بدر . (٢)

ولذا أوجب الله على المؤمنين جميعاً أن يتوكّلوا عليه ويلجؤوا إليه ولو أعدّوا
من القوّة الماديّة ما أعدّوا ، فقال في سياق غزوة أحد (٣) :

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٧٩٤/١ .

(٢) يأتي الحديث عن غزوة بدر .

(٣) غزوة أحد : هي معركة دارت بين النبي ﷺ وأصحابه وبين قريش في شوال من العام الثالث الهجري .

وقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [١٧٣-١٧٥] . (١)

وَفَضَّلَ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

والمقصود هنا أن إعداد القوة سبب وعامل مهم ، يقذف الطمأنينة في نفوس المجاهدين ، فتقوى عزائمهم ، وتثبت قلوبهم ، فيصبرون حينئذ على مجالدة الأعداء ، ومقارعة الألداء .

وذلك بعد أن رجعت قريش من غزوة بدر تجرّ أذيال الخيبة والهزيمة بدأت تعدّ العدة لمعركة فاصلة بينها وبين المسلمين ، فجمعت أحابيشها ، ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل قحاة ، فبلغ تعداد جيشها ثلاثة آلاف مدرّع ، ثم سارت تجاه المدينة النبوية .

وخرج النبي ﷺ في ألف من أصحابه ، فرجع المنافقون بثلاث الجيش . ثم التقى الجيشان في سهل بالقرب من جبل أحد حيث دارت المعركة . وقد اختار النبي ﷺ خمسين من الرماة ليحموا ظهر الجيش فجعلهم على جبل الرماة . وكان التصرف في بادئ الأمر للمسلمين ، ثم تخلّى الرماة عن أماكنهم فانقلب الحال ، وانكشف المسلمون وأصاب منهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص واستشهاد . فقتل منهم سبعون رجلاً .

وانظر : سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي . لمحمد بن إسحاق بن يسار . تحقيق : محمد حميد الله . طبعة معهد الدراسات والبحاث للتعريب : ٣/٣٠١-٣١٥ . السيرة النبوية لابن هشام : ٣/٤٤-١٢٤ . الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام . لعبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي . تحقيق : مجدي منصور الشنوري . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤١٨هـ — ١٩٩٧م : ٣/٢٤٠-٢٨٩ . زاد المعاد : ٣/١٩٢-٢١١ . السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون . لعلي بن برهان الدين الخلي . طبعة دار المعرفة . بيروت . ١٤٠٠هـ : ٢/٤٨٧-٥٥٠ .

(١) وسوف يأتي مزيد بيان لهذا .

يقول السّعدى (رحمه الله) :

" وإنّما الأسباب وتوفّر ما فيها طمأنينة للقلوب ، وثبات كلّ على الخير " (١).

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١١٤ .

المبحث الرابع

ذكر الله تعالى *

الذِّكْرُ وَ الذِّكْرَى وَ الذِّكْرَةُ فِي اللِّغَةِ: الْحِفْظُ لِلشَّيْءِ وَهُوَ ضِدُّ النِّسْيَانِ . وَيُطْلَقُ
أَيْضاً عَلَى الشَّيْءِ يَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ . كَمَا يُطْلَقُ عَلَى الصِّبَتِ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ
وَعَلَى الشَّرَفِ ، وَالْكِتَابِ الَّذِي فِيهِ تَفْصِيلُ الدِّينِ وَوَضْعُ الْمِلَالِ ، وَكُلُّ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ
الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ذِكْرٌ . وَالصَّلَاةُ وَالِدَّعَاءُ وَالتَّائِبُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَالتَّسْبِيحُ وَالشُّكْرُ
وَالطَّاعَةُ.(١)

وفي الاصطلاح : التَّخَلُّصُ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالنِّسْيَانِ .(٢)

وفي الشَّرْعِ : يُرَادُ بِهِ تَمْجِيدُ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقْدِيسُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَتَهْلِيلُهُ وَالتَّائِبُ عَلَيْهِ بِجَمِيعِ
مَحَامِدِهِ .(٣)

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" والمراد بالذكر هنا الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها والإكثار منها
مثل الباقيات الصالحات ، وهي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله
أكبر ، وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسيلة(٤) والاستغفار ونحو ذلك ، والدعاء

* الذكر عامل من عوامل الثبات العامة ، ولكن أثرت الحديث عنه هنا لأن الله نصر عليه في القرآن مقروناً بالجهاد .

(١) وانظر : مختار الصحاح : ص : ٢٢٢-٢٢٣ . لسان العرب : ٣٠٨/٤-٣١٠ .

(٢) مدارج السالكين : ٤٣٤/٢ .

قال الرَّاغِب (رحمه الله) : " الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بما يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة
وهو كالخفظ . إلا أن الخفظ يقال اعتباراً بإحرازه ، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشيء
القلب أو القول . ولذلك قيل : الذكر ذكران : ذكر بالقلب وذكر باللسان . وكل واحد منهما ضربان : ذكر
عن نسيان ، وذكر لاعتن نسيان بل عن إدانة الخفظ " . المفردات : ص : ١٧٩ .

(٣) النهاية في غريب الحديث : ١٦٣/٢ .

(٤) الحوقلة : لفظة من لا حول ولا قوة إلا بالله . والبسملة من بسم الله ، والحسيلة من حسبي الله . وانظر : لسان

العرب : ٦٧/١٠ .

بخيري الدنيا والآخرة . ويطلق ذكر الله أيضاً ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه كتلاوة القرآن ، وقراءة الحديث ومدارسة العلم ، والتفكير بالصلاة . ثم الذكر يقع تارة باللسان ويؤجر عليه الناطق ولا يشترط استحضاره لمعناه ، ولكن يشترط أن لا يقصد به غير معناه ، وإن انضاف إلى النطق بالذكر بالقلب فهو أكمل . فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالاً ، فإن وقع ذلك في عمل صالح مهما فرض من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالاً ، فإن صحح التوجه ، وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال " (١).

فالذكر إذا أطلق يدخل فيه الصلاة ، وتلاوة القرآن وتعلّمه وتعليمه ، والعلم النافع ، كما يدخل فيه التسبيح والتكبير والتلهيل (٢).

وقال ابن القيم (رحمه الله) :

" وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان ، بل الذكر القلبي واللساني ، وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته ، وذكر أمره ونهيه ، وذكره بكلامه ، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به ، وبصفات كماله ونعوت جلاله ، والثناء عليه بأنواع المدح ، وذلك لا يتم إلا بتوحيده . فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه " (٣).

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان ، وكان من الأذكار النبوية ، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده (٤) .

(١) فتح الباري : ٢٠٩/١١ . طبعة دار المعرفة .

(٢) انظر : جامع العلوم والحكم : ص : ٤٥٠ .

(٣) الفوائد : ص : ١٢٨ . وقارن بما ذكره الحافظ ابن حجر أعلاه .

(٤) المرجع السابق : ص : ١٩٢ . وانظر : تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٧٦ .

وهو في القرآن على عشرة أوجه :

الأول : الأمر به مطلقاً ومقيداً .

الثاني : النهي عن ضده من الغفلة والنسيان .

الثالث : تعليق الفلاح باستدامته وكثرته .

الرابع : التثاء على أهله ، والإخبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة .

الخامس : الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره .

السادس : أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له .

السابع : الإخبار أنه أكبر من كل شيء .

الثامن : أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها .

التاسع : الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته ، وأنهم أولو الألباب دون غيرهم .

العاشر : أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها ، فمتى عدته كانت كالجسد بلا روح ^(١) . وذلك لعظيم منزلته ، وعلو شأنه ، ورفعة مكانه ، وجلالة قدره ، وسمو شرفه .

قال ابن القيم (رحمه الله) تحت عنوان : منزلة الذكر :

" وهي منزلة القوم الكبرى التي منها يتزودون ، وفيها يتجرون ، وإليها دائماً يترددون .

والذكر منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل ومن منعه عزل ، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقتها صارت الأجساد لها قبوراً ، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً ، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق ، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق ^(٢) ، ودواء أسقامهم الذي متى فارقه انتكست منهم القلوب ، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب .

وفي الوابل الصيب تفصيل قيم لأنواع الذكر . يطول ذكرها هنا . ص : ١١٨-١٢٠ .

(١) مدارج السالكين : ٤٢٤/٢-٤٢٥ . و انظر : تفاصيل ذلك في نفس المرجع : ٤٢٧-٤٢٥/٢ .

(٢) التهاب الطريق : هكذا في المرجع . ولعله التهاب الحريق ، فهو أنسب .

إذا مرضنا تدأونا بذكركم فنترك الذكر أحياناً فننتكس

به يستدفعون الآفات ، ويستكشفون الكربات ، وتهون عليهم به المصيبات ، إذا
أظلم البلاء فالإيه ملجؤهم ، وإذا نزلت بهم النوازل فالإيه مفزعهم ، فهو رياض
جنتهم التي فيها يتقلبون ، ورعوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون ، يدع القلب
الحزين ضاحكاً مسروراً ، ويوصل الذّاكر إلى المذكور بل يدع الذّاكر مذكوراً .
وفي كلّ جارحة من الجوارح عبوديّة مؤقتة ، و الذّاكر عبوديّة القلب واللسان
وهي غير مؤقتة ، بل هم يأمرّون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كلّ حال : قياماً
وقعوداً وعلى جنوبهم ، فكما أنّ الجنّة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بور خراب
وهو عمارتها وأساسها .

وهو جلاء القلوب وصقالها ^(١) ودأؤها إذا غشيها اعتلالها ، وكلّما ازداد
الذّاكر في ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً ، وإذا واطأ في
ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كلّ شيء ، وحفظ الله عليه كلّ شيء ، وكان
له عوضاً من كلّ شيء .

به يزول الوقر ^(٢) عن الأسماع ، والبكم عن الألسن ، وتنقشع الظلمة عن
الأبصار ، زين الله به ألسنة الذّاكرين كما زين بالنور أبصار النّاظرين ، فاللسان
الغافل كالعين العمياء والأذن الصّماء واليد الشّلاء ، وهو باب الله الأعظم المفتوح
بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.

(١) الصّقْل: الجلاء . صَقَلَ الشَّيْءَ يَصْقُلُهُ صَقْلًا وَصَقْلًا، فهو مَصْقُولٌ وَصَقِيلٌ: جَلَاءُ، والاسم الصَّقَالُ ،

وهو صاقِلٌ والجمع صَقَلَةٌ . لسان العرب : ٣٨٠/١١ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ١٣٢١ .

(٢) الوقْرُ : بالفتح الثقل في الأذن ، وبالكسر الحمل . وقد أَوْقَرَ بعيره ، وأكثر ما يُستعمل الوقْرُ في حمل البغل

والحمار ، والوسق : في حمل البعير . وأَوْقَرَتِ التّخلة : كثر حملها . مختار الصحاح : ص : ٧٣٢ . وانظر :

لسان العرب : ٢٨٩/٥ . القاموس المحيط : ص : ٦٣٥ .

قال الحسن البصري (رحمه الله) :

" تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : في الصلّاة ، وفي الذكر ، وقراءة القرآن ، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق " .
وبالذكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان .

قال بعض السلف :

" إذا تمكّن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان ، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون : ما لهذا فيقال : قد مسّه الإنسي " .

وهو روح الأعمال الصالحة ، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه والله أعلم " (١) .

بل هو أفضل الطاعات ، وأعظم القربات . كما جاء في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : " ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليكم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم " ؟ قالوا : بلى . قال " ذكر الله تعالى " (٢) .

(١) مدارج السالكين : ٢ / ٤٢٣-٤٢٤ .

(٢) سنن الترمذي : بلفظه في : كتاب الدعوات : (٤٤) . باب : (٦) . برقم : (٣٣٧٧) . قال الألباني

(رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٥٣٤-٥٣٥ .

سنن ابن ماجه : بلفظ مقارب في : كتاب الأدب : (٣٣) . باب فضل الذكر : (٥٣) . برقم : (٣٧٩٠) .

قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤٠٥ .

موطأ مالك : كتاب القرآن : (١٥) . باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى : (٧) . برقم : (٢٤) . موقفاً

على أبي الدرداء رضي الله عنه . ٢١١/١ .

مسند أحمد : بلفظ مقارب في : ١٩٥/٥ ، ٤٤٧/٦ . عن أبي الدرداء رضي الله عنه . وعن معاذ رضي الله عنه في : ٢٣٩/٥ .

مسندك الحاكم : بلفظ مقارب في : ٦٧٣/١ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .

وقد استشكل الحافظ ابن حجر (رحمه الله) هذا الحديث مع ما ورد في فضل الجهاد ، وأن الجهاد كالصائم الذي لا يفطر ، وكالقائم الذي لا يفتر ، وغير ذلك مما يدل على أفضليته على غيره من الأعمال الصالحة .

قال المناوي (رحمه الله) :

"والذكر هو المقصود الأسنى ، ورأس الذكر قول لا إله إلا الله ، وهي الكلمة العليا، وهي القطب الذي يدور عليه رحى الإسلام ، والقاعدة التي بني عليها أركان الدين ، والشعبة التي هي أعلى شعب الإيمان ، بل هي الكل وليس غيره ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨] . أي الوحي مقصور على استئثار الله بالوحدانية ، لأنّ القصد الأعظم من الوحي التوحيد ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [البينة: ٥] " (١) .

وذلك لما فيه من كثير الأجر ، وبالغ الجزاء ، وجزيل الثواب ، وعظيم الفضل . ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ : " من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، و لم يأت أحد بأفضل مما جاء إلا رجل عمل أكثر منه " (٢) .

فقال : "وطريق الجمع والله أعلم : إنّ المراد بذكر الله في حديث أبي الدرداء الذكر الكامل ، وهو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب بالتفكير في المعنى واستحضار عظمة الله تعالى ، وأنّ الذي يحصل له ذلك يكون أفضل ممن يقاتل الكفار مثلاً من غير استحضار لذلك ، وأنّ أفضلية الجهاد إنما هي بالنسبة إلى ذكر اللسان المجرد . فمن اتفق له أنّه جمع ذلك ، كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره كلّ ذلك حال صلاته ، أو في صيامه ، أو تصدّقه ، أو قتاله الكفار مثلاً فهو الذي بلغ الغاية القصوى . والعلم عند الله تعالى " . فتح الباري : ٢١٠/١١ . طبعة دار المعرفة . وانظر : شرح الحديث في : فيض القدير : ١١٥/٣ .

(١) المرجع السابق : ١١٦/٣ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه — إلا أنّه قال : " إلا أحد عمل أكثر من ذلك " — في كتاب بدء الخلق : (٣٥/٥٩) . باب صفة إبليس وجنوده : (١١) . برقم : (٣٢٩٣) . ص : ٦٩٣ . و بلفظه في : كتاب الدعوات : (٥٤/٨٠) . باب فضل التهليل : (٦٤) . برقم : (٦٤٠٣) . ص : ١٣٦٤ .

وفي روايته الأخرى قال ﷺ : " من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطّت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر " (١).

وفي حديث له آخر ﷺ قال رسول الله ﷺ : " لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس " (٢).

بل يكفيه شرفاً وفضلاً أن رسول الله ﷺ مثلّ الذّاكر لله بالحي ، والذي لا يذكره بالميت . فقال في حديث أبي موسى ﷺ : " مثل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكر مثل الحي والميت " (٣).

قال أبو بكر ﷺ :

" ذهب الذّاكرون الله بكل خير " (٤).

صحيح مسلم : بلفظ رواية البخاري الأولى — إلاّ أنّه قال : " أفضل " — مع زيادة فيه . في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب فضل التّهلّيل والتّسبيح والدّعاء : (١٠) . برقم : (٢٦٩١) . ٢٠٧١/٤ .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب فضل التّسبيح : (٦٥) . برقم : (٦٤٠٥) . ص : ١٣٦٥ .

صحيح مسلم : جزء من حديث . بلفظه — إلاّ أنّه قال : " ولو كانت " — في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب فضل التّهلّيل والتّسبيح والدّعاء : (١٠) . برقم : (٢٦٩١) . ٢٠٧١/٤ .

(٢) المرجع السّابق : بلفظه في : كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب فضل التّهلّيل والتّسبيح والدّعاء : (١٠) . برقم : (٢٦٩٥) . ٢٠٧٢/٤ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب فضل ذكر الله عزّ وجلّ : (٦٦) . برقم : (٦٤٠٧) . ص : ١٣٦٥ .

صحيح مسلم : نحوه في: كتاب صلاة المسافرين وقصرها : (٦) . باب استحباب صلاة النّافلة في بيته وجوازها في المسجد : (٢٩) . برقم : (٧٧٩) . ٥٣٩/١ .

(٤) مسند أحمد: بلفظه دون ذكر اسم الجلالة . وهو جزء من أثر . في : ٤٣٨/٣ .

معجم الطّبراني الكبير: بلفظه في : ١٨٦/٢٠ .

شعب الإيمان نحوه في : ٤٠٨/١ .

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه :

" ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله " (١).

والآيات في فضله متكاثرة ، والأحاديث متوافرة ، والآثار متعاضدة متآزرة ، وكلّ منها يفوق حدّ الحصر ، ويعجز من أراد استيفاءها في هذا المقام عن الذكر ، وهي مشتملة على فوائد الذكر ومنافعه ، وفضائله ومآثره (٢).

ولمّا كان الذكر يتبوأ مصدر الصّدارة بين الطّاعات ، ويحتل منزلة الرّئاسة بين القربات أمر الله أهل الإيمان بالإكثار منه . فقال ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].
وقال : ﴿ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [الأنفال: ٤٥] .
وقال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۖ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ووصف المؤمنين الصادقين بذلك فقال : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]

(١) سنن الترمذي: نحوه في: كتاب الدّعاوات : (٤٤) . باب (٦) . برقم : (٣٣٧٧) . ص : ٥٣٥ . عقب

حديث أبي الدرداء الذي سبق ذكره ص : ٧١٦ .

موطأ مالك : بلفظه — معلقاً — في : كتاب القرآن : (١٥) . باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى : (٧) .

برقم : (٢٤) . ٢١١/١ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب . مرفوع إلى النبي ﷺ . في : ٢٣٩/٥ .

مستدرک الحاكم: بلفظه — إلاّ أنّه قال : " آدمي " — في : ٦٧٣/١ .

شعب الإيمان بلفظ مقارب في : ٣٩٤/٣ .

(٢) ذكر ابن القيم (رحمه الله) أنّ فوائد الذكر تبلغ مائة فائدة . ثمّ أفاض بقلم سيّال ، وعقل مدرك ، وفهم موعب في

تعدادها ، وحشد الأدلّة لإيضاحها ، فأورد منها ما يربو على السبعين فائدة . وذلك في كتابه الوابل الصيّب .

قال القرطبي (رحمه الله) في بيان معنى الآية الأولى :
" أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه، ويكثرُوا من ذلك على ما أنعم به عليهم. وجعل تعالى ذلك دون حدٍّ لسهولته على العبد. ولعظم الأجر فيه " (١).

وقال ابن كثير (رحمه الله) :
" يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكركم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن ، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب " (٢) .

وقال ابن القيم (رحمه الله) :
" ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، فأَيَّ لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عزَّ وجلَّ كانت عليه لاله ، وكان خسارانه فيها أعظم ممَّا ربح في غفلته عن الله " (٣).

ويؤيد ذلك حديث أبي هريرة ؓ قال : كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمرَّ على جبل يقال له جُمْدَانُ فقال : " سيروا هذا جمدان ، سبق المُفَرِّدُونَ " قالوا وما المفردون يا رسول الله؟ قال : " الذَّاكِرُونَ الله كثيراً والذَّاكِرَات " (٤) .

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٩٧/١٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٧٨٧/٣ .

(٣) الوابل الصَّيْب : ص : ٥٩ . وانظر : جامع البيان : ٩/٢٢ . طبعة دار الفكر . فتح القدير : ٢٨٢/٤ .

تيسير الكريم الرَّحْمَن : ص : ٦١٤ .

(٤) صحيح مسلم : كتاب الذِّكْر والدَّعَاء والتَّوْبَة والاستغفار : (٤٨) . باب الحثَّ على ذكر الله تعالى : (١) .

برقم : (٢٦٧٦) . ٢٠٦٢/٤ .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى :

" ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال : " أن يطاع فلا يعصى ،

ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر " (١) .

كما حثهم سبحانه على المداومة عليه وعدم التفريط فيه ، أو الغفلة عنه .
فقال لرسوله ﷺ ، والأمة تبع له : ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ
الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [٢٥] إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿ ٢٦ ﴾ ﴿
[الأعراف: ٢٠٥-٢٠٦] .

أي داوم على الذكر ولا تتشغل عنه آناء الليل وأطراف النهار لما في تلك
الأوقات من ميزة وفضل ، وأن يكون ذلك بتضرع وخشية وتذلل ، وبأدب ووقار
ورغبة ورهبة ، لا جهره وصياحاً ، بل في خفض وسكون (٢) ، وحضور قلب وعدم

(١) مصنف بن أبي شيبة : ١٠٦/٧ . تفسير القرآن العظيم : ٥٧٩/١ وقال عن إسناده : " وهذا إسناد

صحيح موقوف "

(٢) قال القرطبي (رحمه الله) :

" فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام — أي
أرذال الناس وأوغادهم — من الزعيق والزئير ، ومن التهاق الذي يشبه نفاق الحمير . فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم
أن ذلك وجد وخشوع : لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله ، والخوف منه ،
والتعظيم لجلاله ، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله ، والبكاء خوفاً من الله . ولذلك وصف
الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره ، وتلاوة كتابه فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ
تَرَوُا عُيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا
مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣] . فهذا وصف حالهم ، وحكاية مقامهم . ومن لم يكن كذلك فليس على
هديهم ولا على طريقتهم ، فمن كان مستنفاً فليستن ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أحسنهم حالاً ،
والجنون فنون . الجامع لأحكام القرآن ٣٦٦/٧ .

غفلة ، وأتسى بحال الملائكة المستديمين على الذكر ، الملازمين له ، المسبّحين بالليل والنهار ، وهم لا يفترون ولا يغفلون ^(١).

وأنتى عزّ وجلّ على أولي الألباب ، أصحاب العقول النيرة ، والأفهام الناقبة لمداومتهم على ذكره في كلّ أحوالهم . فقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهذه هيئات وأحوال لا يخلو ابن آدم في غالب أمره عنها . فهم مداومون على الذكر في جميع أحوالهم ، لا ينفكون منه ، ولا يغيبون عنه ^(٢).

(١) و انظر : معنى الآيتين في : جامع البيان : ١٦٦/٩ - ١٦٨ . طبعة دار الفكر . معالم التّبريل : ٢٢٦/٢ - ٢٢٧ .
الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٥/٧ - ٣٥٧ . تفسير القرآن العظيم : ٤٤٥/٢ - ٤٤٦ . فتح القدير : ٢٨٠/٢ .
تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) ذهب بعض أهل العلم بأن المراد بالذكر في الآية الصّلاة خاصّة . وذلك بأن يصلي الإنسان قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنب . وذلك لما ورد في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال : كانت بي بواسير ، فسألت النبي ﷺ فقال : " صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب " .
صحيح البخاري : كتاب تقصير الصّلاة (الصّلاة) : (٥/١٨) . باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب :
(٤٧٦/١٩) . برقم : (١١١٧) . ص : ٢٣٧ .

وسائر المفسّرين على أن المراد بذلك المداومة على الذكر في كلّ الأحوال . لأنّ الإنسان قلّ ما يخلو من إحدى هذه الحالات الثلاث المذكورة في الآية . و انظر : معالم التّبريل : ٣٨٥/١ .

فالأولى حمل الآية على العموم . ولذا قال ابن جريج (رحمه الله) : " قوله : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا ﴾ الآية ، قال : هو ذكر الله في الصّلاة وفي غير الصّلاة ، وقراءة القرآن " .

وقال قتادة (رحمه الله) : قوله : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ . وهذه حالاتك كلّها يا ابن آدم ، فاذكره وأنت على جنبك ، يسراً من الله وتخفيفاً " . جامع البيان : ٢١٠/٤ . طبعة دار الفكر .

وقال ابن القيم (رحمه الله) : " فعمّ بذكره أحوال العباد كلّها لأنّ العبد إمّا أن يكون قائماً ، أو قاعداً ، أو مضطجعاً ، فأراد منه ذكره في هذه الأحوال كلّها " . الصّواعق المرسلّة : ١٤٨٠/٤ .

ولذا كان ﷺ يذكر الله على كل أحيانه كما ذكرت ذلك عائشة (رضي الله عنها) عنه (١) .

ولما طلب منه الصحابي أن يرشده إلى أمر يتشبه به أرشده إلى ذكر الله .
فعن عبد الله بن بسر ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبّث به . قال : " لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله " (٢) .

وهذا دليل على المداومة والاستمرار عليه من غير كلل ولا ملل .

وقال السعدي (رحمه الله) : ﴿ قِيلِمَا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِم ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب ، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنب " . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٢٨ . وهو قول حسن جامع . و انظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٥٧/١ . فتح القدير : ٤١٢/١ .

(١) عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : " كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه " . صحيح مسلم : كتاب

الحيض : (٣) . باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها : (٣٠) . برقم : (٣٧٣) . ٢٨٢/١ .
قال المناوي (رحمه الله) : " كان المصطفى ﷺ أكمل الناس ذكراً ، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاها ، أمره ونهيّه وتشريعهُ وإخبارهُ عن أسماء الرب وصفاته ، وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيدهِ وتحميده وتسميحه وتحميده ورغبته ورهبته ذكراً منه بلسانه ، وصمته ذكر منه بقلبه في كل أحيانه " . فيض القدير : ٥٦٤/٣ .

(٢) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب الدعوات : (٤٤) . باب ما جاء في فضل الذكر : (٤) . برقم : (٣٣٧٥) .

وقال : " هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه " . وقال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٥٣٤ .

سنن ابن ماجه : بلفظ مقارب في : كتاب الأدب : (٣٣) . باب فضل الذكر : (٥٣) . برقم : (٣٧٩٣) .
قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤٠٥ .

سنن البيهقي : بلفظ مقارب في : باب طوبى لمن طال عمره وحسن عمله . ٣٧١/٣ . وقال عن الصحابي : عبد الله بن بشر .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب في : باب ذكر الاستحباب للمرء دوام ذكر الله جلّ وعلا في الأوقات والأسباب . قال شعيب الأرنؤوط : " إسناده قوي " . برقم : (٨١٤) . ٩٦/٣ .

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في : ٦٧٢/١ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا

كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] :

"إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر ، فإن الله تعالى لم يجعل له حداً ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على تركه ، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] بالليل والنهار في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال " (١) .

ولما أمرهم سبحانه بالإكثار منه والمداومة عليه ورغبتهم بالأجر والثواب على ذلك حذرهم في مقابله عن الانتهاء والتشاغل عنه ، والانصراف عن ملازمته ، والبعد عن ممارسته ، والغفلة عن مداومته ، إذ في الانشغال عنه ، والالتفاء بغيره مجلبة للخسران العظيم ، ومضيعة للثواب الجسيم ، ومفارقة للخير الجزيل ، والأجر الوفير . وفي ذلك يقول تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

"يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره ، ونهاياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ، ومخبراً لهم بأنه من التهي بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره ، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهلهم يوم القيامة " (٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٧٨٨/٣ . وأورده ابن جرير (رحمه الله) في جامع البيان . فساقه بسنده إلى ابن عباس

(رضي الله عنهما) : ١٧/٢٢ . طبعة دار الفكر .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٥٨٢/٤ .

وقال السَّعْدِي (رحمه الله) :

" يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره ، فإنَّ في ذلك الرِّبْح والفلاح ، والخيرات الكثيرة ، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره ، فإنَّ محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس ، فتقدِّمها على محبة الله ، وفي ذلك الخسارة العظيمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ أي يلهه ماله وولده عن ذكر الله ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ للسَّعادة الأبدية ، والنَّعيم المقيم ، لأنَّهم أثروا ما يفنى على ما يبقى " (١).

ووصف سبحانه فئة من عباده سمت همهم ، وصدقت نيَّاتهم ، وعلت عزائمهم فعمروا بيوت الله في أرضه ، ومواطن عبادته بذكره سبحانه ، في أشرف الأوقات ، وأفضل الأزمنة . لم تشغلهم عن ذلك دنيا مؤثرة ، ولا حياة فانية ، ولا مكاسب رخيصة ، ولا عرض زائل . بل أثروا الباقية على الفانية ، والدائمة على الدَّاهية . غايتهم طاعة الله ، ومرادهم عبادته ، ومقصدهم رضاه ، فما حال بينهم وبينه رفضوه وتركوه . راغبين إلى الله فيما عنده ، راهبين من عقابه ، خائفين من يوم شديد هوله ، عظيم وقعه ، تنزعج له القلوب ، وترتجف له الأبدان ، وتضطرب فيه الأبصار . فركبوا سفينة الذكر لترسو بهم في بر الأمان كي ينالوا عظيم الأجر . وفي ذلك يقول المولى سبحانه : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ

(١) تيسير الكريم الرَّحْمَن : ص : ٨٠١ . وانظر : جامع البيان : ١١٧/٢٨ - ١١٨ . طبعة دار الفكر .

أنوار التَّزْوِيل : ٣٤٣/٥ .

وقد ذكر بعض أهل العلم أنَّ المراد بالذكر هنا : الصَّلوات الخمس . وقيل : الحجَّ والزَّكاة . وقيل قراءة القرآن . وقيل : جميع الفرائض . وقيل : استدامة الذكر . انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٢٩/١٨ . فتح القدير : ٢٣٣/٥ . والأولى حمل الذكر على عمومه فيدخل فيه كلُّ ما ذكر .

وَالْأَبْصَرُ ﴿٣٨﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ [التور: ٣٦-٣٨] (١) .

وفي مقابل هؤلاء وصف سبحانه فئة أخرى نسيت ذكره ، وأعرضت عنه ،
فلم يشتغلوا به ، ولم يلزموه ، بل أقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها وملأوها
فانشغلوا بها . فأنساهم الله مصالح أنفسهم ، وأغفلهم عن منافعها ، وعظيم فوائدها ،
فخسرت تجارتهم ، وكسدت بضاعتهم ، وغبنت نفوسهم ، وضاعت حظوظهم ،
ولازمهم الفسوق . فصاروا خارجين عن طاعة الله ، هالكين مبعدين ، فشقوا في
الدنيا ، ونكّل بهم في الآخرة . وفي ذلك تحذير لأهل الإيمان من نسيان الله تعالى ،
والإعراض عن ذكره .

قال عز وجل : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ
هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩] (٢) .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" إن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب
شقاء العبد في معاشه ومعاده ، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه
ومصالحها . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩] وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن
مصالحها ونسيها ، واشتغل عنها فهلكت وفسدت ولا بد ، كمن له زرع أو بستان أو

(١) وانظر : في معنى الآيات : جامع البيان : ١٤٣-١٤٧ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن :
٢٨١-٢٦٥/١٢ . تفسير القرآن العظيم : ٤٦٧/٣-٤٧٣ . فتح القدير : ٣٥٤-٣٥٠ . تيسير الكريم الرحمن :
ص : ٥١٨ .

(٢) وانظر : معنى الآية في : جامع البيان : ٥٢/٢٨-٥٣ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٤٣/١٨ .
أنوار التنزيل : ٣٢٣/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٥٣٣/٤ . فتح القدير : ٢٠٦/٥ . تيسير الكريم الرحمن :
ص : ٧٩١-٧٩٢ .

ماشية أو غير ذلك ، ومما صلاحه وفلاحه بتعاوده والقيام عليه ، فأهمله ونسيه واشتغل عنه بغيره ، وضيع مصالحه فإنه يفسد ولا بد ، هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه ، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها ، واشتغل عن مصالحها ، وعطل مراعاتها ، وترك القيام عليها بما يصلحها ، فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان ، وهذا هو الذي صار أمره كله فرطاً ، فانفرط عليه أمره ، وضاعت مصالحه ، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك .

ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى ، واللّهج به ، وأن لا يزال اللسان رطباً به ، وأن يتولّى منزلة حياته التي لا غنى له عنها ، ومنزلة غذائه الذي إذا فقد فسد جسمه وهلك ، ومنزلة الماء عند شدة العطش ، ومنزلة اللباس في الحرّ والبرد ، ومنزلة الكين^(١) في شدة الشتاء والسموم . فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم " (٢) .

وترك الذكر والإعراض عنه ونسيان الله صفة ذميمة عرف بها أهل النفاق ، وسجلها الله عليهم في قرآنه ذاماً لهم بها ، وعائناً عليهم اتسامهم بها ، لما حلّ في قلوبهم من نفاق ، وساد أعمالهم من رياء ، وفارقها الإخلاص ، فتباطؤوا عن أشوف الأعمال وأكبر الطاعات ، فلا يؤدونها إلا وهم كسالى ، إذ لا نية صحيحة لهم فيها ، ولا خشية عندهم تدفعهم إلى أدائها ، ولا يعقلونها ولا يرجون ثوابها . أحجمت ألسنتهم عن ذكر الله إلا ما قلّ وندر . وما قلّ وندر رياء لا إخلاص فيه ، وشك لا

(١) الكين والكينة والكينان: وفاء كل شيء وسيّره . والكين: البيت أيضاً ، والجمع أكنان وأكنة . وفي التتيريل

العزير: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ [التحل: ٨١] والكين: ما يؤد الحرّ والبرد من الإنسية

والمساكن ، وقد كنته أكنه كناً . والفعل من ذلك: كنت الشيء: أي جعلته في كين . وكن الشيء يكنه

كنّاً وكنوناً وأكنه وكنته: ستره . انظر: لسان العرب : ٣٦٠/١٣ . و انظر: مختار الصحاح : ص :

٥٨٠ . القاموس المحيط : ص : ١٥٨٤ .

(٢) الوابل الصيب : ص : ٦٧ . و انظر : الصّواعق المرسلة : ١٤٨١ / ٤ .

يقين معه . وذلك أمر يترفع عنه أهل الإيمان المخلصون الذين امتلأت قلوبهم بتعظيم الله ومحبة ذكره ، وامتنال أمره .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧] .

قال ابن جرير (رحمه الله) في بيان قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ :

" فلعل قائلًا أن يقول : وهل من ذكر الله شيء قليل ؟ قيل له : إن معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهب : إنما معناه ولا يذكر الله إلا ذكراً رياءً ، ليدفعوا به عن أنفسهم القتل والسبأ ^(١) وسلب الأموال ، لا ذكر موقن مصدق بتوحيد الله ، مخلص له الربوبية . فلذلك سماه الله ﴿ قَلِيلًا ﴾ ، لأنه غير مقصود به الله ، ولا مبتغى به التقرب إلى الله ، ولا مراد به ثواب الله وما عنده . فهو وإن كثر من وجه نصب عامله وذاكره ، في معنى السراب الذي له ظاهر بغير حقيقة ماء " ^(٢) .

(١) السبأ والسبأ : الأسر ، وقد سببت العدو : أسرته . وبابه رمى . مختار الصحاح : ص : ٢٨٥ . وانظر :

لسان العرب : ٣٦٧/١٤ . القاموس المحيط : ص : ١٦٦٨ .

(٢) جامع البيان : ٣٣٥/٥ . طبعة دار الفكر . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٤٢٢/٥ . تفسير القرآن العظيم :

١/٨٦٤ ، ٢/٥٧٣ . فتح القدير : ١/٥٢٩ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٧٤ ، ٣٠٣ .

وبعضد الآية السابقة قوله ﷺ في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : " تلك صلاة المنافق ،
يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها
إلا قليلاً " (١).

قال كعب (رحمه الله) :

"من أكثر ذكر الله عز وجل برئ من النفاق" (٢).

وقال ابن القيم (رحمه الله) :

" من علامة النفاق قلة ذكر الله عز وجل . وكثرة ذكره أمان من النفاق . والله عز وجل
أكرم من أن يبغى قلباً ذاكرًا بالنفاق ، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل " (٣) .
فلما أعرض المنافقون عن ذكر الله وغفلوا عنه غلب عليهم الشيطان فاستعلى على
قلوبهم ، واستولى على أفئدتهم فحواها وأحاط بها ، فزاد نسيانهم نسياناً ، وإعراضهم
إعراضاً ، حتى أصبحوا جنداً له وأتباعاً ، فخسروا الخسران العظيم الذي يفوق خسران
كل خاسر .

وفي ذلك يقول الرب سبحانه : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَلَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ
أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩] (٤)

(١) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب المساجد ومواضع الصلاة : (٥) . باب استحباب التكبير بالعصر : (٣٤) .

برقم : (٦٢٢) . ٤٣٤/١ . وقوله : " فنقرها " : المراد بالتقر سرعة الحركات كنقر الطائر . شرح النووي على
مسلم : ١٢٤/٥ .

(٢) الوابل الصيب : ص : ١١٠ . جامع العلوم والحكم : ص : ٤٤٥ .

(٣) الوابل الصيب : ص : ١١٠ .

(٤) و انظر في معنى الآية : جامع البيان : ٢٨/٢٥ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٥/١٧ - ٣٠٦ .

أنوار التنزيل : ٣١٤/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٥١٢/٤ . فتح القدير : ١٩٣/٥ . تيسير الكريم الرحمن : ص :

فالشَّيْطَانُ عَلَيْهِ لعائنُ الله لا يستحوذ على قلب إلا إذا وجده خالياً عن ذكرِ الله ، عازفاً عنه ، فارغاً منه . لأنَّ ذكرَ الله حرز من الشَّيْطَانِ ، عاصم منه ، طارد له . كما جاء في حديث يحيى بن زكريا عليهما السَّلام . " وأمركم أن تذكروا الله ، فلنَ مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتَّى إذا أتى على حصنٍ حصينٍ فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشَّيْطَانِ إلا بذكرِ الله ... الحديث " (١) .

قال الغزالي (رحمه الله) :

" ومهما غلب على القلب ذكر الدُّنيا بمقتضيات الهوى وجد الشَّيْطَانِ مجالاً فوسوس ، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشَّيْطَانُ وضاق مجاله ، وأقبل الملك ... والتَّطارد بين جندي الملائكة والشَّيَاطِين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما ، فيستوطن ويستمكن ، ويكون اجتياز الثَّاني اختلاساً . وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشَّيَاطِين وتملكتها فامتألت بالوساوس الداعيَّة إلى إثارة العاجلة واطِّراح الآخرة ، ومبدأ استيلائها اتِّباع الشَّهوات والهوى ، ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشَّيْطَانِ وهو الهوى والشَّهوات ، وعمارته بذكر الله تعالى " (٢) .

(١) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب الأدب : (٤٠) . باب ما جاء في مثل الصَّلاة والصَّيام والصَّدقة : (٧٨) .

برقم : (٢٨٦٣) . وقال : " هذا حديث حسن صحيح غريب . قال محمد بن إسماعيل : الحرث الأشعري له صحة ، وله هذا الحديث " . وقال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤٥٨ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ٢٠٢ ، ١٣٠/٤ .

مستدرک الحاكم: ذكر جزءاً من الحديث ، ولم يورد ما يتعلّق بالذِّكر منه . ٣٦٢/١ . وقال : " والحديث على شرط الأئمة صحيح محفوظ " .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في : ١٤٠/٣ . برقم : (١٥٧١) . قال محقِّقه : " إسناده صحيح " .

مسند أبي داود الطيالسي: بلفظ مقارب في : ص : ١٥٩ . برقم : (١١٦١) .

(٢) احياء علوم الدِّين : ٢٨/٣ . طبعة دار المعرفة .

فإنّ الذّاكر في حصن الذّكر فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدوّ فيعسر عليه ، أو يصعب إخراجُه (١).

وفوق ذلك كلّهُ فإنّ الذّكر عامل مؤثّر في كشف الملمات ، وتفريج الكربات ، لأنّ فيه لجوءاً إلى الله تعالى ، مزيل كلّ شدّة ، ومهوّن كلّ صعب . ولذا أرشد قدوة الأنام إليه في قوله له : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨].

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" أي وإنا لنعلم أنّك يا محمّد أنّك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض ، فلا يهيئُكَ (٢) ذلك ، ولا يثنيكَ عن إبلاغك رسالة الله ، وتوكّل عليه فإنّه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصّلاة ، ولهذا قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ " (٣).

وقال السّعدي (رحمه الله) :

" أي : أكثر من ذكر الله ، وتسبيحه ، وتحميده ، والصّلاة ، فإنّ ذلك يوسّع الصّدر ، ويشرحه ، ويعينك على أموركَ " (٤).

(١) الفوائد : ص : ١٩١ .

(٢) هادّة الشّيء هَيِّدًا وهَادًا : أَفْرَعَه وَكَرَّبَه . وما يَهْيِدُهُ ذلك : أي ما يَكْثُرُ له ولا يُزْعِجُهُ .

لسان العرب : ٤٤٠/٣ . و انظر : القاموس المحيط : ص : ٤٢٠ .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٨٦٨/٢ .

(٤) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٨٨ .

ومن هنا كان الذكر من أعظم العوامل المعينة على الثبات ، بل قرنه الله بالثبات في كتابه . فقال سبحانه عن القرآن الذي هو أعظم الذكر على الإطلاق : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢] .

فقد أنزل الذكر العظيم على الرسول الكريم ﷺ منجماً أي مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت فؤاد النبي ﷺ ، ويقوي يقينه ، ويطمئن قلبه (١) .

وليس ذلك خاصاً بالرسول ﷺ بل هو عام لكل مؤمن ، فإن الذكر يثبت قلبه ، ويقوي إيمانه ، ويزداد طمأنينة وهدى . وفي ذلك يقول المولى عز وجل : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢] (٢) .

وهذا على عمومه ، وأما عند جهاد أعداء الله الذي هو موطن الحديث فإن الذكر له تأثير عظيم وبالغ في إعانة المجاهد وتأييده ، وصبره وثباته ، وفوزه ونصرته . بل هو أعظم عامل للثبات في ذاك المقام . ولذا قرنه الله بالجهاد ،

(١) وانظر في معنى الآية : معالم التنزيل : ٣٦٨/٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٨/١٣-٢٩ . أنوار التنزيل : ٢١٦/٤-

٢١٧ . تفسير القرآن العظيم : ٥٠٨/٣ . فتح القدير : ٧٣/٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٥٣٠-٥٣١ .

(٢) ونظر في معنى الآية : معالم التنزيل : ٨٤/٣-٨٥ . الجامع لأحكام القرآن : ١٧٧/١٠ . أنوار التنزيل : ٤٢٠/٣ .

تفسير القرآن العظيم : ٩٠٩/٢ . فتح القدير : ١٩٤/٣ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٤٠١ .

والآيتان تتحدثان عن القرآن ، والقرآن ذكر كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

فقال أمراً للمؤمنين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] .

قال القرطبي (رحمه الله) :

" قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي جماعة ﴿فاثبتوا﴾ أمر بالثبات عند قتال الكفار ، كما في الآية قبلها ^(١) النهي عن الفرار عنهم ، فالتقى الأمر والنهي على سواء . وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجدد له . قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال :

الأول : اذكروا الله عند جزع قلوبكم ، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد .
الثاني : اثبتوا بقلوبكم ، واذكروه بألسنتكم ، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان ، فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين ، ويثبت اللسان على الذكر ، ويقول ما قاله أصحاب طالوت . ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] . وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة ، واتقاد البصيرة ، وهي الشجاعة المحموده في الناس .
الثالث : اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ، ومثامنته لكم . قلت : والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان " ^(٢) .

(١) الآية هي : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٢٣/٨ - ٢٤ .

وقال ابن كثير (رحمه الله) :

" فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم ، فلا يفرّوا ولا ينكلوا ولا يجبنوا ، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه ، بل يستعينوا به ويتوكّلوا عليه ، ويسألوه النصر على أعدائهم ، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك ، فما أمرهم الله تعالى به انتمروا ، وما نهاهم عنه انزعجوا " (١) .

ونحو الآية السابقة قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣]

قال القرطبي (رحمه الله) :

" ذهب الجمهور إلى أن هذا الذكر المأمور به إنما هو إثر صلاة الخوف ، أي إذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله بالقلب واللسان ، على أي حال كنتم ﴿ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ وأديموا ذكره بالتكبير والتلهيل والدعاء بالنصر لا سيما في حال القتال . ونظيره ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ " (٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٤٩٦/٢ . و انظر : فتح القدير : ٣١٤/٢ - ٣١٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٣٧٣/٥ - ٣٧٤ . و انظر : جامع البيان : ٢٥٩/٥ - ٢٦٠ . طبعة دار الفكر . فتح

القدير : ٥١٠/١ .

وفي حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: إن رسول الله ﷺ قال: "لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا ذكر الله ، فإن أجنبوا ^(١) وضجوا فعليكم بالصمت" ^(٢).

قال قتادة (رحمه الله) :

" افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون ، عند الضراب بالسيوف " ^(٣) .
وسرّ حصول الثبات بالذكر عند الجهاد لما للذكر من أثر عظيم على القلوب التي هي موطن الثبات ، ومقرّه الأول . ويتمثل ذلك في عدة أمور :
أ - توجل القلوب من ربّها فيزداد إيمانها ويقينها ، فتتقاد لأوامره ، وتتجنب معاصيه . ومن ذلك ما أمرت به من الثبات لقتال الأعداء ، وعدم الفرار .

(١) يقال : أحلبوا عليه : إذا تجمّعوا وتألّفوا . وأحلبه : أعانه . وأحلب عليه : إذا صاح به واستحثّه . النهاية في

غريب الحديث: ٢٨٢/١ .

(٢) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب الصبر عند القتال : (٣٢) . برقم :

(٢٨٣٣) . ص : ٥٩٩ . وفي باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار آخر القتال حتى تزول الشمس :

(١١١/١١٢) . برقم : (٢٩٦٦) . ص : ٦٢٤ . وفي باب لا تتمنوا لقاء العدو : (١٥٥/١٥٦) . برقم :

(٣٠٢٥) . ص : ٦٣٦-٦٣٧ . وفي كتاب التمني : (٦٩/٩٤) . باب كراهية تمّني لقاء العدو : (٨) . برقم :

(٧٢٣٧) . ص : ١٥٢٤ . عن عبد الله بن أبي أوفى ؓ .

صحيح مسلم : نحوه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب كراهية تمّني لقاء العدو ، والأمر بالصبر عند اللقاء :

(٦) . برقم : (١٧٤١) . عن أبي هريرة ؓ . و برقم : (١٧٤٢) . ١٣٦٢-١٣٦٣ عن ابن أبي أوفى ؓ .

واللفظ أعلاه أورده الدارمي في سننه . في باب لا تتمنوا لقاء العدو . ٢/ ٢٨٥ . وعند البيهقي في سننه لفظ

مقارب له . في باب الصمت عند اللقاء . ١٥٣/٩ .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" التفضيل بين الذّاكر والمجاهد : فإنّ الذّاكر المجاهد أفضل من الذّاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل ، والذّاكر بلا

جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن الله تعالى ، فأفضل الذّاكرين المجاهدون ، وأفضل المجاهدين الذّاكرون " . الوابل

الصيّب : ص : ٥٨ . و انظر : الصّواعق المرسلّة : ١٤٨٠-١٤٨١ .

(٣) جامع البيان : ١٤/١٠ . طبعة دار الفكر . و انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٤/٨ . تفسير القرآن العظيم :

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢] (١) .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه :

" الوجل في القلب كإحراق السَّعة ، أما تجد له قشعريرة ؟ قال: بلى ! قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله ، فإنَّ الدَّعاء يذهب بذلك " (٢) .

قال الشَّوكاني (رحمه الله) :

" الوجل: الخوف والفرع ، والمراد أنَّ حصول الخوف من الله والفرع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملين الإيمان المخلصين لله ، فالحصر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان " (٣) .

فأهل الإيمان الحق هم الذين إذا ذكروا الله فرقت قلوبهم وفرعت وخافت ، ففعلوا الأوامر وتركوا الزَّواجر ، ولازموا الطَّاعات وجانبوا المعاصي ، تعظيماً لله وإجلالاً لقدره .

وهذا أعظم ما يحتاج له المجاهد في سبيل الله حيث يزداد يقينه ، ويقوى إيمانه ، فيكل أمره إلى مولاه ، وشأنه إلى خالقه ، فلا يعبأ بذهاب الرُّوح ، ولا تلف الجسد .

(١) ومثلها: قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ

وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الحج: ٣٥] .

وفي حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه قال : " وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون " . والموعظة ذكر . وانظر تحريجه : ص : ٨٣١ .

(٢) جامع البيان ١٧٩/٩ . طبعة دار الفكر .

(٣) فتح القدير : ٢٨٥/٢ .

قال ابن رجب (رحمه الله) :

" ويدخل في مسمى الإيمان وجل القلوب من ذكر الله ، وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه ، وزيادة الإيمان بذلك ، وتحقيق التوكل على الله عز وجل ، وخوف الله سرّاً وعلانية ، والرضا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، واختيار تلف النفوس بأعظم أنواع الآلام على الكفر ، واستشعار قرب الله من العبد ، ودوام استحضاره ، وإيثار محبة الله ورسوله على محبة ما سواهما " (١) .

ب - يقذف فيها الطمأنينة ويبيت فيها السكينة ، فتستأنس برّبها ، وتركن إلى جناب مولاه ، فيزول قلقها ويذهب اضطرابها ، وتزداد غبطتها ويكثر سرورها ، وتذهب أحزانها وتغيب أتراحها ، فتشتاق إلى لقاء ربّها وتسعد بالقعود إلى خالقها .
قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] (٢) .

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد (رضي الله عنهما) أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال : " لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ،

(١) جامع العلوم والحكم : ص : ٣٢ .

(٢) وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ١٤٥/١٣ . طبعة دار الفكر . معالم التنزيل : ١٧/٣-١٨ . الجامع

لأحكام القرآن : ٣١٥/٩ . أنوار التنزيل : ٣٢٨/٣ . تفسير القرآن العظيم : ٧٩٢/٢ . فتح القدير : ٨١/٣ .

تيسير الكريم الرحمن : ص : ٣٧٢ .

قال البغوي (رحمه الله) : " فإن قيل : أليس قد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢] ، فكيف تكون الطمأنينة والوجل في حالة واحدة ؟

قيل : الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب ، والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب ، فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه ، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وكرمه " . معالم التنزيل : ١٧/٣-١٨ . وانظر : الجامع

لأحكام القرآن : ٣٦٥-٣٦٦/٧ .

ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده " (١) .

ج - تتشرح به وتتفسح ، وتلين وتخضع وترق ، فتزول قسوتها ، وتذوب صلابتها .

وفي ذلك يقول المولى عز وجل : ﴿ أَقْمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝۲۱ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ۝۲۲ ﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣] .

ويقول : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝۱۶ ﴾ [الحديد: ١٦] . (٢)

عن مالك (رحمه الله) أنه بلغه : أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يقول : " لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتفسد قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون ... " الحديث (٣) .

(١) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار : (٤٨) . باب فضل الاجتماع على تلاوة

القرآن ، وعلى الذكر : (١١) . برقم : (٢٧٠٠) . ٢٠٧٤/٤ .

(٢) و انظر في معاني الآيات : جامع البيان : ٢١٠/٢٣ - ٢١١ ، ٢٢٨/٢٧ - ٢٢٩ . طبعة دار الفكر . الجامع

لأحكام القرآن : ٢٤٦/١٥ - ٢٥٠ ، ٢٤٨/١٧ - ٢٤٩ . أنوار التنزيل : ٦٤-٦٣/٥ ، ٣٠٠ - ٣٠١ .

تفسير القرآن العظيم : ٧٧/٤ - ٧٨ ، ٤٨٣ - ٤٨٥ . فتح القدير : ٤٥٨/٤ - ٤٥٩ ، ١٧٢/٥ . تيسير الكريم

الرحمن : ص : ٦٦٨ ، ٧٨٠ .

(٣) موطأ مالك : كتاب الكلام : (٥٦) . باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله : (٣) . برقم : (٨) . ٩٨٦/٢ .

وأورد الترمذي في سننه عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تكثروا الكلام بغير

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" إن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى ، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى ... إن رجلاً قال للحسن : "يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي " . قال : " أذبه بالذكر " . وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة ، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار ، فما أذيت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عز وجل " (١) .

وقال ابن رجب (رحمه الله) :

" رقة القلوب فتتسأ عن الذكر ، فإن ذكر الله يوجب خشوع القلب ، وصلاحه ، ورقته ، ويذهب بالغفلة عنه " (٢) .

د - تحيا به كما تحيا الأرض الميتة بالقطر .

إن الذكر ينبت القلب من نومه ، ويوقظه من سنته ، والقلب إذا كان نائماً فاتته الأرباح والمتاجر ، وكان الغالب عليه الخسران ، فإذا استيقظ وعلم ما فاتته في نومته شدت المنزلة وأحيا بقية عمره ، واستدرك ما فاتته ، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر ، فإن الغفلة نوم ثقيل (٣) .

هـ - تستنير به ، وتذهب ظلمة الذنوب ووحشتها عنها ، وينقشع الرآن (٤) الذي عليها ، ويذهب صدوها ويذوب درنها ، فتصفو وتجلو ، ويطيب ريحها ، وينصع طيبها .

ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي " . في : كتاب الزهد : (٣٣) . باب : (٦٢) . برقم : (٢٤١١) . وقال : " هذا حديث حسن غريب " . وقال الألباني (رحمه الله) : " ضعيف " . ص : ٣٩٤ .

(١) الوابل الصيب : ص : ٩٩ .

(٢) لطائف المعارف : ص : ١٣ .

(٣) الوابل الصيب : ص : ٩٢ . وانظر : مدارج السالكين : ٤٣٤/٢ - ٤٣٥ . لطائف المعارف : ص : ١٤ .

(٤) الرآن والرّين : هو ما يغشى القلب فيغلب عليه ويغطيّه كالصدأ . انظر : لسان العرب : ١٩٢/١٣ .

وقال أبو الترداء رحمه الله :

" لكلّ شيء جلاء ، وإنّ جلاء القلوب ذكر الله عزّ وجلّ " . (١)

وقال المناوي (رحمه الله) :

" ذكر الله أفضل الأعمال ، ورأس كلّ عبادة ، ورأس كلّ سعادة ، بل هو كالحياة للأبدان ، والروح للإنسان ، وهل للإنسان غنى عن الحياة ؟ وهل له من الروح معدل ؟ وإن شئت قلت به لقاء الدنيا ، وقيام السموات والأرض " (٢) .

وقال : " إذ به يستتير القلب ، ويتسع الصدر ، ويمتلئ فرحاً وسروراً ، وشرف الذكر تابع لشرف المذكور ، وشرف العلم تابع لشرف المعلوم ، وشرف الشيء بسبب الحاجة إليه ، وليست حاجة الأرواح بشيء أعظم من ذكر بارئها ، والابتهاج به " (٣) .

ولا ريب إنّ القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضّة وغيرهما ، وجلّؤه بالذكر ، فإنّه يجلّوه حتّى يدعه كالمرآة البيضاء ، فإذا ترك صدئ . وصدأ القلب بأمرين : بالغفلة والذنّب . وجلّؤه بشيئين : بالاستغفار والذكر . فمن كانت الغفلة

(١) شعب الإيمان : ٣٩٦/١ .

عن سعيد بن سنان حدثني أبو الزهراوية عن أبي شجرة واسمه كثير بن مرة عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه كان يقول : " إنّ لكلّ شيء سقالة ، وأنّ سقالة القلوب ذكر الله ، وما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله " قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : " ولو أن تضرب بسيفك حتّى ينقطع " . أورده البيهقي في : شعب الإيمان : ٣٩٦/١ . والمنذري في : الترغيب والترهيب : ٢٥٤/٢ . وقال : " رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي من رواية سعيد بن سنان واللفظ له " . وسعيد بن سنان هو أبو مهدي الحمصي . متروك ، ورماه الدارقطني بالوضع . وذكر أبو حاتم أنّه يروي عن أبي الزهراوية عن كثير بن مرة عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحو من ثلاثين حديثاً أحاديث منكرة . وانظر في ترجمته : التاريخ الكبير : ٤٧٧/٣ . ضعفاء العقيلي : ١٠٧/٢ . الجرح والتعديل : ٢٨/٤ . المحروحين : ٣٢٢/١ . الكامل في ضعفاء الرجال : ٣٥٩/٣ . تهذيب الكمال : ٤٩٥/١٠ . الكاشف : ٤٣٨/١ . تهذيب التهذيب : ١٣٣/١٢ . تقريب التهذيب : ٢٣٧/١ .

(٢) فيض القدير : ٤٣/٢ .

(٣) المرجع السابق : ٨٤/٢ .

أغلب أوقاته كان الصّدأ متراكباً على قلبه ، وصدؤه بحسب غفلته ، وإذا صدئ القلب لم تتطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه ، فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل ، لأنّه لما تراكم عليه الصّدأ أظلم ، فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه ، فإذا تراكم عليه الصّدأ واسودّ وركبه الرّان فسد تصوّره وإدراكه ، فلا يقبل حقّاً ، ولا ينكر باطلاً ، وهذا أعظم عقوبات القلب . وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى ، فإنّهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره . قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] . (١) .

و — يزداد به أمنها ، وتذهب به مخاوفها ، فتقوى وتشتدّ ، ويزداد ثباتها ، ويزيد صبرها .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" إن ذكر الله عزّ وجلّ يذهب عن القلب مخاوفه كلّها ، وله تأثير عجيب في حصول الأمن ، فليس للخائف الذي قد اشتدّ خوفه أنفع من ذكر الله عزّ وجلّ ، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ، ويزول خوفه حتّى كأنّ المخاوف التي يجدها أمان له ، والغافل خائف مع أمنه ، حتّى كأنّ ما هو فيه من الأمن كلّ مخاوف " (٢) .

وقال السّعدي (رحمه الله) :

" إنّ الخوف يوجب قلق القلب وخوفه ، وهو مظنة لضعفه . وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو . والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقوِّيات القلب " (٣) .

(١) الوابل الصّيب : ص : ٦٠ . بتصرّف يسير .

(٢) المرجع السّابق : ص : ١٠٥-١٠٦ .

(٣) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٦٢ .

ز - تشفى به من سقمها ، وتصحّ به من دائها الذي تجلبه الغفلة والذنوب
لها ، فتسلم وتعافى ، فيستقيم أمرها ، ويكثر خيرها .

قال مكحول (رحمه الله) :

" ذكر الله تعالى شفاء ، وذكر الناس داء " . (١)

فالقلوب المؤمنة إذا خافت من ربّها ، وازداد يقينها وإيمانها ، واستقرّت
الطمأنينة في سويدائها ، وحفّت بها السكينة ، وغشيتها الرحمة ، وزال قلقها
واضطرابها ، وانشرحت وانفسحت ، ولانت وخشعت ورقّت ، وذهبت يبوستها
وغارت قسوتها ، واستنارت فذهبت ظلمتها ، وانقشع صدوها وكملت حياتها ،
وازداد أمنها وذهب خوفها ، وقوي عودها وشفيت من سقمها ، وتلاشى كدرها
وتبدّدت غفلتها سهل عليها الثّبات في مواطن الشّدة ، وأماكن الضيق التي منها
الجهاد في سبيل الله تعالى . فتقوى حينئذ عزائم أصحابها ، وترسخ أقدامهم ،
فيصولون ويجولون غير هائبيين ولا خائفين ، لا يفرّون ولا يهربون ، إنّما يثبتون
ويصبرون حتّى يأتي النصر من عند الله تعالى . فيعزّ به أهل الإيمان ، ويدلّ به
أهل الكفر والطغيان .

(١) الوابل الصّيب : ص : ٩٩ . وانظر : فيض القدير : ٥٦٤/٣ . وفي شعب الإيمان للبيهقي : قال ابن عون

(رحمه الله) : " ذكر التّاس داء ، وذكر الله دواء " . ٤٥٩/١ .

المبحث الخامس

دعاء الله تعالى *

يقال : دعوت الله إذا سألته وإذا استغثته (١).

وفي الاصطلاح : طلب الأدنى بالقول من الأعلى شيئاً على جهة الاستكانة (٢).
وهو في الشرع نوعان :

١- دعاء مسألة : وهو طلب ما ينفع الداعي ، وطلب كشف ما يضره أو دفعه ، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقاً ، والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر (٣) .

* الدعاء من عوامل الثبات العامة ، ولكن أوردته هنا تبعاً للقرآن لإيراده له كعامل للثبات في موطن الجهاد .

(١) انظر : المفردات : ص : ١٧٠ . لسان العرب : ٢٥٧/١٤ . وقد سبق إطلاقات كلمة الدعاء في باب الدعوة .

انظر : ص : ٣٨٣-٣٨٦ .

قال الراغب (رحمه الله) : " الدعاء كالتداء ، إلا أن التداء قد يقال بيا أو أيا ، ونحو ذلك من غير أن يضم إليه الاسم ، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان ، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر " . المفردات : ص : ١٦٩-١٧٠ .

(٢) تحفة الأحوذى : ٢١٨/٩ .

(٣) بدائع الفوائد : ٥١٣/٣ . و انظر : مجموع الفتاوى : ٢٣٧/١٠ ، ١٠/١٧ .

وهو على ثلاثة أقسام : أحدها : أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] .

والثاني : أن تسأله بحاجتك وفقرتك فتقول : أنا العبد الفقير المسكين البائس الدليل المستجير ونحو ذلك .

والثالث : أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحداً من الأمرين . فالأول أكمل من الثاني ، والثاني أكمل من الثالث ،

فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة كان أكمل . وهذه عامة أدعية النبي ﷺ .

وفي الدعاء الذي علمه صديق الأمة ﷺ ذكر الأقسام الثلاثة ، فإنه قال في أوله : " ظلمت نفسي ظلماً كثيراً "

وهذا حال السائل . ثم قال : " وإني لا يغفر الذنوب إلا أنت " . وهذا حال المسؤول . ثم قال : " فاغفر لي "

٢- دعاء عبادة : وهو الذي يتضمّن الثناء على الله بما هو أهله ، ويكون مصحوباً بالخوف والرجاء^(١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنَّ دعاء الله قد يكون دعاء عبادة لله فيثاب العبد عليه في الآخرة مع ما يحصل له في الدنيا ، وقد يكون دعاء مسألة تقضى به حاجته ، ثمَّ قد يثاب عليه إذا كان ممّا يحبّه الله ، وقد لا يحصل له إلّا تلك الحاجة ، وقد يكون سبباً لضرر دينه فيعاقب على ما ضيّعه من حقوق الله سبحانه ، وعلى ما تعدّاه من حدوده " (٢) .

والمراد بالدعاء أن يرغب العبد إلى الله ، ويطلب منه العناية والتّوفيق ، ويستمدّ منه المعونة في جميع ما يحتاج إليه من أموره .

فذكر حاجته ، وختم الدعاء باسمين من الأسماء الحسنى تناسب المطلوب وتقتضيه . جلاء الأفهام : ص : ١٥٣ .
بتصرّف يسير جداً .

وحديث الصّدّيق عليه السلام المشار إليه أورده البخاري في صحيحه في : كتاب الأذان (الصلاة) : (٥/١٠) . باب الدعاء قبل السلام : (٣٠٠/١٤٩) . برقم : (٨٣٤) . ص : ١٨٣ . وفي كتاب الدعوات : (٥٤/٨٠) . باب الدعاء في الصلاة : (١٧) . برقم : (٦٣٢٦) . ص : ١٣٥٠ . وفي كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى :

﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٤] : (٩) . برقم : (٧٣٨٧ ، ٧٣٨٨) . ص : ١٥٥٢ .

ومسلم في صحيحه في : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار : (٤٨) . باب استحباب خفض الصّوت في الذكر : (١٣) . برقم : (٢٧٠٥) . ٢٠٧٨/٤ .

(١) نضرة التّعيم : ١٩٠٢/٥ . وانظر : بدائع الفوائد : ٥١٣/٣ .

قال ابن القيم (رحمه الله) : " كلّ دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكلّ دعاء مسألة متضمّن لدعاء العبادة ، وعلى هذا فقولته تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء . وبكلّ منهما فسّرت الآية . قيل : أعطيه إذا سألتني . وقيل : أثيبه إذا عبدني . والقولان متلازمان . وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما ، أو استعمال اللفظ في حقيقة ومجازه ، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمّنة للأمرين جميعاً " . بدائع الفوائد : ٥١٤/٣ .

(٢) اقتضاء الصّراط المستقيم : ص : ٤١٤ .

وحقيقته أن يظهر لربه سبحانه غاية التذلل والافتقار إليه ، والاستكانة له ،
وأن يتبرأ من الحول والقوة ، وذلك سمة العبودية ، وأن يستشعر الذل للمولى جل
وعلا. (١)

ودعاء الله من أفضل العبادات وأشرف الطاعات ، ولذلك سمّاه الله تعالى :
عبادة . فقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].
وهو بذلك يدعو عباده أن يدعوه ويتقربوا إليه به ، ووعدهم عليه بالإجابة ، وحذرهم
من الانصراف والإعراض عنه ، وأوعدهم العذاب بالتعالي عليه (٢).

(١) وانظر : فتح الباري : ٩٥/١١ . طبعة دار المعرفة . فيض القدير : ٢٢٨/١ .

وقد ورد في القرآن على أوجه منها : القول ، العبادة ، النداء ، الاستعانة ، الاستغاثة ، العذاب والعقوبة ،
الغرض والسؤال ، التسمية . انظر : فتح الباري : ٩٤/١١ . طبعة دار المعرفة . وانظر : نضرة التعيم :
١٩٠٤/٥ . ففيه تفاصيل ذلك .

(٢) وانظر : جامع البيان : ٧٨/٢٤ - ٧٩ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ١٥ / ٣٢٦ - ٣٢٨ . أنوار

التزئيل : ٩٩/٥ . تفسير القرآن العظيم : ١٢٩/٤ . فتح القدير : ٤٩٨/٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٦٨٧ .
وقد اختلف أهل العلم في المراد بالدعاء في الآية . هل هو مطلق العبادة أم المراد به السؤال ؟ وذلك لأن الله
توعد بالعذاب من استكبر عن عبادته . وهذا لا يتأتى إلا في العبادة المعلومة ، إذ عدم سؤاله سبحانه لا يبلغ
بالإنسان إلى أن يتوعد بذلك الوعيد . ثم ذكر العبادة في الآية قرينة تبين المراد . ومن فسّر الدعاء بالسؤال صرف
الوعيد لمن استكبر عن سؤاله . وحديث التعمان يرجح الوجه الثاني . ولذا قال الحافظ ابن كثير (رحمه الله) :
" هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه ، وتكفل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري
يقول : " يا من أحب عباده إليه من سأل فأكثر سؤاله ، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله ، وليس أحد
كذلك غيرك يا رب " . رواه ابن أبي حاتم وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

... وقال الإمام أحمد : ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " من لم يدع الله عز وجل غضب عليه "

تفرّد به أحمد وهذا إسناد لا بأس به ... وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾

وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " الدعاء هو العبادة ". ثم قرأ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (١) .

أي عن دعائي وتوحيدي . ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين حقيرين " . تفسير القرآن العظيم : ١٢٨/٤ - ١٢٩ .

والحديث الذي أشار إلى تفرد الإمام أحمد به شارحه غيره في روايته . فقد رواه الترمذي في سننه بلفظ : " من لم يسأل الله يغضب عليه " . في : كتاب الدعوات : (٤٤) . باب : (٣) . برقم : (٣٣٧٣) . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٥٣٤ . وابن ماجه في سننه بلفظ : " من لم يدع الله سبحانه غضب عليه " . في : كتاب الدعاء : (٣٤) . باب فضل الدعاء : (١) . برقم : (٣٨٢٧) . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٤١٠ . وأحمد في المسند كرواية ابن ماجه — إلا إنه لم يذكر : " سبحانه " — في : ٤٤٣/٢ . ونحوه في : ٤٤٢/٢ . والحاكم في مستدركه : بلفظ مقارب لرواية ابن ماجه . في : ٦٦٧/١ . ومع زيادة فيه في : ٦٦٨/١ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد " . وأبو يعلى في مسنده : نحوه . برقم : (٦٦٥٥) . قال حسين أسد : " إسناده صحيح " . ١٠/١٢ . والبخاري في الأدب المفرد . مراجعة : محمد فؤاد عبد الباقي . طبعة دار البشائر الإسلامية . بيروت . ١٩٨٩م - ١٤٠٩هـ : نحوه في : ص : ٢٢٩ .

وقال تقي الدين السبكي : " الأولى حمل الدعاء في الآية على ظاهره ، وأما قوله بعد ذلك ﴿ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ فوجه الربط إن الدعاء أخص من العبادة ، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء ، وعلى هذا فالوعيد إنما هو في حق من ترك الدعاء استكباراً ، ومن فعل ذلك كفر . وأما من تركه لمقصود من المقاصد فلا يتوجه إليه الوعيد المذكور ، وإن كنا نرى أن ملازمة الدعاء والاستكثار منه أرجح من الترك لكثرة الأدلة الواردة في الحث عليه " . نقلاً عن فتح الباري : ٩٥/١١ . طبعة دار المعرفة . تحفة الأحوذى : ٢٢٠/٩ . وانظر : شرح الزرقاني على الموطأ : ٤٤/٢ .

(١) سنن أبي داود : بلفظ مقارب في : كتاب الوتر : (٨) . باب الدعاء : (٢٣) . برقم : (١٤٧٩) . قال الألباني

(رحمه الله) : " صحيح " . ص : ١٧٧ .

سنن الترمذي : بلفظه في : كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة المؤمن : (٤٠) . برقم : (٣٢٤٧) . ص : ٥١٥ . وفي كتاب الدعوات : (٤٤) . باب : (٢) . برقم : (٣٣٧٢) . ص : ٥٣٤ . و بلفظ مقارب في : باب ومن سورة البقرة : (٢) . برقم : (٢٩٦٩) . ص : ٤٧٥ . وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . وقال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " .

سنن ابن ماجه : بلفظ مقارب في : كتاب الدعاء : (٣٤) . باب فضل الدعاء : (١) . برقم : (٣٨٢٨) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤١٠ .

فقله " هو العبادة " أي معظمها . كقله ﷺ : " الحجّ عرفة " (١) .

سنن البيهقي : بلفظ مقارب في : باب سورة غافر . ٤٥٠/٦ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب في : باب ذكر البيان بأن دعاء المرء ربه في الأحوال من العبادة التي يتقرب بها إلى الله جلّ وعلا . برقم : (٨٩٠) . قال شعيب الأرنؤوط : " إسناده صحيح " . ١٧٢/٣ .

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في : ٦٦٧/١ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . ونحوه عن ابن عباس (رضي الله عنهما) في : ٦٦٧/١ .

معجم الطبراني الصغير : بلفظ مقارب . وزاد : " يعني دعائي " . في : ٢٠٨/٢ .

مسند الشهاب : بلفظ مقارب في : ٥٢/١ . برقم : (٣٠) .

الأدب المفرد : نحوه في : ص : ٢٤٩ . برقم : (٧١٤) .

وقوله : ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ : أي ذليلين . انظر : المفردات : ص : ١٦٦ .

(١) هذا جزء من حديث عبد الرحمن بن يعمر الدبلي رحمه الله . وهو في :

سنن أبي داود : بلفظ : " الحجّ الحجّ يوم عرفة " . كتاب المناسك : (١١) . باب من لم يدرك عرفة : (٦٨) .

برقم : (١٩٤٩) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٢٢٤ .

سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب الحجّ : (٦) . باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحجّ : (٥٧) .

برقم : (٨٨٩) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ١٦٣ .

سنن التيساني : بلفظه في : كتاب مناسك الحجّ : (٢٤) . باب فرض الوقوف بعرفة : (٢٠٣) . برقم :

(٣٠١٦) ص : ٣٢٠ . وفي باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة : (٢١١) . برقم : (٣٠٤٤) .

قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٣٢٢ .

سنن ابن ماجه : بلفظه في : كتاب المناسك : (٢٥) . باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع : (٥٧) . برقم :

(٣٠١٥) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٣٢٧ .

سنن البيهقي : بلفظه في : باب إدراك الحجّ بإدراك عرفة قبل طلوع الفجر من يوم النحر . ١٧٣/٥ .

مسند أحمد: بلفظه في : ٣٠٩/٤ . ولفظ : " الحجّ حجّ عرفة " . في : ٣٣٥/٤ .

صحيح ابن خزيمة . لأبي بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة . تحقيق : محمد مصطفى الأعظمي . طبعة المكتب

الإسلامي . بيروت . ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م . بلفظه في : ٢٥٧/٤ . برقم : (٢٨٢٢) .

سنن الدارقطني . لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني . تحقيق : السيّد عبد الله هاشم يماني المدني . طبعة دار المعرفة

بيروت . ١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م . بلفظه في : باب المواقيت . ٢٤٠/٢ — ٢٤١ .

مستدرک الحاكم: بلفظه في : ٦٣٥/١ ، ٣٠٥/٢ . وقال : " هذا حديث صحيح ولم يخرجاه " .

أي معظم أركانها (١) .

أو هو العبادة أي هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة ، لدلالته على الإقبال على الله ، والإعراض عما سواه بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه ، قائماً بوجوب العبودية ، معترفاً بحق الربوبية ، عالماً بنعمة الإيجاد ، طالباً لممدد الإمداد على وفق المراد ، وتوفيق الإيسعاد (٢) .

(١) انظر : تحفة الأحوذى : ٢٢٠/٩ .

(٢) عون المعبود : ٢٤٧/٤ .

قال الطيبي (رحمه الله) : " معنى حديث التَّعَمُّان أن تحمل العبادة على المعنى اللغوي ، إذ الدَّعاء هو إظهار غاية التدلّل والافتقار إلى الله والاستكانة له ، وما شرعت العبادات إلا للحضوع للباري وإظهار الافتقار إليه ، ولهذا حتم الآية بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ حيث عبر عن عدم التدلّل والخضوع بالاستكبار ، ووضع عبادتي موضع دعائي ، وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصغار واخوان " . نقلاً عن تحفة الأحوذى : ٢٢٠/٩ . وانظر : عون المعبود : ٢٤٧/٤ .

وقال ابن رجب (رحمه الله) : " واعلم أن سؤال الله عز وجلّ دون خلقه هو المتعين ، لأنّ السؤال فيه إظهار الدلّل من السائل ، والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعتراف بقدرة المستول على رفع هذا الضر ونيل المطلوب ، وجلب المنافع ودرء المضار ، ولا يصلح الدلّل والافتقار إلا لله وحده لأنّه حقيقة العبادة ، وكان الإمام أحمد يدعو ويقول : " اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسئلة لغيرك ، ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواك " . كما قال ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس: ١٠٧] . وقال : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر: ٢] . والله سبحانه يحب أن يسأل ، ويرغب إليه في الخواص ، ويلج في سؤاله ودعائه ، ويغضب على من لا يسأله ، ويستدعي من عباده سؤاله ، وهو قادر على إعطاء خلقه كلّهم سؤالهم من غير أن ينقص من ملكه شيء ، والمخلوق بخلاف ذلك يكره أن يسأل ، ويجب أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته . ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك : " ويحك تأتي من يغلق عنك بابه ، ويظهر لك فقره ، ويوارى عنك غناه ، وتدع من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار ، ويظهر لك غناه ، ويقول ادعني أستجب لك " .

وقال طاروس لعطاء : " إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق بابه دونك ويجعل دونها حجاباً ، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة ، أمرك أن تسأله ووعده أن يجيبك " . جامع العلوم والحكم : ص : ١٩٢ .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء " (١) .

وذلك لأن فيه إظهار الفقر ، والعجز والتذلل ، والاعتراف بقوة الله وقدرته (٢) .

ولذلك أمر ﷺ بالإكثار منه وذلك لعظم فضله .

فقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء " (٣) .

وقال في حديثه الآخر : " من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء " (٤) .

(١) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب الدعوات : (٤٤) . باب ما جاء في فضل الدعاء : (١) . برقم : (٣٣٧٠) .

وقال : " هذا حديث حسن غريب " . وقال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص : ٥٣٤ .

سنن ابن ماجه : بلفظه — إلاّ أنّه قال : " الله سبحانه " — في : كتاب الدعاء : (٣٤) . باب فضل الدعاء :

(١) . برقم : (٣٨٢٩) . قال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص : ٤١٠ .

مسند أحمد: بلفظه — ولم يذكر : " تعالى " — في : ٣٦٢/٢ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: كرواية أحمد . في باب ذكر البيان بأن دعاء المرء لله جلّ وعلا من أكرم

الأشياء عليه . برقم : (٨٧٠) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده حسن " . ١٥١/٣ .

مستدرک الحاكم: كرواية أحمد . في : ٦٦٦/١ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .

مسند أبي داود الطيالسي: بلفظه — إلاّ أنّه قال : " الله عزّ وجلّ " — ص : ٣٣٧ .

مسند الشهاب : كرواية أحمد . برقم : (١٢١٣ ، ١٢١٤) . ٢١٤/٢ .

الأدب المفرد : كرواية أحمد . ص : ٢٤٩ .

(٢) تحفة الأحوذى : ٢١٨/٩ .

(٣) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الصلاة : (٤) . باب ما يقال في الركوع والسجود : (٤٢) . برقم :

(٤٨٢) . ٣٥٠/١ .

(٤) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب الدعوات : (٤٤) . باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة : (٩) . برقم :

(٣٣٨٢) . وقال : " هذا حديث غريب " . وقال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص : ٥٣٥ .

مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في : ٧٢٩/١ . وقال : " حديث صحيح الإسناد " .

مسند أبي يعلى: بلفظه : برقم : (٦٣٩٦ ، ٦٣٩٧) . قال محققه : " إسناده حسن " . ٢٨٤-٢٨٣/١١ .

بل حثَّ الله عباده عليه متودِّداً إليهم ، متقرباً منهم كي يدعوهم ويسألوه .
 فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة
 إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من
 يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له " (١) .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب التهجّد (الصلاة) : (٥/١٩) . باب الدّعاء والصلاة من آخر الليل :
 (٤٩١/١٤) . برقم : (١١٤٥) . ص : ٢٤٢ . ولفظه إلّا أحرف يسيرة في كتاب الدعوات : (٥٤/٨٠) .
 باب الدّعاء نصف الليل : (١٤) . برقم : (٦٣٢١) . ص : ١٣٤٩ . وفي كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب
 قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ [الفتح: ١٥] : (٣٥) . برقم : (٧٤٩٤) . ص :
 ١٥٧٣ .

صحيح مسلم : بلفظه إلّا أحرف يسيرة ، و بلفظ مقارب في : كتاب صلاة المسافرين وقصرها : (٦) . باب
 الترغيب في الدّعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه : (٢٤) . برقم : (٧٥٨) . ٥٢٣-٥٢١/١ .
 وفي الحديث إثبات صفة النزول لله تعالى . فهو ينزل سبحانه كما ذكر نزولاً يليق بجلاله من غير تمثيل ولا
 تكيف ، ولا تعطيل ولا تحريف . ولا نقول : ينزل أمره أو تنزل رحمته كقول أهل التأويل .
 وقد كره بعض الصوفية الدّعاء . وقالوا : الأولى السكوت والرضا ، والجمود تحت جريان الحكم والقضاء .
 فيض القدير : ٢٢٨/١ .

وفصل بعضهم مع زعمه بأن تركه أفضل . فقال : إن دعا للمسلمين فحسن ، وإن خصّ نفسه فلا . وقيل : إن
 وجد باعثاً للدّعاء استحجب وإلّا فلا . شرح الزرقاني على الموطأ : ٤٤/٢ . تحفة الأحوذى : ٢١٨/٩ .
 وقد نقل الحافظ ابن حجر (رحمه الله) الخلاف في ذلك وأجاب عنه . فقال : " حكى القشيري في الرسالة
 الخلاف في المسألة فقال : " اختلف أيّ الأمرين أولى : الدّعاء أو السكوت والرضا ؟ فقيل : الدّعاء ، وهو الذي
 ينبغي ترجيحه لكثرة الأدلة لما فيه من إظهار الخضوع والافتقار . وقيل : السكوت والرضا أولى ، لما في التسليم
 من الفضل " . قلت : وشبهتهم إنّ الدّاعي لا يعرف ما قدر له ، فدعاؤه إن كان على وفق المقدور فهو تحصيل
 الحاصل ، وإن كان على خلافه فهو معاندة . والجواب عن الأول إنّ الدّعاء من جملة العبادة لما فيه من الخضوع
 والافتقار . وعن الثاني إنّّه إذا اعتقد أنّه لا يقع إلّا ما قدر الله تعالى كان إذعاناً لا معاندة . وفائدة الدّعاء تحصيل
 الثواب بامتنال الأمر ، ولا احتمال أن يكون المدعو به موقوفاً على الدّعاء ، لأنّ الله خالق الأسباب ومسبباتها .
 قال : " وقالت طائفة ينبغي أن يكون داعياً بلسانه ، راضياً بقلبه " . قال : " والأولى أن يقال : إذا وجد في قلبه
 إشارة الدّعاء فالدّعاء أفضل وبالعكس " . قلت : القول الأول أعلى المقامات ، أن يدعو بلسانه ويرضى بقلبه .
 والثاني لا يتأتى من كلّ أحد بل ينبغي أن يختص به الكمال " . فتح الباري : ٩٥/١١ . طبعة دار المعرفة .
 وكرهية الدّعاء وأفضلية تركه قول سقيم تردّه التصوص المتوافرة في الأمر بالدّعاء ، والتحذير من تركه ، وبيان
 فضله . ولذا أجمع أهل العلم على استحبابه . تحفة الأحوذى : ٢١٨/٩ .

ومع ذلك قد يدعو الإنسان فلا يستجاب له . وذلك لحصول مانع ، أو تخلف شرط من شروط القبول ، أو الإخلال بأدب من آداب الدعاء .
ومن هنا أرشد الله سبحانه ورسوله ﷺ إلى العوامل الجالبة لقبول الدعاء ، وإلى العوامل المانعة من قبوله .

فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].
أي إن الله يستجيب دعاء من كان مؤمناً ، مستجيباً لله ورسوله ، منقاداً للأوامر ، مجافياً للنواهي ، ملتزماً بالطاعات ، مترفعاً عن المعاصي (١) .

وذلك لأن الدعاء سبب بل من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب . الجواب الكافي : ص : ٣ .
وهو مسلك خيرة الخلق وأفضل البشر عليهم السلام . مجموع الفتاوى : ٥٣٨/٨ .
وكونه سبباً لا ينافي ما قدر الله تعالى . إذ من تقدير الأمور تقدير أسبابها .
ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :
" إن الله تعالى إذا قدر أمراً فإنه يقدّر أسبابه ، والدعاء من جملة أسبابه ، كما أنه لما قدر التصبر يوم بدر وأخبر النبي ﷺ قبل وقوعه أصحابه بالتصبر ، ومصارع القوم كان من أسباب ذلك استغاثة النبي ﷺ ودعاؤه ."
مجموع الفتاوى : ١٤٧/١٤ .

وقال ابن القيم (رحمه الله) :

" وهو ﷺ أعلم بربه ، وأتبع لأمره من أن يعطل الأسباب التي جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر ، وإظهار دينه وغلبته لعدوه ، وهذا كما أنه سبحانه ضمن له حياته حتى يبلغ رسالاته ، ويظهر دينه ، وهو يتعاطى أسباب الحياة من المأكل والمشرب والملبس والسكن . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ، حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدعاء وزعم أنه لا فائدة فيه ، لأن المسؤول إن كان قد قدر ناله ولا بد ، وإن لم يقدر لم ينله ، فأني فائدة في الاشتغال بالدعاء ؟ ثم تكايس في الجواب بأن قال : الدعاء عبادة . فيقال لهذا الغلط : بقي عليك قسم آخر وهو الحق : أنه قد قدر له مطلوبه بسبب إن تعاطاه حصل له المطلوب ، وإن عطل السبب فاته المطلوب ، والدعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب . وما مثل هذا الغلط إلا مثل من يقول : إن كان الله قد قدر لي الشئ فأنأ أشبع أكلت أو لم أكل ، وإن لم يقدر لي الشئ لم أشبع أكلت أو لم أكل ، فملا فائدة الأكل . وأمثال هذه الترهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه وبالله التوفيق " . زاد المعاد : ٤٨١/٣ .
(١) انظر : جامع البيان : ١٥٨/٢ - ١٦٠ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٣١١/٢ . أنوار التنزيل :

٤٦٧/١ . تفسير القرآن العظيم : ٣٢٥-٣٢٦ . فتح القدير : ١٨٤/١ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٦٩ .

وأن يكون متضرعاً خاشعاً متذللاً مستكيناً ، راغباً فيما عند الله ، طامعاً في نواله ، راهباً من عذابه ، خائفاً من عقابه ، وجللاً من سخطه ، ليس بمتجاوز ولا متعدّ .

وفي الآية النفات إلى قرب الله من عباده ، قرب علم وإحاطة لا قرب ذات . فهو فوق سماواته مستو على عرشه استواء يليق بمقامه — ولا نقول كما قالت الجهمية : إله في كل مكان بذاته . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً — ويلزم من قرب إجابة دعاء من دعاه . ولذا أرشد النبي ﷺ أصحابه بأن لا يرفعوا أصواتهم بالدعاء والصياح . كفعل كثير من أهل البدع . ففي حديث أبي موسى ﷺ قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في غزاة ، فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نخبط في واد إلا رفّعنا أصواتنا بالتكبير ، قال: فدنا منّا رسول الله ﷺ فقال: " يا أيّها الناس أربعوا — أي أرفقوا — على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ، إنّما تدعون سمياً بصيراً " .

صحيح البخاري: كتاب القدر : (٥٦/٨٢) . باب لا حول ولا قوة إلا بالله : (٧) . برقم : (٦٦١٠) . ص : ١٤٠١ . و انظر : : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير : (١٣٠/١٣١) . برقم : (٢٩٩٢) . ص : ٣٠ . و كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب غزوة خيبر : (٣٩/٣٨) . برقم : (٤٢٠٥) . ص : ٨٧٩-٨٨٠ . و كتاب الدعوات : (٥٤/٨٠) . باب الدعاء إذا علا عقبه : (٥٠) . برقم : (٦٣٨٤) . ص : ١٣٦٠ . وفي باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله : (٦٧) . برقم : (٦٤٠٩) . ص : ١٣٦٥-١٣٦٦ . و كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

[النساء: ١٣٤] : (٩) . برقم : (٧٣٨٦) . ص : ١٥٥١ .

وزاد الإمام أحمد في المسند : " إنّ الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته " . ٤٠٢/٤ . وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للتداء الذي هو رفع الصوت ، فإنهم عن هذا سألوا ، فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب ، لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى التداء ، وإنما يسأل مسألة القريب المناجي ، لا مسألة البعيد المنادى ، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ، ليس قرباً عاماً من كل أحد ، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده .

وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه . بل هو قرب خاص من الداعي والعابد . بدائع الفوائد : ٥١٩/٣ .

وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ اَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ
رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦] ^(١).

(١) انظر : جامع البيان ٢٠٦/٨-٢٠٨ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٣/٧-٢٢٥ . تفسير

القرآن العظيم : ٣٥٤/٢-٣٥٥ . فتح القدير : ٢١٣/٢ . تيسر الكريم الرحمن : ص : ٢٥٤ .
وفي الآية طلب بإخفاء الدعاء ، وهو أمر مرغّب فيه ، مدعو إليه . كما قال الحسن البصري (رحمه الله) : " إن
كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن
كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض
من عمل يقدر أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم
صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول ﴿ اَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾
وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٣] .

وقال ابن جريج (رحمه الله) : " إن من الدعاء اعتداء ، يكره رفع الصوت والتداء والصياح بالدعاء ، ويؤمر
بالتضرع والاستكانة " . جامع البيان : ٢٠٧/٨ . طبعة دار الفكر . تفسير القرآن العظيم : ٣٥٤/٢ .
وفي إخفاء الدعاء فوائد جمّة منها :

- إنه أعظم إيماناً . لأن صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي ، وليس كالذي قال : إن الله يسمع إن
جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا .
- إنه أعظم في الأدب والتعظيم .
- إنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولّبه ومقصوده .
- إنه أبلغ في الإخلاص .
- إنه أبلغ في جمعه القلب على الله تعالى في الدعاء ، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتهه ، فكلمة خفض صوته كان
أبلغ في جمعه ، وتجريد همته ، وقصده للمدعو سبحانه وتعالى .
- إنه دال على قرب صاحبه من الله ، وأنه لاقتربه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه ، فیسأله
مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد .
- إنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب ، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد
يكلّ لسانه ، وتضعف بعض قواه .

— إن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات .
— إن أعظم التعم الإقبال على الله ، والتعبد له ، والانقطاع إليه ، والتبتّل إليه ، ولكلّ نعمة حاسد على قدرها ،

دَقَّتْ أو حَلَّتْ ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة ، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد ، وأن لا يقصد إظهارها له .

— إن الدَّعاء هو ذكر للمدعو سبحانه ، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه ، فهو ذكر وزيادة ،

والأصل في الذكر أن يخفى . انظر : بدائع الفوائد : ٥١٨/٣ - ٥٢١ .

كما أن في الآية تحذيراً من الاعتداء في الدَّعاء . وهو أمر مكروه مستهجن . حذر منه رسول الله ﷺ . كما ورد في حديث عبد الله بن مغفل ؓ عندما سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال : أي بني سل الله الجنة ، وتعوذ به من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الظهور والدَّعاء " . سنن أبي داود : كتاب الطَّهارة : (١) . باب الإسراف في الماء : (٤٥) . برقم : (٩٦) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " ص : ٣٥ . و انظر : سنن ابن ماجه : كتاب الدَّعاء : (٣٤) . باب كراهية الاعتداء في الدَّعاء : (١٢) . برقم : (٣٨٦٤) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤١٤

سنن البيهقي : باب التَّهْي عن الإسراف في الوضوء . ١٩٦/١ .

مسند أحمد : ٨٦/٤ ، ٨٧ ، ٥٥/٥ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : برقم : (٦٧٦٣ ، ٦٧٦٤) قال شعيب الأرنؤوط : " إسناده صحيح على

شرط مسلم " . ١٦٦/١٥ . مستدرک الحاكم : ٢٦٧/١ ، ٧٢٤ .

قال القرطبي (رحمه الله) :

" الاعتداء في الدَّعاء على وجوده : منها الجهر الكثير والصَّياح ... ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له مترلة نبي ، أو يدعو في محال ، ونحو هذا من الشَّطَط . ومنها أن يدعو طالباً معصية وغير ذلك . ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة ، فيتخير ألفاظاً مفقرة ، وكلمات مسحقة قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معول عليها ، فيجعلها شعاره ، ويترك ما دعا به رسوله عليه السلام . وكل هذا يمنع من استجابة الدَّعاء " .

الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٦/٧ .

وأفاض في بيان ذلك ابن القيم (رحمه الله) فقال :

" الاعتداء بالدَّعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات ، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة ، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطَّعام والشَّيَاب ، أو يسأله أن يطلعه على غيبه ، أو يسأله أن يجعله من المعصومين ، أو يسأله أن يهب له ولداً من غير زوجة ولا أمة ، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء . فكل سؤال يناقض حكمة الله ، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره ، أو يتضمن خلاف ما أخرج به فهو اعتداء لا ينجيه الله ، ولا يحب سائله . وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضاً في الدَّعاء .

قال ابن جريح : " من الاعتداء رفع الصوت في الدَّعاء والتداء في الدَّعاء والصَّياح " . وبعد فالآية أعم من ذلك كله . وإن كان الاعتداء في الدَّعاء مراداً بها فهو من جملة المراد . والله لا يحب المعتدين في كل شيء دعاء كان أو

غيره . كما قال ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] [المائدة: ٨٧]

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان ، وهم الذين يدعون معه غيره ، فهؤلاء

وأن يتَّسم بالإخلاص ، ويجانب الرياء . لقوله تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [عافر: ١٤].

وأن يكون طيب المطعم والملبس ، متجنباً لأكل الحرام ، متباعداً عنه .
لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : - فذكر الحديث وفيه - " ثم ذكر
الرجل ^(١) يطيل السفر أشعث ^(٢) أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب .
ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذّي بالحرام فأنّى يستجاب
لذلك " ^(٣).

أعظم المعتدين عدواناً . فإن أعظم العدوان الشرك ، وهو وضع العبادة في غير موضعها ، فهذا العدوان لا بد أن
يكون داخلاً في قوله ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥] ، ومن العدوان أن يدعوه غير
متضرّع ، بل دعاء مدلّ كالمستغني بما عنده ، المدلّ - المنان المفتخر بعمله - على ربه به ، وهذا من أعظم
الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الدليل الفقير المسكين من كلّ جهة في مجموع حالاته ، فمن لم يسأل مسألة مسكين
متضرّع خائف فهو معتد .

ومن الاعتداء أن تعبد به بما لم يشرعه ، وتثني عليه بما لم يشن به على نفسه ، ولا أذن فيه . فإن هذا اعتداء في
دعاء الثناء والعبادة ، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب . وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما : محبوب للربّ تبارك وتعالى مرض له وهو الدعاء تضرّعاً وخفية .
الثاني : مكروه له مبغوض مسخوط وهو الاعتداء . فأمر بما يحبه الله وندب إليه ، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما

هو ابلغ طرق الزجر والتحذير ، وهو أنّه لا يحبّ فاعله ، ومن لم يحبه الله فأى خير يناله .

وفي قوله : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ عقب قوله : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾
دليل على أنّ من لم يدعه تضرّعاً وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم . فقسّمت الآية الناس إلى قسمين : داع
لله تضرّعاً وخفية ، ومعتد بترك ذلك " . بدائع الفوائد : ٥٢٤/٣ - ٥٢٥ .

(١) هذه الجملة من كلام الراوي .

(٢) الأشعث : الملبّد الشعر المغبر ، غير مدهون ولا مرجّل . شرح التوروي على مسلم : ١٧٤/١٦ . وانظر :

الفائق : ٢٥٠/٢ . النهاية في غريب الحديث : ٤٧٨/٢ .

(٣) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الزكاة : (١٢) . باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وترتيبها : (١٩) .

برقم : (١٠١٥) . ٧٠٣/٢ .

قال النووي (رحمه الله) :

" وفيه الحث على الإنفاق من الحلال ، والنهي عن الإنفاق من غيره . وفيه أن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالاً خالصاً لا شبهة فيه . وأن من أراد الدعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره " (١) .

وفي حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) قال ﷺ : " أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة " . ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال : " رواد الطبراني في الصغير ، وفيه من لم أعرفهم " . ٢٩١/١٠٠ . وأورده أيضاً في : ٢٩٥/١٠٠ . كما ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ونسبه للطبراني في الصغير . وسكت عنه . ٣٤٦-٣٤٥/٢ . وابن رجب في جامع العلوم والحكم . وذكر أنه خرجه الطبراني بإسناد فيه نظر . ص : ١٠٠ .

والحديث إنما أورده الطبراني في المعجم الأوسط . ولفظه عنده : عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة: ١٦٨] فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعاء . فقال له النبي ﷺ : " يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً ، وأما عبد نبت خمه من السحت والربا فالتار أولى به " . لا يروى هذا الحديث عن ابن جريج إلا بهذا الإسناد . تفرد به الاحتياطي . ٣١١/٦ . ولم أفد عليه في المعجم الصغير .

(١) شرح التتوي على مسلم : ١٠٠/٧ .

وفي الحديث أربعة أسباب تدعو إلى إجابة الدعاء : أحدها : إطالة السفر . والسفر بمجرد مقتضى إجابة الدعاء كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : " ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن ، دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على ولده " . سنن أبي داود : بلفظ مقارب في : كتاب الوتر : (٨) . باب الدعاء بظهر الغيب : (٢٩) . برقم : (١٥٣٦) . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ١٨٢ . سنن الترمذي : بلفظه في : كتاب البر والصلة : (٢٤) . باب ما جاء في دعوة الوالدين : (٧) . برقم : (١٩٠٥) . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٣٢٢ . و بلفظ مقارب في : كتاب الدعوات : (٤٤) . بلب : (٤٧) . برقم : (٣٤٤٨) . وقال : " هذا حديث حسن " . ص : ٥٤٥ . سنن ابن ماجه : بلفظه إلا أحرف يسوة . في كتاب الدعاء : (٣٤) . باب دعوة الوالد ودعوة المظلوم : (١١) . برقم : (٣٨٦٢) . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٤١٤ . مسند أحمد : بلفظه في : ٢٥٨/٢ ، ٥٢٣ . و بلفظ مقارب في : ٣٤٨/٢ ، ٤٧٨ ، ٤٣٤ ، ٥١٧ . معجم الطبراني الأوسط : بلفظ مقارب في : ٤٤/١ . مسند أبي داود الطيالسي : بلفظ مقارب في : ص : ٣٢٩ . و برقم : (٢٥١٧) . مسند الشهاب : بلفظه في : ٢٠٨/١-٢٠٩ . و برقم : (٣١٦) . الأدب المفرد : بلفظ مقارب في : ص : ٢٥ ، ١٦٩ . و برقم : (٤٨١ ، ٣٢) .

ومنى طال السفر كان أقرب إلى إجابة الدعاء ، لأنه مظنة حصول انكسار النفس بطول الغربة عن الأوطان ، وتحمل المشاق ، والانكسار من أعظم أسباب إجابة الدعاء .

الثاني : حصول التبذل في اللباس والهينة بالشعث والإغبار ، وهو أيضاً من المقتضيات لإجابة الدعاء . كما في الحديث المشهور عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره " . صحيح مسلم : كتاب البر والصلة والآداب : (٤٥) . باب فضل الضعفاء والخاملين : (٤٠) . برقم : (٢٦٢٢) . ٢٠٢٤/٤ . وفي : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها : (٥١) . باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء : (١٣) . برقم : (٢٨٥٤) . ٢١٩١/٤ .

قال النووي (رحمه الله) : " مدفوع بالأبواب أنه لا يؤذن له بل يحجب ويتردد لحقارته عند الناس . قوله ﷺ : " لو أقسم على الله لأبره " : معناه لو حلف بميمناً طمعاً في كرم الله تعالى بإبراره لأبره . وقيل : لو دعاه لأجابه يقال : أبررت قسمه وبررته . والأول هو المشهور " . شرح النووي على مسلم : ١٨٧/١٧ .

الثالث : مديته إلى السماء ، وهو من آداب الدعاء التي يرجى بسببها إجابته . وفي حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين " .

سنن أبي داود : بلفظ مقارب في : كتاب الوتر : (٨) . باب الدعاء : (٢٣) . برقم : (١٤٨٨) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ١٧٨ . سنن الترمذي : بلفظه في : كتاب الدعوات : (٤٤) . باب : (١٠٤) . برقم : (٣٥٥٦) . وقال : " هذا حديث حس غريب " . وقال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٥٥٩ .

سنن ابن ماجه : بلفظ مقارب في : كتاب الدعاء : (٣٤) . باب رفع اليدين في الدعاء : (١٣) . برقم : (٣٨٦٥) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤١٤ . سنن البيهقي : بلفظه في : باب رفع اليدين في

القنوت . ٢١١/٢ . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : بلفظ مقارب في : باب ذكر الإخبار عما يستحب للمرء عند إرادة الدعاء رفع اليدين . برقم : (٨٧٦) . قال شعيب الأرناؤوط : " حديث قوي " . ١٦٠/٣ .

مستدرک الحاكم : نحوه في : ٦٧٥/١ . وقال : " وله شاهد بإسناد صحيح من حديث أنس بن مالك " . ثم أورد حديث أنس رضي الله عنه في : ٦٧٥/١ . مسند أبي يعلى : بلفظ مقارب في : ٣٩١/٣ . و برقم : (١٨٦٧) . عن جابر

ابن عبد الله (رضي الله عنهما) . إلا أن محققه قال : " إسناده ضعيف " . ونحوه في : ١٤٢/٧ . و برقم : (٤١٠٨) . عن أنس رضي الله عنه . إلا أن المحقق ضعف إسناده أيضاً . معجم الطبراني الكبير : بلفظ مقارب في : ٢٥٢/٦ .

ونحوه في : ٢٥٦/٦ . وفي : ٤٢٣/١٢ . عن ابن عمر (رضي الله عنهما) . مع زيادة فيه . مسند الشهاب : بلفظ مقارب في : ١٦٥/٢ . و برقم : (١١١٠ ، ١١١١) .

الرابع : الإلحاح على الله عز وجل بتكرير ذكر ربوبيته . وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء . انظر : جامع العلوم والحكم : ص : ١٠٥-١٠٦ . و انظر : فتح الباري : ٩٦/١١ . تحفة الأحوذى : ٢٢٩/٩ .

قال ابن رجب (رحمه الله) :

" وقوله ﷺ : " فأني يستجاب لذلك " : معناه كيف يستجاب له ، فهو استفهام وقع على وجه التعجب والاستبعاد ، وليس صريحاً في استحالة الاستجابة ومنعها بالكلية ، فيؤخذ من هذا أن التوسع في الحرام والتغذي به

فأكل الحرام ، والتغذية به ، ولبسه سبب عظيم موجب لعدم إجابة الدعاء .
وأن يجتنب المعاصي والآثام ، وخاصة قطيعة الرحم فإنها عامل مؤثر في
عدم قبول الدعاء .

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : " ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم
ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن تعجل له دعوته ، وإما أن
يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلاً " قالوا : إذا نكثر .
قال : " الله أكثر " .^(١)

وأن يعزم في سؤاله ، ويحسن الظن بربه في إجابة دعائه ، ولا يعلق ذلك
بمشيئة الله ، فإن الله لا مكره له . كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول
الله ﷺ : " إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ، ولا يقولن اللهم إن شئت فأعطني . فإنه لا
مستكره له " .^(٢)

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه : " ليعزم في الدعاء " .^(٣)

من جملة موانع الإجابة ، وقد يوجد ما يمنع هذا المانع من منعه ، وقد يكون ارتكاب المحرمات الفعلية مانعاً من
الإجابة أيضاً ، وكذلك ترك الواجبات " . جامع العلوم والحكم : ص : ١٠٧ .
(١) مسند أحمد : بلفظه في : ١٨/٣ . ونحوه في : ٤٤٨/٢ . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

مستدرك الحاكم : بلفظ مقارب في : ٦٧٠/١ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد إلا أن الشيخين لم يخرجاه " .
ونحوه في : ٦٧٤/١ . عن أبي هريرة رضي الله عنه . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .
الأدب المفرد : بلفظ مقارب في : ص : ٢٤٨ . و برقم : (٧١٠) .
و انظر : فتح الباري : ٩٦/١١ . تحفة الأحوذى : ٢٢٨/٩ . وإسناد الحديث صحيح كما قال الحاكم .

(٢) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب الدعوات : (٥٤/٨٠) . باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له : (٢١) . برقم :
(٦٣٣٨) . ص : ١٣٥٢ . و بلفظ مقارب في : كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى :
﴿ تَوَتَّى الْمَلِكُ مَنْ تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] : (٣١) . برقم : (٧٤٦٤) . ص : ١٥٦٨ .

صحيح مسلم : بلفظ مقارب في : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار : (٤٨) . باب العزم بالدعاء ، ولا
يقول : إن شئت : (٣) . برقم : (٢٦٧٨) . ٢٠٦٣ / ٤ .

(٣) المرجع السابق : بلفظه — جزء من حديث في : الكتاب والباب السابقين . برقم : (٢٦٧٩) . ٢٠٦٣ / ٤ .

وأن يديم دعاءه ولا يئأس ، ويلجّ في طلبه ولا يعجز ، ويطمع في إجابته ولا يقطع رجاءه من ربه ، ولا يستعجل فيستبطن الإجابة فيترك الدعاء .
 عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لي " ^(١) .

و انظر : صحيح البخاري: كتاب الدعوات : (٥٤/٨٠) . باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له : (٢١) . برقم : (٦٣٣٩) . ص : ١٣٥٢ . و كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى : ﴿ تَوْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] : (٣١) . برقم : (٧٤٧٧) . ص : ١٥٧٠ .

قال ابن بطّال (رحمه الله) في الحديث : " إنه ينبغي للداعي أن يجتهد في الدعاء ، ويكون على رجاء الإجابة ، ولا يقنط من الرحمة فإنه يدعو كريماً " .
 وقال ابن عيينة (رحمه الله) : " لا يمنع أحدًا الدعاء ما يعلم في نفسه ، يعني من التقصير . فإن الله قد أحاب دعاء شرّ خلقه وهو إبليس حين قال : ﴿ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤] " .
 وقال الذّاودي (رحمه الله) : " معنى قوله : " ليعزم المسألة " : أن يجتهد ويلجّ ، ولا يقل : إن شئت كالمستثنى ولكن دعاء البائس الفقير " .

وقال ابن عبد البر (رحمه الله) : " لا يجوز لأحد أن يقول : اللهم اعطني إن شئت وغير ذلك من أمور الدّين والدّنيا ، لأنه كلام مستحيل لا وجه له ، لأنه لا يفعل إلّا ما شاءه " . نقل ذلك عنهم الحافظ في فتح الباري : ١٤٠/١١ . طبعة دار المعرفة . ثم قال :

" معنى الأمر بالعزم الجّد فيه ، وأن يجزم بوقوع مطلوبه ، ولا يعلّق ذلك بمشيئة الله تعالى ، وإن كان مأموراً في جميع ما يريد فعله أن يعلّقه بمشيئة الله تعالى . وقيل : معنى العزم : أن يحسن الظنّ بالله في الإجابة ... إن الذي يحتاج إلى التعليق بالمشيئة ما إذا كان المطلوب منه يتأتّى إكراهه على الشّيء ، فيخفف الأمر عليه ، ويعلم بأنّه لا يطلب منه ذلك الشّيء إلّا برضاه . وأمّا الله سبحانه فهو متره عن ذلك ، فليس للتعليق فائدة . وقيل : المعنى : إن فيه صورة الاستغناء عن المطلوب ، والمطلوب منه والأوّل أولى " . فتح الباري : ١٤٠/١١ . طبعة دار المعرفة . وانظر : شرح الزرقاني على الموطأ : ٤٧/٢ . عون المعبود : ٢٤٩/٤ .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الدعوات : (٥٤/٨٠) . باب يستجاب للعبد ما لم يعجل : (٢٢) . برقم :

(٦٣٤٠) . ص : ١٣٥٢-١٣٥٣ .

صحيح مسلم : بلفظه — إلا إنه قال : " فيقول " — في : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار : (٤٨) .

باب بيان يستجاب للداعي ما لم يعجل : (٢٥) . برقم : (٢٧٣٥) . ٢٠٩٥/٤ .

وفي روايته الأخرى عن النبي ﷺ قال : " لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم ، أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل " . قيل يا رسول الله : وما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت ، وقد دعوت ، فلم أر يستجيب لي ، فيستحسر^(١) عند ذلك ويدع الدعاء " (٢) .

قال ابن بطال (رحمه الله) :

" المعنى : أنه يسأم فيترك الدعاء فيكون كالمان بدعائه ، أو أنه أتى من الدعاء ما يستحق به الإجابة فيصير كالمبخل للرب الكريم الذي لا تعجزه الإجابة ، ولا ينقصه العطاء " (٣) .

(١) قال النووي (رحمه الله) : " فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء : قال أهل اللغة : يقال : حسر واستحسر : إذا

أعيا وانقطع عن الشيء . والمراد هنا أنه ينقطع عن الدعاء . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩] : أي لا ينقطعون عنها . ففيه أنه ينبغي إدامة الدعاء ، ولا

يستبطئ الإجابة " . شرح النووي على مسلم : ٥٢/١٧ .

(٢) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار : (٤٨) . باب بيان يستجاب للداعي ما لم

يعجل : (٢٥) . برقم : (٢٧٣٥) . ٢٠٩٦/٤ .

(٣) فيما نقله الحافظ ابن حجر في الفتح عنه : ١٤٠/١١ - ١٤١ . طبعة دار المعرفة .

ف قوله : " فلم يستجب لي " : وهو إما استبطاء ، أو إظهار يأس ، وكلاهما مذموم . أما الأول : فلأن الإجابة لها

وقت معين . وأما القنوط : ﴿ لَا يَأْيُسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]

مع أن الإجابة على أنواع : منها تحصيل عين المطلوب في الوقت المطلوب ، ومنها أدخاره ليوم يكون أحوج إلى

ثوابه ، ومنها وجوده في وقت آخر لحكمة اقتضت تأخيرها ، ومنها دفع شر بدله . عون المعبود : ٢٥٠/٤ .

بتصرف .

فمن له ملالة من الدعاء لا يقبل دعاؤه ، لأن الدعاء عبادة حصلت الإجابة أو لم تحصل ، فلا ينبغي للمؤمن أن

يملّ من العبادة ، وتأخير الإجابة إما : لأنه لم يأت وقتها . وإما : لأنه لم يقدر في الأزل قبول دعائه في الدنيا

ليعطى عوضه في الآخرة . وإما : أن يؤخر القبول ليلح ويبالغ في ذلك ، فإن الله يحب الملحين في الدعاء . مع ما

في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار . ومن يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له ، ومن يكثر الدعاء

وأن يدعو دعاء مضطرّ منكسر بين يدي الله ، مستيقن للإجابة منه سبحانه ،
مقبل بقلبه نحوه ، معظّم لرجائه فيه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ادعوا الله وأنتم موقنون
بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه " ^(١) .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ،
وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة . وهي الثلث الأخير من الليل ، وعند
الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وأدبار الصلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام
يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة ، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك

يوشك أن يستجاب له . شرح الزرقاني على الموطأ : ٤٨/٢ . وانظر : شرح النووي على مسلم : ٥٢/١٧ .
فتح الباري : ١٤١/١١ . طبعة دار المعرفة . جامع العلوم والحكم : ص : ٣٩٢ . تحفة الأحوزي : ٢٣٣/٩ .
(١) سنن الترمذي : بلفظه في : كتاب الدعوات : (٤٤) . باب : (٦٥) . برقم : (٣٤٧٩) . وقال : " هذا حديث

غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه " . وقال الألباني (رحمه الله) : " حسن " . ص : ٥٤٩ .
مستدرک الحاكم : بلفظه — إلا إنه قال : " لا يقبل دعاء " — في : ٦٧٠/١-٦٧١ . وقال : " هذا حديث
مستقيم الإسناد ، تفرد به صالح المري ، وهو أحد زهاد أهل البصرة ، ولم يخرجاه " .
ويشهد له حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قال " القلوب أوعى ، وبعضها أوعى
من بعض ، فإذا سألت الله عز وجل أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة . فإن الله لا يستجيب لعبد دعاءه
عن ظهر قلب غافل " . أخرجه أحمد في المسند : ١٧٧/٢ . وحسن المنذري إسناده . انظر : الترهيب والترهيب :
٣٢٢/٢ .

قوله : " وأنتم موقنون بالإجابة " : أي والحال أنكم موقنون بها ، أي كونوا عند الدعاء على حالة تستحقون
بها الإجابة من إتيان المعروف ، واجتناب المنكر ، ورعاية شروط الدعاء ، كحضور القلب ، وترصد الأزمنة
الشريفة ، والأمكنة المنيفة ، واغتنام الأحوال اللطيفة كالسجود إلى غير ذلك . حتى تكون الإجابة على قلوبكم
أغلب من الرد . أو أراد وأنتم معتقدون أن الله لا يخييكم لسعة كرمه ، وكمال قدرته ، وإحاطة علمه ، لتحقيق
صدق الرجاء ، وخلوص الدعاء ، لأن الداعي ما لم يكن رجاؤه واثناً — أي دائماً مقيماً عليه — لم يكن دعاؤه
صادقاً .

" من قلب غافل " : بالإضافة وتركها ، أي معرض عن الله أو عما سأل . " لاه " : من اللّهُ ، أي لاعب بما
سأله ، أو مشتغل بغير الله تعالى . وهذا عمدة آداب الدعاء . تحفة الأحوزي : ٣١٦/٩ . وانظر : جامع
العلوم والحكم : ص : ٣٩٢ . شرح الزرقاني على الموطأ : ٤٨/٢ . فيض القدير : ٢٢٨/١-٢٢٩ .

اليوم . وصادف خشوعاً في القلب ، وانكساراً بين يدي الربّ ، وذلاً له وتضرّعاً ورقّة ، واستقبل الدّاعي القبلة وكان على طهارة ، ورفع يديه إلى الله تعالى ، وبدأ بحمد الله والتّناء عليه ، ثمّ تتّى بالصّلاة على محمّد عبده ﷺ ، ثمّ قدّم بين يدي حاجته التّوبة والاستغفار ، ثمّ دخل على الله ألحّ عليه في المسألة ، وتملّقه ودعاه رغبة ورهبة ، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده ، وقدّم بين يدي دعائه صدقة . فإنّ هذا الدّعاء لا يكاد يردّ أبداً ، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النّبي ﷺ أنّها مظنة الإجابة ، أو أنّها متضمّنة للاسم الأعظم ... والأدعية والتّعوذات بمنزلة السّلاح ، والسّلاح بضاربه لا بحدّه فقط ، فمتى كان السّلاح سلاحاً تامّاً لا آفة به ، والسّاعد ساعد قوي ، والمانع مفقود حصلت به النّكاية في العدو . ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير ، فإن كان الدّعاء في نفسه غير صالح ، أو الدّاعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدّعاء ، أو كان ثمّ مانع من الإجابة لم يحصل الأثر" (١) .

(١) الجواب الكافي : ص : ٨-٥ .

وقال القرطبي (رحمه الله) :

" إنّ إجابة الدّعاء لا بد لها من شروط في الدّاعي ، وفي الدّعاء ، وفي الشّيء المدعو به . فمن شرط الدّاعي: أن يكون عالماً بأنّ لا قادر على حاجته إلّا الله ، وأنّ الوسائط في قبضته ومسخّرة بتسخيره ، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب ، فإنّ الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه ، وأن يكون مجتنباً لأكل الحرام ، وآلاً يملّ من الدّعاء . ومن شرط المدعو فيه : أن يكون من الأمور الجائزة الطّلب والفعل شرعاً ، كما قال : " ما لم يدع بيلّغ أو قطيعة رحم" فيدخل في الإنثم كلّ ما يأنم به من الذّنوب ، ويدخل في الرّحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم . وقال سهل بن عبد الله التّستري : شروط الدّعاء سبعة : " أوّلها التّضرّع والخوف والرّجاء والمداومة والخشوع والعموم وأكل الحلال " . وقال ابن عطاء : " إنّ للدّعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاً ، فإن وافق أركانه قوي ، وإن وافق أجنحته طار في السّماء ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه أنجح . فأركانه حضور القلب والرّافة والاستكانة والخشوع ، وأجنحته الصّدق ، ومواقيته الأسحار ، وأسبابه الصّلاة على محمّد ﷺ . وقيل : شرائطه أربع : أوّلها حفظ القلب عند الوحدة ، وحفظ اللّسان مع الخلق ، وحفظ العين عن التّظر إلى ما لا يحلّ ، وحفظ البطن من الحرام . وقد قيل : إنّ من شرط الدّعاء أن يكون سليماً من اللّحن ، كما أنشد بعضهم :

ينادي ربّه باللّحن ليث كذاك إذا دعاه لا يجيب

وقيل لإبراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قال : " لأنّكم عرفتم الله فلم تطيعوه ، وعرفتم الرّسول فلم تتبعوا سنّته ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأكلتم نعم الله فلم تؤدّوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ،

والعبد محتاج إلى دعاء الله تعالى في كل وقت وحين ، لأنه مفتقر إليه ، لا يستغني عنه طرفة عين . ولذا كان ﷺ يقول في دعائه : " اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت " (١) .

ولم لا يكون العبد كذلك وجميع أموره بيد مولاه ، مالك لها متصرف فيها ؟ . بل قلبه الذي بين جنبيه ، وهو أعظم ما يملك ، بيد مالكة سبحانه يقلبه كيف يشاء ، ويصرفه كيف يشاء .

قال عز وجل : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] .

وقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهٌُ غَنِيٌّ ﴾ [الأنفال: ٢٤] .

تَحْشُرُونَ ﴿ [الأنفال: ٢٤] .

وعرفتم النار فلم تحربوا منها ، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا ، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس . الجامع لأحكام القرآن : ٣١١/٢ - ٣١٢ . وانظر : فتح الباري : ١٤١/١١ . طبعة دار المعرفة .

(١) سنن أبي داود : بلفظه — وأوله : " دعوات المكروب " — في : كتاب الأدب : (٤٠) . باب ما يقول إذا أصبح : (١٠١/١٠٠) . برقم : (٥٠٩٠) . عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه . قال الألباني (رحمه الله) : " حسن الإسناد " . ص : ٥٤٩ .

مسند أحمد : بلفظه — إلا حرفاً — في : ٤٢/٥ . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : بلفظه في : باب ذكر وصف دعوات المكروب . برقم : (٩٧٠) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده محتمل للتحسين " . ٢٥٠/٣ .

مستدرک الحاكم : نحوه في : ٧٣٠/١ . عن أنس رضي الله عنه . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " .

انظر : مبحثاً قيماً في بيان افتقار العبد إلى الله تعالى في طريق المجرتين : ص : ٢٥-٢٦ ، ٥٣-٥٥ . و انظر : درء تعارض العقل والنقل . لشيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق : محمد رشاد سالم . طبعة دار الكنوز الأدبية . الرياض . ١٣٩١هـ : ٣٥-٣٤/٩ .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : " إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفه حيث يشاء " ثم قال رسول الله ﷺ : " اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك " . (١) .

وهو سبحانه يزيغ منها من أراد إزاغته ، ويقم منها من أراد إقامته .
عن النّوّاس بن سَمْعَانَ الكلابي قال : سمعت ﷺ يقول : " ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه " وكان رسول الله ﷺ يقول : " يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك " . قال : " والميزان بيد الرحمن يرفع أقواماً ويخفض آخرين إلى يوم القيامة " (٢) . وله في ذلك الحكمة البالغة .

(١) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب القدر : (٤٦) . باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء : (٣) . برقم :

(٢٦٥٤) . ٢٠٤٥/٤ .

ولذا كانت القلوب أشدّ تقلباً وأعظم تحوّلاً كما ثبت عنه ﷺ في حديث المقداد بن الأسود ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لقلب بن آدم أشدّ انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياناً " . مسند أحمد : بلفظه — إلا إنه قال : " غلياً " . في : ٤/٦ . مستدرک الحاكم : بلفظه — إلا إنه قال : " اجتمع " — في : ٣١٧/٢ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه " . معجم الطبراني الكبير : بلفظ مقارب في : ٢٥٥/٢٠ . مسند الشهاب : بلفظ مقارب في : ٢٦٦/٢ . برقم : (١٣٣١) . وهو حديث صحيح كما ذكر الشيخ الألباني (رحمه الله) في صحيح الجامع : برقم : (٥١٤٧) . ٩١٥/٢ .

وفي الحديث الآخر : عن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " إنما سُمّي القلب من تقلبه ، إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة يقلبها الريح ظهرًا لبطن " . مسند أحمد : بلفظه في : ٤٠٨/٤ . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . صحيح الجامع : برقم : (٢٣٦٥) . ٤٦٦/١ .

(٢) سنن ابن ماجه : بلفظه في : المقدمة . باب فيما أنكرت الجهميّة : (١٣) . برقم : (١٩٩) . قال الألباني

(رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٣٧ .

مسند أحمد : بلفظ مقارب في : ١٨٢/٤ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : بلفظ مقارب في : باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من التملّق إلى الباري في ثبات قلبه له على ما يحبّ من طاعته . برقم : (٩٤٣) . قال شعيب الأرنؤوط : " إسناده صحيح " .

ولذا كان أعظم ما يدعو به الإنسان ربّه أن يثبت قلبه على الحقّ فلا يزيغ ولا يبتكس .

ولذا لجأ الرّاسخون في العلم ، العالمون بالله ، الرّاغبون في مرضاته ، المتذلّلون في طاعته إلى خالقهم جلّ وعلا أن يعصم قلوبهم من الزّيغ ، ويحفظها من الانحراف والميل . فقالوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ : أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمته عليه ، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم ، ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ، ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ " . (١) .

وكان إمام الرّاسخين ، وسيّد المتّقين ، وأعظم الثّابّتين يكثر في دعاء ربّه أن يثبت قلبه فلا يزيغ ولا ينصرف عن هدي الله وطاعته .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ٧٠٦/١ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وله شاهد بإسناد صحيح عن أنس بن مالك " . وفي : ٣٥٧/٤ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط مسلم " . وسكت عنه الذهبي .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥٢١/١ . وانظر : جامع البيان : ٣/١٨٦-١٨٧ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام

القرآن : ٢٠-١٩/٤ . أنوار التّزويل : ١٠/٢ . فتح القدير : ٣١٨/١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٠٢ .

عن أنس رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " فقلت : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به . فهل تخاف علينا قال :
" نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء " ^(١).

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت : دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر يدعو بها : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " . قالت : فقلت : يا رسول الله إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء ؟ فقال : " إن قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله عز وجل فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه " ^(٢).

ولما سئلت أم سلمة (رضي الله عنها) عن أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندها قالت : كان أكثر دعائه : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " . قالت : فقلت له : يا رسول الله ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ؟ قل :

(١) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب القدر : (٢٩) . باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن : (٧) . برقم :

(٢١٤٠) . وقال : " وهذا حديث حسن " . وقال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٣٥٦ .

سنن ابن ماجه : بلفظ مقارب في : كتاب الدعاء : (٣٤) . باب دعاء الرسول ﷺ : (٢) . برقم : (٣٨٣٤) .

قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤١٠ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ١١٢/٣ ، ٢٥٧ .

مستدرک الحاكم : الشَّطْرُ الأوَّل منه بلفظه في : ٧٠٧/١ . ونحوه عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) . في :

٣١٧/٢ .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب . برقم : (٣٦٨٧ ، ٣٦٨٨) . قال محققه : " إسناده صحيح على شرط مسلم " .

٣٦٠-٣٥٩/٦ . ونحوه عن جابر رضي الله عنه . برقم : (٢٣١٨) . قال المحقق : " إسناده صحيح على شرط مسلم " .

٢٠٧/٤ .

معجم الطبراني الكبير: الشَّطْرُ الأوَّل منه بلفظ مقارب في : : ٢٦١/١ .

الأدب المفرد : الشَّطْرُ الأوَّل منه بلفظ مقارب في : ص : ٢٣٧ . و برقم : (٦٨٣) .

(٢) مسند أحمد: بلفظه في : ٩١/٦ . ونحوه في : ٢٥٠/٦ .

مسند أبي يعلى: نحوه . برقم : (٤٦٦٩) . في : ١٢٨/٨ .

"يا أم سلمة ما من آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله عز وجل ما شاء أقام وما شاء أزاغ" (١) .

فهذا هو المعصوم ﷺ يدعو مولاه ، ويكثر من دعائه أن يتثبت قلبه على دينه ، لعلمه أنه المتصرف في قلوب عباده ، لا فرق بين رسول وغيره ، وأن التوفيق والخذلان بيده سبحانه ، يوفق من شاء إلى الثبات والهدى بفضله ورحمته ، ويخذل من شاء له الخذلان بعدله وحكمته ، وهو في ذلك لم يمنع من خذله شيئاً هو له ، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه ، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله . فلمّا علم ﷺ أن ذلك كله بيد مولاه وتحت أمره علم شدة ضرورته وحاجته في كل نفس ولحظة وطرفة عين وأقل من ذلك إلى توفيق ربه وتنبيته . فطرح نفسه بين يديه ، وأسلم قياده إليه ، خاضعاً ذليلاً مستكيناً ، يلهج لسانه بدعائه أن يتثبت قلبه على الحق (٢) .

وهذا شأن كل عبد مخلص لله ، يسأل ربه الثبات في كل حين ووقت ، ولا يركن إلى نفسه ، ففي ذلك هلاكه ودماره .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

"يستغيث العبد بربه ووليّه ومالك أمره كله ، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك .
وأيضاً فإنه يزيل من قلبه آفة الركون إلى نفسه أو عمله أو حاله ، كما قيل :
إن ركنت إلى العلم أنسيناك ، وإن ركنت إلى الحال سلبناك إياه ، وإن ركنت إلى

(١) مسند أحمد: بلفظه في : ٣١٥/٦ . و بلفظ مقارب في : ٣٠١/٦ . وفيه أن السائل هو شهر بن حوشب .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب . برقم : (٦٩٨٦) . ونحوه برقم : (٦٩١٩) . في : ٤١٩ / ١٢ ، ٣٥٠ . قال الخقق : "إسناده حسن" . في الموضعين .

معجم الطبراني الكبير: بنحو منه في : ٣٣٤/٢٣ . ونحوه في : ٣٣٨/٢٣ ، ٣٦٦ .

مسند أبي داود الطيالسي: نحوه في: ص : ٢٢٤ . برقم : (١٦٠٨) .

(٢) و انظر : مدارج السالكين : ٤١٤/١ .

المعرفة حجبناها عنك ، وإن ركنت إلى قلبك أفسدناه عليك . فلا يركن العبد إلى شيء سوى الله البتة . ومتى وجد من قلبه ركونا إلى غيره فليعلم أنه قد أحيل على مفلس بل معدم ، وأنه قد فتح له الباب مكرراً ، فليحذر ولوجه والله المستعان " (١) .

والمرء محتاج إلى الدّعاء بالثّبات في كلّ موطن من المواطن . ومن تلك المواطن موطن الجهاد في سبيل الله ، لأنّه موطن شاقّ على النفوس ، مجهد للقلوب ، مهول مخوف ، لما فيه من إزهاق للأرواح ، وبتر للأعضاء ، وسفك للدماء ، وضياع للأموال والأبناء .

فالدّعاء بالثّبات في هذا الموطن مطلب ملحّ ، وغاية عاجلة ، ورغبة أكيدة . يجب أن لا يفارقه المجاهد في سبيل الله طرفة عين ، إذ هو في أمسّ الحاجة إليه . ولذا كان الدّعاء بالثّبات في الجهاد ديدن الأنبياء وأتباعهم كما حكى ذلك عنهم ربّ العزة في قرآنه حين قال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨] .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" يعني تعالى ذكره بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ... ﴾ إِلَّا أَن قَالُوا ﴾ ، يعني : ما كان لهم قول سوى هذا القول ، إذ قتل نبيّهم ، وقوله : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ، يقول : لم يعتصموا ، إذ قتل نبيّهم ، إِلَّا بالصّبر على ما أصابهم ، ومجاهدة عدوهم ، وبمسألة ربّهم المغفرة والنّصر على عدوهم ... ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ ،

(١) المرجع السابق : ١٨٩/٣ .

فإنه يقول: اجعلنا ممن يثبت لحرب عدوك وقتالهم ، ولا تجعلنا ممن يهزم فيفر منهم ولا يثبت قدمه في مكان واحد لحربهم ، ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ، يقول: وانصرنا على الذين جحدوا وحدانيتك ونبوة نبيك " (١) .

وقال البيضاوي (رحمه الله) :

" أي وما كان قولهم مع ثباتهم ، وقوتهم في الدين ، وكونهم ربانيين إلا هذا القول ، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم هضماً لها ، وإضافة لما أصابهم إلى سوء أعمالهم والاستغفار عنها ، ثم طلب التثبيت في موطن الحرب والنصر على العدو ليكون عن خضوع وطهارة ، فيكون أقرب إلى الإجابة ، وإنما جعل قولهم خيراً لأن ﴿أَنْ قَالُوا﴾ أعرف لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث " (٢) .

وكذلك فعل أصحاب طالوت ومعهم نبي الله داود عليه السلام لما واجهوا جالوت وجنوده ، حيث لجؤوا إلى الله ملحين عليه بالدعاء كي يثبتهم فلا يهزموا ، ويقويهم فلا يضعفوا ، وينصرهم فلا يخذلوا .

قال سبحانه : ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١] .

(١) جامع البيان ٤/١٢٠-١٢١ . طبعة دار الفكر .

(٢) أنوار التبريل : ١٠١/٢ .

لقد سبق الحديث في معنى هذه الآيات وإنما أوردت هنا ما يناسب المقام ، ويصلح للاستشهاد . انظر :

ص : ٢١٠ .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" إن طالوت وأصحابه قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ ، يعني: أنزل علينا صبراً. وقوله: ﴿ وَثَبَّتْ أقدامنا ﴾ ، يعني: وقو قلوبنا على جهادهم ، لتثبت أقدامنا فلا ننهزم عنهم ، ﴿ وَأَنصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ، الذين كفروا بك فجدوك إلهاً ، وعبدوا غيرك ، واتخذوا الأوثان أرباباً " (١) .

وقال البيضاوي (رحمه الله) :

" التجؤوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء ، وفيه ترتيب بليغ إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر ، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه ، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً " (٢) .
وقد أجاب الله دعاءهم كما أجاب دعاء أنبياء الله وأتباعهم من قبل ، فقوى قلوبهم ، وثبت أقدامهم فنصروا على أعداء الله ، وهزموهم .
ولذا أرشد النبي ﷺ أمته إلى الدعاء في هذا المقام ، وبين لهم أنه لا يرد فقال في حديث سهل بن سعد ؓ : " تثنان لا تردان أو قلما تردان : الدعاء عند النداء ، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً " (٣) .

(١) جامع البيان : ٦٢٥/٢ . طبعة دار الفكر .

(٢) أنوار التنزيل : ٥٤٨/١ . و انظر : تفسير القرآن العظيم : ٤٥٣/١ .

(٣) سنن أبي داود : بلفظه في : كتاب الجهاد : (١٥) . باب الدعاء عند اللقاء : (٤٩) . برقم : (٢٥٤٠) .

قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٢٨٨ .

سنن الدارمي : بلفظه في : باب الدعاء عند الأذان . في : ٢٩٣/١ .

سنن البيهقي : بلفظه في : باب الدعاء بين الأذان والإقامة . ٤١٠/١ . وفي : باب طلب الإجابة عند نزول الغيث . ٣٦٠/٣ .

صحيح ابن خزيمة : بلفظه — إلا إنه قال : " يلتحم " — في : باب استحباب الدعاء عند الأذان ، ورجاء إجابة الدعوة عنده . ٢١٩/١ .

وقد فعل ﷺ ذلك بنفسه . ففي بدر قام يدعو : " اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم " ^(١) . حتى سقط رداؤه يستنجز الله ما وعده ، ويلج في السؤال إلى أن قال له أبو بكر ﷺ : " كذاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك " ^(٢) .

بل كان ذلك ديدنه في كل غزواته ﷺ ^(٣) .

مستدرک الحاكم: بلفظه في : ٣١٣/١ . و بلفظ مقارب في : ١٢٤/٢ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .

معجم الطبراني الكبير: بلفظ رواية ابن خزيمة . في : ١٣٥/٦ .

(١) هذا جزء من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ الذي سبق تخريجه . انظر : ص : ٦٧٥ .

وهذا اللفظ في : صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس : (١١١/١١٢) . برقم : (٢٩٦٦) . ص : ٦٢٤ . وفي باب لا تتموا لقاء العدو : (١٥٥/١٥٦) . برقم : (٣٠٢٥) . ص : ٦٣٧ .

صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب كراهة غمّي لقاء العدو ، والأمر بالصبر عند اللقاء : (٦) . برقم : (١٧٤٢) . ١٣٦٣/٣ .

(٢) المرجع السابق : بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة

الغنائم : (١٨) . برقم : (١٧٦٣) . ١٣٨٤-١٣٨٣/٣ .

قال النووي (رحمه الله) : " قوله " كذاك مناشدتك ربك " : المناشدة السؤال ، مأخوذة من التشديد وهو رفع الصوت . هكذا وقع لجماهير رواة مسلم كذاك بالذال وبعضهم كفكك بالفاء ... وضبطوا مناشدتك بالرفع والتصب وهو الأشهر . قال القاضي : من رفعه جعله فاعلاً بكفكك ، ومن نصبه فعلى المفعول بما في حسبك وكفكك ، وكذاك من معنى الفعل من الكف . قال العلماء : هذه المناشدة إنما فعلها النبي ﷺ ليراه أصحابه بتلك الحال فتقوى قلوبهم بدعائه وتضرّعه مع أنّ الدعاء عبادة ، وقد كان وعده الله تعالى إحدى الطائفتين : أما العير وأما الجيش ، وكانت العير قد ذهبت وفاتت ، فكان على ثقة من حصول الأخرى ، ولكن سأل تعجيل ذلك ، وتنجيذه من غير أذى يلحق المسلمين " . شرح النووي على مسلم : ٨٥/١٢ .

(٣) و انظر : المرجع السابق : ٤٧/١٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١١٨ . وقد نقل (رحمه الله) اتفاق أهل العلم على استحباب

الدعاء في ذلك المقام . ٤٧/١٢ .

فالدعاء عامل مهمّ ، عظيم النفع ، بالغ الأثر في تثبيت المجاهد في موطن
الجهاد ، بل تثبيت العبد في كلّ موطن . وهو سلاح مضاعف لا يقلّ حدّه ، ولا
يضعف عزمه ، ولا يهزم صاحبه متى ما استخدمه استخداماً صحيحاً .
والمؤمن الحريص على الثبات عليه أن لا يغفل عنه أبداً ، بل يلزمه ويداوم
عليه في كلّ حين ووقت ، فلن يجد أنفع له منه .

المبحث السادس

الآجال محدودة والأعمار معدودة

قال المولى عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَتَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٣-٢٤٤].

لقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بالقتال والجهاد في سبيله ، وقدم لهذا الأمر بحادثة يشجعهم بها على الجهاد والثبات في حومة الوغى ، وعند مبارزة الأقران .
وتلك الحادثة تحكي عن قوم خرجوا من بلادهم لما حلّ بها وباء قاتل ففروا منه طلباً للنجاة ، وحباً للحياة ، ولكن الله عاملهم بنقيض قصدهم فماتوا جميعاً ، ثم أحياهم . وفي ذلك عبرة ودلالة على أن الحذر لا ينجي من القدر ، وأن الفرار من الموت لا يغني منه ، وأن الفزع والجزع لا يغيّر المصير ولا يردّ القضاء ، لأن الموت له أجل محدود ، وعمر معدود لا يتخطاه المرء مهما فعل . فعلى المجاهد في سبيل الله الصبر والثبات ، لأن قتاله لا يدني أجله ، وفراره لا يزيد في عمره .^(١)

ولما زعم المنافقون أن الأمر لو كان بأيديهم ما قتل من قتل منهم في معركة أحد ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ قُلْ لَّوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

(١) وانظر : جامع البيان : ٥٩٠/٢-٥٩٢ . التفسير الكبير : ١٦٣/٦-١٦٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٣٦/٣ .

تفسير القرآن العظيم : ٤٤٦/١-٤٤٧ فتح البيان : ٦٣/٢-٦٥ . محاسن التأويل : ٦٣٧/٣-٦٣٩ . أضواء

البيان : ١٩٢/١-١٩٣ . في ظلال القرآن : ٢٦٤/١ .

أي يأتيها القائلون هذه المقالة القاذحة في قدر الله ، المنكرة لمشيئته ، لو بقيتم في مساكنكم التي هي أبعد شيء عن مظان القتل لخرج الذين كتب عليهم القتل منكم بسبب من الأسباب الداعية إلى الخروج إلى الموضع الذي قدر الله فيه قتلهم فقتلوا فيه ، فالتدبير لا يقاوم التقدير ، والحذر لا يدفع القدر ، وليس كل من يقاتل يقتل ، وإنما يقتل من كتب عليه القتل ، وحان أجله كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ولم يقتصر سبحانه على تحقق نفس القتل ، بل عيّن مكانه أيضاً مبالغة في ردّ مقاتلتهم . (١)

ولذلك حذر الله المؤمنين الصادقين في جهادهم أن يكونوا مثل هؤلاء المنافقين الذين جبنوا عن القتال ، فجاءت أقوالهم ملتوية ، بعيدة عن الحق والصواب ، وأفعالهم منافية لأمر الله العزيز الوهاب . فقال سبحانه : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٦-١٥٨].

أي يا أيها المؤمنون المجاهدون احذروا أن تكونوا كالمنافقين الذين يقولون لمن قتل في سبيل الله إنهم لو كانوا معنا قاعدين عن القتال ، معتصمين عن الجهاد ،

(١) وانظر : جامع البيان : ١٤٣/٤ - ١٤٤ . التفسير الكبير : ٩٤/٩ . فتح البيان : ٣٥٩/٢ . تيسير الكريم الرحمن :

ناكلين عنه ما وصل القتل إليهم أبداً ، لأنهم في مأمن منه . وهذا قول يجلب الحسرة والندامة لهم في دنياهم وأخراهم ، لما يترتب عليه من عقاب وعذاب .
واعلموا أيها المؤمنون أن الذي بيده الإحياء والإماتة هو الله وحده ، بيده الخلق ، وإليه يرجع الأمر . والموت كائن لا محالة ، فأولى أن يكون في سبيل الله الذي يوجب النعيم الدائم والمغفرة والرحمة ، وذلك أعظم من حطام الدنيا الزائل ، ورغيد عيشها الفاني الذي يتأخر المنافقون عن الجهاد من أجله .
ومن مات أو قتل فمردّه ومرجعه إلى الله الذي يتولّى حسابه ، فليؤثر رضاه ، وما يؤدي إلى نيل جزائه ، ومن ذلك الجهاد في سبيله .^(١)

وعلى هؤلاء المنافقين المتبطين بذلك القول عن الجهاد أن يدفعوا عن أنفسهم الموت ، فإنه قادم إليهم لا محالة ، وواقع بهم بلا مريّة ، كما قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨] .

وما أنجاهم من الموت قعودهم عن الجهاد ، ولكنه لم يقدره الله عليهم حينها .^(٢)
فالجهاد في سبيل الله لا يدني من الأجل ، والبعد عنه لا يزيد في العمر ، ومن علم أن الأجل محدود ، والعمر معدود نفى الفرع عن قلبه ، والجبن عن نفسه ، وثبت في ميادين القتال ثبات الجبال الشّم التي لا تزلزلها أعاصير الرياح .

(١) وانظر : جامع البيان : ١٤٩/٤ - ١٥٠ . التفسير الكبير : ٥٦/٩ - ٥٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٧/٤ .

تفسير القرآن العظيم : ٦٢٨/١ . فتح البيان : ٣٦٢/٢ . تفسير المراغي : ١١٠/٤ - ١١١ . أضواء البيان : ٢٦٠ - ٢٥٩/١ .

(٢) وانظر : جامع البيان : ١٦٩/٤ - ١٧٠ . فتح البيان : ٣٧٤/٢ . محاسن التأويل : ١٠٣٢/٤ . تفسير المراغي :

١٣٠/٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٢٣ - ١٢٤ .

قال خالد بن الوليد رضي الله عنه حين حضرته الوفاة :

" لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها^(١) ، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة ، أو طعنة ، أو رمية ، وها أنا أموت على فراش كما يموت العَيْر ، فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل أرجى منه لا إله إلا الله ، وأنا متترس بها " .^(٢)

وقال أبو الطَّيِّب المتنبِّي :

وإذا لم يكن من الموت بدّ فمن العجز أن تكون جباناً^(٣)

وقال الآخر :

في الجبن عار وفي الإقدام مكرمة والمرء في الجبن لا ينجو من القدر^(٤)

(١) أي قدرها . مختار الصحاح : ص : ٢٧٧ . القاموس المحيط : ص : ١٦٦٨ .

(٢) أسد الغابة : ١٠٠/٢ . وانظر : سير أعلام النبلاء : ٣٨٢/١ .

(٣) ديوان المتنبّي همامشه العرف الطيّب : ٣٤٧/٢ .

(٤) أضواء البيان : ولم ينسبه لقائل معين : ١٩٣/١ . وانظر : تاريخ دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلّها من

الأماثل واحتاز بنواحيها من واردتها وأهلها . لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر .

تحقيق : أبي سعيد محبّ الدين عمر بن غرامة العمروي . طبعة دار الفكر . بيروت . ١٤١٥هـ — ١٩٩٥م :

٣٣٧/١٤ .

وقال قطري بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعي

فإنك لو سالت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاعي

فصيراً في مجال الموت صيراً فما نيل الخلود بمستطاع

ولا ثوب الحياة بثوب عزّ فيطوى عن أخي الخنع البراع

سبيل الموت غاية كلّ حي وداعيه لأهل الأرض داعي

ومن لم يعتبط بهرم ويسأم وتسلمه المنون إلى انقطاع

وما للمرء خير في حياة إذا ما عدّ من سقط المتاع

سير أعلام النبلاء : ١٥١/٤ — ١٥٢ .

﴿ المبحث السابع ﴾ النصر من عند الله

لقد جعل الله تعالى نصر عباده المؤمنين وغلبتهم للكافرين حقاً أوجبته على نفسه الكريمة ، تكرماً منه وتفضلاً .

فقال سبحانه : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] ^(١) .

وكتب سبحانه في كتابه الأول ، وحكم بحكم لا يغير ولا يبطل بأنه ناصر لأهل الإيمان ، وأنّ العاقبة لهم ، وغالب لأهل الكفر ، وأنّ الدائرة عليهم .

فقال عزّ في علاه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

[المجادلة: ٢١] ^(٢) .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" وقد جرت سنة الله سبحانه أنّ الغلبة لرسوله بالحجة والقهر ، فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه ، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك عدوه " ^(٣) .

وانظر : ديوان الحماسة : ٢٤/١ - ٢٥ . أمالي المرتضى . غرر الفوائد ودرر القلائد . للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة : عيسى البابي الحلبي وشركاه . الطبعة الأولى : ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م : ١/٦٣٦ - ٦٣٧ . وفيات الأعيان : ٩٤/٤ .

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٩٤/٣ . فتح البيان : ١٠/٢٦١ .

(٢) وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٦/١٧ . تفسير القرآن العظيم : ٥١٢/٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص :

٧٨٦ .

(٣) أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية . تحقيق : يوسف أحمد البكري . شاكر توفيق العاروري . طبعة : رمادي

للتنشيد — دار ابن حزم . الدمام . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤١٨هـ — ١٩٩٧م : ٣/١٣٩٣ .

وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٦/١٧ . أضواء البيان : ٧/٨٢٣ .

وقال عز وجل معضداً لما سبق : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] (١)

ونصر الله لرسله وأوليائه ليس محصوراً في هذه الدنيا ، بل هو في الدنيا والآخرة ، حيث يكون النصر أعظم وأكبر وأجل ، فقال تقدست أسماؤه : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غافر: ٥١] .

فإنه ينصر رسله بالغلبة على أعدائهم وقهرهم لهم ، أو بإعلائهم على من كذبهم ، أو بالانتقام ممن حادهم وشاقهم في حياتهم ، أو بتسليط من ينتقم منهم بعد مماتهم ، كما ينصرهم في الآخرة بتقوية حجتهم والشهادة لهم بالتبليغ ، وإذلال أعدائهم وتعذيبهم (٢) .

ونصره سبحانه لعباده قد يحصل بأسباب مألوفة معتادة ، كتقتيل المؤمنين للكافرين ، وقد يحصل بأسباب غير مألوفة ولا معتادة كاللقاء الرعب في قلوب الأعداء (٣) .

(١) وانظر في معناها : جامع البيان : ١١٤/٢٣ . التفسير الكبير : ١٧٢/٢٦ . تفسير القرآن العظيم : ٣٧/٤-٣٨ .

فتح البيان : ٤٣٤-٤٣٥/١١ . أضواء البيان : ٦٩٧/٦ .

(٢) وانظر : تفسير المراغي : ٨٢-٨١/٢٤ .

وقد أفاض الإمام ابن جرير وتبعه الإمام ابن كثير (رحمهما الله) في كيفية نصر الله لرسله .
انظر : جامع البيان : ٧٤-٧٥/٢٤ . تفسير القرآن العظيم : ١٢٦-١٢٧/٤ . كما ذكر الإمام الرزازي (رحمه الله) سبعة أوجه في نصر الله لرسله . انظر : التفسير الكبير : ٧٦/٢٧ . والمراد هنا نصر الله لرسله وعباده المؤمنين على الكافرين في موطن الجهاد هزيمتهم والغلبة عليهم ، وهو أعظم أنواع النصر .

(٣) وانظر : التفسير الكبير : ١٩٢/١٥ . الجهاد في الإسلام : ص : ٨٣ .

وقد ذكر مجموعة من الأسباب التي يسلطها الله على الأعداء فيكون بها نصر المؤمنين ، كالخوف والهلع والتفريق ، وتسخير بعض مخلوقاته كالحر والبرد والرياح والعواصف والظلام والبرق وغير ذلك .

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ إِنْ نَصَرَهُمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ فَلَنْ يَغْلِبَهُمْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَاقِطَارِهَا مِنَ الْخَلْقِ ، وَإِنْ خَذَلَهُمْ ، وَتَرَكَ عَوْنَهُمْ ، وَوَكَّلَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَلَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ يَسْتَطِيعُ نَصْرَهُمْ ، فَمَا عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَعْتَمِدُوا وَيَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ . فَقَالَ تَبَارَكَ اسْمُهُ : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ^(١) .

ولكن نصره سبحانه لعباده المؤمنين مشروط بنصرهم له ، فمتى مجاهدوا في سبيله لإعلاء كلمته ، وإعزاز دينه تكفل الله بنصرهم على عَدُوِّهِمْ ، وأظهرهم عليهم ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] ^(٢) .

وقال عقبها : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١] . وهذه صفات من وعدهم الله بالنصر ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] .

(١) وانظر : جامع البيان : ١٥٤/٤ . التفسير الكبير : ٦٨/٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٥٤/٤ . فتح البيان :

٣٦٦/٢ . تفسير المراغي : ١١٧/٤-١١٨ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٢٢ .

(٢) وانظر : جامع البيان : ١٧٨/١٧ . الكشف : ١٢٦/٣ " طبعة الاستقامة " . التفسير الكبير : ٤١/٢٣ . الجلمع

لأحكام القرآن : ٧٢/١٢ . تفسير القرآن العظيم : ٣٦٣/٣ . فتح البيان : ٥٨-٥٧/٩ . محاسن التأويل :

٤٣٤٦/١٢ . تفسير المراغي : ١١٩/١٧-١٢٠ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٤٨٩ .

(٣) انظر : أضواء البيان : ٤٢٢/٧-٤٢٣ .

يقول الشيخ السعدي (رحمه الله) :

" هذا أمر منه تعالى للمؤمنين ، أن ينصروا الله ، بالقيام بدينه ، والدعوة إليه ، وجهاد أعدائه ، وأن يقصدوا بذلك وجه الله ، فإنهم إذا فعلوا ذلك ، نصرهم وثبتت أقدامهم ، أي : يربط على قلوبهم بالصبر ، والطمأنينة ، والثبات ، ويصبر أجسادهم على ذلك ، ويعينهم على أعدائهم . فهذا وعد من كريم صادق الوعد ، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاة ، ويبسر له أسباب النصر ، من الثبات وغيره " (١) .

والمنتفع لسير الناس وملوكهم يرى أن كل من كان أنصر لدين الله ، وأعظم جهاداً لأعدائه ، وأقوم بطاعة الله ورسوله أعظم نصرة وطاعة . (٢)

يقول الإمام ابن القيم (رحمه الله) :

" ونختتم هذا الكتاب (٣) بآية من كتاب الله تعالى جمع فيها تدبير الحروب بأحسن تدبير وهي قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦] . فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء ما اجتمعت في فئة قط إلا نصرت ، وإن قلت وكثر عدوها :

أحدها : الثبات .

الثاني : كثرة ذكره سبحانه وتعالى .

الثالث : طاعته وطاعة رسوله .

(١) تيسير الكريم الرحمن : ص : ٧٣٠ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٣٢/١٦ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٦٤٠/٢٨ بتصرف يسير .

(٣) يعني كتاب الفروسيّة .

الرَّابِع : اتَّفَاق الكلمة وعدم التَّنازع الَّذي يوجب الفشل والوهن ، وهو جند يقوَّى به المتنازعون عدوَّهم عليهم ، فإنَّهم في اجتماعهم كالحزمة من السَّهام لا يستطيع أحد كسرها ، فإذا فرقها وصار كلُّ منهم وحده كسرها كلّها .

الخامس : ملاك ذلك كلّه وقوامه وأساسه وهو الصَّبْر .

فهذه خمسة أشياء تبنى عليها قبة النِّصر ، ومتى زالت أو بعضها زال من النِّصر بحسب ما نقص منها ، وإذا اجتمعت قوَّى بعضها بعضاً ، وصار لها أثر عظيم في النِّصر .

ولمَّا اجتمعت في الصَّحابة لم تقم لها أمة من الأمم ، وفتحوا الدِّنيا ، ودانت لهم البلاد .

ولمَّا تفرقت فيمن بعدهم ضعفت آل الأمر إلى ما آل ، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم " (١)

وهو كلام رصين ، وبلسم شافي ، وطريق بيّن لمن أراد أن يسلكه من أهل الجهاد في سبيل الله ليصل إلى قمة النِّصر .

فإذا أيقن المجاهد أنَّ النِّصر بيد الله ، ينصر به من حقَّق أسبابه ، وقام بما يجب عليه نحوه ، نزلت في قلبه السَّكينة ، وحلَّت في نفسه الطَّمانينة ، وسرى في جوانحه الثَّبات ، فأقدم على قتال عدوِّه بعزم صادق ، وشجاعة قاهرة ، وقوَّة نافذة حتَّى يكتب له النِّصر ، ويسعد بالغلبة والظَّفَر ، حيث يدفعه يقينه بأنَّ النِّصر من الله إلى الثَّبات ، ويقوده ثباته إلى النِّصر .

(١) الفروسيَّة : ص : ٥٠٥-٥٠٦ .

﴿ الفصل الخامس ﴾

نماذج للثبات في الجهاد

وفيه مباحث :

﴿ المبحث الأول ﴾

أنبياء الله تعالى عليهم السلام

إن أنبياء الله قمم عالية ، وشموس ساطعة في الثبات على دين الله أقوالاً وأعمالاً .

ومن أمروا بالجهاد منهم ضربوا أروع الأمثلة في الثبات عنده ، فلم تتزلزل أقدامهم ، ولم ترتجف قلوبهم ، بل كانوا كالجبال الشّم التي لا تؤثر فيها العواصف الهوجاء ، ولا الرياح العاتية ، وكيف لا يكونون كذلك وهم قدوة الأنعام ، وأسوة البشر ؟.

وقد أخبرنا ربنا عن ثباتهم في الجهاد مما يذهل العقول ، ويحير الأبواب ، فقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [١٤٦] وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [١٤٧] فَثَابَتَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [١٤٨] .

هذا خطاب لأول هذه الأمة ، يجر بأذنيه إلى من بعدهم ، يدعوهم فيه ربهم إلى التأسّي بأنبياء الله وأتباعهم الصادقين في الجهاد ، وأن يكونوا مثلهم فيثبتوا كما ثبتوا ، ويصبروا كما صبروا ، ويفعلوا كما فعلوا ، ويقولوا كما قالوا .
وبيان ذلك :

كم من نبيٍّ من أنبياء الله قاتل في سبيل الله ، وقاتل معه جماعة كثيرة من أتباعه ، فأصابهم في قتالهم من عظام الأهوال ، وشدائد الخطوب ، وفظائع الأمور ، وكثرة الجروح ما لا يعلم قدره إلا الله ، فما وهنت قلوبهم ، وما ضعفت أجسادهم ، وما عجزت نفوسهم ، وما تزلزلت أقدامهم ، وما جبنوا عند ملاقاته عدوهم ، وما ذلّوا له ولا خضعوا ، بل اعتصموا بالصبر عند الشدائد ، ووطّنوا أنفسهم على الموت عند المصائب ، وركنوا إلى الثبات عند الأهوال ، فلم يظهروا جزعاً ولا عجزاً ، ولا خوفاً ولا هلعاً ، ولا جبناً ولا خوراً . ومع ذلك أظهروا ذلهم وعجزهم وفاقتهم إلى ربهم ، فلجئوا إليه بالدعاء ، ورفعوا إليه أكف الضراعة ، هاضمين لأنفسهم ، مستصغرين لها ، مسندين ما أصابهم إلى أعمالهم ، لم يتحدثوا بما بذلوا من جهد وصبر ، طالبين من ربهم أن يغفر ذنوبهم ، ويتجاوز عن تفریطهم ، ويثبت أقدامهم ، ويعجل نصرهم .

فلم يكتفوا بما فعلوا — مع جلالة قدر ما فعلوا — بل طلبوا الإمداد والإعانة والتثبيت من الله ، وقدموا بين يدي ذلك التوبة والاستغفار رجاء أن يحقق لهم ما طلبوا . (١) فجمعوا بين مفاخر الأفعال ومحاسن الأقوال ، فجازاهم ربهم بأحسن الجزاء ، وأعظم الثواب ، فنالوا ثواب الدنيا من نصر وظفر، وفتح وتمكين ، وعزّ وثناء حسن . كما نالوا ثواب الآخرة من جنة عالية ، ونعيم مقيم ، ولذات دائمة ، وسرور وحبور .

(١) قال ابن القيم (رحمه الله) : " علموا أنّ ربهم تبارك وتعالى إن لم يثبت أقدامهم ، وينصرهم لم يقدرُوا هم على تثبيت أقدام أنفسهم ، ونصرها على أعدائهم ، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دوغم ، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا ، فوقوا المقامين حقهما : مقام المقتضي ، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه ، ومقام إزالة المانع من النصرة ، وهو الذنوب والإسراف " . زاد المعاد : ٣ / ٢٢٥-٢٢٦ .

وهكذا يفعل الكريم الجواد مع عباده المخلصين الثابتين الصادقين الناصرين لدينه ،
الصابرين عند لقاء عدوه ، الموقنين بوعدده ، المحسنين في أفعالهم وأقوالهم .^(١)

ولعل أعظم أنموذج لثبات الأنبياء في الجهاد يذكر في هذا المقام هو إمام
المجاهدين ، وقائد الغر المحجلين ، و خليل رب العالمين ، الذي رفع لواء الجهاد ،
وقمع الله به أهل الكفر والشقاق والعناد ، حتى ظهر الحق وساد ، وبطل الباطل
وباد .

وهذا طرف من ثباته ﷺ في الجهاد يبرز من خلاله ثبات الأنبياء جميعاً
وصبرهم عند قتال الأعداء ، ومجاهدة الألداء :

لقد كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا من الجهاد ، حقق كل أنواعه ، وأكمل
كل مراتبه ، فجاهد في الله حق جهاده بقلبه وجنانه ، ولسانه وبيانه ، وسيفه
وسنانه ، فساعاته كلها كانت وقفاً على الجهاد .^(٢)

وأطاع أمر ربه في جهاد الكافرين حين كلفه بذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾
[التوبة: ٧٣][التحریم: ٩] . فأبلى فيه غاية الإبلاء ، وأبلغ فيه غاية الإبلاغ ، حتى بلغت
غزواته تسع عشرة غزوة ، قاتل في ثمان منها.^(٣)

(١) وانظر في معنى الآيات : جامع البيان : ١١٦/٤ - ١٢٢ . التفسير الكبير : ٢٩-٢٥/٩ . الجامع لأحكام القرآن :

٢٣١-٢٢٧/٤ . تفسير القرآن العظيم : ٦١٤-٦١٥ . فتح البيان : ٣٥١-٣٤٨/٢ . محاسن التأويل :

٩٩٢-٩٩٠/٤ . تفسير المراغي : ٩٤-٩٢/٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١١٨-١١٩ . في ظلال القرآن :

٤٨٨/١ .

(٢) انظر : زاد المعاد : ٥/٣ . وانظر : ١٢/٣ من نفس الكتاب .

(٣) انظر : صحيح مسلم : ١٤٤٨/٣ .

لم يَنْهَزَمْ ﷺ في غزوة من غزواته ، وكيف يَنْهَزَمْ وهو أعظم العالمين تَوَكَّلًا على الله ، وأكثرهم اعتماداً عليه ، وأصبرهم عند الشدائد والملمات ، وأشجعهم طرّة ؟

عن أنس رضي الله عنه قال : " كان النبي ﷺ أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأجود الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ، فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس ، وقال : وجدناه بحراً (١) " (٢)

وقد استدلل بعض أهل العلم على كمال شجاعته بقوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤].

فلو لم يكن ﷺ أشجع الناس ، وأعلمهم بالقتال وأثبتهم فيه ما كلفه الله به ولو كان وحده .

قال الشيخ المراغي (رحمه الله) :

" وفي الآية إيماء إلى أنه ﷺ كُفِّ قتال الكافرين الذين قاوموا دعوته بقوتهم وبأسهم وإن كان وحده ، كما أنها تدلّ على أنه ﷺ أعطي من الشجاعة ما لم يعط أحد من العالمين ، وفي سيرته الشريفة أصدق الأدلة على ذلك ، فقد تصدى لمقاومة

(١) البحر : الفرس الواسع الجري الذي لا يفنى جريه كما لا يفنى ماء البحر . انظر : غريب الحديث للخطّابي :

٥٠٥/١ . النهاية في غريب الحديث : ٩٩/١ . و انظر : الفائق : ١٧٧/٣ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب الشجاعة في الحرب والجنين : (٢٤) .

برقم: (٢٨٢٠) . ص : ٥٩٦ . و نحوه في: باب الحمايل وتعليق السيف على العنق : (٨١/٨٢) . برقم:

(٢٩٠٨) . ص : ٦١٣ . وفي باب إذا فرعوا بالليل : (١٦٤/١٦٥) . برقم: (٣٠٤٠) . ص : ٦٣٩ . وفي

كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب حسن الخلق والسخاء ، وما يكره من البخل : (٣٩) . برقم: (٦٠٣٣) .

ص : ١٢٩٤ .

صحيح مسلم: نحوه في: كتاب الفضائل : (٤٣) . باب في شجاعة النبي ﷺ ، وتقدمه للحرب : (١١) .

١٨٠٣-١٨٠٢/٤

النَّاسَ جميعاً بدعوتهم إلى ترك ما هم عليه من الضلال ، وحين قاتلوه قاتلهم ، وقد انهزم عنه أصحابه في أحد فبقي ثابتاً كالجبل لا يتزلزل " (١) .

ومواقفه ﷺ في الثبات في القتال كثيرة لا تحصى ، ولكن أورد موقفاً واحداً منها تتجلى فيه قمة الثبات ، وكمال الشجاعة ، وتمام الصبر ، وقوة القلب ، وصدق العزيمة .

إنه يوم حنين ، ذلك عندما اجتمعت قبائل (٢) من العرب ، فساروا لحرب المسلمين حتى نزلوا وادي حنين بليل فكمنوا فيه .

وخرج النبي ﷺ من مكة بعد فتحها في اثني عشر ألفاً ، منهم ألفان من أهل مكة ، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام .

وفي عمّاية الصبح (٣) انحدر المسلمون إلى وادي حنين وهم لا يعلمون بأن العدو قد كمن فيه . فبينما هم ينحطّون في الوادي فإذا وابل كثيف من السهام يمطر عليهم من كتائب العدو ، فانشمر المسلمون راجعين لا يلوي أحد على أحد ، وكانت هزيمة منكرة ، وثبت النبي ﷺ في عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته ، (٤) وهو ينادي: هلمّوا إليّ أيّها المسلمون أنا رسول الله ، وهو يركض بغلته تجاه العدو ، وأبو سفيان بن الحارث والعبّاس بن عبد المطلب (رضي الله عنهما) يكفّانها حتى

(١) تفسير المراغي : ١٠٧/٥ .

وانظر : التفسير الكبير : ٢٠٤/١٠ . فتح البيان : ١٨٩/٣ . محاسن التأويل : ١٤١٥/٥-١٤١٦ .

(٢) هي : هوازن وثقيف ونصر وجثم وسعد بن بكر وناس من بني هلال . جمعها مالك بن عوف التّضري .

انظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٣٣١/٤ .

(٣) أي في بقية ظلمة الليل . لسان العرب : ٩٨/١٥ .

(٤) تمّ ثبت معه : أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب ، والعبّاس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن

الحارث ، وابنه ، والفضل بن العبّاس ، وربيعة بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأيمن بن عبيد ، قتل يومئذ ،

رضوان الله على الجميع . انظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٣٣٥/٤ .

لا تسرع . فأمر ﷺ العباس ﷺ أن ينادي أصحاب السّمة (١) ففعل ، فما أن سمع الصّحابة النّداء حتّى انعطفوا راجعين إلى رسول الله ﷺ ، فاجتلد القوم ، وما كانت إلّا هنيه حتّى انكسر العدوّ وحلّت به الهزيمة السّاقطة . (٢)

جاء رجل إلى البراء ﷺ فقال : أكنتم وليّتم يوم حنين ؟ يا أبا عماره ! فقال : أشهد على نبي الله ﷺ ما ولّى ، ولكنّه انطلق أخفّاء (٣) من النّاس ، وحسّر (٤) إلى هذا الحي من هوّازن وهم قوم رماة ، فرموهم برشق من نبل ، كأنّها رجل من جراد ، فانكشفوا ، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ ، وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته ، فنزل ، ودعا واستنصر ، وهو يقول :

" أنا النّبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب

اللهم نزل نصرّك " .

قال البراء : كنّا والله إذا احمرّ البأس (٥) ننقيّ به ، وإنّ الشّجاع منا للذي يحاذي به

(١) السّمة : هي الشّجرة الّتي بايعه تحتها أصحابه بيعة الرّضوان بالحديبية ، وكانوا بايعوه على ألاّ يفرّوا فلمّا سمعوا

النّداء تذكّروا العهد فرجعوا . انظر : المفهم : ٦١٥/٣ . شرح التّووي : ١١٥/١٢ .

(٢) انظر : السّيرة التّبويّة لابن هشام : ٣٣١/٤ - ٣٣٧ . الرّحيق المختوم : ص : ٣٨٠ - ٣٨٣ . وانظر : صحيح

مسلم : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب في غزوة حنين : (٢٨) . برقم : (١٧٧٥) . ١٣٩٩ - ١٣٩٨/٣ .

(٣) أخفّاء من النّاس : جمّع خفّيف . وفي رواية : انطلق جفّاء من النّاس إلى هذا الحيّ من هوّازن : أراد سرّعان

النّاس وأوائهم . شبّههم جفّاء السّيل . يقال جفّ الواديّ جفّاء : إذا رمى بالرّيد والقذّي . انظر : التّهاية في

غريب الحديث : ٢٧٧/١ . و انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٤٠١/٢ - ٤٠٢ . الفائق : ٢٢٢/١ - ٢٢٣ .

(٤) حسّر : جمع حاسر ، وهو الّذي لاجئة عليه ، أي لاشيء يحميه من سهام العدوّ . انظر : غريب الحديث لابن

قتيبة : ٤٠٢/٢ . الفائق : ٢٢٣/١ .

(٥) أحمرّ البأس : احمرار البأس كناية عن شدّة الحرب ، واستعير ذلك لحمرة الدّماء الحاصلة فيها في العادة ، أو

لاستعار الحرب واشتعالها كاحمرار الجمر . شرح التّووي على مسلم : ١٢١/١٢ .

يعني النبي ﷺ " (١).

فركوبه البغلة ﷻ ، بل ودفعها تجاه العدو ، ونزوله إلى الأرض على عادة الشجعان ، والتجاؤه إلى ربه ، ودعوته إياه بالنصر وهو في موقف تتصدع فيه القلوب ، وتتطاير فيه النفوس هلعاً وخوفاً ، كل ذلك يدل على المبالغة في ثباته ، وشدة صبره ، وقوة عزمه ، بل يدل على أنه أشجع الناس وأثبتهم في الحرب ، ولذا قال البراء : " وإن الشجاع منا للذي يحاذي به " (٢) .

وقد أنزل الله تعالى في هذه الواقعة قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ ٢٥ ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ ٢٦ ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٢٧ ﴿ [التوبة: ٢٥-٢٧] .

(١) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب من قاد دابة غيره في الحرب : (٥٢) .

برقم: (٢٨٦٤) . ص : ٦٠٤-٦٠٥ . وفي باب بغلة النبي ﷺ البيضاء : (٦٠/٦١) . برقم: (٢٨٧٤) . ص :

٦٠٦ . وفي باب من صف أصحابه عند الهزيمة : (٩٦/٩٧) . برقم: (٢٩٣٠) . ص : ٦١٧ . وفي باب من قلل

خلدها وأنا ابن فلان : (١٦٦/١٦٧) . برقم: (٣٠٤٢) . ص : ٦٤٠ . وفي كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب

قول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾

{ التوبة : ٢٥-٢٧ } : (٥٥/٥٤) . برقم: (٤٣١٧، ٤٣١٥) . ص : ٨٩٦-٨٩٧ .

صحيح مسلم: بلفظه ونحوه في كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب في غزوة حنين : (٢٨) . برقم : (١٧٧٦)

١٤٠٠-١٤٠١/٣

(٢) وانظر : المفهم : ٦١٥/٣ .

أي اذكروا أيها المؤمنون فضل الله عليكم ونعمه التي لا تحصى ولا تعدّ في نصره إياكم في غزواتكم مع رسوله ، ومن ذلك يوم حنين حين أعجبتكم كثرتكم فقال قائل منكم : لن نهزم اليوم من قلة ، فلم يجدي ذلك عنكم شيئاً ، لأنّ النصر من عند الله وحده وليس بكثرة العدد والعدد ، وإن كانت تلك أسباب معينة عليه ، وإنّما النصر والظفر من الله .

فلما قلتم ذلك ضاق عليكم فسيح الأرض ، فلم تجدوا ملجأ تلجؤون إليه ، فاعتصمتم بالهرب والفرار مولّين ظهوركم لأعدائكم ، لا تلوون على شيء ، تاركين رسول الله ﷺ وقلة من أصحابه في واجهة العدو ، حيث قذف الله الأمانة والطمأنينة في قلبه ﷺ وقلوب من معه ، فثبتوا ثبات الجبال ، وصبروا صبر الرجال ، حتّى عدتم بعد انهزامكم ، ورجعتم بعد فراركم ، وأنزل الله لكم ملائكة من السماء تقوّي قلوبكم ، وتقذف الرّعب في قلوب أعدائكم ، فملكتم أكتافهم ، وعذبهم الله على أيديكم بالقتل والأسر والسّبي وأخذ الأموال . وكلّ ذلك نعم من الله يسوقها إليكم ، وفضل منه يتفضل به عليكم . (١)

فتبات الرسول ﷺ في تلك المعركة ومن معه كان له أثره العظيم في قلب موازين المعركة من هزيمة إلى نصر ، ومن فرار إلى صبر ، ومن غلبة إلى منعة . فنالوا به ما يتمنون ، ووصلوا به إلى ما يرجون .

(١) انظر في معنى الآيات : جامع البيان : ١٠٤-٩٩/١٠ . التفسير الكبير : ٢٣-٢٠/١٦ . الجامع لأحكام القرآن :

١٠١/٨ . تفسير القرآن العظيم : ٥٣٧/٢-٥٣٩ . فتح البيان : ٢٦٢/٥-٢٦٥ . محاسن التأويل :

٣٠٩٢-٣٠٩٣ . تفسير المراغي : ٨٥/١٠-٨٧ .

المبحث الثاني

الصَّحَابَةُ

إنَّ التَّاريخ الإسلامي عجز أن يوجد بعد النَّبي ﷺ فئة من الأُمَّة تجيد تطبيق هذا الدِّين في جميع مناحيه كتطبيق الفِئَةِ الَّتِي صحبت محمداً ﷺ ، فإنَّهم قاموا به خير قيام ، والتزموا به أعظم التزام قولاً وفعلاً ، وحملوه في وقت تكالبت عليه أُمم الكفر ليخمدوا أنفاسه ، ويطفئوا نوره ، وأبى الله إلا أن ينصر دينه ، ويعلي كلمته بهذه الفِئَةِ الَّتِي اختارها لصحبة نبيِّه ﷺ ، وإعزاز دينه .

ولقد علموا ﷺ أنَّ الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام ^(١) فكان لهم فيه القدح المملوء والحظُّ الأوفر ، فبذلوا فيه نفوسهم وأموالهم حتَّى فتحوا البلاد شرقها وغربها ، ودانت لهم جزيرة العرب بأسرها ، بل استطاعوا أن يغزوا أعظم إمبراطوريتين في وقتهم ، إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الرُّوم ، فدكَّوا الأولى وأزالوا عرشها ، وتقلَّصت أمامهم الثَّانية وانحسرت .

(١) عن معاذ بن جبل ؓ أنَّ النَّبي ﷺ قال : " ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله " . مسند أحمد : ٢٣٥/٥ .

معجم الطَّبراني الكبير : ٢٢٣/٨ . عن أبي أمامة ؓ . وزاد " لا يناله إلاَّ أفضلهم " .
ذُرَّة كُلِّ شَيْءٍ أعلاه . وجمعها ذُرَى . انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٤١٢/٢ . التَّهْيِة في غريب الحديث :
١٥٩/٢ .

قال المناوي (رحمه الله) :

" ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله بقصد إعلاء كلمة الله . والذَّروة من كلِّ شَيْءٍ أعلاه ، وسنام الشَّيْءِ أعلاه فالجمع بينهما هنا للمبالغة . لا يناله إلاَّ أفضلهم : يعني أفضل المسلمين المدلول عليه بلفظ الإسلام ، فإن جاد بنفسه لله فهو أفضلهم بلا نزاع " . فيض القدير : ٥٦١/٣ .

يقول ابن القيم (رحمه الله) :

" والفروسية أربعة أنواع :

أحدها : ركوب الخيل والكرّ والفرّ بها .

الثاني : الرمي بالقوس .

الثالث : المطاعنة بالرّماح .

الرابع : المداورة بالسيف .

فمن استكملها استكمل الفروسية ، ولم تجتمع هذه الأربعة على الكمال إلا لغزاة الإسلام وفوارس الدين وهم الصحابة رضي الله عنهم ، وانضاف إلى فروسيّتهم الخيليّة فروسية الإيمان واليقين ، والتنافس في الشهادة ، وبذل نفوسهم في محبة الله ومرضاته ، فلم يقدّم لهم أمة من الأمم البتّة ، ولا حاربوا أمة إلا وقهروها وأذلّوها ، وأخذوا بنواصيها ، فلما ضعفت هذه الأسباب فيمن بعدهم لتفرّقها فيهم وعدم اجتماعها دخل عليهم من الوهن والضعف بحسب ما عدموه من هذه الأسباب ، والله المستعان " (١) .

لقد صدقوا في جهادهم ، وأخلصوا في قتالهم ، وجدّوا في نصره دين الله حتّى نصره ، ودافعوا عنه حتّى نشره ، وقد كان الثبات في القتال صفة ملازمة لهم لا تتفك عنهم ، عرفوا به خلال حروبهم التي فاقت حدّ الحصر ، جابهوا فيها أعتى الجيوش وأصلب الجحافل (٢) ، عدداً وعدداً ، ولم يكونوا إلا في قلّة من العدد ، وضعف من العدد ، فلم تضعف عزائمهم ، ولا تزلزلت أقدامهم ، ولا وهنت قلوبهم ، ولا خارت قواهم ، كيف لا ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم قدوتهم وأسوتهم الذي يتأسّون به في جميع أمور الدين ، ومن ذلك الثبات في الجهاد . فقد رأوا ثباته فيه فأرادوا أن يماثلوه ، ورأوا صبره فأرادوا أن يشابهوه ، وإن كان أمر النبوة عظيماً ،

(١) الفروسية : ص : ١٠٧-١٠٨ .

(٢) الجحافل : جمع الجحفل : وهو الجيش الكثير ، ولا يكون كذلك حتّى يكون فيه خيل . انظر : لسلك

العرب : ١٠٢/١١ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ١٢٦٠ .

جليل القدر إلا إنهم أحسنوا الاقتداء وأجادوا التآسي ، وقد سطر التاريخ صفحات مضيئة ، وأبرز آثاراً مشرقة لثبات أولئك الأماجد يعجز المقام أن يأتي عليها كلها ، ولكن في النماذج والأمثلة ما يغني عن كثرة السرد والإطالة .

ولعلّ أبلغ أنموذج يكشف عن ثبات أولئك الأبطال غزوة بدر الكبرى ، ففيها ما يغني ويكفي . وهذا خبرها :

سمع النبي ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام بغير قریش فيها أموال عظيمة ، فندب الناس للخروج إليها ولم يعزم عليهم ، فحفّ بعضهم وتقل بعضهم ، ولم يظنّوا أنهم يلقون حرباً ولذا خرجوا في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، معهم فارسان ، وسبعون بغيراً يعتقبونها .

فلما علم أبو سفيان بخبرهم أرسل إلى قریش كي ينفروا إلى غيرهم فيمنعوها من محمد ﷺ وأصحابه ، فنهضوا مسرعين ، وأوعبوا في الخروج ، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب^(١) ، فإنه عوّض عنه رجلاً ، فكان قوام جيشهم ما بين التسعمائة والألف في كامل العتاد والعُدّ والظّهر .

وقد انفلتت العير فنجت من الوقوع في قبضة جيش الإسلام ، والتقى الجيشان على غير ميعاد كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ

(١) أبو لهب : هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، عمّ رسول الله ﷺ . أحد الأشراف والشجعان في

الجاهلية ، كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه فأذى المسلمين ، وكان شديد العداوة لهم ، محرّضاً عليهم . وهو

الذي نزل في شأنه قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

سَيِّئَاتِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۖ ﴾ [المسد: ١-٣] . مات بعد وقعة بدر بأيام ولم يشهدها .

انظر : الأعلام : ١٢/٤ .

وَلَكِنْ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ
حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ [الأنفال: ٤٢].

جيش المسلمين الذي خرج غير متأهب لقتال لأنه لم يخرج من أجله ، وقد
كان في قلة من العدد ، وضعف في القوة والسلاح ، ونقص في الظهر ، وفي غير
منعة من الناس .

وجيش المشركين في غاية الشدة والقوة ، مع كثرة عددهم وكامل عتادهم ،
وقد كان يعجّ بالفرسان والخيول ، وقد خرجوا على حمية وغضب ، وحنق على
رسول الله ﷺ وأصحابه ، يريدون أن يجتثوا الإسلام ونبي الإسلام ، يصاحبهم
الرياء ، ويقارنهم البطر كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٧].

والنتيجة التي تتمخض من ذلك أنه لا تكافؤ بين الجيشين البتة .
ولمّا أحسّ المصطفى ﷺ بالخطر الداهم ، وأنه لا بد من حرب ضروس ،
ولقاء دام ينبني عليه بقاء الإسلام أو زواله ، كما قال في دعائه من بعد : " اللهم إن
تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض " (١) .

وقتل هذا شأنه فإنه يحتاج إلى ثبات وشجاعة وبسالة وجرأة منقطعة النظير
والإكانت الدائرة . فأراد ﷺ أن يستشفّ هذه المعاني في أصحابه ، وهل يمكنه أن
يخوض بهم معركة غير متكافئة الجانبين ، فاستشارهم في القتال .
وهنا ظهر الإيمان على حقيقته ، واليقين في قمته ، والثبات في أوجهه ،
والشجاعة في كمالها ، والصبر في غايته .

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر : (١٨) . برقم:

فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال واحسن . ثم قام عمر الفاروق رضي الله عنه فقال
وأحسن ، وكانا دائماً سباقين للخير (١) .

ثم قام المقداد بن عمرو رضي الله عنه ، فارس الإسلام . فقال : " يا رسول الله امض
لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى :
﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب
أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك
الغمد (٢) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه " (٣) .

ثم قال رسول الله ﷺ : " أشيروا علي أيها الناس " وكان يريد الأنصار ، لأنهم
عدد الناس ، ولما بايعوه أولاً لم يشترطوا نصرته خارج مدينتهم . والذين سبقوا
بالكلام كانوا جميعاً من المهاجرين .

(١) انظر صحيح مسلم : ١٤٠٣/٣ - ١٤٠٤ . السيرة النبوية لابن هشام : ٤٠٧/٢ .

(٢) برك الغمد : بفتح الباء عند الأكثر . وقيل : بكسرهما . والغمد : بكسر الغين المعجمة ، وقيل : بالضمة ،
والكسر أشهر . وهو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر ، وقيل : بلد باليمن في أقصاها . انظر : معجم
البلدان : ٣٩٩/١ . و انظر : معجم ما استعجم : ٣٠٣/١ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : ٤٠٧/٢ . البداية والنهاية : ٢٦٢/٣ . وفي صحيح البخاري قال ابن مسعود رضي الله عنه :

" شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به . أتى النبي ﷺ وهو يدعو على
المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا ﴾ ولكننا نقاتل عن عبيك

وعن شمالك وبين يديك وخلفك . فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره . يعني قوله " . كتاب المغازي :
(٣٨/٦٤) . باب قول الله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ ... الْآيَات ﴾

{ الأنفال : ٩-١٣ } : (٤) . برقم : (٣٩٥٢) . ص : ٨٢٩ . و انظر : كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . باب

﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] : (٣/٤) . برقم :

(٤٦٠٩) . ص : ٩٦٦ .

فلَمَّا قَالَ ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ ؓ : " والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : " أجل " قال : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله " (١) .

إنَّها كلمات تشعّ صدقاً وثباتاً ، فهي لم تخرج من قلوب جوفاء خالية ، وإنَّما خرجت من قلوب فعمّت بالإيمان واليقين ، وسلامة المعتقد ، وصحة التوجه .
إنَّه الثَّبات بكلِّ معانيه ، ثبات أعجز الأُمَّة أن تخرج من بينها من كان ذلك شأنه وحاله بعد أولئك الأبرار .
فسرّ رسول الله ﷺ بما قيل سروراً عظيماً ، ونشّطه ذلك وشجّعه . فقال :
" سيروا وأبشروا فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم " (٢) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٤٠٨/٢ . البداية والنهاية : ٢٦٢/٣ . انظر : زاد المعاد : ١٧٤/٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٤٠٨/٢ . . البداية والنهاية : ٢٦٢/٣ .

وقوله ﷺ : " سيروا وأبشروا... إلخ " . أصله في : صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب : (٨٨/٨٩) . برقم : (٢٩١٥) . ص : ٦١٤-٦١٥ . وانظر : حديث رقم : (٣٩٥٣) . ص : ٨٢٩ . وحديث رقم : (٤٨٧٥ ، ٤٨٧٧) . ص : ١٠٦٠ . صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة الغنائم : (١٨) . برقم : (١٧٦٣) . ١٣٨٤/٣ .

وقد أورد البيهقي نحوه في السنن . في باب الصلاة عند الالتقاء . ١٨٧/٥ . وفي باب الاستنصار عند اللقاء . ١٥٥/٦ . والطبراني في المعجم الكبير : ١٤٧/١٠ .

والتحم الجيشان بعد صولات وجولات ، وثبت أهل الإيمان فانهدت أمامهم صفوف المشركين ، وانكسرت جموعهم ، وركب أسود الإسلام ظهورهم يأسرون ويقتلون . وانجلت المعركة بهزيمة ساحقة لملة الكفر ، حيث قتل صناديدهم^(١) ورؤساؤهم وقادتهم في الشر . فقتل سبعون وأسر سبعون ، وفرّ الباقي وهم يجرون أذيال الخيبة والذل والهوان ، وانهت بذلك ركن ركين من أركان الشرك^(٢) . ونزل القرآن الكريم يتحدث عن هذه المعركة ، يكشف الحقائق ، ويبين الخفايا ، ويثني على ثبات المؤمنين وصبرهم ، ويمنّ بنصر الله لهم ، ويذكرهم بنعمه عليهم .

فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] . فقد نصرهم الله مع قلة عددهم ، وضعف عددهم ولو لم ينصرهم ما نصروا ، إذ النصر منه سبحانه^(٣) . ولو لم يثبتهم ما ثبتوا . وأعانهم سبحانه بعوامل الثبات لما علم صدقهم وإخلاصهم ، وأنهم يريدون وجهه والدار الآخرة ، وإقامة دينه وإعلاء كلمته . فأنزل ملائكة من السماء ، يردف بعضهم بعضاً ، ويأتي بعضهم إثر بعض ، مدداً للمؤمنين ، يبشرونهم بالنصر ، ويطمنون قلوبهم ويسكنونها فلا تفرع

(١) صناديد قريش هم أشرفهم وعظماؤهم . الواحد صنيديد . وكلّ عظيم غالب صنيديد . لسان العرب : ٢٦٠/٣ .

(٢) انظر : في سياق وقعة بدر : السيرة النبوية لابن هشام : ٤٠١/٢ - ٤٢٧ . زاد المعاد : ١٧١/٣ - ١٨٨ . البداية

والنهاية : ٢٥٦/٣ - ٢٩٧ . الرّحيق المختوم : ص : ١٨٤ - ٢١٠ .

(٣) وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ٧٤/٤ . التفسير الكبير : ٢٠٨/٨ . فتح البيان : ٣٢٤/٢ - ٣٢٥ . تفسير

المراغي : ٥٥/٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١١٤ .

ولا تخاف ، بل ويقاتلون معهم ^(١) . ويبثون الرعب في قلوب الكافرين ، والهلع في نفوسهم . قال سبحانه : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ٩٠ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٩١ ﴾ [الأنفال: ٩٠-٩١] ^(٢) .

(١) روى ابن جرير (رحمه الله) بسنده عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : " لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون " . جامع البيان : ٧٧/٤ . ونص الرأزي على أن ذلك قول كثير من المفسرين . انظر : التفسير الكبير : ٢١٤/٨ .

عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : " بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أَقْدِمُ حَيْزُومُ . فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه ، وشق وجهه كضربة السوط ، فاحضر ذلك أجمع . فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال : " صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة " . وهذا دليل على قتال الملائكة في بدر .

صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر : (١٨) . برقم : (١٧٦٣) .

١٣٨٤-١٣٨٥/٣

(٢) وانظر في معنى الآيتين : الجامع لأحكام القرآن : ٣٧٠-٣٧١/٧ . تفسير القرآن العظيم : ٤٥٨-٤٦٠/٢ . فتح البيان : ١٣٧/٥-١٣٩ . محاسن التأويل : ٢٩٥٧-٢٩٥٩/٨ . تفسير المراغي : ١٧٢/٩-١٧٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٧٨ .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : " لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : " اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تَعْبُدْ فِي الْأَرْضِ " . فما زال يهتف بربه ، ماداً يديه ، مستقبلاً القبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ٩٠ ﴾ [الأنفال: ٩٠] . فأمده الله بالملائكة " . صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب

الإمداد بالملائكة في غزوة بدر : (١٨) . برقم : (١٧٦٣) . ١٣٨٤-١٣٨٣/٣ .

وقال : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَأَلِقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ
كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢] .

فهو يأمر الملائكة سبحانه بتثبيت المؤمنين ، وبثّ الطمأنينة في قلوبهم ،
ويخبرهم أنه معهم بنصره وتأييده وإعانتة ، وهذا أعظم عامل على الثبات ، وأنه
سوف يقذف الخوف والرعب في قلوب المشركين فلا يكون لهم ثبات ، فاضربوا
هاماتهم ، وقلّقوا رؤوسهم ، واحترّوا رقابهم ، وقطّعوا أياديهم ذات البنان ليعجزوا
عن التصرف في الحرب. (١)

وغشيهـم سبحانه بالنعاس أمنة لهم ، وتطمينا لقلوبهم ، وإزالة للخوف والرعب
عنها ، لأن وصوله دلالة على ذهاب الخوف ، إذا الخائف لا يتطرق إليه نوم ولا
نعاس لانشغال قلبه ، وبه يزول الإعياء والتعب ، ويعود لهم النشاط والقوة . وأنزل
الله عز وجل في تلك الليلة مطراً واحداً ، فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم
من التقدّم ، وكان على المسلمين طلاً طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان ،
ووطأ به الأرض ، وصلّب به الرمل ، وثبت الأقدام ، ومهدّ به المنزل ، وربط به
قلوبهم. (٢)

(١) وانظر : التفسير الكبير : ١٣٤/١٥ - ١٣٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٧٨/٧ - ٣٧٩ . تفسير القرآن العظيم :
٤٦٢/٢ - ٤٦٣ . فتح البيان : ١٤٢/٥ - ١٤٣ . محاسن التأويل : ٢٩٦١/٨ . تفسير المراغي : ١٧٦/٩ - ١٧٧ .
تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٧٨ . وقال (رحمه الله) : " فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا ثَبَتَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلْقَى الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ
الْكَافِرِينَ ، لَمْ يَقْدِرِ الْكَافِرُونَ عَلَى الثَّبَاتِ لَهُمْ ، وَمِنْهُمْ اللَّهُ أَكْثَرُهُمْ " . المرجع السابق : ص : ٢٧٨ .
(٢) زاد المعاد : ١٧٥/٣ .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ الْتَعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝ ﴾ [الأنفال: ١١] (١) .

بهذه العوامل الداعية إلى الثبات نصر الله المؤمنين على أهل الشرك والكفر الذين شاقوا الله ورسوله (٢) ، وأرادوا طمس معالم الإسلام بعد أن آذوا أهله وأخرجوهم من ديارهم ، ثم اتبعوا آثارهم يريدون أن يستأصلوا شافتهم ، فنصرهم الله عليهم في معركة كانت فاتحة الظفر فيما بعدها ، والفاصلة لما يليها ، وبها علا ذكر أهل الإيمان في البلاد ، وهابهم قاصيها ودانيها ، وتضعض بنيان الشرك

(١) وانظر : التفسير الكبير : ١٣٢/١٥ - ١٣٤ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٧١/٧ - ٣٧٧ تفسير القرآن العظيم :

٤٦٠/٢ - ٤٦٢ . فتح البيان : ١٤٠/٥ - ١٤٢ . محاسن التأويل : ٢٩٦٠/٨ . تفسير المراغي : ١٧٤/٩ - ١٧٧ .

تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٧٨ .

يقول الشيخ المراغي (رحمه الله) : " وقد فهم من الآية أنه كان هذا المطر أربع فوائد :

١- تطهيرهم حسياً بالنظافة التي تشط الأعضاء ، وتدخل السرور على النفس ، وشرعياً بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الأصغر .

٢- إذهاب رجس الشيطان ووسوسته .

٣- الربط على القلوب : أي توطئ النفس على الصبر وثبتيها كما قال : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرِمُوسَى

فَرِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ [القصص: ١٠] . وهذا لما للمطر من

المنافع التي تكون أثناء القتال .

٤- تثبيت الأقدام به ، ذاك أن هذا المطر لبد الرمل وصيره بحيث لا تغوص فيه أرجلهم ، فقدروا على المشي كيف

أرادوا " . تفسير المراغي : ١٧٥/٩ - ١٧٦ .

(٢) كما قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ ۝ ﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۝ ﴾ [الأنفال: ١٣-١٤] .

وتزلزلت أركانه ، إذ فقد زعماءه وقادته الذّابّين عنه ، المانعين لحماه ، وعلت راية التّوحيد وارتفع بنيانه .

ولمزيد بيان لثبات الصّحابة ﷺ أورد أنموذجين لبطلين باسلين ، وفارسين عظيمين من فرسان الصّحابة ﷺ يتأكّد بخبريهما ثبات أولئك الأجلّة ، ويتّضح بالحديث عنهما صبر أولئك الكرام . وهما في المطلبين الآتيين :

﴿المطلب الأول﴾

عمير بن الحمام رضي الله عنه

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : " لا يقدّمَنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه " ^(١) فدنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : " قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض " . قال : يقول عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : " نعم " . قال : بخ بخ ^(٢) ، فقال رسول الله ﷺ : " ما يحملك على قولك بخ بخ " قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال : " فإنك من أهلها " . فأخرج تمرات من قرنه ^(٣) فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل ^(٤) .

(١) أي قدامه متقدماً في ذلك الشيء لئلا يفوت شيء من المصالح التي لا تعلموها . شرح التتوي على مسلم :

. ٤٥/١٣

(٢) بخ بخ : بخ بفتح الموحدة وسكون المعجمة ، وقد تنوّن مع التثقيل والتخفيف بالكسر والرفع . ولو كررت :

فالاختيار أن تنوّن الأولى وتسكن الثانية وقد يسكنان جميعاً . ومعناها تفخيم الأمر والإعجاب به . فتح الباري :

٣٩٧/٥ . طبعة دار المعرفة . بتصرف . و انظر : شرح التتوي على مسلم : ٨٥/٧ - ٨٦ . فيض القدير :

١٩٧/٣ . عون المعبود : ١٩٩/١ . تحفة الأحوذى : ٢٨/٧ .

(٣) قرنه : القرن بالتحريك جعبة من جلود تُشقُّ ويُجعل فيها النشّاب . فأخرج تمرّاً من قرنه أي جعبته . ويُجمّع

على أقرن وأقران كجبل وأجبل وأجبال . النهاية في غريب الحديث : ٥٥/٤ . بتصرف .

(٤) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب ثبوت الجنة للشهيد : (٤١) . برقم : (١٩٠١) .

. ١٥١١-١٥٠٩/٣

وقال ابن اسحاق (رحمه الله) :

" خرج رسول الله ﷺ (١) فحرّضهم وقال : " والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة " .
فقال عمير بن الحمام ، أخو بني سلمة ، وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل " (٢) .

إن عميراً ﷺ وقف موقفاً في الثبات يعجز عنه صناديد الرجال ، وشجعان الأبطال ، فما إن سمع بذكر الجنة حتى عجل إليها غير هائب من الموت ، ولا خائف من القتل ، وما تساوي الحياة كلها عنده مع جنة عرضها السماوات والأرض ؟ وهل يقارن ظلّ فان مع نعيم لا يزول ؟
فثبت ﷺ لما علم أن الثبات طريق إلى ذلك النعيم ، وصبر لما علم أن الصبر يوصل إلى الجزاء العظيم ، وقد طرق أذنه قوله ﷺ : " لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة " . فكان دافعاً له على الثبات .
إن أكل تمرات تحمل في الكف حياة طويلة ، لأنها تحبس عن الجنة ، إذن فليعجل إليها ، وليقدم نفسه ثمناً لها ، وليكن ذلك بالقتل ، فما أهونه ، وما أيسره

(١) أي من العريش : وهو بناء كالخيمة يستظل به .

انظر : القاموس المحيط : ص : ٧٧٠ . وقد صنع للثبي ﷺ ليكون فيه أثناء معركة بدر . انظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٤١٢/٢ .

(٢) المرجع السابق : ٤١٧/٢ .

وقد ذكر ابن الأثير (رحمه الله) أنه قاتل وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد إن التقى من أعظم السداد
وغير ما قاد إلى الرّشاد وكلّ حيّ فإلى نفاذ

ثم حمل ، فلم يزل يقاتل حتى قتل ، قتله خالد بن الأعلم . أسد الغابة : ٤١٤/٣ .

حينئذ ، لأنّ السلعة غالية ، فيهبون كلّ شيء يدفع من أجلها ولو كان النّفس ، وذلك
لا يتأتّى إلّا لمن له إيمان خالص ، ويقين صادق ، يحفّ الصّبر ، ويتوجّه الثّبات ،
وقد كان عمير ؓ كذلك .

﴿المطلب الثاني﴾

أنس بن النضر رضي الله عنه

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع .^(١)

فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعذر إليك ممّا صنع هؤلاء ، يعني أصحابه ، وأبرأ إليك ممّا صنع هؤلاء يعني المشركين .^(٢) ثم تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ، إني أجد ريحها من دون أحد^(٣) ، قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل وقد مثّل به^(٤) المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه .

(١) زاد مسلم في روايته : " وهاب أن يقول غيرها " . قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) : " أي خشي أن يلتزم شيئا فيعجز عنه فأهم ، وعرف من السياق أن مراده أنّه يبالغ في القتال وعدم الفرار " . فتح الباري : ١٠١/٦ . وانظر : المفهم : ٧٣٨/٣ . شرح التتوي على مسلم : ٤٨/١٣ .

(٢) أي اعتذر إليك من فرار المسلمين ، ومن فعل المشركين . انظر : فتح الباري : ١٠٢/٦ .

(٣) قال التتوي (رحمه الله) : " محمول على ظاهره وإنّ الله تعالى أوجده ريحها من موضع المعركة ، وقد ثبتت الأحاديث أنّ ريحها توجد من مسيرة خمسمائة عام " . شرح التتوي على مسلم : ٤٨/١٣ . وانظر : المفهم : ٧٣٩/٣ . فتح الباري : ١٠٢/٦ .

(٤) مثّل به : يقال : مثّل بالقتيل : إذا جدع أنفه أو أذنه أو مذاكيره ، أو شيء من أجزائه . والاسم المثلّة . انظر : شرح التتوي على مسلم : ٢٥/١٦ . فتح الباري : ١٦٣/٣ . طبعة دار المعرفة . تحفة الأحوذى : ٨٢/٤ .

قال أنس : كُنَّا نَرَى - أَوْ نَظُنُّ - أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ : ﴿مِّنَ

الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ^(١) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

لَقَدْ غَابَ أَنَسٌ   عَنْ وَاقِعَةِ بَدْرٍ فَحَزَّ فِي نَفْسِهِ أَلَّا يَكُونَ شَهِيدًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ   ، فَعَزَمَ فِي نَفْسِهِ أَنْ شَهِدَ وَاقِعَةً بَعْدَهَا لِيَبْلُغَ فِيهَا بَلَاءَ حَسَنًا ، وَلِيَبَالِغَنَّ فِي الْقِتَالِ وَالتَّثَبُّاتِ حَتَّى يَرَى اللَّهَ ذَلِكَ مِنْهُ .

وَلَمَّا جَاءَتْ أَحَدٌ وَفَرَ الْمُسْلِمُونَ ثَبَتَ أَنَسٌ   فَلَمْ يَفِرْ مَعَ مَنْ فَرَّ ، بَلْ نَفَّذَ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ بِهِ ، وَاسْتَتَرَ فِرَارَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَقْدَمَ إِلَى الْقِتَالِ ثَابِتَ الْجَاشِ ، قَوِي الْعَزِيمَةِ ، صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، يَقُودُهُ إِيْمَانُهُ الصَّادِقُ ، وَيُدْفَعُهُ يَقِينُهُ ^(٢) . لَمْ يَصِلِ الْخَوْفُ إِلَى قَلْبِهِ ، وَلَا الْوَجَلُ إِلَى فُؤَادِهِ .

وَانْدَفَعَ يَخُوضُ تِلْكَ الْأَهْوَالَ غَيْرَ أَبِهَ بِجَرَحِ السَّيْفِ ، وَطَعْنِ الرَّمَاكِ ، وَرَمَى السَّهْمِ ، كَيْفَ وَهُوَ يَشْتَمُّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ؟ وَلِذَا لَمْ يُوَقَّفْ إِقْدَامُهُ إِلَّا الْقَتْلَ . وَقَدْ عَجَزَ غَيْرُهُ أَنْ يَصْنَعَ صَنْيَعَهُ ، وَيُثَبِّتَ ثَبَاتَهُ ، إِنَّهُ مِنَ الَّذِينَ عَاهَدُوا اللَّهَ فَصَدَقُوا الْعَهْدَ ، وَلَمْ يَغَيِّرُوا أَوْ يَبْدُلُوا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسير : (٣٢/٥٦) . باب قول الله تعالى : ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ

رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا

تَبْدِيلًا  ﴾ [الأحزاب: ٢٣] : (١٢) . برقم: (٢٨٠٥) . ص : ٥٩٢-٥٩٣ . ونحوه في: كتاب المغلزي :

(٣٨/٦٤) . باب غزوة أحد : (١٧) . برقم: (٤٠٤٨) . ص : ٨٤٧ .

صحيح مسلم: نحوه في: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب ثبوت الجنة للشهيد : (٤١) . برقم: (١٩٠٣) .

١٥١٢/٣ .

(٢) قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) : " وفيه - أي الحديث - فضيلة ظاهرة لأنس بن التضر وما كان عليه من

صحة الإيمان ، وكثرة التوفي والتورع ، وقوة اليقين " فتح الباري : ١٠٣/٦ .

❦ رباب الخامس ❦

الثبات على المنهج الحق

وفيه فصول :

❦ الفصل الأول ❦

محاني المنهج في اللغة والشرع

❦ الفصل الثاني ❦

سمات المنهج الحق

❦ الفصل الثالث ❦

عوامل الثبات على المنهج الحق

❦ الفصل الرابع ❦

نماذج للثبات على المنهج الحق

الفصل الأول

معاني المنهج في اللغة والشرع

وفيه مبحثان :

المبحث الأول

معاني المنهج في اللغة

- نهج الطريق نهجاً وأنهجه : أي سلكه وأبانه وأوضحه .^(١)
واستنهج الطريق : صار نهجاً واضحاً .^(٢) فالنهج : هو الطريق الواضح البين
المستقيم كالمنهج والمنهاج ، والجمع نهجات ونهوج ونهج .^(٣)
قال الشاعر^(٤) :

ولقد أضاء لك الطريق ، وأنهجت سبل المكارم والهدى تُعدي^(٥)
وطريق ناهجة : أي واضحة .^(٦)
ونهج الثوب نهجاً : أخذ فيه البلى .

(١) انظر الصحاح للجوهري : ٣٤٦/١ . مختار الصحاح : ص : ٦٨١ . القاموس المحيط : ص : ٢٦٦ . لسان
العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٤/٣ . معجم متن اللغة : ٥٥٧/٥ .
(٢) انظر : تهذيب اللغة : ٦٢/٦ . القاموس المحيط : ص : ٢٦٦ . لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس :
٥٠٥/٣ . معجم متن اللغة : ٥٥٧/٥ .
(٣) انظر : لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٤/٣ . معجم متن اللغة : ٥٥٧/٥ .
(٤) هو يزيد بن الخدّاق العبدي . انظر لسان العرب : ٣٨٣/٢ .
(٥) انظر الصحاح للجوهري : ٣٤٦/١ . أساس البلاغة : ص : ٤٧٤ . لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس :
٥٠٤/٣ . وتعدّي : أي تُعين وتقوّي : لسان العرب : ٣٨٣/٢ .
(٦) انظر : تاج العروس : ٥٠٥/٣ . معجم متن اللغة : ٥٥٧/٥ . وانظر : لسان العرب : ٣٨٣/٢ .

وأنهجه : أخلقه .^(١)

قال ابن الأعرابي^(٢) :

كالثوب أنهج فيه البلى أعيأ على ذي الحيلة الصانع^(٣)

ونفى صاحب اللسان : أن يقال : نهج الثوب بالفتح .^(٤)

ونهج الرجل نهجاً ونهيجاً : ربأ وانبهر نفسه : أي تتابع فهو ناهج ،
وأنهج : مثلها .^(٥)

ويقال : أنهج الرجل الدابة : سار عليها حتى انبهرت وأعييت .^(٦)

فالنهجُ والنهيجُ والنهجةُ : الربو الذي يعلو الإنسان والدابة ، وهو تواتر النفس من
شدة الحركة .^(٧)

ويقال : أنهج فلان : إذا بكى ، وقيل إذا انبسط .^(٨)

فالمنهج ورد في اللغة بعدة معان وهي : الطريق والمسلك ، والبلى ، والربو ، والبكاء ،
والانبساط . والمراد هنا المعنى الأول ، وهو المتعلق بالبحث .

(١) انظر : الصحاح للجوهري : ٣٤٦/١ . تهذيب اللغة : ٦٢/٦ أساس البلاغة : ص : ٤٧٤ . المفردات : ص :

٥٠٦ . القاموس المحيط : ص : ٢٦٦ . لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٥/٣ . معجم متن اللغة :

٥٥٧/٥ .

(٢) واسمه محمد بن زياد . وهو اللغوي التتابة المعروف . وانظر : سير أعلام النبلاء : ٦٨٧/١٠ . الأعلام : ١٣١/٦ .

(٣) لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٥/٣ .

(٤) لسان العرب : ٣٨٣/٢ .

(٥) انظر : الصحاح للجوهري : ٣٤٦/١ . لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٤/٣ . معجم متن اللغة :

٥٥٧/٥ .

(٦) انظر : الصحاح للجوهري : ٣٤٦/١ . تهذيب اللغة : ٦٢/٦ . القاموس المحيط : ص : ٢٦٦ . لسان العرب :

٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٤/٣ . معجم متن اللغة : ٥٥٧/٥ .

(٧) انظر تهذيب اللغة : ٦٢/٦ . لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٤/٣ . وانظر : النهاية في غريب

الحديث : ١٣٤/٥ .

(٨) انظر : لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٥/٣ . معجم متن اللغة : ٥٥٧/٥ .

المبحث الثاني

معاني المنهج في الشرع

لقد وضع لنا من معاني المنهج في اللغة أنه الطريق المستقيم الواضح
البين . ويمكن أن نستصحب هذا المعنى لبيان المراد بالمنهج في الشرع .

فهو الطريق الواضح المستقيم الذي يسلكه المسلم في عقيدته وعبادته
ومعاملته وأخلاقه ، وفي جميع شؤونه فيما يتعلق بأمر الشرع .

والمنهج الذي يجب على المسلم أن يسير عليه هو ذاك المنهج الذي سار
عليه رسول الهدى ﷺ وصحابته الأفاضل من بعده ، والتابعون لهم بإحسان ومن
تبعهم من الأئمة الذي علا قدرهم ، وعظم شأنهم .

وهو المنهج القويم الذي ارتضاه الله لهذه الأمة لتسير عليه ، فقال سبحانه :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ

نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۚ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]

أي من يباين الرسول ﷺ فيفارق طريقه ، وهو طريق الحق والصراط
المستقيم بعد ما وضع وبان له ، وهو طريق المؤمنين الصادقين ، ومنهاجهم
الواضح المبين الذي يوصلهم إلى مرضاة رب العالمين نوله ما تولاه ، ونتركه
إلى ما اختاره ، وهو الضلال والخذلان الذي ينال به العذاب العظيم ، والمآل
الوخيم في يوم القيامة .^(١)

وقد بين ذلك رسول الله ﷺ بقوله : " افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين
والنصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة ، وسوف تفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين
فرقة كلها في النار إلا واحدة " .

(١) وانظر : جامع البيان : ٢٧٧/٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٨٥/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٨٤٢/١ - ٨٤٣ .

تفسير الكريم الرحمن : ص : ١٦٥ - ١٦٦ .

فذكر في رواية أنه : ما كان عليه هو وأصحابه ، وفي أخرى : أنهم

الجماعة . (١)

فأشار النبي ﷺ لصحابته ﷺ لأنهم هم الصفوة المختارة من هذه الأمة التي
أثنى عليها الله في كتابه حيث قال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولأنهم خير القرون وأفضل الأمة بعد نبيها كما قال ﷺ : " خير القرون
القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم " الحديث . (٢)
وهم أعرف الناس بدين الله ومراد الله ورسوله ﷺ ، وأكثر الناس اقتداء
بهديه وتمسكاً بسنته ، والتزاماً بأمره .
وهم أهل الفصاحة والبيان ، وأهل الفطرة والإيمان ، جاء القرآن بلسانهم ،
وعاصروا نزوله على نبيهم ، وصفت أذهانهم لفهمه ، والرسول ﷺ بينهم يبين لهم

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٩٥ .

(٢) سبق تخريجه انظر : ص : ٢٤٠ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) : " ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة ، وما اتفق عليه أهل
السنة والجماعة من جميع الطوائف أن خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد ، وغيرها من كل
فضيلة . أن خيرها القرن الأول ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه .
وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة ، من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة ، وأنهم أولى بالبيان لكل
مشكل . هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، وأضله الله على علم ... وما أحسن ما
قال الشافعي (رحمه الله) في رسالته : " هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل ، وكل سبب ينال به علم ، أو
يدرك به هدى ، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا " . مجموع الفتاوى : ١٥٧/٤ - ١٥٨ . ولم أجد قول الشافعي
في الرسالة .

ما أشكل عليهم ، ويوضح لهم ما خفي عنهم ، ومات وهو راضٍ عنهم ، ولم تظهر فيهم البدع ولا الأهواء ولا المحدثات .
فمسلكهم هو المسلك السليم ، ومنهجهم هو المنهج المستقيم ، وطريقهم هو الطريق القويم ، وما دونه ضلال عظيم ، وانحراف وخيم .

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

" اتقوا الله معشر القراء ، وخذوا طريق من كان قبلكم ، فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً ، ولئن تركتموه شمالاً ويميناً ضللتُم ضلالاً بعيداً . أو قال مبيناً " (١) .

وحذيفة رضي الله عنه خاطب بهذه المقولة العلماء بالقرآن والسنة ، والعباد ممن أدركهم مبيناً لهم أن من تمسك بالكتاب والسنة وسار على نهج الصحابة الكرام سبق إلى كل خير وفضل كما سبق إليه الصحابة رضي الله عنهم الذين مضوا على الاستقامة ، أو ظلوا على طريق النبي صلى الله عليه وسلم . (٢)

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

" من كان منكم مستنّاً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبرّ هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ،

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : (٧١/٩٦) . باب الاقتداء بسنن

رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٣/٢) . برقم: (٧٢٨٢) . ص : ١٥٣١ .

وهذا اللفظ أورده أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي في كتابه السنة . تحقيق : سالم أحمد السلفي . طبعة مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ : ص : ٣٠ .

و انظر : مصنف ابن أبي شيبة : ١٣٩/٧ . مسند البزار : ٣٥٨/٧ . الإبانة عن شريعة الفرق الناجية : ٣٣٦/١ . شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة . لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي . تحقيق : د . أحمد سعد حمدان . طبعة دار طيبة . الرياض . ١٤٠٢هـ : ٩٠/١ . حلية

الأولياء : ٢١٨/٩ . الاعتصام : ٣٣٧/٢ . مجموع الفتاوى ١٢٧/٣ .

(٢) انظر : فتح الباري : ١٨٤/١٥ .

قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم " (١) .

فالطرق مغلقة إلا طريقاً ساروا عليه ، والمناهج منحرفة إلا منهجاً التزموه ، والمسالك وعرة إلا مسلكاً سلكوه ، والأبواب مؤصدة إلا باباً فتحوه ، فالهدي هديهم ، والحق معهم ، والضلال في منا عنهم .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" ولما كان التلقي عنه ﷺ على نوعين : نوع بواسطة ، ونوع بغير واسطة . وكان التلقي بلا واسطة حظ أصحابه الذين حاذوا قصب السباق ، واستولوا على الأمد ، فلا طمع لأحد من الأمة بعدهم في اللحاق ، ولكن المبرز من أتبع صراطهم المستقيم ، واقتفى منهاجهم القويم ، والمتخلف من عدل عن طريقهم ذات اليمين وذات الشمال ، فذلك المنقطع التائه في بيداء المهالك والضلال . فأَيُّ خصلة خير لم يسبقوا إليها ؟ وأيُّ خطّة رشد لم يستولوا عليها ؟ تالله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذباً صافياً زلالاً ، وأيدوا قواعد الإسلام فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالاً ، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان ، والقرى بالجهاد بالسيف والسنان ، وألقوا إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصاً صافياً ، وكان سندهم فيه عن نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العالمين سنداً صحيحاً عالياً ، وقالوا : هذا عهد نبينا إلينا وقد عهدنا إليكم ، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهي وصيته وفرضه عليكم ، فجرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم ، واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم ، ثم سلك تابعوا التابعين هذا المسلك الرشيد ، وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد " (٢) .

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٢٤٠ .

(٢) أعلام المرقعين : ١ / ٥-٦ . وانظر : كتاب الفوائد له ص : ١٠٨-١٠٩ . ففيه كلام قيم عن منهج الصحابة

ﷺ ، وسلوكهم السبيل المستقيم .

وهو منهج الطائفة الناجية المنصورة التي مدحها رسول الله ﷺ بقوله: " لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله (١) وهم ظاهرون " (٢) .

قال علي بن المديني (رحمه الله) :

" هم أصحاب الحديث " (٣) .

- (١) أمر الله : هو الريح التي ورد ذكرها في حديث أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله يبعث ريحاً من اليمن ، ألين من الحرير ، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة . أو قال: مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته " . صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب في الريح التي تكون قرب القيامة : (٥٠) . برقم: (١١٧) . ١٠٩/١ . وانظر : شرح التتوي على مسلم : ١٣٢/٢ . ٦٦/١٣ . فتح الباري : ٨٥/١٣ . طبعة دار المعرفة .
- (٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : (٧١/٩٦) . باب قول النبي ﷺ : " لا تزال طائفة ... " : (١١/١٠) . برقم: (٧٣١١) . ص: ١٥٣٧ . و بلفظ مقارب في: كتاب المنقلب : (٣٧/٦١) . باب : (٢٨) . برقم: (٣٦٤٠) . ص: ٧٦٥ . وفي كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾ [التحل: ٤٠] : (٢٩) . برقم: (٧٤٥٩) . ص: ١٥٦٧ . عن المغيرة ؓ . ونحوه في: كتاب العلم : (٣) . باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين : (١٣) . برقم: (٧١) . ص: ٣٢ . وفي كتاب فرض الخمس : (٣٣/٥٧) . باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَنَّا لِلَّهِ حُمُسُهُ ﴾ [الأنفال: ٤١] : (٧) . برقم: (٣١١٦) . ص: ٦٥٧ . وفي كتاب المناقب : (٣٧/٦١) . باب : (٢٨) . برقم: (٣٦٤١) . ص: ٧٦٥-٧٦٦ . وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : (٧١/٩٦) . باب قول النبي ﷺ : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ... " : (١١/١٠) . برقم: (٧٣١٢) . ص: ١٥٣٧ . وفي كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى : : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾ [التحل: ٤٠] : (٢٩) . برقم: (٧٤٦٠) . عن معاوية ؓ .
- صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب قول النبي ﷺ : " لا تزال طائفة من أمتي ... " : (٥٣) . برقم: (١٩٢٠) . عن ثوبان ؓ . و برقم: (١٩٢١) . عن المغيرة ؓ . ونحوه برقم: (١٠٣٧) . عن معاوية ؓ . و برقم: (١٩٢٣) . عن جابر ؓ . و برقم: (١٩٢٥) . عن سعد بن أبي وقاص ؓ . ١٥٢٣/٣-١٥٢٥ . ونحوه في: كتاب الإيمان : (١) . باب نزول عيسى بن مريم : (٧١) . برقم: (١٥٦) . عن جابر ؓ . ١٣٧/١ .
- (٣) سنن الترمذي: كتاب الفتن : (٣٠) . باب ما جاء في الشام : (٢٧) . برقم: (٢١٩٢) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٣٦٤ . و انظر : فتح الباري : ٢٢٧/١٥ .

وقال الإمام أحمد (رحمه الله) :

" إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم " (١)

لأن أصحاب الحديث نقلة الشريعة وحفاظ السنة ، وحملة العلم النبوي ومبلّغو الوحي إلى الأمة ، وهم المنتسبون إلى الرسول ﷺ لا إلى غيره ، وهم أعلم الناس برسول الله ﷺ وأخصّهم به ، وأعرفهم بهديه ، وأخبرهم بأقواله وأعماله ، واتبعهم لنهجه ، وأعظمهم اقتداء به ، وتمسكاً بشرعه .

أخذوا الإسلام صافياً محضاً بعيداً عن كل شوب وغبش ، واجتمعوا على الأخذ به دون أهل الفرقة والهوى والزيف .

قال الإمام اللالكائي (رحمه الله) تحت عنوان : فضل أصحاب الحديث على الأمة :

" فهؤلاء الذين تمهّدت بنقلهم الشريعة ، وانحفظت بهم أصول السنة ، فوجبت لهم بذلك المنّة على جميع الأمة ، والدعوة لهم من الله بالمغفرة ، فهم حملة علمه ، ونقطة دينه ، وسفرته بينه وبين أمّته ، وأمناءه في تبليغ الوحي عنه ، فحري أن يكونوا أولى الناس به في حياته ووفاته ... ثم كل من اعتقد مذهباً فإلى صاحب مقالته التي أحدثها ينتسب ، وإلى رأيه يستند ، إلا أصحاب الحديث ، فإن صاحب مقالته رسول الله ﷺ فهم إليه ينتسبون ، وإلى علمه يستندون ، وبه

(١) كتاب معرفة علوم الحديث . للإمام الحاكم أبي عبد الله التيسابوري . طبعة . دائرة المعارف بجيدر آباد ، نشر

المكتبة العلمية بالمدينة ص: ٢ . قال الإمام الحاكم (رحمه الله) بعد نقله لقول الإمام أحمد (رحمه الله) السابق :

" فلقد أحسن أحمد بن حنبل في تفسير هذا الخير : أن الطائفة المنصورة التي يرفع الخذلان عنهم إلى قيام الساعة هم أصحاب الحديث ، ومن أحقّ بهذا التأويل من قوم سلكوا محجة الصالحين ، واتبعوا آثار السلف من الماضين ، ودمغوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أجمعين ، من قوم أثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم في الدمن — الآثار — والأوطار — الحاجات — ، وتنعموا بالبؤس في الأسفار مع مساكنة العلم والأخبار ، وقعوا عند جمع الأحاديث والآثار بوجود الكسر والأطمار — الأتواب البالية — ، قد رفضوا الإلحاد الذي تنوق إليه النفوس الشهوانية وتوابع ذلك من البدع والأهواء والمقاييس والآراء والزيف ، جعلوا المساجد بيوتهم ، وأساطينها — سواريتها — تكاهم ، وبواريتها — حصرها — فرشهم " .

المرجع السابق ص: ٢-٣ .

يستدلّون ، وإليه يفزعون ، وبرأيهم يقتدون ، وبذلك يفتخرون ، وعلى أعداء سنّته بقربهم منه يصلون ، فمن يوازيهم في شرف الذّكر ؟ وببإيهم في ساحة الفخر ، وعلو الاسم إلى أن يقول :

والحمد لله الذي كمل لهذه الطّائفة سهام الإسلام ، وشرّفهم بجوامع هذه الأقسام ، وميّزهم من جميع الأنام ، حيث أعزّهم الله بدينه ، ورفعهم بكتابهم ، وأعلى ذكرهم بسنّته ، وهداهم إلى طريقته وطريقة رسوله . فهي الطّائفة المنصورة ، والفرقة النّاجية ، والعصبة الهادية ، والجماعة العادلة المتمسّكة بالسّنة ، التي لا تريد برسول الله ﷺ بديلاً ولا عن قوله تبديلاً ، ولا عن سنّته تحويلاً ، ولا يثنيهم عنها تقلّب الأعصار والزّمان ، ولا يلويهم عن سمّتها^(١) تغيير الحدّثان^(٢) ، ولا يصرفهم عن سمّتها ابتداع من كاد للإسلام ليصدّ عن سبيل الله ويبغيها عوجاً " (٣) .

فهم الدّاعون من ضلّ إلى الهدى ، الصّابرون على الأذى ، المحيون بكتاب الله الموتى ، المبصّرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على النّاس ، وأقبح أثر النّاس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .^(٤)

(١) السّمت : حُسْنُ التّحوُّ في مذهب الدّين ، والفعلُ سَمَتَ يَسْمَتُ سَمْتًا . وإنّه لحَسَنُ السّمت : أي حَسَنُ القَصْدِ

والمذهب في دينه ودنياه . والسّمت : اتّباعُ الحقِّ والهدى وحُسْنُ الجِوارِ وقِلَّةُ الأذْيَةِ . والسّمت : الطّريق . يقال : الزم هذا السّمت . يعني الزم هذا الطّريق . وهو المراد هنا . لسان العرب : ٤٦/٢ . بتصرّف .

و انظر : مختار الصحاح : ص : ٣١٢ . القاموس المحيط : ص : ١٩٧ .

(٢) يقال : حدّثانُ الدّهرِ وخَوادِثُهُ : نُوبُهُ ، وما يَحْدُثُ منه . واحداً حَدِثٌ ، وكذلك أَحْدَاثُهُ ، واحداً حَدَثٌ .

لسان العرب : ١٣٢/٢ . و انظر : مختار الصحاح : ص : ١٢٥ . القاموس المحيط : ص : ٢١٤ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السّنة والجماعة : ٢٤/١ - ٢٦ .

(٤) الرّد على الزّنادقة والجهميّة . للإمام أحمد بن حنبل . تحقيق : محمّد حسن راشد . طبعة : المطبعة السّلفيّة .

القاهرة . ١٣٩٣هـ : ص : ٦ . بتصرّف .

فأصحاب الحديث وإن تعددت ألقابهم الشرعية المميّزة لهم لنفي الفرق والأهواء عنهم كالجماعة ، وجماعة المسلمين ، والفرقة الناجية ، والطائفة المنصورة ، والسلف ، وأهل الحديث ، وأهل الأثر ، وأهل السنة والجماعة ^(١) فهم الذين حملوا المنهج الحقّ عبر تاريخ الأمة الإسلامية ، وهم الذين ينسب إليهم عند تعدّد المناهج لأنّهم أهل الحقّ الصريح ، ودونهم لا يخلو من بدعة وضلال .

ولذا قال ابن حزم (رحمه الله) :

" وأهل السنة الذين نذكرهم أهل الحقّ ، ومن عداهم فأهل البدعة ، فإنّهم الصحابة عليهم السلام ، وكلّ من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم ، ثمّ أصحاب الحديث ومن اتّبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا ، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم " ^(٢)

ولمّا نهج أصحاب الحديث وأهل السنة منهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته من بعده ، وتمسّكوا به ، وناصروه وأبرزوه ، وردّوا عنه زيغ الزائغين ، وبدع المبتدعين ، وضلال المضلّين ، وحفظوه من أن تشوبه شائبة ، أو تكدر صفوه كدرة ، ودعوا الناس إليه ، وألّفوا الكتب في الدفاع عنه ، والدّود عن حماه ، نسب ذلك المنهج إليهم ، وصار يعرف بهم ، ويذكر بذكرهم .

(١) انظر : حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية . لبكر بن عبد الله أبي زيد . طبعة : دار ابن الجوزي . المملكة العربية السعودية . الطبعة الثانية : ١٤١٠هـ — : ص : ٤٠-٤٢ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل : ١١٣/٢ . وانظر في فضل أصحاب الحديث ، واستقامة منهجهم ، وسلامة طريقهم ، وأنّهم أهل الصراط السوي ، والحقّ الجلي :

شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : ٢٧-٢٠/١ . الاعتصام : ٢٥١/٢-٢٥٢ . شرح التلويح على مسلم : ٦٧/١٣ . مجموع الفتاوى : ١٥٧-١٥٩ ، ٣٤٧-٣٤٥ ، ١٠/٤-١١ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٤٩ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ . شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٦٨ . طبعة المكتب الإسلامي . أهل السنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى . جمع وإعداد محمد عبد الهادي المصري . طبعة : دار طيبة . الرياض : ص : ٧٥ ، ٤٥ . دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها لناصر بن عبد الكريم العقل . دار إشبيلية للنشر . الطبعة الأولى : ١٤١٨هـ — ١٩٩٧م . ص : ٨٩ ، ١٤٣ .

قال الإمام أحمد (رحمه الله) :

" هذا مذهب أهل العلم وأصحاب الأثر ، وأهل السنّة المتمسكين بعروتها ، المعروفين بها ، المقتدى بهم فيها ، من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا ، وأدركت عليها من علماء الحجاز والشّام وغيرهم عليها ، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها ، أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع ، وخارج عن الجماعة ، زائل عن منهج السنّة وسبيل الحق " (١) .

وقال الإمام السّفاريني (رحمه الله) :

" المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم ، وأعيان التّابعين لهم بإحسان ، وأتباعهم ، وأئمّة الدّين ممّن شهد له بالإمامة ، وعرف عظم شأنه في الدّين ، وتلقّى النّاس كلامهم خلفاً عن سلف ، دون من رمى ببدعة ، أو شهر بلقب غير مرضي ، مثل الخوارج ، والروافض ، والقدرية ، والمرجئة ، والجبرية ، والجهمية ، والمعتزلة ، والكرامية (٢) ، ونحو هؤلاء " (٣) .

-
- (١) السنّة ضمن مجموعة مع كتاب الردّ على الجهميّة : ص : ٣٣-٣٤ . شرح قصيدة ابن القيم : ٩٦-٩٧ .
- (٢) الكراميّة : هم أتباع محمّد بن كرّام السّجستاني المبتدع . من مثبتة صفات الله تعالى ، ولكنهم يتّهمون بها إلى التحسيم والتشبيه . ويزعمون أنّ الإيمان نطق اللّسان بالتوحيد مجرّد عن القلب وعمل الجوارح . والكفر عندهم الجحود والإنكار لله باللّسان . والمنافقون على عهد النبي ﷺ مؤمنون على الحقيقة . كما يذهبون إلى أنّ العقل يحسّن ويقبّح قبل الشّرع ، وأنّ معرفة الله تحبّ بالعقل . وأنّ الإمامة تثبت بالإجماع دون النصّ والتعيين . وهم طوائف عدّة . ولهم مقالات متعدّدة ، وآراء متباينة .
- وانظر : مقالات الإسلاميين : ص : ١٤١ . الفرق بين الفرق : ص : ٢٠٢ فما بعدها . الملل والنحل : ١٠٨/١-١١٣ . اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ص : ٦٧ . سير أعلام النبلاء : ٥٢٣/١١-٥٢٤ .
- (٣) لوامع الأنوار : ٢٠/١ . وانظر : الشريعة لأبي بكر محمّد بن الحسين الآجري . تحقيق : محمّد حامد الفقي . مطبعة السنّة المحمديّة . الطّبعة الأولى : ١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م : ص : ٧١-٧٢ . مجموع الفتاوى : ١٥٢-١٥١/٤ . وسطية أهل السنّة بين الفرق . د. محمّد باكرم محمّد عبد الله . طبعة : دار الرّاية . الرياض . الطّبعة الأولى : ١٤١٥هـ — ١٩٩٤م : ص : ١٠٨ . أهل السنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى : ص : ٥٢ .

فهذا هو المنهج الحقّ ، الذي يجب على المسلم أن يسير عليه ، والمسلك القويم الذي يجب عليه أن ينتسب إليه ، والصراط المستقيم الذي يلزمه أن يثبت عليه ، لأنّ النّجاة تكمن في التّمسك به ، والسّعادة نائلة إن شاء الله من تشبّث به وعضّ عليه بنواجذه .

الفصل الثاني

سمات المنهج الحق

إنّ منهج أهل السنّة والجماعة وهو المنهج الحقّ يتّسم بسمات تميّزه عن غيره من المناهج ، وتفردّه عنها ، وتبرزه دونها ، وهي كثيرة يصعب حصرها ولكن من أهمها :

١- إنّ مصدر تلقّيه كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ، لأنّهما المصدران اللذان تركنا عليهما رسول الله ﷺ وذلك في قوله : " إني قد تركتُ فيكم شيئين لن تضلّوا بعدهما : كتاب الله وسنّتي ، ولن يتفرقا حتّى يردا عليّ الحوض " (١) وهما الوحيان اللذان أمرنا الله بالتمسك بهما ، والسير على هديهما ، واتّباع أمرهما ، واجتناب نهيهما ، فقال في شأن القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩] .

وقال فيه : ﴿ الرِّكَتُبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١] .

(١) مرطاً مالك : بلفظ مقارب — بلاغاً — في كتاب القدر : (٤٦) . باب التّهي عن القول بالقدر : (١) . برقم : (٣) . ٨٩٩/٢ . عن أبي هريرة ؓ . وصله ابن عبد البر في جامع بيان العلم : ٣٠/١ . طبعة دار العاصمة . مستدرك الحاكم : بلفظه في : ١٧٢/١ . وهو حديث صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة : ٣٦١/٤ . الطبعة الثانية . مشكاة المصابيح : ٦٦/١ . برقم : (١٨٦) . صحيح الجامع : ٣٩/٣ . الطبعة الثانية . وفي صحيح مسلم : قال ﷺ : " تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنّك قد بلغت وأديت ونصحت " . كتاب الحجّ : (١٥) . باب حجّة النّبي ﷺ : (١٩) . برقم : (١٢١٨) . ٨٩٠/٢ .

وقال في السنّة : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧] .

وقال عنها : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] .

فالقرآن والسنّة هما الأصل الذي يجب أن يحاكم المنهج إليه ، فلا يعتمد منه في شيء إلا ما دلّ عليه ، ولا يؤخذ منه إلا ما أيّده ، بل يسلم قياده إليهما . فلا يعارض حكمهما بتأويلات العقول ، وترهات الأهواء ، واستبداد الآراء ، ولا تضرب أدلتها بعضها ببعض ، بل يردّ المتشابه منها إلى المحكم^(١) ، والمجمل^(٢) إلى المبين^(٣) ، ويعتمد في ذلك على تفسير الصحابة وفهمهم للنصوص .

ولا يفرّق بين ما ثبت عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، فيؤخذ ما كان متواتراً^(٤) ويردّ ما كان

(١) يأتي بيان المراد بالمتشابه والمحكم .

(٢) الجمل في اللغة : المبهم ، من أجمل الأمر إذا أهم . وقيل هو : المجموع ، من أجمل الحساب إذا جمع وجعل جملة واحدة . وقيل هو : المتحصل ، من أجمل الشيء إذا حصله . وفي الاصطلاح : هو ما دلّ دلالة لا يتعيّن المراد بها إلاّ بتعيين . سواء كان عدم التعيّن بوضع اللغة ، أو بعرف الشرع ، أو بالاستعمال . إرشاد الفحول : ص : ٢٨٣ . وقال ابن قدامة (رحمه الله) : " الجمل هو : ما لا يفهم منه عند الإطلاق معنى . وقيل : ما احتمل أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر " . روضة الناظر : ١٨٠ . وانظر : المستصفى : ١٨٧/١ . الحصول : ٢٣١/٣ . الأحكام للأمدى : ١٣/٣ .

(٣) المبين في اللغة : المظهر من بان إذا ظهر . انظر : إرشاد الفحول : ص : ٢٨٣ . وفي الاصطلاح : هو اللفظ الذي يتعيّن معناه بحيث لا يحتمل غيره . المستصفى : ١٨٧/١ . وانظر : الحصول : ٢٢٥-٢٢٩ . روضة الناظر : ١٨٤ . إرشاد الفحول : ص : ٢٨٤ .

(٤) الحديث المتواتر في اللغة هو : المتتابع ، من تواتر المطر : إذا تتابع . وفي الاصطلاح هو : الخبر الذي رواه عدد كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم إلى منتهاه ، وأن يكون مستند خبرهم الحسن ، وإفادة العلم لسماعه . انظر : نزهة النظر شرح نخبة الفكر . لابن حجر العسقلاني . تعليق وشرح : صلاح محمد محمد عويضة

أحاداً^(١) ، بل يؤخذ الجميع مأخذ التسليم والافتقار مع التعظيم والإجلال ، من غير معارضة لذلك بقول كائن من كان ، مع مجافاة التّهاون أو الردّ بما يوافق الهوى ويلائم القصد .

ولا تنصب مقالة تمتّ إلى المنهج مالم تكن ثابتة بالدليل الشرعي ، إذ التعبير بالألفاظ الشرعية هو سبيل الحق ، مع تجنب المراء والخصومات والجدال إلاّ بالتي هي أحسن ، ومباينة البدع ومحدثات الأمور ، لقوله ﷺ : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ " (٢) .

قال شارح الطحاوية (رحمه الله) :

" فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحقّ الذي يجب اتّباعه ، فيصدّق بأنّه حقّ وصدق ، وماسواه من كلام سائر الناس يعرضه عليه ، فإن وافقه فهو حقّ ، وإن خالفه فهو باطل ، وإن لم يعلم هل خالفه أو وافقه يكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه ، أو قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو بتكذيبه ، فإنّه يمسك عنه ولا يتكلّم إلاّ بعلم ، والعلم ما قام عليه الدليل ، والنّافع منه ما جاء به الرسول . وقد يكون علم من

طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . : ص : ٢٤-٢٥ . وانظر : تيسير مصطلح الحديث . للذكور محمود الطحّان . طبعة : مكتبة المعارف . الرياض . الطبعة الثامنة : ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م : ص : ١٩-٢٠ . علوم الحديث ومصطلحه عرض ودراسة . للذكور صبحي الصّاح . طبعة دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الخامس عشرة . ١٩٨٤م . ص : ١٤٦ . و انظر : كتاب الكفاية في علم الرواية . لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي . مراجعة : عبد الحليم محمّد عبد الحليم . عبد الرّحمن حسن محمود . طبعة : دار التراث العربي . نشر : دار الكتب الحديثة . القاهرة . مكتبة المثنى . بغداد . الطبعة الثانية : ص : ٥٠ .

(١) حديث الأحاد في اللغة هو : ما يرويه شخص واحد . وفي الاصطلاح : ما لم يجمع شروط المتواتر . انظر : نزّهة النظر شرح نخب الفكر : ص : ٣٢ . تيسير مصطلح الحديث : ص : ٢٢ .

(٢) صحيح البخاري : بلفظه — إلاّ أنّه قال : " ما ليس فيه " — في : كتاب الصّالح : (٢٩/٥٣) . باب إذا اصطالحوا على صلح حور فالصلح مردود : (٥) . برقم : (٢٦٩٧) . ص : ٥٦٣ . عن عائشة (رضي الله عنها) . صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الأقضية : (٣٠) . باب نقض الأحكام الباطلة ، وردّ محدثات الأمور : (٨) . برقم : (١٧١٨) . و بلفظ : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ " . ١٣٤٤-١٣٤٣/٣ .

غير الرسول ، لكن في الأمور الدنيوية ، مثل الطبّ والحساب والفلاحة ، وأمّا الأمور الإلهية والمعارف الدينية فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول لا غير ^(١) .

٢- إنّ طريق هذا المنهج طريق واحد لا يتعدّد ، ومستقيم ليس بمعوج ولا منحرف ، وهو الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه ، وأمر الخلق كلّهم بالسّير فيه . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٣] .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : " خطّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطّاً ، ثمّ قال : " هذا سبيل الله " ، ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله ، ثمّ قال : " هذه سبل ، على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه " . ثمّ تلا : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٣] . ^(٢)

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٢١٨-٢١٩ . طبعة المكتب الإسلامي .
ولمزيد بيان عن مصدر تلقّي منهج أهل السّنة والجماعة من الكتاب والسّنة انظر الآتي :
شرح أصول اعتقاد أهل السّنة والجماعة : ٨-٧/١ . وانظر : ص : ١٠ ، ١٧-١٨ ، ٧٤ . من مقدّمة المحقّق .
الإبانة عن شريعة الفرق الناجية : ١٢-١١/١ . من مقدّمة المحقّق . مجموع الفتاوى : ٣/١٥٧ ، ٣٤٦-٣٤٧ .
دراسات في الأهواء والفرق والبدع : ص : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٩٥ . أهل السّنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى : ص : ٦٥ ، ٦٩ .
(٢) سنن ابن ماجه : نحوه في : المقدّمة . باب أتباع سّنة رسول الله ﷺ : (١) . برقم : (١١) . عن جابر رضي الله عنه . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ١٩ .
سنن الدارمي : بلفظه في : باب في كراهية أخذ الرّأي . ٧٨/١ .
مسند أحمد : بلفظ مقارب في : ١/٤٣٥ ، ٤٦٥ . ونحوه في : ٣/٣٩٧ . عن جابر رضي الله عنه . قال أحمد شاكر (رحمه الله) : " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر : ٦/٨٩-٩٠ ، ١٩٩ . برقم : (٤٤٣٧ ، ٤١٤٢) .

وفي رواية : إن ابن مسعود رضي الله عنه سئل عن الصراط المستقيم فقال : " تركنا محمد صلى الله عليه وسلم في أدناه ، وطرفه في الجنة ، وعن يمينه جواد^(١) ، وعن يساره جواد ، وثم رجال يدعون من مرّ بهم ، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا... ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية^(٢)

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ يعني : قويمًا لا اعوجاج به عن الحق .
﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ يقول : فاعملوا به ، واجعلوه لأنفسكم منهاجاً تسلكونه ،
﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ يقول : ولا تسلكوا طريقاً سواه ، ولا تركبوا منهاجاً غيره " ^(٣) .

وقال القرطبي (رحمه الله) :

" ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ نصب على الحال ، ومعناه مستوياً قويمًا لا اعوجاج فيه .
فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ، ونهايته الجنة ، وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار ... وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب في: ذكر ما يجب على المرء من ترك تتبع السبل دون لزوم الطريق الذي هو الصراط لمستقيم . برقم: (٧) . قال شعيب الأرنؤوط : " إسناده حسن " . ١٨١/١ .
مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ٢٦١/٢ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . وقال الذهبي (رحمه الله): " صحيح " .

(١) الجواد : الطرُق ، واحدها جادة ، وهي سواء الطريق ووسطه . وقيل هي الطريق الأعظم التي تجمع الطرُق ، ولا بُد من المرور عليها . النهاية في غريب الحديث: ٢٤٥/١ .

(٢) جامع البيان : ٨٨/٨ - ٨٩ .

(٣) المرجع السابق : ٨٨ - ٨٧/٨ .

أهل الملل ، وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام^(١). هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد . قاله ابن عطية . قلت : وهو الصحيح " (٢) .

وقد وحدّ الله في الآية طريق الحقّ الموصل إلى المقصود لأنّ مرده إلى الله الملك الحقّ الواحد ، وجمع السبل المخالفة لأنها كثيرة متشعبة متعدّدة ، لا توصل إلى الغاية المقصودة لأنها طرق الباطل وهي ظلمات . وهذا سرّ إفراد الله تعالى للنور وجمعه للظلمات في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [التحل: ٩] .

(١) الكلام : علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته ، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام .
التعريفات : ص : ٢٣٧ . التوقيف على مهمات التعاريف : ٦٠٧/٢ . وهو أمر محدث شاب به واضعوه صفاء المعتقد ، ووعروا به الطريق إلى معرفة الله تعالى ، مما أدى بهم إلى الانحراف عن المنهج الحقّ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٣٧/٧ - ١٣٨ . وقول ابن عطية في المحرر الوجيز : ٤٠٠/٥ . مع اختلاف يسير .
وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٣٠٤-٣٠٦ . زبدة التفسير من فتح القدير . للدكتور محمد سليمان الأشقر .
وفتح القدير للشوكاني ، دار الفتح ودار الفرائس . عمان . الطبعة الخامسة : ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م . ص : ١٨٩ .
تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٤٣ .
(٣) وانظر : طريق المجرتين : ص : ١٧٧ - ١٧٨ . بدائع الفوائد : ١٢٧/١ . تفسير القرآن العظيم : ٣٠٦/٢ .

أي على الله أن يبين لعباده طريق الحق القاصد المستقيم الموصل إلى الله تعالى ، والطرق الجائرة أي الحائدة المائلة الزائغة عن الحق التي لا توصل من سلكها إلى مرضاة الله تعالى لانحرافها وضلالها . (١)

قال ابن القيم (رحمه الله) في بيان قوله تعالى : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦٧﴾
[الفاتحة: ٦-٧] قال :

" فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير ، والسلامة من كل شر ... ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور : الاستقامة ، والإيصال إلى المقصود ، والقرب ، وسعته للمارين عليه ، وتعيينه طريقاً للمقصود ، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة .

فوصفه بالاستقامة يتضمن قرب ، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين ، وكلما تعوج طال وبعد ، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود ، ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته ، وإضافته إلى المنعم عليهم ، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعيينه طريقاً " (٢) .

فهذا الصراط هو الطريق القويم الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام الذي من سلكه كان على المنهج الحق الذي لا يعوج ولا ينحرف به ، ولا يتناقض عليه ، ولا يضطرب لأنه من عند الله ، ولذلك سلم من هفوات البشر وأخطائهم واختلافاتهم كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ

عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] .

(١) انظر : جامع البيان : ٨٤-٨٣/١٤ . تفسير القرآن العظيم : ٨٧٣/٢ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٣٩٠ .

حادي الأرواح : ص : ٥٢ .

(٢) مدارج السالكين : ١١-١٠/١ . وانظر : بدائع الفوائد : ٢٥١/٢ فما بعدها . وقد أطل (رحمه الله) في بيان ذلك .

وهذا الذي عصم الفرقة الناجية من الاختلاف والتناقض لأنهم ينتسبون إلى منهج واحد ، ويردون مشرباً واحداً ويصدرون عنه ، ولذا وافق الخلف منهم السلف . وهذا مغزى قوله ﷺ : " إلا واحدة " (١) .

فلما توحد المنهج توحد السائررون عليه وانتظم أمرهم . ولا يعني هذا أنهم لا يختلفون فيما بينهم ، بل قد يقع بينهم الخلاف ولكنهم يضبطون ذلك بأدب الألفة والاحترام محافظة على أخوة الإسلام ، وجماعة المسلمين ، وجمع الشمل ونبذ الفرقة ، وهم منقادون في ذلك لأمر الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] (٢) .

ولما تعددت المناهج الخاطئة تعددت الجماعات التي غصت بهم ساحة الإسلام ، متنازعة فيما بينها متطاحنة ، اختطت كل منها طريقاً لنفسها غير الطريق الذي اختطته الأخرى ، وهذا نتيجة لمخالفة منهج الرسول ﷺ . فمنهج واحد لا يقبل التعدد قال عنه الخالق سبحانه : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] (٣) .

وهؤلاء وإن تدثروا بثوب الإسلام ، ورفعوا شعارات تهتف باسمه إلا إنهم لم يكونوا على الطريق الحق ، ولا يندفع بهم وبشعاراتهم إلا من جهل المنهج الحق ، وتكعب الصراط المستقيم .

(١) الحديث سبق ذكره . انظر : ص : ٩٥ . وانظر الاعتصام : ٢٤٩/٢ . الإبانة عن شريعة الفرق الناجية :

٣٨٦/١ .

(٢) وانظر : أهل السنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى : ص : ٧٦ .

(٣) وانظر : منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله : ص : ٨ . حكم الانتماء : ص : ١٨١-١٨٢ .

قال حذيفة لابن مسعود (رضي الله عنهما) :

" فاعلم أن الضلالة حق الضلالة أن تعرف ما كنت تنكر ، و أن تنكر ما كنت تعرف ، وإياك والتلون فإن دين الله واحد " (١) .

فهو منهج مستقل متفرد متميز ، لا يختلط بغيره من مناهج أهل الأرض ، ولا تمازجه معتقداتها ولا تصوراتها ، ولا أنظمتها ولا أوضاعها ، ولا نظرياتها ، بل هو منهج رسول الله ﷺ فحسب ، ورسول الله ﷺ ليس في شيء من مناهج أنتجتها عقول البشر ، وصاغتها آراؤهم وأهواؤهم ، وقد قال الله له: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] (٢) .

٣- إنه منهج كامل تام ، لا زيادة عليه ، ولا نقص يعتريه .

قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] .

عن طارق بن شهاب ﷺ قال : قال رجل من اليهود لعمر : يا أمير المؤمنين لو أن علينا نزلت هذه الآية : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

(١) سنن البيهقي: بلفظه في : باب ما جاء في الخلف بصفات الله . ٤٢/١٠ .

مسند ابن الجعد . لأبي الحسن علي بن الجعد الجوهري البغدادي . تحقيق : عامر أحمد حيدر . طبعة : مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤١٠هـ — ١٩٩٠م : بلفظه — إلا أنه قال : " دين الله تعالى " — برقم : (٣٠٨٣) . ٤٥٢/١ .

مسند الحارث : بلفظ مقارب في : ٥٢٧/١ .

وأورد الطبراني في الكبير جزءاً منه مرفوعاً إلى النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) . ولفظه : " اعمل بما تعرف ودع ما تنكر ، وإياك والتلون في دين الله " . ١٩٦/٦ . وانظر : الإبانة عن شريعة الفرق الناجية : ١٩٠/١ .

(٢) وانظر : في ظلال القرآن : ١٢٣٩/٣ .

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا . فقال عمر : " إِنِّي لأعلم
أيَّ يومٍ نزلت هذه الآية ، نزلت يوم عرفة في يوم جمعة " .^(١)

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" أخبر الله نبيّه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى
زيادة أبداً ، وقد أتمّه الله عزّ ذكره فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيّه الله فلا يسخطه
أبداً " .^(٢)

إنّ من أكبر نعم الله على هذه الأمة المحمّديّة أن أكمل لها دينها فلا تحتاج
إلى دين غيره ، ولا إلى نبيّ سوى نبيّها ، ولذا جعله خاتم الأنبياء ، وبعثه إلى
الإنس والجنّ . فالحلال ما أحلّه ، والحرام ما حرّمه ، والدّين ما شرّعه ، وكلّ ما
أخبر به فهو صدق وحقّ ، وكلّ ما حكم به فهو عدل وقسط . وقد رضي الله لها
ذلك وأحبّه فلترضى بما رضيّه لها .^(٣)

يقول ابن القيم (رحمه الله) في كلامه بديع حول هذه الآية :

" تأمل كيف وصف الدّين الذي اختاره لهم بالكمال ، والنّعمة التي أسبغها
عليهم بالتّمام ، ايذاناً في الدّين بأنّه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء
خارج عن الحكمة بوجه ، بل هو الكامل في حسنه وجلالته . ووصف النّعمة

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : (٧١/٩٦) . باب (١/٠) . برقم: (٧٢٦٨) .
ص : ١٥٢٩ . و نحوه في: كتاب الإيمان : (٢) . باب زيادة الإيمان ونقصانه : (٣٤/٣٣) . برقم: (٤٥) .
ص : ٢٤ . وفي كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب حجة الوداع : (٧٨/٧٧) . برقم: (٤٤٠٧) . ص :
٩١٦ . وفي كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] : (١/٢) .
برقم: (٤٦٠٦) . ص : ٩٦٥ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب و نحوه في : كتاب التفسير : (٥٤) . برقم: (٣٠١٧) . ٢٣١٣-٢٣١٢/٤ .
(٢) جامع البيان : ٧٩/٦ . طبعة : دار الفكر . تفسير القرآن العظيم : ٢٠/٢ .

(٣) انظر في معنى الآية : جامع البيان : ٧٩-٨٢ . طبعة : دار الفكر . تفسير القرآن العظيم : ١٩/٢ .
تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٨٣ . في ظلال القرآن : ٨٣٣/٢ .

بالتَّمام إِيذاناً بدوامها واتِّصالها ، وأنَّه لا يسلبهم إيَّاهَا بعد إذ أعطاهموها ، بل يتمُّها لهم بالدَّوام في هذه الدَّار ، وفي دار القرار . وتأمَّل حسن اقتران التَّمام بالنعمة ، وحسن اقتران الكمال بالدين ، وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به ، المقيمون له ، وإضافة النِّعمة إليه إذ هو وليُّها ومسديها والمنعم بها عليهم ، فهي نعمته حقّاً وهم قابلوها ، وأتى في الكمال باللَّام المؤذنة بالاختصاص ، وأنَّه شيء خصَّوا به دون الأُمم ، وفي إتمام النِّعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة ، فجاء أتممت في مقابلة أكملت ، وعليكم في مقابلة لكم ، ونعمتي في مقابلة دينكم ، وأكَّد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنِّعمة بقوله : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] .

أي ما أغفلنا عنه ولا ضيَّعنا فيه من شيء . والمراد بالكتاب : اللُّوح المحفوظ ، فإنَّ الله أثبت فيه جميع الحوادث ، وقيل : إنَّ المراد به القرآن : أي ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدين إمَّا تفصيلاً أو إجمالاً ^(٢) .

والمعنى الثَّاني هو الَّذي يؤيِّد ما نحن فيه ، ويعضِّده قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] .

قال ابن مسعود رضي الله عنه :

" قد بيَّن لنا في هذا القرآن كلَّ علم وكلَّ شيء " .

وقال مجاهد (رحمه الله) :

" كلَّ حلال وكلَّ حرام " .

(١) مفتاح دار السَّعادة : ٣٠٢/١ .

(٢) فتح القدير : ١١٤/٢ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٤٢٠/٦ . أنوار التنزيل : ٤٠٦/٢ .

وقول ابن مسعود رضي الله عنه : أعم وأشمل . فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي ، وكلّ حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم . (١)

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمّها وأكملها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : لولا موضع اللبنة " . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فأنا موضع اللبنة ، جئت فختمت الأنبياء " . (٢)

قال ابو العباس القرطبي (رحمه الله) :

" ومقصود هذا المثل : أن يبين به صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى ختم به النبيين والمرسلين ، وتمّم به ما سبق في علمه إظهاره من مكارم الأخلاق ، وشرائع الرّسل ، فبه كمل النظام ، وهو ختم الأنبياء ، والرّسل الكرام ، صلى الله عليه وعلى آله أفضل صلاة وسلّم عليهم أبلغ سلام " . (٣)

من هنا يتبين لنا أن المنهج الذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه من بعده كامل كاف لا نقص فيه بحال من الأحوال ولا تقصير ، وإنما يقع التقصير من المنتسبين إليه ، إمّا لجهلهم بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو نسبتهم إليه ما لم يأت به ، أو ضلالهم وتفريطهم وانحرافهم ، فيقتّمون ويؤخرون ، ويزيدون وينقصون ، وتلك البدع التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : " وإياكم ومحدثات الأمور فإن كلّ محدثة بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة " (٤) .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٩٠٣/٢ . وانظر : فتح القدير : ١٨٧/٣ .

(٢) سبق تخريجه انظر : ص : ٤٠٢ .

(٣) المفهم : ٨٨/٦ .

(٤) هذا جزء من حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه . وهو في :

وقوله : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ " (١) .

قال الشاطبي (رحمه الله) :

" فعلى الناظر في الشريعة ... أن ينظر إليها بعين الكمال لا بعين النقصان ، ويعتبرها اعتباراً كلياً في العبادات والعادات ، ولا يخرج عنها البتة ، لأنّ الخروج عنها تيه وضلال ورمي في عماية ، كيف وقد ثبت كمالها وتاممها ؟ فالزائد والمنقص في جهتها هو المبتدع بإطلاق ، والمنحرف عن الجادة إلى بنيات الطرق " (٢) .

فعلى المسلم الصادق أن يأخذ هذا المنهج كاملاً فلا يجرّؤه ولا يشطّره ، فيأخذ ما وافق هواه ويدع ما لا يوافقه . وقد أمر الله المؤمنين أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام (٣) وشرائعه ، فيعملوا بجميع أوامره ويتركوا جميع زواجره ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب السنة : (٣٩) . باب في لزوم السنة : (٥) . برقم : (٤٦٠٧) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٥٠٤ .

سنن الترمذي: نحوه في: كتاب العلم : (٣٨) . باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع : (١٦) . برقم : (٢٦٧٦) . وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤٣٣ .

سنن ابن ماجه: نحوه في: المقدمة . باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين : (٦) . برقم : (٤٢) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٢٢ .

سنن الدارمي: بلفظ مقارب في: باب اتباع السنة . ٥٧/١ .

سنن البيهقي: نحوه في: باب ما يقضي به القاضي ويفي به المفتي . ١١٤/١٠ .

مسند أحمد: بلفظه — في موضعين . إلاّ أنّه قال في أحدهما : " وإنّ كلّ بدعة " — . في : ١٢٦/٤ - ١٢٧ . مستدرک الحاكم: نحوه في: ١٧٤/١ ، ١٧٧ . وقال : " هذا حديث صحيح ليس له علّة " . ووافقه الذهبي (رحمه الله) .

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٨٢١ .

(٢) الاعتصام : ٣١٠/٢ . وانظر : أعلام الموقعين : ٣٣٢/١ . شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٧١ . طبعة المكتب الإسلامي .

(٣) عرى الإسلام : أي حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه . لسان العرب : ١١٣/١٠ .

فقال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨] (١) .

وعاب على بني إسرائيل سلوك هذا المسلك المشين ، وأوعدهم عليه بالنكال الأليم فقال : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] .

يقول سيّد قطب (رحمه الله) في بيان قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] .

" الذي يشاقّ الرسول ﷺ هو الذي يأخذ له شقاً وجانباً وصفاً غير الصّفّ والجانب والشقّ الذي يأخذه النبي ﷺ . ومعنى هذا : أن يتخذ له منهجاً للحياة كلّها غير منهجه ، وأن يختار له طريقاً غير طريقه . فالرسول ﷺ جاء يحمل من عند الله منهجاً كاملاً للحياة ، يشتمل على العقيدة والشعائر التعبدية ، كما يشتمل على الشريعة والنظام الواقعي لجوانب الحياة البشرية كلّها ، وهذه وتلك كلتاها جسم هذا المنهج ، بحيث ترهق روح هذا المنهج إذا شطر جسمه فأخذ منه شقّ وطرح شقّ ! والذي يشاقّ الرسول ﷺ هو كلّ من ينكر منهجه جملة ، أو يؤمن ببعضه ويكفر ببعض ، فيأخذ بشقّ ويطرح شقاً " (٢) .

وهذا ينافي كمال المنهج وتمامه .

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٣٧١/١ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٧٧ .

(٢) في ظلال القرآن : ٧٥٩/٢ .

٤-إنه منهج ظاهر واضح جلي لا لبس فيه ولا غموض ، باق إلى قيام الساعة ، تولى رسول الله ﷺ إيضاحه وبيانه إلى الخلق كافة لأن ربه أمره بذلك ، فقال له : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [التحل:٤٤] .

فلعلمه بما أنزل عليه ، وحرصه على بيانه ، واتباعه له ، فصل للأمة ما أجمل ، وبيّن لها ما أشكل ، وأوضح لها ما غمض ، لأنه أنصح الناس للناس ، وأفصحهم لساناً ، وأصدقهم لهجة ، وأقواهم حجة ، وأبلغهم بياناً ، حتى تهتدي الأمة فتقوز بالنجاة في الدارين .^(١)

ولم يكن رسول الله ﷺ بدعاً من الرسل ، بل كان شأنه شأنهم في وضوح الأمر وجلالته .

قال ابن كثير (رحمه الله) في بيان قول الله تعالى في خطاب موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه:٥٩] . قال :

" ﴿ ضُحًى ﴾ : أي ضحوة من النهار ، ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح ، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج ، ولهذا لم يقل ليلاً ، ولكن نهراً ضحى " ^(٢) .

وهذا سرّ قول كل رسول لقومه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ [هود:٢٨ ، ٦٣ ، ٨٨] .

وهكذا شأن رسولنا ﷺ ، وشأن منهجه فإنه اتسم بالوضوح التام ، والحجة الباهرة ، والدلالة الظاهرة .

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٨٨٥/٢ . الشريعة : ص ٣٤٣-٣٤٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٢٥٠/٣ .

قال القرطبي (رحمه الله) في بيان قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الحاثية: ١٨].

" أي على منهج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق " (١) .
فقد أوضح الله المنهج ليتبين سبيل الحق وطريق النجاة ، ويتميز عن المناهج الباطلة وطرق الضلال المنحرفة . ولذا قال تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِزٌ﴾ [التحل: ٩] . أي على الله بيان سبيل الحق وإيضاحه . (٢)
وقال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

قال ابن القيم (رحمه الله) :
" والله تعالى قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصلة ، وسبيل المجرمين مفصلة ، وعاقبة هؤلاء مفصلة ، وعاقبة هؤلاء مفصلة ، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء ، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء ، وخذلانه هؤلاء وتوفيقيه هؤلاء ، والأسباب التي وفق بها هؤلاء والأسباب التي خذل بها هؤلاء ، وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان حتى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام " (٣) .

وما مات رسول الله ﷺ إلا وقد ترك الأمة على بيّنة من أمر دينها ، لا خفاء فيه ، ولا غموض كالشمس في رابعة النهار ، وهكذا قال لنا في حديث

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٦٣/١٦ . وانظر : زبدة التفسير من فتح القدير : ص : ٦٦٢ .

(٢) سبق بيان الآية . انظر : ص : ٨٢٥ .

(٣) الفوائد : ص : ١٠٨ .

العرباض بن سارية رضي الله عنه : " قد تركتكم على البيضاء ^(١) ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك " ^(٢) .

وقد أمره ربه سبحانه وتعالى أن يبلغ دينه كله ، ولا يخف منه شيئاً .
فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] .

ففي الآية خطاب من الله تعالى باسم الرسالة لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمر له بإبلاغ جميع ما أرسله به . وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، وقام به أتم قيام ، وأحسنه وأكمله .

قال الزمهرى (رحمه الله) :

" من الله الرسالة وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاغ ، وعلينا التسليم " ^(٣) .
وشهدت له أمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل ، في خطبته يوم عرفة في حجة الوداع ، وقد كان هناك من أصحابه نحو

(١) البَيضاء : الشمسُ لبياضها . لسان العرب : ١٢٣/٧ .

(٢) هذا جزء من حديث العرباض رضي الله عنه السابق . ولكن هذه اللفظة في :

سنن ابن ماجه : المقدمة . باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين : (٦) . برقم : (٤٣) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٢٢ .

مسند أحمد : ١٢٦/٤ .

مستدرک الحاكم : ١٧٥/١ .

(٣) صحيح البخاري : بلفظه — تعليقاً — في كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا

الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة: ٦٧] :

(٤٦) . ص : ١٥٨٢ .

وصله الحافظ ابن حجر (رحمه الله) في كتابه تعليق التعليق . طبعة المكتب الإسلامي . دار عمار . بيروت .

عمان . تحقيق : سعيد عبد الرحمن القزقي . الطبعة : الأولى : ١٤٠٥ هـ : ٣٦٥-٣٦٦ .

من أربعين ألفاً ، كما ثبت عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) :
أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يؤمئذ : " وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟"
قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ، ونصحت . فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى
السماء وينكتها إلى الناس : " اللهم اشهد ، اللهم اشهد " . ثلاث مرّات ؟ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾

أي إن لم تؤدّ إلى الناس ما أرسلتك به فما بلغت رسالته ، وقد علم ما يترتب
على ذلك لو وقع ، ولذا قال ابن عباس (رضي الله عنهما) :
" ﴿ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ يعني إن كتمت آية ممّا أنزل
إليك من ربك لم تبلغ رسالته " (٢) .

قال الطبري (رحمه الله) :

" وأما قوله : ﴿ إِنْ لَمْ يَهْدِ الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فإنه يعني : إن الله لا
يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق ، وجار عن قصد السبيل ، وجد ما جنته به
من عند الله ، ولم ينته إلى أمر الله وطاعته فيما فرض عليه وأوجبه " (٣) .

وقالت عائشة (رضي الله عنها) :

" ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتّم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله
الفرية ، والله يقول : ﴿ يَأْتِيهَا الرّسولُ بَلّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ
تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ . وزادت في رواية : " ولو كان محمّد ﷺ كاتماً

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الحج : (١٥) . باب حجة النبي ﷺ : (١٩) . برقم : (١٢١٨) . ٨٩٠/٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ١٢٤/٢ بتصرف .

وانظر : جامع البيان : ٣٠٧/٦ - ٣٠٩ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٢/٦ . فتح القدير :

٦٠-٥٩/٢ .

(٣) جامع البيان : ٣٠٩/٦ . طبعة دار الفكر .

شَيْئاً مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكُمْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] (١) .

وقال أبو ذر رضي الله عنه :
" لقد تركنا محمد صلى الله عليه وسلم وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه

علماً " (٢) .

فهذا كله يبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم بين المنهج الحق ، وأظهره للأمة كاملاً موفوراً ، وبلغه البلاغ المبين ، ولم يكتف منه شيئاً أبداً .

وسلك الصحابة مسلكه في البيان والإيضاح ، وبذلوا جهوداً عظيمة في إيلاغ ذلك المنهج إلى كل أحد يمكنهم الوصول إليه ، في أي بقعة من أرض الله ، وفي أي مكان يوجد فيه عباد الله .

وهكذا فعل من حمل الراية من بعدهم ممن وفقهم الله لمعرفة المنهج القويم . وقد شرف بذلك الفرقة الناجية ، أصحاب الحديث الذين لم يزلوا بالسنة

(١) صحيح مسلم: بلفظه — جزء من حديث — في كتاب الإيمان : (١) . باب معنى قول الله عز وجل :

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [التجم: ١٣] : (٧٧) . برقم: (١٧٧) . ١٥٩/١ — ١٦٠ .

(٢) مسند أحمد: بلفظه في : ١٥٣/٥ . و بلفظ مقارب في : ١٦٢/٥ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: بلفظ مقارب في: باب الزجر عن كتابة المرء السن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها . برقم: (٦٥) . قال شعيب الأرنؤوط : " إسناده صحيح " . وقال ابن حبان (رحمه الله) :

" ومعنى عندنا منه " : يعني بأوامره ونواهيه وأخباره وأفعاله وإباحته صلى الله عليه وسلم " . ٢٦٧/١ .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب . برقم: (٥١٠٩) . عن أبي الدرداء رضي الله عنه . قال المحقق : " إسناده صحيح " .

٤٦/٩ .

مسند أبي داود الطيالسي: بلفظ مقارب في: ص: ٦٥ . برقم: (٤٧٩) .

معجم الطبراني الكبير: بلفظ مقارب في: ١٥٥/٢ .

ظاهرين ، وبالأتباع قاهرين ، يَدَاجُونَ ^(١) بكلّ بلد ولا يُدَاجُونَ ، ويستترّ منهم بالنحل ولا يستترون ، ويصدعون بحقّهم النَّاس ولا يستغشون ، ولا يرتفع بالعلم إلّا من رفعوا ، ولا يتّضع فيه إلّا من رضوا ، ولا تسير الركبان إلّا بذكر من ذكروا . ^(٢)

وقد جعل الله في كلّ زمان منهم من يقوم بنصرة هذا المنهج وإظهاره للنّاس ، وإبلاغه لهم غير أبيه بما يناله منهم من شدّة وضنك ، وفي ذلك يقول ﷺ : " لا تزال طائفة من أمّتي قائمة بأمر الله ، لا يضرّهم من خذلهم أو خالفهم حتّى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على النَّاس " ^(٣) .

قال النووي (رحمه الله) :

" في هذا الحديث معجزة ظاهرة ، فإنّ هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النّبي ﷺ إلى الآن ، ولا يزال حتّى يأتي أمر الله المذكور في الحديث " ^(٤) .

وببقائهم يبقى هذا المنهج ظاهراً واضحاً لا يتغيّر ولا يتبدّل ، لأنّهم أحرص النّاس على إظهاره وبيانه ، ولأنّه ليس فيه ما يجب استتاره عن الخلق وقد طالب الله رسوله بإبلاغه ، وعدم إخفاء شيء منه أو كتمانها .

(١) دَجَّ الْقَوْمُ يَدْجُونَ دَجًّا وَدَجِجًا وَدَجَجَانًا: مَشَوْا مَشْيًا رُوَيْدًا فِي تَقَارُبِ خَطْوٍ . وقيل: هو أن يقبلوا ويدبروا . وقيل: هو الدّبيب بعينه . وَدَجَّ يَدِجُ: إِذَا أَسْرَعَ . وَدَجَّ يَدِجُ وَدَبَّ يَدِبُّ ، بمعنى .

لسان العرب : ٢٦٣/٢ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ٢٣٩ .

(٢) الاختلاف في اللفظ والرّد على الجهميّة والمشبّهة للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة . الرّسالة الثالثة من عقائد السلف . تحقيق : علي سامي التّشار . عمّار جمعي الطّالبي . طبع : شركة الإسكندريّة للطباعة والتّشّرع . نشر : منشأة المعارف بالإسكندريّة . ١٩٧١م : ص : ٢٢٤ .

(٣) الحديث سبق تخريجه انظر : ص : ٨١٣ .

(٤) شرح التّووي على مسلم : ٦٧/١٣ . وانظر في إظهار الفرق التّاجيّة لهذا المنهج : شرح أصول اعتقاد أهل السّنة والجماعة : ٢٧/١ . الإبانة عن شريعة الفرق التّاجيّة : ١٩٧/١ . أهل السّنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى : ص : ٨ .

قال عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) :

" إذا رأيت قوماً يتتاجون في دينهم بشيء دون العامة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة " (١) .

والسرية المتبعة عند كثير من أصحاب المناهج المنحرفة تحدث كثيراً من الأخطاء والخلل عند الأفراد ، وينجم عنها كثير من التنازلات عن أسس المنهج وقواعده تحت جنح الظلام والأمن من نظر الناس ، بحجة المصلحة المزعومة ، وقد تكون تلك السرية سبباً في الصّد عن دين الله والالتزام به لما تحدثه من ريب وشك في نفوس الكثيرين . والدّين جاء ليعلن وتصل أحكامه إلى كلّ البشر لا ليخفي عنهم .

وما حصل من إخفاء للمسلمين لإسلامهم في بعض الأحيان فذلك يحمل على حالات الاستضعاف أو أسباب أخرى دعت إليها الضرورة . ومع هذا فإن المنهج الحقّ باق ظاهر ، معلوم منقول مسطور ، تعهّد الله بحفظه وبقائه ، إذ قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] . وسخر له من يقوم به ويرفع رايته ، ويُعطي أمره في كلّ عصر وجيل ، وهم أهل السنّة الذين لم يدعوا راية السنّة تسقط أبداً ، بل ظلّوا يحملونها عالية خفاقة يسلمها السلف للخلف ، حتّى غدت ظاهرة واضحة جليلة لا يجهل شأنها إلّا من لم يوفّقه الله للالتزام بذاك المنهج والانتساب إليه ، وأعمى عينيه عن رؤية الحقّ قصداً أو جهلاً .

(١) سنن الدارمي: بلفظ مقارب في: ١٠٣ .

الزّهد لابن أبي عاصم : بلفظ مقارب في: ص : ٢٨٩ . ونحوه في: ص : ٢٩١ .

شرح أصول اعتقاد أهل السنّة : بلفظه في : ١٣٥/١ .

٥- إنه منهج عام لكل زمان ومكان ، ولكل أمة وجيل ، بل للخلق كافة من الجن والإنس في كل عصر ومصر ووقت . وأنه منهج سهل ميسر .

قال سبحانه : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] (١) .

وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي بأنه رسول الله إليهم جميعاً ، وهذا يقتضي عموم رسالته إلى الناس كافة لا كغيره من الرسل الذين كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة .
وقال سبحانه و تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] .

أي أوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من أسود وأحمر ، أو من جن و إنس ، أو لأنذر به الموجودين ومن سيوجدون إلى قيام الساعة . وفي هذا دليل على شمول أحكام القرآن وعمومها للموجودين وقت نزوله ومن سيوجدون من بعدهم . (٢)

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبا: ٢٨] .

(١) وانظر في معنى الآية : تفسير القرآن العظيم : ٤٠٤-٤٠٥ . فتح القدير : ٢٥٤/٢ .

(٢) انظر : معالم التنزيل : ٨٩/٢ . أنوار التنزيل : ٣٩٨/٢ - ٣٩٩ . فتح القدير : ١٠٥/٢ .

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ

نَذِيرًا ﴿١﴾ [الفرقان: ١] .

وفي حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ :
" أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، نصرت بالرَّعْبِ مسيرة شهر ،
وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهوراً ، فأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ
فَلْيَصِلْ ، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وكان النَّبِيُّ
يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبَعَثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً" (١).

وهذه النصوص كلها تفيد عموم رسالته ﷺ وأنه لم يخاطب بها نوعاً خاصاً
من البشر ، بل خاطب بها النَّاسَ جميعاً ، ولم يخاطب بها جيلاً محدوداً ، بل
خاطب بها كلَّ الأجيال ، ولم يخاطب عصراً مضى ، بل خاطب كلَّ العصور ،
ولم يخاطب لوناً محدداً بل خاطب بها الأحمر والأسود ، ولم يخاطب نفسية معينة
ومزاجاً معيناً بل خاطب كلَّ النفوس وكلَّ الأمزجة وجميع القلوب (٢).

وقد حذر ﷺ من سمع به ولم يؤمن به فقال في حديث أبي هريرة ؓ :
" وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ، ثُمَّ
يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ " (٣).

أي لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ممن هو موجود في زمني أو بعدي إلى
يوم القيامة — وإنما ذكر اليهودي والنصراني لأنَّ لهم كتباً . فإذا كان هذا شأنه

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٤٠٣ .

(٢) انظر : دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية . عدنان علي رضا التحوي . مطابع الفرزدق التجارية . الرياض .

الطبعة الرابعة : ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م : ص : ٢٦ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس ، ونسخ

الملل بملته : (٧٠) . برقم: (١٥٣) . ١٣٤/١ .

مع من له كتاب فغيره ممن لا كتاب له أولى - ثم لا يؤمن بي إلا عذب . (١)
فلما كانت رسالته عامة دلّ ذلك على أن منهجه عام لا ينحصر في فئة دون غيرها ، ولا جماعة دون سواها ، ولا عصر دون بقية العصور ، وأن من سلكه لا يحتاج إلى سواه ، لأنّ الحق لا يخرج إلاّ منه ، والهداية لا تكون إلاّ فيه ، وهو يسع كلّ الناس في كلّ زمان ومكان لأنّه صالح لكلّ زمان ومكان .
ومع عمومته فهو سهل ميسر بعيد عن التعقيدات ، يتسم بالبساطة واليسر لأنّه يتفق مع الفطرة السليمة .

قال ابن كثير (رحمه الله) في بيان قوله تعالى : ﴿ وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٨] :

" أي نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر " . (٢)

وقال الشوكاني (رحمه الله) :
" نوّفّك للطريقة اليسرى في الدين والدنيا في كلّ أمر من أمورهما التي تتوجّه إليك " (٣) .

ومع ذلك كلّ قلّ أهله والسّائرون عليه ، وانحرفت الأكثرية عن سلوكه فهي في عماية عن الحقّ ، وظلمة عن الهدى . (٤)

(١) انظر : شرح التووي على مسلم : ١٨٨/٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٧٨٩/٤ .

(٣) فتح القدير : ٤٢٤/٥ . وانظر : معالم التنزيل : ٤٧٦/٤ . الجامع لأحكام القرآن : ١٩/٢٠ . أنوار التنزيل : ٤٨٠/٥ .

(٤) وهذه الجزئية مزيد بيان عند الحديث عن عوامل الثبات على المنهج .

٦- إنه منهج وسط معتدل متزن ، بعيد عن الإفراط والغلو والتعمق والتتطع والتشدد ، كما هو بعيد عن التفريط والتقصير والجفاء .

وقد أمر الله سبحانه بالتوسط والاعتدال في أكثر من آية فقال سبحانه : ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ۝ ﴾ [الإسراء: ٢٦] .

وقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝ ﴾ [الإسراء: ٢٩] .

وقال : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝ ﴾ [الأعراف: ٣١] .

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝ ﴾ [الفرقان: ٦٧] .

وقال : ﴿ وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۝ ﴾ [القصاص: ٧٧] .

كما نهى سبحانه عن الغلو وتعدي الحدود والإفراط فقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ۝ ﴾ [النساء: ١٧١] .

وقال : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ ﴾ [البقرة: ١٩٠] .

وقال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] .

وقال ﷺ في حديث بريدة الأسلمي ﷺ : " عليكم هدياً قاصداً ، فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه " (١) .

وقال في حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) : " وإياكم والغلو في الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين " (٢) .

-
- (١) صحيح ابن خزيمة : بلفظه — مع التكرار — في : باب الأمر بالاقتصاد في التطوع وكراهية الحمل على النفس ما لا تطبيقه من التطوع : ١٩٩/٢ .
- سنن البيهقي : بنحو منه . في باب : القصد في العبادة والجهد في المداومة . ١٨/٣ .
- مسند أحمد : بلفظه في : ٣٦١/٥ . و بلفظ مقارب في : ٤٢٢/٤ .
- مسند أبي يعلى : عن أبي بريدة الأسلمي ﷺ . في : ٣٥٠/٥ .
- مستدرک الحاكم : بلفظه — مع التكرار — في : ٤٥٧/١ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .
- مسند أبي داود الطيالسي : بلفظه في : ص : ١٠٩ . برقم : (٨٠٩) .
- مسند الشهاب نحوه في : ٢٤٧/١ . برقم : (٣٩٨) .
- كتاب السنة لابن أبي عاصم : بلفظ مقارب : برقم : (٩٥) . قال الألباني (رحمه الله) : " إسناده صحيح ، رجاله كلهم ثقات " . ص : ٤٦ .
- وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : " إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة " . كتاب الإيمان : (٢) . باب الدين يسر : (٣٠/٢٩) . برقم : (٣٩) . ص : ٢٣ .
- (٢) سنن الترمذي : بلفظه في : كتاب مناسك الحج : (٢٤) . باب التقاط الحصى : (٢١٧) . برقم : (٣٠٥٧) .
- قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٣٢٣ .
- سنن ابن ماجه : بلفظه — إلا إنه قال : " فإنه أهلك " — في كتاب المناسك : (٢٥) . باب قدر حصى الرمي : (٦٣) . برقم : (٣٠٢٩) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٣٢٨ .
- سنن البيهقي : بلفظ مقارب في : باب أخذ الحصى لرمي جمرة العقبة ، وكيفية ذلك . ١٢٧/٥ .
- مسند أحمد : بلفظ مقارب في : ٢١٥/١ ، ٣٤٧ . قال أحمد شاكر (رحمه الله) : " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر : ٢٥٧/٣ . ٨٥/٥ . برقم : (١٨٥١ ، ٣٢٤٨) .
- مستدرک الحاكم : بلفظ مقارب في : ٦٣٧/١ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " .
- مسند أبي يعلى : بلفظه في : ٣١٦/٤ . برقم : (٢٤٢٧) . قال المحقق : " إسناده صحيح " .
- و انظر : السنة لابن أبي عاصم : ص : ٤٦ . برقم : (٩٨) . السلسلة الصحيحة : ٢٧٨ / ٣ . برقم : (١٢٨٣) .

وقال : " هلك المنتطعون ^(١) " . قالها ثلاثاً . ^(٢) .

قال عبد الله — هو ابن مسعود — رضي الله عنه :

" والذي لا إله إلا هو ما رأيت أحداً كان أشدّ على المنتطعين من رسول الله ﷺ ، وما رأيت أحداً كان أشدّ عليهم من أبي بكر ، وأني لأرى عمر كان أشدّ خوفاً عليهم أولهم " . ^(٣)

وفي النهي عن الغلو أمر بالاعتدال والوسطية ، ولذا كان الصحابة رضي الله عنهم أكثر الناس اعتدالاً وتوسطاً ، منحرفين عن الإفراط ، ومجاфين للتقريط ، نابذين للتتطع ، متباعدين عن التقصير .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

" أيها الناس قد سنّت لكم السنن ، وفرضت لكم الفرائض ، وتركتم على الواضحة ، إلا أن تضلّوا بالناس يميناً وشمالاً " ^(٤) .

كتب عمر بن عبدالعزيز (رحمه الله) إلى رجل :

(١) المنتطعون : هم المتعمقون المغالون في الكلام المتكلمون بأقصى حُلوقهم ، مأخوذ من التّطع وهو الغار الأعلى من

القم ثم استعمل في كلّ تعمق قولاً وفعلاً . النهاية في غريب الحديث : ٧٤/٥ .

(٢) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب العلم : (٤٧) . باب هلك المنتطعون : (٤) . برقم : (٢٦٧٠) . ٢٠٥٥/٤٠ .
عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) سنن الدارمي : بلفظه في : المقدمة . باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع . ٦٥/١ .

مسند أبي يعلى : بلفظ مقارب في : ٤٣٧/٨ . برقم : (٥٠٢٢) . قال المحقق : " إسناده صحيح " .

معجم الطبراني الكبير : جزء منه في : ١٧٤/١٠ .

(٤) موطأ مالك : بلفظه في : كتاب الحدود : (٤١) . باب ما جاء في الرّجم : (١) . برقم : (١٠) . ٨٢٤/٢ .

مستدرک الحاكم : بلفظ مقارب في : ٩٨/٣ . و انظر : إغاثة اللّهفان : ١٥٩/١ .

" أمّا بعد : أوصيك بتقوى الله ، والاقتصاد في أمره ، واتباع سنة نبيه ﷺ ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته ، وكفوا مؤنته ، فعليك بلزوم السنة فإنها لك - بإذن الله - عصمة ، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة ، إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها ، أو عبرة فيها ، فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما في خلافتها ... من الخطأ ، والزلل ، والحمق ، والتعمق . فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم ، فإنهم على علم وقفوا ، وببصر نافذ كفوا ، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى ، وبفضل ما كانوا فيه أولى ، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه .

ولئن قلتم : إنما حدث بعدهم ، ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ، ورغب بنفسه عنهم ، فإنهم هم السابقون ، فقد تكلموا فيه بما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفي ، فما دونهم من مقصر وما فوقهم من محسر^(١) ، وقد قصر قوم دونهم فجفوا ، وطمح عنهم أقوام فغلوا ، وإنهم بين ذلك لعلّى هدى مستقيم " (٢) .

فالسّحابة ﷺ كانوا أهل الاعتدال والوسط ، فلم يغلوا ولم يجفوا ، وإنما ساروا على منهج قويم وصراط مستقيم ، سبقهم في السير عليه رسول الله ﷺ ، فلم ينحرفوا عنه بإفراط أو تفريط لعلمهم أن الحق بين ذلك .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" إن التعمق والتتبع والتشديد الذي نهى عنه رسول الله ﷺ هو المخالف لهديه وهدى أصحابه وما كانوا عليه ، وإن موافقته فيما فعله هو وخلفاؤه من بعده هو محض المتابعة ، وإن أباهما وجهلها من جهلها ، فالتعمق والتتبع مخالفة ما

(١) يقال : حسر بصره : كلّ وانقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك ، فهو حسيرٌ ومحسورٌ أيضاً . وبابه

جلس . و الحسرة أشدّ التلهف على الشيء الفائت . مختار الصحاح : ص : ١٣٥ . وانظر : لسان العرب :

١٨٩/٤ . القاموس المحيط : ص : ٤٧٩ .

(٢) سنن أبي داود : بلفظه في : كتاب السنة : (٣٩) . باب لزوم السنة : (٦) . برقم : (٤٦١٢) . قال الألباني

(رحمه الله) : " صحيح مقطوع " . ص : ٥٠٤-٥٠٥ .

جاء به ، وتجاوزته والغلو فيه ، ومقابله إضاعته والتفريط فيه ، والتقصير عنه ، وهما خطأ وضلالة وانحراف عن الصراط المستقيم ، والمنهج القويم . ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه " (١) .

ولما كان دين الله كذلك اختار له هذه الأمة التي جعلها وسطاً بين الأمم قاطبة فقال في شأنها : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

فهي أشرف الأمم ، وخيرها ، وأكملها ، وأعدلها قولاً وعملاً . ولذا هيأها الله تعالى لتكون شهيدة على الأمم يوم القيامة بتبليغ كل رسول دين الله لأمته ، وفي ذلك شهادة لها من الأمم ، واعتراف بفضلها وخيريتها واعتدالها على جميع الأمم . (٢) ولذلك قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

فهي خير الناس للناس ، وأعظم الناس هدياً ، وأكملهم شريعة ، وأقومهم منهجاً ، وأوسطهم مذهباً .

فهي وسط بين الأمم ، معتدلة متزنة ، بعيدة عن الإفراط والتفريط والغلو والتقصير .

فهي وسط في توحيد الله تعالى وصفاته بين اليهود الذين وصفوا الرب بصفات النقص وشبهوه بالمخلوق ، بل وصفوه بالبخل والفقر والتعب ، وبين

(١) كتاب الصلاة وحكم تاركها للإمام ابن القيم . تحقيق تيسر زعيتر ، الطبعة الأولى : ١٤٠١هـ — ١٩٨١م

المكتب الإسلامي . دمشق — بيروت . ص : ١٩٢ . وانظر : إغاثة اللهفان : ١/١٣١ . الفوائد : ص : ١٤١ .

(٢) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٦/١١ — ١١ . تفسير القرآن العظيم : ٢٨٣/١ — ٢٨٤ . زبدة التفسير من فتح

القدر : ص : ٢٧ . تيسر الكريم الرحمن : ص : ٥٣ . وانظر : أعلام الموقعين : ١٣٣/٤ .

النَّصَارَى الَّذِينَ وَصَفُوا الْمَخْلُوقَ بِصِفَاتِ الْخَالِقِ ، فزعموا أَنَّهُ الْمَسِيحُ ، وَأَنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَبَاطِيلِهِمْ .

وَسَعِدَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ ، وَوَصَفِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، وَتَنْزِيهِهِ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَمِثَابَهَةِ الْمَخْلُوقَاتِ .

وَهِيَ وَسْطٌ فِي أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بَيْنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ ، وَرَمَوْهُمْ بِارْتِكَابِ الْكِبَائِرِ وَالْمُوبِقَاتِ ، وَكَذَّبُوهُمْ وَجَفَوْا عَنْ اتِّبَاعِهِمْ ، وَبَيْنَ النَّصَارَى الَّذِينَ غَلَوْا فِي الْأَنْبِيَاءِ بِلِ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ فَجَعَلُوهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ .

وَفَازَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِإِنْزَالِ الرِّسْلِ وَالْأَنْبِيَاءِ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي وَضَعَهُمُ اللَّهُ فِيهَا ، فَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ مَبْشُرُونَ وَمَنْذُرُونَ ، يَطَاعُونَ وَيُوقَرُونَ ، وَيُصَدِّقُونَ وَلَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَا يَتَّخِذُونَ أَرْبَاباً .

وَهِيَ وَسْطٌ فِي بَابِ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ بَيْنَ الْيَهُودِ الْمُحَرِّمِينَ لكَثِيرٍ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي أَبَاحَهَا اللَّهُ لَهُمْ ، وَبَيْنَ النَّصَارَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا فِي الْإِبَاحَةِ فَاسْتَحَلُّوا الْخَبَائِثَ وَالْمُحَرَّمَاتِ كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخَنزِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَالْمُسْلِمُونَ أَحَلُّوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَحَرَّمُوا مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخَبَائِثِ .

وَهِيَ وَسْطٌ فِي بَابِ الْعِبَادَةِ بَيْنَ الْيَهُودِ الْمُعْرِضِينَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَالْمُنْغَمَسِينَ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَتَقْدِيسِ الْمَادَةِ ، وَبَيْنَ النَّصَارَى الَّذِينَ غَلَوْا فِي الرَّهْبَانِيَّةِ وَالْبَدْعِ ، وَانْقَطَعُوا فِي الْأَدِيرَةِ وَالْخُلُوتِ ، وَالتَّزَمُوا بِمَا لَمْ يُلْزَمُوا بِهِ مِنَ الْمَشَاقِّ .

وَأَهْلُ الْإِسْلَامِ عَبَدُوا اللَّهَ بِمَا شَرَعَ ، فَلَمْ يَجْهَرُوا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَتَعَبَّدُوهُ بِالْبَدْعِ ، فَكَانُوا وَسْطاً بَيْنَ أَوْلَئِكَ وَهَؤُلَاءِ .^(١)

وَلَمَّا كَانَ أَهْلُ السُّنَّةِ هُمْ أَفْضَلُ فَرَقَ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَخَيْرُهَا وَأَعْظَمُهَا ، بَلْ كُلُّ فَضْلٍ ثَبَتَ لِلْأُمَّةِ فَلْأَهْلِ السُّنَّةِ الْحِظُّ الْأَوْفَرُ وَالنَّصِيبُ الْأَعْظَمُ مِنْهُ ، وَكُلُّ وَسْطِيَّةٍ

(١) انظر : وسطية أهل السنة : ص : ٢٣٧-٢٤١ .

واعتدال ثبت للأمة فهو لأهل السنة بطريق الأولى ، ولأنهم الطائفة التي تتحقق فيها الوسطية المطلقة لهذه الأمة .

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" هم الوسط في فرق الأمة ، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم " (١) .

فلما حملوا المنهج الوسط كانوا وسطاً بين الطوائف المنتسبة إلى الإسلام ، حيث عصموا به عن الغلو والجفاء ، والإفراط والتفريط ، والتعنّت والتقصير . فهم وسط في باب أسماء الله وصفاته بين أهل التعطيل النافين لأسماء الله وصفاته وبين أهل التمثيل والتشبيه المشبهين لله بعباده .

وسلم أهل السنة والجماعة من دنس التعطيل ، فأثبتوا أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق بجلال الله ، كما سلموا من وحل التشبيه فنفوا عن الله مشابهة المخلوقين ، فكانوا على الهدى القاصد والصراط المستقيم . (٢)

وهم وسط في باب الإيمان بين الخوارج والمعتزلة الذين يرون أن الإيمان شيء واحد لا يتجزأ ولا يتبعّض ، وهو فعل الطاعات وترك المعاصي ، وإذا ذهب بعضه ذهب كله ، وبين المرجئة التي تزعم أن الإيمان هو المعرفة ، والأعمال ليست منه .

وذهب أهل السنة إلى أن الإيمان قول باللسان ، وعمل بالأركان ، وتصديق بالجنان ، يزيد بطاعة الرحمن ، وينقص بطاعة الشيطان .

وانبنى على وسطيتهم في الإيمان وسطيتهم في صاحب الكبيرة . فالخوارج يزعمون أن صاحب الكبيرة خارج من الإيمان داخل في الكفر ، تجرى عليه أحكام الكفار في الدنيا ، فيكون حلال الدم والمال ، وهو في الآخرة مخلّد في النار ، والمعتزلة وافقوا الخوارج في سلب اسم الإيمان عنه ، وتخليده في النار ،

(١) مجموع الفتاوى : ١٤١/٣ . وانظر : ٣٧٠/٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ١٤١/٣ ، ٣٧٣ . وسطية أهل السنة . ص : ٣٠٧ . وانظر الشريعة للأجري :

ص : ٢٨٣ . منهاج السنة : ١١١/٢ . مجموع الفتاوى : ٤-٣/٣ .

وإن كان عذابه دون عذاب الكفار ، وخالفوهم في اسمه في الدنيا فهو في منزلة بين المنزلتين : منزلة الإيمان ومنزلة الكفر ، فيسمى فاسقاً . وأجروا عليه أحكام المسلمين في الدنيا ، وبين المرجئة الذين أخرجوا الأعمال عن مسمى الإيمان ، فحكموا على صاحب الكبيرة بأنه مؤمن كامل الإيمان ، وهو في الآخرة من أهل الجنة .

وأهل السنة كانوا وسطاً بين الفئتين ، لم يخرجوا صاحب الكبيرة من الإيمان ، بل قالوا هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، فلا يعطى اسم الإيمان المطلق ، ولا يجرّد من مطلق الإيمان ، وفي الآخرة إذا مات ولم يتب يكون تحت مشيئة الله إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه ، ولا يخلّد في النار كالكافر .^(١)

وهم وسط في باب القدر بين القدرية الذين سلبوا الله قدرته على أفعال العباد ، وزعموا أنهم خالقون لها ، وأخرجوا المعاصي عن إرادته ومشيئته لأنه لا يحبّها ولا يرضاهما ، وبين الجبرية^(٢) الذين سلبوا الإنسان قدرته وإرادته ، وأنه لا اختيار له ، وإنما هو مجبور على فعله ، والفاعل الحقيقي هو الله ، وكلّ ما ينسب للعبد من فعل هو فاعله ، وأنه محبوب له .

وذهب أهل السنة إلى أن أفعال العباد أفعال لهم ، ومخلوقة لله على الحقيقة ، وللعباد قدرة على فعلها وإرادة ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم . ففرّقوا بين الخلق والمخلوق ، والفعل والمفعول . والله يريد الكفر والمعاصي كوناً ولكنّه لا يحبّها ولا يرضاهما شرعاً .^(٣)

(١) انظر : المرجع السابق : ١٥١/٣ ، ٣٥٥ ، ٣٧٤-٣٧٥ . وسطية أهل السنة : ص : ٣٣٤-٣٤٦ .

(٢) الجبرية أو المحيرة : مشتقة من الجبر وهو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى . وهم أصناف :

فالجبرية الخالصة : هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً . والمتوسطة : هي التي تثبت للعبد قدرة

غير مؤثرة . والثالثة : هي من لم تثبت للقدرة الحادثة أثراً في الإبداع والإحداث ، وإنما أثبتت أثراً ما ستمته

الكسب . انظر : الملل والنحل : ٨٥/١ . وانظر : التعريفات : ص : ٤٠ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى : ٣/٣٧٣-٣٧٤ . وسطية أهل السنة : ٣٦١-٣٨٧ . وانظر : منهاج السنة : ٢/٢٩٨ .

وهم وسط في أصحاب رسول الله ﷺ بين الخوارج المكفرين لبعضهم
والمعتزلة المفسقين لجماعة منهم ، وبين الشيعة الغالين في بعضهم والجافين في
بعض منهم .

وأهل السنة تولّوهم جميعاً فلم يكفّروا ولم يفسقوا ولا تبرّؤوا من أحد منهم ،
بل يترضّون ويترحمّون ويستغفرون لهم ، ولا يسبّون ولا يشتمون أحداً منهم ،
ويعتقدون أنّهم خير الأمة بعد نبيّها ، ولا يدّعون عصمة أحد منهم ، بل هم بشر
يقع منهم الخطأ والذنّب ، ولكن يلتمس لهم المخارج والمعاذير ، ولا يشنّع عليهم ،
وهم مع ذلك يطهّرون أسنتهم عن الخوض فيما شجر بينهم .^(١)

وبهذا العرض الموجز لهذه النماذج التي أبانت لنا وسطية أهل السنة بين
الفرق المنحرفة عن المنهج القويم والصراط المستقيم يتّضح لنا وسطية المنهج
الذي حملوه ، والطريق الذي ساروا عليه .
وهذه السمة من أبرز سمات هذا المنهج وأبلغها ، وهي أكثرها إيضاحاً
لمعالمه وتميّزاً لحدوده .

وبعد ذكر هذه السمات التي تتلخّص في : أن مصدر تلقّي المنهج الحق
القرآن والسنة ، وأنّ طريقه واحد لا يتعدّد ، ومستقيم ليس بمعوج ، وهو منهج
كامل تامّ ، واضح جليّ ، باقٍ إلى قيام الساعة ، عامّ ، صالح لكلّ زمان ومكان ،
وسط معتدل ، بعيد عن الغلو والجفاء . يتّضح لنا أنّ الواجب على كلّ مسلم
الوقوف على هذه السمات والتعرّف عليها ، والتمسك بها ليثبت على منهج الله
تعالى ، فلا يعوج عنه ، ولا يلتفت إلى سواه ، ليسلم له دينه ، ويبقى له إيمانه .

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ٣/ ٣٧٥ . وسطية أهل السنة : ص : ٣٩٩-٤٢٥ .

الفصل الثالث

عوامل الثبات على المنهج الحق

وفيه تمهيد ومباحث :

التمهيد

أهمية الثبات على المنهج

إن الثبات على المنهج هو الاستقامة على صراط الله المستقيم ، وشرعه القويم ، وطريقه الموصل إلى جنات النعيم ، الذي من سلكه واستقام عليه نجيا ، ومن انحرف عنه ضلّ وغوى ، وتشعبت به طرق الضلال ، وأقفلت أمامه طرق النجاة . فالثابتون عليه هم الفائزون ، والزائغون عنه هم الهالكون .

ولا مقارنة بين من فقد الثبات فعجز عن السير على منهج الله ، وبين من ثبت فوقه الله للسير عليه . فالأول كمن يسير منحنيّاً لا مستوياً ، لا يتبين الطريق ولا تتضح له معالمه ، ولا يدري أين يسلك ، وكيف يذهب ؟ فهو تائه ضال . والثاني يسير معتدلاً مستقيماً ناظراً إلى ما بين يديه ، وهو مع ذلك على طريق واضح بين مستقيم ، وهكذا قال سبحانه في شأن هذين السائرين : ﴿ أَقْمَنَ يَمْشِي مُكَبِّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [الملك: ٢٢] ^(١) . والجواب : لا شك أن من يمشي سويّاً على صراط مستقيم أهدى

وأقوم .

والثابت على المنهج ، المستقيم عليه ، كمثل رجل أحياه الله بنور العلم والإيمان والطاعة ، فصار يمشي مستقيماً بين الناس ، متبصراً في أموره ، مهتدياً

(١) وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ٩/٢٩-١٠ . تفسير القرآن العظيم : ٤/٦٢٣ . الزبدة من فتح القدير :

ص: ٧٥٦ . تيسير الكريم الرحمن : ص: ٨١٢-٨١٣ .

لسبيله ، عارفاً للخير ، مؤثراً له ، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره ، عارفاً بالشر ، مُبغضاً له ، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره ، فلا يستوي هو ومن ظل في ظلمات الجهل والغي والكفر والمعاصي ، والتبست عليه الطرق ، وأظلمت عليه المسالك ، وزين له سوء عمله فرآه حسناً ، وفارقه الثبات ، وزلت به القدم . وفي هذين يقول الباري جلّ وعلا : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] (١) .

فالثبات على المنهج حياة ونور ، والزيف عنه موت وظلمة ، بل هو حيرة وضلالة وجهل ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَثَرُوا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١] .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" هذا مثل ضربه الله تعالى لمن كفر بالله بعد إيمانه ، فأتبع الشياطين من أهل الشرك بالله ، وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حال إسلامه ، المقيمون على الدين الحق ، يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه مقيمون ، والصواب الذي هم به متمسكون ، وهو له مفارق ، وعنه زائل ، يقولون له : انتثا فكن معنا على

(١) انظر : تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٣٤ . وانظر : جامع البيان : ٢١/٨ - ٢٢ . تفسير القرآن العظيم :

استقامة وهدى ، وهو يأبى ذلك ، ويتّبع دواعي الشيطان ، ويعبد الآلهة والأوثان " . (١)

وإن كان هذا مثلاً ضربه الله لمن حاد عن المنهج وانحرف عنه ، ولمن بقي وثبت عليه ، فإن رسول الله ﷺ ضرب لنا مثلاً محسوساً أوضح فيه كيف يسير الإنسان على المنهج القويم ويثبت عليه ، متجنباً أسباب الانزلاق والانحراف عنه .

فقال في حديث النّوّاس بن سميان رضي الله عنه : " ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، على كتفي الصّراط سوران فيهما أبواب مفتّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى الصّراط داع يدعو يقول : يا أيّها النّاس اسلكوا الصّراط جميعاً ولا تعوجوا (٢) ، وداع يدعو على الصّراط ، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويلك لا تفتحه فإنّك إن تفتحه تلجه . فالصّراط الإسلام ، والستور حدود الله ، والأبواب المفتّحة محارم الله ، والدّاعي الذي على رأس الصّراط كتاب الله ، والدّاعي من فوق واعظ الله يذكر في قلب كلّ مسلم " . (٣)

(١) جامع البيان : ٢٣٥/٧ - ٢٣٦ . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٢٣٢/٢ - ٢٣٣ . تيسر الكريم الرّحمن : ص : ٢٢٣ .

(٢) أي لا تلتفتوا وتميلوا عنه . انظر : غريب الحديث للخطّابي : ٢٧٣/٢ . التّهاية في غريب الحديث : ٣١٥/٣ - ٣١٦ .

(٣) سنن الترمذي: نحوه في: كتاب الأدب : (٤٠) . باب ما جاء في مثل الله لعباده : (٧٦) . برقم: (٢٨٥٩) . وقال : " حديث حسن غريب " . وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤٥٧ . مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ١٨٢/٤ . ونحوه في : ١٨٣/٤ .

مستدرک الحاكم: بلفظه في : ١٤٤/١ - ١٤٥ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولا أعرف له علة ، ولم يخرجاه " . وقال الذّهي (رحمه الله): " على شرط مسلم ، ولا علة له " . و انظر : الإبانة عن شريعة الفرق التّاجية : ٢٩٦/١ .

فهذا تصوير بليغ من رسول الله ﷺ لمنهج الله تعالى ، وللسائر عليه الذي
وُفِّقَ للثبات ، وجُنِّبَ الزلل .

وقد بيّن لنا السلف رحمهم الله كيف يتم ثبات المسلم على المنهج ، وتتحقّق
له الاستقامة عليه .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

" عليكم بالطريق فلئن لزمتموه لقد سبقتم سبقاً بعيداً ، ولئن خالفتموه يميناً
وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً " (١) .

وكان قتادة (رحمه الله) إذا تلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾

[فصلت: ٣٠ ، الأحقاف : ١٣] قال :

" إنكم قد قلتم ربنا الله فاستقيموا على أمر الله وطاعته وسنة نبيكم ،
وامضوا حيث تؤمرون ، فالاستقامة أن تلبث على الإسلام ، والطريقة الصالحة ،
ثم لا تمرق منها ، ولا تخالفها ، ولا تشذ عن السنة ، ولا تخرج عنها ، فإن أهل
المروق من الإسلام منقطع بهم يوم القيامة ، ثم إياكم وتصرف الأخلاق ، واجعلوا
الوجه واحداً ، والدعوة واحدة ، فإنه بلغنا أنه من كان ذا وجهين وذا لسانين كان
له يوم القيامة لسانان من نار " (٢) .

(١) المرجع السابق : ٣٣٢/١ . وانظر : الزهد لابن أبي عاصم : ص : ٣٥٨ .

(٢) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية : ٣١٨/١ .

وقال أبو العالية (رحمه الله) ^(١) :

"تعلموا الإسلام ، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه ، وعليكم بالصراط المستقيم ، فإن الصراط المستقيم الإسلام ، ولا تتحرفوا عن الصراط المستقيم يمينا ولا شمالا ، وعليكم بسنة نبيكم - والذي كان عليه أصحابه - ^(٢) وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين أهلها العداوة والبغضاء " . فرددها مرارا ^(٣) .

والمؤمنون الصادقون هم السائرون على هذا المنهج ، الثابتون عليه كما قال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٥] .

فلما آمنوا بالله وصدقوا به ، وأقرّوا بوحدانيته ، وما بعث به رسول الهدى ﷺ ، وتمسكوا بذلك ، وعدهم الله بعظيم نعمه ، وجزيل ثوابه ، ووفقهم إلى سلوك الصراط المستقيم والمنهاج القويم ، وأعانهم بالثبات عليه حتى يلقوه فينالوا رحمته ورضوانه .

(١) هو رفيع بن مهران أبو العالية الرياحي مولا هم البصري ، الفقيه ، المقرئ . أدرك الجاهلية وأسلم بعد موت النبي ﷺ بستين . إمام كثير الحديث ، وكثير الإرسال . توفي سنة : ٩٠ هـ . وقيل : بعدها .
و انظر : الطبقات الكبرى: ١١٢/٧ . طبقات خليفة: ص : ٢٠٢ . التاريخ الكبير: ٣٢٦/٣ . معرفة الثقات: ٤١٢/٢ . الجرح والتعديل: ٥١٠/٣ . ثقات ابن حبان: ٢٣٩/٤ . مشاهير علماء الأمصار: ٩٥/١ . التعديل والتحريح: ٥٧٨/٢ . تهذيب الكمال : ٢١٤/٩ . تذكرة الحفاظ: ٦١/١ . الكاشف: ٣٩٧/١ . جامع التحصيل: ص : ١٧٥ . الإصابة : ٥١٤/٢ ، ٢٩٦/٧ . تهذيب التهذيب: ٢٤٦/٣ . تقريب التهذيب: ٢١٠/١ . لسان الميزان: ٢١٧/٧ ، ٤٧١ .

(٢) زيادة من شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ٦٣/١ .

(٣) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية : ٣٣٨/١ .

قال ابن جرير (رحمه الله) في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ :
" يوفقهم لإصابة فضله الذي تفضل به على أوليائه ، ويسددهم لسلوك منهج
من أنعم عليه من أهل طاعته ، ولا تقتفاء آثارهم ، واتباع دينهم ، وذلك هو
الصراط المستقيم ، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده ، وهو الإسلام " (١) .

وقال ابن كثير (رحمه الله) :

" ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ : أي طريقاً واضحاً قصداً قواماً ، لا
اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا
على منهاج الاستقامة ، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي
الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنّات " (٢) .

وفي هذه الآية تنبيه من الله لعباده المؤمنين أن يقوموا بما أمروا به ليثبتوا
على صراط الله ، فيفوزوا بجنة الله .

وهناك عوامل عدة ، ووسائل متعددة تعين المؤمن على الثبات على
المنهج ، أذكر منها في المباحث التالية ما يناسب المقام ويتحقق به القصد .

(١) جامع البيان : ٤٠/٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٩٠٢/١ .

المبحث الأول

العلم بالمنهج

إنّ هذا المنهج الذي جعله الله تعالى طريقاً للوصول إلى مرضاته يحتاج من السّالك فيه لعلم تتّضح به رؤيته ، وتتميّز به أعلامه ، وتتكشف له المزالق والعقبات التي يمكنها أن تعترض طريقه ، حتّى يتأهل للسّير فيه ، ويتمكّن من الثّبات عليه .

وقد أرشدنا الله تعالى إلى هذه الوسيلة التي هي من أهم وسائل الثّبات على المنهج ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

أي قل يا محمد لأمتك هذا طريقي ومنهاجي الموصل إلى الله وإلى دار كرامته ، أسلكه وأسير عليه ، وأدعو النّاس إلى السّير عليه ، وأنا على علم ويقين ومعرفة تامّة به ، وكلّ من اتّبعني وسار عليه ودعا النّاس إليه كذلك .^(١)

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" السّائر إلى الله والدار الآخرة ، بل كلّ سائر إلى مقصد ، لا يتمّ سيره ولا يصل إلى مقصوده ، إلّا بقوتين : قوّة علميّة ، وقوّة عمليّة . فبالقوّة العلميّة يبصر منازل الطّريق ، ومواضع السلوك فيقصدّها سائراً فيها ، ويجتنب أسباب الهلاك ، ومواضع العطب ، وطرق المهالك المنحرفة عن الطّريق الموصل . فقوّته العلميّة كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظّلمة ،

(١) وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ١٣/٧٩-٨٠ . التفسير الكبير : ١٨/٢٢٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٧٤/٩ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٧٦٦-٧٦٧ . روح المعاني : ١٣/٦٧ . فتح البيان : ٦/٤١٥-٤١٦ . محاسن التّأويل : ٩/٣٦١-٣٦١١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٦١ .

فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد^(١) والمتالف ، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره ، ويبصر بذلك النور أيضاً أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضلّ عنها ، فيكشف له النور عن الأمرين : أعلام الطريق ومعاطبها .

وبالقوة العملية يسير حقيقة ، بل السير هو حقيقة القوة العملية ، فإن السير هو عمل المسافرين ، وكذلك السائر إلى ربّه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعائر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح ، وبقي عليه الشطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ، ويشمر مسافراً في الطريق قاطعاً منازلها منزلة بعد منزلة " (٢) .

فمن أراد السير على منهج رسول الله ﷺ والثبات عليه فعليّه أن يمتطي صهوة العلم الشرعي المستمدّ من كتاب الله وسنة رسوله ، فهو الذي يكشف له حقيقة هذا المنهج .

ولمّا جهلت الفرق الزائغة عن منهج أهل السنة والجماعة حقيقة ذلك وقعت في التناقض والاضطراب ، والقول بالظنّ والحكم بالهوى . لقد جهلت نصوص الشرع التي يستمدّ المنهج منها بقاءه ووجوده ودوامه ، وعجزت عن فهم ما وصل إليها منها ، فلجأت إلى العقول القاصرة ، والآراء الفجة ، والظنون الواهمة ، فتوهّمت الحقّ باطلاً ، والباطل حقّاً ، والضلال هدىً ، والهدى ضلالاً ، فعصفت بها رياح البدع ، وجرفت أمواج التفرّق والاختلاف عن المنبع الصافي ، والمنهج القويم .

(١) الوَهْدُ والوَهْدَةُ: المَطْمَنُ من الأرض ، والمكان المنخفض كأنه حفرة ، والوَهْدُ يكون اسماً للحفرة ، والجمع أَوْهْدٌ وَوَهْدٌ وَوَهَادٌ . والوَهْدَةُ : أُهُوَةٌ في الأرض . لسان العرب : ٤٧٠/٣ - ٤٧١ . وانظر : مختار الصحاح : ص : ٧٣٨ . القاموس المحيط : ص : ٤١٨ .

(٢) طريق المجرتين : ص : ٢٨٤ - ٢٨٥ .

قال الإمام الشاطبي (رحمه الله) :

" إنَّ أصلَ حدوثِ الفرقِ إنّما هو الجهلُ بمواقعِ السُّنةِ ، وهو الَّذي نَبَّهَ عليه الحديثُ بقوله : اتَّخذَ النَّاسُ رؤساءَ جهالاً " (١)

وقال ابن القيم (رحمه الله) :

" إنَّ الاختلافَ سببه اشتباهُ الحقِّ وخفاؤه ، وهذا لعدمُ العلمِ ، الَّذي يميّزُ بين الحقِّ والباطلِ " . (٢)

ولذا كان العلمُ بمنهجِ السلفِ وفهمه فهماً سليماً أداةً فعّالةً للثباتِ عليه .
ويضافُ إلى ذلك أيضاً العلمُ بالسبيلِ المنحرفةِ عن جادةِ الصَّوابِ والوقوفُ على مناهجها حتّى لا يقعَ الإنسانُ في اللَّبسِ ، ويختلطَ عليه الحقُّ بالباطلِ ، وقد قال الرَّبُّ سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥] .

فمعرفةُ الإنسانِ بالمناهجِ المضادّةِ للمنهجِ الحقِّ أمرٌ مطلوبٌ شرعاً ، حتّى يتميَّزَ له المنهجُ الحقُّ عن غيره ، ويظهرَ له حسنه وسلامته وصحّته فيعيّنه ذلك على البقاءِ عليه ، ويدفعه لمواصلةِ السَّيرِ ومداومته . (٣)

وقد قامَ أهلُ العلمِ من أتباعِ هذا المنهجِ ببيانه للنَّاسِ بعد بيانِ الله ورسوله ، وأوضحوه أتمَّ الإيضاحِ ، وألَّفوا في ذلك الكتبَ ودوَّنوا الدَّواوينَ ، ونصروه وأقاموا الحججَ في نصرته ، وأزالوا الشَّبهَ عنه ، وبيَّنوا المناهجَ المنحرفةَ وحذَّروا من سلوكها ، وكشفوا عن ما بها من زيغٍ وضلالٍ . وهذه كتبهم الَّتِي ملئتُ بها

(١) الاعتصام : ٢٣٥/٢ . والحديثُ سبقَ تحريجه . انظر : ص : ١٣٥ .

(٢) أعلامُ الموقعين : ٢٥٨/١ .

(٣) وانظر تفصيلاً قيماً للإمام ابن القيم (رحمه الله) في معرفة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين : من كتابه الفوائد : ص : ١٠٨-١١١ .

المكتبات الخاصة والعامة ، وهي أعظم شاهد على ما قام به علماء أهل السنة من خدمات جليلة في إبراز منهج السلف والذب عنه .

ولا يخلو عصر من عصور الإسلام منذ أن بزغ فجره وإلى يومنا هذا من قائم لله بالحجة ، مدافع عن هذا المنهج بلسانه وبنانه حتى وضح أمره ، وانجلى شأنه ، ووُجِدَ مَنْ يحمّله ويدافع عنه في كل عصر وقطر من أقطار هذا العالم .

المبحث الثاني

الأمر بلزوم المنهج

لقد أمر المولى سبحانه وتعالى في آيات كثر بلزوم صراطه المستقيم ،
وأوجب اتباعه على الخلق أجمعين فقال سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا
فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

وقال : ﴿ وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١] .

وقال : ﴿ الرَّكَتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١] .

وقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المؤمنون: ٧٣] .

وبين سبحانه وتعالى أن المتمسك بوحيه ، والمنصاع لأمره هو الذي يمكنه
السير على الطريق والهداية إليه ، ومن لا فلا ، وأن أهل العلم والحق عرفوا ذلك
وتيقنوا به فلزموه ، فقال : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبا: ٦] .

وقال في حديث العرباض بن سارية : " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء
الراشدين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ " (١) .

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٨٣١ .

وسنّته طريقه ومنهجه .

وقال في حديث النّوّاس بن سمعان رضي الله عنه : " يا أيّها النّاس ادخلوا إليه - أي الصّراط - ولا تعوجوا " (١) .

وكلّ هذه الأدلّة وغيرها الكثير آمرة بلزوم الصّراط المستقيم وهو المنهج القويم الذي تركنا عليه رسول الله صلى الله عليه وآله . وشأنه أنّه يختلف عن مناهج أهل الأرض جميعاً لأنّه قائم على الاعتصام بحبل الله ، والتّسليم لرسول الله صلى الله عليه وآله ، والانقياد له ظاهراً وباطناً لأنّه الهادي إليه ، والدليل القائد للسّير عليه ، والمبلّغ له عن ربّه ، ولذا قال له ربّه : ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧] . وقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] .

فمن لزم أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وحكمه في قوله وفعله واتّبع سنّته ، والتزم بشرعه فهو الذي يبقى على هذا الصّراط ويثبت عليه .

قال الطّحاوي (رحمه الله) :

" ولا تثبت قدم الإسلام إلّا على ظهر التّسليم والاستسلام " (٢) .

وبين ذلك الشّارح بقوله :

" هذا من باب الاستعارة ، إذا القدم الحسّي لا تثبت إلّا على ظهر شيء ، أي لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين ، وينقاد إليها ، ولا يعترض عليها ، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه " (٣) .

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٨٥٤ .

(٢) متن العقيدة الطّحاوية للإمام أبي جعفر الطّحاوي الحنفي . طبعة : مكتبة ابن تيمية . القاهرة . الطّبعة الأولى :

١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م : ص : ١٠ .

(٣) شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢١٩ . طبعة المكتب الإسلامي .

ولذا جاءت أقوال السلف (رحمهم الله) ، داعية للتمسك بهذا المنهج ، والسير عليه ، والتزامه ، وعدم الانحراف عنه ، لأنه المنهج الذي اختاره الله للعباد ، فلا يجوز لهم العدول عنه .

قال محمد بن سيرين (رحمه الله) :

" الرجل ما كان مع الأثر فهو على الطريق " (١) .

وقال شاذ بن يحيى (رحمه الله) (٢) :

" ليس طريق أقصر إلى الجنة من طريق من سلك الآثار " (٣) .

وقال الإمام ابن بطّة (رحمه الله) :

" فالزموا رحمكم الله الطريق الأقصد ، والسبيل الأرشد ، والمنهاج الأعظم من معالم دينكم ، وشرائع توحيدكم ، التي اجتمع عليها المختلفون ، واعتدل عليها المعترفون : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] . وترك الدخول في الضيق الذي لم نخلق له " . (٤)

وقال الإمام محمد بن الحسين الآجري (رحمه الله) :

" فيما ذكرت في هذا الجزء من التمسك بشريعة الحق والاستقامة على ما ندب الله عزّ وجلّ إليه أمّة محمد ﷺ ، وندبهم إليه الرسول ﷺ : ما إذا تدبّره العاقل علم أنه لزمه التمسك بكتاب الله عزّ وجلّ ، وسنة رسوله ﷺ ، وسنة

(١) الإبانة عن شريعة الفرق التاجية : ٣٥٦/١ .

(٢) شاذ بن يحيى الواسطي . شيخ صدوق ، مقبول الحديث . ذكره الإمام أحمد بن حنبل .

وانظر : الجرح والتعديل : ٣٩٢/٤ . تهذيب الكمال : ٣٤١/١٢ . سير أعلام النبلاء : ٤٣٤/١٠ . تهذيب

التهذيب : ٢٦٣/٤ . تقريب التهذيب : ٢٦٣/١ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ٩٨/١ .

(٤) الإبانة عن شريعة الفرق التاجية : ٤٢١/١ .

الخلفاء الرَّاشدين ، وجميع الصَّحابة ﷺ ، وجميع من تبعهم بإحسان ، رحمهم الله ، وأئمة المسلمين ، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين ، ومجانبة أهل البدع ، والاتباع وترك الابتداع ، وقد كفانا علم من مضى من أئمة المسلمين الذين لا يستوحش من ذكرهم عن مذاهب أهل البدع والضلالات " (١) .

فمن التزم بنصوص الوحي ، ولم يفرق بين متواترها وآحادها قبولا ورضا في عقيدة أو غيرها ، ولم يعارضها برأي أو عقل أو ذوق أو هوى ، أو يحكم فيها آراء الرجال وتُرثُها أفكارهم ، واستجاب لها وانقاد لحكمها ، فهو الذي أمن سلامة السير على المنهج ، وتجنب الزلل والسقوط عنه ، ووفق في الثبات عليه .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" ومدار السَّعادة الدُّنيويَّة والأخرويَّة على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله ، ولا نِجاة إلَّا لمن تمسَّك بهاتين العصمتين . فأما الاعتصام بحبله : فإنَّه يعصم من الضَّلالة . والاعتصام به : يعصم من الهلكة .

فإنَّ السَّائر إلى الله كالسَّائر على طريق نحو مقصده ، فهو محتاج إلى هداية الطَّريق ، والسَّلامة فيها ، فلا يصل إلى مقصده إلَّا بعد حصول هذين الأمرين له . فالدَّليل كفيل بعصمته من الضَّلالة ، وأن يهديه إلى الطَّريق ، والعُدَّة والقوَّة والسَّلاح التي بها تحصل له السَّلامة من قطاع الطَّريق وآفاتِها .

فالاعتصام بحبل الله : يوجب له الهداية . واتباع الدَّليل والاعتصام بالله يوجب له القوَّة والعُدَّة والسَّلاح والمادَّة التي يستلزم بها في طريقه " . (٢)

(١) الشَّريعة : ص : ٦٣ .

(٢) مدارج السَّالكين : ١/٤٦٠-٤٦١ .

المبحث الثالث

الحذر من العدول عن المنهج

لقد حذر الله أيما تحذير ، وهدد أيما تهديد ، وتوعد وأنذر من خالف طريق رسول الله ﷺ وسلك طريقاً غيره ، وأتبع منهجاً سواه من مناهج أهل الأرض الزائغة عن الصراط المستقيم . فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۚ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] .

والذي يشاقق الرسول ﷺ هو الذي يأخذ له شقاً وجانباً وصفاً غير الصِّفِّ والجانب والشق الذي يأخذه النبي ﷺ ، وبالتالي يتخذ له منهجاً غير المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ ، ويختار له طريقاً غير طريقه . فحينئذ يولِّيه الله ما تولى ، ويورده جهنم وسات مصيراً^(١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [يونس: ٢٧] . يَوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۚ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] .

فقد أخبر الله سبحانه عن ندم هذا الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وما جاء به من عند الله تعالى ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيله ﷺ ، فإنه يندم يوم القيامة حيث لا ينفعه الندم ، ويعض على يديه حسرة وأسفاً ، وهو يقول :

(١) وانظر معنى الآية : في تفسير القرآن العظيم : ٨٤٢/١ - ٨٤٣ . وقد سبق كلام سيد قطب (رحمه الله) عن الآية قريباً . انظر : ص : ٨٣٢ .

﴿ يَلِيَّتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴾ (٢٧) يَوَيْلَتَنِي لِيَتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴾ (٢٨) [الفرقان: ٢٧-٢٨] . لَأَنَّ فَلَانًا صرفه عن الهدى ، وعدل به عن الصراط المستقيم إلى طريق الضلال ، وأبعده عن مصدر الهدى وهو القرآن الكريم والذكر الحكيم (١) .

وهذه الآيات كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلِيَّتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولًا ﴾ (٢٩) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ (٣٠) رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (٣١) [الأحزاب: ٦٦-٦٨] .

وهذا شأن أهل الضلال والبدع الذين ابتعدوا عن المنهج القويم والصراط المستقيم ، وصدّوا غيرهم عن سبيل الله ، ويتقدّمهم السادة والكبراء منهم الذين استعبدوا الناس لأهوائهم ومصالحهم وغاياتهم الحابطة ، وأهدافهم الرخيصة ، والذين سعوا جادين لتشيين سبيل الله وتهجينها ، لتصير معوجة منحرفة غير مستقيمة ، كما قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ ﴾ (٤٥) [الأعراف: ٤٥] . وقال : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفِرُونَ ﴾ (١١) [مرد: ١٩] . فينحرف الناس عنها ، وينقادون لهؤلاء الضالين الزائغين عن الهدى ، المنحرفين عن الحق .
فهم زاهدون فيها مزهدون لغيرهم ، مبتعدون عنها صادون لسواهم ، همهم أهدافهم وشهواتهم وإن كان ذلك على حساب منهج الله وسبيل رسول الله ﷺ .

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٥٠٦-٥٠٧ . وانظر : زبدة التفسير من فتح القدير : ص: ٤٧٣ . تيسر الكريم الرحمن : ص: ٥٣٠ .

وقد ضجّ العالم الإسلامي اليوم كما ضجّ من قبل بهذه النوعيّة من البشر الذين قعدوا على طريق الحقّ ليصرفوا النّاس عنه ، كما قعد متبوعهم اللّعين من قبل عليه ، وتحدى ربّ العزّة في إبعاد عبادّه عن صراطه المستقيم ، وذلك عندما قال : ﴿ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ١٦ ثُمَّ لَا تَتَنَبَّهُمْ مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧] .

فكان جواب الرّبّ سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لِّمَنِ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨] . وهذا شأن من صدّ عن سبيل الله ، وأراد انحرافه واعوجاجه ، وصرف النّاس عنه .

وقد ذكر الإمام البربهاري (رحمه الله) أنّ المنحرفين عن صراط الله على نوعين فقال :

"واعلم أنّ الخروج عن الطّريق على وجهين : أمّا أحدهما : فرجل قد زلّ عن الطّريق وهو لا يريد إلّا الخير ، فهو لا يقتدى بزلّله ، فإنّه هالك . ورجل عاند الحقّ ، وخالف من كان قبله من المتّقين ، فهو ضالّ مضلّ ، شيطان في هذه الأمّة ، حقيق على من عرفه أن يحذر النّاس منه ، ويبين لهم قصّته ، لنلا يقع في بدعته أحد فيهلك " (١) .

والنّوع الثّاني هم الذين صرفوا هذه الأمّة - إلّا من رحم الله - عن منهج الله بما زيّنوه من مناهج بشريّة تحادّ وتضادّ المنهج الحقّ ، فزادوا الأمّة ضياعاً

(١) طبقات الحنابلة : ١٩/٢ . وهو في كتاب شرح السنّة لأبي محمّد الحسن بن علي بن خلف البرهاري . تحقيق محمد بن سعيد الفحطاني . طبعة دار ابن القيم . الطّبعة الأولى : ١٤٠٨ هـ . الدّمام . ص : ٢٣ . وبالتّصّ زيادة طفيفة .

ونقلنا وانحرافاً ، فنفترقت شيعاً وأحزاباً ، وذهب ربحها ، ودب إليها الفشل والهوان والذل ، وتلك عاقبة الخروج عن منهج الله تعالى .

بل سلكت الأمة بذلك مسلك اليهود والنصارى - إلا من هدى الله - الذين حذرنا رسول الله ﷺ من مسلكهم حيث قال: " لتتبعن سنن^(١) من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه " قلنا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ " (٢) .

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" كان السلف يرون أن من انحرف من العلماء عن الصراط المستقيم : ففيه شبه من اليهود ، ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى ، كما يرى في أحوال منحرفة أهل العلم ، من تحريف الكلم عن مواضعه ، وقسوة القلوب ، والبخل بالعلم ، والكبر ، وأمر الناس بالبر ونسيان أنفسهم ، وغير ذلك ، وكما يرى في منحرفة أهل العبادة والأحوال من الغلو في الأنبياء والصالحين ، والابتداع في العبادات من الرهبانية والصور والأصوات " (٣) .

وقد طغت هذه المناهج الباطلة وكثر أربابها وأتباعها والدعاة إليها ، وقام عليها منظررون ، ورؤوس جهال بشرع الله ، واقتطع كل منهم فئة من الأمة يبيت فيها آراءه وأفكاره وترهاته وبدعه ، وكل فئة تتاهض الأخرى ، وتشاقها ، حتى التبس الحق بالباطل أمام كثير من طلاب الحق ، وأوعد الطريق إلى معرفة

(١) السنن : الطريقة والسيرة . انظر : النهاية في غريب الحديث : ٤٠٩/٢ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب ما ذكر عن بني إسرائيل : (٥١/٥٠) .

برقم: (٣٤٥٦) . ص : ٧٣٣ . و بلفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : (٧١/٩٦) . باب قول

النبي ﷺ : " لتتبعن سنن من كان قبلكم " : (١٥/١٤) . برقم: (٧٣٢٠) . ص : ١٥٣٩ . عن أبي سعيد رضي الله عنه .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب العلم : (٤٧) . باب اتباع سنن اليهود والنصارى : (٣) . برقم:

(٢٦٦٩) . ٢٠٥٤/٤٠ .

(٣) مجموع الفتاوى : ٦٥/١ .

المنهج الصّحيح ، إلّا من وفق الله وهدى إلى منهج السّلف الصّالح ، وقليل أولئك .

وهناك أمور تعارض الأمر بلزوم المنهج ، وتؤدّي إلى العُدول عنه ، وتصرف السّائر عن الثّبات عليه . أورد أهمّها في المطالب الآتية :

﴿المطلب الأول﴾

اتباع الهوى

الهوى هو ميل النفس إلى الشيء ، أو ميل الطبع إلى ما يلائمه . ولما كان الضرر منه غالباً لم يذكره الله في كتابه إلا ذمّة (١).

فقال سبحانه : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾

فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٠﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] .

وقال : ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٢﴾ أَمْ حَسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤] .

وقال : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣] .

وبين سبحانه أن الهوى يناقض الاستجابة لأمر الله ورسوله والتسليم لهما . فقال : ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠] .

بل اتّباع الهوى من أسباب الضلال والانحراف عن الحق ، ولذا نزه الله رسوله ﷺ عنه فقال : ﴿وَاللَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ١-٤] .

(١) انظر : روضة المحيّن : ص : ٤٦٩ .

فنزّاهه عن الضلال والغواية اللذين هما الجهل والظلم ، فالضلال هو الذي لا يعلم الحق ، والغاوي الذي يتبع هواه ، وأخبر أنه ما ينطق عن هوى النفس ، بل هو وحي أوحاه الله إليه . (١)

وبين سبحانه أن الهوى يضلّ عن الصراط المستقيم ، ويصرف صاحبه عن المنهج القويم ، فقال جلّ وعلا : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦] (٢) .

وقال لرسوله ﷺ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١٨] إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الحاشية: ١٨-١٩] .

يقول ابن جرير (رحمه الله) :

" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ ﴾ يا محمد من بعد الذي آتينا بني إسرائيل الذين وصفت لك صفتهم ﴿ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ يقول : على طريقة وسنة ومنهاج من أمرنا الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا ﴿ فَاتَّبِعْهَا ﴾ يقول : فاتبع تلك الشريعة التي جعلناها لك

(١) مجموع الفتاوى : ٣/ ٣٨٤ .

(٢) وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ٢٣/ ١٥١-١٥٢ . طبعة دار الفكر . تفسير القرآن العظيم : ٤/ ٥٠ . تيسير

الكريم الرحمن : ص: ٦٥٨ .

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول : ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون

بالله الذين لا يعرفون الحق من الباطل ، فتعمل به ، فتهلك إن عملت به " (١) .

فاتباع الهوى هو أصل الزيغ عن الصراط المستقيم . (٢) لأن صاحب الهوى

لا ينظر إلى الدليل نظر المستبصر به ، المفتقر إليه كي يسير على نوره ، ويهتدي بهداه ، وينقاد إليه ، وإنما يحكم هواه أولاً ثم يلجأ إلى الأدلة ليؤيد بها ما حكم به هواه ، وهذا أصل ضلال الفرق التي خالفت منهج أهل السنة والجماعة ، وشطت عنه .

قال الشاطبي (رحمه الله) :

" سمى أهل البدع أهل الأهواء لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها ، والتعويل عليها ، حتى يصدروا عنها ، بل قدموا أهواءهم ، واعتمدوا على آرائهم ، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك " (٣) .

وهؤلاء هم الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله : " وإنه سيخرج في أمّتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلبُ بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله " (٤) .

فقد تمكنت الأهواء في قلوبهم كما يتمكن داء الكلب من صاحبه ، فلا ينفع فيه الدواء حتى صرفتهم عن منهج السلف الصالح ، وألقت بهم في مصاف البدع والضلالات فتفرقوا شذر مذر .

(١) جامع البيان : ١٤٦/٢٥ .

(٢) الاعتصام : ١٧٩/٢ .

(٣) المرجع السابق : ١٧٦/٢ .

(٤) سبق تخريجه انظر : ص : ٩٥ .

وانظر : معناه في الاعتصام : ٢٦٧/٢ - ٢٦٨ .

ومن هنا حذر السلف (رحمهم الله) من اتباع الأهواء ومجاراتها .

قال ابن عمر (رضي الله عنهما) :

" ما فرحت بشيء من الإسلام أشدّ فرحاً بأن قلبي لم يدخله شيء من هذه
الأهواء " (١)

قال رجل لابن عباس (رضي الله عنهما) :

" الحمد لله الذي جعل هوانا على هواكم ، فقال : كلّ هوى ضلالة " . (٢)

قال أبو معشر (رحمه الله) (٣) :

" سألت إبراهيم (٤) عن شيء من هذه الأهواء ، فقال : " ما جعل الله في

شيء منها مثقال ذرة من خير ، ما هي إلا نزغة من الشيطان ،

(١) سنن الدارمي: نحوه عن مجاهد موقوفاً عليه : ١٠٣/١ . شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : ١٣٠/١ .

(٢) الجامع لمعر بن راشد الأزدي . تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة

الثانية : ١٤٠٣ هـ : بلفظ مقارب في : ١٢٦/١١ . شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ١٣٠/١ .

(٣) زياد بن كليب أبو معشر الكوفي ، التميمي الحنظلي ، فقيه ، ثقة من الحفاظ المتقنين . توفي سنة : ١١٩ هـ — .
وقيل : غير ذلك .

و انظر : الطبقات الكبرى : ٣٣٠/٦ . طبقات خليفة : ص : ١٦١ . التاريخ الكبير : ٣٦٧/٣ . معرفة
الثقات : ٣٧٤/١ . الجرح والتعديل : ٥٤٢/٣ . ثقات ابن حبان : ٣٢٧/٦ . مشاهير علماء الأمصار : ١٦٥/١ .
تهذيب الكمال : ٥٠٤/٩ . الكاشف : ٤١٢/١ . تهذيب التهذيب : ٣٢٩/٣ . تقريب التهذيب : ٢٢٠/١ . لسان
الميزان : ٢٢٢/٧ .

(٤) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود ، أبو عمران التخعي الكوفي ، مفتي الكوفة ، وفقيه العراق المشهور .
رأى بعض الصحابة ولم يروى عنهم . كان رأساً في العلم والإخلاص والورع ، متوقفاً قليل التكلف ، يرسل كثيراً
ويدلس . توفي سنة : ٩٥ هـ . وقيل : ٩٦ هـ — .

و انظر : الطبقات الكبرى : ٢٧٠/٦ . معرفة الثقات : ٢٠٩/١ . الجرح والتعديل : ١٤٤/٢ . ثقات ابن حبان :
٨/٤ . مشاهير علماء الأمصار : ١٠١/١ . تذكرة الحفاظ : ٧٣/١ . الكاشف : ٢٢٧/١ . جامع التحصيل : ص :
١٤١ . التبيين لأسماء المدلسين : ص : ٤١ . تهذيب التهذيب : ١٥٥/١ . تقريب التهذيب : ٩٥/١ . طبقات
المدلسين : ص : ٢٨ .

عليك بالأمر الأول " (١)

وقال الشعبي (رحمه الله) :

" إنما سميت الأهواء لأنها تهوي بصاحبها في النار " (٢)

وقال الشافعي (رحمه الله) :

" لأن يلقى الله العبد بكلّ ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من هذه الأهواء " (٣).

وقال ابن القيم (رحمه الله) :

" إن الهوى ما خالط شيئاً إلاّ أفسده ، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء ، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنّة ، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحقّ ، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور ، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولّي بهواه ويعزل بهواه ، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة . فما قارن شيئاً إلاّ أفسده " (٤) .

بل الهوى قد يجنح بصاحبه إلى القدر في النصوص الثابتة عن رسول الله ﷺ ، وردّها بأوهى الحجج وأضعفها ، بل بغير حجة .

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث . لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي . المعروف بأبي شامة .

تحقيق : بشير محمد عيون . طبعة : مكتبة المؤيد . الطائف . مكتبة دار البيان . دمشق . الطبعة الأولى :

١٤١٢هـ - ١٩٩١م : ص : ١٧ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنّة : ١٣٠/١ .

(٣) سنن البيهقي : باب ما تردّ به شهادة أهل الأهواء : ٢٠٦/١٠ .

(٤) روضة المحيّن : ص : ٤٧٤ . طبعة دار الكتب العلمية . وقد أفاض (رحمه الله) في ذكر أوجه مضار الهوى والتخلّص منها حتّى أوصلها إلى خمسين وجهاً ، وذلك من ص : ٤٧١ إلى ٤٨٦ من الكتاب نفسه .

كما قال البريهاري (رحمه الله) :

" وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ، أو يردّ الآثار ، أو يريد غير الآثار ، فاتّهمه على الإسلام ، ولا تشك أنه صاحب هوى مبتدع " .^(١)

بل قد يلجأ إلى الأحاديث الضعيفة والواهيّة والمكذوبة ليؤيّد بها هواه .^(٢)
وامرؤ هذا شأنه أنّي له الثّبات على منهج رسول الله ﷺ ؟ بل هو مفارق له ، مخالف محادّ ، لا يمكن تقديمه أن تستقر على طريق ارتضاه الله للبشريّة حيث يتحقّق للسائر فيه النّجاة والسّعادة والفوز والسّلامة .

(١) طبقات الحنابلة : ٣٦/٢ . وهو في كتاب شرح السنة : ص : ٥١ .

(٢) انظر : الاعتصام : ٢٢٤/١ - ٢٢٥ .

﴿المطلب الثاني﴾

تحكيم العقل والرأي في نصوص الوحي

العقل صفة قائمة بنفس الإنسان التي تعقل ، وأما من البدن فهو متعلق بالقلب
لقول الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ
ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الْصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] ^(١) .

وهو شرط في معرفة العلوم ، وصلاح الأعمال ، وبه يكمل الدين والعمل ،
وإن كان لا يستقل بذلك ، لأنه غريزة في النفس وقوة فيها كقوة البصر ، إذا
اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار ،
وإذا انفرد لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن إدراكها ، وإن أبعد بالكلية كانت
الأقوال والأفعال أمورا حيوانية . ^(٢)

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ٣٠٣/٩ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ٣٣٨-٣٣٩/٣ .

قال سيد قطب (رحمه الله) : " لو كان الله سبحانه - وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلها - يعلم أن العقل
البشري ، الذي وهبه للإنسان ، هو حسب هذا الإنسان في بلوغ الهدى لنفسه والمصلحة لحياته في دنياه وآخرته ،
لوكله إلى هذا العقل وحده ، يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق ، ويرسم لنفسه
كذلك المنهج الذي تقوم عليه حياته ، فتستقيم على الحق والصواب ، ولما أرسل إليه الرسل على مدى التاريخ ،
ولما جعل حجته على عباده هي رسالة الرسل إليهم ، وتبليغهم عن ربهم ، ولما جعل حجة الناس عنده سبحانه هي
عدم مجيء الرسل إليهم : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْنَاهُ عَنِ الْغَيْبِ وَلَمْ يُجِبْكَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَنَّكَ أَنتَ السَّادِقُ ﴾ [التيسار: ١٦٥] . ولكن
لما علم الله سبحانه أن العقل الذي آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى بغير توجيه من الرسالة
وعون وضبط ، وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة ، وينجي
صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة ، لما علم الله سبحانه هذا شاءت حكمته وشاءت رحمته أن يبعث للناس
بالرسل ، ولألا يؤاخذ الناس إلا بعد الرسالة والتبليغ . ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾
[الإسراء: ١٥] " . في ظلال القرآن : ٨٠٦/٢ .

والإسلام اهتم بالعقل وجعله مناط ^(١) التكليف ، فإذا فقد ارتفع التكليف وعدّ فاقده كالبهيمة . ^(٢)

بل جعله أحد الضروريات الخمس التي أمر الشارع بحفظها ورعايتها لأنّ مصالح الدنيا والآخرة مبنية على المحافظة عليها . ^(٣)

بل كلّ ما في الشريعة فهو موافق للعقل ، والمعقول الصحيح دائر مع أخبار الشريعة وجوداً وعدماً ، فلم يخبر الله ورسوله بما يناقض صريح العقل . ^(٤)

والعقل المذموم هنا الذي ينصبّ عليه الحديث والذي يكون الاعتماد عليه مزلقاً عن الصراط المستقيم ، ويؤدّي إلى عدم ثبات صاحبه على المنهج السوي ، هو ذاك العقل الذي أطلق له صاحبه العنان وتفلّت عن قيود الشرع ، وجعل له سلطاناً على نصوص الوحي يجول فيها ، فيقبل ما شاء ويردّ ما شاء ، ويدّعي معارضته لما شاء منها ، ويقدم ما حكم به على حكمها ، كما فعل أهل الكلام والفلسفة والمعارضون للشرع بعقولهم من طوائف المبتدعة .

فهؤلاء عظموا عقولهم أيّما تعظيم ، وكرّموها أعظم تكريم ، ورفعوا قدرها فوق نصوص الوحي ، بل لا يقبلون منها إلّا ما وافق عقولهم ، وما خالفها ردّوه

(١) مناط الشّيء يَنْوُطُهُ نَوَاطٌ : علّقه . لسان العرب : ٤١٨/٧ .

والمراد بالمنط عند الأصوليين : هو علّة الحكم أو سببه المتعلّق به . وهو على ثلاثة أضرب : تحقيق المنط ، وتنقيحه ، وتخريجه . انظر : روضة الناظر : ٢٧٦/١ . و انظر : الإحكام للآمدي : ٣٢٥-٣٢٦ .
قال ابن دقيق العيد (رحمه الله) - فيما نقله الشوكاني (رحمه الله) عنه - : " وتعبيرهم عن العلّة بالمنط من باب المجاز اللغوي لأنّ الحكم لما علّق بها كان كالشّيء المحسوس الذي تعلّق بغيره ، فهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، وصار ذلك في اصطلاح الفقهاء بحيث لا يفهم عند الإطلاق غيره " . إرشاد الفحول : ص : ٣٧٥ .

(٢) انظر : الموافقات : ١٣/٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق : ٨/٢ . والضروريات الخمس هي : الدّين والتّمسك بالعقل والتّسلّ والمال .

(٤) انظر : أعلام الموقعين : ٧١/٢ .

وقدحوا فيه .^(١) وكان ذلك من أعظم الأسباب التي حرفتهم عن الصراط المستقيم وعن منهج أهل السنة والجماعة ، وفارقت بهم الثببات عليه .
لأن طريق أهل السنة أن لا يعدلوا عن النص الصحيح ، ولا يعارضوه بمعقول ولا قول فلان .^(٢)

والحق إنما يدور مع نصوص الوحي حيث دارت ، فلا يحق لعقول البشر القاصرة المتفاوتة المتباينة أن تحكم عليها ، ولا أن تدعي معارضتها .

قال الشاطبي (رحمه الله) :

" لا يجعل العقل حاكماً بإطلاق ، وقد ثبت عليه حاكم بإطلاق وهو الشرع ، بل الواجب عليه أن يقدم ما حقه التقديم وهو الشرع ، ويؤخر ما حقه التأخير ، وهو نظر العقل ، لأنه لا يصح تقديم الناقص حاكماً على الكامل ، لأنه خلاف المعقول والمنقول ، بل ضد القضية هو الموافق للأدلة ، فلا معدل عنه ، ولذلك قال : اجعل الشرع في يمينك ، والعقل في يسارك ، تنبيهاً على تقدم الشرع على العقل " .^(٣)

ولا يمكن أبداً أن يتعارض نص صحيح وعقل سليم ، بل متى ما وجد ذلك فإمّا أن يكون النص غير صحيح أو أن يكون العقل غير سليم .

(١) انظر : الاعتصام : ٢٣١/١ - ٢٣٢ .

ولإثبات هذه الحقائق انظر : أساس التقديس في علم الكلام لفخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرّازي . طبعة : مصطفى الحلبي وأولاده . مصر . ١٤٥٤ هـ . ص : ١٧٢-١٧٣ ، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار . طبعة : الدّار التونسية للنشر : ص : ١٣٩ . المحيط بالتكليف للقاضي عبد الجبار . جمع الحسن بن أحمد بن متويه . تحقيق : عمر السيد عزمي . مراجعة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني . طبعة : الدّار المصرية للتأليف والترجمة . ص : ٣١-٣٢ ، ٢١٣ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٣٩٩ . طبعة المكتب الإسلامي .

(٣) الاعتصام : ٣٢٦/٢ - ٣٢٧ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة ، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط ... وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه ، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها ، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع ... ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط ، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه : إما حديث موضوع ، أو دلالة ضعيفة ، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح ، فكيف إذا خالفه صريح المعقول ؟ ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول ، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتقاه ، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته " .^(١)

بل إذا انقذ في ذهن المرء أن عقله يخالف نصاً ثابتاً فعليته أن يتشبه بالنص ولا يلتفت إلى ما عارضه ، لأن ذلك من تزيين الشيطان وأباطيله .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" فإذا تعارض النقل وهذه العقول أخذ بالنقل الصريح ورمي بهذه العقول تحت الأقدام ، وحطت حيث حطها الله وحط أصحابها " .^(٢)

لأن الواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولاً ، أو نحمله شبهة أو شكاً ، أو نقدّم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم . فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والأذعان ، كما نوحّد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة ، والتوكل .^(٣)

(١) درء تعارض العقل والنقل : ١٤٧/١ .

(٢) الصواعق المرسلة : ٧٩١/٢ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٢١٧ . طبعة المكتب الإسلامي .

وهكذا كان شأن صحابة رسول الله ﷺ ، فإنهم تلقوا الوحي من رسول الله ﷺ ، ولم يعارضوه بعقولهم وآرائهم ، بل استسلموا لأحكامه وصدقوا بأخباره ، لعلمهم أن العقل لا يجب أن يتقدّم بين يدي الشرع ، فإنه من التقدّم بين يدي الله ورسوله ، بل يكون ملتبساً من واء وراء .

هذا مذهبهم الذي دأبوا عليه ، وطريقهم الذي سلكوه فوصلوا به إلى الجنة ، ومنهجهم الذي ثبتوا عليه فنالوا به سعادة الدنيا والآخرة . ولم ينقل عن أحد منهم أنه عارض نصاً بعقله أو ردّ حديثاً برأيه ، بل النصوص عندهم معظمة ، وهي أجلّ في نفوسهم من أن تردّ بمجازفات العقول .^(١) ومن سار على نهجهم وسلك مسلكهم ثبت كما ثبتوا ، ونجا كما نجوا ، وأفلح كما أفلحوا .

❁ هذا عن العقل . وأمّا الرأى فله إطلاقات عدّة . والمراد منها هنا ما يواه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب ممّا تتعارض فيه الأمارات . وهو ثلاثة أقسام : رأى باطل ، ورأى صحيح ، ورأى هو موضع اشتباه . وقد استعمل السلف رحمهم الله الرأى الصحيح وعملوا به ، وسوّغوا القول به ، وذمّوا الباطل ، ومنعوا من الفتيا والقضاء به ، وأطلقوا ألسنتهم بذهمه وذمّ أهله . وأمّا القسم الثالث : فقد سوّغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطرار إليه حيث لا يوجد منه بدّ ، ولم يلزموا أحداً العمل به ، ولم يحرموا مخالفته ، بل خيروا بين قبوله وردّه ، فهو بمنزلة ما أبيح للمضطرّ من الطعام والشراب الذي يحرم عند عدم الضرورة .

والرأى الباطل على أنواع :

أحدها : الرأى المخالف للنصّ .

(١) انظر : الاعتصام : ٢٣١/٢-٢٣٦ . وانظر : مختصر الصّواعق المرسلة في الردّ على الجهمية والمعتلة . اختصره

محمد بن موسى الموصلي . طبعة : دار التدوّة الجديدة . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م : ص : ١٤٣ .

الثاني : الكلام في الدين بالخرص والظنّ مع التقريط والتقصير في معرفة النصوص وفهمها واستنباط الأحكام منها .

الثالث : الرأي المتضمن تعطيل أسماء الرب وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة التي وصفها أهل البدع والضلال .

الرابع : الرأي الذي أحدثت به البدع ، وغيّرت به السنن ، وعمّ به البلاء .
وهذه الأنواع الأربعة من الرأي الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه وإخراجه من الدين .^(١)

قال البخاري (رحمه الله) :

" باب ما يذكر من ذمّ الرأي وتكلف القياس^(٢) . ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ لا تقل ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦] " . ثمّ أورد حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) حيث قال : " سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعَ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ

(١) انظر : أعلام الموقعين : ٦٦/١ - ٦٩ .

(٢) القياس في اللغة : هو ردّ الشيء إلى نظيره . وهو نوعان : عقلي وشرعي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " القياس عند أصحابنا والجمهور ينقسم إلى : عقلي وهو ما يكتفى فيه بالعقل . وإلى شرعي وهو ملا بدّ فيه من أصل معلوم بالشرع " . مجموع الفتاوى : ٢٥٩/٩ .

فالقياس العقلي هو الذي يسمّونه بالمنطقي وهو : قول مؤلف من أقوال إذا وضعت لزوم عنها بذاتها قول آخر غيرها اضطراراً . انظر : التعريفات : ص : ٩٦ . المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا . طبعة : دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة . بيروت . ١٩٨٢ م : ٢٠٧/٢ - ٢١١ .

وفي الشرع : حمل معلوم على معلوم في إثبات حكم فما أو نفيه عنهما بأمر جامع بينهما من إثبات حكم أو صفة ، أو نفيهما عنهما . الحصول : ٩/٥ . و انظر : المنحول : ٣٢٤/١ . الإحكام للآمدي : ٢٠٥/٣ .

وقال ابن قدامة (رحمه الله) : " حمل فرع على أصل في حكم بجامع بينهما " . روضة الناظر : ٢٧٥ .

وقال الشوكاني (رحمه الله) : " وأحسن ما يقال في حدّه : استخراج مثل حكم المذكور لما لم يذكر بجامع بينهما " . إرشاد الفحول : ص : ٣٣٨ . وهذه التعريفات كلّها قريّة من بعضها .

أعطاهموه انتزاعاً ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناسٌ جُهَالٌ يُسْتَفْتُونَ فَيُفْتُونَ برأيهم فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ" (١) .

ثم روى بسنده إلى سهل بن حنيف رضي الله عنه أنه قال : " يا أيها الناس اتَّهَمُوا رأيكم على دينكم ، لقد رأيته يوم أبي جندل (٢) ولو أستطيع أن أَرُدَّ أمر رسول الله ﷺ لَرَدَدْتَهُ " الأثر (٣)

نقل الحافظ ابن حجر (رحمه الله) عن ابن بطال (رحمه الله) أنه قال :
" إن نصَّ الآية ذمَّ القول بغير علم ، فخصَّ به من تكلم برأي مجرد عن استناد إلى أصل ، ومعنى الحديث : ذمَّ من أفتى مع الجهل . ولذلك وصفهم بالضلال والإضلال وإلا فقد مدح من استنبط من الأصل لقوله : ﴿ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] فالرأي إذا كان مستنداً إلى أصل من الكتاب

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ١٣٥ .

(٢) يوم أبي جندل — اسمه العاص بن سهيل بن عمرو — أراد به يوم الحديبية ، وإنما نسب لأبي جندل لأنه لم يكن فيه على المسلمين أشدَّ من قصته . فتح الباري : ٢٨١/٦ . و انظر : شرح التتوي على مسلم : ١٤٢/١٢ . و انظر : قصته في السيرة النبوية لابن هشام : ٢٣٧/٣ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : (٧١/٩٦) . باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس : (٨/٧) . برقم: (٧٣٠٨) . ص : ١٥٣٦ . و بلفظ مقارب في: كتاب الجزية والموادعة : (٣٤/٥٨) . باب : (١٨) . برقم: (٣١٨٢) . ص : ٦٧٢-٦٧٣ . وفي كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب غزوة الحديبية : (٣٦/٣٥) . برقم: (٤١٨٩) . ص : ٨٧٦ . و بمعناه في: كتاب الجزية والموادعة : (٣٤/٥٨) . باب : (١٨) . برقم: (٣١٨١) . ص : ٦٧٢ . وفي كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨] : (٥) . برقم: (٤٨٤٤) . ص : ١٠٥٢ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب و بمعناه في: كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب صلح الحديبية : (٣٤) . برقم: (١٧٨٥) . ١٤١١-١٤١٣ .

قال ابن القيم (رحمه الله) : " واتَّهَمَ الصحابة لآرائهم كثير مشهور ، وهم أبرّ الأئمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأبعدها من الشيطان ، فكانوا أتبع الأمة للسنة ، وأشدَّهم اتِّهاماً لآرائهم ، وهؤلاء ضدَّ ذلك " . إغاثة اللّهفان : ١٢٤/١ . ويعني هؤلاء ، طوائف المبتدعة وفرق الضلال ممن حاد عن منهج الصحابة رضي الله عنهم .

أو السّنة أو الإجماع فهو المحمود ، وإذا كان لا يستند إلى شيء منها فهو المذموم ... وحديث سهل بن حنيف ... وإن كان يدلّ على ذمّ الرّأي لكنّه مخصوص بما إذا كان معارضاً للنّصّ ، فكأنّه قال : اتّهموا الرّأي إذا خالف السّنة " (١).

والرّأي المذموم هو الذي يمنع من الثّبات على المنهج لأنّه يعارض نصوص الوحي الّتي هي غذاء السّير على المنهج والثّبات عليه ، ولذا كثر تحذير السلف منه ، وصاحوا على من قال به من كلّ جانب ، وبدّعوه وضلّوه .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

" إياكم وأصحاب الرّأي فإنّهم أعداء السّنن ، أعيّتهم الأحاديث أن يحفظوها ، فقالوا بالرّأي فضّلوا وأضلّوا " (٢) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

" لو كان الدّين بالرّأي لكان أسفل الخفّ أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يمسخ على ظاهر خفيه " (٣) .

(١) فتح الباري : ٢٢٠/١٥ .

(٢) سنن الدّارقطني : كتاب التّوادر : ١٤٦/٤ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنة : ١٢٣/١ . أعلام الموقعين : ٥٥/١ وذكر عدّة روايات عنه رضي الله عنه في ذلك ثمّ قال : " وأسانيد هذه الآثار عن عمر في غاية الصّحة " .

(٣) سنن أبي داود: كتاب الطّهارة : (١) . باب كيف المسح : (٦٣) . برقم : (١٦٢ ، ١٦٣) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤٢ .

و انظر : سنن الدّارمي : باب المسح على التّعلين : ١٩٥/١ . سنن البيهقي : باب الاقتصار بالمسح على ظاهر الخفين . ٢٩٢/١ . سنن الدّارقطني : باب الرّخصة في المسح على الخفين . ١٩٩/١ . مسند أحمد : ٩٥/١ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٤٨ . قال أحمد شاكر (رحمه الله) : " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر : ٢١٩ ، ١٧٩ ، ٢٢٠ — ٣١١ . برقم : (٧٣٧ ، ٩١٧ ، ١٠١٣ ، ١٢٦٣) . ١٩٩/١ ، ٢٠٤ . مسند أبي يعلى : ٢٨٧/١ ، ٤٥٥ . قال المحقّق : " إسناده صحيح " .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه :

" إِيَّاكُمْ وَأَرَأَيْتَ وَأَرَأَيْتَ ، فَإِنَّمَا هَلْكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِأَرَأَيْتَ وَأَرَأَيْتَ ، وَلَا تَقِيسُوا شَيْئاً بِشَيْءٍ فَتَنْزِلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ، وَإِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ عَمَّا لَا يَعْلَمُ فَلْيَقُلْ : لَا أَعْلَمُ فَإِنَّهُ ثَلَاثُ الْعِلْمِ " (١)

وقال الحسن البصري (رحمه الله) :

" إِنَّمَا هَلْكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَشَعَّبَتْ بِهِمُ السَّبِيلُ ، وَحَادُوا عَنِ الطَّرِيقِ ، فَتَرَكُوا الْآثَارَ وَقَالُوا فِي الدِّينِ بَرَأْيَهُمْ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا " (٢)

وقال الأوزاعي (رحمه الله) (٣) :

" عَلَيْكَ بِآثَارِ مَنْ سَلَفَ وَإِنْ رَفَضَكَ النَّاسُ ، وَإِيَّاكَ وَأَرَاءَ الرِّجَالِ وَإِنْ زَخَرَفُوا لَكَ الْقَوْلَ (٤) " (٥) .

(١) معجم الطبراني الكبير: بلفظه في : ١٠٥/٩ . وانظر : أعلام الموقعين : ٥٧/١ .

(٢) الاعتصام : ٣٣٤/٢ . وقد نسب ابن عبد البر إلى الحسن بن واصل . ونقله ابن القيم عنه . أعلام الموقعين : ٧٨/١ .

(٣) هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد أبو عمرو الأوزاعي الدمشقي ، المشهور . شيخ الإسلام وإمام عصره ، ومن خيار الناس . كان أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وورعاً وحفظاً وفضلاً وعبادة وضبطاً مع زهادة . حجة كثير الحديث . توفي سنة : ١٥٧هـ .

و انظر : الطبقات الكبرى : ٤٨٨/٧ . طبقات خليفة : ص : ٣١٥ . التاريخ الكبير : ٣٢٦/٥ . معرفة الثقات : ٨٣/٢ . الجرح والتعديل : ٢٦٦/٥ . ثقات ابن حبان : ٦٢/٧ . مشاهير علماء الأمصار : ١٨٠/١ . التعديل والتجريح : ٨٧٣/٢ . تهذيب الكمال : ٣٠٧/١٧ . تذكرة الحفاظ : ١٧٨/١ . الكاشف : ٦٣٨/١ . جامع التحصيل : ص : ٢٢٥ . تهذيب التهذيب : ٢١٦/٦ . تقريب التهذيب : ٣٤٧/١ . لسان الميزان : ٢٨٣/٧ .

(٤) القول المزخرف : هو القول المزيّن المموّه . انظر : الفائق : ١٠٥/٢ . النهاية في غريب الحديث : ٢٩٩/٢ .

(٥) الشريعة للأجري : ص : ٦٧ .

ونكر اللالكائي (رحمه الله) أن فتى من أصحاب الحديث أنشد في مجلس أبي
زرعة الرّازي^(١) (رحمه الله) هذه الأبيات فاستحسنها وكتبت عنه :

دين النبي محمد أخباره نعم المطيعة للفتى آثاره
لا تعدلنّ عن الحديث وأهله فالرأي ليل والحديث نهاره
ولربما غلط الفتى أثر الهدى والشمس بازغة لها أنواره .^(٢)

والآثار في ذلك والأقوال كثيرة جداً ، وكلّها تذبّ من يعارض النصوص
بالآراء الواهية ، والأقوال المخالفة التي تبعد صاحبها عن الطريق المستقيم
والهدي القويم .

إذ كان تقديم الرأي على النصّ من أعظم الأسباب التي أدّت إلى تفرّق الأمة
وتشتتها ، وخروج الفرق الضالة عن منهج أهل السنّة والجماعة .

وفي ذلك يقول ابن القيم (رحمه الله) :

" قال بعض العلماء : ما أخرج آدم من الجنة إلا بتقديم الرأي على النصّ ،
وما لعن إبليس وغضب عليه إلا بتقديم الرأي على النصّ ، ولا هلكت أمة من
الأمم إلا بتقديم آرائها على الوحي ، ولا تفرقت الأمة فرقاً وكانوا شيعاً إلا بتقديم
آرائهم على النصوص " .^(٣)

فلا يسلم للمؤمن دينه ، ولا يبقى على الجادة ، ولا يثبت على الحقّ ، ولا
يستقيم أمره إلا إذا حكم نصوص الوحي على عقله ورأيه ، وأعرض عن زبالة

(١) هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ ، أبو زرعة الرّازي القرشي مولاهم ، الإمام الحافظ المشهور . أحد
أفراد الدهر حفظاً وذكاء وديناً وإخلاصاً وعلماً وعملاً وزهداً وورعاً . قال عنه إسحاق بن راهويه : " كلّ
حديث لا يعرفه أبو زرعة فليس له أصل " . توفي سنة : ٢٦٤هـ .

و انظر : الجرح والتعديل : ٣٢٤/٥ . ثقات ابن حبان : ٤٠٧/٨ . تهذيب الكمال : ٨٩/١٩ . تذكرة الحفاظ :

٥٥٧/٢ . الكاشف : ٦٨٣/١ . تهذيب التهذيب : ٢٨/٧ . تقريب التهذيب : ٣٧٣/١ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنّة : ١٤٩/١ .

(٣) مختصر الصّواعق المرسلة : ص : ٥٢٣ .

الأذهان ، ونحاتة الأفكار ، والآراء المتهاففة ، والخيالات المتناقضة التي تقذف
بها العقول القاصرة والأذهان الكليّة التي تزخرف الباطل لتضاهي به الحق ،
وتبرز الضلال لتعدل به الهدى ، وكلّ ذلك زبد يذهب جفاء وتبقى نصوص
الوحي ما بقي الليل والنهار تضيء طريق من احتفى بها ، وتثير قلب من تمسك
بها ، وتقوّي عزمه ، وتطمئن قلبه ، وتشدّ عضده ، وتثبت قدمه حتّى يحطّ رحاله
في جنان الله .

﴿المطلب الثالث﴾

مقارفة البدع

البدع جمع بدعة وهي كل شيء ليس له مثال تقدّم . فيشمل لغة ما يحمد ويذمّ ، ويختصّ في عرف أهل الشّرع بما يذمّ ، وإن وردت في المحمود فعلى معناها اللّغوي .^(١)

وعرفها الشّاطبي (رحمه الله) بقوله :

" البدعة طريقة في الدّين مخترعة تضاهي الشّرعية ، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشّرعية " .^(٢)

فالبدعة أمر محدث في دين الله تعالى لم يكن له مثال سابق ، يقصد به صاحبه التّقرب إلى الله سبحانه ، وليس له ما يسنده من نصوص الكتاب والسّنة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" فإنّ البدعة الشّرعية التي هي ضلالة هي ما فعل بغير دليل شرعي كاستحباب ما لم يحبه الله ، وإيجاب ما لم يوجبه الله ، وتحريم ما لم يحرّمه الله ، فلا بد مع الفعل من اعتقاد يخالف الشريعة " .^(٣)

وقد جاءت أدلة الكتاب والسّنة تحرم البدع ، وتحذّر من مقارفتها والوقوع فيها .

(١) فتح الباري : ٢٠٨/١٥ .

(٢) الاعتصام : ٢٨/١ .

(٣) منهاج السّنة النبوية : ٣٠٨/٨ .

والبدعة نوعان :

نوع في الأقوال والاعتقادات ، ونوع في الأفعال والعبادات . فالأول يقع من المنتسبين إلى العلم والتّظر ، والثّاني من المنتسبين إلى العبادة والإرادة . انظر مجموع الفتاوى : ٣٠٦/٢٢ .
فالأول : يكون باعتقاد خلاف الحقّ الذي بعث به رسول الله ﷺ ، والثّاني يكون بالتّعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرّسوم المحدثّة في الدّين . والتّويعان في الغالب متلازمان . انظر : مدارج السّالكين : ٢٢٢/١ .

فقال سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١] .

فالله سبحانه يخبر أن المشركين اتخذوا من شياطين الإنس الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله من الشرك والبدع وتحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرّم ونحو ذلك ، مما اقتضته أهواؤهم ، مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى لبيدين به العباد ، ويتقربوا به إلى الله . (١)

فمن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله ، أو أوجبه بقوله أو فعله من غير أن يشرعه الله فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ، ومن اتبعه في ذلك فقد اتخذ شريكاً لله . (٢)

وقد قال سبحانه : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] .

قال عدي بن حاتم ؓ للنبي ﷺ عندما سمع هذه الآية : " إنهم لم يعبدوهم " فقال : " بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتّبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم " (٣)

(١) تيسير الكريم الرحمن : ص : ٧٠٣ . بتصرف .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم : ص : ٢٦٨ .

(٣) سبق تخريجه انظر : ص : ١٤٣ . و انظر : معنى الآية في تفسير القرآن العظيم : ٥٤٤/٢ - ٥٤٥ .

ومن الأحاديث المحذرة عن البدع :

حديث جابر رضي الله عنه وفيه : " فإنَّ خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشرَّ الأمور محدثاتها ، وكلَّ بدعة ضلالة " (١) .

وفي رواية : " وكلَّ ضلالة في النَّار " (٢) .

وحديث العرياض بن سارية رضي الله عنه ، وفيه : " إنَّه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسَّكوا بها ، وعضُّوا عليها بالنَّواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة " (٣) .

وحديث عائشة (رضي الله عنها) : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردَّ " وفي رواية : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردَّ " (٤) .

وكلَّ هذه النصوص وغيرها الكثير تدلُّ على تحريم البدع في دين الله ، وتحذّر منها تحذيراً بالغاً لما فيها من أضرار عظيمة ، وعواقب وخيمة .

فهي ترهّد الإنسان في الأعمال المشروعة ، وتوجب له فساداً في القلب ينشأ من نقص منفعة الشريعة عنده ، لأنَّ القلب لا يتسع للعوض والمعوّض عنه . (٥)

وهي تناقض الاعتقاد الواجب ، وتنازع الرّسول فيما جاء به ، وتحدث في الطّبع انحلالاً من ربة الاتّباع ، وفوات سلوك الصّراط المستقيم . (٦)

(١) صحيح مسلم: بلفظه — جزء من حديث — في كتاب الجمعة : (٧) . باب تخفيف الصّلاة والخطبة : (١٣) .

برقم: (٨٦٧) . ٥٩٢/٢ .

(٢) سنن التّسائي: بلفظها في : كتاب صلاة العيدين : (١٩) . باب كيف الخطبة : (٢٢) . برقم: (١٥٧٨) .

قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ١٨٦ .

صحيح ابن خزيمة : بلفظها . برقم: (١٧٨٥) . ١٤٣/٣ .

(٣) سبق تخريجه انظر : ص : ٨٣١ .

(٤) سبق تخريجه انظر : ص : ٨٢١ .

(٥) انظر : اقتضاء الصّراط المستقيم : ص: ٢١٧-٢١٨ .

(٦) انظر : المرجع السّابق : ص : ٢٨٩-٢٩٢ .

وهي من أعظم أسباب التفرّق والخلاف الذي وقع في الأمة ولا زال ، بل هي أصل وقوع الفتن في الأمة وتفرّق وحدتها ، وتشتّت شملها .^(١)

والمبتدع يُزَيَّن له عمله فيراه حسناً فيستمرئ البقاء عليه ولا ينزع عنه . وهذا سرّ قول سفيان الثوري^(٢) (رحمه الله) :

" البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية ، لأنّ البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها " .^(٣)

لأنّ أوّل التوبة العلم بأنّ فعله سيء ليتوب منه ، أو بأنّه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب ، أو استحباب ليتوب ويفعله ، فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء في نفس الأمر فإنّه لا يتوب .^(٤)

يقول ابن القيم (رحمه الله) في معرض حديثه عن العقبات التي يظفر فيها الشيطان بالإنسان فيورده المهالك قال :

" والظفر به في عقبة البدعة أحبّ إليه لمناقضتها الدين ، ودفعها لما بعث الله به رسوله ، وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها ، بل يدعو الخلق إليها ، ولتضمنها القول على الله بلا علم ، ومعاداة صريح السنّة ، ومعاداة أهلها ، والاجتهاد على إطفاء نور السنّة ، وتولية من عزله الله ورسوله ، وعزل من

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٤٣/٢٨ . وانظر : الاعتصام : ١٩٤/٢ . بيان تلبيس الجهميّة : ٣١٠/٢ .

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الثوري الكوفي ، الإمام المشهور ، شيخ الإسلام وسيد الحفاظ وأمرير المؤمنين في الحديث ، فقيه عابد ورع زاهد ، قدوة . توفي سنة : ١٦١هـ .

وانظر : طبقات خليفة : ص : ١٦٨ . التاريخ الكبير : ٩٢/٤ . الجرح والتعديل : ٢٢٢/٤ . ثقات ابن حبان : ٤٠١/٦ . مشاهير علماء الأمصار : ١٦٩/١ . تاريخ بغداد : ١٥١/٩ . تهذيب الكمال : ١٠٤/١١ . تذكرة الحفاظ : ٢٠٣/١ . الكاشف : ٤٤٩/١ . جامع التحصيل : ص : ١٨٦ . تهذيب التهذيب : ٩٩/٤ . تقريب التهذيب : ٢٤٤/١ . لسان الميزان : ٢٣٣/٧ . طبقات المدلسين : ص : ٣٢ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى : ٩/١٠ . وقول سفيان (رحمه الله) في : مسند ابن الجعد : ٢٧٢/١ . شعب الإيمان :

٥٩/٧ . شرح أصول اعتقاد أهل السنّة : ١٣٢/١

(٤) مجموع الفتاوى : ٩/١٠ .

ولآه الله ورسوله ، واعتبار ما رده الله ورسوله ، وردّ ما اعتبره ، وموالاته من عاداه ، ومعاداة من وآله ، وإثبات مائفاه ، ونفي ما أثبتته ، وتكذيب الصادق وتصديق الكاذب ، ومعارضة الحقّ بالباطل ، وقلب الحقائق بجعل الحقّ باطلاً والباطل حقّاً ، والإلحاد في دين الله ، وتعمية الحقّ على القلوب ، وطلب العوج لصرّاط الله المستقيم ، وفتح باب تبديل الدين جملة " (١) .

بل قد كادت البدع أن تطمس معالم الإسلام في كثير من بقاع العالم الإسلامي ، وقد وجدت هوى في نفوس الضعفاء والرّعا ع من النّاس ، وذلك في غياب الوعي الديني الصّحيح ، وتساهل ولاة الأمور في شأنها ، وغضّ كثير من الدّعاة الطّرف عنها ، وتهاونوا في أمرها ، حتّى استفحلت ، وكثر شرّها ، وعظم ضررها .

قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" ما أتى على النّاس عام إلّا أحدثوا فيه بدعة ، وأماتوا فيه سنة حتّى تحيا البدع ، وتموت السنن " (٢) .

وقد صدق فيما قال ، فقد أميتت السنن في كثير من بلاد الإسلام ، وأبدلت بالبدع والضّلالات فنشأ عليها الصّغير ، وهرم عليها الكبير ، وتعصّب لها الجهّال ، وانبرى يدافع عنها علماء الضّلال ، ويؤيّدونها بالحجج التي هي داحضة حتّى لبس على كثيرين ، وخفي أمرها على جمّ غفير من المنتسبين إلى الإسلام .
ومن أعظم أضرارها أنّها تصرف عن سلوك الصّراط المستقيم ، وتمنع من قارفها عن مواصلة السّير على منهج الله ، والثّبات عليه .

(١) مدارج السّالكين : ٢٢٣/١ .

(٢) معجم الطّبراني الكبير : ٢٦٢/١٠ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنة : ٩٢/١ .

قال شيخ الإسلام بن تيمية (رحمه الله) :

" وكلّما ازداد العبد في البدع اجتهداً ازداد من الله بعداً لأنّها تخرجه عن سبيل الله ، سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إلى بعض سبيل المغضوب عليهم والضالين " . (١)

ونقل (رحمه الله) عن أبي علي الجوزاني (٢) عندما سئل : كيف الطريق إلى الله ؟ قال : " أصحّ الطرق وأعمرها وأبعدها من الشبه اتباع الكتاب والسنة قولاً وفعلًا وعقداً ونية لأنّ الله يقول : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: ٥٤] . فسئل : كيف طريق اتباع السنة ؟ قال : " بمجانبة البدع ، واتباع ما اجتمع عليه الصّادر الأول من علماء الإسلام وأهله ، والتّباعد عن مجالس الكلام وأهله ، ولزوم طريقة الاقتداء والاتباع ، بذلك أمر النبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٣] " (٣)

ولهذا اشتدّ نكير السلف والأئمة لها ، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض ، وحذروا من فتنتهم أشدّ التحذير ، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان ، إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشدّ . (٤)

وأمرُوا بالاستقامة على الدين ، واتباع سيّد المرسلين ﷺ .

(١) مجموع الفتاوى : ٤٨/١٩ - ٤٩ .

(٢) أبو علي الجوزاني : لم أقف له على ترجمة .

(٣) الاستقامة : ١١٠/١ .

(٤) مدارج السالكين : ٣٧٢/١ . بتصرف يسير .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

" اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كَفَيْتُمْ ، وَكُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " (١) .

وقال : " إِنَّا نَقْتَدِي وَلَا نَبْتَدِي ، وَنَتَّبِعُ وَلَا نَبْتَدِعُ ، وَلَنْ نَضِلَّ مَا تَمَسَّكْنَا بِالْأَثَرِ " . (٢)

وقال ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالِاسْتِقَامَةِ ، اتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ " . (٣)

وقال ابن عمر (رضي الله عنهما) :

" كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَإِنْ رَأَاهَا النَّاسُ حَسَنَةً " (٤) .

وقال أبو عمرو الأوزاعي (رحمه الله) :

" اصْبِرْ نَفْسَكَ عَلَى السَّنَةِ ، وَقِفْ حَيْثُ وَقَفَ الْقَوْمُ ، وَأَسْلِكْ سَبِيلَ سَلَفِكَ الصَّالِحِ ، فَإِنَّهُ يَسْعُكَ مَا وَسِعَهُمْ ، وَقُلْ بِمَا قَالُوا ، وَكَفَّ عَمَّا كَفَّوْا ، وَلَوْ كَانَ هَذَا خَيْرًا مَا خَصَصْتُمْ بِهِ دُونَ أَسْلَافِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَذْخِرْ عَنْهُمْ خَيْرَ خَبْرٍ لَكُمْ دُونَهُمْ لِفَضْلِ عِنْدِكُمْ ، وَهُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ لَهُ وَبَعَثَهُ فِيهِمْ ، وَوَصَفَهُمْ فَقَالَ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] (٥) .

(١) سنن الدارمي: في باب كراهية أخذ الرأي . ولم يذكر قوله : " كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " : ٨٠/١ . معجم الطبراني

الكبير: ١٥٤/٩ . شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ٨٦/١ . الإبانة عن شريعة الفرق الناجية : ٣٢٨/١ .

(٢) سنن الدارمي: نحوه عن شريح (رحمه الله) . باب تغيير الزمان وما يحدث فيه . ٧٧/١ . شرح أصول اعتقاد أهل

السنة : ٨٦/١ . أعلام الموقعين : ١٥٠/٤ .

(٣) سنن الدارمي: باب من هاب الفتيا ، وكره التنطع والتبدع : ٦٥/١ . وانظر : الإبانة عن شريعة الفرق الناجية :

٣١٩/١ .

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ٩٢/١ .

(٥) أعلام الموقعين : ١٥٢/٤ .

وقال البربهاري (رحمه الله) :

" واحذر صغار المحدثات ، فإنَّ صغار البدع تعود حتّى تصير كباراً ، وكذلك كلّ بدعة أحدثت في هذه الأمة كان أولّها صغيراً يشبه الحقّ ، فاغتر بذلك من دخل فيها ثمّ لم يستطع المخرج منها ، فعظمت ، وصارت ديناً يَدان به ، فخالف الصّراط المستقيم فخرج من الإسلام ". (١)

وقال الأجرّي (رحمه الله) :

" رحم الله عبداً حذر هذه الفرق ، وجانب البدع ، واتّبع ولم يبتدع ، ولزم الأثر ، وطلب الطّريق المستقيم ، واستعان بمولاه الكريم ". (٢)

وأقوالهم كثيرة لا تحصى ، وكلّها تذرّ البدع ، وتكشف عن خطرها وضررها ، وتأمّر بسلوك الصّراط المستقيم ، ومنهج السّلف الصّالح رحمهم الله ، والثّبات عليه . لأنّ منهج السّلف يكمن في الاتّباع وليس الابتداع ، إذ هو قائم على تجريد الاتّباع لرسول الله ﷺ ، وتحكيمه في جميع أمور الدّين ، والسّير على طريق أصحابه ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين . ولذا كان أهل هذا المنهج أبعد النّاس عن البدع وأكثرهم نفوراً منها .

قال أبو بكر الإسماعيلي (رحمه الله) في كتابه اعتقاد أئمّة الحديث ، تحت عنوان : وجوب لزوم مذهب أهل الحديث الفرقة النّاجية . قال :

" هذا أصل الدّين والمذهب اعتقاد أئمّة أهل الحديث الذين لم تشنهم بدعة ، ولم تلبسهم فتنة ، ولم يخفوا إلى مكروه في دين ، فتمسّكوا معتصمين بحبل اللّهِ جميعاً ولا تفرّقوا عنه ، واعلموا أنّ الله تعالى أوجب محبّته ومغفرته لمتّبعي رسوله ﷺ في كتابه ، وجعلهم الفرقة النّاجية والجماعة المتّبعة " (٣)

(١) طبقات الحنابلة : ١٨/٢ . وهو في كتاب شرح السنة : ص : ٢٣ . وبه زيادة طفيفة .

(٢) الشّريعة : ص : ٢٥ .

(٣) ص : ٤٠ .

فمن رغب في الثبات على منهجهم فعليه أن يسلك ما سلكوا ، ويسير كما
ساروا فيجتنب البدع ، ويحذر من المحدثات ، ويفارق الضلالات ، ويجانب
المنكرات ليثبت كما ثبتوا ، ويسلم كما سلموا فيفوز بما فازوا ، ويسعد بما
سعدوا .

﴿المطلب الرابع﴾

التقليد بغير دليل

هو عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل ، معتقداً للحقيقة فيه ، من غير نظر وتأمل في الدليل ، كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه ، وعبرة عن قبول قول الغير بلا حجة ولا دليل .^(١)

وهذا أمر مذموم ، لأن الله سبحانه لم يشرع لأحد من الخلق أن يلتزم بقول كائن من كان ، يُوجب ما يوجبه ، ويُحرّم ما يحرّمه ، ويبيح ما يبيحه غير رسول الله ﷺ . فهو الذي أمر الله باتباعه ، والتمزام قوله واجتتاب نهيه ، وتصديق خبره . وأما سواه فيؤخذ من قوله ويترك ، ولا يجعل قوله حجة على دين الله ، إذ الحجة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولذا ذمّ الله في كتابه أناساً قلّدوا آباءهم وزعماءهم وساداتهم دون حجة ودليل ، ولو كان ذلك في مخالفة الحق .

فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠] .

وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤] .

وبيّن سبحانه أن تلك عادة لم تشذ عنها أمة من الأمم . فقال سبحانه : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [١] وكذا لك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها

(١) التعريفات : ص : ٩٠ . وانظر : التوقيف على مهمات التعاريف : ١٩٩/٢ .

إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿
[الزحرف: ٢٢-٢٣] .

وقال في اتباع الرؤساء والكبراء وتقليدهم : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ ﴿٢١﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٢٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٢٨﴾ ﴿ [الأحزاب: ٦٦-٦٨] .

والآيات وإن كانت في شأن الكفار إلا إنها دالة على ذم التقليد . ولذا احتج بها أهل العلم .

قال ابن القيم (رحمه الله) بعد إيراده لكثير من الآيات الدالة على ما ذكرت :
" ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء ، وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد ، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها ، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر ، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد ، كما لو قلد رجلاً فكفر ، وقلد آخر فأذنب ، وقلد آخر في مسألة فأخطأ وجهها ، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة ، لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً وإن اختلفت الآثام فيه " . (١)

وقال الشوكاني (رحمه الله) :

" فهذه الآيات وغيرها مما ورد في معناه ناعية على المقلدين ما هم فيه ، وهي وإن كان تنزيلها في الكفار لكنه قد صحّ تأويلها في المقلدين لاتحاد العلة ،

(١) أعلام الموقعين : ١٧٢ / ٢ .

وقد تقرّر في الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وأن الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدمًا ^(١) .

فأقوال الآباء والرؤساء والعلماء لا تؤخذ على سبيل الإطلاق وإنما تقيّد بالشرع ، إذ المعصوم الذي تؤخذ أقواله على إطلاقها هو رسول الله ﷺ ، ولذلك قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] .

فقد أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله على إطلاقها ، وقيّد طاعة ولاية الأمر وهم العلماء والأمراء بطاعة الله ورسوله ، وهذا سرّ عدم تكرار الفعل : " أطيعوا " مع ولاية الأمر ^(٢) .

وقد جاءت أقوال أهل العلم دامة لكل من نصّب شخصاً سوى رسول الله ﷺ ، يأخذ بكلّ ما قال مأخذ التسليم من غير دليل يؤيّد ما ذهب إليه .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

" ألا لا يقلّدن رجل رجلاً دينه ، فإن آمن آمن ، وإن كفر كفر ، فإن كان مقلداً لا محالة فليقلّد الميت ويترك الحي ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة " ^(٣) .

(١) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد لحدّد بن علي الشوكاني تحقيق : عبد الرحمن عبد الخالق . الطبعة الثالثة .

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م . دار القلم - الكويت : ص : ٧٢ .

(٢) انظر معنى الآية في : تفسير القرآن العظيم : ١/ ٧٨٥ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٤٨ .

(٣) سنن البيهقي : باب ما يقضي به القاضي ، ويفتي به المفتي ، فإنه غير جائز له أن يقلّد أحداً من أهل دهره .

١٠/ ١٦٦ . و انظر : ١٠/ ٢ . معجم الطبراني الكبير : ٩/ ١٥٢ . شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ١/ ٩٣ .

القول المفيد : ص : ٧٣ .

وقال معاوية رضي الله عنه لابن عباس رضي الله عنهما : أنت على ملة علي ؟ قال : لا ، ولا على ملة عثمان ، ولكن على ملة النبي ﷺ . (١) .

وأقوال أهل العلم من غير الصحابة رضي الله عنهم كثيرة لا تحصى . من ذلك :

ما قاله ابن حزم (رحمه الله) :

" إن التقليد لا يحل البتة ، وإنما التقليد أخذ المرء قول من دون رسول الله ﷺ ممن لم يأمرنا الله عز وجل باتّباعه قط ، ولا يأخذ قوله ، بل حرّم علينا ذلك ونهانا عنه ... إن امرءاً لو اتّبع أحداً دون رسول الله ﷺ في قول قاله لأن فلاناً قاله فقط ، واعتقد أنه لو لم يقل ذلك فلان ذلك القول لم يقل به هو أيضاً فإن فاعل هذا القول مقلّد مخطئ ، عاصي لله تعالى ولرسوله ، ظالم آثم سواء كان قد وافق قوله ذلك الحق الذي قاله الله ورسوله أو خالفه ، وإنما فسق لأنه اتّبع من لم يؤمر باتّباعه ، وفعل غير ما أمره الله عز وجل أن يفعله " . (٢) .

وما قاله الشاطبي (رحمه الله) :

" يرى الإنسان رجلاً يحسن اعتقاده فيه فيفعل فعلاً محتملاً أن يكون مشروعاً أو غير مشروع فيقتدي به على الإطلاق ، ويعتمد عليه في التّعبّد ، ويجعله حجّة في دين الله ، فهذا هو الضلال بعينه ما لم يثبت بالسؤال والبحث عن حكم الفعل ممن هو أهل الفتوى " . (٣) .

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ٩٤/١ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل : ٣٦/٤ - ٣٧ .

(٣) الاعتصام : ١٨١/٢ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :
 " إن من نصّب إماماً فأوجب طاعته مطلقاً اعتقاداً أو حالاً فقد ضلّ في ذلك ، كائمه الضلال الرافضة الإمامية ^(١) حيث جعلوا في كلّ وقت إماماً معصوماً تجب طاعته . فإنه لا معصوم بعد الرّسول ، ولا تجب طاعة أحد بعده في كلّ شيء " ^(٢) . وقال :

" ولا يجب على أحد من المسلمين تقليد شخص بعينه من العلماء في كلّ ما يقول : ولا يجب على أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معيّن غير الرّسول ﷺ في كلّ ما يوجبه ويخبر به ، بل كلّ أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلاّ رسول الله ﷺ " ^(٣) .

وقال ابن القيم (رحمه الله) :

" قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً ^(٤) ﴾ [التوبة: ١٦] ولا وليجة أعظم ممّن جعل رجلاً بعينه مختاراً على كلام الله ، وكلام رسوله ،

(١) الإمامية : طائفة من الرافضة قالوا بإمامة علي عليه السلام بعد النبي ﷺ بالتصّ الظاهر . وكفّروا معظم الصحابة عليه السلام . وقالوا بانثي عشر إماماً ، دخل آخرهم السرداب بسامراء ، وأتهم معصومون ، وتجري على أيديهم المعجزات وخوارق العادات . وهم طوائف شتى ، ولهم كثير من العقائد والأفكار الباطلة .
 و انظر : الفرق بين الفرق : ص : ٣٨-٥٤ . الملل والنحل : ١/١٦٢-١٧٣ . اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين : ص : ٥٣-٥٦ . التعريفات : ص : ٥٣ . التوقيف على مهمات التعاريف : ٩١/٢ . الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : ص : ٢٩٩-٣٠٤ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٦٩/١٩ .

(٣) المرجع السابق : ٢٠/٢٠٩ .

(٤) قال الرّاغب (رحمه الله) : " الوليجة : كلّ ما يتّخذهُ الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله ، من قولهم فلان وليجة في القوم : إذا لحق بهم وليس منهم ، إنساناً كان أو غيره " . المفردات : ص : ٥٣٢ .
 فوليجة الرّجل : بطائته وخاصته ودخلته . وهي مأخوذة من وَلَجَ يَلِجُ وَلُجاً وَلِجَةً إذا دخل . أي : لم يتّخذوا بينهم وبين الكافرين دَخِيلَةً مَوَدَّةً . انظر : لسان العرب : ٤٠٠/٢ .

وكلام سائر الأمة ، يقدّمه على ذلك كلّه ، ويعرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على قوله ، فما وافقه منها قبله لموافقته لقوله ، وما خالفه منها تلطّف في ردّه ، وتطلّب له وجوه الحيل ، فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة " (١).

وما جاء تحذير هؤلاء العلماء الأجلاء - وغيرهم كثير - عن التقليد إلا لما فيه من أضرار بالغة تعصف بالمسلم الذي أقحم نفسه فيه فتبعده عن طريق الهدى ، وتلقي به في مهاوي الردى إن لم يتداركه مولاه برحمة تأخذ بيده ، وتقوده إلى الطريق المستقيم .

فالتقليد بدعة محدثة أوجدت بعد القرون المفضلة ، واستطاع الشيطان - عليه لعائن الله - أن يستدرج به فئة عظيمة من الأمة فيجرّهم عن اتباع رسول الله ﷺ إلى اتباع غيره من البشر ، وإنزال أقوالهم منزلة الشرع الحنيف ، حيث تعظّم أقوالهم وتقّس ، ويدافع عنها ، ويغض لأجلها ويحبّ .
قال عبد الرحمن عبد الخالق :

" دعوة التقليد دعوة غير إسلامية ، لأنه لا نصّ عليها من كتاب أو سنة أو قول صاحب للنبي أو قول إمام أو قول عالم يعتدّ بعلمه ، أو حتى عقل صحيح يميّز بين الحقّ والباطل ، والنور والظلام " (٢).

وما حدث التقليد إلا حين ضعف العلم ، وتمسك به الجهال والعوام ، وعمّت به البلوى على ممرّ الدهور في الأنام (٣).

(١) أعلام الموقعين : ١٧٠/٢ .

(٢) السلفيون والأئمة الأربعة : لعبد الرحمن عبد الخالق ، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م . الناشر : الدار السلفية ، الكويت مطابع دار القبس الكويت . ص : ٤٩ . وكون التقليد بدعة محدثة . انظر : القول المفيد : ص :

٤٥ ، ٤٣ ، ٣٩ .

(٣) أيجد العلوم لصديق بن حسن القنوجي . تحقيق : عبد الجبار زكار . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت .

١٩٧٨م : ١٥٩/٣ .

والَّذِي تَوَلَّى أَمْرَ التَّقْلِيدِ هُمُ الْجَهَّالُ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ فَلَا يَقْدُون ، إِذِ التَّقْلِيدُ لَيْسَ عِلْمًا .

قال ابن عبد البر (رحمه الله) :

" قال أهل العلم والنظر : حدّ العلم التّبيين وإدراك المعلوم على ما هو به ، فمن بان له الشّيء فقد علمه ، قالوا : والمقدّر لا علم له ، ولم يختلفوا في ذلك " . (١)

قال ابن القيم (رحمه الله) معلقاً على قول ابن عبد البر (رحمه الله) :

" فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَخْتَلِفُونَ أَنَّ الْعِلْمَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ الْحَاصِلَةُ عَنِ الدَّلِيلِ ، وَأَمَّا بَدُونُ الدَّلِيلِ فَإِنَّمَا هُوَ تَقْلِيدٌ ... فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحُطٍّ وَافِرٍ ، (٢) وكيف يكون من ورثة الرّسول ﷺ من يجهد ويكدح في ردّ ما جاء به إلى قول مُقلّده ومتبوعه ، ويضيع ساعات عمره في التّعصّب والهوى ولا يشعر بتضييعه ؟ تالله إنّها فتنة عمّت فأعمت ، ورمت القلوب فأصنّمت ، ربا عليها الصّغير ، وهرم فيها الكبير ، واتّخذ لأجلها القرآن مهجوراً ، وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطوراً . ولما عمّت بها البليّة ، وعظمت بسببها الرّزيّة ، بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها ، ولا يعدّون العلم إلّا إيّاه ، فطالب الحقّ من مظانّه لديهم مفتون ، ومؤثّره على ما سواه عندهم مغبون نصبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل ، وبغوا له الغوائل ، ورموه عن قوس الجهل والبغي والعناد ، وقالوا لإخوانهم : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦] " (٣) .

(١) جامع بيان العلم : ص : ٤٤٩ . وانظر : تيسير العزيز الحميد : ص : ٤٨٥ .

(٢) اقتباس من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه الذي مرّ ذكره . ص : ٤٧٠ .

(٣) أعلام الموقعين : ٨-٧/١ .

ولمّا كان المقلّدة ليسوا من أهل العلم أغلق أمامهم باب الوحدة ، واجتماع الكلمة ، وتفرقت بهم الآراء ، وشنت جمعهم المذاهب ، وحلت بهم الفرقة ، وتباينت أقوالهم ، واختلفت مشاربهم ، واتسع الخلاف بينهم ، إذ كلّ منهم تعلّق بقول مقلّده لا ينفك عنه بحال من الأحوال ، وقد يكون ذلك المقلّد بنى قوله على حديث ضعيف لا تثبت به حجة ، أو اجتهد رأياً لا يؤيده دليل ، أو ظنّ ظناً لا مستند له ، وقد يكون في ذلك معذوراً . ولكن ما عذر من تشبّث بقوله ، وأقامه مقام المعصوم الذي لا يخطئ ، ودفع كلّ قول يخالفه ولو كان من عند المعصوم ﷺ ، وهل هذا إلا فتح لباب الشقاق والشّتات والتفرّق بين الأمة الواحدة .

ورحم الله ابن القيم حين قال :

" إنّما كثر الاختلاف وتفاقم أمره بسبب التقليد وأهله ، وهم الذين فرقوا الدّين وصيّروا أهله شيعاً ، كلّ فرقة تتصر متبوعها ، وتدعوا إليه ، وتذمّ من خالفها ، ولا يرون العمل بقولهم حتّى كأنهم ملّة أخرى سواهم ، يدأّبون ويكدحون في الردّ عليهم ، ويقولون : كتبهم وكتبنا ، وأئمّتهم وأئمّتنا ، ومذهبهم ومذهبنا . هذا والنّبي واحد ، والقرآن واحد ، والدّين واحد ، والرّب واحد . فالواجب على الجميع أن ينقادوا إلى كلمة سواء بينهم كلّهم ، وأن لا يطيعوا إلا الرّسول ، ولا يجعلوا معه من يكون أقواله كنصوصه ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . فلو اتّفقت كلمتهم على ذلك ، وانقاد كلّ واحد منهم لمن دعاه إلى الله ورسوله ، وتحاكموا كلّهم إلى السنّة وآثار الصّحابة لقلّ الاختلاف وإن لم يعدم من الأرض . ولهذا تجد أقلّ الناس اختلافاً أهل السنّة والحديث ، فليس على وجه الأرض طائفة أكثر اتّفاقاً وأقلّ اختلافاً منهم لمّا بنوا على هذا الأصل ، وكلّما كانت الفرقة عن الحديث أبعد كان اختلافهم في أنفسهم أشدّ وأكثر ، فإنّ من ردّ الحقّ مرج^(١) عليه أمره ، واختلط عليه والتبس عليه وجه الصّواب ،

(١) مرج : أي اختلط . وبابه طرب . انظر : مختار الصحاح : ص : ٦٢٠ . لسان العرب : ٣٦٥/٢ .

فلم يدر أين يذهب ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق:٥٠] (١) .

ومن هنا كان التقليد مزلقاً من المزالق التي تحرف عن الصراط المستقيم ، والمنهج الحق ، لأنه اتّباع لآراء الرجال ، وتحكيم لأقوالهم في نصوص الشرع العاصمة من الزلل ، المبعدة من الخلاف ، المؤدية إلى الثبات على المنهج (٢) .

(١) أعلام الموقعين : ٢٢٦/٢ . ولمزيد بيان عن التقليد وآئه من أسباب الاختلاف والتفرق ، انظر : القول المفيد : ص: ٤٥-٤٦ . بين متبع ومقلد أعمى في فروع الفقه لعامر سعيد الزبياري . الطبعة الأولى : ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م . دار ابن حزم - بيروت . ص : ٧٦ ، ٨٧ .

(٢) لا يفهم من هذا الطعن في أئمة الإسلام وعلمائه الأجلّاء واحتقارهم وازدراء أقوالهم ، وخاصة الأئمة الأربعة رحمهم الله .

فأهل العلم والأئمة يُجَلَّون ويُقدَّرون ويُعرف لهم فضلهم ومكانتهم وأمانتهم ، فقد كانوا ناصحين لله ورسوله والمسلمين ، وإتّهم أرادوا الحق ، وحرصوا على إبلاغه للناس .

فأقوالهم موضع الاحترام والتقدير ، يستعان بفهمهم ، ويستضاء بنور علمهم لبيان معنى التصوص . فيؤخذ منها ما وافق الدليل ويردّ ما خالفه ، فلا تهدر كلّ أقوالهم ، ولا يسلم لها كلّها . فهم بشر يخطئون ويصيبون ، وهم معذورون فيما ذهبوا إليه بل مأجورون ، لقوله ﷺ : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " . - البخاري : ص : ١٥٤٣ . برقم (٧٣٥٢) . مسلم : ١٣٤٢/٣ . برقم : (١٧١٦) - فهم أرادوا الحق ، وسعوا إليه ، واجتهدوا في الوصول إليه ، ولكن لا يعني هذا قبول كلّ ما قالوه ، فقد يقع منهم الخطأ والقفرة . ولذا نوا عن تقليدهم وحذروا منه .

قال الشافعي (رحمه الله) : " أجمع الناس على أنّ من استبان له سنة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس " - أعلام الموقعين : ٢٨٢/٢ - فأقوالهم تعرض على التصوص وتوزن بميزانها ، وفي هذا اقتداء بهم ، لأنّهم أوصوا بالتمسك بالتص ، وعرض أقوالهم عليه فما أيده أخذ ، وما عارضه ردّ . قال مالك (رحمه الله) : " ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ " - معجم الطبراني الكبير : ٣٣٩/١١ - وهم ما بلغوا منزلة الإمامة في الدين إلا لتباعهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . والمسلم يأخذ بكلّ قول وافق الدليل ولا يعين أحداً بعينه ، وينصب أقواله بأنّها الحق لا سواه ، بل ضالّته الحقّ أينما وجده أخذه .

ولمزيد بيان في هذا الجانب : انظر : مجموع الفتاوى : ٢٤٩/٢٢ . أعلام الموقعين : ٢٠٩/٢ ، ٢٩٥/٣ . الروح : ص: ٢٦٤ . القول المفيد : ٤٢ ، ٥٤ - ٦١ .

قال الشَّاطِبي (رحمه الله) :

" ولقد زلَّ بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرِّجال أقوام خرجوا بسبب ذلك عن جادة الصَّحابة والتَّابعين ، واتَّبَعُوا أهواءهم بغير علم فضلَّوا عن سواء السَّبيل " . (١)

فالأخذ بالدليل الشرعي من الكتاب والسنة دون الالتفات إلى قول من خالفه من أهل العلم مهما كانت منزلته هو الحقَّ العاصم من الزيغ ، إذ نحن متعبَّدون بكلام الله ورسوله لا بأقوال البشر .

وأقوال أهل العلم لا تجعل أصلاً تحمل عليه الأدلة بل هي تابعة لا متبوعة . ومن الخلل في المنهج أن تعظم تلك الأقوال ويتعدَّى بها مقامها ، وتسخر النصوص لخدمتها ، بل تلوى أعناقها لتصبَّ في مصبِّها ، دعك عن التَّبريرات والتَّأويلات الباردة . وتعظم المصيبة إن كان المُبرِّر لقوله من المنظرين الذين خلا وفاضهم من علم الكتاب والسنة ، من المتربِّعين على قمم الجماعات المنتسبة للإسلام ، أو الأحزاب التي ضجَّ منها أهل الإسلام ، والتي شوَّهت جماله وذهبت ببهائه . والتي دفعت فئة عظيمة من أمة الإسلام إلى الانحراف عن المنهج القويم ، وتتكبَّ سلوك الصراط المستقيم .

(١) الاعتصام : ٣٤٧/٢ .

﴿المطلب الخامس﴾

التأويل بغير حجة

قال الراغب الأصفهاني (رحمه الله) :

" التأويل من الأول أي الرجوع إلى الأصل ، ومنه المَوْتَلُ للموضع الذي يُرْجَع إليه ، وذلك هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه ، علماً كان أو فعلاً ، ففي العلم نحو : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٧] وفي الفعل كقول الشاعر : وللنوى قبل يوم البين تأويل " (١) .

وقد صار لفظ التأويل بتعدد الاصطلاحات مستعملاً في ثلاثة معان :

الأول : التأويل في كتاب الله وسنة رسوله ، وهو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام . فإن الكلام نوعان : خبر وطلب ، فتأويل الخبر : هو عين المخبر به كقول يوسف عليه السلام : ﴿ يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠] .

وتأويل الأمر : هو نفس الفعل المأمور به ، كقول عائشة (رضي الله عنها) : " كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي " . يتأول القرآن " . (٢)

(١) المفردات : ص : ٣١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه — إلا إنها قالت : " كان النبي " — في : كتاب الأذان (الصلاة) : (٥/١٠) . باب التسييح والدعاء في السجود : (٢٩٠/١٣٩) . برقم: (٨١٧) . ص : ١٧٩ . ولفظ مقارب في: باب الدعاء في الركوع : (٢٧٤/١٢٣) . برقم: (٧٩٤) . ص : ١٧٥ . وفي كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب : (٥٢/٥١) . برقم: (٤٢٩٣) . ص : ٨٩٣ . ونحوه في: كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . باب سورة إذا جاء نصر الله : (١) . برقم: (٤٩٦٧ ، ٤٩٦٨) . ص : ١٠٩٦ . صحيح مسلم: بلفظه و بلفظ مقارب في: : كتاب الصلاة : (٤) . باب ما يقال في الركوع والسجود : (٤٢) . برقم: (٤٨٤) . ٣٥٠/١ - ٣٥١ .

الثاني : التّأويل عند السّلف من أهل التّفسير والفقه والحديث مراد به تفسير الكلام وبيانه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، وهو يحمّد حقّه ويردّ باطله ، كقول ابن جرير (رحمه الله) : " القول في تأويل قوله تعالى كذا " : يريد تفسيره . وكقول الإمام أحمد (رحمه الله) في الردّ على الجهميّة : " فيما تأولته من القرآن على غير تأويله " : أي على غير تفسيره .

الثالث : التّأويل في اصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلّمين في الفقه وأصوله وغيرهم : وهو صرف اللفظ عن ظاهره ومعناه الرّاجح إلى معنى محتمل مرجوح لدليل يقتدر به .^(١)

فالتّأويل الذي يوافق ما دلّت عليه النّصوص وجاءت به السنّة ويطابقها هو التّأويل الصّحيح ، والتّأويل الذي يخالف ما دلّت عليه النّصوص وجاءت به السنّة هو التّأويل الفاسد .^(٢)

والحديث يرتكز هنا على النوع الثالث من أنواع التّأويل وهو ما عرف في اصطلاح المتأخرين ، وهو أمر محدث لا عهد للسّلف به ، ومنه المذموم المخالف لأدلة الكتاب والسنّة ، والذي سلّطه أهل البدع والضلال على نصوص الوحي فحرقوها ، ومالوا بها عن حقائقها ومراد الله ورسوله منها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :
" وأما التّأويل المذموم والباطل فهو تأويل أهل التّحريف والبدع الذين يتأولونه على غير تأويله ، ويدّعون صرف اللفظ عن مدلوله إلى غير مدلوله

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ٥٧-٥٥/٣ . الصّواعق المرسلة : ١٧٦/١-١٧٨ . شرح العقيدة الطحاوية : ص :

٢٣٢-٢٣٤ . طبعة المكتب الإسلامي .

والاصطلاح الثالث هو الذي دأب عليه المتأخرون في تعريف التّأويل . انظر : التعريفات : ص : ٧٢ . التوقيف على مهمّات التعاريف : ص : ١٥٦-١٥٧ . ولذا ضربت صفحاً عن ذكر تعريفهم عند مبدأ تعريفي للتّأويل ،

واكتفيت بتعريف الرّاجب الأصفهاني (رحمه الله) .

(٢) الصّواعق المرسلة : ١٨٧/١ .

بغير دليل يوجب ذلك ، ويدّعون أن ظاهره من المحذور ما هو نظير المحذور اللازم فيما أثبتوه بالعقل ، ويصرفونه إلى معان هي نظير المعاني التي نفوها عنه ، فيكون ما نفوه من جنس ما أثبتوه ، فإن كان الثابت حقاً ممكناً كان المنفي مثله ، وإن كان المنفي باطلاً ممتنعاً كان الثابت مثله " (١) .

وأصل إرث هذا التّأويل من اليهود عليهم لعائن الله الذين وسمهم الله بالتحريف في آيات كثر منها قوله تعالى : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [النساء: ٤٦] . وقوله سبحانه : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣] .

والتحريف نوعان : تحريف لفظ وتحريف معنى ، والثاني منها هو التّأويل ، وهو كثير ، وقد ابتليت به طوائف من هذه الأمة . (٢)

وقد فتحوا به الباب على مصراعيه ليلج منه كلّ مشرك ومبتدع وضال فيعمل عقله في نصوص الوحي ، ويواجهها بالتّأويلات الباطلة ، ويصرفها إلى المعاني المنحرفة ليصل إلى بغيته وهواه .
والشرع إذا أحيل للتّأويل انحلت عراه ، ووهى أمره ، ولا يشاء أحد من أهل الضلال أن يأول نصّاً فيحرفه إلى ما يريد إلاّ وجد إلى ذلك سبيلاً ، إذ لا قاعدة تضبط ما يسوّغ تأويله ممّا لا يسوّغ .

(١) مجموع الفتاوى : ٦٧/٣ .

(٢) انظر : اقتصاد الصّراط المستقيم : ص : ٨ . الصّواعق المرسلة : ٢١٥/١-٢١٧ . وللوقوف على تلك الطوائف التي وقعت في التّأويل فحرّفت به معاني التصوّص عن مراد الشّارع بها ، انظر : مجموع الفتاوى : ٢٨٧/١٣ .

قال ابن أبي العز (رحمه الله) مخاطباً من كان سبباً في نشأة هذه البدعة

الضالة :

" فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين لا تقدرون على سده ، فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالاته المفهومة بغير دليل شرعي ، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ ؟ . فإن قلتم ما دل القاطع العقلي على استحالاته تأويلناه وإلا أقررناه . قيل لكم : وبأي عقل نزن القاطع العقلي ؟ فإن القرمطي الباطني يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع ، ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد ، ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع روية الله تعالى ، وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى ، وباب التأويلات التي يدعي أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تحصر في هذا المقام ، ويلزم حينئذ محذوران عظيمان :

أحدهما : أن لا نقر بشيء من معاني الكتاب والسنة حتى نبحت قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل ، وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه ، فيؤول الأمر إلى الحيرة المحذورة .
الثاني : أن القلوب تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به الرسول ، إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد ، والتأويلات مضطربة ، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد ، وخاصة النبي هي الإنباء ، والقرآن هو النبأ العظيم ، ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد ، إن وافقت ما دعوا أن العقل دل عليه قبلوه ، وإن خالفته أولوه ، وهذا فتح باب الزندقة . نسأل الله العافية " (١)

بل تصبح النصوص عند هؤلاء لا وزن لها ولا قيمة ، يتلاعب بها ، وتنتهك حرمتها ، وتسلب عليها أمواج التأويلات ، وتتقاذفها رياح الآراء ،

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٢٣٦-٢٣٧ . طبعة المكتب الإسلامي .

وتحتوشها رماح الأهواء ، وتتخطفها أيدي الاحتمالات ، وتصادم بأنواع الإشكالات ، وتجرد عن اليقين ، وتصبح عرضة لمطاعن الطاعنين ، وهل يفسد الدين إلا بهذا المسلك المهين ؟ (١) .

يقول شارح الطحاوية (رحمه الله) :

" وهذا الذي أفسد الدنيا والدين ، وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل ، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم ، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم ، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية ، فهل قتل عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد ، وكذا ما جرى في يوم الجمل وصفين ، ومقتل الحسين ، والحرّة ، وهل خرجت الخوارج ، واعتزلت المعتزلة ، ورفضت الروافض ، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إلا بالتأويل الفاسد ؟ " (٢) .

(١) وانظر : الصواعق المرسلة : ٢٩٧/١ - ٢٩٨ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٢٠٤ . طبعة المكتب الإسلامي .

وقد عقد الإمام ابن القيم (رحمه الله) فصلاً في كتابه القيم : الصواعق المرسلة بعنوان : حناية التأويل على أديان الرسل ، وأنّ خراب العالم وفساد الدنيا والدين بسبب فتح باب التأويل . وأفاض (رحمه الله) في بيان ذلك وإيضاحه بإسلوب بليغ رصين ، كشف من خلاله خطر التأويل وحنايته على الدين ، وما أحدثه من مفساد عظيمة يتصدع لها قلب المسلم . وقد ختم ذلك بقوله : " فقاتل الله التأويل الباطل وأهله ، وأخذ حق دينه وكتابه ورسوله وأنصاره منهم ، فماذا هدموا من معقل الإسلام ، وهذّوا من أركانه ، وقلعوا من قواعده ؟ ولقد تركوه أرق من الثوب الخلق البالي الذي تطاولت عليه السنون ، وتوالت عليه الأهوية والرياح . ولو بسطنا هذا الفصل وحده ، وما جناه التأويل على الأديان والشرائع وخراب العالم لقام منه عدّة أسفار ، وإنّا نبهنا تنبيهاً يعلم به العاقل ما وراءه وبالله التوفيق " انظر : ٣٤٨/١ - ٣٨١ .

وانظر في ذلك أيضاً كتابه : أعلام الموقعين : ٢٥٠/٤ - ٢٥٤ . فقد عقد فيه فصلاً مشابهاً ، بين من خلاله حناية التأويل على الأمم . بل نظم ذلك في قصيدته التوثية بما يزيد على أربعين بيتاً ، ذكر فيها ما وقع في الأمة من فتن وبلايا بسبب التأويل . ثم قال : وجميع ما في الكون من بدع ***** وأحداث تخالف موجب القرآن

فأساسها التأويل ذو البطلان ***** لا تأويل ، أهل العلم والإيمان

إذ ذاك تفسير المراد وكشفه ***** وبيان معناه إلى الأذهان .

انظر : معن القصيدتين التوثية والميمية لابن القيم . الناشر : مكتبة ابن تيمية - القاهرة . ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م :

ص : ٧٩ - ٨٠ .

فمن أعظم جنايته على الأمة الإسلامية أن كان من أسباب التفرّق والاختلاف الذي عانت منه الأمة الأمرين . فقد سلّطت كلّ فئة من المأوّلّة تأويلاتها على آيات القرآن وأخبار الرّسول ﷺ التي تعلّق بها المختلفون على اختلاف أصنافهم ، وذهب كلّ منهم فيها مذهب الذي يهواه ، فأوجب ذلك من التّبّابين والتّفرّق ما الله أعلم به ، حيث تصدّع الشّمل ، وانقطع جبل الود ، وفسدت ذات البين ، ووقعت الخصومة ، وبلغت مدى استحلّت فيه الأنفس والحرّم والأموال ، وما هو أشنع وأعظم .^(١)

وقد فارق هؤلاء منهج السّلف رحمهم الله الذين اعتصموا بنصوص الوحي فلم يسوموها تأويلاً ، ولم يعصفوا بها تحريفاً وتبديلاً ، بل سلّموا لها القياد ، لعلمهم أنّه " لا تثبت قدم الإسلام إلّا على ظهر التّسليم والاستسلام ، فمن رام علم ما حظر عنه علمه ، ولم يقنع بالتّسليم فهمه ، حجة مرأته عن خالص التّوحيد ، وصافي المعرفة ، وصحيح الإيمان ، فيتنذبذّب بين الكفر والإيمان ، والتّصديق والتّكذيب ، والإقرار والإنكار ، موسوساً تائهاً ، شاكاً ، لا مؤمناً مصدّقاً ، ولا جاحداً مكذّباً " .^(٢)

ولا يسلم من ذلك إلّا بترك التّأويل ، ولزوم التّسليم ، وعليه دين المسلمين .^(٣)

وقد سلّم السّلف رحمهم الله من هذا التّأويل الذي هو تحريف ، فعافاهم الله من الانحراف والزّيغ ، وأخذ بأيديهم إلى طريق السّلامة ، وأغناهم بنصوص الوحيين عن تأويلات الآراء ، وتوهّمات الأهواء ، لأنّهم علموا أنّ فتح هذا الباب

(١) انظر : الصّواعق المرسلة : ٣٤٨/١ .

(٢) معن العقيدة الطّحاوية : ص ١٠ .

(٣) المرجع السّابق : ص: ١٠ بتصرّف .

يجرف عن المنهج الحق ، ويبعد عن الطريق المستقيم ، ويزرع القلوب عن ثباتها .

قال ابن أبي العز (رحمه الله) في معرض حديثه عن مضار التّأويل :
" إنّ القلوب تتخلّى عن الجزم بشيء تعتقده ممّا أخبر به الرّسول ، إذ لا يوثق بأنّ الظّاهر هو المراد ، والتّأويلات مضطّربة ، فيلزم عزل الكتاب والسّنة عن الدّلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد".^(١)

ولذا كفّوا رحمهم الله عن الخوض فيه ، وتجنّبوه ، وحذّروا منه ، وألّفوا في ذلك الكتب الدّائمة له .^(٢) وحمدوا الله على السّلامة منه .

وفي ذلك يقول ابن القيم (رحمه الله) :
" فاحمد إلهك أيّها السّنيّ إذ عافاك من تحريف ذي بُهتان والله ما يرضى بهذا خائف من ربّه أمسى على الإيمان هذا هو الإلحاد حقّاً بل هو التّحريف محضاً أبرد الهذيان والله ما بليّ المجسّم قطّ ذي ال بلوى ولا أمس بذوي الخذلان أمثالُ ذا التّأويل أفسد هذه الأديان حين سرى إلى الأديان والله لولا الله حافظ دينه لتهدّمت منه قوَى البنيان".^(٣)
فالتّأويل المنحرف مزلق عظيم لمن سلكه ، يحرف عن المنهج الحق ، ويؤدّي إلى الزيغ عن الصّراط المستقيم ، لأنّه يناهض مراد الله تعالى ورسوله ﷺ من نصوص الوحي ، ويعرضها لتوهّمات العقول ، وسقطات الآراء .

(١) شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٣٦ . طبعة المكتب الإسلامي .

(٢) مثل كتاب : ذمّ التّأويل لابن قدامة .

(٣) متن القصيدتين التّوحيّة والميمية : ص : ١٩-٢٠ .

﴿المطلب السادس﴾

اتباع المتشابه

قال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾

[آل عمران: ٧] .

لقد تباينت أقوال أهل العلم في المراد من الآيات المحكمة والمتشابهة في هذه الآية :

القول الأول : المحكمة هي المعمول بها : وهي النسخة أو المثبتة للأحكام ، والمتشابهة هي المتروك العمل بها أو المنسوخة .

الثاني : المحكمة هي ما أحكم الله فيه بيان حاله وحرامه ، والمتشابهة هي ما أشبه بعضه بعضاً في المعاني وإن اختلفت ألفاظه .

الثالث : المحكمة هي التي لم تحتل من التأويل غير وجه واحد ، والمتشابهة ما احتل أوجه من التأويل .

الرابع : المحكمة هي ما أحكمه الله في القرآن من قصص الأمم ورسولهم ، ففصله ببيان ذلك لمحمد ﷺ وأُمَّته ، والمتشابهة ما اشتبهت فيها ألفاظ قصصهم عند التكرار في السور ، حيث وردت بعضها باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني ، وبعضها باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني .

الخامس : المحكمة هي التي عرف العلماء تأويلها ، وفهموا معناها وتفسيرها ، والمتشابهة هي التي استأثر الله بعلم تأويلها دون خلقه .^(١)

السادس : المحكمة هي البيّنة المعنى ، الواضحة الدلالة ، والمتشابهة هي التي لم يتّضح معناها أو تشّبه دلالتها عند كثير من الناس أو بعضهم . وهذا القول الأخير هو الذي يترجّح ، لأنّه شامل لما تقدّم من أقوال ، جامع لها ، إذ كان كلّ قول يعرف المحكم ببعض صفاته ، ثمّ يعرف المتشابه بما يقابلها فجاءت تعريفات المحكم والمتشابه فيها ببعض جوانبه.^(٢) .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" يخبر تعالى أنّ في القرآن آيات محكمات ، هنّ أمّ الكتاب ، أي بيّنات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات آخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن ردّ ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه

(١) انظر : جامع البيان : ١٧٢/٣-١٧٤ . طبعة دار الفكر . وانظر : معالم التّزويل : ٢٨٧/١-٢٧٩ .

(٢) وانظر : فتح القدير : ٣١٤-٣١٥ . وقد أفاض (رحمه الله) في الردّ على تلك الأقوال .

لقد وصف الله سبحانه وتعالى القرآن كلّهُ بأنّه محكم فقال : ﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمَتْ أَيْشُهُ ثُمَّ فَصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] . أي أتقنت وأحسنّت ، صادقة في أخبارها ، عادلة في أوامرها ونواهيها ، فصيحة في ألفاظها ، بهيّة في معانيها .

تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٣٢ . بتصرّف . وانظر : جامع البيان : ١٧٩/١١-١٨٠ . طبعة دار الفكر . معالم التّزويل : ٣٧٢/٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢/٩-٣ . أنوار التّزويل : ٢/٢١٩ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٦٧٥ فتح القدير : ٤٨٠/٢ . كما وصفه سبحانه بأنّه متشابه فقال : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ

كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزّمر:٢٣] . أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن والإحكام والإتقان ، ويصدّق بعضه بعضاً في الائتلاف والاتّفاق ، إذ لا تناقض بين آياته ولا اختلاف . انظر : جامع البيان : ٢٣/٢١٠ . طبعة دار الفكر . معالم التّزويل : ٤/٧٦ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥/٢٤٩ . أنوار التّزويل : ٥/٦٤ . تفسير القرآن العظيم : ٤/٧٧-٧٨ . فتح القدير : ٤/٤٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٦٦٨ .

والتشابه الموجود هنا في آية الزّمر لا يخالف الإحكام الموجود في آية هود بل هو موافق ومصدّق له ، وليس هو الإحكام والتشابه الموجود في آية آل عمران فذلك نوع آخر . وهو الذي أودّ الحديث عنه .

على متشابهه عنده ، فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ، ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ أي تحتل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد " (١) .

فإذا تبين لنا معنى المتشابه مما سبق نجد أن الله سبحانه وتعالى ذم في الآية السابقة فئة من الناس مرضت قلوبهم ، وساء قصدهم ، يتبعون المتشابه ليستدلوا به على مذاهبهم الباطلة ، وأهوائهم الزائفة ، ومناهجهم المنحرفة ، إكذاء للفتن ، وتحريفاً لكلام الله ، فضلّوا وأضلّوا وانحرفوا عن الصراط المستقيم ، والمنهج القويم . وهم الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله في حديث عائشة (رضي الله عنها) بعد أن تلا الآية السابقة . قال : " إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم " (٢) .

وجاء تحذير الصحابة ﷺ والتابعين (رحمهم الله) وأهل العلم منهم ، ومن ضلال مسلكهم ، وانحراف وجهتهم .

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ﴾ فيحملون المحكم على المتشابه ، والمتشابه على المحكم ، ويلبسون ، فلبس الله عليهم " .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥١٧/١ . وانظر : تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٠١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه — إلا إنه قال : " فإذا رأيت " — في كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ مِنْهُ ﴾

ءَايَاتٍ مُحْكَمَاتٍ ﴿ [آل عمران: ٧] : (١) . برقم: (٤٥٤٧) . ص : ٩٤٨ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب العلم : (٤٧) . باب التهي عن اتباع متشابه القرآن : (١) . برقم: (٢٦٦٥)

٢٠٥٣/٤ .

وقال محمد بن جعفر بن الزبير (رحمه الله) ^(١) :

" ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ أي ما تحرف منه وتصرف ، ليصدقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا ، ليكون لهم حجة على ما قالوا وشبهة " ^(٢).

وقال ابن جرير (رحمه الله) :

" فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق ، وانحرف عنه ... ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ ما تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه بوجوه التأويلات ، ليحققوا بادعائهم الأباطيل من التأويلات في ذلك ما هم عليه من الضلالة والزيغ عن محبة الحق ، تلبساً منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريف معانيه " ^(٣).

وقال الشوكاني (رحمه الله) :

" وهذه الآية تعم كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق ... يتعلقون بالمتشابه من الكتاب فيشككون به على المؤمنين ، ويجعلونه دليلاً على ما هم فيه من البدعة المائلة عن الحق ، كما تجده في كل طائفة من طوائف البدعة ، فإنهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعباً شديداً ، ويوردون منه لتلقيق جهلهم ما ليس من

(١) محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي ، المدني . ثقة ، من فقهاء أهل المدينة وقرائهم . مات بضعة عشرة ومائة .

و انظر : طبقات خليفة : ص : ٢٦٠ . التاريخ الكبير : ٥٤/١ . الجرح والتعديل : ٢٢١/٧ . ثقات ابن حبان : ٣٩٤/٧ . التعديل والتحريج : ٦٢٢/٢ . تهذيب الكمال : ٥٧٩/٢٤ . الكاشف : ١٦١/٢ . تهذيب التهذيب : ٨١/٩ . تقريب التهذيب : ٤٧١/١ .

(٢) هذان الأثران أوردهما الإمام ابن جرير (رحمه الله) في جامع البيان : ١٧٧/٣ . طبعة دار الفكر .

(٣) المرجع السابق : ١٧٦/٣ . نفس الطبعة .

الدلالة في شيء ... طلباً لتأويله على الوجه الذي يريدونه ليوافق مذاهبهم
الفاسدة " (١).

وهؤلاء المبتدعة بهذا المسلك انصرفوا عن جادة الصواب ، وطريق الحق ،
وفارقوا أهل السنة والجماعة .

قال الشاطبي (رحمه الله) :

" فتأملوا وجه اتباع المتشابهات ، وكيف أدى إلى الضلال والخروج عن
الجماعة " (٢).

و هم بذلك جانبوا الثبات على منهج رسول الله ﷺ وفارقوه .

(١) فتح القدير : ٣١٥/١ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٣/٤ أنوار التتزيل : ٧/٢ . تفسير القرآن العظيم :

٥١٧-٥١٨ . تيسير الكريم الرحمن : ص: ١٠١ . وانظر الاعتصام : ٢٢٠/١-٢٢١ ، ٢٣٣ .

ومن ذلك ادعائهم أن الآيات والأحاديث التي ثبتت صفات الله تعالى كما يليق به أنها من المتشابه الذي يجب
تأويله ، ثم سلطوا عليها معاول التأويل الذي هو تحريف وتغيير ، فصرفوها عن مراد الله منها . فوجه الله ذاته ،
ويد الله قدرته ، ونزوله نزول أمره ، واستواؤه استيلاؤه هكذا — زعموا — وغير ذلك كثير ، وقد أضلوا بذلك
عدداً عظيماً من المسلمين لا يستهان به . والأصل في هذا الباب أن يثبت لله ما أثبتته لنفسه من أسمائه الحسنة
وصفاته العلى ، وما أثبتته له رسوله ﷺ من غير تعطيل ولا تكييف ولا تأويل ولا تمثيل ، وهذا مذهب السلف
الذي ثبتوا وظلوا عليه .

وزعمهم بأنها من المتشابه يستفصلون في ذلك لمعرفة مرادهم ، فإن أرادوا حقائقها وكيفياتها ، فذلك قول
صحيح لأنه لا أحد يعلم كنه صفاته الله وكيفياتها وحقائقها إلا هو . وإن أرادوا بذلك معانيها فإن السلف رحمهم
الله يعرفون معانيها ، ويفرقون بين صفة وأخرى ، فالسمع ليس هو البصر ، والعلم ليس هو القدرة ، فإثمهم لا
يفرغون في معاني الصفات وإنما يفرضون في كيفياتها .

ولذا قال مالك (رحمه الله) لما سئل عن قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾

[طه:٥] فقال : " الاستواء معلوم — أي معناه في اللغة — والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه

بدعة " . وانظر : مجموع الفتاوى : ٥٨-٥٩ ، ٦٥-٦٦ . الصواعق المرسلة : ٢١٠/١ . وقول مالك

(رحمه الله) منسوب أيضاً إلى ربيعة بن عبد الرحمن (رحمه الله) . انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة :

٣٩٨/٣ .

(٢) الاعتصام : ٢٣٤/٢ .

وثبت عليه قوم آخرون هم أهل العلم الراسخون فيه ، أي الثابتون فيه ، الذين استقرّ اليقين في قلوبهم ، وملاً الإيمان أفندتهم فعلموا أن القرآن كله حق من عند الله تعالى ، ما كان منه محكماً أو متشابهاً ، فقد علموا معنى المحكم منه ووضحت لهم دلالاته ، وردّوا المتشابه إليه فعاد الجميع محكماً في حقهم ، وما عجزوا عنه من معرفة تأويل المتشابه وكلوا علمه إلى الله ، فلم يقحموا فيه عقولهم ، ولم يصرفوه بأهوائهم كفعل أهل الابتداع ، وذلك لكمال عقولهم وصفاء أذهانهم ، فهم أولوا الأبواب والنهى . ومع ذلك دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الحق ، وأن يظلّوا على الطريق المستقيم ، وألاّ يُميل قلوبهم ويصرفها عن الحق إلى الباطل فينحرفوا عن صراط الله ، كما مالت قلوب الذين اتّبعوا المتشابه فزاعوا عن المنهج القويم .

وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١) رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٢﴾ [آل عمران: ٧-٨] (١)

وفي الآية قراءتان : قراءة من يقف على اسم الجلالة ، وهم أكثر أهل العلم ويكون قوله ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ كلاماً مستأنفاً مقطوعاً عما قبله ، ويكون المراد بالمتشابه هنا ممّا استأثر الله بعلمه ممّا لم يُطلع الله عليه أحداً من خلقه ، كعلم الساعة ، وخروج الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام . ويكون معنى التأويل هنا هو الحقيقة التي يؤول إليها الأمر الذي لا يعلمه إلا الله .

(١) وانظر : جامع البيان : ١٧٦/٣-١٨٦ . طبعة دار الفكر . معالم التنزيل : ٢٧٩/١ . الجامع لأحكام القرآن : ١٩/٤-٢٠ . تفسير القرآن العظيم : ٥٢١/١ . فتح القدير : ٣١٥/١ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٠٢ . وانظر : الاعتصام : ٢٢٠/١ .

والقراءة الثانية قراءة من عطف قوله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ على اسم الجلالة ، فيكون الراسخون ممن يعلم تأويل المتشابه ، ويكون المراد بالمتشابه هنا أمراً نسبياً إضافياً يشته به على بعض الناس دون البعض الآخر ، ويراد بالتأويل هنا التفسير والبيان . فخص الله الراسخين في العلم بتأويل المتشابه دو سواهم .^(١)

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله " .^(٢) وهو الذي دعا له رسول الله ﷺ بقوله : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " .^(٣)

ومن هنا يتبين لنا أن اتباع المتشابه ، وعدم ارجاعه إلى المحكم في دين الله مزلق خطير ، يؤدي إلى عدم الثبات على المنهج الحق ، والانحراف عنه ، ولا يثبت إلا من حكم المحكم في المتشابه ، وآمن بأن الجميع من عند الله تعالى .

(١) وانظر : جامع البيان : ١٨٢/٣-١٨٦ . طبعة دار الفكر . معالم التنزيل : ٢٨٠/١ . الجامع لأحكام القرآن : ١٨١٦/٤ . أنوار التنزيل : ٩-٨/٢ . تفسير القرآن العظيم : ٥٢٠/١-٥٢١ . فتح القدير : ٣١٥/١ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ١٠٢ . وانظر : ذم التأويل لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي . تحقيق : بدر بن عبد الله البدر . طبعة : الدار السلفية . الكويت . الطبعة الأولى : ١٤٠٦ هـ . وقد أفاض (رحمه الله) في سياق الحجج على أن الوقوف عند اسم الجلالة ، وأن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه . ص : ٣٧-٤٠ . مجموع الفتاوى : ٦٦٨-٦٦٩/٣ . أعلام الموقعين : ٣٣٢/١ . شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٢٣٣-٢٣٥ . طبعة المكسب الإسلامي . تيسير العزيز الحميد : ص : ٥١٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٥٢٠/١ .

(٣) مسند أحمد : بلفظه في : ٢٦٦/١ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ . قال أحمد شاكر (رحمه الله) : " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر : ١٢٧/٤ ، ٣١٦ ، ٤١٠/٥ ، ٤١٠/٥ . برقم : (٢٣٩٧ ، ٢٨٨١ ، ٣٠٣٣ ، ٣١٠٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : بلفظه في : باب ذكر وصف الفقه والحكمة اللذين دعا المصطفى ﷺ لابن عباس بما . برقم : (٧٠٥٥) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح على شرط مسلم " . ٥٣١/١٥ . مستدرک الحاكم : بلفظه في : ٦١٥/٣ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . وقال الذهبي (رحمه الله) : " صحيح " .

وأصل هذا الحديث في الصحيحين :

صحيح البخاري : كتاب الوضوء : (٤) . باب وضع الماء عند الخلاء : (١٠) . برقم : (١٤٣) . ولفظه : " اللهم فقهه في الدين " . ص : ٥٠ . صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : (٤٤) . باب فضائل عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) : (٣٠) . برقم : (٢٤٧٧) . ولفظه : " اللهم فقهه " . ١٩٢٧/٤ .

﴿المطلب السابع﴾

الجدال المذموم

الجدال والجدل هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتلته ، فكأن المتجادلين يقتل كل واحد الآخر عن رأيه ، وقيل : الأصل في الجدال الصّراع ، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصّلبة .^(١)

وفي الاصطلاح : دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة ، أو يقصد به تصحيح كلامه ، وهو الخصومة في الحقيقة .^(٢)

وقيل : هو التّخاصم بما يشغل عن ظهور الحقّ ووضوح الصّواب ، ثمّ استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود إن كان للوقوف على الحقّ وإلا فمذموم .^(٣)

فهو قد يكون محموداً إذا تعلّق بإظهار الحقّ وإيضاحه ، وبذلك أمر النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَجَدَلْهُمْ بآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [التّحل: ١٢٥] . وقد يكون مذموماً إذا شغل عن ظهور الحقّ ووضوح الصّواب .

(١) المفردات : ص : ٨٩-٩٠ بتصرّف .

(٢) التعريفات : ص : ١٠٢ وانظر الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة لأبي يحيى زكريا بن محمّد الأنصاري . تحقيق :

مازن المبارك . طبعة : دار الفكر المعاصر . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١١ هـ : ص : ٧٣ .

(٣) التوقيف على مهمّات التعاريف : ص : ٢٣٤ .

وقد نشأ علم يسمّى بعلم الجدل . قالوا في تعريفه : هو علم باحث عن الطّرق التي يقتدر بها على إبرام أيّ وضع أريد ، ونقض أيّ وضع كان . وهو من فروع علم التّظنّ ومبنى لعلم الخلاف . مأخوذ من الجدل الذي هو أحد أجزاء مباحث المنطق ، لكنّه حصّ بالعلوم الدّينيّة . ومبادئه بعضها أمور مبيّنة في علم التّظنّ ، وبعضها خطابيّة ، وبعضها أمور عاديّة . وله استمداد من علم المناظرة المشهور بأداب البحث ، وموضوعه تلك الطّرق . والغرض منه : تحصيل ملكة النقض والإبرام والهدم والإحكام . أيجد العلوم : ٢٠٨/٢ .

قال الذهبي (رحمه الله) :

" فإن كان الجدل للوقوف على الحق وتقريره كان محموداً ، وإن كان في مدافعة الحق ، أو كان جدالاً بغير علم كان مذموماً ، وعلى هذا التفصيل تنزل النصوص الواردة في إباحته وذمه " . (١)

والحديث هنا ينصب على النوع المذموم منه إذ هو من الأسباب التي تؤدي إلى الانزلاق عن المنهج وعدم الثبات عليه .

وقد ذم الله سبحانه أقساماً من الجدل في كتابه :

فذم الجدل بغير علم ، فقال تعالى : ﴿ هَاتُتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٦] .

وذم الجدل بالباطل ، فقال عن الأمم المكذبة لرسله ، ﴿ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥] .

وذم الجدل في آياته ، فقال سبحانه : ﴿ مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴾ [غافر: ٤] . وقال : ﴿ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥] . وقال : ﴿ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ ﴾ [الشورى: ٣٥] .

(١) كتاب الكبائر للإمام الذهبي . طبعة : دار الندوة الجديدة . بيروت : ص : ٢٢٢ . وانظر : نضرة التعيم :

كما ذم سبحانه الجدل في الله فقال : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ
شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣] ^(١) . وقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣] ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ
فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج: ٨] .

ومن الأحاديث المحذرة عن الجدل المذموم قوله ﷺ في حديث أبي أمامة
الباهلي ؓ : " ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا رسول
الله ﷺ هذه الآية ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨] . ^(٢)

وحديث عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية :
﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ
مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ
وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ
كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧] .

(١) انظر : درء التعارض : ٤٧/١ - ٤٨ .

(٢) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة الزخرف : (٤٣) . برقم: (٣٢٥٣)

وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . وقال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص : ٥١٦ .

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: المقدمة . باب اجتناب البدع والجدل : (٧) . برقم: (٤٨) . قال الألباني
(رحمه الله): " حسن " . ص : ٢٣ .

مسند أحمد: بلفظه — إلا إنه لم يذكر رسول الله ﷺ — في : ٢٥٢/٥ . و بلفظ مقارب في: ٢٥٦/٥ .
مستدرک الحاكم: بلفظ مقارب في: ٤٨٦/٢ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . وقال الذهبي
(رحمه الله): " صحيح " .

معجم الطبراني الكبير: بلفظ مقارب في: ٢٧٧/٨ . وقال محقق جامع الأصول : "إسناده صحيح" . ٧٤٩/٢ .

فقال : " يا عائشة : إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله
فاحذروهم " . (١)

وأما الآثار التي وردت عن السلف رحمهم في ذمّ الجدل الباطل وذمّ أهلّه
فهي كثيرة تفوق حدّ الحصر ، من ذلك :

قال عمر رضي الله عنه :

" إنّه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسّنن ، فإنّ أصحاب
السّنن أعلم بكتاب الله " . (٢)

وقال ابن عباس (رضي الله عنهما) :

" أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم بما
هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات " (٣)

وقال أبو قلابة رضي الله عنه :

" لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ، فإنّي لا آمن أن يغمسوكم في
الضلالة ، أو يلبّسوا عليكم ما كنتم تعرفون " . (٤)

(١) هذا الحديث سبق تخريجه من الصحيحين . انظر : ص : ٩١٦ . ولكنه بهذا اللفظ في : سنن ابن ماجه : المقدمة .

باب اجتناب البدع والجلد : (٧) . برقم : (٤٧) . قال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٢٣ .

(٢) سنن الدارمي : باب التورّع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنة . ٦٢/١ . انظر : شرح أصول اعتقاد أهل
السنة : ١٢٣/١ .

(٣) المرجع السابق : ١٢٧/١ . و انظر : الشريعة : ص : ١٣ . الإبانة عن شريعة الفرق الناجية : ٢٧٦/١ .

(٤) سنن الدارمي : ١٢٠/١ . وانظر : السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل . تحقيق : د . محمد سعيد سالم القحطاني .
طبعة : دار ابن القيم . الدمام . الطبعة الأولى : ١٤٠٦ هـ : ١٣٧/١ . الشريعة : ص : ٧٠ . شرح أصول
اعتقاد أهل السنة : ١٣٤/١ . الاعتقاد للبيهقي : ص : ٢٣٨ .

وقال عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) :

" من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التتقل ".^(١)

وقال الأوزاعي (رحمه الله) :

" إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل ، ومنعهم العمل ".^(٢)

وقال مالك الإمام (رحمه الله) :

" كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ

لجدله " .^(٣)

وأصل الجدل المذموم هو طريق ومسلك سلكه الفلاسفة الذين لا يثبتون النبوات ، ولا يرون لها حقيقة ليصلوا به إلى المعارف التي دفعتهم إليها عقولهم .^(٤)

ثم ورث ذلك أهل الكلام الباطل ، وجلبوه إلى دين الإسلام زعماً منهم أنهم يردون به شبهات المبطلين وضلال المنحرفين ، فضلوا الطريق وانحرفوا عن الحق .^(٥)

وقد ذمّه السلف رحمهم الله وأكثروا من ذمّه لأنه طريقة مبتدعة محدثة في دين الله ، لم يسلكها رسول الله ﷺ ، ولم يعهدها الصحابة رضوان الله عليهم من

(١) سنن الدارمي: ١٠٢/١ . السنة لعبد الله بن أحمد: ١٣٨/١ . تأويل مختلف الحديث: ص: ٦٣ . الشريعة :

ص: ٧٠ . و انظر : الزهد لابن أبي عاصم : ص : ٣٠٢ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ١٤٥/١ .

(٣) المرجع السابق : ١٤٤/١ . و انظر : شعب الإيمان : ٣٥٤/٦ .

(٤) انظر : بيان تلبيس الجهمية : ٢٥٤/١ .

(٥) انظر : المرجع السابق : ٢٥٣/١ . شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٢٢٤ . طبعة المكتب الإسلامي . و انظر :

إتحاف السادة المتقين : ٤٤٩/١ .

بعده - ولو فعلوا ذلك لنقل إلينا - ولم يعرفها السلف ، ولم يسلكوها في الوصول إلى الحق مع كمال عقولهم ، وصفاء أذهانهم .^(١)

قال الخطّابي (رحمه الله) : فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :
" واعلم أنّ الأئمة الماضين والسلف المتقدمين لم يتركوا هذا النمط من الكلام ، وهذا النوع من النظر عجزاً عنه ، ولا انقطاعاً دونه ، وقد كانوا ذوا عقول وافرة وأفهام ثاقبة ، وكان في زمانهم هذه الشبه والآراء ، وهذه النحل والأهواء ، وإنّما تركوا هذه الطريقة وأضربوا عنها لما تخوفوه من فتنتها ، وحذروه من سوء مغبتها ، وقد كانوا على بينة من أمرهم ، وعلى بصيرة من دينهم لما هداهم الله به من توفيقهم ، وشرح به صدورهم من نور معرفته ، ورأوا أنّ فيما عندهم من علم الكتاب وحكمته ، وتوقيف السنّة وبيانها غنى ومندوحة عما سواهما ، وأنّ الحجة قد وقعت بهما ، والعلة أزيحت بمكانهما " .^(٢)

وهي مع ذلك شرّ وفساد لا فائدة فيها ، ولا حاجة تدعو إليها ، مع اشتغالها على القضايا الكاذبة ، والمقدمات الفاسدة التي تحمل بين طيّاتها الافتراء على الله وكتابه ورسوله ودينه .^(٣)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :
" وهذه الطرق فيها فساد كثير من جهة الوسائل والمقاصد ، أمّا المقاصد : فإنّ حاصلها بعد التعب الكثير والسّلامة خير قليل ، فهي لحم جمل غث ، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينقل ، ثمّ إنّ يَفوت بها من المقاصد الواجبة والمحمودة ما لا ينضبط هنا . وأمّا الوسائل : فإنّ هذه الطرق كثيرة المقدمات ، ينقطع السّالكون فيها كثيراً قبل الوصول ، ومقدماتها في الغالب

(١) انظر : درء التعارض : ٢٩٧/٧ . وانظر : ١٦٥/١ من نفس الكتاب .

(٢) بيان تلبس الجهميّة : ٢٥٣-٢٥٤ . وهو في رسالة الغنية عن الكلام وأهله . للخطّابي : ص :

٢٨-٢٩ مع اختلاف طفيف في النص .

(٣) انظر : درء التعارض : ١٧٧/٧-١٧٨ . وانظر : مجموع الفتاوى : ٥٨/٦ .

إمّا مشتبّهة يقع النزاع فيها ، وإمّا خفيّة لا يدركها إلاّ الأنكياء . ولهذا لا يتفق منهم اثنان رئيسان على جميع مقدّمات دليل إلاّ نادراً ، فكلّ رئيس من رؤساء الفلاسفة والمتكلّمين له طريقة في الاستدلال تخالف طريقة الرئيس الآخر ، بحيث يقدح كلّ من أتباع أحدهما في طريقة الآخر ، ويعتقد كلّ منهما أنّ الله لا يُعرف إلاّ بطريقته ، وإن كان جمهور أهل الملة بل عامّة السلف يخالفونه فيها " . (١)

فهي مع تناقضها واختلافها ، وتهافتها ، وعدم جادها وعروها بها الطريق لمريد الحقّ ، وأطالوا الكلام في غير فائدة ، فليس عندهم إلاّ التّكلف والتّعقيد كما قيل :

لولا التّنافس في الدّنيا لما وضعت كتب التّناظر لا المغني ولا العمدة
يحلّلون بزعم منهم عقداً وبالأذي وضعوه زادت العقدة
فقد زادوا الشّبه شبهاً ، والشّكوك شكوكاً ، والباطل باطلاً . (٢)

ومتى يا ترى كان كلام اليونان وآراؤهم الفجّة ، وأفكارهم الدّخيلة ، وتناقضاتهم واختلافهم سبباً للدّفاع عن دين الله وحماية جنابه ، بل ذلك من أعظم أسباب الإعراض عن دين الله والبعد عنه ، فإنّهم جعلوه كالأحاجي والألغاز التي يعجز الذّكي عن فك غوامضها وحلّ عقدها . وما عليك إلاّ أن تتصفح كتاباً من كتب الكلام التي نسبت إلى العقيدة زوراً وبهتاناً إلاّ وتجد نفسك في متاهات من الألفاظ المعقّدة ، والأحكام المضطّربة ، والنتائج الفجّة ، وكتاب الله وسنة رسوله فيهما الشّفاء والكفاية والهداية والسّلامة لمن أنار الله بصره ووفّقه للحقّ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنّ الإيمان والعلم لا يتوقّف على النّظر الذي أحدثه أهل الكلام فضلاً عن الكلام المخالف للنّصوص ... لأنّ الكتاب والسّنة قد بيّن الحقّ وبيّن الطّرق التي

(١) مجموع الفتاوى : ٢٢/٢ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٢٤ . طبعة المكتب الإسلامي .

بها يعرف الحقّ ، وذكر من الأدلّة العقلية ، والأمثال المضروبة التي هي مقاييس برهانية ما هو أكمل في تحصيل العلم واليقين ممّا أحدثه أهل البدع من أهل الكلام والفلسفة " (١).

وهم مع هذا لم يصلوا إلى بغيتهم ، ولم يدركوا غايتهم ، فقد خالفوا سبيل المؤمنين ، ولم يقطعوا أعداء الدين ، بل أوقعهم الجدل وكثرة الكلام في شبهات كقطع الليل المظلم ، وأضعف العقيدة في قلوبهم فحلّت بها الشكوك ، وغزتها جيوش الظنون والأوهام ، وآل بهم الأمر إلى الحيرة والضلال والشك والارتباب ، وتزعزع الثبات في قلوبهم بل فارقها .

قال ابن رشد الحفيد (٢) وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم :

" ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتدّ به " .

والآمدي (٣) أفضل أهل زمانه وقف في المسائل الكبار حائراً .

(١) درء التعارض : ٢٨٩/٧ .

(٢) محمد بن أحمد بن محمد بن رشد أبو الوليد ، القرطبي الأندلسي ، الفيلسوف . برع في الفقه والطب ، ثم أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم حتى صار يضرب به المثل في ذلك . رفعت عنه أقوال رديئة فحجر لأجلها بأمر الخليفة حتى مات محبوساً بداره بمراكش عام : ٥٩٥ هـ . من آثاره : بداية المجتهد في الفقه . والكليات في الطب . ومختصر المستصفي في الأصول . وكمات التهافت في الفلسفة . وغيرها .
و انظر : سير أعلام النبلاء : ٣٠٧/٢١ . العبر : ١١١/٣ . التجوم الزاهرة : ١٥٤/٦ . شذرات الذهب : ٥٢٢/٦ . الأعلام : ٣١٨/٥ .

(٣) علي بن محمد بن سالم أبو الحسن التغلي ، سيف الدين الآمدي ، الحنبلي ثم الشافعي . المصنّف المتكلم . كان ذكياً ولكنه اشتغل بالمنطق وعلم الكلام فأظلم أمره حتى اتهم بالانحلال عن الدين وسوء الاعتقاد . صنّف في أصول الفقه والدين والمنطق والخلاف . توفي سنة : ٦٣١ هـ . من آثاره : أبكار الأفكار في الكلام . منتهى السؤل ، والإحكام في أصول الأحكام في الأصول . وغيرها .

و انظر : وفيات الأعيان : ٢٩٣/٣ . سير أعلام النبلاء : ٣٦٤/٢٢ . العبر : ٢١٠/٣ . ميزان الاعتدال : ٣٥٨/٣ . طبقات الشافعية الكبرى . لأبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي . تحقيق : د. عبد الفتاح محمد الحلو . محمود محمد الطناحي . طبعة : هجر للطباعة والنشر . الجيزة . الطبعة الثانية : ١٩٩٢ م :

والغزالي^(١) انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية ، ثم
أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ فمات والبخاري على
صدره .(٢)

وقال أبو عبد الله الرّازي^(٣) :

" نهاية إقدام العقول عقـال وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جـسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال

٣٠٦/٨ . البداية والنهاية : ١٤٠/١٣ . لسان الميزان : ١٣٤/٣ . التّجـوم الزّاهرة : ٢٨٥/٦ . شذرات الذهب :
٢٥٣/٧ . الأعلام : ٣٣٢/٤ .

(١) هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطّوسي ، زين الدّين أبو حامد الغزالي ، الشّافعي ، الفيلسوف المتصوّف .
له ذكاء مفرط واستبحار في العلم . برع في الفقه ومهر في الكلام والجدل . قال عنه الذهبي : " أدخله سيلان
ذهنه في مضائق الكلام ، ومزّال الأقدام " . أقبل في آخر أمره على تلاوة القرآن وحفظ صحاح الأحاديث . توفي
سنة : ٥٠٥ هـ . وقد اختلفت أقوال أهل العلم في شأنه وذلك لاختلاف أحواله ، واضطراب أمره . له كثير من
المصنّفات منها : إحياء علوم الدّين . المستصفى في الأصول . تهافت الفلاسفة . إلهام العوام عن علم الكلام .
و انظر : المنتظم : ١٦٨/٩ . وفيات الأعيان : ٢١٦/٤ . سير أعلام النبلاء : ٣٢٢/١٩ . العبر : ٣٨٧/٢ .
طبقات الشّافعية الكبرى : ١٩١/٦ . البداية والنهاية : ١٧٣/١٢ . التّجـوم الزّاهرة : ٢٠٣/٥ . شذرات الذهب :
١٨/٦ . الأعلام : ٢٢/٧ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٢٧ . طبعة المكتب الإسلامي .

(٣) محمد بن عمر بن الحسين أبو عبد الله ، فخر الدّين الرّازي القرشي البكري التّيمي الطّبرستاني ، عرف بابن
خطيب الرّي . الفقيه الشّافعي ، المفسّر المتكلم الأصولي . له ذكاء متوقّد ، فاق أهل زمانه في علم الكلام
والمعقولات . قال عنه الذهبي (رحمه الله) :

"الفخر ابن الخطيب صاحب التّصانيف ، رأس في الذّكاء والعقليات لكنّه عري من الآثار ، وله تشكيكات
على مسائل من دعائم الدّين تورث حيرة ، نسأل الله أن يثبت الإيمان في قلوبنا ، وله كتاب السّر المكشوف في
مخاطبة التّجـوم سحر صريح ، فلعله تاب من تأليفه إن شاء الله تعالى " . ذكر أنّه توفي على طريقة حميدة . مات
سنة : ٦٠٦ هـ . له مؤلّفات متعدّدة في التفسير وعلم الكلام والمنطق والأصول . منها : التفسير الكبير . المختصر .
المحصل . الأربعين في أصول الدّين .

و انظر : وفيات الأعيان : ٢٤٨/٤ . سير أعلام النبلاء : ٥٠٠/٢١ . العبر : ١٤٢/٣ . ميزان الاعتدال :
٤١١/٥ . طبقات الشّافعية الكبرى : ٨١/٨ . البداية والنهاية : ٥٥/١٣ . لسان الميزان : ٤٢٦/٤ . التّجـوم
الزّاهرة : ١٩٧/٦ . شذرات الذهب : ٤٠/٧ . الأعلام : ٣١٣/٦ .

ولم نستقد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبال
لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي غليلاً ، ولا
تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ
عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]
وأقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ
عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] . ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي " (١).

والشَّهْرَ سَتَانِي (٢) كشف عن حيرته وحيرة أولئك وما وصل إليه أمرهم فقال :
" فقد أشار إليّ من إشارته غم ، وطاعته حتم ، أن أجمع له مشكلات
الأصول ، وأحلّ له ما انعقد من غوامضها على أرباب العقول ، لحسن ظنه بي
أنّي وقفت على نهاية النظر ، وفزت بغايات مطارح الفكر ، ولعله استسمن ذا
ورم ، ونفخ في غير ضرر (٣) ، لعمرى :

لقد طفت في تلك المعاهد كلّها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٢٢٧-٢٢٨ . طبعة المكتب الإسلامي . وانظر : سير أعلام النبلاء : ٥٠١/٢١ .

(٢) محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستاني ، الملقب بالأفضل ، المتكلم المصنف الأصولي . برع في الفقه

وعلم الكلام والفلسفة فتخبط في الاعتقاد ، وكان يغلو في التشيع ، ويبالغ في نصرة مذاهب الفلاسفة حتى أنّهم

بمذهب الباطنية . توفي سنة : ٥٤٨ هـ . من مصنفاته : نهاية الإقدام . الملل والتحلل .

وانظر : وفيات الأعيان : ٢٧٣/٤ . سير أعلام النبلاء : ٢٨٦/٢٠ . العبر : ٧/٣ . طبقات الشافعية الكبرى :

١٢٨/٦ . لسان الميزان : ٢٦٣/٥ . النجوم الزاهرة : ٣٠٥/٥ . شذرات الذهب : ٢٤٦/٦ . الأعلام :

٢١٥/٦ .

(٣) الضرم : مصدرٌ ضَرِمَ ضَرَمًا . وَضَرِمَتِ النَّارُ وَتَضَرَّمَتْ ، وَاضْطَرَمَتْ : اشْتَعَلَتْ وَانْتَهَتْ . لسان العرب :

٣٥٤/١٢ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ١٤٦٠ .

فلم أر إلّا واضعاً كفّ حائر على ذقن أو قارعاً سنّ نادم " (١)

وقال أبو المعالي الجويني (٢) :

" يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به " .

وقال عند موته :

" لقد خضت البحر الخضم ، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن فإن لم يتداركني ربّي برحمته فالويل لابن الجويني ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمّي ، أو قال : على عقيدة عجائز نيسابور (٣) " . (٤)

وغير هؤلاء كثيرون (٥) ممّن حار بهم الأمر ، وانقطعت بهم السبل ، وهجرهم الثّبات ، وانتابتهم الشّكوك ، وقد يصل الحال ببعضهم إلى ما قاله

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام . لعبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد الشّهستاني . حرّره وصنّحه الفرد جيوم : ص : ٣ .

(٢) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف أبو المعالي الجويني ، التيسابوري ، إمام الحرمين وشيخ الشّافعية في زمانه . متكلّم أصولي فقيه . من أذكاء العالم ، وأحد أوعية العلم . رجع عن الكلام في آخر عهده . توفي سنة : ٤٧٨هـ . له مصنّفات عدّة منها : الإرشاد في أصول الفقه . الرّسالة النظاميّة . البرهان في أصول الفقه . الورقات .

و انظر : المنتظم : ١٨/٩ . وفيات الأعيان : ١٦٧/٣ . سير أعلام النبلاء : ٤٦٨/١٨ . العمر : ٣٣٩/٢ . طبقات الشّافعية الكبرى : ١٦٥/٥ . البداية والنهاية : ١٢٨/١٢ . التّحريم الزّاهرة : ١٢١/٥ . شذرات الذهب : ٣٣٨/٥ . الأعلام : ١٦٠/٤ .

(٣) نيسابور : مدينة قديمة بإقليم خراسان ، فتحها المسلمون في عهد عثمان ؓ . وقيل : في عهد عمر ؓ . وهي مدينة عظيمة ، ذات فضائل حسيمة ، معدن الفضلاء ومنبع العلماء . و انظر : معجم البلدان : ٣٣١/٥ .

(٤) شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٢٨ . طبعة المكتب الإسلامي . و انظر : المنتظم : ١٩/٩ . سير أعلام النبلاء : ٤٧١/١٨ . طبقات الشّافعية : ٥٨٥/٥ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٢٨-٢٢٩ . طبعة المكتب الإسلامي .

الطحاوي (رحمه الله) :

"فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتصديق والتكذيب ، والإقرار والإنكار ،
موسوساً تائهاً ، شاكاً ، لا مؤمناً مصدقاً ، ولا جاحداً مكذباً " . (١)

وامرؤ بلغ هذا المبلغ فأنتى له الثبات على منهج الله ؟ بل مثله يتخوف على
إسلامه وإيمانه ، وهذا الذي دفع أئمة السلف على تشديد النكير ، وبالغوا في تحذير
من يشتغل بالكلام والجدال الباطل .

قال البربهاري (رحمه الله) :

" وإذا أردت الاستقامة على الحق وطريق أهل السنة قبلك فاحذر الكلام
وأصحاب الكلام ، والجدال والمراء والقياس والمناظرة في الدين ، فإن استماعك
منهم ، وإن لم تقبل منهم يقدح الشك في القلب ، وكفى به قبولاً فتهلك ، وما كانت
قط زندقة ، ولا بدعة ، ولا هوى ، ولا ضلالة إلا من الكلام والجدال والمراء
والقياس ، وهي أبواب البدع والشكوك والزندقة " . (٢)

وقد أشار الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (رحمه الله) إلى رجوع جماعة من علماء الكلام إلى منهج أهل السنة
والجماعة ، وتركوا الخوض في الجدال والكلام المذموم والتأويل المنحرف ، فذكر منهم : أبا الحسن الأشعري ،
والقاضي أبابكر الباقلاني ، وإمام الحرمين أبا المعالي الجويني ، وأبا حامد الغزالي ، والفخر الرازي ، والشهرستاني .
انظر : أضواء البيان : ٤٥٤/٧ - ٤٧٦ . وهؤلاء من أئمة علم الكلام وأساطينه .

(١) من العقيدة الطحاوية : ص : ١٠ .

(٢) طبقات الحنابلة : ٣٨/٢ . وهو في كتاب شرح السنة : ص : ٥٥ . وانظر قوله الآخر في : ٢٧/٢ .

وللجدال والكلام المذموم إضافة إلى ما ذكر مضار متعددة منها :

- ١- يحرم صاحبه من الوصول إلى الحق ومعرفة الرشد .
 - ٢- يورث البغضاء والكراهية .
 - ٣- يحذر من صاحبه الناس ويتحاشونه .
 - ٤- سبب للمعاقبة بالحرمان من السعادة التي يحظى بها الباحث عن الحق .
 - ٥- طول ممارسته يغري بالتمادي في الباطل .
 - ٦- يؤدي إلى سوء العاقبة بالحرمان من الميزة العالية في الجنة .
- نصرة التعميم : ٤٣٤٩/٩ . بتصرف يسير .

ولهذا ذهب إلى تحريمه الإمام مالك والشافعي وأحمد وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف (رحمهم الله) (١).

وكلام الإمام الشافعي (رحمه الله) فيه أشدّ وأنكى فقد قال :

" قد اطلّعت من أهل الكلام على شيء ما كنت ظننته قطّ ، ولأن يبتلى العبد بكلّ ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام " (٢).
وقال : " حكّمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويطاف بهم في العشائر (٣) والقبائل ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام " (٤).

وقال الإمام أحمد (رحمه الله) :

" لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل (٥) " (٦) .

وقد أفاض أبو حامد الغزالي في بيان آفات الجدال وما يتولّد منها من مهلكات الأخلاق في كتابه الإحياء .

انظر : إحياء علوم الدين على هامشه إتحاف السادة المتقين : ٤٧٠/١ فما بعدها .

(١) انظر : درء التعارض : ١٤٦/٧ .

(٢) المرجع السابق : ١٤٦/٧ . وانظر : آداب الشافعي ومناقبه . لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي . تحقيق : عبد

الغني عبد الخالق . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . : ص : ١٨٧ . مناقب الشافعي . لأحمد بن الحسين

البيهقي . تحقيق : السيّد أحمد صقر . طبعة : مكتبة دار التراث . القاهرة . الطبعة الأولى : ١٣٩١هـ —

١٩٧١م : ٤٥٣/١ . سير أعلام النبلاء : ١٠/١٦ . أعلام الموقعين : ٤/٢٤٨ .

(٣) العشائر : هم القبائل ، جمع عشيرة . وانظر : مختار الصحاح : ص : ٤٣٤ . لسان العرب : ٤/٥٧٤ .

القاموس المحيط : ص : ٥٦٦ .

(٤) درء التعارض : ١٤٧/٧ . وانظر : مناقب الشافعي : ١/٤٦٢ . سير أعلام النبلاء : ١٠/٢٩ .

(٥) الدغل ، بالتحرّيك : الفساد مثل الدخّل . ويطلق على الحقد أيضاً . انظر : لسان العرب : ١١/٢٤٤-٢٤٥ .

و انظر : مختار الصحاح : ص : ٢٠٦ . القاموس المحيط : ص : ١٢٩١ .

(٦) درء التعارض : ١٤٧/٧ .

فالمؤمن الصادق يتجنب الخوض في الكلام والجدال الباطل حتّى لا ينزلق
عن منهج رسول الله ﷺ كما انزلق غيره ممّن جعل الكلام له حرفة ، والجدال له
طبعاً ، فيفارق الثّبات ويهوي إلى الضّلال فيسقط في الدّركات .

﴿المطلب الثامن﴾

التَّحَرُّبُ الْمُقَرَّرُ

التَّحَرُّبُ هو التَّجَمُّع ، من الحزب وهم الجماعة ، والجمع أحزاب : وهم كل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم ، أو كل طائفة هواهم واحد . وحزب الرجل : أصحابه وجنده الَّذِينَ عَلَى رَأْيِهِ . (١)

قال المناوي (رحمه الله) :

" الحزب جماعة فيها غلظ ، والأحزاب عبارة عن المجتمعين لمحاربة المصطفى في غزوة الخندق (٢) ، وحزب الله أنصاره " . (٣)

والتَّحَرُّبُ مدحه الله في موضعين من كتابه كما ذمّه في مواضع أخرى .
أما الممدوح فقد ورد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦] .

فقد بيّن سبحانه أن المؤمنين الصادقين في إيمانهم ظاهراً وباطناً ، المخلصين في عبادتهم لله ، المناصرين له ولرسوله ولعباده المؤمنين ، القائمين بما يجب عليهم نحو ربهم بإقلام

(١) انظر : لسان العرب : ٣٠٨/١ . وانظر : مختار الصحاح : ص : ١٣٣ . القاموس المحيط : ص : ٩٤ .

(٢) غزوة الخندق : كانت في سنة خمس من الهجرة . ألب فيها اليهود المشركين على غزو المسلمين ووعدهم بالانتصر .

فاجتمع عشرة آلاف من قبائل قريش وغطفان وبني فزارة وغيرهم . فحفر النبي ﷺ والمسلمون خندقاً بمشورة سلمان الفارسي عليه السلام عنه يحول بين المدينة والعدو . ونقض اليهود عهدهم ، واشتدّ على المسلمين فيها البلاء ، ونجم التفاق . وحوصر المسلمون شهراً ، ولم يكن بينهم قتال إلا يسيراً ، ثم أرسل الله على المشركين جنداً من الرّيح فقيضت خيامهم وأطفأت نيرانهم ، وجنداً من الملائكة تقذف الرّعب في قلوبهم فانصرفوا آيبين لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال .

انظر : السيرة النبوية لابن هشام : البداية والنهاية : ٩٢/٤ . فما بعدها . زاد المعاد : ٣٧٠/٣ - ٣٧٤ .

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف : ص : ٢٧٧ .

الصَّلَاةَ ، ونحو خلقه ببذل الزَّكَاةِ لمستحقِّها منهم ، هم الحزب المضافون إلى الله الَّذِينَ
يَسْتَحِقُّونَ الْغَلْبَةَ وَالنَّصْرَةَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ .^(١)

وقال سبحانه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ
كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

أي لا يكون المؤمنون مؤمنين بالله واليوم الآخر حقاً إلا إذا والوا وأحبوا من أحبَّ
الله ورسوله ، وأبغضوا وعادوا من أبغض الله ورسوله ، ولو كانوا أقرب الناس إليهم ،
فإن فعلوا ذلك فهم الَّذِينَ غرس الله الإيمان في قلوبهم ، وثبته فيها حيث لا تؤثر فيها
الشبهة ولا الشكوك ، وقواهم بمدده وإحسانه ، ووهبهم الحياة الطيبة في الدنيا ، ومتَّعهم
بجَنَّاتِ النعيم في الأخرى ، وعوَّضهم بسخطهم على القرائب والعشائر المحادين لله
ورسوله برضوانه فلا يسخط عليهم أبداً ، وأضافهم إلى نفسه فجعلهم حزبـه المفلحين
تتويهاً بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة .^(٢)

قال الشَّوكاني (رحمه الله) :

"﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ أي جنده الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ أَمْرَهُ ، ويقَاتِلُونَ أَعْدَاءَهُ ،
وينصرون أوليائه ، وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم ، وتكريم فخيم ،

(١) انظر معنى الآيتين في : معالم التنزيل : ٤٧/٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٢١/٦-٢٢٣ . أنوار التنزيل : ٣٣٨/٢-
٣٤٠ . تفسير القرآن العظيم : ١١٣/٢-١١٤ . فتح القدير : ٥٢/٢ . تيسير الكريم الرحمن : ص :

١٩٨-١٩٩ .

(٢) انظر معنى الآية في :

معالم التنزيل : ٣١٢/٤-٣١٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٧/١-٣٠٩ . أنوار التنزيل : ٣١٥/٥ . تفسير
القرآن العظيم : ٥١٣/٤-٥١٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٧٨٦-٧٨٧ .

﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة ، الكاملون في الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل ، حتّى كأنّ فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كلا فلاح " (١).

فحزب الله هم أولياؤه الذين أحبوا فيه وأبغضوا لأجله ، وناصروا أوليائه وعادوا أعداءه ، فكان اجتماعهم وتحزّبهم لله وفي الله ، حيث ربط الله المؤمنين بأخوة الإيمان فقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ، وشرع بينهم الموالاة والنصرة ، والترّاحم والتّعاطف كما قال ﷺ : " مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " (٢) ودعاهم إلى الائتلاف والتعاون والاجتماع ، ونهاهم عن التفرّق والتشتّت والاختلاف فقال : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] . وقال ﷺ : " عليكم بالجماعة وإيتاكم والفرقة ، فإنّ الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، من أراد بحُبّوحه (٣) الجنة فليلزم الجماعة " (٤).

(١) فتح القدير : ١٩٣/٥ - ١٩٤ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب رحمة الناس والبهائم : (٢٧) . برقم:

(٦٠١١) . ص : ١٢٩١ . عن التّعمان بن بشير ؓ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥) . باب تراحم المؤمنين : (١٧) . برقم:

(٢٥٨٦) . (٢٥٨٦) . ١٩٩٩/٤ - ٢٠٠٠ .

(٣) بحبوحة الجنة : أي وسطها وخيارها . ويقال : تبجحت في الدّار : إذا توسّطها وعمّكت منها . انظر : غريب

الحديث للهروي : ٢/٢٠٥-٢٠٦ . الفائق : ٨١/١ . النهاية في غريب الحديث: ٩٨/١ .

(٤) سنن الترمذي: بلفظه — جزء من حديث — في : كتاب الفتن : (٣٠) . باب ما جاء في لزوم الجماعة : (٧)

برقم: (٢١٦٥) . وقال : " هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه " . وقال الألباني (رحمه الله):

" صحيح " . ص : ٣٦٠ . عن عمر ؓ .

مسند أحمد: نحوه في: ١٨/١ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر:

٢٠٥/١ . برقم: (١١٤) .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: نحوه في: باب ذكر الإخبار عمّا يجب على المرء من لزوم ما عليه جماعة

المسلمين . برقم: (٤٥٧٦) . قال شعيب الأرناؤوط : " ثقات من رجال الصّحيح " . ٤٣٦/١٠ . وفي باب

فالجماعة هم الذين تحزّبوا واجتمعوا على نصرة دين الله وإعلاء كلمته ،
 مترسمين خطى النبي ﷺ ، سالكين منهجه ، متبعين هديه ، يربط بينهم إخاء
 الإسلام ، وتشدّ أواصرهم رابطة الإيمان ، متحابين متآلفين ، يوثق بينهم الولاء لله ،
 والحبّ في الله ، والبغض لأعداء الله ، مع نفرة عن الشقاق والفرقة .

قال أبو شامة (رحمه الله) :

" وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحقّ واتّباعه ، وإن كان
 المتمسك بالحقّ قليلاً والمخالف كثيراً ، لأنّ الحقّ الذي كانت عليه الجماعة الأولى من
 عهد النبي ﷺ وأصحابه ﷺ ، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل
 بعدهم " . (١)

ولمّا كان أهل السّنة والجماعة يتسمون بما ذكرت من سمات ، ويتصفون بما
 أوردت من صفات ، إذ هم لا غيرهم الذين درجوا على منهاج النّبوة ، ولم ينفصلوا عنه
 لحظة من الزّمن لا باسم ولا برسم ، وليس لهم شخص ينتمون إليه ويقتفون أثره سوى
 رسول الله ﷺ ، وهم الذين يمثلون بحقّ الامتداد الطّبعي للإسلام في صفائه ونقائه ،
 وللمسلمين في اجتماعهم وائتلافهم ، وولائهم لله ورسوله وأهل الإيمان ، ونصرتهم للحقّ
 حيث كان ، فلمّا كانوا كذلك كانوا هم حزب الله وأنصاره . (٢)

ذكر الإخبار عمّا يظهر في التّناس من المسابقة في الشّهادات والأيمان الكاذبة . برقم: (٦٧٢٨) .
 قال شعيب الأرناؤوط : " حديث صحيح " . ١٢٢/١٥ . وفي باب ذكر الإخبار عن وصية المصطفى ﷺ الخبير
 بالصّحابة والتّابعين بعده . برقم: (٧٢٥٤) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح على شرط الشّيخين " .
 ٢٣٩/١٦ .

مستدرك الحاكم: نحوه في: ١٩٧/١ ، ١٩٩ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين " .
 مسند أبي يعلى: نحوه في: ١٣٣/١ . برقم: (١٤٣) . قال المحقّق : " رجاله ثقات " .

و انظر : السّنة لابن أبي عاصم : ص : ٤٢ . برقم : (٨٨) .

(١) الباعث على إنكار البدع : ص : ٢٦ .

(٢) وانظر : حكم الانتماء . ص : ٣٧-٣٨ .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" الفرقة الناجية حزب الرسول وأنصاره ، وبُنْكَ^(١) الإسلام وعصا بة
الإيمان ، الذين لم يتحيزوا إلى فئة غير رسول الله ﷺ ، ولم يذهبوا إلى مقالة غير
ما دلّت عليه سنّته ، ولم ينتسبوا إلى غيره بوجه من الوجوه " .^(٢)
فمن كان تحزبه كذلك فهو الذي حقّ له أن يثبت على منهج رسول الله ﷺ
وصحابته من بعده ، ويسعد في دنياه وآخرته .

وأما التحزّب المذموم فقد جاء ذكره في آيات كثر . من ذلك قوله تعالى :
﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝
وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝ فَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ
زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُوْا ۝ ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٣] .

لقد أمر الله رسله عليه السّلام أن يأكلوا من الطّيّبات وهي الرّزق الحلال ،
وأن يعملوا صالحاً ، وأخبرهم أن دينهم دين واحد ، وملّتهم ملّة واحدة ، وهي
الدّعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وألا يتفرّقوا في الدّين . فمضى رسل
الله على ذلك ، ممتثلين لأمر الله ، يصدّق بعضهم بعضاً ، لا يختلفون ولا
يتفرّقون مع تنوّع شرائعهم . كما قال سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى
بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ
أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي
إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۝ ﴾ [الشورى: ١٣] .

(١) البُنْكَ : أصل الشّيء ، وقيل : خالصة . انظر : لسان العرب : ٤٠٣/١٠ . القاموس المحيط : ص : ١٢٠٦ .

(٢) الصّواعق المرسلّة : ٤ / ١٥٤٩ .

وقال ﷺ : " نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد " (١). ولكن أممهم لم تمتثل ما امتثل به رسل الله عليهم السلام ، فتقطّعوا أمرهم وصاروا زبراً متفرّقين .
 قرئ {زبراً} بضم الباء جمع زبور وهو الكتاب . أي دان كل فريق منهم بكتاب غير الكتاب الذي دان به الآخر ، فاتّبعَت فرقة الصّحف ، وفرقة التّوراة ، وأخرى الزّبور ، ورابعة الإنجيل ، ثمّ حرّقوا كل ذلك وبتلوه .
 وقيل : أخذ كل فريق منهم كتاباً آمن به وكفر بما سواه (٢) . وقيل : جعلوا كتبهم

قطعاً مختلفة : آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، وحرّقوا البعض (٣) .

وقرئ {زبراً} بفتح الباء أي قطعاً كقطع الحديد . والمراد أنهم جعلوا دينهم أدياناً متفرّقة بعد ما أمروا بالاجتماع وعدم التّفريق ، وهم مع ذلك معجبون مسرورون بما هم فيه من الضلال ، يحسبون أنهم على الحقّ ، وأنهم مهتدون (٤) .
 والتّحزّب سنة جرت في الأمم السّابقة لم تشذ عنها أمة . فقد سمى الله المكذّبين لرسله ، المعادين لهم ، المناهضين لدعوتهم أحزاباً ، لاجتماعهم على الكفر والباطل والضلال . فقال سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٦﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٧﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص: ١٢-١٤] (٥) .

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٤٠١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٣٠/١٢ .

(٣) معالم التّزئيل : ٣١١/٣ .

(٤) وانظر معنى الآيات من سورة المؤمنون في : معالم التّزئيل : ٣١١-٣١٠/٣ . الجامع لأحكام القرآن : ١٣٠/١٢ .
 أنوار التّزئيل : ١٥٨/٤ . تفسير القرآن العظيم : ٣٩٦/٣ . فتح القدير : ٤٨٦/٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص: ٥٠٣-٥٠٢ .

(٥) وانظر : سورة غافر : الآية (٥) وانظر : معالم التّزئيل : ٥٠/١ ، ٩١ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٣، ١٥٤/١٥ . أنوار التّزئيل : ٨٣، ٣٩/٥ . تفسير القرآن العظيم : ١٠٨، ٤٥/٤ فتح القدير : ٤٢٣/٤ ، ٤٨١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٦٥٦ ، ٦٧٨ .

وقريش ومن شايعها من قبائل العرب لما سلكوا مسلك أولئك في التكذيب والجحود جعلهم الله أحزاباً مثل أولئك الأحزاب . فقال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢] . وقال : ﴿ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ [ص: ١١] ^(١) .

وبين أن الأحزاب هم الذين كذبوا بكتاب الله وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ وكفروا به . فقال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود: ١٧] أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم ، على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن فالنار موعده ، وهو من أهلها لا محالة ^(٢) .

فسمي جميع طوائف الكفار أحزاباً وهذا أعظم ذم للتحزب . فأهل الكفر تحزبوا لنصرة الباطل ، وتكذيب الرسل ، ومعاندة الحق ، فكان تحزبهم تحزباً مذموماً يلقي بأصحابه في الوبال والهلكة ، ولذا حذر الله أهل الإيمان أن يتفرقوا ويتشتتوا ويتحزبوا أحزاباً ، كل حزب يتعصب لما معه - ولو كان باطلاً - فيكونون حينئذ مشابهين لأهل الكفر والشرك في تحزبهم . فقال سبحانه : ﴿ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَآتَقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣١-٣٢] .

(١) وانظر معناها في : معالم التنزيل : ٤٩/٤ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥٣/١٥ . أنوار التنزيل : ٣٨/٥ . تفسير

القرآن العظيم : ٤٤/٤ . فتح القدير : ٤٢٢/٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٦٨٢/٢ بتصرف يسير . وانظر : معالم التنزيل : ٣٧٧/٢ . الجامع لأحكام القرآن :

١٧/٩ . أنوار التنزيل : ٢٢٧/٣ . فتح القدير : ٤٨٨/٢ .

وقد وقع ما حذر الله سبحانه منه ، ففترقت الأمة إلى شيع وأحزاب يناوئ بعضها بعضاً ، ويضلل بعضها بعضاً ، وكلّ منها يزعم أنّه على الحقّ ودونه على الباطل .

قال ابن كثير (رحمه الله) في معرض كلامه عن الآية السابقة :

" فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة ، وكلّ فرقة منهم تزعم أنّهم على شيء ، وهذه الأمة أيضاً ، اختلفوا فيما بينهم على نحل كلّها ضلالة إلا واحدة ، وهم أهل السنّة والجماعة ، المتمسكون بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ، وبما كان عليه الصّدر الأوّل من الصّحابة والتّابعين وأئمة المسلمين في قديم الدّهر وحديثه " . (١)

وقد ذكر بعض أهل العلم أنّ المراد بـ ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا﴾ هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة . (٢) فتكون الآية بياناً للحال الذي تؤول إليه أمة الإسلام .

وقال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٦-٣٧] .

فالله أمر باتّباع الكتاب وهو القرآن المنزل على خير الرّسل ﷺ ، وحذر من سلوك منهج الأحزاب الذين يؤمنون ببعض ما في الكتاب وينكرون البعض ، وهذا الذي أوقعهم في التّحزّب والتّفريق ، وهو أن يتمسك الإنسان ببعض الحقّ وينكر البعض الآخر ، وتلك سمة بارزة لأهل الكتاب عابها الله عليهم حيث قال :

(١) تفسير القرآن العظيم : ٦٩٠/٣ .

(٢) انظر : معالم التّزويل : ٤٨٣/٣ . فتح القدير : ٢٢٥/٤ .

﴿ أَفْتُومِنُونَ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥] . وفي ذلك أيضاً تحذير للمؤمنين أن يقعوا فيما وقع فيه أولئك .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي آراءهم ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي من الله سبحانه ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية ، والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام " (١) .

وهذا حال كثير من الجماعات والأحزاب اليوم الذين امتلأت بهم ساحة الإسلام ، فلا يقبل أحدهم الحق إلا إذا جاء من طريق حزبه وجماعته ، ويرد الحق الذي مع من سواه ولو كان واضحاً كالشمس ، بل لا يحب ولا يوالي إلا من كان من طائفته ، ويبغض من سواهم ولو كانوا من اتقى عباد الله .

فهل هناك أداة للتفرق والشتات تعصف بوحدة هذه الأمة ، وتشتت شملها، وتحرفها عن المنهج الحق أعظم من هذه الأداة ؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) بعد ذكره لبعض الآيات الناهية عن التفرق :

" فكيف يجوز مع هذا لأمة محمد ﷺ أن تفترق وتختلف حتى يوالي الرجل طائفة ويعادي طائفة أخرى بالظن والهوى بلا برهان من الله تعالى ، وقد برأ الله نبيه ﷺ ممن كان هكذا ، فهذا فعل أهل البدع كالخوارج الذين فارقوا جماعة

(١) تفسير القرآن العظيم : ٨٠٢/٢ . وانظر معنى الآيتين في : معالم التنزيل : ٢٢١/٣ - ٢٢٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٥/٩ - ٣٢٧ أنوار التنزيل : ٣٣٣/٣ فتح القدير : ٨٧/٣ - ٨٨ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٣٧٣ - ٣٧٤ .

المسلمين واستحلّوا دماء من خالفهم . وأمّا أهل السنّة والجماعة فهم معتصمون بحبل الله ، وأقلّ ما في ذلك أن يفضلّ الرّجل من يوافقه على هواه وإن كان غيره اتقى الله منه .

وإنّما الواجب أن يقدّم من قدّمه الله ورسوله ، ويؤخّر من أخّره الله ورسوله ، ويحبّ ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ، وينهى عمّا نهى الله عنه ورسوله ، وأن يرضى بما رضي الله به ورسوله ، وأن يكون المسلمون يداً واحدة . فكيف إذا بلغ الأمر ببعض النّاس إلى أن يضلّل غيره ويكفره ، وقد يكون الصّواب معه وهو الموافق للكتاب والسنّة ؟ ^(١) .

وقد نصّب كثير من تلك الأحزاب أشخاصاً ، قادة لهم ، وأنزلوا أقوالهم منزلة أقوال رسول الله ﷺ يوالون عليها ، ويعادون فيها ، ويطيعونهم في كلّ ما أمروا به أو نهوا ، وإن خالفوا الحقّ جهرة أوجدوا لهم من الأعذار والتبريرات الباردة ما يؤيّدون به مزاعمهم وأخطاءهم ، فيدبّ هنالك العداء والفرقة بين صفوف أمة واحدة تنتمي إلى دين واحد وهو الإسلام ، ويحدث الزيغ والانحراف عن المنهج الواحد الذي جعله الله طريقاً للوصول إليه وأغلق ماسواه من الطّرق .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" من نصّب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو ﴿ مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا ﴾ [الرّوم: ٣٢] " ^(٢)

وقال : "وليس لأحد أن ينصّب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته ، ويوالي ويعادي عليها غير النّبي ﷺ ، ولا ينصّب لهم كلاماً يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة ؟ بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبّون لهم

(١) مجموع الفتاوى : ٤١٩/٣ - ٤٢٠ . وانظر : ٩٢/١١ من الكتاب نفسه .

(٢) المرجع السابق : ٨/٢٠ .

شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة ، يوالون به على ذلك الكلام ، أو تلك النسبة ويعادون " . (١)

وقال : " وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعتة ، ويعادي على ذلك ، بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان ، ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم ، ولا يخصّ أحداً بمزيد موالاة إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه ، فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه ، ويفضل من فضله الله ورسوله " . (٢)

وكثير من أولئك الزعماء والقادة أرباب مصالح ، ورغبات حابطة ، وغايات رخيصة ، أقلها الزعامة والتصدر ، فيمتطون صهوة التحزب لينالوا غاياتهم ورغباتهم ومصالحهم ، لا هم لهم في دين يعلو ، ولا شرع يقام ، ولا إسلام يسود ، حيث ضاقت نظرهم فلا تتعدى حدود الحزب الذي ينتمون إليه ، وانقطع ود الإخاء إلا في محيط حزبهم ، وأبىء الولاء إلا في دائرة جماعتهم ، فكان حزبهم هو الإسلام وحده ولا إسلام سواه ، بل يمكن أن أقول إن رابطة الإسلام بين هؤلاء أبدلت برابطة الحزب الضيقة حيث ينمو التعصب للأشخاص لا للشرع .

قال الشيخ بكر أبو زيد :

" إن الحزبية ذات المسارات والقوالب المستحدثة التي لم يعهدها السلف من أعظم العوائق عن العلم ، والتفريق عن الجماعة ، فكم أوهنت حبل الاتحاد الإسلامي ، وغشيت المسلمين بسببها الغواشي (٣) " . (٤)

(١) المرجع السابق : ١٦٤/٢٠ .

(٢) المرجع نفسه : ٥١٢/١١ .

(٣) الغواشي : جمع غاشية وهي العقوبة العامة المهلكة . و انظر : لسان العرب : ١٢٧/١٥ .

(٤) حكم الانتماء : ص : ١٠٩ .

ولك أن تتصور ما ينغمر فيه المتحزبون من قضايا إنصرافية تميت الالتزام بالشرع في نفوس الأتباع ، حيث يصبح الالتفاف حول الحزب وجلب الأفراد إليه بشتى السبل والوسائل - الشرعية منها وغير الشرعية - هو البند الأول والهدف الأسمى بين أجندة التكتل الحزبي ، متدثرين بثوب من السرية ، متصيدين أولئك من خلال الدعوة الموسمية ، مع خوض في غمار السياسة فحسب ، منغمسين في فقه الجرائد والمجلات ، ملمعين لأهل الابتداع ، معظمين لأنفسهم ، متكلمين فيمن خالفهم بالاتهامات المنكرة والألقاب الساقطة ، مع انحدار إلى هوة التكفير ، وكل ذلك سبيل ممهد لجلب أعداء الله المدبرين لمحو الإسلام .^(١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وكيف يجوز التفريق بين الأمة بأسماء مبتدعة لا أصل لها في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ، وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ [المائدة: ١٤] فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب " .^(٢)

ولم يقف الأمر عند تسلط الأعداء ، بل أصبح الطريق وعراً شائكاً مظلماً على من يريد الحق ، حيث يرى شعارات برّاقة ترفع في كل بقعة من بلاد الإسلام يهتف أهلها : إلينا إلينا لا إلى غيرنا ، فيقف حائراً لا يدري أين تكون

(١) وانظر : المناهج الدعوية : ص : ٩٢ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٤٢١/٣ .

الوجهة ولأيتها يكون الانتماء ، وخاصة إذا كان خالي الوفاض من علم الشرع .
فأني لهذا سلوك طريق النّجاة ، وكيف له بمسلك السلامة ؟

فالتّحزّب عائق عظيم عن سلوك منهج الله ورسوله ، وعامل لنّيم يؤدّي إلى
الانحراف عن سبيل الله ، ومؤثّر ذميم يبذر الشّك والارتباب في قلب من يريد
السّير على طريق الله .

والحقّ واحد لا يتعدّد ، والجماعة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ،
وهي : جماعة واحدة لاجتماعات ، وصراط واحد لا عشرات .^(١) الأصل فيها قائم
على قاعدة التّعاون الشرعي المنبني على علم الكتاب والسّنّة ، بعيدة عن التّحزّب
المنحرف ، والتّعصّب المقرض الذي يفرّق ولا يجمع ، ويبعد ولا يقرب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وليس للمعلّمين أن يحزّبوا النّاس ، ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء ،
بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر والتّقوى كما قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا
عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢] " ^(٢) .

فأهل الإيمان يكونون يداً واحدة يكلّوهم الحبّ في الله لا التّباغض ، وتحيط
بهم الرّحمة لا العداوة ، ويرفرف بين جوانبهم الودّ لا الضّغائن ، متماسكين ،
متناصحين ، متعاونين ، لا متعادين ولا متحزّبين ولا متفرّقين ، منهجهم واحد
عليه يثبتون ، وطريقهم واحد له يسلكون . لأنّ ربّهم واحد إيّاه يعبدون ، وكتابهم

(١) عنوان كتاب لفضيلة شيخنا ربيع بن هادي المدخلي ، وهو كتاب قيم جدّاً ، يرجع إليه من يريد المزيد في
موضوع التّحزّب ، كما يمكنه الرّجوع إلى حديث افتراق الأمة للأمير الصّنعاني ، والأجوبة المفيدة عن أسئلة
المناهج الجديدة ، ولحمة عن الفرق الضّالة كلاهما للشيخ صالح بن فوزان الفوزان ، والأحزاب السّياسيّة في الإسلام
لصفي الرّحمن المباركفوري ، وحكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات للشيخ بكر أبي زيد ، ورؤية واقعيّة
في المناهج الدّعويّة ، والدّعوة بين التّجمّع الحزبي والتّعاون الشرعي كلاهما للشيخ علي حسن عبد الحميد . حفظ
الله الجميع ورحم الله من قضى نجه منهم .

(٢) مجموع الفتاوى : ١٦-١٥/٢٨ .

واحد به يلتزمون ، ورسولهم واحد له يتبعون ، وهم أمة واحدة ليسوا متفرقين
ولا متناحرين.

المبحث الرابع

الأخذ بالوسطية والاعتدال

لقد سبق أن بيّنت أن سمات المنهج الحقّ الوسطية ، وقد ذكرت من أدلة الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم ما يدلّ على ذلك .^(١)

وأحبّ أن أبين هنا أن من أعظم ما يعين على الثبات على المنهج أن يتّسم السائر عليه بالوسطية ، وهو مطلب عزيز طالما زلّت فيه أقدام ، واضطّرت فيه أفهام ، وقلّ أهله بين الناس ، أولئك الذين يتّسمون بالعدل والإنصاف مع أنفسهم ومع غيرهم .

وهذا الذي دفع شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في جعله جماع الشرّ يكمن في عدم الاعتدال ، حيث قال :

" وإنّما جماع الشرّ تفريط في حقّ أو تعدّ إلى باطل ، وهو تقصير في السنة أو دخول في البدعة ، كترك بعض المأمور وفعل بعض المحظور ، أو تكذيب بحقّ وتصديق بباطل . ولهذا عامّة ما يؤتى الناس من هذين الوجهين " .^(٢)

فالشيطان عليه لعائن الله استطاع بهذين الداعين - الإفراط والتفريط - أن يبعد كثيراً من الناس عن طريق الله القويم ، ويلقي بهم في أودية المهالك .

(١) انظر : ص : ٨٤٣-٨٥١ . من هذا البحث .

(٢) الصّفة لشيوخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق : محمّد رشاد سالم . الطّبعة الثانية : ١٤٠٦هـ : ٢٩٣/١ .

قال ابن عائشة (رحمه الله) ^(١) :

" ما أمر الله سبحانه بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان : إمّا إلى تفريط وتقصير ، وإمّا إلى مجاوزة وغلو ، ولا يبالي بأيهما ظفر " .
وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقلّ القليل في هذين الواديين ، وادي التقصير ، ووادي المجاوزة والتعدي ، والقليل منهم جداً الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ^(٢) .

والسلف (رحمهم الله) يذكرون هذين الأصلين كثيراً وهما : الاقتصاد في الأعمال ، والاعتصام بالسنة . فإنّ الشيطان يشمّ قلب العبد ويختبره ، فإن رأى فيه داعية للبدعة ، وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة : أخرجه عن الاعتصام بها . وإن رأى فيه حرصاً على السنة ، وشدة طلب لها ، لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها ، فأمره بالاجتهاد ، والجور على النفس ، ومجاوزة حدّ الاقتصاد فيها ، قائلاً له : إنّ هذا خير وطاعة ، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل ، فلا تفتّر مع أهل الفتور ، ولا تتم مع أهل النوم ، فلا يزال يحثّه ويحرّضه حتّى يخرجّه عن الاقتصاد فيها ، فيخرج عن حدّها . كما أنّ الأوّل خارج عن هذا الحدّ ، فكذا هذا الآخر خارج عن الحدّ الآخر . وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم ، وصيامهم مع صيامهم ، وقراءتهم مع قراءتهم . وكلا

(١) هو عبيد الله بن محمد بن حفص أبو عبد الرحمن القرشي التيمي العيشي البصري ، المعروف بابن عائشة لأنه من ولد عائشة بنت طلحة . محدث ثقة ، عالم إخباري ، جواد ، له رقائق وفصاحة وحسن خلق وشجاعة . توفي سنة : ٢٢٨هـ .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٣٠١/٧ . طبقات خليفة : ص : ٢٢٩ . التاريخ الكبير : ٤٠٠/٥ . الجرح والتعديل : ٣٣٥/٥ . ثقات ابن حبان : ٤٠٥/٨ . تاريخ بغداد : ٣١٤/١٠ . تهذيب الكمال : ١٤٧/١٩ . الكاشف : ٦٨٦/١ . تهذيب التهذيب : ٤١/٧ . تقريب التهذيب : ٣٧٤/١ .

(٢) إغاثة اللّهفان : ١١٦/١ .

الأمرين خروج عن السنّة إلى البدعة ، لكن هذا إلى بدعة التّقرّيط والإضاعة ،
والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف .^(١)

والعمدة العاصم من ذلك هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الأبرار ،
فإنّ هديهم هو الهدى وطريقهم هو الطّريق ، فمن انحرف عنه يمنة بإفراط أو
يسرة بتقرّيط فهو المنزلق المتزحلق الذي فارق الثّبات على منهجهم ، وخالفته
الاستقامة على طريقهم .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" إنّ التّعصّب والتّنتعّ والتّشديد الذي نهى عنه رسول الله ﷺ هو المخالف
لهديه وهدي أصحابه وما كانوا عليه ، وإنّ موافقته فيما فعله هو وخلفاؤه من بعده
هو محض المتابعة ، وإنّ أباهما وجهلها من جهلها ، فالتّعصّب والتّنتعّ مخالفة ما
جاء به وتجاوزة والغلو فيه ، ومقابله إضاعته والتّقرّيط فيه والتّقصير عنه ، وهما
خطأ وضلالة وانحراف عن الصّراط المستقيم ، والمنهج القويم ، ودين الله بين
الغالي فيه والجافي عنه " .^(٢)

وقد ضلّ الطّريق وفارق الثّبات على المنهج أناس نظروا إلى مجتمع الإسلام
بمنظار قاتم فأرادوا أن يصلحوا عوجه ، فاتّخذوا العنف طريقاً إلى الإصلاح
فأحدثوا فوضى أريقّت معها الدّماء ، وشوّهوا من جرّائها صفاء الإسلام ، فتنفّس
الصّعداء أعداء الله ، ووجدوا بغيتهم وما يأملون فأطلقوا من الألفاظ والألقاب ما
يصرفون به الناس عن الإسلام ، ويقبّحون وجهه في كلّ محفل ، ليظهر في
جثمان شبح مخيف ينفر الناس عنه ، حيث تظهر عبارات الأصوليّة المترمّمة ،
والإرهاب ، ومصاصي الدّماء وغير ذلك ، وهم لا يفرّقون أو لا يريدون أن

(١) مدارج السّالكين : ١٠٧/٢ - ١٠٨ .

(٢) كتاب الصّلاة وحكم تاركها : ص : ١٩٢ .

يفرقوا بين المحقّ والمبطل ، وبين المصيب والمخطئ ، إذ قصدهم أن يُدمّر الإسلام بأي وجه ولو عن طريق الظلم والجهل .

وهناك نابعة أخرى أعجزتهم التكاليف أن يلتزموا بها ، وصعب عليهم الالتزام أن يواكبوه ، ومالت أنفسهم إلى تحلّلات المجتمع فأرادوا أن يسايروه ، فلجّؤوا إلى النصوص فلووا أعناقها وميّعوها ، بحجّة معاشة المجتمع تارة ، وعدم إخلاء الساحة لأهل الضلالة أخرى ، ولأجل مصلحة الدّعوة ومواكبة الحياة والمشاركة في متطلّباتها تارة أخرى ، وواجهوا الملتزمين السّائرين على منهج السلف بعبارات منفرة ، فقالوا عنهم : إنهم جافّون على النصوص لا فهم لهم ولا فقه ، متشدّقون لا وعي لهم ولا إدراك ، متخلّفون عن الركب ، متحجّرون تقليديون ، همّهم أن تحشى أذهانهم بنصوص لا يدرون موقعها من المجتمع . هكذا يزعمون ، وبئس ما يزعمون .

فهؤلاء وأولئك على طرفي نقيض وكلاهما زائغ عن المنهج الحقّ ، ومنحرف عن الصّراط المستقيم ، وفاز أهل الاعتدال والوسطيّة بالثّبات على منهج السلف الصّالحين والأئمّة المهيدين .

المبحث الخامس

عدم الوحشة بقلة السالكين

لقد بين سبحانه أن أكثر الناس ضالّون عن الطريق ، منحرفون عن الصراط ، ناكبون عن السبيل ، مجافون للحق ، زائغون عن الاستقامة . فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦] .

قال البيضاوي (رحمه الله) :

" ﴿ وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أكثر الناس يريد الكفار ، أو الجهّال ، أو أتباع الهوى ، وقيل : الأرض أرض مكة . يضلّوك عن سبيل الله ، عن الطريق الموصل إليه ، فإنّ الضالّ في غالب الأمر لا يأمر إلا بما هو ضلال " (١) .

ويؤيد ما سبق قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] . وقوله : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩] . وقوله : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢] (٢) .

كما بين سبحانه أن أهل الحق ، السالكين صراطه المستقيم ، السائرين على نهجه القويم ، التابعين لرسوله الأكرمين قلّة بين الناس .

(١) أنوار التنزيل: ٤٤٦/٢ وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٧١/٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢٦٩/٢ .

فتح القدير : ١٥٥/٢ تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٣٣ .

(٢) و انظر : الآيات : (المائدة : ١٠٣ ، ٤٩) (الأنعام : ١١١) (التوبة : ٨) (هود : ١٧) (يوسف : ١٠٦ ، ٣٨ ، ٢١)

(الإسراء : ٦٢) .

فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] وقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤] .

فنوح عليه السلام مع طول بقائه في قومه ، وقيامه بالدعوة فيهم على قدم وساق ، ومع ذلك : ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠] .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ، أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم . ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤] . فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار ^(١) : كانوا اثنتين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة " ^(٢) .

وقال سبحانه في نجاته من نجا مع لوط عليه السلام من العذاب : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦] . وقد نص أهل العلم على أنهم لوط عليه السلام وأهل بيته إلا امرأته ^(٣) .

(١) كعب بن ماتع أبو إسحاق الحميري ، المعروف بكعب الأحبار . كان من أهل اليمن فسكن الشام . من كبار علماء أهل الكتاب ، أدرك النبي ﷺ وأسلم في خلافة عمر رضي الله عنه . وقيل في خلافة أبي بكر رضي الله عنه . ثقة مخضرم ، من أوعية العلم . توفي سنة : ٣٤ هـ . وقيل : ٣٢ هـ بحمص .
و انظر : الطبقات الكبرى: ٤٤٥/٧ . التاريخ الكبير: ٢٢٣/٧ . الجرح والتعديل: ١٦١/٧ . ثقات ابن حبان: ٣٣٣/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ١١٨/١ . تهذيب الكمال : ١٨٩/٢٤ . تذكرة الحفاظ: ٥٢/١ .
الكاشف: ١٤٨/٢ . جامع التحصيل : ص : ٢٦٠ . الإصابة : ٦٤٧/٥ . تهذيب التهذيب: ٣٩٣/٨ . تقريب التهذيب: ٤٦١/١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٦٩٠/٢ وذكر أقوالاً أخرى .

(٣) انظر : المرجع السابق : ٣٦٤/٤ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٧٥٢ .

وقد أشار النبي ﷺ إلى قلة أتباع الأنبياء ، فقال في حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) : " عرضت علي الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرّهيط^(١) ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ليس معه أحد ... " الحديث (٢).

كما بين ﷺ أن الذين يسلكون منهجه ، ويتبعون صراطه ، ويثبتون على طريقه فلا يعوجون عدد قليل ، ونزر يسير ، من هذه الأمة فقال : " بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء " (٣)

(١) الرّهيط : تصغير رهط . قال ابن الأثير (رحمه الله) :

"الرّهط من الرجال ما دون العشرة وقيل إلى الأربعين ، ولا تكون فيهم امرأة ، ولا واحد له من لفظه ، ويُجمع على أرهط وأرهاط . وأراهط جمع الجمع " . النهاية في غريب الحديث : ٢٨٣/٢ . وانظر : الفائق : ٩٦/٢ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب — جزء من حديث — في : كتاب الطب : (٥٠/٧٦) . باب من لم يرق :

(٤٢) . برقم : (٥٧٥٢) . ص : ١٢٤٧ . ونحوه في : باب من اكتوى أو كوى غيره ، وفضل من لم يكتوي :

(١٧) . برقم : (٥٧٠٥) . ص : ١٢٣٩ . وفي كتاب الرقاق : (٥٥/٨١) . باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير

حساب : (٥٠) . برقم : (٦٥٤١) . ص : ١٣٨٩ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب

ولا عذاب : (٩٤) . برقم : (٢٢٠) . ١٩٩/١ .

إن كثيراً ممن يحملون مناهج دعوية يهتمون بجمع الناس على علائقهم بهدف المكاثرة بهم ، فهم يسعون أبداً للتجميع والتنظيم والتحزيب من غير تمحيص ولا تهذيب ، إذ همهم الكثرة فحسب مع تباين أفكارها ، واختلاف مشارها ، ويجعلون هذا غاية يسعون للوصول إليها ، مستخرين كل ما يمكنهم لبلوغها .

وهذا في نفسه وسيلة وليس غاية . إذ الغاية هي أن تحقق عبودية الله في الأرض .

وتجميع الناس على الحماس الزائد ، والعاطفة غير الرشيدة ، والأهداف الرخيصة ، والاهتمام البالغ بذلك ، وإهمال الهدف المنشود والغاية السامية ، وهي عبادة الله وحده دون سواه مذهب خاطئ ، ومنهج تالف أثبت فشله في غير موقع ، وعدم جدواه في غير وقت ، بل جرّ من المفساد لأهل الإسلام ما يدركه كل صاحب بصيرة وعقل .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً : (٦٥) . برقم : (١٤٥) . عن

أبي هريرة ؓ . و بلفظ مقارب مع زيادة : " وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها " . برقم :

(١٤٦) ، عن ابن عمر (رضي الله عنهما) . ١٣٠/١ - ١٣١ .

فسئل عليه السلام عن الغرباء ؟ فقال في رواية : " النَّزَّاعُ مِنَ الْقِبَائِلِ " (١)
وفي رواية أخرى : " أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن
يطيعهم " (٢) . وفي رواية : " الَّذِينَ يَصْلَحُونَ إِذَا أَفْسَدَ النَّاسُ " (٣) .

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الفتن : (٣٦) . باب من ترجو له السلامة من الفتن : (١٦) . برقم: (٣٩٨٨) . عن
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٤٢٩ .
سنن الدارمي: باب إن الإسلام بدأ غريباً . ٤٠٢/٢ .
مسند أحمد: ٣٩٨/١ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر:
٢٩٦/٥ . برقم: (٣٧٨٤) .
مسند أبي يعلى: ٣٨٨/٨ . برقم: (٤٩٧٥) . قال المحقق : " إسناده صحيح " .
(٢) مسند أحمد: بلفظه في : ١٧٧/٢ . و بلفظه إلا أحرف يسيرة في : ٢٢٢/٢ . قال أحمد شاكر (رحمه الله):
" إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٣٥/١٠ - ١٣٦ - ٢٩/١٢ . برقم: (٦٦٥٠ ، ٧٠٧٢)
عن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) .
معجم الطبراني الأوسط: بلفظ مقارب في : ١٤/٩ .
الزهد لأبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك المروزي . تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي . طبعة دار الكتب العلمية .
بيروت : بلفظ مقارب في : ص : ٢٦٧ .
كتاب الزهد الكبير لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي . تحقيق : عامر أحمد حيدر . طبعة : مؤسسة الكتب
الثقافية . بيروت . الطبعة الثالثة : ١٩٩٦م : نحو في : ١١٦/٢ .
الفردوس بمأثور الخطاب : بلفظ مقارب في : ٤٤٩/٢ .
و انظر : مجمع الزوائد : ٢٧٨/٧ . الترغيب والترهيب : ٦٤/٤ . وقال : " وأحد إسنادي الطبراني رواه رواة
الصحيح " .

(٣) مسند أحمد: بلفظه في : ٧٣/٤ . عن عبد الرحمن بن سنة رضي الله عنه .
مسند أبي يعلى: نحو في : ٩٩/٢ . برقم: (٧٥٦) . قال المحقق : " إسناده صحيح " . عن سعد بن مالك رضي الله عنه .
معجم الطبراني الكبير: بلفظ مقارب في : ١٦٤/٦ . وفي المعجم الصغير : ١٨٣/١ . عن سهل بن سعد الساعدي
رضي الله عنه .
مسند الشهاب : بلفظه — إلا إنه قال : " فسد " — في : ١٣٩/٢ . عن سهل رضي الله عنه .
الجهاد لعبد الله بن المبارك . تحقيق : نزيه حماد . طبعة : الدار التونسية . تونس . ١٩٧٢م . ولفظه : " الَّذِينَ
هم صالحون عند فساد الناس " . عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) موقوفاً عليه . ص : ١٦٤ .

وفي رواية : " الَّذِينَ يَصْلَحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي " . (١)

وفي رواية : " الَّذِينَ يَحْيُونَ سُنَّتِي وَيَعْلَمُونَهَا عِبَادَ اللَّهِ " (٢)

قال أبو العباس القرطبي (رحمه الله) :

" الإسلام نشأ في أول أمره في آحاد من الناس وقلة ، ثم انتشر وظهر ، فأخبر ﷺ أنه سيلحقه من الضعف والاختلال حتى لا يبقى إلا في آحاد وقلة كابتدائه " . (٣)

وهناك عدة احتمالات في معنى غربة الإسلام ، من ذلك :

— أنه بدأ غريباً لا يعرف ثم ظهر وعرف ، ثم يقل بعد ذلك من يعرفه حتى يكون كحاله الأولى .

— أنه في آخر الدنيا لا يبقى مسلم إلا قليل ، وهذا إنما يكون بعد الدجال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة .

— أنه يكون غريباً في بعض شرائعه وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة ، حيث تخفى بعض شرائعه فلا يعرفها إلا الواحد بعد الواحد . (٤)

(١) سنن الترمذي: بلفظه في : كتاب الإيمان : (٣٧) . باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريباً : (١٣) . برقم: (٢٦٣٠)

عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف بن زيد بن ملحثة عن أبيه عن جده . قال أبو عيسى (رحمه الله) : " هذا حديث حسن صحيح " . وقال الألباني (رحمه الله) : " ضعيف جداً " . ص: ٤٢٦ .

معجم الطبراني الكبير: بلفظه — إلا إنه قال : " الناس بعدي " — . في ١٦/١٧ .

(٢) مسند الشهاب : بلفظه — في موضعين — في : ١٣٨/٢ . عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده .

(٣) المفهم : ٣٦٢/١ . وذكر نحوه التتوي (رحمه الله) ونسبه إلى القاضي عياض (رحمه الله) . انظر : شرح التتوي على صحيح مسلم : ١٧٧/٢ .

(٤) مجموع الفتاوى : ٢٩٥/١٨-٢٩٨ بتصرف . وهي رسالة في شرح الحديث أعلاه ، ضمنها ابن قاسم

(رحمه الله) مجموع الفتاوى . قال شيخ الإسلام : " وهذا الحديث يفيد المسلم أنه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الإسلام ، ولا يضيق صدره بذلك ، ولا يكون في شك من دين الإسلام كما كان الأمر حين بدا " .

المرجع السابق : ٢٩٧/١٨ .

والغرباء قد بين صفاتهم فيما سبق من روايات ، وإنما سموا غرباء لقلّتهم في النَّاسِ جداً ، وأن أكثر النَّاسِ على غير هذه الصفات .

فأهل الإسلام في النَّاسِ غرباء ، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء ، وأهل العلم في المؤمنين غرباء ، وأهل السنّة الذين يميزونها من أهل الأهواء والبدع غرباء ، والدّاعون إليها الصّابرون على أذى المخالفين أشدّ هؤلاء غربّة ، وهي غربّة أهل الله وأهل سنّة رسوله ﷺ بين الخلق ، وهي التي مدحها رسول الله ﷺ ومدح أهلها ، وهي قد تكون في مكان دون مكان ، ووقت دون وقت ، وبين قوم دون قوم .

ومن صفات أهلها إنهم لم يأووا إلى غير الله ، ولم ينتسبوا إلى غير رسول الله ﷺ ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به ، وهم الذين فارقوا النَّاسِ أحوج ما كلنوا إليهم ، فإذا انطلق النَّاسِ يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم ، فيقال لهم : ألا تتطلقوا حيث انطلق النَّاسِ ؟ فيقولون : " فارقنا النَّاسِ ونحن أحوج إليهم منّا اليوم ، وإنا ننتظر ربّنا الذي كنا نعبده " .^(١)

(١) عن أبي سعيد الخدري رحمه الله : أن أناساً في زمن النبي ﷺ قالوا : يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة ؟ قال النبي ﷺ : " نعم هل تضارّون في رؤية الشّمس بالظّهرة ضوء ليس فيها سحب ؟ " قالوا : لا قال : " وهل تضلّون في رؤية القمر ليلة البدر ضوء ليس فيها سحب ؟ " قالوا : لا . قال النبي ﷺ : " ما تضارّون في رؤية الله عزّ وجلّ يوم القيامة إلّا كما تضارّون في رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن تنبّع كلّ أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلّا يتساقطون في التّار ، حتّى إذا لم يبق إلّا من كان يعبد الله برّ أو فاجر وعُتّرات — بقية — أهل الكتاب ، فيدعى اليهود فيقال لهم : من كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنّا نعبد عزيزاً ابن الله . فيقال لهم : كذبتم ما اتّخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فماذا تبغون ؟ فقالوا : عطشنا ربّنا فاسقنا فيشار إلّا تردون فيحشرون إلى التّار كأنّها سراب يحطّم بعضها بعضاً فيتساقطون في التّار . ثمّ يدعى النصارى فيقال لهم من كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنّا نعبد المسيح ابن الله . فيقال لهم كذبتم ، ما اتّخذ الله من صاحبة ولا ولد . فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فكذلك مثل الأوّل حتّى إذا لم يبق إلّا من كان يعبد الله من برّ أو فاجر أتاهم ربّ العالمين في أدنى صورة من ألّى رأوه فيها . فيقال : ماذا تنتظرون تنبّع كلّ أمة ما كانت تعبد ؟ قالوا : فارقنا النَّاسِ في الدّنيا على أفقر ما كنّا إليهم ولم نصاحبهم ، ونحن ننتظر ربّنا الذي كنّا نعبد . فيقول : أنا ربّكم . فيقولون : لا نشرك بالله شيئاً مرّتين أو ثلاثاً " .

فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس لأنّ وليّه الله ورسوله والّذين آمنوا ، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه .

ومن صفاتهم التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس ، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم ، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس ، وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة ، بل هم منتسبون إلى الله بالعبودية وإلى الرسول بالاتباع ، وهم القابضون على الجمر حقاً ، وأكثر الناس لائم لهم لغربتهم بينهم يعدّونهم أهل شنوذ وبدعة ومفارقة للسواد الأعظم ، وهم النزاع من القبائل الذين وفدوا وتغربوا عن قبائلهم وعشائرهم فدخلوا الإسلام آحاداً .

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً ، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات ، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول ﷺ ، فإنّ ما جاء به يضادّ أهواءهم ولذاتهم وشبهاتهم وبدعهم التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم ، وشهواتهم التي هي غاية مقاصدهم وإراداتهم ؟.

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين اتّبعوا أهواءهم وأعجب كلّ منهم برأيه ، وقد روي عنه ﷺ : " مروا

صحيح البخاري: كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠] : (٨) .

برقم: (٤٥٨١) . ص : ٩٥٨ . وانظر : كتاب الرقاق : (٥٥/٨١) . باب الصراط جسر جهنم : (٥٢) .

برقم: (٦٥٧٣) . ص : ١٣٩٤ . كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى : ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ

نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] : (٢٤) . برقم: (٧٤٣٩) . ص : ١٥٦٢ .

صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب معرفة طريق الرؤية : (٨١) . برقم: (١٨٢ ، ١٨٣) .

١٦٨-١٦٣/١ .

بالمعروف وانها عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً^(١) مطاعاً ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، ورأيت أمراً لا يد لك به فعليك بخاصة نفسك وإياك وعوامهم ، فإن وراءكم أيام صبر الصّابر فيهنّ كالقابض على الجمر " . (٢)

فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه ، وفقهاً في سنة رسوله ، وفهماً في كتابه ، وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبده والضلالات ، وتكبرهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، فإذا أراد

(١) الشحّ: أشدُّ البخل ، وقيل: هو البخل مع الحرص . وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها ، والشحّ عام . وقيل: البخل بالمال والشحّ بالمال والمعروف . يقال: شحّ يشحّ شحاً فهو شحيح . والاسم الشحّ . انظر: النهاية في غريب الحديث: ٤٤٨/٢ .

(٢) عن أبي أمية الشعباني قال: سألت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية ﴿عَلَيْكُمْ

أَنْفُسُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: "بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك يعني بنفسك ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيه مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله " — وزادني غيره — قال يا رسول الله: أجر خمسين منهم ؟ قال: "أجر خمسين منكم " .

سنن أبي داود: كتاب الملاحم: (٣٦) . باب الأمر والتبهي: (١٧) . برقم: (٤٣٤١) . قال الألباني (رحمه الله): "ضعيف لكن فقرة أيام الصبر ثابتة " . ص: ٤٧٤ .

و انظر: سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن: (٤٣) . باب ومن سورة المائدة: (٥) . برقم: (٣٠٥٨) . وقال: "هذا حديث حسن غريب " . وقال الألباني (رحمه الله): "ضعيف لكن بعضه صحيح " . ص: ٤٨٧ .

سنن ابن ماجه: كتاب الفتن: (٣٦) . باب قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]: (٢١) . برقم: (٤٠١٤) . ص: ٤٣١ .

سنن البيهقي: ٩١/١٠ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: برقم: (٣٨٥) . ١٠٨/٢-١٠٩ .

مستدرک الحاكم: ٣٥٨/٤ . وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . وقال الذهبي (رحمه الله): "صحيح " .

أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه على قدح الجهال ، وأهل البدع فيه ، وطعنهم عليه ، وإزرائهم به ، وتنفير الناس عنه ، وتحذيرهم منه ، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ ، فأما إن دعاهم إلى ذلك وقدر فيما هم عليه فهناك تقوم قيامتهم ويبغون له الغوائل (١) ، وينصبون له الحبائل ، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله .

فهو غريب في دنيه لفساد أديانهم ، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع ، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم ، غريب في صلاته لسوء صلاتهم ، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم ، غريب في نسبته لمخالفة نسبهم ، غريب في معاشرته لهم لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم . وبالجمله فهو غريب في أمور دنياه وآخرته ، لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً ، فهو عالم بين جهال ، صاحب سنة بين أهل بدع ، داع إلى الله ورسوله بين دعاة الأهواء والبدع ، أمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف (٢).

(١) الغوائل : هي الدواهي . وهي الأمور المهلكة . وانظر : مختار الصحاح : ص : ٤٨٧ . لسان العرب : ٥٠٧/١١ .

(٢) مدارج السالكين : ١٩٩/٣ - ٢٠٠ بتصرف .

قال ﷺ لابن عمر (رضي الله عنهما) : " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل .. " الحديث - صحيح البخاري: كتاب الرقاق : (٥٥/٨١) . باب قول النبي ﷺ : " كن في الدنيا كأنك غريب " : (٣) . برقم: (٦٤١٦) . ص : ١٣٦٧ - فالمؤمن غريب في هذه الدار أين ما حلّ فيها فهو في دار غربة وعناء وتعب لا راحة له فيها ، بل وصفها النبي ﷺ بأنها سجن المؤمن - عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " . صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق : (٥٣) . برقم: (٢٩٥٦) . ٢٢٧٢/٤ . وغرته فيها لا تنفك ولا تنقضي حتى يهاجر إلى وطنه الأول ودار كرامته ، وأنسه بربه في جنته التي لا زال حنينه إليها ، وقلبه يتفطر عليها .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ***** ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ***** وحنينه أبداً لأول منزل
فحنينه أبداً لداره التي سقى منها وفرق بينه وبين من يحب ، وجمع بينه وبين عدوه الماكر في هذه الدنيا .
وحي على جثات عدن فإئنها ***** منازل الأولى وفيها المخيم

ونفس الإنسان بسجيتها وطبيعتها تأنس بالنظائر والأشباه ، وتتفر من
الغربة والوحدة وتستوحش بها ، وهكذا السالك لطريق الحق يستوحش بندرة
الرفيق وقلة الصاحب والمعين ، فلا يدفعه ذلك إلى عدم الثبات ، وليوطن نفسه
على الصبر مع مرّ الاغتراب .

قال الحسن البصري (رحمه الله) :

" سنّتم والّذي لا إله إلاّ هو بينهما : بين الغالي والجافي ، فاصبروا عليها
رحمكم الله ، فإنّ أهل السنّة كانوا أقلّ النّاس فيما مضى ، وهم أقلّ النّاس فيما
بقي ، الّذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ، ولا مع أهل البدع في
بدعهم ، وصبروا على سنّتهم حتّى لقوا ربّهم ، فكذلك إن شاء الله فكونوا " (١).

والّذي يعينه على الصبر والثّبات مع الغربة وقلة السّالّكين هو علمه بأنّ
الحقّ في أصله صحيح ، فلا يعتمد في ثبوت صحته على أكثرية أهله ، لأنّه لا
يُعرف بالكثرة والعدد وإنّما يُعرف بالتمسكّ به ، والسّير على منواله ولو قلّ
أهله .

ولكنّنا سيّئ العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلّم

وانظر : مفتاح دار السّعادة : ١٥٠/١ - ١٥١ .

(١) سنن الدارمي : في المقلّمة . باب في كراهية أخذ الرّأي . ٨٣/١ .

ولنعم ما قليل :

إنّ القلوب يد الباري تقلّبها فسأل الله توفيقاً وتثبيتاً

من يضلّل الله لا تهديه موعظة وإن هديت في الأخبار أنبيتا

فهذه غربة الإسلام أنت بها فكن صبوراً ولو في الله أوديتا

قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر . لمحمد صديق حسن خان القنوجي . تحقيق : عاصم عبد الله القريوتي .

طبعة شركة الشرق الأوسط للطباعة . الأردن . الطّبعة الأولى : ١٤٠٤هـ : ص : ١٧٠ .

قال ابن مسعود رضي الله عنه :

"الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك" (١).

قال ابن بطّة (رحمه الله) :

"أنشدني شيخ من أهل العلم بالبصرة في جامعها :

الطَّرْقُ شَتَّى وطرق الحق مفردة والسالكون طريق الحقّ آحاد
لا يطلبون ولا تبقى مآثرهم فهم على مهل يمشون قصّاد
والنّاس في غفلة عمّا يراد بهم فكلمهم عن طريق الحقّ حوّاّد" (٢).

كما يعينه على الثّبات وعدم الوحشة أن يعلم أن طريقه طريق سلكه
الصّالحون من قبله ، فليستشعر قلبه مرافقتهم حتّى يستأنس من وحشته ، ويظلّ
في سيره لا ينحرف عنه .

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث : ص : ٢٧ . إغاثة اللّاهفان : ٧٠/١ . وهو في شرح أصول اعتقاد أهل
السّنة : بلفظ : " إنّ جمهور الجماعة هي الّتي تفارق الجماعة ، إنّما الجماعة ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك " .
١٠٩/١ . وقد سبق قول أبي شامة (رحمه الله) قريباً . انظر : ص : ٩٣٨ .

(٢) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٥٧٥/٢ .

وقوله : حوّاّد صيغة مبالغة من حاد عن الطّريق والشّيء يَجِدُّ إذا عدل ومال عنه . وانظر : لسان العرب :
١٥٩/٣ . القاموس المحيط : ص : ٣٥٦ .

ولا يعني هذا غياب الحقّ ، وفساد الدّين جملة ، بل الحقّ ظاهر ، والدّين باق ، وحقّة الله قائمة بحفظ الله
لكتابه وسنة رسوله ﷺ كما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُم لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]
ولقول النبي ﷺ : " لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ لا يضرهم من خذلهم ، حتّى يأتي أمر الله وهم
كذلك " . سبق تخريجه ص : ٨١٣ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) : " فقد أخبر الصّادق المصدوق أنّه لا تزال طائفة ممتّعة من أمّته على
الحقّ أعزّاء لا يضرهم المخالف ولا خلاف الخاذل . فأما بقاء الإسلام غريباً ذليلاً في الأرض كلّها قبل الساعة فلا
يكون هذا " . مجموع الفتاوى : ٢٩٦/١٨ .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه ، مريداً لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزّة ، والنفوس مجبولة على وحشة التفرّد ، وعلى الأنس بالرفيق ، نبه الله سبحانه على الرقيق في هذه الطريق ، وأنهم هم الذين ﴿ أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له ، وهم الذين أنعم الله عليهم ، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرّده عن أهل زمانه وبني جنسه . وليعلم أنّ رفيقه في هذا الصراط : هم الذين أنعم الله عليهم ، فلا يكثر بمخالفة الناكبين عنه له ، فإنهم هم الأقلون قدراً ، وإن كانوا الأكثرين عدداً . كما قال بعض السلف (١) : " عليك بطريق الحق ، ولا تستوحش لقلة السالكين ، وإياك وطريق الباطل ، ولا تغتر بكثرة الهالكين " . وكلما استوحشت في تفرّدك فانظر إلى الرفيق السابق ، واحرص على اللحاق بهم ، وعضّ الطرف عمّن سواهم ، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك ، فلا تلتفت إليهم ، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك " (٢) .

وليتذكّر السائر على منهج السلف أنّ تلك الوحشة من عوارض الطريق ، فهي وحشة لا تدوم ، بل سرعان ما تنقطع وتزول حين يصل إلى برّ الأمان ويُهنا بسلامة الوصول ، ويسعد بكرامة الرّب الغفور ، وهو يتلوا قوله سبحانه :

﴿ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس: ٢٦-٢٧] (٣) .

(١) ذكر ابن عساكر في تبين كذب المفتري قولاً قريباً منه ونسبه إلى الفضيل بن عياض رحمه الله . ص : ٣٣١ .
(٢) مدارج السالكين : ٢١/١ - ٢٢ . وانظر : إغاثة اللّهفان : ٦٩/١ . شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٣٠٧-٣٠٨ . طبعة المكتب الإسلامي .
(٣) وانظر : طريق المحرّتين : ص : ٢٨٦ .

وليحمد الله الذي وقَّفه على الثَّبات على الصِّراط المستقيم ولم يكن من الأكثرية الهالكة الزائغة عن الحق ، وتلك نعمة عظيمة لا تقدر بثمن ، أن يسلم المؤمن ويعافى وينجو من المهالك والبلايا والصَّوارف التي صرفت الأكثرية السَّاحقة عن منهج الله وألقت بهم في درك الضلال وبؤر الردى ، وأفلت ذاك المؤمن مع من أفلت ، وقليل ما هم ، فثبت على الحق ، وسار على الدرب حتى حطَّ رحاله في جنة الرَّب .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" إنَّ القواطع كثيرة شأنها شديد لا يخلص من حبالها إلا الواحد بعد الواحد ، ولو لا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين ، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها ، ولكنَّ الله يفعل ما يريد ، والوقت كما قيل : سيف فإن قطعته وإلا قطعك ، فإذا كان السير ضعيفاً ، والهمة ضعيفة ، والعلم بالطريق ضعيفاً ، والقواطع الخارجة والدَّاخلَة كثيرة شديدة فإنَّه جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وشماتة الأعداء ، إلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده ويخلصه من أيدي القواطع " .^(١)

(١) المرجع السابق : ص: ٢٨٨ .

الفصل الرابع

نماذج للثبات على المنهج الحق

وفيه مباحث :

المبحث الأول

محمد بن عبد الله

لقد هدى الله رسوله ﷺ وأرشده إلى منهج قويم ، وصراط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا انثناء ، وأمره أن يبلغ الخلق ذلك ، ويخبرهم بما هو فيه من نعمة عظيمة ندر مثالها ، وقلّ شبيهها ، فقدما كثير من الناس ممن ضلّوا طريق الحق ، وولجوا طرق الضلال ، وانحرفت مناهجهم ، وتشعبت طرقهم ، ووفق ﷺ بهداية الله له فكان على منهج الحق ، ومسلك الصّدق .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١] ^(١).

وقد شهد له الرب سبحانه بالثبات على ذاك المنهج ، ومدحه بذلك ، وأمره أن يزداد تمسكاً بكتاب الله العظيم وصفاً وفعلًا وقولاً ، حتّى يظلّ ثابتاً على المنهج ، باقياً عليه ، لا يزول ولا يحول . فقال جلّ في علاه : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الزّحرف: ٤٣] .

(١) وانظر معناها في : جامع البيان : ١١١/٨ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥٢/٧ . أنوار التّزويل : ٤٧١/٢ . تفسير القرآن العظيم : ٣١٧/٢ . فتح القدير : ١٨٤/٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٤٥ .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" يقول تعالى ذِكْرُهُ لَنُبَيِّهَ مُحَمَّدًا ﷺ : فتمسك يا محمد بما يأمرك به هذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك ، ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ومنهاج شديد ، وذلك هو دين الله الذي أمر به ، وهو الإسلام " . (١)

بل أقسم سبحانه بقسم شريف على مُقَسِّمٍ عليه جليل ، فقد أقسم بالقرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على أن محمداً ﷺ رسوله حقاً ، وأنه ثابت على منهج حق مستقيم لم يفارقه طرفة عين ، أو ومضة بوق ، لأنه تنزيل من الخالق الرحيم سبحانه ، الذي من رحمته شرع لعباده منهجاً واضحاً قوياً ، ليسيروا ويثبتوا عليه كما سار وثبت عليه إمامهم وقودتهم ﷺ ، وعليه أن يدعوهم لذلك ، ويحذّرهم عاقبة الانحراف والزّيغ عن منهج الله تعالى فقال عز وجل : ﴿ يَسَّ ۖ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۖ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ ﴾ ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ ﴾ تنزيل العزيز الرحيم ﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۖ ﴾ [يس: ١-٦] (٢) .

وقد ذكر سبحانه أن منهجه ﷺ منهج واضح مستقيم ، اختاره له ربه لأنه كَلِّه حقّ وهدى ، يبلغ المقصود ويوصل إلى المطلوب ، وأن أعداء الله لن يكفوا عن مجادلته ومنازعته ليحرفوه عن ذلك المنهج ، ويصرفوه عنه ، فعليه ألا يعبأ بمنازعتهم ، ولا يلتفت إلى جدالهم ، إذ هو نزاع وجدال بالباطل ، وليثبت على منهج الله كما أراد الله ، وقد فعل .

(١) جامع البيان : ٧٦/٢٥ . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ١٩٥/٤ . تيسر الكريم الرحمن : ص : ٧١٢ .
(٢) وانظر معنى الآيات في : جامع البيان : ١٤٨/٢٢ - ١٥٠ . معالم التنزيل : ٥/٤ . الجامع لأحكام القرآن : ٦-٣/١٥ . أنوار التنزيل : ٤٢٥-٤٢٦ . تفسير القرآن العظيم : ٨٩٧/٣ . فتح القدير : ٣٦٠/٤ . تيسر الكريم الرحمن : ص : ٦٣٨-٦٣٩ .

قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧-٦٨] (١) .

قال سيّد قطب (رحمه الله) :

" جعل الله لكلّ أمة منسكاً هم ناسكوه ، ومنهجاً هم سالكوه فلا داعي إذن لأن يشغل الرّسول ﷺ نفسه بمجادلة المشركين ، وهم يصدّون أنفسهم عن منسك الهدى ، ويمعنون في منسك الضلال ، والله يأمره ألا يدع لهم فرصة لينازعوه أمره ، ويجادلوه في منهجه ، كما يأمره أن يمضي على منهجه لا يلتفت ولا ينشغل بجدل المجادلين ، فهو منهج مستقيم : ﴿ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فليطمئن إذن على استقامة منهجه ، واستقامته هو على الهدى في الطريق ، فإن تعرض القوم لجداله فليختصر القول ، فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد " (٢) .

بل أمره الله تعالى أن يواجه أولئك الكفار المجادلين والمنازعين في الحق بخطاب شديد اللهجة ، ملئ بالتهديد ، وشحن بالوعيد ، وصُـبـغ بالتحدي : أن يثبتوا على ما هم عليه من منهج باطل وطريق ضال ، فهو ﷺ ثابت على ما هو عليه من منهج حق وطريق هدى ، لن ينصرف أو ينحرف عنه ، وذلك معنى قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٥] (٣) .

(١) التّسك : العبادة ، والتّاسك العابد ، واختصّ بأعمال الحجّ ، والمناسك مواقف التّسك وأعمالها . مفرداً منسك .

والنّسيكة : مختصة بالذّبيحة . المفردات : ص : ٤٩٠ . بتصرّف .

(٢) في ظلال القرآن : ٢٤٤٢/٤ .

(٣) وانظر : الآيتين (١٢١ ، ١٢٢) من سورة هود . والآيتين (٣٩ ، ٤٠) من سورة الزّمر .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" هذا تهديد شديد ووعد أكيد ، أي استمرّوا على طريقتكم وناحياتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمرّ على طريقتي ومنهجي " . (١)

وقال الشوكاني (رحمه الله) :

" المكانة : الطريقة ، أي اثبتوا على ما أنتم عليه ، فإنني غير مبال بكم ولا مكترث بكفركم ، إنني ثابت على ما أنا عليه ، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ من هو على الحقّ ومن هو على الباطل ، وهذا وعيد شديد فلا يرد ما يقال : كيف يأمرهم بالثبات على الكفر ؟ " . (٢)

ويقول سيّد قطب (رحمه الله) :

" إنه تهديد الواثق من الحقّ الذي معه ، والحقّ الذي وراءه ، ومن القوّة التي في الحقّ ، والقوّة التي وراء الحقّ ، التهديد من الرّسول ﷺ بأنّه نافض يديه من أمرهم ، واثق ممّا هو عليه من الحقّ ، واثق من منهجه ، وطريقه ، واثق كذلك ممّا هم عليه من الضلال ، وواثق من مصيرهم الذي هم إليه منتهون " . (٣)

وكيف لا يثبت ﷺ على هذا المنهج وهو الذي يدعو الناس للانتماء إليه ، ويهديهم للسّير عليه ، ويأمرهم بالثبات عليه ، ويحذّرهم من الزّيف عنه ؟ .

قال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢٨٧/٢ .

(٢) فتح القدير : ١٦٤/٢ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٨٩/٧ .

(٣) في ظلال القرآن : ١٢١١/٣ .

وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

قال السَّعْدِي (رحمه الله) :

" ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي : تبيِّنه لهم وتوضِّحه ، وترغبهم فيه ، وتنههم عن ضده ، وترهبهم منه ، ثم فسَّر الصِّرَاطَ المستقيم فقال : ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي : الصِّرَاطُ الَّذِي نصبه الله لعباده ، وأخبرهم أنه موصل إليه ، وإلى دار كرامته " . (١)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنَّ السُّنَّةَ والشَّريعةَ والمنهاجَ هو الصِّرَاطُ المستقيم الَّذِي يوصل العبادَ إلى الله ، والرسول هو الدليل الهادي الخريَّت (٢) في هذا الصِّرَاطِ " . ثم ذكر الآية السابقة وأورد معها غيرها . (٣)

وقد ثبت ﷺ على منهج ربِّه حتَّى لقي مولاه وهو على ذلك ، لأنَّ مولاه قد قال له : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحج: ٩٩] . وقد فعل بأبي هو وأمِّي صلوات الله وسلامه عليه .

(١) تيسير الكريم الرَّحْمَن : ص : ٧٠٨ .

(٢) الخريَّت : الماهر الَّذِي يَهْتَدِي لِأَخْرَاطِ الْمَفَاوِزِ ، وهي طُرُقُهَا الخَفِيَّةُ وَمَضَائِقُهَا ؛ وقيل : هو الَّذِي يَهْتَدِي فِي مِثْلِ ثَقْبِ الْإِبْرَةِ مِنَ الطَّرِيقِ . لسان العرب : ٣٠/٢ . بتصرُّف .

(٣) مجموع الفتاوى : ٥٧/٤ .

المبحث الثاني

شعيب عليه السلام

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ شَعِيباً عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ ^(١) ، وَكَانُوا كُفَّاراً يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ ، وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ، وَيَخِيفُونَ الْمَارَةَ ، وَكَانُوا مِنْ أَسْوَأِ النَّاسِ مَعَامِلَةً ، يَبْخَسُونَ ^(٢) الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَيَطْغُونَ فِيهَا ، وَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ ، وَبَسَطَ لَهُمْ فِي الْعَيْشِ لَيْسْتَ دَرَجَتُهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ بِهِ .

وَكَانَ شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصِيحاً بَلِيجَ الْعِبَارَةِ ، حَسَنَ الْمَرَاجَعَةِ لِقَوْمِهِ حَتَّى عُرِفَ بِخَطِيبِ الْأَنْبِيَاءِ ^(٣) .

فَدَعَاهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَذَلِكَ هُوَ التَّوْحِيدُ مَفْتَتِحُ دَعْوَةِ الرِّسَالِ جَمِيعاً ، وَالْأَصْلُ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ مِنْهُمْ ، وَالْأَسَاسُ الَّذِي يَبْدَأُ بِهِ طَرِيقَهُمْ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالْعَدْلِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الظُّلْمِ الْمَتَمَثِّلِ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى سُلُوكِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَمَنْهَجِهِ الْحَقَّ الْقَوِيمِ ، وَأَلَّا يَزِيغُوا عَنْهُ ، وَيَمْنَعُوا النَّاسَ مِنْ سُلُوكِهِ ، وَيُظْهِرُونَهُ بِمُظْهِرِ الْمُنْحَرِفِ الْمَعُوجِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ السَّيْرُ عَلَيْهِ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ (رَحِمَهُ اللَّهُ) : " كَانَ أَهْلُ مَدْيَنَ قَوْمًا عَرَبًا يَسْكُنُونَ مَدِينَتَهُمْ مَدْيَنَ الَّتِي هِيَ قَرْيَةٌ مِنْ أَرْضِ مُعَانَ مِنْ أَطْرَافِ الشَّامِ تَمَّا يَلِي نَاحِيَةَ الْحِجَازِ قَرِيبًا مِنْ بَحِيرَةِ قَوْمِ لُوطَ ، وَكَانُوا بَعْدَهُمْ بِمُدَّةٍ قَرْيَةً . وَمَدْيَنُ قَبِيلَةٌ عُرِفَتْ بِهِمُ الْقَبِيلَةُ ، وَهُمْ مِنْ بَنِي مَدْيَانَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ، وَشَعِيبُ نَبِيَّهُمْ هُوَ ابْنُ مَيْكِلَ بْنِ يَشْجَنَ " . الْبَدَايَةُ وَالتَّهْيِئَةُ : ١٨٤/١ - ١٨٥ . وَقَدْ ذَكَرَ (رَحِمَهُ اللَّهُ) اخْتِلَافًا فِي نَسَبِ شَعِيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَمْ يَرْجَحْ شَيْئاً .

(٢) الْبَخْسُ: التَّقْصُصُ . يَبْخَسُهُ حَقَّهُ يَبْخَسُهُ بَخْسًا إِذَا نَقَصَهُ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ: لَا تَظْلِمُوهُمْ . وَالْبَخْسُ مِنَ الظُّلْمِ أَنْ تَبْخَسَ أَحَاكَ حَقَّهُ فَتَنْقُصَهُ كَمَا يَبْخَسُ الْكَيْلُ مِكْيَالَهُ فَيَنْقُصُهُ . لِسَانُ الْعَرَبِ : ٢٤/٦ . بَتَصَرَفَ . وَانْظُرَ :

مَخْتَارُ الصَّحَاحِ : ص : ٤٢ . الْقَامُوسُ لِحَيْطَ : ص : ٦٨٤ - ٦٨٥ .

(٣) وَانْظُرَ : تَارِيخُ الطَّيْرِي : ١٩٧/١ - ١٩٨ . الْبَدَايَةُ وَالتَّهْيِئَةُ : ١٨٥/١ .

وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾

[الأعراف: ٨٦].

قال الشيخ السعدي (رحمه الله) في بيان قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ :

"أي تبغون سبيل الله تكون معوجة ، وتميلونها اتباعاً لأهوائكم ، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ، ودار كرامته ، ورحمهم بها أعظم رحمة ، وتصتتون لنصرتها ، والدعوة إليها ، والذب عنها ، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها ، الصادين الناس عنها ، فإن هذا كفر لنعمة الله ، ومحادة الله ، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة ، وتشنعون على من سلكها " (١).

ولكنهم لم يستجيبوا لأمره ، ولم لينصاعوا لقوله : بل واجهوه بالتهكم والسخرية والاستهزاء . ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَاأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ﴿٨٧﴾

[هود: ٨٧]. وهذا قيل على سبيل الاستبعاد لإجابتهم له ، ومعنى ذلك أنه لا موجب لانصياعنا لأمرك ، واجتنابنا لنهيك ، والتزامنا بسلوك منهجك إلا أنك تصلي وتعبد الله ، وهل هذا يوجب لنا أن نترك ما كان عليه آبائنا أصحاب العقول وأولي الألباب ، أم نمتنع أن نتصرف في أموالنا كما يحلو لنا ونشاء ، وما هذا منك إلا حلم ورشد ؟ ، يريدون السفة والغواية ، على سبيل التهكم والاستهزاء .

فأجابهم عليه السلام مرغباً لهم فيما يدعوهم إليه ، محذراً لهم عن مخالفته

وشقاقه .

(١) تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٥٩ .

﴿ قَالَ يَنْقُومِ آرَاءُ يَتَمَرِّانِ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [٨٨] وَيَنْقُومِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ [٨٩] وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [٩٠]

[هود: ٨٨-٩٠] .

أي يا قوم أخبروني إن كنت على بصيرة من أمري ، وحجة قائمة ، ومنهج بين ، ويقين وطمأنينة في صحة ما جئت به ، وأعطاني الله النبوة والعلم والرزق الحلال ؟ . ومع ذلك فلست أنهاكم عن أمر وأفعله ، وأمركم بأمر واجتنبه ، إنما أريد إصلاح أمركم ، واستقامتكم بحسب طاقتي واجتهادي ، وما يحصل لي من التوفيق والهداية في ذلك فهو من الله لا من أحد سواه ، وهو الذي عليه أتوكل ، وإليه مرجعي ومصيري في جميع أموري .

ثم انتقل معهم إلى مقام الترهيب فحذّرهم من مخالفته ومشاققته وعداوته فإنها تجلب لهم من العذاب والهلاك ما أصاب الأمم السابقة . فأجابوه : ﴿ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴾ [هود: ٩١] . أي لا نفهم ما دعوتنا إليه ، ولا نعقله لأننا لا نحبه ولا نريده ، وليس لنا رغبة فيه ، بل نحن معرضون عنه ، وأنت ضعيف مضطهد مهجور لا معزة لك ولا قوة ، ولست من الكبراء ولا الرؤساء ، ولو لا أن قبيلتك وعشيرتك على ما نحن عليه لرجمناك بالحجارة . وقيل : لسببناك . فقال لهم

مترققاً بهم : ﴿ يَنْقُومِ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذَتْهُمْ وِرَاءَكُمْ
ظَهْرِيَّآ إِنَّ رَبِّيْ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود: ٩٢] (١) .

يقول : أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظماً لجناح الربّ تبارك وتعالى
أن تتألوا نبيّه بمساءة ، وقد اتّخذتم أمره خلف ظهوركم لا تبالون به ، ولا تطيعونه
ولا تعظمونه ، وهو يعلم جميع أعمالكم ، وسيجزىكم بها . (٢)

ثمّ أردف قائلاً : ﴿ وَيَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ
رَقِيبٌ ﴾ [هود: ٩٣] .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" وهذا أمر تهديد شديد ووعد أكيد بأن يستمرّوا على طريقتهم ومنهجهم
وشاكلتهم ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ، ومن يحلّ عليه الهلاك
والبورار (٣) . " (٤)

أي سيروا على منهجكم الضالّ المنحرف واثبتوا عليه ، فإنّي سائر على
منهجي الحقّ المستقيم وثابت عليه لا أتنازل عنه ، ولا انزاح منه ، وهذا على سبيل
التهديد والوعيد ، وأكد ذلك بقوله : سوف تعلمون علم اليقين من يخزي في هذه
الدنيا ، ويحلّ عليه عظيم العذاب في الآخرة ، وهو كاذب فيما يدّعي ويزعم ،

(١) وانظر في معنى الآيات من سورة هود : معالم التنزيل : ٣٩٨/٢ - ٣٩٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٨٦/٩ - ٩٢ .
أنوار التنزيل : ٢٥٣/٣ - ٢٥٧ . تفسير القرآن العظيم : ٧٠٨/٢ - ٧٠٦ . فتح القدير : ٥١٨/٢ - ٥٢١ . تيسير
الكريم الرحمن : ص : ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٧٠٨/٢ بتصرف يسير .

(٣) البوار : الهلاك ، بار بواراً وبواراً وأبارهم : أهلكتهم . ورجل بُور : هالك . انظر : لسان العرب : ٨٦/٤ .
وانظر : مختار الصحاح : ص : ٦٨ . القاموس المحيط : ص : ٤٥٢ .

(٤) البداية والنهاية : ١٨٨/١ .

وارتقبوا إني معكم رقيب ، وهذا كقوله في الأعراف : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٧].

قال الشوكاني (رحمه الله) :

" هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم ، وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر ، وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين " (١).

ولمّا علم قومه ثباته ومن معه على الحق ، ولزومهم صراط الله المستقيم ، انبرى أشرفهم وطغاتهم المستكبرون الذين لم يكتفوا بترك الإيمان ، والتمرد عن إجابة رسولهم إلى ما دعاهم إليه ، بل تجاوزوا كل ذلك بغياً وبطراً وأشراً إلى توعده ومن آمن معه بالإخراج من قريتهم وموطنهم ، أو ينخرطون في الكفر والضلال الذي هم عليه ، ويفارقون المنهج السوي الذي سلكوه ، والحق الجلي الذي التزموه . قال تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْأَلَأَ الَّذِينَ أَتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨]

فأجابهم عليه السلام بثبات يفوق كل ما يتصورون ، وعزيمة تبتد كل ما يشتهون ، وصلابة تبيسهم ممّا يريدون فقال : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ ﴿ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩]

(١) فتح القدير : ٢/ ٢٢٤ .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم ، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً ، وإنما يعودون إليه إن عادوا اضطراراً مكرهين ، وذلك لأن الإيمان إذ خالطته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد ، ولا يرتد عنه أحد ، ولا محيد لأحد منه " . (١)

أي لا يمكن لنا ولا يتأتى أبداً أن نترك ما نحن عليه من دين حق ، ومنهج صدق ، ومسلك رشد ، وسبيل مأمون ، ونفارق الثبات الذي نحن فيه ، وننغمس في ملتكم الباطلة ، ودينكم الزائف ، ونهجم الضال ، وسبيلكم المعوج ، بعدما نجانا الله منه ، وأنقذنا من شره ، فإن فعلنا ذلك فنحن كاذبون مفترون على الله ، وهل مثلنا يعود إلى هذا الباطل ؟ إنه محال ، إلا أن يشاء الله ، وحينها لا يمكننا أن نخرج عن مشيئته التابعة لعلمه سبحانه وعظيم حكمته ، وهو الذي وسع علمه كل شيء ، وهو العالم بما يصلح عباده ، وهو مستندنا وعليه اتكأنا .

وقوله : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾

قال الشوكاني (رحمه الله) :

" أي عليه اعتمدنا في أن يثبتنا على الإيمان ، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله ، ويتم علينا نعمته ، ويعصمنا من نقمته " . (٢)

(١) البداية والتهاية : ١٨٩/١ .

(٢) فتح القدير : ٢٢٥/٢ .

وقال السَّعْدِي (رحمه الله) :

" أي اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصِّراط المستقيم ، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم ، فإن من توكل على الله كفاه ، ويسر له أمر دينه ودنياه " . (١)

ولمّا تمادى قومه في الكفر والضلال والغي ، ويئس من صلاحهم استفتح عليهم ، واستنصر ربّه في تعجيل ما يستحقونه من العذاب ، وفي ذلك نصرة للمظلوم ونجاة له ، وأخذ للظالم وهلاك له ، وقد أجاب الله دعاءه فعجل بهلاكهم وزوالهم .

رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزلاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادها ، وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها ، وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها ، وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات ، وصنوفاً من المثلات ، وأشكالاً من البليّات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات ، وظلّة أرسل الله عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات . (٢)

(١) تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٥٩ . وانظر في معنى الآيات من سورة الأعراف : معالم التنزيل : ١٨١/١-١٨٢ .

الجامع لأحكام القرآن : ٢٥٠/٧-٢٥١ أنوار التنزيل : ٤٠/٣-٤١ . تفسير القرآن العظيم : ٣٧٠/٢-٣٧١ .

فتح القدير : ٢٢٤/٢-٢٢٥ . تيسير الكريم الرحمن : ص : ٢٥٩ .

(٢) البداية والتهاية : ١٨٩/١ . وقد ذكر الله تعالى أنواع العقاب الذي أصابهم به فقال في

الأعراف : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٩١] وقال في

هود : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمٌ ﴾ [هود: ٩٤] .

وقال في الشعراء : ﴿ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] .

[الشعراء: ١٨٩] .

قال ابن كثير (رحمه الله) : " ذكر في كلّ سياق ما يناسبه ففسي الأعراف لما قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ

يَسْعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨] ناسب أن يذكر هناك الرجفة ، فرجفت

هم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وههنا لما أساءوا الأدب في مقاتلتهم على نبيهم ذكر الصيحة

المبحث الثالث

الصَّحَابَةُ

سبق أن بينت أن منهج الصحابة رضي الله عنهم هو المنهج الحق الذي ارتضاه الله لعباده ، وأشار إلى لزوم اتباعه في كتابه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] ^(١) .

وكيف لا يكون منهجهم هو الحق وقد اختارهم الله واصطفاهم لصحبة نبيه عليه السلام وإقامة دينه ؟ ، وانتقاهم من هذه الأمة وجعلهم أفضلها وخيرها لصدق إيمانهم ، وقوة يقينهم ، وسلامة قلوبهم ، وسبقهم في سبل الخير ، وعلو همهم ، ونقاء بواطنهم .

قال ابن مسعود رضي الله عنه :

" إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعته برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد

التي استلبتهم وأحمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٧] قلل : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وهذا من الأسرار الدقيقة والله الحمد والمثنة كثيراً دائماً " . تفسير القرآن العظيم :

٧٠٩/٢ . وانظر : ٣٧١/٢ - ٣٧٢ . البداية والنهاية : ١٨٩/١ .

(١) وقد سبق الحديث عن الآية : انظر : ص : ٨٠٩ فما بعدها من هذا البحث . وانظر : مجموع

الفتاوى : ٢ - ١/٤ .

قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيّه يقاتلون على دينه ، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ ^(١) . ولذا مدحهم سبحانه وزكاهم في أكثر من آية ^(٢) ، والرّسول ﷺ ربّاهم ، ومات وهو عنهم راض ، ولم تظهر فيهم البدع ولا الأهواء ولا المحدثات ، بل الحقّ يدور معهم حيث داروا ، والضلال ينفر عنهم حيث ساروا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

"الواجب على كلّ مسلم يشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له ، وطاعة رسوله ، يدور على ذلك ، ويتبعه أين وجده ، ويعلم أنّ أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصّحابة ، فلا ينتصر لشخص انتصاراً مطلقاً عامّاً إلاّ لرسول الله ﷺ ، ولا لطائفة انتصاراً مطلقاً عامّة إلاّ للصّحابة ﷺ أجمعين ، فإنّ الهدى يدور مع الرّسول حيث دار ، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا ، فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قطّ ، بخلاف أصحاب عالم من العلماء فإنهم قد يجمعون على خطأ " ^(٣) .

وقد كانت عقولهم راجحة ، وأذهانهم متوقّدة ، وأفهامهم مدركة ، وهم أهل الفطرة والإيمان ، وأرباب الفصاحة والبيان ، نزل القرآن بلسانهم ، والرّسول بينهم يوضّح لهم ما أشكل عليهم ، ويبين لهم ما خفي عنهم ، ويوجههم إلى الطّريق السليم ، والمسلك القويم ، ولذا حازوا قصب السبق في كلّ الفضائل ،

(١) مسند أحمد: بلفظه في : ٣٧٩/١ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): "إسناده صحيح" . مسند أحمد بتحقيق أحمد

شاكر: ٢١١/٥ . برقم: (٣٦٠٠) .

معجم الطّبراني الكبير: نحوه في: ١١٢/٩ .

مسند أبي داود الطيالسي: نحوه في: ص: ٣٣ . برقم: (٢٤٦) .

فضائل الصّحابة للإمام أحمد بن حنبل . تحقيق: د. وصي الله محمّد عباس . طبعة : مؤسسة الرّسالة . بيروت .

الطّبعة الأولى : ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م : نحوه في: ٣٦٧/١ .

(٢) انظر: التوبة : الآية: (١٠٠) . الفتح : الآية: (١٨ ، ٢٩) . الحشر : (٨-٩) .

(٣) منهاج السنّة : ٢٦١-٢٦٢ / ٥ وانظر : دراسات في الأهواء والفرق : ص: ١٠٧ .

ونالوا إمامة الدين في هذه الأمة بعد نبيها ، وتبوؤا في ذلك أعلى المنازل وأرفع الدرجات .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة ، من علم ، وعمل ، وإيمان ، وعقل ، ودين ، وبيان ، وعبادة ، وإنهم أولى بالبيان لكل مشكل ، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، وأضله الله على علم " .^(١)

وقد ساروا على نهج نبيهم حذو القُذَّة بالقُذَّة^(٢) لم ينحرفوا عنه ، ولم ينزلقوا منه ، بل ثبتوا عليه ثبات الجبال الرواسي ، فما زلزلتهم عنه الفتن ، وما حرقتهم عنه البدع ، وما أثرت فيهم الأهواء ، وما انتابتهم الشكوك والظنون ، بل ظلوا عنه مدافعين ، ولحوزته حاميين ، وبنصرته قائمين ، وقد شهد لهم بذلك رب العالمين في قرآنه المبين حيث قال سبحانه : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ^(٣) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۖ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ٢٣-٢٤] .

(١) مجموع الفتاوى : ١٥٨/٤ .

(٢) القُذَّة: ريش السهم ، وجمعها قُذَذٌ وقِذَاز . ومعنى : حَذَوِ القُذَّة بالقُذَّة : يعني كما تقدر كل واحدة منهن

على قدر صاحبها وتقطع . يضرب مثلاً للشئيين يستويان ولا يتفاوتان . لسان العرب : ٥٠٣/٣ . بتصرف .

(٣) قال الراغب (رحمه الله) : " التحب : التدر المحكوم بوجوبه ، يقال : قضى فلان نحبه : أي وفى بنذره ، قال

تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ۖ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] . ويعبر بذلك عمّن مات

كقولهم : قضى أجله ، واستوفى أكله ، وقضى من الدنيا حاجته . والتحب : البكاء الذي معه صوت .

والتحاب : السعال " . المفردات : ص : ٤٨٤ .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ قال : بعضهم : أجله ، وقال البخاري : عهده وهو يرجع إلى الأول : ... ﴿ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أي وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كفعل المنافقين ... ﴿ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أي بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظةهم عليه " (١) .

وقال الشوكاني (رحمه الله) في قوله : ﴿ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴾ :

" معطوفة على ﴿ صَدَقُوا ﴾ : أي ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله عليه كما غير المنافقون عهدهم ، بل ثبتوا عليه ثبوتاً مستمراً ، أما الذين قضوا نحبهم فظاهر ، وأما الذين ينتظرون قضاء نحبهم فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا ولم يغيروا ولا بدلوا " (٢) .

وقال ابن جرير (رحمه الله) في قوله : ﴿ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ :

" ليثبت الله أهل الصدق بصدقهم الله بما عاهدوه عليه ، ووفاءهم له به " (٣) .

فقد شهد الله لهم سبحانه بالثبات ومدحهم عليه ، ولو لم يكونوا كذلك ما أمر الله بسلوك سبيلهم ، والسير على منوالهم ، وتتبع خطاهم ، واتباع نهجهم في آية النساء الأنفة الذكر (٤) .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٧٥٧/٣ - ٧٥٩ .

(٢) فتح القدير : ٤ / ٢٧٢ .

(٣) جامع البيان : ١٤٨/٢١ .

(٤) هي الآية : ١١٥ .

ولما وجّه رسول الله ﷺ الأمة عند افتراق الفرق بلزوم ما كان عليه هو وأصحابه (١) .

بل جاءت أقوال سلف هذه الأمة الصّالح تدعوا إلى السّير على نهجهم وسلوك طريقهم من ذلك :

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

" كلّ عبادة لم يتعبّدها أصحاب رسول الله فلا تعبّدها ، فإنّ الأوّل لم يدع للآخر مقالاً ، فاتّقوا الله يا معشر القرّاء ، وخذوا طريق من كان قبلكم " . (٢)

وقال إبراهيم النخعي (رحمه الله) :

" لو أنّ أصحاب محمّد مسحوا على ظفر لما غسلته ، التماس الفضل في اتّباعهم " . (٣)

وقال الأوزاعي (رحمه الله) :

" اصبر نفسك على السنّة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكفّ عما كفّوا ، واسلك سبيل سلفك الصّالح ، فإنّه يسعك ما وسعهم " . (٤)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وإنّما دين الله ما بعث به رسله ، وأنزل به كتبه ، وهو الصّراط المستقيم ، وهو طريقة أصحاب رسول الله ﷺ ، خير القرون وأفضل الأمة ، وأكرم الخلق على الله تعالى بعد النّبیین " . (٥)

(١) سبق الحديث . انظر : ص : ٩٥ . من هذا البحث .

(٢) الباعث على إنكار البدع والحوادث . ص : ١٥-١٦ . وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنّة : ٩٠/١ . الإبانة

عن شريعة الفرق النّاجية : ٣٣٦/١ . الاعتصام : ٣٣٧/٢ .

(٣) المرجع السابق : ٣٦١/١ .

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنّة : ١٥٤/١ .

(٥) مجموع الفتاوى : ١٢٦/٣ .

وقال ابن أبي العز (رحمه الله) :

" ومضى على ما كان عليه الرسول ﷺ خير القرون ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان يوصي به الأول الآخر ، ويقتدي فيه اللاحق بالسابق ، وهم في ذلك كله بنبيهم محمد ﷺ مقتدون ، على منهاجه سالكون ، كما قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨] ^(١) .

وأقوالهم في ذلك كثيرة جداً ، وكلها تدعوا إلى لزوم منهج الصحابة ﷺ لأنه منهج الله ورسوله الذي ارتضاه الله لهذه الأمة ، وقد تمسك به الصحابة ﷺ وثبتوا عليه فنسب إليهم وعرف بهم .

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٦٨ . طبعة المكتب الإسلامي .

المبحث الرابع

شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله)

عرقه الإمام الذهبي (رحمه الله) فقال عنه :

" ابن تيمية الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البار ،
شيخ الإسلام ، علم الزهاد ، نادرة العصر ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي
شهاب الدين عبد الحلیم بن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن
عبد الله بن أبي القاسم الحراني ، أحد الأعلام ... عني بالحديث ، ونسخ الأجزاء ،
ودار على الشيوخ ، وخرج وانتقى ، وبرع في الرجال ، وعلل الحديث وفقهه ،
وفي علوم الإسلام ، وعلم الكلام وغير ذلك . وكان من بحور العلم ، ومن
الأذكياء المعدودين ، والزهاد الأفراد ، والشجعان الكبار ، والكرماء الأجواد ،
أثنى عليه الموافق والمخالف ، وسارت بتصانيفه الركبان " (١) .

وقد بلغ من العلم منزلة عظيمة شهد له بها معاصروه حتى قال عنه إمام
الجرح والتعديل أبو الحجاج المزني (رحمه الله) :

" ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله
وسنة رسوله ولا اتبع لهما منه " (٢) .

ويؤيد ذلك : ما نشر الله له من علومه في الآفاق ، وبهر بفنونه البصائر
والأحداق ، وملاً بمحاسن مؤلفاته الصّحف والأوراق (٣) .

(١) تذكرة الحفاظ : ١٤٩٦/٤ .

(٢) شذرات الذهب : ٨٤/٣ . وانظر تفاصيل ما تلقى وحفظ من العلوم في كتاب : الأعلام العلية في مناقب

ابن تيمية . لأبي حفص عمر بن علي بن موسى البزار . تحقيق : زهير الشاويش . طبعة المكتب الإسلامي .

بيروت . الطبعة الثالثة : ١٤٠٠هـ ص : ١٧-١٨ .

(٣) المرجع السابق : ص : ٧٧ .

بل اتفق أهل العقول السليمة أنه من المجتدين الذين يجتدون لهذه الأمة أمر دينها^(١) ، فقد أحيا الله به ما درس من شرائع الدين ، وأقام به الحجة ، وأوضح به المحجة ، ونصر به الحق ، وأذل به الباطل .^(٢)

وكان (رحمه الله) معظماً لرسول الله ﷺ جداً ، حريصاً كل الحرص على اتباعه ، ونصرة ما جاء به ، والذب عنه ، بل متى ما بلغه حديث عنه ﷺ عمل وأفتى به ولم يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان ، وهو القائل :
" كل قائل إنما يحتج لقوله لا به إلا الله ورسوله " .^(٣)

قال أبو حفص البزار (رحمه الله) :

" وإذا نظر المنصف إليه بعين العدل يراه واقفاً مع الكتاب والسنة لا يميله عنهما قول أحد كائناً من كان ، ولا يراقب في الأخذ بعلومهما أحداً ، ولا يخاف في ذلك أميراً ولا سلطاناً ولا سوطاً ولا سيفاً ، ولا يرجع عنها لقول أحد ، وهو متمسك بالعروة الوثقى ، واليد الطولى ، وعامل بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] . وبقوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠] . وما سمعنا أنه اشتهر عن أحد منذ دهر طويل ما اشتهر عنه من كثرة متابعتة للكتاب والسنة ، والإمعان في تتبع معانيهما والعمل

(١) عن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ قال : " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها " . سنن أبي داود : كتاب الملاحم : (٣٦) . باب ما يذكر في قرن المائة : (١) . برقم : (٤٢٩١) . قال

الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . ص : ٤٦٩ .

(٢) وانظر : الأعلام العلية : ص : ١٨-١٩ .

(٣) المرجع نفسه : ص : ٢٩ . بتصرف .

بمقتضاهما ، ولهذا لا يرى في مسألة أقوالاً للعلماء إلا وقد أفتى بأبلغها موافقة
للكتاب والسنة ، وتحري الأخذ بأقومها من جهة المنقول والمعقول". (١)

وقد كان (رحمه الله) له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ،
وأئمة المذاهب ، وهو يحتج لما صح منها بالكتاب والسنة ، ولا يفتي بمذهب
معين منها ، بل يفتي بما أيده الدليل . (٢)

وقد نصر مذهب السلف وأيده بالحجج الباهرة والبراهين النيرة بما لم يسبق
إليه ، ودافع عنه دفاعاً عظيماً ، وذكر أنه الحق الذي لا يعارض ولا يقاوم أبداً .
قال :

" وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور تبين له أن مذهب السلف والأئمة في
غاية الاستقامة والسداد والصحة والاطّراد ، وأنه مقتضى المعقول الصريح والمنقول
الصحيح ، وأن من خالفه كان مع تناقض قوله المختلف الذي يؤفك عنه من أفك
خارجاً عن موجب العقل والسمع ، مخالفاً للفطرة والسمع ، والله يتم نعمته علينا
وعلى سائر إخواننا المسلمين المؤمنين ، ويجمع لنا ولهم خير الدنيا والآخرة " . (٣)

وقال (رحمه الله) بعد أن ذكر أن الإيمان يزيد وينقص كما ثبت عن سلف
هذه الأمة . قال :

" وهذه الأمور كلّها إذا تدبّرهما المؤمن بعقله تبين له أن مذهب السلف هو
المذهب الحق الذي لا عدول عنه ، وأن من خالفهم لزمه فساد معلوم بصريح

(١) المرجع نفسه : ص : ٧٨-٧٩ .

(٢) وانظر : الرد الوافر لعماد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي . تحقيق : زهير الشاويش . طبعة المكتب

الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى : ١٣٩٣هـ : ص : ٧٠ .

(٣) مجموع الفتاوى : ٢١٢/٥ - ٢١٣ .

المعقول وصحيح المنقول كسائر ما يلزم الأقوال المخالفة لأقوال السلف والأئمة ،
والله أعلم " . (١)

وعندما سئل (رحمه الله) عن مذهب السلف مقارنة بغيره من المذاهب ،
وهل هو منتحل له ؟ فأجاب بما دلل به على صحة مذهب السلف ، وأنه الحق
الذي يجب على أهل الإسلام أن يلتزموه ، ولا ينحرفوا عنه ، وعلى بطلان قول
من خالفهم ، وحشد على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة ، وأقوال أهل العلم ،
وسأل ربه أن يجعله ممن يسلكونه . (٢) وأمر بإظهاره وبيانه للناس فقال :

" لا عيب على من أظهر مذهب السلف وانتسب إليه ، واعتزى إليه ، بل
يجب قبول ذلك منه بالاتفاق ، فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقاً ، فإن كان
موافقاً له باطناً وظاهراً فهو بمنزلة المؤمن الذي هو على الحق باطناً وظاهراً ،
وإن كان موافقاً له في الظاهر فقط دون الباطن فهو بمنزلة المنافق ، فتقبل منه
علانيته وتوكل سريره إلى الله ، فإننا لم نؤمر أن ننقب عن قلوب الناس ، ولا
نشق بطونهم " . (٣)

وقد نصّ (رحمه الله) في أكثر من موطن أنه موافق لمذهب السلف في جميع
ما ذهب إليه ، وأنه يمكنه أن يناظر من شاء على ذلك . (٤) ولذا كان يسوق الأدلة
والحجج التي يعضده بها ، وينصره على سواه من المذاهب . (٥)

(١) المرجع السابق : ٥٨٥/٧ . وأقواله في تأييد ذلك كثيرة جداً ، انظر على سبيل المثال لا الحصر . المرجع نفسه :

٢٦/٤ ، ١٧٢/٣٣-١٧٣ . درء تعارض العقل والنقل : ٢٠٣/١ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ٣-١/٤ .

(٣) المرجع السابق : ١٤٩/٤ .

(٤) انظر : المرجع السابق : ١٦٧/٣ ، ٢٠٧ ، ٣٨٩/١٦ ، ٤٥٥ . بيان تلبيس الجهمية : ٥٣/١ ، ٣٦/٢-٣٧ .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى : ٢١٦/١ ، ٢٤/٢ ، ٩٧ ، ١١٥/٦ ، ٢٩٠-٣٣٥ ، ٣٥٥ ، ١٦٠/١٣ ، ١٤/٣٠٩ .

درء التعارض : ١٠٧/٦ ، ٢٤٠/٩ الرد على المنطقيين ص : ٢٢٩ .

بل بين أنه كان يبالغ في البحث والتحرّي عنه ^(١) مع ما أعطي (رحمه الله) من معرفة عظيمة به ، ونفي ما نسب إليه عن طريق الخطأ ^(٢).

وقد واجه (رحمه الله) المبتدعة وأهل الأهواء على اختلاف نحلهم ، وتتوّع بدعهم مواجهات سافرة ، وحمل عليهم حملات صادقة ، كشف بها عوارهم ، وقشع ضلالهم بلسانه وبنانه ، لا تلين له معهم عريكة ، ولا يحجبه دونهم حاجب ، كأسد كاسر وبطل جاسر ، عرف بدعهم ففندها ، وضلالهم فأنهقه ، وهو القائل : " أنا أعلم كلّ بدعة حدثت في الإسلام ، وأوّل من ابتدعها ، وما كان سبب ابتداعها " ^(٣) وقد صدق (رحمه الله) .

وهذه كتبه مليئة بالردّ على طوائف المبتدعة ، ودحض شبههم ، حتّى قال عنه ابن قدامة المقدسي (رحمه الله) :

"وكان (رحمه الله) سيفاً مسلولاً على المخالفين ، وشجى في حلق أهل الأهواء المبتدعين ، وإماماً قائماً ببيان الحقّ ونصرة الدين ، وكان بحراً لا تكثره الذلاء ، وحبراً يقتدي به الأخيار الألباء ، طنت بذكره الأمصار ، وضنت بمثله الأعصار " ^(٤).

وقال أبو حفص البزار (رحمه الله) :

" وأما ما خصّه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعتهم ، وأهل الأهواء في أهوائهم ، وما ألّفه في ذلك من دحض أقوالهم وتزييف أمثالهم وأشكالهم ، وإظهار عوارهم وانتحالهم ، وتبديد شملهم وقطع أوصالهم ، وأجوبته

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٧٧/٣٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ٨٨/١٧ .

(٣) المرجع نفسه : ١٨٤/٣ .

(٤) العقود الدريّة من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية . لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي . تحقيق : محمد حامد الفقي . طبعة : دار الكتاب العربي . بيروت . ص : ٢٣ . وانظر قوله الآخر

عنه : ص : ١١١ .

عن شبههم الشَّيطَانِيَّة ، ومعارضتهم النَّفْسَانِيَّة لِلشَّرِيعَةِ الْحَنِيفِيَّةِ الْمَحْمَدِيَّة ، بما
منحه اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْبَصَائِرِ الرَّحْمَانِيَّةِ ، وَالذَّلَائِلِ النَّقْلِيَّةِ ، وَالتَّوْضِيحَاتِ
الْعَقْلِيَّةِ ، حَتَّى انْكَشَفَ قَنَاعُ الْحَقِّ ، وَبَانَ بِمَا جَمَعَهُ فِي ذَلِكَ وَأَلْفَهُ الْكَذِبُ مِنَ
الصِّدْقِ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَصْحَابَهَا أَحْيَاءُ ، وَوَقَّقُوا لِغَيْرِ الشَّقَاءِ لَأَذَعَنُوا لَهُ بِالتَّصْدِيقِ ،
وَدَخَلُوا فِي الدِّينِ الْعَتِيقِ " (١) .

فارتاع لذلك أهل البدع والأهواء ، وكشَّروا عن أنياب الحقد والبغضاء ،
وصبَّوا عليه أجام الغضب والعداء ، وأمطروه بوابل من الفتن والمحن والابتلاء ،
واتَّهموه بما هو منه براء ، واستعانوا على ذلك بسيئ العلماء ، وفساد الأمراء ،
وألَّبوا عليه العامَّة والذَّهماء ، والرَّعَاع والغوغاء ، وسلَّكوا في عدائه كلَّ سبيل
معوج لينالوا منه بغيتهم ، ويصلوا منه إلى غايتهم ، ولكنَّهم لم يبلِّغوا منه ما
يؤمِّلون ، ولم ينالوا منه ما يتمنَّون .

وقد بيَّن الحافظ أبو الفتح اليعمري (رحمه الله) في ترجمته له ما وقع له من
أعدائه من محن جمَّة ، وفتن مدلهمة ، وما لقي منهم من أنواع من الكيد مظلمة ،
وأحوال من الأذى مؤلمة ، فقال (رحمه الله) فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر
(رحمه الله) :

" برز في كلِّ فن على أبناء جنسه ، ولم ترعين من رآه مثله ، ولا رأت
عينه مثل نفسه ، كان يتكلَّم في التفسير فيحضر مجلسه الجَمُّ الغفير ، ويردون من
بحره العذب النَّمير ، يرتعون من ريع فضله في روضة وغدير ، إلى أن دبَّ إليه
من أهل بلده داء الحسد ، وألَّب أهل النَّظر منهم على ما ينتقد عليه من أمور
المعتقد ، فحفظوا عنه في ذلك كلاماً ، أو سعوه بسببه ملاماً ، وفوقوا لتبديعه
سهاماً ، وزعموا أنه خالف طريقهم ، وفرَّق فريقهم ، فنازعهم ونازعه ، وقاطع
بعضهم وقاطعه ، ثمَّ نازع طائفة أخرى ينتسبون من الفقر إلى طريقة ،

(١) الأعلام العلية : ص: ٣١-٣٢ .

ويزعمون أنهم على أدق باطن منها وأجلى حقيقة ، فكشف تلك الطرائق ، وذكر على ما زعم بوائق ، فأضت^(١) إلى الطائفة الأولى من منازعيه ، واستغاثت بذوي الضغن عليه من مقاطعيه ، فوصلوا بالأمرء أمره ، وأعمل كل منهم في كفره فكره ، فرتبوا محاضر ، وألبوا الرويضة للسعي بها بين الأكابر ، وسعوا في نقله إلى حضرة المملكة بالديار المصريّة ، فنقل وأودع السجن ساعة حضوره واعتقل ، وعقدوا لإراقة دمه مجالس ، وحشدوا لذلك قوماً من عمّار الزوايا وسكّان المدارس ، ما بين مجامل في المنازعة ، ومخاتل^(٢) بالمخادعة ، ومجاهر بالتكفير مباد بالمقاطعة ، يسومونه ريب المنون ، وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون ، وليس المجاهر بكفره بأسوأ حالاً من المجامل ، وقد دبّت إليه عقارب مكره ، فردّ الله كيد كلّ في نحره ، ونجّاه على يد من اصطفاه ، والله غالب على أمره ، ثمّ لم يخل بعد ذلك من فتنّة بعد فتنّة ، ولم ينتقل طول عمره من محنة إلا إلى محنة ، إلى أن فوّض أمره إلى بعض القضاء ، فتقلّد ما تقلّد من اعتقاله ، ولم يزل بمحبسه ذلك إلى حين ذهابه إلى رحمة الله وانتقاله ، وإلى الله ترجع الأمور ، وهو مطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور^(٣) .

(١) أضت: أي صارت ورَجَعَتْ من آضَ يَفِضُ أيضاً . انظر : لسان العرب : ١١٦/٧ .

(٢) الختل: تخادُع عن غفلة . ختلَه يَخْتَلُه و يَخْتَلِه خَتْلًا و خَتْلَانًا و خَاتَلَه: خَدَعَه عن غفلة . والمُخَاتَلَة: مَشْيُ الصَّيَادِ قَلِيلًا قَلِيلًا فِي خُفْيَةٍ لَعَلَّ يَسْمَعُ الصَّيْدَ حِسَّهُ، ثُمَّ جُعِلَ مَثَلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَرَى بَغْيِهِ وَسُتِرَ عَلَى صَاحِبِهِ . لسان العرب : ١٩٩/١١ . بتصرف . وانظر : مختار الصحاح : ص : ١٦٩ . القاموس المحيط : ص : ١٢٨١ .

(٣) الدّور الكامنة في أعيان المائة الثامنة . لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر أباد — الهند . الطبعة الثانية : ١٣٩٣هـ — ١٩٧٢م :

وقال الذهبي (رحمه الله) :

" وقد امتحن وأوذى مرّات ، وحبس بقلعة مصر والقاهرة^(١) والإسكندرية^(٢) وبقلعة دمشق مرّتين ، وبها توفي " .^(٣)

وهم في كلّ ذلك له ظالمون ، وفيما ادّعوه عليه كاذبون ، ولم يكن (رحمه الله) كما يزعمون ويفترون ، بل كان صافي المعتقد ، سليم المنهج ، معافى من البدع ، سالكاً للسبيل الأرشد والطريق الأحمد ، ناصراً للدين معضداً للحقّ ، قائلاً بالصدق ، لا يميل عن ذلك ولا ينثني .

قال أبو حفص البزار (رحمه الله) :

" ولم يزل المبتدعون ، أهل الأهواء وآكلوا الدّنيا بالدين متعاضدين متناصرين في عدوانه ، باذلين وسعهم بالسّعي في الفتك به ، متخرّصين عليه بالكذب الصّراح ، مختلفين عليه وناسبين إليه مالم يقله ولم ينقله ، ولم يوجد له به خطّ ، ولا وجد له في تصنيف ولا فتوى ، ولا سمع منه في مجلس " .^(٤)

بل عقدوا له مناظرة بأمر من السلطان في أمر الاعتقاد لما سعى إليه قوم من الجهميّة والاتحاديّة^(٥) والرافضيّة وغيرهم من ذوي الأحقاد ، واستعانوا بمن شاعوا من

(١) القاهرة : هي مدينة مصر العظمى ، أول من أحدثها جوهر غلام المعز ، وهي عاصمة مصر اليوم وأكبر مدنها .

انظر : معجم البلدان : ٣٠١/٤ .

(٢) الإسكندرية : مدينة عظيمة مشهورة بشمال مصر على البحر الأبيض ، اختلفوا في أوّل من أنشأها على أقوال

كثيرة ، أشهرها أنّه الإسكندر ، ولذا سُميت على اسمه . وقيل : هي إرم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم . فتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه سنة عشرين من الهجرة النبوية . وانظر : معجم البلدان : ١٨٣/١ - ١٨٩ .

(٣) تذكرة الحفاظ : ١٤٩٧/٤ .

(٤) الأعلام العلية : ص : ٧٣ .

(٥) الاتّحاديّة : هم القائلون بوحدة الوجود . أي ليس في الكون إلّا الله ، وأنّ وجود المخلوقات عين وجود الخلق ، فلا فرق بين الخالق والمخلوق . فمن عبد كلّ شيء عبد الله . فحقيقة الرّبّ هو الوجود بعينه . تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً .

و انظر : بيان تلبيس الجهميّة : ١/ ٤٥٢ . ٩٦/٢ ، ١٨٩ ، ٣٨٠ ، ٥٢٥ . الصّواعق المرسلة : ٣ / ٨٦٣ ،

١٠٨٥ / ٤ ، ١٢١٣ ، ١٣١٢ .

علمائهم ، وجمعوا كيدهم وشبههم للنيل منه ، والطعن فيه ، فأبان لهم الاعتقاد المأخوذ من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ، في أبواب الصفات والقدرة ومسائل الإيمان والوعيد والإمامة والتفصيل^(١) ، وناظرهم وناظروه ، ودحض شبههم ، وقطع حججهم ، وقال لهم مرات وكررات : " قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين ، فإن جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي ﷺ حيث قال : " خير القرون القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " .^(٢) يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك ، وعليّ أن أتى بنقول جميع الطوائف عن القرون الثلاثة توافق ما ذكرته من الحنفية والمالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، والأشعرية^(٣) ، وأهل الحديث ، والصوفية^(٤)

(١) المراد بالتفصيل : ترتيب الخلفاء الراشدين الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة . انظر : شرح العقيدة الطحاوية :

ص : ٤٩٥ . طبعة وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية .

(٢) الحديث سبق تخريجه ص : ٢٤٠ .

(٣) الأشعرية : ينتسبون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الذي كان معتزلياً ، ثم أنشأ المذهب الأشعري لما التقى بعد الله بن كلاب ، ثم رجع منه إلى مذهب السلف مع بقاء بعض المخالفات عنده . ولكن أتباعه ظلوا على مذهبه .

وهم يثبتون لله سبعة صفات يسمونها صفات المعاني وهي : العلم والقدرة والحياة والإرادة والكلام النفسي والسمع والبصر . ويؤولون سائر الصفات . والإيمان هو التصديق بالجنان ، وأما القول باللسان والعمل بالأركان ففروعه . وقالوا : إن فعل العبد خلق من الله إبداعاً وإحداثاً وكسباً من العبد . وزعموا أن القرآن حكاية أو عبارة عن كلام الله لا أنه كلام الله . والأشعرية اليوم كثر في العالم الإسلامي ، بل كثير من بلاد الإسلام تقرر المذهب الأشعري في مناهجها التعليمية ظناً منها أنه الحق . والحق ما كان عليه سلف الأمة بلا مرية .

و انظر : الملل والنحل : ١٠٣-٩٤/١ . بيان تلبيس الجهمية : ٣٩٩/٢ . شفاء العليل : ص : ٢١٩ .

(٤) الصوفية : أخذت من التصوف الذي هو حركة دينية بدأت كردة فعل مضاد للانغماس في الترف ، مما حمل بعضهم على الزهد الذي تطور حتى خرج ببعضهم عن حد الشرع ، وتلمسوا من خلاله الوصول إلى معرفة الله عن طريق الكشف والمشاهدة دون استدلال ، مما جنح ببعضهم في المسار إلى أن تداخلت طريقتهم مع فلسفات هندية وفارسية ويونانية وغير ذلك ، وأشربوا عقائد باطلة كالحلول والاتحاد والفناء ، وأن الدين له حقيقة وشرعية . وزعم بعضهم برفع التكاليف عنه . ولكثير منهم غلو في الأشخاص والقبور والأضرحة ، مما أوقعهم في الشرك بالله تعالى . كما يغالون في شأن الكرامات التي بها يعرف عندهم أهل الصلاح . وهم مدارس مختلفة وفرق متنوعة منتشرة في بقاع العالم الإسلامي . وقد عان الإسلام منهم كثيراً .

وغيرهم " (١).

وهذا يدل على ثقته بنفسه وما هو عليه من الحق ، كما يدل على ثباته وصلابته في دين الله تعالى ، فقد كان (رحمه الله) كما قال ابن عبد الهادي (رحمه الله) : " وهو في ذلك ثابت الجأش ، قوي القلب ، واثق بالنصر الإلهي ، لا يلتفت إلى نصر مخلوق ولا يعول عليه " (٢).

بل كان من أعظم أهل عصره قوة ومقاماً وثبوتاً على الحق ، وتقريباً لتحقيق توحيد الحق ، لا يصده عن ذلك لوم لائم ولا قول قائل ، ولا يرجع عنه حاجة محتج ، بل كان إذا وضع له الحق يعرض عليه بالنواجذ ، ولا يلتفت إلى مباين معاند (٣).

قال الحافظ الذهبي (رحمه الله) : فيما نقله عنه ابن ناصر الدين (رحمه الله) :

" ولقد نصر السنة المحضة ، والطريقة السلفية ، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها ، وأطلق هو عبارات أحجم عنها الأولون والآخرين وهابوا ، وجسر هو عليها حتى قام عليه من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه ، وبدعوه ، وناظروه وكاتبوه ، وهو ثابت لا يدهن ولا يحابي ، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده ، وحدة ذهنه ، وسعة دائرته في السنن والأقوال مع ما اشتهر منه من الورع وكمال الفكر ، وسعة الإدراك ، والخوف من الله العظيم ، والتعظيم لحرمان الله ، فجرى بينه وبينهم حملات حربية ،

و انظر : مقالات الإسلاميين : ص : ١٣-١٤ . ٢٨٨-٢٨٩ . ٤٣٨-٤٣٩ . التعرف للمذهب أهل التصوف

لأبي بكر محمد الكلاباذي . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . ١٤٠٠هـ : ص : ٢١ فما بعدها . اعتقادات

فرق المسلمين والمشركون : ص : ٧٢-٧٤ . مدارج السالكين : ١٥٤/١ . ٣٦٦/٢ ، ٣٦٧ ، ٤٦٨ . الموسوعة

الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : ص : ٣٤١-٣٥٣ .

(١) مجموع الفتاوى : ١٦٩/٣ . عرفت هذه المناظرة بالمناظرة في الواسطية وهي ضمن الجزء الثالث من مجموع الفتاوى .

(٢) العقود الدرية : ص : ٢١٨ .

(٣) الأعلام العلية : ص : ٧٥ . بتصرف يسير .

ووقعات شاميّة ومصريّة ، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجّيه الله تعالى ، فإنّه دائم الابتهاال ، كثير الاستعانة ، قويّ التوكّل ، ثابت الجأش " . (١)

وظلّ على ذلك (رحمه الله) إلى أن توفاه ربّه سبحانه وهو ثابت صابر محتسب راضٍ شاكر. (٢)

وأذيل هذه السيرة العطرة لشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) بمدح وثناء بعض العلماء المخالفين له ، والذين أقرّوا بفضلهم مع عداوتهم له ، ليقف على ذلك من جهل مقامه ، وعابه واتّهمه بما هو بريء منه .

قال كمال الدين بن الزمّلكاني (٣) :

" سيّدنا وشيخنا وقدوتنا الشيخ الإمام العالم العلامة الأوحد البارع الحافظ الزّاهد الورع القدوة الكامل العارف ، تقيّ الدين ، شيخ الإسلام ، سيّد العلماء ، قدوة الأئمّة الفضلاء ، ناصر السنّة ، قانع البدعة ، حجة الله على العباد ، رادّ أهل الزيغ والعناد ، أوحد العلماء العاملين ، آخر المجتهدين ... حفظ الله على المسلمين طول حياته ، وأعاد عليهم من بركاته ، إنّه على كلّ شيء قدير " . (٤)

(١) الرّد الوافر : ص: ٧٠-٧١ .

(٢) انظر : الأعلام العليّة : ص: ٧٥ .

(٣) محمّد بن علي بن عبد الواحد ، كمال الدين أبو المعالي الأنصاري الدمشقي ، الشافعي ، ابن خطيب زمّلكا ، المعروف بابن الزمّلكاني . له عناية بالحديث والفقه والأصول والتّحقيق . تولّى قضاء حلب ، وعمل بالتّدريس والإفتاء ، وانتهت إليه رئاسة المذهب . وله بعض المصنّفات . توفي سنة ٧٢٧هـ .

و انظر : العبر : ٨٢/٤ . طبقات الشافعيّة الكبرى : ١٩٠/٩ . البداية والنهاية : ١٣١/١٤ . الدرر الكامنة : ٣٢٨/٥ . التحوم الزّاهرة : ٢٧٠/٩ . شذرات الذهب : ١٤٠/٨ . الأعلام : ٢٨٤/٦ .

(٤) الرّد الوافر : ص: ١٠٤ .

وكتب تقي الدين السبكي ^(١) إلى الحافظ الذهبي في أمر الشيخ ما يلي :

" فالمملوك يتحقق قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وأنه بلغ من ذلك كل المبلغ الذي يتجاوزه الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل ، مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه الخ " . (٢)

وأشدد أثير الدين أبو حيان النحوي ^(٣) في مدحه لما دخل شيخ الإسلام مصر واجتمع به :

لما رأينا تقي الدين لاح لنا داع إلى الله فرداً ماله وزر

(١) هو علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام ، تقي الدين أبو الحسن السبكي ، الأنصاري ، الشافعي ، برع في كثير من الفنون ، وتولى قضاء الشام . وله تحقيقات واستنباطات قيمة في الفقه . وردود بينه وبين شيخ الإسلام ابن تيمية في شد الرحال لزيارة قبر النبي ﷺ ، وطلاق الثلاث . وله مصنفات عدة منها : شفاء السقام في زيارة خير الأنام . الاعتبار ببقاء الجنة والنار . مجموعة فتاوى . توفي سنة : ٧٥٦هـ . بمصر .
وانظر : طبقات الشافعية الكبرى : ١٣٩/١ . ذيل العبر . للذهبي والحسيني . تحقيق : أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . : ١٦٨ / ٤ . ذيل تذكرة الحفاظ . لأبي المحاسن محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني . تحقيق : حسام الدين القدسي . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت : ٣٩/١ . طبقات الشافعية لأبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة . تحقيق : د. الحافظ عبد العليم خان . طبعة : عالم الكتب . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٧هـ : ٣٧/٣ . التجوم الزاهرة : ٣١٨/١٠ . طبقات الحفاظ : ٥٢٥/١ . شذرات الذهب : ٣٠٨/٨ . الأعلام : ٣٠٢/٤ .

(٢) شذرات الذهب : ١٤٦/٨ .

(٣) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي الجبالي التفري ، أثير الدين أبو حيان النحوي . من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات . له تصانيف كثيرة . منها : كتابه في التفسير : البحر المحيط . توفي سنة : ٧٤٥ .

وانظر : العبر : ١٣٤/٤ . طبقات الشافعية الكبرى : ٢٧٦/٩ . الدرر الكامنة : ٥٨/٦ . التجوم الزاهرة : ١١١/١٠ . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني . تحقيق : د. إحسان عباس . طبعة : دار صادر . بيروت . ١٩٦٨م : ١٠٠٩/٢ . شذرات الذهب : ٢٥١/٨ . الأعلام : ١٥٢/٧ .

على محيّا من سيما الأولى صحبوا خير البريّة نور دونه القمر
حبر تسربل^(١) منه دهره حبراً بحرأ تقاذف من أمواجه الدر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا مقام سيّد تيم إذا عصت مضر^(٢)
فأظهر الدين إذا آثاره درست وأحمد الشّرك إذا طارت له شرر
يا من تحدّث عن علم الكتاب أصخ هذا الإمام الذي قد كان ينتظر^(٣).
وأما من أثنى عليه من محبيه فذلك مقام يطول ذكره ، ولا يتأتّى حصره ،
وقد اكتفيت بمن ذكرت من أقوال مبغضيه ليتحقّق للجميع فضله ، ويعلم ثباته ،
ويُبان لكلّ أمره ، ويقف الجاهلون على قدره ، فيُحمد ذكره ، ويُعرف حاله ،
ويُنشر خبره ، ويُسلّك سيره ، ويُصبر صبره ، وقديماً قيل: والفضل ما شهدت
به الأعداء .

(١) السّرْبَال : القَمِيص والدرْع ، وقيل: كُلُّ ما لُبِسَ فهو سِرْبَالٌ ، وقد تَسَرَّبَلَ به ، سَرَّبَلَهُ إِيَّاه ، سَرَّبَلْتُهُ فَتَسَرَّبَلَ
أي ألبسته السّرْبَالَ . لسان العرب : ٣٣٥/١١ . و انظر : مختار الصحاح : ص : ٢٩٣ . القاموس المحيط : ص :
١٣١١ .

(٢) سيّد تيم :

يعني أبا بكر الصديق ﷺ لأنّه من بني تيم بن مرّة . و انظر : الإصابة : ١٦٩/٤ .

مُضَر :

قبيلة عظيمة تنسب إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، كانت ديارهم بالحجاز حول الحرم ولهم ملك مَكَّة ،
فلما كثروا نزحت بطون منهم إلى العراق والجزيرة وغيرها . وانظر : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة :

١١٠٧/٣ . معجم قبائل الحجاز : ٤٦٣/٣ .

(٣) شذرات الذهب : ١٤٥/٨-١٤٦ . وأصخ : أي استمع . انظر : مختار الصحاح : ص : ٣٧٣ . لسان العرب :
٣٥/٣ .

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي): الأمين الصادق الأمين محمد كلية : الدعوة وأصول الدين ... قسم : الكتاب والسنة .
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه ... في تخصص : الكتاب والسنة
عنوان الأطروحة : ((الثبات على دين الله وأثره في حياة المسلم في ضوء الكتاب والسنة))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ : ٣ / ٣ / ١٤٢٣ هـ -
بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة
للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المناقش الخارجي :	المناقش الداخلي :	المشرف :
الاسم : د / فهد عبد الرحمن الرومي	الاسم : د / محمد عبد المولى جمعة	الاسم : د / أمين محمد عطية باشا .
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم : الكتاب والسنة
الاسم : د / مطر بن أحمد الزهراني
التوقيع :

١٤٢٣ / ٣ / ٢١ هـ